

الفاروق ع

الفاروق ع

جَعَلَ اللَّهُ الْخَيْرَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَقَلْبَهُ
حَدِيثُ شَرِيف

محمد بن عبد الله

الجزء الأول



مطبع النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لا سيما بها حسن بن محمد وأولاده
وشارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٦٣

جميع الحقوق محفوظة

فهرس الكتاب

صفحة

تقديم

عمر والإمبراطورية الإسلامية — العوامل التي أقامت الإمبراطورية — عمر ونظام
الإمبراطورية — جهد المؤرخ لعهد عمر — الحياة فـسكرة أولاً وقبل كل شيء — الحرية
الفكرية وكرامية الاختلاف في الإسلام — سياسة عمر مع عماله ومع رعيته — التاريخ
السياسي لنشأة الإمبراطورية هو الغرض الأساسي من هذا الكتاب .

الفصل الأول — عمر في جاهليته

سوق عكاظ — صورة لعمر الشاب في السوق — طريقة تفكيره لذلك العهد — قبيلة عمر ٢٣
ومكانها من قبائل مكة — والد عمر — زيد بن عمرو واعتزاله عبادة الأوثان — طهولة
عمر وصباه — حذق عمر المصارعة وركوب الخيل والفروسية — أزواج عمر — نقادة عمر —
تعصب عمر لدين قومه — خصومة عمر للإسلام في عهده الأول .

الفصل الثاني — إسلام عمر

الروايات في سبب إسلامه — الرواية المسندة إلى عمر نفسه — حرض عمر على نظام قومه ٤١
ومكانة بلدهم — كيف اهتدى عمر فأسلم ؟ عمر يعلن الإسلام وينافح عنه .

الفصل الثالث — عمر في صحبة النبي

خصومة عربش والمسلمين — موقف عمر بمكة وهجرته إلى المدينة — عمر والأذان ٥٣
للصلاة — عمر في غزوة بدر ورأيه في أسراها — عمر في غزوة أحد — اجتهاد عمر
في عهد النبي — عمر ونعيم الجـر — عمر ونساء النبي — جعل الله الحق على لسان عمر
وقلبه — أخلاق عمر — جزعه لوفاة النبي .

الفصل الرابع — في عهد أبي بكر

عمر في سقبة بني ساعدة — سياسة أبي بكر وسياسة عمر — موقف عمر من الردة ٧٤
والمرتدين — وموقفه من بـث أسامة — وعن خالد بن الوليد — عمر يشيد بجمع القرآن —
عمر وفتح الشام — عمر ونظام الطبقات — أبو بكر يستخلف عمر .

الفصل الخامس — عمر بعد فتح عهده

بيعة عمر وانتدابه المسلمين للذهاب إلى العراق — أمره برد السي إلى عشائهم — خطبته ٩١
الأولى — تردد المسلمين هبة لافارس — أبو عبيد الثقفي أول منتدب للعراق وأمير الجند فيه —
عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وسببه — إحلاء نصارى نجران عن ديارهم — تلقب
عمر أمير المؤمنين .

الفصل السادس - أبو عبيدة والثنى في العراق

الثنى في طريقه إلى الحيرة - سير أبي عبيدة إلى العراق وانتصاره على الفرس بالنمارق ١٠٨ والسقاطية - الفرس يسيرون لاثار - غزوة الجسر ومقتل أبي عبيدة بها - هزيمة المسلمين فيها - تحصن الثنى ومعاونة الفباطل له ولمداد عمر لياه - مسيرة الفرس للاقاء المسلمين - غزوة البويب وانتصار المسلمين الحاسم فيها ومغانمهم منها - ما تدل عليه غزوة البويب - عضلة للثنى ومكانه في التاريخ الإسلامى .

الفصل السابع - فتح دمشق وتطهير الأردن

عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيش - أبو عبيدة وخالد بن الوليد يسيران إلى دمشق - ١٢٩ موقع دمشق وعمارتها ولبن العيش فيها - المسلمون يحاصرون دمشق ويهاجمونها - هل فتحت دمشق عنوة أم صلحاً - الخلاف على صلح دمشق - غزوة حُل وانتصار المسلمين فيها - مصالحة أهل طبرية - صلح أهل أذرعات وعمان وجرت ومآب وبصرى - سير هاشم بن عتبة في جيش العراق إلى القادسية .

الفصل الثامن - القادسية

استعاب الثنى بن حارثة إلى ذى قار على تخوم بادية العراق - إعداد عمر للعود إلى العراق ١٥٠ وغزوه - تميم سعد بن أبي وقاص - مسيرة سعد وبلوغه شراف وزواجه من سلمى أرملة الثنى بن حارثة - اتصال عمر الدائم بقوات الغزو ومتابعته مراحلها - افتتاح المسلمين العذيب وبلوغهم القادسية - تبادل الرأي بين يزيد جرد وقائده الأكبر رسم في لقاء المسلمين - وفد المسلمين إلى يزيد جرد وحوارهم معه - مسيرة رسم إلى القادسية - تطير رسم من دلالات النجوم - معركة القادسية كيف بدأت - مرض سعد بن أبي وقاص من أرها - التفات الجيشين - يوم أرمات وفتك القبيلة فيه بالمسلمين - يوم أغوات وقتال الاتحاق بن عمرو وأبي شجى الثنى - ليلة الهدأة - يوم عمارس وليلة الهيرير - اليوم الحاسم وانتصار المسلمين المؤزر فيه - جسامه منافع القادسية - أثر القادسية في قيام الإمبراطورية - سر القادسية وعبرتها .

الفصل التاسع - فتح المدائن

فرار الفرس من القادسية إلى أطلال بابل - هزيمتهم أمام المسلمين - سير المسلمين من بابل ١٨٨ إلى المدائن في سواد العراق - وقوف المسلمين أمام بهرسير وحصارهم - فتحهم بهرسير ووقوفهم على شاطئ دجلة - أبيض كسرى - المعجزة في اجتياز دجلة - فرار يزيد جرد إلى حلوان ونزول قصر الأكاسرة - جسامه مقام المدائن - عمر وسعد ويزيد جرد .

الفصل العاشر - المسلمون في العراق

الدول التي نزلت العراق - مقام المسلمين بالمداين - اجتماع الفرس بجولاء - سير هاشم ٢٠٥ ابن عتبة إليهم وحصاره ليأثم وظفره بهم - موقف عمر من غزو فارس بعد العراق -

صفحة

سياسة عمر في العراق — ترك الحكم الداخلي لأهله على أن يقيموا العدل بإشراف المسلمين —
بناء الكوفة والبصرة وجعلهما مساحاً للمسلمين — إصلاح العراق لزيادة إنتاجه — أثر السياسة
العمرية في حياة العراق .

الفصل الحادي عشر — مهلة هرقل عن سورية :

سير أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد من دمشق إلى حمص — التقاؤهما بالروم عند ٢٢٦
مرج الروم وظفروا بهم — حصار حمص وصلحها والسير منها إلى أنطاكية — خالد بن الوليد
يفتح قنسرين — أنطاكية : تاريخها وموقعها ومقاومتها حصار المسلمين — تسليم أنطاكية
وصلحها — هرقل يودع سورية الوداع الأخير — السر في اندحار هرقل أمام المسلمين —
سياسة المدينة وأثرها — قصة جبلة بن الأيهم بالمدينة وموقف عمر منه ومصيره .

الفصل الثاني عشر — عمر في بيت المقدس :

قوات العرب والروم بفلسطين — موقعة إجنادين وظفر المسلمين بالروم فيها — انسحاب ٢٤٦
الأطربون إلى بيت المقدس — موقع بيت المقدس ومنعة حصونها — حصار بيت المقدس
والقائد الذي تولاه — سير عمر من المدينة إلى الحامية — رسل صفريوس إلى عمر وصلحه
معه — دخول عمر المسجد الأقصى — اعتذار عمر عن الصلاة بكنيسة انقيامة وسببه —
تسامح عمر مع أهل بيت المقدس — عود عمر إلى المدينة واستقباله بها .

الفصل الثالث عشر — مهلة خالد بعد إخضاع الشام

الروم يحصرون أبا عبيدة بحمص — الإمبراطورية الناشئة تتحرك لنصرتها — تغلبه على ٢٦٤
عدوه قبل أن يبلغ عمر الحامية — شمال الشام يخضع كله للمسلمين — عمر يتهم خالد بن الوليد
وبأمر بيزله — لاهانه خالد في تنفيذ الأمر بالزل — موقف خالد بعد هذه الإهانة — خالد يسير
إلى المدينة ويلقي عمر بها — موقف المسلمين بالمدينة من عزل خالد — موت خالد وحزن عمر
والمسلمين عليه — رأينا في عزل خالد وسببه .

الفصل الرابع عشر — المجاعة والوباء :

سبب المجاعة في بلاد العرب — كيف عالج عمر المجاعة ؟ — إمداد بلاد العرب من الشام ٢٨٧
والعراق — آثار المجاعة في بلاد العرب — سياسة عمر كما يجاها تصرفاته في المجاعة —
طاعون عمواس وشدة فتكه — أفراراً من قدر الله ياعمر ! — عمر يحاول استخراج
أبي عبيدة من الوباء — علة الوباء في رأى المتأخرين وفي رأى المتقدمين — موت أبي عبيدة
وغيره من كبار المسلمين في الطاعون — زوال الوباء وانتقال عمر إلى الشام — القدرية
الإسلامية في نظر عمر وفي نظر أبي عبيدة — الحرية العقلية والإسلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

تقديم

ليس في التاريخ الإسلامي ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجل تُرَدَّدُ الألسنُ اسمه ما تُرَدَّدُ اسم عمر بن الخطاب . وهى تُرَدِّده وتقرن به ، في إعجاب وإكبار ، ما عُرف عن عمر من جليل الصفات وعظيم المواهب . فإذا ذُكِرَ الناس الزهد في الدنيا مع القدرة على النهل من أنعمها ذكروا زهد عمر . وإذا ذُكِرُوا العدل المطلق غير مشوب بشائبة ذكروا عدل عمر . وإذا ذُكِرُوا النزاهة لا يفرق صاحبها بين أقرب الناس إليه وأبعدهم عنه ذكروا نزاهة عمر . وإذا ذُكِرُوا العلم والفقه في الدين ذكروا فقه عمر ودينه . وأنت تتلو من أنباء ذلك في الكتب ما تحسب الكثير منه مبالغة لا يكاد العقد يصدقها ؛ فهي أدنى إلى المعجزات التي تنسب إلى الأنبياء منها إلى ما عُرف عن أكبر العطاء سموًا وجلال قدر .

ويرجع ذلك إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية في عهده . فقد خلف عمر أبا بكر على إمارة المؤمنين حين فرغ أبو بكر من حروب الردة ، وحين كانت جنود المسلمين تواجه الفرس والروم على تخوم العراق والشام . فلما قبض عمر كانت الإمبراطورية الإسلامية قد اشتملت العراق والشام جميعًا ، وقد تحطمتا فاشتملت فارس ومصر . بذلك بلغت حدودها الصين من الشرق ، وإفريقية من الغرب ، وبحر قزوين من الشمال ، والسودان من الجنوب . وقيام هذه الإمبراطورية العظيمة في عشر سنوات معجزة لا ريب . والمعجزة أعظم قدرًا بعد أن تحطمت فارس والروم والإمبراطوريتان صاحبتا السلطان على عالم يومئذ ، وتحطمتا بأيدي العرب الذين كانوا إلى سنوات قبلها قبائل متنافرة لا تهدأ منازعاتها ولا تطمئن فيما بينها إلى قرار .

أما وقد تمت هذه المعجزة في عهد عمر وبتوجيهه فهو ، لا جرم ، رجل عظيم . وقد بدت بوادر هذه العظمة في عهد رسول الله وفي عهد أبي بكر ، ثم ضاعف نصر المسلمين من بعدها قدرها ، كما زادها مرة العصور وأضاف إليها . فقد تبين الناس على تعاقب الأجيال أن هذه الإمبراطورية لم تكن وليدة عبقرية حربية تبقى الإمبراطورية ما بقيت وتزول بزوالها ، بل كانت قائمة على أساس قوى من خلق متين وحضارة سليمة الأساس .

فإذا صبح أن بُشيد الناس بعظمة يوليوس، قيصر والإسكندر الأكبر وچنكزنخان ونابليون
لأنهم أقاموا من الإمبراطوريات ما أقاموا ، فأخبر بهم أن يكونوا أكثر إشادة بعظمة
عمر بن الخطاب وأكبر قدراً لآثارها .

تمت المعجزة بقيام الإمبراطورية الإسلامية في عهد عمر . فقد كان المسلمون ، إلى
يوم استُخلف ، يخشون الفرس والروم ، ولذلك اتَّاقلوا حين ندهم عمر للذهاب إلى العراق
يواجهون الفرس فيه . وكان لهم من العذر عن ثقافتهم أن كان اسم فارس لا يزال يزلزل
القلوب والأسماع ، وكان جند المسلمين قد جلوا عن العراق بعد ذهاب خالد بن الوليد إلى
الشام بأمر أبي بكر . وأقام الناس على ثقافتهم أياماً ، ثم لبى أبو عبيد الثقفي دعوة عمر
وذهب في بضعة آلاف يلقي جنود كسرى ، فنكسب في غزوة الجسر إذ مات وانهزم جيشه .
ولم تزعزع هزيمته من عزيمة عمر ، بل زادت إقداماً ودفعته لينهض بنفسه على رأس
المسلمين يريد مواجهة الفرس ليمحو عار تلك الهزيمة . وقد كان فاعلاً لولا أن صرفه
أولو الرأي عما أراد . عند ذلك أرسل سعد بن أبي وقاص مكانه . وظفر سعد بالفرس
في غزوة القادسية ظفراً حاسماً ؛ ففتح له أبواب عاصمة الفرس ، وفتح المسلمين أبواب فارس
جميعاً . وفي هذه الأثناء كان أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد يسيران مظفرين
في الشام ، يردان هرقل جاهل الروم على أعقابهِ ، ويدفعانه دفعاً ليفر إلى عاصمة ملكه .
تمَّ ذلك ولما تنقض من خلافة عمر سنتان . ومن يومئذ حالف النصر أعلام المسلمين
حيثما ساروا ، ففتحوا للدائن وفتحوا بيت المقدس ، ثم تخطوا العراق إلى فارس ، وتخطوا
الشام إلى مصر فاستقر لهم الأمر فيها . وكذلك شاد عمر الإمبراطورية الإسلامية في عشر
سنوات لتستقر في العالم ، وتوجه حضارته الأجيال والقرون .

أليس من حق عمر ، وذلك شأنه ، أن تردّد الألسن اسمه ، وأن تذكر من جليل
صفاته وعظيم مواهبه ما يثير في النفس غاية الإعجاب والإكبار ! .

وهذا الإكبار يدعونا لتحجيز التاريخ وتحقيق وقائعه ، حتى نستكشف العوامل التي
أتاحت لعمر تشييد الإمبراطورية . فلولا أن تضافرت عوامل عدّة لما كفت عبقريته
بوحدها لتشيدها .

وقيام الإسلام أول هذه العوامل وأقواها . فالإسلام هو الذى وحد العرب بعد شتات ، وجعل من قبائلهم المتنافرة أمة متضافرة ، ودفعهم لإذاعة تعاليمه وإعلاء كلمته ودفع من يريدون فتنه الناس عنه .

فقد كان العرب قبل إسلامهم ضعافاً أمام الفرس والروم وكانت مناطق كثيرة من بلادهم خاضعة لنفوذ كسرى ونفوذ قيصر . فلما أسلخوا أسرع هذا النفوذ إلى الزوال عن شبه الجزيرة كلها . مع ذلك ظلت هيبة الفرس والروم آخذة بنفوسهم ، حتى لقد حسبوا ، حيناً دُعوا لغزو العراق ولغزو الشام ، أن حصونهما لا تؤخذ ، وأن جنودهما لا تقهر . لكنهم لم يلبثوا ، حين تخطوا التخوم وواجهوا هذه الجيوش وحاصروا هذه الحصون ، أن تبينوا أن السوس نخرها ، فهي كالجدار المتداعى ، تنقض أعاليه لأول صدمة ، وتندك أسسه ما وجدت المعول القوى الذى يأتى عليها من القواعد .

وإنما قدر العرب بعد إسلامهم على الفرس والروم ، لأن الإسلام أنشأهم نشأة جديدة ، وبث فيهم روحاً أحالتهم خلقاً جديداً . ذلك بأنه اقتحم على نفوسهم مناطق عقائدها وعباداتها ، واتصل بوجدانهم فى صميمه ، فألقى فيه بذرة التوحيد صافية الجوهر ، نقية من كل شائبة ، بسيطة لذلك كل البساطة . ثم إنه فرض عليهم من العبادات ما زادهم بالتوحيد إيماناً وما ربط بين قلوبهم بأوثق رباط . فرض عليهم الصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ فأما ما وراء ذلك من سالف شعائرهم فقضى عليه إلى غير رجعة . بذلك تحررت نفوسهم من قيود الوهم ، وتطهرت قلوبهم من رجس الوثنية ، وشعر كل واحد منهم بأنه لا حجاب بينه وبين الله ما عمل صالحاً وأجاب داعى الله .

ولم يفرض الإسلام هذه العبادات على أنها شعائر رسمية من شأن الدولة ، بل هى فروض الله على المؤمنين به يُثنى بهم عنها ، ويؤاخذهم بتركها . فمن آمن بالله ثم لم يؤد لله فرضه فعلى الله حسابه ، ومن أدّى فرض ربه وعمل صالحاً فله عند الله مثوبة الصالحين ، وأعظم بها من مثوبة ! .

أخذ هذا الإيمان بمجامع القلوب لجمع بينها ، فانتقل أثره من الفرد إلى الجماعة . وما كان أعظم هذا الأثر ! كان المسلمون يجتمعون للصلاة ، فيربط اجتماعهم بينهم ، ويمحو

توجههم إلى ما في نفوسهم من غِلٍّ ، فإذا هم إخوة يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه . ويؤدُّون فريضة الصوم فإذا غنيهم وفقيرهم سواسية أمام الله والناس ، وإذا غنيهم طهر الصوم نفسه يعطف على فقيرهم فينال رضا الله عنه ومثوبته له . ويؤتُونَ الزكاة قزِيل ما بين طوائفهم من نضال ؛ لأنها تجعل للفقير حقاً معلوماً في مال الغني . ويجمعهم الحج كل عام من مختلف بقاع الأرض ، ليتواصوا بالصبر والصلاة ، وليتعاونوا على البر والتقوى . وكان النظام الاجتماعي الذي سنّه الإسلام بسيطاً كالنظام الروحي ، فكان له مثل أثره في توحيد الجماعة العربية . كانت المساواة أمام الله أساس التوحيد الإسلامي ، والمساواة أمام القانون أساس النظام الاجتماعي . فقد كانت المرأة العربية تعامل قبل الإسلام معاملة غير كريمة ، فرفعها الإسلام إلى مقام الكرامة ، وجعلها مساوية للرجل أمام الله ؛ وإنما فضّل الرجل عليها بما أنفق من ماله وما عاملها بالمعروف وجعل صلته بها صله مودّة ورحمة . وكان الفقراء يسامون المهانة ، فرفع مكانهم إذ جعل تفاضل الناس عند الله بالتقوى لا بالمال . هذه القواعد وما إليها مما نظم الوحي به شؤون الجماعة العربية لعهد رسول الله ، وما جعله نظاماً للجماعة الإنسانية كلها ، قد كان له من الأثر في توحيد العرب وتقوية روحهم المعنوية ما قامت الإمبراطورية الإسلامية على أساسه .

وقد بدت آثار ذلك في حياة الرسول ، وبدت تباشير الإمبراطورية المقبلة من خلاله . ففي السنة السابعة من هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعث رسله إلى قيصر وإلى كسرى وإلى غيرها من الملوك والأمراء يدعونهم إلى الإسلام . وقد أغلظ كسرى لرسوله في الجواب ، وبعث إلى بازان عامله على اليمن ليجمّعه برأس « هذا الرجل الذي بالحجاز » . لسكن كسرى قُتل قبل أن تصل رسالته . إلى بازان . وشعر هذا الأمير الفارسي بقوة محمد وأصحابه ، فخلع عن اليمن نير الأكاسرة ، وانضم إلى رسول الله ، فكان انضمامه الخطوة الأولى في تحرير البلاد العربية من رِبقة النير الأجنبي .

وكان رسول الله لا يفتأ بعد ذلك يفكر في الروم ومناجزتهم . فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة سار على رأس جيش العُسرة إلى تبوك ؛ وسمع الروم بمقدمه فخافوه وانسحبوا داخل حدود الشام ولم يلقوه . مع ذلك صالح يوحنا بن روبة صاحب أيلة

كما صالح أهل الجرباء وأذرح على الجزية . وأيلة والجرباء وأذرح من أعمال الشام الخاضعة لسلطان الروم . بذلك كانت تبوك قاضية على كل نفوذ للروم في شبه الجزيرة ، وكانت أول إرهاب بأتجاه الإمبراطورية الإسلامية إلى ناحية الشام .

اختار الله رسوله إليه ، فبايع المسلمون أبا بكر بخلافته . وخيّل إلى جماعة من العرب أنهم قادرون على الثورة بخليفة الرسول وبدينه ، فكان انتصار أبي بكر في حروب الردّة دليلاً قاطعاً على أن العرب أشربت نفوسهم بمبادئ التوحيد ؛ ولذلك لم يقل أحد من الذين ادّعوا النبوة أنهم يدعون الناس إلى وثنيّتهم وإلى جاهليّتهم الأولى ، كما دل على أن الذين امتثلوا هذه المبادئ من أصحاب رسول الله المهاجرين والأنصار قد وهبوا لها نفوسهم فلا غالب لهم . من ثمّ أسرعت وحدة العرب إلى التماسك والثبات ، فلم يمض عام على خلافة أبي بكر حتى كان المسلمون يواجهون الفرس في دلتا الفرات فيقهرونهم ، ولم يقض العام الثاني حتى كانوا يواجهون الروم في الشام ويشبتون لهم . وكذلك مهّد أبو بكر للفتح وللإمبراطورية بعد أن هيا الدين الجديد لها القلوب والأفئدة ، ثم تابعه عمر فدفع بالإمبراطورية إلى الحدود التي ذكرناها .

هذه اللسعة السريعة عن نشأة الإمبراطورية تشهد بأن الإسلام دفع إلى نفوس العرب قوة معنوية عظيمة حفزتهم لطرح نير الأجنبي عن كواهلهم . وللاندفاع إلى ما وراء تخومهم ، ومواجهة الفرس والروم في أعقار دورهم . والقوة المعنوية أسّ الظفر في كل نضال ، ذلك بأن صاحبها لا يعرف الهزيمة ولا يرضاه ؛ فإذا ارتد يوماً لم يوهن ذلك من عزيمته ، بل حفزه لمضاعفة الجهد ، وجعله يستهين بكل صعب ، ويستهين بالحياة نفسها في سبيل الظفر بالغاية التي يريد بلوغها . وتاريخ العالم من أقدم العصور إلى وقتنا الحاضر شهيد بأن الفوز في النضال قد كان دائماً لصاحب العقيدة الثابتة والإيمان الراسخ ؛ لأن هذا الإيمان وهذه العقيدة يورثان صاحبهما من القوة ما يجعل الجبل إذ يقول له انتقل من مكانك ينتقل . أقامت العقيدة إذن بناء الإمبراطورية الإسلامية . ومن هنا كان الرسول بهذه العقيدة ، محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الذي وضع الأساس الثابت لهذا البناء ، ثم كان صفيّة وخليله أبو بكر هو الذي مهّد لقيامه بما قضى على الذين حاولوا مناوأة هذه العقيدة ، وحين دفع

العرب فتخطوا تخوم العراق وتخوم هشام . وجاء عمر من بعده فأنتم هذا البناء وتركه متين الدعائم . فازدادت رُقعته فسحةً بقوته الذاتية المنبعثة من روح الإسلام . وظلت هذه الرقعة تنفسح ، حتى أصاب الفكرة الدافعة لإقامة الإمبراطورية ما أصابها ؛ إذ غشت عليها أوهام ، ما أشبهها بأوهام الجاهلية ، أثارت التنازع والبغضاء بين المسلمين .

وقد روينا حديث التاريخ عن عهد رسول الله وعهد أبي بكر ، فرأينا ما كان لهذه القوة المعنوية من أثر في نفوس المؤمنين بالعتيدة الباعثة لها . وفي هذا الكتاب من أعمال البطولة التي قام بها المؤمنون في عهد عمر ما يُثبت إيمانك بأثر هذه القوة . وما يدحض قول الذين قالوا : إنما اندفع المسلمون لقتال الفرس والروم حباً للغزو وتهافتاً على مغائمه . فكيف لأمة قليلة العدد والعُدّة أن تخاطر بغزو جارات يزيدون عليها في العدد والعُدّة أضعافاً مضاعفة ، لغير شيء إلا إرضاء هوى الغزو الكمين في طبعها . ومتى وهب الناس حياتهم راضين طمعاً في مغنم قد تذهب حياتهم قبل أن يبلغوا منه قليلاً أو كثيراً ؟ ألا إنه الإيمان الصادق بالعتيدة السليمة هو الذي سما بنفوس هؤلاء المسلمين الأولين يخلدوا على التاريخ من صف المجد ما قل في التاريخ نظيره . وليس هذا التقديم موضعاً لسرد ما فعلوا ، فسيجده القارئ مفصلاً في خلال الكتاب ، مقنعاً كل منصف يريد الاقتناع بالحق بأن القوة التي بثّها الإسلام في نفوس الذين أخذوا في ذلك العهد بمبادئه هي التي دفعتهم إلى ميادين المجد والشرف ، وهي التي حببت إليهم الاستشهاد في سبيل الدعوة إلى الحق الذي أوحاه الله إلى رسوله . ومن أحب الاستشهاد في سبيل الحق انتصر لا محالة .

ولو أن القوة المعنوية التي اندفع المسلمون بتأثيرها واجهت قوة معنوية تقف في سبيلها لتغيّر ، ولو إلى حد ، وجه الحوادث . لكن دولتي الفرس والروم كانتا تسيران مسرعتين إلى الانحلال ؛ فلم يكن لأتيمهما من الجلد ما يمكنهما من الثبات أمام الغزاة المؤمنين ، فقد كان النزاع على العرش في بلاط كسرى بالغاً أشده ، وكانت الثورات والحروب الداخلية تنشب الحين بعد الحين بسببه . ولم يكن الروم أحسن حالاً ؛ فقد ثار هرقل بالقيصر فوكاس وقتله وجلس على عرش بُزنطية مكانه . ثم إنه رأى النزاع الديني بين الفرق المسيحية

يفت في عضد الإمبراطورية ، فأراد فرض مذهب رسمي تتوحد فيه هذه المذاهب ويؤمن به المسيحيون جميعاً ، فانقلب سعيه وبالأعلى عليه ؛ لأنه لم يدع إلى مذهبه بالحسنى ، ولم يتخذ إليه سبيل الحكمة والموعظة الحسنة . هذا إلى أن فارس والروم كانتا في حروب متصلة ؛ تغزو فارس أرجاء الروم فتفتزع منها الشام ومصر ، ثم يسترد هرقل للروم ما انتزعه الفرس منهم ، فتذيب هذه الحروب الدولتين وتذهب بريمهما . وكان من أثر هذه الأحداث أن كان الشعب الفارسي ينظر إلى أعمال الأكاسرة وبلاطهم ، فيرى عبثاً بصرفه عن التثبث بنصرتهم . وكانت الشعوب الخاضعة للروم تجد من ظلم القياصرة وعمالمهم ما يخذلها عن القيام بمعاونتهم . لهذا كله تداعت القوة المعنوية في فارس وفي الروم ، فلم تستطع أى الدولتين أن تصدر التيار الجارف الذي اندفع إليهما من شبه الجزيرة .

وتمَّ عامل آخر لا يصح إغفاله ، ذلك هو انتشار العرب في العراق والشام ، وقيام الملوك اللخمييين في الحيرة والفسانيين في الشام . هؤلاء وأولئك لم يلبثوا ، حين رأوا بنى عمومهم يقاتلون الفرس والروم ويحالف النصر أعلامهم ، أن انضم كثيرون منهم إلى صفوف المسلمين في القتال عوناً لهم ، وإن لم يدخلوا من بادىء الأمر في دينهم . وقد كان لهذه المعاونة من الأثر في غزوات عدّة ماخذل الفرس وخذل الروم ، وأسرع بالمسلمين إلى قهرهم واكتساح بلادهم .

هذه أهم العوامل التي أدت إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية بالسرعة التي قامت بها ، وإلى استقرارها بعد ذلك القرون الطوال . على أن الفصل في هذا الاستقرار يشترك فيه عامل آخر كان له أعظم الأثر ، هذا العامل هو السياسة التي أديرت على مقتضاها شؤون البلاد المفتوحة وشؤون البلاد العربية نفسها . ولعمر بن الخطاب في إقرار هذه السياسة حظ عظيم .

صحیح أن المبادئ الأساسية لهذه السياسة ترتكز على قواعد الإسلام وتعاليمه . وقد فصل رسول الله وفصل أبو بكر من بعده بعض هذه المبادئ تفصيلاً اقتدى به عمر ، فكان قوى الأثر في توجيهه . وعلى أساس من هذه المبادئ وهذا التوجيه أنشأ عمر للبلاد العربية وللإمبراطورية كلها نظاماً اتبع في عهده ، واتبع زمناً من بعده . وهذا النظام هو

الذى صان الإمبراطورية وأبقاها ، ثم كان له أعمق الأثر في إسلام أهل فارس والعراق والشام ومصر وغيرها من البلاد التى انضمت من بعد إلى العالم الإسلامى . وقد اجتهد عمر برأيه في وضع هذا النظام اجتهداً يسجل له في صحف التاريخ مجداً لا يقل عن مجده في بقاء الإمبراطورية إن لم يزد عليه .

وسيرى القارئ من تفصيل هذا النظام في فصول الكتاب ما يغنى عن القول فيه هنا . على أننى أضرب منه مثلاً . ذلك أن الغزاة المسلمين أرادوا أن يقسم الخليفة بينهم سواد العراق وأرض الشام على أنها فيء غنموه ، فأبى عمر ذلك عليهم ، ترك الأرض لأهل البلاد يستغلونها كما كانوا يفعلون من قبلى ، لقاء خراج يدفعونه عنها . ولم يكفه هذا ، بل بعث رجالاً قاموا بمساحة هذه الأراضى وبحلب المياه إليها لتسهيل ربيها وتيسير كل السبل لاستغلالها . ومن قبيل ذلك أنه أقر سياسة عمرو بن العاص حين حبس من خراج مصر وجزيتهما ما يقتضيه إصلاح الترع والجسور ، ولم يبعث إلى المدينة إلا بما فاض عن ذلك . ثم إنه رأى إعفاء من أسلم من أهل البلاد المفتوحة من الجزية ومساواتهم بالمسلمين الفاتحين ، فكان ذلك مغرباً لكثير منهم بالدخول في الإسلام . وإسلامهم هو الذى جعل منهم في أجيال قليلة هذا العالم الإسلامى للتراعى الأطراف . وقد أعفاهم عمر من الجزية وسأواهم بالفاتحين وهو يعلم ما سياتر تب على ذلك من نقص في موارد المدينة ، ومن رد الحكم في هذه البلاد إلى أهلها . ومع ذلك لم يتردد في الأمر ولم تتنه هذه الاعتبارات عنه ؛ لأن المسلمين لم يفتحوا هذه البلاد لإخضاع أهلها ، وإنما فتحوها لتكون الدعوة للإسلام حرة فيها ، فإذا أسلم بنوها أصبحوا بنعمة الله إخواناً للمسلمين الفاتحين ، لهم من الحقوق ما لهم ، وعليهم الواجبات ما عليهم .

أما وقد كانت هذه سياسة عمر ، وكان هذا هو النظام الذى وضعه للإمبراطورية الناشئة ، فطبيعى أن يذكره المسلمون على كبر الدهور في أرجاء العالم الإسلامى كله ، وأن يقرنوا ذكره بكل إجلال وإكبار . وقد فعلوا ، ولن يزالوا يفعلون . ولذلك أرخ العلماء والكتاب لعمر أكثر مما أرخوا لغيره من أمراء المؤمنين ، لم يثنهم عن ذلك أن لم تسكن لعمر بطانة تدعو إليه وتدفع الناس بمختلف الوسائل للإشادة بذكره .

بل لقد بلغ من إكبار المؤرخين لسيرته أن أضافوا إليه أمراً أدنى إلى المعجزات التي خُصَّ بها الأنبياء ، وأن ذكروا ما لا يستطيع المؤرخ إثباته . وعمر في غير حاجة إلى شيء من ذلك يضاف إلى سيرته . فسا قام هو به وما تم في عهده مما يقرره النقد التاريخي ؛ يقيم له في صحف التاريخ صرحاً عالياً باقياً إلى الأبد .

ولو أن المؤرخين الأقدمين لم يضيفوا هذه الخوارق إلى سيرة عمر لأغنوا من جاء بعدهم عن بذل الجهد في تمحيصها ، ولجنبهم الاختلاف على مبلغ صحتها ، ولما طُفِّف ذلك من قدر عمر ، ولا نقص من جلال صنعه . وقد رأيتُ من الخير أن أغفل من هذه الحوادث ما لا يقره العقل ولا يثبت للنقد ، ثم رأيتني بعد ذلك مضطراً إلى أن أثبت حوادث يتصور العقل في شيء من العسرو قوعها ، ومع هذا تضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواتريدعو إلى النزول على حكمهم فيها . وما كان لي ألا أفعل ومن هذه الحوادث ما يزيد صورة عمر وضوحاً ، ومنها ما يتصل بسياسته في الحرب وبسياسته في إدارة شؤون الدولة أو وثق اتصال . على أنني حاولت أن أفسر ما استطعت تفسيره من هذه الحوادث على هدى البحث العلمي . وأكبر رجائي أن يكون التوفيق قد صادفني فيما حاولته من ذلك .

على أن هذه الصعوبة في التمحيص والتفسير ليست كل ما يلقاه المنقب في كتب الأقدمين عن سيرة عمر . بل إنك لترى هؤلاء الأقدمين يختلفون في بعض الأحيان على الوقائع اختلافاً يقف الإنسان منه موقف الحيرة . ثم إن من هؤلاء المؤرخين من يُسهِّمون في طائفة من الوقائع ويتناولون أدق تفاصيلها ، على حين يحملون طائفة أخرى إجمالاً لا تكاد تبين معه دلالتها . وأسوق مثلاً لذلك : أن الطبري وابن الأثير والبلاذري يتحدثون عن وقائع الغزو في العراق بإسهاب تكاد ترى معه أعمال كل بطل من أبطال هذه الوقائع ، فإذا انتقلوا إلى سياسة المسلمين وإدارتهم للبلاد بعد فتحها أجمالوا الحديث فيها إجمالاً لا يتفق بحال من إسهابهم الأول . وهؤلاء المؤرخون أنفسهم أقل إسهاباً حين الحديث من فتح الشام ، وإن كانوا مع ذلك قد وقَّوه حقاً . . أما حديثهم عن مصر فوجز إيجازاً لا يبالغ من يسميه مخلاً . وحسبك لتشاركني في هذا الرأي أن تعلم أن الطبري قد أفرد لفزوة القادسية وحدها أكثر من ستين صفحة ، وقد تحدث عن فتح المدائن

في اثنتي عشرة صفحة ، ثم لم يجعل لفتح مصر كلها غير خمس صفحات .
ولا شك في أن غزوة القادسية جديرة بأعظم العناية في التأريخ لها ؛ فهي التي مهدت
المسلمين العود إلى العراق بعد أن أجلاهم الفرس عنه ، وفتحت لهم أبواب المدائن ثم
أبواب فارس كلها . لكن فتح مصر لم يكن دون فتح العراق وفتح فارس خطراً ،
وكان لذلك جديراً بأن يلفت هؤلاء المؤرخين ليتفقدوا على استيفائه أكثر مما فعلوا .
وقد نلتبس هؤلاء المؤرخين من العذر أنهم درّبوا ما استطاعوا الوقوف عليه من
الروايات ، أو أنهم كانوا أكثر عناية بالبلاد التي نشأوا فيها منهم بالبلاد البعيدة عنهم .
ولا أراني في حاجة إلى الاعتذار عنهم ولا إلى نقد طريقتهم وقد فصلت بيننا وبينهم قرون
عدّة ، وأنا بعدُ بصدد الحديث عما يلقاه من يؤرخ اليوم لذلك العصر القديم من جهد .
ولذا أسارع إلى القول بأن في تناول هذا المؤرخ مادة لا ينضب معينها يستطيع أن يسد بها
كل نقص . فما أجمله الطبري وابن الأثير وابن خلدون والبلاذري وابن كثير قد فصله
غيرهم تفصيلاً يقف منه الإنسان على ما يشاء . أشرت إلى إجمال هؤلاء تاريخ الفتح
العربي لمصر ؛ لكن هذا الفتح مفصل في كتب أخرى أدقّ تفصيل . فقد كتب
ابن عبد الحكم والسيوطي وابن تَغْرِي بَرْدِي عنه وفصلوه ما فصل الطبري فتح العراق .
والكتب التي وضعت في لغات غير العربية تالتى من الضياء على تاريخ الفتح الإسلامي
والإمبراطورية الإسلامية ما لا غنى لمؤرخ عن الاستئذارة به . وتمحيص الوقائع بموازنة
ما جاء عنها في كتب المؤرخين على اختلاف لغاتهم ومناهجهم وميولهم خير عون على
الاهتداء إلى الحق . وهذا إلى ما لمؤرخي العصر الحديث في الشرق والغرب من فضل
في بحث ما أورده كتب الذين سبقوهم وفي تمحيصه وإبرازه في صورة تتفق ومألوف
هذا العصر في التفكيك والتقدير . أما ومادة التاريخ متوافرة هذا التوافر فلن يصد الجهد
باحثاً عن الاستفادة منها في الناحية التي يريد أن يعرض لها ويطالع الناس بما يعتقد
الحق فيها .

فلكل مؤرخ ناحية تستأثر بعنايته يتوفر على دراستها ويجعل ما سواها سُدّاً له
في هذه الدراسة . والمؤرخ الذي ينقطع لدرس عهد بذاته من كل نواحيه يقسم هذا العهد

وإن قصر، ويفر ذلك كل ناحية منه دراسة خاصة قد تستغرق المجلد أو المجلدات . فإذا أراد أن يلخص هذه النواحي جميعاً كان تلخيصه أدنى إلى البحث في فلسفة التاريخ منه إلى التاريخ نفسه .

ولأخذ موضوع عمز مثلاً يوضح ما تقدم : فقد يُعنى المؤرخ بشخص عمر ويقف عنده ، ويحفل من كل ما يقع في بيئته وعصره وسيلة للمزيد من إيضاح صورته . وقد يعنى بعهد عمر في ناحيته الاقتصادية أو في ناحيته الاجتماعية أو في غير هاتين الناحيتين من نواحي الحياة العربية ، وبما كان لعمر من أثر في الناحية التي جعلها المؤرخ غرض دراسته . وكل واحدة من هذه النواحي جديرة بعناية خاصة في الدرس ، كقيلة بأن تبرز للناس سفيراً قيماً يجمع بين المتاع به والفائدة منه . ودراسة الحياة الأدبية للجماعة العربية في عهد عمر دراسة مستفيضة كقيلة بأن تبين للناس كيف تأثرت هذه الحياة بالتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية التي سبقت هذا العهد وعاصرته ، وأن تضيف إلى المكتبة العلمية ثروة علمية وأدبية أعظم بما فيها للناس من متاع وفائدة .

وقد تناولت في هذا الكتاب ، كما تناولت في « حياة محمد » وفي « الصديق أبو بكر » . نواحي من الحياة العربية لذلك العهد ، رأيت تناولها مما يكمل به ما عرضت له من بحث لكنني لم أتناولها بدراسة مستفيضة ؛ لأنها لم تكن غرضي الذي قصدت إليه ، بل تناولتها بالقدر الذي يتم به هذا الغرض . فأما ما قصدت إليه من وضع هذه الكتب فقد بيئته في تقديم كل واحد منها . فقلت في تقديم « حياة محمد » إنه : بينا يقوم بين الشرق والغرب تعاون على جدير بأن يؤتى خير الثمرات ، إذا طائفة من رجال الكنيسة المسيحية ومن كتّاب الغرب لا يفترون عن الطعن على الإسلام وعلى محمد ، وإذا الاستعمار الغربي يؤيد بقوته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأي ، ويؤيد في الوقت نفسه دعاة الجحود من المسلمين ، ويخاصم من يحاربون هؤلاء أو أولئك . وقد رأيت ما يحدث من ذلك في بلاد الشرق الإسلامي ، بل في البلاد الإسلامية كلها ، ورأيت ما بقصد إليه من القضاء على الروح المعنوية في هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأي وحرية البحث ابتغاء الحقيقة ، فشعرت بأن عليّ واجباً لا مفرّ لي من القيام به ، فعمدت إلى دراسة حياة محمد صاحب

الرسالة الإسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، وجود الجامدين المسلمين من ناحية أخرى ، على أن تكون دراسة علمية خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده . وهذه الدراسة جديدة لذاتها بأن تهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة التي تتلمسها .

أما كتاب « الصديق أبو بكر » فقد بدأت فيه بدراسة الإمبراطورية الإسلامية وأسباب عظمتها وانحلالها ؛ لأن هذه الإمبراطورية قامت على أساس من تعاليم النبي العربي وسنته ، ولأن الشعوب التي تمحضت عنها هذه الإمبراطورية بعد انحلالها ترتبط كلها بالإسلام ، ويرتبط أكثرها بالعربية ، وقد عقد بينها الماضي صلوات لا انفصام لها ما بقي الإسلام وما بقيت اللغة العربية . وفي تنظيم هذه الصلوات خير الإنسانية عظيم . ولا سبيل إلى هذا التنظيم إلا معرفة ما كان بين هذه الأمم في الماضي من صلة ، فمعرفة الماضي هي سبيلنا لمعرفة التشخيص الحاضر والتنظيم المستقبل .

وهذا الكتاب عن عمر حلقة ثلاثة من هذه السلسلة . لكنها تختلف عن الحلقتين الأوليين ، كما تختلف كل واحدة من هاتين الحلقتين عن الأخرى اختلافاً ظاهراً . هذا مع توالد الحلقات الثلاث كل واحدة عن سابقتها ، كما تخرج الجذور من البذر ، ثم ينبثق الجذع باسماً من الجذور ، ثم تتفرع الأغصان من الجذع . قد تذبل الأغصان ويبقى الجذع مع ذلك قوى الحيوية ، بل قد يحف الجذع ثم تبقى الجذور سليمة قادرة على أن تنشئ جذعاً أقوى وفروعاً أكثر نضارة . فإذا كانت الإمبراطورية الإسلامية قد انحلت فلا يزال الإسلام الذي أنشأها قديراً على أن ينشئ وحدة إنسانية عظيمة تلاحم روح العصر ونظامه .

وقد اقتضاني تصوير النشأة الأولى للإمبراطورية الإسلامية أن أتناول بالبحث نواحي الحياة المختلفة لشبه الجزيرة والبلاد التي فتحها المسلمون الأولون ؛ على أنني لم أقف عند هذه النواحي إلا بالقدر الذي اقتضاه قيام هذه الإمبراطورية . وليس هذا القدر مع ذلك باليسير ؛ فهو يحلو صورة ، وإن موجزة ، للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد العرب ، وصورة مثلها قد تكون أكثر إيجازاً لنواحي الحياة في البلاد المفتوحة . وقد حاولت هذا التصوير في الكتابين السابقين من هذه السلسلة ، ثم حاولته على وجه أوفى في هذا

الكتاب ، وبخاصة ما اتصل بشؤون الفرس والروم . وأكبر جأى ألا يبلغ هذا الإيجاز مبلغاً يقصر عن أن ينقل إلى ذهن القارئ ما أردت تصويره .

وهذه الحلقات الثلاث التي تؤرخ لنشأة الإمبراطورية الإسلامية والعالم الإسلامى ، تصور فترة من تاريخ العالم هى لا شك أمتع الفترات فى الحياة الإنسانية ، وأكثرها وقفاً للنظر ، وإيجاء للتفكير والتأمل . فهى تدل على أن الحياة الإنسانية فكرة أولاً وقبل كل شيء . وهى فى إقامتها هذا الدليل ترسم لنا سلسلة من الصور تعاقبت فى زمن قصير تعاقباً محتوماً ، ولكنه مع ذلك فذو فى تاريخ الإنسانية مذ كانت الإنسانية . ذلك بأنها تصور الفكرة المستجمة فى نفس من أعدّه القدر ليبلى العالم رسالته ؛ وظهور هذه الفكرة بوحي من الله إلى رسوله ليدعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ وقيام الناس فى وجه الفكرة ومحاربتهم لها ابتغاء وأدائها والقضاء عليها ؛ وانتصار الفكرة بانتصار رسولها ، وإقبال الناس لذلك عليها مأخوذين بعظمته وقوة شخصيته ؛ وانصراف الناس بعد وفاة صاحب الفكرة إلى مألوف حياتهم فراراً من فروضها ؛ وقومة من صدق إيمانهم بالفكرة وإعادتهم المرتدين إلى حماها وإلزامهم أداء فروضها ؛ وتأصل الفكرة بعد ذلك فى الوجود تأصلاً جعل منها قوة لا قبل لشيء فى الحياة بها ولا قدرة لسلطان أن يتغلب عليها ؛ وبلوغها من هذا التأصل مبلغاً جمع إليها عالمًا يغرس فى أفطان الأرض المختلفة أصولها . أية صورة أروع من هذه الصورة وأكثر إمتاعاً للعقل والقلب والمدارك ! ! . وهل قام فى تاريخ العالم دليل على قوة الفكرة لذاتها ومقدرتها على اكتساح الإمبراطوريات مثل هذا الدليل ! ؟

لا ريب فى أن تاريخ الإنسانية يتلخص كله فى بضعة أفكار رئيسية قام نظام العالم على أسسها . وقد سلكت كل واحدة من هذه الأفكار طريقها إلى النفوس وتركت على الحياة أثرها ، لكن كل واحدة منها لم تكن تكاد تظهر حتى تلقى من المقاومة ما يرددها إلى حدود ضيقة تنكش فيها ليردها الناس من بعد يريدون تمحيص ما تنطوى عليه من حق ونقي ما يحالطها من زيف ، ثم ينتهون إلى صورة معدلة من الفكرة الرئيسية يرتضون العيش فى كنفها . وهم لا ينتهون إلى هذه الصورة المعدلة قبل أن تنقضى أجيال ويستحضر

نضال وتسيل دماء وتزهق أرواح ، ثم تكون الفكرة في أثناء ذلك كله محل أخذ ورد ونفي وإثبات وتعديل يجعل مانتتهى إليه شيئاً عن صورتها الأولى جيداً الاختلاف .
 يل إن من الأفكار ما يظهر ثم لا يحتمل النضال ، فيختفى إلى غير عودة . ولدينا من ذلك مثل يقابل قيام الإسلام حين نشأته . ذلك ما حاوله هرقل من توحيد المذاهب المسيحية وإدماجها في مذهب رسمي يُفرض في أرجاء الإمبراطورية كلها . ففقد بذلك هرقل غاية جهده لتنجح محاولته : جمع الجامع من كبار رجال الدين وفرض عليهم أن يتفقوا ، واتفق من هؤلاء الرجال من اتفق ، وأقام على رأيه من أقام . ثم إن الإمبراطور أرسل عماله إلى الشام وإلى مصر وإلى غيرها من البلاد الخاضعة لسلطانه يدعون الناس إلى للمذهب الرسمي طوعاً وكرهاً . ولجأ هؤلاء العمال إلى كل الوسائل لتنفيذ ما أمرهم هرقل بتنفيذه . مع ذلك التوى القصد عليهم ، وثار الناس في كل البلاد بهم ، فأخذوا الثائرين بألوان الكلال ، فكانت مأس ومذابح انتهت كلها إلى إخفاق الإمبراطور فيما حاول وقد رأى هذا الإخفاق بعينه قبل أن يموت ، ولعله سأل نفسه مراراً وظل يسأل إلى ساعته الأخيرة : كيف نجح النبي العربي ولا سلطان له في إقامة دين جديد ، وأخفق هو ، وله من الأيد والسلطان ماله ، في جمع الناس حول مذهب موحد لدين استقر في العالم أكثر من ستة قرون ١٩ .

وهو قد عجز ، ولا ريب ، عن أن يظفر بجواب على سؤاله . فلو أنه ظفر بهذا الجواب لما ترك عماله يعمنون في إرهاب الناس وفي تعذيبهم وقتلهم ، حتى يفتح المسلمون سورته ويفتحوا مصر ويحلوه وجنوده عنهما ويضطروهم إلى الفرار منهما . ولو أن بطش الملك لم يَطغَ على تفكيره ولم يحجب الجواب عنه لاهتدى إليه . فهذا الجواب بسيط كل البساطة ؛ وهو أن النبي العربي نجح لأنه لم يكن له سلطان غير سلطان العقيدة السليمة التي دعا الناس طوعاً بأمر ربه إليها ، وأن هرقل أخفق لأنه أراد إكراه الناس على مذهب لم تهتد بصائرهم إلى أنه خير مما يؤمنون به . وقد نجح النبي العربي لأنه لم يكن يتمصب لغير الحق ، فكان يقول بوحى ربه : « آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ

النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وأخفق هرقل لأنه تعصب لمذهب على غيره من مذاهب تنسب كلها لعيسى عليه السلام ، ولحوارييه . ونجح النبي العربي لأنه لم يكن يبتغي للناس غير الهدى إلى سبيل ربهم ، فكان يقول لوفد النصراني الذين جاءوا من نجران يجادلونه : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » . وأخفق هرقل لأنه أراد أن يتخذ بعض الناس بعضاً أرباباً من دون الله ، فثار الناس به حين رأوا دعوته وليس فيها من الحق ما يصرفهم عما وجدوا عليه آبائهم . لهذه الأسباب نجح النبي العربي بإذن ربه ، وقامت على أساس دعوته إمبراطورية استقر فيها مادعا إليه . وكانت هذه الإمبراطورية قديمة أن تضم العالم كله في كفنها لولا أن غير أصحابها ما بأنفسهم فغير الله ما بهم .

وإنما غير المسلمون ما بأنفسهم يوم افترقوا مذاهب وشيعا ، ففعلوا تفكير الناس وعنايتهم من جلال العقيدة في صفاء جوهرها ، إلى الخوض في التفاصيل والجدل فيها جدلا زاد بينهم شقة الخلاف وجعل بعضهم لبعض عدواً . وطالما عاب رسول الله ثم عاب أبو بكر وعمر من بعده من دار مثل هذا الجدل بنحو اطهرهم . بل لقد نههم رسول الله إلى أن من هلك قبلهم من الأمم إنما هلك بسبب المجادلة في أمور لا يؤدى الجدل فيها إلى حق ولا ينشأ عنه غير الخلاف والتنازع والبغضاء . فقد رأى المسلمون الأولون مافي ذلك من حق فامتثلوا أمر النبي ، وأيقنوا أن الذين يجادلون في الدين إنما مثلهم كمثل اليهود والمنافقين الذين كانوا يندشون بين المسلمين يسألونهم : إذ كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ أو يسألونهم عن الروح ، يحاولون بهذه المسائل وبمثالها أن يدسوا إلى عقولهم الشك في عقيدتهم . وقد كان الوحي ينزل بالجواب على بعض هذه المسائل في إيجاز حاسم ، فيقول تعالى : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . ويقول : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . ويقول : « وَلَا تَسْكَوْنَا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » . ويقول : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .

وكان عمر أشد الناس كراهية للاختلاف ، فكان يهدد الذين يختلفون ولو كانوا من أصحاب رسول الله ومن أرفعهم مكانة عند المسلمين . ولا عجب في أن يكون ذلك شأنه ، وسبرى من بعد أن يتفق مع تفكيره في جاهليته وفي إسلامه . وليس يرجع ذلك إلى ما زعمه بعضهم من ضيق أفقه ؛ فقد كان عمر من أكثر أهل زمانه علماً وأوسعهم أفقاً ، بل لأنه كان يقدم نظام الجماعة على كل اعتبار ، ويرى في ثبات هذا النظام واستقراره أقوى كفيل بخير الأفراد وبخير المجموع كله .

كيف يتفق هذا النفور الشديد من الاختلاف في الرأي مع دعوة الإسلام إلى النظر والتدبر والحكم ؟ وكيف يمكن لحرية الرأي أن تستقر في بيئة يهدد صاحب السلطان فيها بمعاينة المختلفين ؟

هذا اعتراض أورده بعض المستشرقين بالفعل . ونحن ندفعه هنا ، لغير شيء إلا أن تاريخ الفكر الإنساني ينفيه . فكثرة العلماء تذهب اليوم إلى أن التجريد المنطقي في الفروض النظرية إنما تسلط على تفكير الإنسانية في العصر الميتافيزيقي حين لم يجد ذهن من المقررات العلمية سنداً له في الحياة ، فكان هذا التجريد ملجأ نشاطه . وهو قد اتجه بهذا التجريد إلى نظريات لا تثبت عن طريق العلم ، وتناول به أموراً يدخل معظمها في دائرة ما سماه هيربرت سبنسر (مالا سبيل إلى معرفته The Enknowable) . فلما استقر العلم وقامت الفلسفة الواقعية على أساسه ، أصبح هذا التجريد المنطقي ترفاً عقلياً ضعيف الأثر في حياة العالم الفكرية . فإذا كان رسول الله وكان خلفاؤه الأولون قد نهوا عن الخوض فيما لا سبيل إلى معرفته ، لأن هذا الخوض يثير الخلاف والتنازع ، فهم بذلك لم يحرّموا حرية الفكر ، بل قاوموا طريقة بذاتها من طرق التفكير بصفها العلم اليوم بأنها طريقة الجدل العقيم .

فأما صور التفكير المستندة إلى وقائع الحياة والوجود ، والتي يعتبرها العلم اليوم موضع نظره ومجال بحثه ، فكانت محل التشاور والعناية في ذلك العهد ، وكان ما يتصل منها بشؤون الحكم والقضاء مدار الاجتهاد بالرأى ، فإن أصاب المجتهد فن الله ، وإن أخطأ فن نفسه ومن الشيطان .

وسيرى القارىء فى صلب الكتاب تفصيلا لبعض ما حرّم الاختلاف فيه وحكمة هذا التحريم . وحسبى أن أشير إلى نهى رسول الله عن الخوض فى مسألة القدر لنستبين هذه الحكمة . فقد أثارت مسألة القدر فى عصور التجريد (الميتافيزيقى) أشدّ الخلاف وأعظم الجدل ، وهى مع ذلك لم تنته ، ولا يمكن أن تنتهى يوماً إلى نتيجة . وهذا دليل على أن النهى عن الخوض فيها كان الحكمة عين الحكمة . وتبلغ هذه الحكمة حدّ البدهاة إذا ذكرنا أن الدين كان يومئذ فى إنان نشأته ، وأن اليهود والمناققين والمشرّكين كانوا يحاربون مبادئه الرئيسية ، بإثارة ما قد يتصل بهامن المسائل الجدلية ، لينشروا حول هذه المبادئ جواً من الريبة يصرف الناس عنها . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصدر الأول للإسلام كان عهد جهاد متصل ، وأن ما يؤدى إليه الجدل من الاختلاف ينجى على هذا الجهاد ويضر بالجهاد الذى يبذل لنجاحه ، لم يبق للاعتراض الذى أورده بعض المستشرقين أساس ، وكان لشدة عمر فى النهى عن كل ما يثير الخلاف مسوّغ بل موجب .

لا أستطيع ، وقد أجملت فى هذا التقديم ما نضافر من العوامل لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، ألاّ أتحدث عن عمر نفسه . فسيرى القارىء صورته واضحة قوية الأثر فى كل فصل من فصول هذا الكتاب . وقد يرى من بروز شخصيته ما يدعو للموازنة بينه وبين أبى بكر . لهذا أسارع قبل الحديث عن عمر فأثبت هنا نص ما ذكرته فى تقديم « الصديق أبو بكر » إذ قلت : « قد يبلغ الأمر ببعضهم أن يوازن بين عهد أبى بكر وعهد عمر ليفاضل بينهما . وهذه مفاضلة لا موضع لها بين رجلين بلغ كل منهما من مراتب العظمة ما قلّ أن يبلغه سياسى أو حاكم لأمة فى تاريخ العالم كله . ولقد كان عهد عمر من أعظم عهود الإسلام لا ريب ؛ فيه استقرت قواعد الإمبراطورية ، واستتب نظام الحكم ، ورفّ لواء الإسلام على مصر وغير مصر من البلاد التى اعتز بها الروم واعتز بها الفرس . لكن هذا العهد الفاروق العظيم مدين لعهد الصديق ومتم له ، كدَيْن خلافة الصديق لعهد رسول الله وإتمامها له » .

على أنه إذا لم يكن للموازنة بين العهدين موضع وعهدُ عمر متمم لعهد أبى بكر ،

فإن الموازنة بين الرجلين يسيرة ، ومن شأنها أن تجلو لنا من صورتيهما ما يزيدنا إدراكاً لقيمة ما أحرزه كل منهما من الفوز في عهده . ولسنا نجد في هذه الموازنة تصويراً خيراً من تصوير رسول الله حين شاورَ المسامين في أسرى بدر ، فأشار أبو بكر بقبول الفداء منهم ، وأشار عمر بضرب أعناقهم . فقد ضرب رسول الله للمسامين في كل من الرجلين مثلاً ؛ فأما أبو بكر فمثله في الملائكة كمثل ميكال ينزل برحمة الله وعفوه عن عباده ، ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم ، كان ألين على قومه من العسل . قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال : « أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . وأن قال : « قَمَنَ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . ومثله في الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله . ومثله في الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي أَلْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » ، وكمثل موسى إذ يقول : « رَبَّنَا أَطْمِئِنَّ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

هذه الصورة تصف كلا الرجلين في حياة الرسول أدق الوصف . فلما استُخْلِيفَ أبو بكر بقي على رفقته ولينه في كل أمر لا يتصل بعقيدته وإيمانه . فأما ما اتصل بالعقيدة والإيمان ، فلم يكن موضع رفق أو لين عنده . ذلك أن نفسه كانت تنطوى على قوة هائلة لا تعرف التردد ولا الإحجام ، وعلى مقدرة ممتازة في بناء الرجال وإبراز ملكاتهم ومواهبهم ، وفي دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة . لذلك كان إذا عهد إلى أحدهم في أمر ترك له من الحرية في تنفيذه ما يتفق وثقته به ، وثقته بحسن تقديره هو في اختيار هذا الرجل . من ثم رأيناه يضع الخطط العامة لقواده في حروب الردة وفي غزو العراق والشام ، ويترك تفصيلها لهم ولا يسألهم حساباً ما نجحوا في مهمتهم . فإذا لم يصادفهم التوفيق فسكّر في سبب إخفاقهم والتمس الوسيلة لعلاجه . كذلك فعل حين أبقى على القواد الذين لم ينتصروا في حروب الردة وفي غزو الشام أن يعودوا إلى المدينة ، حتى لا يوهن عودهم إليها من يقيمون بها ، وحين وقف قواد الشام موقف الجود أمام الروم ،

فأمدهم بخالد بن الوليد ونقله إليهم من العراق ، حتى ينسى الروم وساوس الشيطان . ولم يكن ذلك شأنه مع القواد في وقائع الحرب وكفى ، بل كان كذلك شأنه في الأمور الدينية ؛ لا يتدخل فيما عهد منها إلى عماله إلا لتقويم معوج أو إصلاح فاسد . أما ما سارت الأمور سيرتها السليمة فهو يدعها لينصرف إلى غيرها من شؤون الدولة . ولهذا ترك زيد بن ثابت بعد أن عهد إليه في جمع القرآن يقوم بمهمته ، فلم يكن يتدخل في عمله إلا حين يطلب زيد إليه رأيه .

والأمير الذي يقف من سياسته عند الأمور العامة مطمئناً إلى عماله واثقاً بهم ، يبرز اسم عماله إلى جانب اسمه ، فيحسب من لا يتعلق في الأمور أن لبعض العمال فضلاً أعظم من فضله . وهذا خطأ في التقدير ؛ فالفكرة الأساسية هي كل شيء في كل عمل . وحرية العامل الموثوق به في تولى التفاصيل تزيد هذا العامل نشاطاً وإقداماً على الاضطلاع بالتبعات ، وحرصاً على الفوز بمزيد من ثقة الأمير به ، ليزداد ركونه إليه وتقديمه له .

كانت هذه السياسة متفقة مع طبيعة أبي بكر وما عرف من لينه ورفقه وحسن إيمانه وقوة عقيدته ، متفقة كذلك مع سنّه ؛ فقد تولى الخلافة حين جاوز الستين من عمره ، ضعيف البدن رقيقه . أما عمر فتولى الخلافة وسنه حول الخمسين ، وفيه من قوة النشاط في كل شيء ، لا تكمن ذاتيته حتى تبرزها الحوادث في جلال قوتها ، بل كانت ذاتيته دائمة البروز ، وكان لذلك حريصاً على أن يتولى الجليل والدقيق من شؤون المسلمين أفراداً وجماعات ما استطاع . وهذا البروز في الذاتية كان يدفعه ، مع ثقته بمن يعهد إليهم في أمور الدولة ، إلى أن يجعل عينه دائماً عليهم وأن يكون دائماً الاتصال بهم ، حتى تحاله وهو بالمدينة حاضراً مع من كان منهم بالعراق أو بالشام أو بفارس أو بمصر . وهذا الاتصال وهذه المراقبة جعلاه دقيق المحاسبة لهم دقة ثارت لها غير مرة نفوس بعضهم . ولو أن من ثارت به نفوسهم كان رجلاً غير عمر في قوته وصلابته وبأسه لكان لهذه الثورة من الأثر ما يخشى ألا يُحمدَ عاقبته .

وكان لذاتية عمر وبروزها أثرٌ في الحياة العقلية كأثرها في إدارة الشؤون العامة .

فقد كان من أكثر المسلمين اجتهاداً بالرأى . كان ذلك شأنه في حياة الرسول وفي حياة أبي بكر ، ثم كان المجتهد الأول في خلافته . فلم تعرض مسألة تعنى الجماعة الإسلامية إلا كان له فيها رأى ، ولم تكن مسألة فقهية إلا كان ما يستقر عليه حكمه فيها حجة يأخذ بها الناس في عهده ، ويأخذ بها الناس من بعده . وسترى أنه خالف رسول الله وخلافته أبا بكر غير مرة ، وأن الوحى أيد رأيه أحياناً وخالفه أحياناً أخرى ، وأن الناس في خلافته كانوا يطمثون إلى اجتهاده أيما اطمثان . ولقد زاد في قدر رأيه أنه اطرّح وراء ظهره كل مصلحة خاصة وكل اعتبار ذاتى ، وأنه تجرّد لله ولدين الله ولخير المسلمين تجرداً لم يوصف به أحد من أمراء المؤمنين بعده .

ولو أن ماروى عن إنكار نفسه كان كله صحيحاً لكان عمر مثلاً فذاً في التاريخ ، ولكان أذى إلى مراتب الأنبياء والرسل منه إلى مراتب العظماء^(١) . فهذا الرجل الذى بلغ أسمى مكانة في عصره ، فكان العاهل المطلق اليد في الإمبراطورية الكبرى لعالم يومئذ ، قد كان يأبى على نفسه كل ما يُرَفُّه عنها ، ويحرص على أن يعيش عيش الفقير لبسه ما يلبسه . على أن زهده في الدنيا لم يكن زهد عائف عنها ، بل كان زهد قادر عليها متحكم فيها . ولذلك كان ، مع شدة ورعه وعظيم تقواه ، ينكر صنيع أولئك المتنسكين الذين يرون في الحرمان متاعاً ولذة ، والذين يخفضون من أصواتهم إذا تكلموا ويتباطئون في مشيتهم إذا ساروا ، يريدون أن يقول الناس عنهم إنهم نساك . ذلك لأنه كان يمتد الضعف في كل مظهره ، وكان أشد مقتاً للتظاهر به .

وزهدهم في أنعم الحياة هو الذى طوّع له أن يكون مضرب المثل في العدل . فقد كان لهذا الزهد لا يخشى إلا الله ، ولا يرجو أحداً غيره . وكانت خشيته الله ورجاؤه إياه شديدين . وكان يعلم أن الله محاسبه عما ولى من أمر المسلمين فيزداد خشية ، فتزيده الخشية حرصاً على تحرى العدل لإرضاء الله جل شأنه . لذلك كان في عدله لا يفرق بين قريب له وبعيد عنه ؛ فالؤمنون عنده جميعاً سواء ، ومن دخل في ذمة المسلمين أصبح

(١) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو كان من بعدى نبي لكان عمر ابن الخطاب » رواه عقبه بن عامر في مسند أحمد .

وله من الحق في عدل أمير المؤمنين ما لم . وحبه العدل مجرداً من الهوى جعله يطلب إلى عمّاله أن يكونوا مثله عدلاً وإنصافاً ، ويطلب إلى الناس في أرجاء الإمبراطورية أن يرفعوا إليه ما قد ينزل بهم على يد عمّاله من حيف حتى ينصفهم إذا رأى إنصافهم حقاً . فإن شكوا إليه عاملاً كيداً بغير حق أنصف هذا العامل منهم ، لتبقى للحكم هيئته ، وليبقى للعامل العادل مكانه وسلطانه .

وزهده عمر في أنعم الحياة هو الذي دفع إلى قلبه من الرفق بالفقراء والعطف عليهم ما خشى الناس يوم استخلف ألا يكون له منه نصيب . فقد رأوه في عهد رسول الله عادلاً صارم العدل ، ورأوه في عهد أبي بكر شديد البطش بالظالمين ؛ فلم يدُرْ بخلد أحدهم أنه سيعرف الرحمة حياته . لهذا لم يلبث ، حين آل الأمر إليه ، أن احتفظ بكل شدته على الظالمين ، ثم كان بالضعفاء والفقراء برّاً رحياً ، بل كان أحسنّ عليهم من آبائهم وأمهاتهم : يكفكف دموعهم ويحمل إليهم بنفسه حقوقهم ، ويرعاهم صغاراً وكباراً . والضعفاء والفقراء هم السواد في كل أمة . لذلك لم يلبث هذا السواد أن وجد في عمر ملجأ وملاذه ، وأن أصبح هذا الرجل الباطش أحب إليهم من أنفسهم ومن آبائهم .

لا أريد بما قدّمت أن عمر بن الخطاب لم يكن يخطئ ، أو أنه لم تكن له ميول تبجل الناس يختلفون في بعض أحكامه وسنرى كيف اختلفوا فيما كان بينه وبين خالد بن الوليد : يرى بعضهم أنه ظلم القائد القاهر الذي وضع للإمبراطورية أساسها ، ويرى آخرون أنه قصد إلى خير الإمبراطورية أكثر مما قصد إلى العدل في أمر خالد . وسنرى كذلك كيف عزل سعد بن أبي وقاص سياسة في غير محذور ولا خيانة . لكن اختلاف الناس فيما اختلفوا فيه من آراء عمر ومن تصرفاته وأحكامه ، لا يغيّر من أنه لم يَمَلْ يوماً مع الهوى ولم يخالف يوماً ضميره ، وأنه كان يحاسب نفسه أدقّ الحساب كلما اجتهد برأى أو قضى بحكم أو أصدر أمراً .

هذه صورة مجملة من حياة عمر ومن تصرفاته . وهي مفصلة في هذا الكتاب تفصيلاً أرجو أن يجلوها بينة واضحة . وهذه الصورة تدلّ على ما كان لشخصه من أثر

في بناء الإمبراطورية العظيمة في الزمن الوجيز الذي قامت فيه ، ونكشف لك عن السبب الذي أبقى على التاريخ اسم هذا الرجل العظيم يتحدث الناس عنه على الأجيال في مشارق الأرض ومغاربها حديث إكبار وإعجاب .

على أن ما فُصِّل في هذا الكتاب لم يتخط التاريخ السياسي لهذه الفترة القصيرة من حياة المسلمين الأولين . أما ما جاء في فصوله عن حياة العرب الاجتماعية وعن الفرس والروم ، فإنما جاء مجملًا أريد به إيضاح هذا التاريخ السياسي ، ولم يقصد به إلى تفصيل ما حدث من تطور الحياة الاجتماعية في بلاد العرب بقيام الإسلام ، ولا إلى تفصيل الحياة السياسية نفسها في البلاد التي فتحها المسلمون . كذلك لم يتناول الفصل الذي أفرد لاجتهاد عمر تفصيل هذا الاجتهاد . وقد تناول بعض العلماء والباحثين في عصرنا طائفة من هذه الفواحي ببحوث ممتعة أيما إمتاع . وللمستشرقين في مثل هذه البحوث فضل تقترن به أسماء مع أسماء علماء العربية وكُتَّابها . مع ذلك لا يزال هذا الميدان مفتقرًا إلى التنقيب . وما أشك في أنه سيلقى من العناية ما هو جدير به .

وأختم هذا التقديم بالضراعة إلى الله أن يوفقنا جميعًا للحق في كل ما نعريض له من بحث . فالحق خير ما يرجو الباحث للنصف . والله خير حافظًا من الزل ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

محمد بن فيصل

الفَصْلُ الْأَوَّلُ

عمر في جاهليته

استهل ذو القعدة لسنوات قبل مبعث النبي ، فأقبل العرب أفواجاً يحدون إبلهم من شتى الأرجاء في شبه الجزيرة ليقيموا سوق عكاظ كعادتهم قبل الحج من كل عام . وكانت السوق تضطرب بمن جاءوا إليها من مختلف القبائل ، وفيهم من أهل مكة عدد غير قليل . وقد أقام هؤلاء العرب مضاربهم في فسحة البطحاء المترامية التي تقوم السوق عليها ، ثم جعلوا ناحية منها للتجارة . وفي هذه الناحية أقام جماعة أمام مضاربهم متاجر يعرضون فيها سلعاً قلّ ما كان من صناعة الحجازيين أنفسهم ، في حين قد جاء أهل مكة ومن إبلهم بأكثرها من الين ومن الشام في رحلتى الشتاء والصيف . والناس يؤثرون هذه المتاجر رجالاً ونساء ، يبتاعون منها ما يشاءون . وأكثر ما تقف النسوة عند البزازين بائى الأقمشة والثياب ، يقلبن بين أيديهن شتى ألوانها ، ثم يخترن من نسج الين أو صناعة الشام ما تهوى إياه قلوبهن . فإذا كانت بينهن مليحة جذبت إلى المضرب من الشبان والرجال من يتظاهرون بالشراء ، وإن كانوا أشدّ حرصاً على اجتلاء جمال المليحة منهم على مس الحرائر والمتاع بألوانها واقتناء ما يعجب منها . وعلى مقربة من هذه المتاجر قامت حلقات للهو يؤمها الشبان طرّفاً من النهار وأطرافاً من الليل ؛ ولا تأبى الحسان أن يكنّ على مقربة منها . فإذا أقبل الليل ذهب الشبان يحسسون الشراب حتى تميل أعناق بعضهم، ثم تركوا لنوازع اللهو والهوى العنان . ولم أدت هذه النوازع إلى مهارات ومصاولات بدأت طفيفة ثم تجسّمت ، حتى انتهت إلى قتال بين القبائل امتد على السنين .

قام شاعر يوماً في جانب السوق ينشد قصيدة له ؛ يتغزل في مطلعها ، ثم ينتقل من الغزل إلى المفاخرة بنفسه وبقبيلته ، ثم إلى التعريض بقبيلة نازعت قبيلته العام الفائت وإلى النيل منها . والتف حول هذا الشاعر الحميد حلقة من أهل السوق تسمع له وتستجيد غزله . فلما انتقل من الغزل الفخر صفق له قوم طرباً ، وصاح به آخرون إنكاراً

واستمجاناً . أما إذا انتقل إلى التعريض بالقبيلة التي خاصمت قبيلته وإلى النيل منها ،
فها هي ذى صيحات الطرب وصيحات الإنكار تنقلب نزاعاً عنيفاً يحرك السيوف
في غمودها . فلما أتم الشاعر قصيدته قام شيخ ذو حكمة ودعا القوم إلى السلم ، وما زال بهم
حتى جنحوا لها .

كان بين الذين يستمعون لهذا الشاعر شاب يتجاوز سعة العشرين ، ضخيم جسم مديد
القامة ، تملو هامته هامات الجمع كله ، أبيض اللون تعلوه حمرة تضرب بلونه السمرة .
وقد كان ينصت إلى الشاعر إنصات إعجاب يدفعه ليهز رأسه الحين بعد الحين ، آية
اغتيابها بما سمع وطربه له ودقة تذوقه إياه . لم يشارك الصائحين في صياحهم ، لأن مفاخرة
الشاعر بقبيلته لم تعنه ، وتعريضه بالقبيلة الأخرى لم يعنه كذلك ؛ فهو ليس من هذه
القبيلة ولا من تلك ، بل لعل القبيلتين كانتا بعيدتين عن موطنه بعدما زاده انصرافاً عن
أمرها إلى المتابع بجمال الشعر الذي يسمعه . وأتم الشاعر قصيدته فأقام الفتى ينصت لما
يقول الحكيم . فلما جنح القوم للسلم انصرف يتقدم جماعة من أصحابه مسرعاً في مشيته
حتى لقد شق على تابعيه أن يلحقوا به . ذلك لأنه كان أرواح في رجليه سعة فلا يعرف في
المشي بطئاً . وكان أصحابه يحادثونه عليهم يستوقفونه فلا يفوتهم بسعة خطوه . واتصل هذا
الحديث منتقلاً في الحوار الهادئ إلى جدل فيه عذف وشدة . عند ذلك وقف الشاب ،
وقد احمرت عيناه وبدت عليه أمارات الغضب ، فنفخ وفتل شاربه الطويل وقال :

— بهذا الفتى تخوفوني !! لست للخطاب إن لم أصرعه لأول ما ألقاه !!

واندفع في طريقه أكثر إسراعاً ، حتى كانت خطوات أصحابه من خلفه أدنى إلى
المرولة منها إلى السير . فلما بلغوا حلقة المضارعة المنصوبة في جانب من عكاظ ألقوا فتياناً
أشداء مفتولى الفضل ، يشهدون أحدهم جائعاً على صدر صاحبه وقد ألقاه إلى الأرض
صريعاً . وما لبث القوم ، حين رأوا عمر بن الخطاب يسير إليهم ، أن فسحواله طريقاً .
وقام المتصارعان فوقنا مع النظارة وقد أيقنا أن عمر لم يحىء شاهداً ، وإنما جاء مصارعاً .
وأدار عمر بصره في الحاضرين ، ولا يزال الغضب آخذاً منه . فلما صادف الفتى الذي
دار عنه الحديث بينه وبين أصحابه دعاه لينازله . وابتسم الفتى وتقدم حتى توسط الحلقة ،

وهو أشد ما يكون اطمئناناً إلى نفسه وثقته بقوته ومقدرته . إنه لم يصارع عمر من قبل ، فهذه أول مرة جاء فيها مع قبيلته إلى عكاظ ؛ لكنه لم يُقَلَّبْ مرة منذ جاء ، حتى لقد هابه الأقران وحسبوا حسابه . وكان يقرب عمر طولا وجساما . وتقدّم إليه عمر يصاوله . وحاول الفتى البدوى أن يصرع عمر ، وأبدى من ضروب المهارة في النزال ما جعل النظارة يتكاثرون ويزداد عددهم إلى ما لم يألوه أحد من قبل . وأقبلت فتيات كن على مقربة من المسكان سمعن أسمى المتصارعين ، فحرصن على أن يرين ما سيكون منهما . فقد عرفن ، كما عرف الناس في الأعوام التي خلت ، أن ابن الخطاب لا غالب في المصارعة له . فلما أقبل هذا البدوى وصرع كل الذين صارعوه ، رجا أهل عكاظ جميعاً أن يصارع ابن الخطاب ، وراهن بعضهم بعضاً لأى الفتيين يكون الغلب . فلما دعا عمر صاحبه للمصارعة سرى الغلباء في السوق كلها مشرى البرق ، وأقبل كل من لم يمسه عمله ، يريد أن يأخذ من هذا المشهد بنصيب . وترك عمر صاحبه زمناً يحاوره ويحتال ليصرعه ، وهو منه في موقف المدافع ، لا يبذل من الجهد ما يبذل البدوى البارع . فلما أحسن به هاضمه الجهد انقضّ عليه فركب أكتافه وألقاه على الأرض صريعاً . وضجت الحلقة بذكر عمر ومقدرته ، وتذاكر شهودها سابق فعاله في مثل هذه المواقف . ولم تسكن الفتيات والنساء أقل من الرجال والفتيان إشادة بالفتى القرشى النبيل ذى الأيد .

بدأت الشمس بعد قليل تنحدر إلى المغرب ، وبدأ النظارة ينصرفون كل إلى مقصده . وصار عمر يجوس خلال السوق وأصحابه من حوله يُبدون من الإعجاب به ما يكافئهم عنه بالبتسامة . قلما كانوا يرونها مرتسمة على مُحَبَّاه . هو لم يكن يخص أصحابه بهذه الابتسامة ؛ فقد كان يرى أبصار من يمر بهم شدّت إليه وهم أشد من أصحابه إعجاباً به ، ويرى فتيات يشرن إليه ويتهاقن يردن أن يحظّين آمنه بنظرة رضا عنهن أو هووى لحسن المليحة منهن ، فيبعث ذلك إلى نفسه من أسباب الرضا ما تعبر هذه الابتسامة عنه .

وجنّ الليل ، فقال في أصحابه إلى ملهى قام على حافة السوق ، تنفسح البادية من ورائه إلى مدى الأفق . وتخيز عمر أدنى مكان من البادية فجلس فيه بعد ما أهدى تحية المساء لمن مرّ بهم من معارفه الكثيرين الذين ردّوا تحيته بأحسن منها ، وأضافوا من عبارات

الإعجاب به والثناء عليه ما أعجبه . وأقبلت خماره هيفاء تنهذى وكل نظرها إلى الفتى الظافر ، وقد طوّقت ثغرها بابتسامة بدت من خلالها ثناياها الغرّ العذاب . وأبدى عمر في حديثه إليها سماحةً لم يُبدها منذ أقيمت السوق ، فلم تأب أن تقيه دلاً عليه . وبعد هنيهة عادت أدراجها ثم كرّرت راجعةً تحمل الخمر المعتقة لهؤلاء الشاربين الأوفياء الذين لم يقضوا من ليالى السوق ليلة في غير حانتها . وكان عمر بين أصحابه يشرب بالكبير ، ويشرب سائرهم بالصغير . وتقدّم الليل والفتيان يشربون ويسمرّون ، ينتقل بهم الحديث من الجدّ إلى المجانة ، ومن الغزل بالنساء إلى ركوب الخيل ، ومن أيام العرب إلى أنسابها ، وعمر يفيض في ذلك كله إفاضةً عليم حلت الخمر عُقدةً لسانه ، وزاده الظفر بصاحبه البدوى إقبالا على الحديث واسترسالا فيه . وهم يتذاكرون فارساً رأوه صُحّي يركب جواداً ينهب به الأرض ، وصاح عمر :

— واللّات والعزى لقد خلّنتى إياه إعجاباً بقدرته على رياضة جواده ! .

وابتسم صاحبه الذى حاوره من قبل في أمر البدوى المصارع وقال :

— تفغر العزى لابن عمك زيد بن عمر وقوله :

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى طشم أدير

أرباً واحداً أم ألف ربّ أدين إذا تقسّمت الأمور

وتجهم عمر لما سمع من ذلك وقال :

— تبّاله ! ولا غفرت العزى كفرانه ! خيراً فعل الخطاب إذ أخرج ابن أخيه من

مكة ومنعه من أن يدخلها منذ فارق ديننا ، وعادى أوثاننا ، وصبأ يلتمس إلهاً عند

اليهود والنصارى ، فلم يظفر من هؤلاء ولا من أولئك بخير فزعم أنه على دين أبيه

إبراهيم . ولو أن الخطاب ترك لى أمره لصرّعته فأوردته حتفه .

وينتقل الحديث من بعد إلى شؤون أدعى إلى طمأنينة النفس . وإن القوم لفي سمرهم

إذ طرقت سمعهم أصوات ناعمة العذارى خرجن من مضاربهن إلى فسحة البادية ينعمن

فيها بأسرار الليل أو يقضين فيها بعض شأنهن . وأمسك عمر عن الحديث وكأنما لعبت

هذه الأصوات بفؤاده . فلما رآه أصحابه أمسك أجالوا فيه أبصارهم ، فإذا هو بالقيام

ويقول : سأدعكم هنيئاً لبعض شأى وسرعان ما أعود . وابتسموا ، فصاحبهم صاحب نساء كما أنه صاحب خمر . وقصد عمر إلى ناحية الصوت الناعم ، فسمع غانية تقول لصاحباتها : هذا عمر يقدّمنا ؛ فلنخيل إليه أننا نفرٌ منه كي لا يصرعنا ، فلما اقترب منهن تظاهرت كلٌّ بالفرار إلى ناحية ، ولم تبق إلا هاته الغانية أسقطت خمارها ، وزعمت أنها تصلحه . وعرفها ابن الخطاب صاحبه التي لقيها منذ أيام ، فسعد معها بأحلى سويكات السخط والسخر والغيرة . العام . وأدركت صاحباتها حيلتها فتعالت أصواتهن بضحكات السخط والسخر والغيرة . وعاد عمر إلى أصحابه على موعد منها . ولم يطل به القام حتى نقد الخمار قدر ما شربوا ، ثم انصرف عن أصحابه إلى حيثما اتفق .

كان النهار ضحى حين لقي عمر أصحابه كرتة أخرى ، وقد تذاكروا مصارعة أمس وما أبدى عمر فيها من مهارة ، وتمنّوا لو أن عمر صارع صاحبه كرتة أخرى حتى يصرعه ، فلا تقول لهذا البدوى من بعد في ميدان المصارعة قائمة . وخالفهم عمر ورأى في قولهم مالا تقرّه الشهامة . إنه الفائز ، فإذا أراد صاحبه أن يثأر لنفسه فإن يتردد في مصالحته . لكنه لن يبدأ بالدعوة إلى هذه المصالحة ولن يتحدّاه . والسوق بعدٌ موشكة على ختامها . فبعد ثلاثة أيام ينصرف الناس عن عكاظ إلى بحجة ليمجهزوا للطواف بالبيت ، فتقدّم كل قبيلة هديّاً قرباناً لصنمها . فإذا نحر الناس ذهبوا إلى ذى المجاز يتروّون منه لصعود عرفات . وفي الأيام الثلاثة التي تسبق بحجة يُشغل الناس بالتجهز للحج عن كل مصارعة أو مصالحة .

وانقضت ثلاثة الأيام وقد أذعن الفتى البدوى لما أصابه ؛ إذ رأى ابن الخطاب قرناً لا يقهر . وتجهّز الناس للانصراف من عكاظ ، فكان عمر أسبغهم إلى هذا التجهّز : دعا غلامه فأتاه بجواده حين أضحى النهار . ورأى شباناً من نبلاء القبائل المختلفة هذا الجواد ، فأعجبوا بلونه الأدهم وأذنيه الصغيرتين ورأسه المترفع وساقيه الدقيقتين وبطنه الضامر . وكانما أدركت بعضهم الغيرة لما رأوا من اعتزاز عمر بنفسه وبجواده ، اعتزازاً فيه صلفٌ وغازلة ، فدعوه السباق ، فإذا فرغوا من السباق استراحوا ثم انحدروا إلى بحجة بعد أن تنكسر القيالولة .

وقيل عمر دعوتهم ، فدعوا فيثوثا بجيادهم ، وساروا جميعاً إلى فسحة البادية ، فاخترابوا حلبة سباق فيها . وامتنطى كل جواده ودفعه حين إشارة المشير ، فإذا عمر وجواده كأنهما كقطعة واحدة لا يدرى الشاهد أهي تنهب الأرض أم تلتقي في يد الريح التراب . ولم يكن إعجاب أهل السوق بفوز عمر في السباق دون إعجابهم بفوزه في المصارعة . ولم يقف أسر الفتيات عند الإعجاب به ؛ فقد أخذ منهن بمجامع القلوب وملك عليهن كل الجوارح . وكانت صاحبته التي أمتعتته بأحلى سويحات عكاظ هذا العام تبسم ينهن ابتسامة زادت من غيرة ، وجعلتهم يرمقنها من عيونهن العربية الجميلة بنظرات لعابها بعض ما عناء عمر ؛ بن أبي ربيعة حين قال :

حَسَدًا حُمِّلْنَهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ .

وأفاض الناس من عكاظ إلى تجته ثم إلى ذى الجاز ، فقصوا المناسك لأصنامهم ، ورجعت كل قبيلة منهم إلى مقامها من شبه الجزيرة .

واستدار العام وجاء موسم عكاظ ، فكان لعمر فيه مثل ما كان له في العالم الذي سبقه ، وظل ذلك شأنه عدة سنوات .

ثم إنه تأخر عاماً عن مفتتح السوق ، فافتقده الناس وتساءلوا عن سبب تخلفه : وزاد تساؤلهم أنه كان قد بدأ يزاول التجارة ويشغل بها . وكيف لتاجر له من المسكنة ما لمعبر أن يغيب عن سوق العرب العامة ومعرضهم السنوى الأكبر السكهم عرفوا أنه اضطلع بالمهمة التي كان يضطلع بها آباؤه من قبيلة عدى بن كعب ، مهمة السفارة بين قريش وغيرها من القبائل كلما حدث بينهم خلاف ، وأن هذه المهمة وكلت إليه في أمر ذى بال جد بين إحدى قبائل قريش وجماعة ثقيف : ولشد ما اغتبط أهل السوق جميعاً حين علموا أن عمر جاء إليهم ليقضى معهم ما بقى من أيام السوق ، وأنه أتم سفارته على خير حال . جاء ممتطياً جواده الأدهم ، فبدأ يباشر تجارته وكانت قد سبقته . ثم لم تثنه مبادرتهم عن المصارعة ، ولم يززع ما له من شهرة بين أصحابه أنه صاحبُ خر وصاحبُ نساء

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا العام ، ثم أذاع في النساء رسالته ، فانبرى له عمر يحاربه بحمية الشباب والفتوة حرباً جاهلية عنيفة أشد العنف . فإذا جاء

إلى عكاظ ، وجلس إلى الناس وصادف حديثهم سيرة الرجل الذي قام في قريش يدعوها إلى نبذ الأصنام وعبادة الواحد الأحد ، هاج عمر وماج ، وأطلق لسانه في محمد ، وعابه بما فرّق من كلمة قريش وبما صبأ عن دين آبائه وأجداده . ولقد كان الغضب يبلغ منه لخروج محمد على قومه ، فلا يُحجم عن التهديد بقتله لولا منع بنى هاشم له وما يجره هذا القتل من ثارات لا قبل لمسكة بها .

و ظل ذلك شأنه حتى أسلم ، فصار يدافع عن دين الله وعن رسول الله بمثل الحمية التي كان يحاربها بها قبل إسلامه .

هذه صورة من شباب عمر بن الخطاب ، ترسم أمامك واضحة تمام الوضوح كلما ازدت إمعاناً في قراءة كتب التاريخ الإسلامي قديمها وحديثها . فإذا أردت أن تعود إلى ما قبل شبابه لم تجد في هذه الكتب ما يُعينك على رسم صورة من طفولته وصباه في هذا الوضوح ، وإن أسعفتك في أمره بخير مما تسعفك أمر الكثيرين ممن عاصروه .

فهو من قبيلة عدى بن كعب . وهي قبيلة عدنانية من قريش ، انتهى إليها الشرف كما انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن ، في مقدمتها هاشم ، وأمّية ، وتيم ، ونخزوم . على أن عدنياً لم تبلغ من المكانة في مكة قبل الإسلام ما بلغه بنو هاشم وبنو أمّية ؛ فلم يكن لها من مناصب مكة الدينية أو الزمنية ، ولم يكن لها من الثروة ما لهم . مع ذلك كانت تنافس بنى عبد شمس الشرف ، وتحاول أن تبلغ مكانتهم ، وظل هذا التنافس ممتداً على الأجيال ، حتى اضطر بنو عدى في حياة الخطاب بن نقيّل والد عمر إلى الجلاء عن منازلهم القائمة عند النصف والآنحياز إلى قبيلة بنى سهم والمقام في جوارهم . وقد خفز هذا التنافس أجداد عمر ، فكانوا ، على قلة عددهم وعلى ضعف مكانتهم من القبائل الكبرى ، ذوى دراية وعلم وحكمة . وقدّمهم عليهم وقدّمهم حكمتهم إلى مكان السفارة والحكم في المنافرات ، فكانوا للمتحدثين عن قريش إلى غيرها من القبائل فيما ينجم من خلاف يتسنى جسمه بالمفاوضة . وكانت حكومتهم تُرضى في المنافرات ، وكانوا ذوى بلاغة وحسن عبارة . وقد أدّت بهم الحكمة إلى أن ظهر من بينهم زيد بن عمرو أحد من اعتزلوا عبادة الأوثان وامتنعوا من أكل ذبائحها . ثم كان من بينهم عمر بن الخطاب ، وحسبك به فخراً لقبيلة ينتهى إليها .

هذه قبيلة عمر . أما أبوه فهو الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب . وعدى هو أخو مرة الجد الثامن للنبي . فأما أمه فحنثمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله عمر بن مخزوم .

وقد كان الخطاب شريفاً في قومه ، لكنه لم يكن ذا مال ولا خدم . كتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو على مصر كتاباً يسأل فيه عن أصل المال الذي جمعه بها ؛ فغضب ابن العاص وكان مما أجاب به : « . . . والله لو كانت خيانتك حلال ما خنتك وقد اتهمتني ؛ فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك .

ذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير مني ، فإذا كان ذلك فوالله ما دقت لك يا أمير المؤمنين باباً ولا فتحت لك قفلاً » .

وبلغ الغضب من ابن العاص لكتاب عمر أن قال لمحمد بن مسلمة حين ذهب إليه من قبل عمر يحاسبه : « . . . لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر ! والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية^(١) لا تجاوز ما بضع ركبتيه ، وعلى عنقه حزمة حطب ، والعاص بن وائل في مزررات الديباج » . فقال له محمد : إيهك عنك يا عمرو ! فعمر خير منك ، وأما أبوك وأبوه فإنهما في النار . . . » .

وكان الخطاب فظاً غليظاً . مرَّ عمر في خلافته يوماً بمكان كثير الشجر يقال له ضَبْجَنان ، فقال : « لقد رأيتني وإني لأرعى على الخطاب في هذا المكان ، وكان والله ما علمت فظاً غليظاً » . وفي رواية الطبري أن عمر لما مرَّ في خلافته بضعجنان قال : « لا إله إلا الله المعطى ما شاء من شاء اكنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان فظاً يتعبنى إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت . وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد . . . » ثم تمثل بأبيات من الشعر^(٢) .

(١) عباءة قطوانية : بيضاء قصيرة الخمل .

(٢) هذا نص الأبيات كما أوردها الطبري وغيره :
 يبقى الإله ويودى للال والولد
 والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
 والإنس والجن فيما بينها ترد
 من كل أوب إليها راكب يفد
 لا بد من ورده يوماً كما وردوا

لا شيء فيما ترى تسبق يشاشته
 لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه
 ولا سليمان إذ تجري الرياح له
 أين الملوك التي كانت نوافلها
 حوضاً هنالك موروداً بلا كذب

ولم يكن الخطاب يتزوج النساء لشهوة ، بل ليكثر ولده ؛ فقد كانت كثرة الولد بعض ما تفاخر به العرب ، وأنت تذكر أن عبد المطلب جد النبي عليه السلام أحسن قلة حوله في قومه لقلة أولاده ، فنذر إن ولده عشرة بنين ثم بلغوا معه أن يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . وقد ذكرنا أن بنى عدى كانوا يحسون قلة حولهم لقلة عددهم ، ولذلك أجلاهم بنو عبد شمس عن منازلهم عند الصفا . فلا عجب أن يلتبس الخطاب كثرة الولد يتمتع بها ما استطاع .

وكان الخطاب رجلاً ذكياً ، موفور الاحترام في قومه ، شجاعاً يخوض المعارك على رأس بنى عدى في جراءة وثبات جنان . اشتركت بنو عدى في حرب الفجار ، فكان على رأسها زيد بن عمرو بن نفيل والخطاب بن نفيل عمه وأخوه لأمه ؛ ذلك أن نفيلاً كان على جدياء فولدت له الخطاب وعبدتهم . ثم مات نفيل فتزوج ابنه عمرو زوجته جدياء ، وكان من أم غيرها ، وقد كان هذا نكاحاً ينكحه أهل الجاهلية . وولدت جدياء لعمر بن زيد بن عمرو ، فكان للخطاب أخاً وابن أخ^(١) . وتقارب الرجلين في السن هو الذي جعلهما على رأس قومهما في حرب الفجار .

ولما اعتزل زيد بن عمرو عبادة الأوثان وامتنع من أكل ما يذبح لها ، جعل يقول لقومه : « أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فتدعى منه ، وتذبحوها لغير الله ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري ! » ثم قال الشعر يدعو إلى نبذ عبادتها^(٢) . عند ذلك خاصمه الخطاب واشتد في خصومته . وألب .

(١) راجع الأغاني ج ٣ ص ١٢٣ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) ينسب إلى زيد بن عمرو في ذلك شعر غير قليل أورده صاحب الأغاني ، وأورده ابن هشام في السيرة ، وأورده غيرها . ومن شعره البيتان اللذان أثبتناهما في هذا الفصل ، وهما من أبيات كثيرة ومنه قوله :

أسلمت وجهي لمن أسلمت	له الزن تحمل عذاباً زلالاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخراً ثقلاً
دحاها فلما استوت شداها	سواء وأرسي عليها الجبالاً

وقد روى صاحب الأغاني بإسناد أن سعيد بن زيد بن عمرو وعمر بن الخطاب سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيد فقال : « يأتي يوم القيامة أمة وحده » .

عليه جماعة من قريش أخرجه من مكة ومنعوه أن يدخلها ، وكان الخطاب أشدهم في ذلك وأقسامهم عليه .

وقد تزوج الخطاب ، فيمن تزوج ، حننمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم ، وهي خالد بن الوليد ابنة عم لَحْمًا ؛ فالمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم جدّها معاً . وكان المغيرة المخزومي سيداً من سادات قريش وبطلاً من أبطالها . وكانت له إمارة الجند التي كانت لسيد بني مخزوم ، وكان لذلك بلقب صاحب الأئمة : وكان لسكانته من قريش أول من نصح إلى عبد الطلب جدّ النبي ألا يذبح ابنه عبد الله وفاءً لنذره ؛ فقد قال له : « والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه . فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه » . وكانت حننمة لسكانتها هذه مرعية الجانب من زوجها ، مفضلة عنده على غيرها من ضرائرها . فلما ولدت عمر فرح أبوه لمولده ، وقرب للأصنام مبالغاً في إظهار سروره ، ونال فقراء بني عدى الكثيرين يومئذ من الطعام ما قلّ عهدهم به .

متى وُلد عمر ؟ ذلك أمر لا سبيل إلى القطع به . فالثابت أنه مات في أحد الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة . لكن الخلاف قائم على سنّه يوم مات : قيل كان ابن خمس وخمسين ، وقيل كان ابن سبع وخمسين ، وقيل كان ابن ستين ، وقيل كان ابن ثلاث وستين ، وقيل غير ذلك . وأكبر الظن أنه مات حول الستين . فإذا صح ذلك كان قد هاجر وهو دون الأربعين . وليست صحة هذا الظن مما نستطيع الجزم به .

ونشأ عمر في طفولته وصباه نشأة أمثاله من أبناء قريش ، ثم امتاز عليهم بأنه كان ممن تعلّموا القراءة ، وهؤلاء كانوا قليلين جداً ، فلم يكن في قريش كلها حين بُعث النبي غير سبعة عشر رجلاً يقرءون ويكتبون . ونحن نقول اليوم إنه امتاز على أقرانه بذلك . أما العرب لذلك العهد فلم يكونوا يعدّون القراءة والكتابة مزية ، بل كانوا يرغبون عن تعلّمها وعن تعليمها أبناءهم .

ولمّا شبّ عمر جعل يرعى لأبيه إبله بضجّنان وغير بضجّنان من ضواحي مكة . وقد ذكرنا حديثه عن أبيه وقسوته عليه حين رعيه إبله . وروى صاحب العقد الفريد أن عمر

قال يوماً للناطقة الجعدى : أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له . قال : « وإنك لقائلها ؟ » قال : « نعم ! » . قال : « لطلما غنيت بها خلف جمال الخطاب » . وكان رعى الإبل بعض ما يعهد به إلى أبناء قريش على اختلاف منازلهم من الشرف . ولما تدرج عمر من الصبا إلى الشباب بدا فى مظهر من القوة بذ به أقرانه . فاقهم طولاً وجساماً ، حتى لقد رأى عوف بن مالك الناس جمعوا فى صعيد واحد ، فإذا رجل قد علام جميعاً على نحو يقف النظر ، فسأل عنه ، فقيل : هذا عمر بن الخطاب ^(١) . وكان أبيض اللون تعلوه حمرة ، أعسر أيسر ، فى رجليه رَوْحٌ يسرع به فى مشيته .

وقد حذق من أول شبابه ألواناً من رياضة البدن ؛ حذق المصارعة وركوب الخيل والفروسية . لما أسلم لقي رجل راعياً فقال له : أشعرت أن ذلك الأعسر الأيسر أسلم ؟ فقال الراعى : الذى كان يصارع فى سوق عكاظ ؟ فلما أجاب الرجل أنه هو ، صاح الراعى : أما والله ليوستعهم خيراً أو ليوستعهم شراً . وكان ركوب الخيل من أحب ألوان الرياضة إليه طول حياته أقبل يوماً فى خلافته على فرس يركضه حتى كاد يوطئه الناس . وعجب الناس حين رأوه فقال : وما أنكرتم ! وجدت نشاطاً فأخذت فرساً فركضته . وكان له فى الحرب مواقف ورثها عن أخواله بنى مخزوم . وذلك قول أبى بكر فى مرض وفاته : « وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يديّ كلمتيهما فى سبيل الله » .

وكما حذق الفروسية والمصارعة وغيرها من ضروب الرياضة وألوانها ، تذوق الشعر ورواه . كان يسمع الشعراء فى عكاظ وفى غير عكاظ ، ويحفظ عنهم ويروى ما يروقه من شعرهم ، وكان له من بعد أحاديث طويلة مع الخطيئة وحسان بن ثابت والزُّبرقان وغيرهم . ثم إنه برز فى معرفة أنساب العرب إذ تعلمها عن أبيه ، فصار من أنسب العرب للعرب . وكان جيّد البيان حسن الكلام . لهذا كله كان يذهب فى سفارات قريش إلى غيرها من القبائل ، وكانت حكومته تُرضى فى المنافرة بحكومة أبيه من قبله .

(١) فى رواية ابن سعد فى الطبقات : « فإذا رجل قد علا الناس ثلاثة أذرع . قيل من هذا ؟ قيل : عمر بن الخطاب » .

وكان عمر، كغيره من شبان مكة ورجالها، محباً للشراب متوقفاً عليه . بل لعله كان أشد من أمثاله ولما به . كذلك كان له صَدْرٌ شبابه غرامٌ بالفانيات ، جعل الذين يترجمون له يُجمعون على أنه كان صاحبَ خمر وصاحب نساء . وإنما كان يجرى في هذا على مألوف قومه ؛ فقد كان لأهل مكة بالنبيذ غرام أي غرام ، وكانوا يجدون في النشوة به نعيماً أي نعيم وكانوا يتخذون من جواربهم وما ملكت أيما نهم متاعاً للهوهم وشهوتهم ، ويجدون في غير الجوارى سلوةً وجِدْهم وغرامهم . وشعرهم في الجاهلية يتحدث عن ذلك ويفتخرون فيه . ومن بعد الإسلام كان شعر عمر بن أبي ربيعة وأمثاله فتنه لفانيات مكة ممن ورثن عن أمهاتهن وخالاتهن نزوعاً إلى الهوى أثمه الإسلام ولم يكن مأثماً قبله .

فلما تيمم لعمر شبابه هوت إلى الزواج نفسه . وقد ورث عن قومه ميلاً لكثرة الزوجات طلباً للولد . فتزوج في حياته تسع نسوة ولدن له اثني عشر ولداً : ثمانية بنين وأربع بنات . تزوج زينب بنت مظعون فولدت له عبد الرحمن وحفصة ؛ وأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب فولدت له زيدا الأكبر ورقية ، وأم كلثوم بنت جبرول بن مالك فولدت له زيدا الأصغر وعبيد الله . وقد فرّق الإسلام بين عمر وأم كلثوم بنت جبرول . وتزوج جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح فولدت له عاصماً . وكانت جميلة هذه تدعى طابية ، فغير النبي اسمها ، وقال لها : بل أنت جميلة . وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة فولدت له فاطمة . وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو فولدت له عياضاً . أما الهيمية فأم ولد ، وولدها عبد الرحمن الأوسط . وفُسَكِيَّة أم ولد كذلك وقد أنجبت زيدا أصغر ولده . كما أن عبد الرحمن الأصغر أمه أم ولد اختلف المؤرخون في اسمها .

وقد تزوج عمر أربعاً من أولئك النسوة بمكة ، وخمساً بعد هجرته إلى المدينة . على أن جهم لم يكتمل قط في بيته . فقد رأيت الإسلام فرّق بينه وبين أم كلثوم بنت جبرول ، وقد طلق نسوة غيرها : طلق أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وطلق جميلة التي ولدت عاصماً . ولو أن السن امتدت به لتزوج غير أولئك النسوة التسع . فقد خطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة ، وهو على إمارة المؤمنين ، وأرسل فيها إلى أختها عائشة ، فسألت أم المؤمنين أختها في ذلك فرغبت عنه ، وقالت : إنه خشن العيش شديد

على النساء . وخطب كذلك أم أبان بنت عُتْبَةَ بن ربيعة ، فكرهته وقالت : يغلق بابي ويمنع خيريه ، ويدخل عابساً ويخرج عابساً .

وما ذكرته أم كلثوم بنت أبي بكر عن شدته وغلظته ، وما ذكرته أم أبان عن عبوسه وقسوة عيشه ، كان بعض طبعه في شبابه ، ثم لزمه سائر حياته . لما استُخلف كان أول دعائه قوله : « اللهم إني غليظ فليتنى اللهم إني ضعيف فقوّني ! اللهم إني بخيل فسَخِّنِي ! » . ولقد ورث الغلظة عن أبيه وقسوته عليه في صباه ، ثم أعانتها قوة بدنه من بعد على بقائها . أما ما ذكر عن بخله فسببه أنه لم يكن غنياً ، وأن أباه لم يكن غنياً . وقد ظل متوسط الحال في الغنى طيلة حياته ، مع أنه كان يعمل في التجارة كالكثيرين . - بقاء مكة . ولعل غلظته هي التي حالت بينه وبين الإفادة من التجارة ما أفاد غيره . فهو لهذه الغلظة لم يكن يستطيع بالتجارة أن ينفع الماء من الحجارة ، ولا أن يحيل التراب ذهباً ، على تعبير قومه من قريش . هذا مع أنه لم يكن يقف من تجارته عند رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام ، بل كان يذهب إليهما وإلى غيرها من بلاد فارس والروم . لكنه كان في رحلاته هذه أكثر اشتغالا بتثقيف ذهنه منه بإنماء تجارته . وقد أشار المسعودي في مروج الذهب إلى رحلات عمر في جاهليته وأنه لقي في أثناءها كثيراً من أمراء العرب وتحدث إليهم . وأغلب الظن أن ما كان يقوم به من السفارة عن قريش ، وما بلغه من المعرفة بالأنساب وأيام العرب ، وما أطلع عليه أثناء قراءاته في كتب عصره ، قد جعله أكثر حرصاً على الكسب لزيادة علمه منه على الكسب لنماء ماله .

وهذه حال تجعل صاحبها أكثر اعتداداً بذاته واعتزازاً بنفسه . فصاحب المال في حاجة إلى إدامة صلاته الحسنة بالناس ، محافظة على ماله وطمعاً في تكثيره . والعامل في التجارة نجاحه فيها بحسن حيلته وافتنانه في أساليبها . أما طالب الحكمة والراغب في المعرفة ، فيستعين بالمال وبذل الدنيا ؛ لأن الحرص على المال يصرفه عن الحكمة ويزيده تعلقاً بالدنيا وإذعاناً لذوى السلطان فيها . ومن أذل الدنيا واستهان بالمال وطلب الحكمة والمعرفة اعتز بنفسه أيما اعتزاز ؛ وقد يبلغ من ذلك أن يعتزل الناس ازوراراً عنهم ، ورغبة عما بأيديهم ، وتسامياً عليهم . وهذه مرتبة لم يبلغها عمر في شبابه ،

فأما الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالذات فكان له منهما أوفر نصيب .

والتماس عمر أسباب المعرفة قد جعله منذ شبابه يفكر في شؤون قومه وما يصلحهم ؛ ثم جعله اعتزازه بنفسه يتعصب لرأيه فيما ينتهي إليه من ذلك ، فلا يقبل فيه جدلاً وقد مالت به شدته ومال به بأسه إلى أن يبلغ بتعصبه حد العنف ، وأن يناضل عن رأيه بيد البطش ، كما يناضل عنه بحدة اللسان . لكن ذلك لم يمنعه من أن يقلب آراء غيره فيما بينه وبين نفسه ، ليسكون أبلغ حجة في رفعها وأقوى يداً في القضاء عليها .

ولم تكن الآراء في مكة ولا في غيرها من بلاد العرب لتختلف في شؤون الاقتصاد وشؤون الاجتماع وما إليهما ؛ فقد ألف الناس في هذه الشؤون ألواناً من الرأي ، ورثوها عن آبائهم ، وأخذوا بها في حياتهم ، واطمأنوا إليها فيما بينهم من صلات ؛ وإعما وقع الخلاف على دينهم وعباداتهم . ذلك أن النصارى واليهود المقيمين بينهم كانوا ينكرون عبادة الأصنام ، ويرونها باطلاً يجب أن يتنزه العاقل عنه . وقد كان الذين رآهم العرب ببلاد الروم أثناء رحلة الصيف من أمثال هؤلاء اليهود والنصارى أرقى من الغرب حضارة ، وكانوا ينسبون رقيهم إلى أديانهم . ثم إن المبشرين بالمسيحية في ذلك العصر كانوا ذوى نشاط في الدعوة إلى دينهم والتبشير به مثل نشاطهم اليوم . لذلك صَبَأ من العرب أفراد ذوو حكمة أنكروا الأصنام وعبادتها .

ترى أصبأ عمر ، وهو القارئ السكاتب ، مع الصابئين ؟ .

كلا ! بل كان حرباً على هؤلاء أهول الحرب . وكان يرى في خروجهم على دين قومهم تقويضاً لركن الجماعة العربية ، ويرى لذلك محاربتهم والقضاء عليهم حتى لا يستفحل أمرهم . ولعله لم يكن متعصباً في هذا الرأي للأصنام وعبادتها تعصبه لقومه ، حرصاً على نظامهم وعلى ما يكفله النظام من إمساك كياناتهم وشد أزهرهم إزاء غيرهم من الأمم . والواقع أن العالم اضطرب منذ أقدم العصور بين أمرين جوهرين لحياته ، وهو لا يزال حتى اليوم مضطرباً بينهما ، ينصر أحدهما حيناً وينصر الآخر حيناً . هذان الأمران هما الحرية والنظام : حرية الفرد ، ونظام الجماعة . فالجماعة لا حياة لها إلا بالنظام . والفرد لا حياة له إلا بالحرية . فإذا تعارضت حرية الفرد ونظام الجماعة فأيهما تؤيد ؟

النظام لا ريب ، لحرية الفرد لا كفيل لها إلا نظام الجماعة . وإذا أهدر نظام الجماعة أهدرت حرية الفرد معه لكن ! أليست حرية الفرد حدود تجعلها لا تتعارض ونظام الجماعة ! أو ليست لنظام الجماعة حدود كذلك تجعله لا يتعارض وحرية الفرد ! هذه الحدود هي التي كانت ولا تزال موضع الخلاف . فالحرية الفرد حدود في الحياة الاقتصادية ، وفي الحياة الاجتماعية ، وفي الحياة السياسية ، وفي غير هذه من مظاهر الحياة . ولنظام الجماعة كذلك حدود في مظاهر الحياة ومرافقها جميعاً . ولطالما قامت الثورات وشبّت الحروب بسبب الخلاف على هذه الحدود للحرية وللنظام في الأمة الواحدة وفي علاقات الأمم بعضها ببعض . بل إن الحرب كثيراً ما شبت لأغراض السيادة والاستعلاء ، ثم لم يلبث الدعاة لها أن استظلوا بلواء الحرية حيناً ، وبلواء النظام العالمي الكفيل للحرية العامة حيناً آخر . وقد تواضع الناس في كثير من الأزمان على أن حرية الرأي والعقيدة لا يمكن أن تتعارض مع نظام الجماعة ، مادامت محصورة في حدود العقيدة والرأي والتعبير عنها . لكن ذلك لم يكن أمراً مقررّاً في عهد عمر . وكثيراً ما شبت الحرب بين فارس والروم تعصباً لدين على دين . بل لقد شبت الحروب الصليبية بعد ذلك بين أوروبا المسيحية والمسلمين ، وظلت أزماناً طويلة متصلة الضّرام بسبب العقيدة . ذلك لأن الدين اعتبر من أسس الحياة الاجتماعية . وقد أدّى ذلك إلى اعتبار الذين يدينون بغير دين الدولة في حكم الأجانب عنها ، إذا تسامحت معهم لأنهم ورثوا عقائدهم عن آبائهم فإنها لن تجعل لهم من الحقوق ما لبني دينها . لا عجب إذاً أن يكون عمر في جاهليته عدوّاً لمن يبدو غير الأصنام . ولا عجب أن يكون حرباً على من صبأ من بني قومه على عبادة ما كان يعبد آباؤه وأجداده .

ولم يُعَن عن هؤلاء الصابئين عنده أنهم كانوا ذوي حكمة ورجحان عقل ؛ بل لعل حكمتهم ورجحان عقلهم جعلهم أكبر جريرة في نظره . فالناس لا يتبعون الجهال منهم ولا يتابعون عامتهم ، وإنما يتبعون من بني عشيرتهم من عرفوا حسن بصره بالأمور ، ودقة منطقته في تحرّى الحق . فإذا جاز لقس بن ساعدة الإيادي أن يعيب أوثان العرب فهو نصراني له من دينه ما يعذره . أما زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان

ابن الحويرث ، وعبد الله بن جحش وأمثالهم من أهل مكة الذين انصرفوا عن عبادة الأصنام ، وقال بعضهم الشعر في التوحيد ، فلا عذر لهم ولا مفرّ من خصومتهم وحرهم . فلو أنهم تَرَكُوا وشأنهم لأضلّوا جمهور الناس وفرّقوا كلّتهم ، ولأوشكوا أن يُثيروا في الأرض الفساد . وهذه الحدة من عمر وأمثاله قد حفظت على قريش وحدتها ، وعلى مكة مكاتها ، وجعلت الحكماء يقصّرون حكمتهم على أنفسهم ، فلا يثيرون غيرهم لاتباعهم ، وتغيير ما ورث الناس من عقائد آبائهم وأجدادهم .

وقد كان عمر من أشد قريش على الصابئين فيها وأكثرهم جرأة عليهم ، وأقسام معاملة لهم . وكان له من غلظته ومن سرعته إلى الغضب ما يدفعه إلى المبالغة في شدّته . وهو لم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين ، فكان شبابه يذهب به في التعصب لرأيه إلى أبعد مدى . وقد اقترنت حدّته في التعب لرأيه بغلظته وقسوته ، فكان يحارب الخارجين على عبادة الأصنام أشد الحرب ، ثم كان أشد حرباً للذين يعيبونها .

في هذا الحين أذن الله فبعث محمداً إلى قومه يدعوهم للهدى ودين الحق . فلما بدأت دعوة التوحيد تنتشر ، أخذ المتعصبون للأصنام من أهل مكة يعدّون للمستضعفين ممن أسلموا ليردّوهم إلى عبادة الأصنام وكان عمر بن الخطاب من أشد أهل مكة خصومة للدعوة الجديدة ومحاربة لها ، وسعيًا لفتنة الذين اتبعوها .

ذكر ابن هشام أن أبا بكر مرّ به يوماً وهو يضرب جارية ويعدّبها لترك الإسلام ، ولقد ظل يضربها حتى ملّ لكثرة ما ضرّ بها . عند ذلك تركها وقال : إني أعتذر إليك إني لم أتركك إلا ملالة . وأجابته الجارية : كذلك فعل الله بك . وابتاع أبو بكر الجارية فأعتقها .

لم يكن عمر يحارب محمداً ودعوته تعصباً وجهلاً ؛ فقد رأيت من أحكم أهل مكة وأكثرهم علماً . وهو قد سمع من أقوال محمد ما أعجبه ، فلم يزد ذلك خصومته للدعوة الحديثة إلا الحاجة وقوة ، ولم يزد إلا إمعاناً في إيذاء من يستطيع إيذاءهم من المسلمين ، حتى كانوا يلحقون منه البلاء أدّى لهم وشدة عليهم . ذلك بأنه رأى في متابعة هذا الرجل تفويضاً لنظام مكة وإثارة للفساد فيها . ومكة ونظامها وطمأنينة أهلها أحب إليه من محمد

ومن دعوته التي فرقت كلمة قريش وهوت مكانة البلد الحرام . والصبر على هذه الدعوة . يزيد كلمة قريش فرقة ومكانة مكة تهوينا . ولئن وقفت قريش من محمد عند مناواة الذين اتبعوه . ومحاولة رد الضعفاء منهم عن دينهم ، ليذهبن ذلك بريح مكة ، وليجعلن قريشاً مضغة في أفواه العرب جميعاً .

وأى ذنب جنى هؤلاء الضعفاء حتى بعدوا ! إنما الذنب ذنب محمد وسحر بيانه وقوة منطقته . فهذا البيان الساحر هو الذى خلّب عقول الضعفاء وعقول غيرهم ممن صبتوا عن دين آبائهم وأجدادهم . فلو أن محمداً مات لانقضت الفتنة وانجلت الغمة ، وأطل السلام البلد الحرام . وما قتل فرد لنجاة قبيلة ، بل لنجاة قبائل مكة جميعها ، فتمود كلمتها إلى الاجتماع ، ونظامها إلى الاستقرار ! !

لكن محمداً يقول كلاماً حسناً . وهو لم يزد على ترديد هذا الكلام ودعوة الناس بالحسنى لاتباعه . وهو بعد رجل لم تجرب عليه قريش كذباً قط . أفيقتل لغير شيء إلا أن يقول ربى الله ، ويقول ذلك لأنه يعتقد ويؤمن به !

وكيف السبيل إلى قتله أو التخلص منه وهو من بنى هاشم ، وبنو هاشم يمدعونهم ! وبين الذين آمنوا به واستجابوا لدعوته وقاموا معه جماعة ذوو مكانة ينتمون إلى قبائل عزيزة تمنعهم كما يمنع بنو هاشم محمداً . فأبو بكر وطلحة بن عبيد الله من بنى تيم بن مرة ؛ وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص من بنى زُهرة ، وعثمان بن عفان من بنى عبد شمس ؛ وأبو عبيدة بن الجراح من بنى فهر بن مالك ، والزبير بن العوام من بنى أسد . ول هؤلاء جميعاً من المكانة في قبائلهم ما يقتضيها الذود عنهم إذا اعتدى معتد عليهم . فلأن عمر حاربهم وحارب محمداً معهم وألب قريشاً عليهم لأثار بمكة حرباً أهلية أشد خطراً على مكانتها من محمد ودعوته .

كانت نفس عمر تضطرب بهذه الخواطر كلها خلا إليها . فإذا خرج إلى قومه ورأى تفرق كلمتهم راجعه حرصه على أن تعود إلى مكة سكينة بالقضاء على مصدر هذه الفرقة . وظل هذا الخاطر يتردد في نفسه ، حتى أمر محمد من أتبعه بالهجرة إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم . فلما رآهم عمر يفارقون أهلهم ووطنهم رقى لهم ، وحزّ الألم في قلبه لفرارهم ، وعظم

عليه الأمر ، فثارت نفسه وطال تفكيره في التخلص من محمد ودعوته . إنه إن لم يفعل يُرْحَ قريشاً ويُرَضِ آلهة الكعبة وآلهة العرب جميعاً . فإن أصابه بفعلته مكروه احتمله في سبيل قريش وفي سبيل مكة . وقريش أهله ، ومكة وطنه . والمكروه في سبيل الأهل والوطن سائغ مستحب .

ذلك ما استقر عليه عزمه . لكنه نسي أن الله في الخلق حكمة ، وأن حكمته جل شأنه قضت أن يقلب عقل عمر ثورة غضبه ، فيؤمن بحمد ليكون الفاروق الذي يتحدث الناس باسمه في إجلال وإكبار إلى آخر الدهر .

الفصل الثاني

إسلام عمر

المشهور أن عمر بن الخطاب أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة . وتزيد روايات في هذا العدد وتنقص أخرى منه . وقد لاحظ ابن كثير في « البداية والنهاية » أن عمر أسلم بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وأن عدد الذين هاجروا إليها قارب التسعين بين رجال ونساء ، وأن عمر ذهب بعد هجرتهم يريد محمداً وأصحابه المسلمين بدار الأرقم عند الصفا فكانوا أربعين رجلاً ونساء : أنت إذاً في حلٍّ من القول بأن الذين سبقوا عمر إلى الإسلام يقرب عددهم من ثلاثين ومائة ، وإن تعدد عليك أن تصل من ضبط العدد إلى أكثر من هذا التقريب المخالف للمشهور .

أما الروايات في سبب إسلامه فتختلف . وأشهرها أن عمر ضاق ذرعاً بما فرقت دعوة محمد من كلمة قريش ، وما حملته وأمثاله على إيذاء من أسلموا ليفتدوهم عن دينهم ، ويردوهم إلى دين قومهم . فلما أشار محمد على أصحابه أن يتفرقوا في الأرض فراراً إلى الله بدينهم ، ونصح لهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة ، ورآهم عمر يترحلون ، رقاً لهم وشعر بالوحشة لفرارهم . روى عن أم عبد الله بنت أبي حنثة أنها قالت : « والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه ، وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا . وقف وقال : إنه للأنطلاق يا أم عبد الله ؟ قلت : نعم والله ! لنخرجن في أرض الله . آذيتونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله مخرجاً . فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقّة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه ، فيما أرى ، خروجنا . وعاد زوجها فذكرت له هذا الحديث الذي دار بينها وبين عمر وأنها طمعت في إسلامه . فقال لها : لا يُسلم هذا حتى يُسلم حمار الخطاب .

وتجري الرواية بأن عمر حزن لترحل بني قومه عن وطنهم ، بعد أن عذبوا وأوذوا ، جعل يفكر في الوسيلة التي تُنقذهم مما هم فيه ، فرأى أن هذا الأمر لا ينجح

فيه إلا علاج حاسم . هنالك عزم أن يقتل محمداً ؛ فليس إلى اجتماع كلمة قريش مع بقائه
بينها سبيل . فغداً يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه ذكر له أنهم
اجتمعوا بدار الأرقم عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء . وفيما هو
في طريقه لقيهم نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ؟ قال : أريد محمداً ، هذا الصابي
الذي فرق أمر قريش ، وسفّه أخلاقها ، وعاب دينها وسب آلها ، فأقتله . قال نعيم : والله
لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض
وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ! قال عمر : وأى أهل بيتي ؟
فأجابه صاحبه : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ،
فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ،
وكان عندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة يُقرئها فيها سورة « طه » : فلما سمعوا حس
عمر اختفى خباب في مخدع لهم وأخفت فاطمة الصحيفة . ودنا عمر من البيت ، وسمع قراءة
خباب فقال حين دخل : ما هذه الهينة التي سمعت ؟ قالت فاطمة : ما سمعت شيئاً . قال :
بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت
فاطمة لتكفّه عن زوجها فضربها فشجّها . فلما فعل ذلك قال له : نعم ، قد أسلما وآمنا
بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ! فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى
وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء
به محمد . وأجابته أخته : إنا نخشاك عليها : قال : لا تخافي ، وحلف لها بألمته ليردنها إليها
متى أتم قراءتها . وأعطته فاطمة الصحيفة ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا
الكلام وأكرم ! فلما سمع خباب عبارته خرج من مخبئه وقال له : يا عمر ! والله إنني
لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد
الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فوالله الله يا عمر ! عند ذلك قال
عمر له : فدأتني يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم . فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا
في نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشح به ، وسار حتى ضرب الباب على رسول الله
وأصحابه . وسمع القوم صوته ونظر أحدهم من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع

فزناً يقول . يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيوف . قال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له . فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ بجميع رداءه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال له : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حين ينزل الله بك قارعة ! فقال عمر : يارسول الله جئت لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ؛ فكبر رسول الله تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم .

هذه أشهر الروايات في إسلام عمر . وتم روايات أخرى ، من أشهرها ما أسند إلى عمر نفسه أنه كان يقول : « كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية ، أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش . فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ، فلم أجد فيه منهم أحداً . فقلت : لو أني جئت فلاناً الخمار ، وكان بمكة يبيع الخمر ، لعلني أجد عنده خمرأ فأشرب منها ، فخرجت إليه فلم أجد . فقلت . لو أني جئت الكعبة فطقت بها سبعا أو سبعين ! فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي . وكان إذا صلى استقبل الشام ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام وكان مصلاً بين الركنتين : الركن الأسود والركن اليماني . فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت لحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ! وخشيت إذا أنا دنوت منه روعته ! فجئت من قِبَل الحجر فدخلت تحت ثياب الكعبة ، فجعلت أمشي رويداً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن ، حتى قمت في قبلته مستقبلاً ، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة . فلما سمعت القرآن رقى له قلبي ، فبكيت ودخلني الإسلام ، فلم أزل قائماً في مكاني حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف يريد بيته فتبعته ، حتى إذا اقترب من بيته أدركته ، فلما سمع حسبي عرفني وظن أني إنما أتبعته لأوذيته ، فزجرني ثم قال : ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة ! قلت : جئت لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله . لحمد الله ثم قال : قد هدك الله يا عمر . ثم مسح صدرى ودعا لي بالثبات ، وانصرفت عن رسول الله مؤمناً بدينه . »

ولهذه الرواية المنسوبة إلى عمر صورة وردت في مسند الإمام أحمد بن حنبل لعلها تُكمل ما تقدم ، وهى تجرى بأن عمر قال : « خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد فقامت خلفه ، فاستفتحت سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ! فقرأ : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ) . قالت كاهن ! فقرأ . (وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) ، إلى آخر السورة . فوقع الإسلام في قلبى كل موقع . »

هذه هى الرواية التى تلى الأولى فى الشهرة . وابن إسحاق يثبت الروایتين ويردفعهما بقوله : « والله أعلم أى ذلك كان . »

هاتان الروایتان ومثلهما مما أوردته الكتب عن إسلام عمر تصوّر اليوم الذى ترك عمر فيه آبائه وأجداده ، وأشهد رسول الله على إيمانه بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . لكنها جميعاً لا تصور التصور النفسى الذى أدّى بعمر إلى أن يُسلم . أفكان ذلك أمراً مفاجئاً ؟ أفبلغ من مبادعة عمر للإسلام وعداوته له أنه أبى النظر فيه والتدبر لشيء من أمره ، ثم قذف الله بالإيمان إلى قلبه ، وجعل الصحيفة التى كان خُتّاب يقرأها لأخته ، أو القرآن الذى كان رسول الله يتلوهُ فى صلاته ، وسيلته جل شأنه لهداية هذا الرجل الذى كان لدينه عدواً ؟ أم كان الأمر غير هذا ، وأن عمر قد سمع القرآن قبل أن يقرأه فى صحيفة خُتّاب ، وقبل أن يختفى تحت ثياب الكعبة فيسمعه من رسول الله ، وأنه قلب فيه نظره بينه وبين نفسه ، ثم كان يعود إلى التفكير فى أمره وأمر محمد ومن اتبعه ، وأن تفكيره الطويل هداه بإذن الله إلى ما اهتدى إليه ؟

لا تصور لنا روايات المؤرخين عن إسلام عمر ما كان من هذا أو ذاك ، مع أن تصويره ليس بالأمر العسير ، ومع أن هذا التصوير يحسم أمراً يعتبره الجمهور من المسلمات ، ونراه مرجوحاً لا يثبت للنقد لحظة .

هذا الأمر هو ماجرت به الرواية المشهورة من أن عمر ذهب يقتل محمداً وهو

في أصحابه عند الصفا لولا أن هداه الله حين قرأ الصحيفة التي كان خباب يقرؤها ختنه وأخته. فليس بمعقول أن يقصد عمر إلى قتل محمد بالسيف وهو بين أربعين من أصحابه فيهم حمزة ابن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهما من أبطال مكة، ثم يحسب مع ذلك أنه قادر على تنفيذ مقصده. قد يصح أنه عزم التخلص من محمد بالقتل، وأنه فكر في الوسيلة لتنفيذ عزمه، فلما قرأ الصحيفة ورأى ما فيها حسناً رجع عما فكر فيه ثم أسلم. أما أنه أراد القتل على النحو الذي تصوره القصة المشهورة في إسلام عمر فلا يسيغه العقل، وهو لذلك مرجوح عندى. والراجح ماورد في الرواية الثانية على لسان عمر نفسه وما أيده ابن حنبل في مسنده.

وهذا الراجح يتفق وما عُرِف عن نفسية عمر وشخصيته. فقد كان من صميم قومه، وكان متعصباً لهم، حرصاً على نظامهم وعلى مكانة بلدهم. ثم إنه كان رجل عمل، قيمة الفكرة عنده أثرها الفعال في الحياة. فأما التأمل للتأمل، وأما الهيام بالفكرة لذاتها وإطالة التقلب فيها ابتغاء الحقيقة المطلوبة في جوانبها، ولو لم يكن للحقيقة وللافسكرة مظهر يتأثر الناس في حياتهم به، فذلك مالم يكن يغريه أو يخرج عن إلف قومه. كان ذلك رأيه في شؤون الحياة جميعاً، بل كان رأيه في شؤون العاطفة نفسها. فهو لم يكن يطمئن أن يقضى الشاب وقته يتلطف بامرأة أو يتغنى بمفاتنها، يريد بذلك أن يفتنّها، بل كان يرى ذلك ضعفاً غير جدير برجل كملت رجوليته: لذلك لم يعطف يوماً على أولئك الغزلين الذين يتخذون من التغنى بالحب صناعة لهم. أما مظهر رأيه هذا في أمر العقيدة، فكان في شدة برّيه بابن عمه زيد بن عمرو، لأنه صبأ عن دين قومه، وذهب يلتبس دين الحق عند غيرهم: هذا كله كان في رأى عمر خيالاً لا أثر في الحياة له، ولا يتفق مع ما فطر عليه من حرص على نظام الجماعة، وعلى مكانة مكة بين العرب جميعاً.

وقد كان هذا الاتجاه الفكرى متفقاً مع خلق عمر؛ فقد كان قوياً في بدنه، وكان لذلك يؤمن بالقوة في كل مظاهرها. وكان أشد بمظاهر القوة إيماناً أول ما بعث النبي لأنه كان في فتوة شبابه، لمّا تحفف تجارب الحياة من حدته واندفاعه. لهذا كان يعذب من يستطيع تعذيبهم ممن يتبعون رسول الله ليفتتهم عن دينهم. ولو أستطاع أن

يحاربهم جميعاً لحاربهم . لكنه كان يعلم أن قبائل قريش تمنع رجالها ، وأن من قبيلته بنى عدى من لم يكونوا على رأيه . لذلك وقف أمره كما وقف أمر غيره من قريش عند تعذيب المستضعفين ، دون أن يستطيعوا البطش بأبى بكر وعثمان بن عفان وأبى عبيدة ابن الجراح وأمثالهم ممن كانت قبائلهم تمنعهم ، وإن لم يصدّم ذلك عن مقاطعتهم وإيذاء من يستطيعون إيصال الأذى إليه منهم .

على أن عمر كان إلى هذا كله رقيق القلب ، دقيق الحس بمعنى العدل . ومن آيات رقيقته ما كان منه حين قامت أخته تكفّه عن زوجها فضربها فشحّها ، فلما رأى ما بها من الدم ندم وارعوى . وهذه رقة كثيراً ما نجدها في الأقوياء والباطشين حين يرون أنفسهم جاوزوا الحد اعتماداً على قوتهم . وحواره مع أم عبد الله بنت أبى حثمة يوم أزمعت الرحيل مع المهاجرين إلى أرض الحبشة ، يشهد بهذه الرقة ويدل عليها بأبلغ الدلالة . وقد بلغ من تأثر أم عبد الله بن أبى حثمة بهذه الرقة أن قالت لزوجها حين رجع إليها: «لورأيت عمر أنفك ورقته وحزنه علينا ، حتى طمعت في إسلامه » . هذه الخصال مجتمعة تفسر لنا إسلام عمر من بعد .

لقد كان حريصاً على نظام مكة وعلى مكائنها ، مشفقاً أن تسيء الدعوة للدين الجديد إليها . فلما رأى النبي وأصحابه يدعون إلى رهم بالحسنى ولا يثيرون في الأرض فساداً ، ثم رآهم إلى ذلك أقوياء في دينهم كل القوة ، ورأى عقيدتهم أثمن عندهم من كل مافي الحياة ومن الحياة نفسها ، عاد يفكر في أمرهم وفي موقفه منهم . فقد هُذِّدوا وأوذوا وعذِّبوا ، فما استكانوا وما ضَعُفُوا ، وما كان جوابهم على ما أصابهم إلا أن قالوا ربنا الله . وزاد بهم الأذى والعذاب ، فأثروا التضحية بوطنهم على التضحية بعقيدتهم ، فركبوا البحر مهاجرين إلى أرض الله فراراً بدينهم . ليس هذا الدين إدافكرة نظرية لا أثر لها في حياة أصحابها ، ولا في حياة الجماعة التي يعيشون فيها ، بل هو قوة دافعة جسيمة الأثر في الحياة الفردية والحياة القومية كليهما . وقد بدا هذا الأثر في حياة مكة منذ بدأ الإسلام فيها ، ويكون هذا الأثر أعظم على الأيام وأكثر وضوحاً . فإذا يؤول إليه أمر مكة ومكائنها إذا اتصلت هذه الهجرة ، وتسامع العرب أن أبناءها

لا يقيمون بها لأنهم يُظلمون فيها مع ما بينهم وبين القبائل التي تتألف منها أم القرى من صلة القرى وآصرة المودة ، ويظلمون لغير شيء إلا أنهم خالفوا قومهم عن عقيدتهم . وفي بلاد العرب شتى العقائد : فيها المؤمنون بمختلف الأصنام والأوثان ، وفيها من أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وفيها مجوس يتبعون فارس . أليس خيراً لمكة أن يترك هؤلاء المسلمون لا يُضارّون في عقيدتهم ولا يُفتنون عنها ، وأن تترك الحرية لمن شاء أن يدخل في دينهم وأن يكون معهم ؟ وهل لرجل كممر تعلّم ما لم يتعلمه غيره ، وعرف من حكمة الفرس والروم واليهود والنصارى أكثر مما عرفوا ، أن يظل مُباعداً للمسلمين ، والّا ينظر في دينهم نظر البصير الناقد لا نظر المتعصب الخاقد ؟

لقد سمع وقومه دعوة محمد والقرآن الذي يوحى إليه . وقد عرف نبا الذين خرجوا يستمعون إلى رسول الله وهو يصلى أثناء الليل في بيته ، وكيف عادوا ليلة بعد أخرى يستمعون إليه ، وعرف ما كان من تلاومهم ، ثم عرف أن أبا الحكم بن هشام سئل عما سمع من ذلك فقال : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا ^(١) على الركب ، وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذا ! والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقه ! » ولهذا ظل أبو الحكم ومن معه يعدّون المسلمين بغياً بغير حق . وظل المسلمون على دينهم لا يفتنهم عنه العذاب ، بل يزيدهم له حباً وبه تمسكاً . أليست هذه حجة دامغة على أنهم على الحق ، وأن أبا جهل إنما أبى أن ينظر في دين محمد ، وأن يؤمن به أو يصدّقه ، لما بين بنى عبد شمس وبنى عبد مناف من تنافس ! فما لعمر لا ينظر في هذا الدين ، ولا تنافس بين بنى عدى وبنى عبد مناف ! لهذا ذهب عمر يستتر بثياب الكعبة ليرى محمداً يصلى ، وليسمع ما يتلو في صلاته من قرآن ربه . ولهذا حرص على أن يتلو سورة طه في الصحيفة التي كانت عند أخته . ولقد نظر في هذا كله وأطال فيه الفكر فاهتدى ، فأيد الله به دينه ، ونصر به رسوله .

(١) تجاذبنا : تجادبنا . من جذا مثل جثا .

كان النبي عليه السلام شديد الحرص على أن يؤيد الإسلام برجل قوى جرىء الجفان ، لا يخشى أن يناهض خصومه في سبيل عقيدته . ولذلك كان يدعو ربه : « اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ! » . وكان أبو الحكم رجلاً حديد الوجه ، حديد اللسان ، قوى الشكيمة ، لا يبالي الحرب ولا يهابها . وكان عمر بن الخطاب مارأيت . فإسلام أحدهما جدير بأن يؤيد المسلمين ، وأن يدفع الكثير مما يصيبهم من الأذى . لكن أبا الحكم كان متأثراً بما قدمنا من عامل المنافسة بين عشيرته وعشيرة محمد ، فلم يكن إيمانه بالدين الذي جاء به محمد أمراً ميسوراً . أما عمر فقد ظلت الدوافع تؤدي به إلى طريق الحق شيئاً فشيئاً ، وتحطم من حوله قيود التعصب لقومه ولنظام مدينته رويداً رويداً ، وتغلب في نفسه عناصر العدل الأصيل فيها على سائر العناصر ، حتى انتهى إلى ما قدمنا ، فجاهاً إلى محمد وهو بين أصحابه في دار الأرقم عند الصفا ، أو تبعه في الطريق من مصلاّه عند الكعبة إلى بيته ، فلما سأله رسول الله : ما جاء بك ؟ قال في غير تردد : جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .

وكذلك أسلم عمر عن يمينه بعد أن تبين مالهذا الدين من أثر قوى في نفوس المؤمنين به ، بتعدى أفرادهم إلى حياة الجماعة ونظامها : لذلك دخل في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها ، وحرص على أن يكون لجماعة المسلمين نظام يدافعون عنه كما تدافع قريش عن نظامها . فما لبث حين أسلم أن عمل على أن يذيع في قريش كلها إسلامه . روى أنه قال : « لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتته فأخبره أنني قد أسلمت . فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت على أبي جهل بابه ؛ فخرج إليّ فقال : مرحباً وأهلاً بابن أختي ! ما جاء بك ؟ قلت : جئت لأخبرك أنني قد آمننت بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به . فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله ! وقبح ما جئت به ! » .

وكان عبد الله بن عمر يوم أسلم أبوه غلاماً يعقل ما يرى : وقد ذكر من حرص أبيه على إذاعة إسلامه وتحديده قريشاً في ذلك فيما روى عنه أنه قال : « لما أسلم أبي عمر

قال : أى قریش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجُمَحى . ففدا عليه فقال له : أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟ فوالله ما راجعه حتى قام يجرّ رداءه . واتّبعه عمر ، حتى إذا وقف على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قریش — وهم فى أنديتهم حول الكعبة — ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ ! فيقول عمر من خلفه : كذّاب ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . عند ذلك ثاروا به ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم . وأعياء عمر فقمعد ، وقاموا على رأسه وهو يقول : إفعلوا ما بدا لكم . فأقسم بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم ، أو تركتموها لنا . فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قریش عليه حُلّة حَبَرَة وقميص موثى ، حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ! قال : فمَن ؟ رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ ! خلّوا عن الرجل .. فوالله لكانما كانوا ثوباً كُشِط عنه ...» فلما هاجر عمر سأله ابنه عبد الله : يا أبت ! من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ فقال عمر : ذاك يابىّ العاص بن وائل السهمى .

والعاص بن وائل السهمى هو أبو عمرو بن العاص . وقد بلغ من حمايته عمر حين أسلم أكثر مما رأيت . توعدت قریش عمر بعد أن انفضت عنه ، فبات فى داره خائفاً يتربّص . قال عبد الله بن عمر : فبينما هو فى الدار خائف إذ جاءه العاص بن وائل السهمى وهو من بنى سهم ، وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال له : ما بالاك ؟ قال عمر : زعم قومك أنهم سيقتلوننى أن أسلمت . قال : لا سبيل إليك . وبعد أن قالها أمين عمر ؛ فقد خرج العاص من عنده فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فسألهم : أين تُريدون ؟ قالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذى صبأ . قال : قد صبأ عمر فما ذاك ! فأنا له جار ! فتفرقت الفاس .

ولم يكن عجيباً أن يُجبر العاص عمر بن الخطاب بعد الذى قدّمنا من جوار بنى سهم لبنى عدى بن كعب فى الجاهلية ، وذلك حين نافس بنو عدى بنى عبد شمس فُعِلوا على أمرهم ، وأجلاهم بنو عبد شمس عن منازلهم عند الصفا ، واضطروهم إلى جوار بنى سهم .

وقد زاد هذا الجوارُ عمر جرأة في إسلامه ، وتحدياً لقريش ، ودفعاً لأذاها عن المسلمين .
بذلك زادت شخصيته بروزاً واعتداده بنفسه ظهوراً ، فكان له من المواقف ما لم يكن
لغيره ممن سبقه إلى الإسلام ، وما يسجله له المؤرخون تسجيل ثناء عليه وإعجاب به
أى إعجاب .

رُوى أن عمر راح يسأل النبي : يا رسول الله ! ألسنا على الحق إن متنا أو حيئنا ؟ فقال
عليه الصلاة والسلام : « بلى ! والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم أو حيئتم » . قال :
فقيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ! : فما لبث النبي أن خرج في صفين أحدهما
فيه عمر والآخر فيه حمزة ، ولهما كديد^(١) كأنه الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش
تنظر وتعلوها كآبة ، فلا يجرؤ سَلِيْطٌ منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان .
إنه أسلم ، فيجب أن يعرف الناس جميعاً أنه أسلم : ليفض منه من شاء أن يفض ،
وليحاربه منهم من شاء أن يحاربه ، وليتألب عليه من اجتمعوا في أنديتهم حول الكعبة
وليناضلوه وليقاتلوه ، وليبلغ ذلك منه حتى يناله الإعياء ، فلن يصرفه ذلك عن تحديهم
ومصارحتهم بأنه محاربهم ، وبأن المسلمين متى بلغوا ثلاثمائة رجل فستكون الحرب حتى
يجلى المسلمين المشركين عن مكة ، أو يُجْلِيهم المشركون عنها . ولن يرده ما يعرفه من حدة
أبى جهل وبأسه عن أن يذهب إليه في داره فيضرب عليه بابه ليقول له إنه أسلم هو
قوى مؤمن بالقوة . وهو شاب أشد بالقوة إيماناً . وهو جرىء صريح لا يهاب الأقران
ولا يخشى أحداً . لذلك لم يَسْتَخَفِ كما استخفى غيره من المسلمين ، بل أقسم لِيَصْلَيْنَ مع
المسلمين عند الكعبة ، وذلك بعد أن كانوا يصلون مستخفين في شِعْب من شعاب الجبل
الحيط بمكة .

والقد برّت يمينه . كان عبد الله بن مسعود يقول : « كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت
هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة . لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر
فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا » . وكان يقول : « مازلنا أعزة منذ أسلم عمر » .

(١) الكديد : التراب الناعم .

وروى عن صُهَيْب بن سِنَان أنه قال : « لما أسلم عمر أظهر الإسلام ودعا إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حِلَقًا وطفنا بالبیت ، وانتصفنا من غُلْظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به . »

والحق أن عمر لم تَطِبْ نفسه إلا أن جاهد قریشاً ، ليكون له ولإخوانه المسلمين ما لغيرهم من حق في بيت الله والصلاة لله حوله . وهو ما لبث حين جاهدها أن رأى معه حمزة بن عبد المطلب يجاهد جهاده ، ويخرج وإياه مع المسلمين إلى موقف إيجابى لم يقفوه من قبل ، موقف النضال ليكون لهم من الحقوق ما لغيرهم من قریش ، وليكون لهم من حرية الدعوة إلى دينهم ما لا سبيل لقریش أو لغير قریش أن تقف دونه .

وكان لهذا الموقف الإيجابى أثره في قبائل قریش جميعاً . كان فيها كثيرون تهوى قلوبهم إلى الإسلام ، ثم يمنهم الخوف من أذى قریش أن يدينوا به ، فلما رأوا عمر أسلم وقاتل قریشاً وصلى عند الكعبة وصلى المسلمون جميعاً عندها ، دخلوا في دين الله وظنوا أنهم أصبحوا بمنجاة من الأذى ومن العذاب . عند ذلك قالت قریش بعضها لبعض : « إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشى أمر محمد في قبائل قریش كلها » وجعلوا يفكرون في هذا الموقف الجديد كيف يواجهونه .

وانتشر النبأ بإقبال كثيرين من قریش على الإسلام ، ثم انتقل هذا النبأ من الحجاز إلى الحبشة ، وعرفه المسلمون الذين هاجروا إليها ، فعادوا إلى وطنهم . فلما دنوا من مكة بلغهم أن ما تحدثوا به من إسلام أهلها لا يتفق والواقع . ذلك أن قریشاً ما لبثت حين رأت كثيرين من أبنائها يقتفون أثر عمر ويتبعون محمداً ، أن تعاهدت قبائلها فيما بينهم فكتبوا صحيفة تعاقدوا فيها على بنى هاشم وبنى المطلب ، على ألا يُنْكِحُوا إليهم ولا يُنْكِحُوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . ورأى الذين هوت أنفسهم إلى الإسلام ولما يُسلموا ما صنعت قریش ، فترددوا ، فوقفوا دون اتباع رسول الله . بذلك عادت الحرب العوان بين قریش والمسلمين . وعرف المسلمون الذين عادوا من الحبشة ما كان من ذلك ، فلم يدخل أحد

منهم البلد الحرام إلا بجوار أو مستخفياً ، ورجع منهم إلى الحبشة كثيرون .
عادت الحرب العوان بين قريش والمسلمين ، وصار عمر يتعرض لما يتعرض له أصحاب
رسول الله ، ويصيبه ما يصيبهم ، ويتبع الوحي الذي ينزل من عند الله ثم يزداد بقوة
إيمانه ودقة نظامه وحسن رأيه قرباً من النبي وحظوة عنده ، ليسكون له من بعد في صحبة
رسول الله ، وفي عهد أبي بكر ، ، وفي حياة الإسلام ذلك الأثر البالغ الذي جعل اسمه علماً
على القوة والعدل والرحمة والبر مجتمعة ، وجعل عهده من أعظم العهود في تاريخ الإمبراطورية
الإسلامية ، بل في تاريخ الحضارة الإنسانية .

الفصل الثالث

في صحبة النبي

دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها . فما لبث حين أسلم أن حرص على أن يذيع في قريش كلها إسلامه . كان المسلمون لا يستطيعون أن يصلوا بالبيت العتيق ، فقاتل عمر قريشاً حتى تركوهم فصلوا ، وكانت الدعوة إلى الإسلام تجري خفية ، حتى إذا أسلم عمر دُعيَ إليه علانية ، وجلس المسلمون حول البيت وطافوا به وانتصفوا من غلظ عليهم . لذلك فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فأقبل كثيرون من أبنائها على الإسلام . هنالك ائتمرت قريش ، فتعاهدت قبائلها فكتبوا بينهم صحيفة علقوها في جوف الكعبة وتعاهدوا فيها على ألا تكون بينهم وبين محمد وبني هاشم وبني المطلب تجارة أو صلة . بذلك ازدادت الحرب شدة بين قريش والمسلمين .

وقد استعانت قريش في هذه الحرب بكل الأسلحة : استعانت بسلاح الدعاية فرعمت أن محمداً ساحر البيان يفرق بقوله بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . ودست عليه النصير بن الحارث يخلفه في كل مجلس ليقص على قريش نبأ فارس ودينها ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتبها كما اكتبتها . وأذاعت أن غلاماً نصرانياً اسمه جبر هو الذي يعلم محمداً أكثر ما يأتي به ، وكان محمد يكثر من الجلوس عند المرور إلى مَبْنَعَةِ هذا الغلام .

ثم إن قريشاً اشتد في إيذاء محمد وأصحابه : كانت أم جميل زوج أبي لهب تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله حيث يمر . وكان أمية بن خلف يهيمزه ويلمزه كلما رآه . وكانت فتنة المستضعفين بمختلف أساليب العنف من مألوف ما يجري بمكة كل يوم . وكان رسول الله والمسلمون الذين أقاموا معه بمكة ولم يهاجروا إلى الحبشة يلقون ما يصيبهم من ذلك كله صابرين على البأساء والضراء . فلما بلغ منهم الأذى وقاطعتهم قريش احتموا في شِعْبٍ من شعاب الجبل بظاهر مكة ، فكانوا فيه يعانون الحرمان ،

ولا يجدون من الطعام إلا القليل يحمله إليهم من أهل مكة من أخذتهم الشفقة بهم ، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً . وقد ظلوا في هذا الشعب ثلاث سنوات حسوماً ، لا يخرجون منه إلا في الأشهر الحرم . وفي هذه الأشهر كان محمد ينزل إلى العرب يبلغهم رسالة ربه ، فيرى بعضهم في صبره وصبر أصحابه على الأذى إيماناً بالحق الذي أوحاه الله إليهم فيتبعونه . وضاق هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية زرعاً بالصحيفة الظالمة التي قاطعت قريش بها محمداً فاتفقا مع آخرين فنزعوها من جدار الكعبة وشقوها . ولم تثر قريش لعملهم ، فماد محمد وأصحابه من الشعب ، وجعل يذيع دعوته بمكة وفي القبائل التي تفد إليها في الأشهر الحرم .

وكانت قريش تزدد في حرب محمد عنفاً كلما ازداد في الدعوة إلى الله إيماناً . ومات عمه أبو طالب ، وماتت زوجته خديجة ، فشجع ذلك قريشاً على زيادة التعرض له وإيذائه . وأراد أن يستنصر ثقيفاً بالطائفة فردّوه بشرّ جواب . وعرض نفسه في المواسم على القبائل وأتاه في منازلها ، فلم يسمع له منها أحد .

ثم كان الإسراء ، فانصرف جماعة من المسلمين عن دينهم ، وازداد قريش إيذاء لمن أقاموا على إسلامهم حتى ضاقوا بما يلقون منها ذرعاً . على أن دعوة محمد كانت قد انصلت على السنين ، فتركت من الأثر ما جعل كثيرين يفكرون فيها وفي الحق الذي تنطوى عليه . وكان أهل يثرب أكثر تأثراً بها من سائر العرب . لذلك أسلمت طائفة منهم كانوا النواة لبيعة العقبة الأولى ، وكان إسلامهم أول ما دعا رسول الله للتفكير في الهجرة إلى يثرب .

فلما استبدار العام أقبل من المدينة خمسة وسبعون مسلماً ، ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان . وهؤلاء هم الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية أو الكبرى . بايعهم رسول الله على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . ومن يومئذ أسر أصحابه بمكة أن يلحقوا الأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا تنثور قريش بهم . وكان هذا مبدأ الهجرة إلى المدينة ، وبدأ انتقال الإسلام إليها وانتشاره منها إلى سائر الأرجاء من شبه الجزيرة . هذه الفترة التي انقضت بين إسلام عمر وأسر محمد أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب

هي لاريب من أدق الفترات التي مر بها رسول الله ودين الله . أفكان لعمر بن الخطاب فيها مواقف تتفق وما عُرِف من صراحته وبأسه وقوة شكيمة ؟ لم تقف في كتب السيرة وكتب التاريخ على شيء من ذلك فيه غناء . لكن ذلك ليس معناه أن عمر في فتوة شبابه ومضاء بأسه وبالغ قوته ، قد وقف من الأحداث التي مرت حينئذ برسول الله وبالمسلمين موقفاً سليماً . فهو من غير شك قد كان من أكثر المسلمين شجاعة في احتمال ما ينزل بهم وصبراً عليه ، ومن أشدهم دفعا لما يستطيع دفعه من الأذى عن رسول الله وعن إخوانه المسلمين . لكنه رجل يؤمن بالنظام ويحرص أشد الحرص على اتباعه ، كان ذلك شأنه في الجاهلية فأحر به أن يكون شأنه في الإسلام . وقد كانت سياسة رسول الله في هذه الفترة التي نتحدث عنها تتجنب البأس والشدة في كل مظاهرها ، ولا تتجاوز المغفرة لمن أساء إليه ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، فإذا الذي يدينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . كان ذلك موقفه من قريش بمكة ، ومن ثقيف بالطائف ، ومن سائر القبائل التي دعاها إلى النور والهدى فاستكبرت وأعرضت عن دعوته . وهذه سياسة لم يكن لبأس عمر وقوته أن يظهرها معها ظهورهما يوم أسلم وقاتل المشركين حتى صلى وصلى المسلمون معه عند الكعبة .

فلما كانت الهجرة هاجر عمر إلى المدينة كما هاجر غيره من المسلمين ، فترك مكة في سر من أهلها ، وإن جرت رواية تنسب إلى علي بن أبي طالب بأنه قال : « ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب ؛ فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتكب قوسه ، وانتضى في يده أسهما واختصر عزته ^(١) ومضى قِبَلَ الكعبة ، والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الخلق واحدة واحدة يقول لهم : شأهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد أن يُشكّل أمه أو يؤتم ولده أو يرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادى . »

فابن هشام وابن سعد والطبري لا يثبتون هذه الرواية ، بل يذكرون ابن هشام في السيرة وابن سعد في الطبقات أن رسول الله أذن للناس في الهجرة ، على أن يتركوا مكة متفرقين

(١) العزّة : عصا لها زج كالرمح الصغير .

حتى لا تتورق ريش بهم ، فجعل المسلمون يخرجون أرسالاً ، يركب أهل القوة ويعتقبون ، فأما من لم يجدوا ظهراً فيمشون . قال عمر بن الخطاب : « فكنت قد اتعدت أنا وعيَّاش ابن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل ، وكنا إنما نخرج سرّاً ، فقلنا أيكم ما تخلف عن الموعد فليطلق صاحبه . فخرجت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة ، واحتبس هشام بن العاص ففُتِنَ فيمن فتن . وقَدِّمَت أنا وعيَّاش فنزلنا قُبَاءً » . ثم تذكر الرواية بعد ذلك أن عيَّاشاً عاد إلى مكة استجابةً لطلب أمه ، وأنه حُبِسَ هناك ثم فُتِنَ فافتن .

هل تتناقض هاتان الروايتان ؟ أم يستطيع التوفيق بينهما بأن عمر تحدى المشركين على ما جاء في الرواية المنسوبة إلى علي بن أبي طالب ، ثم هاجر بعد ذلك فخرج سرّاً على رواية ابن هشام وابن سعد ؟ نرجّح أن عمر لم يتحدّ أحداً ، وأنه هاجر من مكة في سر من أهلها . وهو لم يفعل ذلك ضعفاً منه أو جبناً ؛ فهو لم يعرف الجبن ولا الضعف حياته ، لكنه كان رجل نظام ؛ فهو يتبع الجماعة ويحمل غيره على اتباعها . وقد كان المسلمون جميعاً يخرجون في هجرتهم سرّاً . فلا عجب أن يحاربهم عمر في ذلك حرصاً على نظامهم ، وحتى لا يشعر الذين يخرجون سرّاً بأنهم دون عمر في قوة إيمانه بالله ورسوله .

بلغ عمر قُبَاءً ، فنزل بها في بني عمرو بن عوف على رفاعه بن عبد المنذر ، ونزل أهله على رفاعه معه . فلما جاء رسول الله مهاجراً وفي صحبته أبو بكر ، كان عمر فيمن استقبله وسار في ركبه إلى المدينة . وعمل عمر مع رسول الله والمسلمين في بناء المسجد وبناء بيت رسول الله ، حتى انتقل عليه الصلاة والسلام إليه من بيت أبي أيوب الأنصاري .

كانت الهجرة إلى المدينة بدء عهد جديد وسياسة جديدة في حياة الإسلام والمسلمين . اجتمع الذين هاجروا من مكة إلى الذين أسلموا بالمدينة ، فكانوا قوة رفعت صوت المسلمين وأعلت كلمتهم . وأراد رسول الله أن يزيد هذا الصوت رفعة ، وهذه الكلمة قوة ، بأن يزيد ما بين المهاجرين والأنصار من رابطة ، فيضاعف في نفوسهم الشعور بوحدتهم وعزتهم . لذلك دعاهم ليتآخروا في الله أخوين أخوين ، فكان هو وعلي بن أبي طالب أخوين ، وكان عمه حمزة ومولاه زيد بن حارثة أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول حكم

إخاء الدم والنسب . وفي هذا الإخاء كان عمر بن الخطاب وعُتْبَانُ بن مالك ، أخو بني سالم ابن عوف بن عمرو بن عوف الخزرجي ، أخوين^(١) .

عزّزت هذه المؤاخذة مكانة المسلمين بالمدينة ، فخشي أهل يثرب من المشركين ومن اليهود بأسهم . لذلك لم يتردد اليهود فوادعوا رسول الله ، وعقدوا معه عهداً يقرّر حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة . وأضعف هذا العهد الذين أقاموا على شركهم من أوس المدينة وخزرجها ، كما قوى المسلمين وزادهم بأساً وعزّة .

هذه المكانة التي بلغها المسلمون في حياة المدينة العامة قد فتحت لعمر بن الخطاب ميادين لم تكن مفتوحة أمامه بمكة . إنه رجلُ نظام ، ورجل رأى يناضل عنه في سبيل النظام . وقد كان المسلمون بمكة قلّة عصمها إيمانها بالله ورسوله فلم تُفْتَنْ ولم تضعف ، متخذة من المقاومة السلمية سلاحها لدفع من يحاول فتنها عن دين الله والمقاومة السلمية لا تتفق وطبيعة عمر النائرة القوية المتحفزة لتحدي من يتعرض لصاحبها . لذلك لم يكن بمكة منسع لنشاطه يبدو فيه وتظهر آثاره . أما وقد أصبح للمسلمين في حياة المدينة ونظامها هذا الأثر ، فقد آن لعمر أن تظهر شخصيته وأن يكون له في الحياة العامة أثره .

بل لقد بدت في عمر صفات لم تعرف له بمكة : بدا أنه رجل مُحَدِّثٌ ، يلهم الرأي وكأنما حَدَّثَ بما ظن . لَمَّا اطمأن رسول الله بالمدينة كان الناس يجتمعون للصلاة حين مواعيتها بغير دعوة . وأراد رسول الله أن يجعل للمسلمين بوقاً كبوق اليهود يدعون به لصلاتهم ؛ لئلا يكره البوق ، فأمر بناقوس يدقّ ساعات الصلاة كما يدقّ الناقوس للنصارى ، فُنِحِتِ الناقوس وكُلِّفَ عمر أن يشتري الغداة له خشبتين . وبينما عمر نائم في داره إذ رأى في المنام : « لا تجمعوا الناقوس ، بل أذّنوا للصلاة » ، فذهب إلى رسول الله يخبره بما رأى فإذا الوحي سيقه به .

(١) في روايات ابن سعد رواية أن رسول الله آخى بين أبي بكر وعمر ، ورواية أخرى أنه آخى بين عمر وعويم بن ساعدة ، وفي رواية ثالثة بين عمر ومعاذ بن عفراء . وثم روايات أخرى أثبتتها ابن حجر في فتح الباري . والرواية المشهورة للتواترة أن عمر وعُتْبَانُ بن مالك كانا في هذا الإخاء أخوين .

ويروى أن عبد الله بن زيد سبقه إلى رسول الله فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف
 بي هذه الليلة طائف : مرّ بي رجل عليه ثوبان يحمل ناقوساً في يده ، فقلت له :
 يا عبد الله أتنبئ هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعوه إلى الصلاة ، قال :
 أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ وألقى إليّ صيغة الأذان ، فأمر رسول الله بلالاً فأذن بها ،
 فسمعها عمرو هو في بيته ، فخرج إلى رسول الله يجرّ رداءه ويقول : يا نبي الله ! والذي بعثك
 بالحق ، لقد رأيت مثل الذي رأى ! .

من يومئذ بدأ الأذان للصلاة يعطّر جو المدينة كل يوم خمس مرات فكان الحجة
 القائمة على أن كلمة المسلمين أصبحت العليا . والأذان للصلاة دعوة للنظام الذي يزيد
 الآخذين به أيداً وقوة ، أما وقد حُدث به عمر قبل أن ينزل به الوحي ، فذلك الدليل على
 أن دين الحق قد أخذ على هذا الرجل القوى مسالك نفسه ، فصار لا يفكر في شيء
 تفكيره في النظام الذي يزيد هذا الدين عزاً وانتشاراً .

على أن اليهود والمشركين الذين أقاموا على دينهم برّموا بسلطان المسلمين وقوتهم ،
 فبدعوا يأتمرون بهم ويعملون على مناوأتهم . وقد كان للمسلمين في مقاومة مؤامراتهم
 أساليب لا تخلو من شدة وعنف ، وكان عمر بن الخطاب يشارك في هذه المقاومة كغيره
 من المسلمين .

وأراد رسول الله أن يرهّب اليهود والمناققين ، وأن يقنع قريشاً بأن الخير لها أن تصالحه
 على حرية الدعوة لدين الله ، فبعث السرايا ، وأمر عليها حمزة بن عبد المطلب وعبيدة
 ابن الحارث وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن جحش ، كما خرج بنفسه على رأس بعضها .
 ولم تذكر كتب السيرة ولا كتب التاريخ شيئاً عن اشتراك عمر في هذه السرايا الأولى . ولعل
 رسول الله قد آثر أن يبقى عمر بالمدينة لما كان من حسن سياسته مع صراحته في الحق .
 يشهد بذلك ما حدث حين قدّم وفد من نصارى بَجْرَان إلى المدينة يجادلون رسول الله ،
 فردّ جدالهم وجدال اليهود بقوله تعالى : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ
 بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آُرْبَاباً
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » . ثم دعا الوفد إلى قبول ما نزل عليه

من ذلك أو يلاعهم . ورأى هؤلاء النصارى أن يعودوا إلى قومهم ولا يلاعوه، ثم رأوا شدة حرصه على العدل ، فرغبوا إليه في أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أمور اختافوا عليها . فقال لهم رسول الله : ائتوني العشيّة أبعث معكم القويّ الأمين . روى ابن هشام أن عمر بن الخطاب كان يقول : ما أحببت الإمارة قط حتّى إياها يؤمّئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحّت إلى الظهر مهجّراً . فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلّم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أطاول له إيراني ، فلم يزل يلتبس ببصره حتّى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه فذهب بها أبو عبيدة . »

ولمّا طمع عمر في أن يولّيه رسول الله الحكم لما كان يتولّاه هو وآباؤه في الجاهلية من السفارة والحكم في المفارقات بين القبائل . فاخترت النبي أبا عبيدة مع ما كان لعمر في نفسه من مكانة ، يشهد بأن رسول الله حرص على بقاء ابن الخطاب بالمدينة كيما يستعين بصراحته وجراته وحسن رأيه هذا ، على أنه قد يكون خشى شدة عمر وغلظته ، فاختر أبا عبيدة لأنه جمع بين الأمانة ولين الجانب ورضا النفس .

لم تقع قریش بما أراد رسول الله من موادعتها على حرية الدعوة لدين الله ، بل ظلّت على عداوتها له ولأصحابه . فلما خرج يلقاها ببدر في ثلاثمائة من المسلمين ، عرف أن الذين جاءوا من مكة يزيدون على الألف ، استشار أصحابه : أيقاتلهم أم يعود أدراجهم إلى المدينة ؟ وكان عمر كما كان أبو بكر ممن أشاروا بالقتال . فلما بدأت المعركة ثم حمى الوطيس ، كان مهجع مولى عمر بن الخطاب أول قتيل من المسلمين . وفي أثناء المعركة قتل عمر خاله العاص بن هشام . يروى أن عمر التقى يومئذ هو وسعيد بن العاص فقال له : « إني أراك كأن في نفسك شيئاً . أراك تظن أني قتلت أباك . إني لو قتلتك لم اعتذر إليك من قتله ، ولكنني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة . فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور برّوقه ^(١) فحدّت عنه ، وقصد له ابن عمه على فقتله . »

هذه الكلمة التي قالها عمر هي أول ما يروى عنه في هذه الغزوة التي وجهت تاريخ

(١) روق الثور : قرنه .

الإسلام وتاريخ العالم كله وجهة جديدة ، وهي تصور الأثر الذي تركه الإسلام في نفس عمر أرق تصوير . ففي سبيل هذا الدين يجب أن يستهين الإنسان بكل شيء ، ويجب ألا يتردد حين القتال إذا واجهه أخ أو قريب . إنه يقدم حياته لله وفي سبيل الله ، فليس له أن يتردد لأي اعتبار دون ما ينصر دين الله .

وأسر المسلمون سبعين من قریش أكثرهم من ساداتها وذوى المسكانة فيها ، فكان عمر بن الخطاب أشد المسلمين على هؤلاء الأسرى وأحرصهم على أن يُقتلوا . وقد طمع الأسرى في الحياة وأن يُقتدوا ، فبعثوا إلى أبي بكر أن يكلم رسول الله لئلا عليهم أو يفاديهم ، ووعدهم أبو بكر خيراً . وخافوا أن يفسد عمر عليهم أمرهم ، فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبي بكر ، فنظر إليهم شزراً . وتحدث أبو بكر إلى رسول الله لئلا على هؤلاء الأسرى أو يفاديهم فيأخذ منهم ما يأخذ قوة للمسلمين . أما عمر فكان الشدة كل الشدة والبأس غاية البأس ، قال « يا رسول الله ! هم أعداء الله ، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب رقابهم . هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة ، يوطئ الله بهم الإسلام وبذلك بهم أهل الشرك » .

واستشار رسول الله المسلمين في هذا الأمر فانتهوا إلى قبول الفداء ، وأفدى النبي الأسرى وأطلق سراحهم . لكن الوحي مالبث بعد ذلك أن نزل بقوله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . وكذلك كان عمر يحدثنا فيما أبدى من رأى عن أسرى بدر ، كما كان يحدثنا في أسر الفداء بالأذان للصلاة . وبذلك زاد في نظر النبي وفي نظر المسلمين قدر رأيه وزادت عند النبي وعند المسلمين رفعة مكانته .

وقديم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو ، وكان سهيل خطيباً بالغ الحجة . فلما رأى عمر مكرزاً يفنديه ، أسرع إلى رسول الله يقول : دعني أنزع ثنييتي سهيل بن عمرو فيدفع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً . وأجابه رسول الله : « لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً » وعبارة عمر صريحة الدلالة في إصراره على رأيه ألا يترك القادرون من هؤلاء الأسرى يعودون لمساواة المسلمين . وهو قد

أصر على هذا الرأي مع ما كان من إقرار جماعة المسلمين قبول الفداء .
 نزل الوحي مؤيداً رأي عمر في أمر الأسرى ، فزاد ذلك عمر قرباً من النبي ومكانة
 عنده ، وأصبح وزيره كما كان أبو بكر وزيره . وكانت حفصة بنت عمر زوجاً لخنيس
 ابن حذافة أحد السابقين إلى الإسلام وقد فارقتها خنيس قبل بدر بأشهر ، فتزوجها رسول
 الله كما تزوج عائشة بنت أبي بكر من قبل . وربطت المصاهرة بينه وبين عمر ، وأتاحت
 لابن الخطاب أن يتردد عليه ، كما كان أبو بكر يتردد عليه .

استدار العام وخفت قريش تأخذ لثأرها من بدر ، وأشار الناس على رسول الله
 بالخروج لملاقاتهم بظاهر المدينة عند أحد . ودخل رسول الله بيته ، ودخل معه أبو بكر
 وعمر ، فعمماه وألبساه درعه ، وتقلد سيفه وسار في أصحابه يواجه عدوه . وانتصر المسلمون
 أول النهار ، ثم دارت الدائرة عليهم حين خالف الرثماة أمر رسول الله فنزلوا من مراكزهم
 فوق الجبل يشاركون الناس في الغنيمة ؛ فقد دار خالد بن الوليد بقرسان قريش وراء
 المسلمين ، ثم صاح صيحة ردت قريشاً لمهاجمة محمد وأصحابه وهم في شغل يجمع أسلاب
 الموقعة . واضطرب المسلمون لهجوم قريش وتداعت صفوفهم ، ثم زادها تداعياً أن صاح
 مشرك : إن محمداً قد قتل ؛ فقد خيل إلى المسلمون حين سمعوا هذه الصيحة أنهم لم يعد
 لهم ولا للدين الذي آمنوا به بقاء . وما بقاء هذا الدين ثم ما بقاؤهم وقد وعد الله رسوله
 النصر ، وهذا رسول الله يقتل بيد المشركين ، وهؤلاء أصحابه يهزمون ويفتلك المشركون
 بهم ! بل لقد ألقى رجال من كبار المهاجرين والأنصار بأيديهم وتولاهم اليأس ، فانتحوا
 ناحية من الجبل جلسوا فيها . وانتهى أنس بن النصر إلى مجلسهم ذاك ، فألقى عمر
 ابن الخطاب وطلحة بن عبيد الله وطائفة من المسلمين معهم وهم في اضطرابهم وبأسهم
 لا يدرون ما يصنعون . عند ذلك هتف بهم : « ما يجلسكم ؟ » قالوا : « قتل رسول الله » .
 قال : « فمأذا تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على مامات عليه » . ثم استقبل
 المشركين ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وأبلى في قتالهم أحسن البلاء ، ولم يُقتل حتى ضرب
 سبعين ضربة أزالت معالته ، فلم يعرف جثمانه بعد موته إلا أخته ، عرفته بيناته .

على أن المسلمين المالبثوا ، حين عرفوا أن رسول الله لم يمت ، عادوا إلى إيمانهم بأن

الله ناصر رسوله ، فأسرع إليه أبو بكر وعمر وعليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام ورهط غيرهم يمنعونهم . وعرف خالد بن الوليد مكانهم ، فعلاً الجبل على رأس فرسان معه يريد أن يقضى على محمد ومن حوله . لكن عمر بن الخطاب ورهطاً من المسلمين واجهوا خالداً وفرسانه ، وقتلوه مستميتين دفاعاً عن الرسول فردّوهم على أعقابهم ، ولم يصل خالد إلى بغيته . قدّمت أن ما حدّث به عمر عن الأذان للصلاة يشهد بأن دين الحق كان قد أخذ على هذا الرجل القوى مسالك نفسه ، فجعله لا يفكر في شيء تفكيره فيه وفي النظام الذي يزيده عزّاً وانتشاراً . وموقف عمر من أسرى بدر ونزول الوحي فيهم مؤيداً رأيهم ، ووقفته في وجه خالد بن الوليد قبل أن يفاجيء النبي ومن معه ، هذان الموقفان يدلان أبلغ دلالة على استئثار دين الله بنفس عمر استئثاراً جعله يتعصب له ويشتهد في نصرته . ولا عجب في ذلك ؛ فقد كان عمر منذ نشأته مؤمناً القلب بما يعتقد . وإذا آمن القلب وهب المؤمن نفسه هبة خالصة لما يؤمن به . لقد رأينا مواقف عمر في جاهليته : رأينا تعصبه لقريش على غيرها من القبائل ، وتعصبه لدين قريش على دعوة محمد تعصباً جعله يشارك في تعذيب المسلمين الأولين ؛ فلما هدى الله قلبه إلى الإيمان به ، وقف في جانب دين الله ينصره بالحجة التي كان يقاقله من قبلها . والآل وقد عزّ المسلمون بدينهم وبنبيهم ، فلا شيء يعدل عند عمر أن ينصر هذا الدين وأن يضحي له بكل شيء ، وأن يضحي في سبيله بحياته . وما أصابه وأصاب المسلمين من بأس حين تحدّثت قريش بوفاة النبي ، كان بعض هذا التعصب للدين تعصباً جعل الحزن يخرج بعمر عن سداذه . فلما عرف أن رسول الله حيّ أقبل يُلقى بحياته في سبيل ما آمن به قلبه ، فنصره الله على القائد العبقري الذي اعتزّت به قريش ولذي كسد لها أحداً .

على أن إيمان عمر وتعصبه لهذا الإيمان لم يُنهئها من اعتزازه بنفسه واعتداده برأيه أمام رسول الله نفسه . وقد كان عمر في هذا الاعتزاز بالرأي من أقوى المسلمين شكيمة وأبلغهم حجة . صحيح أن المسلمين جميعاً كانوا يؤمّنون لا يعرفون الجود ، وكان صاحب الرأي سهم يشير على رسول الله ، ويجادل لينصر رأيه أو يقتنع بنقيضه ، شأنه في ذلك شأن المؤمنين في عهود الثورة ، إذ يريدون أن يبلغوا بها إلى أسى ما تنطوى عليه مبادئها .

لكن عمر كان أصرحهم وأكثرهم جرأة . لم يمنعه حبه رسول الله وعظيم إيمانه برسالته أن يُبدل أُمَامَه برأيه وأن يصير عليه . وأنت قد رأيتَه في موقفه من أسرى بدر كيف طاب أن ينزع ثِيَّتِي سهيل بن عمرو بعد ما قبل المسلمون فداء هؤلاء الأسرى . وسنرى له مثل هذه المواقف من بعدُ صحبة رسول الله وفي خلافة أبي بكر ، ثم نرى من اجتهاده في حياة الرسول ما أقر القرآن بعضه ، كما نرى الكثير من الأحكام والمبادئ التي اجتهد فيها برأيه بعد وفاة الرسول باقياً يأخذ المسلمون به إلى اليوم .

لَمَّا سار رسول الله لقتال بني الْمُصْطَلِقِ وفرغ منهم ، ازدحم رجلان من المسلمين على الماء واختلفا فاقتتلا . وكان أحد الرجلين من المهاجرين والآخر من الأنصار ؛ فصرخ المهاجر : يا معشر المهاجرين ! وصرخ صاحبه : يا معشر الأنصار ! عند ذلك قال عبد الله ابن أبي بن سلول رأس المنافقين بالمدينة لمن حوله : « لقد كاثرتنا المهاجرون في ديارنا . والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول : سَمِّنْ كَلْبَكَ يَا كَلْبُكَ . أمّا والله إن رجعنا إلى المدينة ليخزجنّ الأعزّ منها الأذلّ » . وبلغت هذه المقالة رسول الله وعنده عمر بن الخطاب فهاج هايج عمر فقال : يا رسول الله ! مُرّ به عتّاب بن بشر فليقتله . وأجابه رسول الله فكيف يا عمر إذا نحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! وأمر أن يؤذن بالرحيل في ساعة لم يكن المسلمون يرتحلون فيها .

وذهب ابن أبيّ إلى رسول الله يفتكر ما قال ، فنزل الوحي بتكذيبه . عند ذلك ذهب عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، وكان مسلماً حسن الإسلام ، فقال : « يا رسول الله ! إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ . فإن كنت فاعلاً فمُرّ به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أترّ بوالده مني . وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار » . وأجابه رسول الله : « إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » وأقام ابن أبيّ بعد ذلك ينظر إليه أهل المدينة شزراً ولا يقيمون له وزناً . وتذاكر النبي يوماً شؤون المسلمين مع عمر ، وتناول الحديث ذكر ابن أبيّ وتعنيف قومه إياه ، فقال رسول الله : « كيف ترى يا عمر ؟ أمّا والله لو قتلته يوم قات لي أقتله لأرعدتُ

لَهُ أَنْفُ لَوْ أَمَرْتَهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْتَهُ ». قال عمر : « قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى » .

ولما مات عبد الله بن أبي هَمَّ النبي بالصلاة عليه ، فقام عمر يذكركيد الرجل للإسلام ونسكاته به ، ويذكر قوله تعالى : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) . وابتسم النبي لحاسته في الطعن على رجل مات وقال : « لو أعلم أني زدت على السبعين غفر له زدت » . وصلى عليه ومشي معه حتى فرغ من دفنه وقد نزل بعد ذلك قوله تعالى : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) وأذن رسول الله في الناس بالحج لست سنوات من هجرته إلى المدينة . فلما قرب من مكة خرجت فرسان قريش تلقاه لتصدده عن دخولها ؛ فقد أقسمت لا يدخلها محمد عليهم عَنوة . وكان رسول الله إنما جاء حاجاً ولم يجيء غازياً . لذلك نزل الحُدَيْبِيَّة في أصحابه وعزم أن يفاوض قريشاً لِيُفَسِّحَ لَهُمْ طريق الطواف بالبيت وأداء فريضة الحج . ودعا إليه عمر بن الخطاب ليدخل مكة فيتحدث إلى قريش فيما جاء له . قال عمر : « يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بنى عدوى بن كعب أحديئدني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان » . ودخل عثمان مكة ، وطال حديثه مع قريش واحتباسه عن المسلمين حتى ظنوا أنه قتل ، وبايع رسول الله أصحابه بيعة الرضوان لقتال قريش أن قتلوا عثمان . على أن عثمان عاد يذكر أن قريشاً تأتي على المسلمين أن يدخلوا مكة هذا العام حفظاً لحيثتها بين العرب ، لكنها لا تأتي المفاوضة للخروج من موقف الخصومة بعد أن أيقنت أن محمداً جاء حاجاً ولم يجيء غازياً . واتصل الحديث بين الفريقين ابتغاء التعاهد والصلح . ولقد ضاق عمر صدره بما كان النبي يقبله في هذه الحادثات ، حتى لقد وثب قائماً أبابكر فقال : يا أبابكر ! أليس برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى ؟ قال عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : أوليسوا بالمشركين ؟ قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر الزم غَرْزَهُ ^(١) ، فإني أشهد أنه رسول الله ؛ قال عمر . وأنا أشهد أنه رسول الله

(١) أي أتبعه ولا تغالف أمره . وأصل الغرز : ركاب الرجل من جلد .

لم يقنع عمر بهذا الحديث بينه وبين أبي بكر ، فذهب إلى رسول الله ، والغضب لا يزال آخذاً منه ، فقال : يا رسول الله ! ألسنت رسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ! قال رسول الله : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني ، وسكت عمر لهذا الجواب ، وكان يقول من بعد : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً .

أرأيت إلى هذا الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالرأي ! وما لعمر لا يعتز برأيه ، وقد أيدته الوحي في موقفه من أسرى بدر ! ولقد ظل على رأيه حين أشار بقتل عبد الله بن أبي حتى أيقن أن أسر رسول الله أعظم بركة من أسره ، كما ظل على رأيه في عهد الحديبية حتى نزل الوحي يؤيد رسول الله ويذكر أن هذا العهد فتح مبين . وكذلك كان يجادل رسول الله في الرأي مجادلة رجل لرجل حتى يتبين له الحق ، إما بنزل الوحي ، أو بتأييد الواقع رأيه ، أو نقض الواقع له .

رأيت أن عمر لم يتجه بتفكيره إلى النظريات المجردة يقلبها ويمتحنها ليرتب عليها آثارها المنطقية ، وإنما كان اتجاهه في الإسلام ، كما كان قبله ، إلى ما له أثر عملي في واقع الحياة الحاضرة أمامه . وهذا الأثر العملي هو الذي استثار رأيه في أسرى بدر ، وفي أسر ابن أبي ، وفي عهد الحديبية ، كما أنه هو الذي استثار رأيه من بعد فيما لم ينزل به الوحي من شؤون المسلمين العامة ، ومن شؤون رسول الله الخاصة .

كان لأهل مكة غرام بالنبيذ ، وكان عمر صاحب خمر في الجاهلية . وقد ظل المسلمون يشربون الخمر طيلة مقامهم بمكة وعدة سنوات بعد الهجرة إلى المدينة . ورأى عمر ما يهيج به الشراب من سورة الغضب في النفوس ، وما يدعو إليه من تفاخر الشاربين ولمز بعضهم بعضاً . وكثيراً ما انتهز اليهود والمنافقون أوقات الشراب لينثروا بين الأوس والخزرج منازعاتهم القديمة . عند ذلك سأل عمر رسول الله عن الخمر ، ولم يكن قد نزل فيها قرآن وقال : اللهم بين لنا فيها ، فنزلت الآية : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَاعَةٌ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » . ولما لم يكن في هذه الآية نهى

عن الخمر فقد ظل بعض المسلمين يقضون ليلهم متوفرين على شرايهم ، فإذا ذهبوا إلى الصلاة لم يعلموا ما يقولون فيها . وعاد عمر فقال : اللهم بين لنا في الخمر ، فإنها تذهب العقل والمال ! فنزلت الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . ومن يومئذ كان منادى الرسول للصلاة يقول : لا يقربن الصلاة سكران . وأقل المسكون من الشراب وإن لم ينتهوا عنه ، فبقى من أثره في بعضهم ما يسوء . شج أحدهم الأنصار مهاجراً بَعْظَمَةٍ من عظام الجزور التي كانوا يأكلونها حين شرايهم لخلاف قام بينهما ، وثمل حين فنشاجراً فشج بعضهم بعضاً فاضطغنا . ورأى عمر ذلك فعاد يقول : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب العقل والمال ، فنزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَبَصَدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ » . ولم يرق أناساً من المسلمين هذا النهي فقالوا : أنكون الخمر رجساً وهي في بطن فلان وفلان قتل يوم أحد ، وفي بطن فلان وفلان قتل يوم بدر ؟ ! فنزل قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

هذا موقف عمر في شأن من شؤون المسلمين العامة قبل أن ينزل الوحي بحكم فيه . ولم تكن شؤون رسول الله الخاصة في رأى عمر كشؤون غيره من الناس ، بل كانت كشؤون المسلمين العامة سواء . لذلك لم يكن يأبى أن يتعرض لها وأن يحدث النبي فيها . روى البخارى عن عائشة أنها قالت : « كان عمر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احجب نساءك فلم يفعل . وكان أزواج النبي يخرجن ليلاً قبل المنامع ^(١) . خرجت سودة بنت زمعة ، وكانت امرأة طويلة ، فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس فقال : عرفتك ياسودة ، حرصاً على أنه ينزل الحجاب ، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب » . وروى عن عمر أنه قال : « قلت : يا رسول الله ! سيدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات

(١) المنامع : المواضع يتخلى فيها لقضاء الحاجة .

المؤمنين بالحجاب ، فنزلت آية الحجاب » ، وآية الحجاب قوله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَقرن في بيوتكنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِنَّ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » وقوله جل شأه : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيشٍ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » .

كان لعمر مع النبي في شؤونه الخاصة موقف آخر ، لعله لم يكن يقفه لولا أن ابنته حفصة كانت من أمهات المؤمنين . ذلك أن أزواج النبي أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنه لا يعدل بينهما ، وأنه لحبه عائشة يظلهن . فلما ولدت مارية إبراهيم وشغف رسول الله بالطفل حباً ، ظهرت عليه حفصة وعائشة وتابعهما سائر أزواجه ، رأى أن يهجرهن وأن يهدد بفراقهن . ورد في الصحيح عن ابن عباس أنه سأل عمر : من اللتان تظاهرتا على النبي من أزواجه ؟ وأجابه عمر : تلك حفصة وعائشة ، ثم قال : « والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً ، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا في أمر آتمة إذ قالت لي امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ! فقلت لها : ومالك أنت ولما هاهنا وما تكلفك في أمر أريده ؟ ! فقالت لي : عجبا لك يا بن الخطاب ! ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، قال عمر : فأخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بُنَيَّة ! إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لتراجعنه . فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله يا بُنَيَّة لا تغربك هذه التي قد أعجبها حسننها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها . خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرايتي منها فكلمتها ، فقالت لي أم سلمة عجبا لك يا بن الخطاب ! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه . قال عمر : فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض

ما كنت أجد ، فخرجت من عندها ، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتية بالخبر ، وكنا نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدرا منه ، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب ، وقال : افتح افتح . فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه . فقلت : رغم أنف حفصة وعائشة ! فأخذت ثوبي فأخرج حتى جئت ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشربة يرقى إليها بَعَجَلَةٌ^(١) ، وغلالم لرسول الله (ص) أسود على رأس الدرجة . فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب ، فأذن لي . قال عمر . فقصصت على رسول الله (ص) هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم .

وفي رواية أن النبي اعتزل نساءه شهراً كاملاً ، فلما أوفى الشهر على التمام أقام المسلمون بالمسجد ينكثون الحصى ويقولون : طلق رسول الله (ص) نساءه . عند ذلك ذهب عمر إلى رسول الله في مشربته ، فنادى غلامه رباً حاكى يستأذن له ، ولم يجب رباح ، فكرر عمر النداء . فلما لم يجب رباح للمرة الثانية ، رفع عمر صوته قائلاً : يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله (ص) فأبى أظنه ظنّ أني جئت من أجل حفصة ، والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها وأذن له النبي (ص) فدخل ، وبعد هنيهة قال : يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . ثم انعكف يحدث النبي حتى تحسّر الغضب عن وجهه وحتى ضحك .

ويروى أن عمر دخل على نساء النبي حين اعتزلهن النبي وقال لهن : إن انتهيتي أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن . وأجابته إحداهن قائلة : يا عمراً أما في رسول الله (ص) ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت اوفي هذا نزل كله قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ

(١) العجلة هنا : جذع نخلة ينقر فيجعل فيه مثل الدرج ليرقى عليه .

أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا » . فلما نزلت هذه الآية رجع رسول الله إلى نسائه تائبات عابدات مؤمنات^(١) .

هذه أمور أثبت المؤرخون جميعاً أن الوحي نزل فيها يؤيد رأى عمر . وفي صحيح البخارى أن عمر قال : « وافقنى ربى فى ثلاث . قلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت : (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) . وقلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع نساء النبي (ص) فى الغيرة عليه فقالت هن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكهن ، فنزلت هذه الآية » . ولعل نزول الوحي موافقاً رأى عمر فى هذه المواقف هو الذى جعل رسول الله (ص) يقول : « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » ، أو يقول : « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » .

لهذه المواقف الكثيرة التى وقفها عمر من أسرى بدر ، ومن عبد الله بن أبى ، ومن نأخذيلية ، ومن حكم الخمر ، ومن نساء النبي ، دلالة تلفت النظر ، وتكشف عن جانب من شخصية عمر كان يزداد على الزمن وضوحاً وقوة . ولسنا نقصد جبراً أنه وصراحتة وبروز شخصيته ، وما إلى ذلك مما أسلفنا ذكره ، ولسنا كذلك نريد حسن رأيه وواسع علمه ، وإنما نرمى إلى ما دلت هذه المواقف عليه من عظيم اشتغاله بالشؤون العامة ، وتوفره عليها وتوفير من تعنيه سياسة قومه وتدير أمورهم والعمل على حسن نظامهم . والواقع أنه برز فى هذه الناحية أكثر مما برز غيره ؛ ولذلك كان النبي بدعوه وزيره ، وكان حين يشاور أصحابه يجعل رأى عمر مكانة تعدل مكانة الرأى الذى يبدیه أبو بكر صفى رسول الله وخليله . وكان قدر عمر لا يفتأ لهذا يسمو فى عيون المسلمين جميعاً ، مع أن النبي كان يخالف رأيه فى كثير من المواقف مخالفة ترجع إلى ما كان لعمر من صلابة تجاوز الحزم ، ولا تلتقى

(١) راجع فى تفصيل هذا الحديث عن نساء النبي كتاب (حياة محمد) ص ٤٢٨ — ٤٣٦ .

من ثم مع من جمع رسول الله بين الحزم والحسنى ، وبين القدرة والعفو .
 لتأسر المسلمون إلى فتح مكة ، خرج العباس بن عبد المطلب ، فرأى جيش ابن أخيه
 وقوته وأن لا قبيل لقريش به وخرج أبو سفيان بن حرب في جماعة ينتطسون الأخبار .
 وفيما أبو سفيان يتحدث إلى أصحابه عرف العباس صوته فقال له : يا أبا سفيان ، هذا
 رسول الله في الناس ، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة ! قال أبو سفيان : فما الحيلة فذاك
 أبى وأمى ؟ وكان العباس على بغلة النبي البيضاء ، فأركبه في عجزها ، ورد أصحابه إلى مكة
 وسار به يريد النبي . ورأى عمر البغلة وعرف أبا سفيان ، وأدرك أن العباس يريد أن
 يُجبره ، فأسرع إلى خيمة النبي وطلب إليه أن يضرب عنقه . فقال العباس : إني يا رسول الله
 قد أجزته . واحتدمت المناقشة بين عمر والعباس في أمر أبي سفيان ، فأرجأ رسول الله
 الأمر إلى الصباح . وفي الصباح أسلم أبو سفيان بعد حوار بينه وبين رسول الله ، فحمل
 النبي له من الفخر أنه : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابها فهو آمن ،
 ومن دخل المسجد فهو آمن » وذهب عمر محققاً لنجاة أبي سفيان ، حتى إذا فتحت مكة
 أبوابها ، علم أن أمر رسول الله في هذه ، كأمره من قبل في قصة ابن أبي ، كان أعظم بركة
 من أمره .

على أن صرامة عمر وصراحته ومخالفة النبي رأيه في بعض ما أشار به لم تنقص يوماً
 من مكانة عمر أو من احترامه ذلك بأنه كان صادق الإخلاص في كل ما يراه ويشير به .
 وله خلص علينا حق احترامه وإكباره ، وإن لم نأخذ بمشورته ؛ ما بالك به إذا جاء الحق
 على لسانه في الكثير من موافقه ! ثم ما بالك به إذا خالفنا رأيناه على الحق فرجعنا إلى
 رأيه ! فبعث النبي أبا هريرة يبشر بالجنة من شهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه . فلما
 سمعه عمر رده إلى رسول الله ردّاً عنيفاً ، وذهب في أثره يسأل رسول الله : أحق قد بعثه يبشر
 الناس هذه البشري ؟ فلما أجاب رسول الله أن نعم ، قال عمر : فلا تفعل ، فإنني أخشى أن
 يتكل الناس عليها ، فخلّهم يعملون . وأخذ رسول الله برأيه وقال : فخلّهم .

ولما اشتد بر رسول الله مرضه الأخير أشار إلى رجال من المسلمين كانوا في البيت حوله
 فقال : « إيتوني بدواة وصحيفة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » . واختلف

الحاضرون، يقول بعضهم: «قربوا ليكتب لكم كتاباً لا تفلوا بعده»، ويخالفهم آخرون على رأسهم عمر فيقولون: «إن رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله». رأى النبي خلافهم فقال: «قوموا. ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف». ولم يكتب. ولعله قد تأثر برأى عمر أكثر مما تأثر برأى غيره، لما عرف من صدقه في إخلاصه وصراحته في رأيه...

والرهنل أجدر باحترامنا وإكبارنا ما أنكر ذاته فصدر رأيه عن إخلاص للخير العام وحرص عليه. وكان عمر في ذلك خير مثل. وقد رأيت فيما قدمنا من آرائه كيف تنزه عن كل شائبة. بل لقد رأيت كيف ودَّ أن يحرم الله الخمر ولم تكن محرمة، وقد كان في جاهليته رجل خمر يحبها ويتوفر على شربها. فهو إنما ودَّ أن تحرم حرصاً على خير الجماعة وتماسكها وقوة نظامها. ثم إنه كان من أشد الناس زهداً في المال، فكان إذا أعطاه رسول الله مالا من فء غنمه المسلون قال: أعطه أفقر إليه مني. وقال ذلك يوماً لرسول الله فقال له: خذه فتموِّله وتصدق به.

بل لقد بلغ من زهده أن أصاب أرضاً بخير، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أصبت أرضاً بخير لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ وأجاب به رسول الله: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها». فتصدق عمر بها في الفقراء والقريب وفي الرقاب وفي سبيل الله والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويعطى صديقاً غير متمول فيها، وقال: إنه لا يباع أصلها ولا توهب ولا تورث. فكانت هذه أول صدقه تصدَّق بها في الإسلام، وكانت الأصل الأول لنظام الوقف عند المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

رجل ذلك شأنه وهذا زهده لا عجب أن كان موضع التقدير والاحترام من كل المسلمين على ما كان في خلقه من شدة وغلظة، وموضع المحبة والإكبار من رسول الله حتى كان يدعوهم يا أخى. استأذنه عمر يوماً في العمرة فأذن وقال له: «لا تنسنا يا أخى من دعائك» وكان عمر كلما ذكره هذه الكلمة يقول: ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس لقوله «يا أخى».

وإخلاصه وتنزهه عن الهوى وحبه العدل هو الذي أبقي الفاروق لقباً له . وقد اختُلف
فبين سني عمر الفاروق . روى عن عائشة أنها سئلت عن ذلك فقالت : النبي عليه السلام .
وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ،
وهو الفاروق فرق به بين الحق والباطل » . وذكر ابن سعد في الطبقات عبارة بإسنادها
نصها : « بلغني أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر الفاروق ، وكان المسلمون يأثرون
ذلك من قولهم ، ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ذلك شيئاً » . وأيضاً
صح من هذه الروايات فقد كان عمر فاروقاً لا ريب . وذلك ما خلد اسم الفاروق على

الزمن ؛ بقي لعمر إلى يومنا هذا ، وسبق له أبد الدهر

أما شدته وغلظته فهي التي جعلت رسول الله أبا بكر يؤثر عليه ، ثم لا يؤثر عليه
غير أبي بكر أحداً ، لإخلاصه وصراحته وعزمه وحزمه . وبلغ من شهرة عمر بالشدّة
والغلظة أن لم يخفف منهما ما كان له في مواقف كثيرة من لين جانب ورقة عاطفة ذكرنا
شيئاً منهما في حديث إسلامه . روى أن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وعنده نساء من قريش يكلمنه ونستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قن يبتدرن
الحجاب . ودخل عمر ورسول الله يضحك ويقول : « عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي
فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب » . قال عمر : فأنت يا رسول الله أحق أن يهبن ، ثم قال :
أي عدوات أنفسهن ! أتمهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلن : نعم !
أنت أفظ وأغلظ منه .

ولعل شدة عمر هي التي جعلت رسول الله يأمر في مرضه أن يصلي أبو بكر بالناس .
وخاب أبو بكر يوماً فصلى عمر بالناس وكبّر بصوته الجهر ، فقال رسول الله : « فأين
أبو بكر ؟ يا أيُّ الله ذلك والمسلمون » .

وقد تعجّب لهذه الشدة وهذه الغلظة أين كانتا ساعة وفاة رسول الله ؛ إذ أذهل النبأ
عمر عن الواقع فكذب من حاول إقناعه بالحقيقة الأليمة ، ووقف في المسلمين يقول : « إن
رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وإنه والله ما مات
ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم

رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهن زعموا أنه مات « فلما جاء أبو بكر ورأى رسول الله أيقن أنه مات ، فوقف في الناس يقول : « إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنَّ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » . فلما تلا أبو بكر هذه الآية خرَّ عمر إلى الأرض ماتحمله رجلاه ، وكأنه لم يسمعها من قبل . فأين كانت شدته وغلظته هذه الساعة ! بل أين هو في جزعه وهلمه من ثبات أبو بكر رقيق القلب سريع الدمع خليل رسول الله وصفيه ، وأين هو من تجلده !

على أن عمر لم يلبث حين راجعه صوابه أن عاد الرجل السياسي ، فأخذ يفكر في مصير المسلمين بعد الحادث الفاجع . وقد كان لتفكيره ولتصرفه في مواجهة هذا الموقف الدقيق من الأثر ماردٌ عن الإسلام كل عادية ، وما مهَّد لانتشاره في الخلفيين .

الفصل الرابع

في عهد أبي بكر

أيقن عمر أن رسول الله قد مات ، فأخذ يفكر في مصير المسلمين من بعده . وكان الأمر جديراً بأعق التفكير ؛ فلو أن العرب تنازعا أمرهم بينهم لأصاب الإسلام شرٌّ ماله من دافع . فقد كان البعيدون عن مكة والمدينة ، في مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة ، لا يخفون برهم سلطان قریش و سلطان المدينة . وبرهم بهذا السلطان هو الذي أثار الأسود العنسي في اليمن ، وهو الذي دفع بنى حنيفة من أهل اليمامة ليتابعوا مُسيلة ابن حبيب حين تزعم أنه نبي ، ودفع بنى أسد ليتابعوا متنبئهم طليحة بن خويلد . فما عسى أن يكون مصير الإسلام بعد رسول الله إذا لم يجزم المسلمون أمرهم ، ولم يواجهوا هذا الحادث الجلل بوحدهم وثبات عزمهم ؟

فكر عمر في هذا الأمر لأول ما أيقن أن رسول الله قد مات . وسرعان ما تبين في وضوح أن الأمر إذا ترك فلم يتولّه في الحال من يهض به ويدبر سياسة المسلمين ، أو شك المهاجرون والأنصار أن يختلفوا ، وأوشكت الثورة أن تضطرم في بلاد العرب كلها . لذا أسرع يشق طريقه خلال المجتمعين بالمسجد يتحدثون في وفاة رسول الله ، وسار حتى أتى أبا عبيدة عامر بن الجراح ، فقال له : « أبسط يدك أبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله » . ووجم أبو عبيدة حين سمع مقالة عمر ، وأدرك ما أدركه من ضرورة البيت العاجل في أمر المسلمين ، لكنه لم يرض رأي عمر ، بل حدّق فيه وقال له : « مارأيت لك قهّة ^(١) - قبلها منذ أسألت ! أتبايعني وفيكم الصديق وتاني اثنين ! » وإن الرجلين ليتبادلا في الرأي في هذا الأمر الخطير إذ جاءهم النبا بأن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة يريدون أن تكون الإمارة على المسلمين لهم . عند ذلك أسرع عمر فأرسل إلى أبي بكر في بيت عائشة ليخرج إليه . وردّ أبو بكر الرسول يقول : « إني

(١) القهّة : السقطة والجهلة .

مشتغل « ، لكن عمر رأى أمر المسلمين أخطر من أن يترك لحظة أو يشغل عنه شاغل ولو كان جهاز رسول الله لذا بعث كربة أخرى يقول لأبي بكر : « إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره » .

وخرج أبو بكر يسأل : أى أمر يمكن أن يصرفه عن جهاز رسول الله؟ قال عمر : « أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عُبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول : منا أمير ومن قريش أمير؟ » . ورأى أبو بكر خطر الموقف ، فأسرع ومعه عمر وأبو عبيدة يريدون السقيفة .

فلما بلغوها تولى أبو بكر مجادلة الأنصار في حزم ورفق . أما عمر فأقام إلى جانبه ينتظر ما يصير إليه الأمر . فلما رأى الحُباب بن المنذر يحرض الأنصار ليشوروا إن لم يكن منهم أمير ومن المهاجرين أمير قام فقال : « هيهات ! لا يجتمع اثنان في قرنٍ أو الله لا ترضى العرب أن يؤثروكم ونبيها من غيركم ! ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولّى أمورهم منهم ! ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل بباطل ، أو متجانب لإثم ، أو متورط في هلكة ! » . ورد الحباب بطلب إلى الأنصار إجلاله المهاجرين عن المدينة أو يتولوا عليهم الأمر ، ثم وجه الحديث إلى المهاجرين الثلاثة يقول : « أما والله إن شئتم لنعيسنها جدعةً » . فصاح به عمر : « إذا يقتلك الله ! » . ورد الحباب : « بل إياك يقتل ! » .

حركت هاتان العبارتان النفوس إلى الثورة ، فتدخل أبو عبيدة بن الجراح في الأمر وقال موجهاً حديثه إلى أهل المدينة : « يامعشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير » .

سكنت هذه العبارة ثورة النفوس ، فعاد القوم يتجادلون بالحجة ، وانضم بشير بن سعد من زعماء الخزرج إلى المهاجرين فشق كلمة الأنصار . وقدّر أبو بكر أن الأمر استوى وأن اللحظة لحظة الفصل ، فقام يدعو الأنصار إلى الجماعة ويحذّرهم الفرقة ، ثم أخذ بيد كل من عمر وأبي عبيدة ونادى : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فابعوا ! » ورأى

عمر الناس اختلافوا ، فلم بدع للخلاف أن تلبت شجرته ، فقام فنادى بصوته الجهوري : « ايسط يدك يا أبا بكر ! » . وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : « ألم بأمر النبي أن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين ! فأنت خليفة رسول الله ، فذعن نبايعك لتبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . وبايع أبو عبيدة أبا بكر وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ! » . وتتابع أهل السقيفة فبايعوا أبا بكر جميعين ، لم يند منهم إلا سعد بن عباد . فلما تمت البيعة عادوا إلى المسجد يلقفون الأنبياء من بيت عائشة عن جهاز الرسول . فلما كان الغد جلس أبو بكر في المسجد ، وقام عمر يعتذر إلى المسلمين عما ذكره من أن النبي لم يمت فقال : « إني قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت بما وجدت في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهدته إلى رسول الله ، ولكنني قد كنت أرى أن رسول الله سيد برأمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن الله ندأ بقى فيكم كتابه الذي هدي به رسوله ، فإن اعتصم به هذاكم الله كما هداه به . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين إذ هما في الغار ، فتقوموا فبايعوا » . وقام الناس جميعاً فبايعوا بيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

هذا أول موقف لعمر بعد وفاة رسول الله . وهو كما نرى موقف حزم وبعد نظر وحسن سياسة . بل هو موقف يرشح عمر للإمارة ، ويشهد بجدارته لتولي سياسة الدولة الناشئة ، مع إنكاره لذاته وتوجهه بكل تفكيره لخير الجماعة وحسن نظامها . لقد كان أشد الناس جزعاً لوفاة رسول الله فلم يصدق حدوثها ، فلما تيقنها لم يملك الجزع عليه تفكيره ، ولم يصرفه الحزن عن التحدث إلى أبي عبيدة في أجل شأن المسلمين خطراً : في تدير أمورهم وتوجيه سياستهم . وهو لم يكن يبتغي الأمر لنفسه على جدارته به ، بل كان يفكر فيه تفكيراً منزهاً عن الأثرة والهوى . لذلك أسرع يريد أن يبايع أبا عبيدة ، فلما نبهه أمين الأمة إلى أن الصديق أحق المسلمين جميعاً بالأمر لم يتردد في إقرار رأيه . ولم يلبث حين عرف اجتماع السقيفة أن دعا أبا بكر ليوажوها الأنصار فيه ، ثم لم يصرفه عن مواجهتهم ما قيل له من أن الأنصار قر رأيهم فلن يعدلوا عنه . وذهابه مع صاحبيه

إلى السقيفة هو الذى أدى إلى بيعه أبي بكر ، وإلى اجتماع كلمة المسلمين .
 'لم يكن موقف عمر فيما قيل من تخلف على بن أبي طالب وبنى هاشم عن بيعه أبي بكر دون موقفه فى السقيفة حزماً وحسن سياسة . أنا فى ريب من روايات التخلف عن البيعة ، وقد أبدت هذا رأى حين فصلت بيعه أبي بكر^(١) . لكنى لا أستطيع مع ذلك أن أجزم بأن عليّاً وبنى هاشم أقبلوا على البيعة راضين إقبال غيرهم من المسلمين . والثابت أن فاطمة ابنة رسول الله ظلت مغاضبة أبا بكر إلى توفيت . أفكان ذلك لحرمان الصديق إياها ما طلبته ميراثاً لها من أبيها ، أم لأنها كانت ترى زوجها أحق من أبي بكر بالخلافة ؟ ذلك ما اختلف فيه . فأما الذى لا خلاف عليه فذلك أن عمر كان يرى رأى أبي بكر أن تركه النبي صدقة لا تورث ، ولا ريب أن رآيه هذا أغضب فاطمة . أفأدّى غضبها إلى ثورة على وإلى تهديد عمر وأخذ الأمر بالحزم ؟ أيّاً كان ما حدث فقد ترك ماروى عنه أثرٌ فى تاريخ الإسلام لا يزال باقياً . وقد هذا الأثر عدم إكبار الشيعة وغيرهم من العلويين عمر ، بل عدم رضاهم عنه .

كانت سياسة أبي بكر بعد بيعته ألا يدع أمراً كان رسول الله يصنعه ، وألا يصنع أمراً كان رسول الله يدعه . لذلك كان أول ما أمر به فى خلافته أن يتم بعث الجيش الذى جهّزه رسول الله بأمرة أسامة بن زيد لغزو الروم بالشام ، وقد برّم المسلمون بهذا الأمر كما برموا به فى عهد رسول الله ؛ لأن أسامة كان حَدَثًا لمّا يبلغ العشرين . وزاد فى برهم خشيتهم تتعرض المدينة للخطر إذا غاب هذا الجيش عنها وانتقض العرب عليها وقاموا يناوئون سلطانها . لذلك قالوا لأبي بكر : « إن هؤلاء - أى جيش أسامة - جل المسلمين . والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ؛ فليس ينبغى تفرّق عنك جماعة المسلمين » وأجابهم أبو بكر فى حزم : « والذى نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تحطّفتنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » .
 . أفكانت سياسة عمر فى هذا الموقف كسياسة أبي بكر حزماً وقوة ؟ ذكروا أن

(١) صفحة ٥٢ وما بعدها من كتاب « الصديق أبو بكر » .

أسامة طلب إلى عمر أن يستأذن أبا بكر في عودة الجيش إلى المدينة ليسكون عون الخليفة على المشركين . وقالت الأنصار لعمر : « فإن أبي إلا أن نمضي فأبلغنا عنا واطلب إليه أن يوتى أمرنا رجلاً أقدم سنًا من أسامة » . ولم يرفض ابن الخطاب طلب أسامة ولم يرفض طلب الأنصار ، بل ذهب إلى أبي بكر فأبلغه ما قالوا . فكان رد الخليفة : « لو خطفتني الكلاب والذئاب لن أردت قضاء قضى به رسول الله (ص) » . وقال في طلب الأنصار : « تكلفك أملك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله (ص) وتأمري أن أنزعه ! » . سار جيش أسامة وفيه جثة المسلمين مهاجرينهم والأنصار . وفيه عمر بن الخطاب شأنه شأن رجل منهم يدعى بلولاء لأسامة أمير الجند . وسار أبو بكر يودع الجند ويوصيهم . فلما آن له أن يرجع ، قال لأسامة : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » . وأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر .

من الحق علينا أن نقف هنيئة ننسب إلى هذا الاختلاف في الاتجاه السياسي بين أبي بكر وعمر . فقد كان أبو بكر متبعاً وليس بمبتدع ، فما صنع رسول الله هو لا محالة يصنعه . وللمسلمين أن يقولوا ما شاءوا ، وأن يخالفوه عن رأيه ، فإن يسمع لهم ما كان يصدر عن أمر رسول الله . وقد أمر رسول الله أن يتم بعث أسامة فليتم . ليختلف المهاجرون والأنصار ، ولتكثر شبه الجزيرة كلها . ولتعرض المدينة لما عسى أن تعرض له من خطر ، كل ذلك لا يمكن أن يصرف الصديق عن إنفاذ ما أمر رسول الله بإفاده ، أليس الله قد اصطفاه وأوحى إليه كتابه ، ووعد النصر وأن يحفظ دينه فكيف تطوع لمسلم نفسه ألا ينفذ أمره ! وكيف تخلفه الأول أن يكون أو يخالفه ! !

وكان عمر يرى واجباً على السياسي أن يقيم وزناً لسكل ما حوله من الأحداث . ومن هذه الأحداث أن خلاف المهاجرين والأنصار لم يظهر في عهد رسول الله ما ظهر في اجتماع السقيفة ، وأن انتفاض العرب على سلطان المدينة لم يبلغ حد الثورة إلا حين داعت الأنبياء بوفاة رسول الله في مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة . إن المسلمين قد كانوا يدينون لأمر رسول الله عن إيمان وتسليم ، وليس من حق أبي بكر أن يطعن في أن يدينوا له كما كانوا يدينون للرسول المصطفى من عند الله . فجدير بالخليفة أن يقيم لهذه الأمور وزنها ،

وجدير به ، وقد انقطع الوحي بوفاة الرسول ، أن يكون السياسى الذى يدبر الأمور بثاقب نظره وحسن بصره بالأمور ، بعد أن لم يبق لغير البصر بالأمور تدبير أو سلطان .

هذا اختلاف جوهرى بين الرجلين فى سياسة الدولة - لكن هذا الاختلاف لم يكن ليبنى على تقدير أحدهما صاحبه ومحبه إياه واحترامه له . لذلك أدى عمر لأبى بكر حقه . فلم يصنع أكثر من أن أبلغه رأى المسلمين وأيده بمجته . فلما أصر الصديق على رأيه سار عمر فى الجيش جندياً مجاهداً فى سبيل الله بإمرة أسامة . وما كان له ألا يفعل وقد بايع أبا بكر وأقر له بخلافة رسول الله . وأدى أبو بكر لعمر حقه ، فاصطفاه وزيراً يشير عليه كما كان يشير على رسول الله . وكذلك ظلت علاقات الرجلين علاقات مودة صادقة واحترام متبادل وتعاون وثيق لخير الإسلام والمسلمين .

وقد حدث مثل هذا الاختلاف فى رأى بين الرجلين وجيش أسامة لايزال فى الشمال من شبه الجزيرة يقاتل أنصار الروم . ذلك حين أرادت قبائل عبس وذبيان القريبتين من المدينة أن تمنعا الزكاة . فقد رأى أبو بكر أن يقاتلهم ، ودفع مخالفيه فى رأى بقوله . « والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ! » . وكان عمر من هؤلاء المخالفين القائلين بموادعة من أرادوا منع الزكاة والاستعانة بهم على المرتدين ، وقد كان عنيفاً فى تأييد رأيه ، حتى لقد وجه الكلام إلى أبى بكر فى شيء من الحدة يقول : « كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله ! » . وأجاب أبو بكر على اعتراض عمر بقوله : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها » . مع هذا الخلاف فى رأى ، ومع أن أبا بكر حمل التبعة كاملة فقاتل الذين منعوا الزكاة وظفر بهم . لم يتغير ما بين الرجلين من ود ، وسار عمر إلى جانب الصديق مجاهداً فى صفوف المسلمين . إنه رجل نظام ، وأبو بكر هو المسئول عن شؤون الدولة . فواجب عمر أن يشير برأيه ، وواجبه كذلك أن يطيع أمر الخليفة متى أمر . وقد فعل ، ثم بقى الوزير الذى يُسمع لقوله وتُقدر مشورته .

ظفر أبو بكر بالذين منعوا الزكاة ، فكان ظفروه حجة ملموسة لرجاحة رأيه وحسن سياسته . و يروى عن عمر في هذا الشأن أنه قال : « والله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » . فلما عزم أبو بكر بعد هذا النصر أن يقاتل المرتدين في أرجاء شبه الجزيرة جميعاً لم يخالفه أحد . ولعل المسلمين رأوا في هذا الرجل الذي لزم الرسول عشرين عاماً سويّاً نفحةً من روح الرسول جملته يرى بنور الله مالا يرون ، ويكلمهم من الرأي مالا يلمون . وسارت جيوش المدينة بإمرة عمرو بن العاص و خالد بن الوليد إلى قضاة وإلى بني أسد تحارب المرتدين وتردهم إلى دين الله ، والمسلمون مطمئنون إلى نصر الله جنده المجاهدين في سبيله ، وابن الخطاب مقيم إلى جانب الخليفة يشير عليه بالرأي ويدبر وإياه سياسة الدولة .

وقضى خالد بن الوليد على الردّة في بني أسد ، وانتقل من منازلهم إلى البطاح يقضى على الردّة في بني تميم ، فقتل زعيمهم مالك بن نويرة وتزوج من امرأته^(١) ، مخالفاً بذلك تقاليد العرب إذ كانوا يجتنبون النساء في الحرب .

غضب أبو قتادة الأنصاري لمقتل مالك بن نويرة بعد ما أظهر إسلامه ، وظنها حيلة من خالد ليتزوج الجميلة ليلى ، وكان يقال إنه يهواها في الجاهلية . وذهب أبو قتادة ومُتَمِّم ابن نويرة أخو مالك إلى المدينة ، ولقيا أبا بكر وقصّا عليه ما رأيا ، فلم يزد على أن ودى مالكا ، وكتب برد السبي ، ثم أنكر على أبي قتادة أن يطعن في خالد أو أن يتهمه . وتحدث أبو قتادة إلى عمر بن الخطاب ، فشاركه عمر في رأيه وانطلق بطعن معه على خالد وينال منه . ثم إنه ذهب إلى أبي بكر محققاً وقال له : « إن في سيف خالد رهقاً ، وحق عليه أن يُقَيِّده » . ولم يكن أبو بكر يُقَيِّد من عمّاله . لذلك قال حين ألح عمر عليه : « هَبْهُ يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » . ولم يكف هذا الجواب عمر ، فلم يكف عن المطالبة بعزل خالد ، حتى ضاق الخليفة بالحاحه فقال له : « لا يا عمر ! ما كنت لأشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين ! » .

هذا جواب حاسم لا ريبه معه في أن أبا بكر لن يعزل خالداً . أترى عمر اكتفى به ،

(٢) راجع تفصيل ذلك في الفصل الثامن من كتاب « الصديق أبو بكر » .

مطمئناً إلى أنه أدى واجبه في المشورة ، وإلى أن واجبه بعد ذلك أن ينزل على رأى الخليفة
والآثير الشبهة فيه ؟ كلا ! فقد كان عمر ثائراً بخالد ثورة جعلته يبالغ في الذيل منه ،
فيجمع من حوله متبهاً وأبا قتادة ومن لف لفهما ، ويستنشد مقما شعره في رثاء مالك ،
ويظهر الرضا عنه وعما يقول . وكيف لعمر أن تطيب نفسه فيسكت عن رجل قتل امرأ
مسلماً ونزا على امرأته ، فوجب رجه ! ليكن هذا الرجل سيف الله ! وليكن خال عمر
وابن عم أمه ! وليكن له من الفضل في قتال المرتدين ما له ! إن الأمر يتصل بنظام الجماعة
والحفاظة عليه . ولا شيء أضر بهذا النظام من التفريق بين الناس في المعاملة . والتسامح
مع أحدهم في أمر يؤخذ به غيره ويماقب عليه . لذلك لم يهدأ ثأره حتى استدعى أبو بكر
خالداً إلى المدينة ؛ ولا يشك عمر في أن الخليفة سينتهى إلى رأيه فيعزل القائد العبقري .
لكن أبا بكر لم يصنع إلا أن عتف خالداً على الزوج من امرأة لم يحف دم زوجها ،
ثم تجاوز عما كان من قتله مالسكا ومن معه من بنى تميم ، وأمره أن يسير ليلقى مُسَيْلَمَةَ
ورجاله باليمامة ، مطمئناً إلى أن الله سينصر خالداً على بنى حنيفة ، فيصهره النصر وينسى
الناس زواجه من ليلي .

لم يتزعزع عمر مع ذلك عن رأيه فيما صنع خالد في وجوب عزله وكان لهذا الإصرار
أثره من بعد حين تولى عمر إمارة المؤمنين ، فقد عزل خالداً عن إمارة الجيش أول ماتولى ،
ثم عزله من بعد ذلك عن عمله في الجيش كله . وسنقص تفصيل ذلك ورأينا فيه
في مواضعه من هذا الكتاب .

لم ترو كتب التاريخ أن أبا بكر وعمر اختلفا في أمر ما اختلفا في أمر خالد . وهو
اختلاف يتفق وطباع الرجلين واتجاه كل منهما في سياسة الدولة . فقد كان عمر يرى أن
لا عذر لرجل عن إثم إلا أن يكفر عنه ؛ بذلك يستقر الأمر ، ويقوم نظام الحكم على
أساس متين من المساواة الصحيحة . والكبراء الذين يأتون أكبر جريرة عنده ، فالعفو
عنهم أشد على نظام الجماعة خطراً . أما أبو بكر فكان يذكّر أن رسول الله هو الذي سمى
خالداً سيف الله ، وأنه إذا وجب أن تدرأ الحدود بالشبهات في أوقات السلم ، فأوجب أن
تدرأ بها في أوقات البأس والخطر . وقد كان المسلمون في حاجة إلى خالد وعبقرية قيادته
(م ٦ - الفاروق - ج ١)

يوم استدعاه أبو بكر وعنفه أكثر من حاجتهم إليه من قبل لذلك لم يعزله أبو بكر ، بل وجهه إلى مسيلة باليمامة ف قضى عليه ، ثم وجهه إلى العراق ففتحته ، ثم نقله إلى الشام فأنسى الروم به وساوس الشيطان .

أدى إصرار عمر على رأيه في خالد أن يتسقط كل هناة له ، وأن يطلب إلى الصديق مؤاخذته بها . تزوج خالد إثر انتصاره باليمامة بنتاً بكرأ ، فكتب الصديق يعنفه ويقول له : « لعمري يا بن أم خالد إنك لفارغ ! تفكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يحفف بعد ! » . ونظر خالد في الكتاب فقال : هذا عمل الأعمى . والأعيسر عمر بن الخطاب . ولما فتح العراق وبلغ فيه منازل هذيل وقضى عليهم ، قتل رجلين معهما كتاب من أبي بكر بإسلامهما : ورأى عمر في مقتلهما ما يؤاخذ خالد به . فرد الصديق رأيه ، وقال عن الرجلين : « كذلك ياقى من ساكن أهل الحرب » .

يرى بعضهم عجبا أن يثور عمر بخالد كل هذه الثورة ، وخالد خال عمر ، وخالد سيف الله وناصر دينه . وقد يزيل من هذا العجب ما يرويه بعض المؤرخين من أن عمر كان سيء الرأي في خالد من قبل إسلامه ، وكان سيء الرأي فيه حياته^(١) . ولعل عمر لم ينس لخالد غزوة أحد وموقفه منها ، وانتصار المشركين على المسلمين بمهارته فيها ، ثم مهاجمته رسول الله لولا أن وقف عمر في وجهه وصدّه عن غرضه . ومهما يكن من شيء فالثابت أن ابن الخطاب لم يحب خالداً وإن لم يمتعه ذلك من تقدير قدرته والإعجاب بعبقريته قيادته . وكان خالد يبادل عمر هذا الشعور ، ويرى إصبعه في كل أمر يحيثه من الخليفة لا يوافق هواه . وذلك قوله حين نقله أبو بكر من العراق إلى الشام . « هذا عمل الأعيسر ابن أم سخله . حسدني أن يكون فتح العراق على يدي » .

من حقل أن تعجب لهذا الاختلاف الواضح بين أبي بكر وعمر في أمر خالد بن الوليد . لكن من الحق عليك أن تُعجب بهذين الرجلين العظيمين كيف لم يغير هذا

(١) يقول اليعقوبي في تاريخه : « كان عمر سيء الرأي في خالد على أنه ابن خاله ، لقول كان قاله في عمر » . والتعبير بابن خاله توسع من اليعقوبي .

الاختلاف البين من مودتهما ومن وثيق تعاونهما لخير الإسلام والمسلمين . فقد ظل عمر على ولائه لأبي بكر وعلى عهده معه ؟ يؤدي واجبه في الإدلاء بالمشورة ، وينفذ أمر الخليفة بإخلاص تام في كل ما يعهد الخليفة إياه في تنفيذه . وقد ظلت ثقة الصديق بعمر كما كانت ، لم يعزها وهن ولم تتغير في قليل ولا في كثير . وهذا الإخلاص المتبادل وهذه الثقة الأكيدة هما ملاك النظام في الدولة ومصدر بأسها وقوتها . ولذلك بلغت المملكة الإسلامية في عهد هذين الرجلين شأواً لم يتح للمملكة غيرها في العالم كله ، وظل اسم أبي بكر واسم عمر في صحف التاريخ علماً على الصدق والأمانة والقوة ، ولا يدانيه في الجلال والعظمة علم غيره .

أبي أبو بكر أن يقيد من خالد بن الوليد لقتله مالك بن نويرة وتروجه من ليلي ، ووجهه إلى اليمامة ، فكان نصره فيها حاسماً ، وكان إيذاناً من الله بالقضاء على الردة في أرجاء شبه الجزيرة جميعاً ، وإن استشهد فيها من المسلمين ألف ومائتان . وقد جزع أهل المدينة لمن استشهدوا ، وكان عمر بن الخطاب من أشدهم جزعاً لمقتل أخيه زيد ، حتى لقد واجه ابنه عبد الله حين رجع إلى المدينة بقوله : « ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا وارىت وجهك عنى ! » . وأجابه ابنه في صدق وإيمان : « سألت الله - الشهادة فأعطيتها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها » ،

على أن جزع عمر لمقتل أخيه لم يثنه عن التفكير في أمر هو أجل الأمور في حياة الإسلام والمسلمين خطراً ؛ فقد كان فيمن استشهد عدد من حفاظ القرآن فاعسى أن يكون الأمر إذا تلاحت الغزوات فقتل فيها مثل من قتل من الحفاظ باليمامة ؟ فكّر عمر في هذا الأمر حتى استقر رأيه ، ثم ذهب إلى أبي بكر وهو بمجلسه من المسجد ، فقال له : « إن القتل قد استحرّ بقاء القرآن يوم اليمامة ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها ، فيذهب قرآن كثير . وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن » .

فوجىء الصديق بهذا الاقتراح ، فكان جوابه : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » وأيد عمر رأيه بالحجة فأقنع أبا بكر ، فدعا زيد بن ثابت وذكر له مدار بينه وبين عمر ، ثم قال له : « إنك رجل شاب عاقل ولا تهملك . كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فأجمعه » وتردد زيد كما تردد أبو بكر ، ثم شرح

الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فقام فتتبع القرآن يجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسب وصدور الرجال . وكذلك كانت مشورة عمر هي التي أدت إلى جمع القرآن وإلى بقاءه كما جمع من يومئذ ، حتى ليقول عنه المستشرق الإنجليزي وليم ميور : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً كاملاً بنص هذا مبلغ صفائه ودقته » .

وتذهب رواية إلى أن عمر أول من جمع القرآن في المصحف . وهذا قول يخالف التواتر . على أن التواتر يقر بفضل في المشورة على أبي بكر بالجمع وإقناعه به . فلو أن عمر لم يتنبه إلى ما قد يتعرض له القراء في غير الليامة من المواطن ، وما قد يترتب على ذلك من ذهاب قرآن كثير ، لما فكر الصديق في جمع القرآن ولما أقدم عليه بل لو أن عمر لم يراجع أبا بكر حين قال : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله « ولم يقنعه بضرورة الجمع لما حرص أبو بكر عليه ، ولا دعا زيد بن ثابت ليقوم به . فإذا كان لأبي بكر من الفضل في هذا العمل العظيم ما جعل علي بن أبي طالب يقول : « رحمة الله على أبي بكر ! كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف » ، فلا ريب في أن عمر يشاركه في الأجر والفضل جميعاً ، وفي أن المسلمين مدينون له دينهم لأبي بكر في جمع كتاب الله . وهذه واحدة من نفحات روحه العظيمة ، ومن أجل هذه النفحات وأعظمها خيراً وبركة .

لعلك رأيت فيما سبق ما بلغه عمر من مكانة في عهد الصديق ، ورأيت أنه كان في هذا العهد كما كان في صحبة رسول الله رجل مشورة وحسن سياسة أكثر مما كان رجل مواقع وغزوات . بل لقد رأيت كيف خالف أبا بكر في قتال من منعوا الزكاة ، كما ورد قبل ذلك ألا يتم بعث أسامة . فلما رأى سياسة الجهاد والحزم تؤدي إلى الرقعة والنصر ، آمن بها ، وأيد أبا بكر فيها بكل قوته . أليست سياسة الجهاد هي التي قضت على الردة وأعادت المرتدين إلى حظيرة الإسلام ، وجمعت شبه الجزيرة إلى لواء واحد ؟ أو لم تفتح هذه السياسة أبواب العراني وتمهد للإدالة من دولة كسرى ؟ لا عجب إذاً أن يؤمن عمر بها ، وأن يدفع في تأييدها اندفاعه في تأييد كل ما يؤمن به .

لما تقدم خالد بن الوليد في العراق ، ودوت أنباء نصره في شبه الجزيرة وما حولها ،

عزم أبو بكر فتح الشام . وأصبح يوماً فدعا إليه أهل الرأى وعمر في مقدمتهم ، وذكر لهم أن رسول الله كان عول أن يصرف همته إلى الشام ، فقبضه الله إليه ، واختار له مالهديه « والعرب بنو أم وأب . وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً عند الله عز وجل ثواب المجاهدين » . وطلب إليهم رأيهم في ذلك ، فكان عمر بن الخطاب أسبقهم إلى إجابته ، قال : « والله ما استبقينا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد . سرب إليهم الخيل في أثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود تتبعها الجنود ؛ فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومقر الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعد رسوله » .

لم يتحمس الحاضرون لهذه الدعوة مع ما كان من كلام أبي بكر وعمر ، بل تداولوا الحديث وقد أخذتهم هيئة الروم . فلما فرغوا منه عاد أبو بكر يدعوهم للتجهز فسكتوا عند ذلك صاح فيهم عمر . « مالكم يامعشر المسلمين لا تجيئون خليفة رسول الله إذ دعاكم لما يحييكم ! » . وهزت هذه الصيحة الحاضرين ، فرضوا الجهاد وإن آثروا أن يستعين الخليفة على عدوه بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً .

نقف هنا وقفة أخرى ؛ فهذا التغير الذى طرأ في اتجاه عمر ، وأدى به إلى تأييد سياسة الغزو بكل هذه القوة ، يعزز تصويرنا السابق لطريقة تفكيره ، ويزيدنا اقتناعاً بأنه كان رجلاً عملياً لا يقيم وزناً للفكرة من حيث هى ، ولذاتها ، بل من حيث ما تترك من أثر في واقع الحياة . ذلك ما ذكرناه حين صورنا طريقة تفكيره المناسبة لإسلامه . وانقلابه من سياسة الحذر إلى سياسة الغزو في عهد الصديق يزيد هذه الصورة جلاء ووضوحاً . فهو قد كان للإسلام مباعداً ، وكان على المسلمين حرباً حين لم يكن للمسلمين من البأس ما يجعل غيرهم على الاعتداد بهم ، فكان يرى وجودهم خطراً على نظام مكة وعلى مكائدها الدينية . فلما رأى المسلمين يثبتون على دينهم ويحتملون الأذى والتضحية في سبيله ، ويبلغ بهم ذلك حتى يهاجروا عن وطنهم ، تبين له ما لهذا الدين الجديد من سلطان على نفوس من يدينون به .

وأيقن أنهم لن يُنكَبُوا . عند ذلك راجع نفسه وجعل يفكر فيما يسمع من القرآن ، حتى آمن بالله ورسوله وما جاء من عند الله ، فلما آمن أبداً للمسلمين بمثل القوة التي كان يحاربهم بها من قبل . وهو قد كان لسياسة أبي بكر في القتال مباعداً . لم يطب نفساً ببعث أسامة ولم يرض قتال الذين منعوا الزكاة . فلما جهز أبو بكر المدينة لحروب الردة وقف بعيداً عن هذا التجهيز ، فلا يكاد المؤرخون يذكرون له يومئذ رأياً . لكن سياسة أبي بكر في الغزو نجحت ففضت على المرتدين وفتحت العراق . عند ذلك انقلب عمر يؤيدها بكل قوته ، كما آمن فانقلب يؤيد الإسلام بكل قوته .

وقد كان لهذا الاتجاه الجديد في تفكير عمر أثره من بعد في استخلاف أبي بكر إياه ، وفي نجاح سياسة الفتح التي بدأها أول الخلفاء . وسنرى من بعد كيف أدت حماسة عمر لهذه السياسة إلى إقامة الإمبراطورية الإسلامية على أنقاض الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . على أن ما حدث يومئذ من تغير في اتجاه عمر السياسي لم يصحبه تغير في تفكيره الاجتماعي . وكان تفكير عمر في الناحية الاجتماعية يخالف تفكير الصديق في طائفة من الأمور الجوهرية مخالفة تبلغ بعض الأحيان حدّ للنقاصة . كان أبو بكر شديد الحرص على المساواة بين المسلمين لا يفرق فيهم بين عربي وعجمي ، ولا بين السابقين إلى الإسلام ومن دانوا بعدهم به . ففتح في عهده منجم للذهب على مقربة من المدينة ، فكان يسوّى في قسمة الذهب الذي يجيء منه بين المسلمين . وقيل له في تفضيل السابقين إلى الإسلام على قدر منازلهم ، فكان جوابه : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، وفيهم ذلك في الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ » . ولقد دعا أهل مكة يشاورهم في غزو الشام وبستمدهم إليه ، كما فعل أهل المدينة . أما عمر فكان يميل بتفكيره إلى نظام الطبقات ؛ كان يؤثر السابقين إلى الإسلام ، ويؤثر أهل البيت على هؤلاء السابقين . وقد ترك هذا التفكير العمري أثرًا في حياة المسلمين وفي سياسة الدولة الإسلامية وجه التاريخ الإسلامي في كثير من الحقب ، ولا يزال باقيًا إلى اليوم . وسنرى من ذلك ، حين الكلام عن الديوان وعن نظام الحكم ، ما لا يدع مجالاً للريب فيه .

وهو لم يكن يخفى هذا الميل إلى تفضيل بعض الطبقات على بعض في عهد أبي بكر

لمّا شاور الصديق أهل مكة في غزو الشام واستمدّهم إليه ، على نحو ما فعل مع أهل المدينة ، عارضه عمر في ذلك معارضة أساسها الحرص على أن يكون للمهاجرين والأنصار من السابقين إلى الإسلام أولوية في الرأي والسلطان على سائر المسلمين . وقد اعترض سهيل ابن عمرو رأى عمر في ذلك وقال له : « ألسنا إخوانكم في الإسلام وبنى أبيكم في النسب أأنفكنم أن كان الله قدّم لكم في هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله قاطعوا أرحامنا ومستهيئون بحقنا ؟ » . وأجابه عمر في صراحة : « إني والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم للإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين » .

على أن مارآه عمر من تفضيل السابقين للإسلام وتفضيل أهل بدر وتفضيل آل البيت لم يكن مصدره الهوى ، وإنما كان مصدره الاقتناع ؛ فلم يكن له أى أثر في معاملته لهؤلاء جميعاً وفي عدله بينهم في خلافة أنى بكر وفي خلافته . ذلك أنه كان مفطوراً على العدل ، كَمَل في نفسه معناه وتجمست في بصيرته صورته . وُلِّي القضاء في عهد أبي بكر عامين فلم يختلف إليه متقاضيان . ولا ريب أن قد كان لاشتغال المسلمين بالغزو والفتح في حروب الردّة وفي فتح العراق والشام أثر في ذلك كبير . ولا ريب كذلك في أن ما اشتهر عن عمر من العدل قد كان له فيه أثر أى أثر ، فمن العوامل التي تشجّع الناس على التقاضى طمّح من لاحق له في أن يخطئ القاضى فيفضل طريق الحق ، أو يجابى فيحيد عن هذا الطريق ، ولم يعرف الناس أن عمر كان يجابى في الحق أحداً ، أو أنه كان ينظر في الأمور بغير روية أو تمحيص يهديانه الحق ويكشفان له عنه . لا عجب وذلك شأنه ألا يذهب إليه متقاض يلتمس عنده غير الحق . ثم لا عجب أن يخشى الباغى سطوته ، فيرجع عن بغيه ويرد إلى صاحب الحق حقه .

وكان العدل في فطرة عمر منذ نشأته ، ثم نمت فكرة العدل في نفسه حتى بلغت الكمال ؛ لأنه سما بعقله وقلبه فوق شهوات هذه الحياة الدنيا ، فلم يجعل لها عليه سلطاناً . اشتغل بالتجارة صَدَرَ شبابه فكفاه منها أن ترزقه وترزق عياله رزق كفاف لا رزق نعمة وترف . وكان يذهب في تجارته إلى العراق وإلى الشام واليمن ، فكان أشد حرصاً على مقابلة الأمراء والحكّماء من أهل هذه البلاد ليزداد بالتحدث إليهم علماً ، منه على أن تزاد تجارته

ربحاً فيصبح من الأغنياء . فلما أسلم انجبه به إسلامه شيئاً فشيئاً إلى ناحية التطهر ، فاتخذ من النقشف وسيلته إلى هذه الناية . لذلك استغنى عما في أيدي الناس ، فلم يكن له عند أحد منهم حاجة ، ولم يكن له في أحد منهم مطعم أو مأرب . ولعلّ ما عُرِف عنه من غلظة قد دفعه إلى هذا التطهر وأعانه عليه ، فهو لم يكن يبالي أن يقول لكل إنسان كل ما يمتدده من غير مداراة أو التماس للرضا . ألم يذهب إلى رسول الله إثر عهد الحديبية يقول له : « أأنت رسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ فعلامَ نعطي الدنيا في ديننا ؟ » . ولم يكن عمر يصطنع هذه الجرأة معتزاً بها ما استغنى عن الناس ، فإذا احتاج إليهم دأري وتزأف ؛ فإنما يدارى ويتزلف من تذلّه الدنيا وتستهويه ، فأما من أذل الدنيا مستغنياً عنها فهو أشد استغناء عن الزلف وعن المداراة ؛ وذلك شأن المتطهرين أولى النفوس الكبيرة والقلوب المصفاة . وكان عمر في الطليعة من هؤلاء .

هذه الصفات التي اجتمعت لعمر مالت به إلى إثارة الخير العام على نفسه وعلى أهله وذويه . وهذا التفكير الذي انتهى به إلى أن يؤمن بسياسة أبي بكر في التوسع بالعراق والشام ، جعلت أبا بكر يراه أجدر من يخلفه على سياسة المسلمين . لكن في عرشة وغلظة ترغبان بالكثيرين من أولى الرأي عن مودته . وأصحاب الرأي هم أعوان الخليفة في سياسة الدولة . فإذا انقطعت الودة بينه وبينهم لم يسرعوا إلى معاونته بالرأي ، فشق عليه أن يسوسهم وأن يسوس الدولة بهم . أفلا يحمل بأبي بكر أن يوازن بين صفات عمر وحسن سياسته وبين ما فطر عليه من غلظة قد تفسد عليه الأمر ثم لا تسكاتها سائر مزاياء ؟ .

فكر الصديق في هذا الأمر حين شعر في مرضه بأنه مشفٍ على الموت . أنراه بدع المسلمين يختارون لأنفسهم ، فلا يشير عليهم في الأمر برأى ولا يستخلف منهم أحداً ، وله أسوة في رسول الله ؟ ! هذا أيسر طريق وأهونه . لكن الصديق ذكر سقيفة بني ساعدة وموقف الأنصار بها ، وذكر ما كان موشكاً أن يحدث لولا أن جمع الله كلمة المسلمين على بيعته . ولئن اختلف المسلمون حين وفاته ليكون اختلافهم أجسم خطراً ؛ فلم يبق الأمر دائراً بين المهاجرين والأنصار دون غيرهم بعد أن جاهد العرب ولا يزالون يجاهدون

في العراق والشام ، يواجهون فارس والروم . فإذا قبض واختلقوا ، أدى اختلافهم إلى فتنة قد تتور بلاد العرب كلها ، فتفسد الأمر وتقضى على سياسة التوسع وهو لا يزال في بداءته . فأمّا إذا استخلف وجمع كلمة المسلمين على من استخلفه فقد اتقى ما يخشى . وإذا كان رسول الله لم يستخلف ، فذلك لشلا يظن الناس أن من استخلفه قد استمد الأمر على المسلمين بوحي من عند الله ، فأصبح خليفة الله . ولا خوف من مثل هذا الظن إذا استخلف أبو بكر ، فجنب المسلمين الاختلاف ، وكفل لسياسة التوسع الاستمرار والنجاح فليفعل ! وليكن عمر خليفته ! وليجمع كلمة المسلمين عليه ! وهو إن استطاع أن يجمعها فذلك التوفيق من الله توفيقاً ينصر دينه .

وأصبح فدوا إليه عبد الرحمن بن عوف فسأله عن عمر ، فقال : « هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة » . قال أبو بكر : « ذلك لأنه يرانى رفيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ، ويا أبا محمد قد رمّقتك فرأيتك إذا غضبت على الرجل في الشيء أراى الرضا عنه ، وإذا لنت له أراى الشدة عليه » . وانصرف عبد الرحمن ، فدعا الخليفة عثمان بن عفان فسأله عمر ، فقال : « اللهم علمى به أن سريره خير من علانيته ، وأنه ليس فيما مثله » . وبعد انصراف عثمان شاور أبو بكر سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرها من المهاجرين والأنصار ، حريصاً على أن يجمع كلمتهم على خلافة عمر . وسمع بعض أصحاب النبي بمشاورات أبي بكر في استخلاف عمر ، فأشفقوا من غلظة ابن الخطاب وشدته أن يفرّق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يهيبوا بالخليفة ليرجع عن عزمه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة بن عبيد الله : « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ ! » . وغضب أبو بكر لما سمع من ذلك وصاح بأهله : أجلسوني . فلما أجلسوه قال ، ولا يزال الغضب آخذاً منه مأخذه « أبالله تخوّفوني ! خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول : اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك ! » . ثم اتجه إلى طلحة فقال له : « أبلغ عني ما قلت لك من وراءك ! » .

أشفق أبو بكر من هذا الحديث ألا يكون قد جمع كلمة المسلمين على الرضا بخلافة

عمر له ، ففضى ليله مؤثراً ، فلما أصبح دخل عليه عبد الرحمن بن عوف فبادله التحية . ثم تحدث الصديق وكأنما عناء ما حدث بالأمس فقال : « إني وليت أمركم في نفسي ، فكلكم وريم أنه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه » وأجابه عبد الرحمن : « خفف عليك رحمك الله ! فإن هذا يهيضك . إنما الناس في أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ، ولم تزل صالحاً مصلحاً » .

لم يكتف أبو بكر بمشاورة أولى الرأي من المسلمين وبخاصة بعد أن رأى منهم من خالفه في رأيه . لذلك أشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد ، فقال مخاطبهم جميعاً : « أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد وليت عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ! » وأجاب الناس : « سمعنا وأطعنا » عند ذلك رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفتُ عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت به أعلم ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيراً وأقوامهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم » . وسمع الناس دعاءه فازدادت كثرتهم اطمئناناً لما صنع .

ودعا أبو بكر عمر فعهد إليه وأوصاه بمتابعة الحرب في العراق والشام من غير هوادة ، وذكره بما يجب على من ولي أمر المسلمين من تحرى الحق ، وبأن الله ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راهباً لا يثنى على الله غير الحق ، فإن فعل لم يكن غائب أحب إليه من الموت ، يحاسبه الله بعده فيثيبه عن الحق وأتباعه . فلما فرغ من وصيته خرج عمر من عنده وهو يفكر في هذا الأمر الذي ألقى على عاتقه ، فود لو أن الصديق برىء من مرضه ليواجه موقفاً ما أدقّه .

لكنه لم يتردد في قبول ما ألقى عليه متى آن له ينهض بقباعته . إنها تبعة عظيمة وععب جم المتاعب ، لكن ! من لهذا العبء كابن الخطاب يحمله وينهض به ! ولقد حمله عمر بعزم وقوة ، فلم يترك هذه الدنيا حتى امتد الفتح الإسلامي فشمّل فارس والشام ومصر ، وحتى قامت الأمبراطورية الإسلامية على أمتن دعامة وأقوى أساس .

الفصل الخامس

عمر يستفتح عهده

قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ مَغِيبِ الشَّمْسِ مِنْ مَسَاءِ الْإِثْنَيْنِ لِإِحْدَى وَعَشْرِينَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الْآخِرَةِ لِلسَّنَةِ الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْهَجْرَةِ (٢٢ أَيْسُطُسُ سَنَةِ ٦٣٢) فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ غُسِّلَ وَحُمِلَ عَلَى السَّرِيرِ الَّذِي حَمَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ ، وَنُقِلَ جَسَدُهُ إِلَى قَبْرِ الرَّسُولِ ، وَدُفِنَ فِي حَفْرَةٍ إِلَى جَنْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجُعِلَ رَأْسُهُ إِلَى كَتِفِ رَسُولِ اللَّهِ وَالْصَّقُّ بِاللَّحْدِ بِاللَّحْدِ . وَقَدْ تَوَلَّى دَفْنَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ .

أَتَمَّ عُمَرُ وَاجِبَهُ الْآخِرَ لِلْخُلَيْفَةِ الْأَوَّلِ ، وَخَرَجَ مِنْ حَفْرَةِ الْقَبْرِ بَدَارَ عَائِشَةَ فَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ عَائِداً أَدْرَاجَهُ يُوْثِمُ دَارَهُ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ^(١) . وَدَخَلَ مَضْجَعَهُ وَجَعَلَ يَفْكَرُ فِيمَا يَتَقَفَّسُ عَنْهُ الْغَدُ : فَسَيَبَايَعُهُ الْمَسَامُونَ مِنْ بَكْرَةِ النَّهَارِ لِيَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ ، فَيُؤَاجِهُ مِنْهُمْ مَنْ رَضِيَ اسْتِخْلَافَهُ كَارِهًا ، ثُمَّ يُؤَاجِهُ الْمَوْقِفَ الْحَرْبِيَّ الْجَلِيلَ الدَّقِيقَ فِي الْعِرَاقِ وَفِي الشَّامِ ؛ فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَفْعَلَ لِيَتَغَلَّبَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ وَهَؤُلَاءِ الْأَعْظَمِ مَكَانٍ مِنْ جَلَالِ الْخَطَرِ فِي حَيَاةِ الدَّوْلَةِ النَّاشِئَةِ .

(١) أَوْرَدَ ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ رَوَايَاتٍ عَنْ أَوَّلِ خُطْبَةِ خُطْبَتِهَا عُمَرُ ، وَمِنْهَا رَوَايَةٌ مُسْنَدَةٌ إِلَى عَفَّانَ ابْنِ مُسْلِمٍ وَوَهَبِ بْنِ جَرِيرٍ بْنِ حَازِمٍ عَنْ حَمِيدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ شَهِيدٍ وَفَاةٍ أَبِي بَكْرٍ ، نَجْرِي عَمَّا نَصَهُ : « فَلَمَّا فَرَّغَ عُمَرُ مِنْ دَفْنِهِ نَفَضَ يَدَهُ مِنْ تَرَابِ قَبْرِهِ ، ثُمَّ قَامَ خُطْبِيًّا مَكَانَهُ » ثُمَّ تَوَرَّدَ خُطَابًا سَيَلَوُ الْقَارِيءَ نَفْسَهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ . وَنَحْنُ نَرْتَابُ فِي قِيَامِ عُمَرَ يَخْطُبُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ ، وَنَرْجِيحُ أَنَّ عُمَرَ أَلْفَى هَذَا الْخُطَابَ فِي مَوْقِفٍ آخَرَ . فَقَدْ أَبَى عُمَرُ أَبَا بَكْرٍ كَمَا أَبْنَى عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبْنَتْهُ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ لِأَوَّلِ مَا ذَاقَ نَبَأَ وَفَاتِهِ بَعْدَ مَغِيبِ الشَّمْسِ ، وَلَمْ يَزِدْ عُمَرَ فِي تَأْيِينِهِ عَلَى أَنْ قَالَ : « يَا خُلَيْفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ! لَقَدْ كَلَفْتُ الْقَوْمَ بَعْدَكَ تَعْبًا ، وَوَلِيْتَهُمْ نَصَبًا . فَهَيَّاهُ مِنْ شَقِّ غِبَارِكَ ، فَكَيْفَ الْحَاقَ بِكَ » . وَقَدْ دَفِنَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ مَا جَنَّ اللَّيْلُ . وَدَفِنَ بَدَارَ عَائِشَةَ فِي الْحَفْرَةِ الَّتِي دَفِنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَلْحَقُهَا أَحَدٌ غَيْرُ الَّذِينَ تَوَلَّوْا الدَّفْنَ . وَقَدْ أَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَمُوتَ مَعَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : « كَفَيْتَ » . فَلَيْسَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَقُومَ عُمَرُ خُطْبِيًّا فِي هَؤُلَاءِ . ثُمَّ لَأَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ كَانُوا قَدْ أُورُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ بِالْمَسْجِدِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا قَلِيلُونَ هُمْ أَهْلُ الصَّفَةِ ، لِأَنَّ الْمَسْجِدَ لَمْ يَكُنْ يَضَاءُ فِي ذَلِكَ الْمَهْدِ .

كان موقف المسلمين بالعراق والشام يومئذ بالغاية الدقة؛ فند جمدت قوات المسلمين بالشام أمام قوات الروم، فأجدها أبو بكر بخالد بن الوليد في عدد من جيش العراق. مع ذلك أقامت القوات وخالد على رأسها ولا يبلغ الساميين بالديقة من تبئها ما يبعث إلى نفوسهم الأمل في نصرها أو يطعنهم على مصيرها. وقد ضعف جيش العراق بغياب خالد فيمن فصل بهم من المسلمين إلى الشام، فلم يستطع المثنى بن حارثة الشيباني، على براعته ومقدرته، أن يحتفظ بكل ما غنمه المسلمون من سواد العراق، فارتد إلى الحيرة وتحصن بها. حقا أنه انصر على جيش من الفرس وجهه شهريران بن أردشير بقيادة هرمز جاذويه، فالتقى هو والمسلمون على أطلال بابل فردوه مدحورا. لكن المثنى رجع بعد نصره يتحصن بمواقفه الأولى خيفة أن يباغت، موقفا أنه لن يستطيع التقدم وإن استطاع المقاومة. بل لقد أصبح المقاومة أمرا عسيرا إذا اطمأن بلاط فارس وزال اضطرابه. لهذا كتب إلى أبي بكر يستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة، وكان أبو بكر قد حرم الاستعانة بهم في الحرب. فلما أبطأ عليهم رد الخليفة استخلف بشير بن الخصاصية على من بالعراق من المسلمين، وذهب إلى المدينة بعرض موقفه الدقيق، ويدافع عن رأيه في الخروج منه. ترى كيف يواجه امر هذه الأمور كلها؟ في هذا وفيما يتصل به بات يفكر ليله، ضارعا إلى الله أن يلهي الرأي، وأن يهديه الصراط السوي. إنه سعى المثنى في طليعة من يراهم متى أصبح، وسيطلب المثنى إليه ما طلبه إلى أبي بكر من قبل، أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة، وسيردد المثنى أن التائبين من أهل الردة يطعمون في مغامم الفزو، فلا أحد أنشط إلى الحرب منهم، وقد أوصى أبو بكر عمر في أمر العراق وصية لا بد من تنفيذها، إذ دعاه إليه وقال له: «اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به! إني لأرجو أن أموت من يومى هذا. فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى. وإن فتح الله على أمراء الشام فارذبه أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاه أمره وحده، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم». أفيندب الناس مع المثنى أم يدعه يستعين بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة؟ إنه ليخشى أن يتقاعس الناس إذا ندبهم بعد ما رأوا أصحابهم بالشام لا يستطيعون التقدم

فيه ، ورأوا الثمنى بالمدينة خائفان من الفرس ووصولهم . ولكن المسلمين لابقاء لهم بالعراق إذا لم تعزّر قواتهم فيه بمدد قوى . والتفكير في الانسحاب من تلك البلاد أمر لا يحظر للمثنى ببال ؛ فهو الذى دفع أبا بكر لغزوها ، وهو الذى تقدم خالداً والمسلمين جميعاً إليها ؛ فليس حيناً على نفسه أن يجلو عن بلد كان الطليعة في غزوه ، وأن يجلو عنه وهو موقن بمقدرته على فتحه . ولو أن عمر أمده بالتائبين من أهل الردة ، لتابع الفتح ففض على كسرى إيوائه . ولم يحظر الانسحاب من العراق ببال عمر كذلك ؛ فإنما استخلفه أبو بكر ثقة منه بأنه أقدر المسلمين على متابعة سياسته . ولا سبيل إلى متابعة هذه السياسة إلا أن يأخذ الأمر بالحزم . وأن ينفذ وصية الصدّيق فيندب الناس مع المثنى ، وأن يعزّز قوات المسلمين بالشام . أترى وجوه المسلمين وأصحاب رسول الله الذين برموا باستخلافه يعاونونه في ذلك ضادقين ؟ وإذا ترددوا في معاونته فما عساه يصنع ؟ وماذا يكون من أثر ترددهم في العرب وفي ولائهم للمدينة ؟ ألا إن سياسة الحزم وحدها هي التي تنجح في هذا المرقف . والحزم لا ينقص عمر . فليعزم الأمر ، وليتوكل على الله !

بات عمر وقد عناه التفكير في هذا كله ، وأصبح فجر إلى الناس بالمسجد ، فأقبلوا على بيئته إقبالا سكن بعض ما جاشت به نفسه . فلما كان الظهر وازدحم الناس للصلاة ، صمد عمر المنبر درجة دون الدرجة التي كان يقوم أبو بكر عليها ، لحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ، وذكر أبا بكر وفضله ثم قال : « أيها الناس ! ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم » . قال هذه العبارة متأثراً في تواضع ورفق . أخذ بهما الناس ورأوا فيهما دليلاً على صدق فريسة الصدّيق فيه ، وبُعد نظره في استخلافه ، فأنشوا على عمر خيراً وزادهم ثناء عليه أن رأوه يتوجه بنظره إلى السماء ويقول : « اللهم إلى غليظ فليتي ! اللهم إلى ضعيف فتوني ! اللهم إلى بخيل فسختني ! » . وأمست عمر هنيئة حتى سكن الناس ، ثم قال : « إن الله ابتلاكم بي ، وابتلاكم بكم ، وأبقاني فيكم بعد صاحبي . فوالله لا يحضرنى شيء من أمركم فيليه أحد دوني ، ولا يتغيب عني فألوأ فيه عن الجزاء والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسن إليهم ، ولئن أساءوا لأسكن بهم » .

أتم عمر كلامه ثم نزل فأتم الناس للصلاة ، حتى إذا فرغ منها التفت إليهم فندبهم للذهاب إلى العراق مع المثنى ، وذكر لهم وصية أبي بكر في ذلك . وسمع الناس نداء الخليفة ، فنظر بعضهم إلى بعض ثم لم يجب الدعوة منهم أحد . وكأنما ذكروا ما أصاب إخوانهم بالشام ، فلم يريدوا أن يصابوا بمثله . أليس أبو بكر قد دعاهم لغزو الشام فترددوا فقام عمر يومئذ فصاح بهم : « مالكم يا معشر المسلمين لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم إلى ما يحبيكم ؟ » . عند ذلك أجابوا الدعوة ، فساروا لمواجهة هِرَقْل وجنوده . وهام أولاء أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان ، ومن معهم من الصحابة ومن تبعهم من الأمراء والأبطال من مختلف الأرجاء في شبه الجزيرة ، في موقفهم من الروم لا يستطيعون التغلب عليهم ، ثم لم يُغن عنهم أن أمدتهم أبو بكر بخالد بن الوليد بعد ما دَوَّخَ الفرس بانتصاراته في العراق . أترام يكونون أحسن حظاً إذا لبوا نداء عمر وساروا مع المثنى إلى العراق ١٩ أم تراهم يقفون هناك من جنود كسرى موقف أصحابهم بالشام من جنود هرقل ١٩ وليس يطمع أحد منهم في أن يردَّ عمر خالداً إلى العراق وهم يعلمون سوء رأيه فيه ، ويدكرون موقفه منه في حادث مالك بن نويرة . والمثنى بن حارثة قائد عظيم لاريب ، ولكنه ليس من قریش وليس من أصحاب رسول الله ، بل هو من بنى بكر بن وائل . ثم إنه لم يلبث ، حين فصل ابن الوليد من العراق إلى الشام ، أن انسحب من سواد العراق إلى الحيرة ، ثم جاء إلى المدينة يستمد الخليفة ، ويدل بذلك على أنه في مكان الفرس لا يحسد عليه . ولعل له عذره ؛ فاسم الفرس كان يُلقى في قلوب العرب العرب . ولقد ظن بعضهم أن خالداً غلبهم لأنهم استخفوا بادىء الراى بأمره ، فلم يواجهوه من قوتهم بما يردّه على عقبه . أما وذلك الشأن فما لهم ولقتال قد تدور عليهم دائرته ؟

لَمْ يَخَفْ أَحَدٌ مِنَ الزَّعَمَاءِ وَأَوَّلَى الرَّأْيِ مَلِيًّا نَدَاءَ عُمَرَ . وَإِذَا تَنَاقَلَ هَؤُلَاءِ كَانَ غَيْرُهُمْ مِنْ جَهْوَرِ النَّاسِ أَكْثَرَ تَنَاقُلًا . هُنَالِكَ أَطْرَقَ عُمَرُ هَنِيمَةً ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَجْلِسِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَعَادَ النَّاسُ يَتَتَابِعُونَ عَلَى بَيْعَتِهِ وَانْصَرَفَ النَّاسُ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَبَقِيَ عُمَرُ لَيْلَهُ يَفْكَرُ . فَلَمَّا أَصْبَحَ وَأَخَذَ مَكَانَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَعَادَ النَّاسُ يَتَتَابِعُونَ عَلَى بَيْعَتِهِ . وَنَادَى الْمُنَادِي بِالصَّلَاةِ

الظهر ، فالتفت عمر حين انفتل منها أن نادى في الناس بصوته الجهوري يأمرهم أن يردّوا سبائيا أهل الردّة إلى عشائهم ، ويعمل ذلك بقوله : « إني كرهت أن يصير السبي سنة في العرب » .
سمع الناس هذا الأمر ، فشخصت أبصارهم إلى عمر ، وجعلوا يتساءلون بينهم : ماذا أراد به ؟ ! لقد سبي المسلمون من العرب في حروب الردّة تنفيذاً لأمر أبي بكر حين أذاع في أرجاء شبه الجزيرة أنه أمر كل قائد من قواده ألا يقبل من مرتدّ إلا الإسلام ، ومن أبي ، أن يقاتله على ذلك ، ولا يُبقى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يُحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبي النساء والذراري . أفيريد عمر بهذا الأمر أن يخالف أبا بكر وأن يجري على غير سنته ؟ أم إنه رأى الناس تقاعسوا حين نذهبهم للذهاب مع المشركين فأراد أن يستميل العرب من مختلف القبائل إليه لئلا يمتدّ بهم ؟ أيّا ما كان الأمر ، فما أمر به جديد في سياسة الدولة يقف النظر ويوجب التساؤل .

الحق أن عمر لم يذق النوم في الليلتين اللتين انقضتا منذ قبض أبو بكر إلا غراراً . فالناس يتتابعون على بيعته احتراماً لعهد الصديق ووصيته . لكن الكثيرين من زعمائهم لا يزالون يبرّمون به لغظته ، وقد كان لبعضهم في ولاية الأمر مأرب . ولن تستقيم الأمور في دولة لا يتضمن أولو الرأي فيها على توجيه سياستها ، والموقف أدق من أن يدعه عمر للزمن مكتفياً بأن يدعو الله أن يحببه للناس وأن يحبب الناس إليه . فإن لم يأخذ الأمر بالحزم أوشكت شؤون الدولة أن تضطرب . أمّا وقد أمر بردّ السبي إلى عشائهم فتأنّف قبائل العرب وكسب قلوباً كانت تنفر من شدّته ، فليمض غير متردد في سياسته . ولقد خرج إلى الناس بالمسجد في اليوم الثالث ، فلما فرغوا من بيعته قام فيهم فقال : « إنما مثّل العرب مثل جملٍ أنفٍ ^(١) اتّبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . أمّا أنا فوَرَبّ الكعبة لأحملهم على الطريق » .

ازدادت الأبصار شخوصاً إلى عمر ، وخيل إلى الحاضرين بالمسجد جميعاً أن هذا الرجل سيكون عليهم سوط عذاب بشدّته وغلظته . ورأى عمر ذلك في وجوههم ، فصعد المنبر حين ازدحموا للصلاة الظهر فقال :

(١) جمل أنف أى ذلول ، وهو الذي عقر الخشاش أهله ، فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذي به .

« بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا قد كان عمر يشدد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ! ومن قال ذلك فقد صدق .

« . . . لأننى كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان ، كما قال الله ، بالمؤمنين رءوفاً رحيماً . فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يُغمدنى أو يدغنى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله كثيراً وأنا به أسعد .

« ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تُنكرون دعوته وكرمه ووليفته ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بليته ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يُغمدنى أو يدغنى فأمضى فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض . فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

« ثم إبنى وليتُ أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع حده على الأرض ، وأضع قدمى على الخلد الآخر حتى يذعن بالحق . وإبنى بعد شدتى تلك أضع خدتى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف .

« ولكم على أيها الناس خصال أذكركمها لكم فخذوني بها :

« لكم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه .

« لكم على إذا وقع فى بدى ألا يخرج منى إلا فى حقه . ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم . ولكم على ألا أقيم فى الممالك ، ولا أجركم فى ثغوركم^(١) ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال .

« فاتقوا الله ، عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكنها عنى ! وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . »

(١) تجدير الجيش : جمعهم فى الثغور وحبسهم عن العود إلى أهالهم .

قال عمر هذا القول ثم نزل فأمّ الناس للصلاة ، وأتمها ثم انصرف عنهم . وجعل الناس يفسكرون فيما سمعوا منه . لقد عرفوه رجلاً صريحاً ظاهره كباطنه ، وسره كعلانيته وعرفوه رجلاً عادلاً مع مافيه من شدة وغلظة . وهاهو ذا يذكر لهم أن شدته لن تكون إلا على الظالمين . وهو لا يخدعهم حين يقول إنه سيكون لأهل السلامة والقصد ألين من بعضهم لبعض ؛ فقد عرفوا من رفقه ورقته في بعض المواضع مالا سبيل إلى إنكاره أو نسيانه . ثم إنه وعدهم أن يزيد في عطاياهم وأرزاقهم ، وأن يكون أباً لعيالهم إذا غابوا عنهم في حرب . أليس خليقاً بهم أن يؤلوه كل ثقتهم ، وأن يجيبوا دعوته إذا دعاهم ؟^(١) كان ذلك شأن كثيرين من سواد الحاضرين . أما زعمائهم فقد ظلوا في تحفظهم ، برماً بعمر من جانب بعضهم ، وهيبةً للموقف في الشام وفي العراق من جانب الأكثرين وعاد عمر لصلاة العصر . ثم نذب الناس مع المثني فاثاقلوا . وكان المثني حاضراً ، وكان شديد الإلحاح على عمر أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، فهم لقتال الفرس أنشط . وزاد إلحاحه شدة حين أمر عمر بردّ السبي من أهل الردة إلى عشائهم ، ثقةً منه بأن هذا الأمر سيجعلهم أكثر إقبالا على السير منه . فلما أبطأ عمر في إجابته إلى ما طلب ، ورأى الناس يزدادون إقبالا على عمر وطمانينة لخلافته ، طمع في أن يتقدموا لما نذبههم الخليفة له . لكنه رأى تفاقمهم ، وتبين في وجوههم أن وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وعزيم وشوكتهم وقهرهم الأمم . عند ذلك وقف يخطبهم فقال .

«أيها الناس ! لا يعظمّن عليكم هذا الوجه ؛ فإننا قد تبججحننا^(١) ريف فارس وغلبناهم على خير شقّي السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبّلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » .

سمع عمر عبارة المثني ورأى حسن أثرها في الناس فقام فيهم خطيباً ، فكان مما قاله لهم «إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة^(٢) ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك . أين الطّرّاء

(١) تبجج السكان : توسطه وتمكن منه

(٢) النجعة : طلب الكلاء في موضعه .

للمهاجرين عن موعود الله ! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال . (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) . والله مُّظْهِرُ دِينِهِ ، ومُعِزُّ نَاصِرِهِ ، ومُؤَلِّ أَهْلِهِ مَوَارِيثَ الْأُمَمِ . أين عباد الله الصالحون ! » .

شعر الناس بما في تفاقمهم من سبّة لهم بعد الذي سمعوا من كلام المثنى ومن كلام عمر . إنهم نصروا رسول الله وأعزوا دين الله ، ونصروا أبا بكر من بعده فنصرهم الله ، فما بالهم لا يتجرّكون لدعوة عمر ! وترددوا : أيلبّون الدعوة أم يظلون على تقاعسهم . وإنهم لذلك إذ تقدّم أبو عبيد بن مسعود بن عمرو النخعي للسير إلى العراق ، فكان أوّل منتدب لهذا الأمر الجليل وثني من بعده سليط بن قيس . عند ذلك اجتمع الناس إليهما وأجمعوا السير معهما ، فكان معهما ألف رجل من أهل المدينة . ورأى عمر اجتماع ذلك البعث فاغبط أيما اغبط ، وخفق قلبه شكراً لله أن أخرج المسلمين من ذلك الجود الذي كانوا فيه ، والذي أوشك أن يفسد عليهم أمرهم .

من المهاجرين والأنصار يتولى إمارة هذا البعث ؟ فكر الذين ترددوا في إجابة الدعوة في هذا الأمر ، وخافوا أن يجعل عمر الإمارة على جيش فيه عدد عظيم من أهل المدينة لواحد من غير أهل المدينة . لذلك أسرع قوم إلى الخليفة يقولون له : « أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار » . لكن ترددهم ثلاثة الأيام الأولى من خلافة عمر كان قد حزّ في نفسه وأحفظه عليهم . لذلك لم يتردد أن أجابهم : « لا والله لا أفعل ! إن الله إنما رفعكم بسيفكم وسرعتكم إلى العدو . فإذا جَبُنْتُمْ وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء . والله لا أوامر عليهم إلا أولهم انتداباً » . ثم دعا أبا عبيد فولّاه الإمارة ، ودعا سعد بن عبيد وسليط بن قيس وقال لهما : « أمّا إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركما بها إلى مالكما من القدمة » .

اطمأن المثنى بين حارثة حين رأى هذا الجيش يتأهب للسير معه إلى العراق . أمّا عمر فرأى أن لا حاجة بالمثنى إلى البقاء بالمدينة ؛ ولذلك أمره أن يرجع إلى العراق فيأحق بقواته فيه ، وقال له « النجاء حتى يقدم عليك أصحابك .. » . وأخذ الجيش الجديد في الأهبة ، حتى إذا دنا موعود الرحيل قال عمر لأبي عبيد يوصيه : « اسمع من أصحاب النبي .

صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف .
 هذه مشكلة معقدة ألهم الله عمر فيها الرأي ، فخلها في أربعة الأيام الأولى من خلافته .
 ثم لم يصرفه اشتغاله بها عن التفكير في المشاكل الأخرى القائمة أمامه . فقد فكر في أمر الشام ، وفي أمر نصارى نجران ، وفي سائر الأمور التي كان يرى فيها غير رأى أبى بكر ، وفكر في الخلطة التي يجب أن يسير عليها لينفذ رأيه ويجمع المسلمين حوله . وكان حين تنفيذه رأيه في هذه المسائل صريحاً كعهد المسلمين به ، حازماً غاية الحزم ، لا يعرف التردد ولا اللدراة ، ولا يأبى أن يحمل التبعة كاملة ، لأنه كان يؤمن بأنه على الحق ، وأن الله مؤيده لذلك لا محالة .

لقد عرف الناس جميعاً سوء رأيه في خالد بن الوليد ، وحرصه في حادث مالك بن نويرة على أن يقيد أبو بكر منه . ولم يتغير رأى عمر في خالد من بعد هذا الحادث . وقد فصل خالد من العراق إلى الشام بأمر أبى بكر وولى الإمارة على قوات المسلمين فيه ، ثم قضى به أكثر من شهر فلم يتغلب على قوات الروم ، بل لم يواجههم أية فرصة خير من هذه لعزل خالد عن إمارة الجيش ورد هذه الإمارة إلى أبى عبيدة ! وهذا ما فعل عمر . فقد كتب إلى أبى عبيدة غداة قبض أبو بكر ، يخبره بوفاة الخليفة ، ثم كتب بعزل خالد وتولية أبى عبيدة إمارة الجيش مكانه . وأن يكون خالد أمير اللواء الذى كان أبو عبيدة أميره . وبعث بوفاة أبى بكر مع زفأ مولاه ، وبعزل خالد وإمارة أبى عبيدة مع تخميمة بن زعيم وشداد بن أوس وأوصى أبى عبيدة في كتاب توليته بقوله : « تُقدِّم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تُنزله منزلاً قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كنف من الناس . وإياك وإلقاء المسلمين في هلكة ! وقد أهلك الله بى وأبلا بى بك ، فمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك ، وإياك أن تهلكك كما أهلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم ! » .

كيف غامر عمر بعزل خالد وخالد على رأس قوات المسلمين بالشام ، وهذه القوات في موقف دقيق ؟ فقد كانوا هناك بإزاء الروم لا يواجهونهم ولا يقدررون من أمرهم على

شيء ، ولا يقدر الروم من أمر المسلمين على شيء . كان ذلك موقفهم قبل أن يذهب خالد بن الوليد من العراق إليهم ، ثم ظلوا فيه بعد أن أقام خالد بينهم . كان كلا الفريقين يتحين الفرصة التي يخرج فيها من جموده ، ويوقع فيها بعدوه . أفلا يخشى الخليفة أن يفتر أمره بعزل خالد في أعضاء المسلمين فيزيد موقفهم دقة ؟ أو لم يكن الأجل به أن يترث حتى يخرج خالد بالمسلمين من المأزق الذي هم فيه ، وله بعد ذلك أن يأمر بما يشاء ؟ !

هذه اعتبارات لها من غير شك قيمتها في تطور القتال . وسنرى من بعد أن أبا عبيدة قدّر لها قدرها دون أن يخشى برّ الخليفة به أو غضبه عليه . لكن عمر نظر في الأمر من غير هذه الناحية . فلو أنه أرجأ الأمر بعزل خالد إلى ما بعد المعركة لأضرّ ذلك بسياسته وأفسد عليه خطته . فليس للمعركة مصير إلا أن ينهزم المسلمون فيها أو ينتصروا . فإن انهزموا لم يُعزل خالد هزيمتهم ، وإن انتصروا وخالد قائدهم لم يكن لعمر أن يعزل قائداً في أوج نصره ، فإن فعل أي أمرأ إذا . وعمر حريص على ألا يبقى خالد على القيادة العامة بالشام أو بغير الشام . لذلك أسرع فأصدر الأمر بعزله ، وله من العذر أن خالداً لم يحقق ما نذبه أبو بكر لتحقيقه . فإذا انتصر المسلمون بعد هذا فلا تريب على عمر فيه ؛ فهو إنما صنع ما اقتنع بأنه الحق ، وصنعه وخالد في موقف لا يظلمه فيه من يأمر بعزله . يتساءل الناس إلى يومنا هذا عن السر في عزل عمر خالداً ، وخالد سيف الله على لسان رسول الله ، وهو الذي قضى على الردة وفتح العراق ، وهو البطل لا يشقّ غباره ، وعبقري الحرب غير منازع . أحق أن مقتل مالك بن نويرة وتزويج خالد من امرأته قد بقى له من الأثر في نفس عمر ما حمله على هذا التصرف ؟ أم خشي عمر أن يفتتن خالد بالناس كما افتتنوا به لا انتصاره المتصل في الحرب ، وقد يجر افتتانه على الدولة شراً ؟ يرى بعضهم هذا الرأي الأخير ، ويذكرون أن خالداً رجع إلى المدينة يسأل عمر عما حمله على عزله فأجابته : « ما عزلتك لرغبة فيك ولكن افتتن بك الناس ، نخشيت أن تفتتن بالناس » . وهذه رواية لا سند لها . فالثابت أن خالداً لم يذهب إلى المدينة بعد عزله ، وأنه بقى بالشام يتابع غزواته بإمرة أبي عبيدة حتى عزله عمر عن كل عمله بالجيش في السنة السابعة عشر من الهجرة . ولا أحسب كذلك أن مقتل مالك بن نويرة كان سبب

العزل ؛ فقد انقضت سنتان بين هذا الحادث واستخلاف عمر . وفي هاتين السنتين بلغت عبقرية خالد في القيادة أوجها ، وكانت فعالة في غزوة اليمامة وفي حرب العراق حديث الناس جميعاً في شبه الجزيرة وفي فارس الروم . وعندى أن عمر إنما عزل خالداً لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة قبل خلافة عمر ولا أثناءها .

ولست أقصد ثقة عمر بعبقرية خالد ، أو ثقة خالد بعزل عمر ، وإنما أقصد الثقة القائمة على ما يكون للرجل من حسن الرأي في صاحبه حتى ليغضى عن هفاته ، وحتى لتذهب الحسنة التي يأتيها صاحبه أضعافها من سيئاته . وقد كان عمر يرى في خالد زهواً يدفعه إلى التسرع في الحرب ، وإن لم يكن للتسرع مسوغ ، وإن خالف به أمر ولي الأمر . وقد دفعه الزهو والتسرع إلى القتال يوم فتح مكة ، حين نهى النبي عن القتال ، كما دفعه للسير إلى بنى تميم وقتل مالك بن نويرة دون إذن من أبي بكر . وكان خالد ينسب كل ما يوجهه الخليفة الأول إليه من لوم وإلى تحريض عمر ، حتى ليقول حين أمره الصديق بمغادرة العراق إلى الشام : « هذا عمل الأعيسر ابن أم سخله ، حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى » . وإذا ضاعت الثقة بين رجلين على هذا النحو ، لم يكن تعاونهما مستطاعاً ، وبخاصة إذا كان أحدهما رئيس الدولة والآخر أمير جندها وصاحب لوائها . لا عجب إذاً أن يعزل عمر خالداً حتى لا تكون بينهما صلة مباشرة ، بل يكون أبو عبيدة هو الذى يوجه خالداً ويصدر إليه أوامره . وقد كانت الصلة بين خالد وأبى عبيدة صلة مودة وحسن رأى .

قد يعترض على رأينا هذا بأن الخليفة لا يلى أمر الدولة لحسابه ، بل لحساب المسلمين جميعاً . وكان من الواجب لذلك على عمر أن ينسى ما بينه وبين خالد ، وأن يدع سيف الله يمضى لا يشيمه ، متأسيماً في ذلك بأبى بكر ، وما صنع ضارباً للمثل للمسلمين في تقدير الرجال بأعمالهم ، والسمو بهذا التقدير على الآراء والميول الذاتية . وهذا اعتراض له وجهته في المنطق النظري لا ريب . لكن وجهته هذه تتضاءل كل التضاءل أمام الواقع من أمر هذه الحياة . فنحن ، معشر هذا الناس ، لا نتصرف في شؤون الحياة بعقولنا وحدها ، بل إن لمواطفتنا علينا سلطاناً أى سلطان . وسواء كان ما نتصرف فيه من خاصة شؤوننا أو بعض

ماؤكل إلينا من شؤن غيرنا فإننا نتأثر حين التصرف فيه بشعورنا كتأثرنا بعقولنا ، وقد يكون الشعور أكبر من العقل أثراً في اتجاهاتنا . ومن الحال أن نقيم بين حكم الشعور وحكم العقل حداً فاصلاً . صحيح أن بعض الناس أكثر تأثراً بشعورهم ، وبعضهم أكثر تأثراً بعقلهم ؛ لكن اختلاف الحكم لا يغير من تزاوج الشعور والعقل في توجيه أحكامنا . ولا ريب أن قد تأثر عمر بشعوره نحو خالد . ولعله كذلك قد ظن أن خالدًا حسده على الخلافة ، كما ظن خالد من قبل أن عمر حسده على فتح العراق . والرجلان بالغان غاية القوة كلٌّ في ناحيته . فإذا تعارض شعور كل منهما نحو صاحبيه على هذا النحو ، خيف أن يتصادما ، وأن يكون لتصادمهما أثر سيء في شؤن الدولة وفي مصيرها . لذلك أخذ عمر الأمر بحزم حاسم لا يعرف هوادة ، غير ناظر إليه من ناحية العدل وما يوجبه ، بل من ناحية النظام العام ، ومن ناحية أمن الدولة وسلامتها .

على أن تصرف عمر بعزل خالد لم يكن شذوذاً منه ، وإن كان الأول من نوعه ، بل كان سياسةً جرى عليها مع الولاة والأمراء طيلة عهده . وسنرى من بعد أن مؤاخذه هؤلاء الولاة والأمراء بالشدة كانت من مألوف خطته ، وأنه كان يدعوهم إليه ، ويحاكمهم عما يبالغه من شكائيات ، ويعزل من لا يقتنع بدقته وأمانته في أداء عمله . ذلك أنه كان يحرص على تركيز السلطة كلها في يديه . وذلك قوله أول ولايته : « والله لا يحضرنى من أمركم شيء فليبه أحد دوني . ولا يتغيب عني فألوفيه عن الجزء والأمانة . ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنسكنن بهم » . إذا اجتمع هذا الرأي في سياسة الدولة إلى ما عُرف عن عمر وسوء رأيه في خالد وضياع الثقة والألفة بين الرجلين ، تكشف السر في عزل خالد ، وتكشف مكان هذا السر من نفس عمر .

عزل عمر خالدًا عن إمارة الجيش بالشام وردّها إلى أبي عبيدة . لكن ذلك لن يغيّر من موقف المسلمين بإزاء الروم ، ولن يشدّ أزرهم في قتالهم ، بل لعله يؤدّي إلى النقيض فتكون الطامة الكبرى .

وإذا كان عمر قد أمر برد السبي من أهل الردة إلى عشائهم فكسب بذلك قلوبهم ، فقد أقبلوا سرّاعاً من كل حدبٍ يلثبون دعوته يريدون أن يأخذوا في الحرب بنصيب

يطهّروهم من سابق ردّتهم ، ويجعل لهم ولتوحيهم من مغنم الحرب مالمسائر المسلمين . بذلك اطمأن عمر إلى توفيق الله له في معالجة الموقف الدقيق لجيوش المسلمين خارج شبه الجزيرة ، فاتجه بتفكيره إلى ناحية أخرى لا تخالف سياسة رسول الله وسياسة الصديق في أساسها ، وإن خالفت هذه السياسة في بعض تفاصيلها .

ذلك أن رسول الله دعا الناس كافة إلى دين الله ، لم يفرّق في دعوته بين أهل الكتاب وغيرهم . وقد رأى يهود المدينة في هذه الدعوة خطراً عليهم ، فوادعوا محمداً وعاهدوه على حرية العقيدة . لكنهم مالبثوا حين رأوه يستقرّ له الأمر أن ائتمروا به ، فقاتلهم وأجلاهم عن المدينة وعن أكثر منازلهم من شبه الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا قليلون بعد غزوة خيبر صالحوه على البقاء بأرضهم والعمل فيها على أن يكون للمسلمين النصف من غلاتها . أمّا نصارى نجران فبعضوا وفداً يجادل النبي ، فلما دعاهم ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، تولوا وعادوا إلى بلادهم . ثم إنهم بعثوا إليه وفداً صالحه على الجزية يدفعونها لقاء دفاع المسلمين عن حرية عقيدتهم . فلما تولى أبو بكر أقرّ نصارى نجران وعاهدهم على ما عاهدهم النبي عليه ، واقتضى يهود خيبر ما كان يفتضيه رسول الله .

ونظر عمر في الأمر يوم استخلف فاتجه فيه وجهة جديدة . فقد دعا إليه يعلى بن أمية وألقى عليه أن يحلّي نصارى نجران عن ديارهم ، وقال له : « إيتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجّل من أقام منهم على دينه ، وأقرّر المسلم ، وامسح أرض كل من يُجَلّي منهم ، ثم خيّرهم البلدان . وأعلنهم أنا نُجَلّيهم بأمر الله ورسوله ألا يُترك بجزيرة العرب دينان . فليخرج من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسهم ، ووفاء بدمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم من الريف » .

يحسب بعضهم أخذ عمر بهذه السياسة نقضاً لما صنعه رسول الله وما تابعة الصديق عليه . والمستشرقون يذهبون لذلك في التحامل على عمر إلى حدّ لومه على ما صنع . أما المؤرخون المسلمون فيلتمسون له الممازير ، فيذكر بعضهم أن رسول الله إنما عاهد نصارى

نجران على ألا يفتنوا عن دينهم « مارعوا العهد ، ونصحوا ، ولم يأكلوا الربا » ، وأنهم أكلوا الربا أضغافاً مضاعفة فنقضوا العهد ، فحق لعمر أن يجلبهم عن شبه الجزيرة . وبذلك آخرون أنهم اختلفوا فيما بينهم واشتد اختلافهم ، فطلبوا إلى عمر أن ينقلهم إلى ديار غير ديارهم . وبذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أنهم قويت شوكتهم ، فحشيتهم عمر فأجلاهم . وسواء أصبح بعض ما روى من ذلك أم لم يصبح كله ، فإنه في رأيي لم يكن السبب في تصميم عمر على إجلالهم عن شبه الجزيرة ، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى تكييف عام لسياسة الدولة اقتنع به عمر ففذه في حزم وعدل .

ولكني نقدر هذا التكييف يجب أن ننفي عن عمر تهمة التعصب كما يليقها عليه المستشرقون ؛ فهم يذكرونها متخذين من اقتناع أهل هذا العصر الحاضر بمبدأ حرية العقيدة حجة لهم في مؤاخذه عمر بما صنع . وهذا خطأ أدى إليه تجاهل الواقع . فالواقع من عصر عمر أن العقيدة كانت أساساً جوهرياً في حياة الجماعة ، فكان المخالفون لعقيدة الجماعة أو الخارجون عليها يُعدّون في حكم الأجانب عن الجماعة ، بل في حكم الخارجين عليها ، كان حربهم لذلك حلاً لصاحب الأمر بل واجباً عليه . ولهذا حارب محمد في دعوته إلى الله وإلى دين الله ، ولهذا شبت حروب شعواء بين الروم والفرس بسبب العقيدة . وقد ظلت الأمر على هذا في أوروبا وفي غير أوروبا إلى عهد غير بعيد منا . ففي سبيل العقيدة شبت الحروب الصليبية بين النصارى والمسلمين ، وفي سبيلها حدثت المآسى والمجازر بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد عاهد رسول الله نصارى نجران ، لأن شبه الجزيرة لمّا تكن وحدتها السياسية قد تمت ، فكانت نجران لصيقة باليمن التي ظلت على وثنيتهما زمناً غير قليل بعد هذا العهد بين محمد وهؤلاء النصارى . فما قبض رسول الله وخلفه أبو بكر ، كانت اليمن في طليعة من انتقض على سلطان المدينة وارتدّ عن الإسلام ، فكان طبيعياً أن يعاهد الصديق نصارى نجران على ما عاهدهم رسول الله عليه . وقد قضت حروب الردة على الانتفاض وعلى الردة جميعاً ، وأدى القضاء عليهما ثم أدى ما تلاهما من غزو العراق والشام إلى توطيد الوحدة السياسية والوحدة الدينية في أرجاء شبه الجزيرة جميعاً ، فأصبحت كلها دولة واحدة ، عاصمتها المدينة ، وحاكمها خليفة رسول الله . وكذلك تولى عمر المسلمين

وقد زالت الأسباب التي أدت إلى معاهدة نجران في عهد النبي وفي عهد الصديق ، وأن لعمر أن يفكر تفكيراً جديداً في سياسة دولة اتحدت أجزاؤها من شمال شبه الجزيرة إلى جنوبها ، وأصبحت المدينة عاصمتها لا يفازعها منازع .

أما وقد أصبحت بلاد العرب دولة متحدة تدين كلها بدين واحد ، ويسوسها رجل رضى أهلها جميعاً ببيعته ، فحدير بأميرها أن ينفي عنها كل سبب للضعف أو الوهن . ومن أسباب الوهن لأمة أن تعدد أجناسها أو تعدد الشرائع ذات السلطان النافذ بين أهلها . ذلك أمر أقره الناس ولا يزالون يقرونه . ولذلك نرى المعاهدات المختلفة إلى أحدث العصور تنقل الجماعات من أهل الجنس الواحد إلى صعيد واحد ، ولذلك لا تبيح أمة متحضرة أن يقوم فيها أكثر من تشريع واحد . والإسلام يتناول فيما يتناوله أموراً لا تتفق ومقررات النصرانية ؛ فهو يحرم الربا ، والنصرانية لا تحرمه ، ويحرم الخمر ، والنصرانية لا تحرمها ؛ وهو دين توحيد ، والنصرانية دين تثليث . وقد كانت هذه المقررات وما إليها نافذة يومئذ لا يستطيع أحد أن يتسامح فيها كما يتسامح الناس فيها اليوم باسم حرية العقيدة . فلم يكن عجباً أن يصير عمر على ألا يترك بجزيرة العرب دينين وقد أصبح للعرب في شبه الجزيرة كلها دين واحد ارتضوه في عهد رسول الله ، وعادوا إليه بعد ما ارتد بعضهم عنه في عهد أبي بكر . فوحدة الدين هي الكفيلة بطمأنيتهم وبثباته وحدثهم ، وبألا تقوم بينهم وبين من لم يكونوا على دينهم ثائرات تجنى على الطمأنينة أو تعيث بالوحدة . وهذا ما فعل ؛ ولهذا دعا إليه يعلى بن أمية وألقى عليه أن يحل نصارى نجران .

وتصرف عمر في هذا الأمر خليق بالحد ، غير خليق بالتعامل ولا باللوم . فهو لم يلجأ إلى ما لجأ إليه أصحاب الكثرة من الكاثوليك أو البروتستانت ؛ إذ كانوا يرهقون خصومهم في المذهب حتى ليقتلهم بعد أن يذيقوهم المذاب ألواناً ؛ بل كان أول ما أوصى به يعلى أن يفتن نصارى نجران عن دينهم ، وأن يدع لهم الحرية كاملة في البقاء عليه أو التحول عنه إلى الإسلام ، وأن يعطيهم أرضاً كأرضهم خارج شبه الجزيرة . بذلك لا يظلمهم ولا يصنع معهم إلا ما تصنعه الدول المتحضرة اليوم ، إذ تنقل أهل جنس من الأجناس إلى حيث تقيم كثرة من بني جنسهم ، وحيث يأمنون أن يضرهم الاختلاف في الجنس مع جيرانهم أشد مما يضر الكثرة الضخمة القائمة من حولهم .

لَمْ يَرْتَبِ النَّاسَ بَعْدَ مَا عَرَفُوا أَمْرَ عُمَرَ بِإِجْلَاءِ نَصَارَى نَجْرَانَ فِي أَنَّهُ سَيُحْلَى الْيَهُودَ وَيُحْلَى غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا عَنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ . وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ السِّيَاسَةُ جَدِيدَةً عَلَيْهِمْ ، لَسْكَنْهُمْ لَمْ يَنْكُرُوهَا وَلَمْ يَعْجَبُوا لَهَا . بَلْ لَعَلَّهُمْ كَانُوا كَثْرَ عَجْبًا لِتَوَلِيَةِ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيَّ لِأَمْرِ الْجَيْشِ بِالْعِرَاقِ وَفِيهِ مِنْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مُهَاجِرِيهِمْ وَالْأَنْصَارِ ، ثُمَّ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ مُجِبًّا لِعَزْلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ إِمَارَةِ الْجَيْشِ بِالشَّامِ . لَسْكَنْهُمْ رَأَوْا عُمَرَ يَأْخُذُ الْأَمْرَ بِالْحَزْمِ وَالْعَدْلِ مَعًا ، وَذَكَرُوا مَوَاقِفَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَمِنْ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ ذَكَرُوا مَوْقِفَ الْمُسْلِمِينَ وَدَقَّتْهُ بِالْعِرَاقِ وَبِالشَّامِ ، وَرَأَوْهُ يَخْطُبُهُمْ مُنْكَرًا نَفْسَهُ مُتَجَرِّدًا لِلَّهِ فِي سَبِيلِ خَيْرِهِمْ جَمِيعًا ، فَأَثَرُوا أَنَّهُ يَدْعُو لَهُ الْأَمْرَ وَأَنْ يُلْقُوا عَلَيْهِ التَّبِعَةَ ، وَأَنْ يَضُرْعُوا إِلَى اللَّهِ بِالْإِدْعَاءِ أَنْ يُوَفِّقَهُ كَمَا وَفَّقَ أَبَا بَكْرٍ قَبْلَهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مَا يَخْطُبُهُمْ عُمَرُ بِهِ أَقْلَ مِنْ سَائِرِ الْإِعْتِبَارَاتِ أَثَرًا فِي نَفْسِهِمْ ؛ فَقَدْ كَانَ إِخْلَاصُهُ بِتَجَلَّى فِي عِبَارَاتِهِ ، وَكَانَ إِنْكَارُهُ لِنَفْسِهِ وَتَجَرُّدُهُ لِلَّهِ فِي سَبِيلِ خَيْرِهِمْ تَمَّ عَنْهُمَا كُلَّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِهِ . كَانَ يَقُولُ لَهُمْ : « إِنِّي لِأَرْجُو إِنْ عَمَّرْتُ فِيكُمْ ، يَسِيرًا أَوْ كَثِيرًا أَنْ أَعْمَلَ بِالْحَقِّ فِيكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ وَالْأَيُّبِيُّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِي بَعْثِهِ ، إِلَّا أَنَا هُوَ حَقُّهُ وَنَصِيبُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ » . وَكَانَ يَقُولُ : « إِنِّي أَمْرٌ مُسْلِمٌ وَعَبْدٌ ضَعِيفٌ إِلَّا مَا أَعَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَلَنْ يَغَيِّرَ الَّذِي وَلِيْتُ مِنْ خِلَافَتِكُمْ مِنْ خُلُقِي شَيْئًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ . إِنَّمَا الْعِظَامَةُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ مِنْهَا شَيْءٌ . فَلَا يَقُولُونَ أَحَدُكُمْ إِنْ عُمِرَ تَغْيِيرَ مَنْذُ وَلِي . أَعْقَلَ الْحَقُّ مِنْ نَفْسِي ، وَأَتَقَدَّمُ وَأُبَيِّنُ لَكُمْ أَمْرِي . فَإِنَّمَا رَجُلٌ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ أَوْ ظَلَمَ مَظْلَمَةٌ أَوْ عَتَبَ عَلَيْنَا فِي خُلُقٍ فَلْيُؤْذِنِي ، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ . . . وَأَنَا حَيِيْبٌ إِلَى صَلَاحِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَى عَتْبِكُمْ . . . وَأَنَا مُسْتَوِلٌ عَنْ أَمَانَتِي وَمَا أَنَا فِيهِ ، وَمَطْلَعٌ عَلَى مَا يَحْضُرُنِي بِنَفْسِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، لَا أَكَلُهُ إِلَى أَحَدٍ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ مَا يُعَدُّ مِنْهُ إِلَّا بِالْأَمْنَاءِ وَأَهْلِ النَّصِيحِ مِنْكُمْ لِلْعَامَةِ . وَلَسْتُ أَجْعَلُ أَمَانَتِي إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . بِهَذِهِ الْأَقْوَالِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ عُمَرُ يَخْطُبُ النَّاسَ فَيَتَأَلَّفُ قُلُوبَهُمْ . وَقَدْ تَأَلَّفَ قُلُوبَ الْعَرَبِ فِي أَرْجَاءِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ مِنْذُ أَمْرِ بَرْدِ السَّجِيِّ مِنْ أَهْلِ الرَّدَةِ إِلَى عَشَائِرِهِمْ . فَلَمَّا أَمَرَ أَبَا عُبَيْدٍ ، وَعَزَلَ خَالِدًا ، وَأَمَرَ بِإِجْلَاءِ نَصَارَى نَجْرَانَ ، لَمْ يَرِ النَّاسَ فِي ذَلِكَ مَا يَبْرَمُونَ بِهِ ، وَإِنْ رَأَوْا فِيهِ جَدِيدًا اسْتَفْتَحَ عُمَرُ بِهِ عَهْدَهُ ، مُسْتَقْلًا فِيهِ بِرَأْيِهِ ، غَيْرَ مُتَأَسِّ فِيهِ بِسَلْفِهِ . وَمَا لَهُمْ يَبْرَمُونَ بِهِ وَتَبِعَهُ ذَلِكَ كَالْهَدْيِ

عليه ، وقد عرفوه رجلاً يضطلع بأجسم التبعات فلا ينوء بحملها ، وكثيراً ما يلهمه الله الرأي فيما ينهض به منها ، فيكون التوفيق رائده ونصيبه !

وجلس عمر يوماً في المسجد وقد فرغ من توجيه المسلمين إلى سياسته ، وقد آن لهم أن ينفذوها . وأقبل عليه أبو عبيد يودّعه ليسيّر إلى العراق في الجيش الذي اجتمع حول الرّاية وأقبل في أثره عدد من الناس غير قليل ، وكلهم يحيون خليفة خليفة رسول الله . وقد وجدوا هذا اللقب ، رغم ترددهم له ، ثقیل النطق ثقيلًا على السمع ، فجعلوا يتحدثون بينهم فيما اختلجت به نفوسهم . وإنهم لكذلك إذ أقبل أحدهم يحیی عمر ويقول : « سلام الله عليك يا أمير المؤمنين ^(١) » . واعتبط الناس لهذا اللقب الجديد حين سمعوه وافترت ثغورهم أمارّة رضاهم عنه . ومن يومئذ لم يدع أحد عمر خليفة خليفة رسول الله بل دعاه الناس جميعاً « أمير المؤمنين » . وبقي هذا اللقب له ولمن بعده من خلفاء المسلمين وملوكهم .

^١ والآن وقد سبقنا المثني إلى العراق فلنسارع لنحققه به ، ولنزو حديثه حتى يدركنا أبو عبيد بجيشه ، فتكون القيادة العامة له ، ثم يكون له من حسن البلاء ما ينتهي به إلى الغامرة وإلى الاستشهاد .

(١) أورد ابن عساکر في (تاريخ دمشق) روايتين فيمن بدأ بدعوة عمر أمير المؤمنين . أولاهما : أن الغيرة بن شعبة هو أول من دعاه بهذا اللقب . والثانية . أن عمر كتب إلى عامله بالعراق أن ابعث إلى رجلين جليدين نبيلين أسألهما عن أمر الناس ، فبعث إليهم بعدى بن حاتم الطائي ولييد بن ربيعة . فلما بلغا المدينة أتاها خارا حلتيهما بقاء المسجد ثم دخلاه ، فاستقبلا عمرو بن العاص فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين . قال عمرو : ودخلت على عمر فقلت : يا أمير المؤمنين ، فقال : لنخرجن معا قلت أو لأفعلن : قلت : يا أمير المؤمنين ، بعث عامل العراق بعدى بن حاتم ولييد بن ربيعة . فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقلت : أئتما والله أسبها ؟ هو الأمير ونحن المؤمنون « فبقى هذا اللقب لعمر من ذلك اليوم وجرى الكتاب به .

الفصل السادس

أبو عبيد والمثنى في العراق

كان أبو عبيد بن مسعود الثقفي أول منتدب للعراق . لذلك ولآء عمر إمارة الجند فيه ، وأمره بالسير إليه متى تم تجهيز جيشه . أما المثنى بن حارثة فعبّله عمر وقال له : « النجاء حتى يقدم عليك أصحابك ! » ، وامتطى المثنى جواده ورجع أحراجه يريد الخيرة . وجعل وهو في طريقه إليها يذكر أياماً خلت في خلافة أبي بكر ، حين قضى السلام ابن الحضرمي على الردّة في البحرين ، فانضم هو إليه وقعد بكل طريق للمرتدين المنهزمين الذين يعمشون في الأرض فساداً ، ثم سار مشاطئاً الخليج الفارسي يقاوم دسائس الفرس ، ويقضي على أنصارهم من القبائل حتى بلغ مصب الفرات . عند ذلك أمده الصديق بخالد ابن الوليد ، فسار للمثنى تحت لواء القائد العبقري يدوخ معه جيوش كسرى وتفتض جنودها الأمصار ، وتفتح الخيرة والأنبار وعين التمر وغيرها من البلاد . حتى يبلغ خالد الفراض على تخوم الشام من شمال العراق .

وبستقر الأمر بخالد في أرض الأكاسرة ، ويتعبط المثنى بما فتح الله عليهم من ذلك ، وبقية قواته بالخيرة وبأرض السواد أكثر من سنة ، ثم إذا أبو بكر بأمر خالد بالسير إلى الشام يتولى فيه إمارة الجند لمقاتلة الروم . ويفصل خالد من العراق في عدد من خيرة رجال الجيش فيه ، فيخشي المثنى العاقبة ، ثم يفتح الله عليه فيقهر هرمن جاذويه على أطلال بابل ، ويرتد إلى الخيرة يتحصن بها ، ثم يستمد أبو بكر بمن ظهرت توبتهم من أهل الردّة . ويبطئ الخليفة عنه لاشتغاله بأمر الشام ، فيسير المثنى إلى المدينة ، فإذا الصديق مشغولاً على الموت ، ثم إذا الله يختاره إليه ، وإذا عمر يتولى الأمر من بعده ، فيندب الناس مع المثنى ويجعل أبو عبيد على رأسهم .

لم ينس المثنى وهو يذكر هذه الحوادث ما ساد بلاط فارس من الاضطراب أثناءها ، وما أوهن هذا الاضطراب من قوة الفرس وشدة من عزم المسلمين . لقد حكم الأكاسرة

الفرس وحكموا عرب العراق حكماً مطلقاً لامعقب لسكرتهم فيه . وكان كسرى أبرويز هو الذى قتل أبا قابوس النعمان بن المنذر وقضى على ملك اللخميّين بالحيرة ، وهو الذى حارب الروم وغلبهم ، وامتد ملكه فى أرضهم إلى بيت المقدس وإلى مصر . فلما تولى هِرَقْلُ أسِرَ الروم ، قاتل كسرى وردّه على أعقابِهِ . واعتبط العرب واعتبط الفرس الذين برّوا ببطش كسرى لما حلّ به . فلما ثار به ابنه شيرويه وقتله ، اختلف أمراء الفرس وأنقسم رأيهم فيما أصابه . وصار شيرويه فى الفرس سيرة حق وغرارة جعلت أهل بلاطه يبرمون به ، وجعلت كل طامع فى العرش يحالف من الأمراء من يعاونه لبلوغ غرضه . وقتل شيرويه ، فجعل هؤلاء الطامعون يقتتلون فيقتل بعضهم بعضاً ، جبهة حيناً ، وغيلة حيناً ، يتولى صاحب الغلب منهم الأمر شهوراً حتى يُقتل . لذلك تعاقب على العرش فى أربع سنين تسعة من الأمراء . لا عجب وذلك هو الأمر أن تضعف قوة الفرس وأن ينهد ركبتهم ، فتدور الدائرة عليهم فى الغزوات التى دارت بين العرب وبينهم .

وتنبّه أهل فارس لما جرّه الاضطراب عليهم من فساد أمرهم فذكوا عليهم شهريران بن أردشير ، وتعاهد أمراؤهم على معاونته . وعرف شهريران مسيرة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام ، فكان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه . لكن للثنى قهر قائده على أطلال بابل فخّم قات .

خلفت دُخْتُ زَنان بنت كسرى أخاها على العرش . لكنها ضعفت عن النهوض بالأمر فخلعت ، وتولى سابور بن شهريران الملك مكانها . واستوزر سابور القرّخزاد ، وأراد أن يزوجه آزر مِيدُخْتُ بنت كسرى ، فسأها أن يتزوجها عيها ، فدست عليه سِيّاوخش الفاتك فقتله فى مَحْدَعِهَا ليلة عرسه ، ثم سارت معه فى أعوانها إلى سابور فخصرتة وقتلته . ورأى الثنى أن يواجه الفرس وبلاطهم مضطرب ، فاستمد أبا بكر فأبطأ عليه ، فذهب بنفسه إلى المدينة يستعجل المدد . وها هو ذا فى طريقه عائداً إلى الحيرة . ترى ألا يزال الفرس فى اضطرابهم فلا شيء أيسر من الظفر بهم ؟ أم تراهم اطمأن ملكهم ، فلا بد للظفر بهم من قوات كثيرة العدد والعُدّة ؟

بانح الثنى الحيرة ، فكان أول سؤاله عما يجرى بلاط فارس ، وعلم أنهم شغلوا عن

المسلمين أثناء غيبتهم باختلافهم . ثم علم أن بُوران بنته كسرى تعمل على جمع كلتهم .. وكانت بوران أميرة ذات حكمة ، فكان الفرس كما اختلفوا رضوا حكمها واطمأنوا إلى عدلها . فلما قتل سياوخش الفرخزاد ، وجاست آزر ميدخت على العرش ، اختلف على فارس ، ورأت بوران أن لا سبيل إلى مصالحتهم . هنالك بعثت إلى القائد رستم بن الفرخزاد من أنباء بمقتل أبيه واستحثته على السير إلى المدائن . وكان رستم حين ذاك على فرج خراسان ، وكان قائداً بارعاً ، فأقبل في جنده مسرعاً يريد المدائن . ولاقى في طريقه إليها جيوشاً لآزر ميدخت فهزمها . ثم حاصر المدائن وحصر آزر ميدخت وسياوخش فيها . وظفر بعدوه فدخل العاصمة ، وقتل سياوخش ، وبقا عين آزر ميدخت ، وأقام بوران على عرشها . وتولت بوران السلطان في فارس على أن تملكه عشر حجج ، ثم يكون الملك في آل كسرى : في الرجال منهم إن وجدوا وإلا ففي النساء . واستوزرت بوران رستم ، وأطلقت يده في أمور الدولة ، وجعلته على الجند ، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا .

عرف المثنى ذلك كله وهو مقيم بالحيرة لا يستطيع شيئاً إزاءه . لقد نحف جيشه فلم يبق في مقدوره أن يهاجم حتى يجيئه أبو عبيد ، وقد أقام أبو عبيد بالمدينة شهراً بعد المثنى يجهز جيشه ويتجهز للسير به . فلما أتم تجهزه استأذن عمر في السير ، فأذن له بعد أن أعاد عليه النصيح أن يسمع من أصحاب النبي وأن يشرّكهم في الأمر ، وأن يشاور سليط ابن قيس لجرائته وتجربته . وكان لعمر بسليط ثقة ، حتى لقد قال لأبي عبيد : « إنه لم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعتني في الحرب : وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان . والحرب لا يصلحها إلا المسكيت » . وسار أبو عبيد في الجند ، حتى إذا بلغ العراق ألقى المثنى قد انسحب من الحيرة إلى خفّان على حدود البادية .

ذلك أن رستم كان رجلاً جريئاً طموحاً ، يثير طموحه إعجاب الفرس وتعلقهم به . وطموحه هذا هو الذي جعل المؤرخين يذكرون أنه كان عالماً بالنجوم ، وأنه رأى فيها مآل فارس . وأنه سئل كيف يتولى أمرها وهو يرى في النجوم ما يرى ، فقال : الطمع وحب الشرف .

ومالبت حين أمّرت بوران أن كتب إلى دهاقين السواد يأمرهم أن يثوروا بالمسلمين .

ودس في كل رستاق رجلا يثير أهله ، ثم بعث جنداً لمصادمة المثنى . وانتشرت أوامره في الناس ، فثار أهل العراق من أعلاه إلى أسفله بالمسلمين . وبلغ المثنى نبأ ما حدث ، ورأى أن لا يقبلَ لجنوده بقاء من عتاهم رستم لمصادمته ، فأثر الحذر وانسحب من الحيرة إلى خَفَّان حتى لا يؤتى من خلفه . وأدركه أبو عبيد بِخَفَّان فنزل في الناس ليريحوا ظهورهم وأقام يتدبّر خطته لمهاجمة القوات التي جاءت تنازله .

كان رستم قد بعث في المدائن جيشين يواجهان المسلمين ، جعل على أحدهما القائد جابان ، وأمره أن يتخطى الفُرات إلى الحيرة ، وجعل على الآخر القائد نَرْسِي وأمره أن يعسكر بكَسْكَر بين الفرات ودجلة ، وكان أبو عبيد قد خرج من المدينة في أربعة آلاف ثم اجتمع إليه في الطريق عدد عظيم زاد جنده إلى عشرة آلاف . فلما جمّ الناس خرج يلتقي جابان ، فالتقيا بمكان يقال له التمارق بين الحيرة والقادسية . والتقى الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً أظهر الله فيه أبا عبيد بجابان وجنوده . وأسر جابان ، أسر قائد تحت إمرته يدعى مرد انشاء ، وقتل هذا الأخير مَن أسره . أما جابان ، كان شيخاً كبيراً ، فغدع الذي أسره إذ قال له : « إنكم معشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمّنني وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك وأعطيك كذا وكذا . . . » وأجزل له الوعد . قال أسره ؛ نعم قال : فأدخلني على أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه ، فأدخله على أبي عبيد فشهد على ماتم . على أن قوماً من المسلمين عرفوه وقالوا لأبي عبيد . أقتله فإنه الأمير . وأجابه أبو عبيد : « وإن كان الأمير ، فإنني لا أقتله وقد أئنه رجل من المسلمين : فالمسلمون في التواد والتناصر كالجسد ، مالزم بعضهم فقد لزمهم كلهم » .

عرفت بوران ماحل بجابان ، وعرفه رستم ، فأمر الجالينوس أن يسير لنصرة زملائه وأن يلحق نَرْسِي بكسرك . وفصل الجالينوس بعد السير إلى غابته ؛ لكن أبا عبيد كان أسرع منه سيراً . فإنه مالبث حين هزم جابان أن أمر جنده بالسير لمواجهة نَرْسِي . ولاقوه والمنهزمين الذين فروا إليه من التمارق بمكان يدعى السقاطية على مقربة من كَسْكَر ، وذلك قبل أن يصله الجالينوس ، ولم يثبت نَرْسِي للمسلمين أكثر مما ثبت جابان ، ففر من جنده تاركا لعدوه مغنم كثيرة . وعرف أبو عبيد أن الجالينوس في جنده

قد بلغ قرية بَارُسْمَا فواجهه وهزمه ، ففر كما فر نرسی في المهزمين حتى بلغوا المدائن .
 ووجه أبو عبيد قواده ، والمثنى في مقدمتهم ، فاحتلوا سواد العراق من أعلاه إلى
 أسفله ، وأذاعوا الرعب في الناس ، وأعادوا إلى ذاكرتهم أيام خالد بن الوليد وفعاله .
 ورجع الدهاقين إلى أبي عبيد يصالحونه ويعتذرون عما كان منهم في مملأة الفرس على
 العرب ، ويذكرون أنهم غلبوا على أمرهم ، فلم يكن لهم فيما حدث نهى ولا أمر . ولما
 أتم أبو عبيد الصلح معهم جاءوه بآنية فيها ألوان من طعام فارس الشهي وقالوا : هذا
 قرى لك وكرامة أكرمناك بها . قال : أكرمتم الجند بمثله وقرىتموهم ؟ ! قالوا : لا !
 فردّه وقال . « لا حاجة لنا فيه ! بئس المرء أبو عبيد إن صحب قومًا من بلادهم وأهراقوا
 دماءهم دونه ، أو لم يهريقوها . فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ! لا والله لا يأكل مما أفاء الله
 عليهم إلا مثلما يأكل أوساطهم ! » . ولم يأكل من طعام أتى به الدهاقين غداة ذلك
 اليوم حتى علم أنهم قربوا مثله لأصحابه .

أفاء الله على المسلمين بعد غزوة السقاطية مغاسم كثيرة ، بينها من الأطعمة مقادير
 عظيمة ، فلم يفرحوا منها بشيء فرحهم بلون من التمر يدعى الترسيان كان ملوك فارس
 يحبونه . وقد اقتسموه بينهم وجعلوا يطعمون منه الفلاحين . ثم يعيشوا بخمسة إلى غمر بالمدينة
 وكتبوا له : « إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحبونها . وأحببنا أن تروها
 لتذكروا إنعام الله وإفضاله » .

وعاد المثنى ودخل الحيرة واستقر بها وكله الرجاء أن يستتب له الأمر فيها كما استتب
 لخالد بن الوليد من قبل ، فقد ظل خالد بها سنة كاملة لم يجرؤ جيش من جيوش فارس
 على التصدي له أثناءها ، ترى أي واتي الحظ المثنى ما واتي خالداً ، فيقيم بالحيرة زمناً ثم يفتح
 المدائن ؟ كان ذلك كل أمله ، كان له في تحقيقه أكبر الرجاء .

لكن أمله سرعان ما ذوى . فقد عظم على رستم ، وفيه من الطموح والكبرياء
 ما ذكرنا أن تنهزم جيوش فارس أمام هؤلاء الأجلاف من العرب ، فسأل خاصته :
 « أيّ العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ » : وأجابوه : « إنه ذو الحاجب بهمن جاذويه
 فدعاه إليه ووجهه على قوة عظيمة ، ورد الجالينوس معه وقال له : إن عاد لمثل ما فعل

فأضرب عنقه ، وليظهر للناس مبلغ عنايته بالموقف وحرص على رفع ما أنزل المسلمون بمحمد فارس ، جعل في مقدمة الجيش راية كسرى ، وكانت من جلود النمر ، عَرَضَهَا ثمانى أذرع وطولها اثنتا عشرة ذراعاً ؛ وسار بهم من المدائن يقصد مواجهة عدوه والقضاء عليه .

وتراجع أبو عبيد وجنوده إلى قرية قس الناطف ، فعبروا النهر إليها ، وتحصنوا ينتظرون عدوهم بها . وأقبل بهم عليهم فلم يكن إلا النهر بينه وبينهم ، ثم بعث إلى أبي عبيد يقول له : « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبركم إليكم » . وأشار أصحاب أبي عبيد ألا يعبر ، وأن يدع الفرس يعبرون . لكن أبا عبيد أخذته العزة فقال : « لا يكونوا أجراً على الموت منا ، بل نعبرك إليهم ! » . فناداه سليط بن قيس ووجوه الناس وقالوا : « إن العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا ، وإنهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الزَّهَاءِ والعُدَّةِ بما لم يلقنا به أحد ، وقد نزلت منازلنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرّة إلى كرّة » . فقال : « لا أفعل ! جَبَنْتُ والله إذا ! » وجَبَنَ سليطاً ، فردّ عليه سليط بقوله : « أنا والله أجراً منك نفساً ، وقد أشرنا عليك بالرائى فستعلم » .

من عجب أن يقف أبو عبيد من أصحابه هذا الموقف ، وأن ينسى نصيحة عمر إياه أن يستشير أصحاب رسول الله ، وأن يُشركهم في الرأى معه ، وأن يقيم لرائى سليط وزنه . وأعجب من ذلك أن ينسى قول عمر : « إنك تقدّم على أرض المكر والخديعة والخيانة . تقدّم على قوم قد جرموا على الشر فعلوه ، وتناسوا الخير فجعلوه » ؛ وألا يذكّر أن الخليفة أمّره ولم يؤمّر سليطاً لأن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث ، وسليط سريع إلى الحرب ، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان . لكنها الأقدار تُنسى البصير بصره ، والحكيم حكمته . ومن يدري ! فلعل مشورة سليط بالألا يعبر المسلمون النهر إلى الفرس زادت أبا عبيد عناداً وتشبّكاً برأيه . ولذلك أمر جنوده بالعبور فعبروا من المروحة حيث تحصنوا ، إلى قس الناطف حيث أقام الفرس ، وعبر سليط بن قيس في مقدمة العابرين .

كان جند المسلمين دون عشرة الآلاف . مع ذلك ضاق بهم المسكان الذى تركه لهم الفرس وراء الجسر ، فلم يكن لهم فيه مرجع من فرّة إلى كرّة . ولم يمهلم بهم حين تم عبورهم أن أمر جنوده فحملوا عليهم ، وفي مقدمتهم الغيلة عليها الجلالجل . ونظرت خيول

المسلمين إلى هذه القبيلة وسمعت رنين جلاجلها ، فأنكرت ما رأت وما سمعت ، وفرت فلم يثبت منها إلا القليل على كره . ورشق الفرس المسلمين بالنبل فقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وحزّ الألم في نفوس المسلمين لما أصابهم وألا يصلوا إلى عدوهم . ورأى أبو عبيد أن صفوفه توشك أن تضطرب ؛ فترجّل وترجّل جنوده ، ومشوا إلى الفرس فصالحوهم بالسيوف . فقتلوا منهم ستة آلاف ، فاشتد بذلك ساعدهم . لكن القبيلة تقدّمت إليهم فجعلت لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم . ونادى أبو عبيد رجاله أن يقطعوا بطنَ هودج القبيلة وأن يقبلوا عنها أهلها وأن يقتلوهم ، ففعلوا فلم يتركوا فيلاً إلا قلبوا رحله وقتلوا أصحابه . بذلك تداول الفريقان التقدّم والتراجع ، فكانت المعركة سجّالاً بينهما ساعات من النهار . كان أبو عبيد شديد الحرص على أن ينتصر ذلك اليوم . وزاده حرصاً ما كان من مخالفته سليط بن قيس والذين أشاروا عليه ألا يهز الجسر إلى عدوّه . فلو أن النصر تم للفرس لركبه عار الهزيمة وحده ، ولكان هذا العار مسبة الدهر له . لذلك كان مضطرب النفس تتداوله الانفعالات كلما تغير مصير المعركة : يفتبط ما رأى الفرس يتراجعون ، فإذا تقدموا ملأته خشية العار ودفعته للمعاصرة . وقد اطمأن حين قلب جنوده عن القبيلة أهلها فلم يبق عليها من يقودها . لكنه رأى على مقربة منه فيلاً أبيض عظيمًا يضرب بحرطومه يمنة ويسرة فيشنت المسلمين من حوله ، وكأنه بطل نارع يعرف مواقع ضرباته . وأيقن أبو عبيد أن قتل هذا الفيل بقوى روح المسلمين ويضعضع روح الفرس ، فتقدم إليه فصرب حرطومه بسيفه . وهاج حر الضربة هائج الفيل ، فتقدّم إلى أبي عبيد فضربه برجله فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه فأزهق روحه . وكان أبو عبيد قد أوصى إن مات أن يتأمر مكانه على التعاقب سبعة من قومه بنى ثقيف سمّاهم بأسمائهم . فلما رأى أولهم ما حلّ بأبيه أحد اللواء مكانه ، وقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد ، فجزّجثته إلى المسلمين ثم عاد بحول قتل الفيل ، لكنه لقي حتفه كما لقي أبو عبيد حتفه . وتتابع الثقيفون السبعة كل منهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يموت^(١) . عند ذلك خشعت أنفس

(١) ذكر الطهري وغيره من المؤرخين أن دومة امرأة عبيد كانت معه بالروحة ، وأنها رأت في منامها أن رجلاً نزل من السماء يلبس فيه شراب من الجنة ، فشرب منه أبو عبيد وجماعة من أصحابه الثقيف . وقصّت دومة الرؤيا على زوجها فقال : هي الشهادة . وأوصى بمن يخلفه على قيادة الجيش .

للناس وضعفت روحهم ، وارتد كثير من منهم إلى الجسر يبتغون النجاة بأنفسهم . وما بقاؤهم
أما جيش لا قبل لهم به ، وقد مات أمراؤهم فاختلف نظامهم واضطربت صفوفهم ! .
ورأى المثنى دقة الموقف فتقدم إلى اللواء فحمله . وهو لم يكن يطمع في أن يقاتل
وينتصر بعد الذي أصاب المسلمين ، إنما كان يرجو أن يرتد بهم في نظام فيعبر النهر إلى
الروحة ، ثم يرى بعد ذلك رأيه . وإنه ليدبر الخطة للتراجع إذ رأى عبد الله بن مرثد
الثقفي يقطع الزوارق الأولى من الجسر ، وبصيح بأعلى صوته : « أيها الناس ! موتوا
على ما مات عليه أمراؤكم أو نظفروا » . ورأى الناس ما فعل ابن مرثد ، فتولاهم الفرع
فتواثبوا في النهر ، ففرق منهم من لم يصبر . وخشى المثنى أن تعم القوضى ، فوقف اللواء
بيده ينادى : « يا أيها الناس ! أنا دونكم ، فاعبروا على هيئاتكم ولا تدهشوا ، فإننا لن نزال
حتى نراكم من ذلك الجانب ! » وأمر فجىء بابن مرثد فضربه وضمت السفينة التي
قُطعت فصالح الجسر ، فبدأ الناس يعبرون مرتدين ، والمثنى يقاتل دونهم ، ويحول هو
ورجاله بين الفرس وبينهم . وأصاب المثنى وهو في موقفه ذاك ضربة رمح جرحته وأثبتت
فيه حلقة من درعه . وقاتل معه أبو زيد الطائي النصراني دفاعاً عن المسلمين . ولم يكن
سليط بن قيس دون المثنى إقداماً وجرأة . بذلك استطاع من بقي من جند المسلمين أن
يعبروا إلى الروحة والمثنى واقف دونهم لم يرعزعه ذلك الجراح الذي أصابه . فلما رأى المثنى
عبور أصحابه جميعاً سار في مؤخرتهم ، تاركاً وراءه سليط بن قيس شهيداً ، يختلط دمه بتراب
ذلك الميدان الذي تَرَدَّى فيه ألوف من أبطال المسلمين .

نرى أيعبر بهم جادويه النهر وراءهم فيقتلهم عن آخرهم ويعقى في أرض العراق على
كل أثر للمسلمين ؟ أم يكتفي بهذا النصر الحاسم وله به عند رستم وبوران والفرس جميعاً
نخار لم يتخلف لغيره من القواد مثله ؟ !

لم يغب عن المثنى أن ذا الحجاب قد يتعقبه ؛ لذلك انحدر مسرعاً بجنوده من
الروحة إلى الحيرة ، ثم تابع انحذاره إلى الجنوب يريد أليس ، وهو يحسب لمتعقبه ألف
حساب . وكيف لا يفعل وقد قُتل من جند المسلمين في الموقعة من قتل وغرق منهم
في الفرات من غرق ، وفر ألفان من أهل المدينة يريدون النجاة بأنفسهم ! لكن الأقدار

التي غشت على بصر أبي عبيد فدفعته ليعبر الجسر فلبقى حنقه ، ويورد المسلمين موارد الهلكة ، كانت أبره بالمثنى ورافق . فقد بلغ ذا الحجاب والمركة دائرة أن الفرس بالمداين اختلفوا فرقتين ، إحداهما مع رستم ، والأخرى مع القيزان تناصب رستم العدو . لذلك عاد بالجيش إلى العاصمة ، ولم يتخلف من قواده إلا جابان ومردانشاه في كتية من الجند . وسار هذان القائدان يتعقبان المثنى وهما يحسبان أنهما قادران عليه . لكن أهل أليس أخبروا المثنى بما تراهي إليهم عن بلاط فارس ، فخرج في رجاله وفي عدد كبير من أهل أليس ، فأمر جابان ومردانشاه وأصحابهما ، وضرب أعناقهم جميعاً . وكذلك لقي جابان حنقه جزاء خذعه أبا عبيد يوم أسر بالنمارق فاستأمن أسرته فأمنه . أما وقد غدر جابان فرجع يقاتل المسلمين ويخفر ذمتهم ، فقتله بعد أسره هو العدل بعيته .

كان أول من قدم المدينة من المسلمين الذين شهدوا غزوة الجسر عبد الله بن زيد . ولقد رآه عمر بن الخطاب حين دخل المسجد فناداه : ما عندك يا عبد الله ؟ وسار عبد الله وألقى الخبر عليه فلم يبد جزعاً ، بل تلقاه ساكناً . ودخل بمض الذين فروا من الغزاة إلى المدينة منكس رءوسهم خزيًا من عار الهزيمة والفرار . أما سائرهم فنزلوا البوادي حياء أن يلقوا أهلهم فيعبروهم فرارهم وجبنهم . ورأى عمر سالم فرق لهم ورحمهم ، وجعل يدفع عنهم برّ الناس بهم وسخطهم عليهم ، فكان يقول : « اللهم كل مسلم في حلٍ مني ! أنا فئة كل مسلم . من لقي العدو ففطّعه بشيء من أمره فأنا له فئة . يا معشر المسلمين لا تجزعوا ! أنا فئتكم وإنما انحزتم إلى . يرحم الله أبا عبيد ! لو كان انحاز إلى لسكنت له فئة . » وكان معاذ القاري أخو بني النجار ممن فروا من الجسر إلى المدينة ، وكان يبكي كلما قرأ قوله تعالى : (وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَنْ تَخَرَّعًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) . فكان عمر يقول له : « لا تبتك يا معاذ ! أنا فئتكم ، وإنما انحزت إلى » .

يذكرنا موقف عمر من هؤلاء الذين فروا مرتدين إلى المدينة بعد هزيمتهم بالجسر بموقف رسول الله من الجند المسلمين الذين عادوا غزوة مؤتة بعد إذ قُتل قوادهم فيها ، فداور خالد بن الوليد بمن بقي منهم وارتد بهم إلى المدينة غير منتصر على عدوة . فقد جعل

أهل المدينة يَحْتُون على هذا الجيش التراب ويقولون : « يَا فُرَّار ! فررتم في سبيل الله ! » .
 فيقول رسول الله : « ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّارُ إن شاء الله » . ولم يكن ارتداد
 المسلمين بمؤتة كهزيمتهم بالجسر فظاعة وسوء أثر ، ولم يكن عمر كرسول الله رحمة ورقة .
 مع ذلك كان رءوفاً بمن نُكِبوا في الجسر ، بل كان فثتهم ؛ وقف في جانبهم ودافع عنهم ،
 وأبدى من العطف عليهم ما سكن من روعهم وخفف من عار هزيمتهم . ولا عجب ، وقد
 صارت إليه إمارة المؤمنين ، أن يكون بالمومنين رحماً ، فيكون أبرَّهم بهم ، وأشدَّهم عطفاً
 على الضعفاء منهم ، وإن ظلَّ شديد البأس على الأقوياء ، شديد البطش بالظالمين .

كان هذا شأن عمر ومن ارتدوا من الجسر . أمّا المثنى فتحصَّن بأليس زمناً بعد أن
 قتل جابان ومردان شاه وجنودهما . فلما أراح ظهره وجسم جنوده ، جعل يفكر في موقفه
 بالعراق ومصير المسلمين فيه . إنه موقف حَرِجٌ لا ريب . ومتى اطمأن الأمر في بلاط
 المدائن فستعود الجنود متراسة تتقدَّمها الفيلة لتهاجمه . فإذا يصنع يومئذ ؟ أفكتب القدر
 في لوحة أن يعود سلطان الأكَسرة إلى ما كان عليه ؟ إن يكن ذلك قضاء الله فلم يعد له
 ولا الجنده بالعراق بقاء ، وليس في وسعه إلا أن ينسحب كما انسحب الذين فروا إلى
 المدينة ، وأن يعود إلى أرض قومه بنى بكر بن وائل يقضى بالبحرين بقية أيامه .

لكنه المثنى الذي قال عنه قيس بن عاصم المُنْقَرِيّ حين سأل أبو بكر عنه : « هذا
 رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العمد هذا المثنى بن حارثة الشيباني ! »
 وقد كان له مواقف بالعراق ليست دون موقفه اليوم حرجاً ولا دقة . كان له مثل هذا
 الموقف أوّل ماجاء من البحرين إلى دلتا النهرين ، وذلك قبل أن يُمدّه أبو بكر بخالد
 ابن الوليد . وكان موقفه أكثر دقة يوم فصل خالد من العراق إلى الشام لينسى الروم
 وسائوس الشيطان . رجلٌ ذلك شأنه ليس بالذى يستسلم أو يُلقى بيديه مخافة ما تكنه
 الأقدار في حُجُب الغيب ، فإنما هو قوة تُتلى بها الأقدار لتوجيه مصائر العالم . فليعالج
 النكبة بما عُرِف عنه من دقة القائد الصبور الحنَّك ، وليستمد الخليفة فهو لا ريب
 مُمدّه . والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكِث .

وكذلك وقف المثنى جُلداً جريئاً ، يواجه الأيام السود التي أعقبت غزوة الجسر

وكأذت تعقّى على سلطان المسلمين بالعراق . ولم يكتفِ بأن بعث إلى عمر يطلب المدد ؛ فحجىء الجند من المدينة يقتضى زمناً قد يواثبه الفرس فيه . بل بعث فيمن يلبه من قبائل العرب ، فتوافوا إليه في جمع عظيم ، بينهم نصارى بنى النمر الذين قالوا : نقاتل مع قومنا . ونقل عسكره من أليس إلى مرج السباخ بين القادسية وحفان ليكون على مقربة من تخوم العرب ، يلجأ إليهم إذا غلبه الفرس ، ويلقى عندهم مدداً جديداً إذا غلب الفرس وما كان أشدّ حاجته إلى المدد ليتابع ظفّره ! وفي مرج السباخ اجتمع إلى عسكره عدد عظيم من الجند اطمأن له ، فأقام فيهم ينتظر ما الله فاعل بالفرس وبه .

لم يكن عمر بن الخطاب دون المثنى قلقاً على موقف المسلمين بالعراق بعد غزوة الجسر ولم يغب عنه أن المثنى بحاجة إلى مدد سريع يواجه به هذا الموقف الدقيق . وكان العرب يقدون إلى المدينة من شتى الأرجاء في شبه الجزيرة مليئين نداء الخليفة : منذ رفع الخطر عن ظهرت توبتهم من أهل الردّة . فندبهم عمر إلى العراق ، فجعلوا يتحامونه ويتناقلون عنه . ويبدون الرغبة في الشخوص إلى الشام والاشتراك في غزوه . لكن خالد بن الوليد كان قد ظفر بالروم في الشام حين لا قوه على اليوموك ، فلم يكن به من حاجة إلى مدد . لذلك لم يرضَ عمر أن يُشخصهم إلى الشام ، ولم يرغب أحد في الشخوص إلى العراق ، وكان جرير بن عبد الله البجليّ قدّم على أبي بكر في خلافته ، فذكر عِدّة له من رسول الله أن يجمع بنى بجيلة وكانوا مشكتين في القبائل ، فردّه أبو بكر وقال له : « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن يازأهم من الأسدين فارس والروم ، ثم أنت تسكّفين الشاغل بما لا يُغنى عما هو أرضى الله ورسوله ! دعنى وسِرْ نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين ! » . فلما ولى عمر أعاد عليه جرير عِدّة رسول الله ، وأقام عليها البيّنة . فكتب عمر إلى عمّاله ، فجمعوا بنى بجيلة في صعيد واحد . فلما اجتمعوا قال عمر لجرير : « أخرج حتى تلحق بالمثنى » . فقال جرير : « بل الشام فإن أسلافنا بها » وأردف عمر : « بل العراق فإن الشام في كفاية » . ولم يزل عمر يبنى بجيلة وهم يأبون عليه حتى جعل لهم الربع في خمس ما بقى الله على المسلمين يضاف إلى نصيبهم من الفى . عند ذلك رضوا الذهاب إلى العراق وعليهم جرير . ورأى الناس ما صنع بنو بجيلة فخذوا

حذوهم ، وكان الذين فروا من غزوة الجسر في مقدمتهم ، ثم تابعهم بنو الأزد وعليهم عَرَجَةُ بن هَرَمَةَ ، وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد الله ؛ وخلق كثير من مختلف القبائل . وتحمل الناس جميعاً ومعهم نساؤهم وأبنائهم ، وساروا يريدون العراق ينضمون إلى جنده ويمدون المثنى فيه .

هذا موقف عمر بالمدينة ، وذلك موقف المثنى بالعراق ، فإذا كان موقف الفرس بالمدائن ؟ ترامت إليهم أنباء الأمداد التي تسير تباعاً إلى العراق ، فهاهم أمرها وأدركوا الخطر عليهم منها ، فقسم رستم والفرزان السلطان بينهما ، وجعا جنداً عظيماً جعلاً عليه القائد مهران المهذاني ، وأمره أن يسرع السير للقاء هؤلاء الغزاة المسلمين . وسارت هذه القوات تتقدمها الفيلة ، ومهران أحرص الناس على أن يُحرز نصراً ينسى الفرس نصر ذي الحجاب في غزوة الجسر . وعرف المثنى مسيرة هذا الجيش وهو في عسكره بمرج السباخ ، فأرسل إلى جرير بن عبد الله وإلى غيره من الأمراء الذين جاءوا يمدونه يقول : « إنا جاءنا أمر لم نستطع منه المقام حتى تقدموا علينا ، فعجلوا للاتفاق بنا وموعدكم البُوبُ (١) » . ثم سار بقواته حتى انتهى إلى البوب على شاطئ الفرات حيث وافاه جند المسلمين جميعاً . وسار مهران كذلك بقواته حتى كان قبالة المسلمين لا يفصل بينهما إلى النهر .

أجال المثنى بصره في قواته فاطمأن . فائز لم يكن فيها من الفيلة مثل ما للفرس ، إنها لتمثل بمن انضم إليها من الأمداد قوات العرب جميعاً في شبه الجزيرة وخارج شبه الجزيرة ؛ ففيها أولئك الذين استمدتهم المثنى وهو باليس فأمدوه . وفيها بجيلة والأزد وكنانة وغيرها من قبائل العرب الذين أجابوا نداء عمر ، وفيها من بني النمر نصارى قدِموا مع أنس بن هلال وجلاب جلبوا خيلاً . وفيها من تغلب نصارى جاءوا مع ابن مردى الفهر التغلبي وجلاب جلبوا خيلاً . وفيها غير بني النمر وبني تغلب رجال من قبائل عربية أخرى مقيمة بالعراق . هؤلاء جميعاً رأوا موقف العرب من العجم فقالوا : نقاتل مع قومنا . وكذلك جمعت رابطة الجنس إلى جيش المسلمين عدداً غير قليل من نصارى العراق وقفوا جانبهم وحاربوا في صفوفهم .

(١) البوب : موضع إلى موضع السكوفة اليوم .

وبعث مهران إلى المثنى يقول : « إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبث إليكم » . ولم يكن المثنى قد نسي ما أصاب أبا عبيد حين عبر النهر يلتقي ذا الحجاب . وكان عمر قد أهاب به بعد غزوة الجسر ألا يعبر نهراً قبل أن يتم له النصر . لذلك بعث إلى مهران أن اعبروا أتم . وعبر الفرس إلى البويب وتعبثوا في صفوف ثلاثة مع كل صف فيل . وخرج المثنى على فرسه الشُّموس ، وكان لا يركبه إلا للقتال ، فإذا فرغ من القتال ودَّعه . وكان الفرس يدعى الشموس للين عريكته . وطاف المثنى راكباً في صفوفه يمهّد إليهم عهده ويحضهم ويأمرهم بأمره ويحرضهم ويهزّم بأحسن ما فيهم ، فكان يقف عليهم راية راية يقول : « إني لأرجو ألا توتى العرب من قبلكم . والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم » . فكانوا يجيبونه بمثل قوله . وإذا كان الشهر رمضان فقد نادى المسلمين : « أيها الناس إنكم صُومَ والصوم مَرَقَةٌ وَمَضْعَفَةٌ . وإني أرى من رأى أن تَفْطَرُوا فَتَفْطَرُوا بالطعام على عدوكم » . وأجابه الناس إلى ما طلب فأفطروا . وسمع المثنى من جانب الفرس زجلاً يرددونه وهم يقتربون ، فقال : « إن الذي تسمعون فشل ، فآلزموا الصمت وأتمروا همساً » . وجعل الناس يستمعون إلى المثنى وهو يتحدث إليهم منصفاً إياهم جميعاً ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً أو فعلاً ، بل ازدادوا له حباً وبه تعلقاً . فلما قال لهم : « إني مكبرٌ ثلاثاً فتهيئوا ثم احموا مع الرابعة » ، تهيأت الرايات جميعاً تنتظر الشدة على العدو وهي أشد ما تكون اغتباطاً بلقائه وحرصاً على الظفر به . ولم يكبد المثنى يكبراً أول تكبيرة حتى أعجل الفرس العرب وعاجلوهم فشدوا عليهم . واختلت لشدّة الفرس بعض صفوف المسلمين من بني عجل ؛ فأرسل المثنى من يقول لهم : « إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم » . واعتدل بنو عجل وشدوا مع سائر الجند على الفرس ، فأعادت شدتهم للصفوف نظامها . واشتبك الفريقان في قتال دام ساعات أعنف قتال . ورأى المثنى أن المعركة تترجح حامية الوطيس بين الفريقين ، وأنها تؤذن أن تطول ، ففكر في الوسيلة التي يكفل بها النصر للعرب ؛ وذلك بأن يحمل على قائد الفرس فيزيله عن مكانه أو يقتله . ولينفذ عزمه دعا إليه أنس ابن هلال النيمري ثم دعا ابن مردي الفهر التغلبي ، وقال لكل منهما : « إنك امرؤ

عربي وإن لم تكن في ديننا ، فإذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي . » وحمل
 المثني على مهران حملة صادقة فأزاله حتى دخل في ميمنته . وأرى الفرس ما حدث فاندفعوا
 يحمون قائدهم ، فاجتمع القلبان وثار النقع ، فلا يعرف أى الفريقين لمن منهما الغلب .
 وانكشف الغبار لحظة رأى المسلمون فيها تراجع قلب الفرس ، فحملت عليهم الميمنة
 والميسرة فدفعوهم إلى ناحية النهر يبتغون النجاة . والمثني أثناء ذلك يحرض جنده ويرسل
 إليهم من يقول لهم : « عاداتكم في أمثالهم . أنصروا الله ينفصركم » فيزداد المسلمون حماسة
 وشدة على العدو وضرباً في صميمه .

ولم يطق الفرس أن يثبتوا لهذا البأس فانهزموا وانقلبوا يولون الأدبار ، يريدون أن
 يعبروا الجسر . فلما رأى المثني انهزامهم سابقهم إلى الجسر وسبقهم إليه وردّهم عنه ،
 فازداد اضطرابهم ، فتفرقوا تصدّد جماعة على شاطئ النهر وتصوّب أخرى . وحصرهم
 فرسان المسلمين وهم في اضطرابهم فقتلوهم شر قتلة . وبلغ من فزع الفرس وهم على هذه
 الحال أن كان الرجل من المسلمين يقتل عدة منهم فلا يرتد إليه أحد يحاول قتله ، حتى
 لقد سمى يوم البويب هذا يوم الأعشار ؛ لأنهم أحصوا مائة رجل من العرب قتل كل
 واحد منهم عشرة من الفرس في المعركة .

وظل المسلمون يتعمقون الفالّة من عدوهم يعمنون فيهم قتلاً إلى الليل ، فلما أصبحوا
 عادوا يتعمقونهم كرة أخرى إلى الليل . بذلك أزهق في البويب من الأرواح أكثر مما
 أزهق في أية غزوة أخرى ، فكانوا يحزرون قتلى الفرس بمائة ألف ، بقيت جثثهم صرعى
 طريحة في الميدان حتى بليت وصارت عظاماً ، ثم بقيت دهوراً طويلاً لم تدفن إلا بعد
 بقاء الكوفة ، ثم عفى عليها التراب أزمان الفتنة .

انتهصر المسلمون بالبويب كما ترى نصراً مبيناً . وكان اجتماع الناس على محبة المثني
 من أسباب ذلك النصر ، بل كان أحلّ هذه الأسباب وأعظمها . لقد رأوه يخوض الغمار
 قوى اليقين جرّاء الجنان ، ففعلوا فعله واستبسّلوا استبسّاله ، فنصرهم الله . وكان الذين
 فروا من الزحف يوم الجسر يقاتلون لا يبالون الموت يريدون أن يتطهّروا من عار هزيمتهم ،
 فبينما كان المثني يعدّل الصفوف للمعركة رأى أحدهم يتقدّم صفّه مندفعاً نحو الفرس

مستقتلا ، ففرعه بالرمح وقال له : « لا أبالك ! إلزم موقفك ، فإذا أتاك قرينك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل » . وأجاب الرجل : « إني بذلك الجدير » ، واستقر ولزم الصف . وكان أسائر القواد والجنود مواقف بطولة تسجل بمداد الفخر . لما حى وطيس المعركة اندفع مسعود بن حارثة أخو المثني يخوض غمارها ، فصرع قبل أن ينهزم الفرس فتضعض من معه ، فرأى ذلك وهو دنف فقال : « يامعشر بكر بن وائل ! ارفعوا رايبتكم رفعكم الله ! لا يهولتكم مصرعي » . وكان قبل أن يصاب قد قال لهم : إني رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه ؛ فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف ، إلزموا مصافكم وأغنوا غناء من يليكم » . وقاتل أنس بن هلال النمرى النصراني حتى قتل . وحمل غلام نصراني من التغلبين على مهران فقتله واستولى على فرسه ثم انتحى يترنم بقوله : « أنا الغلام التغلبي » . أنا قتلت المرزبان » . ولما سبق المثني الفرس إلى الجسر فمنعهم من عبوره حاز عرفة ابن هرثة كتيبة منهم إلى الفرات ، فلما أخرجوا كروا على عرفة ورجاله وقاتلهم قتال المستميت ونالوا منهم . فقال رجل لعرفة : « لو أخرت رايك ! » فكان جواب ابن هرثة : « على إقدامها » ، وحمل بها على الفرس فولوا نحو الفرات ، فما بلغه منهم أحد حيا ، وجرح من أعلام المسلمين يومئذ وقتل عدد غير قليل ، كما جرح وقتل مثلهم من بني النمر وبني تغلب وغيرهم من عرب العراق . لكن النصر توج استشهادهم فأبقى على التاريخ ذكرهم ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون .

وانتهت المعركة ، فضم المثني أخاه مسعودا وأنس بن هلال النصراني إليه ، وتوجع لما أصابهما ، لم يفرق اختلاف دينهما من وجدته عليهما . ثم صلى على من استشهد من المسلمين وقال : « والله إنه ليهوّن علىّ وجدى أن شهيدا البويب . أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم يتكلموا ، وفي الشهادة كفارة » .

وجلس المسلمون أمسية فراغهم من المعركة فمقبطين يسمرّون . قال المثني : « قاتلتُ العرب والعجم في الجاهلية والإسلام . والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد علىّ من ألف من العرب ، ولمائة من العرب اليوم أشد علىّ من ألف من العجم إن الله أذهب بأبهم ووهن كيدهم ، فلا يروعكم زهاء تروته ، ولا قيسى فيج ولا نبال

طِوال ؛ فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالمهايم أبناء وجهتموها أتجهف » وذكر بعضهم أخذ المثنى الجسر على الفرس وما أدى ذلك إليه من إفناء جيشهم ، فلم يدع المثنى المتحدث بلسرسل في حديثه ، بل أنكر صنيع نفسه في ذلك وأظهر الندم عليه وقال : « لقد عجزت عجزة وقي الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر حتى أخرجتهم ؛ فأني غير عائد فلا تعدوا ولا تقتقدوني ، أيها الناس ، فإنها كانت مني زلة . لا ينبغي إخراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع » .

وهذه العبارة من القائد المنتصر في معركة عظيمة أزالته عن المسلمين عار معركة الجسر ، تشهد بشجاعة المثنى وصراحته في الحكم على نفسه ، كشجاعته في قيادة الماركة وخوض غمارها . فلو أنه كان ممن يزدهيهم الفخر ويلعب بلبعضهم إعجاب الناس بهم لما قال منها كلمة . لكنه رأى الفرس الذين ارتدوا عن الجسر يقتلون من المسلمين ويستमितون يريدون الثأر منهم ، فأسف لموت من مات من جنوده . وندم على فعلته ، وقدّر ما ربما كان يترتب على استماتة عدوه من انقلاب كفة النصر ، ثم كان جريئاً في إعلان خطئه حتى لا يقع في مثله غيره .

غنى المسلمون في البويب مغنم كثيرة ، وأصابوا بقرأ وغنائم ودقيقات ، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوه على تخوم شبه الجزيرة ، وإلى عيالات من أقاموا بالبحيرة ممن سبق إلى العراق في الأيام التي خلت قبل البويب والجسر . ورأى النسوة اللاتي أقمن على تخوم شبه الجزيرة إقبال الخيل عليهن تحمل الميرة ، لحسينها غارة ، فقمعن دون الصبيان بالحجارة والعمد . فقال عمرو بن عبد المسيح وكان مع القافلة : « هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش ! » . واستأمن الرجال النساء وبشروهن بالفتح ودفعوا إليهن ما جاوا به ، وقالوا : هذا أول المغنم .

وأمر المثنى القواد والرجال فانطلقوا في السواد حتى بلغوا ساباط على مرأى من المدائن وجيوش الفرس تفرّأ أمامهم فرار النعام لا تمنعهم من شيء ولا تمنع منهم أحداً . وانطلق المثنى بدوره فغزا الخنافس والأنبار أيام سوقهما ، فنال منهما ما شاء الله أن ينال من المغنم وبلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد وبلغوا تكريت ، وجعلوا كلما غزوا يقتلون

المقاتلة ويسبون الذرية ويستاقون الأموال ، حتى كان لهم من ذلك ما لا يحصى . بذلك دان لهم العراق كله كرامة أخرى . وقسم المثنى النية على الناس ، وفصل أهل البلاء من جميع القبائل ، ونقل بحيلة ربع الخمس تنفيذاً لعهد عمر ، ثم بعث بثلاثة أرباعه إلى أمير المؤمنين بالمدينة .

استتب الأمر للمثنى كما استتب من قبل لخالد بن الوليد ، فانتشر المسلمون في سواد العراق ينالون من رزقه وينعمون بخيراته . وأقام المثنى بالحيرة يفكر فيمن أفنت هذه الموقعة الضروس من جند المسلمين ، وفي الوسيلة لتمييز الجيش بمن يقوم مقامهم فيه . ولعله لم يكن يستعجل المدد . فقد استولى الرعب على نفوس الفرس بعد ما كرتهم البويب ، حتى لقد خيل إليه أن لا قيام لهم بعدها ، وأن خلافهم بالمدائن سيشتد على أثرها ، وأن الثورة ستشب بسبب هذا الخلاف في كل أرجاء فارس فتوهن أمرها وتزعزع نظامها .

جدير بنا أن ندع المثنى يفكر في موقفه ، وأن نفكر نحن فيما للبويب من دلالات على التاريخ ؛ فلهذه الغزاة أكثر من دلالة : لقد رأينا النصارى العرب من أهل العراق يقفون في خطوط المسلمين يحاربون الفرس بالحمة التي يحاربهم بها المسلمون ، ورأينا المثنى يقول لأنس بن هلال النمرى : « يا أنس ! إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى حملت على مهران فاحمل معى » ، ثم يقول مثل هذا القول لابن مردى الفهر التغلبى . ألا يقطع ذلك بأن الحرب في العراق لم تكن حرباً صليبية ، ولا حرباً إسلامية ، وأن الدين لم يكن هو الذى أثارها ، وإنما أثارها حرص العرب على أن يتخلص بنو جنسهم من النيران الأجنبية الذى ركبهم قرونًا طويلة ، يكون الجنس العربى وحدة سياسية أينما كانت منازلهم ؟ أحسب الأمر واضحاً فلا سبيل إلى الريبة فيه . والاعتبارات التى أثارها الحرب في العراق هى التى أثارها الحرب في الشام . أما الفتح لنشر الإسلام بالسيف فلم يدبر بخاطر أبى بكر ولا بخاطر عمر ، وإن دار بخاطرهما أن تكون الدعوة إلى الإسلام حرة لا يقف فى سبيلها عائق من العوائق .

ذلك أن الدعوة إلى الإسلام بقوة السلاح لا تتفق ومبادئ الإسلام ، ولا يقرها الكتاب الذى أوحاه الله إلى رسوله . وقد كان النبى وخلفاؤه يذكرون دائماً قوله تعالى :

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ،
وقوله تعالى : « أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَنْتَكُ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ » . وإنما انتشر الإسلام تبعاً لاتساع رقعة الفتح ؛ لأن أهل البلاد المفتوحة رأوا مبادئ
هذا الدين القيم فأكبروها ثم اعتنقوها ، عن بينة وتفكير حينا ، وتشبهاً بالرجال الذين أتوا
بالمعجزات في الفتح وفي الحكم حينا آخر . فإذا صح لهذا السبب أن نقرن انتشار الإسلام
باتساع رقعة الفتح ، فلا صحة لما يقال من أن هذا الفتح كانت غايته نشر الإسلام بيطش السيف .
هذا بعض ما تدل عليه غزوة البويب . وهي تدل كذلك على أن ما كان بين العرب
والفرس من خصومة قد بلغ حداً لا رجاء معه في صلح ولا في هدنة . فقد جاءت البويب
على أثر غزوة الجسر حيث انهزم المسلمون هزيمة نكراء ، ففتحت آثار هزيمتهم وجعلت
كلتهم العليا ، وألقت في نفوس الفرس الرعب وهدت عزيمتهم . مع ذلك لم يفكر
المسلمون في التسليم ولا في الصلح أثر غزوة الجسر ، ولم يفكر الفرس في التسليم ولا في
الصلح أثر غزوة البويب . فلم يكن بدٌّ من أن تتصل الحرب حتى يذعن أحد الفريقين
دون قيد أو شرط .

ولهذا لم يلبث الفرس حين زال عنهم روع البويب أن عادوا يفكرون فيما يوشك أن
يصير إليهم أمرهم إذا ظلوا فيما هم فيه من فرقة وانقسام . ولقد خيل إليهم أن هؤلاء الغزاة
من العرب سيدخلون عليهم عاصمة ملكهم ، ويفتضون عليهم كل حصونهم ، ويخضعون
أبناء كسرى لسلطانهم ، إلا أن تكون المعجزة فتتحد كلتهم ليواجهوا الغزاة ويحلوم عن
أرضهم . وكيف لكلماتهم أن تتحد ورسم والقيروان يتنازعا السلطان ، والأمراء والدهاقين
منقسمون تؤيد طائفة أحد المتنازعين وتؤيد الأخرى منافسه ! لذا ذهب أهل الفرس
إليهما جميعاً فحذروهما عاقبة اختلافهما وما يحجره على فارس من وهن يعرضها للهلكة .
« فما بعد بغداد وساباط وتكرت إلا اللدائن ! » . ثم إنهم أئذروهما قائلين : « والله
لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ! » .

وتشاور العيرزان ورستم فاستكتبوا بوران كتاباً إلى نساء كسرى وسراربه ، فجاءوا
بهن وعرفوا منهن أن لم يبق ذكراً من ذرية كسرى إلا يزيد جرد بن شهر بار بن كسرى

وكانت أمه قد أخفته عند أخواله حين قتل شيرى جميع الذكور من ذرية أبيه . فجاءوا به ، وهو يومئذ في الحادية والعشرين من عمره ، فجعلوه على عرش أجداده واجتمعوا عليه وتباروا في معونته ، فاطمأنت فارس بسد انزعاجها ، وأخذت تُعِدُّ العدة كيما تتأثر لكرامتها وشرفها .

وترامت إلى المثنى أنباء الفرس فزايلتهم طمأنينة ، وأيقن أن أهل السواد لن يلبثوا أن ينتفضوا على المسلمين إذا سارت جيوش الفرس نحوهم ، فكتب إلى عمر بالمدينة يذكر له ماعنده وما يتوقع من ثورة وانتفاض . لكن كتابه أبطأ قبل أن يبلغ عمر وتجهز الفرس ، فأنار تجهزهم قرى العراق ومدنه ، فلم يجد المثنى بداً من أن ينسحب كرة أخرى إلى تخوم شبه الجزيرة ، فسار في جفده حتى نزل بذي قار ، وجمع ما استطاع من الناس في عسكر واحد ، ثم أقام ينتظر مدد الخليفة ليعود من جديد ويفتح المدائن .

ولما وصل كتاب المثنى إلى عمر وعرف تجهز العجم بعد أن اجتمع أمرهم واتخذت كلمتهم قال : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! » . وكتب إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج إلى تخوم العراق والتفرق في المياه التي تلي العجم ، وأن يستمدوا أهل النجدة ليكونوا معهم حتى لا يبتغتهم الفرس وهم في غير عدد وعدة .

نزل المثنى بذي قار ، فلم يفكر الفرس في السير لمواجهته . وهناك أقام حتى أدركه سعد بن أبي وقاص ، إذ جاء أميراً على الجيوش التي جهزها عمر ليُجهز بها على فارس . لكن مقام المثنى مع سعد لم يطل ؛ فقد نفر عليه الجرح الذي أصابه يوم الجسر وما زال به حتى قضى عليه . بهذا تجرى بعض الروايات . وتجري روايات أخرى بأن المثنى قبض بذي قار قبل أن يصل سعد إلى العراق ، وأنه ترك لسعد وصية نورد حديثها في موضعه . والآن وقد قبض المثنى فحق علينا أن نختم هذا الفصل ، وقبل أن نندفع مع الحوادث في تيارها الجارف ، أن نقف هنيئة على قبر هذا القائد القادر نودّعه ونوفيه بعض حقه . فقد حمل هذا الرجل عن المسلمين في حرب الفرس عبثاً لم يحمل أحد مثله . كان أول مسلم ذهب إلى دلتا النهرين فدحا أبا بكر للتفكير في فتح العراق ، ولولا ذهابه إليها ومغامراته

فيها لما فكر الخليفة في مواجهة فارس . وقد فتح مع خالد بن الوليد ما شاء الله أن يفتحه من سواد العراق . ولولا إقدام ابن حارثة وحسن رأيه وبراعة قيادته لما استطاع بعد أن ذهب خالد إلى الشام أن يثبت للفرس وأن يواجههم .

ولقد أوصى أبو بكر عمر بعد ذلك أن يندب الناس مع المثنى . فكان طبيعياً أن يتولى المثنى إماره القوات التي تسير إلى العراق لنجدته؛ فهو الذي عرف مداخله وسار في أرجائه، فله من الجرأة على أهله ما ليس لغيره . ولو أن أبا بكر عاش لما أمّر أحداً غيره . لكن عمر أمّر أبا عبيد لأنه كان أول الناس انتداباً، ولأنه كان ثقيلاً من أهل الحجاز، وكان المثنى من بني بكر بن وائل . أفغضب المثنى لذلك أو جزّ في نفسه أن خالف عمر وصية أبي بكر في أمره؟ كلا! بل سما بتفكيره فوق هذا الاعتبار، وقدّر تعصب أهل الحجاز لبني وطنهم، فسبق أبا عبيد إلى العراق ثم سارت تحت لوائه، فانتصر معه يوم البمارق وحمل اللواء بعد مقتله ومقتل أصحابه يوم الجسر، ثم انسحب إلى أليس، حتى جاءه المدد وكان يوم البويب قاد الموقعة ببراعة تعيد إلى الذاكرة فعال خالد بن الوليد في أعظم غزوته . وتأمر عمر أبا عبيد على المثنى من الخطوات الأولى التي أقرّها أمير المؤمنين نظام الطبقات بين المسلمين . وقد يلتبس لعمر من العذر عن هذه الخطوة أن أبا عبيد تقدّم حين أحجم غيره، فكان أول الناس انتداباً . لكن الواقع أنها كانت خطوة تنفق وتفكير عمر . يشهد بذلك أن جرير بن عبد الله البجليّ ذهب في أعقاب غزوة الجسر مدداً للمثنى . فلما عرف المثنى أنه مرّ قريباً منه كتب إليه أن أقبل إليّ فإنما أنت مددٌ لي . وردّ عليه جرير : « إني لست فاعلاً إلا أن يأمرني بذلك أمير المؤمنين . أنت أمير وأنا أمير » . وكتب المثنى إلى عمر يشكو جريراً؛ فرد عليه أمير المؤمنين بقوله : « إني لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » . ولما وجّه عمر سعد بن أبي وقاص إلى العراق كتب إلى المثنى وإلى جرير أنه أمّر سعداً عليهما . ذلك أن سعداً كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكان عمر يرى السابقين الأولين إلى الإسلام طبقة تفضل غيرها من سائر طبقات المسلمين .

لم يغضب المثنى لتأمر غيره عليه . ذلك لأنه كان مؤمناً بحسن الإيمان، كما كان

جندياً بأسلاً يقدر معنى النظام وطاعته ، ويسمو بالنظام وبالإيمان جميعاً على أهواء النفس وشهواتها . على أن إقصاءه عن إمارة الجيش لا يفض من قدره ، ولا يمحو ما سجل التاريخ له في صفه . فإن يكن خالد بن الوليد عبقرى الحرب وسيف الله ، فالثني بن حارثة هو السابق الأول إلى فتح العراق ، وهو القائد الحثك الذي حمل العبء في أشد مواقف المسلمين به دقة ، وهو الحكيم الذي جمع قلوب العرب من أهل العراق حوله مع أنهم لم يكونوا على دينه ، فاستطاع بما صنع من ذلك أن يضرب الفرس في البويب ضربة لم يفيقوا منها ولم ينتصروا قط بعدها .

وزيد الثني فخراً أنه أتم ذلك كله في زمن ما أقصره . فقد بلغ أبو عبيد تخوم العراق مستهل الخريف من سنة أربع وثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح ، فانتصر بالنمارق في أوائل أكتوبر من تلك السنة ، وقتل بالجسر في أخريات الشهر نفسه ، فتولى الثني القيادة وانتصر بآليس ثم انتصر نصره الحاسم بالبويب في شهر نوفمبر . ولو أنه جاءه المدد في أعقاب البويب لسار إلى المدائن ففضها قبل أن يطوى ذلك العام أيامه . لكن المدد أبطأ عليه ، ثم إن الموت عاجله ، فمات وقد عقد النصر على هامته إكليلاً من الفخار باقياً على الدهر ما بقي الدهر .

والآن وداعاً أيها القائد القادر وفي ذمة الله ! ولنترك الآن ميدانك يدوى بآيات نصرك لتقف بالشام إلى جانب صاحبك ابن الوليد ! وليذكر الناس جميعاً على تعاقب الأيام أن الثني بن حارثة الشيباني كان الطليعة في التمهيد للإمبراطورية الإسلامية ، ثم كان من بناتها ذوى الحكمة والأيد . ولن يفض من عظمة صنيعة في بنائها أنه لم يكن قرشياً ، ولم يكن من أصحاب رسول الله . وأنه لم يتول إمارة الجيش بعد خالد . فقد تولاها بالفعل في البويب فكان فيها ندّاً لخالد إقداماً ، ولعله كان فيها أكثر من خالد تساعداً وحكمة .

الفصل السابع

فتح دمشق وتطهير الأردن

لعلك تذكر أن أبا بكر لما عزم فتح الشام واستمد العرب جميعاً لغزوه وجه أربعة ألوية إلى أرضه؛ جعل على أحدها أبا عبيدة بن الجراح، وعلى الثاني عكرمة بن أبي جهل، وعلى الثالث يزيد بن أبي سفيان، وعلى الرابع عمرو بن العاص، وأنه اختص كل لواء بمنطقة في الشام يغزوها، فإذا اجتمعت هذه الجيوش فالأمير عليها أبو عبيدة. وقد لقيت هذه الجيوش من مقاومة الروم وبأسهم ما اضطرها إلى الاجتماع في صعيد واحد على ضفة اليرموك. ولم تدعها جند هرقل تتقدم، بل وقفت إزاءها على ضفة النهر الأخرى. وضاق أبو بكر ذرعاً بمجمود جنوده، فكتب إلى خالد بن الوليد بالعراق ليسير إلى الشام أميراً على جيوشه كلها. وبلغ خالد الشام، وأقام شهراً آخر على ضفة اليرموك دون أن يواجه الروم. وقبض أبو بكر وتولى عمر إمارة المؤمنين والموقف لا يزال على جموده، فكان من أول ما استفتح به عهده أن حمل تحمية بن زئيم وشداد بن أوس كتاباً إلى أبي عبيدة بعزل خالد عن إمارة الجيش ويردها إليه كما كانت قبل أن يفصل خالد من العراق إلى الشام^(١).

بينما تحمية بن زئيم وشداد بن أوس في طريقهما إلى الشام يحملان رسالة عمر بعزل خالد، كان خالد يدبر للقاء الروم والقضاء عليهم. ولقد عرف أن الروم يتجهزون للقاءه، فعباً جيوشه كراديس على نحو لم يألفه العرب من قبل، وذلك لأنه ليس أكثر في رأى

(١) في الروايات التي أوردها المؤرخون عن هذه الفترة وما يليها في فتح الشام اضطراب فصلناه، وأبدينا رأينا فيه في الفصل الرابع عشر من كتابنا (الصدوق أبو بكر). وهو الفصل الذي تحدثنا فيه عن فتح الشام في عهد الحليفة الأول. واختلاف الروايات يرد على ترتيب الهجاء، حتى ليدكر بعضهم أن اليرموك كانت آخر الغزوات بالشام. كما يرد على عزل خالد وهل كان عن إمارة الجيش مع بقاءه أميراً على لوائه ولواء أبي عبيدة، أو عن عمله في الجيش كله. وسنأخذ هنا كما أخذنا في كتاب أبي بكر برواية الطبري ومن جرى مجراه. فهي في رأينا أدنى إلى الواقع. فإذا اقتضى السياق أن نشير إلى رواية البلاذري أو غيره ممن خالفوا الطبري أشرنا إليها.

العين من الكراديس ، ثم حل بهم غداة ذلك اليوم فالتقى هو وجيش الروم فخطمه ، وقضى على كل أمل للروم في استبقاء الشام^(١) .

تجربى طائفة من الروايات بأن رسولى عمر بعزل خالد وصلا إلى الشام صبح اليوم الذى وقعت فيه هذه المعركة الفاصلة ، وأنهما رفعا رسالة أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة فلم يذع ما فيها حتى انتهت المعركة ، فلما تم فيها النصر للمسلمين أنبأ خالداً بها وأذاع في الجيش أمرها ، وتولى القيادة مكان خالد . وتذهب روايات أخرى إلى أن أبى عبيدة لم يذع ما في الرسالة إثر الموقعة ، بل أخفاه وسارت تحت إمرة خالد إلى دمشق ، حتى إذا فتحت وتم الصلح مع أهلها أذاع أمر أمير المؤمنين . وتسوق بعض الروايات الحوادث غير هذا المساق ، وتذكر أن عمر أمر بعزل خالد عن كل عمله في الجيش وبمحاكمته في أمور تسبها إليه وطلب سؤاله عنها .

والراجح عندى أن أبى عبيدة لم يذع النبأ بعزل خالد أول ما بلغه ، سواء كان قد بلغه صبح يوم اليرموك أو بعد انتصار خالد فيها ، وأنه كتم هذا النبأ أياماً حاراً أثناء ما يصنع به وكيف يذيعه . وفي هذه الأثناء عرف الناس أن أبى بكر قبض وأن عمر تولى مكانه ، فاختلفوا رأياً ، وبرم بعضهم بولاية عمر كما برم بها قوم من أهل المدينة ، ثم هدأت ثائرتهم ورضوا الواقع ، حين علموا أنه تم بوصية أبى بكر . وقدّر خالد أن عمر لن يرضاه أميراً على جيوش المسلمين بالشام ، وأنه لا بد أن سيعزله ، وتحدث بذلك إلى بعض المقربين منه ، ولعله تحدث به إلى أبى عبيدة . عند ذلك أنبأه أبو عبيدة برسالة عمر فلم يقضب ولم يثر ، ورضى طائفاً أن يتولى قيادة لوائه بإمرة ابن الجراح ، كما قبل ابن الجراح من قبل أن يكون تحت لوائه طوعاً لأمر أبى بكر حين بعث خالداً من العراق إلى الشام^(٢) . ولم يثر

(١) فصلنا هذه المعركة تفصيلاً وافياً في كتاب (الصدى أبو بكر) فليرجع إليه من شاء .

(٢) تذهب بعض الروايات إلى أن الكتاب بعزل خالد ورد إلى أبى عبيدة وهم على حصار دمشق ، وأنه كتبه عن خالد حتى فتحت دمشق بنحو مئتين ليلة . ويذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » أن خالداً قال لأبى عبيدة حين أبلغه أمر عمر بعزله : « يرحمك الله ! ما منعك أن تعلمنى حين جاءك ! » وأجابه أبو عبيدة : « إني كرهت أن أكسر عليك حربك . وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل . وما نرى سيصير لى زوال واقطاع ، وإنما نحن أخوان . وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه . » وهذا الجواب الذى أجاب به أبو عبيدة يذكرنا بكتاب خالد إليه حين أمر أبو بكر خالداً على جند الشام =

الناس بأمر عمر وعزله خالداً لأنهم كانوا يعرفون ما بين الرجلين منذ حادث مالك ابن نويرة . وكذلك تم هذا التبديل في إمارة الجيش إثر موقعة انتصر فيها خالد نصراً حاسماً ، فلم يترك في نظام المسلمين وجندهم أى أثر تخشى مغيبته .

هذا ما أرجحه ، وهو ما يستخلص من مختلف الروايات . وقد كتب به أبو عبيدة إلى عمر وأنباء مما تم من نصر على الروم في اليرموك ، وبعث إليه بخمس الف ، وذكر له أنه خلف بشير بن سعد بن أبي الحجيرى على اليرموك ليحمى ظهره ، وخرج إلى مرج الصفر يتعقب فلول المنهزمين الذين تجمعوا بفحل ، وأنه أتاه الخير بأن هرقل أمد دمشق بقوات من حصص ، وكان هرقل يقيم بها ، فهولا يدري أيبداً بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن . وتناول عمر كتاب أبي عبيدة ، فلم يلبث حين قرأه أن كتب إلى أبي عبيدة : « أما بعد فابدعوا بدمشق فانهذوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم ، فإن فتحتها الله قبل دمشق فذلك الذى تحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فليزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغبرا على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حصص ، وضع شرخبيل وعمر بالأردن وفلسطين » .

تلقي أبو عبيدة رسالة عمر ، فبعث إلى فحل بعشرة من قواده في مقدمتهم أبو الأعور الشلمى ، وسار هو وخالد بن الوليد في قوة الجيش الكبرى يقصدون دمشق . ورأى الروم الذين لجئوا إلى فحل مقدم المسلمين عليهم ، وكان أثر اليرموك وما أورثه إياهم من فزع لا يزال آخذاً بنفوسهم ، فأطلقوا ماء بحيرة طبرية ونهر الأردن في الأرض حولهم ، فأوحلت وتعذر السير فيها . وغازا المسلمين ماصنع عدوهم ، فوقفوا بإزائهم يحاصرونهم

مكان أبي عبيدة . فقد كتب له خالد يقول : « أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالسير إلى الشام وبالمقام على جندهما والتولي لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه . وأنت رحمتك الله على حالك التي كنت عليها ، لا يصي أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين ، لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك . ثم الله ما بنا وبك من نعمة الاحسان ، ورحمتنا وليناك من عذاب النار ! » ولا ريب أن قد كان هذا التضامن بين قواد المسلمين من أقوى العوامل في انتصارهم .

ولا يستطيعون التقدم في الأرض الموحلة إليهم . وظل ذلك موقفهم حتى فرغ إخوانهم من فتح دمشق ، واستطاعوا أن يمدوهم بقوات زادتهم بأساً وإقداماً .

ولم يكن عجيباً أن يفتح المسلمون دمشق مع مناعة حصونها وما أمدها هرقل به من جند عظيم . فقد كانوا إلى حين نصرهم الله باليرموك يسرون في أرض مياها جارية ، لكن ما بها من خصب وزرع لم يزد على مواقع الخصب بالمدينة وما حولها ، فلم يبلغ إغراؤه ما بلغت دلتا النهرين بالعراق . فلما ساروا من الواقصة على اليرموك إلى دمشق رأوا جمالا يهر بهاؤه اللب ، وتسخر بهجته القلب . رأوا أراضي البلقاء في الجنوب تمتد مروجها إلى مسرح النظر ، ورأوا في الشمال مراعى جَوْلان أبهى نضره وأمرع خصباً ، ثم رأوا مزارع القمح والشعير متلاحقة بين هذه المراعى تقوم خلالها الأشجار مختلفاً أنواعها ، منها المثمر وغير المثمر ، ومنها ذو الأريج يفوح شذى زهره فيعطر ما حوله من الأرجاء . والنهيرات والغدران تجري مياها الصافية مصقولة الصفحة حيناً ، متدفقة في اندفاع حيناً آخر ، تسقى هذه الزروع والأشجار والحدايق الغناء ، وقد تحدرت من تلال كست سفوحها الخضرة أو نمت فوقها الأشجار الباسقة ، فجعلت ربّاهم كأنها الأعلام بين أودية تنبسط تارة وتتموج بين الارتفاع والانخفاض تارة أخرى . وهى في انبساطها وفي تموجها يكسوها بساط من الزهر بألوانه البهيجة الفوّاحة . وزادت بنات الأصفر على تعبير العرب ، هذا الوسط الطبيعي الرائع رواء وبهجة . يتهادين فوق هذه الرثى وبين هذه الأودية ، فتمسك النظر قدوهن المشوقة وخدودهن الملساء أشربت وجناتها حجرة تم عن عافية ورى ، وقد سواهن الباري أحسن تسوية وقومهن أحسن تقويم ، فكان ملائكت هذه الجنان التى يسير العربى خلالها في الطريق إلى العاصمة الحصينة .

وها هنا وهناك تقوم المدائن التى أنشأها الرومان وأقاموا فيها المسارح والملاعب والكفائس ، وكلها عمائر تلفت عظيماتها النظر وتثير الإعجاب . وهناك على حدود الأفق إلى الشمال تبدو أعلى الجبال توجت هاماتها الثلوج ، فبدت في جلال ، ما أشبهه بجبال المشيب ، ناصع البياض . أى شئ هذا السحر الباهر وهذا الجمال الساحر ! وهل من باعث غير الإيمان أقوى منهما يدفع إلى المغامرة في سبيلهما ! . ولؤلؤاء الجنود المسلمين من قوة الإيمان بالله

ورسوله أوفى حظ وأوفر نصيب . وقد زاد هذا السحر قوة الإيمان في نفوسهم ، فدفعهم يسرعون إلى عاصمة الشام وهم أشد ما يكون حرصاً على فض حصونها والدخول إلى قلبها . بل لقد زادهم اسم دمشق حرصاً على الإسراع إليها والاستيلاء عليها . فكم سمعوا بمجائبها من إخوانهم وأبائهم الذين كانوا يذهبون أثناء رحلة الصيف بالشام إليها ! وكم حدثهم عن تاريخها بنو وطنهم من المسيحيين الذين يحجون إلى بيت المقدس ، ثم يذهبون إلى مقر الملك بالشام يحتلون نعمة الحضارة فيه ، ويتابعون من متاجره الغنية تحفاً لا مثيل لها بالمدينة المقدسة بفلسطين . قص عليهم هؤلاء المسيحيون تاريخها ، فأذكروا في نفوسهم تطلعا أى تطلع لمشاهدتها والتمتع بجناتها الفيحاء ومياهها الجارية وظلالها الوارقة وفاكهتها الشهية ، وما فيها من جمال يحدث عن حاضر فاتن وماض أكثر فتنة . فدمشق من أقدم مدائن العالم إن تكن أقدمها جميعاً^(١) . وقد توالى عليها عصور عظيمة كانت فيها مقر عبادة وثنية ضخمة ، فلما جاءت المسيحية جعلت من معبدها الوثني كنيسة لأتباع السيد المسيح لا يبدونها في جمالها وجلالها إلا كنيسة أنطاكية كبرى معابد المسيحية بالشام . هذا إلى ما أقامه الروم فيها من عمارت فاقت كل ما وقعت عليه أعين هؤلاء العرب في طريقهم إليها جلال وعظمة . كيف إذاً لا تنهب جيوش المسلمين الطريق إليها نهباً ! وكيف يخامرها ريب في أنها لا بد مستولية عليها بعد أن قهرت الروم باليرموك ، وقضت من جندهم على عشرات الألوف خروا صرعى في الميدان أو تردوا هلكى في هاوية الواقعة ! .

ولم يجد هذا الجيش الظافر في طريقه مقاومة تذكر . فلم يكن الروم يعتمدون في قتالهم على ما كان يعتمد عليه الفرس من التحصن بالأنهار وبحار المياه المتشابكة بين دجلة والفرات ، لأنه ليس بالشام مثل هذه الأنهار . ولم يكن الروم يندفعون إلى المعارك مستميتين اندفاع الفرس ، لأن العراق كان للفرس منه نصيب عظيم ، وكانت المدائن

(١) يقول صاحب لسان العرب : إن دمشق سميت ببيانها دمشق بن كنعان أو دماشقيوس . ويذكر المؤرخون اعتماداً على ما جاء في التوراة أنها كانت مدينة عظيمة في عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنما خضعت لحكم مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وأن اسمها وجد منقوشاً في تل العمارنة على أنه دهشقة .

عاصمة الأكاسرة على شاطئ دجلة أكبر أنهاره . أما الشام فكان ولاية رومية ، وكانت القسطنطينية عاصمة القياصرة بعيدة عن بيت المقدس وعن دمشق ؛ فلم يكن في نفوس المدافعين عنها من الحماسة والاستماتة ما كان في نفوس المدافعين عن المدائن . ولم تبعث العصبية الدينية في نفوسهم حب الاستشهاد في سبيل بيت المقدس . فقد غلب الفرس الروم واستولوا على كنيسة القيامة وعلى كنيسة المهد من قبل ، فلم يجد أهل البلاد في هذا التغير الذي طرأ على حكمهم ما يدعوهم إلى افتداء هذه المعابد بأرواحهم . فإذا كان هرقل قد ردّ الفرس واسترد فلسطين ، فلم يكن حكم عماله خيراً من حكم الفرس ولا أكثر رفقا ومعدلة . لذلك لم يعتمد هرقل على شيء في هذه البلاد اعتماده على المدن المحصنة ، كدمشق وحمص وأنطاكية ، اعتزازاً بحصونها ، واطمئناناً إلى قوة مقاومتها .

بلغ المسلمون غوطة دمشق فازدادوا حماسة واندفاعاً ؛ فقد رأت أعينهم هذا السهل القسيح تقوم عليه أم المدائن وأقدمها ، وكأنه قطعة من الجنة هبط بها الملائكة من سماء الخلد إلى هذه الأرض : أنهار جارية ، وعيون دافقة ، وأشجار متشابكة الأغصان ، وأعشاب وتين وزيتون وجنة نعيم . وبين هذه الظلال الوارفة تسرى خلالها نسيمات توضع عطرأ قامت منازل المترفين الذين آتاهم الله من فضله ورزقهم من طيبات هذه الدنيا ، تحدث عما كان فيها ومن كان فيها من سادة يمتنعون ، وجوار كأنهن الحور العين . أين من هذا الجمال الرائع والنعمة السابغة ، مارأت عيون الذين صحبوا خالد بن الوليد إلى العراق ، وكانوا يرونه يومئذ سحراً أي سحر ، وفتنة أي فتنة ! فإذا صحت كلمة خالد بالعراق : « ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب ! وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أتم عليه » إذا صحت هذه الكلمة بالعراق مرة فإنها تصح أمام دمشق وغوطتها ألف مرة . فما يرون هنا ليس هو الطعام بلغ من الكثرة مبلغ التراب ، وإنما يرون مع الطعام ما لم يكن يدور لهم في خيال ، وما حسبه أكثرهم مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر .

أننى السامون منازل الغوطة وقصورها خالية لا يسمع فيها إلا غناء الطييار على أفنان

بساتينها . ذلك أن أهل المنازل والقصور هجروها ليحتموا من الغزاة بأسوار المدينة المنيعة . وكانت أسوار دمشق مضرباً للثقل في التحصن والمنعة . بنيت من حجارة ضخمة متينة ، وعلت إلى ارتفاع يزيد على ستة أمتار في سمك يزيد على ثلاثة . وكانت حصونها رفيعة الذرى كثيرة الشرفات ، يحمي بها الرماة بالسهم والمجانيق من المدافعين فيها . وقد زاده هرقل تحصيناً بعد غزو الفرس إياها ، أملاً في أن ترد كل طامع في الإمبراطورية . وكان بالأسوار أبواب منيعة يحكم إغلاقها فلا تدع سبيلاً لدخول إلى المدينة أو خارج منها . وأحيطت الأسوار بخندق يزيد عرضه على ثلاثة أمتار طمته مياه نهر بردى . بذلك كانت دمشق كلها قلعة واحدة ذات أبراج في كل نواحيها ، فلم يكن لمهاجمتها سبيل إلا بعد حصار طويل يفت في أعضاد أهلها ، ويضعف عزائمهم ويحملهم على التسليم .

قدّر أبو عبيدة ما يقتضيه اقتحام المدينة الحصينة من هذا الحصار الطويل ، فأمر جنوده ففتحوا كنائس الفوطة ومنازلها واتخذوها مساكن يأوون إليها . وقدّر أن هرقل قد يبعث بجنود من حمص أو فلسطين يحصرون قواته حول دمشق بين حصون المدينة وجيوش الروم ، فبعث ذا السكّالاع الحميريّ فعسكر بين دمشق وحمص ، وبعث علقمة ابن حكيم ومسروق العكي فعسكرا بين دمشق وفلسطين . فلما اطمان إلى ما صنع من ذلك أمر قواده وجنوده بالتقدم لحصار العاصمة ، تمهيداً لاقتحامها ، وعين لكل منهم باباً من أبوابها ينزل عليه . فنزل هو على باب الجابية ، ونزل عمرو بن العاص على باب توما ، ونزل شُرْحَبِيل بن حَسَنَة على باب الفراديس ، ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير أو باب كيسان . أما خالد بن الوليد فنزل على الباب الشرقي . وكان على مقربة من هذا الباب دير يسمى دير صليبا اتخذ خالد مقرّاً له ، ولذلك سمي من بعدُ دير خالد .

ونصب المسلمون المجانيق والدبابات حول المدينة وبدءوا بهاجمون حصونها . لكن هذه الحصون كانت أمتع من أن تفتضها عدّة العرب وطرازها ساذج والجنود الذين يستعملونها غير مدربين على فنون الحصار . لذلك قاومت كل هجوم ، وردّحاتها جنود الدبابات ورماة المجانيق بسهامهم ونبلهم . وكان نسطاس حاكم المدينة وباهان قائد جنودها على ثقة من أن هرقل لن يدع عاصمة ملكه بالشام تسقط في أيدي أعدائه وهو مقيم على مقربة

منها بحمص في جيش عظيم ، وأن هؤلاء العرب لن يلبثوا لذلك أن يفضّوا حصارها وينفضّوا عنها كما فعل غيرهم من قبل . ولهذا الثقة طالّت مقاومتهم ولم يجد المسلمون إلى المدينة مفقداً . والحق أن هرقل لم يكذب ظنهم ؛ فقد بعث من حصص بقوات سارت مدداً لدمشق . لكن هذه القوات لقيت ذا السكّالاع وفرسان اليمين في طريقها ، فكان بين الفريقين قتال عنيف ارتد الروم على أثره منهزمين إلى حصص . وعرف نسطاس وباهان ما كان من ذلك فاضطربا حيناً ، لكنهما سرعان ما استردا ثقتهما بقدرته دمشق على المقاومة . فعما قريب يشتد البرد فلا يطيق العرب أبناء الصحراء الحارة احتماله ، فيعودون أدراجهم ، وتعود إلى مدينتهم حرمتها وكرامتها .

على أن طمأنيتهم هذه لم تدمهم من أن يبعثوا إلى هرقل من يستعجل مدده مخافة أن يطول بالناس الحصار قهن عزائمهم . وأرسل إليهم قيصر يقول إنه مدمهم ، ويحرّضهم على الثبات والمقاومة . وقوت رسالة هرقل عزيمتهم ، وجعلتهم يثبتون لهجمات المسلمين ويصدونها ، وإن لم يفاصلوا بالخروج من أسوار مدينتهم لمواجهة الذين هزموا جند الروم في البرموك وقضوا عليهم . وطالت مقاومتهم وطال حصار المسلمين إليهم زمناً اختلف فيه : قيل كان سبعين يوماً ، وقيل أربعة أشهر ، وقيل ستة أشهر . وضيق المسلمون عليهم الحصار طول هذا الزمان ، وطال انتظارهم مدد قيصر على غير جدوى . وانقضى الشتاء وأقبل الربيع والعرب على حصارهم لا يربحون عنه . عند ذلك هتت قوتهم ووهنت عزائمهم ، وانقطع رجاؤهم في مدد قيصر وفي جلاء المحاصرين ، فبدءوا يفكرون في التفاهم معهم وفي مصالحتهم . وانتهى المسلمون بالدخول إلى المدينة وعقد الصلح مع أهلها . كيف دخلوا ؟ أكان ذلك عنوة أم فتح الدمشقيون لهم الأبواب ؟؟ ومن من المسلمين عقد الصلح ، وعلى أي شيء عقد ؟ هنا تختلف الروايات بل تضطرب . وأكثر هذه الروايات شهرة أن خالد بن الوليد كان مقبياً على الباب الشرقي لا ينام ولا ينيم ، وكانت له عيون زاكية فلا يخفى عليه مما يجري في دمشق شيء . ونمى إليه يوماً أن بطريق المدينة ولده ولد فرح به ، فأولم للناس ، فأكل الجند وشربوا وغفلوا عن مواقفهم وكان خالد قد اتخذ حبالاً كهيئة السلام وأوهاقاً^(١)

(١) الوهق : الجبل يرى فيه أنشودة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ونواى الجدران .

فلما أدرك الليل إعجازه نهد هو وجنده الذين قدم بهم من العراق، وقال لهم . إذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا إلينا ، ثم تقدّمهم ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وأمثالهم من الشجعان المغاوير ، فعبروا الخندق عائمين على القرب ، وأثبتوا أوهاق حبالهم في شرف السور وتسلقوا سلاطيمها ، حتى إذا ارتقوا على الجدار جذبوا بعض الحبال وأثبتوها في الشرف التي تلى داخل المدينة وألقوها ، فانحدر خالد وطائفة ممن معه ونزلوا أمام الباب فعالجوا فتحة بسيوفهم . وكثر إخوانهم الذين أقاموا بأعلى الجدار ، فلما سمع رجال خالد تكبيرهم أسرعوا يعبرون الماء ويتسلقون الحبال إلى زملائهم فوق السوق .

وكان الباب الشرقى أمتع أبواب دمشق وأكثرها ماء وأحصنها مدخلا . لذلك لم يكن عليه من الحراس إلا عدد قليل ، فاجأهم خالد ومن معه وهم في غفلتهم فقتلوهم ، وفتحوا أغلاق الباب بالسيوف . فدخل منه من لم يرق إلى أعلى السور واندفعوا داخل المدينة يكبرون . وفزع الناس في سائر أرجائها ، وانتشر بينهم خبر المسلمين واقتحامهم الباب الشرقى وقتلهم من قابلهم . عند ذلك أسرعوا إلى سائر الأبواب ففجّوها وصالحوا أبا عبيدة فأمنهم ودخل من باب الجابية ولا علم له بما فعل خالد . فلما عرف ما يجري من سفك الدماء بعث إلى خالد أن يكفّ عن القتال فقد صالح الناس وأمنهم . واعترض خالد بأنه فتح باب المدينة عنوة . لكن أبا عبيدة كان الأمير على الجند ؛ فلم يكن بدّ لخالد من أن يسمع لأمره وأن يجرى الصلح على الجانب الذي فتحه .

هذه أكثر الروايات شهرة في فتح دمشق ، وهي تنهض ، على غرابة وقائعا ، وتجد من يؤيدها من مؤرخي العرب ومن المستشرقين ؛ لأن بطلها خالد بن الوليد . ولو أن بطلها كان غير هذا العبقري صاحب المعجزات في الحرب لرمّاها المؤرخون جميعا بالتهافت ، بل لما أقدم أحد على روايتها . فمن غير خالد لا ينم ولا يدع غيره ينم ! ومن غيره يستوى إليه علم ما تحتويه دمشق من أسرار داخل أسوارها ، حتى ليعلم أن البطريق وُلد له ولد وأنه أولم للناس ، وأن الحرس بلغ منهم الطعام والشراب فغفلوا عن مواقعهم ؟ ومن غيره ، بعد حصار دام سبعين يوماً أو أربعة أشهر ، أوستة أشهر . يُقدم على أن يعبر الخندق من أصحابه مستعينين بالقرب ، وأن يتسلق الأسوار على الحبال . وأن يهبط بنفسه

داخل هذه الأسوار معرضاً نفسه للخطر حين إنبلاج الصباح ! لكن لخالد في الحرب معجزات رأيناها في حروب الردّة وفي فتح العراق وفي غزوة اليرموك ، فلا عجب أن تكون هذه إحدى المعجزات التي كفلت له في كل غزواته النصر والسودد : وأن تجد لذلك من يؤيدها من مؤرخي العرب ومن المستشرقين .

على أن هذا التأييد لم يعصمها من تفنيد الناقدين لها وطعن الطاعنين عليها ، وأخذهم بغيرها من روايات أدنى إلى المألوف في مثل موقف دمشق . من هذه الروايات أن أبا عبيدة هاجم باب الجابية بقواته ففتحه عنوة ، على حين صالح خالد أهل المدينة مما يلي الباب الشرق فلما التقى القائدان في قلب دمشق أجاز أبو عبيدة صلح خالد وأجراه على المدينة كلها . ولا فرق بين هذه الرواية والرواية الأولى إلا فيما يتصل بخوارق خالد ، كعلمه بولية البطريق وأثرها في الحراس ، وتسليته الأسوار بالسلالم والأوهاق . ولو لم يُذكر من هذه الخوارق شيء : وقيل إن خالداً فتح الباب الشرق عنوة ، وأن أبا عبيدة صالح من بلى باب الجابية ثم أجرى الأمر في المدينة كلها بحرى الصلح ، لتساوت الروايتان ، ولكان معناها أن قواد المسلمين عرفوا أن الحصار أوهن عزائم المحصورين ، فاتفقوا على مهاجمة أبواب المدينة جميعاً فلما رأى الدمشقيون هجومهم اختلفوا بينهم ما يصنعون ، ففتحت طائفة أبوابها ، وتأخرت طائفة ، فافتحم القائد الذي يليها بابها عنوة ، وكذلك دخل من دخل من المسلمين صلحاً واقتحم من اقتحم دون أن يلقي مقاومة ، ثم أجرى الأمر في المدينة كلها على الصلح .

هذا التصوير يوفق بين تينك الروايتين ولا يناقض غيرها من الروايات المختلفة عن فتح دمشق . ومن هذه الروايات أن أسقف المدينة وقف على أسوارها غير مرة يتحدث إلى خالد بن الوليد ، وأنه قال له يوماً : « يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ، ولى عليك عدّة ، فصالحني على هذه المدينة ! » . ورضى خالد فدعا بدواة وقرطاس وكتب « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها . أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية » . ويضيف البلاذري بعد أن يثبت هذا الكتاب أن الأسقف أفضى

إلى خالد ذات ليلة بأن المدينة في عيد وأن أهلها في شغل ، وأشار عليه أن يلتمس سُلماً ، فجيء بسلمين فارتقى عليهما جماعة من المسلمين إلى أعلى السور ، ونزلوا إلى الباب وليس عليه إلا رجل أو رجلان ، فتعاونوا عليه وفتحوه عند طلوع الشمس . وكان أبو عبيدة من جانبه قد دخل باب الجابية عنوة ، فنشر له الأسقف كتاب خالد ، فقال بعض المسلمين : « والله ماخالد بأمر ، فكيف يجوز صلحه ؟ » . فقال أبو عبيدة : « إنه يحير على المسلمين أدناهم » ، وأجاز الصلح .

وتذهب رواية أخرى إلى أنه لما طال الحصار اشتد الأمر على أهل دمشق دسوا إلى المسلمين من تحدث معهم في الصلح ، فأصر المسلمون على المشاطرة ؛ أي أن يكون لهم النصف من كل ما في دمشق ، فتردد أهل المدينة في قبول ما عرض عليهم . فلما رأوا حاميتهم عاجزة عن الدفاع عنهم ، وأن لا مفر لهم من التسليم ، بعثوا إلى أبي عبيدة وحصلوا منه على أمان المدينة ، ثم فتحوا أبوابها له ، فدخلها هو وقواده وجيشه من غير قتال . ويذهب بعض المستشرقين إلى أن حامية دمشق يؤتت من الدفاع عنها ففادرتها ، فقرر سكانها التسليم ففتحوا مدينتهم للجيش العربي ، ثم صالحهم أبو عبيدة بعد أن دخل المدينة واستقر بها .

هذه هي الروايات المختلفة في فتح دمشق . والمؤرخون متفقون مع اختلافها على أن المدينة فتحت صلحاً ولم تفتح حرباً . وهذا يرجح ما قدمنا من أن طول الحصار واليأس من مدد هرقل أديا بالدمشقيين إلى طلب الصلح فاختلف على شروطه ، فأراد المسلمون أن يقتحموا أسوار المدينة ففتح أهلها أبوابها لهم . ولعل بعض هذه الأبواب قد تأخر ففتح عنوة ، ثم كانت المفاوضات وكان الصلح .

ونود قبل أن نذكر شروط هذا الصلح أن نجتاز مع أبي عبيدة وخالد بن الوليد وزملائهما أسوار دمشق ، وأن نسير هنيئة معهم خلال هذه المدينة العامرة ذات التاريخ الحافل والجمال الرائع ، وأن نلقى أثناء مسيرتنا هذه النظرة على ما تحويه . فلهذه النظرة بشروط الصلح أوثق الصلة . تحدثت عن جمال الطريق المؤدى من اليرموك إلى دمشق ، وعن جمال القوطة . أما المدينة فتبذل هذا الجمال جلالاتها ؛ فهي ملتقى تجارة الشرق

والغرب من أقدم العصور ، وهي لذلك من أكثر المدن سكاناً وأضخمها ثروة . يشقها طريق مستقيم يصل غربها بشرقها ، ويمر من باب الجابية إلى الباب الشرقي ، وتقوم على جانبه متاجر لم ير العرب لها نظيراً في بلادهم ، ولم يروا لها نظيراً في العراق . ويمر خلال المدينة نهر بَرَدَى بياحه المتدفقة الصافية ، وقد قامت حوله القصور الفخمة ذات الحدائق الغناء ترتفع خلالها نوافير المياه صاعدة في السماء . وما أكثر كنائس دمشق وأجملها ! فهي من العمار الرومانية المتفاوتة البناء ؛ يبلغ عددها خمس عشرة ، وأعظمها كنيسة القديس يوحنا المعمدان . بنى الرومان هذه الكنيسة معبداً وثنيّاً قبل أن يدينوا بالمسيحية ، فلما تنصّروا جعلوها مكان عبادتهم وصلواتهم للسيد المسيح ولأمه العذراء البتول . ويقوم من حول هذه الكنائس والقصور والمتاجر ما اعتاد الرومان تشييده من مسارح وحمامات وملاعب . ما أشد ما يقف هذا كله نظر هؤلاء العرب الذين يمرون به ! إنهم لم يشهدوا مثله نخامة وجلالا وعظمة . أين منه ما رأت عيونهم بصنعاء وبالحيرة ! وأين منه الخورنق والسدير قصر الفمان بن المذخر بن ماء السماء ! ترى أية شروط للصالح يليها عليهم هذا الثراء العظيم ، وهذا الجمال الباهر ؟ وهل تراهم يعقون عنه فلا يشاركون أصحابهم فيه ؟ أم تراهم يحرصون على أن يكون لهم منه نصيب أقله نصفه ؟ ! .

تختلف الروايات في ذلك باختلافها في فتح دمشق . ففي رواية للبلاذري أن الصالح جرى على ما في كتاب خالد بن الوليد لأسقف دمشق ، وهو الكتاب الذي أثبتنا نصه من قبل ، والذي يجعل للمسلمين الجزية دون غيرها ، يأخذونها لقاء تأمينهم أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم ودورهم وكنائسهم وسور مدينتهم . ويثبت البلاذري تأييداً لهذا الرأي قول أبي عبد الله الواقدي : « قرأت كتاب خالد بن الوليد فلم أجد فيه أنصاف للنازل والسكناس » . ويضيف الواقدي أن المسلمين إنما نزلوا منازل دمشق واستقروا بها لأن أصحاب هذه المنازل تركوا المدينة لما فتحت ، ولحقوا بهرقل إذ كان يقيم بأنطاكية ، فأصبحت منازلهم لا مالك لها فنزل المسلمون بها .

أما الطبري فقد روى أن صلح دمشق كان على المقاسمة على الدينار والعقار ، وعلى جزية دينار عن كل رأس . ويفسر ابن كثير المقاسمة في المال والعقار بأن جانباً من المدينة

فتح عنوة فكان كله حقاً للمسلمين ، على حين فتح جانب منها صلحاً فوجبت عليه الجزية دون سواها ، ولذلك أخذ المسلمون نصف ما في المدينة من كنائس ومنازل وأموال بحكم الفتح عنوة ، وفرضوا عليها الجزية بحكم الفتح صلحاً .

ويقرر الذين يذكرون المقاسمة في الكنائس والمنازل والأموال أن المسلمين أخذوا سبع كنائس من الكنائس الأربع عشر القائمة بدمشق ، وأنهم قسموا الكنيسة الكبرى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ، فتركوا نصفها للنصارى يقيمون فيه صلواتهم ويتلون فيه الإنجيل ، وجعلوا النصف الآخر مسجداً للمسلمين يتلى فيه القرآن ويذكرون فيه اسم الله وينادى من فوقه للصلاة .

وظلت هذه القسمة محوياً من ثمانين سنة طلب أنهاء معاوية بن أبي سفيان ، ثم طلب عبد الملك بن مروان أن يزيدا في المسجد بأن يضاف جانب الكنيسة إليه . ومع ما عرضا في ذلك من مال طائل ، لقد أبى النصارى عليهما ورفضوا إجابة طلبهما تمسكاً منهم بحكم الصلح الذي تم عقد فتح دمشق . ولما استخلف الوليد بن عبد الملك طلب إلى النصارى ما طلب سلفاه وعرض عليهم مالا طائلاً ، فأبوا عليه كما أبوا عليهما ، فهددهم ليهد منها إن لم يقبلوا عرضه . وخوفوه غضب الله فلم يخف وهدمها وأدخلها في المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكى النصارى إليه ما صنع الوليد بكنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره بأن يرد عليهم ما كان لهم . وكره فقهاء دمشق وأهلها من المسلمين أمر عمر وقالوا : « نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ! » وعرضوا على النصارى أن يعطوهم جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ، على أن يمسكوا عن المطالبة بما كان لهم من كنيسة يوحنا ، فرضى النصارى ، وأقر عمر بن عبد العزيز هذا الاتفاق .

فلولا أن صلح دمشق كان على المقاسمة لما جعل جانب من كنيسة يوحنا مسجداً ، ولما طلب معاوية وعبد الملك أن يدخل ما بقي بأيدي النصارى في المسجد ، ولما هدم الوليد الكنيسة ، ولما شكى النصارى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز . كذلك يقول الذين يذكرون أن صلح دمشق كان على المقاسمة ، وأنه لم يقتصر على الجزية . وقد يجيبهم

مخالفوهم بأن كنيسة يوحنا لم تقسم في صلح خالد ولم يقسم غيرها من الكنائس والمنازل والأموال ، فهذا الصلح لم يفرض إلا الجزية . وإيماناً طلب معاوية بن أبي سفيان وطلب عبد الملك بن مروان أن تكون الكنيسة مسجداً بعد أن أصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية ، وبعد أن زاد عدد المسلمين فيها على عدد النصارى ، وبعد أن أصبح الأمر فيها لأمر المؤمنين . فإن يكن النصارى قد أبوا عليهما ما طلبا فتركا الكنيسة لم يمسأها ، فذلك الدليل على التسامح الإسلامي وعلى احترام عهد الصلح مع ما كان من تبدل الأحوال ؛ إذ صارت دمشق عربية إسلامية بعد أن كانت مسيحية رومية ، وبجارية هذا التبدل هي التي طوعت للوليد بن عبد الملك أن يفعل ما فعل . ولهذا التطور رضى النصارى في عهد عمر بن عبد العزيز أن يدعوا الكنيسة مسجداً للمسلمين ، وأن يأخذوا كنائس الفوطة خارج أسوار العاصمة الإسلامية .

ونحن نميل إلى ترجيح هذا الرأي الأخير . وهو على كل حال أكثر الآراء تواتراً ، ورواته هم أكثر الرواة عدداً .

اختلف الرواة في أمر المقاسمة ، لكنهم جميعاً متفقون على أن الصلح فرض على أهل دمشق جزية يدفعونها لقاء منعهم وحرية عقيدتهم وحماية مدينتهم وأموالهم . وكانت هذه الجزية ديناراً وكيلاً معيناً من الخنطة على كل رأس وزيتاً وخلاً لقوت المسلمين . هذا خلا الضرائب التي كان الدمشقيون يدفعونها لحكامهم من الروم ، فقد ظلوا يدفعونها لمن قام على حكمهم من المسلمين .

أبلغ أبو عبيدة عهد الصلح عمر بن الخطاب ، فكتب إليه بتعديله ، وذلك بأن فرّق بين الطبقات في الجزية ؛ إذ جعل على الأغنياء أربعة دنانير عن كل رأس ، وأربعين درهماً على من دونهم ، وقيل بل جعلهم طبقات على قدر غنى الغنى وإقلال المقل وتوسط المتوسط ، ثم ألزمهم أرزاق المسلمين من الخنطة والزيت من الودك والعسل .

هذا نصاب الجزية في صلح دمشق ، وذلك ما قيل في أمر المقاسمة . وعلى أساس من هذا الصلح العادل بعد حصار طويل استقر المسلمون بعاصمة الشام وجلت عنها حامية هرقل ، وجلى عنها المتعصبون للروم من أهله وكانت سياسة المسلمين في إدارتها هي

السياسة التي رسمها أبو بكر في عهده حين بعث خالد بن الوليد يفتح العراق : تركوا الأهل دمشق ما كان لهم من إدارة مدينتهم ، وأقاموا الأمر فيها على الأساس الذي صورده خالد في كلمته لبعض أهل العراق : « إن كنتم عرباً فماذا تنقمون من العرب ! وإن كنتم عجماً فماذا تنقمون من الإنصاف والعدل ! » . فلما اطمأن المقام للمسلمين بالمدينة الجميلة بدءوا يفكرون في الواجب عليهم لدينهم ووطنهم .

كان طبيعياً أن يتجه أبو عبيدة بادية ذي بدء إلى التفكير فيمن خلف وراءه من جنود المسلمين عند فِخْل بالأردن ، وفيما يجب عليه بعد أن يتغلب على قوات الروم هناك . على أن كتاب عمر إليه بتعديل نصاب الجزية تناول أموراً لم يكن له بدٌّ من المسارعة إلى تنفيذها وفي مقدمة هذه الأمور ردّ القوات التي فصل بها خالد بن الوليد إلى العراق على أن يظل خالد بالشام . فقد كان مما أوصى به أبو بكر عمر حين استخلفه أن قال له : « إذا فتح الله على أمراء الشام فأررد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهل وولاء أمره وحده ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » . وها قد فتح الله دمشق على أبي عبيدة ثم إن المسلمين بالعراق يلاقون في قتال الفرس الشدائد ، فهم أشد ما يكونون حاجة إلى المدد . والقوة التي فصلت من العراق إلى الشام مدد لا يستهان به ؛ ففيها من الأبطال الصفايد من عركوا الحرب وعركتهم ، ومن كان لهم في كل المواقع التي حضروها بلاء مشهود لذلك أمر أبو عبيدة هاشم بن عتبة على جند العراق وجعل معه القعقاع بن عمرو وأضرابه من أولى البجدة والبأس ، وعوضهم عن استشهدوا في وقائع الشام جنداً يعبد الجند الذي جاء من العراق عدداً وقوة ، وخرجوا جميعاً يقصدون المثنى وعسكره بذي قار على تخوم البادية ، متخذين طريق القوافل المعبد ، بعيدين عن الطريق الذي غامر بهم خالد فيها حين جاء إلى الشام لينسى الروم وساوس الشيطان . ولم يدرب خاطر هاشم بن عتبة وقواده وجنوده أثناء مسيرتهم خلال الصحراء أنهم يتقدمون إلى العراق ليقفوامع المسلمين بإمرة سعد بن أبي وقاص ، فيواجهوا الفرس في الموقعة الحاسمة التي فتحت الطريق إلى المدائن وإلى قلب فارس : موقعة القادسية .

فلندعهم الآن في مسيرتهم ، ولنصحب أبا عبيدة وأصحابه في الشام . وسنعود عما قليل

إليهم نشهد معهم هذه للوقعة الفاصلة التي قضت على جيش كسرى وأدالت دولته وفتحت صحفاً في التاريخ جديدة مجيدة^(١).

اطمأن أبو عبيدة إلى مقام المسلمين بدمشق، فأبجه إلى التفكير فيمن خلفهم وراءه من جنود المسلمين عند فحل بالأردن ولقد دفعت حاسة الظفر جماعة من أصحابه، فأشاروا عليه أن يسير من دمشق إلى حمص ليفتحها. فقد كان هرقل متيهاها أثناء حصار دمشق، فلما رأى قواته لا تستطيع الوصول إلى عاصمة الشام للذود عنها جلا عن حمص إلى أنطاكية فلما أن أبا عبيدة سار إلى حمص ففتحها لجلا هرقل عن أنطاكية إلى الأناضول أو إلى القسطنطينية، فإذا فعل انهذت عزائم جنوده في أنحاء الشام جميعاً فالتوا بأيديهم لا يقاومون ولا يقاثلون. لكن أبا عبيدة خالف هذه المشورة، وما كان له أن يقبلها وقد أمره عمر ألا يتقدم ما بقي وراءه من الروم جند يهددون رجعه، أو يستطيعون أن يقطعوا ساقته. وقد استقر من جند الروم عند فحل إلى الجنوب من بحيرة طبرية من نجوا من الإرموك، ثم أيدهم هرقل بقوات جديدة. وكانت هذه القوات لا تزال في فزعها من هزيمة الإرموك حين سار أبو الأعور السلمي في جند المسلمين ليقاثلها، لذلك أطلقت مياه البحيرة والنهر في الأرض التي حولها فتوحلت، فعاقت جيش المسلمين عن التقدم. لكن الروم لم يستطيعوا هم كذلك أن يتقدموا ولم يجزهم لذلك مدد هرقل نفعا. وبقيت الأرض متوحلة طول الشتاء وطيلة حصار دمشق، وبقي الروم محصورين وراء فحل في وادي ييسان. فلما سلمت دمشق وكان الصيف قد أقبل، وبدأت الأرض تجف، ترك أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على قوة من فرسان اليمن بدمشق، وتقدم معه خالد بن الوليد وقوات الجيش مجتمعة، فبلغ فحل ووادي ييسان حين بدأ جفاف الأرض يسمح للجيش بالالتقاء والقتال.

وكان أبو بكر قد جعل إمارة الأردن لشرحبيل بن حسنة، كما جعل حمص لأبي عبيدة، والبلقاء ليزيد بن أبي سفيان، والعربات لعمر بن العاص، وجعل القيادة العملية لمن

(١) يرجح بعض المؤرخين أن هاشم بن عتبة فصل إلى العراق بعد غزوة فحل. ويعتمد بعضهم في تأييد هذه الرواية على تاريخ الوقائع في العراق وفي الشام. وتحديد هذه التواريخ تحديداً دقيقاً متعذر جداً لشدة اختلاف المؤرخين عليه.

يقع القتال في إمارته . ولم يعدل عمر عن هذا الأمر ؛ لذلك تولى شرحبيل القيادة على جيوش المسلمين المقيمين عند خُل ، من أقام منها بإمرة أبي الأعور السلمي من قبل أن تُحصَر دمشق ، من جاء منها بعد حصار دمشق بقيادة أبي عبيدة .

وبعث شرحبيل أبا الأعور في لوائه إلى طبرية نخاصرها ، وجعل خالد بن الوليد على مقدمة الجيش ، وأبا عبيدة وعمر بن العاص على مجنبيه ، وضرار بن الأزور على الفرسان . وسارت هذه القوات جميعاً فعبرت اليرموك عند أم قيس على مقربة من مصبه بالأردن ، ثم تخطت وادي الغور ، حتى إذا بلغت خُل عسكرت بها فوقفت قبالة الروم ببيسان . ولما لم تستطع أن تتخطى الأرض المستوحلة إليهم تشاور الأسراء ، فكتبوا إلى عمر بموقفهم وأقاموا ينتظرون جوابه . ولم تكن قلة المؤونة تُعجلهم إلى الترحيل عن موقفهم ؛ فقد أصابوا من ريفة أفضل مما أصاب الروم ، إذ كان الخصب من حولهم يجعل مادتهم متصلة وعيشهم رغداً . وكان الروم بإزائهم يقفون في ثمانين ألفاً أشد ما يكونون حرصاً على أن يظفروا بأولئك الذين قضوا على قواتهم باليرموك وفتحوا عليهم دمشق .

ولما طال وقوف المسلمين عند خُل خيّل إلى سقلار بن مخراق قائد هرقل على قواته العظيمة أن الخير في أن يأخذ عدوه على غرة منه فيوقع به ويقضى عليه . وتخبرت له طلائعه ، خلال الأرض المحيطة به ، مكاناً تسير منه قواته . فلما أقبل الليل تخطى بجنده هذا المكان ولا يخامر الرعب في أن المسلمين قد أمنوه فهم في غير عُدّة لقتال ، وأنهم لذلك ستضطرب سفوفهم لأول صدمة من صدماته . لكنه قدّر فأخطأ ؛ فقد كان المسلمون على حذر لا يأمنون بحجى الروم ، وكان شرحبيل لذلك لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة . لذلك تلقى سقلار وجنوده فقاتلهم أشد قتال وأمرّة . واستبسل الروم مستقتلين ، فطالت المعركة الليل كله واستمرت اليوم الذي يليه إلى الليل . وكان لخالد ابن الوليد ولضرار بن الأزور يومئذ مواقف ذكّرت المسلمين بفعالها فيما سبقها من الغزوات والوقائع . فلما أظلم الليل خارت قوى الروم ، فاضطربت صفوفهم ، فانهزموا وهم حيارى بعد ما أصيب سقلار ومن يليه من قواده .

أما لهذه القوات المهزومة من ملجأ تفر إليه أو خط دفاع تحتوى به ؟ كلا ! فقد

أسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل فتعذر عليهم السير فيه ، فلحق بهم المسلمون ، وكانوا يحسبونهم على قصد فإذا هم في اضطرابهم لا يطيقون سيراً ولا فراراً ، ولا يستطيعون أن يردوا يد لأمس . وركبهم المسلمون فوخزهم بالرمح وألقوهم في الوحل وقتلهم شرقتلة فأصيب الثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد وكذلك ظفر المسلمون أحسن ظفر وأهناها ، وغنموا ما شاء الله أن يغنموا ، واقتسموا ما أفاء الله عليهم ، واطمأنوا إلى أن الله ناصرهم ، وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين بالمدينة يخبره بظفرهم ، وبأنه سيسير ومعه خالد بن الوليد إلى حمص .

وازداد المسلمون بنصر الله إيماناً حين رأوه جل شأنه يصنع لهم وهم كارهون . كرهوا توخّل الأرض إذا حال بينهم وبين عدوهم ، فكان ما كرهوا عوناً لهم وحصاراً لعدوهم وقضاء آخر الأمر عليه أيما قضاء . أليست هذه آية الله وبرهانه على أنه لا محالة ناصرهم وأنهم سيدبلون من دولة الروم والفرس جميعاً^(١) ؟ .

كان أبو الأعور لا يزال محاصراً طبرية حين فرغ المسلمون من فحل . ونهد شرحبيل ومعه عمرو بن العاص من فحل إلى بيسان فنزل بجنوده يحاصرها . وتحصن أهل بيسان بكل مكان وحاولوا صد المسلمين . وما لهم لا يصدونهم وقد علموا أن خالد بن الوليد وأبا عبيدة عادا إلى دمشق ليسيرا منها إلى حمص ، وأن أبا الأعور لا يزال على حصار طبرية ، وأن قوات المسلمين مقسمة في أماكن مختلفة من الشام ، فالقوات التي بقيت منها لمحاصرتهم ليست مما يتعذر صده الكنههم لم تطل مع ذلك مقاومتهم واضطروا بعد قليل إلى التسليم وقبول صلح كصالح دمشق . ذلك بأن حالهم المعنوية كانت قد هوت إلى منحدر من الضعف بسبب ما أصابهم في اليرموك وفي دمشق وفي فحل . ثم إن أهل الشام لم تبلغ منهم عداوة المسلمين مبلغاً يعاون الروم على المقاومة ؛ فقد حكمهم الروم حكم بأس وقسوة لا يثيرون في النفس حماسة لهذا الحكم أو حرصاً على بقاءه . ومن أهل الشام قبائل كثيرة من العرب والنصارى ، تنازعهم رابطة الجنس ورابطة الدين زمناً ، فهم عرب كالمسلمين ، ونصارى كالروم ؛ فلما رأوا ضعف هرقل وجبن بلاطه وهزائم قواده لم يَأْبَ بعضهم أن يكون

(١) يسمى المؤرخون هذه الموقعة غزاة فحل ، وغزاة بيسان ، وذات الردغة ، أي الوحل .

مع العرب المسلمين وأن يدّاهم على عورات الروم . هذا إلى ما لانصر من لآلاء يبهز الأنظار ويدعو الجماهير للإعجاب بالمنتصر والانضمام إليه .

وبلغ أهل طبرية ما أصاب بيسان وأهلها ، فطلبوا إلى أبي الأعور أن يصلحوا شرحبيل ، فجمعهم به فصالحوه كما صالحه أهل بيسان على صاح دمشق ؛ وذلك أن يشاطروا المسلمين المنازل في المدن وما أحاط بها ، فيدعوا لهم نصفها ، ويجمعوا في النصف الآخر ، وأن يدفعوا جزية ديناراً عن رأس كل سنة ، وكيلا من البر عن كل قدر معين من الأرض . واحتذى أهل أذريعات وعمان وجرش ومآب وبُصر مثالمهم ، وصالحوا المسلمين مثل صلحهم . وكذلك أذغت بلاد الأردن إلى حوران وإلى البادية ، ورضيت سلطان المسلمين الذين أقاموا الجند في المدن ثم تركوا لأهلها إدارة شؤونها ، على أن يتولوا هذه الإدارة بالعدل والنصفة .

* * *

والآن أتتابع أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد في مسيرتهما إلى حمص ، أم نسير مع هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو وجيش العراق لنرى ما فعل الله بالثقي ومن بقي معه من رجاله ، ولنشهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص ؛ وبعبارة أخرى : أتتابع قوات المسلمين في فتح الشام حتى يفتح الله عليهم الشام كلها ، أم ننتقل إلى العراق فنقص أنباءه إلى أن يتم فتحه ؟ جرى بعض المؤرخين على الطريقة الأولى ، وآثر آخرون الطريقة الثانية . وسنتابع نحن الآخرين فننتقل إلى العراق ، لتكون رقعة الدولة الإسلامية تحت نظرنا نتابعها في مجموعها ، ونراها أمام أعيننا تنفرج شيئاً فشيئاً إلى الشرق وإلى الغرب . ذلك أدنى إلى أن نقدر الجهد الذي كان هؤلاء المسلمون الأولون يبذلونه في مواجهة الأسدين فارس والروم في وقت واحد ، أدنى كذلك إلى أن نحيط بسياسة عمر ، وأن نعرف كيف كان يواجه هذه الحوادث الجسام المتلاحقة ، وكيف كان ينهض معها بأعباء الحكم في المدينة وفي شبه الجزيرة جميعاً على نحو يزيد العرب طمأنينة إلى حياتهم ، وحاسة للفتح الذي كان يدور عليهم من خيرات فارس والروم ما لم يدور مثله بنحو اطهرهم في أي عهد من عهود تاريخهم .

على أنه لا بد لنا ، قبل أن ننتقل مع هاشم بن عتبة وأصحابه إلى العراق ، من أن نقف وقفة قصيرة لنذكر هنا ما ذكرنا في سيرة أبي بكر عن اختلاف المؤرخين في التسلسل التاريخي لوقائع الفتح في الشام . فقد رأينا من حوادث هذا الفصل أن أبا بكر قبض والمسلمون على اليرموك ، وأن المسلمين انتصروا باليرموك في عهد عمر ، وذلك يوم أقبل البريد إلى الشام ب وفاة أبي بكر وعزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيش وبإسنادها إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وأنهم ساروا بعد ذلك بأمر عمر إلى دمشق فحاصروها وفتحوها ، ثم عادوا بعد صلح دمشق إلى الأردن فطهروه وصالحوا أهله على صلح أهل دمشق . وهذه رواية الطبري وابن خلدون وابن الأثير وابن كثير ومن أخذ أخذهم . أما الأزدى والوافدى والبلاذرى فيخالفون الطبري في هذا الترتيب لوقائع الفتح في الشام ، ويدكرون أن أجنادين ودمشق وغيرها من الوقائع كانت قبل اليرموك . ويذهب بعضهم إلى أن اليرموك كانت آخر الغزوات بالشام . ومن العسير أن نقطع برأى حاسم في هذا الاختلاف . والطبري نفسه يذكر هذا الاختلاف ولا يقطع فيه برأى ، فيقول : « قال محمد بن إسحاق : كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة من رجب ، وكانت وقعة فخل قبل دمشق ، وإنما صار إلى دمشق رافضة فخل واتبعهم المسلمون إليها . وزعم أن وقعة فخل كانت سنة ثلاث عشرة في ذى القعدة . وأما الواقدي فإنه زعم أن فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة ، وزعم أن وقعة اليرموك كانت في سنة خمس عشرة ، وزعم أن هرقل جلا في هذه السنة بعد وقعة اليرموك في شعبان من أنطاكية إلى قسطنطينية ، وأنه لم يكن بعد اليرموك وقعة » .

لا غناء في الوقوف عند هذا الاختلاف ما دام القطع فيه برأى غير ميسور . وقد أخذنا في هذا الفصل برواية الطبري ومن أخذ مأخذه ، فلنجر عليها . ولن يجنى ذلك في شيء على ما نريده من التاريخ للإمبراطورية الإسلامية في عهد عمر . فسواء تقدم فتح دمشق على اليرموك أو تأخر عنه فوقائع الفتح متفق على جملتها وإن وقع الخلاف على تاريخها وعلى بعض تفاصيلها . ورواية الطبري عن سيف بن عمرو عن روى عنه أن اليرموك كانت في رجب من سنة ثلاث عشرة (سبتمبر سنة ٦٣٤) ، وأن دمشق حوصرت في شوال من تلك السنة ، وفتحت في أوائل السنة التي تليها (بين ديسمبر سنة ٦٣٤

وأوائل الربيع من سنة ٦٣٥) ، وأن فحل وقعت بعد دمشق في صيف سنة ٦٣٥ ، ثم تلتها سائر مدن الأردن .

سار أبو عبيدة و خالد بن الوليد بعد فحل إلى حمص ، وسار هاشم بن عتبة عائداً إلى العراق . فلندع خالداً وأبا عبيدة ، ولنسر مع جيش العراق للنشهد القادسيّة ، هذه الغزوة الفاصلة التي فتحت أمام المسلمين أبواب المدائن ، والتي تُعدّ في رأى المؤرخين جميعاً إحدى الغزوات الحاسمة التي وجهت تاريخ العالم وجهة جديدة .

الفصل الثامن

القادسية

قضت جيوش المسلمين على قوات الروم بفِخْلٍ ، فانصرف أبو عبيدة وخالد يريدان حصص ، في حين سار هاشم بن عتبة والقمقاع بن عمرو على رأس جيش العراق مدداً لقوات المسلمين فيه . وسار سعد بن أبي وقاص من المدينة مثل مسيرتهما من الشام على رأس جيش يزيد عِدته على ثلاثين ألفاً وجهه عمر ليقضى على سلطان الفرس في العراق كله . وكانت إمارة سعد على هذا الجيش نتيجة مشاوره طويلة ؛ ذلك أن المثنى بعث إلى عمر بعد غزوة البُوَيْب يذكر له اجتماع الفرس وتمليكهم يزدجرد بن شهريار بن كسرى وإرساله الجيوش أثر الجيوش لقتال العرب ، وما أدى ذلك إليه من ثورة أهل السود بالمسلمين ، واضطرابهم لإيامهم للانسحاب إلى ذى قار على تخوم شبه الجزيرة . عند ذلك كتب عمر إلى عماله على الكُور والقبائل في بلاد العرب كلها يقول لهم : « لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى . والمجل العجل ! ! » . وقال : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! » . فلما اجتمع له من الجند بضعة آلاف خرج بهم حتى نزل على ماء يدعي صِراراً فسكر به ، ولا يدرى الناس أيسير بنفسه على رأس هذا الجيش إلى العراق ، أم يقيم بالمدينة ويؤمر على الجيش رجلاً غيره . وسأله عثمان بن عفان في ذلك ، فدعا الناس للصلاة ، فلما اجتمعوا سألم رأيتهم فيمن يسير على رأس الجيش إلى العراق . قال العامة : سِيرَ وسِرَ بنا معك : ودخل عمر في رأيهم وكره أن يدعهم إلا أن يخرجوا من هذا الرأي في رفق . ثم إنه دعا أصحاب المشورة فاجتمعوا إليه ، فقال لهم : احضروني الرأي فإنى حائر . وتراذوا القول بينهم ، ثم أجمع ملؤهم على أن يبعث أمير المؤمنين رجلاً من أصحاب رسول الله على رأس الجيش ويبقى هو بالمدينة يمد هذا الرجل بالجنود ، « فإن كان الذي يشتهي من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، وإلا ندب جنداً آخر يغيظ به العدو حتى يحیی نصر الله » . وكان مما قاله عبد الرحمن بن عوف لعمر في تأييد هذا

الرأى : « أقم وأبعث جنداً . فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد . فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك . وإنك تقتل أو تهزم في أنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون ، وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً » . عند ذلك جمع عمر المسلمين فخطبهم ، وكان مما قاله لهم : « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم . وإنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلاً » .

وسأل عمر خاصته عن بتخيره لإمارة هذا الجيش الذي اجتمع إليه . وإنهم ليعرضون الأسماء فيما بينهم إذ جاء عمر كتاب من سعد بن أبي وقاص ، وكان على بعض صدقات نجد ، يخبره بأنه تخير له ألف فارس ذوى نجدة ورأى . وسمع القوم ما في الكتاب وعمر يسألهم عن يؤمره . عند ذلك أجابوه : قد وجدت الرجل ا قال : فن ؟ قالوا : الأسد في برائه ! سعد بن مالك ! . ووافقهم عمر ، وبعث إلى سعد فقدم عليه من نجد ، فأمره على حرب العراق ، ثم كان أول ما أوصاه به قوله : « يا سعد ، سعد بنى وهيب ! لا يفرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ؛ فإن الله عزل وجل لا يمحو السيء بالسيء . ولكنه يمحو السيء بالحسن ! وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ؛ فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة . فانظر الأمر الذي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر ! » .

وإنما أوصى عمر سعداً بهذه الوصية لما كان لسعد من مكانة بين المسلمين وقربى من رسول الله ؛ فقد كان من بنى زهرة أخوال النبي ، وكان من أسبق قریش إلى الإسلام أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان لذلك يقول : « أسلمت يوم أسلمت وما فرض الله الصلاة » . ويقول : « ما أسلم رجل قبلى إلا رجل أسلم فى اليوم الذى أسلمت فيه . ولقد أتى على يوم وإنى لثلث الإسلام » . وكانت عائشة ابنته تصفه بقولها : « كان أبى رجلاً قصيراً دحداً غليظاً ذا هامة شثن الأصابع أشعر ، وكان يخصب بالسواد » . وكان سعد ذا مال ونعمة ، فكان يرتدى الخنز ويلبس في يده خاتماً من ذهب . وهو لذلك صاحب

حديث الوصية ؛ فقد مرض وهو بمكة في عتفوان شبابه مرضاً أشقى منه على الموت ،
 قتاده رسول الله يوماً فقال له : « يارسول الله ! إن لي مالا كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي ،
 أفأوصي بنتي مالى ؟ » . قال رسول الله : لا . قال سعد : فينصفه ، وأجاب رسول الله : لا
 قال سعد : فالثلث ؟ عند ذلك قال رسول الله : « الثالث ، والثالث كثير . أن تذر
 ورثك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكففون الناس » .

وكان سعد إلى صفاته هذه فارساً شجاعاً وبطلاً مقدماً ، وكان من الرماة المذكورين
 من أصحاب رسول الله . شهد بدرًا وأحُدًا والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وغزوات
 الرسول كلها . وكان في فتح مكة يحمل إحدى رايات المهاجرين الثلاث . وقد ثبت
 يوم أحد مع رسول الله حين ولّى الناس ، ودافع عن رسول الله دفاعاً مجيداً حتى كان
 صلى الله عليه وسلم يقول له : ارم سعد فذاك أبى وأمى ! . هذا إلى أنه أول من رمى سهماً
 في الإسلام حين ذهب في سرية عبيدة بن الحارث إلى ماء بالحجاز بوادي رابغ ، فلقبهم
 جمع من قريش على رأسهم أبو سفيان فانسحبوا من غير قتال إلا هذا السهم الذي رمى
 به سعد . ولذلك كان يقول : « إني لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله » .
 فارس هذه صفاته لا يجب أن يكون الأسد في برائه ، وأن يتفق الناس رأياً واحداً على
 تأميره في الجيش الذاهب للعراق ليواجه موقفاً من أدق المواقف التي واجهت المسلمين فيه .
 خرج سعد من المدينة قاصداً العراق على رأس أربعة آلاف من الجند معهم نسائهم
 وأبنائهم . وكانت القوات تقبل بعد خروجه تتّرى إلى المدينة تلبية لنداء عمر ، فسكان
 يبعثوا في أثر سعد لتفضم إليه . بذلك ازداد جنده عدداً وقوة . وزاد في قوته أن بعثت
 شبه الجزيرة بخيرة رجالها من الأبطال والفرسان والشعراء والخطباء والرؤساء وكان
 ذى رياسة ومكانة . وكان بين هؤلاء عمرو بن معدى كرب الزبيدي وطلحة بن خويلد
 الأسدي والأشعث بن قيس السكندى وغيرهم من الزعماء ، كل على رأس قبيلته . وبلغت
 القوات عشرين ألفاً حين اقترب سعد من زَرُود . أمّا قوات النخبة التي انسحبت إلى
 ذى قار بعد معركة البويب ، وبعد أن تولى يزدجرد أمر فارس ، فكانت ثلاثة آلاف
 انضم إليهم من القبائل المجاورة خمسة آلاف غيرهم . وكانت القوات التي فصلت من الشام

بإمرة هاشم بن عتبة ثمانية آلاف ؛ بذلك بلغ الجيش الذي سار من مختلف الأنحاء ليشهد القادسية ستة وثلاثين ألفاً أو نحوها . وذلك أضخم جيش عبَّأه المسلمون لغزو العراق منذ سار المثنى إلى دلتا النهرين في عهد أبي بكر .

وقد اكتمل جمع هذه القوات كلها ، خلا القوة المقبلة من الشام ، حين بلغ سعد شَرَاف . لكن المثنى لم يكن في جنوده ؛ فقد نغر عليه جرح الجسرفات بعد أن استخلف على الجيش بشير بن الخصاصية . ولم يكن المعنى بن حارثة أخو المثنى في هذه الجنود أيضاً ؛ فقد علم أن قابوس بن قابوس بن المنذر ذهب إلى القادسية بأمر الفرس يدعو العرب إلى الاشتراك مع جنود كسرى في قتال المساهين ، وأنه كاتب بني بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان بن المنذر يكتابهم به لينضموا إلى دعوته . وقد أسرع المعنى من ذى قار إلى بني بكر بن وائل فأفسد على قابوس خطته ، واستبقى قومه بني بكر على ولائهم للمسلمين . ثم رجع إلى ذى قار فاصطحب سلمى زوج أخيه المثنى ، وسار بها حتى أدرك سعداً بشَرَاف حين أزمع الرحيل إلى القادسية .

ودخلت سلمى ودخل المعنى على سعد ، فقص عليه نبأ قابوس وبني بكر بن وائل ، ثم ذكر له وصية المثنى إليه ألا يقا تل عدوّه من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وماؤهم ، وألا يقتحم عليهم في عُقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حَجَرٍ من أرض العرب وأدنى مَدَرَةٍ من أرض العجم . فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن تسكن الأخرى كانوا أعلم بسبيلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يردّ الله الكفرة عليهم فلما سمع سعد رأى المثنى ووصيته إزداد حزنه لموته وترحم عليه ، وأمر المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً . ثم خطب سلمى إلى نفسها فتزوجها وبني بها . وكان مثل هذا الزواج بعض عادات العرب تكريماً لذكرى العظيم المتوفى وإكراماً لأرملته حتى تظل في مثل عزها وكرامتها في حياة زوجها الأول .

كان عمر بن الخطاب بالمدينة على علم بحركات جيش العراق وتنقلاته ؛ فقد كانت أوامره إلى سعد أن يكتب له في كل موقف وأن يتلقى أوامره . وكان سعد قد كتب إليه أول ما نزل شراف وقبل أن يحيثه الخبر بموت المثنى يذكر له أنباءه ويستترشه . فلما

قرأ عمر هذا الكتاب بعث إلى سعد ، فكان رأيہ كراى المثنى فى وصيته ، أمر سعداً بالمبادرة إلى القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية ، وأن يكون بين الحَجَر والمدَر ، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس ، ثم قال له . « ولا يهولنك كثرة عددهم وعددهم فإنهم قوم خَدَعَة مكررة . وإن أتم صبرتم وأحسبتم ونويتم الأمانة رجوت أن تُنصروا عليهم ، ثم لم يجتمع شملهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن كانت الأخرى فارجموا إلى ما وراءكم حتى تصلوا إلى الحَجَر فإنكم عليهم أجراً ، وإنهم عنه أجبن وبه أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويردّ لكم السكرة » . وكان مما ختم به كتابه قوله : « اكتب إلى جميع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنزلون ، وأين يكون منكم عدوكم ، واجعلنى بكاتبك إلى كائى أنظر إليكم ، واجعلنى من أمركم على الجليّة » .

وكان عمر فيما يصدره من أوامره لا تفوته كبيرة ولا صغيرة ؛ فلم يكن يكفيه أن يشجع القواد والجند وأن يهز قلوبهم ، وأن يذكر لهم مفاخرهم ومفاخر قومهم ، ثم لم يكن يكفيه أن يحذّرهم بأس العدو وخداعه ، بل كان يرسم لهم الخطط ، ويذكر لهم موعد الانتقال من مكان إلى مكان ، وكأما كان على علم بهذه الأرض وتقويتها . كان مما جاء فى بعض كتبه إلى سعد قوله : « إذا بلغت القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية ، وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، وهو منزل رغب خصب حصين دونه قناطر وأنهار ممتعة ، فتكون مسالكك على أنقابها ويكون الناس بين الحَجَر والمدَر » . وكتب له باليوم الذى يرتحل فيه من شَرَاف وقال له : « فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهيجانات وعذيب القوادس ، وشرّق بالناس وغرب بهم » . وجاء فى كتاب آخر بعث به إلى سعد قوله : « اكتب إلى أين بلذك جمعهم ؛ ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ؛ فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة على بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى يبنفسكم وبين المدائن صفة كائى أنظر إليها » . وكتب إليه سعد يصف البلدان ويصور له موقع القادسية بين التتيق ، أحد فروع الفرات ، وخندق سابور ، ويذكر له سهل القادسية الأخضر الممتد إلى الحيرة بين طريقين يطلع أحدهما بمن سلكه على ما بين الخورنق

والخيرة ويسير الآخر إلى الوجبة في فيض من المياه ، ثم يذكر له أن أهل السواد الذين كانوا قد صالحوا المسلمين قد انتقضوا عليهم وانضموا عوناً لأهل فارس . وردَّ عمر على هذا الكتاب يقول : « قد جاءني كتابك وفهمته ، فأقم بمكانك حتى ينقض الله لك عدوك . واعلم أن لها ما بعدها . فإن منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله . وإنه قد ألقى في روعي أنكم ستهزمونهم ، فلا تشكَّن في ذلك » . وجعل يدعو لسعد خاصة وله وللمسلمين عامة .

هذه الكتب المتبادلة بين سعد وعمر تشهد باهتمام أمير المؤمنين بأمر العراق ، وتتبعه أنباء الجند فيه بدقة دونها كل دقة ، وحرصه بذلك على أن يكون وكأنه القائد الذي يسير على رأس الجيش ويجهز للمعركة ، فهو يوجهه ويشرف على كل حركة من حركاته . وقد كان ذلك شأنه مع جند المسلمين بالشام ، فكان يكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح بمثل ما كان يكتب به إلى سعد بن أبي وقاص ، وكان يتابع بنظره ، بل بقلبه وكل جوارحه ، مسير هؤلاء القواد ومن يلونهم من الجنود ، وكأنه حاضر معهم ، وسائر في خطاهم ؛ مشفق عليهم من عدوهم ، شريك لهم في سرائرهم وضررائهم ، حريص أشد الحرص على نصرهم . وليبلغ هذا النصر جعل يذبح النداء تلو النداء في أرجاء شبه الجزيرة يدعو إليه كل قادر على القتال فيوجهه إلى العراق أو إلى الشام . ذلك بأنه لم يبق لديه ريب في أنه إن لم يفتح المدائن ويضم إليه العراق كله ، وإن لم يفتح حمص وأنطاكية ويضم إليه الشام كله ، بقيت بلاد العرب يهددها الأسدان فارس والروم . وتهديد بلاد العرب يهدد الدين الناشئ فيها . وحماية هذا الدين وحرية الدعوة إليه فرض عين على كل مسلم ، وعلى أمير المؤمنين قبل كل مسلم . ولا بد لحمايته من تقليص أظافر الأسدين ، ومن القضاء على كل قوة تهدد شبه الجزيرة .

تلقى سعد كتب عمر ، فبدأ سيره من شراف يريد القادسية . على أنه لم يفصل من شراف حتى كان قد عبأ جيشه تعبئة عرفها عمر وأقرها . فأمر أمراء الأجناد ، وعرف العرفاء ، فجعل على كل عشرة عريقاً ، وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة في الإسلام ، وجعل على المقدمة المجتنبين أبطالاً حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان في هذا

الجيش أربعمائة وألف حاربوا مع رسول الله، منهم بضعة وسبعون بدرية، وبضعة عشر وثلاثمائة ممن كانت لهم صحبة في بيعة الرضوان وما بعدها، وثلاثمائة ممن شهدوا الفتح، وسبعائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب. وسار سعد بالناس متمهلاً حتى بلغ العذيب فنزلها وأقام بها زمناً قبل أن يسير إلى القادسية.

وكانت العذيب من مسالح فارس الحصينة ذات البروج المنيعة. ولقد بلغتها طلائع المسلمين في وجه الصبح، فوقفت قبالتها، وجعلت تنظر إليها فإذا رجل يتراءى بكل برج من بروجها. لذلك أمسكوا ولم يتقدموا، حتى إذا أدركهم كشف من الجيش ساروا يريدون اقتحام هذه البروج. فلما دنوا منها رأوا رجلاً يركض نحو القادسية، ورأوا البروج خلاء ليس بها أحد. عند ذلك أيقنوا أن الرجل كان مكيدة، وكان يتراءى بين البروج ليراهم ويعرف قوتهم فينطلق بخبرهم إلى الفرس. ثم وجدوا بالبروج رماحاً ونشاباً وأسفاطاً انتفعوا بها. وقد انطلق في أثر ذلك الفارس زهرة الحوية ليأسره فلم يدركه، فعاد يشارك المسلمين في الحديث عن ثباته ورباطة جأشه.

استقر سعد بالعذيب حين لم يجد بها من الفرس أحداً، ثم جعل يبعث قوات من جنده تغير على ما حولها تنشر الرعب في نفوس الناس وتجيء بالفنائم والأسرى. وقد سارت إحدى هذه الغارات ليل تريد الحيرة، فلما جاوزوا السيليين وقطعوا جسرها في طريقهم إلى عاصمة اللخمين سمعوا جلبة وضوضاء، فأحجموا وأقاموا كيناً حتى يتبينوا. وإنيهم لسلك ذلك إذ جازت بهم خيول تتقدم ابنة مرزبان الحيرة تزف إلى صاحب الصنئين أحد أشراف العجم. فلما جازت الخيل كمين المسلمين حمل هؤلاء على من يحيطون بالعروس ففروا، فأخذوا الأثقال وأخذوا ابنة المرزبان في ثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة من التوابع ومغائم عظيمة القيمة، ثم رجعوا بذلك كله إلى سعد بالعذيب فقسمه بين المسلمين.

تولى أهل العراق الفرع فأنكشوا وسكنت ثورتهم بالمسلمين. واطمأن سعد إلى موقفه بالعذيب فخصن الموقع، وترك به كثيراً من أسرى العرب، ووضع به خيلاً يحمي هذا الحرم، وأمر عليهم غالب بن عبد الله الليثي، ثم سار إلى القادسية فنزل بها بحصن قديس، ونزل زهرة بن الحوية بجبال قنطرة العتيق، ووزع الجند كل فرفة في مكان، وأقام بها

يبعث الغارات تجيء إليه بمؤونة الجيش غنماً وأبقاراً وبراً ودقيقاً وكل ما يحتاج إليه الناس^(١). وأقام سعد بالقادسية شهراً خصب الجيش فيه بما كان يجيء من الطعام في هذه الغارات التي اتسع نطاقها بين الحيرة وكسكر والأنبار. وكتب سعد إلى عمر يخبره بموقفهم، ولعله وصف القادسية أدق الوصف في هذا الكتاب، ويذكر له أن الفرس لم يوجهوا إليهم أحداً ولم يسندوا أحداً إلى قيادة جيش لمحاربتهم فيما يعلمون. لكنه لم يلبث بعد ذلك أن علم من أهل الحيرة أن يزيد جرد وتلى رستم بن الفرخزاد أمر الحرب، وأمر بالسير لمواجهة المسلمين، فكتب إلى عمر كره أخرى بالخبر. فكتب عمر إليه: «لا يكرُّ بك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليهم رجلاً من أهل المنظرة والرأى والجلد يدعونه، فإن الله عاجل دعاءهم نوهيناهم وفلجاً عليهم. واكتب إلى في كل يوم». قد تعجب لتباطؤ الفرس دون مواجهة سعد وجنوده، بعد اجتماعهم على يزيد جرد ومعاونتهم له حتى ينتقم لهم من هزيمة جيوشهم بالبُويب. فقد فصل سعد عن المدينة في أوليات الربيع من تلك السنة، ثم أقام بشرف وبالعذيب أشهراً، وأقام بالقادسية أكثر من شهر قبل أن يعلم بمسيرة عسكر من الفرس لقتاله. فأين كان الفرس؟ وماذا كان يصنع يزيد جرد طيلة هذه الأشهر؟

الواقع أنهم لم يكونوا في غفلة عن الأمر؛ فقد بعث يزيد جرد إلى رستم بن الفرخزاد وقال له: «أنت رجل فارس اليوم؛ وأنا أريد أن أوجهك لقتال العرب». وأجابه رستم: «دعني بالمدائن، فلعل الدولة أن تثبت بي إذا لم أحضر الحرب، فيكون الله قد كفى ونسكون قد أصبنا المكيدة. والرأى في الحرب أنفع من بعض الظفر، والأناة خير من العجلة، وقتال جيش بعد جيش أشد على عدونا. ولن تزال العرب تهاب العجم

(١) يذكر الطبري وغيره من المؤرخين أن عاصم بن عمرو سار في إحدى هذه الغارات إلى ميسان فتحصن أهلها منه بالأجام، فأسر رجلاً واستدله على البقر والغنم، خلف له أنه لا يعلم شيئاً من أمرها، مع أنه كان راعياً، فصاح ثور من داخل الأجمة: كذب والله هانحن أولاء! فدخل عاصم الأجمة فاستاق الثيران كلها. ويضيفون أن الحجاج عرف هذه الرواية في زمانه فكذبها، فأقسم الذين شهدوا الحادث بصحتها فصدقهم. ولا شيء يقتضي تكذيب الرواية إذا ردت إلى العقول. والمقول أن الراعى كذب وأن الثيران بعد ذلك خارت، فاقتم المسلمون الأجمة واستاقوها. ولا تفسير لحوارها عندهم إلا أنها كانت تقول: كذب والله، وهانحن أولاء تمالوا فاستاقونا!

مالم تضرهم بي « ونظر يزدجرد فيما قال رسم وشاور أهل الرأي فيه . فلما بلغه ما فعل العرب وأخذهم ابنة مرزبان الخيرة وغازتهم على بلاد العراق ، أعاد القول على رسم ، وأعاد رسم كلامه وقال : « لقد اضطرني تضيق الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بدءاً لم أتسكلم به . فأنشدك الله في نفسك وملكتك ! دعني أقم بمسكري وأسرح الجالينوس ، فإن تكن لنا فذلك ، وإلا بعثنا غيره ، حتى إذا لم نجد بدءاً ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهنتهم وحسرتناهم ونحن جاثون . فإني لا أزال مرجوياً في أهل فارس مالم أهرم » . فلما اشتدت غارات العرب على السواد من أسفله إلى أعلاه ، وبعث مرزبانته ودهاقينه إلى يزدجرد أنه إن لم ينجدهم نزلوا على أمر المسلمين طائعين أو كارهين ، زال من نفسه كل تردد وأمر رسم فسار إلى ساباط . وعلم سعد بمسيرته فكتب إلى عمر فأجابه بما قدمنا وأمره أن يبعث إلى صاحب الفرس من يماظرونه ويدعونه .

أفراد عمر بكتابه أن يبعث سعد رسله إلى رسم ، أم إلى يزدجرد ؟ وإلى أيهما سار الرسل بالفعل ؟ هنا تختلف الروايات : فيجري بعضها بأن الرسل تحدثوا إلى رسم ، فلما أخفت رسالتهم وقعت القادسية . ويذهب بعضها إلى أن الرسل ذهبوا وفداً إلى يزدجرد بالمداين فأخفقت رسالتهم فكانت القادسية . وتجري رواية ثالثة بأن الرسل ذهبوا إلى رسم ، فلما لم تنجح مهمتهم ذهبوا وفداً إلى يزدجرد فلم يكونوا أكثر توفيقاً في إقناعه ، فعادوا من المداين ليشاركوا إخوانهم المسلمين في غزوة القادسية .

ولعل وفد المسلمين ذهب إلى يزدجرد بالمداين قبل أن يلقى أحداً منه رسم بالقادسية فقد كان رسم لا يزال بساباط على مقربة من المداين كما رأيت ، ولم يكن قد سار منها إلى القادسية ليقف قبالة سعد وجيشه على ضفة الفرات الأخرى . وكان رسم يبطل في مسيرته تنفيذاً للسياسة التي أشار بها على يزدجرد . لذلك اكتفى حين بلغ ساباط بما بعثه مسيرة جيشه من الطمانينة إلى نفوس أهل السواد . ثم بعث إلى أهل الخيرة وإلى غيرهم من أهل المدن المنشرة من أسفل السواد إلى أعلاه بعائهم لتزعزع عقيدتهم في قوة دولتهم ولفزعهم من العرب ، ويعددهم أنه ممزق شمل هؤلاء العرب ، ومُلّق بهم إلى صحارى شبه الجزيرة ؛ فلا تحدثهم أنفسهم بالعودة إلى العراق أبداً .

أما سعد فلم يكن له من تنفيذ أمر عمر بد^٤ . لذلك بعث إلى يزجرد وفداً فيه أهل
الرأى والسياسة والشجاعة ، بينهم النعمان بن مقرن وفُرات بن حَيَّان والأشعث بن قيس
وعمر بن معدى كرب والمغيرة بن شُعْبة والمعتى بن حارثة وغيرهم من أمثالهم ، وأمرهم أن
أن يدعوه إلى الإسلام ، فإن أبي فالجزية ، وإلا فالمناجزة . وبلغ الوفد المدائن ، فعجب أهلها
حين رأوا رجاله عجافاً ، وجعلوا ينظرون إلى أشكالهم ، وإلى أردبتهم على عواتقهم ،
والسَّياط في أيديهم والنعال في أرجلهم ، وإلى خيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ،
ويتساءلون بينهم : كيف يُقدِّم هؤلاء على غزونا ويطعمون في الظفر بنا واقتحام عاصمتنا ؟
واستأذن الوفد على يزجرد ، فاستدعى وزراءه واستشارهم ، ثم أذن للوفد فدخل عليه ،
فقال لهم في كبرياء وعظمة : « ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أتراكم اجتأأتم علينا لئلا
تشاغلنا بأنفسنا ؟ » فأجابه النعمان بن مقرن وذكر له بعث الله رسوله في العرب وما جاء
به من عند الله ، ودعاه إلى الإسلام ، ثم قال له : « فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتموها
فالمنافرة » . وختم كلامه بقوله : « فإن أجبتكم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقناكم
عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم ؛ وشأنكم وبلادكم . وإن أبيتم بالجزية قبلنا
ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم » .

كَبُرَ على يزجرد أن يسمع مثل هذا القول ، ولكنه آثر الحكمة والحلم مقرونين إلى
الحزم فقال : « إنى لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقلَّ عدداً ولا أسوأ ذات بينٍ
منكم ، وقد كنا نؤكل بكم قرى الضواحي ليكشفوناكم ، ولا تغزوكم فارس ولا تطعمون في أن
تقدّموا لهم . فإن كان عددكم كثر فلا يفرّئكم كثرتهم ، وإن كان الجُهدُ دعاكم فرضنا
قوتاً إلى خِصْبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم » .
وسمع الوفد هذه المقالة فسكتوا ، عند ذلك قام المغيرة بن شُعْبة فقال : « أيها الملك ، هؤلاء
رموس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف . وإنما يُكرِّم الأشراف
يُعْظِم حقهم الأشراف . وليس كل ما أرسلوا به قالوه ، ولا كل ما تكلمت به أجاؤك
عنه . فجاؤبني لأكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك لى . فأما ما ذكرت من سوء
الحال فهى على ما وصفت وأشد . . . » ، وذكر له من سوء عيش العرب وإرسال الله

رسوله إليهم على نحو ما قاله النعمان بن مقرن ، ثم قال : « اخْتَرْتُ : إن شئت الجزية ، وإن شئت السيف ، أو تسلّم فتنتجى نفسك » .

لم يطق يزدرج الصبر على ما سمع فقال وقد أخذ منه الغضب : « لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم . لا شيء لكم عندي ! » . ثم أمر من جاء بوقر من تراب فقال : « احمّلوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . إرجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مُرسِلٌ إليه رُسُمتي حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ، ثم أوردته بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ! » .

لم يفزع الوفد لغضب يزدرج ولم تنخاع قلوبهم لوعيده ، بل قام عاصم بن عمر فحمل التراب على عاتقه وهو يقول : « أنا أشرفهم ، أنا سيد هؤلاء » . وسار يحمل التراب فخرج من الإيوان ، إيوان كسرى ، فركب راحلته وانطلق وأصحابه حتى بلغوا القادسية ودخلوا على سعد بخصن قُدَيْك ، وقصّ عاصم بن عمرو ما حدث وكيف حملوا أرض فارس ثم قال : « أبشروا فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم » .

يتفق مؤرخو العرب جميعاً على رواية ما حدث بين يزدرج ووفد سعد ، ولا يقع بينهم خلاف إلا على بعض العبارات التي تبادها الفريقان . ويذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الروايات وُضعت من بعد ، إن لم يكن في جوهرها ، فعلى الأقل في تفاصيلها . ونحن لم نورد هنا من هذه التفاصيل إلا أقلها . ويستشهد المستشرقون على ما يقولونه بأن هؤلاء المؤرخين المسلمين لا يفوتهم في كل مناسبة يتصل فيها وفد من المسلمين بغيرهم من الجوس أو من النصاري أن يجروا على لسان المتكلمين من المسلمين حديث العرب قبل بعث النبي وما كان بينهم من عداوة وبغضاء ، وما كانوا فيه من بؤس وشقاء ، حتى إذا بعث الله رسوله إليهم بالهدى ودين الحق ألّف بين قلوبهم ، وأغناهم من جوع ، وأفاء عليهم من الخير ما لم يعرفه آباؤهم وأجدادهم . ومع أن هؤلاء المسلمين من كانوا يعيشون قبل الإسلام في رخاء ونعمة ، كأهل اليمن وأهل البلاد التي تشاطئ الخليج الفارسي ، لقد نسب المؤرخون مثل هذه الأقوال إلى المسلمين الذين هاجروا في عهد النبي إلى أرض الحبشة ، وذلك حين دعاهم النجاشي وسألهم عن سبب خروجهم على دين قومهم .

وقد نسبوا مثلها إلى المسلمين الذين ذهبوا إلى أرض العراق واتصلوا بأهله في عهد أبي بكر. ثم نسب ما يشبهها إلى خالد بن الوليد حين لقي جرجة القائد الرومي في موقعة اليرموك. وهما هم أولاء ينسبون مثلها إلى الوفد الذي لقي يزدرج. أفلا يدل ذلك على أن هذه الأقوال وُضعت في أزمان متأخرة لغايات سياسية، وأنها أُجريت على السنة المسلمين الأولين دعاية للإسلام من ناحية، وتثبيتاً لسلطان أمير المؤمنين من ناحية أخرى؟

وبضيف المستشرقون، تأييداً لنقدهم، أن المؤرخين المسلمين لا يتورعون عن رواية أمور هي أدنى إلى الخرافة. من ذلك أن يزدرج دعا إليه أولى الرأي ودعا رستم من ساباط، وذكر لهم ما كان بينه وبين وفد المسلمين وقال: إنه استحمق أشرفهم لحمله التراب على رأسه، ولولاء اتقى بغيره. فقال له رستم: إنه ليس بأحق، وليس هو بأشرفهم، وإنما أراد أن يفتدى قومه بنفسه. وتطير رستم لما سمع، وخرج من عند الملك غضباناً كثيراً. ذلك أنه كان منجماً دلته النجوم على أن الذين خرجوا من المدائن بترابها إنما خرجوا معهم بأرض فارس. وليتقى مغبة هذه النبوءة بعث في أثرهم رجلاً وقال: «إن أدرك التراب فردّه تداركنا أمرنا، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا».

ولما لم يدر كههم الرجل ازداد رستم تطيراً، واستهجن رأى الملك وفعله.

لكنه مع ذلك لم يستطع أن يخالف الملك حين أمره أن يسير لمواجهة المسلمين. ذلك أن يزدرج قال له: «لتسيرن أو لأسيرن بنفسى». وسار رستم من ساباط، وبعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً، وخرج هو في ستين ألفاً، وجعل على الميمنة الهرمزان وعلى اليسرة مهران بن بهرام الرازى، ثم إنه كتب إلى أخيه البندوان يقول: «أما بعد فرموا حصونكم واستعدوا وأعدوا، فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم. وقد كان من رأي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تنقلب سعودهم نحوساً». وبعد أن ذكر ما يرى من ذلك في النجوم ختم كتابه بقوله: «ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ويستولون على ما يليها». مع ذلك تابع سيره وكأنما يدفعه القدر كارهاً إلى حتف فارس وحتفه.

يرى المستشرقون هذه الرواية عن حديث النجوم أدنى إلى الخرافة، ويجدون فيها

تأييداً لفضهم رواية المؤرخين المسلمين عما دار بين وفد سعد ويزدجرد. ولا أراى أميل
مياهم وإن كنت لا أتتهم فيه .

فأما أن المسلمين الأولين كانوا يذكرون اعدوهم ما كانوا عليه من فرقة وضعف قبل
الإسلام ، وما صاروا إليه من وحدة وعزة حين اجتمعوا إلى لوائه ، وأنهم كانوا يحدثونهم
عن بعث رسول الله بهذا الدين وعن المبادئ السامية التي جاء بها فكان أتباعها سبب عزتهم
ووحدتهم . أما ذلك كله فلا عجب فيه ولا موجب لابتداعه من بعد لغايات سياسية
أو غير سياسية . فقد كان هذا الدين ثورة على العقائد والنظم السائدة يومئذ في بلاد العرب
وفي فارس والروم ، وكان ثورة عالمية قام صاحب الرسالة ببلغها الناس كافة ويدعوهم
إلى اعتناق مبادئها ، ويلقى على الذين آمنوا به واتبعوه أن يقوموا في هذه الدعوة مقامه .
وقد كتب رسول الله إلى هرقل وإلى كسرى وإلى غيرهما من الملوك والأمراء يبلغهم
رسالة الإسلام ويدعوهم إليه . فليس عجباً أن يحدثوا المسلمون في ذلك حذوه ، وأن يتحدثوا
عن دينهم في كل مكان نزولهم ، وإلى كل شخص اتصل بهم أو اتصلوا به ، بل ذلك كان
الطبيعى يومئذ ، وهو الطبيعى كلما قامت ثورة تدعو إلى مبدأ جديد . كان رجال الثورة
الفرنسية يتحدثون عنها ويدعون مبادئها حينما نزلوا من بقاع الأرض ، وكانوا يذكرون
ما أصاب فرنسا قبلها من اضطهاد وظلم ، وما نالت فرنسا بعدها من سؤدد وعزة مكان
أدت إليهما مبادئها السامية . وكذلك فعل الروس ولا يزالون يفعلون . فليس العجب في
أن يتحدث المسلمون عن دينهم وأن يذكروا سوء حالهم قبله ورفعته مكانهم بعده ، وإنما
يكون العجب ألا يفعلوا ، وكيف المؤمن ألا يدعو الناس إلى ما يؤمن به وهو يعتقد أنه
الحق ، ويعتقد أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ! وكيف لمؤمن يرى في المبادئ التي
يدين بها قوام السعادة الإنسانية ، ثم لا يدعو الناس إليها ، فإذا آمنوا بها كفاه ذلك
منهم وكان أساساً للإخاء الصحيح بينه وبينهم ، وأساساً لخيرتهم ولسعادتهم وسلامهم !
أما القول بأن حديث النجوم أدنى إلى الخرافة ، فذلك مالا أتعرض للخوض فيه ؛
فلست عالماً بالنجوم ، ولست أعرف لذلك مبلغ ما تهدينا إليه من علم بشؤون هذه الأرض
التي نعيش عليها ، وما يقع من الأحداث فيها . على أن كثيرين لا يزالون يؤمنون بها

ويحسبون أن علمها يهديهم إلى ما يغيب عن غيرهم. ومهما يكن من شيء فالثابت أن الفرس في ذلك العهد قد كانوا من أكثر الناس اطمئناناً إلى علم النجوم واهتداءً بها في حياتهم العامة والخاصة ، وأنهم لم يكونوا يرون علمها حديث خرافة . ومن الواجب على المؤرخ ألا يجعل مقياسه في ثبوت الوقائع وعدم ثبوتها مبلغ اتفاقها مع تقديره الذاتي للأمر والآراء ، وإنما يكون مقياسه لصحتها عقائد الناس وآراءهم في الزمن الذي حدثت هذه الوقائع فيه . أما والفرس كانوا يزاولون في ذلك العهد علم النجوم ، فأبلغ الظن أن أمراء الجند منهم كانوا أشد الناس بهذا العلم عناية . والمتواتر على كل حال أن رستم كان عالماً بالنجوم ، وأنه رأى فيها ما يضمنه الغيب لفارس ، وأن طموحه وكبرياه هما اللذان دفعاه ليعتد ما رأى ، وليشارك بوران في حكم بلاده وأن يسير بأمر يزدجرد على رأس الجند للقاء سعد بن أبي وقاص والمسلمين .

بينما كان رستم يسير على رأس مائة وعشرين ألفاً من جنود فارس يريدون القادسية كان سعد يبعث بالغارات إلى النجف والفراض ومنازل القبائل المنتشرة في السواد ، يستاقون منها الدواب والماشية والغلال وشتى ألوان الطعام إلى جند المسلمين . وبلغ رستم الحيرة وكانت قد هادنت المسلمين ، فدعا إليه كبراءها ولا مهمهم على ما صنعوا وهدد دمهم وهم بالانتقام منهم ؛ فقال له حكيمهم : لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا ، وتلومنا على أن ندفع عن أنفسنا . وجاوز رستم الحيرة إلى النجف ، وقدم الجالينوس إلى السيديجين . وإياه بالنجف إذ علم أن خيول المسلمين تُغير على النهرين ، فأرسل إليهم قوة تقاوتهم . وعرف المغيرة نبأ هذه القوة ، فرجع عمرو بن معدى كرب ومن معه أدرأجهم إلى طليحة ابن خويلد الأسدي فإنه أبي أن يرجع معهم ، وقال له أحدهم إذ رأى إياه : «أنت رجل في نفسك غدر ، ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن » ، يشير إلى ما كان من رجال طليحة حين تنبأ وقاتل خالد بن الوليد في غزوة البزخة^(١) . مع ذلك أصر طليحة على إياته أن يرجع معهم ، ومضى حتى دخل عسكر رستم خفية وقتل اثنين من فرسانه وساق جواديهما ثم خرج يعدو به فرسه ، فركب جماعة ومن أصحاب رستم في طلبه فقتل

(١) تفصيل ذلك في الفصل السابع من كتاب (الصدق أبو بكر) .

اثنين منهم وأسر الثالث وقد شارف عسكره . عند ذلك ارتدت طابوه ، ودخل هو على سعد والأسير معه . وقال الأسير حين سأله سعد عن فعال طليحة : « باشرت الحروب منذ أنا غلام ، وسمعت بالأبطال ، فلم أسمع بمثله هذا . إن رجلاً قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوتات ، فلما أدر كنهه قتل الأول وهو يعد بألف فارس ، ثم الثانى وهو نظيره ، ثم أدر كنهه أنا وخلق من بعدى من بعدلى وأنا الثائر بالقتيلين ، فرأيت الموت واستؤسرت » .

وتابع رستم مسيرته حتى بلغ القادسية بعد أن قضى أربعة أشهر مذ فصل من المدائن للقاء عدوه . وإنما تمهل وتباطأ ظناً منه أن يهين العرب إذا لم يجدوا مؤونة تكفيهم ، أو أن يسأموا طول القام فينصرفوا إلى بلادهم . وتمهل كذلك تطييراً من لقاء سعد بعد ما دلته النجوم على سوء مصير فارس . وقد رأيت أنه كان يؤثر البقاء بالمدائن وأن يعي لقتال العرب جيشاً إثر جيش حتى يتضعضع ركنهم وينهد عزمهم . لكن يزدجرد أبى عليه رايه وأمره أن يسير بنفسه ، فتباطأ حتى قضى هذه الأشهر الأربعة فى طريق كان يستطيع قطعها فى أيام معدودات .

بلغ رستم القادسية فى جيش عدته مائة وعشرون ألفاً ، يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلاً بينها فيل سابور الأبيض ، وكانت سائر الفيلة تألفه وتتبعه . لكنه كان يود ، مع حسامة هذه القوة ، أن يصرف العرب عن بلاده دون قتال ، علماً منه أنه إن يهزم دونهم تفتتح لهم أبواب المدائن وأبواب فارس كلها ؛ فهو رجل فارس الذى تشرّب إليه الأعناق من كل صوب ، والقائد البطل القادر ليس فى فارس كلها بطل مثله ، وهو قد تطيّر من النجوم ودلائلها . ثم إنه رأى فى نومه أحلاماً زادت به بدلالة النجوم إيماناً هذا إلى ما أبهى العرب من بطولة لم تثبت لها أعداد فارس وعددها ، ولم تثبت لها الفيلة فى الغزوات المتلاحقة التى بدأت منذ أقدم المئتين دلنا التهرين إلى أن انتصر على الفرس انتصاره العظيم بالبويب . ففى هذه المواقع جميعاً كان العرب دون الفرس عدداً وعدة . وكانوا مع ذلك يلفنون منهم ويركبون أكتافهم ، وينقلون النساء الطائفة بعد انتصارهم . هم إذا قوم كُتب

النصر لهم . فإن هو ردّهم إلى شبه الجزيرة دون قتال أسدى إلى بلاده وإلى مليكه يداً دونها كل نصر .

صفت رستم إذا عسكره قبالة عسكر المسلمين ، وقدّم الفيلة أمامه ، وبدأ بذلك في مظهر من القوة يُدخل إلى النفوس الرعب . ثم إنه بعث إلى سعد ليبعث له رجلاً من عقلاء المسلمين يبين له ما جاء هؤلاء المسلمون فيه . وعبر إليه المغيرة بن شعبة وجلس معه على السرير ، وحدثه عن رسول الله وبعثه بمثل ما حدث أصحابه يزجّرهم بالمدائن ، وقال له : « إن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عليه » ، ثم انتهى من حديثه إلى ما انتهى إليه أصحابه : أن يسلم الفرس أو يؤدّوا الجزية ، فإن أبوا هذا وذاك فالقتال .

وعظم على أصحاب رستم أن يذكر المغيرة الجزية تفرضها العرب على فارس ، فهاجمهم . لكن رستم استعمل المغيرة حتى يُروى في الأمر ، ثم بعث الغداة إلى سعد أن يوفد إليه من يحدثه حديث الصلح . وتكلم رسول سعد بمثل حديث المغيرة ، فعرض عليه رستم ماعرضه يزجّرهم على أصحابه ، أن يفرض للعرب قوتاً إلى خصبهم ، وأن يُكرم وجوههم ، وأن يعودوا إلى بلادهم . فلما أبى سفير المسلمين منه إلا الإسلام أو الجزية أو القتال ، استمهله رستم كرة أخرى ، ثم بعث يطلب سفيراً آخر . وكان المسلمون منذ عهد النبي لا يؤجلون مثل هذه السفارات أكثر من ثلاثة أيام يكون بعدها الصلح أو تكون بعدها الحرب . فلما أصر المسلمون على موقفهم : الإسلام أو الجزية أو القتال ، لم يبق من الحرب مفرّ .

ترى هل بلغ من تطير رستم وإشفاقه من مصير القتال أنه كان يريد الصلح بأي ثمن ؟ تذهب بعض الروايات هذا المذهب ، ويذكر بعض المؤرخين أن رستم مالت نفسه إلى الإسلام لولا أن ردّه أصحابه عنه . وهذا رأى مرجوح يدفعه ما ستره من بأس الفرس في اليومين الأولين من وقعة القادسية . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن رستم أراد بمطالبة المسلمين أن يوقع الخلاف بينهم في الرأي ، فإذا اختلفوا بعد الذي رأوا من قوة هذا الجيش الزاحف إليهم زادهم اختلافهم ضعفاً وعجزاً عن مقاومة القائد القادر وجنوده .

وأما الرأيين صح ، فقد بقي المسلمون لا يتغير رأى واحد منهم عن رأى صاحبه ، ولا يرضى أحد منهم دون الإسلام أو الجزية إلا بالقتال . عند ذلك بعث رستم إلى سعد يقول له : إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم . وما كان لسعد أن يعبر النهر ومثل غزوة الجسر حاضر أمام ذهنه . وما كان له أن يدع رستم يعبر إليه وينظم صفوفه لقتاله . لذلك بقي مكانه مطمئناً إلى موقفه يحميه النهر من أمامه ، وخندق سابور عن يمينه ، والصحراء المترامية وراء ظهره .

ما كان لسعد أن يعبر النهر ، وما كان لرستم أن يقف جامداً مكانه ؛ فقد تضعضعت هيبة الدولة وضعف سلطان المدائن في نفوس أهل العراق من فرس وعرب . فإذا لم يضرب رستم في القادسية ضربته ، أوشك هذا السلطان أن ينهار ، وأوشكت هذه الهيبة أن تزول . هذا إلى أن جنود يزدجرد كانوا يتحرقون للقاء المسلمين يريدون أن يزيلوا مالحق إخوانهم قبل ذلك من خزي وعار . لذلك لم يكن لرستم بدٌّ من أن يعبر النهر وأن يلقي عدوه . وإذا أبى سعد عليهم أن يعبروا العتيق على القنطرة وقال لهم : لا نردّ عليكم شيئاً غلبناكم عليه ، فقد تمهل رستم حتى جنّ الليل ، ثم أمر رجاله فطمّوا العتيق بالتراب والقصب وبكل ما كان لديهم مما لا حاجة لهم به في الحرب . وعلى هذا الجسر عبر جيش الفرس ، ثم جعل رستم الفيلة في القلب والمجندبتين عليها الصناديق والرجال ، وجعل جنوده من ورائها ، وضرب لنفسه قبة نصب فيها سريرته الفخيم المسكّفت بالذهب . بذلك وقف الجيشان متأهبين للقتال ينتظران بدءاً بين ساعة وساعة ، وهما يعلمان أنهما مقبلان على معركة حاسمة ليس بعدها إلا أن يندحر الفرس فيفتح أمام العرب طريق المدائن ، أو يندحر العرب فيعودوا إلى صحارى شبه الجزيرة ، وليس يعلم إلا الله أيستطيعون بعده أن يعودوا إلى العراق كرة أخرى . معركة ذلك شأنها كان يزدجرد حريصاً على أن يعرف أنباءها ساعة فساعة ، بل لحظة فلحظة ، حتى كأنه حاضرها . وقد كان ، على النقيض من رستم ، واثقاً بحسن مصيرها . أليس شاباً ، والشباب لا يعرف اليأس ولا يتصور الفشل والهزيمة ! أو لم تجتمع فارس حوله كما لم تجتمع حول أحد سبقه على العرش ، وقد عقدت العزم على أن تنتصر ! هي لا ريب ستنصر إذاً . لذلك اشتد حرصه على أن يتابع أطوار المعركة التي تنصُرُها .

ولذلك وضع الرجال من المدائن إلى القادسيّة ، يُلقى أدناهم من المعركة بأنبائها إلى من بعده فيلقها هذا إلى من يليه ، وهكذا حتى تبلغ المدائن ؛ بذلك تطير الأنباء نبأ بعد نبأ إلى مسامعه ، فيتلقاها وهو أشد ما يكون ثقة بأن يأتيه النبأ الأخير منها بانتصار رجاله الحاسم . ولعل أول نبأ سمعه قد زاده استبشاراً بالخاتمة التي يؤمن بها . ذلك أن سعد بن أبي وقاص عاوده أول المعركة مرض كان يتردد عليه جعله لا يستطيع أن يركب أو يجلس فهو مكبٌّ على وجهه في صدره وسادةٌ يعتمدُ عليها ويشرف على الناس من القصر يرى بالرقاع فيها أمره ونهيه . ذلك المرض كان عِرْقُ النِّسَاءِ ودما مل جعلت هذا الفارس البطل ذا الفعال الجيدة يعجز عن كل حركة يوجبها مكانه من جيش المسلمين في هذا الوقت الرهيب . وزاد يزدجرد استبشاراً ما ألقى إليه من ترّم بعض المسلمين بسعد وتندّرهم بمرضه ، حتى ليقول قائلهم :

فقاتل حتى أنزل الله نصره وسعدٌ بباب القادسية مُعَصِمٌ
فأبنا وقد آمت نساء كثيرةٌ ونسوة سعد ليس فيهن أئيمٌ

وبلغ سعداً ما يتندر به الناس وأن طائفة من وجوه القوم تهّمه وتشغب عليه وترميه بالخور وضعف العزم ، فحز ذلك في نفسه وأثار غضبه ، فقال لمن حوله : اخلونى وأشرفوا على الناس . وارتقى به من حوله ، ورأى الجند ما به من الوجع فعذروه . لكن ذلك لم يَكْفِهِ ، بل شتم الذين شغبوا عليه وهم بهم وقال لهم : « أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم جعلتكم نكالا لغيركم . والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت به سُنَّةٌ يؤخذ بها من بعدى » وأمر برجال بينهم أبو حُجَّجَ الثَّقَفِي فحبسهم وقيدهم في القصر . إزاء هذا الحزم لم يكتف القوم بأن يعذروا سعداً ، بل أعلنوا ولاءهم وطاعتهم . فكان مما قاله جرير بن عبد الله البجليّ : « أما إني بايعت رسول الله على أني أسمع وأطيع لمن ولاء الله الأمر وإن كان عبداً حبشياً » . وسرى مثل هذا الروح في نفوس الجند ، فسكنت بواذر الفتنة وانطفأت نارها .

عند ذلك كتب سعد إلى الرايات يقول : « إني قد استخلفت عليكم خالد بن عُرْقُطَةَ ، وليس بمعنى أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني ، إني مكبٌّ على وجهي وشخصي

لكم باد . فاسمعوا له وأطيعوا ؛ فإنه إنما يأمركم بأمري » . وقرئ هذا الكتاب على الناس فأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع .

وخطب سعد وهو على حاله تلك من يليه من الجند ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن الله هو الحق لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خُلف . قال الله جلّ ثناؤه : (وَأَقْدَمُ كِتَابًا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) » إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبونهاهم وتسبونهاهم إلى هذا اليوم بما نال أصحاب الأيام منكم وقد جاءكم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وخيار كل قبيلة وعِزٌّ مَنْ وراءكم . فإن تزهّدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله . وإن تفشّلوا وتسهّنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم » .

ورأى عاصم بن عمرو ما بسعد من الوجع ، فزاده ذلك تأثراً بما سمع من كلامه ، فقام في الناس فقال : « هذه بلاد قد أحلّ الله لكم أهلها ، وأنتم تفالون منهم منذ ثلاث سنين مالا يفالون منكم . وأنتم الأعلون والله معكم . إن صبرتم وصدقتهموم الضرب والطعن . فلكم أموالهم ونساؤهم وأبنائهم وبلادهم . وإن خرتهم وفشلتهم ، والله لكم من ذلك جاز . وحافظ ، لم يبق هذا الجمع منكم باقية مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك . الله ! الله ! اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها . ألا ترون أن الأرض وراءكم بسايس قفار ليس فيها سحر ولا وزر يُعقل إليه ولا يمتنع به ! اجعلوا همكم الآخرة » .

ودعا سعد إليه جماعة من الذين انتهى إليهم رأى الناس وانتهت إليهم نجاتهم وعظم فيهم شرفهم ، وكان منهم من أولى الرأى المغيرة بن شعبة وعاصم بن عمرو ، ومن أهل النجدة طليحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب ، ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وعبد بن الطبيب ، ومن سائر الطوائف أمثالهم : وقال لهم : « انطلقوا فقوموا في الناس بما يحقّ عليكم ، ويحقّ عليهم . عند مواطن البأس ؛ فأنتم من العرب بالمكان الذي أنتم به . أنتم شعراء العرب وخطباءهم وذوو رأيهم ونجاتهم ، وأنتم ساداتهم . فسيروا في الناس فذكروهم وحرّضوهم على القتال » .

وانطلق هؤلاء جميعاً يخطبون ويقولون الشعر ويعدون الناس النصر في عبارات تهزّ المشاعر والقلوب . قال الهذيل الأسديّ لقومه : « يا معاشر معدّ ! اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأسود الأجم ، وتربّدوا لهم تربّد النور ، وادّرعوا العجاج . وثقوا بالله وعضّوا الأبصار ، فإذا كَلَّت السيوف فأرسلوا عليهم الجنادل فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » . وقال عاصم بن عمرو : « يا معاشر العرب ! إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العجم . وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكوننّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم . لا تحدّثوا اليوم أمراً تكونون به شيئاً على العرب غداً » . وقام كلٌّ بنحو هذا الكلام وخطب كل أمير أصحابه ، فتحاضوا على الطاعة والصبر ، وتماهدوا وتواصّوا بالنصر أو الموت دونه .

ورأى رستم تجهز العرب ، فثارت في نفسه الحمية لوطنه ، فأنسته طيرته وأنسته دلالات الدجوم ، وأعادته الجندی المثلّ الذي عرفته فارس بطلها الأكبر . لذلك لم يلبث ، حين عبر جنده النهر واصطفوا صف القتال ، أن لبس درعيه ومغفراً وأخذ سلاحه ، وأمر بفرسه فأسرج فركبه وهو يقول : غداً ندقّهم دقاً . وبعث من يحرض الجند على القتال دفاعاً عن وطنهم ودفعاً لهؤلاء العرب الأجلاف الذين خضعوا أجيالاً لفير فارس ، ثم إذا هم اليوم تحدّثهم نفوسهم بقتالها والظفر بها . أيّ عار كهذا العار يجب دفعه ! . وكذلك وقف الجيشان ينتظران أمر الصدام ، وقد أخذت منهما الحاسة كل مأخذ بما يسمعه المسلمون عن جنة الخلد ونعيم الدنيا ، وما يسمعه الفرس عن الوطن وعن ملك كسرى وعظمته .

وكان سعد بن أبي وقاص قد أرسل في الناس : إذا سمعتم الكبير فشدّوا شُوع نعالكم . فإذا كُبرت الثانية فتهيّئوا ، فإذا كُبرت الثالثة فشدّوا النواجز على الأضراس واحلّوا . وأمر من يقرأ سورة الجهاد فقرئت في كل كتيبة ، فهشّت قلوب الناس واطمأنوا إلى ما هم مقبلون عليه . فلما فرغ القراء كبر سعد فكبر الذين يلونه ، ثم كبر الثانية فتهيّأ الناس . فلما كبر الثالثة أنشب أهل النجدات القتال وخرجوا يبارزون أهل فارس . وأقبل أهل فارس عليهم وهم في مثل حماسهم يلبّون نداء من يريدون نزالهم . وكان

غالب بن عبد الله الأسدي في مقدمة من خرجوا يبارزون . خرج وهو يقول :
 قد علمتُ واردةُ المسائح ذاتُ اللبان والبنان الواضح
 أنى سيمامُ البطل المشايح وفارجُ الأمر المهم الفادح
 نخرج إليه هرمز ، وكان من ملوك الباب ، وكان متوجاً ، فأسرّه غالب ، فجاء به
 سعداً ثم رجع إلى المطاردة .

وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول :
 قد علمتُ بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تمشاه الذهب
 أنى امرؤ لا من يعييه السبب مثلى على مثلك يغريه العتب
 وبينما هو يرتجز طارد فارسياً نفر منه ، فلقى فارساً معه بغل فقر الفارس واستاق
 عاصم البغل والرجل ، فإذا الرجل خبّاز الملك ، وإذا في الرجل طعام رستم ، فلما نظر فيه
 سعد نغله الناس ليأكلوه .

وكبر سعد الرابعة فالتقى الجيشان ، فأبلى أبطال من المسلمين بلاء لم يعرف سعدله نظيراً .
 وقد كان هؤلاء الأبطال يقدرّون مآرمتهم به فارس من عدد وعُدّة فزح ذلك من قلوبهم كل
 رحمة . كان عمرو بن معدى كرب يحرض الناس بين الصفين إذا خرج إليه رجل من الأعاجم
 يرى بنشابة فلا تنزل واحدة منها الأرض . ورمى بنشابة أصابت درع عمرو ، فالتفت إليه
 فحمل عليه فاعتنقه فكسر عنقه ، ثم وضع سيفه في حلقه فذبحه ، ثم ألقاه وهو يقول : هكذا
 فاصنعوا بهم ، أنه أخذ سوارى الفارس القتل منطقة وبلق^(١) ديباج كان عليه .

ورأى الفرس بنى بجيلة وعليهم جرير بن عبد الله يصولون ويجولون ، فوجهوا إليهم
 ثلاثة عشر فيلاً حملوا عليهم ، ففرت خيلهم نفاراً وبقي الرجال وتكاد الفيلة تبديهم . ورأى
 سعد ما أصاب بجيلة فأرسل إلى بنى أسد ليدبّوا عنهم ، فخرج طليحة بن خويلد وجماعة
 من قبيلته كل واحد في كتيبة وطليحة يصيح بهم : « يا عشيرته ! لو علم سعد أن أحداً
 أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم . ابتدوهم الشدة ، وأقدموا عليهم إقدام اللبث الحريرة
 فإنما سميت أسداً لتفعلوا فعله . شدّوا ولا تصدّوا ، وكروا ولا تفرّوا ! شدّوا عليهم

(١) اليلق (كهمز) : الفباء : فارسي .

باسم الله ! » فشدوا عليهم فما زالوا يطعنونهم حتى حبسوا الفيلة عنهم . لكن الفيلة عادت لحملت عليهم . فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو يقول : « يامعشر بنى تميم ، أستم أصحاب الإبل والخيول ! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ » قالوا : بلى والله ! ونادى عاصم الرماة ليذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وليستدبروا الفيلة وليقطعوا وُضُنَهَا ، وخرج يحميهم والرحى تدور على أسد . وصنع أصحاب عاصم بالفيلة كما أمرهم ، فاستدبروها وضربوها بالنبل فارتفع عواؤها وألقت ركبانها فقتلوا ، ونفّس عن أسد وعن بجيلة جميعاً بعد أن قُتل من أسد وحدها أكثر من خمسمائة .

كان سعد رابضاً في محبس مرضه بقُدَيْس ينظر إلى هذه المعركة الدائرة الرحي ، ويعجب حيناً بفعل أبطال العرب ، ويفزع حيناً مما تصيب به الفيلة والفرسان رجال بجيلة وأسد ، ويمزّ في نفسه ألا يخوض هذه الحرب الزُّبُون كما خاض من قبل أمثالها . وكانت سَلَمَى بنت حفص زوج المثني بن حارثة ثم زوج سعد من بعده مقيمة إلى جانبه ترى ما يرى ، وتذكر ما كان لزوجها الأول من مواقف في مثل هذه الأيام الكُبر . فلما رأت الفرس يشتدون على أسد ويقتلون منهم صاحات : وامُثْنِيَاهُ ! ولا مُثْنِي للخيول اليوم ! » قالت ذلك عند رجل ضجر مما يرى في أصحابه وفي نفسه . وأثار كلامها سعداً فلطم وجهه وقال : « أين المثني من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحي ! » يعنى أسداً وعاصماً . ولم تطأطأ اللطمة من رأس البدوية الأنوف ، بل حذفت في سعد وقالت : « أغيرة وجُبْنَا ! » وحجل سعد لما صنع فتندى بالفرق جبينه وقال : والله لا يعذرني اليوم أحد إن لم تعذرني وأنت ترين ما بي ! » وعرف الناس ما دار بين سعد وسلي ، فأكبروا البدوية الجرئية ، ولم يبق شاعر إلا اعتدّ بها ، وإن عرفوا سعداً غير جبان ولا ملوم .

مع ما كان من الفعال الجيدة والبلاء العظيم الذي أبلاه المسلمون ، ظل سعد مشفقاً من مصير المعركة لما كان يراه من شدة الفرس وكثرة عددهم وفعال فيكتهم . وانقضى النهار وغربت الشمس والقتال لا يزال حامياً وطيسه . فلما ذهبت هدأة من الليل رجع الجيشان كل إلى مواقفه ، وكلٌّ يحسب للغد حسابه . والمسلمون أشد لهذا الغد حساباً بعد ما نزل بهم في ذلك اليوم الأول من كوارث .

ويطلق المؤرخون على هذا اليوم الأول من أيام القادسية اسم أرماث . وليس يذكر أحد منهم لهذه التسمية سبباً . ويحسب بعض المستشرقين أن أرماث اسم للكان الذي وقع القتال فيه . وليس لهذا الظن مايسوّغه ؛ فقد اتصل القتال بالقادسية ثلاثة أيام وليلة في مكان واحد ، ثم أطلق على كل يوم من هذه الأيام اسم يميزه .

رجع الجيشان مساء يوم أرماث كلٌّ إلى مواقفه . فلما تنفس الصبح شغل العرب وشغل الفرس بدفن القتلى ونقل الجرحى . وقد دفن المسلمون قتلاهم بواد قريب من العذيب ، ونقلوا الجرحى إلى العذيب ليقوم النساء على العناية بهم . أما الفرس فدفنوا القتلى في المؤخرة وحلوا الجرحى إلى الضفة الأخرى من النهر .

وبينا هؤلاء وأولئك في شغل بهذا الأمر كان القعقاع بن عمرو التميمي يسرع السير في ألف من الجند الذين فصلوا من الشام نجدة لجيش العراق تنفيذاً لأمر عمر بن الخطاب إلى أن عبيدة أن يرد جيش العراق إليه بعد أن ينصره الله بدمشق . فلما فتحت دمشق وانتصر المسلمون بفحل ، سار هشام بن عتبة في ستة آلاف مدداً لسعد بن أبي وقاص ، وجعل القعقاع بن عمرو على مقدمته وعجله أمامه كي يدرك سعداً قبل فوات الوقت . والقعقاع هو ذلك البطل المعلم الذي أمده أبو بكر خالد بن الوليد عشية مسيرته إلى العراق ، فلما قال له قوم : أتمدّ رجلاً ارفض عنه جنوده برجل ؟ ! كان جوابه : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا وصدق أبو بكر (فقد سار القعقاع مع خالد في غزو العراق فكان عنده في مثل مكانة المثني بن حارثة ، بل كان أقرب إلى فؤاده وأعظم حظوة عنده . لذلك جعله على الخيرة مكانه حين فصل إلى دومة الجندل مدداً لعياض بن غنم ، ثم اختاره من أمراء جنده حين فصل من العراق إلى الشام . لا عجب وذلك شأنه أن يكون من أجراً العرب على الفرس بالعراق وأعرفهم بأساليب حربهم . ثم لا عجب أن يقدمه هاشم بن عتبة وأن يعجله لغياث سعد والمسلمين ، لجيش فيه مثل القعقاع لا يهزم .

كان القعقاع على مقربة من القادسية فجرّ الغداة من يوم أرماث . وليشدّ مقدّمه عزائم المحاربين في هذه للموقعة الخطيرة قسم رجاله الألف عشر فرق ، وعهد إليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التي سبقتها على مدى البصر ، ثم سار هو على رأس الفرقة الأولى .

وبلغ سعداً وأصحابه بالقادسية قبل استئناف المعركة ، فسلم عليهم وبشرهم بالجنود وإقبالها ، ثم تقدم الصفوف يستفتح القتال بعد أن قال للناس : إصنعوا كما أصنع . فلما كان بين الصفين نادى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه ذو الحجاب وعرفه بنفسه قائلاً : أنا بهمن جاذويه ! عند ذلك صاح القعقاع : يا ثارات أبي عُبَيْدٍ وسَلِيط وأصحاب يوم الجسر ! ولم يطل بين الرجلين الجلال ، فقد انقضَّ القعقاع على ذى الحجاب وأورده حنقه .

ورأى الناس صنيعة ورأوا الجنود المقبلة من الشام ترددوا كأنهم فتنشطوا وكأنهم لم تكن بالأسس مصيبة ، وزادهم نشاطاً أن لم يروا الفيلة بينهم ؛ أفقد تكسَّرت توايتها بالأسس فأصبح الفرس يعالجون إصلاحيها ، فلم يفرغوا من ذلك حتى دارت رحى القتال وحى وطيسه . وكان القعقاع كلما رأى فرقة من فرق جيشه كبر وكبر الناس معه ، فازدادوا بذلك نشاطاً وألقوا في رُوع الفرس أن هذا المدد المقبل عليهم لا آخر له ولا طاقة لجنود رستم بقتاله . وكيف يطيقونه وقد رأوا القعقاع وحده يصرع كل من يلقاه ! صرع ذا الحجاب ، فأراد فارسان معلمان من أبطال فارس الصناديد ، أن يثارا أصحابهما ، فخرجا يبارزان القعقاع فلقبهما ومعه الخارث بن ظبيان بن الخارث فأورداهما حنقاً كحنق ذى الحجاب . ونادى القعقاع في العاس : يامعشر المسلمين ، باثروهم بالسيوف فإنما يُحصَّد الناس بها ، فتواصى الناس وحملوا بسيفهم على الفرس وجعلوا يضربونهم بها حتى المساء .

وكان سعد بن أبي وقاص قد حبس أبا حُجَجَنَ الثقفي وقيده كما قدمنا ، وكان أبو حُجَجَنَ من فرسان العرب المشهود لهم . فلما اشتد القتال وتردد تكبير الناس في أذنه ، صعد يجر أغلاله حتى أتى سعداً يستعفيه ويستقيله ؛ لكن سعداً زجره وردّه . فذهب إلى زوجته سلمى بنت حفص فطلب إليها أن تحلّ قيده وأن تعيره باللقاء فرس سعد ، وأقسم إن سلمه الله أن يرجع فتضع رجله في القيد . قالت سلمى : وما أنا وذاك ! فرجع مكتئباً برسف في القيد ويقول :

كفى حزناً أن ترتدى الخليلُ بالقنا	وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قتت عُناني الحديد وأغلقت	مصاريح دوني قد نصيم الناديا
وقد كنتُ ذا مال كثير وإخوة	فقد تركوني واحداً لأخاليا
ولله عهد لا أخيس بهمه	لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فلما سمعت سلمى شعره رقت له وقالت : إني استخرت الله ورضيت بعهديك ، وأطلقته فافتاد اللقاء وركنها وعليه سلاحه ، وانطلق بين الصفيين يكثر ويركض الفرس إلى اليمين حيناً وإلى اليسرة حيناً آخر ، ويقصف الأعداء بسيفه قصصاً منسكراً ، ولم يعرفه الناس فظنوا أنه بعض أصحاب هاشم بن عتبة . أما سعد بن أبي وقاص فجعل ينظر من القصر ويقول : والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه الباقاء . فلما انقضى اليوم رجع فوضع رجله في القيد . وتحمل سعد فزل فوجد فرسه يعرق ، فسأل في ذلك فروت له سلمى ما حدث ، فرضى عن أبي محجن وأطلقه^(١) .

وانصل القتال يومئذ إلى منتصف الليل والمسلمون يرون فيه الظفر . وقد بلغ من ابتهاجهم على أثره ما تشهد روايات المؤرخين به : ذكروا أن القمعاق وحده قتل يومئذ ثلاثين رجلاً . وقد رفته غيابة القبيلة عن المسلمين فازدادوا إقداماً وازدادوا للفرس توهيناً . ويضيف المؤرخون أن بني عم القمعاق جلّوا إبلاً وبرقعوها . ودفعوها تحمل على الفرس كأنها القبيلة ، فكان أثرها فيهم يومئذ كأثر القبيلة في العرب يوم أرمات ؛ فقد ولّت خيل الفرس نفاراً من منظرها ، فركبتهم قوات المسلمين وأعملوا فيهم السيوف قتلاً وبتراً وبلغت الخماسة من بعض الجند فاندفع خلال صفوف الفرس يريد قتل رستم ، فلما كان على مقربة منه موشكاً أن يضربه بسيفه تعرض له من الفرس من قتله وأخذ رستم من يده . وكذلك تنصّف الليل والمسلمون يراحفون عدوهم يريدون إجلاءه عن مواقعه ، فيصيبون منه ويكثرون القتل فيه ، ويكادون يظفرون به لولا كثرة عددهم وشدة مقاومته . فلما تنصّف

(١) تجرى رواية بأن زبراء أم ولد سعد هي التي أطلقت أبا محجن من قيده وأعارته اللقاء . والبلاذري يرجح ذلك ، وابن كثير لا يذكر سلمى . فأما الطبري وطائفة معه فيذكرون في هذه المناسبة سلمى ، ويصفون أنها سألت أبا محجن : في أي شيء حبسه سعد ، فقال : ما حبسني في حرام أكلته ولا شربته ، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسان يبعثه على شفتي أحياناً فيساء لذلك ثأني . ولذلك حبسني أن قلت .

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروى عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفني في الصلاة فإنني أخاف إذا ماتت أن لا أذوقها

وصالحت سلمى سعداً بعد أغوات فأطلق لها أبا محجن وقال له : اذهب فإنا مؤاخذك بشيء نقوله حتى تفعله . قال : لا جرم والله لا أجيب لسانك إلى صفة قبيح أبداً .

الليل لم يكن للفريقين بدء من أن يرجع كلٌّ إلى عسكريه يعيد تنظيم صفوفه ليعود في الصباح إلى الزحف ابتغاء الظفر .

يطلق المؤرخون على هذا اليوم الثاني من أيام القادسية اسم أغواث . ويحسب بعض المستشرقين أنهم اختاروا له هذا الاسم لأن القمعاع أغاث فيه جيش سعد ممن جاء بهم من الشام . وليس من اليسير إقرار هذا التفسير إلا أن نجد لسائر أيام الغزاة تفسيراً من نوعه وقد رأينا أن يوم أرمات لا يمكن أن يكون له مثل هذا التفسير . أما الليلة التي انقضت بين يوم أرمات ويوم أغواث فيطلق المؤرخون عليها اسم ليلة الهدأة ، كما أنهم يطلقون اسم السواد على الليلة التي تلت يوم أغواث .

بلغ من اغتباط المسلمين بيوم أغواث أن باتوا على إثره ينتمى كل منهم إلى قبيلته . وبلغ من اغتباط سعد به واطمئنانه إلى قوة المسلمين بعده أن قال لبعض من عنده حين عزم النوم : « إن تمَّ الناس على الاتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء على عدوهم . وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء . فإن سمعتم ينتمون فأيقظني فإن اتماء من السوء » .

اطمأن سعد ونام . أما القمعاع بن عمر فبات ليله يسرَّب أصحابه الذين جاءوا معه عن الشام إلى المكان الذي كانوا فيه بالصحراء صبح يوم أغواث . وقد أمرهم إذا طلعت الشمس أن يقبلوا مائة مائة على نحو ما فعلوا في أسهم ، فإن أدركهم هاشم بن عتبة وجاء بمن معه يشارك في المعركة فذاك ، وإلا جددوا للناس رجاء في المدد ، فزادهم هذا الرجاء إقداماً في الحرب وإيماناً بالفوز فيها .

أصبح الناس والجيشان في مواقفهم ، وبين الصفين من القتلى والجرحى ألفان من المسلمين وعشرة آلاف من الفرس . ودفن كل جيش قتلاه ، ونقل الجرحى إلى حيث يُعنى بهم . وكانت نساء المسلمين يُعنَّين بالجرحى وبمرضهم ، ويبدلن من صنوف العناية ما يرفقه عنهم وما ينسيهم ألمهم . بذلك اشتركن في هذه المعركة الحاسمة ، فكان لمن فيها فضل سجله الشعراء وخلدته كتب التاريخ .

ووقف القمعاع في المؤخرة حين طلعت الشمس ينظر إلى ناحية الصحراء ، فلما بدأت

خيله تُقبل كُبر وكُبر الناس معه وقالوا : جاء المدد . وأدرك هاشم بن عتبة وجنوده رجال القعقاع ، فلما عرف ما صنع صاحبه جعل رجاله فِرَقًا ، وأمرهم أن يتلاحقوا دِراكًا ، فلا تسير فرقة حتى تغيب الأخرى عن نظرها . وسار هو على رأس الفرقة الأولى ومعه قيس بن هُبيرة ، فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مصافهم للقتال . فلما رآه الناس ورأوه كُبر ، كُبروا معه . واندفع هاشم إلى القلب حتى بلغ النهر وهو يرمى العدو بأسهمه ، ثم عاد فكرر فعلته ، فلم يجرؤ أحد على مصاولته .

لم يضع المدد الذي جاء المسلمين من عزيمة الفرس ؛ فقد أصلحوا تواييت فيلّتهم واقتحموا بها المعركة منذ طلعت الشمس ، وهم موقنون أنها ستفتك بالمسلمين أكثر مما فتكت بهم يوم أرمات وقد اتخذوا حيطتهم لكي لا يصنع المسلمون بها مثلما صنعوا ذلك اليوم حين قطعوا وُضنها وقلبوا تواييتها وقتلوا رجالها ونحسوها فولّت مدبرة ، فأحاطوها بفرسان يحمونها . وأنست الفيلة إلى هؤلاء الحماة فلم تفتك بهم ، لكنها لم تفتك كذلك بعدوهم . ذلك أن الفيل إذا كان وحده كان أوحش ، فإذا أطاف به أصحابه كان آنس . وقد شد فرسان المسلمين على حماة الفيلة من العجم فكانت المعركة تدور حول الحيوانات الضخمة فتذرهما في حير لا تدرى من تضرب ومن تدع لذا ظل القتال على شدته سجالاً بين الفريقين ؛ يتقدّم العرب فيردّم الفرس ، ويتقدّم الفرس تارة فيردّم العرب ، ثم يزداد الفرس بأساً إذ يقَدّم عليهم من المدائن حرس يزدجرد مدداً ، فلا ينهه ذلك من همة العرب ولا يخفف من في النزال .

على أن الفيلة ما لبثت حين ألِفَت الموقف واشتدت من حولها المعركة أن عادت إلى مثل فتكها يوم أرمات . وراها سعد تفعل الأفاعيل وتفرّق بين السكتائب ، فسأل جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مقاتلتها : فقالوا ، إنها مشافرها وعيونها : فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو يقول : اكفياني الأبيض ، وكان هذا الفيل بإزائهما ، وبعث إلى حمّال والرّبيل ، وكانا من بني أسد ، يقول : اكفياني الفيل الأجرب ، وكان بإزائهما . وكان هذان الفيلان أشد الفيلة ضراوة ، وكانت الفيلة كلها تتبعهما . وترجّل القعقاع وعاصم فوضعا رجليهما في عيني الفيل الأبيض ، فتراجع الحيوان من الألم ونفض رأسه ، وطرح سائسه

ودلى مشفره فضربه القعقاع بسيفه . وحمل حمال والرَّبيل على الفيل الأجرى ففقا إحدى عينيه وضربا مشفره : وصاح الفيلان ، وارتد الفيل الأجرى إلى ناحية صفوف الفرس ففخسوه ، فانقلب إلى صفوف المسلمين فوخزوه ، فجعل يهرول ذهاباً وجيئة بين الصفين وهو يصيح صياح الخنزير ، ثم اندفع فوثب في النهر فاتبعه الفيلة كلها وقد ألقت ركبانها عن ظهورها وتحطت الماء وولت مدبرة ولم تعقب .

هنا اضطرب ميزان المعركة ؛ فقد بدأت كفة الفرس فيها ترجح حين بدأت الفيلة تفرق كتائب المسلمين ، فلما اضطربت الفيلة بين الصفوف وقف الجيشان ينظران إليها يحاولان ردّها واتقاء شرّها ، فلما رأوها تعبر العتيق وتولّهم أديبارها ، قويت عزائم المسلمين ورأوا في فرارها آية من آيات الله لنصرهم على عدوهم . أما الفرس فاعتدّوا بعددهم وبالمدد الذي بعثه يزدجرد إليهم ، فأعادوا تنظيم صفوفهم واستأنفوا القتال بحماسة زارها فرار الفيلة استعاراً . وكذلك التقى الجيشان في صدام آتى صدام ، وظلا يقتتلان حتى أقبل الليل والغبار مخيم ، فلا يعلم سعد ولا يعلم رستم لمن الدائرة وعلى من تدور .

أتى الجنود رجعوا إلى صفوفهم كما فعلوا أول من أمس ! أترام واصلوا القتال جانباً من الليل ثم رجعوا كما فعلوا أمس ؟ لا هذا ولا ذاك ، بل واصل الجيشان القتال وكأنما دار بخواطر الجند من الفرس والعرب جميعاً ألا يضعوا السلاح حتى يحسم بينهم ، وكأنما دار هذا الخاطر بأنفسهم من غير أن يكون لسعد أو لرستم في الأمر رأى . بل لقد حدث الأمر وليس يعرف أحد من المسئول عن حدوثه ؛ فهي الأقدار قضت به ودفعت إليه . وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له ، ولا رادّ لقضائه .

والواقع أن القتال هداً وطيسه حين أقبل الليل . وقدّر سعد أن الجيشين سيقضيانه يتهمياً أن ليوم رابع أشد من أرماث وأغواث وعمّاس فتسكا . لكنه خشى أن يأتيه العدو من محاضة بأسفل العسكر ، فأرسل طليحة وعمراً في جماعة من الجند وقال لهما : « إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بجيالكما ، وإن لم تجداهم علموا بها فأقما حتى يأتيكما أمرى » . ولم يجدا على المحاضة أحداً ، فسوّلت لهما نفساهما أن يخوضاها ، وأن يأتيا الأعاجم من خلفهم . واختلفا كيف يفعلان . أخذ طليحة مكانه وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات

ارتاع لها أهل فارس ، وظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم . وتعجب لسماعها المسلمون وظنوا أن الأعاجم فتكوا برجالهم فهم يكبرون مستغِيثين . وأغار عمرو على جماعة من الفرس أسفل الخاضة ، فلم يبقَ لديهم ريب في غدر العرب . فقدّموا صفوفهم زاحفين . ورأى القعقاع صنيعهم ! فزاحفهم من غير أن يستأذن سعداً . وأطلَّ سعد من مجلسه بقديس وقد بدأ يحسب لزحف الفرس الحساب . فلما رأى القعقاع يزاحفهم قال : اللهم اغفر لها وانصره ، فقد أذنت له وإن لم يستأذني ! وقال لأصحابه إذا كثرت ثلاثاً فاحملوا . لكنه ما لبث حين كبر الأولى أن رأى أسداً تزحف ، والنَّخَع تحمل ، وبجيلة تندفع في الغمار ، وكندة تتقدم . ورأى رحى الحرب تدور حول القعقاع ، فاستغفر الله لهؤلاء جميعاً ودعاه أن ينصرهم . وكبر الثانية والثالثة . فلحق الناس بعضهم بعضاً ، واستقبلوا الفرس بالسيوف وخالطوهم ، فكان للسيوف قعقة وصليل كصوت القيون ، وكان المقاتلون لا يتكلمون بل يصيحون ، وكان القتال يشتد ويحمى وطيسه كلما تقدم الليل . وبات الجيشان يقتتلان أشد قتال وأقساه ، وسعد ورستم قد انقطعت عنهما الأصوات والأنباء فلا يعلمان من أمر ما يدور شيئاً ، ولا يملك سعد في مرضه غير الدعاء يقبل عليه في ضراعة . وابتهال أن ينصر الله جنده . ولم يغمض لسعد ، كما لم يغمض لأحد من الجند تلك الليلة جفن . فلما بدأ الصبح ينبلع عن الأفق نوره جعل المسلمون ينتمون إلى قبائلهم . عند ذلك اطمأن سعد إلى أنهم الأعلىون ، وأنهم آخذون برقاب الفرس أخذاً . وزاده طمأنينة أن سمع القعقاع بن عمرو يرتجز :

نحن قتلنا مَعَشَرًا وزائداً أربعة وخمسة وواحداً
نُحْسَبُ قَوْق اللَّبْدِ الْأَسَوْدَا حَتَّى إِذَا مَاتُوا دَعَوْتُ جَاهِداً
الله ربي واحداً — ترزت عامداً

تنفّس الصبح عن هذه الليلة الدامية الصاخبة ، يسميها المؤرخون ليلة الهرير ، ولما يكن النصر عقد لواءه لأحد الفريقين . أفاحس الجند الجهد بعد أن قضوا أربعاً وعشرين ساعة في قتال أعنف قتال ، فأن لهم أن يريحوا ظهورهم وأن يناموا ؟ كلا ؟ بل سار القعقاع في الناس يقول : « إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم . فاصبروا ساعة واحملوا ؛ فإن النصر

مع الصبر». واجتمع إليه جماعة من الرؤساء ومعهم جنودهم، فصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه. ورأت القبائل صنيع المهاجرين والأنصار، فقام فيهم رؤساؤهم يشيرون إلى هؤلاء المسلمين يقولون: لا يكون هؤلاء أجداً في أمر الله منكم، ويشيرون إلى الفرس ويقولون: ولا هؤلاء أجراً على الموت منكم. وحملت القبائل على من يبايئهم في قتال شديد ظل متصلاً حتى قام قائم الظهيرة. عند ذلك بدأت صفوف الفرس تضطرب: تراجع الفيرزان والهرمزان في المُجَنَّبَتَيْنِ فانفرج القلب. هبت ريح دبور عاصف، فأطارت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق. وزحف القعقاع بمن معه إلى السرير فبلغوه، فإذا رستم قد قام عنه إلى بغال قدِمَتْ عليه ببال. فوقف بجوار أحدها يستظل بحمله. واندفع رجال القعقاع إلى ناحية النهر، وهم لا يعلمون بأمر المال تحمله البغال ولا بأمر رستم واحتمائه بظلمها، فضرب هلال بن علقمة أحدها فقطع حبال الحمل الذي تحته رستم، فوقع عليه أحد العذلين فكسر فقارَه وهلال لا يشعر به. وزحف رستم وألقى بنفسه في النهر، فرآه هلال فعرفه، فاقتحم النهر وراه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله، ثم صعد سريره يصيح: قتلت رستم ورب الكعبة! إلى! إلى!. وأطاف الجند به يكبرون ويهللون. وعرف الأحاجم ما أصاب قائد الفرس الأعظم فأسقط في أيديهم، فوهنت قوتهم وانهد ركبنهم، فقام فيهم الجالينوس يدعوهم إلى عبور النهر على الرِّدَم كما عبر الفيرزان والهرمزان. لكن الردم انهار بهم في النهر المتدافع التيار، ففرق بانهمياره ثلاثون ألف فارساً مقترنين بالسلاسل. وأخذ ضرار بن الخطاب علم الفرس الأكبر — دَرَفَشْكَابِيان — وكانت قيمته ألف ومائتي ألف. وكذلك انهزمت جيوش يزدجرد شر هزيمة، وانطلقت فلهم يولون الأدبار لا يعقبون.

مع ذلك أمر سعد بن جرج القعقاع وشرحبيل يتعقبانهم، ثم اتبعهما زهرة التميمي والناس من ورائه. وأدرك زهرة الجالينوس يجمع المهزمين يقتله. وجعل المسلمون يقتلون من يلونهم من الفرس ويأسرونهم، فلا يلقون منهم أية مقاومة. بل إن بعض الروايات لتذهب إلى أن الجند المسلمين كانوا يأمرسون المهزمين بأن يقتل بعضهم بعضاً فيفعلون. ذلك أن الفرس تحطمت روحهم المعنوية فلم يبق فيهم عصب لمقاومة. لقد رأوا القتل

بصيب من ثبت منهم ، ورأوا قوادهم يفترون ، فألقوا بأيديهم واستسلموا ، فكان الشاب من جند المسلمين يسوق العشرات منهم فيسيرون أمامه مفكسة رؤوسهم وكأنهم قطع من النعم ، لا إرادة لهم ولا رجاء يحركهم إلا الإبقاء على حياة عار ومذلة . أما الذين أنجاهم الفرار ، فتفرقوا وكل واحد منهم يحس أنه أدرك بالفرار كبرى أمانى الحياة .

هذا نصر حاسم أحرزه المسلمون ، فتوجههم نخاراً ، ودفع نساءهم وصبيانهم حين عرفوا أمره أن يندفعوا إلى ميدان المعركة ليشاركوا فيه . روى عن أم كثير امرأة همام ابن الحارث التميمي أنها قالت : « شهدنا القادسية مع أزواجنا . فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى ، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعتنا ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نولّهم ذلك ونصر فهم به » . وكذلك اشترك المسلمون جميعاً ، رجالاً ونساء ، وصبية ، في هذه المعركة العنيفة الفاصلة التي جعلت كلمة الذين آمنوا العليا ، وكان لها من الأثر في قيام الإمبراطورية الإسلامية ما كان لغزوة بدر من الأثر في قيام الإسلام .

ولم يرض المسلمون بثمن ليدركوا هذا النصر المؤزر . لقد رأيت فعالهم الجيدة ، ورأيت من بلاء أبطالهم ما كان القعقاع بن عمرو مثلاً بارزاً فيه . وقد رأيتهم كيف أرخصوا دماءهم وأرواحهم في سبيل النصر لحزاهم الله أحسنين . قُتل منهم في الساعات الثلاثين التي انتهت إلى الظفر ستة آلاف ، وقتل يومى أرمات وأغواث ألفان وخمسمائة . وهذا العدد من القتلى كان مما يفوق تصور العرب لذلك العدد . لكنه لم يكن شيئاً بالقياس إلى من قُتل من القرم في حومة الوغى ، ومن غرق منهم في النهر حين المزيمة ، ومن تردى بعد ذلك قتيلاً حين الفرار .

رجع القعقاع وزهرة وسائر الأمراء والجند فأحاطوا بسعد ، فألقوه خفف النصر بعض علته . وجمع الناس الأسلاب والأموال ، فإذا شيء لا يحيط به خيال عربى . وأرسل سعد إلى هلال بن علقمة فسأله عن رستم وقال له : جردته إلا ما شئت ، فلم يدع هلال على القتيلى شيئاً إلا أخذه ، فبلغ ذلك سبعين ألفاً . ولولا أن قلنسوته سقطت في النهر لضاعف ذلك حظ هلال . وجاء زهرة بن الحوية بسلب الجالينوس ، فاستكثر سعد أن ينفقه إياه كاملاً

فكتب إلى عمر في ذلك فردّ عليه عمر : « تعمد إلى مثل زهرة وقد صليّ بمثل ما صلي به ، وقد بقي عليك من حربك ما بقي ، تفسد قلبه . أمض له سكبّه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة » .

وقسم سعد النية في الناس ، فكان عطاء الفارس ستة آلاف والراجل ألفين ، ثم فضل أهل البلاد فزاد كل واحد منهم خمسمائة . مع ذلك بقي من النية شيء كثير غير الخمس الذي نحمّاه سعد ليبعث به إلى المدينة وكتب سعد إلى عمر بما فعل ، وسأله عما يفعل بما بقي عنده . فكتب إليه عمر : « أن ردّ على المسلمين الخمس ، وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الواقعة^(١) » . ونفذ سعد أمر عمر ، فبقى لديه ما اضطره أن يبعث إلى عمر يسأله ما يفعل به . وأمر عمر أن يوزّع على حملة القرآن . وإنه ليوزّعه عليهم إذ أتاه عمرو ابن معدى كرب وبشر بن ربيعة الخثمي وكانا قد أبليا في الواقعة بلاء ضاعف جزاءهما . وهذا البلاء هو الذي أطعمهما في أن يكون لهما حظ مع حملة القرآن . وسأل سعد عمرو ابن معدى كرب : ما معك من كتاب الله تعالى ؟ قال عمرو : إني أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن . عند ذلك أبي سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيباً . وسأل بشراً عما يحفظ من القرآن ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ! وضحك القوم ولم يفز بشر من هذا المال بنصيب .

أو تحسب الفارسين رضا جواب سعد أو سكتا قانعين ؟ كلا ، بل قال عمرو :

إِذَا قَتَلْنَا وَلَا يَبْكِي لَنَا أَحَدٌ قَالَتْ قُرَيْشُ أَلَا تَلِكِ الْمَقَادِيرُ
نُعْطِي السَّوِيَّةَ مِنْ طَعْنٍ عَلَى نَفَذٍ وَلَا سَوِيَّةَ إِذْ تُعْطَى الدَّنَائِرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أُنَحَّتْ بِيَابَ الْقَادِسِيَةِ نَاقَتِي وَسَعْدُ بْنُ وَقَاصٍ عَلَى أَمِيرٍ
وَسَعْدُ أَمِيرٌ خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ وَخَيْرُ أَمِيرٍ بِالْعِرَاقِ جَرِيرٌ

(١) يذكر الطبري وطائفة من المؤرخين أن القوات التي جاءت من الشام مع هاشم بن عتبة لم تدرك كلها غزوة القادسية . بل وصل بعضها بعد انتصار المسلمين وفرار الفرس . وهؤلاء هم الذين عناهم عمر في كتابه هذا إلى سعد .

تَذَكَّرْ هَذَاكَ اللَّهُ وَقَعَ سِوْفَنَا بِيَابَ قُدَيْسٍ وَالْمَسْكَرُ عَسِيرُ
عَشِيَّةٍ وَذَاقَهُمْ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُعَارِ جَنَاحِي طَائِرٍ فَيَطِيرُ^(١)

وكتب سعد إلى عمر بقصة عمرو وبشر وما قال لها وردّها عليه ، وبعث إليه بأبياتها .
فكتب عمر إليه : أن أعطهما على بلائهما . فأعطى كل واحد منهما ألفي درهم أرضتهما
ولم تُغضب أحداً ؛ فقد عرف الناس جميعاً أنهما ، إلى حسن بلائهما ، أحرص على
المال من غيرهما .

وكذلك انتهت المعركة إلى ما رأيت من نصر حاسم ، حين كان الناس في كل الأرجاء
من شبه الجزيرة يتطلعون ببصائرهم وقلوبهم إلى ناحيتها ، وهم على أحر من الجمر شوقاً
لمعرفة أنباتها . يقول المؤرخون : « كانت العرب ، من العُدَيْب إلى عدن أَيْبَنَ . ومن الأُبَلَّة
إلى بيت المقدس ، يتربصون وقعة القادسية ، يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها . وقد بعث
أهل كل بلدة قاصداً يكشف ما يكون من خبرهم » . وكان عمر بن الخطاب أشد الناس
تطلعا وشوقا لمعرفة ما تنتهي إليه . لذلك كان يخرج كل صباح إلى ظاهر المدينة يسأل
الركبان عن أهل القادسية ، فإذا انتصف النهار رجع إلى أهله ومنزله . وإنه ليسير يوماً
إذ لقيه راكب على ناقه عَرَفَ حين سألَه أنه مقبل من هناك ، فقال له : يا عبد الله حدثني .
قال الرجل : هزم الله للشركين . وجعل عمر يخبّ معه يسأله والراكب يحذثه وهو على ناقته
لا يعرفه . وكان هذا الراكب سعد بن عُمَيْلَةَ الْفَزَارِيِّ رَسُولُ سَعْدِ بْنِ أَلِيٍّ وَقَاصٍ إِلَى
أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وكان يحمل رسالة سعد إلى عمر بالفتح وبعده من أصيب من المسلمين
وأسماء من عُرِفَ منهم . فلما دخل الرجلان المدينة وسلم الناس على عمر بإمرة المؤمنين ،
قال ابن عميلة : هلاً أخبرتني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين ! وأجابه عمر في بساطة : لا بأس
عليك يا أخي ! وتناول منه كتاب سعد وقراه على الناس .

بينما كان عمر يتلو على أهل المدينة كتاب سعد بالفتح ، كان يزدرج بالسدائن

(١) الرواية المذكورة رواية الطبري ومن إليه وهم كثرة للأورخين . والبلاذري لا يروي أيات
عمرو ، ويروي أيات بشر مع ما يرويه مما قاله أبطال القادسية لإشادة بقادهم ، ولذلك يروي البيت
الثاني بالنسبة الآتي :

وسعد أمير شره دون خيره طويل الشدى كابن الزناد قصير

قد كثرته الأنباء ، فأكب يستعيد أقوال رستم وما كان يشير به ، فيتولاه الحزن ويقعد به الهم دون التفكير فيما يستطيع عمله . . . وماذا يستطيع هو ، وماذا تستطيع فارس كلها ؟ لقد انطلق المسلمون في وادي العراق من أعلاه إلى أسفله ، فعاد الناس جميعاً إلى طاعتهم معتذرين عن ولائهم للفرس بأنهم غلبوا على أمرهم . وكان سعد يعذرهم تألفاً لهم وحرصاً على أن تسود الطمأنينة ربوعهم . بل لقد أقبل عليه من قبائل العرب المنتشرة فيما بين النهرين من ذكروا أن إخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام كانوا أوفر منهم عقلاً وأكثر حكمة ، ثم أعلنوا بين يديه إيمانهم بالله ورسوله . ماذا يستطيع يزجج إزاء ذلك كله وقد كانت تبلغه أنباؤه فتزیده همّاً على همه وتدفع اليأس إلى نفسه ، لولا أن أبقت حمية شبابها سراباً من الأمل يلعب أمامه فيخدعه عن الواقع ، ويغريه بالتعلق بعرش حُرّمه صبيّاً ، فلما اعتلاه نزلت قوائمه ، وترعزت أركانه ! . وهيئات لسراب أن يحقق أملاً ، أو يدفع للقضاء حكماً ! .



هذه وقعة القادسية التي فتحت الطريق إلى إيوان كسرى في عاصمة ملكه ، ومهدت للإدالة من دولته والقضاء الأخير على سلطانه . لذلك روى أكثر المؤرخين من تفاصيلها ما روت كتب السيرة من تفاصيل غزوة بدر ، وأضافوا إليها من الخوارق ما لا يحمل على تصديقه إلا ما كان لهذه الغزاة من أثر حاسم في تاريخ العالم . بل لقد أسهب المستشرقون والفرس في روايتها ما أسهب المؤرخون المسلمون . وليس في ذلك من عجب والقادسية أعظم أثراً في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك وناپليون ، بل من كل الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر وكان لها في توجيه الحضارة أبلغ الأثر .

من الحق على المؤرخ ، وذلك شأن القادسية ، أن يقف عندها يستشف أسرارها ويستخلص عبرها . لقد فتح خالد بن الوليد سواد العراق وسار فيه من جنوبه إلى شماله ، وأخضع ريفه ومدنه ، وتولى كل أمره ، وكان له في قتال الفرس عليه معجزات باقية على التاريخ . أفيرجع ظفره بهم إلى تشاغلهم بما كان في بلاطهم من اضطراب ، وما كان بين أمرائهم من تنازع على العرش جعلهم يقتتلون ، فيقتل بعضهم بعضاً غيلةً حيناً وجهرة حيناً ،

حتى لقد جلس على هذا العرش تسعة ملوك في أربع سنوات ؟ إن يكن ذلك هو الذي أظفر خالداً بهم ، فكيف ظفر بهم أبطال القادسية ، وقد اجتمعت كلمة فارس بعد شتات ، وقد تماهد الأمراء والرعية جميعاً على أن يكونوا رجلاً واحداً حول بزجدرد ينصرونه ويؤازرونه ! . نعم كيف بقيت العلة وقد انتفى سببها ، وكيف ظفر المسلمون على قلتهم بالفرس على كثرتهم ، والفرس في بلادهم وهم أصحاب العدة والحضارة ، والمسلمون طارئون عليهم ، وأكثرهم بدو على فطرتهم ، لا يملكون من عُدّة الحرب ما يملك عدوهم ، ولا يعرفون من أساليبها ما يعرف ! .

السرف في ذلك أن اجتماع كلمة الفرس لم يغير ما بأنفسهم ، وإنما كان أمراً ظاهراً قضت به ضرورت الساعة ، ثم بقيت القلوب في أعماقها شتى ، وبقي السادة والأمراء يفكر كل منهم في نفسه وفي مطامعه قبل أن يفكر في وطنه . فلو أنهم انتصروا على العرب وأجروهم عن بلادهم ، لعاد الأمر كما كان ، ولاضطرب البلاط ككرة أخرى ، ولطفت المطامع الذاتية على كل اعتبار سواها . ألم تر إلى رسم كيف تلسكاً فلم يخرج على رأس الجيش إلا كارهاً مخافة ثورة الشعب به إذا خرج يزجره مكانه ! ألم تر إلى تباطئه وتباطؤ سائر القواد في السير حتى قضوا أربعة أشهر منذ فصلوا من المدائن إلى أن بنوا القادسية ! والواقع أن رسم لم يكن يرى في النجوم إلا ما كان مرتسماً في قرارة فؤاده . لقد استولى عليه حب نفسه فعزّ عليه أن يهزم أو يقتل ، فرأى مصير وطنه مرتبطاً في النجوم بما يخاف من هزيمته ومقتله . ولو أنه عرف فارس ونسى نفسه ورأى موته وحياته سيئين في سبيل وطنه ، لما تملل ولا تباطأ ، ولما رأى في النجوم ما رأى ، ولما برّوحه فوق الخوف وفوق الإشفاق ، ولست منه إلى القواد والجند قوة تجعلهم جميعاً يخوضون غمار الموت لا يبالونه . لكن القواد والجند كانوا كُرتهم تعلقاً بذواتهم وإشفاقاً مما يصيبهم ، فكانت روح كل واحد منهم أعزّ عليه من فارس ومن كل ما فيها . وإنما كانوا يسرون إلى الممركة تحرك الرؤساء أطعمهم وأهواؤهم ، ويحرك الجند إذعاناً ومثلة ألقواها أجيالاً طويلة . أتري ما تقضى به ضرورات الساعة من اجتماع الكلمة كافياً ليقضى في النفوس على هذه العوامل

السكينة التي تأصلت فجعلت كل رجل في الدولة يعيش لذاته ، وكل جماعة فيها لا تفكير إلا في مصالحها ؟ .

وكان من أثر هذه العوامل أن قضت النفس الفارسية على فكرة المثل الأعلى تعيش الأمة من أجله وتجاهد في سبيله ، والناس إذا لم تخضع كلتهم على مثل أعلى مصوّر في رسالة يريدون صادقين لتحقيقها ، يهزم للجهد دافع غير حب الذات والحفاظة على الحياة وكان هذا شأن السادة والأمراء في فارس ، وشأن يزجرد نفسه . أورثه حب الذات حرصاً على العرش أكبر من حرصه على حرمة بلاده ، كما أورث حب الذات السادة والأمراء حرصاً على مطامعهم غشّى في نفوسهم على كل ما سواه . وسرى هذا الروح في الأمة الفارسية كلها ، فأورت أهلها الخضوع والرضا بحياة الذلة . وقد خدعت هماً بها من ذلك حين غلبت الروم وانتزعت من أيديهم الشام ومصر ، ونسيت أن الروم كانوا كالفرس تدهوراً وانحلالاً . فلما ردّهم الروم على أعقابهم ظنوا الحرب سجالاً ، وفاتهم أن القوة السليمة من العلل لا تُردّ على أعقابها ، فإن رُدّت يوماً فلعلّ بها . لذلك لم تعبأ فارس بغارات المسلمين أول ما شئوها ، وحسبت أنهم لن يلبثوا أن يعودوا أدراجهم هيبةً لاسم فارس وإعظاماً لبأسها . فلما رأت ظفرهم بها وقهرهم لها ، تفتحت منها الأعين ، ولكن لترى هزائمها وزوال ملكها .

أفئغنى جيش انحلت قوته المعنوية هذا الانحلال إذا وقف بإزاء جيش كملت فيها هذه القوة ، فهو يجاهد في سبيل مثل أعلى يؤمن به ، ويرى الموت في سبيله شهادة يتقدم بها إلى ربه ، فتفتح له أبواب الجنة يدخلها خالداً في نعيم مقيم ورضوان من الله سرمدي !! وقد اجتمعت كلمة المسلمين حول هذا المثل الأعلى ، فوهبوا أنفسهم لله في سبيله ، واستحبوا الموت على الحياة لتحقيقه ، فكانوا بذلك قوة من قوى القدر هيأها ليرد الإنسانية بها إلى الصراط السوي ، وألقى عليها رسالة يجب أن يسمع العالم لها بحفاظة على حياته . مثل هذه القوة لا يقف في سبيلها سلطان وإن عظم ، ولا تصدّها عن أداء رسالتها قوة من القوى .

لهذا فرّت قبيلة الفرس أمامها ، وتداعت صفوفهم لبأسها ، وولى جمعهم مذبذباً من خشية أبطالها ، فانفسحت لها السبل تذيع عن جانبها رسالتها فيقبل الناس على هذه الرسالة طائعين ، وقد رأوا قوة الحق ماثلة في كل كلمة من كلماتها ، وكل عبارة من عباراتها ، ثم رأوها تدفع الباطل فيزهق . إن الباطل كان زهوقاً .

هذا هو السر في ظفر المسلمين بالفرس في غزوة القادسية . أما العبرة التي تستخلص منها فغير ما يعتبر عنها قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) وقد غيّر الإيمان بالله ورسوله ما بأنفس المسلمين ، وهداهم إلى الحق الذي تقوم الحضارة الفاضلة على أساسه ، فعزّوا بالإسلام وأعزّوه . أمّا الفرس والروم فظلوا أشد حرساً على متع الحياة ولينها منهم على المبادئ السامية التي تجعل للحياة الإنسانية قيمتها ومعناها ، وتجعلنا لذلك حقيقين أن نحياها فأذلّم المتاع ولينه ، ولم يُغن عنهم الترف شيئاً .

غير المسلمون ما بأنفسهم حين آمنوا بالله ورسوله ، فاجتمعوا حول مثل أعلى صورّه الله في رسالته إلى نبيه ، فأصبح المسلمون بفضل هذا الاجتماع أمة واحدة ، وصار كل واحد منهم في هذه الأمة كالعضو في الجسد ، لا قوة له بذاته ، بل بقوة الجسد كله . بذلك صار كل رجلٍ من أبناء الأمة ، وكل امرأة من نساءها ، قوة يجذبها المثل الأعلى إليه ، ويدفعها قوة للمغامرة في سبيله ، ويسمو بها إلى حيث لا تعرف الضعف ولا التراجع ولا الهزيمة ، بل تؤثر الموت الكريم على الموقف الشائن . رأيت إلى طليحة بن خويلد الأسدي كيف كان ضعيفاً أمام خالد بن الوليد في حروب الردّة ، وكيف كان قويا بالغ القوة على الفرس في القادسية ! وهل رأيت كيف انهزم عمرو بن معدى كرب والأشعث ابن قيس في ردتها أمام جند المسلمين ، وكيف أبلوا في القادسية بلاء ذكره لها الذاكرون ! ذلك أن طليحة كان يومئذ نبأ قوياً الشكيمة ضعيف الإيمان ، فلم تغن قوة شكيمته عن ضعف إيمانه . وكذلك كان عمرو بن معدى كرب والأشعث بن قيس وسائر الذين ارتدوا وحاربوا المسلمين . فلما عادوا إلى الإسلام وصاروا فلذة من الأمة التي اعتزت بإيمانها ، زادهم الإيمان قوة على قوتهم ، فكان لهم من الفعال في القادسية ما رأيت ، وكان لهم بعد القادسية من فعال البطولة والجد ما خلده التاريخ .

وكان أمير المؤمنين من هذا الجسد بمكان الرأس ، يدبر أمور الجميع لخير الجميع ، ويجد السعادة في أن يشقى ليسعد الجميع . وقد تأسّى عمر في هذا الأمر برسول الله ثم بأبي بكر ، فكان مثلاً عالياً بعدله وحزمه وإيثاره كلّ رجل من أبناء الأمة على نفسه ، وإيثاره خير الأمة على خير أيّ من أفرادها بذاته . رأى الخير بعد القادسية في أن يردّ الخمس من المغنم على الحاربيين فردّه ، ورأى أن يُجزل سعد العطاء لأهل البلاد ففعل ، ورأى أن يتألف أهل العراق ممن اعتذروا عن انتقاضهم على المسلمين فتألفهم سعد . ولم يغضب أحد من أهل المدينة لشيء من هذا وفيه مافيه من حرمانهم ؛ لأنهم رأوا أمير المؤمنين يريد الخير للإسلام كله ، ورأوه يستشيرهم فيما جَلّ ودقّ من أمره . وخير الإسلام خيرهم ، وإنكار الذات بعض ما أمرهم الله به . لذلك أعانوا عمر على ما فعل ، فجزاهم الله بعد ذلك عنه أضعافاً مضاعفة .

هذا بعض مافي القادسية من سرٍّ وعبرة . وهذا السر وهذه العبرة هما اللذان شادا بفضل الله للإسلام إمبراطوريته ومجده ، فلنتابع بناء هذه الإمبراطورية والذين رفعوا اللواء هذا المجد ، ولنسر معهم ؛ فإنهم لن يلبثوا أن يسيروا إلى المدائن فيفتحوها ، ولن يلبث سعد أن يجلس على إيوان كسرى بعد أن فرّ عنه صاحبه مودّعاً إياه الوداع الأخير^(١) .

(١) اختلف المؤرخون متى وقعت القادسية ؛ يقول بن خلدون : كانت القادسية سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة وقيل ست عشرة . ويذكر أبو الفداء أنها كانت سنة خمس عشرة . وأنا أرجح هذا الرأي ؛ فهي قد وقعت بعد البرموك وفتح دمشق وغزاة خل ، ووقعت بعد أن أمد عمر المثنى بأبي عبيد فكانت غزوات النمارق والجسر والبويب . ولما جمع عمر جيش سعد بن أبي وقاص سار هذا الجيش متمهلاً تتبع القبائل فيه نساؤها وأبناءؤها . وقد أقام سعد بالعذيب أشهراً قبل أن يسير إلى القادسية ، وبقي بالقادسية شهرين على الأقل قبل الموقعة .

الفصل التاسع

فتح المدائن

فرّ الفرس بعد القادسية فرار النعام ، فبلغ الجانب الأكبر منهم أطلال بابل ، وتفرق الآخرون في أرجاء فارس . أما المسلمون فأقاموا بالقادسية شهرين حتى أراحوا ظهورهم وأبلّ سعد من مرضه . وكان عمر قد كتب إلى سعد ألا يبرح منازلته حتى يأتيه أمره . فلما اطمأن إلى أنباء الجند وأمدّهم ، أمر سعداً بالسير إلى المدائن ، وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، على أن يجعل منهم كُفْفاً من الجند يكون لهم حظ سائر الجند من المغنم جزاء حمايتهم عيالات المساهمين .

وقدّم سعد زهرة بن الحوية فسار إلى الحيرة ونزلها ، فلما بلغها عبد الله بن المقثم وشُرْحَبِيل بن السَّمُط عاود سيره منها إلى المدائن . ولقيه أثناء مسيرته جمعٌ من الفرس بِرُمس^(١) فهزمهم ففرّوا ينضمون لمن سبقوهم إلى بابل : وعرف زهرة نبأ الذين احتشعوا ببابل من فلول القادسية فكتب إلى سعد به إذ كان بالحيرة مع هاشم بن عتبة . وسار سعد يريد بابل ، فلقى الفيرزان فهزمه في أسرع من لفت الرداء . وفر الفيرزان إلى نهاوند ، والهرمزان إلى الأهواز ، ومهران إلى المدائن . وتقدّم جند المسلمين ، فلقبهم شهر يار بكوثى فقتلوه وهزموا أصحابه ، ونقل سعد سَلَبَ شهر يار لمن قتله . وتقدّم زهرة بن الحوية إلى ساباط ، فصالحه أهلها على الجزية ، وذلك حين عرفوا أنه هزم الجند الذي اعترضه فيما بين سورا والدير وقتل قوّاده . وكذلك كانت جنود المسلمين تسير في أرجاء السواد فلا تلقى مقاومة تذكر ، وكان المدنيون يهرعون من كل صوب إلى أمراء هذه الجنود بالطاعة ، يُعلن فريق منهم

(١) برس : أجة قريبة من بابل . ويسمى بعض المؤرخين بثر انمروود . فيقول البلاذري عن أحمد ابن حنبل السكوني : « أجة برس بحضرة صرح انمروود ببابل . وفي الأجة هوة بعيدة الثغر يقال إنها بثر كان أكثر الصرح انخذ من طينها ، ويقال إنها موضع خسف » .

إسلامه ، ويرضى فريق أداء الجزية ، وينزل الجميع على حكم هؤلاء الذين غزوه وأقاموا العدل بينهم ، ثم جَلَّوْا عنهم حين فَصَّلَ خالد بن الوليد إلى الشام . هاهم أولاء يعودون إليهم في قوة بددت كل أمل في جلائهم مرة أخرى . من ذا يُجْلِيهم وقد هلك رستم وتضعضت الروح المعنوية في نفوس الفرس جميعاً ! إنه إذا الإذعان لقضاء قضاء الله فلا مرد له ، ولن يقدر عليه أحد .

أقام سعد ببابل ، وقدم زهرة بن الحوية على رأس قوة تسير إلى المدائن . ترى هل أثار أطلال بابل في نفوس سعد والذين نزلوها ذكر المدينة القديمة التي شهدت حضارة الإنسانية الأولى متداولة بينها وبين طيبة ومنفيس وعالم الفراعنة الأولين ؟ وهل تراهم ذكروا عهد الأشوريين وثقافتهم وعقائدهم وما كان لبابل في عهدهم من جلال عظمة بأسوارها المنيع ، ومعابدها الضخمة ، وأبراجها الحصينة ، وحداثتها المعلقة ، وقصورها الفخمة مهد الترف والنَّعمة والجمال والدلال ؟ هم لا ريب قد ذكروا بُرْجَ بابل ، وذكروا تداول الأمم الطارئة عايه ، حتى أصبح مضرب المثل هم كثرة اللغات التي يتكلمها من نزلوه أسارى أو فاتحين . ولكن ما علمهم ذكروه من أمر البرج ومن أمر المدينة نفسها لم يتعد حديثاً يتداولونه أو يقات سمهم . فقد كانوا في شغل بما هم مقبلون عليه من فتح المدائن . والمدائن عامرة ، وبابل أطلال . والمدائن عاصمة الفرس ، وبابل لم تبق عاصمة ولم تبق مدينة . والمدائن عنوان الحياة ، وبابل أثر دارس لعهد مضى . والناس يتعلقون بالحاضرة وقلما يتخذون من الماضي عبرة . وأكثرهم لا يلتمسون العبرة ما بسَمَ لهم وجه الحياة ، فإذا تَجَهَّم وجه الحياة وانقبض ، ذكروا العهود الخوالي لعل فيها ما يأسوكلوم الحاضر . وقد كان وجه الزمان باسماء المسلمين أى ابتسام . فاهلهم لبابل والأشوريين الذين أصبحوا أحاديث . وهم يرون من حولهم حياة زاخرة ، وكنوزاً ثمينة ، وشعباً لا يلبث حين يسمع باسمهم أن يهرع إليهم بالطاعة ، ويلتمس عندهم العفو والمغفرة .

بل إن منهم مَنْ ذكروا المرأى بابل فعال المسلمين بها يوم عسكر الثنَّي بن حارثة على مرتفع من أطلالها ، وأقام بين شبكة من جداول دجلة ينتظر هرماً جاذويه وهجومه عليه . ذكر هؤلاء ذلك الموقف العصيب الذى لجأهم بعد مسيرة خالد إلى الشام ، وارتقاء

شهر يران بن أردشير عرش كسرى واعتزاه طرد العرب من بلاده، وذكروا كيف قتل
المنثى فيل هُرمز، وكيف هزم الفرس وتعقبهم حتى قاربوا المدائن. وتحدث هؤلاء
بما شهدوا من ذلك إلى أصحابهم الذين جاءوا مع سعد من المدينة، والذين انضموا إليه
من شتى الأرجاء في شبه الجزيرة، وذكروا لهم أن هذا السواد الذي يسرون فيه
بين غدران مترعة ومزارع واسعة وحدائق يانعة، قد خضع لسلطانهم، فأكلوا من خيراته،
وأرسلوا إلى المدينة ما استطاعوا أن يرسلوه من ثمراته.

فبابل وسائر الأماكن التي يمر المسلمون اليوم بها كانت بعض ما فتحوها وحكموا.
كانت القادسية في يدهم، وكانت الحيرة مقر إماراتهم، وكانت بُرس وكون و غيرها
من الريف والقرى تدين لهم، وكانت المدائن مطمح أنظارهم. فهم اليوم يرون بأماكن
لكثيرين منهم فيها ذكريات رفاهة ونعمة. وإنما الفرق بين أمسها ويومها أنها كانت لهم
بالأمس مستقرًا وكانوا فيها سادة حاكمين، وهي اليوم ميدان لفتح جديد؛ فهم ينتقلون من
واحدتها إلى الأخرى متجهين شمالاً بشرق من القادسية إلى الحيرة إلى بُرس، إلى بابل
يريدون ساباط والمدائن. وهم يجدونها اليوم أهون أمراً مما كانت من قبل بعد أن فتّ
الوهن في أعضاد أهلها فأيقنوا أن لا مفرّ لهم من الله إلا إليه.

سار زهرة بن الحوية وهاشم بن عتبة يريدان المدائن. فلما كانا على مقربة من
بهرسير لقيتهما بساباط كتيبة لبوران بن كسرى كان رجالها يلحفون كل يوم ألا يزول
ملك فارس ما عاشوا. وكان مع هذه الكتيبة أسد تالفة كسرى؛ ولم تثبت الكتيبة
للمسلمين أكثر مما ثبت جنود فارس ببُرس بابل. وكيف تثبت وقد رأت حظ الأسد
كحظ الفيلة بالقادسية! فقد اندفع هاشم بن عتبة فضربه بالسيف ضربة جدّلتها قتيلاً.
هنالك فرّت الكتيبة تحتمى ببهرسير. وأدرك سعد رجاله وعرف فعالهم، فقتل رأس
ابن أخيه هاشم إكباراً لقتله الأسد، وقتل هاشم قدم عمه تقديراً لعطفه. ثم رفع سعد
رأسه إلى السماء شكرًا لله، وانجبه بعد ذلك بنظرة إلى ناحية المدائن وتلا قوله تعالى:
«أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ! ».

وجعل سعد أول الليل يفكر في موقفه من المدائن. أيها جما وجنوده لاتزال تهزهم

نشوة الظفر ، فهم أشد ما يكونون حرصاً على اقتحامها ؟ أم يريحهم أياماً ثم يسير بهم إليها ؟ لكنها منه على مقربة ؛ فإذا هو وقف دونها فقد يُغرى وقوفه أهلها بالحرص على الذود عنها . الخير إذاً أن يأخذهم على غرة . لذلك أمر بعد أن ذهب هدأة من الليل فارتحل الناس حتى نزلوا على بهر سير .

وبهر سير صاحبة للمدائن ، تقع على ضفة دجلة اليمنى ، وتقع المدائن قبالتها على ضفته اليسرى ؛ فهي لذلك جزء منها وإن فصلها النهر عنها . والمدائن كلها تقع على نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من بغداد التي كانت يومئذ قرية ليس لها على غيرها عن قرى دجلة أى امتياز .

وكانت المدائن عاصمة إيران منذ عهد بعيد . خلقت بابل ثم فاقتها جلالاً وبهاء وعظمة . وقد ظلت ولها جلالها وجمالها مع ما أصابها من غزو الروم وإياها واستيلائهم غير مرة عليها ، ومع ما كان من اضطراب بلاطها وقيام الثورات فيها . لذلك كانت الأبصار تشرب من جوانب العالم كله إليها ، وكان اسمها يهر خيال الناس جميعاً ويثير فيه من معانى الروعة والسحر مالا يثيره اسم رومية ولا اسم القسطنطينية ؛ فقد جمعت من معانى الترف الشرق أبهى صورته وأكثرها وحياً لآلهة الفن وشياطين الشعر . لا عجب وذلك شأنها أن يسير المسلمون إليها وكلهم شوق لما سيشهدون فيها مما لم تره عين ولم تسمعه أذن . ولا عجب أن يزيدهم هذا التصور حماسة وإقداماً ليصبح ماظنوه خيالاً قد تجسم أمامهم حقيقة واقعة . سار سعد بالناس إلى بهر سير والحماسة تهز الجند هزاً . لذلك كانوا كلما قدمت خيل عليها وقفوا ثم كبروا غير مرة ، لكنهم ألقوا أهلها تحصنوا بها وأغلقوا دونهم أبواب أسوارها ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، ولا مفر لذلك من حصارها .

وحاصرها سعد وهو لا يخشى أن يبعثه أحد من خلفه ؛ فقد بث الخيول فأغارت على ما بين دجلة والفرات ، فأصابوا مائة ألف فلاح جاءوا بهم أسرى ، وحفروا الخنادق من حولهم . لكن هؤلاء الفلاحين لم يكونوا جنوداً محاربين ، فلم يكن من أسرهم فائدة ، ولم يكن في إطلاقهم من الأسر خطر . لذلك أشار شيرزاد دِهقان سابط على سعدا فصرفهم إلى قراهم ليعملوا فى الأرض ويكثروا من غلاتها . وكتب سعد إلى عمر بما صنع ، فأقر

الخليفة مشورة شيرزاد ، فأمن أهل السواد من شواطئ دجلة إلى أرض العرب وأقاموا
يفلحون الأرض . وأدّى الدهاقين الخراج والجزية فازداد الملاحون أمناً . وأقام سعد
على حصار بهر سير وهو لا يخشى أن يبعث من خلفه ، وهو مطمئن إلى أقوات جيشه .
ونصب المسلمون المجانيق وجعلوا يرمون بهر سير داخل أسوارها . ولم يهين الفرس
لشدة هذا الرمي ؛ فقد أيقنوا أنهم إن لم يردّوا عدوهم عن مدينتهم انكشفت أمامه العاصمة
وعظم الخطر عليها . وليس الدفاع عن بهر سير بالأمر العسير ؛ فأسوارها قوية وحصونها
منيفة ، وجسر دجلة يصلها بالمدائن ، وعلى هذا الجسر تجيء من أرجاء فارس المترامية
أمداد لا تحصى وأقوات لا نهاية لها . لذا ثبتوا للحصار شهوراً طوالاً ، يختلف المؤرخون
أكانت تسعة أم كانت ثمانية عشر شهراً . وفي أثناء هذا الحصار كانت قواتهم تتخطى
الأسوار أحياناً تقاتل المسلمين لعلها تنزل بهم من الهزيمة ما يردّهم على أعقابهم . اسكن
المسلمين كانوا لا يفتشون يظفرون بهذه القوات ويردّونها إلى المدينة مجلّة بالمارات تسمى
بأسوارها . فلما طال الحصار واشتد بالفرس ما يصيبهم أخرجوا جيشاً عايشه من القواد
من كانت للجند بهم ثقة أى ثقة . لكن هذا الجيش انهزم كذلك ورجع إلى المدينة .
وفتت هزيمته في أعضاد الفرس وأدخلت في روعهم أن هؤلاء المسلمين لا غائب لهم .
وكانت أنباء الحصار والقتال تبلغ يزدجر يوماً فيوماً ، بل . ساعة فساعة ، فيتولاه
الهم ويكاد يساوره اليأس : وطال ذلك به ورأى المسلمين بعد كل هذه الأسابيع لا يهينون ،
ورأى وراءهم من ثراء العراق طعاماً كرفع التراب . ثم رأى الفرس يزداد قوتهم وتضعف
حماستهم ، فأيقن أن بهر سير لا محالة صائرة إلى عدوه . عند ذلك بعث إلى سعد رسولاً
يعرض للصالح أن يكون دجلة حدّاً فاصلاً بينه وبين العرب ، « فلنا ما بآينا من دجلة
وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم » . لكن سعداً رفض مصالحة يزدجر
وردّ رسوله . وكيف يصالحه وأمر عمر بفتح المدائن صريح لا لبس فيه ! وكيف يصالحه
بد أن هزم جنده أهل بهر سير وأسرّوا منهم ، وهم موشكون أن يقتحمون عليهم أسوارهم !
ولم يكن الرسول قد بلغ يزدجر ليلبلغه رفض سعد حين أمر ابن أبى وقاص بتشديد
الحصار ومضاعفة الرمي بالمجانيق ولم يجب أحد من بهر سير رماة المسلمين بنشابة ولا بسهم ،

فأيقن سعد أن حامية المدينة تخلّت عنها ، فنادى في الناس ونهّد بهم ليقترحوها . وتسوّرها الرجال وفتحوا أبوابها فلم يجدوا بها من يرّد عاديةً عليها ، ولم يخرج إليهم منها إلا رجل نادى بالأمان علّوهم أنه أن حامية بهر سير انتقلت إلى المدائن بأمر يزيد جرد ، وأنها أحرقت الجسر وجمعت كل السفن التي تجرى فوق دجلة ، ليبقى النهر بتياره المتدفع خط دفاع يرّد الغزاة عن العاصمة العامرة .

دخل المسلمون بهر سير في جوف الليل ، فلم يثنهم ذلك عن الاندفاع إلى ناحية دجلة يريدون عبوره إلى المدائن ليقترحوها كما اقتحموا ضاحيتها . ولم يجدوا الجسر يعبرون عليه ولم يجدوا سفناً تحملهم ، فوقفوا على شاطئه ، فرأوا أمامهم منظرأ بهرهم ، فأقاموا مبهوتين يحدّقون فيه ملء عيونهم وملء قلوبهم ولا يكادون يصدّقون ما يرون : بناء ضخم بالغ غاية الروعة والهيبه والفتخامة يقوم أمامهم على الشاطئ الآخر إلى ارتفاع لم تألفه أبصارهم ، ويميزه بياض لونه رغم دجى الليل المُدّهم . ورق الليل وصفت السماء وسرى في الجو نسيم عذب زاده لطفاً وزاده هذا المنظر الغدّ روعة وجلالاً ؛ فأمسك الجند أنفاسهم وفتحوا عيونهم وأفواههم أن ملك الإعجاب عليهم كل حواسهم . وتلاحقت فرّق الجند إلى النهر ووقفت على شاطئه تولّاها البهر وكأنما ثمّرت في أماكنها . فلما أقبل ضرار بن الخطاب في زمرته ، ورأى مارأوا ، نادى بأعلى صوته : الله أكبر ! هذا أبيض كسرى ! هذا ما وعد الله ورسوله ! عند ذلك تعالت الأصوات بالتكبير من كل جانب وأيقن الناس جميعاً أنهم بإزاء هذا الإيوان الذى طالما سمعوا به مذكوراً في شعر الشعراء وأحاديث الخدثين . وجعلوا يكبّرون حتى أصبحوا وكلهم الشوق ليعبروا إلى الإيوان ، وليحطموا به وليلثوا عيونهم منه ، وليدخلوه ، وليروا تحت كسرى في بهوه العظيم ، وليروا قائدهم جالساً عليه يُعلن كلمة التوحيد فتجيبه الأصداء من كل جوانب القصر بأن صدق الله وعده ، فكلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

لم يكن عجباً أن يتولّى المسلمين البهر لرأى قصر كسرى ؛ فقد كان هذا القصر عجيبه الأرض لذلك العهد . ولم يكن قدمه موضع العجب فيه ، فقد كان يومئذ حديثاً لم يمض على بنائه مائة عام ؛ إنما كان جلاله وكانت عظمته موضع العجب . شادة كسرى

أنوشروان ، سنة خمسين وخمسمائة لميلاد السيد المسيح ، طرازاً بذّبه أنخم عمائر الرومان والإغريق جميعاً . كانت واجهته تزيد على مائة وخمسين متراً ، ويرُجى ارتفاعه على أربعين متراً ، وكانت القباب الجاثمة فوق أبهائه الخمسة تتوّج بهاءه وجلاله ، وتثير التطلع في نفوس هؤلاء العرب الذين شدّت أبصارهم إليه عما عسى تحتوى هذه الأبهاء من ثراء وزخرف . إن بها لاريب من ذلك ما يقصر الخيال دونه . وهذا البهو الذي يتوسطها ، وتعلو قبته قبابها جميعاً ، هو لاريب هذا الإيوان الذي لم يسمع الناس في العالم كله بشيء من مثله . أليست الأحاديث تجري عن نحت كسرى والجواهر السكرينة التي ترصّع قوائمه بما يشبه الأساطير والتخت والإيوان والقصر قائمة كلها أمام الجنديلا يفصل بينهم وبينها إلا النهر وهي تزيدهم في كل لحظة بهراً . متى إذاً يعبرون إليها ويرون رأى العين كل ما فيها ؟ !

بينما تدور هذه الخواطر في نفوس المسلمين يغدّيها خيالهم ، ويزيدها منظر المدائن حياة وقوة ، كان يزدجرد مشّت الخاطر يهيم على وجهه في أبهاء القصر وقد ركبتة الوسوس من كل جانب . إن دجلة حصن طبيعي بسعة مجراه وتدفع تياره . وقد زاده في هذا الفصل سعة وزاد تياره تدفعاً ذوبان الثلوج في أعالي الجبال التي ينبع منها بأذرىيجان والموصل . ولا سبيل للمسلمين إلى تخطيه بعد أن مُجعت السفن كلها إلى جانبه الشرق . ألا تستطيع قوات الفرس أن تحمى شاطئه ، وأن تدفع بذلك كل خطر عن العاصمة ؟ !

هذا هو التفكير الطبيعي في مثل هذا الموقف ، وكان جديراً يزدجرد أن يتجه إليه ، وأن يدعو قواده يدير معهم الرأي فيه ، وأن يبعث من روحه الشاب إلى أرواحهم وأرواح الناس جميعاً من أهل العاصمة حماسة للذود عن حرمتهم وعن كرامتهم . ولو أنه فعل لكان ذلك أقلّ ما يجب عليه لنفسه ، ولأمة أسلمته زمامها ، والتفت حوله للدفاع عن كيانها .

لكن اضطرابه أضلّ قلبه وأفسد تفكيره ، وجعله يرى هؤلاء المسلمين رجّناً لا تقف قوة في سبيلهم ولا طاقة لأحد إلا بالفرار أمامهم . ومن أولى منه بأن يكون أمام الناس في هذا الفرار نجاة بنفسه وبأهله ! لذلك أمر رجاله لحملوا بيت ماله وما خفّ من متاعه وخزائنه ، وحملوا النساء والذراى وخفّوا بهم يقصدون حُلوان . ورأى الناس ماصنع عاهلهم ، فخارت عزائمهم واندفعوا يفكرون في النجاة بأنفسهم وذويهم . أليس الناس

على دين ماؤكهم ! ولماذا يكون أهل الملك وجواريه أعز عليه من زوج الجندى أو القائد وأبنائهم عليه ! ! بذلك انهارت روح المقاومة في أنفس الفرس ، ولم يبق لهم أمل في غير الحظ يُسعدهم فيجمل النهر أداة في رد الغزاة عنهم ، أو يعثر بهم ككرة أخرى فلا سلطان لهم عليه ولا سبيل إلى مقاومته .

وكذلك كان دجلة يجرى بين جندين : جند تحطمت قواه فلم يبق له عزم ولا إرادة فالتقى بيديه وترك للحظ مصيره ، وجند سَمَتْ روحه المعنوية وبلغ من قوة الإيمان بالنصر حتى خيل إليه أنه إن ضرب النهر بعصاه يفرج له فيه طريق يمتاز عليه إلى إيوان كسرى . هذه معجزة أتاحها الله لكليمه موسى ففرّ بها من مصر مع قومه . وسيتيح الله اليوم مثلها لجند المسلمين فيعبرون النهر ويقتحمون الدائن ويدخلون دولة الأكرسة ، ويرفعون لواء الحق فوق الإيوان الأعظم .

نعم ! هي معجزة تلك التي اجتاز المسلمون بها دجلة . لقد وقفوا على شاطئه ينظرون إلى تدافع مياهه ، ويفكر سعد في الوسيلة إلى عبوره ، فلا يسمعه التفكير بنافع . فأمر رجاله فجاءوه بمُلُوج من الفرس سألهم فدلّوه على مخاضة في النهر تخاض إلى صلب الوادى . لكنه خشى عادية التيار على الجند ، وهو حريص أن يبقى على كل رجل منهم . لذلك تردد فلم يعمل بما أشاروا به . فلما كان الغد أتاه النبأ بأن يزدجرد أمر بخزائنه أن تحمل إلى حلوان . عند ذلك جمع الناس وقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه منه . وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم . وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤثتوا منه ؛ فقد كفّاكمهم أهل الأيام وعطلوا نفورهم وأفنوا ذاتهم . وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بفتيانكم قبل أن تحصركم الدنيا . ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » .

آية مفاجأة هذه التي فاجأ سعد بها رجاله ! أو لم يكن إلى أمس متردداً ! ألا يخاف أن يتردد الناس فلا يقوون على أمر فيه من الخطر أهوله ! لكن الناس لم يترددوا ؛ فقد سحرهم مرأى للدائن أعظم السحر ، وجذبهم قصر كسرى إليه بقوة دونها كل قوة ، فهم يقدّمون على المستحيل ليدخلوا العاصمة وليحيطوا بالقصر . لذلك لم يكذب

سعد يُتم كلمته حتى قالوا جميعاً : « عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل » .
ولسكن كيف يعبرون ؟ وهَبْهم عبروا على خيولهم ، فجنّد فارس على الشاطئ . الآخر
يصدّونهم فلا يخرجون من الماء . تنبّه سعد لهذا فنذب الناس وقال : من يبدأ ويحى لنا
الفِراض^(١) حتى نلاحق به الناس لكي لا يمنعهم من الخروج ؟ ! وانتدب عاصم بن عمرو
ذو البأس ، وانتدب بعده ستمائة من أهل البجدة ، فأمر سعد عاصماً عليهم ، فساروا حتى إذا
بلغوا شاطئ دجلة قال عاصم لأصحابه : من ينتدب معي لتكون قبل الناس دخولاً في هذا
البحر فنحى الفِراض من الجانب الآخر ؟ وانتدب له ستون فارساً تقدّمهم هو إلى حافة
النهر وهو يقول للذين تردّدوا : أتخافون من هذه النطقة ! ويتلو قوله تعالى : « وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا » . ثم دفع فرسه فاقتحم النهر واقتحم زملاؤه
معه . ورأى القعقاع بن عمرو هذه الكتيبة الأولى تتقدم في سبجها ، ومدّ بصره إلى الجانب
الآخر من النهر ، فرأى الفُرس وكأنما يتهيئون للقائها ، فأمر سائر أصحابه الستائة فدفعوا
خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه . وتولّى الفرس العجب لما صنع عدوهم ،
فقال بعضهم : مجانين ، مجانين ! وقال آخرون : إنكم والله ما تقاتلون إنساً بل
تقاتلون جنّاً ! .

وأقام الفرس ينظرون إلى هؤلاء المغامرين حيناً ؛ فلما رأوا عاصماً وأصحابه توسطوا
النهر أرسلوا فرساناً لينعهم من الخروج وليقاتلوهم في الماء . ودنوا من عاصم حين
دنا من الفِراض ، فقال عاصم لأصحابه : الرماح ، الرماح ! أشرعوها وتوخوا العيون .
وارتدت خيول الفرس حين أصابت الرماح عيونها ، فلم يملك فرسانها دفعها ليلقوا هؤلاء
الذين خاضوا غمار الموت في لجة النهر لا يباليون ما يصيبهم . ولم يُصَبْ أحد من كتيبة
الأهوال بأذى ، بل خرج عاصم على رأسها إلى الشاطئ ففرّ الفرس أمامه . وأدركه
القعقاع على رأس الكتيبة الخرساء فلم يبق على الشاطئ من الفرس أحد .
ورأى سعد بن أبي وقاص تحكّم أصحابه في فِراض المدائن ، فأمر فرسانه فاندفعوا
جميعاً ألوفاً مؤلفة إلى لجة النهر من حيث اقتحمه عاصم . وامتلاً النهر بالخليل ، فلم يكن ماؤه

(١) الفِراض : جمع فرسة ، وهي هنا تنفّس المخاضة من الناحية الأخرى .

في هذه الساعة لِيَرَى . وأمر عاصم أصحاب الزوارق والسفن من الفرس فدفعوها إلى جانب بهر سير ، فنقلت من جيش المسلمين من لم يعبر على جواده . فلما عبر سعد بالجيش كان أهل المدائن جميعاً قد فروا ، لم يبق منهم إلا من تحصنوا بالقصر الأبيض . ولم يقاوم هؤلاء ، بل قبلوا أداء الجزية ، وفتحوا أبواب القصر للمسلمين .

هذه معجزة من معجزات الحروب لا يكاد العقل يصدقها : فيقول ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن يَتِمَّ وصفها : « وكان يوماً عظيماً وأمرأ هائلاً ؛ وخطباً جليلاً ، وخارقاً باهرأ ؛ ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلقها الله لأصحابه لم يُر مثلاً في تلك البلاد ، ولا في بقعة من البقاع » . وهذه العبارة للمؤرخ الإسلامي تصور شعوره وتصور شعورنا حين ترسم أمامنا هذه الفعال الباهرة وهذا الإقدام فاق كل إقدام . وهل كلمة غير المعجزة تصح وصفاً لهذه الأعمال ؟ وأية معجزة كأن تقتحم كتيبة الأحوال النهر وعاصم على رأسها ، وأن تقتحم الكتيبة الخرساء النهر والقعقاع على رأسها ، ثم لا يخشى رجل في الكتيبتين أن يبتلع الموج أو أن يرميه الفرس من الشاطئ الآخر بالنبل ! ! لكنه الإيمان بالنصر يسمو بالنفس إلى حيث تصبح الحياة ويصبح الموت أمامها ألفاظاً يتساوى مدلولها في سبيل الغاية التي تريد دركها . ولم يكن للمسلمين صبر على المدائن ، فهم يريدون أن يقتحموها وإن بذلوا لفتحها كل ثمن ، وإن بذلوا لفتحها مُهْجهم وأرواحهم . لذا قال الفرس حين رأوهم : إنا لا نقاتل إنساً بل نقاتل جنّاً ، ثم لم يثبتوا لهذا الجن الذي جاءهم من خلل الموج وكأنه بعض قوى القدر التي تزلزل الأرض وتدكّ الجبال . أليست البراكين والصواعق من قوى القدر ! كذلك كانت الكتيبتان ، وكذلك كان سعد وسائر الجيش إذا اندفعوا إلى النهر فرقة بعد فرقة يُحِيلون لجة مائه خيولاً وفرساناً . كيف لقوة أن تثبت أمام هذه القوة ! وماذا يصنع الفرس ، وقد انحلت قواهم وتحطمت روحهم ، إلا أن يفروا أمام هذا الجن الذي جاءهم فلا نفوسهم رعباً وفرعاً ! .

« هذه معجزة لم يُر مثلاً في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع » . تلك ألفاظ ابن كثير . ولولا أن تيمورلنك أتى بمعجزة مثلاً ، إذ عبر جيشه النهر سباحين هاجم بغداد في العقد الأخير من القرن الرابع عشر المسيحي ، لتردد بعضهم في تصديقها . بل إن البلاذري

ليذكرها في شيء من الحذر ، ويضيف إليها روايات يراها أدنى إلى أن تصدق . من ذلك رواية أبان بن صالح إذ يقول : « انتهى المسلمون إلى دجلة وهي تطفح بماء لم ير مثله قط وإذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر إلى الجزيرة الشرقية وحرقوا الجسر ، فانغم سعد والمسلمون إذ لم يجدوا إلى العبور سبيلا ، فانتدب رجل من المسلمين فسبح فرسه وعبر فسبح المسلمون ، ثم أمروا أصحاب السفن فعبروا الأثقال . فقالت الفرس : والله ما تقتلون إلّا جنّا فانهمزوا » . ومنه رواية أبي عمرو بن العلاء إذ يقول : « لم يجد سعد معابر فدلّ على مخاضة عند قرية الصيادين ، فأخاضوها الخيل ، فجعل الفرس يرمونهم ، فسلّخوا غير رجل من طيئ لم يصب يومئذ غيره » .

أنت لا رب ترى ما في هذه الروايات من احتياط يشعر بأن أصحابها يترددون في التسليم بالرواية التي سقّاها وأجمع عليها الطبري وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير وغيرهم . لكن هذا الاحتياط لا ينفي هذه الرواية ولا يثبت ما يعارضها ، وإنما هو احتياط من يرى فيها عجباً يدعو إلى شيء من الشك فيها . ولو أن هؤلاء الذين تشككوا عاشوا إلى أواخر القرن الرابع عشر للمسيحي وعرفوا أن تيمورلنك عبر دجلة بجيشه ، كما عبره سعد بجيشه ، لانقضى عجبهم وزال من نفوسهم كل شك في الرواية التي اجتمعت الأقوال عليها ، بل لما رأوا عجباً فيما يدعو منها إلى العجب ، ولأيقنوا أن سعداً « اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد . فساروا فيها كأنما يسرون على وجه الأرض حتى ملثوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة . وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن ، والثوق بأمر الله ووعدده ونصره وتأيبده . . . وأن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر ، وقد رمى بهم في هذا اليم فسدّهم الله وسلبهم ، فلم يفقد من المسلمين رجل واحد ، ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل كانت علاقته رثة فدفعه الموج إلى الجانب الذي يقصدونه ، فأخذه الناس ثم ردّوه على صاحبه . . . وكان الذي يسير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي ، فجعل سعد يقول حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، ولهم من الله عدوه ، إن لم يكن

في الجيش بنى أو ذنوب تغلب الحسنات . فقال له سلمان : ذَلَلْت لهم والله البحور كما ذُلِّل لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده لَيَخْرُجُنَّ منه أفواجا كما دخلوا أفواجا . فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفرق أحد ولم يفقدوا شيئا .

وخرج جيش المسلمين من الماء تنفض خيوله أعرافها صاهلة ، ودخلوا اللدائن فلم يجدوا إلا من تحصن بالقصر . ذلك أن يزدجرد كان قد أخذ سائر أهله وما قدروا عليه من الأموال والمتاع وفرّوا إلى خلوان . ودعا سعد من تخصصوا بالقصر لينزلوا ، ودخل بجنده ، وجعل يحيل بصره فيما احتواه هذا القصر المنيف من نفائس ومُتَع ويتلو قوله تعالى : « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَبُيُوتٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكَبِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ » .

ما أعظم هذا الفتح وأجله ! فهذه مدينة كسرى وهذا إيوانه . وهؤلاء هم جنود شبه الجزيرة المجذبة الجرداء يسرون تولاهم البهر خلال جنات القصر بين أزهار يانعة وأشجار باسقة وثمر وفاكهة وأعنان شتى ألوانها ، لم تقع أعينهم قط على مثالها . وينتقلون من الحدائق إلى الأهواء فيزبددهم مافيها بهراً . نقوش جلّ جلالها وجلّت دفتها عن الوصف ، وأنث لم يروا في دمشق نظيره ، ووطنافس من حرائر فارس طرّزت بالذهب والفضة ، وأسباب الترف والنعمة تجمت إلى هذا الإيوان من بدائع صنع الشرق في مختلف أرجائه . أى شيء هذا كله ! وهل يجزى الشكر لله عنه ؟! لكن سعداً وأصحابه لا يملكون غير الشكر لله على ما فتح عليهم . لذلك صلى سعد شكراً لله صلاة الفتح ، ثمانى ركعات بتسليمة واحدة ، ثم أمر أصحابه فجاءوا بعمالات المسلمين من الحيرة ومن سائر مدن العراق وقره ، فأنزلهم في اللدائن .

ونزل سعد قصر الأكاسرة وأقام به ، واتخذ الإيوان مصلى ، وترك مابه من تماثيل قائم لم يحركه ، وماله يحركها ولم تسكن إلا بعض الزخرف الذى ازدان به القصر وازدانت به أبهاؤه جميعاً ، وإن خُصّ الإيوان منه بأكثره بهاء وروعة ! وقد كسا الزخرف وكست النقوش جدران القصر من مستوى الأرض إلى أعلى العقود ، ثم تركت الجدران التى تبدو للنظر من الخارج ملساء ساطعة البياض .

ووجد سعد خزائن كسرى مترعة بالأموال وبنفيس الثياب والأمتعة والآنية والألطاف

والأدهان وما إلى ذلك مما لا تعدّ الألفاظ والأرقام عن قيمته . وكان سعد قد بعث جنده يطاردون يزدجرد والذين فرّوا معه إلى حلوان ، فأدركوهم وجاءوا به بما حملوه ، فإذا قيمته تضاهى قيمة ما بالقصر . ووجد المسلمون بدور المدائن من التحف والنفائس ما أذهل خيالهم ، وما دلّ على ترف أهلها ترفاً لم يعرفه غير الفرس .

وإننا لتتولانا الدهشة اليوم لنفاسة هذه الغنائم وقيمتها وكثرتها ، فلا عجب أن تولّت أولئك الفاتحين الذين رأوا هذه الغنائم بأعينهم أضعاف ما يتولانا من البهر والدهشة ، وأن يذكر المؤرخون العرب هذه الغنائم في تفصيل يسوّغ دهشتنا ودهشة الفاتحين .

ذكروا أن سعداً وجد بخزائن كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف دينار ، ثلاث مرات ، ووجدوا بالقصر من التحف والأمتعة ما لا تُدرى قيمته . وجاء الذين خرجوا في أثر يزدجرد بتاج كسرى مرصّعاً بالدر والجوهر : وبثيابه من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ، ومن غير الديباج منسوجاً ومنظوماً ، كما جاءوا بخزائن كسرى ووشاحه ودرعه التي فيها الجوهر . وطارد القعقاع بن عمر فارسياً فقتله وأخذ منه عيّبتين فيهما أسياف وأدراع لكسرى ولهرقل وخلقاقان الترك وللعنمان والملوك آخرين غزاهم الفرس وغزّوا الفرس . وجاء عصمة بن خالد الضبيّ بسفطين في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولّباته الياقوت والزمرّد المنظوم على الفضة ، ولجامه كذلك ، وفارس من فضة مكلل بالجواهر ، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل^(١) مع ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت . وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر . ووجد المسلمون بدور المدائن سلالاً مختومة برصاص ظنوا ما فيها طعاماً فإذا هو آنية من الذهب والفضة وبلغ من كثرة ما وجدوا من ذلك أن كان الرجل يطوف لبيع الذهب بالفضة متائلين . ووجدوا بدور المدائن كذلك كافوراً كثيراً أحسبوه لكثرتهم ملجأً فجعفوا به فوجدوه مرأ . ترى أغرت هذه الكنوز أولئك العرب . فهم أحد منهم بأن يأخذ شيئاً منها لنفسه ولا يرده إلى من ولّاهم سعد قبضها لنفسه من بعد ؟ كلا ! بل جاء كل بما استولى عليه من السلب فسلمه وإلى القبض حتى يرى سعد فيه رأيه . وإسا جاء القعقاع بن عمر

(١) الشليل هنا : مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرجل .

بأسياف كسرى والملك وأحضرها عند سعد خيَّره بينها ، فاختار منها سيف هِرقل وترك سائرهما . وأقبل رجل إلى والي القبض بِحُقيّ نفيس ، فقال والي والذين معه : ما رأينا فيما عندنا مثل هذا ما يعدله أو يقاربه ، وسألوا الرجل : هل أخذت منه شيئاً ؟ قال : لا والله ، لولا الله ما أتيتكم به ! وسألوه : من هو ؟ فقال : لا أخبركم فنحنمَدوني ، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه . وعرف سعد أمر هذا الرجل وأمثاله ، فقال : والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر . وكان جابر بن عبد الله يقول : « والله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة . فقد اتهمنا ثلاثة نفرهم طليعة وعمر بن معدى كرب وقيس بن المكشوح فما رأينا كآماتهم وزهدهم » . وهذه الشهادة من جابر لأولئك الثلاثة لها دلالة خاصة ؛ فقد كانوا على رأس المرتدين الذين حاربهم أبو بكر وحاربوه حرصاً على الدنيا وسلطانها . وهام أولاء حَسُنَ إسلامهم . فأصبحوا في طليعة العرب جهاداً في سبيل الله ، وزهداً في الدنيا ، وتقرباً إلى الله بالعمل الصالح والبلاء في الحرب أحسن البلاء .

فصل سعد خمس الغنائم ليرسله إلى المدينة ، وحرص على أن يكون فيه كل ما يُعجَّب منه العرب وكل ما يُعجبهم . ثم أراد أن يرسل خمس القطيف ، وهو بساط كسرى ، فرآه لا تعتدل قسمته ، فقال للمسلمين : هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه ، فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء ، فإننا لا نراه ينفق وهو بيننا قليل ، وهو يقع من أهل المدينة موقعاً ؟ وكان هذا البساط مربعاً ستون ذراعاً في مثله ، وكانت الأكاسرة تَعِدُّه للشواء إذا اشتدَّ القَرّ وذهبت الرياحين . وقد صوّرت في هذا القطيف طرق المملكة وبُسِطت فيه الأرض مُذهبة تجرى خلالها أنهار رصعت بالدر ، وجعلت حافاته كالأرض المزروعة فيها نبات الربيع قام على سوق من ذهب ، وجُعل ورقه من الحرير وثمره من الجواهر . وأقرَّ الناس رأى سعد ، فأرسل القطيف مع الخمس إلى المدينة .

وقسم سعد الفِء في الجند ، وكان قد تم ستين ألف فارس ، فأصيب الفارسُ منهم اثني عشر ألفاً ، ثم جعل لأهل البلاد على قدر بلائهم . وقسم سعد المنازل بين الناس ، وأنزل العيالات في الدور فأقاموا بها حتى ارتحل غن ارتحل منهم عنها بعد أن امتد الفتح

إلى ما وراءها من ريف فارس؛ وأنت في حِلٍّ من أن تصوّر لنفسك مبلغ ما أدّت إليه هذه المغامم من غبطة الناس، ومن حماسهم لفتح جديد يدرّ عليهم مغامم جديدة .

ذهب بشير بن الخصاصية بخمس الف إلى المدينة، ووضعه بين يدي أمير المؤمنين، وكان عمر قد سبقت إليه الأنباء بفتح المدائن، إذ كتب سعد إليه بما يجعله كأنه حاضرها. مع ذلك دهش لما رأى من كثرة هذا الف ونفاسته وإحضار المسلمين له كاملاً، فالتفت إلى من حوله يقول: «إن قوماً أرادوا هذا الأمان!». وأجابه عليّ بن أبي طالب «إنك عفت فعمّت رعيتك. ولو رمت لرتعت». ونظر عمر إلى ثياب كسرى وأسيافه ودروعه، فألبسها خشبة ونصبها أمامه ليرى الناس ما في هذه الزينة من العجب. وقيل إنه دعا إليه سُرّاقه بن جُعشم، وكان من أجسم العرب وأبدنهم، فألبسه قميص كسرى وسراويله وقبائه وسيفه ومنطقته وسواريه وتاجه وخفيه وقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال: بَحِّجْ بَحِّجْ، أعيراني من بنى مدج عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه! ربّ يوم يأسرّاق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفاً لك ولقومك!.. وقيل كذلك إنه كانت لكسرى عدة أزياء لكل حالة زيّ، فجاء عمر بأجسم عرى بأرض المدينة وجعل يلبسه إياها زيّاً بعد زيّ، فيرى الناس ينظرون إليها أمراً عظيماً من سحر الدنيا وفتنتها. فلما فرغ الأعرابي من لبسها جميعاً رفع عمر رأسه إلى السماء وقال: «اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحبّ إليك مني، وأكرم عليك مني؛ ومنعته أبا بكر، وكان أحبّ إليك مني، وأكرم عليك؛ وأعطيتني، فأعوذ بك أن تسكون أعطيتني لتسكن بي!».

هذه لفظة من لفتات عمر سيذكرها من بعد، وسيذكر أثرها في الأمة في صراحة دونها كل صراحة؛ فقد أحسن بما لهذا الترف من فتنة تجذب النفوس إليه: فتجعلها مثلاً الأعلى تتفق في سبيله كل ما أوتيت من قوة وتدير، وتنفرد لذلك عن المعاني الإنسانية الكريمة التي تسمو بقلوبنا وعقولنا إلى أرفع الذرى، فتقرّبنا من الله، وتجعلنا بفضل منه نرى وجه الحق ذي الجلال. ولهذه اللفتة، ولخشية عمر أن يكون الله قد أعطاه متاع كسرى ليسكر به، بكى حتى رحمه من كان عنده، ثم أشار إلى هذا المتاع

وقال لعبد الرحمن بن عوف : « أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمشي ! » .
 وقسم عمر الخمس بين الناس على أقدارهم ، ونقل منه من غاب ومن شهد من أهل
 البلاء . ورأى القطيف لا ينقسم فقال لمن حوله : « أشيروا علىّ في هذا القطيف » .
 قال الملاء : قد جعل لجند ذلك لك ، فالرأى فيه رأيك . وقال بعض : إنه لأمر المؤمنين
 لا يشركه فيه أحد . وأبى عمر أن يقبضه أو يبدى في أمره رأياً . فقام علىّ بن أبي طالب
 فقال : « لم يجعل الله علمك جهلاً ، ويقينك شكاً . إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت
 فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفانيت . وإنك إن تبقي اليوم على هذا لم
 تعدم في غد من يستحق به ما ليس له » . قال عمر : « صدقتني ونصحتني » . ثم قطع
 القطيف وقسمه بين الناس ، فأصاب عليّاً منه قطعة لم تكن أجود تلك القطع ، ومع ذلك
 باعها بعشرين ألفاً .

بينما كان عمر يقسم الفء بين الناس بالمدينة ، فبرى الناس فيما يصيهم منه نعمة
 من الله لم يكن لهم من قبل يمثلها عهد ، كان سعد بن أبي وقاص قد اطمأن بالمدائن واستقر
 بقصر كسرى ، وجعل إيوانه مصلى للمسلمين ؛ ينادى فيه باسم الله ، وتقام فيه الصلاة ،
 ويجتمع الناس به كل جمعة ليخطبهم سعد ويؤمهم . وكان يزددجرد قد نزل حلوان
 مغموماً مدحوراً ، يقطع لهم نياط قلبه ويفرى الأمى كبده ، ويذكر عظمة فارس وجلال
 مجدها ، فيزداد به الحزن ، ويتراءى له شبح رستم وما كان يذكره من دلالات النجوم .
 أين يومه اليوم من تلك العهود الخوالي حين زحف أسلافه من إيران إلى العراق فاكنتسحوه
 إلى شواطئ دجلة ، وحين أقاموا بطيسفون قبالة سلوقية ، وحين مدّوا طيسفون وضموا إليها
 ما حولها من البلاد ، وجعلوا منها ومن سلوقية بلداً واحداً هو المدائن ، ثم أطلقوا على سلوقية
 اسم بهر سير لينسى أهلها أيام عزها ، إذ كانت مدينة يونانية حريصة على استقلالها حرص
 أثينا على استقلالها ، وحرص إسبرطة على استقلالها ! وأين يومه اليوم من عهود أجداده
 الأكرسة بنى ساسان الذين دوخوا العالم ، ومن عهد جده أردشير صاحب القصر
 والإيوان والفخامة والنعمة ! ! إنه اليوم مايك غلب على أمره ، وطرد من عاصمة ملكه ،
 ففر كما يفر الجبناء . أترأه يصبر على هذه الهزيمة ويرضى بهذه النكبة ؟ وهل كتب

القدر لهؤلاء العرب أن يطاردوه إلى أقصى الأرض ؟ إنَّ به من حرارة الشباب وإقدامه ما يمدُّ له في جبال الأمل . أفبقيت له من هذا الأمل بقية ؟ أم حطمت الهزيمة هذا الإقدام وأثلجت تلك الحرارة ، ففضت في نفسه على كل أمل وكل رجاء ؟ ! .

لم يفكر الشاب المنهزم في شيء أول ما نزل حلوان . لقد عرض على المسلمين الصلح على أن يكون دجلة حدًّا فاصلا بينه وبينهم . أتراهم وقد فتحوا المدائن يكتفون بها ويقفون عندها ؟ إنهم إن فعلوا يمحّطوا بعض رجائه ، والمستقبل كفيل من بعدُ بتدبير شأنه . لكنهم منتصرون ، والمتنصر لا يعرف هوادة ، وجيوشه الكثيرة تطير إلى كل جانب تطلب النجاة . فليترك الأمر للأيام ! وغد لناظره قريب !

ماذا يكون في غد ؟ ذلك حديثنا في الفصل التالي .

الفصل العاشر

المسلمون في العراق

استقر سعد بقصر كسرى ، وأقام المسلمون في دور المدائن من حول القصر ينعمون بحياة دعة ونعمة . وما لهم لا يفعلون وفي أيديهم من المغنم التي نفلوها ما يكفيهم السنين ، وأقواتهم تفيهم من البلاد المجاورة سهلة وفيرة ، ودجلة تجري من تحتهم فينسيهم البادية وكثبان الرمال ، والجسر الذي يصل بين سلوقية وطيسفون ، ويجعل منهما هذه المدائن البارعة مقننه المترفين ، جدير بأن يلهم الشاعر العربي ما ألهم مثل هذا الجسر ببغداد على بن الجهم إذ قال :

عيون الممّا بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري !
وكان الناس يجتمعون بسعد في قصر كسرى ، فيتحدث سعد إلى ذوى العلم منهم بماضى هذه البلاد ، ويذكر ويذكرون أياما سلفت كانت فيها مقراً حضارة العالم . ففي أرجاء مختلفة منها قامت دول البابليين والآشوريين والكلدان ، وكانت بعض هذه الدول تستقر بها ، وكان بعضها يطرأ عليها ثم يترحل عنها ، ثم تطلق كل دولة اسمها على الجانب الذي استقرت به بين النهرين : دجلة والفرات .

و « بين النهرين » اسم أطلق هو أيضاً على هذه الأصقاع من أقدم العصور ؛ فكذلك كانت تسمى عهد الفراعنة الأقدمين حين امتد سلطان مصر إليها ، وكذلك كانت تسمى حين خضعت لحكم الإغريق بعد حكم الفراعنة ، ولا عجب أن يظل هذا الاسم باقياً لها إلى اليوم ، وهو يصف موقع أرضها بين نهرين يجريان فيها بالخصب والحياة . ولم يطلق اسم العراق على ما بين النهرين إلا بعد أن دخلت في سلطان الفرس ؛ فقد زحف الفرس من سهل إيران إليها بعد أن جلا الفراعنة والإغريق عنها ، فاكسحوا البلاد إلى شواطئ دجلة وما وراءها ، وأقاموا بطيسفون عاصمة ملكهم ، ثم جعلوا منها ومن البلاد السبع المحيطة بها ومن سلوقية اليونانية المستقرة ، تلك « المدائن » التي أقامت

قروناً تُزَهِّي على التاريخ بجلال عظمتها ، وسعة سلطاتها ، وطائل ثرائها ، وترف أهلها . وإذا كانت بلاد ما بين النهرين تجاور العراق العجمي ، فقد غاب الفرسُ عليها اسمه ، واعتبروها جزءاً منه ، كما اعتبروا سلوقية جزءاً من طيسفون . ومن يومئذ أطلق اسم العراق على هذه البلاد .

ويمتد هذا العراق الذي غلب المسلمون عليه الفرس من دلتا النهرين جنوباً ، حتى ينتهي في الشمال إلى ما دون بلاد الموصل ، متاخماً الشام من أعلاه مُتَّاحَةً كان لها أثرها في تاريخ الفرس والروم ، ثم كان لها أثرها في تاريخ الفتح الإسلامي . وقد أدت متاخمة العراق للشام إلى انتقال الأديان التي ظهرت بفلسطين إلى ربوعه ، وإلى غزوها وثنية اليونان ونجوسية الفرس فيه . ولذا استقرت به جالية كبيرة من اليهود ، ثم انتقلت النصرانية إليه بعد انتقالها إلى الشام .

ولما كانت بلاد ما بين النهرين تجاور العرب ، كما تجاور العجم ، فقد نزحت إليها قبائل كثيرة من شبه الجزيرة ، استقرت بها وجعلتها منازلها ، كما نزحت إلى الشام قبائل كثيرة استقرت به وجعلته منازلها . فلما غزا العرب ما بين النهرين كانوا قد ألفوا العراق اسماً لهذه البقعة من الأرض ، فلم يُطلقوا عليها اسماً غيره ، ثم أطلقوا اسم السَّوَاد على ما بين دجلة الفرات وما جاورها . وليفرقوا المؤرخون بين هذا العراق وعراق العجم أسموا أحدهما العراق العربي ، والآخر العراق العجمي .

وطبيعة الأرض في العراقين متباينة أشد التباين ؛ فالعراق العربي سهلٌ يجري فيه النهران ، وتنتشر فيه شبكة من الأنهار والجداول والغدران ، تجعل الجانب الأكبر منه أخضر يانعاً كثير الخيرات وافر الثمرات . وهو ينتهي من الشرق إلى جبل رفيع الذرى يفصل بينه وبين العراق العجمي ، تتلاحق وراءه جبال وأودية تنتهي إلى سهل إيران . وقد كان هذا الجبل حاجزاً طبيعياً شديداً المنعة ، يفصل آسيا وشرقها الأقصى عن هذه البلاد الواقعة في غرب آسيا ، والتي كانت لذلك أكثر انصالاً بالشعوب المقيمة حول البحر الأبيض في إفريقية وأوربا منها بالبلاد المجاورة لها في الشرق .

وكان من أثر هذا الوضع الجغرافي الذي أتاح لقبائل العرب أن تهاجر إلى العراق

وإلى الشام أن امتدت منازل الجنس العربي من خليج عدن والمحيط الهندي في الجنوب إلى أقصى الشمال من أرض العراق والشام ، وأن خضعت هذه القبائل كما خضعت أرجاء كثيرة من شبه الجزيرة قرونًا طويلة لحكم فارس والروم . وهام أولاء عرب شبه الجزيرة يغزون الدولتين العظيمتين ، فيباغون دمشق في الشام والمدائن في العراق ، وينزل سعد ابن أبي وقاص قصر كسرى في عاصمة ملكه .

وأقام سعد بالعاصمة الفاتنة حتى جَمَّ وجَمَّ جنده . وما كان له أن يتعقب الفرس في بلاد العراق العربي المترامى الأطراف فيما وراء دجلة ، فلم يكن عمر قد أذن له في تعقبهم . لذلك لم يزد على تنطس أخبارهم وإرسال العيون من رجاله ليعودوا إليه بأنبيأهم . وقد جاءته الأنبياء بأن الفرس الذين فروا منهنزمين بلغوا جُلّولاء ، على نحو أربعين ميلاً في شمال المدائن ، وأنهم رأوا الطرق عندها تفترق إلى شتّى الأرجاء من إيران ، فقال بعضهم لبعض : « لو افترقتم لم تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرّق بيننا . فلهوا فليجتمع للعرب به ولفقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذي نحب ، وإن كانت الأخرى كفا قد قضينا الذي علينا وأبدينا عُذراً » . وجاءته الأنبياء كذلك بأن يزدجدا اجتماع إليه وهو في طريقه إلى حُلّوان رجال وأعوان وجنود من شتّى البلدان ، فأمر عليهم مهران ووجهه معهم إلى جُلّولاء ، وأقام بمقره الجديد يمدّم بالرجال والأقوات . واجتمع هؤلاء وفُلال المدائن واحتفروا حول المدينة خندقاً عظيماً أحاطوه بحسك الحديد ، وأقاموا بها في القُدَد والعدَد وآلات الحصار وتوائموا وتعاهدوا ألا يفروا ، وأن يفنوا المسلمين عن آخرهم ويُجْلّوهم عن بلادهم .

جاءت هذه الأنبياء سعداً وهو في مقره بقصر كسرى ، فبعت بها إلى عمر بالمدينة . وكتب عمر إليه أن سَرَّحْ هاشم بن عتبة إلى جُلّولاء في اثني عشر ألفاً ، واجعل على مقدمتهم القَعَمَقاع بن عمرو ، وعيّن له من يكونون على الميمنة والميسرة والساقة بأسمائهم . وكان الجند قد جَمَّ واستراح ، وتحركت في نفسه الحماسة للقتال ، بعد أن قضى بالمدائن أشهراً استمتع فيها بما فتح الله وأفاء عليه من مغانم طائلة لا عهد له بمثلها^(١) . وبلغ هاشم

(١) تجرى بعض الروايات بأن المسلمين أقاموا بالمدائن أياماً ، ثم سار هاشم بن عتبة إلى جُلّولاء حين بلغهم اجتماع الفرس بها . هذه الرواية مرجوحة في رأينا لما يقتضيه استعداد الفرس وإمداد يزدجرد =

جلولاء ، فأنفى الفرس متحصنين بها ، مستميتين في الدفاع عنها ، فحاصرها . ولم يكن الحصار وحده ليحملها على التسليم ؛ فقد كانت الإمداد تجيء إليها تباعاً من حلوان ، كما كانت الإمداد تجيء إلى المسلمين تباعاً من المدائن . لذا طال الحصار ثمانين يوماً كان الفرس يخرجون أثناءها للقاء المسلمين ثم يردون إلى حصونهم منهزمين . وأيقن الفرس أنهم إن أقاموا على ذلك ذهبت شوكتهم ، ولم يغن عنهم أنهم أضعافُ جند المسلمين عدداً . لذا أمرهم قائدهم مهران يوماً فصبّحوا المسلمين بأهول الحرب . يقول ابن كثير : « فاقْتَتَلُوا قتالاً شديداً لم يُعْهَدْ مثله حتى فنى النشاب من الطرفين ، وتقصفت الرماح من هؤلاء ومن هؤلاء . وصاروا إلى السيوف والطبّزِينات ^(١) ، وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماءً ، وذهبت فرقة المجوس وجاءت مكانها أخرى ، فقام القعقاع بن عمرو في المسلمين فقال : أهالكم ما رأيتم أيها المسلمون ؟ قالوا : نعم ! إنا كألّون وهم مريحون ، فقال : بل إنا حاملون عليهم ومجدون في طلبهم ، حتى يحكم الله بيننا ، فأحبلوا عليهم حملة رجل واحد حتى نُخالطهم ! فحمل وحمل الناس . فأما القعقاع فإنه صم الحملة في جماعة من الفُرسان والأبطال والشجعان حتى انتهى إلى باب الخندق . وأقبل الليل بظلامه . ورأى القعقاع الناس يتحاجزون لإقبال الليل فنادى مناديه : « أين أيها المسلمون ! هذا أميركم على باب خندقهم ، فأقبلوا عليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله ! » . وحمل المسلمون وقاتلوا عدوهم قتالاً أذكرتهم شدّته ليلة الهرير إلا أنه كان أعجل . فلما انتهوا إلى باب الخندق ورأوا القعقاع قد أخذ به ، ورأوا الفرس ينهزمون أمامهم يَمْنَةً وَيَسْرَةً إذ يحول الخندق

== لايام من حلوان ، من زمن . يضاف إلى ذلك أن سعداً ما كان ليعث جيشاً إلى جلولاء دون أمر صريح من عمر ؛ فذلك كانت سياسة الفاروق كما كانت سياسة أبي بكر . ولم يكتب سعد إلى عمر إلا بعد أن أحصى فيء المدائن وقسمه ، وبعث بالجنس إلى المدينة فقسمه عمر في الناس كما رأيت . ثم لأنه لم يكتب إليه إلا بعد أن وقف على جليلة الخبر عن اجتماع الفرس بجلولاء ولإمداد يزدجرد لايام من حلوان . وكتابه إلى عمر بعد هذا كله ورد عمر عليه ليسرح هاشما ، يرجع عندنا أن هاشما لم يفصل بقوته من المدائن إلا بعد زمن من مقامهم بها . والطبري يورد رواية تؤيد ما نرجعه إذ يقول : « كان فتح جلولاء في ذى القعدة سنة ست عشرة في أوله ، بينها وبين المدائن تسعة أشهر » . وسرى أن فتح جلولاء تم بعد حصار داء ثمانين يوماً إذا أسقطت من تسعة الأشهر التي تذكرها الطبري بقي منها ستة أشهر أقامها المسلمون بالمدائن قبل مسيرة هاشم إلى جلولاء .

(١) الطبّزِين : من آلات الحرب يشبه القأس .

بينهم وبين الارتداد إلى المدينة . عند ذلك أخذهم المسلمون من كل وجه وقعدوا لهم كل مرصد ، حتى لقد قُتل منهم في ذلك الوقت مائة ألف رجل .

وفر من بقي منهم يريدون حلوان ، فاتبعهم القمعاق فأدرك مهران بخانقين فقتله . وفرّ الفيرزان على فرسه ينهب الأرض إلى حلوان ، فذكر ليزدجرد مصيبة حلوان ، فقر يزدجرد إلى الرّبي . وقدم القمعاق حلوان ، فخرج إليه حُماها فقاتلوه قتالاً شديداً ، ثم انهزموا أمامه ، ودخل المسلمون المدينة فغنموا وسبّوا وضربوا الجزية عليها وعلى ماحولها من الكُور والأقاليم .

وكتب سعد إلى عمر بفتح حلوان وبالغنائم العظيمة التي غنمها المسلمون فيها ، وبنزول القمعاق حلوان ، واستأذنه في مطاردة الفرس داخل بلادهم . لكن عمر آثر الحذر فخالف بطل القادسية وفتح المدائن عن رأيه ، وكتب إليه يقول : « وَدِدْتُ لو أن بين السواد والجبل سداً لا يوصلون إلينا ولا نخلص إليهم . حسَبْنَا من الريف السواد ! إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » .

كان هذا الرأي الذي رآه عمر كله السواد . وليس يقف سداده عند إثبات سلامة المسلمين على كل ما سواها ، بل يتخطى ذلك إلى أن المسلمين لم يكونوا قد أمِنوا العراق واطمأنوا إلى حياة الاستقرار فيه ؛ فقد كان شماله لا يزال مخشياً لانتقاض ، مع انتصار المسلمين فيه بتكريت والموصل وهيت وقرقيسياء ، وذلك بعد فتح المدائن . وكان جنوبه على مثل هذه الحال مع إخضاع المسلمين إياه قبل المدائن وبعدها . فليس من بُعد النظر في شيء أن يدفع المسلمون جنودهم إلى جبال إيران وإلى ما وراء هذه الجبال من سهول مترامية الأطراف ، فإذا انتقض العراق من بعد ، كما انتقض قبل نزول سعد به وانتصاره الحاسم فيه ، لم يكن التغلب عليه أمراً يسيراً . ومن الخير أن يتخذ المسلمون جبال إيران حداً فاصلاً بينهم وبين الفرس ، وأن يفرغوا للقضاء على كل أثر للانتقاض بالعراق ، ليفرغوا بعد ذلك إلى تنظيم الحكم فيه .

هذا ، ثم إن سياسة عمر كانت إلى ذلك العهد سياسة عربية ترمى إلى ضم الجنس العربي الممتد من المحيط الهندي إلى شمال العراق والشام في وحدة يكون السلطان فيها

لشبه الجزيرة ، بل يكون السلطان فيها للمدينة . وحسبُه أن تطمئن هذه الربوع جميعاً لوحدها تحت هذا السلطان ، وأن تُسكَّلَ فيها حرية الدعوة لدين الله بالحجة والموعظة الحسنة ، وأن يكون بينها وبين الفرس والروم من حسن الجوار ما يُذهب عن العرب والمسلمين الرُّوع . والله مظهرٌ بعد ذلك دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .

لم يكن لسعد إلا أن ينزل على رأى أمير المؤمنين وحكمه . وقد أَرْضَى هذا الرأى الأبطال والجند بعد إذ رأوا القوّات تسير بين حين وحين تقمع كل انتقاض يحدث في أنحاء السواد ، وبعد إذ وقع لهم من مغنم القادسية والمدائن وحولاء أضعاف ما كانوا بطمعون فيه ، فلم يكن حظ الحارب من مغنم حولاء دون حظه من مغنم المدائن . كان المال الذى أصابوه منها ثلاثين ألف ألف ، فيه من النفائس والتحف ما حمله الذين فرّوا من المدائن . ثم لأنهم أصابوا من الدواب وعُدّة الحرب ما لم يدع الفرس شيئاً منه بالعاصمة ، كما أنهم سبوا بجولاء ولم يقع لهم بالمدائن سبي . فلما قسم سعد هذا الفء العظيم أصاب كل فارس تسعة آلاف وتسع دواب غير من كان له حظ في السبايا ومن بينهم من نشأ في الدلال والنّعمة ، فأعجزتهم هذه النشأة عن الفرار في الجبال والسهول .

وبعث سعد بأخماس هذا الفء إلى المدينة مع جماعة فيهم زياد بن أبي سفيان . فلما قدّموا على عمر وصف زياد فتح جولاء وحلوان في بلاغة وبراعة وصفاً دفع عمر إلى أن يقول له : « هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذى كلمتني به ؟ » . وأجابه زياد : « نعم يا أمير المؤمنين ! فوالله ما على وجه الأرض رجل أهيب في صدرى منك ، فكيف لا أقوى على ذلك مع غيرك ! » . وقام فقصّ على الناس خبر الواقعة وفعال أبطال المسلمين فيها ، وكم قتلوا من الفرس ، وما أصابوا منهم ، كل ذلك في عبارة قوية أخّاذة بمجاميع القلوب . وأعجب عمر به فقال : هذا والله الخطيب المصنّع ! ومست هذه التحية قلب زياد فقال : « إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا » .

وأشار بعض أصحاب الرأى على أمير المؤمنين أن يجعل الفء في بيت المال ، فقال : والله لا يحنه سقف بيت حتى أقسمه ! وبات الفء في صحن المسجد وعليه عبد الرحمن ابن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه . فلما أصبح عمر وصلى بالناس الغداة وطلعت الشمس

أمر فكشِف عن النخبة ، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره وذهبه وفضته بكى ؛ فقال له عبد الرحمن بن عوف : « ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟ ! فوالله إن هذا لموطنُ شكر ! » قال عمر : « والله ما هذا يُبكي ! والله ما أعطى الله قوماً هذا إلا تحاسدوا وتباغضوا ، وما تحاسد قوم إلا أُلقي بأسُهم بينهم » .

تقف هنية عند هذه الحكامة الحكيمة . فلم يكن العرب يعرفون الكسب الهين قبل أن ينهال عليهم هذا النخبة العظيم من كل صوب ، بل كانوا يسعون في منا كسب الأرض يتبعون من رزق الله ، فينال كل منهم جزاء عمله على قدر حظّه ، كانوا يذهبون بالتجارة رُحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام يحتملون ما يُصيبهم من مشقة الطريق ومن عادة المعتدين ، وكانوا يحمون القوافل التي تسير بين الغرب والشرق تحمل ما تحمل من أموال ، لقاء أجر يتعرضون في سبيل اقتضائه لقتال من تحدّثهم أنفسهم بسلب هذه القوافل . وكانوا لذلك يلقون العناء في سبيل ما ينالون من أسباب العيش ومُتّع الحياة . وهام أولاء اليوم يغمون من الحروب ما شاء الله أن يغموا ، ويُجسّي إليهم من الخيرات ما شاء الله أن يُجسّي . فما عسى أن يؤدي إليه ذلك الانقلاب الخطير في حياتهم الاقتصادية ؟ ! لا عجب أن ينتهي بهم إلى الدعة وحب الترف . والدعة تدعو إلى التماسد والبغضاء إذ يريد كلُّ أن ينال الحظ الأوفر يزاد به ترفاً ونعمةً . والناس إذا استناموا للدعة لانت قناتهم ، وإذا تباغضوا ذهبت ريحهم . أين ذلك مما يدعو الله إليه من إخاء وتعاون وتساند ليكون أبناء الأمة عزاً للأمة ، وليكونوا أعواناً للحق الذي أوحاه الله إلى رسوله ينصرونه ويعزّزونه ! وقد خشي عمر ما تؤدي إليه الدعة من لين وتباغض فبكى ، وكأنما رأى خلال الغيب ما خطّه القدر في لوحه لهذه الأمة التي بايعته أميرها فغزّب به وعزّبها ، وأسالت النضار بفعالها في صحارى شبه الجزيرة الجرداء .

وقسم عمر هذا النخبة الذي أبكاه بين الناس على ملائ وتساوٍ وإجماع من المسلمين ، ونفل من ذلك بعض أهل المدينة . وقد صنع في هذه القسمة ما صنعه حين قسم النخبة الذي بعث به سعد على إثر غزوة القادسية .

حضر زياد بن أبي سفيان قسمة هذا النخبة ، ثم رجع إلى سعد بن أبي وقاص

بكتاب عمر وأمره ألا يطارد الفرس داخل بلادهم . وقرأ سعد الكتاب فأكبر حكمة أمير المؤمنين . ذلك أنه يوم كتب إلى عمر باجتماع الفرس بجُلُولاء وإمداد يزدجرد إياهم بالقوات من حُلوان ، كتب إليه كذلك بأن أهل الموصل من الروم اجتمعوا بتكريرت على دجلة إلى شمال المدائن ، وأن كثيرين من نصارى العرب من إياد وتغلب والنمر انضموا إليهم ومالئوهم على مقاومة المسلمين . وكتب إليه عمر ، فبعث عبد الله بن المعتم إلى تكريرت في خمسة آلاف ، ساروا إليها وحاصروها أربعين يوماً . وأرهق الحصار المدافعين عن المدينة ، فعزم الروم على الفرار في السفن بأموالهم . وعرف ابن المعتم نبأهم ، فراسل العرب النصارى يدعوهم إلى الإسلام وإلى نصرته على أن يكون لهم مال للمسلمين وعليهم ما علمهم . فلما أجابوه إلى ما طلب ألقى إليهم أن يأخذوا أبواب المدينة المؤدية إلى السفن على الروم ، فإذا خرجوا ليركبوها قتلوا منهم كل من قدروا على قتله . وحمل المسلمون على المدينة ، وكبروا وكبر الأعراب من الجانب الآخر ، فاضطرب الروم وأخذوا في الخروج من الأبواب ، فأخذتهم سيوف المسلمين من أمامهم وسيوف الأعراب الذين أسلموا ليلتئذ من خلفهم ، لم يفلت منهم أحد . عند ذلك جرّد عبد الله بن المعتم ربيع بن الأفكل العنزي ليسير إلى الموصل ، تنفيذاً لعهد عمر في كتابه إلى سعد . وسار ابن الأفكل مسرعاً ومعه من أسلم من إباد والنمر وتغلب ، ففجأ الحِصْنَيْنِ نَيْنَوَى والموصل قبل وصول أنباء تكريرت إليهما . وأراد من بالحصنين المقاومة ، فلما عرفوا ما أصاب تكريرت أجابوا إلى الصلح والجزية : وقسمت مغانم تكريرت فبلغ نقل الفارس ثلاثة آلاف ونفل الراجل ألف درهم .

بلغت هزائم الروم يتكريرت والموصل سمع إخوانهم بالشام ، وكانوا يلقون من بأس خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ماسبقاً نبأه بعد حين ، فتولاهم الفزع أن يبلغ المسلمون بالعراق تخوم الشام فيأخذوهم من خلفهم ، على حين يقاتلهم خالد وأبو عبيدة يدفعونهم متراجعين إلى تلك التخوم . بذلك يحصرون فلا يجدون ملجأ إلا الإذعان والذلّيم . لذا بعثوا إلى أهل الجزيرة المواليين للروم يستعقدونهم على من عندهم من المسلمين وبلغت أنباؤهم هذه سعداً حين رجع هاشم بن عتبة منتصراً من جولاء ، كما بلغه أن جنداً

عظيماً من أهل الجزيرة اجتمعوا بمدينة هيت على شاطئ الفرات، فأرسل إليهم بأمر عمر جيشاً جعل عليه عمرو بن مالك . وألفاهم عمرو وتحصنوا بالمدينة وحفروا خندقاً حولها . فحلف الحارث بن يزيد على حصارهم بعد أن تبين مَنَعَة موقفهم ، وسار هو شمالاً إلى قرقيسياء عند ملتقى الفرات والخابور على تخوم ما بين العراق والشام ، فأخذها عنوةً على غيرة من أهلها فأجابوه إلى الجزية ؛ ثم كتب إلى الحارث بن يزيد أن يُخَلِّى عن الجنود الذين تحصنوا بهيت إذ احم خرجوا منها ، وإلاّ حفر حول خندقهم خندقاً وجعل أبوابه من ناحيته . وبعث الحارث إلى أهل هيت بما عزم من ذلك ، فأيقنوا أنه الحصار حتى الموت ، فأذعنوا وانصرفوا عن المدينة واحتلها المسلمون .

عرف سعد أبناء هيت وقرقيسياء وانتصار جنوده فيهما ، فازداد إيماناً بحكمة عمر إذ أمره ألاّ يتعقب جنود يزيد جرد في جبال فارس وسهولها . فلو أنه تعقبهم بقواته ثم انتفض العراق أو حاول الفرس إثارته لتعذر عليه قمع الفتنة فيه . ولقد بلغه بعد انتصار هاشم بجولاء أن قوات الفرس اجتمعت بما سبَدَّان على تخوم ما بين العراق العربي من الشرق وفارس من الغرب ، فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب في جيش قاتلهم بسهل ماسبدان ، فهزمهم وقتل قائدهم ، ثم طردهم إلى مدينة ماسبدان فاستولى عليها عنوةً ورأى أهلها فروا في الجبال ، فدعاهم فاستجابوا إلى الجزية ، فأقرهم في مدينتهم .

أدّى انتصار هذه الحملات المتلاحقة في شمال العراق وشرقه إلى خضوع أهله لسلطان المسلمين وإذعانهم لأمرهم . وقد أذعن جنوب العراق قبل أن يذعن شماله وشرقه ؛ ذلك بأن أهله رأوا بأس المسلمين منذ غزاهم خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة في عهد أبي بكر وقد انتقض هذا الجنوب على سلطان المسلمين حين انتقض العراق كله على هذا السلطان . فلما وجه عمر سعد بن أبي وقاص إلى القادسية وجه عُتْبَة بن غَزْوان لغزو الجنوب ، فسار ومعه عَرْفَجَة بن هَرْثَمَة البارق إلى الأُبَلَّة ، على مقربة من موقع البصرة اليوم ، فاستردّها من الفرس بعد قتال ظل سجلاً أسابيع عدّة . وكانت الأُبَلَّة يومئذ مرفأً عظيماً ترسو به السفن القادمة من الصين والهند والذاهبة إليهما . وكان به من الهنود المشتغلين بالتجارة عدد كبير . وحل أهل الأُبَلَّة ما خفت من متاعهم ، وخرجوا منها حين انهزم المدافعون

عنها ، ودخلها المسلمون فغنموا ما فيها واقتسموه . ثم عبر عُتبة النهر على أثر الجيش المنهزم وتعقبه ، واستولى على دَسْت مَيْسان وأخذ مَرزُبانها أسيراً وبعث بِمِنْطَقته إلى المدينة . وعرف عمر من حمل المِنْطقة إليه أن العرب بالعراق شَغِفُوا بأنعم الدنيا حبًّا ، فخشى مَغَبَّة ذلك عليهم ، ودعا إليه عُتبة يسأله عما أصابهم . واستخلف عُتبة مجاشع بن مسعود على الجيش والمغيرة بن شُعْبة على الصلاة . فلما عرف عمر استخلافه مجاشعاً أظهر الغضب منه وقال له : « تستعمل رجلاً من أهل الوَبَر على أهل المَدَر ١ . أتدري ما حدث ؟ » وذكر له أن المغيرة بن شعبة هزم الفرس بالمرَّغاب ، وأنه ، رغم انتصار مجاشع بالقرات ؛ قد أسند أمر الجند إلى المغيرة ، حتى لا يكون لبدويِّ إمارة على قرشي أو على رجل من أصحاب رسول الله .

لم يكن انتصار المغيرة على الفرس يسيراً ؛ فقد اشتدَّ القتال وتداوله الفريقان واستامت فيه الفرس . وإنهم لكذلك إذ رأوا كتيبةً حسبوها مدداً للمسلمين فانهذت قوتهم فانهزموا . ولم تكن هذه الكتيبة إلا نساء المسلمين خرجن من أخبيتهن ، وأنخذن من خُمُرهن راياتٍ وسرن بها يُرَدَّنَ معاونة الرجال .

وقد أمر عُتبة بالعودة إلى عمله ، فاستعفاه من ذلك فأبى . وإنَّ عُتبة لنى طريقه إلى العراق إذ وافاه أجله ، فظل المغيرة على إمارة الجند مكانه^(١) .

* * *

اطمأن الأمر للمسلمين في العراق فآن لهم أن يفكروا في نظامه وفي موقفهم منه .

(١) تجرى في فتح الأبله على عهد عمر رواية أخرى يرجحها ابن الأثير ، خلاصتها أن العلاء ابن الحضرمي فكر أيام عمر في غزو دلتا النهرين ، كما فكر الثاني في غزوها أيام أبي بكر . ولكنه لم يصنع شيئاً . فلم يشاطىء الخليج الفارسي إليها بما معه من الرجال ، بل حملهم في السفن من البحرين إلى فارس عابراً هذا الخليج ، فخرجوا إلى مصطخر ، فلقبهم الفرس فالتفوا حولهم ، وحالوا بينهم وبين سفنهم . ولم يكن عمر أذن للعلاء فيما صنع لأنه كان يخشى الغزو في البحر ويأناه . فلما عرف أن العلاء أحيط به مع جرائته وإقدامه واستبسال جنده وظفرهم بالفرس في غير موقع ، أرسل إلى عُتبة بن غزوان أن يسير إليه في جند كثيف لينجده قبل أن يهلك هو ورجاله . وسار عُتبة في اثني عشر ألفاً ساحل بهم وقاتل من لقيهم من الفرس حتى أدرك رجال العلاء وفتش الأبله والأهواز كلها معهم . ثم استأذن عمر في الحج فأذن له : فلما قضى حجه استعفى عمر فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجع إلى عمله . ولأنه لنى طريقه إلى العراق إذا وافاه أجله ببطن نخلة فدفن بها .

أتراهم يتركونه مكتفين بأن يتركوا فيه من رجالهم من يفقهون أهله الذين أسلموا في دينهم ، ومن يحصلون الجزية ممن لم يُسلموا ؟ ذلك ما كان يفعله رسول الله حين كان الناس من قبائل شبه الجزيرة ومن مُدُنْها يعلنون إسلامهم . وكان يبعث إليهم من يفقههم في دينهم ، ومن يقبض منهم الزكاة . ترى لو أن عمر فعل ذلك بالعراق أفكان يأمن العاقبة ، إن رسول الله لم يكن غزا القبائل ولم يكن فتح المدن التي أسلمت ، اللهم إلا مكة والطائف . مع ذلك انتهز المرتدون في أرجاء شبه الجزيرة أول فرصة فأعلنوا تمردهم قبيل وفاته ، ثم انتشر التمرّد وانتشرت الردّة حين بيعة أبي بكر كما تنتشر النار في الهشيم . هذا وأهل شبه الجزيرة كانوا عرباً ، فلم يكن سلطان المدينة ليثقل عليهم ، ولم تكن نفوسهم لتنفّر منه كما ينفّر غير العرب . طبعيّ وقد أدّت ردّة العرب إلى ما عرفت من حروب أن يخشى عمر تمرّد الفرس من أهل العراق ولم يكن أكثرهم قد أسلموا ، بل تمرّد عرب العراق أنفسهم من أسلم منهم ومن بقي على دينه . فقد أُلّف هؤلاء جميعاً سلطان الحيرة وسلطان المدائن وما كان يحيط بهذا السلطان من نعمة ورفاهية ، كما أُلّفوا لونا من الحياة فيه ترف لا يتفق في كثير والحياة العربية في شبه الجزيرة ، ولا يتفق في كثير وتعاليم الدين الذي أوحاه الله إلى النبي العربي . فلو أنهم تركوا وشأنهم لكانوا أدنى من عرب شبه الجزيرة إلى التمرّد . وعمر أبعد نظراً وأشدّ حذراً من أن يدع الفتنة يذرّ قرنهما في بلاد فتحها ، وهي بعد تجاور شبه الجزيرة وقد يمتدّ إليها من هذه الفتنة شررٌ ما أغنى أمير المؤمنين عن التقدير لنتائجها .

لم يكن ذلك وحده ما يخلق بعمر أن يخشاه . فلو أنه آمن بتمرّد أهل العراق إذا تركهم وترك معهم من المسلمين من يفقه الذين أسلموا منهم في دينهم ، لوجب عليه أن يحسب الحساب للفرس الذين انهزموا أمام جيوشه إلى ما وراء جبالهم . لقد تمتّى لو أن بينه وبينهم جبلاً من نار فلا يخلص إليهم ولا يخلصون إليه . ولكن هذا الجبل لم يكن موجوداً . وليس عجيباً أن يفكر الفرس الذين انهزموا إلى سهول إيران في الرجعة إلى العراق ليثأروا لأنفسهم وليستردّوا ما ضاع منهم ، كما فعلوا بعد أن استولى خالد بن الوليد على الحيرة والأنبار ثم فصل إلى الشام مدداً لجند المسلمين فيه . وثأر الفرس لأنفسهم أدنى إلى الذبح

إذا نسحبت قوات المسلمين من العراق . أما إن بقيت به وعززت مراكزها فيه فسيتردد
الفرس طويلاً قبل التفكير في الثأر ؛ فإذا أقدموا عليه كانت جيوش أمير المؤمنين
في مَنعة وقوة وعُدّة للقائهم والقضاء عليهم وردّهم إلى ما وراء جبالهم ، بل كانت في عدة
للتقدم في سهولهم والاستيلاء على بلادهم ، كما استولت على العراق وأزالت عنه سلطانهم .
لم يغيب هذان الاعتباران عن تقدير عمر ، بل لعلهما لم يكونا موضع تفكيره لأنهما
بديهيان ، ولأن عمر يوم عزم متابعة الغزو في العراق لم يكن يقصد من غزوه إلى إجلاء
الفرس عنه وتركه بعد ذلك وشأنه ، وإنما كان قصده أن يضم العراق وأن يضم الشام
إلى هذه الوحدة العربية الممتدة من خليج عدن والمحيط الهندي وخليج فارس في الجنوب
إلى أقصى الشمال من بادية الشام . لذلك كان طبيعياً أن يلي الظافرون بالعراق أمره ،
وأن يطمئنوا إلى الاستقرار به ، وأن يتولوا تنظيم الحكم فيه . أفيقيمون هذا النظام على نحو
ما كان الروم والفرس يصنعون في البلاد التي يفتحونها ؟ أم ماذا عسى أن يكون النظام الذي
يقرره عمر في البلاد المفتوحة للإمبراطورية الإسلامية الناشئة ؟ .

لو أن أمير المؤمنين قدّر لإرضاء جنده الظافر بالعراق لسار على خُطّة الفرس والروم
ويجعل لهذا الجند كل شيء ، وكلما ترك لأهل البلاد إلا الفتكات الذي يفيض عن هذا
الجند ، كما أن دهاقين الفرس لم يكونوا يتركون للفلاحين الذين يعملون في أرضهم إلا الفتكات
الذي يفيض عنهم . وقد غنم جنود المسلمين في القادسية والمدائن وجولاء وغيرها من الوقائع
ما لم يكونوا يحملون بمثله ، وقد رأوا من خيرات العراق في شتّى أرجائه ما يُغريهم بعيش
نعمّة وترف يستمتعون بما يشاءون منه في ظلال سيوفهم . وأنت تذكر ما قاله خالد بن الوليد
لجنوده يوم انتصر بالولجة أول عهد المسلمين بغزو العراق . لقد قام يومئذ فيهم وقال لهم :
« ألا ترون إلى الطعام كرفّغ التراب ! والله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله
عزّ وجل ، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نُقارع على هذا الريف حتى نكون أولى
به ، وتولى الجوع والإقلال من تولّاه ممن أتناقل عما أنتم عليه » . وأين طعام الولجة
من طعام المدائن ! وأين ثراء الفُرات من ثراء دجلة ! وأين عظمة الحيرة وجلال الخوزنق
والسدير من عظمة قصر كسرى ومقر ملكه وعرشه ! والمسلمون هم اليوم سادة هذا الثراء

والناعمون به ، وهم اليوم في أوج تصرهم . أفلا يجدر بعمر أن يرضيهم وأن يجعل لهم من أنعم العراق ما كان يجعله كسرى لجنوده الظافرين ، وما كان يجعله قيصر لجنوده الظافرين !! . إلى هذا الأمر اتجه عمر بتفكيره ، وفيه جعل يشاور أصحابه . وكان أول مادار بخاطرهم أن ذكر أوامر أبي بكر إلى قواده يوم وجههم إلى العراق يفتحوه . لقد كان العرب في العراق يعملون فلاحين في أرضه ، ثم ينالهم القليل من خيره ؛ أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم . وقد أمر أبو بكر قواده ألا ينالوا هؤلاء الفلاحين العرب بسوء ؛ لا يقتلون منهم أحداً ، ولا يأخذون منهم أسرى ، ولا يسيئون إليهم في أمر يتصل بهم . وهذه سياسة كلها الحكمة لا ريب ، ويجب اتباعها مع فلاحى العراق جميعاً ، عربهم وغير العرب . ويجب أكثر من هذا أن يشعر الفرس أنفسهم ، ممن لم يقاوموا الفاتحين ولم يقوموا في وجوههم ، أن الحكم الجديد لم يفل مصالحهم المادية بأذى ، ولم يصبهم في أشخاصهم وأهليهم بسوء ، يتساوى من هؤلاء من أقاموا بأرضهم ، ومن فروا فزعاً من القتال ثم عادوا إلى أرضهم آمنين . وحسب الأمير المسلم أن يقتضيهم خراجاً أو جزية لا ينوءون بأيهما . بهذا . وإقامة العدل بين الأهليين يطمئن المحكومون ويستريحون إلى ساطان المسلمين .

على أنه يجب أن يشعروا كذلك بأن للحاكمين من القوة والبأس ما يحطم كل خيال للانتقاض يمكن أن يداعب خواطرهم باسم الإباء الذاتى أو العزة القومية . ويجب لذلك أن تكون للفاتحين مدن خاصة بهم ، لا يشاركهم أحد من المحكومين في مساكنها ، بل يستأثرون بها ، ويجتمع جندهم فيها ، ثم يكون هذا الجند على أهبة للقتال في كل وقت بهذا يأمن المسلمون ثورة العراق بهم ، ويأمنون تفكير الفرس في الثأر لأنفسهم ، ويطمئنون إلى سلطانهم ، وإلى أنهم قادرين في كل حين أن يحافظوا عليه عزيزاً كريماً . هذه هى السياسة التى استقر عندها رأى عمر بعد مشورة أصحابه . وقد أعانت الحوادث على تنفيذها فى هواده لا تثير هواجس أهل العراق ولا هواجس الفرس ، ولا تشعر المسلمين الفاتحين بأنهم حرّموا مغنم الفتح . ذلك لأن جو مدن العراق أضر بصحة الجند المسلمين . قدّمت وفود الجند على عمر من جلولاء وحلوان وتكريت

والموصل يذكرون له الفتح والغنائم ، فلما فرغ من النظر في حاجاتهم قال لهم : « والله ما هيئتكم بالهبة التي أبدأكم^(١) بها ! ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإني لكما أبدءوا فما غيركم ؟ » . قالوا : « وُخُومَةُ البلاد » . وبعث إلى سعد بالمداين يسأله عما غير ألوان العرب ، فأجابه بمثل ما قالوا . وكان حذيفة بن اليمان مقيماً بالمداين مع سعد . وكان قد كتب إلى عمر قبل مجيء الوفود إليه يقول : « إن العرب قد رقت بطونها . وجفت أعضاؤها وتفتت ألوانها » . وخشى الخليفة ما يجزئه ذلك على الحاربيين من ضعف ، فكتب إلى سعد يقول له : « إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان . فابعث رائداً يرتاد لهم منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر » . وإنما أراد عمر بهذا الكتاب أن يحقق غرضين : أولهما أن يكون المكان الذي يختار لمقام هؤلاء العرب جافاً كالبادية ، تجري مع ذلك فيه المياه الصالحة . والثاني ألا يحول بحر أو جسر دون إرسال المدد إلى الجند المقيمين بهذا المكان إذا احتاجوا يوماً إليه . وكان حذر عمر يجعله يرى البحر مركباً ذا خطر ، ويرى لذلك ألا يفصل بينه وبين جنده ما يعرض المدد الذي يبعثه إليه لأي خطر . واستقدم سعد عبد الله بن المُنْتَم من الموصل والقعقاع بن عمرو من جلولاء ، وبعثهما يرتادان المكان الصالح لمقام العرب كما وصفه أمير المؤمنين . وسأل عمر من حوله بالمدينة ممن لهم علم بموقع العراق أيعرفون مكاناً بهذه الصفة ، واتفق رأي الجميع على أن موضع الكوفة على مقربة من الحيرة خير المواقع . فالكوفة كالحيرة تقع على الفرات في مكان نضارة وخضرة ، وهو غير بعيد مع ذلك عن الصحراء . وسار سعد من المدائن إلى موقع الكوفة فاختر أعلى مكان منها وأمر أن يُبْنَى المسجد عليها . وأن يترك حوله فناء فسيح قدّر مرمى السهم من أوسط المسجد يكون سوقاً للبيع والشراء . وأقيم المسجد وبُنيت له ظلة مائتا ذراع من أساطين رخام أُخْذَتْ من قصور للأكاسرة تُشبه سماؤها سماء الكنائس الرومية ، وأحيط صحن المسجد بخندق لثلاث يفتحه الناس ببتيان . وبني معمار فارسي من آجر مبانى الأكاسرة داراً لسعد بحول المسجد ، جعلت فيها بيوت الأموال ، وسميت قصر سعد . وأقام الجند منازلهم حول فناء المسجد ، فاخترت كل قبيلة مكاناً نزلته

(١) أبدأ هنا : خرج من أرض إلى أخرى ، ومثله بدأ .

وجعلت به خيامها . فلما استقر الناس كتب سعد إلى عمر يقول : « إني قد نزلت بالكوفة منزلاً فيما بين الحيرة والفرات برياً وبحرياً ينبت الحلفاء والنصي . وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن . فن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالسلحة » .

وطاب مقام الناس بالكوفة ، ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوتهم ، فاستأذنوا عمر في أن يقيموا منازل من القصب تكون أكثر من الخيام ثباتاً ، فأذن في كتاب يقول فيه : « إن المعسكر أشد حرماً وأذكى لكم . وما أحب أن أخالفكم » . ولم يلبث الناس حين قرئ عليهم كتاب عمر أن ابتنوا منازلهم من القصب وأقاموا بها . ثم وقع الحريق في هذه المنازل فالتهمها ، فأمرسى أصحابها دون مأوى . أيعودون فيقيمون بالخيام ؟ ذلك ملجأ لا غنى عنه ليقى الناس العراء . لكنهم ألفوا المنازل فلم يبق لهم على المقام بالخيام صبر . لذلك بعثوا إلى عمر يذكرون له خبر الحريق ويستأذنونهم في البناء بالابن ، فأذن لهم وقال : « افعالوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلتزمكم الدولة » ، وكذلك قامت منازل الكوفة وأقام الناس بها ، وجعلت تنازع الحيرة مكانها حتى نزعتها عنها ، وجعلت عاصمة اللخمين أدنى إلى قرية تقوم إلى جانب هذا البلد الذي صار في عاصمة ذات شأن في التاريخ الإسلامي .

استقر سعد بالكوفة ، فزاد في قصره باباً جعل له ظلة ، لأن غوغاء الناس بالسوق كانت تمنعه من الحديث . وادعى بعضهم أن سعداً قال لمعمره : سكن عني الصوت . وبلغ ذلك عمر وأن الناس يسمون الدار قصر سعد ، فسرح محمد بن مسلمة إلى الكوفة وقال له : « إعيذ إلى القصر حتى تحرق بابه ، ثم ارجع عودك على بدئك » . وقدم ابن مسلمة الكوفة ، وبلغ نبؤه سعداً فاستدعاه ، فأبى أن يدخل القصر ، فخرج هو إليه وعرض عليه نفقة ، فأبى أن يأخذها ورفع إليه كتاب عمر فإذا فيه : « بلغني أنك بنيت قصرأ اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً . إنه ليس بقصرك ولكفه قصر الخيال . انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم . ليوافقوا مجلسك وتخرجك من دارك إذا خرجت » . فلما تلا سعد ما في الكتاب حلف إنه ما قال الذي قالوا . واقتنع ابن مسلمة

بصحّة يمينه ، فعاد أدراجيه ، فقصّ على عمر الخبر كله . وقال له عمر : « فَهَلَّا قِبات من سعد ؟! » قال ابن مسلمة : « لو أردتَ ذلكَ كتبتَ لى به أو أذنتَ لى فيه » . وأجابه عمر : « إن أكل الرجال رأياً مَنْ إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم يَنْكُلْ » : وعذر أمير المؤمنين سعد وأقرّه .

بُنيت البَصْرَة في الوقت الذي بُنيت فيه الكوفة وبُنيت على مقربة من الأبلّة في دلتا النهرين متصلة بالخليج الفارسي . وكان ذلك في السنة الثامنة عشرة من الهجرة ، الرابعة من خلافة عمر . وفي رواية أن البصرة أقيمت قبل الكوفة ، وإن لم تُبن دورها بالّلين حتى بُنيت به دور الكوفة . ذكر البلاذري أن عُتْبَة بن غزوان غزا الأبلّة في السنة الرابعة عشرة للهجرة ، فلما فتحها كتب إلى عمر : إنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون فيه إذا اشتوا ، ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزوهم . وأجابه الخليفة : أن أجمع أصحابك في موضع واحد ، ولكن قريباً من الماء والمرعى ، وأكتب إلى بصفته . واطمأنّ عمر إلى موقع البصرة حين وصفه له عُتْبَة ، فنزلها الناس فبنوا مساكن بالقصب ، وبني عُتْبَة مسجداً من قصب كذلك . وكان الناس إذا غزوا نزعوا القصب وحزموه ، فإذا رجعوا من الغزو أعادوا بنائه . ثم إن الحريق التهم البصرة كما التهم الكوفة ، فأذن عمر فبّنى أهل البصرة كما بنى أهل الكوفة بالّلين . وصارت البصرة من بعدُ تُغرّ العراق على الخليج الفارسي ، فبنيت مساكنها بالحجارة ، وأقيم بها مسجد من أنخم المساجد ، ثم كان لها في تاريخ الإسلام مثل ما كان للكوفة من أثر .

ليس من شأننا ونحن نُؤرخ لعهد عمر أن نعدوه لئذ ذكر ما قامت به كل من المدينتين من بعده . وحسبنا أن نشير إلى أنهما تركتا ، في تاريخ اللغة والأدب والفقه والثقافة الإسلامية ، مذهباً مازال أثرها يذكر إلى اليوم . وقد كان بين المدينتين من التنافس في ذلك كله مثل ما كان بينهما من التنافس في توجيه سياسة الدولة العامة وسياستها بالعراق خاصة ، وقد بدأت كل مدينة منهما تتبوأ مكاتها في عهد عمر . وكان ذلك طبيعياً ؛ إذ كانت الكوفة عاصمة العراق ، وكانت البصرة ثغره الأول ، وإذ استأثر أهل شبه الجزيرة بالمدينتين كما قدّمنا ، فهاجر أهل الجنوب من اليمن وما جاورها إلى الكوفة ، وهاجراً نصار

المدينة وأهل الشمال إلى البصرة . وقد كان لهذه الهجرة في غزو فارس من بعدُ أحسنُ الأثر . على أى الموارد كان يعتمد أهل المدينتين لحياتهم بعد إنشائهما ؟ لقد اطمأن الأمر بالعراق كله زمنًا قبل أن تعود قوات المسلمين لقتال يزدجرد وجنوده بفارس فتغنم منهم الغنائم . ولم يكن العرب أهل زراعة ليعتمدوا على عملهم في أرض العراق . أفكانوا يغصبون الفلاحين فيه ثمرات كدّهم كما كان يصنع دهاقين الفرس من قبل !

يتعدى الجواب على هذا السؤال أمر الكوفة والبصرة وما كان يعتمد عليه أهلها في حياتهم إلى ما كانت قوّات المسلمين بالمداين وجولاء وتكريت والموصل وشتى أرجاء العراق تعتمد عليه لحياتها . لقد ذكرنا من قبلُ أن عمر اتجه بسياسته إلى ما اتجه إليه أبو بكر قبله ، فأمر قوادة وجنوده ألا يغالوا الفلاحين في العراق بأذى ، وأن يقيموا بين أهله جميعاً عدلاً يطمئنون معه إلى سلطان المسلمين فيه ، وحسبُ الأمير المسلم أن يقتضيهم خراجاً أو جزية لا ينوءون بأيهما . فلما فتحت جلولاء كتب سعد إلى عمر في أمر الفلاحين ، مَنْ فرّ منهم ومن أقام ، وكان قد فر منهم بضعة وثلاثون ومائة ألف يتألف منهم بضعة وثلاثون ألف بيت ، فكتب إليه عمر : « أن أقرّ الفلاحين على حالهم إلا مَنْ حارب أو هرب منك إلى عدوّك ، وأجر لهم ما أجرته للفلاحين قبلهم . وإذا كتبت إليك في قوم فأجرُوا أمثالهم مجراهم . أمّا من سوى الفلاحين فذاك إليكم ما لم تغنموه — أى تفتحوه — ومن ترك أرضه من أهل الحرب فخلّاهم ففى لكم . فإن دعوتهم وقبلتم منهم الجزاء ورددتهم قبل قسمتهما فذلك ، ومن لم تدعهم ففى لكم لمن أفاء الله ذلك عليه ^(١) » . ونفّذ سعد أوامر عمر هذه ، فأقرّ الفلاحين ، ودعا من لج

(١) ذكر البلاذرى أن جرير بن عبد الله البجلي وفد على عمر وسأله أن يقر بجيلة على ربح السواد كما وعدهم في أمر النخبة ، وكانت بجيلة وضعت يدها على هذا الربع ثلاث سنوات ، فقال عمر : « لولا أنى قاسم مسئول لتركتم على ما كنتم عليه ، واسكنى أرى أن تردوه » ففعلوا . ورواية أخرى ذكرها البلاذرى أنه لما افتتح السواد قال فاتحوه لعمر : اقسمه بيننا فإننا فتحناه عنوة بسيوفنا ، فأبى وقال : « فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ ! وأخاف إن قسمته أن تنفاسدوا بينكم في المياه » . وأمر أهل السواد في أرضهم وفرض عليهم الجزية وعلى أرضهم الحراج . وقول عمر : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ، يقصد به ما جاء من مسلمي شبه الجزيرة العراق بعد الفتح . فلو أن عمر قسم أرضه بين الفاتحين لما بقي لمن جاء بعدهم عطاء .

ووضع الخراج على من رجع ، وقبل الذمة ، واستصفي ما كان لآل كسرى ومن لج معهم من الأمراء والدهاقين وغيرهم وكان ما استصفاه من هذه الأموال كثيراً موزعاً بين جبل فارس وتخوم العرب . وكانت هذه الأموال التي استصفها سعد حبساً لا يجوز بيعه ، كما لا يجوز بيع المنافع العامة من الآجام ومفيض المياه وسكك البريد وما كان لبيوت النار : معابد الجوس .

ترتب على تنفيذ هذه السياسة أن بقيت للفلاحين أرضهم واعتبروا من أهل الذمة ، سواء منهم من أقام بأرضه أثناء الحرب ومن فر منها جزءاً ثم عاد بعد الحرب إليها . وكذلك ردت الأرض المملوكة للذين اشتركوا في الحرب من الفلاحين وغير الفلاحين ، ثم دعاهم سعد إليه واعتبرهم من أهل الذمة ولما يكن قد قسم أرضهم بين رجال المسلمين أما الأراضي التي كانت لآل كسرى ولمن اشترك في الحرب من الأمراء والأشراف والدهاقين ، فاعتبرت ملكاً خاصاً للدولة ، حُرِّم التعامل فيه ، وأبيع للفلاحين من أهل العراق استقلاله لقاء أجر يدفعونه لخزانة الدولة . وقد أجرى هذا الحكم على الأراضي المملوكة لبيوت النار . فأما المنافع العامة من مجارى المياه وسكك البريد فكانت ملكاً عاماً ، حرمة التعامل فيه قائمة بحكم المنفعة التي خصص لها .

أدى هذا التنظيم إلى تدافق الأموال في خزانة الدولة من مصادر شتى : من الخراج والجزية وأجر الأرض المملوكة للدولة ، وأجرى العطاء من هذه الأموال على الجند وأهلهم بالكوفة والبصرة وسائر مسالح المسلمين . وكان هؤلاء الجند يؤدون لوقُسمت أرض السواد بينهم وصارت ملكاً لأفرادهم ولذويهم من بعدهم . ولم يكن سخاء العطاء الذي يصيبهم لينمعمهم من أن يفتحوا الولاية بهذه الرغبة . لسكن عمر كان يأبى عليهم ما يطلبون من ذلك قائلاً : « لولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لفلنا » . وإنما أئى عمر منذ اليوم الأول أن يجعل الأرض قسمة بين الجند حتى لا يسكنوا إلى الزراعة ويألفوا حياة الاستقرار ، فإذا دُعوا إلى قتال اثنأقوا عنه ، على حين لا تزال الدولة فى حاجة إلى قوتهم وحماستهم ، وإلى جيش تام العدة دائم الأهبة . وكيف لأمير المؤمنين أن يطمئن إلى استقرار جنده وقد يرجع الفرس غداً لئأرهم ، وقد يثيرون العراق كأأثاروه من قبل ؟!

فلتبقَ أرض كسرى ملكاً للدولة يستغفها عُملها بأيدي الفلاحين من أهل العراق ، ولتقيم جنود المسلمين بمسالحها متأهبة لإجابة كل دعوة للقتال .

وكان عطاء أهل الكوفة وأهل البصرة كعطاء غيرهم من المقاتلين رخاء ووفرة . بل لقد ضاعفت كثرة المقيمين بهما هذا العطاء مما جعل أهلها في رخاء ورغد . مع ذلك نفّس أهل البصرة على أهل الكوفة موقع بلدهم وما كان يُدرّه عليهم من الخير . سأل عمر بن الخطاب وقدأ من أهل البصرة قدموا إليه عن حاجاتهم ، فقال الأحنف بن قيس وكان معهم : « يا أمير المؤمنين ! إن مفاتيح الخير بيد الله ، وإن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة ، وإنا نزلنا سبخة ملتفة لا يحفّ نداها ولا ينبت مرعاها ، ناحيتها من قبل المشرق البحر الاجاج ومن قبل المغرب الفلاة . فليس لنا زرع ولا ضرع ، تأتينا منافعنا وميرتنا في مثل مريء النعمة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة لذلك فتربق ولدها كما تربق العنز^(١) ، يخاف بادرة العدو وأكل السبع . فلا ترفع خسيستنا وتجبُر فاقتنا نكن كقوم هلكوا » . فزاد عمر في عطائهم وأمر عامله على الكوفة ، وكان أبا موسى الأشعري ، فأجرى لهم نهراً من دجلة على ثلاثة فراسخ إلى شمالها .

وكذلك عاش المسلمون بالعراق في رخاء لا شيء من مثله في شبه الجزيرة ، ثم كان لهم مع ذلك الرخاء عزة السادة الفاتحين . وقد أقاموا على هذه الحال عدة سنوات لا يفكّرون في فتح فارس ولا يسعون إلى فتح جديد ، مكتفين برّد الهرمزان إذا حاول مناوشتهم في الجنوب الشرقي من ناحية البصرة . ذلك أن عمر كان مصرّاً على رأيه أن يكتفي بالعراق والدفاع عن تحومه ، ولذلك أبى على الذين هزموا الهرمزان أن يلاحقوه داخل بلاده ، وأمرهم أن يهادنوه على شروط نقضها الهرمزان غير مرة ، فأخذ أسيراً وأرسل إلى عمر بالمدينة . وليس المقام هنا مقام تفصيل لما صنع الهرمزان مع المسلمين وما صنعوا معه ، وسنعود إلى هذا التفصيل بعد حين .

أصرّ عمر أن يكتفي بالعراق وأن يدفع الفرس عن تحومه . وكان الفرس قد شغلوا

(١) ربقه ، جعل رأسه في الربقة ، وهي حبل تشد به البهم .

عن العراق بما أصابهم من اضطراب بلاطهم وفساد أمرهم وتسلب الأثرة على نفوسهم ، فاضطرت شؤون هذا العراق ، وفسدت مرافقه ، وتدهور إنتاجه ، فرأى عمر أن يصرف همته إلى إصلاحه . لذلك أمر رجاله أن يمسحوا أرضه ، وأن ينظموا مجاريه ليصل الماء إلى كل بقعة صالحة للزراعة فيه ، وأن يصلحوا قناطره وجسوره ، وأن يعمرُوا كل ما خربه الفساد أو خربته الحرب في أرجائه . وكان المهندسون الفرس الذين أقاموا بالعراق خير عون على تنفيذ هذا الإصلاح . ذلك أنهم رأوا السلطان مستقبلاً للمسلمين في البلاد ورأوا كسرى عاجزاً عن استرداد هذا السلطان ، ثم رأوا أمناً مطمئناً وعدلاً شاملاً ، فأثروا التعاون مع الفاتحين لخير العراق وأهله . وزاد ما تم من هذا الإصلاح في ثبات السلطان الجديد واستقراره . فقد رأى كبراء الفرس الذين أقاموا أهل ذمة ورُدَّت إليهم أموالهم ما يجره هذا الإصلاح لهم من زيادة ثروتهم ، ورأى الفلاحون فيه عمراً يزيدهم أمناً ونعمة ، ورأى العرب من أهل القبائل التي استقرت به أن بنى جنسهم خير من الفرس حكماً وأعم عدلاً ، فاستراح الجميع إلى النظام الذي أقامه أمير المؤمنين أساساً لحكم البلاد ، وانصرفوا إلى أموالهم يشمرونها ، وإلى أعمالهم يدأبون لإتقانها وتجويدها . وما كان لهم أن يتجهوا بتفكيرهم إلى غير هذه الناحية وهم يرون قوات المسلمين على مقربة منهم في كل مكان ، دائبة الأهبة للقضاء على كل انتفاض يحاول أحدهم أن يثيرها ثأثره . كان العمل للرزق وللثراء حافز أهل العراق جميعاً . أما الفاتحون فكانوا في نعمة بما يصيبهم من العطاء ، وكانوا مع ذلك بنافس بعضهم بعضاً وينفَس بعضهم على بعض وقد رأيت أهل البصرة كيف نفَسوا على أهل الكوفة موقع بلدهم وكثرة خيراتهم . وكانت القبائل التي أقامت بكل من هذين البلدين تنافس ويفاخر بعضها بعضاً . ذلك أن روح القبيلة الأصيل فيهم حفَظهم إلى هذا التنافس وهذه المفاخرة ، وزاد في حفَظهم فراغ قوَى هذا الروح وشجَّعه . ثم إنهم رأوا في مفاصلة عمر بينهم وتفضيله قريشاً على غيرها ، ورفع مكانة المهاجرين والأنصار على مَنْ سواهم ، ما أغراهم بالكيدلن آثرهم الخليفة برعايته . وهذا الكيد هو الذي دعا بعضهم فنسب إلى سعد بن أبي وقاص ما لم يَقُلْ حين بنى باب قصره . وسعى قوم بسعد إلى عمر أنه لا يحسن الصلاة ، فأرسل عمر يسأل

أهل الكوفة في ذلك ، وسأل عنه سعداً ، فلما علم أنه يصلي بالناس صلاة رسول الله قال : ذلك الظن بك يا أبا إسحاق ! . وبلغ من كيد أهل الكوفة لسعد أنه قال لهم يوماً : اللهم لا ترض عنهم أميراً ولا ترضهم بأمير ، وكأنما استجاب الله دعاء سعد ؛ فلم يكن أمير على الكوفة إلا سعى به أهلها إلى الخليفة . ذلك أن الأمير كان يراهم يكيّد بعضهم لبعض ويثور بعضهم ببعض ، فعمل للقضاء على فتنهم ، فينقلبون إلّاء عليه عند أمير المؤمنين . لم يكن لهذا التنافس بين أهل الكوفة والبصرة وغيرهم من سائر المسلمين بالعراق أثر تحشّي منبته في عهد عمر ؛ فقد كان المسلمون جميعاً جنوداً يدعون إلى الميدان حيناً بعد حين ، فيسكن تنافسهم ، وينقلب أهلهم إلى التطلع لأخبارهم وما يصيبون من نصر أو يصيبهم من ضرر . هذا إلى أن النشاط الذي ملأ أرجاء العراق لإصلاحه جعل الناس في شغل به عن الاستماع لهذه المنافسات وأنبيائها . ثم إن عمر كان إلى حزمه وشدته حكيماً رحيماً ، فلم تدع شدته لفتنة أن تثور ، ولم تدع حكمته ورحمته لمظلوم أن يشكو . بذلك سارت الأمور في العراق راضية مطمئنة ، لا تزعج الخليفة ولا تزعج غيره من المسلمين .

* * *

بينما كان سعد بن أبي وقاص يسير من القادسية إلى المدائن وبيعت قواده إلى جلولاء وتكريت والموصل ، وينشئ الكوفة والبصرة ، ويطمئن له الأمر في العراق كله ، كان أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمر بن العاص وشمر خبيل بن حسنة ومن معهم من القواد والجند يجاهدون الروم بالشام ، وكان عمر ابن الخطاب ينتقل من المدينة إلى المقدس وإلى دمشق ، فلننتقل الآن إلى الشام لنصحبهم ، فنرى كيف آتوا وحدة الجنس العربي من جنوب شبه الجزيرة إلى شمال بادية السماوة .

الفصل الحادي والعشرون

جلاء هرقل عن سورية

بينما كان سعد بن أبي وقاص يهزم الفرس بالقادسية ، ثم يقتحم العراق إلى المدائن ، وينشئ البصرة والكوفة ، وينظم الحكم في البلاد ، كان أبو عبيدة ابن الجراح وزملاؤه بالشام يتقدمون فيه ويفتحون مُدُنَهُ ويُجْلون الروم عنه وما كان لهم ألا يفعلوا بعد أن هزموا تذارق باليرموك ، وفتحوا دمشق ، وقضوا على قوات هرقل بفخسل ، وأخضعوا ما حولها من أرض طبرية وبيسان . ذلك أن طبرية واليرموك وغل ودمشق تقع كلها على مقربة من تخوم الشام إلى ناحية البادية . وللروم من الحصون والمعقل المنيعة في داخلية البلاد ما يهدد الغزاة إذا لم يفصّوها على حُماتها . فليقتدّموا إلى هذه المعقل ، وليفتحوا بلاداً عزم أبو بكر ثم عزم عمر فتحها .

وكانت خطة الفتح بالشام تختلف عن خطته بالعراق . كانت إمارة الجند بالعراق موحدة منذ توليها خالد بن الوليد في عهد الوليد ، وظلت كذلك من بعده حتى عهد بها عمر إلى سعد بن وقاص . أما الشام فانت تذكر أن أبا بكر بعث إليه أربعة جيوش عين لكل منها منطقة ، وجعل على كل منها أميراً له تصريف القتال في منطقته ، فإذا اجتمعت فأبو عبيدة بن الجراح أميرها . وكان عمرو بن العاص هو الأمير على القوات التي أرسلت إليها فلسطين .

وقد اجتمعت هذه الجيوش على اليرموك حين عجز كلٌّ منها منفرداً عن مواجهة الروم . وضاق أبو بكر ذرعاً بمقامها على اليرموك دون قتال ، فبعث خالد بن الوليد من العراق إليها وجعله أميراً عليها . فلما قبض أبو بكر وتولى عمر عزل خالداً وردّ الإمارة إلى أبي عبيدة . وأبلغ أبو عبيدة خالداً هذا الأمر بعد اليرموك في رواية ، وبعد دمشق في رواية . وخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان في قوة على دمشق بعد فتحها ، وسار معه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسائر القواد والجند ، فهزم الروم بفخسل ، واستوات

قواته على بيسان وطبرية صالحوا أهلها . عند ذلك كتب إليه عمر أن يغزو حصص ، فسار بقواته شمالاً نحو دمشق ومعه خالد بن الوليد ، وترك عمرو بن العاص وشراحيل بن حسنة بالأردن ليفتحوا فلسطين ، فكان عمرو هو أمير قوات الحرب فيها مع بقاء أبي عبيدة أميراً على الجند كله .

والآن فلتتابع أبا عبيدة في مسيرته بالشام لنعود من بعد فنسائر ابن العاص حتى يبلغ بيت المقدس ، فيقيم على حصارها حتى يعقد عمر الصلح مع أهلها . وليس يدعونا للبدء بمسيرة أبي عبيدة أنه الأمير الأول ، وإنما يدعونا لذلك أنه سيعود هو وخالد بن الوليد ليكونا مع عمر على أبواب مدينة المسجد الأقصى ، فمن الخير أن تكون رقعة الفتح بالشام كله مجلوة أمامنا في ذلك اليوم المشهود ، يوم سار الفاروق مع بطريق إيلياء^(١) خلال المدينة المقدسة ليضع القواعد من مسجد الصخرة ، فيربط في بقعة واحدة من الأرض بين الأديان الثلاثة السماوية : اليهودية والمسيحية والإسلام .

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة يأمره بغزو حصص ، فسار في قواته ومعه خالد بن الوليد في طريق دمشق يزيد غايته . فلما بلغ عاصمة الشام أمر هاشم بن عتبة ففصل في قوات العراق مدداً لسعد بن أبي وقاص فيما كان مقبلاً عليه من غزو الفرس بالقادسية . وسار أبو عبيدة يريد حصص ، فاتصل بالقوة التي وقفت رداءً لدمشق من شمالها بإمرة ذى الكلاع الحنظلي فأمرها بالسير معه . فلما بلغ مرج الروم إلى الشمال الشرق من دمشق لقي جيشاً من الروم بعث به هرقل بإمرة توذر البطريق فوق قبائله . وإنه لسكذلك إذ أقبلت فرقة من الفرسان على رأسها شنس الرومي مدداً لتوذر . لكن شنس عسكر على حدة . وتداول أبو عبيدة وخالد بن الوليد ما يصنعان ، فاستقر رأيهما على أن يلتقي خالد توذر ، وأن يلتقي أبو عبيدة شنس . ولا يشكان في أن جيشي هرقل يريدان صدهما عن التقدم إلى حصص .

وقضى كل من الرجلين ليله ينظم خطته لمواجهة عدوه . فلما تنفس الصبح كان خالد قد استقر رأيه على مصادمة توذر والقضاء عليه . ولكن ما أشد دهشته ! فليس لتوذر

(١) إيلياء هي بيت المقدس .

وجيشه فيما حوله من الأرض أثر . أين ذهب ؟ ! وكيف ذهبت ؟ ! وكيف غابت عن حيلة القائد العبقري حيلته ! ولم يك إلا كبح البصر حتى أيقن خالد أن غريمه انسحب بجنده من أول الليل يقصد دمشق ، ثقةً منه بأن حَمَاتِهَا لن يُطيقوا مقاومته ، وظنّاً منه بأن جيش المسلمين كله سيقف بإزاء شنس يقاتله . وكانت حامية دمشق أضعف بالفعل من أن تصدّ وحدها هذا الجيش الزاحف عليها . فلو أنه افتضّ المدينة وتحصّن بها لَمَّا أغنى الانتصار على شنس شيئاً ، ولعاد أبو عبيدة وخالد جميعاً لحصار عاصمة الشام من جديد ، ولأضعف ذلك من عزم المسلمين وضعضع من ركنهم . لذلك استأذن أبا عبيدة وأسرع في كتيبة من الفرسان يلاحق توذر حتى لا يَدَّهَمَ يزيد بن أبي سُفْيَانٍ في مأمنه . وكانت الأنباء قد بلغت يزيد بمقدّم توذرو جيشه ، فخرج ليصدّهم ولا علم له بأمر خالد وكتيبته . وأنشب يزيد القتال بعد أن غلق أبواب المدينة آملاً أن يطول الأمر بينه وبين الروم حتى يأتيه المدد . وبينما توذر يهاجمه أقبل خالد في كتيبته فأخذ الروم من خلفهم . وكبر خالد وكبر الذين معه ، فسمع رجال يزيد تكبيرهم فأيقنوا مقدّم المدد فزاد ذلك في قوتهم . أما الروم فما لبثوا حين سمعوا التكبير وأحسوا هجمة خالد عليهم أن تداعت قواتهم واضطربت صفوفهم ، فأخذهم يزيد من أمامهم ، وخالد من خلفهم ، وأمعنوا فيهم قتلاً ، فلم يُفَلِت منهم إلا الشريد . وغنم المسلمون خيلهم ودوابهم وأداة حربهم وكل ما خلقوا من متاعهم ، فقسّمه يزيد على أصحابه وأصحاب خالد ، ثم عاد إلى دمشق مجللاً بفخار النصر ، مطمئناً إلى أن الله منجز المسلمين وعده ما صدقوا وصبروا وآثروا الآخرة على الدنيا .

عاد خالد بعد هذه الموقعة التي قُتل فيها توذر فسار إلى مرج الروم ، فأنى أبا عبيدة انتصر على شنس وقتله ومزّق جيشه كل ممزق ، وانطلق يلاحق فلوله إلى حصص وبلغت هذه الأنباء هرقل وبلغه أن أبا عبيدة يحاصر بعلبك ، فارتحل إلى الرّشَاء بعد ما بعث إلى أهل حصص يعلّمهم المدد ويشجّعهم على المقاومة . وكيف لا يقاومون والفصل شتاء وبرد حص قارس فلا طاقة لهؤلاء العرب باحتماله والصبر عليه ! . ولم تطل مقاومة بعلبك ، بل صالح أهلها أبا عبيدة فتركهم إلى حصص ، فحاصرها وعلى مقدّمته خالد بن الوليد وامتنع أهل المدينة بحصونها فلم يكونوا يخرجون لقتال المسلمين إلا في اليوم الشديد برده .

وبلغ البرد بالمسلمين أشدَّه ، وطال بالروم الحصار وهم ينتظرون مدد هرقل أو جلاء المسلمين فراراً من البرد . لكن المسلمين صبروا ، ومدد هرقل لم يصل ، وانصرم الشتاء ، فأيقن أهل حمص أن لا طاقة لهم من بعدُ بهؤلاء الذين لا يرحونهم ولا يفتنون بضيقون الخلق عليهم . وإنهم ليختلفون ، فيقول بعضهم بمصالحة المسلمين ، ويرى بعضهم الصلح عاراً دون الموت ، إذا الأرض زلزلت فتصدَّعت جدران المدينة وتهاقت منها دررٌ كثيرة ، فأخذ أهلها الرعب ، ورأوا فيما حدث نذيراً من الله بعذاب شديد ، ففرَّ عوا إلى رؤسائهم يطلبون الصلح فلا نجاة لهم إلا به .

ولو أن المسلمين اقتحموا حمص في هذا الوقت كما قاومت ولأخذوها عنوةً . لكنهم كانوا قد طال حصارهم لها ، واشتدَّ عليهم شتاؤها ، ثم كان اضطراب الأرض بالزلازل قد رابهم وروَّعهم ، فلم يشعروا بما كان من رعب أهل المدينة وفرعهم . لذلك أجابوا رؤساء المدينة إلى الصلح حينما فاتحهم فيه ، فتركوا أهلها دُورهم وبنيانهم ، وصالحوهم على صلح دمشق في الخراج والجزية ، وأخذوا منهم من المنازل ما يكفي لإقامتهم . ثم إن أبا عبيدة كتب إلى عمر بما حدث ، فبعث عمر إليه . « أن أقيم في مدينتك وادعُ أهل القوة والجلد من عرب الشام ؛ فإنني غير تارك البعثة إليك بمن يكاتفك إن شاء الله » .

أقام أبو عبيدة في مدينته حتى تنصَّف الربيع من السنة الخامسة عشرة للهجرة . فلما زالت عن جنده شدة الشتاء وما أصابهم من زهريره ، عاودهم النشاط للفتح ، وانضم إليهم أهل القوة والجلد من عرب الشام فازدادوا نشاطاً ، فعاد أبو عبيدة يفكر في متابعة الغزو بشمال الشام . وزاده إقبالاً على هذا التفكير ما تراءى إليه من أنباء عمرو بن العاص وزملائه وزملائه الذين نازلوا جنود هرقل بفلسطين . وتداول المشورة مع خالد بن الوليد ، فاستقر رأيهما على السير شمالاً إلى أنطاكية من ناحية ، وإلى حلب من الناحية الأخرى . والطريق إلى أنطاكية بشاطئ نهر الأرنؤد^(١) ، ويمر بحمّة وشيّر . وتهدّده قلاع اللاذقية . ودون الطريق إلى حلب حصن قنسرين تحيط به هضاب لا بدّ من اجتيازها قبل بلوغ هذا المعقل المنيع .

(١) الأرنؤ أو الأرندهو نهر أورنتس orantes وتقع عليه حمص وحماة وأنطاكية ثم يصب بساحل أنطاكية .

خلف أبو عبيدة عبادة بن الصامت على حمص ، ومضى في الجيش نحو حماة ،
 ففتحت له أدستان أبوابها ، ثم تلقاه أهل حماة مذعنين ، فصالحهم على صلح حمص .
 وبلغ أهل شيزر أن المسلمين يسرون إليهم فأسرعوا إلى مصالحتهم من صلح حماة . وفتح
 أبو عبيدة سلمية ، ثم سار حتى أتى ثغر اللاذقية ، فلما رأى أهلها مقدّمه تحصنوا بمعقلهم
 وأغلقوا باب مدينتهم وأعدوا لمقاومة عدوهم ، مطمئنين إلى أنه إن حاصرهم استطاعوا
 الوقوف في وجهه ، حتى يأتيهم المدد من طريق البحر . ورأى أبو عبيدة حصون المدينة
 وأدرك صعوبة مرأها ، وأنه إن يقف قبالتها يطل وقوفه ، فإذا جاءت الأمداد كان بين
 أن ينصرف عنها عاجزاً دونها ، أو يقيم على حصارها فيصرفه ذلك عن السير إلى أنطاكية .
 لذلك لجأ إلى الحيلة ، فعسكر على بعد من المدينة ثم أمر أن تحفر خفائر كالأسراب تستر
 الحفيرة منها الفارس راكباً . فلما فرغ رجاله من حفرها أظهروا أنهم منصرفون عن المدينة
 إلى حمص . ورآهم أهل اللاذقية يسرون فاطمأنوا ورجعوا إلى مألوف حياتهم . فلما جئ
 الليل عاد المسلمون أدراجهم فاستتروا بتلك الخفائر . وأصبح أهل اللاذقية ففتحوا أبوابها
 وانتشروا بظاهرها ، فلم يرعهم إلا المسلمون يخرجون من مكانهم مندفعين إلى المدينة
 يدخلونها عنوة ، فيقف حرسهم على بابها يمنعون أهلها من دخولها ، وتحيط قواتهم
 بالحامية المقيمة في حصونها . وفرّ الذين خرجوا إلى ظاهر المدينة ، تولاهم الفرع فهم يطلبون
 النجاة حيثما وجدوا إلى النجاة سبيلاً . ولم يجد الذين أقاموا بالمدينة بداً من التسليم فسلموا ،
 وطلب الفارّون الأمان ، فصالحهم أبو عبيدة على خراج يؤدّونه قتلوا أو كثروا ، وترك
 لهم كنيسهم . وبني المسلمون من بعد مسجداً على مقربة منها .

وسار أبو عبيدة من اللاذقية إلى معرة حمص^(١) ، ووجه خالد بن الوليد منها
 إلى قنسرين . كورة ولاية حلب . ولم تكن مناعه قنسرين لتخفى على ابن الوليد ، ولم يكن
 يخفى عليه ما يبيحها من مدد . ولكن متى راعت خالداً قوة حصن أو مناعة مدينة !
 ومتى ردته الصفوف المتراصة عن اقتحامها وخوض لجنتها ! لذلك سار إلى غايته مطمئناً
 إلى أن الله ناصره . وكان لقنسرين حاضر إلى جنوبها يُقيم به عرب من تنوخ وسليج

(١) هي معرة النعمان ، وقد سميت بهذا الاسم من بعد نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري .

في خيامهم وكأنهم طلائع لهذه المدينة المنيعه ، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم العرب الذين ينزلون ظاهر المدن لحمايتها . وعلم الروم أن القادم عليهم هو العبقري القاهر ، فلم يطمئنوا إلى مقدرة أهل الحاضر على الوقوف في وجه الغزاة ، فخرج مينا ، أعظم رجل في المملكة بعد هرقل ، على رأس جند عظيم ، فسار إلى الحاضر فعبأ جيشه به وأقام ينتظر مقدم المسلمين ليصدّهم عن التوغل في ملك قيصر . وبعث رجالا من أهل ثقتهم لينتظرون أخبار عدوه ليدبّر على ضوءها خطة لقائه . وإذ لیتنسّم هذه الأخبار إذ فجأه خالد مع الصبح من حيث لا يدري . وحاول مينا أن يصدّه هذه المفاجأة . لكن خالد كان قد أحكم تدبيره فهاجم الروم بكل قوته ، فلم يستطيعوا الصبر أمامه . وكيف يصبرون واسمه يهزّ القلوب ، وبذلك المزائم ! وكيف يصبرون وقد تداولت أسماءهم أنباء المسلمين وفتحهم دمشق وحمص وحماة واللاذقية ! ومتى كان لجيش تحطمت قوته المعنوية صبرا وحاولوا الفرار فإذا خالد قد أخذ عليهم مسالكهم ، فأمن جنده فيهم قتلا فمات أكثرهم على دم واحد ، وتردّى مينا على رأسهم يتخبط في دمه . ولجأ الذين فرّوا إلى قنسرين وتحصّنوا ، فتبعهم خالد إليها فألقاهم غلقوا أبوابها . عند ذلك بعث إليهم النذير يقول : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا ! » . وقاومت حصون المدينة زمنا أيقن أهلها بعده أن لا مفرّ لهم من النزول على حكم قاهر مينا وتذريق وقود الروم جميعا ، فبعثوا إليه يطالبون الأمان على صلح حمص . لكن خالد رأى أن يعاقبهم بمقاومتهم فأبى إلا تخريب المدينة ، ففرّ أهلها إلى أنطاكية تاركين أموالهم ونساءهم وأبنائهم وديعة بيد القدر .

هذه هي الرواية المشهورة في فتح قنسرين . على أن بعض المؤرخين المولعين بالأدب يضيفون إليها موقفاً كان لجبل بن الأيهم الغساني في الدفاع عن هذه المدينة . وأنت تعلم أن جبل كان آخر ملوك بني غسان من قبل هرقل ، وأنه كان حليفاً صادقاً للروم . وقد كان ، كغيره من ملوك بني غسان وملوك الحيرة . محبباً لشعراء العرب ، يكرمهم ويحسن وفادتهم . وكان حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول الله أحبّ الشعراء إليه وأحظاهم عنده . ومدائح حسان فيه لا تزال تروى إلى اليوم على أنها من عيون الشعر

العربي . وكان جبلة مقبياً عند جسر الحديد على نهر الأرنؤد قريباً من أنطاكية حين ترامت إليه أنباء قنسرين وحصارها ، فسار إليها يخفف الضغط عنها ويعين حاميتها على قهر عدوهم . وإنه لفي مسيرته إذ جاءته طلائمه برجل من المسلمين ذكر أنه سعيد بن عامر الخزرجي ، وأنه ينتمي إلى أجداد جبلة من مزيقياء إحدى بطون بني ثعلبة العنقاء . واذكر جبلة حين سمع اسم الخزرج صديقه الشاعر الأنصاري ، فسأل سعيداً : كم لك منذ فارقته ؟ وأجابه سعيد ، عهدي به قريب ، وقد دعاني إلى دعوة صنعها وأمر جاريته أن تُنشد شعراً فيك فأنشدت :

لله دَرْ عصابة نادتهم	يوماً بجلق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم	قبر ابن مارية الجواد المفضل
يُغشون حتى ما تهرّ كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم	شم الأنوف من الطراز الأول

فلما سمع جبلة ذلك منه أجازته وذكر له أن الملك بعثه مدداً لقنسرين ، وطلب إليه أن يحذر خالداً بأس جنوده ومضاء أسياهم ، وتابع جبلة وجيشه السير مع الروم ولقي خالداً وكاد ينتصر عليه لولا أن جاء المسلمين مددٌ رجح كفتهم ، فهزموا جبلة واستولوا على المدينة المحصورة ، ففرّ من أهلها إلى أنطاكية من فرّ . وقدم أبو عبيدة في جنده فألقى خالداً تمّ له النصر . فصالح أهل قنسرين على الأمان والجزية ، وأن تُهدم حصونهم وأسوارهم . ورأى العرب من أهل الحاضر ما كان من ذلك ، فأقبلوا يعلنون الطاعة وأسلم منهم كثيرون . أما من بقي على نصرانيتها فُضرت عليه الجزية .

وهذه الرواية عن جبلة وسيره للدفاع عن قنسرين مرجوحة في رأيي ؛ ولذلك لم يذكرها الطبري وابن خلدون وابن الأثير وابن كثير ومن إليهم ، وإن ذُكرت في فتوح الشام المنسوب للواقدي . أما الرواية المشهورة التي ذكرها المؤرخون الثقات فهي الراجحة . وقد كتب أبو عبيدة إلى عمر بفعال خالد بن الوليد وقضائه على ميناس وجيشه واقتحامه قنسرين على منعتها ، وقوله لأهلها : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » فأخذ عمر الإعجاب بعبقرية خالد بارزة في هذه الأعمال

أيما بروز، وقال: «أمّر خالد نفسه! يرحم الله أبا بكر! هو كان أعلم بالرجال مني!». هذه الكلمات التي قالها عمر تدلّنا على أن خالداً أتى في قنسرين بمجرات فالت مواقفه بدمشق وحص وما سواها من البلاد التي فتحتها المسلمون منذ تولّى عمر الخلافة إلى يوم تنفّست عنها شفتاه. ودلالاتها على ذلك أشدّ وأقوى لما نعرفه عن عمر وسوء رأيه في خالد، حتى لقد عزله عن إمارة الجيش أوّل ما آلت إليه إمارة المؤمنين. وقد بلغ من عمق الأثر الذي تركته هذه الفعلة في نفس عمر أن أسند إلى خالد إمارة قنسرين حين لقيه ببيت المقدس بعد أشهر من ذلك اليوم.

ومن عجب أن ترك فعال خالد بقنسرين كل هذا الأثر في نفس أمير المؤمنين، وأن تكون قنسرين عاصمة الولاية الممتدة حولها؛ ثم لا يقص المؤرخون الثقات من تفاصيل فتحها أكثر مما رأيت^(١). وليس هذا الإيجاز مما خصّت به قنسرين، بل جرى عليه الطبري ومن أخذ مأخذه، وجرى البلاذري ومن تابعه، فأجملوا وقائع الفتح بالشام إجمالاً لا يتفق وتفصيلهم وقائع العراق وما حدث. وإنما فصلوا من وقائع الشام غزوة اليرموك وفتح بيت المقدس، وأعاروا فتح دمشق بعض العناية، لاعتبارهم اليرموك مفتاح الشام كما اعتبروا القادسية مفتاح العراق، ولأن دمشق عاصمة الشام، وبيت المقدس مدينة المسجد الأقصى، وكم ودّدنا لو أنهم فصلوا ما حدث بقنسرين لنقف منه على السر في كلمة أمير المؤمنين.

(١) لم نعر على تفصيل مستفيض لوقعة قنسرين كتفصيل مستفيض في فتوح الشام. ورأينا أن روايته لا سند لها كما ذكرنا في النص. فالوقائع التي يسوقها أدنى إلى الخرافة؛ فهو يذكر أن خالداً لم يكن معه غير عشرة من أبطال المسلمين حين زحف جبلة وجيش الروم إلى قنسرين، وأن هؤلاء العشرة اندمجوا في جند العدو فلم يعرفهم أحد. فلما فتحت المدينة أبوابها لجبلة ومن معه اقتض خالد على أميرها فأخذه أسيراً، ثم أظهر هو ومن معه إسلامهم. وخشى جبلة والقائد الرومي أن يقتلوه لثلاث يقتل خالد أمير المدينة، وكان مقرباً من هرقل، فجری بين جبلة وخالد حديث طويل انتهى منه إلى خروج أبطال الروم وأبطال المسلمين للمبارزة رجلاً لرجل، وقتل أبطال المسلمين في هذه المبارزة عدداً عظيماً من الروم دون أن يصاب منهم أحد. وضاق جبلة وقائد الروم ذرعاً بما رأيا فحملا بجيشهما على المسلمين العشرة دون أن يصاب منهم أحد. وضاق جبلة وقائد الروم ذرعاً بما رأيا فحملا بجيشهما على المسلمين العشرة فقتل خالد وأصحابه منهم فئة عظيمة. ولكنهم تولاهم الجهد آخر الأمر وكاد عدوهم يظفر بهم، لولا أن سمعوا تكبير المسلمين فأيقنوا بجي المدد فثبتوا، فإذا أبو عبيدة وحيشه يهاجم جبلة والروم وينقذ خالداً وأصحابه ويفتح قنسرين. وهذه خلاصة ما ذكره الواقدي، وقد خلطه بأفانيس هي الخرافة بعينها، فلا حل لذكرها.

ذكرنا أن أهل قنسرين بعثوا إلى خالد يطلبون الأمان على صلح خمس، وأن خالداً رأى أن يجزيهم بمقاومتهم، فأبى إلا تخريب المدينة، ففر أهلها إلى أنطاكية. فلما جاء أبو عبيدة وعرف ما طلبوا رأى فيما أراد خالد أن يجزيهم به عدلاً لا غبار عليه، ولذلك هدم حصون المدينة وأسوارها، ثم رأى أن يقرن إلى العدل الرحمة، فأجاب أهل المدينة إلى الأمان والصلح الذي طلبوا، قيل إن كنائس المدينة ومنازلها قسمت فاستولى المسلمون على نصفها، وقيل بل أقيم مسجد على بقعة من أرضها وترك ما سوى ذلك لأهلها كما كان فساد الذين فروا إلى أنطاكية وقد رضوا أداء الجزية. وأمر أبو عبيدة فأحسنّت معاملتهم كما أحسنّت معاملة غيرهم في البلاد التي فتحتها المسلمون، وقام العدل بينهم على أساس من المساواة الصحيحة وإنصاف الضعيف من القوى.

مع ذلك بقي في نفوسهم من الحفيظة والحقد ما دفعهم إلى الانتفاض والغدر حين سار المسلمون عنهم يريدون حلب. ووجه أبو عبيدة إليهم قوة حصرتهم وأخذت منهم بقرأ وغماً وتركّت بينهم حامية تسكفل إذعانهم، وتحمي مؤخرة الجيش الفاتح. واطمان أبو عبيدة فسار حتى نزل حاضر حلب فاجتمع له أصفاف من عرب هذا الحاضر، صالحهم على الجزية، وأسلم منهم بعد ذلك من أسلم. وقدّم أبو عبيدة عياض بن غنم إلى حلب فحاصرها، فلم يلبث أهلها أن طلبوا الصلح مع أن حصونهم منيعة. وما مناعة الحصون إذا تضععت القلوب وضعفت الهمم وخارت العزائم! وقد رأى أهل حلب ما حلّ بمن قبلهم ورأوا المقاومة لا تردّ هؤلاء الفاتحين الذين لا يهابون الموت، فألقوا بأيديهم. قيل: إن عياضاً قبل ما طلبوا من الأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم. وحصنهم، فصالحهم عليه، وأن يدعوا مكاناً يقيم المسلمون فيه مسجدهم، وقيل: بل صولحوا على قسمة منازلهم وكنائسهم، وقيل إن أبا عبيدة دخل حلب فلم يجد بها أحداً ورأى أهلها انتقلوا أنطاكية، فلما تم الصلح رجعوا إليها.

تردد ذكر أنطاكية في هذا الفصل. وقد رأينا من قبل هرقل لجأ إليها حين جلا عن حص بعد فتح دمشق. وسنرى أبا عبيدة الآن يسير إليها فيفتحها، فلا يلبث هرقل بعد فتحها أن يذرّ الشام كله وأن يرتد إلى القسطنطينية، ثم لا يلبث جبلة بن الأيهم

أن ينضم إل المسلمين وأن يذهب إلى عمر بالمدينة. وليس في ذلك من عجب ؛ فقد كانت أنطاكية إلى يومئذ عاصمة الإمبراطورية الرومية في الشرق ، والمدينة التي تلي فيها مدينة قسطنطين وكان أباطرة الروم يؤثرونها على الإسكندرية لقربها منهم ، ولشعورهم بأنها أوثق ارتباطاً بهم من العاصمة المصرية التي يفصلها البحر عنهم ، والتي كانت تشور الحين بعد الحين بهم . لذلك كانت أنطاكية موضع عنايتهم ، فكانوا يقيمون بها من المعابد والعمائر والملاعب ماجعلها تُزْهَى على دمشق وغير دمشق من سائر مدن الشرق . كان ذلك شأنها أيام الوثنية الإغريقية والرومية ، ثم كان ذلك شأنها أيام المسيحية . كانت معابد الأوثان تقوم في أرجائها نفخة ضخمة ؛ وقد دكتها الزلازل غير مرة فأعادها الأباطرة أكثر نفخامة وضخامة وكانت الكنائس المسيحية التي قامت من بعدُ لا تنقل عن تلك المعابد جلالاً ومهابة . ذلك أن لأنطاكية سبقاً إلى المسيحية تفاخر به ؛ فأهلها أول من أطلق عليهم اسم المسيحيين ، وبطارقتها يذكرون أن القديس بطرس هو الذي نصر آباءهم . وقد أقام برّ نأبا بينهم وأذاع تعاليمه فيهم ، فكان له بالمدينة من التلاميذ والأتباع ماجعلها في العصور المسيحية الأولى مقر نشاط ديني عظيم ، ومقام بطريق آسيا . وقد عُقدت بها في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي عشرة مجامع كنسية تركت مقرراتها من الأثر في تكوين الفرق المسيحية ما يفصله تاريخ النصرانية . ونشأ عن ذلك أن انفسحت رقعة المدينة في ذلك العهد فبلغ ساكنوها مائة ألف نسمة . وما كانت لتضيق بمعيشة هذا العدد العظيم وموقفها عند مصب الأرنت على بحر الروم يحىء إليها بكل ما يحتاج إليه أهلها محولاً على السفن من مختلف بلاد الإمبراطورية : كما أن موقعها على طريق القوافل المؤدى إلى حلب ، والمتفرع من حلب إلى العراق . وإلى آسيا الصغرى ، قد جعلها مستقر تجارة عظيمة متصلة بين الشرق والغرب .

ظلت هذه المسكنة لأنطاكية إلى عهد عمر ، فكانت عنده عظيمة الذكر والأمر ، وكان فتحها يعادل في نظره فتح المدائن وفتح بيت المقدس . لذلك كان ينتظر أبناء أبي عبيدة عنها بالتلهف الذي كان ينتظر به أنباء سعد بن أبي وقاص عن القادسية . ولم يكن أبو عبيدة يجهل مناعة أنطاكية بموقعها وقوة حصونها ، كما لم يقب عنه أن الروم

الذين نجوا بعد هزائمهم في وقائع الشام كلها قد اجتمعوا بها وعزموا الدفاع عنها . وكانت أنطاكية منيعة حقاً ، تحيط بها من كل جوانبها أسوار رفيعة سمكة يدهش ارتفاعها ويدهش سمكها . وكانت هذه الأسوار ترتفع أحياناً من أخاديد الوادي الممتد إلى ناحية حلب ، وتعلو الجبال المحيطة ببعض نواحي المدينة أحياناً أخرى ، حتى ليَحْتَيِّل إلى الناظر إليها أن الجبال أحاطت بها من كل جانب ، فلا سبيل إلى اختراقها أو تخطيها . موقع هذه مفاعته ، وبه من قوات الروم كلٌّ من تراجع بعد حروب الشمال بالشام ، جديرٌ أن يصدَّ المسلمين عنه ، بل أن يصرفهم عن التفكير في منازلته . وكان جديراً بهرقل أن يتحصن به ، وأن يجلب إليه عن طريق البحر كل مدد يدفع به عدوه ويفسل به العار الذي لحقه ولحق إمبراطوريته . لكن لم يفكر في العود من الرهاء إلى أنطاكية . ولا في إمداد المدينة العظيمة ، بل تركها يسير أبو عبيدة عليها ، فيخرج إليه أهاليها فيهمهم في معركة حامية خارج حصونها ، ثم يحاصرها من كل جوانبها ، فلا تجد مفرّاً من التسليم له والنزول على حكمه . وصالحهم أبو عبيدة على الجزية والجلاء ، ورحل عنهم .

وكأنما كُبر على أنطاكية أن تنزل بهذه الهزيمة النكراء ، فنقض أهلها عهدهم ، فبعث أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم ، فقصى على انتقاضهم ، وصالحهم على الصلح الأول . وكتب أبو عبيدة إلى عمر بما كان من ذلك كله ، فكان أمر الخليفة إليه أن يرتب حامية مرابطة بأنطاكية ، وألا يؤخّر عن رجالها العطاء حتى لا تنتقض المدينة كره أخرى . لم يبق بعد أنطاكية إلا أن يطهر المسلمون ما بقي من شمال الشام ، وأن يقضوا على كل انتقاض فيه . لذلك سار أبو عبيدة إلى حلب حيث اجتمع جيش من الروم كره أخرى ، فهزمه وبدد شمله ، ثم فتح قورُسَ وَمَنْبِجَ ، وبعث خالد بن الوليد ففتح مَرَّعَشَ . بذلك كله اتصل الفتح في الشام بالفرات ، وقربت الشقة بين قوات المسلمين قيه وقواتهم في العراق . هذا إلى أن يزيد بن أبي سفيان خرج من دمشق فغزا بيروت ففتحها وفتح الثغور المجاورة لها . وترامت هذه الأنباء كلها إلى هرقل وهو بالرهاء فأيقن أن سورية لم تبق له ، وأنها ضاعت منه وانسلخت عن إمبراطوريته .

ماذا عساه يصنع ؟ أفبقى بالرهاء يؤلّب أهل الجزيرة ومن جاورهم ليقاوموا ، ولعل

القدر يبسم لهم بعد عبوسه ؟ كلا ! بل تولاه اليأس وأيقن أفول نجمة . لذلك سار من الرهاء قاصداً القسطنطينية . فلما مر بشمشاط كان خالد بن الوليد يسير في بلاد قلبية من مرعش إلى تل أعزاز إلى الدلوك مهدداً بذلك رجعتة . وفصل هرقل مسرعاً من شمشاط فرّ في طريقه بشرّف علاه وأشرف منه على أرض سورية الجميلة وقال والهّم ملء جوانحه : سلام عليك يا سورية ، سلاماً لا اجتماع بعده ، ولن يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً ! وبلغ زُنطية مُنهّداً الركن ، فألقى بها عصا تسياره دأى القلب كتيباً محسوراً .

أليس عجيباً أن يكون ذلك مصير هرقل ومصير سورية ! لقد غزا الفرسُ الروم في سنة أربع عشرة وستائة للميلاد واستولوا على الشام ومصر ، فلم يلبث هرقل حين جلس على عرش الإمبراطورية أن سار على رأس جيشه وحارب الفرس وهزمهم ، وأجلاهم عن مصر والشام ، واستردّ منهم الصليب الأعظم ، ثم رده في حفل حافل إلى بيت المقدس . فما بال جيوشه تنهزم أمام المسلمين كل هذه الهزائم ؟ ! ما باله لا يتولّى قيادتها ولا يبعث إليها من قوة روحه مثل ما فعل أول ما جلس على عرشه ؟ ! بل ما باله يبقى بعيداً عنها ، فيقيم بمحمص ثم بأنطاكية ، ثم بالرهاء ، ليفرّ آخر الأمر فرار الجبان إلى بزنطية فينزها مدموماً مدحوراً ؟ ! هذا ولما تكن عشر سنوات قد انقضت بين انتصاره على الفرس وانهزامه أمام المسلمين ؛ فقد هزم الفرس في سنة خمس وعشرين وستائة ، وبدأت هزائمه أمام المسلمين سنة أربع وثلاثين وستائة ، وكان فراره من سورية كلها سنة ست وثلاثين وستائة . أليس لهذا الانقلاب العجيب من سرّ يمكن جلاؤه ؟ أم إنه القدر دفع المصادفة فأدّت إليه ، فلا سبيل لتفسيره ومعرفة أسبابه ؟ !

ليس في حياة العالم أمرٌ لا يخضع لسنن الكون . ولو أنا عرفنا كل هذه الشّن وأحطنا علماً بكل ما يقع من الحوادث جلياًها ودقيقها ، لاستطعنا أن نفسر الظواهر الاجتماعية ، وأن نعرف ما يترتب عليها ؛ بالدقة التي نعرف بها مدار الأفلاك وسير الكواكب . لكن كثيراً من الشّن لا يزال علمه غائباً عنا ، ومن حوادث الكون كثير تفوتنا معرفته ؛ إما لأنه مضى ولم يدونه من سبقتنا تديناً نظمنا إلى دقته ، أو لأن حياتنا أقصر من أن نحيط أثناءها بكل الدقائق التي تجعل حكمنا على الظواهر الاجتماعية دقيقاً دقة رياضية . لكن

ذلك لم يمنع الكتّاب والمفكرين في كل العصور من أن يلتمسوا الأسباب ويرتبوا عليها النتائج ، فإذا جاء بعدهم نظراؤهم تحصوا آراءهم ليفوا زيفها وليبلغوا بها غاية الدقة . وهذا التمهيد ابتغاء الدقة سيظل متصلا على الأجيال حتى نباغ من العلم بالسنن الكونية في شؤون الاجتماع ما بلغنا من العلم بالقوانين الرياضية ، فتتجلى أمامنا أسرار الوجود الإنساني ويستوى لنا علم ماضيه ومستقبله . وأغلب ظننا أن الأمد لا يزال بعيداً بيننا وبين هذا المبلغ . فليكن دأبنا مداومة التمهيد لمعرفة الحقيقة ؛ فهذا التمهيد هو مظهر الحيوية العقلية والنشاط الروحي . فإذا لم يتيسر لنا أن نكشف عن كل الحقائق كاملةً استطعنا أن نظفر منها بأكبر حظ مستطاع .

والآن مأسرُ الانقلاب الذي طرأ على هرقل وجيوشه ، جعلها تنهزم أمام قوات المسلمين ولما تمضت عشر سنوات بعد انتصارها على الفرس ، وإجلالها إياهم عن مصر والشام ، وتهديدها عاصمتهم ملكهم ؟ أترأها أجهدها تلك الحروب وقد استطالت ست سنوات واستنزفت من الأموال ودماء الرجال ما استنزفت ؟ قد يكون لهذا السبب قيمته في بعض الأحيان ؛ لكنه لا قيمة له فيما نحن بصدده ، وهو لذلك لا يفسر انقلاب الروم من النصر إلى الهزيمة في هذه السنوات القليلة . ذلك لأن قوة العرب لم تكن كقوة الفرس أو كقوة الروم نظاماً وعدّة . وعشر سنوات كافية لتجنيد جيش جديد من أرجاء الإمبراطورية لا يستطيع العرب تجنيد مثله عدداً وعتاداً . وقد رأينا في اليرموك ودمشق وفحل والغزوات كلها أن أعداد الروم كانت تزيد على أعداد العرب أضغافاً مضاعفة ، ثم لم يُغن ذلك عنها ولم يؤتِها القوة على المسلمين ، بل صدقت كلمة خالد بن الوليد في اليرموك : « إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال » . لا مفر إذاً من أن نلتمس لهذا الانقلاب أسباباً أخرى نفسره وتجلوه .

وهذه الأسباب شتى ، ولسكنها تتضافر جميعاً فتؤدي إلى نتيجة محتومة هي في رأينا علة ما حدث . وخلاصة هذه النتيجة أن سياسة الدولة انتهت إلى بَرَم الناس بها وسوء رأيهم فيها ، وإلى انصرافهم لذلك عن تأييدها ، وعدم حماسهم لمؤازرتها . والنصر معتدّر في جو نفسي هذا شأنه . ذلك بأن التجنيد الحربي لا يكفي وحده لإحراز النصر ،

فالتجنيد المدني ليس دونه خطراً . ونحن نشعر اليوم بهذا الأمر شعوراً قوياً ، ويحْيَل إلينا أن مرجعه أن المدنيين يقاسون من أهوال الحرب ما يقاسى الجنود في الميدان ؛ فهم معرّضون للحصر البحرى ، والغزو الجوى ، وما إلى ذلك مما لم يكونوا يتعرّضون في تلك العصور لثله . وهذا صحيح ، ولكنه لا يصوّر إلا الناحية العنيفة مما قد يتعرض المدنيون له ، ولا يصور ما هم مطالبون به من تضحيات إيجابية متصلة هي أساس قوة الجند ، وعلى قدرها يكون رجاؤهم في النصر . فالمدنيون هم الذين يُمدّدون الجيش بعتاده وأقواته ، وهم الذين يستجيبون الحرمان حين الحرب ويؤثرون الجيش على أنفسهم وذوبهم ، ليكفل لهم نصره حياة سلم فيها أمن ودعة . وهم إنما يبذلون هذه التضحيات لمخلصين يوم يطهّثون إلى سياسة الدولة ، وإلى قيام الحكم على أساس من العدل بينهم وإصلاح شؤونهم . فإذا لم يرضوا هذه السياسة وبرموا بها لم يبذلوا هذه التضحية إلا كارهين ، ولم يكن عندهم من الحاسة لانتصار الدولة ما يزيد جيوشها إقداماً وبأساً . وهذه الحال النفسية أقوى أثراً في انتصار الجيوش وخذلانها من كل مدد وعتاد .

وهذه الحال النفسية هي التي قوّت هرقل ونصرته على الفرس . فقد كانت عوامل الفساد والانحلال تدب في كيان الإمبراطورية الرومية قبل أن يجلس هذا العاهل على عرشها ويتولّى أمورها ؛ لذلك غلبها الفرس واستولوا على ممتلكاتها . فلمّا قام هرقل بالثورة على فوكاس لسوء حكمه وتولى الأمر مكانه ، آمن الناس بأن عصرًا جديدًا يُوشك أن يزرغ فجره ، وأن الإمبراطورية لن تلبث أن تسترد ما كان لها من عزة وسؤدد . لذلك أقبلوا على هرقل يؤازرونه لمخلصين ، يبذلون من التضحيات كل ما يستطيعون بذله ، ويُرخصون أمنهم بل حياتهم في سبيل نصرته . وما أعظم ما يستطيع من يُرخص حياته ! إذا ظفر هرقل فاسترد ما أضاع سلفه ، وانتظر الناس من بعد أن يتحقق رجاؤهم في العصر الجديد .

لكن هرقل مالبت حين استتب له الأمر في مصر والشام أن لجأ إلى سياسة أحفظت عليه أهل مصر والشام . لقد خوت خزائنه ، ولا بدّ أن يملأها ، فهبط أهل هاتين الولايتين بالضرائب فنفروا . لكن نفورهم من فداحة الضرائب لم يكن وحده

ليغيّر على العاهل العظيم قلوبهم لو أنهم وجدوا عن التضحية السادية عوضاً في حكم يكفل لهم الأمن والحرية . ولا شيء أعزّ على الناس من حرية العقيدة . إنهم ينفرون إذا حاولت صرفهم عما وجدوا عليه آباءهم بالحكمة والموعظة الحسنة . وهم لا يستمعون إليك إلا أن يتبينوا إخلاصك لهم وحرصك على عداهم ، فإذا اطمأنوا إلى ذلك قاربوك في حذر أوّل الأمر ، حتى إذا آمنوا بما دعوتهم إليه بذلوا في سبيل إيمانهم دماءهم وأرواحهم . أمّا ذلك شأنهم مع الذين يدعونهم للحق بالحسنى فأخبر بهم أن تنثور نفوسهم إذا أراد حاكم أن يصرفهم قصرأ عن عقيدتهم ليفرض عليهم عقيدة غيرها ، فإذا لم يستطيعوا الثورة الصريحة عليه مكروا به وتمنّوا له السوء . وكان هذا شأن هرقل في مصر والشام وسائر بلاد الإمبراطورية . لذلك تغيّرت عليه النفوس ونفرت منه القلوب ، فلم يجد سنداً من قوة المدنيين ومن روحهم المعنوية توازر جيوشه في حرب المسلمين .

فهو حين تم له النصر على الفرس وجاء بالصليب الأعظم إلى بيت المقدس أعطى اليهود العهد الذي طلبوه بالأمان على أنفسهم ومعابدهم . لكن المسيحيين وقساوستهم جعلوا ، بعد حفلة إعلاء الصليب ، يذكرون اليهود بالسوء ويغرونهم بهم . إذ يتهمونهم بأنهم كانوا أشد من الفرس قسوة على المسيحيين وأفظع منهم جرماً في تدمير الكنائس وإحراقها . ولقد تردد هرقل بادىء الرأى في نقض عهده ، فلما ألح عليه من حوله وذكروا له من الحجج ما يحلّه من هذا العهد ، زال تردده ، فأمر بإجلاء اليهود عن بيت المقدس بل أباح دماءهم « حتى لم يبق منهم في دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب أو اختفى ^(١) » ولم يكن الذين هربوا من بيت المقدس إلى الصحراء فيما وراء نهر الأردن قليلين . هؤلاء ظل حقدهم على هرقل لهذه الفعلة الذكراء متقد الضرام لم يطفئه أنه أذن لهم من بعد بالعود إلى موطنهم ، فتربصوا ، حتى إذا لاحت أعلام المسلمين ضوّوا إليهم وصاروا لهم أدلاء يكشفون لهم عن عورات البلاد ويقفونهم على أسرار الدولة .

لم يكن اليهود وحدهم الذين أكل قلوبهم الحقد على هرقل ، بل كان النصارى يشكون كذلك مرّ الشكوى . ذلك أن هرقل رأى ، حين اطمأن له الأمر ، أن يوحد

(١) المقرئى ، قنلا عن فتح العرب لمصر : تأليف بتل وترجمة فريد أبو حديد ، ص ١١٩ .

المذاهب المسيحية في الإمبراطورية كلها ، إيماناً منه بأن تعدد المذاهب هو الذى فرّق كلتها وخضّ شوكتها. وكان أكبر رجائه أن يحقق زعماء الكنيسة هذه الوحدة بمحكتهم لتقوم في أرجاء الإمبراطورية على الرضا والوافق ، دون إجبار أو إكراه . ولو أن ذلك تمّ لكان قوةً للدولة على أعدائها ، ولشاد لهرقل مجداً باقياً على التاريخ . لكنه لم يكن ليتم ، فبقيت المذاهب على تعددها ، واضطر الإمبراطور أن يُكره الناس على الإذعان للمذهب الرسمى الذى فرض عليهم ، فمن أبى حقّت عليه كلمة العذاب . وأبى الناس فاضطّهدوا ، فشكوا إلى هرقل بطش عمّاله ، فأغارهم أذناً صمّاء ، فانصرفت عنه النفوس ونفرت منه القلوب .

كان هرقل حسن القصد لا ريب حين أراد تحقيق الوحدة المذهبية . لكنه نسى حقيقة لو ذكرها لساّر غير سيرته ، ولما تغيّر الناس عليه . فتوحيد القوانين تيسيراً للمعاملات بين الناس أمر مرغوب فيه ، بل أمر واجب . ومهما يكن من اختلاف الرأى في صلاح القانون الذى ينظّم هذه المعاملات فمن المستطاع تغييره يوم يخشى سوء أثره . لكن حرية الضمير في أمر العقيدة لا يمكن أن يحدّ القانون منها أو أن ينظّمها . فهذه الحرية ملاك حياتنا الإنسانية ، كما أن الهواء ملاك حياتنا المادية . لذلك يضيق الناس بكل حدّ منها ، ويشيرون أعنف الثورة بمن يحاول القضاء عليها . وزعماء الكنيسة وأئمة المذاهب أحرص على حريتهم وعلى حرية الناس في هذا الأمر ، فلن يتفقوا على حدّه وتقييده . ذلك بأنهم إن قيدوه ضُفّ سلطانهم الروحي على النفوس وتزعزعت مكاتهم في القلوب . وهذا ما حدث بالفعل حين اختار هرقل أسقفاً لأنطاكية ، وآخر لبيت المقدس ، وثالثاً للاسكندرية ، وفرض على الناس أن يقبلوا المذهب الذى أقره مجمع خلقدونية . فلم ينزل واحد من هؤلاء الأساقفة عن مذهبه ولا عن حرية رأيه ، ثم اختلفوا في سياستهم باختلاف طباعهم ، فاضطّهد أسقف الاسكندرية المصريين ليحملهم على تغيير مذهبهم ، ولجأ أسقف بيت المقدس إلى الحيلة ، وكان أسقف أنطاكية أوسع صدرأ . ولو أن هرقل لم يفرض مذهباً ولم يُلزم الناس اعتناقه لما انصرفت عنه النفوس ولا تغيّرت عليه القلوب . ولقد بلغ من تغييرها أن وقف أهل الشام حين غزا العرب (١٦ م - الفاروق - ج ١)

بلادهم لا تتحرك في نفوسهم الحماسة لدفعهم ، بل كان كثيرون منهم يضرعون إلى الله في أعماق نفوسهم أن تزول دولة قيصر عنهم . كتب أبو الفرج العبري يقول : « لَمَّا شكا الناس إلى هرقل لم يجب جواباً ، ولهذا أنجنا الله المنتقم من الروم على يد العرب ، فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهمتهم الشديدة وعداوتهم المرة » .

فداحة الضرائب ، وحقد اليهود ، والاضطهاد الديني : هذه عوامل ثلاثة جعات المدنيين من أهل الشام ينظرون إلى الروم المحاربين فلا تحركهم حماسة لنصرهم ، أو حرص على معاوتهم . وثُمَّ عامل رابع تضافر مع هذه العوامل الثلاثة التي أدت إلى هزيمة هرقل وفراره من سورية . فلم تسكن حماسة العرب المقيمين على تخوم بادية الشام لتدفعهم إلى الاستماتة في قتال بني عمومتهم من أبناء شبه الجزيرة . ولعل جبلة بن الأيهم كان أكثر هؤلاء العرب حماسة في نصرة هرقل ؛ فهو مدني يملكه للروم الذين عززوه ونصروه وجعلوا له من المسكنة ما يخشى أن يزول إذا انتصر المسلمون . مع ذلك لا تروى كتب التاريخ من مظاهر هذه الحماسة إلا تلك القصة المرحوجة التي أشرنا إليها حين الحديث عن فتح قنسرين ، والتي لا يُثبتها المؤرخون الثقات في كتبهم . أما والجو الذي أحاط بهرقل وجنوده هو ما رأيت ، فلا عجب أن تدور عليه الدوائر وأن يأفل نجمه ، وأن يفر إلى بُزْطية كاسفَ البال حسيراً مدحوراً .

وهذه العوامل هي التي جعلته يدع لغيره قيادة جيشه . فقد سمع بفعال العرب في العراق لعهد أبي بكر فأثر أن يقوم تذارق إلى اليرموك في عدد ضخم من الجند . فلما هُزِمَ الجيش وقتل تذارق رأى ألا يقامر بنفسه مخافة أن ينهزم فيدفن في الميدان كل مجده . ولعله ذكر يومئذ رسالة النبي العربي يحملها إليه دخية بن خليفة السكبي وهو في طريقه إلى بيت المقدس يردُّ الصليب الأعظم إلى قبر السيد المسيح ، وذكر كيف استهان بهذه الرسالة ولم يكثر لها . وها هو ذا يرى العرب الذين اتبعوا محمداً وآمنوا برسالاته ينتشرون في الأرض ويندفعون إلى بلاده غزاة فاتحين ، يستحبون الموت على الحياة فيهب الله لهم كل أنعم الحياة أين منهم جنوده الذين لا يصبرون على البأساء ولا يجدون في الفرار عاراً ! وكيف لهرقل وذلك شأنه وشأن جنده أن ينتصر ؟ بل وكيف له أن ينحدر من قمة المجد إلى حضيض

المهوان ؟ لقد نسي أن الله في الكون سُنَنًا لا تبدل لها ، وأن جهل هذه السنن يؤدي بالناس إلى الخطأ ويورطهم في الضلال . وهذا النسيان هو السبب فيما أصابه ، وما جعله في التاريخ عبرة للمعتبر .

رأى جبله بن الأبهيم مصير هرقل ، ورأى قبائل العرب من أهل الشام يهرع الكثيرون منهم إلى الإسلام ، فأيقن أن لا بقاء للملكة ولا لعزّه إلا أن يُسلم ويسلم ذويه معه . وكتب إلى أبي عبيدة بإسلامه وإسلام بني غسان ؛ فاعتبط أمين الأمة ، وأبلغ النبا أمير المؤمنين فاعتبط عمر له . ثم أن جبله كتب إلى عمر يستأذنه في القدوم عليه فأذن له ، فخرج إلى المدينة في خمسمائة من أهل بيته . وأمر عمر الناس باستقباله ، فلم يبق بالمدينة بكر ولا عانس إلا تبرجت وخرجت تنظر إلى جبله وإلى زيه . وكان جبله قد أمر مائتي رجل من أصحابه فلبسوا السلاح والحريز ، وركبوا الخيول معقودة أذنانها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضة . ولبس جبله تاجه وفيه قرطاً مارية جدته . وأعجب أهل المدينة بذلك كله فلما انتهى جبله إلى عمر رحّب به ولطف له وأذنى مجلسه .

وأقاموا جبله بالمدينة زمناً ثم خرج إلى الحج مع عمر . فبينما هو يطوف بالبيت وطىء إزاره رجل من بني فزارة فأنحنى ، ورفع جبله يده فهشم أنف الفزاري . واستعدى الرجل عمر ، فدعا جبله وسأله فأقرّ بما حدث . قال عمر : « قد أقررت . فإما أن ترضى الرجل ، وإما أن أقيده منك » . وأنكر جبله ما سمع وقال : « وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟ ! » قال عمر : « إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالثقي والعافية » . قال جبله : « قد ظننت يا أمير المؤمنين أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية » . قال عمر : « دَعْ عنك هذا ، فإنك إن لم تُرضِ الرجل أفدته منك » . قال جبله : « إذاً أتَنْصَر » . قال عمر : « إن تنصّرت ضربت عنقك ؛ لأنك أسلمت فإن ارتددت قتلتك » . فلما رأى جبله الصدق من عمر قال : « أنا ناظر في هذا ليلتي هذه » .

وكان قد اجتمع بباب عمر من شتى الأحياء خلق كثير يعجب بعضهم لحزم عمر ، ويرى بعض فيه شدة ما أعناه عنها . وبلغ من اختلافهم أن كادت تقوم بينهم فتنة .

فلما أمسوا تفرّقوا وأذن عمر لجبلته في الانصراف . وأسرى جبلته إلى رجاله فتحمّلوا ليليل إلى الشام فأصبحت مكة منهم خالية . وتابع جبلته مسيرته إلى القسطنطينية ، فدخل على هرقل متنصراً هو ومن معه ، فسّربهم هرقل وظنّ أنه فتح من الفتوح عظيم ، وأقطعه حيث شاء وأجرى عليه ما شاء^(١) .

وعاش جبلته في جوار هرقل عيش ترف ونعمة يضاهاثان ما كان له في ملكه بالشام أو يزيدان عليه . لكنه ظل مع ذلك دائم الحنين إلى منزله بأكناف دمشق . روى أبو الفرج في الأغاني أن عمر بعث رجلاً إلى هرقل بكتاب منه ، فلما أزمع الرجل الرحيل ذهب إلى جبلته فرأى ما هو فيه من عزّ يزيد على عزّ هرقل نفسه . ورأى الجوارى حوله بغنيته ويُنشدنه شعر حسان بن ثابت فيه . وسأل جبلته الرسول عن حسان فقال : أمّا إنه مضرور البصر كبير السن ؛ فأمر جاريته فأتته بخمسمائة دينار وخمسة أثواب من الديباج دفعها إلى الرسول ليدفعها إلى حسان ، ثم راود الرسول على مثلها لنفسه فأبى ، فسكى جبلته ، ثم قال لجواريه : ابكينني ، فوضعن عيدانهن وأنشأن يُنشدن قول جبلته :

تنصّرت الأشرافُ من عار لَطْمَةٍ وما كان فيها لو صبرتُ لها ضَرْزُ
تكتفني فيها حَاجٌ ونحوَةٌ وبعث بها العينَ الصحيحة بالعمورِ
فياليت أُتّى لم تَلِدْنِي وليتني رجعتُ إلى القوم الذي قاله عمر !
ويا ليتني أرعى الخَاضَ بدِثْنَةٍ وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر !
ويا ليتني بالشام أدنى معيشة أجالس قومي ذاهبَ السمع والبصر !

ورجع الرسول إلى المدينة وذكر لعمر حال جبلته وصلّته حسانا . فلما حصل شاعر رسول الله على الدنانير والأثواب انصرف عن أمير المؤمنين وهو يقول :

إن ابن جَفَنَةٍ من بقية مَعْشَرٍ لم يَفْذُهمُ آبَاؤُهم بالألوم
لم يَنْسَ بالشامَ إذ هو رهْشاً كَلّا ولا متنصراً بالروم
يُعْطى الجزيل ولا يراه عنده إلا كـبعض عطية المذموم

(١) الأغاني : جزء ١٤ ص ٤ ؛ طبعة ساسي . ولا يثبت الكثيرون من المؤرخين قصة جبلته هذه ويرون روايتها أدنى إلى فنون الأدب .

وتجربى بعض الرويات بأن جبلة اشتد حنينه إلى منازل به كفاف دمشق ، وودّ لو استطاع أن يعود إلى الإسلام فيعود إليها على أن يزوجه عمر إحدى بناته ، وأنه مات قبل أن يصله ردّ عمر بإجابته إلى ما أراد . وهذه الرواية غير صحيحة ؛ لأن جبلة عاش إلى عهد معاوية بن أبي سفيان . قيل إن معاوية بعث إليه أن يرجع إلى الإسلام ووعدّه أن يقطعه غوطة دمشق بأسرها فأبى . وقيل إن جبلة بعث إلى معاوية يعرض الرجوع إلى الإسلام على أن يعطيه منزله وعشرين قرية من الغوطة ، فكتب إليه معاوية يبيحه إلى ما طلب ، فوجده قد مات . وقد استطاع التوفيق بين الروايتين الأخيرتين بأن جبلة أبى ما عرضه عليه معاوية ، ثم إنه ندم لإبائه فعاد يطلب ما رفض ومات قبل أن يجاب إليه .

وكانت تقيم مع جبلة بالقسطنطينية جالية من أهله وعشيرته آثروه على منازلهم وأهلهم بالشام وقد قرّبهم ملوك الروم وأعزّوهم فكانوا في بلاطهم حتى دالت دولتهم . رجّح ذلك أن عدداً من رجال البلاط في قصر هرقل وخلفائه كانوا يسمون باسم جبلة ، وهو اسم عربي لم يعرفه الإغريق ولا عرفه الروم قبل أن ينزل جبلة بن الأيهم عاصمتهم .

أقام جبلة في جوار هرقل يهز الحنين إلى منزله قلبه ، وأقام هرقل حسيراً في عاصمة ملكه ، يود لو استطاع الرجعة إلى الشام يسير بين جناته الفيحاء ، وجباله المجلّة بالثلوج ، وأوديته الخصبّة ، حتى يبلغ قبر المسيح ببيت المقدس . أتراه يحاول هذه الرجعة وقد ودّع سورية الوداع الأخير ، أم أنه وهن عزمه وانهد ركنه ؟ ذلك ما سنرى من بعد . فلندعه الآن كاسف البال في قصره ، ولنعد إلى فلسطين نساير قواد المسلمين في ربوعه ، حتى ندخل معهم بلد المسجد الأقصى .

الفصل الثاني عشر

عمر في بيت المقدس

انتصر المسلمون باليرموك في أوّل خلافة عمر . وقد فرّت فلول الروم من هناك إلى فحل فاجتمعت بها . فبعث أبو عبيدة أبا الأعور السلمي يفازلها ، وسار هو إلى دمشق وأقام أبو الأعور فيمن معه من الجند بإزاء تلك الفلول ومن انضم إليها من المدد الذي بعث به هرقل إلى فحل . فلما فتح المسلمون دمشق دعا أبو عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنّة ، فحاصروا الروم بفحل ، وما زالوا بهم حتى هزموهم ، ثم استولوا على طبرية وبيسان ووقفوا على أبواب فلسطين . عند ذلك سار أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حصص تنفيذاً لأمر عمر ، تاركين عمرو بن العاص وشرحبيل على القوات التي كانت في إمرتهم للاستيلاء على فلسطين . وفتح أبو عبيدة حصص ، وسار المسلمون منها إلى حماة فأنطاكية فشمال الشام وجنوب قِلَقِيّة والنصر يسير في ركبهم ، فلم يجد هرقل بداً من الفرار إلى القسطنطينية ، مودّعاً سورية الوداع الأخير .

بينما كان أبو عبيدة يسير مظفرأ في شمال الشام ، كان عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة يواجهان قوات الروم التي اجتمعت بفلسطين ويعملان للقضاء عليها . ولم يكن ذلك أمراً يسيراً ؛ فقد كانت هذه القوات عظيمة كثيرة العدد والعتاد ، وكان على قيادتها أطربون^(١) أكبر قواد الروم وأكثرهم دهاء وأبعدهم غوراً . وقد رأى ألا يفرّق جنده في أما كن كثيرة حتى تنوحد القيادة في يده ، وحتى لا يفتّ ظفر العرب ببعض هذه القوات

(١) ورد هذا الاسم في الطبري ومن أخذ عنه على أنه أطربون . وبعض المؤرخين يضيفون إليه أداة التعريف فيقولون الأطربون . وقد صححه الفرد بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر) على أنه أطربون . وقد ورد هذا الاسم في بعض الكتب وفي بعض الأسفار كما ذكرناه في النص ، أي أطربون . ويرى بعض المحققين أن لفظ أطربون أصح من « أطربون » و « أريطبون » ، وأنه ليس اسم قائد الروم في بيت المقدس ، وإنما هو لقب قائد الروم الأكبر الذي يلي هرقل في المسكنة ، وأنها معربة عن الكلمة اللاتينية Tribunus . ونحن نرجح هذا الرأي . ولذلك أثبتنا اللفظ في النص على أنه « أطربون » .

في أعضاده سائرهما . فوضع بالرملة جنداً عظيماً ، ووضع بإيلياء ^(١) جنداً مثله ، وترك بغزة وسبسطية ونابلس وألد ويافا حامياتها ، وأقام ينتظر مَقدَمَ العرب عليه ، واثقاً من قدرته على الظفر بهم وتشيت شملهم .

أدرك عمرو بن العاص دقة الموقف ، ورأى أنه إذا واجه أطربون بكل جيشه فانضمت قوات الروم بعضها إلى بعض لم يقدر عليها ، وقد تقدّر عليه . لذلك كتب إلى عمر ، فأمر الخليفة يزيد بن أبي سفيان أن يوجّه أخاه معاوية إلى قيسارية ليفتحها ، فلا يجيء إلى أطربون مدد من البحر عن طريقها . وكانت قيسارية ثغراً جليل الخطر حصين الموقع تحمي قوة كبيرة . وسار معاوية فحصر أهلها ، فجعلوا يراحقونه فيهمزهم ويردّهم إلى حصونهم . فلما طال ذلك بهم خرجوا يقاتلونه مستميتين ففضى عليهم حتى كانت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً ، بلغوا بعد الهزيمة والفرار مائة ألف . وبسقوط قيسارية والقضاء على جندها آمن المسلمون جانبها ، وامتنع كل مدد يجيء إلى الروم عن طريقها ^(٢) .

وحاصر العرب غزّة كما استولوا على قيسارية . وكانت غزّة قد سقطت في يد المسلمين أيام أبي بكر ثم جلوا عنها . وبوقوع هذين الثغرين في نفوذ العرب آمن عمرو ناحية البحر ، واضطرّ أطربون إلى الاعتماد على القوات التي في إمرته دون غيرها .

لم يكثف عمرو بهذا . فقد رأى أطربون يتقدم بقواته إلى أجنادين ، فوجّه علقمة ابن حكيم ومسروقاً العسكىّ إلى ناحية إيلياء فشغل بهما جندها ، ووجّه أبا أيوب المالكى إلى ناحية الرملة فلم يبق بثّ من احتفاظها بحاميتها . وكتب عمرو بذلك كله إلى عمر ، وذكر له دهاء أطربون وسعة حيلته ، ووصف له من قوة الروم وعدتهم ما جعل الخليفة يأمر بإرسال المدد العظيم إليه . ثم إنه أعاد النظر في السكتاب فابتنم لصفته أطربون بالدهاء

(١) لإيلياء هي بيت المقدس . ولم تنشأ الرملة إلا في القرن الثامن المسيحي على مقربة من قرية كانت تدعى (راما) فاندثرت من بعد . وقد آثر المؤرخون العرب أن يذكروا اسم الرملة الباقية إلى اليوم حتى لا يختلط الأمر على القارئ .

(٢) بهذا تجري رواية الطبري وابن الأثير وابن كثير . ويذكر ابن خلدون أن معاوية حاصر قيسارية ولا يذكر أنه فتحها . ورواية المستشرق ميور أن المسلمين أخضعوا فلسطين كلها خلا قيسارية . وبعض الروايات تذهب إلى أن قيسارية ظلت محصورة سبع سنين . ولعلها فتحت غير مرة ؛ ثم استردها الروم من البحر . وعلى كل حال فقد أدى حصارها إلى امتناع كل مدد لأطربون عن طريقها .

والمكر ، وقال ابن حوله : « قدرمينا أطربون الروم بأطربون العرب فانظروا عمّ تنفرج » . وبلغت الأمداد فلسطين ، فبعث عمرو ببعضها قوتلن شغلوا جند العدو بإيلياء والرملة وسار هو في جلة الجيش يلقي أطربون بأجنادين ، فإذا الروم بحصونهم وخنادقهم في منعة أى منعة . كيف السبيل إليهم ؟ وهل من يدله على مأتاهم ؟ لم يجد لذلك وسيلة إلا الحيلة ، فبعث الرسل يتفاوضون في الصلح ، وأسر إليهم أن يوافقوه بمدخل العدو وعوراته . لكن الرسل لم تشفعه ، فأثر أن يتولى الأمر بنفسه ، على ألا يظهر عدوه على أمره . فلئن عرف أطربون أن عمرأ هو الذى يحاذيه ليأخذته أسيراً ، ثم لن يقتله ؛ هذا إن لم يقتله . وتمسك عمرو وسار إلى أطربون ودخل عليه كأنه رسول بعد أن تأمل حصونه وعرف منها ما أراد . وتحدث الرجال ، فداخلت أطربون الريبة في شخص محدثه ، وقال في نفسه : « والله إن هذا لعمر ، أو إنه الذى يأخذ عمرو برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ! » . ثم دعا جندياً من رجال حرسه ، فأسر إليه إذا امر العربى بمكان بذاته أن يقتله . وفطن عمرو إلى أن فى الأمر كيداً ، فقال لأطربون : قد سمعت منى وسمعت منك . فأما ما قلتَه فقد وقع منى موقعاً . وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالى لنكاشفه ويشهدنا أموره . فأزجج فأتيتك بهم الآن ؛ فإن رأوا فى الذى عرضت مثل الذى أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمئهم وكنت على رأس أمرك » .

سمع أطربون هذا القول فخالج نفسه الشك فيما ظن ، فاسترجع الحارس الذى أسر إليه بقتل هذا العربى ، وقال لعمر : انطلق فجئ بأصحابك . وخرج عمرو مسرعاً إلى عسكره لا يلبى على شئ ولا يظن أن يعود لمثلها . وعرف أطربون الأمر فقال : « خدعنى الرجل . هذا أدهى الخلق » . وبلغ عمر ما حدث فقال : « غلبه عمرو ، لله عمرو ! » .

لم يبق أمام عمرو إلا أن يُنشب القتال بعد أن عرف مأخذه ومآتيه ، وبعد أن أعد له عُدته . والتقى الجيشان بأجنادين كما التقى جيشا المسلمين والروم من قبل بالواقصة على اليرموك . وكلاهما يعلم ما لهذا اليوم فى حياة الإمبرطورية وفى حياة الإسلام

من أثر . لذلك بلغت شدة القتال بأجنادين ما بلغت باليرموك ، فكثرت القتلى من الجانبين ، وترجّح النصر زمنًا بينهما . لكن المسلمين كانوا أكثر صبراً . فقد كانت أنباء أبي عبيدة وخالد بن الوليد وانتصاراتهما بشمال الشام قد بلغتهم وبلغت الروم ، وكان أهل فلسطين من اليهود والنصارى يقفون من حكامهم ومن غزاتهم موقف المتفرج ، لا تحركهم حاسة للروم ولا غضب على المسلمين ، فكان لعمر و جنوده من أنباء إخوانهم ، ومن موقف المدنيين حولهم ، وما زادهم حاسة وحلهم على الثبات والصبر . فلما أذنت الشمس بالمغيب رأى أطربون صفوفه تضطرب ورجاله تولّاهم الإعياء ، فانسحب في الناس متقهراً إلى ناحية بيت المقدس . ورآه علقمة بن حكيم ومسروق العكبي في تهمقه فأمرأ رجالهما ففسحواله طريقاً ، فدخل المدينة بمن بقي من جنوده معتمداً على مناعة حصونها وقوة مقاومتها ، منتظراً يوماً يكون الخط فيه أقل عبوساً فيكون له من الرجاء في النصر ما فاته هذا اليوم .

وأمر عمرو علقمة بن حكيم ومسروق العكبي وأبا أيوب المالكى فعسكروا بقواتهم في أجنادين ، وأقام هو معهم ينظر في مهاجمة أطربون بيت المقدس . ورأوا قبل مهاجمته أن يحيطوا به ، وأن يقطعوا خط رجعتهم من ناحية البحر ففتحو رَفَحَ وغَزَّةَ وسَبَسْطِيَّةَ ونابلس واللدّ وعمواس وبيت جبرين ويافا ، فتحو بعضها عنوةً ، وسلم بعضها ورضى الجزية بغير قتال . بذلك بقيت بيت المقدس والرملة وحدهما حصينتين يحيط بهما المسلمون . أترام وقد آمنوا ألا يحيطهم أحد من خلفهم يحاصرون بيت المقدس ويهاجونها ، أم يكتبون بذلك إلى عمر ويقيمون حيث هم إلى أن يحيطهم رأيهم ؟ .

ولهم ليفسكروا فيما يصنعون إذ تناول عمر رسالة من أطربون يقول فيها : « أنت صديق ونظيرى . وأنت في قومك مثلى في قومي . والله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين ، فارجع ولا تفتّر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة ! » . وتعجّب عمرو حين قرأ الكتاب ، وردّ عليه بأنه « صاحب فتح هذه البلاد » ، وطلب إلى أطربون أن يشاور وزراءه لعلمهم بنصحوه قبل أن يدهمه . لكن أجنادين كانت قد استنفدت من جند المسلمين ما جعلهم بحاجة إلى المدد . لذلك آثر ابن العاص أن يكتب إلى عمر

يستمدّه ويستشيرهُ ، فبعث إليه يقول له : « إني أعالج حرباً كثروداً صدوماً وبلاداً
أدخرت لك قرأيك^(١) » .

تداول عمر بن الخطاب هذا الكتاب وقرأه والثابت في روايات المؤرخين جميعاً ،
المسلمين منهم وغير المسلمين ، ، أنه ذهب من بعدُ إلى بيت المقدس وعقد الصلح مع أهله .
لكن ما حدث بين تناوله الكتاب ومجيئه إلى فلسطين عقد الصلح يقع عليه خلاف كبير .
ومن المتفق عليه أن أهل بيت المقدس تولاهم الروح من أجنادين ، وثبت في نفوسهم
أن مدينتهم صائرة إلى العرب لا محالة . لذلك بادروا بالاتفاق مع الأسقف صفرنيوس فنقلوا
الصليب الأعظم وكل ما كان في الكنائس من الآنية ، وجعلوا كل ذلك عند الساحل
ثم وضعوه في سفينة وبعثوا به إلى دار الملك بالقسطنطينية ، ليوضع الصليب من بعدُ
في كنيسة القديسة أيا صوفيا . وقد انسحب أطربون بقواته من بيت المقدس إلى مصر
قبل أن تبدأ مفاوضات الصلح بين عمر ورسول المدينة المقدسة . لكن الخلاف يقع
على ما سوى ذلك وعلى ما يتصل من الحوادث . فهل تقدّم عمرو بن العاص فحاصر
إبلياء قبل أن يبرحها أطربون وقبل أن يحضر عمر بن الخطاب لمصالحة أهلها ، أم هم طلبوا
الصلح قبل أن يحاصروا ؟ وهل جاء خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح من الشام
فتولّيا حصار المدينة ولم يكن عمرو حاصرها ، أم تولّيا معه ؟ وهل جاء عمر بن الخطاب
من شبه الجزيرة في أمداد اشتركت في الحصار ثم كانت مفاوضات الصلح ، أم جاء
في عدد قليل من الرجال بعد أن طلب أهل إبلياء الصلح على أن يعقدوه مع أمير المؤمنين ؟
وهل طال زمن الحصار أم قصر ؟ هذه كلها أمور ترد في أمرها روايات يصعب التوفيق
بينها وحسبنا أن نوجزها هنا لنفصل بعدها ما أتمه عمر في بيت المقدس حين مفاوضات
الصلح وبعدها .

(١) تجرى رواية ذكرها الطبري وغيره بأن أطربون ضحك حين قرأ في كتاب عمرو قوله : لأنه
صاحب فتح هذه البلاد ، فأقبل أصحابه يسألونه من أين علم أن ابن العاص ليس بصاحب لإبلياء ، فذكر
لهم أن صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف ، وأن ذلك في التوراة ، وأن فيها من صفة عمر ما لا يدع
شكاً في أن بيت المقدس ستؤول إلى المسلمين . ويضيف بعض من يذكرون هذه الرواية أن أطربون
مالبت حين عرفها أن انسحب بقواته إلى مصر تاركاً للأسقف صفرنيوس معالجة الموقف مع المسلمين .

يحمل بي قبل إيجاز هذه الروايات وتمحيص ما استطاع تمحيصه منها أن أشير إلى أن موقع إيلياء بالمنطقة الجبلية في جنوب فلسطين جعلها منذ القدم قلعة حصينة ذات شأن كبير من الناحية الحربية ، وأن قدماء المصريين كانوا يعتمدون عليها في رد أعدائهم الذين يحاولون الانحدار إلى مصر من ناحيتها . وقد ثارت المدينة بحكم المصريين وتخلصت منه ثم رُدَّتْ إليه غير مرة . ففي عهد داود وسليمان استقلت عن مصر فبنى سليمان هيكله بها . واحترق الهيكل واحترق إيلياء كلها حين غزا الفرس فلسطين في القرن السادس قبل الميلاد . وأعيد بناء الهيكل من بعد ، ثم اتخذ اليهود معبدهم والمكان المقدس لشعائهم ، فقتلوا عمارته وحصنوه وجعلوا منه قلعة ثبتت لغزو الرومان في القرن الأول قبل الميلاد . وهدم هيرودس الهيكل حين تولى أمر فلسطين من قبل الرومان ، ثم أعاد بناءه وزاد فيه ورفع عمده ، وجعله أكثر مما كان نخامة ومنعة . فلما استقرت المسيحية بفلسطين وتناول عليها العهد أهمل الهيكل حتى كاد يصبح أطلالا . مع ذلك ظلت المدينة المقدسة معتمدة على مناعة موقعها وقوة حصونها ، فلم تفتح أبوابها للفرس حين غزوها في أوائل القرن السابع الميلادي ، بل قاومت حصارهم ثمانية عشر يوماً اضطرت بعدها للتسليم . فلما استردها هرقل أذاق اليهود العذاب قتلا ونفياً وتنكيلا ، لانتقامه إياهم بأنهم ماثوا الفرس حين الغزو ودلّوهم على عورات البلاد .

هذه اللوحة السريعة من تاريخ بيت المقدس تنقي الرواية القائلة بأنها لم تقاوم المسلمين ، وأن أطربون انسحب منها أول ما جاءه النبا بمسير الغزاة إليها ، وأن أسقفها صفرنيوس لم يلبث حين بلغ عمرو بن العاص أسوارها أن بعث إليه يطلب الصلح على أن يحضر أمير المؤمنين فيتولى عقده بنفسه . فقد رأيت كيف قاومت الغزو في كل تاريخها ، وكيف قاومت الفرس قبل عشرين سنة من مجيء المسلمين إليها . ولقد ظفر الفرس يومئذ بالروم في الشام وهزمهم في عدة مواقع ، كما ظفر المسلمون بهم في اليرموك ودمشق وفحل وأجنادين ، ثم لم يحمل ظفر الفرس المدينة المقدسة على الإذعان دون مقاومة . طبعي ذلك شأنها أن تقاوم المسلمين كما قاومت الفرس ، وأن تصدق الرواية التي تقول إنهم حاصروها شهوراً قبل أن تطلب الصلح ، وأن ينهار القول بأنها سلمت بالصلح دون مقاومة .

ويجب كذلك أن نستبعد الرواية القائلة بأن خالد بن الوليد أو عبيدة بن الجراح حاصر أحدهما أو كلاهما ، على ما ذكره الطبري وابن الأثير وابن كثير وغيرهم . يقول الطبري : « كان سبب قدوم عمر إلى الشام أن أبا عبيدة حاصر بيت المقدس ، فطلب أهله منه أن يصالحهم على صلح مدن الشام ، وأن يكون المتوَلَّى للعقد عمر بن الخطاب ، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة » . وإنما نستبعد هذه الرواية لأن أبا عبيدة وخالداً كانا حين حصار بيت المقدس ، في شغل بفتح حمص وحلب وأنطاكية ، وبإخضاع ما جاورها من البلاد ، وأن هرقل كان إزاءهما بالرهاة يجمع الجيوش لردِّهما على أعقابهما . وقد كان ذلك كله كما كان حصار بيت المقدس في السنة الخامسة عشرة من الهجرة (٦٣٦ للميلاد) . والراجح أن حصار بيت المقدس استطال شهوراً من تلك السنة ، كان هذان القائدان يسيران أثناءها بأقصى الشمال من سورية حتى يضطرا هرقل فيرحل إلى عاصمة ملكه على البسفور . أما وذلك شأنهما فالقول بأن أحدهما أو كليهما حاصر بيت المقدس قول لا ينهض ، ويجب لذلك استبعاده .

بقيت الرواية القائلة بأن عمرو بن العاص هو الذي حاصر بيت المقدس ، وأن حصاره لها طال ، وأنها قاومته مقاومة عنيفة . وهذه الرواية الراجحة في رأينا ، لأنها تتفق وما عُرف عن بيت المقدس من مقاومة كل من أقدموا على غزوها في مختلف العصور ، ولأن عمرو بن العاص لم يكن دون أبي عبيدة مهارة في القيادة ومقدرة عليها ؛ وحسبُه أنه فاتح مصر معقل الروم المنيع . ولعلك تذكر أنه ودّ ، حين وجه أبو بكر الجيوش لغزو الشام أن يكون أميراً عليها ، وأن عمر بن الخطاب قال له يومئذ : « إنك لم تكن أميراً هذه المرة ، فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد » . ومن قَبْل ذلك كان أميراً على الجند الذي عهد إليه أبو بكر في القضاء على ردة قُضاة . رجل ذلك شأنه ، وله من الحيلة في الحرب والسلم ما لم يشتهر غيره بمثله ، وهو بعدُ صاحب الإمارة على جيوش المسلمين بفلسطين وصاحب فتحها ، هو لا ريب الذي تولى حصار بيت المقدس ، وهو الذي أقام على حصارها ، والذي دارت محادثات الصلح بينه وبين أهلها .

وقد طال هذا الحصار واشتدت مقاومة المدينة ، حتى كتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول

له : « إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً وبلاذاً. اذْخِرَتْ لك فرايَكَ » يقول الطبري في رواية : إن أهل إيلياء « كانوا أشجواً عمراً وأشجاءم ، ولم يقدر عليهم ولا على الرملة » لذلك أمدّه الخليفة بجند عظيم ليتقوى به ويقدر عليهم .

هل سار عمر من المدينة مع هذا الجند ، أم بقي بها حتى فاض أهل بيت المقدس عمراً في الصلح وانفقوا على تسليم المدينة على أن يأتي الخليفة بنفسه ليكتب عهدها ؟ المشهور أن عمر لم يترك المدينة إلا لِيُتِمَّ الصلح مع أهل إيلياء ، وأنه لذلك ذهب في نفر قليل . وبعض الروايات تجرى بما يخالف هذا المشهور . روى عن عدّى بن سهل أنه قال : « لما استمد أهل الشام عمر على أهل فلسطين استخلف عليّاً وخرج مدداً لهم ، فقال عليّ : أين تخرج ! إنك تريد عدوّاً كليلًا » . وفي رواية ذكرها ابن كثير أن عمر ذهب إلى فلسطين يُتِمُّ الصلح مع أهل إيلياء ، وأنه سار بالجيوش نحوهم واستخلف على المدينة على بن أبي طالب . ومن عجب أن يسير عمر بالجيوش لغير شيء إلا أن يُتِمَّ الصلح ويكتب عهده . ومن عجب كذلك أن يطلب أهل بيت المقدس أن يُقدِّمَ عمر من المدينة ليُتِمَّ الصلح معهم وهم يعلمون أن بينه وبينهم مسيرة أسابيع ثلاثة تطردُ العيرُ أثناءها مُقبلةً من المدينة إليهم . لذلك أرجّح أن عمر ضاق صبراً بطول الحصار ويكتب عمر وإليه عن بأس عدوّه ، وأنه أمدّه ، فلما طلب إليه مدداً جديداً خرج مع المدد حتى نزل الجابية بين بادية الشام وأرض الأردن ، وكان أبو عبيدة وخالد بن الوليد قد فرغا من إخضاع الشام ، فدعاهما ليوافياه إلى الجابية حتى يتشاور معهما ومع غيرها من قواد المسلمين في أنجع الطرق للقضاء على مقاومة المدينة المحصورة .

وعرف أطربون وصفرنيوس مُقدِّمَ عمر ، وعرفا ما نزل بالروم على أيدي أبي عبيدة وخالد من المصائب ، وقدّرا أن المدينة لن تستطيع المقاومة طويلاً من بعد ، فانسحب أطربون مستخفياً في قوة من الجند إلى مصر ؛ فلما اطمأن البطريق الشيخ إلى نجاة تولى مفاوضة المسلمين في تسليم المدينة . وإذ كان قد علم أن أمير المؤمنين بالجابية قد اشترط أن يأتي بنفسه ليكتب عهدها . وليس من الجابية وبيت المقدس ما يتعذر معه إجابة صفرنيوس إلى طلبه .

هذا ما أَرَجَّحه ، وما يتفق وسياق التاريخ لوقائع الغزو بالشام وفلسطين . والرواية المشهورة لا تأباه ولا تُنكره مع أنها تخالفه في أن عمر إنما سار من المدينة بعد أن طلب أهل بيت المقدس الصالح ، مشترطين أن يتولاه الخليفة بنفسه . وأصحاب هذه الرواية يختلفون بينهم فيمن بعث بمطلب أهل إيلياء أن يقوم عمر بمصالحتهم أكان أبا عبيدة أم عمرو بن العاص ، كما يختلفون في السنة التي تم فيها فتح المدينة . ولست أناقش أقوالهم ابتغاء تمحيصها بعد ما رجحت ما يخالفها ، فحسبي أن أثبت هنا هذه الرواية المشهورة عن سير عمر من المدينة إلى إيلياء .

ومحل هذه الرواية أن عمر تناول كتاباً قائده بالذهاب إلى فلسطين فقرأه على المسلمين بالمسجد واستشارهم فيه . ورأى عثمان بن عفان ألا يبرح عمر المدينة : « فأنت إن أقمت ولم تَسِرْ إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخفٌ ولقتالهم مستعدٌ » ، فلم يلبثوا إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويُعطوا الجزية . وخالف علي بن أبي طالب رأى عثمان وأشار على عمر بالسير إلى إيلياء ، فقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المُقام . . . فإذا أنت قَدِمْتَ عليهم كان لك وللمسلمين الأمنُ والعافية والصالحُ والفتح . ولست آمن أن يئأسوا منك ومن الصالح ويُسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم ، لا سيما وبيت المقدس معظمٌ عندهم وإليسه يحجّون » . وآثر عمر رأى علي وأخذ به ، فاستخلفه على المدينة ، وأمر الناس بالتأهب للسير معه .

وسار عمر من المدينة حتى نزل الجابية^(١) . وكان قد كتب إلى أمراء الأجناد

(١) يقول الطبري وابن الأثير وغيرهم إن عمر سار من المدينة إلى الجابية على فرس ، ويقول الواقدي ومن جرى مجراه : إنه سار على بعيره جعل عليه غرارنان في أحدهما سويق وفي الأخرى تمر ، وبين يديه قرية مملوءة ماء وخلقه جفنة لازاد . ومعه جماعة من الصحابة ، ولأنه كان يقرب لهم جفنة في الصباح فيأكلون معه ، ولأنه كان يعلم المسلمين الذين يمر بهم وينهاهم عما يخالف دينهم مما كانوا يقترفونه على حهل . فلما أشرفوا على الشام رأوا خيلاً مقبلة عليهم بعث بها أبو عبيدة لتجيشه نبأ عمر ومقدمه . وأراد عمر دخول بيت المقدس وعليه مرقعة من صوف فيها أربع عشرة رقعة بعضها من آدم ، فقال له أصحابه : لو ركبت بئس بعيرك جواداً وليست ثياباً بيضاء ! ففعل وطرح على عاتقه منديلاً من كتان دفعه إليه أبو عبيدة . وقدم له برذون ركه ، فلما رآه يهملج به نزل عنه وقال لأصحابه : أقبلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة ، فقد كاد أميركم يهلك بما دخل قاي من العجب والكبر ! . ثم نزع ما كان عليه وعاد إلى لبس مرقعته .

أن يوافوه بها ليوم سماء لهم ، وأن يستخلفوا على أعمالهم . فلما عرفوا مَقْدَمَهُ صاروا إليه يتقدمهم يزيد بن أبي سفيان ، ثم أبو عبيدة ، ثم خالد بن الوليد على الجند في عرض يأخذ بالنظر . وراهم عمر مقبلين عليهم الحرير والديباج ، فغلى الدم في عروقه لمرآهم ، فنزل عن فرسه وأخذ الحجارة ورماهم بها وصاح مقتضياً : « سَرَعَ مَالِقَتُمُ عَنْ رَأْسِكُمْ ! إِيَّايَ تَسْتَقْبِلُونَ فِي هَذَا الزَّيِّ ! وَإِنَّمَا شَبَعْتُمْ مِنْذُ سَنَتَيْنِ ! وَبِاللَّهِ لَوْ فَعَلْتُمْ هَذَا عَلَى رَأْسِ الْمَسَائِثِينَ لَأَسْتَبَدَّتُمْ بِكُمْ غَيْرَكُمْ » . واعتذر أمراء الجند قائلين : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهَا بِلَامِقَةٍ وَإِنَّ عَلَيْنَا السَّلَاحَ » . ورأى عمر سلاحهم تخفف مرآه من ثورة غضبه فقال : « فَنَعَمْ إِذَا » وركب حتى دخل الجابية وسار القوم في صحبته .

وبينا عمر معسكر بالجابية فزع الناس إلى السلاح إذ رأوا خيلاً مقبلة عليها الفرسان في أيديهم السيوف . فتبسم عمر لمرآهم وقال : مستأمنة ، لا تراعوا وأمنوهم . وكان هؤلاء رسل صفر نبوس أسقف بيت المقدس جاءوا يَتَمَوَّنُ الصلح مع أمير المؤمنين . وصالحهم عمر على صلح دمشق ، بل على صلح أكثر منه سخاء ، وكتب معهم كتاباً أورد الطبري نصه كما يلي : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هَذَا مَا أَعْطَى عَبْدُ اللَّهِ عَمْرُؤُا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

= وينسب ابن كثير إلى أبي الغالية الدمشقي وصفاً لهذه الزيارة يحرى بما نصه : « قدم عمر بن الخطاب الجالية عن طريق إيلياء على جبل أوردق ، تلوح صلته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرجل بلا ركاب . وطاقوه كساء أنبجالي ذو صوف هو وطاقوه إذا ركب وفراشه إذا نزل حقيبته نمر أو شملة عشوة ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل . وعليه قميص من كرايس قد رسم وتخرق جنبه ، فقال : ادعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلوس فقال : اغسلوا قميصي وخطوه وأعيدوني ثوباً أو قميصاً . فأتى بقميص كتان . فقال : ماهذا ؟ قالوا كتان . قال : وما الكتان ؟ فأخبروه ، فنزع قميصه فغسل ورقم وأتى به فنزع قميصهم ولبس قميصه . فقال له الجلوس أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل . فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً لكان هذا أعظم في أعين الروم ! . فقال : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً . فأتى برذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه بها فقال : احبسوا احبسوا . ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ! فأتى بجملته فركبه » .

ويضيف ابن كثير رواية عن طارق ابن شهاب يقول : « لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقيه (الموق : الحف) فأمسكها بيده وخاض الماء ومعه بعيره . فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض . صنعت كذا وكذا . فصك عمر في صدره وقال : أو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! لمنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام . فمها تطلوا العزة بغيره بذالكم الله ! » .

أهل إيليا من الأمان : أعطاهم الله أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانها وسقيمتها وبريتها وسائر ملتها؛ إنه لا تُسَكَن كنائسهم ولا تُهْدَم ولا ينتقص منها ولا لا من حيزها ، ولا من صليبتهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكْرَهُون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم أن يبلغوا مأمنهم . ومن كان بهامن أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله . وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصّد حصادهم . وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية . » وختم عمر الكتاب بتوقيعه ، ثم أشهد عليه خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان .

رجع رسل صفريوس بالكتاب إلى بيت المقدس فاغتبط به الأسقف واغتبط به أهل المدينة جميعاً . وكيف لا يغتبطون وقد أقرهم المسلمون وأمنوهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم ، لا يضار أحد منهم بسبب دينه ، ولا يُكْرَهُ على شيء في أمره ! وكيف لا يغتبطون وقد أباح هذا العهد لمن شاء من أهل المدينة أن يرحل عنها مع الروم ، وأباح لمن شاء من الروم ومن الأجانب المقيمين بالمدينة أن يظلوا بها آمنين ، ثم لم يفرض عليهم غير الجزية يؤدونها لقاء منفعهم وكفالة أمنهم ! ابن هذا عما كان يريد قتل أن يُكْرَهُ أهل المدينة عليه من ترك مذهبهم إلى مذهب الدولة الرسمي فمن أبي جُدع أنفه ، وصُلِّت أذناه ، وهُدِم بيته ! ألا أن هذا الصلح للعهد جديد فتح الله به على النصاري من أهل بيت المقدس . وهو عهد لم يتهياً لهم في التاريخ ولم يكن لهم رجاء قط في مثله .

وترامت أنباء هذا الصلح إلى أهل الرملة ، فتطاوت أعناقهم يريدون أن يعقدوا مع أمير المؤمنين صلحاً مثله . وكذلك كان شأن غيرهم من أهل فلسطين . وقد ظفر أهل

اللَّهُ من عمر بكتاب جرى عليهم وعلى البلاد التي دخلت من بعد معهم فيه . وفي هذا الكتاب أعطى عمر أهل اللد أماناً على أنفسهم وأموالهم وكفأسهم وصُلُبهم وسقيهم وبريئهم وسائر ملتهم ، وألا يُكْرَهُوا على دينهم ، ولا يضارَ أحد منهم ، على أن يُعطوا من الجزية ما يعطى أهل مدائن الشام . ولما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله أقام على فلسطين رجلين جعل لكل منهما نصفها ؛ فلعلقة بن حكيم الرملة وما معها ، ولعلقة ابن مُجَزَّز إيلياء وما معها .

أتم عمر صلح فلسطين فصرف أبا عبيدة وخالداً ومن جاء معهما من شمال الشام كلاً إلى عمله^(١) . ثم إنه أراد الذهاب إلى بيت المقدس مستصحباً عمرو بن العاص وشُرَحْبِيل بن حسنة ، فوجد فرسه لا يزال يتوجى ، فحىء برذون فركبه . فلما سار جعل البرذون يتخلج به وتصلصل جلاله ، فسكره عمر ذلك منه ، فنزل عنه وضرب وجهه بردائه وقال : « قَبِّحَ اللَّهُ من علمك هذا من الخيلاء ! » ، ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده . وأقام أياماً حَمَ أثناءها فرسه فركبه ودخل بيت المقدس . وتلقاه البطريق صفريئوس وكبراء المدينة فتلطّف بهم وأدناهم ، وتحدث إليهم حديثاً أدخل في قلوبهم . فقد رأوا منه الصدق فيما أعطاهم من أمان على أنفسهم وعقائدهم ومعابدهم ، ورأوا منه حبا للحق والعدل أين منه ما كان في عهد قيصر من بطش واضطهاد ! وأمسى الوقت وانصرف القوم على أن يلقوه صباح الغد . فلما خلا عمر بنفسه صلى شكراً لله على ما أنعم به عليه .

وأية نعمة أكبر من أن يكون فاتح المسجد الأقصى وخليفة رسول الله في الصلاة به ! لقد أنعم الله على عبده ورسوله فأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته . فلما بلغ صلى الله عليه وسلم بيت المقدس صلى على أطلال هيكل سليمان إماماً لإبراهيم وعيسى وموسى . ومن يوم تمت هذه المعجزة بإذن الله لم يذهب رسول الله إلى فلسطين ولم يرد المسجد الأقصى . وخلفه أبو بكر فلم يجعل الله من حظه أن يردّه . وقد أوتى عمر هذا الحظ ؛ فتحت له بيت المقدس أبوابها ، واستقبلته

(١) تذهب بعض الروايات إلى أنهما دخلا معه ببيت المقدس ، ثم انصرفا إلى عملهما حين سار عمر عائداً إلى المدينة . وروايتهما هنا هي المشهورة .

استقبال الظافر المحبوب لعدله وتسامحه وحرصه على ألا يُكره أحد في دينه . وبيت المقدس هي من بعد أول قبيلة المسلمين ، وهي للنصارى مكان قبر المسيح ، ولليهود أرض المعاد . أفنعمه أكبر من هذه النعمة يشكر عمر ربه عليها ! فإذا أقام الليل بطوله مصلياً ، فلن يقضى إلا بعض ما عليه من حق . وَإِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا أَغْفُورٌ رَحِيمٌ .

أصبح عمر نجاء إليه صفرنيوس فسار معه خلال المدينة يريه آثارها ومواضع الحج منها . وكم بيت المقدس من آثار ! فهو بلد الرسل والأنبياء : إليه سار كل من خرج من مصر ومعه بنو إسرائيل ؛ وبه كانت قصة صلب المسيح ، وتقوم لذلك فيه كنيسة القيامة ، يذكر المسيحيون أن جثمانه دُفِن بها ثم رفع إلى السماء منها ، وبه من آثار الأنبياء محراب داود وصخرة يعقوب ، وهي الصخرة التي تذكر كتب السيرة أن رسول الله صعد منها في المعراج . هذا إلى أطلال هيكل سايمان التي بقيت تذكر ملكاً عظيماً وأنبياء عدة . ولقد قام الكثير من هذه الآثار على أطلال معابد وثنية شادها حكام فلسطين من قبل رومية ، وشاد مثلها قباهم حكام فلسطين من قبل مصر ، ولعل صفرنيوس لم يَضَنَّ على عمر فذكر له ما كان معروفاً من قصص هذه المعابد ، وهو كثير . وبينما الرجلان بكنيسة القيامة أدرك عمر موعد الصلاة ، فطاب البطريق إليه أن يصلي بها فهي من مساجد الله . واعتذر عمر بأنه إن يفعل يتبعه المسلمون على تعاقب القرون ؟ إذ يرون عمله سنة مستحبة ، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنائسهم وخالفوا عهد الأمان . واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة ، وكانوا قد مدّوا له عند بابها بساطاً يصلي عليه ^(١) . وإما صلى في مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال الهيكل . وفي هذا المكان شيد المسلمون من بعد مسجداً ضخماً ، هو المسجد الأقصى . أما في عهد عمر فقد كان هذا المسجد ساذج البناء كمسجد النبي بالمدينة يوم أُقيم .

يذهب بعض المستشرقين إلى أن عمر إنما اعتذر عن الصلاة بكنيسة القيامة لما كان

(١) تجرى رواية بأنه صلى على عتبة كنيسة قسطنطين ، ثم أعطى عهداً للنصارى ألا يصلي المسلمون على عتبات الكنائس .

بها من صور وتماثيل ، وأنه أبدى العذر الذي ذكرناه سترأ للسبب الحق ، وحرصاً على ألا يجرح شعور البطريق الشيخ . وهذا تفسير غير صحيح لحادث تاريخي جليل الخطر في علاقة أهل الأديان المختلفة بعضهم ببعض في مختلف بقاع الأرض . ومما يشهد بعدم صحته أن عمر زار كنيسة المهد بيت لحم مع صفرنيوس بعد زيارته كنيسة القيامة ، فلما أدركه موعد الصلاة صلى بها ، وفيها من التماثيل والصور والصليبان ما بكنيسة القيامة بل ما يزيد عليه . ثم إنه خشى أن يتخذ المسلمون صلاته بها سُنَّةً فيُخرجون منها أصحابها . فكتب للبطريق عهداً خاصاً يجعل هذه الكنيسة للنصارى ، وألا يدخلها من المسلمين أكثر من شخص واحد في المرة . هذا ، وقد رأينا سعد بن أبي وقاص اتخذ إيوان كسرى مصلى للمسلمين ولم يحرِّك ما به من التماثيل ، وكان في مقدوره أن يزيلها بعد أن فتح المدائن وأصبح صاحب الإيوان . وما كان لعمر أن يتحرَّج من الصلاة في الكنيسة وبها من الصور والتماثيل ما بها ، وكان رسول الله قبل هجرته إلى يثرب يصلى عند الكعبة وبها من الأصنام والأوثان ما لم يصده أو يصدَّ مسلماً عن الصلاة عندها . ولقد جاء إلى مكة بعد سبع سنوات من هجرته ومعه ألفان من المسلمين لعمرة القضاء ، فطاف بالبيت والأصنام لا تزال تعمره . وعلا بلال سقف الكعبة وأذن لصلاة الظهر ، وصلى محمد وصلى الألفان معه عندها صلاة الإسلام . وما كان لحمد والذين اتبعوه ألا يصلوا بمكان فيه صور أو تماثيل ، والإسلام إيمان بالله ، والأعمال فيه بالنيات ، فمن صدق إيمانه وخلص لله وجهه فأينما ولى قَمَّ وجهه الله . وإنما حطم محمد الأوثان والأصنام حول الكعبة وفي جوفها يوم فتح مكة حتى يكون بيت الله حراماً على كل دين إلا على الدين الذي أوحاه الله إلى نبيه بينات من الهدى والفرقان ، كي لا تُدَكَّر هذه الأصنام والأوثان أحداً بجاهليته فيثور في نفسه إليها حنين . أما الذين صفت قلوبهم لله وتطهرت نفوسهم من كل عبادة إلا عبادته جلَّ شأنه فأولئك لا خوف عليهم أينما صلّوا ، وأولئك يرون وجه الله في كل خلقه ، ثناؤه وتباركت أسماؤه ! .

وكان اعتذار عمر عن الصلاة بكنيسة القيامة حادثاً جليل الخطر في تاريخ الأديان وعلاقة أهلها بعضهم ببعض في مختلف بقاع الأرض ؛ فهو يصوّر تسامح الإسلام وصدق

عمر في تمسكه بأن لا إكراه في الدين ، وبصور سياسة المسلمين لذلك العهد وقيامها على أساس من حرية العقيدة ، وأن الدعوة إلى سبيل الله إنما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالمجادلة بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم . عجب أن يحدث ذلك على يد الفاروق في بيت المقدس لأكثر من ثلاثمائة وألف سنة خلت ، ثم يظل بيت المقدس مدار الحروب التي اتصلت من بعد الأجيال والقرون ، ويبقى إلى عصرنا الحاضر مثاراً للنصرة الدينية والتعصب المذهبي في شتى أرجاء العالم ، وموضع النزاع المستمر بين النصارى واليهود والمسلمين . ولو أن الملوك والساسة من أهل الأمم المختلفة أدركوا ما أدركه عمر في ذلك العهد ، ورأوا مثله أن لا إكراه في الدين ، وجعلوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولم يزعموا لأنفسهم حقاً على فلسطين باسم أرض المعاد أو هيكل سليمان ، إذا لاستراح العالم من عناء يقاسيه في شتى أرجائه ، لا تخلو منه قارة من القارات ولا أمة من الأمم . قد يجيبك منصف بحق : ومتى أراد الناس أن يستريحوا ؟ وهل لهم في غير المنازعات وسيلة إلى الجاه والمجد والرخاء ؟ أليس تاريخ العالم سلسلة متصلة الحلقات من الحروب أثارها الأهواء باسم الدين تارة ، وباسم حرية العقيدة أخرى ، والدين وحرية العقيدة مما يزعمون براء ، وإنما يتخذان تعلية لتسويغ الحروب إطفاء لشهوات وأهواء لا يعنيتها من الدين ولا من حرية العقيدة إلا أن تتحقق ! وهذا جواب حق ، وهو يدل على أن ضمير الإنسانية ما يزال في طفولته ، وأن تعاليم الأنبياء والرسل والفلاسفة والحكماء لما تثمر في نفس الإنسانية الأثر الذي أرادته أصحابها .

أما شأن عمر في معاملة المسيحيين ما قدّمت فلا حاجة بي إلى إدحاض ما زعم بعضهم من أنه أثبت في صلح بيت المقدس عهداً على النصارى ألا يمنعوا المسلمين من دخول كنائسهم في الليل أو في النهار ، وألا يتحدثوا عن دينهم أو يحاولوا إقناع غيرهم باعتناقهم ، وألا يلبسوا لباس المسلمين ولا يتزينوا بزينتهم ، وألا يتكلموا العربية لغة الفاتحين ولا يتسموا بأسمائهم ، وألا يركبوا الخيل ولا يحملوا السلاح ، وأن يقفوا إذا مرّ بهم مسلم ، فإذا أقبل عليهم ظلّوا وقوفاً حتى يجلس ، وألا يبيعوا الخمر ولا يرفعوا على كنائسهم صليباً ولا يدقوا أجراسها ، وألا يتخذوا خادماً كان في خدمة مسلم . فلا شيء

من هذا أو من مثله يتفق وموقف عمر بكنيسة القيامة وكنيسة المهد ، ولا شئ من مثله يتفق وما أبداه صفر نيقوس وأهل إيلياء جميعاً من الغبطة لصالح عمر . وموقفه بالكنيستين واستقبال البطريق وكبراء المدينة له وإقبالهم عليه قد فصله المؤرخون المسيحيون الأولون ولم يرد في كتب المتقدمين من مؤرخي العرب عنه شئ يذكر . وإنما ينسب هذه الأمور إلى عمر دعاء هم الذين دفعوا الصليبيين لغزو فلسطين . ودعايتهم ذات الهوى تضيف إلى الفاروق عن عمد كل ما حدث . وفي العصور المتأخرة عنه ، من مساوىء الحكم أو مظاهر التعصب . وقد أدت عوامل التدهور التي دبت من بعد في كيان المملكة الإسلامية إلى مساوىء في الحكم . وقد كان بين المسلمين ومن انتسبوا إليهم في ذلك العهد التأخر متعصبون ودعاة إلى التعصب . لكن عمر كان بريئاً من هذا كله ، وكان سامياً عليه غاية السمو . وما حاجته إليه وقد فتح الله له كل أبواب العالم ، وقد كان الكثيرون يدخلون في الإسلام أفواجا غير مكرهين ولا مضطهدين ، وكانت جيوش الإمبراطوريتين الفارسية والرومية لا يثبت لجيوشه ولا تملك أمامها إلا الهزيمة والفرار . فلو أن عمر لم يكن السياسي الخنك البعيد النظر لهدته مع ذلك فطرته إلى أن يحسن معاملة أولئك الذين تفتح له أبواب مدنها ويسلمونه مقاليد أمورهم . ما بالك به وقد كان ملهماً في السياسة ، فلم يكن الظفر ينسيه الحذر أو يدفعه إلى التعاطف والبطر ، ولم يكن الحزم ينسيه أن العدل والرحمة أبلغ أثراً في نفوس الأمم المحكومة ما ظلت ساكنة إليهما ، فلم تدفعها النعرة إلا ما يوجب البطش والجبروت . ولذا أجمع المنصفون من المؤرخين المسيحيين على الإشادة بعدل عمر وتسامحه ورقفه ، وعلى إكبار موقفه بيت المقدس واعتداله في الصالح مع أهله .

ولم يغير من إجماع هؤلاء المنصفين ما روى من أن عمر قام يوماً يخاطب المسلمين ببيت المقدس ، فذكر في خطبته قوله تعالى : « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » ؛ فقام قسٌ من النصارى كان حاضراً فقال : إن الله لا يضلُّ أحداً ، فلما كررها قال عمر لمن حوله : « انظروا إن عاد إلى قوله فاضربوا عنقه » فأمسك القس لهذا النذير . وليس يرجع بقاء المنصفين على إجماعهم إلى أن هذه الرواية لا تعتمد على سند ثابت بمقدار ما يرجع إلى أنها إن صحت لم تطعن على تسامح عمر وعدله . فلم يكن

عمر ساعته في موقف جدل مذهبي مع هذا القس ، وإنما كان موقف الخطيب يذكر المسلمين بما يؤمنون به ولا يمارون فيه ؛ فتدخل هذا القس بالمقاطعة وتكريره لها إخلال بالنظام يدعوا إلى الظن بأن مفترفه أراد أن يفسد على أمير المؤمنين موقفه . لذلك لم يزد عمر على النذير . فلما أمسك القس ولم يعض في المقاطعة مضى هو في خطابه حتى آتته ، ثم صلى بالمسلمين ولم ينل القس بسوء .

ولو صح ما روى عن هذا القس لآخذناه حجة جديدة على ما كان لتعدد المذاهب والفرق المسيحية في ذلك العهد من أثر في الحياة العامة ؛ فلم يغضب أحد من المسيحيين لنذير عمر ولم يجد فيه مظهر تعصب أو اضطهاد ؛ ذلك لأن تعدد المذاهب أدى بأصحابها إلى التقاطع ، وجعلهم يرون في مقاطعة القس مخالفة لآداب اللياقة لا يوجبها التعصب لعقيدة مقررة . أما والمسلمون يتسامحون من أصحاب المذاهب جميعاً فيسوّون التعصب بينهم ولا يجادلونهم في مقرراتهم ، فقد استحق القس نذير عمر ، ولم يكن لأحد أن يعترضه أو يثور بسببه .

على أن تسامح عمر لم يكن معناه أن يدع بيت المقدس للمسيحيين ، وألا يكون للمسلمين حظهم الديني منه ؛ فبيت المقدس قبلة المسلمين الأولى ، وإلى مسجده الأقصى أسرى الله بعده : ففُتدسّيته عند عمر لم تكن دون قدسيته عند النصارى . هذا إلى أن المسلمين لم يكونوا ينزلون بلداً حتى يقيموا لهم مسجداً به . وقد ذكرنا أن عمر اعتذر لصفرنيوس عن الصلاة بكنيسة القيامة . وأنه صلى بمكان قريب من صخرة يعقوب على أطلال الهيكل . وفي هذا المكان أقيم مسجده ساذج البناء كمسجد النبي بالمدينة يوم أقيم . ذكر ابن كثير أن عمر استشار كعب الأحمري في أي مكان يصلي ، وكان كعب الأحمري يهودياً فأسلم ، فقال له : إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة وكانت القدس كلها بين يديك . فقال عمر : ضاهيت اليهودية ، لا ! ولكن أصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية الطبري أن عمر سأل كعباً : أين ترى أن نجعل المصلي ؟ قال كعب : إلى الصخرة . وأجابه عمر : ضاهيت والله اليهودية يا كعب ! وقد رأيتك وخلعتك نعليك ! بل يجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها .

إننا لم نؤمر بالصخرة ، ولكن أمرنا بالكعبة . وجعل قبلة المسجد صدره متجهاً إلى الكعبة غير متجه إلى الصخرة .

وإنما صرف عمر القبلة إلى الكعبة ولم يجعل الصخرة دونها لأن الكعبة قبلة المسلمين في كتاب الله ، ثم لم يصرفه ذلك عن إعظام الصخرة ، فهي موضع الإسراء في حديث رسول الله . ولقد بلغ من إعظامه لما أنه رأى عليها كناسة كان الروم يلتقونها فوقها ، فقال لأصحابه : اصنعوا كما أصنع ، ثم جثا في أصلها وجعل يحمل ما عليها بنفسه فيلقيه بعيداً عنها . وصنع أصحابه صنيعه ، وما زالوا بالصخرة حتى زال كل ما عليها . وقد بقيت الصخرة محاطة برعاية المسلمين من يومئذ إلى أن أقام عبد الملك بن مروان عليها قبة بالغ في العناية بعمارها ، فشادها على نحو جعلها أروع آية في البناء ، حتى لقد بذّ بها عمارته المسجد الأقصى والمسجد الحرام ، بل بذّ بها كل ما بناء من المساجد . وكان عبد الملك قد شغف بالعمارة البرنطية لمقامه بدمشق بين كفائس النصارى وآثارهم ؛ ولذلك كانت المساجد التي شادها تأخذ بالقلوب والأبصار .

ثم لعمر ما أراد من زيارة بيت المقدس فعادت أدراجه إلى المدينة متخذاً إليها الطريق الذي جاء منه . فلما كان بالجابية أقام أياماً ثم غادرها على فرسه . وكانت أنباء ما صنع بفلسطين قد بلغت علياً والمسلمين ، فاستقبلوه بظاهر المدينة استقبالا حافلا . وكيف لا يفعلون وقد خلصت لهم الشام كما خلصت لهم العراق ! وكيف لا يفعلون وعمر أول من قام بمثل هذه الرحلة من يوم بعث الله رسوله يبلغ الناس في ربوع الأرض دينه ! !

تري ، أي طمئن عمر لما فتح الله عليه فينظم حكمه ويعزز وحدته ؟ كان ذلك رجاءه ؛ ولذلك ودّ لو أن بينه وبين الفرس جبلا من نار فلا يخلصون إليه ولا يخلص إليه ، وودّ لو أن بينه وبين الروم سداً يصرفهم عنه ويصرفه عنهم . لكن مشيئة القدر كانت أقوى من مشيئته . وقد كتب القدر في لوحه أن يقضى خالد وأبو عبيدة على كل انتعاض بالشام ، وأن يفتح عمر بعد ذلك من الممالك ما شاء الله أن يفتحه . فلندع أمير المؤمنين بالمدينة يدبّر أمره ويحكم تدبيره ، ولنعد إلى الشام لنرى ما الله صانع به !

الفصل الثالث عشر

مصير خالد بعد إخضاع الشام

عاد أبو عبيدة وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان من بيت المقدس كلٌّ إلى عمله، فأقام يزيد بدمشق، ونزل أبو عبيدة حمص، واستقل خالد بإمارة قنسرين. وجعل كل واحد منهم يدبّر الأمر في ولايته بحزم يُلطف الرفق من حسدته، وعَدْلُ تجرّى الرحمة في مسالكه، وقد أمّنوا نُجاءات العدو بعد أن لحقته الهزيمة في كل مكان، وبعد أن دانت الشام للمسلمين من أقصى الجنوب بفلسطين إلى أقصى الشمال في سورية.

وعلى أن أهل الجزيرة المقيمين بين العراق والشام، والذين دهم رجال سعد بن أبي وقاص من قبل منازل إخوانهم بهيت وتكريت والموصل وقرقيسياً، لم تهدأ نفوسهم بعد الذي نزل بإخوانهم، بل رأوا مساكنهم معرضة لغزو المسلمين إذا ظل هؤلاء يسرون بالشام سيرتهم بالعراق؛ يفتحون المدن ويخضعون القبائل، ويفرضون الجزية على من لم يدخل في الإسلام. وكانوا قد يئسوا من يزدجرد بعد فراره إلى الرّبيّ. لذلك كتبوا إلى هرقل أنهم معدّون لمعاونته إذا بعث من البحر جنداً يقاتل المسلمين ويسترد منهم ما استولوا عليه. ونظر هرقل في الأمر فرأى أنه لن يصاب بشرٍّ مما نزل به، فإن يبسم له الحظ فينتصر بهؤلاء الخلفاء على عدوه، ويقهر المسلمين في شمال الشام، استطاعت جيوشه أن تلاحقهم إلى دمشق وإلى بيت المقدس؛ ويومئذ تكون المعجزة، فيسترد قبر المسيح من العرب كما استرده من الفرس، ثم يسير إليه مجتازاً سورية ومعه الصليب الأعظم يُعيده إلى مكانه كما فعل قبل عشر سنين. ألا لئن تم ذلك ليكون للصليب فيه من الفضل مثل ما كان له في عهد قسطنطين، وليبصرن الله المسيحية على يديه نصراً تعزّبه على كل دين!

وأعاد أهل الجزيرة الكتابة إلى هرقل، فرأى منهم عزماً لا يلين، ورأى أكثرهم من العرب النصارى الذين استمسكوا بدينهم وآثروا الجهاد في سبيله. وكان هرقل قد زابله الروع إذ قضى أكثر من سنة بعيداً عن ميادين القتال بالشام. ثم إنه رأى ثغوره ما يزال

الكثير منها حصيناً يقاوم هجمات المسلمين ، ورأى أسطوله لم يصب بأذى ، ورأى المسلمين يخافون البحر وكل ما يأتى من ناحيته ، فقوى ذلك من عزمه ومال به إلى إجابة أهل الجزيرة لما يطالبون . صحيح أن تخوم المسلمين في شمال الشام حصينة فلا ييسر اقتحامها عليهم . لكن هؤلاء العرب النصارى كفيلون بأن يَقْضُوا مضجع خالد وأبا عبيدة إذا جاءوهم من قِبَل البادية . فإذا سار مدده من البحر في الوقت نفسه وعرف المسلمون أنهم يُهاجمون من الشرق والغرب فَتَّ ذلك في أعضادهم ، وأثار أهل الشام بهم ، وأتاح له فرصة الثأر منهم .

وكتب هرقل إلى هذه القبائل يشجعهم ويحرضهم ، ويدكر لهم أنه أمر سُفنه فهي تمخر البحر تجعل الرجال والعتاد من الإسكندرية إلى أنطاكية . وسارت هذه القبائل بكل قواتها من الجزيرة تريد حمص . وبلغت أبا عبيدة أنباء ذلك كله ، فدعا إليه خالد ابن الوائد من قنسرين يشاوره . واستقر رأى الرجلين على أن تجتمع قوات المسلمين بشمال الشام لمواجهة العدو ، فجمعاً بحمص جند أنطاكية وحماة وحلب وسائر المسالخ القريبة منها . وترامت إلى هذه البلاد أنباء هرقل ومدده المقبل من البحر ، وأنباء الجزيرة وسير قبائلها إلى حمص ، فتناولت أعناق أهلها وذهبوا ينساءلون : عم تُسفر هذه الحملة الجديدة التي يقوم بها قيصر وحلفاؤه ؟ فلما أُقبلت سفن هرقل إلى أنطاكية فتحت المدينة أبوابها لجنوده وثارت بالمسلمين ، واندلع كُلبُ الثورة في شمال الشام كله . وألقى أبو عبيدة نفسه محصوراً في حمص يُحيط به الثائرون من كل جانب ، ويسير أعداؤه لهاجمته مقبلين من ناحية البحر ومن ناحية البادية . ماذا عساه يصنع ؟ جمع أصحابه وذكر لهم أنه كتب إلى أمير المؤمنين يستمدّه لمواجهة هذا الموقف الدقيق ، واستشارهم في مواجهة العدو وقتاله أو التحصن في انتظار المدد المقبل من المدينة . وانفرد خالد بن الوليد في المشورة بمناجزة العدو ؛ أما سائر الأمراء فرأوا التحصن واستعجال المدد . ورأى أبو عبيدة رأيهم وخالف خالداً ، فزاد في مناعة الحصون ، وكتب إلى عمر بما رآه أصحابه .

لم ينسَ عمر يوماً أن جنده بالعراق والشام قد يتعرض لمثل هذا الخطر ، فيتعرض الفتح الإسلامي كله لمثل ما تعرض له يوم تولى إمارة المؤمنين . لهذا أمر بإنشاء البصرة

والسكوفة وجعلهما مساح للمسلمين لا يقيم بهما غيرهم ، ثم جعل في كل مصر من ستة أمصار أخرى أربعة آلاف فارس على تمام الأهبة لمثل هذه المفاجآت . فلما جاءه كتاب أبي عبيدة ورأى الخطر العظيم المحيط به ، كتب في التو إلى سعد بن أبي وقاص : « أن اندب الناس مع القمعاق بن عمرو ، وسرّخهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حصص ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به . وتقدّم إليهم في الجِد والحِدّة » . ونفذ سعد أمر الخليفة ليومه ، فندب القمعاق في أربعة آلاف من الفرسان الجربين فانطلقوا يفتنون السير من السكوفة إلى حصص .

كان الأمر أخطر من أن يكفي لمواجهة سير القمعاق على رأس أربعة آلاف ؛ فقد بلغ عدد الذين ساروا من الجزيرة إلى حصص ثلاثين ألفاً : غير منْ بمهم هرقل على السفن إلى أنطاكية . وكان عمر يعلم أن رجاله في كل بلد من بلاد الشام قد شغلوا بأهله ، فلو أنهم تركوا هذه البلاد إلى حصص لاضطرب النظام في الشام كله . لذلك أردف أمره بسير القمعاق من السكوفة بأوامر أخرى كلها حسن التفكير وبعد النظر . فإما أغرى القبائل التي سارت من الجزيرة إلى حصص بما صنعت ما خيل إليها من بُعد منازلها عن المسلمين وغزوهم . فلو أن هذه المنازل غُزيت لارتدت هذه القبائل على أعقابها ، ولخفف ذلك عن أبي عبيدة وجنوده . فليسرّح سعد بن أبي وقاص سُهيل بن عُلَيٍّ إلى الجزيرة في الجند ، « فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حصص » ، ولتكن الرقة مقصد سهيل ، وليسرّح عبد الله بن عثبان إلى نصيبين ، فإذا أخضع هذان الأميران الرقة ونصيبين ، فليسيروا إلى حرّان والرّهاء ، وليسرّح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، ولتكن لعياض بن غنم إمارة الجند كله في حرب الجزيرة . فإذا سار هؤلاء الأمراء جميعاً ذكر أهل الجزيرة ما أصاب أهل هيت وقرقيساء والموصل فلم يقاوموا .

لم يكتف عمر بهذا كله ؛ فقد قدر أن هرقل لم يندفع إلى المغامرة بإرسال جنوده على متن البحر إلى الشام بعد الذي أصابه من الهزائم فيه إلا لأنه استوثق من قوته ، واطمأن إلى قدرته على الثأر لنفسه . ولا أدل على ذلك من أنه جعل ابنه قسطنطين على رأس الجيوش التي نقلتها السفن من الإسكندرية . ولو أن هرقل نجح في هذه

المغامرة لقضى ذلك على سياسة عمر أبما قضاء . ولن يرضى عمر تصور هذا الاحتمال ، ولن يألو جهداً في إفساده . لا بد إذاً من تعبئة كل قوة يستطيع تعبئتها لمواجهة هذا الخطر الداهم ، بل لا بد أن يواجهه هو بنفسه ؛ لذلك حشد ما استطاع من قوات المدينة وما حولها وسار هو على رأسها متخذاً طريق دمشق إلى ميدان القتال .

وكذلك تحركت الإمبراطورية الناشئة من شتى أرجائها للدفاع عن كيائها . سار القعقاع بأسرع ما يستطيع غيائاً لأى عبيدة ، وأنطلق سهيل بن عدى وعبد الله بن عتبان والوليد بن عقبة وعياض بن غنم لغزو الجزيرة وتأديب أهلها ، وفصل عمر من المدينة قاصداً حصص . ودوت هذه الأنباء في العراق والشام كما دوت في شبه الجزيرة ، وبلغت أبا عبيدة وأصحابه كما بلغت قبل الجزيرة الذين جاءوا لحصاره . واطمأن أبو عبيدة لما بلغه . أما القبائل فأيقنت أن منازلها بالجزيرة لن تُرعى لها حرمة بعد الذى صنعت ، وأنه مصيبتها ما أصاب الموصل وهيت وقرقيسياء من قبل ، فاخلعت منها القلوب وآثرت الرجعة من حيث أنت ، لعل في رجعتها بعض ما يكفر عن ذنبها .

وأصبح أبو عبيدة يوماً فعلم أن القبائل تفرق أهلها مرتدين إلى بلادهم وذويهم ، وأنه لم يبق بإزائه إلا الروم جند هرقل فدعا إليه أمراء جنده وذكر لهم أنه يرى منافزة القوم . واغتنب خالد بن الوليد ، وأشار بمفاجأتهم قبل أن يأخذوا للموقف الجديد عدته . وظن الروم حين رأوا القبائل تتخلى عنهم ، ورأوا المسلمين يخرجون من حصون حصص للقائهم ، أن في الأمر مكيدة دُبّرت لهم فتولتهم الحيرة . وهاجمهم أبو عبيدة فلم تمنعهم حيرتهم من الشدة في لقائه شدة تشهد بأنهم أعدوا لهذا اللقاء ما استطاعوا من قوة . فلولاً انصراف القبائل عنهم لكان لهم من البأس ما يسوغ مخاوف أبى عبيدة ومخاوف عمر . لكن حيرتهم أضعفت مقاومتهم وانتهت بهم إلى الهزيمة ، وفروا قبل أن يبلغ القعقاع بن عمرو حصص ، وقبل أن يبلغ عمر الجابية^(١) في طريقه إلى الشام . فلما بلغها ألقى رسول أبى عبيدة بها يذكر له انتصارهم قبل ثلاثة أيام من وصول القعقاع إليهم ، ويستشيرهم في الفئ . وهل يكون لرجال القعقاع نصيب منه . واطمأن عمر ولم ير بعد الذى بلغه

(١) قيل في رواية يرجحها ابن كثير أن عمر لما بلغ سرغ .

أن يتابع مسيرته ، فكتب إلى أمين الأمة كي يُشرك أهل الكوفة في العطاء ؛ فسيرهم لنجدته هو الذي أدخل الرعب إلى قلب عدوه فأدى ذلك إلى هزيمته ، « وجزى الله أهل الكوفة خيراً ، يحمون حوزتهم ويُمدّون أهل الأمصار » ، ثم تحمّل راجعاً إلى المدينة . ترى هل انسحبت جنود هرقل إلى قنّسرين أو حماة أو غيرها من البلاد التي اندلع فيها لهيب الثورة لينظّموا بها صفوفهم للمقاومة ، أم تعقبهم المسلمون فقصوا عليهم ؟ وماذا فعل الثوار بحلب وأنطاكية والمعاقل المنيعة حين بلغهم انتصار المسلمين بمحص ؟ لا يذكر المؤرخون عن ذلك شيئاً يصح الوقوف عنده . وأغلب الظن أن فلول الروم التي نجت من الموت طارت إلى السفن بأنطاكية فأقلعت بهم في البحر إلى الإسكندرية أو إلى برنطية وقد تولاهم وتولى قيصر اليأس أن يعودوا إلى الشام أبداً . ولم يلبث الثائرون حين عرفوا إقلاع السفن بالجندل أن هدأت ثورتهم ، فعاد خالد بن الوليد إلى قنّسرين ، وعاد كل أمير في شمال الشام إلى إمارته ، مطمئنين جميعاً إلى أن الأمور سكنت إلى قرار لن يكدر صفوه من بعد مكدر .

على أن مقام خالد بقنّسرين لم يطل ؛ فقد سارت القوات التي فصلت من العراق بظُلُمِ لواء سهيل بن عدي وعبد الله بن عتبان والوليد بن عقبة بإمرة عياض بن غنم لغزو الجزيرة وتأديب أهلها . فلما بلغت منازل القبائل التي آذرت هرقل كانت هذه القبائل قد بدأت تنصرف مرتدة عن حمص . وكان سهيل بن عدي قد سلك بجنده طريق الفراض حتى انتهى إلى الرقة ، فتحصن أهلها منه فحاصرهم ، فقالوا فيما بينهم : « أنتم بين أهل العراق وأهل الشام ، فما بقاءكم على حرب هؤلاء وهؤلاء ! » . وبعثوا إلى عياض بن غنم بواسطة يريدون الصلح . وعقد لهم سهيل بن عدي الصلح عن أمر عياض لأنه أمير القتال وجعلهم من أهل الدّمة . أما عبد الله بن عتبان فسلك على دجلة حتى انتهى إلى الموصل ، ومن ثم عبر النهر وسار إلى نصيبين^(١) ، فلقية أهلها بالصلح ففقدته لم على صلح أهل الرقة . وقدم الوليد بن عُقبة على بني تغلب وعرب الجزيرة فصوصوا إليه إلا بني إباد فإنهم ارتحلوا

(١) نصيبين هي الآن ديار بكر . ويذهب كوسان درسفال إلى أن هيت وقرقيسياء والموصل أخضعت في هذه الغزوات . ورواية المؤرخين الثقات جميعاً أن هذه البلاد أخضعت من قبل على ما ذكرنا .

إلى أرض الروم . وكتب الوليد إلى عمر بالمدينة يُخبره بما صنعوا وأقام ينتظر جوابه في أمرهم . ثم إن عياضاً ضم إليه سهيلاً وعبد الله بن عتبان وسار في الناس إلى حرّان ، فأخذ مادونها ، حتى إذا انتهى إليها تلقاه أهلها بالإجابة إلى الصلح والجزية ، فأجرام مجرى أهل الذمة . وكذلك فعل أهل الرّهاء حين سار إليهم سهيل بن عدى . بذّا دخلت الجزيرة كلها في حكم المسلمين ، فكانت أسهل البلاد وأيسرها فتحاً ؛ وبفتحتها التقى سلطان المسلمين بالعراق والشام .

ومن عجب أن يكون ذلك شأن القبائل التي كاتبت هرقل ووعدته بتأييدها وإتباعها أنها رأت الروم يفرون أمام عدوهم ، فأيقنت أن هؤلاء المسلمين قد صُنِعَ لهم فلا سبيل إلى مقاومتهم ، وانخير كل الخير في مصالحتهم . وإن المؤرخين البرنطيين ليدكرون أن حاكم الرّهاء صالح عياضاً على أن يدفع له مائة ألف ذهباً يتقى بها غزو المسلمين ولايته وأن هرقل رفض صنيعة وعزله عن عمله ، فلم يَنْفُذْ لقيصر أمرٌ بعد أن زال سلطانه عن هذه الأرجاء وصار كل أمرها للمسلمين . وكيف ينفذ له أمر وقد صار لا يستطيع أن يرفض لأمر المؤمنين مطلباً ، لأنه لا يستطيع أن يؤيد رفضه بالقوة التي تدعمه وتعززه .

لما كتب الوليد بن عُقبة إلى عمر يذكر له أن عرب الجزيرة نهضوا معه لإبادة فإنهم ارتحلوا إلى أرض الروم ، كتب عمر إلى هرقل يقول : « إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتُخْرِجَنَّهُ أو لتَنْبِذَنَّهُ إلى النصارى ثم لتُخْرِجَنَّهُم إليك » . ولم يجد هرقل بداً من النزول على ما أراد عمر فأخرج إبادة من أرضه ؛ فماد أربعة آلاف منهم إلى منازلهم حتى خضعت لسلطان المسلمين ، وتفرّق سائرهم فيما بين الشام والجزيرة من بلاد الروم ، وإنما كتب عمر إلى هرقل هذا الكتاب حتى لا يتخذ المنهزمون أمام المسلمين أرض عدوهم ملجأً يتحصنون به ليوم ثار ، وحتى يجمع العرب كلهم في صعيد واحد تحت سلطان واحد .

لم يصنع بنو تغلب صنيع إبادة . ولم يرتحلوا إلى أرض الروم ؛ لكنهم أبوا على الوليد ابن عُقبة حين لم يقبل منهم إلا الإسلام ، واحتكوا فيما بينهم وبينه إلى أمير المؤمنين . وكتب الوليد إلى عمر بإبائهم ، فأجاز عمر رأيهم وأتى أن يعرض الوليد الإسلام عليهم ،

« فَإِنَّمَا ذَلِكَ لجزيرة العرب لا يُقبل من أحد فيها إلا الإسلام ، فدعهم على ألا ينصروا وليدًا ولا يمنعوا أحدًا من الإسلام . » فلما بلغهم حكم عمر رضى بعضهم أن يدخل في دين الله ، وأصر بعض على نصرانيته ، ثم لم يقبل هؤلاء أن يكونوا أهل ذمة يؤدون الجزية وذهب وفد منهم إلى المدينة . وكان بينهم بعض من أسلم منهم ، فقال مساهوم لعمر : « لا تنفروهم بالخراج فيذهبوا ، ولسكن صمّعوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء ؛ فإنهم يفضبون من ذكر الجزية ، على ألا ينصروا مولوداً إذا أسلم آبائهم » وأصر عمر على أن يؤدوا الجزاء . فقالوا : « والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم » . قال عمر : « لئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسيينكم » قالوا : « نخد منّا شيئاً ولا نسمّيه جزاء » . قال عمر : « أما نحن فنسمّيه جزاء وسموه أتمّ ما شئتم » . ولما رأى عليّ بن أبي طالب ما باغاه هذا الحوار من شدة ، قال : « يا أيها المؤمنين ! ألم يضمّف عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟ » قال عمر : « بلى اورضى منهم الصدقة بدل الجزاء . وإنا أصرّ نصارى بنى تغلب على ألا يؤدوا الجزية أن كان في قومهم عزٌّ وامتناع فكانوا يرون في أداء الجزية آية خضوع ومدة لا تليق بهم ولا تتفق وما عرف الناس لهم من إكرام وكرامة ، وكرامتهم وقوتهم ها اللتان جعلنا الوليد بن عقبة يردهم على الإسلام ليكون له بهم قوة ومفعة . ولقد كان تشدد عمر معهم في أمر الجزية بآدى الرأى ثم قبول صدقتهم مضاعفة بعد مشورة عليّ بن أبى طالب ، سياسة منه يحمد عليها ، مع مخالفتها لموقف أبى بكر من أهل الردة ، ومخالفتها لموقفه هو من أعدائه الأتقياء في فارس والروم . فبنو تغلب عرب ، وكان عمر حريصاً على عزة العرب . ولئن أقام على نصرانيته منهم من أقام ليرجعن هؤلاء جميعاً إلى الإسلام ولو بعد حين . والرفق في هذا الموقف أبلغ . وقد دلّت الأيام على حسن فراسة عمر وبعد نظره ؛ إذ نصرت تغلب المسلمين من بعد نصراً عزيزاً ، وأيدتهم على أعدائهم في مواقف كثيرة .

لم يكتف بقبول الصدقة من هؤلاء النصارى ، بل رأى أن ما بينهم وبين الوليد ابن عقبة من خلاف قد يدفعهم إلى إخراجهم فيضف صبره فيسطو عليهم . لذلك عزله عنهم وأمر عليهم فُرات بن حيان كجأ يطمئن إلى استتباب الأمن واستقرار الطمأنينة في ربوعهم .

تم ذلك كله في السنة السابعة عشرة من الهجرة فتمّ به استقرار السلطان للمسلمين بالشام من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال . والواقع أن ما بقي من سيرة عمر لا يعرف في الشام انتقاضاً ، ولا يعرف من جانب هرقل محاولة لاسترداده ، اللهم إلا ما قيل عن قيسارية . فقد سبق أن ذكرنا رواية الحصار الذي ضربه معاوية بن أبي سفيان عليها قبيل فتح بيت المقدس ، وإلى ما قيل من فتحه إياها وقتله فيها ثمانين ألفاً بلغوا بعد الهزيمة والفرار مائة ألف . على أن البلاذري ينسب إلى اختلاف الروايات في أمر هذه المدينة فيقول : « قال قائلون : فتحها معاوية ، وقال آخرون : بل فتحها عياض بن غنم بعد وفاة أبي عبيدة وهو خليفته . وقال قائلون : بل فتحها عمرو بن العاص . . . والذي اجتمع عليه العلماء أن أول الناس الذي حاصرها عمرو بن العاص ، نزل عليها في جمادى الأولى سنة ١٣ فكان يقيم عليها ما أقام ، فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوهم سار إليهم فشهد أجنادين وفِخْل والمرج ودمشق واليرموك . ثم رجع إلى فاسطين فحاصرها بعد إيلياء ، ثم خرج إلى مصر من قيسارية . وولى يزيد بن أبي سفيان بعد أبي عبيدة فوكل أخاه معاوية بمحاصرتها وتوجه إلى دمشق مطعوناً فأتى بها . » والذي يخلص من هذه الروايات أن قيسارية حوصرت وطال حصارها ، حتى لقد قيل إنها حوصرت سبع سنين . ذلك بأنها كانت ثغراً حصيناً ومعقلاً منيع الأبراج والأسوار ، به من السكان والجند عدد لا نظير له بأنطاكية ولا بدمشق . يقول البلاذري : إن مائة ألف كانوا يقومون كل ليلة على سورها يحرسونها . وكان سبب فتحها أن يهودياً أتى المسلمين ليلاً فدأهم على طريق في سرب فيه الماء إلى حقو الرجل ، فدخل المسلمون المدينة منه في الليل فكبروا ، فأراد الروم أن يهربوا من السرب فوجدوا المسلمين عليه ويقال إن عمرو ابن العاص كان فتحها في السنة السابعة عشر ثم نقض أهلها وأمدّهم الروم ، ففتحها معاوية وأقام فيها مَسَدَّةً ووكّل بها الحفظة . وقد وجد بها معاوية سبعمائة ألف من المرتزقة وثلاثين ألفاً من السامرة ومائتي ألف من اليهود ، ووجد بها ثلاثمائة سوق قائمة كلها .

سبق أن قلنا : إن خالد بن الوليد لم يقيم بقنّسرين طويلاً . ولم نعثر في كتب الثقات على تفاصيل لغزوه بعد انصرافه من حمص إلى إمارته أكثر من أنه سار في دروب الروم

مع عياض بن غنم ، ثم عاد من غزواته بمغانم كثيرة . وأراني في حلٍّ من القول بأن ما حدث ، إثر مجيء السفن عليها جنود الروم إلى أنطاكية ، من ثورة شمال الشام بسطان المسلمين ، لم يزل فجأة إثر هزيمة الروم بحمص ، وأن ما أشار إليه المؤرخون من انتقاض حلب وحماة وأنطاكية وغيرها من الحواضر قد اقتضى خالداً وعياض بن غنم وغيرها من قواد المسلمين أن يجمعوه . وقد ذكر الواقدي أن حلب قاومت مقاومة عنيفة ، وأن خالد ابن الوليد إنما تغلب عليها بعد حصار طويل . فلما سكنت الثورة في شمال الشام تجاوزه المسلمون إلى إرمينية ، كما كانوا قد تجاوزوه بعد غزو خالد بن الوليد مرعش وشمشاط وغيرها من قبل ، ثم عادوا إلى الشام كما عادوا إليه أول مرة . ذلك أن عياض بن غنم مالبث حين تم له الأمر بالجزيرة أن صار صوب إرمينية يعزز تخوم المسلمين ويدخل الروع في نفوس أعدائهم . وسار خالد بن الوليد من شمال الشام إلى تلك الأرجاء حتى بلغ آمد والرها ، فكان في مسيرته يفتح البلاد ويستفيء المغنم ، ويلقي في القلوب الرعب^(١) ، ثم عاد إلى قنسرين قد اجتمع له من الفئء شيء عظيم . لذلك انتجعه رجال من الآفاق يرجون جوائزه فلم يضمن عليهم . وكان الأشعث بن قيس فيمن انتجعه فأجازه بعشرة آلاف درهم .

تحدث الناس بفعال خالد بن الوليد بقلقية وإرمينية مُعْجَبِينَ ، وذكروا بها خوارقه الجليلة وانتصاراته المعجزة بالعراق والشام ، وتحدثوا بجوائزه وأعطياته للأبطال والشعراء وبجائزته العظيمة للأشعث بن قيس ، فذكروا بها أريحية ملوك بني غسان وملوك الحيرة . ونُيِّمَ حديث الإعجاب به وخبر هذه الجائزة إلى عمر بالمدينة كما كان يُنمِّي إليه كل شيء من أمور عماله ، فهاجهاً على خالد ورآه لا يرجع عن غيِّه . فقد بلغه من قبل أن خالداً ، إذ كان بآمد من أرض إرمينية ، دخل حَمَاماً فتدَلَّكَ بِغُسل فيه خمر ، فكتب إليه : « بلغني أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرَّم ظاهراً الخمر وباطناً ومسه فلا تمسوها أجسادكم » . وأجابه خالد : « إنا قد فتنناها فعادت غَسُولاً غير خمر » . ولم يعجب عمر هذا

(١) يذكر بعض المؤرخين أن خالداً كان يسير في غزواته هذه تحت لواء عياض بن غنم . ويذكر آخرون أنه كان يسير مستقلاً بنفسه وأنه لم يتأمر عليه أحد قط غير أبي عبيدة .

الجواب ، فردّ عليه مغضباً : « إن آل المعيرة ابتُلُوا بالجفاء فلا أمانكم الله عليه ! ». وكان عمر قد أمره أن يحبس ما يصيبه من المال على ضَعْفَةِ المهاجرين ، وها هو ذا يجعله أعطيات لذوى البأس والشرف واللسان ألا يدل ذلك على أنه لا ينفذ ما أمره به من مراجعته في حساب المال ، وألا يعطى شاةً ولا بعيراً إلا بإذنه ، وأنه مصرٌّ على قوله يوم وجه إليه هذا الأمر : « إماماً أن تدعنى وعلى ، وإلا فشأنك بعملك » ؟ !

كيف يستقيم الحال وخالد يريد أن يستأثر بالسلطان ويستقل بالأمر دون حسيب أو معقّب ! بل كيف يستقيم وقد فتن خالد بالناس لإعجابهم به وإكبارهم فعالة ، ففيل إليه أنه أصبح صاحب الأمر والنهى فى الشام كله ، وأنه صار فيه ملكاً كجَبَلَةِ وآبائه من بنى غَسَّاب يثيب ويعاقب ، ويعطى ويمنع ! ألا لئن ترك شأنه ليلفنّ به الزهو يوماً ، فلا يقيم لأمر الخليفة وزناً ولا يحسب له حساباً . فلئن أراد الخليفة يومئذ نزعاً من عمله ليثورنّ به وليجدنّ من الجند ومن أهل الشام أعواناً له ؛ وقد يؤيده الروم فتكون الطامة الكبرى . ويومئذ لا يومنّ عمر إلا نفسه ، ثم ليحاسبه الله على ما قصر فى أمر المسلمين بتردده وإحجامه

هاج هايج عمر على خالد فقال : « والله ما صدقتُ الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمره فلم أنفذه ! والله لا بلى لى خالد عملاً أبداً ! » . وكتب إلى أبى عبيدة أن يستقدم خالداً وأن يعقله بهامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلم : أجاز الأشعث بن قيس من ماله أم من إصابة أصابها ، فإن زعم أنها من إصابة فقد أقرّ بخيانتة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف . وأمره أن يعزله على كل حال ، وأن يضم إليه عمله .

تناول أبو عبيدة هذا الكتاب فتولّته الحيرة ؛ فلخالد فى نفسه وفى نفوس الجند والمسلمين جميعاً منزلة أعظم المنزلة ، لكن أمير المؤمنين مُطاع . ويجب تنفيذ أمره . فليدعُ خالداً إليه ، وليترك التنفيذ لرسول عمر ولموثّن النّبى وكتب إلى خالد فقدم عليه ، فلم يذكر له عن كتاب عمر شيئاً ، بل جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، ثم قام البريد الذى أوفده الخليفة يسأل خالداً : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة أصبتها ؟ ودهش خالد مما سمع ولم يجب . وكرر البريد السؤال فلم ينبسْ خالد ببنت شفة . كل ذلك (١٨٣ - الفاروق - ج ١)

وأبو عبيدة جالس على المنبر ساكت لا يقول شيئاً . فلما ألحَّ العريد في السؤال وأبى الصمت ، قام بلال فقال : إن أمير المؤمنين أمر أن تُعقلَ بعمامتك ، وأن تنزَّ قلنسوتك حتى تجيب عما تُسأل الآن عنه . وزادت بخالد الدهشة فلم يخرج من هنالك تناول بلال قلنسوته ، ولم يديه وراء ظهره وعقله بعمامته ، وقال : « أمن ملك أم من إصابة ؟ » .

دهش خالد لهذا الموقف فوجم وأعياه الجواب . وهو في الحق موقف يخرج إنسان عن صوابه . أليس هو موقف الاتهام الصريح بخيانة الأمانة ؟ ، فإذا به إنسان علانية وعلى ملأ من الناس جشأت نفسه وتولاه الدهول ؛ ما بالك به إلى خالد بن الوليد وهو في أوج ظفوره بأعداء الله وأعداء المسلمين ! وعلى أى نحو يوجّه هذا الاتهام ؟ على نحو هو الإهانة كل الإهانة : تُض إلى ظهره ، وتُعقلان بعمامته ، وترفع قلنسوته عن رأسه ! باللعار ! ما كان أغنى أمير عن هذا كله ! أو لم يكن حسبه أن يدعو خالداً إلى المدينة مادام قد عزله عن فإذا لقيه بها سأله عما شاء كما شاء فيما بينه وبينه !؟

لم تسكن دهشة المسلمين الذين شهدوا هذا المنظر بأقل من دهشة خالد . ولقد بعضهم يتساءلون بينهم : ماذا يراد بسيف الله بعد هذا الموقف الذي يُرى بأحد بَلَّة القائد النابغة الذي فتح العراق والشام ودوَّخ الفرس والروم !؟ أمن أجل عشر من الدراهم تُعقل يده وتُنزع قلنسوته ، وهو هو الذي استفاء المسلمون بئاسه الأولف بل ملاينها ! وماذا تراه صنع بهذه العشرة الآلاف لتلحقه هذه الإهانة ؟ لنفسه وأنكرها على أبي عبيدة أو على الخليفة ؟ كلا ؟ بل أجازها الأشعث بن قيس كفدة صاحب البلاء العظيم في العراق والشام . ولطالما أجزى الأشعث وأمثاله ذوو ممن شهدوا المواقع وكان لهم فيها بلاء وخطر ! ألا إنها لقسوة من أمير المؤمنين بلغ من ثقة رسول الله وثقة الصديق وثقة المسلمين به أعظم مبلغ ! .

كان أبو عبيدة ينظر إلى الناس من مجلسه على المنبر فيرى أمارات الدهشة وا بيئة على وجوههم ، فلا يزيد ذلك إلا إمعاناً في الصمت الذي التزمه في هذا الذ

والذى أصر عليه منذ دعا خالداً إليه وأصر غيره أن ينفذ أمر عمر فيه . ولعله لم يكن أقل الحاضرين دهشة لهذا المنظر وأسفاً عليه . لقد كان يعرف أكثر من غيره ما يؤخذ عمر خالداً به من الزهو والتسرع إلى الحرب وشدة الحرص على الاستقلال بالرأى . ولقد صرف غاية همه خلال السنوات التى انقضت من خلافة عمر ليزيل من نفس أمير المؤمنين سوء رأيه فى خالد وشدة برمه به . وقد بلغ من ذلك أن حمل عمر على إطراء خالد إثر قنسرين وما أحرزه بن الوليد من النصر المؤزر فيها . أفذهب كل جهده هباء ! فلم تسكن صيحة عمر يومئذ . « أمر خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ، كان أعلم بالرجال منى ! » إلا صيحة إعجاب بفعلة عظيمة جزى خالد عنها بإمارة قنسرين ، ثم ظل مع ذلك برماً به ؟ إن يكن ذلك فهو عجب ، وأعجب منه أن يحجى الأمر بعزل خالد وخالد فى أوج مجده ، والفرس والروم والعرب والمسلمون يتحدثون جميعاً بفعله ، ويطأطئون الرؤوس إكباراً لعظمته وإجلالاً لعبقريته !

كان ذلك شأن أبى عبيدة وشأن جموع المسلمين شهود هذا المنظر ، فإذا كان شأن خالد نفسه ؟ أترانا نستطيع أن نصور ما كان يدور تلك الساعة بخالده ، وما كانت تختلج به جوارحه ؟ ! إن ألقاها الدهشة والألم والكبرياء الجريح والغيظ المكظوم والثورة المكبوتة لتضيق منفردة ومجتمعة عن أن تصف ما كانت تضرب به فى هذه الساعة نفس رجل لم يطأطأ يوماً رأسه ولم يعرف الذلة حياته ، بل كان فى جاهليته وفى إسلامه مثال الأنفة والكرامة والعزة ، وكان البطل المعلم ، كم جدل سيفه رهوس الأعزة ، والقائد الفاهر عنت لقوة بأسه العروش والممالك . أترأه اليوم يقيد بعامتة وكم قيد بالسلاسل ألوف الأسرى ! أترأه يتهم بخيانة المسلمين فى أموالهم وهو الذى أعز الله به الإسلام والمسلمين ! يا سخرية القدر ! أما كان خيراً له أن يُصرع فى ميدان البطولة والشرف من أن يجاء به إلى موقف الخونة الأندال فيُصرع شرفه وتُهدر بطولته ! .

ولكن كيف له أن يخرج من هذا الموقف المهين ؟ فهذا بلال يسأله : أمن ماله أم من إصابة أصابها أجاز الأشعث بعشرة آلاف ؟ وبلال لن يفك طائعاً عقاله حتى يجيب . فيلزم الصمت فيطول هذا به المنظر الزرى ؟ أم يكسر عقاله بيديه ويضع على رأسه

قلنسوته وينظر الحاضرين جميعاً تلك النظرة الفاتكة التي عرفها خصومه وأصدقائه فيقول لهم : لا جواب عندي وليفعل عمر بعد ذلك ما بدا له ؟ لكنه جندى من جنود المؤمنين ، وعمر أمير المؤمنين ، وهو الذي قضى بسيفه على المرتدين يوم ثاروا يحاولون أن ينافزوا أبا بكر لإمارته . أيثور هو بعمر فينازعه حقوق إمارته ؟ كلا ! إنه لأعظم إيماناً بالله من أن يثور بمن ولّاه المؤمنون إمارتهم . لذلك لم يزد حين كرر بلال سؤاله : أمن مالك أجزت أم من إصابة أصبتها ، على أن أجاب : بل من مالى !

ضحك المسلمون فرحاً حين سمعوا هذه الكلمة تنفّس عنها شفتا خالد ، وخيّل إلى كثيرين أن كل شيء قد انتهى ، وأنه سيعود إلى إمارته بقنّسرين كما كان ، ثم يُنسى الزمان وتُنسى فعالة ما حدث . وزادهم اطمئناناً إلى ذلك أن بلالاً لم يلبث حين سمع كلمة خالد أن أطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده وقال : « نسمع ونطيع لولائنا ، ونفخّم ونخدم موالينا » .

وخرج خالد وخرج الناس من هذا المجلس ، يتحدث بعضهم إلى بعض ، ويختلف بعضهم مع بعض : يرى قوم أن أمير المؤمنين على حق ، فهو لم يحاسب خالد إلا كما يحاسب غيره من عماله ، ويرى آخرون أن خالداً خير أمير لجند المسلمين وأكثرهم نصراً ، فمن حقه يوم توزن أخطاؤه أن توزن معها جلائل أعماله ، ومن حقه إذا أراد عمر محاسبته أن يدعوه إليه وأن يحاسبه بنفسه وألا يقفه موقف متهم آثم بين جند يقدرونه ، ويقدمونه . وتعصّب لخالد قوم أثارت إهائته نفوسهم ، فذهبوا يذكرون مواقف عمر منه في عهد أبي بكر وعزله إياه عن إمارة الجند يوم استُخلف ، ويزعمون أن أمير المؤمنين إنما عرض خالداً للإهانة غيراً منه لتعلّق الناس به ومحبتهم له ؛ فهي المنافسة حرّكت تراتٍ قديمة وليس فيها من العدل شيء .

أما خالد فلم تزايله دهشته بعد هذا المجلس ، بل جعل يسأل نفسه وقد تولته الحيرة : ماذا أراد عمر به ؟ فليس طبيعياً أن يكتفى بإجابته أنه إنما أجاز الأشعث من ماله ، وهو لابد قد كتب لأبي عبيدة بأكثر مما حدث . ولو أنه لم يقصد إلى أكثر من العلم بمصدر العشرة الآلاف لكفاه أن يسأل أبو عبيدة خالداً وأن يبلغ أمير المؤمنين جوابه . فأما أن

يقفه بين الناس هذا الموقف المهيمن ، فلأمر له ماوراءه . وهذا الأمر خطير لاربيب ، تشهد بذلك حيرة أبي عبيدة حيرة ألزمتها الصمت . أفيأسأله خالد عنه فيخرجه من حيرته ويقف هو على جلّية الخبر ؟ تحدث في هذا إلى بعض خلصائه ، فذكر واه أن الناس يتناقلون بينهم أنه يذكر أن المال الذي أجاز به الأشعث من إصابة أصابها فلن يفاله سوء وسيرده أبو عبيدة إلى عمله . أترأه يلقي أبا عبيدة فيسّر إليه بما يشاء عمر حتى يعود إلى قنسرين أميراً كما كان ؟ تردد في هذا الأمر بعد أن راودته عنه نفسه . فهو إن يفعل فيعرف الناس تنهدم في أنفسهم كرامته ، وتنهدم معها قنصهم به . لذلك ذهب إلى أخته فاطمة بنت الوليد يستشيرها ، فقالت له : « والله لا يحبك عمر أبداً ، وما يزيد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك » وأقر خالد رأيها وقبل رأسها وقال لها : صدقت ، وأقام ينتظر الأيام وما تكشف عنه .

بينما كان ذلك يجري بحمص كان عمر ينتظر بالمدينة مقدّم خالد عليه معزولاً عن عمله . فلم يدرك قط بخالده أن يحجم أبو عبيدة عن تبليغ خالد أمر عزله أو أن يدع خالداً يتولى من الشؤون ما لم يبق له بعد العزل أن يتولاه . فلما طال به الانتظار وأبطأ خالد عليه ظن الذي كان ، وأدرك أن أبا عبيدة في لينة وتؤدته وتواضعه قدر ما ينزل بنفس خالد من الهم إذ يعرف المصير الذي أراده له أمير المؤمنين ، وما ينشأ عن ذلك من قلق الجند والمسلمين في وقت ما أحوج أبا عبيدة فيه إلى انقاء كل قلق وكل فتنة . أترى أمين الأمة توقع أن يعدل عمر عن أمره ، فإذا سكنت الأيام من جحاح ثورته كتب إليه برد خالد إلى عمله ، ولذا سكت وصبر حتى تمر العاصفة فلا يرى أحداً أثراً ؟ أدار بنفس أمير المؤمنين أن يكون هذا الخاطر قد أمر بخالده إلى عبيدة فلم يطق أن يقوم في نفسه ظنة بأناته وبسداد رأيه ومضاء عزيمته ، فكتب إلى خالد يستقدمه ويبلغه الأمر الذي أحجم أبو عبيدة عن أن يبلغه له . فلما تفاول خالد كتابه ثارت نفسه ، ورأى في صنيع أبي عبيدة إشفاقاً عليه ، وهو رجل يزدرى الإشفاق وينكره . لذلك ذهب إلى أمين الأمة تضطرب نفسه بين محبته والغضب منه ، وقال له . « رحمك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ ! كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ! » . وأجابه أبو عبيدة في مودة وعطف :

« والله ما كنت لأرورك ما وجدت لذلك بُدًا . وقد علمت أن ذلك يرورك » .
لم يبق لخالد إلا أن يرجع إلى المدينة معزولا يلتقي أمير المؤمنين . فخرج يريد قنسرين
وثورة نفسه على أشدها ، والغيظ يكاد يفرى مهبته . أذلك جزاؤه عن كل ما قدم !
وهل أخفى عمر في نفسه يرثه القديمة عليه طيلة هذه السنين ليستخدمه ما كان بحاجة
إلى قوة ساعده وعبقريه قيادته ، فلما رأى القدرة على الاستعناء عنه تلمس له هنة فلم يجد ،
فتخذ من قصة الأشعث وجائزته حجة يقيم عليها هذه المسرحية ليعزله عن عمله بعد
أن يهدر كرامته ويمرغ في التراب أمام الناس عزته ؟ ! ياله من حاقدا لا ينسى حقده !
ولعل هذا الحقد كان يزداد ضراما كلما رفع الحظ نجم خالد فيجعله أكثر علواً وسمواً .
ولو أنه عزله عن كل عمله يوم استخلف لكان له من العذر أنه أشار على أبي بكر بامر
فلم ينفذه ، فلما تولى هو مكانه نفذه . فأما أن بدعه أربع سنوات يخوض المعارك ويدوخ
الأقران ويقهر الجيوش ، فيخضع دمشق ويطهر الأردن ، ويستولى على حمص ، يأخذ
قنسرين عنوة ، ويرد حلب إلى الطاعة ، ويطرد هرقل من سورية ، ويتخطى قلقيّة
إلى إرمينية ، ويصل بين الفتحيتين في العراق والشام ، ثم يعزله بعد ذلك كله بتهمة
الخيانة أو السرف ، فذلك الغدر الذي لاطاقة لخالد باحتماله ، والذي لا عذر عنه من شدة
عمر بسائر عماله . فلم يأتهم خالد ولم يرتكب نُكراً . وأين ثراؤه على عظيم بلائه ! وأين
ما صنعوا مما صنع ! إنهم أولو فضل لأريب . وانتصار ابن أبي وقاص بالقادسية وفتحه
للدائن ، وطرده يزدجرد إلى الري ، من أعظم أعمال البطولة . وفتح ابن العاص بيت المقدس
نصر أكبر النصر . لكن خالداً صاحب الفضل الأول في فتح العراق وفتح الشام .
وفتحهما هو الذي دوّخ كسرى ودوّخ قيصر ، وهو الذي فتح الباب واسعا لمسيرة المسلمين
بعده إلى ماشاءوا من الآفاق . أو لو كانت جائزة الأشعث سيئة فأين قوله تعالى :
(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) ! ؟ فليكن جزاء خالد عند الله ! والله من بعدُ حسيت
عمر ورقبيه ! .

كانت هذه الخواطر تدور بنفس خالد وهو في طريقه بين حمص وقنسرين ، فكان
يفضى بها إلى بعض خلصائه فيهنّ عليه الأمر ويدّكرونه بقوله تعالى . (وَمَا تَدْرِي

سُئِلَ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، وبقوله (لَا بَعْزُبَ عَنَّهُ مُتَقَالٌ ذَرَّةً فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) ، ويحييهم خالد ومسُّ الإهانة يحز في نفسه : إن عمر ولآلئ الشام حتى إذا صارت بَثْنِيَّةً ^(١) وعسلا عزلني . فلما بلغ قنسرين نُظِمَ غِيظُهُ ، وَتَحَمَّلَ وَخَطَبَ أَهْلَ عَمَلِهِ ، وَذَكَرَ بِحَيْدِ فَعَالِهِمْ مَعَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمْ عَمْرَ بَسْوَةٍ ، وَمَوَدَّعَهُمْ وَعَادَ بِأَهْلِهِ وَمَتَاعِهِ إِلَى حِمصَ ، فَخَطَبَ أَهْلَهَا وَوَدَّعَهُمْ ، وَفَصَلَ عَنْهُمْ مَنَصَرَفًا إِلَى الْمَدِينَةِ .

فأما بلغها ولقي أصحابه بها ألقي أمر عمر فيه وما أصابه من مهانة حين تنفيذه قد سبقه إليهم ، ورأى منهم متعصبين له ناقلين من عمر ، فتحدث إليهم بأعماله ، وذكر لهم إخلاصه لله وللدن الذي أوحاه الله إلى رسوله ، وقص عليهم ما استفاء المسلمون على يديه ، والقليل الذي اختص هو به من هذا النعم ، فزادهم ذلك تعصبا ، ومن عمر نعمة . ثم إنه لقي عمر فقال له : « لقد شكوتك إلى المسلمين . والله إنك في أمرى غير مجمل يا عمر ! » . ولم يجد الخليفة موضعاً للين يمكن أن يساء به تفسير أمره ، فقال لخالد ولا يزال يتهمة : « فأين هذا الثراء ! من أين هذا اليسار الذي تجيز منه عشرة آلاف ؟ » ، وجعل يكرر عليه للسؤال كلما رآه . فلما ضاق به خالد قال له : « من الأنفال والشهيمان ، مازاد على الستين ألفاً فهو لك ^(٢) » وقوّم عمر عروض خالد بثمانين ألف درهم ترك له منها ستين ألفاً وأخذ العشرين الزائدة فأدخلها بيت المال .

وتحدث قوم إلى عمر في أمر خالد وما صنع به ، ورأوا أنه قسا عليه وأن خالداً جدير بالكرامة ، وقالوا له : يا أمير المؤمنين لو رددت على خالد ماله ! لكن عمر كان لا يزال على سوء رأيه في سيف الله ولا يزال يتهمة . لذلك أجاب الذين تحدثوا إليه : إنما أنا تاجر للمسلمين . والله لا أردّه عليه أبداً ^(٣) ! وأنكر قوم هذه الشدة من عمر ، ورأوا فيها من المبالغة مالا يفسره إلا شدة ضيقه على خالد وعظيم حرصه على النيل منه . فاثمانون ألف درهم قيمتها دون السبعة آلاف من الدنانير لرجل غزا وسبى واستفاء من المرتدين

(١) بثنية - حنطة منسوبة إلى البثنية بناحية دمشق . أو هي الزبدية ؟ أي صارت كأنها زبدية وعسل .

(٢) وفي بعض الروايات ستين ألفاً في أيام أبي بكر وما زاد عليها في أيامك . فإن شئت فهم لك .

(٣) وفي رواية أنه رد عليه كل ما أخذه منه .

ومن العراق ومن الشام ست سنوات تبعاً ما قيمته الملايين ! وهذا الضغن يبدو في قول الطبري بعد أن روى رفض عمر أن يردّ إلى خالد ماله ؛ فكأن عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك .

ولعل عمر إنما قسا على خالد وبالغ في القسوة عليه بعد عوده إلى المدينة معزولاً ؛ لأنه رأى جماعة من المتمصين لخالد يحاولون إثارة الفتنة وأن يمشوا بين الناس بالفساد . فلو أنه أظهر اللين لظنّ قوم لينه ضعفاً ، ولأيقنوا أنه عزل خالداً في غير إثم ، ولجرّأ ذلك على الشرّ وشجّع عوامل القلق . ولم يغيب ذلك عن فطنة خالد ولم تفته مراعى أمير المؤمنين فيه . فقد كان يرى عمر إذا خلا إليه كان الرقة معه والطف به ، فإذا تحدّث إليه قوم في الأمر كان ما رأيت بأساً وشدة . عاتب خالد عمر يوماً في خلوة وأعاد عليه أنه كان في أمره غير نجمٍ ، فقال عمر له : « يا خالد ! والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىّ لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء أبداً » . وكفت هذه الكلمة خالداً فهذأت من ثورة نفسه ، وجعلته يردّ الذين حاولوا تحريضه على القيام مع خصوم عمر في الثورة به بقوله . أما وعمر حتى فلا ! وكيف لخالد أن يثور بأمره لأمر أصدره ؛ وهو جندي يعرف النظام ويؤمن به ؛ وهو مسلم حسن الإسلام حريص على أن ينتصر دين الحق ؛ على يديه أو على يدي غيره ! لذا سكن كارها إلى حياة لا ترضاه لنفسه ؛ حياة الجندي البطل يرى ميادين القتال مفتوحة أمامه ، وهو مبعده عنها لا يستطيع خوض غمارها لأن أميره عزله وأقصاه . وحسبك لتقدر ما حزن ذلك في نفسه أن تذكر قوله ، حين أقام بالحيرة سنة لا يقاتل الفرس امتثالاً لأمر أبي بكر : « ألا إنها لسنة كأنها سنة نساء » .

واطمأن عمر إذ برت يمينه ألا يلبّي له خالد عملاً أبداً ثم لم تثر لعزل خالد عاصفة ، ولم يملأ خالد أحداً على إثارتها ، فغلب جانب البر فيه جانب الشدة والبأس ، فأذاع في الأمصار : « إني لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بمرض فتنة » أفتعبر هذه الإذاعة تعبيراً صادقاً عن رأى عمر في خالد ، وتشهد أنه اقتنع بأن الرجل لم يرتكب إثم الخيانة ولا إثم الإسراف حين أجاز الأشعث بعشرة الآلاف ؟ أم هي إذاعة

سياسية قصد بها ان الخطاب إلى تسكين الخواطر التي ثارت لما أصاب سيف الله ، تعصباً له وإعجاباً به ، وخشية أن يجرى عمر في سياسته على تغليب الهوى والأخذ بالظنة في أمر بناء الإمبراطورية الناشئة ؟ أغلب الظن أنها كانت إذاعة سياسية أريد بها الاعتذار عن أمر أو شك حين وقوعه أن يحدث حدثاً . وآية ذلك أن خالد مات بعد أربع سنوات من عزله ، ولم يترك من حُطام الدنيا غير فرسه وغلّامه وسلاحه ، فلما عرف عمر ذلك من أمره حزن وقال : « يرحم الله أبا سليمان ! كان على غير ما ظفناه به » . إذاً لقد قامت بنفس عمر ظنة في خيانة خالد أو في إسرافه كانت سبب سخطه عليه وعزله إياه . وخطب الناس بالجابية يوماً فقال : « إني أعتذر إليكم عن عزل خالد بن الوليد ؛ فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعة المهاجرين ، فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، فأمرت أبا عبيدة » . لم تكن فتنة الناس بخالد هي إذاً وحدها التي أدت إلى عزله مخافة أن ياكلوا إليه ويبتلوا به ويتمرضوا للفتنة بسببه ، وليعلموا أن الله هو الصانع ، بل كانت في نفس عمر سخطة على خالد لأسباب كانت فتنة الناس بسيف الله بعضها أو كانت أعظمها .

لم يسكن الناس لإذاعة عمر ولم يروها مسوغة عزل خالد ، بل ظل منهم كثيرون وفي نفوسهم على عمر موجدة لهذا العزل أي موجدة لما خطب بالجابية يعتذر جابهه أبو عمرو بن حفص بن المغيرة بكلام يقول فيه : « والله ما أعذرت يا عمر اولقد نزعنا عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعنا لواء رفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغمدت سيفاً سله الله . ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم ! » . وأجابه عمر : « إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضب في ابن عمك » .

عاش خالد أربع سنوات بعد عزله بعيداً عن ميادين فخره ومجده ، يحزّاهم في قلبه أن يرى إخوانه وبني وطنه يقتحمون فلسطين إلى مصر والعراق إلى فارس ، وهو مقيم في بيته ، وسيفه في غمده لا يجرده لنصر أو شهادة ، ولا يبيديه مشهوراً أمام الأبطال يهزّ قلوب العدو هزاً ، ويحصد رقابهم حصداً . أفأكان حسبه خلال هذه السنوات أن يستمتع بهذا الجد انمقد له لوائه ، وتككل بغاره جبينه ؟ !

كلا ! فما الجدل لرجل لا يزال قديراً على أن يرفع صرحه ويعلى بناءه ! إنما يسكن إلى مجد بلغه من يقعد به الجهد عن أن يسمو من مراتبه إلى أعظم مما بلغ . وكان خالد لا يزال قديراً أن يقتحم مراتب المجد جميعاً ، فيفتح من أرض الروم أضعاف ما فتح ، ويبلغ حاصمة قيصر كما بلغ سعد بن أبي وقاص حاصمة كسرى . أما وعمر قد ألزمه عُقْرُ داره ، فكسر سيفه وهدّ ركنه ، فما أطول أيامه وأشد ألمه ! وقد اخترم ألم حياته فمات بعد هذه السنوات المريرة^(١) وهو يقول : « لقد طلبت القتل في مظانه فلم يُقَدَّر لي إلا أن أموت على فراشي » . وفي الرواية المشهورة أن خالداً بكى حين حضرته الوفاة وقال : « لقد حضرت كذا وكذا زخفاً ، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربةٌ بسيف ! أو طعنةٌ برمح ، أو رميةٌ بسهم ، وهأنذا أموت على فراشي حنط أنفي كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعين الجبناء ! » .

حزن المسلمون لموت خالد أشد الحزن ، وكان عمر بن الخطاب من أشدهم حزناً .
رووا أنه سمع أمه تندبه وتقول :

أنت خيرٌ من ألفٍ ألفٍ من القوِّم إذا ما كَبَتْ وجوهُ الرجالِ
فقال « صدقت والله إن كان كذلك ! » وكان عمر ينهى عن الفذب على الميت وبكائه حتى لقد شتت النسوة اللاتي اجتمعن ببيت عائشة يندبن أباها أبا بكر . فلما اجتمع نساء المدينة يبكين خالداً لم يعرض عمر لهن ولم يعترض عليهن ففيل له : ألا تسمع ! ألا تنهين^(٢) فقال : « وما على نساء قريش أن يبكين أباسليمان ما لم يكن نَقْعٌ أو لَقْلَقَةٌ^(٣) . على مثله تبكي البواكي ! » . ودخل هشام بن البَحْتَرِيّ في ناس من بني نخزوم على

(١) المشهور أنه مات سنة إحدى وعشرين بقرية على ميل من حمص . وأصحاب هذه الرواية يذكرون أن خالداً قدم المدينة بعد ما عزله عمر ، وأنه اعتزم ثم رجع إلى الشام ، فلم يزل بها حتى مات وأن عمر رأى حجاجاً يصلون بمسجد قباء عرف أنهم نزلوا حمص بالشام ، فسألهم عن أخبارها فقالوا : مات خالد بن الوليد . وتجرى رواية بأنه مات بالمدينة . وأصحابها يذكرون أن خالداً ذهب من الشام إلى المدينة زائراً أمه ، فلما كان خارجاً منها اشتكى فقل لأمه وكانت تصعبه : احذروني إلى مهاجري ، فقدمت به المدينة ومرضته حتى مات بها .

(٢) وفي رواية أن عمر قيل له : انهن قد اجتمعن في دار خالد يبكين عليه ، وهن خائفات أن يسمعك بعض ما تكبره ، فأرسل إليهن فانهن .

(٣) أراد الصياح والجلبة عند الموت .

عمر بن الخطاب فقال : ياهشام أنشدني شعرك في خالد ، فأنشده أجود شعره ، فلما فرغ من الإنشاد قال عمر : « قصرت في الثناء على أبي سليمان رحمه الله ، إنه كان ليجب الشرف وأهله ، وإن كان الشامت به متعرضاً لمقت الله » وجرى ذكر خالد يوماً فاسترجع عمر وقال : قال « كان والله سداً لئلا تنحور العدو ، ميمون النقيبة » ، فقال له عليٌّ : « فلم عزله ؟ » قال : « ندمت على ما كان مني ! . ويرؤى أن عمر كان غائباً يحجّ حين مات خالد ، وأنه كان قد عزم على توليته بعد أن يرجع من الحج ، فلما رجع وجدته قد مات . وطبيعي أن هذه الرواية إن صحت لا تستند إلى أكثر من قول نسب إلى عمر أو نقل عنه بعد وفاة خالد بن الوليد .

أفكان عمر صادق الحزن على خالد حين خرج عن مألوف رأيه فترك نسوة قریش يندبنه ثم أظهر الندم على عزله ، وقال فيه كل ما قاله ؟ أم اقتضته مروءته أن يكون مُجَمِّلاً مع ابن خاله في مماته ، ولم يكن مجملاً معه في حياته ، فترك النسوة يبكين لعل في البكاء ما يخفف لوعتهن ، وقال ما قال يعزّي به بنى خالد وأهله ؟ . الله أعلم بالسرائر . ونحن بعد إزاء روايات مضطربة عن هذا الموقف من مواقف عمر ، يتعذر علينا أن نقطع أيها الصحيح وأيها الموضوع .

وإن يصدق حزن عمر فلا عجب والموت يسمو بمن مات إلى مقام السيرة البراة عن الشماتة والحقده ، فللاً حياء منها للثل والعبرة . ولقد كان لعمر من قوة ثقته وشدة بأسه وعظيم إيمانه وعدله ، وبالغ رفته ورحمته ، وما بينه وبين خالد من صلة الرحم ، ما يدعو له الحزن عليه والأسى لمصاب أهله فيه . وكيف لا يحزن وعلى مثل خالد تبكى البواكي !! بل كيف لا يحزن ولا يزال اسم خالد يدوّى في الآفاق كما لا يزال اسم عمر يدوّى فيها ، وخالد أعظم بناء الإمبراطورية الإسلامية ، وعمر أعظم من وطّد ركنها ووجه سياستها !! هذه قصة خالد وعمر وقد وقف غير واحد من المؤرخين عندها ، ونصبوا أنفسهم منصب الحكم بين الرجلين ليقولوا : أظلم عمر خالداً أم لم يظلمه حين عزله . وكثيرون يتعصبون لخالد ويقفون في صفه ويرون أن عمر لم ينصفه . فلو أن قصة الأشعث بن قيس صحت على أسوأ وجهها وكان خالد قد أجازته من إصابة أصابها ، لما كفت في رأيهم سبباً

لعزله . صحيح أن عمر كان شديداً في محاسبة عماله ، وأنه كان يسألهم عما كسبوا من مال في ولاياتهم ، ويقبض منهم ماله كسبوه بسببها . لكنه لم يعزل كل من وجه إليه هذه التهمة ، بل لقد وجهها إلى عمرو بن العاص وهو على مصر غير مرة ثم لم يعزله . ولم يكن أحد من ولادة عمر وعماله كخالد بأساً وأيداً ، ولم يكن لواحد منهم مثل عبقريته في القيادة وإقدامه في الحرب . فليس من الإنصاف أن يشتد عمر في مؤاخذته مالم يشتد في مؤاخذتهم . أما الذين يتعصبون لعمر ويقفون في صفه ، ويرون أنه لم يظلم خالدًا حين عزله ، فيذكرون أن جائزة الأشعث لم تكن وحدها سبب عزله ، وإنما كانت بعض المظاهر لزهو خالد وخروجه على أمر الخليفة . فقد أمره ألا يتصرف في الشيء إلا بعد مراجعته فلم يفعل ، وأن يحبس على ضعة المهاجرين فجعله لذوى الشرف واللسان . لذلك خشي عمر أن يفتتن خالد بالناس كما فتنوا به ، فيكون الخطر على الدولة في بقائه كما خشي أن يظن الناس أن خالدًا أصبح ضرورة لا غنى عنها لانتصار جيوش المسلمين ، فتصغر أقدار القادة دونه ، وتعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله ، وذلك شر إن أصاب الدولة وتأصل فيها فسد أمرها . ولا سبيل إلى استئصال هذا الشر إلا بعزل مصدره ، ولو في غير جريرة . فإذا رأى الناس جيوش الدولة لا تزال من بعد مظفرة ، قرّت عقيدتهم بالله وثقتهم بقوادهم وساستهم ، فكان للدولة ولدين الله بذلك كسب لا يقاس عزل رجل بجماعته ، ولو كان هذا الرجل خالد بن الوليد .

لم يركبوا أن يقفوا من خالد وعمر موقف الحكم إكباراً لها عن مقام القضاء والانهاك ، واقتناعاً بأن ما انتهى إلينا من تفاصيل الحوادث وملاساتها فيه من القصور والاضطراب ما يردنا عن الحكم ، وإن أسفوا مع ذلك على ما حدث أشد الأسف : نغالد وعمر رجلان قلّ نظيرهما في الرجال . فلو أنهما تضامنا إلى النهاية في بناء الإمبراطورية وسياستها ، لأسرع الفتح أكثر مما أسرع ، ولاتسعت رقعة أكثر مما اتسعت ، ولدخل المسلمون القسطنطينية وخالد على رأسهم ، ولأدالوا من دولة قيصر ما أدالوا من دولة كسرى ، ولكان لذلك أثره الباقي في حياة الإسلام وفي حياة العالم ، ولربما من هذا الأثر غير ما نرى اليوم ، ولسارت الحضارة غير سيرتها التي عرفنا .

وهذه فروض لا يدري أحد ما كان يصح منها لو لم يحدث ما حدث . وعندى أن عمر إنما عزل خالداً عن كل عمله للسبب الذى عزله من أجله عن إمارة الجند غداة خلافته . فالثقة بين الرجلين لم تكن قائمة فى عهد أبى بكر ولا من قبله . وكان عمر يود لو أن أبى بكر عزل خالداً لحادث ابن نويرة أو لحادث غيره . فلما أبى الصديق أن يأخذ بظنة عمر فيه ولم يعزله ، لم يكن لعمر يوم تولى أن يفصله عن الجند كله ؛ فقد كانت جيوش المسلمين على اليرموك فى إمرته ، وكانت ضخامة اسمه وثقة الصديق به تحولان دون عزله . لذا اكتفى بردّ أبى عبيدة إلى مكانه من إمارة الجند ، وأن يسير خالد تحت لوائه . فلما انتصر خالد فى اليرموك وفتح دمشق ودوّت فعالة فى شبه الجزيرة كما دوّت فى العراق والشام ، ثم كانت جيوش الروم لا تزال قوية بإزاء المسلمين ، لم يكن لعمر إلا أن يحتمل ابن خاله وإن على مضض ، وأن يُعَجَّبَ بفعاله وإن بقى على سوء رأيه فيه . فلما فرّ هرقل إلى عاصمة ملكه ثم قمع المسمون ما حدث من الانتفاض فى شمال الشام ، وحصّنوا ما بينهم وبين الروم من تخوم ، وأمن عمر عودة هرقل وجنوده ، لم يبق لخالد إلا أن يكبح جماح زهوه ، وأن ينزل على رأى الخليفة فى الفىء وغير الفىء ، كما ينزل كل عامل غيره . لكن خالداً ظل على اعتزازه بنفسه واعتداده بمقدرته ، فاستأثر بما رأى أنه من الحق لنفسه أن يستأثر به حين توزيع العطاء من غنائمه ، مخالفاً بذلك أمير المؤمنين عن رأيه ، خارجاً فيه عن سياسته . وحرك ذلك فى نفس عمر كل ما اجتمع فيها من سوء الرأى بخالد قبل حادث ابن نويرة وبعده ، فكان الذى حدث من استدعاء خالد إلى حصص ليقف بين الناس موقف المتهم ، ولتُنزَعَ قلنسوته ويُعَقَّلَ بعاملته ، وليُسأل كأنه خائن للأمانة ، وليعزل بعد ذلك فيبقى بعيداً عن ميادين نصره ومجده ، حتى يموت على فراشه كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء ! .

رحم الله خالداً ورحم عمر ! لقد كانا قوتين من أضخم قوى القدر . اتسعت لهما شبه الجزيرة ما كانتا كمينتين ، فلما تفتحتا وانتشرتا ضاقت بانتشارهما ملك الفرس والروم مجتمعين ، فاصطدمتا فلم يكن بدّ من أن تنكش إحداهما حتى تبلغ الأخرى مدى انتشارها . وقد رضى خالد أن يكون القوة التى تنكش ، لى لا يؤدى الصدام إلى تحطيم القوتين

جميعاً . ومن توفيق الله أن حانت ساعة انكشافه بعد أن اطمأن المسلمون بالشام إلى سلطان أقره ، وعدل أقاموه ، وسياسة أحكموها .

أفقرت المسلمون بالشام على نحو ما قرئوا بالعراق ، فاستأثروا فيه بمدن أقاموها كما أقاموا البصرة والكوفة ، ثم انتشروا في سائر أرجائه ؟ كلا ! بل أقاموا بدمشق وحمص وغيرها من المدن الكبيرة فيه ، وشجعوا القبائل التي أسلمت وكانت مقيمة بالحاضر للتصل بهذه المدن على الإقامة معهم بها ، ثم لم ينتشروا فيما وراءها . وقد يبدو هذا عجيباً ؛ ففي الشام الحدائق الغناء ، والأودية المرعة الخصب تكسوها المزارع إلى مدى الأفق ، والجبال الباسقة تجلجل هاماتها الثلوج ناصعة البياض ، والأشجار المثمرة من أعناب وتين وزيتون ، والمياه المتدفقة منحدرة من السفوح المرتفعة إلى المنبسطة السهلة الواسعة . فكيف لم يجذبهم كل ذلك إليه ما جذبتهم أرض العراق ؟ السر في ذلك أن بالعراق من أرض البادية ومن أشجار النخيل ما استهوى نفوساً ألقت النخيل وألقت البادية . والناس أكثر ميلاً لما ألفوا واطمئنأنا إليه . ثم إن أهل العراق كانوا أسرع إلى الإسلام ؛ فكان ذلك أدعى لتوثيق الأواصر بينهم وبين أهل شبه الجزيرة . أما نصارى الشام فاستمسك أكثرهم بادیء الأمر بدينهم ، وأرادوا أداء الجزية أيسر عليهم من تركه ، فظل اختلاف الدين حجاباً بينهم وبين العرب الفاتحين . على أن سياسة الحكم في القطرين لم تختلف ، بل كانت قائمة فيهما على حماية أهل الذمة والتسوية بينهم وإن اختلفت مذاهبهم وأجناسهم ، وأن يكون المسلمون جميعاً سواء فيما فرضه عليهم الدين الجديد ، يؤدون لله حقه ، ويهبون له حياتهم راضين مطمئنين .

أدى استقرار المسلمين بالشام والعراق إلى وحدة الجنس العربي : أما آن لعمر أن يضم هذه الإمبراطورية الناشئة في وحدة تزيد قوة ؟ كان ذلك أكبر رجائه ، بل كان ذلك عزمه الصادق . لكن للأقدار حكماً لا يستقر أمامه عزم . وقد أرادت الأقدار أن تزداد الإمبراطورية سعة ، وأن تزداد رقعتها انفساحاً . وسنرى من بعد ما ينطوى عليه حكم الأقدار في ذلك من موعظة بالغة .

الفصل الرابع عشر

المجاعة والوباء

كان المسلمون بالمدينة وفي شتى الأرجاء من شبه الجزيرة ينعمون بأنبياء النصر الذي حالف جنودهم في العراق والشام ، وبأخماس الفىء ترد إلى الخليفة ، فيقسمها بينهم أعطيات تزيدهم رخاء ، وتنقلهم من شظف البداوة وتقصّتها إلى ما يشبه الحضارة ليناً وطراوة . فقد زادتهم هذه الأعطيات قدرة على أن يبتاعوا من تجارة اليمن والشام ما يشاءون ، وأن يقتنوا من خيرات مصر تجيء إليهم محمولة على السفن ما يجدون في افتنائه متاعاً لم يكن لهم من قبل بمثله عهد . وزادهم ذلك إقبالاً على الحياة وتحمساً للفتح . واستمساكا بالدين القيم الذى يستر لهم نصر الدنيا والآخرة .

ولإنهم لسكذلك ناعمون إذ لجأهم القدر ، في أخريات السنة السابعة عشر طيلة السنة التى تلتها ، بهولين عظيمين ؛ أصابهم أحدهما في موطنهم من شبه الجزيرة ، وأصاب الآخر إخوانهم الجماعدين في الميادين ، فأما أول الهولين فالمجاعة التى انتشرت في بلاد العرب من أقصى جنوبها إلى أقصى الشمال ، والتى دامت تسعة أشهر هلك فيها الزرع والضرع ، والحراث والنسل ، وأصاب الناس منها أشد الجهد والبلاء . وأما الهول الثانى فطاعون عمّواس الذى امتد من الشام إلى العراق ، فأفنى الألوف من خيرة المسلمين ، رجالاً ونساء ، جنداً ومدنيين ، حتى ارتاع له عمر وارتاع له الناس جميعاً أيما ارتياع .

وسبب المجاعة أن أمسك المطر في شبه الجزيرة كلها تسعة أشهر كاملة ، وأن تحركت الطبقات البركانية من أرضها فاحترق سطحها وكل ما عليه من نبات ، فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب ، فإذا تحركت الريح سَفَتَ رماداً . لذا سُمى هذا العام عام الرمادة . ونشأ عن إمساك المطر وهبوب الرياح وهلاك الزرع والضرع جوعٌ أهلك الناس والأنعام ؛ فقد فنى الكثير من قطعان الغنم والماشية ، وجف ما بقى منها ، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبحها رغم جوعه وبلواه . ومن ثم أقفرت الأسواق فلم يبق فيها ما يباع

ويشترى ، وأصبحت الأموال في أيدي أصحابها لا قيمة لها ، إذ لا يجدون لقاءها ما يسدّ رمقهم . وطال الجهد واشتد البلاء ، فكان الناس يحفرون أنفاق اليرابيع والجُرذان يخرجون ما فيها .

كان أهل المدينة أحسن من غيرهم حالاً أول العهد بالحجاة . فالمدينة حضر آخر أهلها حين الرخاء ما اعتاد أهل الحضر ادخاره ، فلما بدأ الجذب جعلوا يخرجون ما ذخروا يعيشون منه . أما أهل البادية فلم يكن لهم مُدَّخَرٌ فاشتد بهم السكرب من أول الأمر . ثم إنهم هرعوا إلى المدينة يجأرون إلى أمير المؤمنين بالشكوى ، ويلتمسون لدى أهلها فتناً يقيمهم . وازداد هؤلاء اللاجئين عدداً فضاقت بهم المدينة ، واشتد بأهلها البلاء ، فصاروا في مثل حال أهل البادية جذباً وجوعاً .

ماذا يصنع عمر بنفسه ؟ وماذا يصنع بهؤلاء الجياع ، لقد كان بيت المال في يده ، وكان في مقدور عماله بالعراق والشام أن يبعثوا إليه ما يُبقي به على نظام عيشه قبل الحجاة ، ثم كان له من العذر لو أنه فعل ، أن تبعته كانت تقتضيه ألا يبلغ من الحمل على نفسه والقسوة بها فبنوء به الجهد عن رعاية سائر المسلمين ولكن تصرفه في هذا الموقف كان مثلاً رائعاً يحذر بكل من ولى الأمر في أمة أن يعرفه وأن يحتذبه .

حدث بعد ما اشتدت الحجاة أن جرى عمر بنخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلاً بدويّاً فأكل معه فجعل البدويّ يتبّع باللقمة الودك إلى جانب الصفحة ، فقال له عمر : كأنك مقفر من الودك ؟ وأجابه الرجل : أجل ! ما أكلت سمناً ولا زيتاً ولا رأيت آكلًا له منذ كذا وكذا إلى اليوم . فحلف عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس ، وظل على هذا العهد حتى أذن الله فعاد المطر وزال عن الناس الجذب

وقد كان جاداً في هذا العهد كل الجدّ . قدّمت السوق عُكَّةً من سمن ووطب من لبن ، فاشتراها غلام له بأربعين درهماً ، وذهب إليه الغلام فقال له : قد أبر الله يمينك وعظم أجرك . قدّم السوق وطب من لبن وعكّة من سمن فابتعتها بأربعين . قال عمر : أغليت فتصدّق بهما فإنّي أكره أن آكل إسرافاً . وأطرق هنيهة ثم قال : كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يسنى ما يسهم ! ! .

حكمة ما أعظمها وما أجلبها لذاتها، وهي أكثر عظمة وجلالا إذ تصدر من رجل اجتمع له يومئذ من ملك كسرى وملك قيصر وما كان المسلمون يفاخرون به فارس والروم والعالم كله : اجتمع له العراق والشام وما فيها من خير نعمة . وقد كان عمر قديراً يومئذ أن يجمع من ترف الفرس ونعيم الروم ما شاء . لكنه كان يرى النعيم تعلقاً بالدنيا، والترف مَضَلَّة لصاحبه ، فما عليهما ابتغاء الآخرة وابتغاء وجه الله ورضاه . وكان يرى أنه، وهو أمير المؤمنين ، لا يمكن أن يعنيه شأن الرعية إذا لم يشعر بما يشعر به أكثرهم فقراً وإملاقاً ، ليسارع إلى القضاء على الفقر وعلى الإملاق . رآه الناس عام الرمادة وقد اسودَّ لونه وكان أبيض مشرباً بحمرة؛ ذلك أنه كان يأكل السمن واللبن والالحم، فلما أحل الناس حرماً على نفسه وأكل بالزيت ، وأكثر من الجوع ، حتى كان الناس يقولون وقد رأوا ما أصابه : لو لم يرفع الله الحبل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين .

والواقع أنه اهتم بأمرهم وبذل في سبيلهم كل جهده . كتب إلى عماله في العراق والشام يستنجدهم لغياث أهلهم في شبه الجزيرة . وكانت عبارته إلى هؤلاء العمال صادرة من قلبه ، تشهد بسمو تقديره لتبعية ، وعظيم شعوره بأنه مسئول أمام الله وأمام ضميره عن كل فرد من رعيته . كتب إلى عمرو بن العاص بفلسطين يقول : « سلام عليك ! أما بعد ، أفتراني هالكا ومن قبلي ، وتعيش أنت ومن قبلك ! فيا غوثاه ! يا غوثاه ! يا غوثاه ! » وأجابه عمرو : « أما بعد ، فليث . لأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي . » وبعث عمر بمثل هذا الكتاب إلى معاوية بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح بالشام، وإلى سعد بن أبي وقاص بالعراق ، فأجابوه جميعاً بنحو مما أجاب به عمرو بن العاص .

وكان أبو عبيدة بن الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمرو غيائاً لأهل شبه الجزيرة؛ سبقهم جميعاً فقدم في أربعة آلاف راحلة محملة طعاماً ، فولاه عمر قسمته فيمن حول المدينة . فلما فرغ من ذلك أمر له عمر بأربعة آلاف درهم؛ فقال : لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين ! إنما أردت الله وما قبله ، فلا تدخل على الدنيا ! لكن عمر أجابه : خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلبها . وإني قد وليت لرسول الله مثل هذا فأعطاني بعد أن قلت له مثل ما قلت لي . وقبض أبو عبيدة المال وانصرف إلى عمله .

وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل وفي السفن ثغر أَيْلَة^(١) .
بعث في البحر عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك . وبعث في البر ألف بعير تحمل الدقيق .
وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير من الشام . وبعث سعد بن أبي وقاص
ألف بعير من العراق تحمل كلها الدقيق ، هذا خلا خمسة آلاف كساء أرسلها عمرو ،
وثلاثة آلاف عباءة أرسلها معاوية .

وولّى عمر من يطعم الناس ويكسوهم في أمصار المملكة وباديتها ، وتولّى هو بنفسه
إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليهم من العرب . وانصرف رسله إلى أرجاء شبه الجزيرة
يخففون عن الناس بلاهم ، فلقى الموكلون بالتوزيع ما بعث به سعد بن أبي وقاص من
الأقوات عند أفواه العراق ، فأقاموا ينحرون للناس الجُزُرَ ويطعمونهم الدقيق ويلبسونهم
العباء حتى رفع الله البلاء . وكذلك فعل الرسل ما بين مكة والمدينة . وقال عمر لرسوله
الذي بعثه يلقي غير الشام : « أما ما لقيت من الطعام فإلّ به إلى أهل البادية . فأما الظروف
فاجعلها لحفاً يلبسونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحملون من ودكها
ولا تنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا . وأما الدقيق فيصطفعون ويحرزون حتى يأتي
أمر الله بالفرج » .

تولّى عمر إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليهم ، فكان يأدم الخبز بالزيت يجعله
ثريداً ، وينحر بين الأيام الجزور فيجعلها على الثريد ، ويأكل مع القوم مما يأكلون .
فلما أقبلت الإبل من العراق والشام كان ينحر على مائدته كل يوم عشرين جزوراً يطعمها
الناس ، وكان له عيون يجتمعون عنده إذا أمسوا فيخبرونه بكل ما رأوه يومهم . وأمر
ليلة بعد أن فرغ الناس من العشاء بإحصاء الذين طعموا على موائده فكانوا سبعة آلاف
رجل . وأحصيت العيالات التي لم تأت والمرضى والصبيان فكانوا أربعين ألفاً . وزاد
هؤلاء وأولئك بعد أيام فكان الذين تغشوا عنده عشرة آلاف والآخرين خمسين ألفاً .
وكان العمال يقدّمون في السّحر إلى قدور عمر فيعملون حتى يصبحوا ، ثم توزّع العصيدة
ويوزّع اللحم على المرضى والصبيان والعيالات ممن لا يبالون طعامهم على موائد أمير المؤمنين .

(١) أَيْلَة هي العقبة اليوم .

وكان عمر يتعهد هؤلاء جميعاً بنفسه ليطمئن إلى أنهم حصلوا على ما يدفع عنهم غائلة الجوع . وكان يرسل الدقيق والتمر والاذم إلى منازل القادرين على تهيتها لغذائهم شهراً بشهر ؛ يوزع ذلك عليهم في نظام يشبه نظام « البطاقات » أيام الحروب في عهدنا الحاضر ، يزيد فيه وينقص منه على قدر ما عنده . وكان لذلك يقول : « لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسمهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحليا فملت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم ^(١) » .

مع هذه العناية من عمر بالعرب جميعاً فشا المرض في الناس ، وهلك منهم كثيرون ، فكان يتعهد المرضى ، ويبعث بالأوكافان لمن مات ويصلي عليهم . وقد استطاع خلال الأشهر التسعة التي قاسى الناس فيها هول الكارثة أن يخفف منها ما قدر أمراء الأنصار على إمداده . فلما قصرت مواردهم ازداد في شبه الجزيرة المرض والموت وبلغ الهول منهم أشده ، فلم يجد عمر ملجأ من الله إلا إليه . لقد كان طيلة هذه الأشهر التسعة يصلي بالناس العشاء ثم يدخل إلى بيته فلا يزال يصلي حتى آخر الليل ، ضارعاً إلى الله ألا يجعل هلاك الأمة على يديه . فلما لم يستجب ربه دعاءه ، ولم تسعف السماء الناس بمطر ، عزم على أن يستسقى ، فكتب إلى عماله أن يخرجوا بالناس في يوم عتيه ، وأن يتضرعوا إلى ربهم أن يرفع الحجل عنهم ، وخرج هو بالناس ذلك اليوم وعليه بُرد رسول الله ، فلما انتهى إلى المصلى تضرع وتضرع الناس وألحوا في الدعاء ، وبكى عمر بكاء طويلاً حتى أخضل لحيته . وكان العباس بن عبد المطلب قائماً إلى جنبه ، فأخذ عمر بيده ورفع رأسه إلى السماء وقال : « اللهم إنا نستشفع بعم رسولك إليك ! » ، ودعا العباس ربه وعيناه تهلان . وأقام الناس يدعون ربهم تضرعاً وخشية وقد أيقنوا الموت إن لم يسعفهم الله بالمطر .

(١) أورد ابن سعد في الطبقات روايات كثيرة عن عناية عمر بالناس وقسوته على نفسه وأولاده . من ذلك أنه أنى يلجم فيه سمن فأبى أن يأكله وقال : كل واحد منهما آدم . واستسقى رجلاً فأتاه بمسل فرده وقال : والله لا يكون فها أحاسب به يوم القيامة ! ورأى بطيخة في يد بعض ولده فقال : بخ ، بخ ، يا ابن أمير المؤمنين ! تأكل الفاكمة وأمة محمد هزلى ! فخرج الصبي هارباً يبكي فسكت عمر بعد ما علم أنه اشتراها بكف من توى . ومر عام الرمادة على امرأة وهى تعصد العصيدة فقال : ليس هكذا ، فأخذ المسوط فإراها . ورآه أبو هريرة يحمل جرايين وعكة زيت فرأى قوماً مستئين فطبخ لهم حتى شبعوا . الخ . الخ .

واستجاب الله لعباده المؤمنين الذين صدقوه ما عاهدوا عليه ؛ إن الله بعباده لرءوف رحيم .
استجاب الله لعباده ، ففتح أبواب السماء بماء منهمر وسيل دافق . وسرعان ما رُبَّتِ
الأرض واخضرت ، فلم يبق للأعراب الذين قدموا المدينة أن يقيموا بها . لذلك جعل عمر
يسير بينهم يقول : أخرجوا ! أخرجوا ! إلحقوا ببلادكم ! يخشى أن يظل منهم بالمدينة من
يظنها ألين عيشاً . بل إنه وكل بهؤلاء الأعراب من يُخرجونهم إلى باديتهم ويعطونهم
قوتاً ومُحلاًّ تبليغهم منازلهم ، ثم كان يُخرج بنفسه من يحتاج خروجهم إلى أمره . فلما
بلغوا مساكنهم عادوا إلى مألوف حياتهم ، وإن لم يجدوا من أعطيات الفئ ما يرفقه عنهم ؛
فقد شغل عمر بهذه الجماعة في شبه الجزيرة فشدد أوامره إلى جنده ألا يقاتلوا عدوهم
إلا إذا أكرهوا دفاعاً عن أنفسهم .

لم يبعث عمر جُباته عام الرمادة ليقبضوا الزكاة ، بل أخرهم إلى أن ارتفع الجذب .
فلما اطمأن الناس إلى العيش وكثرت عندهم مادته ، أمر الجباة أن يسيروا إليهم وأن يأخذوا
من كل قادر حصتين : حصّة عن عام الرمادة ، وأخرى عن العام الذي بعده ، وأن يقسموا
إحدى الحصتين على المعوزين ، ويقدموا عليه بالثانية . بذلك زاد في تخفيف الفقر عن
الفقراء ثم لم يُرهق ولم يحملهم ما لا طاقة لهم به .

يحذر بنا أن نفق هنيهة هاهنا ننظر في سياسة عمر كما تجلوها تصرفاته أثناء هذه الشدة
التي أصابته وأصابت قومه . ولستأ نريد بوقفنا أن نبدي ما تثيره هذه التصرفات
في النفس من إعجاب بعمر وإكبار له ، وإنما نريد أن نستشف من هذه التصرفات
فكرة مجملّة عن صورة الحكم كما ارتسمت في ذهن رجل ألقى عليه الأقدار أن يكون
أول بادی بتفصيل نظام الحكم في الجماعة الإسلامية . وأشد هذه التصرفات أخذاً بالظفر
حملُ عمر على نفسه وقسوته عليها ، وأنه لم يكن يحمل عليها رغبة عن الطيبات مما رزق الله ،
فالإسلام لا يدعو للرغبة عنها ، وإعما كان يفعل ليشعر بشعور الضعفاء والمعوزين
وذوى الحاجة . وذلك قوله : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنني ما يمسنهم ! » .
لذلك نزل بعيشه إلى مستوى حياة الفقراء الذين لم يكونوا يجدون إلا مائدته يجلسون
إليها مع الألو من الجائعين لينالوا ما يُبقى عليهم الحياة ، فكان يأكل معهم ولا يرضى

أن يتناول طعامه في بيته حتى لا يظن أحد أنه يُؤثر نفسه بشيء لا يناله ذو الفاقة من قومه . وقد حقق بتصرفه هذا غرضين جليلين : أولهما الشعور بألم الناس شعوراً يدفعه إلى مضاعفة الجهد في العناية بهم والعمل لرفع الضر عنهم ؛ والثاني طمأنينة السواد إلى أن أمير المؤمنين يشاركهم في بأسائهم وضرائهم ، فلا تثور نفوسهم ، بل يظنون راضين بكل ما يصيبهم ، لأن أكبر رجل في الدولة يشاركهم فيه . وقد بلغ عمر من هذين الغرضين خير ما يبلغه حاكم في أية أمة من الأمم .

كان عمر إذاً يرى أن أول واجب على ولي الأمر أن يجعل حياته في مستوى الحياة لجمهور الشعب . لكنه كان يرى كذلك أن يدع القادرين على تدمير المال واستغلال الأرض يستمتعون بطيبات الرزق ، ليزيدهم المتاع بها حرصاً على إتقان العمل وسعيًا لزيادة خيراته ومضاعفة ثمراته . بذلك يزداد جمهور الشعب لولئ الأمر حباً ، وبسياسته تعلقاً ، وعلى التضحية في سبيل هذه السياسة إقبالاً ؛ وتزداد مكانة ولي الأمر في نظر القادرين وذوى المسكنة سموًا إذ يرون تعلق الشعب به ومحبة له ، فلا يدور بخلد أحدهم أن يناوئه أو يخرج عليه ؛ ثم تزداد أواصر الود بين طبقات الشعب المختلفة تمكيناً ، لأن ولي الأمر يقوم من هذه الطبقات مقام القلب من جسم الإنسان ، يوزع بينهما أسباب الحياة بالتقسط ، ويوجهها جميعاً للخير العام .

لم تسكد المجاعة تنقضى ويرفع الله عن الناس الضر حتى روعهم النبأ بانتشار الوباء في الشام وامتداده إلى العراق . فقد فشا الطاعون في عمواس من أرض فلسطين ، ثم انتقلت عدواه إلى الشام ، فجعل يفتك بكل من يصابون به فتكا ذريعاً مزججاً . لم يكن الواحد منهم يكاد يُطعن حتى يدركه الموت ، وأكثر الذين كانوا يُطعمون ! و طال هذا الوباء شهراً هلك أثناءها من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً ، فيهم من أكابر الناس وأشرفهم عدد غير قليل ؛ منهم أبو عبيدة بن الجراح ، ومُعَاذ بن جبل ، ويزيد بن أبي سفيان ، والحارث بن هشام ، وسُهَيْل بن عمرو ، وعتبة بن سهيل ، وغيرهم ممن في طبقتهم . وكان الحارث بن هشام قد خرج من المدينة إلى الشام في سبعين من أهل بيته فاتوا جميعاً لم يبق منهم إلا أربعة . وقيل إن أربعين من ولد خالد بن الوليد ماتوا في هذا الطاعون الذي انتشر

في الجند كما انتشر بين المدنيين ، فأفزع الناس وأخافهم عواقبه . فلو أن أعداءهم حاولوا العود إليهم لعجزوا هم عن مقاومتهم . لكن الروم أشفقوا من الوباء أن يصيبهم منه ما أصاب المسلمين ، فلم يفكروا في الرجعة إليهم خوفاً على أنفسهم من هذا الهول الذي فدح عدوهم . لم تكن أنباء هذا الوباء مزعجة أول انتشاره . وكان عمر قد أزمع الذهاب إلى الشام ينظّم شأنه بعد ما تم فتحه وسار من المدينة ، حتى إذا بلغ سرغ على مقربة من تبوك لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حَسَنَة فأخبروه أن الأرض سقيمة ، وذكروا له طرفاً من أنباء الطاعون وشدة إصابته . وراع عمر ما سمعه منهم ، فلما أمسى جمع المهاجرين الأولين يستشيرهم : أيتابع طريقه إلى الشام مع ما فيها من وباء أم يعود أدراجه إلى المدينة ؟ واختلف رأيهم ، فمن قائل : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ؛ ومن قائل : إنه لبلاء وفناء مانزى أن تقدم عليه واختلف الأنصار كما اختلف المهاجرون كأنما سمعوا قولهم فأعادوه . هنالك جمع عمر مهاجرة الفتح من قریش فاستشارهم ، فلم يختلف عليه اثنان ، بل قالوا جميعاً : رجع بالناس فإنه بلاء وفناء . وأمر عمر فنأدى ابن عباس في الناس ليعتدوا رواحلهم متى أصبحوا . فلما صلاوا الصبح التفت عمر إليهم وقال : إني راجع فارجعوا .

لم يكن أبو عبيدة حاضراً مشاورات عمر وما انتهى إليه من رأى ، فلما عرف ذلك قال له : « أفراراً من قدر الله يا عمر ! » ودهش الخليفة لهذا الاعتراض ، ونظر ملياً إلى أبي عبيدة ثم قال : « لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ! نعم ! فراراً من قدر الله إلى قدر الله . وأطرق هنيهة ثم أردف ، « رأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان إحداها خصبية والأخرى جدية ، أليس يرعى من رعى الجدية بقدر الله ، ويرعى من رعى الخصبية بقدر الله ! » .

خلا عمر بأبي عبيدة بعد هذا الحديث يتذاكران في شؤون الشام وفيما يجب أن يُقابل الوباء به . وإنهما لفي حديثهما إذا أقبل عبد الرحمن بن عوف فرأى الناس في هرج ، فسألهم ما شأنهم ، فلما أخبروه الخبر قال : عندي من هذا علم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم بهذا الوباء ببلا فلا تقدّموا عليه ، وإذا وقع وأتم به فلا تخرجوا فراراً منه . واطمأن عمر لهذا الحديث وقال : الحمد لله ، انصبروا أيها الناس ! .

وعاد عمر بالناس إلى المدينة ، وعاد أسراء الأجناد ومن معهم إلى أعمالهم . وجعل عمر يفكر في أسر المسلمين بالشام وفيما دهاهم من فتك الطاعون ، فأخذته الشفقة بأبي عبيدة أن يصاب به وأن يتوفى منه . وكان عمر يرجو أن يطول بأبي عبيدة العمر ليخلفه على إمارة المؤمنين . أليس أبو بكر قد دعا الناس لمبايعة أحد الرجلين : أبي عبيدة أو عمر ، فبايع الناس أبا بكر ، ثم تابعوا عمرًا ؛ فخير به أن يستخلف أبا عبيدة وأن يدعوا الناس لمبايعته ؛ فإذا توفى في الطاعون فمن ذا ترى عمر يستخلف ؟ هذا إلى أن عمر كان يحب أبا عبيدة أصدق الحب ، ويضعه في أسنى مكان من نفسه ، ولذا فكر في إبعاده عن الشام لاستخراجه من الوباء . لكنه كان يعرف ما انطوت عليه نفس صاحبه من صدق الإيمان بالله وبفكرة الواجب ، وأنه لن يدع رجاله بالشام فراراً بنفسه من قدر الله ، فكتب إليه فلم يشر إلى شيء مما دار بنفسه ، بل قال له : « أما بعد ، فإنني قد عرضتُ لى إليك حاجة أريد أن أشفئك فيها فعزمت إليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلي » . وقرأ أبو عبيدة الكتاب فأدرك مراد عمر ، وأنه إنما حرص على أن يستخرجه من الوباء ، فقال : يغفر الله لأمر المؤمنين ! ثم كتب إليه : « إني قد عرفت حاجتك إلي ، وإني في جنده من المسلمين لأجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فيهم أمره وقضاءه . فخلاني من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعني في جندي » . وقرأ عمر هذا الكتاب فبكى ، فسأله من حوله : أ مات أبو عبيدة ؟ فأجاب ولا يزال الدمع آخذاً بخناقه : « لا ! وكان قد » .

وددت لو أنى وقفت عند كلمة عمر حين اعترض أبو عبيدة عوده إلى المدينة بقوله : أفراراً من قدر الله . وأود لو أقف الآن عند هذين الكتابين اللذين تبادلما عمر وأبو عبيدة . ففي كلمة عمر وفي الكتابين ما يجلو لنا صفحة من حياة ذلك العصر فيها عناصر قوته وأسباب انفساح الإمبراطورية الإسلامية فيه . لكنني أؤثر أن أقص ما حدث إلى أن رفع الله البلاء وإلى أن عادت الحياة في الشام سيرتها الطبيعية ، فذلك يزيد هذه الصفحة جلاء ، ويكشف عن تفكير المسلمين الأولين من أصحاب رسول الله ، وعن حريتهم في هذا التفكير وعدم تقيدهم إلا بالحق يملك عليهم بصائرهم ، ويهديهم الله إليه على علم .

قرأ عمر كتاب أبي عبيدة فسكى ، وأخذ يفكر في الوسيلة لإنقاذ أهل الشام مما نزل بهم ، وشاور أهل الرأي ، ثم كتب إلى أبي عبيدة يقول : « إنك أنزلت الناس أرضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة » . وإن أبا عبيدة ليفكر في تنفيذ هذا الأمر إذ طعن فأت ، خلفه معاذ ابن جبل ، فطعن ابنه ثم طعن هو وماتا جميعاً . واستخلف معاذ عمرو بن العاص فخطب الناس فقال : إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتمل اشتعال النار فتحصنوا منه في الجبال . ثم خرج وخرج الناس ففترقوا في المرتفعات ، فأذهب ذلك شدة الوباء وانتهى بزواله . وبلغت عمر مقالة ابن العاص فلم يكرهها ، بل رأى فيها تنفيذاً للأمر الذي بعث به إلى أبي عبيدة .

مألة هذا الوباء ؟ وإلى أى سبب يرجع ؟ ليس فيما لدينا من الروايات ما يحلو لنا هذه العلة ، ويكشف لنا عن سبب نطمئن إليه ونقتنع به . وإن بعض التأخرين ليذهبون إلى أن طاعون عمواس نجم عن كثرة القتلى في الليادين كثرة تعذر معها دفن أكثرهم ، فأثار ذلك في الجو من الميكروبات ما كان سبب الوباء أما المتقدمون من المؤرخين فيردون سببه إلى غضب من الله استنزله أبو عبيدة على أهل الشام لشرب جماعة من المسلمين فيه الخمر . فقد كتب إلى عمر : « إن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب ، فسألناهم فتأولوا وقالوا خيراً فاخترنا ، قال : فهل أنتم منتهون ولم يعزم علينا » . ولم يكن القرآن قد نص على حد الخمر ، ولم يحدد رسول الله ولا حد أبو بكر شارباً لها . لذلك جمع عمر أصحاب الرأي بالمدينة ، وقص عليهم ما جاء في كتاب أبي عبيدة ، فرأوا أن عبارة القرآن : « فَمَنْ أَهْلَكْتُمْ مُمْتَهِنُونَ » ، تعنى الأمر ، أى فانتهاوا ، وأجمعوا على أن يضرب الذين شربوها ثمانين جلدة وأن يفسقوا^(١) . وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعهم ، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم ، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين . ودعاهم أبو عبيدة وسألهم على رموس الناس ، فقالوا : إن الخمر حرام ، فجلدهم ثمانين ثمانين وقال : ليحدثن فيكم بأهل الشادم حادث ، فكان الطاعون .

(١) تجرى طائفة من الروايات بأن عمر بن الخطاب استشار في الخمر يشرها الرجل ، فأشار على ابن أبي طالب بأن يحد حد القذف فيضرب ثمانين ، وقال في تعليل ذلك : إن الرجل إذا شربها سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افتري . وأخذ عمر بهذا الرأي فجعل في الخمر ثمانين — راجع الموطأ ص ٣١١ .

وأحسب الأكثرين اليوم يؤثرون رأى المتأخرين أو مايمائله ، ولا يرون دعاء
أبي عبيدة على أهل الشام سبب الوباء . وقد سقت الكلمة التي نسبت إلى أبي عبيدة
وإننى لنى ريب من صدورها عنه . فما كان له أن يرجو هذا البلاء الماحق لأهل الشام
جميعاً لغير شيء إلا أن بعضهم شرب الخمر . فما أكثر ما يرتكب الناس من آثام أعظم
من أم الكبائر ثم لا يرسل الله عليهم البلاء حاصداً يصيب المذنب والبريء ! وأبو عبيدة
رجل رفيق الطبع شديد الإيمان ، أبر بمن يسوسهم من أن تصدر عنه هذه الكلمة .
مابالك وفيمن يسوسهم من الجند من رأيت من وفائه لهم ما يشهد به كتابه لعمر حين
دعاه إلى المدينة ليستخرجه من الطاعون ! على أن ربنا فى صدور هذه الكلمة من
أبي عبيدة لا ينفى أن قوماً شربوا الخمر ، فلما سألهم تأولوا قوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْتَهُونَ » ، وأنه رفع أمرهم إلى عمر ثم أوقع عليهم الحد تنفيذاً لأمر الخليفة . فتواتر
الرواية بهذا الحادث وتنفيذ الحد فى عهد عمر ومن بعده يقطع بصحتها . وهى تتفق
وما حدث فى حياة النبی حين دعا عمر الله أن يبين لهم فى الخمر ، وأن يبين لهم فيها بياناً
شافياً ، لأنها تذهب العقل والمال . لا عجب وذلك شأنه أن يقسو على شاربها وأن يضع
لها الحد وأن يقيمه فى خلافته ، فيقام من بعده على أنه من حدود الله .

وأياً ما كان سبب الوباء فقد أدى تفرق الناس فى المرتفات ، استجابة لدعاء عمرو
ابن العاص ، إلى ذهاب شدته ثم إلى زواله بعد أن أفنى من المسلمين بالشام خمسة وعشرين
ألفاً ، وبعد أن انتقل من الشام إلى العراق ففتك فيه بأهل البصرة أشد مما فتك بغيرهم .
وكان أهل البصرة من خيرة جند المسلمين . مع ذلك لم يفكر يزدجرد فى استرداد العراق
أكثر مما فكر هرقل فى استرداد فلسطين أو الشام ؛ فقد خشى ما خشي هرقل أن يصاب
جنوده بالوباء وأن ينتقل معهم إلى أرض فارس ، فتكون الطامة شرّاً من الحرب وآثارها .
كيف يواجه عمر الموقف بعد أن زال الوباء ؟ إنه إن يترك الشام على حاله بعد فناء من
فنى من المسلمين ، وبعد أن مات من جندهم به عدد عظيم ، يتعرض الفتح فيه لعواقب
لا يرضاها . فقد يفكر الروم فى القدوم إليه يحاولون استرداده . ثم إن النظام الاقتصادى
فيه قد شابه اضطراب سببته موارث الذين ماتوا ، وهو لا يأمن أن يثير توزيع التركات

مآثرات بين المسلمين أنفسهم . فليس له إلا أن يذهب بنفسه ، فينظر في ذلك كله ويضع كل أمر في نصابه . لذا فصل من المدينة في جماعة من الصحابة وخلف عليها ، واتخذ الطريق إلى أيلة . فلما بلغها دفع إلى أسقفها قميصاً له قد انجذب مؤخره عن مقدمه من طول السير ، وقال له : اغسل هذا وارقه . وغسل الأسقف القميص ورقعه ، وخاط قميصاً آخر مثله ، وعاد بالقميصين إلى عمر وقال له : أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته ، وأما هذا فمكسوة لك مني . فلبس عمر قميصه وردّ الآخر وقال : هذا أنشفهما للعرق .

وسار عمر من أيلة فنزل الجابية فجاءها مقررّه . وذكر له عماله بالشام وفلسطين ما كان من أمر المسلمين وما نزل بهم ، فزار بلاد سورية جميعها ، وتفقد شؤون المسلمين في شتى أرجائها ، وبذل لهم ، ورتب منازلهم بدمشق وحص وسائر المدن التي بلغ فيها فتك الوباء أشده . ثم إنه نظم ثغور الشام ومسالحه ، وأعاد توزيع القوات في كوره ، وسعى الرجال الذين عيّنهم عليها ، فلما فرغ من ذلك قسم الموارد ، فورث بعض الورثة من بعض ، وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم . بذلك استقر كل أمر في نصابه ، وعاد كل شيء إلى نظامه ، واطمأن الناس بعد طول الفزع ، ولم يفكر الروم في الرجعة إلى الشام .

وكان عمر حين جاءه النبا بموت أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان قد ولّى مكانهما شرحبيل بن حسنة ومعاوية بن أبي سفيان . فلما كان بالجابية عزل شرحبيل عن عمله . وسأله شرحبيل : أعزّله عن سخطه ؟ فقال : لا ! إنك لكا أحب ، ولكنني أريد رجلاً أقوى من رجل . قال شرحبيل : فاعذرني في الناس لا تدركني هُجْنَة . فقام عمر فقال : « أيها الناس ! إني والله ما عزلت شرحبيل عن سخطه ، ولكنني أردت رجلاً أقوى من رجل » . والحق أن شرحبيل كان قائداً قادراً حسن المداورة بالجيش ، لكنه لم يكن رجلاً سياسة يعرف كيف يوجّه الناس إلى أغراضه القريبة والبعيدة . أما معاوية فكان على شبابه سياسياً محنكاً ذا بصر بموارد الأمور ومصادرهما .

ولما قفل عمر من رحلته بالشام إلى الجابية يريد المدينة خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « ألا إني قد وليت عليكم ، وقضيت الذي عليّ في الذي ولّاني الله من أمركم إن شاء الله . قسطنا بينكم قنأكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا مآلديكم فحُبِّدْنَا لَكُمْ الجنود

وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيؤكم وماقاتلتم عليه من شأنكم ،
وسميناكم أطاعكم ، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم . فمن علم شيء ينبغي
العمل به فبإذننا ، نعمل به إن شاء الله .

وحضرت الصلاة وكان عمر قد أزمع الرحيل بعدها ، فقال له الناس : لو أمرت بلالاً
فأذن ! وكان بلال قد انقطع عن الأذان منذ قبض رسول الله ، فأراد الناس سماعه بعد
إذ رفع الله عنهم البلاء ، ليدذكروا نعمته جل شأنه ، إذ أرسل رسوله إليهم فهداهم
للإسلام وأورثهم الأرض ووطد لهم أكنافها وأذل لهم الفرس والروم ؛ فلما أصابهم الضر
رفعه عنهم ولم ينزل به نعمته عليهم . وأذن بلال بصوته الندى لم تغير منه السنون ، فأحيا
في نفوس الذين أدرکوا رسول الله عهداً كانوا يقفون فيه وراءه صلى الله عليه وسلم صفوفاً
متراصة يصلى بهم ، ثم يحدثهم فيزيدهم هدى ، فلم يبق من هؤلاء واحد إلا بكى حتى
بللت دموعه لحيته . وبكى من يدرك النبي لبكائهم ، كان عمر أشدهم بكاءً لأنه كان
أكثرهم لفضل الله ولفضل رسوله ذكراً . ولقد ظل هذا النداء للصلاة ، أرسله مؤذن
النبي للمرة الأولى والأخيرة في جوالشام على مقربة من بيت المقدس ، علماً في التاريخ على
فتح المسلمين هذه البلاد ، واستقرار الإسلام فيها ، وفراره بها إلى يوم الدين . لذلك
لا ينسى مؤرخ أن يذكره ، فهو لذاته نصر من الله وفتح مبين .

ودع عمر أهل الشام وعاد إلى المدينة وقد استقر عزمه على أن يزور العراق . لكن
الله لم يشأ له أن يزوره . وقيل إنه كان أزمع الذهاب إلى العراق قبل مسيرته إلى الشام ،
فإذا بلغ شماله انحدر إلى حلب ودمشق من الفراض ، فصرفه كعب الأخبار عن عزمه
وجعله يبدأ بالشام ، فكانت رحلته إليه آخر رحلة خارج شبه الجزيرة^(١) .

(١) تجرى بعض الروايات بأن كعب الأخبار خالف على بن أبي طالب عن رأيه في العراق . قيل
إن عمر دعا الناس فذكر لهم أنه بدا له أن يطوف على المسلمين في بلدانهم وينظر في آناهم وأنه استشارهم
في ذلك . وسأله كعب الأخبار بايها يريد أن يبدأ ، قال عمر : بالعراق ؛ فقال كعب : لا تفعل فإن الشر
عشرة أجزاء تسعة منها بالشرق وجزء بالمغرب ؛ وبالشرق قرن الشيطان وكل داء عضال . وقال على
ابن أبي طالب : يا أمير المؤمنين ، إن الكوفة للهجرة بعد الهجرة ولانها لقبه الإسلام . ليأتينها يوم لا يبقى
مسلم إلا حن إليها . قال عمر : إن موارث أهل عمواس قد ضاعت . فابداً بالشام لقسم الموارث ، وأقيم =

أما وقد فرغنا من حديث عمّواس وطاحونها وموقف عمر منه ، فلنتحدث عن دلالة ماوقع فيه على حرية المساهمين العقلية لذلك العهد ، وعمّا انطوت هذه الحرية عليه من عناصر القوة ، وكيف فتحت لهم أبواب الإمبراطورية العظيمة التي ظلت تزداد على الأيام فسحة وعظّة حتى غير المسلمون ما بأنفسهم فغير الله ما بهم .

لما سار عمر يريد الشام فلقبه أمراء الأجناد بسرغ وذكروا له أن الأرض سقيمة فأمر الناس بالعود إلى المدينة ، اعترضه أبو عبيدة بن الجراح بقوله : « أفراراً من قدر الله يا عمر ! » فقال : « نعم ! فراراً من قدر الله إلى قدر الله » . وهذا الاعتراض وهذا الجواب يصوران التفكير القدرى وماوقع عليه من خلاف لا يزال قائماً إلى اليوم . ونحسب كلمة عمر أدق تصويراً للقدرية الإسلامية . فابن الجراح والذين أشاروا على عمر بالسير إلى الشام وقالوا له : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدّك عنه بلاء عرض لك — هؤلاء إذ يؤمنون بأننا لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وبأن لكل أجل كتاباً فإذا جاء أجلهم فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون ، يرون أن تفكيرنا أقصر من أن يردّ عادية القدر عنا ، فإذا اعتزمنا أمراً وجب لذلك علينا أن نغض الطرف عن كل ماسواه ، وأن نمضى قدماً في سبيله ، لا يصدّنا دونه بلاء يعرض أو عقبة تقوم . وهذا الرأي يؤمن به أمراء الجند مصدر قوة ليس كمثلها قوة . والجندى الذى يؤمن بالله مكفول له النصر لا محالة . فأقول ما يقضى به الإيمان الصحيح ألا يهاب الجندى الموت ، وأن يُقدّم عليه مغتبطاً به ، فإن استشهد فى سبيل الله وفى سبيل الوطن وفى سبيل القضية التي ينصرها ، وإن ظفر فعاش كان ذلك له فجر الأبد . وإيمان الجند بهذا الرأي هو الذى نصر المسلمين فى مختلف الميادين ؛ لأنهم آثروا الشهادة فى سبيل الله ، فوهب لهم الله حياة كرامة وعزة . لكن القدرية بهذا المعنى العظيم الأثر فى حياة الجندى لا يمكن أن تكون القدرية كما يجب أن يفهمها السيامى المستول عن مصالح الناس ومصيرهم فى الحرب وفى غير الحرب ، وكما يجب أن يفهمها الفكر الذى يقلّب الأمور على وجوهها وينظر فيها من كل نواحيها .

== لهم ما فى نفسى ، ثم أرجع فانقلب فى البلاد وأبدى لهم أمرى . ويرى بعض النقاد أن العبارة المنسوبة لعلى بن أبى طالب إنما نسبت إليه لتتفق مع ما حدث من بعد حين اتخاذه الكوفة عاصمته ، وأنه لم يكن ليفرق بين الشام والعراق . كما يرون أن الرواية المنسوبة لكتب الأبحار مستحدثة هي أيضاً .

فصحيح أن لكل أجل كتاباً ، وأن تفكيرنا أقصر من أن يردَّ عادة القدر عنا . لكننا يجب مع ذلك أن ننظر في الأمور وأن نتدبَّرها لنُحسن التصرف فيها إلى غاية ما يهدينا إليه علمنا وعقلنا . وما يهدينا إليه العقل والعلم وحسن التفكير هو من قدر الله ، كما أن إقدام الجندى على الموت في ميدان القتال وما يصيبه نتيجة هذا الإقدام هو من قدر الله . وأول واجب على أمير الجند ألا يُلقَى بجنده إلى التهلكة بسوء رأيه ، ألا يعرِّضهم للموت حتى يستقر رأيه على ملائمة الأحوال لخوض المعركة ؛ فإذا خاضها وجب عليه أن يعمل للانتصار فيها بأقل تضحية ممكنة . وأول واجب على السياسى ورجل الدولة ألا يعرِّض نفسه ومن يسومهم إلى هلكة يستطيع تجنبها ، أو يستطيع إنقاذ الناس منها ، من غير إضرار بمصلحة الدولة العليا وسياستها للحاضر والمستقبل . فإذا ظفر من ذلك بما أراد كان ظفره فخراً له كفخر الجندى بانتصاره ، ثم كان هذا الظفر قدراً من الله رحمةً بعباده .

وذلك مارآه الذين قالوا عن الطاعون إنه بلاء وفناء ، وأشاروا على عمر أن يرجع إلى المدينة فسمع إلى مشورتهم ، وكان سماعه لها ونزوله عليها الحكمة كل الحكمة . فلو أنه سار إلى الشام فطعن فأت لأصابت المسلمين خسارة عظيمة قد تنتقض بسببها عليهم أمورهم . ولو أنه سار إلى الشام فطعن بعض أصحابه فعاد بسائرهم فانتقل الوباء إلى شبه الجزيرة لتمرَّض أهلها لكارثة تَوَفِّيَتُهُمْ إياها أول واجب على أمير المؤمنين . وهو حين يقر من الموت ويتحاشى نقل الوباء إلى شبه الجزيرة إنما يقر من قدر الله ، إلى قدر الله ، فيجنب نفسه ويجنب شبه الجزيرة كارثة لم يردّها الله لهم .

والمثل الذى ضربه عمر لأبي عبيدة في هذا المقام يفسر رأيه في القدرية خير تفسير . فإذا وجد راع وادياً فيه عُدوة خصبة وأخرى جدبة ، فرعى الجدبة رعاها بقدر الله ، وإذا رعى الخصبة رعاها بقدر الله . ذلك إنه إما عالم بهما فختار بينهما ، فاختاره قدر من الله لأن عقله الذى وهبه الله له هو الذى هداه إليه ، أو جاهل لما فراغ ما أمامه بقدر الله لأن الأخرى مغيبة عليه فلا اختيار له بين العدوتين . وقد عرف عمر العدوتين في أمر الشام ووبائه ، فوجب عليه أن يختار بينهما . وقد استشار فاختار فقر من قدر الله إلى قدر الله .

ولقد زاده الله اطمئناناً إلى اختياره ما رواه عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله أنه قال : « إذ سمعتم بهذا الوباء في بلد فلا تَقْدَمُوا عليه ، وإذا وقع وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه . » . فهذا الحديث يفرض الحجر الصحي على ما نفهمه في عصرنا الحاضر ؛ إذ يعزل البلد الموبوء عن غيره من البلاد ، ثم يعزل الأصحاء من أهله عن المرضى ، ولا يسمح لهؤلاء الأصحاء أن يختلطوا بغيرهم في بلد آخر مخافة أن يكون الداء جنيناً فيهم ، فننتقل عدواه منهم ولو لم تظهر آثاره عليهم . والاحتياط لمثل هذا الاحتمال واجب . وهذا الاحتياط هو الذي دعا أمير المؤمنين لأن يجعل بالعود إلى المدينة .

وليس يمنع الحجر الصحي الناس من أن ينتجعوا في حدود بلادهم مكاناً يرونه أذهب للداء عنهم . وذلك ما كتب به عمر إلى أبي عبيدة إذ قال له : « إنك أنزلت الناس أرضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة » . وهو بعينه ما أشار به عمرو بن العاص حين طلب إلى الناس أن يَتَجَبَّلُوا من الطاعون في الجبال . ولم يكره عمر رأى ابن العاص لأنه رآه فراراً من قدر الله إلى قدر الله ، توجيه الحكمة ويقضى به العقل وتفرضه الروية . ومعنى ذلك أن ما نكسبه في الحيلة إنما نكسبه بقضاء وقدر . والعقل الحكيم يهديه الله إلى الخير فيكون ذلك قدر الله له ، فإذا لم يغن عن إنسان تفكيره فأصابه ما يؤذيه كان ما يصيبه قدر الله له .

أترى إلى هاتين النظريتين في مدلول القدرية ، يؤيد إحداها أبو عبيدة وطائفة من المسلمين معه ، ويؤيد الأخرى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ، ويؤمن كل من الفريقين بأن له الحرية التامة في التمسك برأيه ، وعليه في نفس الوقت أن يحترم الرأي الآخر ، ثم لا يطمعن تأييده هذا الرأي أو ذاك في عقيدته ولا يغير من حسن إيمانه وإسلامه . أما وعمر أمير المؤمنين فرأيه هو الذي ينفذ ، ثم يبقى أبو عبيدة ومن معه على رأيهم لا يبدّلونه ولا ينزلون عنه ، ويبقى عمر على احترامهم واحترام رأيهم كما يبقون هم على احترامه واحترام رأيه .

هذه الحرية العقلية وما أدّت إليه من تبادل الاحترام بين هؤلاء المسلمين الأولين كانت عنصر قوتهم وسبب ظفرهم بعدوهم وتغلبهم عليه وفتحهم بلادهم . ذلك بأنهم كانوا

يؤمنون بأن كل واحد منهم إنما يصدر في رأيه عن قصد الخير للجماعة ، وأنه يتجرى الحق لوجه الله جل شأنه . واختلاف الآراء في طبيعة الإنسان مادام حراً عزيز الجانب . وإنما يُغلب رأى على رأى حين تراه الجماعة حقاً تقضى مصالحتها بتغليب . ومصلحة الجماعة متأثرة أبداً بأحوال تتغير بتغير الزمان والمكان ، فلا ضير عليها أن تغلب رأى الذى تراه حقاً في زمانها ومكانها ، وأن يبقى من يخالفونها عن رأيها أحراراً ما قصدوا إلى الخير وابتغوا براهم وجه الحق وحده .

قدمت أن رأى عمر هو في نظرى أدق تصويراً للقدرية الإسلامية . وهو يتفق كذلك مع الجبرية العلمية كما نفهمها نحن في هذا العصر ، وكما فهمها فلاسفة الإغريق منذ أكثر من ألفى سنة . وهذه الجبرية تذهب إلى أننا غير مختارين في رأى أو عمل ، وأن اختيارنا لهذا الرأى أو ذاك ، ولهذا الأمر أو ذاك ، يتأثر بعوامل كثيرة لاسطان لنا عليها ، من بيئتنا ووراثتنا ونشأتنا التعليمية وحالنا الصحية كما يتأثر بفرائزنا الإنسانية وبأهوائنا الذاتية . وكثيراً ما وجه حياتنا ووجه تفكيرنا وعملنا حادث طارئ لم يكن في حسابنا ولا في حسبان غيرنا . والبيئة والوراثة والنشأة والفرائز والأهواء والطوارئ كلها من قدر الله الذى لا تملك له تحويلاً ولا تبديلاً . لذلك كان فاراً إلى قدر الله من يفر من قدر الله .

أدت الحرية العقلية إلى تبادل الاحترام بين المسلمين الأولين ، فلم يكن ماحدث من خلاف في الرأى بين عمر وأبى عبيدة لينزع عمر من التفكير في استخراج صاحبه من أرض الوباء إبقاء عليه لخيره وخير المسلمين . والكتابان اللذان تبودلا بين الرجلين في هذا الشأن يقفان النظر ويثيران في الذهن شتى الفكر ؛ فأنت إذا نظرت إليهما من ناحية العاطفة رأيتهما مثلاً في الوفاء قل نظيره : وفاء من عمر لأبى عبيدة أمين الأمة وصاحبه في السقيفة والقائد السياسى الذى رضى أهل الشام حكمه ، ووفاء من أبى عبيدة لجنوده الذين خاضوا معه المعارك وبذلوا أنفسهم في سبيل الله وأظفروه بالروم أيما ظفر . وإن أنت نظرت إليهما من ناحية الخير العام للدولة الناشئة رأيت الرجلين يختلفان رأياً على هذا الخير وهما يلتقيان مع ذلك عنده . فعمر يعرف قدر أبى عبيدة وما للمسلمين من خير في بقاءه ، ويرى لذلك إنقاذه من وباء فتاك لا يغفل عن يموت به . وأبو عبيدة

يعرف واجبه لجنده ويرى مغادرته إياهم نجاةً بنفسه شرّاً مثل يضرب لهم ولن دونه من أسرائهم . هذا إلى أن كلا من الرجلين يستمسك في كتابه برأيه ، فلا يرى عمر بأساً من أن يفرّ الإنسان من قدر الله إلى قدر الله وهو يدعو أبا عبيدة إلى هذا الفرار؛ ويصرّ أبو عبيدة على ألا يفر مما كتب في لوح القدر وإن رأى الموت جائئاً أمامه ، فيبقى بالشام فيموت راضياً بقضاء الله وقدره . وقرأ عمر كتاب أبي عبيدة ، ويرى مخالفته له وعدم إذعانه لأمره ، فلا يثور ولا يغضب ، ولا يرى في هذه المخالفة خروجاً على واجب النظام ، بل تأخذه الشفقة بصاحبه فيبكي إذ يراه وكأن قد مات .

هذه الثقة بين أمير المؤمنين وكبار المسلمين ، مع إكباره لهم واحترامه رأيهم ، كانت من عناصر القوة التي دفعت فتحهم ، فأسرع ونجح في أحوال رأينا من دفتها في القادسية وفي شمال الشام شهيداً على ما كان لإيمان المسلمين بالله من فضل في إقدامهم وجراتهم . وقد زادت هذه العناصر ثباتاً وقوة . ولا عجب ، فقد كانت الحرية المحترمة والثقة المتبادلة قوام الإمبراطوريات الكبرى التي اكتسحت العالم في عصور مختلفة ، فوجهت سياسته وأقرت فيه حضارة تقدّم بها خطوات في سبيل الكمال .

لا أريد أن أختم هذا الفصل من غير أن أشير إلى ما كان لأمر عمر بعزل سُرخبيل ابن حسنة عن إمارة الأردن وإقامة معاوية بن أبي سفيان أميراً على الشام كله من أثر أدى من بعد إلى قيام الدولة الأموية ، وإلى انتقال العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق ، وإلى اختلاط العرب بغيرهم من العناصر التي دخلت في دينهم اختلاطاً جعل الدولة الناشئة تتطور لتصير إسلامية أكثر منها عربية . فقد كان عمر لإكرامه بني هاشم لا يوليهم في البلاد المفتوحة ، بل كان يقيمهم بالمدينة مع كبار الصحابة ليشيروا عليه . وقيل له في ذلك فقال يوماً لابن عباس : «إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعمل الناس وترككم .. والله ما أدري أحترمكم عن العمل ورفعكم عنه وأتم أهل ذلك ، أم خشي أن تهاونوا المسكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب » . وكان معاوية رجلاً حكيماً عصمته حكمته من أن تغشى مطامعه على بصيرته ، حليماً صانه حلمه عن بطش القدرة ، نقيب النظر يتألف الناس بسلطانه ويجذبهم إليه بحسن حديثه وحسن حيلته . وطال

عهد به بالشام بقية عهد عمر ، ووليه أيام عثمان ، فانتهت سياسته بأهل الشام إلى تعلقهم به والتفافهم حوله ومناصرتهم له حتى على الأذنين من أهل بيت رسول الله ، فكان لذلك من الأثر في حياة الإمبراطورية الإسلامية ما كان .

ولم يكن عمر ليقدّر ما حدث من ذلك بطبيعة الحال ؛ فقد سكنت منافسات بني عبد الشمس وبني عبد مناف منذ أسلم أبوسفیان وقومه لفتح مكة ، وقد رأيت أباسفيان وبنيه وصدق إخلاصهم أثناء وقائع الفتح . لذلك نسي الناس الحفاظ القديمة . فلم تُثر إقامة معاوية على إمارة الشام في نفس شبهة ، ولم يفكر أحد فيما ترتّب من بعد عليها . وهل كان لأحد يومئذ أن يفكر في أن الثورات الكبرى كالعواطف الهوجاء ؛ تقتلع ما تقتلع ، وتذر وراءها من الآثار ما تذر ، ثم تبقى كوا من الأرض كما هي ، لتنبت بعد مرور العاصفة نباتها القديم في صورة تلائم الجو الجديد ؟ !

أقرّ عمر الأمور في الشام ، ثم ودّع أهله وعاد إلى المدينة مطمئناً إلى زوال الهولين اللذين نزلا بالمسلمين . واستقر بها زمناً سار بعده إلى مكة على رأس المساهين يؤدى فريضة الحج كعادته كل عام . فلما فرغ منها عاد إلى المدينة يستقبل من أنباء الفرس ومن أنباء الروم في مصر ما يتجّه به إلى سياسة جديدة يواجه بها أحداثاً كان يرجو ألا تكون . فلننتقل معه للمستقبل هذه الأنباء ، ولنرى من أثرها في سياسة الإسلام والمسلمين ما يفسح رقعة الإمبراطورية إلى حدود الصين من الشرق وإلى حدود تونس من الغرب .

موضوعات الجزء الثانى

- الفصل الخامس عشر : التوسع فى فتح فارس
الفصل السادس عشر : غزوة نهاوند
الفصل السابع عشر : القضاء على سلطان الأكامرة
الفصل الثامن عشر : التفكير فى فتح مصر
الفصل التاسع عشر : فتح مدينة مصر وحصونها
الفصل التّم للعشرين : فتح الإسكندرية
الفصل الحادى والعشرون : مصر فى يد المسلمين
الفصل الثانى والعشرون : حكومة عمر
الفصل الثالث والعشرون : الحياة الاجتماعية فى عهد عمر
الفصل الرابع والعشرون : اجتهاد عمر
الفصل الخامس والعشرون : مقتل عمر

خاتمة

فهارس الكتاب :

فهرس الأعلام

١٠٣—١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٧، ١١٨

١١٨، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠

١٣٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٨، ١٥٣، ١٦١

١٦١، ١٧٢، ١٨٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٥

٢١٥، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٣٣، ٢٤٢

٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٧، ٢٧٠، ٢٧٣

٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢

٢٨٢، ٢٨٥، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧

أبو جهل — أبي الحكم بن هشام : ٤٢، ٤٧، ٤٨

أبو زييد الطائي النصراني : ١١٥

أبو سفيان بن حرب : ٧٠، ١٥٢، ٣٠٥

أبو طالب (عم الرسول) : ٥٤

أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي : ٩٨، ٢

١٠٦ — ١٠٨، ١١٠ — ١١٤، ١١٦

١١٦، ١٢٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩

١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧

١٣٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤

١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩

١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣

١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧

١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١

١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥

١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩

١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣

١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧

١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١

١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥

١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩

١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣

١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧

١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١

٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥

٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩

٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣

٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧

٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١

٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥

٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩

٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣

٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧

٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١

٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥

٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩

٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣

٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧

٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١

(١)

آزر مبدخت بنت كسرى : ١٠٩، ١١٠

أبان بن صالح : ١٩٨

إبراهيم عليه السلام : ١٨، ٢٦، ٣١، ٣٣

٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧

إبراهيم بن الرسول : ١٦٧

أبن الأثير (أبو الحسين علي بن محمد) : ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩، ١٠، ٩

أبو هريرة (الدوسي) : ٧٠ ، ٢٩١ .

أحمد بن حماد السكوي : ١٨٨

أحمد بن حنبل : ٤٥

الأحنف بن قيس : ٢٢٣

أردشير — كسرى أردشير : ٢٩٣

أرطوبون = أطرَبون

أرطوبون = أطرَبون

أطرَبون : ٢٤٦ — ٢٥١ ، ٢٥٣

الأزدى (محمد بن عبد الله) : ١٤٨

أسامة بن زيد : ٧٧ — ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦

الإسكندر الأكبر : ٢

الأسود العنسي : ٧٤

أسيد بن حضير : ٨٩

الأشعث بن قيس الكندي : ١٥٢ ، ١٥٩ ،

١٨٦ ، ٢٧٢ — ٢٧٨ ، ٢٨٠ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤

أم أبان بنت عتبة بن ربيعة : ٣٥

أم جميل — امرأة أبي لُبب : ٥٣

أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة : ٣٤

أم سلمة — أم المؤمنين : ٦٧ ، ٦٨

أم عبد الله بنت أبي حشمة : ٤١ ، ٤٦

أم كثير — امرأة همام بن الحارث : ١٨٠

أم كلثوم بنت أبي بكر : ٣٤ ، ٣٥

أم كلثوم بنت جروول بن مالك : ٣٤

أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب : ٣٤

أمية بن خلف : ٥٣

أنس بن النضر : ٦١

أنس بن هلال النمري : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،

١٣٤

(ب)

بازان الفارسي : ٤

باهان — قائد الروم : ١٣٥ ، ١٣٦

بتلر : ٢٤٠ ، ٢٤٦

البخاري (أبو عبد الله محمد بن اسماعيل) : ٦٦

برقايا : ٢٣٥

بشر بن ربيعة الخثعمي : ١٨١ ، ١٨٢

بشير بن الحصاصية : ٩٢ ، ١٥٣ ، ٢٠٢

بشير بن سعد بن أبي الحخير : ٧٥ ، ١٣١

بطرس — القديس : ٢٣٥

البلاذري (أحمد بن يحيى) : ٩٠ ، ٩١

١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٧٤ ،

١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٣٣ ، ٢٧١

بلال (مؤذن الرسول) : ٢٥٩ ، ٢٧٣ —

٢٧٦ ، ٢٩٩

البلقاء — فرس سعد : ١٧٣ ، ١٧٤

البندوان : ١٦١

بهن جاذويه ذو الحجاب : ١١٢ ، ١١٣ ،

١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٧٣ ،

بوران بنت كسرى : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٥ ،

١٢٥ ، ١٦٣ ، ١٩٠

(ت)

تذارق : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٢

توذر — البطريق : ٢٢٧ ، ٢٢٨

تيمورلنك : ١٨٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨

(ج)

جبان : ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧

جابر بن عبد الله : ١٠٢

الجالينوس : ١١١ ، ١١٢ ، ١٥٨ ، ١٦١ ،

١٦٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠

جبر النصراني : ٥٣

جبريل عليه السلام : ١٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

جيلة بن الأبهم الغساني : ٢٣١ — ٢٣٤ ،

٢٤٢ — ٢٧٣

جرجة القائد الرومي : ١٦١

جرير بن حازم : ٩١

جرير بن عبد الله اليجلي : ١١٨ ، ١١٩ ،

١٢٧ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢٢١

الجلومس : ٢٥٥

جميل بن معمر الجعفي : ٤٩

جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح : ٣٤

جنكيزخان : ٢

جيداء (أم الخطاب) : ٣١

(ح)

الحارث بن ظبيان بن الحارث : ١٧٣

الحارث بن هشام : ٢٩٣

الحارث بن يزيد : ٢١٣

الحباب بن المنذر : ٧٥

الحجاج الثقفي : ١٥٧

حذيفة بن اليمان : ٢١٨

حسان بن ثابت الأنصاري : ٣٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٤

الحطيئة (جروول بن أوس) : ٣٣ ، ١٦٨

حفصة — أم المؤمنين : ٣٤ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨

حال : ١٧٦ ، ١٧٧

حزة من عبد المطلب : ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠ ،

٥١ ، ٥٦ ، ٥٨

حميد بن هلال : ٩١

قهرس الأعلام

٣٠٩

الزبركان : ٣٣

الزبير بن العوام : ٣٩ ، ٦٢
 زهر بن الحسوية التميمي : ١٥٦ ، ١٧٩ —
 ١٨١ ، ١٨٨ — ١٩٠
 زهير بن أبي أمية : ٥٤
 زياد بن أبي سفيان : ٢١٠ ، ٢١١
 زيد الأصغر بن عمر بن الخطاب : ٣٤
 زيد الأكبر بن عمر بن الخطاب : ٣٤
 زيد بن ثابت : ١٩ ، ٨٣ ، ٨٤
 زيد بن حارثة : ٥٦
 زيد بن الخطاب : ٨٣
 زيد بن عمرو بن ثعلبة : ٢٦ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٤٠
 زينب بنت جحش : ٦٧
 زينب بنت مظلوم : ٣٤

(س)

سابور بن ذمير بران : ١٠٩ ، ١٦٠ ، ٦٤
 سبابة بن جعشم : ٢٠٢
 سعد بن أبي وقاص : ٢ ، ٢١ ، ٣٩ ، ٥٨
 ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ —
 ١٦٠ ، ١٦٢ — ١٨٣ ، ١٨٧ —
 ١٩٣ ، ١٩٥ — ٢٠٣ ، ٢٠٥
 ٢٠٧ — ٢١٨ ، ٢١٣ — ٢٢٢
 ٢٢٤ — ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٨
 ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨
 ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
 سعد بن عباد : ٧٥ ، ٧٦
 سعد بن عبيد : ٩٨
 سعد بن عبيدة الفزاري : ١٨٧
 سعد بن مالك = سعد بن أبي وقاص
 سعيد بن زيد بن عمرو : ٣١ ، ٤٢ ، ٨٩
 سعيد بن العاص : ٥٩
 سعد بن عامر الخزرجي : ٢٣٢
 سفلار بن خرق : ٩٤٥
 سلمان الفارسي : ١٩٨ ، ١٩٩
 سلمى بنت حفص — امرأة النبي : ١٥٣
 ١٧٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤
 سليط بن قيس : ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٣ —
 ١١٥ ، ١٧٣
 سليمان عليه السلام : ٣٠ ، ٢٥٩
 سهيل بن عدي : ٢٦٦ — ٢٦٩
 سهيل بن عمرو : ٦٠ ، ٦٣ ، ٨٧ ، ٢٩٣
 سودة بنت زمعة : ٦٦
 سواخش : ١٠٩ ، ١١٠
 حيف بن عمر : ١٤٨

حاشية بنت هاشم بن النيرة : ٣٠ ، ٣٢

(خ)

خارجة بن زيد : ٥٦
 خالد بن عرفطة : ١٦٧
 خالد بن الوليد : ٢ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣
 ٦١ ، ٦٢ ، ٨٠ — ٨٤ ، ٩٢ —
 ٩٤ ، ٩٩ — ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨
 ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٦ — ١١٨
 ١٢٤ ، ١٢٧ — ١٣١ ، ١٣٤ —
 ١٤٠ ، ١٤٢ — ١٥٠ ، ١٦١
 ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦
 ١٨٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦
 ٢٢٥ — ٢٣٦ ، ٢٣٨
 ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣
 ٢٥٥ — ٢٥٧ ، ٢٦٣ — ٢٦٥
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ — ٢٨٥ ، ٢٩٣
 خباب بن الارت : ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥
 خديجة — أم المؤمنين : ٥٤
 الخطاب بن نفيل بن عيسى الخزري : ٤٦
 ٢٩ — ٣٣

خنيس بن حذافة : ٦٤

(د)

داود عليه السلام : ٢٥١
 دحية بن خليفة الكلبي : ٢٤٢
 دخت زنان بنت كسرى : ١٠٩
 دمشق بن كتمان : ١٣٣
 دومة — امرأة أبي عبيد : ١١٤

(ذ)

ذو السكلاع الجدي : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢٢٧

(ر)

ربيع مولى الرسول : ٦٨
 ربيعي بن الأفلح : ٢١٢
 الربيع : ١٧٦ ، ١٧٧
 رسم بن القرضاد : ١١٠ — ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤
 ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨
 ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ — ١٦٦ ، ١٦٩
 ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٣
 ١٨٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٣
 ربيعة بن عبد المنذر : ٥٦
 رقية بنت عمر بن الخطاب : ٣٤
 (ز)
 زبارة بن أم ولد سعد : ٩٧٤

عائشة — أم المؤمنين : ٣٤ ، ٦١ ، ٦٦ — ٦٨ ، ٧٢ ، ٩١
عائشة بنت سعد بن أبي وقاص : ١٥١
عباد بن بشر : ٦٣
عبادة بن الصامت : ٢٣٠
العباس بن عبد المطلب : ٧٠ ، ٢٩١
عبد الرحمن الأصغر بن عمر : ٣٤
عبد الرحمن الأوسط بن عمر : ٣٤
عبد الرحمن بن أبي بكر : ٩١
عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب : ٣٤
عبد الرحمن بن عوف : ٨٩ ، ٩٠ ، ١٥٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٣٥٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢
عبد الله بن أبي بن سبيل : ٦٣ — ٦٩ ، ٧٠
عبد الله بن أبي بكر : ٩١
عبد الله بن أرقم : ٢١٠
عبد الله بن جحش : ٣٨ ، ٥٨
عبد الله بن زيد : ٥٨ ، ١١٦
عبد الله بن عبد الله بن أبي : ٦٣
عبد الله بن عبد المطلب : ٣٢
عبد الله بن عثمان : ٢٦٦ — ٢٦٩
عبد الله بن عمر : ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٣
عبد الله بن مرثد الثقفي : ١١٥
عبد الله بن مسعود : ٥٠
عبد الله بن المقم : ١٨٨ ، ٢١٢ ، ٢١٨
عبد المطلب بن هاشم : ٣١ ، ٣٢
عبد الملك بن مروان : ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢٦٣
عبد نهم : ٣١
عبد بن الطيب : ١٦٨
عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٣٤
عبيدة بن الحارث : ٥٨ ، ١٥٢
عتبان بن مالك : ٥٧
عتبة بن سهيل : ٢٩٣
عتبة بن غزوان : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠
عتبان بن الحويرث : ٣٨
عتبان بن عفان : ٣٩ ، ٤٦ ، ٦٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٥٠ ، ٢٥٤ ، ٣٠٥
عدي بن حاتم : ١٠٧
عدي بن سهل : ٢٥٣
عدي بن كعب : ٣٠
عرجة بن هرم : ١١٩ ، ١٢٢ ، ٢١٣
العزى (صم) : ٢٦
عصمة بن خالد الضبي : ٢٠٠
عفان بن مسلم : ٩١

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : ١٠
(ش)
شداد بن أوس : ٩٩ ، ١٢٩
شرحبيل بن حسنة : ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٤ — ١٤٧ ، ١٧٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤
شرحبيل بن السمط : ١٨٨
الشهاخ (بن ضرار) : ١٦٨
الشموس — اسم فرس المني : ١٢٠
شفس الرومي : ٢٢٧ ، ٢٢٨
شهر يار : ١٨٨
شهريران بن أردشير : ٩٢ ، ١٠٩ ، ١٩٠
شيرفاد : ١٩١ ، ١٩٢
شيوخه بن كسرى : ١٠٩ ، ١٢٦
(ص)
صفريوس الأسقف : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣
٢٥٥ — ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
صهيب بن سنان : ٥١
(ض)
ضرار بن الأزور : ١٤٥
ضرار بن الخطاب : ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢١٣
(ط)
طارق بن شهاب : ٢٥٥
الطبري (محمد بن جرير) : ٩٠ ، ١٠٠ ، ٣٠٠ ، ٥٥ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ — ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠
طلحة بن عبيد الله : ٣٩ ، ٦١ ، ٨٩ ، ٩١
طليعة بن خويلد الأسدي : ٧٤ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٨٦ ، ٢٠١
(ع)
عائكة بنت زيد بن عمرو : ٣٤
العاس بن هشام بن المنيرة : ٥٩
العاس بن وائل السهمي : ٣٠ ، ٤٩
عاصم بن عمرو بن الخطاب : ٣٤
عاصم بن عمرو : ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٨ — ١٧١ ، ١٧١ ، ١٩٦ ، ١٩٧
عاصية بنت ثابت = جيلة بنت ثابت

هذبة بن عامر : ٢٠٠
 عكاشة بن محسن : ١٦٣
 عكرمة بن أبي جهل : ١٢٩
 الملا بن الحضرمي : ١٠٨ ، ٢١٤
 هلقمة بن حكيم : ١٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧
 هلقمة بن مجز : ٢٥٧
 علي بن أبي طالب : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٨٣ ، ٢٧٠ ، ٢٦٣ ، ٢٥٤
 ٢٩٨ ، ٢٩٦ — ٣٠٠
 علي بن المهيم : ٢٥٥
 عمر بن أبي ربيعة : ٢٨ ، ٣٤
 عمر بن عبد العزيز : ١٤١ ، ١٤٢
 عمرو بن العاص : ٨٠ ، ٤٩ ، ٣٠ ، ٤٨ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢٢٥ — ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ — ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٢٩٧
 عمرو بن عبد المسيح : ١٢٣
 عمرو بن مالك : ٢١٣
 عمرو بن معدى كرب الزبيدي : ١٥٩ ، ١٥٣
 ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢٠١
 عمرو بن نفيل : ٣١
 عوف بن مالك : ٣٣
 عويم بن ساعدة : ٥٧
 عياض بن أبي ربيعة : ٥٦
 عياض بن عمر بن الخطاب : ٣٤
 عياض بن غنم : ١٧٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٦٦ — ٢٧١ ، ٢٧٢
 عيسى عليه السلام : ١٥ ، ١٨ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٩٤ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧
 (غ)
 غالب بن عبد الله اللبني : ١١٩ ، ١٥٦ ، ١٧٠
 (ف)
 فاطمة بنت الخطاب : ٤٢
 فاطمة بنت الرسول : ٧٧
 فاطمة بنت عمر بن الخطاب : ٣٤
 فاطمة بنت الوليد : ٢٧٧
 فرات بن حيان : ١٥٩ ، ٢٧٠
 الفرخزاد : ١٠٩ ، ١١٠
 فريد أبو حديد : ٢٤٠

فكيمة — أم ولد عمر بن الخطاب : ٣٤
 فوكاس : ٦ ، ٢٣٩
 الفيرزان : ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ٢٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٩
 (ق)
 قابوس بن قابوس بن المنذر : ١٥٣
 قس بن ساعدة الأيادي : ٣٧
 قسطنطين بن هرقل : ٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥
 القعقاع بن عمرو التميمي : ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٧٢ — ١٨٠ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ — ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧
 قيس بن عاصم النخعي : ١١٧
 قيس بن مكشوح : ٢٠١
 قيس بن هبيرة : ١٧٦
 قيصر : ٣ ، ٤ ، ١٣٦ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩
 (ك)
 كسرى أبرويز : ٢ — ٤ ، ٦ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٩٠
 كسرى أنوشروان : ١٩٣ ، ١٩٩ — ٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩
 كعب الأحبار : ٢٦٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠
 كوسان درسفال : ٢٦٨
 (ل)
 اللات (منه) : ٢٦
 لبيد بن ربيعة : ١٠٧
 لهية — أم ولد عمر بن الخطاب : ٣٤
 ليلي — زوجة مالك بن نويرة : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١

(ن)

النايفة الجمعدى : ٣٣
 نابليون : ٢ ، ١٨٣
 النجاشى : ١٦٠
 نرسى القائد : ١١١ ، ١١٢
 نسطاس : ١٣٥ ، ١٣٦
 النضر بن الحارث : ٥٣
 النعمان بن بشير الأنصارى : ٢٣٠
 النعمان بن مقرن : ١٥٩ ، ١٦٠
 النعمان بن المنذر بن ماء السماء : ١٠٩ ، ١٤٠
 ٢٠٠ ، ١٥٣
 نعم بن عبد الله : ٤٢
 نجيل (بن عبد العزيز) : ٣٩
 نوح عليه السلام : ١٨

(هـ)

هاشم بن عتبة : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ —
 ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٧٢ ، ١٧٤ — ١٧٦
 ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧
 ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٧
 الهذيل الأسدى : ١٦٩
 هريرت سبنسر : ١٦
 هرقل عامل الروم : ٢ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ ، ١٥
 ٩٤ ، ١٠٩ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢
 ١٣٤ — ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢
 ١٤٤ — ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٧٠
 ٢٠١ ، ٢٢٦ — ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣
 ٢٣٤ ، ٢٣٩ — ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٢
 ٢٥٦ ، ٢٦٤ — ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٨
 ٢٨٥ ، ٢٩٧
 هرمز جاذويه : ٣٠ ، ٩٢ ، ١٠٨ ، ١٧٠
 ١٨٩ ، ١٩٠
 الهرمزان : ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٧٣
 هشام بن البختى : ٢٨٢ ، ٢٨٣
 هشام بن العاص بن وائل : ٥٦
 هشام بن عمرو : ٥٤
 هلال بن علقمة : ١٧٩ ، ١٨٠
 حمام بن الحارث النخعى : ٨٠
 هيرودس : ٢٠١

(و)

الواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر) : ٩٤
 ١٤٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٧٤
 ورقة بن نوفل : ٣٧
 الوليد بن عبد الملك : ١٤١ ، ١٤٢

١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٨٩
 ١٩٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤
 مجاشع بن مسعود : ٢١٤
 محمد — صلى الله عليه وسلم : ٤٤٦ — ٤٤٧
 ١١ — ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٨
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ — ٨٥
 ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦
 ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ — ١٠٧ ، ١١٠
 ١١٣ ، ١١٦ — ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٧
 ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٥٠ —
 ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠
 ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٨٧ ، ١٩٧
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٤٢
 ٢٤٤ ، ٢٥٧ — ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
 ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ —
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤
 محمد بن مسلمة : ٣٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
 محمد بن زليم : ٩٩ ، ١٢٩
 مذكور بن عدى : ١٣٧
 مردا شاه : ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧
 مرة بن كعب : ٣٠
 مسروق العسكى : ١٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩
 مسعود بن حارثة : ١٢٢
 المسعودى (أبو الحسين على بن الحسين) : ٣٥
 مسيلة بن حبيب : ٧٤ ، ٨١ ، ٨٢
 معاذ القارى : ١١٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦
 معاذ بن عفراء : ٥٧
 مهاوية بن أبى سفيان : ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٤٥
 ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
 ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥
 المعنى بن حارثة : ١٥٣ ، ١٥٩
 المقيرة بن شمسبة : ١٠٧ ، ١٥٩ ، ١٦٥
 ١٦٨ ، ٢٩٤
 المقيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم : ٣٢
 المقرئى (أحمد بن على) : ٢٤٠
 مكرز بن حفص : ٦٠
 مهيض مولى عمر : ٥٩
 مهران الهذلي : ١١٩ — ١٢٢ ، ١٢٤
 ١٦١ ، ١٨٨ ، ٢٠٧ — ٢٠٩
 موسى عليه السلام : ١٨ ، ٧٢ ، ٧٣
 ٢٥٧ ، ٢٥٨
 ميكائيل : ١٨ ، ٦٨
 ميناكس : ٢٣١ ، ٢٣٢
 ميور المستشرق : ٢٤٧

٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣، ٣٢١، ٤٦٤، ٤٦٥
 ٢٧٨، ٢٩٧
 يزيد بن أبي سفيان : ٩٤، ١٢٩، ١٣٥،
 ١٤٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٦،
 ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٩٣
 ٢٩٤، ٢٩٨
 الميموني (أحمد بن أبي يعقوب) : ٨٢
 يعلى بن أمية : ١٠٣، ١٠٥
 روحنا بن ربيعة : ٤
 وابوس قصير : ٢

الوليد بن عقبة : ٢٦٦ - ٢٨٠
 بولم ميور : ٨٤
 وهب بن جرير : ٩١

(5)

یوسف مولیٰ عمر : ۹۹
یزدجرد بن شهریار بن کسری : ۱۲۵ ، ۱۵۰ ،
۱۵۲ ، ۱۵۷ — ۱۶۷ ، ۱۷۶ ، ۱۷۷ ،
۱۷۹ ، ۱۸۲ — ۱۸۵ ، ۱۹۲ —
۱۹۵ ، ۱۹۹ ، ۲۰۰ ، ۲۰۳ ، ۲۰۷ —

فهرس الأمم والقبايل

أهل الحيرة : ١٥٧ ، ١٥٨
 أهل دمشق : ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ،
 ١٤٣ ، ١٤٨
 أهل الرقة : ٢٦٨
 أهل الرملة : ٢٥٦
 أهل الرها : ٢٦٩
 أهل السقيفة : ٧٦٠
 أهل البواد : ١٢٦ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،
 ١٩٢ ، ٢٢١
 أهل الشام : ١٤٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ — ٢٤٣ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥
 أهل شبه الجزيرة = العرب
 أهل شيراز : ٢٣٠
 أهل الصفه : ٩١
 أهل طبرية : ١٤٧
 أهل العراق : ٨ ، ١١١ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،
 ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٦٦ ، ١٨٧ ، ٢١٥ ،
 ٢١٧ ، ٢٢٢ — ٢٢٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨٦
 أهل عمان : ١٤٧
 أهل عمواس : ٢٦٩
 أهل نخل : ١٣١
 أهل فلسطين : ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦
 أهل الغامضية : ١٨٢ ، ٢٠١
 أهل قرقيسيا : ٢٦٦
 أهل فنسرين : ٢٣٢ ، ٢٣٤
 أهل السكوفة : ٢٢٠ ، ٢٢٣ — ٢٢٥ ، ٢٦٨
 أهل اللاذقية : ٢٣٠

(1)

آل الغيبة : ٢٧٣
الأشوريون : ١٨٩ ، ١٥٥
الإغريق : ١٩٤ ، ٤٠٥ ، ٤٤٥ ، ٣٠٣
ألاكاسية : ١٠٨ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٥ ،
١٣٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ —
٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٢
الأنصار : ٥ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ،
٦٨ ، ٧٤ — ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٧ — ٨٩ ،
٩٨ ، ١٠٦ ، ١٧٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤
٢٩١ ، ٢٩٤
أهل الأبلية : ٢١٣
أهل أذرعات : ١٤٧
أهل أليس : ١١٦
أهل بدر : ١٨ ، ٨٧ ، ٢٠١
أهل بصري : ١٤٧
أهل البصرة : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٩٧
أهل البيت : ٨٧ ، ٣٠٥
أهل بيت المقدس : ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
٢٥٦ ، ٢٦١
أهل بيسان : ١٤٦ ، ١٤٧
أهل جرش : ١٤٧
أهل الجزيرة : ٢٣٦ ، ٢٦٤ — ٢٦٦
أهل الحجاز : ٢٣ ، ١٢٧
أهل حلب : ٢٣٤
أهل حاه : ٢٣٠
أهل حمص : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٦٦

بنو غصات : ٧ ، ٦٨ ، ٢٢١ ، ٢٤٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧
 بنو فزارة : ٢٤٣
 بنو فهر بن مالك : ٣٩
 بنو كنانة : ١١٩
 بنو مخزوم : ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٢٨٢
 بنو مدنج : ٢٠٢
 بنو المصطلق : ٦٣
 بنو المطلب : ٥١ ، ٥٣
 بنو للنجار : ١١٦
 بنو النمر : ١١٩ ، ١٢٢ ، ٢١٢
 بنو هاشم : ٢٩ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٣٠٤
 بنو وهيب : ١٥١

(ت)

الترك : ٢٠٠

تنوخ : ٢٣٠ ، ٢٦٦

(ث)

تقيف : ٢٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٤٤

(ج)

جفنة : ٢٣٢ ، ٢٤٤

(خ)

الجزرج : ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٢٣٢

(د)

ذبيان : ٧٩

(ر)

رافضة خثل : ١٤٨

ربيعة : ٢٦٦ ، ٢٤٤

الروس : ١٦٢

الرو : ١ — ٧ ، ١٣ ، ١٧ — ١٩

٢٢ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٨٢

٨٩ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٩ — ١٠٢

١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٩ —

١٣١ ، ١٣٣ — ١٣٦ ، ١٤٢ —

١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٨٥

١٨٦ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠

٢١٢ ، ٢٢٥ — ٢٢٩ ، ٢٣١ —

٢٣٣ ، ٢٣٥ — ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢

٢٤٤ — ٢٤٩ ، ٢٥١ — ٢٥٣

٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ — ٢٧٥

٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ — ٣٠٩

٣٠٣ ، ٣٠٥

الروبان : ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٩٤ ، ٢٥١

أهل اللد : ٢٥٧

أهل ماب : ١٤٧

أهل المدائن : ١٩٧ ، ٢٥٦

أهل المدينة : ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٨٣ ،

٨٦ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٢٥ ،

١٣٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢١١

٢٤٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠

أهل مصر : ٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥١

أهل مكة : ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٨ ،

٥٤ ، ٦٥ ، ٨٦ ، ٨٧

أهل الموصل : ٢١٢

أهل ميث : ٢١٣ ، ٢٦٦

أهل برب = أهل المدينة

أهل البامة : ٧٤

أهل البين : ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٦٠

الأوس : ٥٧ ، ٦٥

(ب)

البايليون : ٢٠٥

الدوتسنايت : ١٠٤ ، ١٠٥

بنو الأزدي : ١١٩

بنو أسد : ٣٩ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٦ ، ١٧٨

بنو أمية : ٢٩

بنو لباد : ٢١٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩

بنو بجيلة : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٧٠ ،

١٧٨ ، ٢٢١

بنو بكر بن وائل : ٩٤ ، ١٧٧ ، ١٢٢ ،

١٢٧ ، ١٥٣

بنو تغلب : ١٢٩ ، ١٢٢ ، ٢١٢ ، ٢٦٨ — ٢٧٠

بنو تميم : ٨٠ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٧١

بنو تيم بن مرة : ٢٩ ، ٣٩

بنو ثعلبة الغنقاء : ٢٣٢

بنو حنيفة : ٧٤ ، ٨١

بنو زهرة : ٣٩ ، ١٥١

بنو ساسان : ٢٠٣

بنو سالم بن عوف : ٥٧

بنو سهم : ٢٩ ، ٤٩

بنو طسم : ٢٦

بنو عبد شمس : ٢٩ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٣٠٥

بنو عبد مناف : ٤٢ ، ٤٧ ، ٣٠٥

بنو عجل : ١٢٠

بنو عدى بن كعب : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٤

بنو عمرو بن عوف : ٥٦

١٦٩ — ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦،
١٨٨ — ١٩٠، ١٩٢، ١٩٤ —
١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢١٠، ٢١٢،
٢١٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤،
٢٢٧، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٥١،
٢٦٤، ٢٦٤، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨٠،
٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٠٥

(ق)

قرئش: ٢٨، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٨،
٤٣، ٤٦، ٤٨ — ٥٢، ٥٥،
٥٦، ٥٨، ٦٢، ٦٤، ٧٠، ٧٢،
٧٥، ٨٤، ٩٤، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤،
٢٢٤، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥

قضاة: ٨٠، ٢٥٢

القيصرة: ١٣٤

(ك)

الكاثوليك: ١٠٤، ١٠٥

الكلدان: ٢٠٥

كندة: ١٧٨، ٢٧٤

(ل)

لحم: ٧، ١٠٩، ١٥٦، ٢١٩

(م)

المجوس: ٤٧، ١٦٠، ٢٠٨، ٢٢٢

مزقيا: ٢٣٢٠

المستشرقون: ١٦، ١٧، ٢٢، ١٠٣

١٠٤، ١٣٧ — ١٣٩، ١٦٠،

١٦١، ١٧٢، ١٧٥، ١٨٣، ٢٥٨

مضر: ٢٤٤

معد: ١٦٩

للهاجرون: ٥، ٣٠، ٤٦، ٥٥، ٥٦، ٦١

٦٣، ٧٤ — ٧٦، ٧٨، ٨٧ —

٨٩، ٩٨، ١٠٦، ١٥٢، ١٧٩،

٢٢٤، ٢٧٣، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٩٤

(ن)

النخع: ١٧٨

النصارى: ٢٦، ٣٦٥، ٤٧، ٥٧، ١٣٨

١٤١، ١٤٢، ١٤٦، ١٦٠، ٢٤٠،

٢٤٩، ٢٥٦، ٢٥٨ — ٢٦٣، ٢٦٩

نصارى بنى تغلب: ١١٩، ٢٧٠

نصارى بنى التمر: ١١٨، ١١٩

(س)

السامرة: ٢٧١

(ش)

الشعبة: ٧٧

(ط)

طبي: ١٩٨

(ع)

عاد: ٣٠

عيس: ٧٩

العرب: ٣، ١، ٧، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٨،

٣١ — ٣٣، ٣٥ — ٣٧، ٣٩، ٤٠،

٤٥، ٤٦، ٥٣، ٦٤، ٧٤، ٧٥، ٧٧،

٧٨، ٨٠، ٨٥، ٨٨، ٩٣ — ٩٥،

١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١١ — ١١٣،

١١٨ — ١٢٠، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥ —

١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٥ —

١٣٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧،

١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦ — ١٦١،

١٦٤، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١ —

١٧٤، ١٧٦ — ١٧٨، ١٨٠،

١٨٤ — ١٨٥، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٤،

٢٠٠ — ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧،

٢١٠، ٢١١، ٢١٣ — ٢١٥، ٢١٧،

٢١٨، ٢٢٠ — ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٨،

٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٨، ٢٤١ — ٢٤٣،

٢٤٦ — ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦١،

٢٦٤، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٨٦،

٢٨٩ — ٢٩١، ٣٠٤

عرب الجزيرة: ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩

عرب الشام: ٢٢٩

عرب العراق: ١٠٩، ١٢٢، ٢١٥

العلويون: ٧٧

(ف)

الفراغة: ٢٠٥

القرس: ١، ٣، ٥ — ٨، ١٠، ١٣،

١٦، ٢٢، ٣٧، ٤٧، ٥٣، ٨٩،

٩٢ — ٩٤، ٩٧، ١٠١، ١٠٤،

١٠٨ — ١١٠، ١١٢، ١١٦،

١١٨ — ١٢٨، ١٣٣، ١٣٥،

١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٣،

١٥٥ — ١٥٩، ١٦١، ١٦٥،

حصن فديك : ١٦٠
 حصن قدس : ١٥٦
 حصن الموصل : ٢١٢
 حصن نينوى : ٢١٢
 حلب : ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ — ٦
 ٢٤٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩
 حلوان : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،
 — ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ —
 ٢١٧ ، ٢١٢
 نخلة : ٢٢٩ — ٢٣١ ، ٢٤٦ ،
 ٢٧٢ ، ٢٦٨
 حمص : ١٣١ ، ١٣٤ — ١٣٦ ، ١٤٤ ،
 ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٧٤
 ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠
 ٢٥٢ ، ٢٦٤ — ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
 ٢٧٧ — ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦
 حوران : ١٤٧
 الحرة : ٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٨ — ١١٢ ،
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٤٠ ، ١٥٤ — ٨
 ١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٥
 ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٠

(خ)

الخابور : ٢١٣
 خالقين : ٢٠٩
 خراسان : ١١٠
 خفان : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨
 خاققونية : ٢٤١
 خابج عدن : ٢٠٧ ، ٢١٦
 الخابج الفارسي : ١٠٨ ، ١٦٠ ، ١٩٤
 ٢١٦ ، ٢٢٠
 الخنافس : ١٢٣
 الخندق : ١٥٢
 خندق سابور : ١٥٤ ، ١٦٣
 خندق القادسية : ١٦٠
 الخورنق : ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٦٦
 خير : ٧١ ، ١٥٢

(د)

دار أبي سفيان : ٧٠
 دار الأرقم : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨
 دار خالد : ٢٨٢

بهرس : ١٩٠ — ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٣
 البويب : ١١٩ — ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
 ١٥٧ ، ١٥٧ ، ١٦٤
 بيت أن أيوب الأنصاري : ٥١
 بيت جرين : ٢٤٩
 بيت عائشة : ٧٤ ، ٧٦ ، ٩١ ، ٢٨٢
 البيت العتيق = المسجد الحرام
 بيت لم : ٢٥٩
 بيت القدس : ٢ ، ١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٨٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٧ ، ٢٤٠ — ٢٤٢ ، ٢٤٥ —
 ٢٥٢ ، ٢٥٥ — ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦٢ — ٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩

بئر التروذ = برس

بيروت : ٢٣٦
 بيسان : ١٤٤ — ١٤٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦
 بين النهرين : ٢٠٥ ، ٢٠٦

(ت)

تبوك : ٤ ، ٥ ، ٢٩٤
 تسكريت : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ،
 ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٦٤
 تل اعزاز : ٢٣٧
 تل العمارنة : ١٣٣
 تونس : ٣٠٥

(ج)

الجابية : ٢٥٣ — ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ،
 ٢٨١ ، ٢٩٨
 الجرباء : ٥
 الجزيرة : ٢٦٥ — ٢٦٩ ، ٢٧٢
 الجسر : ١١٣ — ١١٧ ، ١٢١ — ١٢٣ ،
 ١٢٦ — ١٢٨ ، ١٥٣ ، ١٦٦ ،
 ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٥
 جلولا : ٢٠٧ — ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢١٣
 ٢١٦ — ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٥
 جولان : ١٣٢

(ح)

الحاضر : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٨٦
 الحيشة : ٣٩ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥١ — ٥٣ ، ١٦٠
 الحجاز : ٤ ، ٥١ ، ٩٧ ، ١٥٢
 الحجر : ٤٣
 الحديبية : ٦٤ ، ١٥٢
 حران : ٢٦٦ ، ٢٦٩

٢٠٧، ١٩٩، ١٩٢، ١٩٠، ١٨٨
٢٢٣ — ٢٢١، ٢١٤، ٢١٣، ٢٠٣
٢٩٧، ٢٧١، ٢٧٠

نخل : ١٥٠، ١٤٩، ١٤٦ — ١٤٣، ١٣١
٢٤٦، ٢٣٨، ٢٢٦، ١٨٧، ١٧٢
٢٧١، ٢٥١

القرات : ١١٥، ١١٣، ١١١، ١٠٨
١١٩ — ١١٧، ١٠٤، ١٣٣، ١٢٢
٢١٤، ٢١٣، ٢٠٦، ٢٠٥، ١٩١
٢٣٦، ٢١٩، ٢١٨، ٢١٦

القراض : ٢٩٩، ٢٦٨، ١٦٣، ١٠٨
فرنسا : ١٦٢

فلسطين : ١٣٣، ١٣١ — ١٣٥، ١٣٦
٢٥٤ — ٢٤٥، ٢٢٩، ٢٢٧، ٢٢٦
٢٦٣، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٥٨، ٢٥٧
٢٩٠، ٢٨٩، ٢٨١، ٢٧١، ٢٦٤
٢٩٨، ٢٩٧، ٢٩٣

(ق)

القادسية : ١٤٩، ١٤٧، ١٤٣، ١١٨، ١١١
١٥٠، ١٥٣ — ١٥٨، ١٦٠
١٦٣ — ١٦٢، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥
١٧٦، ١٨٤، ١٨٦ — ١٨٠
١٨٨، ١٩٠، ٢٠٩ — ٢١١، ٢١٣
٢١٦، ٢١٨، ٢٢٥ — ٢٢٧، ٢٣٣
٢٣٥، ٢٧٨، ٣٠٤

قباء : ٥٦

قر المسبح : ٢٤٥، ٢٥٨، ٢٦٤

قدس : ١٧١، ١٧٨

قرقيسيا : ٢٠٩، ٢١٣، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨

قرية الصيادين : ١٩٨

قس الناطف : ١١٣٠

القطنطينية : ٦، ١٣٤، ١٤٤، ١٤٨
١٩١، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٤

٢٤٦ — ٢٥٠، ٢٦٨، ٢٨٤

قصر سم (بالكونة) : ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٤

قصر كسرى (أيس كسرى) : ١٩٣، ١٩٥

١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٦

قلقية : ٢٣٧، ٢٤٦، ٢٧٢، ٢٧٨

قنشرين : ٢٢٩ — ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٦٤

٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٥ —

٢٧٩

قنطرة البتيق : ١٥٦

قورس : ١٣٦

قيسارية : ٢٤٧، ٢١

(ض)

ضجنان : ٣٠، ٣٢

(ط)

الطائف : ٥٤، ٥٥، ٢١٥

طبرية : ١٤٥، ١٤٦، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٤٦

مليسقون : ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦

(ع)

عدن أين : ١٨٢

العذيب : ١٥٦، ١٥٧، ١٧٢، ١٨٢، ١٨٧

عذيب القوادس : ١٥٤

عذيب المجانات : ١٥٤

مراق : ١ — ٣، ٦ — ١٠، ١٨، ١٩

٣٣، ٨٢، ٨٤، ٨٦ — ٩٤، ٩٧ —

١٠٢، ١٠٤، ١٠٦ — ١٠٨، ١١٠

١١٥، ١١٧ — ١١٩، ١٢٣، ١٢٤

١٢٦ — ١٢٩، ١٣٢ — ١٣٤

١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤

١٤٧ — ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٦١

١٦٦، ١٧٢، ١٨١، ١٨٣، ١٩٢

٢٠٣، ٢٠٥ — ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٢

٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٦ — ٢٣٣، ٢٣٥

٢٣٦، ٢٤٢، ٢٦٣ — ٢٦٥

٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٨

٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٥ — ٢٩٠، ٢٩٣

٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠

المراق العجسي : ٢٠٦

المراق العربي : ٢٠٦، ٢٠٧

المرات : ١٤٤

عرفات : ٢٧

المقبة : ٢٩٠

عكاظ : ٢٣ — ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٣٣

عماس : ١٧٧

عمواس : ٢٤٩، ٢٨٧، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٠

عين البحر : ١٠٨

(غ)

غار ثور : ٧٦

غزة : ٢٤٧، ٢٤٩

القوطة : ١٣٤، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ٢٤٥

(ف)

فارس : ٢٤١، ٢٤٢، ١٠، ١٠، ١٩، ٣٥، ١٠٩

١٧٤، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٦٠

١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٩، ١٨٥

٢٤٤٤، ٢٤٣٠، ٢٣٥٠، ٢٢٥٠، ٢٢٣٠
 ٢٥٠٩ — ٢٥٠٧، ٢٥٠٤، ٢٥٠٣، ٢٥٠١
 ٢٧٠٠ — ٢٦٧٠، ٢٦٥٠، ٢٦٣٠، ٢٦٢٠
 ٢٨٢٠، ٢٨٠٠ — ٢٧٧٠، ٢٧٤٠، ٢٧٢٠
 ٢٨٧٠ — ٢٩٢٠، ٢٨٩٠ — ٣٠٠٤، ٣٠٠٤

الرج : ٢٧١

مرج الروم : ٢٢٨، ٢٢٧

مرج السباح : ١١٩، ١١٨

مرج الصقر : ١٣١

مرعش : ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٧٢

المرغاب : ٢١٤

المروحة : ١١٣، ١١٤، ١١٥

الروة : ٥٣

المسجد (مسجد الرسول) : ٥٦، ٦٨، ٧٤

٧٦، ٨٣، ٩٠، ٩١، ٩٣ — ٩٥

١٠٧، ١١٦، ١٥٤، ٢٥٨، ٢٦٢

المسجد الأقصى : ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٥، ٢٥٧

٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٣

المسجد الحرام : ٢٧، ٤٣، ٤٤، ٤٩ — ٥١

٥٣، ٥٥، ٧٠، ٢٤٣، ٢٥٩، ٢٦٣

مسجد الصخرة : ٢٢٧

مسجد قباء : ٢٨٢

مصر : ١٠، ١٤، ١٧ — ٢٠، ٢١، ٢٤

١٩، ٣٠، ٩٠، ١٠٩، ١٣٣، ١٨٥

٢٠٥، ٢٣٧ — ٢٤٠، ٢٥٠

٢٥٣، ٢٥٨، ٢٧١، ٢٨١

٢٨٧، ٣٠٥

معرة حمص = معرة النعمان

معرة النعمان : ٢٣٠

مقام إبراهيم : ٥٥، ٦٩

مكة : ٢٩، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٨ — ٤٠

٤٣، ٤٥ — ٤٧، ٥١، ٥٣، ٥٧

٥٩، ٦٤، ٦٥، ٧٠، ٨٥، ١٥٢

٢١٥، ٢٤٤، ٢٥٩، ٢٩٠، ٣٠٥

منازل هنزيل : ٨٢

منبج : ٢٣٦

الموصل : ١٩٤، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢١

٢٢٥، ٢٩٤، ٢٦٦ — ٢٦٨

ميسان : ٢٥٧، ٢١٤

(ك)

كنسك : ١١١، ١٥٧

الكنيسة : ٣١، ٤٠، ٤٣، ٤٧ — ٥١

٥٣ — ٥٥، ٩٥، ١٧٩، ٢٥٩، ٢٦٣

كنيسة أنطاكية : ١٣٣

كنيسة القديسة أيا صوفيا : ٢٥٠

كنيسة قسطنطين : ٢٥٨

كنيسة القيامة : ١٣٤، ٢٥٨، ٢٥٩

٢٦١، ٢٦٢

كنيسة المهد : ١٣٤، ٢٥٩، ٢٦١

كنيسة يوحنا المعمدان : ١٢٠ — ١٤٢

كوني : ١٨٨، ١٩٠

الكنيسة : ٢١٨ — ٢٢٣، ٢٧٥، ٢٢٦

٢٦٦، ٢٨٦، ٢٩٩، ٣٠٥

(ل)

اللاذقية : ٢٢٩ — ٢٣١

اللد : ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٧

(م)

ما سبذان : ٢١٣

محنة : ٢٧، ٢٨

محراب داود : ٢٥٨

المحيط الهندي : ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٦

المدائن : ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣

١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٣ — ١٢٦

١٢٨، ١٣٢ — ١٣٤، ١٤٣، ١٤٩

١٥٤، ١٥٥، ١٥٧ — ١٦١

١٦٤ — ١٦٧، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٤

١٨٧ — ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢

٢٠٥، ٢٠٧ — ٢١٠، ٢١٢

٢١٥، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١

٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٥، ٢٥٩، ٢٨٧

المدينة : ١٨٤، ١٩٠، ١٩٤، ٢٤٤ — ٢٤٩

٢٦١ — ٢٦٣، ٢٧٥، ٢٧٧

٢٨١، ٢٨٦، ٢٨٧ — ٢٩٢

١٠٠، ١٠٣ — ١٠٥، ١٠٧

١١٢، ١١٦ — ١١٩، ١٢٣، ١٢٤

١٢٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٦، ١٤٧

١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٨١

١٨٢، ١٩٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٧

٢١٠، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢١

(و)

وادی رابع : ١٥٢
وادی الثور : ١٤٥
واسط : ٢٦٨
الواقصة : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٤٨
الوليعة : ١٥٥ ، ٢٩٠

(ي)

يافا : ٢٤٩ ، ٢٤٧
اليموك : ١١٨ ، ١٢٩ — ١٣٣ ، ١٣٦ ،
١٣٩ ، ١٤٤ — ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦١ ،
١٨٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ،
٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٧١ ،
٢٨٥
اليامة : ٨١ — ٨٠
اليمن : ٤ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٩٤ ،
١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٨١ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ،
٢٨٧

(ث)

ثابلس : ٢٤٧ ، ٢٤٩
ثجد : ١٥١
تجران : ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥
التجف : ١٦٣
تصيين : ٢٦٦ ، ٢٦٨
التمارق : ١١١ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨
تھاوند : ١٨٨
نهر الأردن : ١٣١ ، ٢٤٠
نهر الأرند (الأرند) : ٢٣٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥
نهر أورتس = نهر الأردن
نهر بردي : ١٣٥ ، ١٤٠
نهر المتيق : ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٧٩
النهرين : ١٦٣ ، ١٨٣

(ا)

الهند : ٢١٣
هيت : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
هيكل سليمان : ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
٢٦١ ، ٢٦٢

الفاروق ع

للمؤلف

- ذو النورين عثمان بن عفان الطبعة الأولى ١٩٦٤
 الشرق الجديد الطبعة الأولى ١٩٦٣
 الإمبراطورية الإسلامية الطبعة الثانية ١٩٦١ » ١٩٦٠
 هكذا خلقت » الثانية ١٩٥٩ » ١٩٥٥
 مذكرات في السياسة المصرية الجزء الثاني » ١٩٥٣
 » » » » » ١٩٥١
 الفاروق عمر » الثاني » الطبعة الرابعة ١٩٦٤ » ١٩٤٥
 » » » » » الأول » ١٩٦٣ » ١٩٤٤
 الصديق أبو بكر » الخامسة ١٩٦٤ » ١٩٤٢
 في منزل الوحي » الرابعة ١٩٥٨ » ١٩٣٧
 حياة محمد » الثامنة ١٩٦٣ » ١٩٣٥
 ثورة الأدب » الثانية ١٩٤٨ » ١٩٣٣
 ولدى » » » ١٩٣١
 تراجم مصرية وغربية » الثالثة ١٩٥٤ » ١٩٢٩
 عشرة أيام في السودان » الثالثة ١٩٤٩ » ١٩٢٧
 في أوقات الفراغ » ١٩٢٥
 جان جاك روسو الجزء الثاني » ١٩٢٣
 » » » » » الأول » ١٩٢١
 زينب الطبعة الخامسة ١٩٦٣ » ١٩١٤
 دين مصر العام — بالفرنسية » ١٩١٢

المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور هيكل

- التقديرية والمعرفة تحت الطبع
 يوميات باريس » »
 مجموعة القصص القصيرة » »

الفاروق ع

جَعَلَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبَهُ
حَدِيث شَرِيف

بقلم
محمد حسين هادي

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة



مكتبة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأنها بها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٦٤

فهرس الكتاب

صفحة

الفصل الخامس عشر : التوسع في فتح فارس ١

السبب في عدول عمر عن سياسته العربية إلى سياسة التوسع في الفتح — لماذا تشجع الفرس على نقض عهودهم مع المسلمين ؟ — غزو الأهواز وتعقب الهرمزان براءهمز ثم بتستر — الاستيلاء على تستر وأسر الهرمزان — سبب هزيمة الفرس بتستر — توغل المسلمين في الأهواز — وصول الهرمزان المدينة وحواره مع عمر — الأحنف بن قيس يشير بالانسياح في أرض فارس .

الفصل السادس عشر : غزوة نهاوند ١٩

المسكبات بين يزيدجرد وأمرأ فارس لاثورة بالمسلمين — عزل سعد بن أبي وقاص عن إمارة الكوفة — الجتماع الفرس بنهاوند في جوع مروعة ، وصدى أنبائهم بالمدينة — عمر يؤمر النعمان ابن مقرن على الجيش الذي يلقي الفرس بنهاوند ، ويكتب إلى أمرأ الكوفة والبصرة بإمداده — المسلمون يحاصرون نهاوند بعد أن أخفقت سفارة الصلح إلى الفيزان أمير الجند الفارسي — كيف استدرج المسلمون الفرس خارج المدينة — استشهاد النعمان بن مقرن ، ثم انهزام الفرس ومقتل الفيزان — حزن عمر لمقتل النعمان — حديث السفطين اللذين ردهما عمر على المجاهدين فيبعا بأربعة آلاف ألف — غزوة نهاوند فتح الفتوح ؛ فلم تقم للفرس بعدها قائمة أبداً .

الفصل السابع عشر : القضاء على سلطانة الأطلسية ٣٤

لمحة من تاريخ فارس — عمر يأمر بالسير لفتح أصبهان — فتح أصبهان وهمدان والرى — ولايات الشمال في فارس لصالح المسلمين — موقف أمرأ الفرس من يزيدجرد بعد صلح الولايات الشمالية — استيلاء المسلمين على ولايات فارس وسابور وأردشير وإصطخر وكرمان ومكران — الأحنف بن قيس يسير في خراسان آخر — مقتل ليزدجرد — فرار يزيدجرد إلى خاقان الترك ، وعوده معه لحرب المسلمين — اندحار يزيدجرد وفراره إلى الترك ثم مقتله في خلافة عثمان — أبناء فارس والإسلام .

الفصل الثامن عشر : التفكير في فتح مصر ٦٢

تردد عمر في قبول ما نصحه به عمرو بن العاص من فتح مصر — إلحاح ابن العاص وكسبه ميل الخليفة إلى رأيه — الصلات القديمة بين مصر وبلاد العرب — حديث القرآن عن مصر — الصلة بين مصر والعرب لعهد رسول الله — الإسكندرية في عهد الرسول — اضطهاد هرقل لأباط مصر — سبب الاضطهاد الأعظم وأثره — الحجج التي أقنعت عمر بفتح مصر — لمحة عن عمرو بن العاص — عمرو يسير إلى مصر ويدخل أرضها .

الفصل التاسع عشر : فتح مدينة مصر وحصونها ٩٢

انتصار عمرو بالفروما وقعود الملقوقس عن إمداد الروم — سير الأطربون إلى بلبس وهزيمة بها — موقف أهل مصر من المسلمين — المسلمون أمام بابليون ومنف — استيلاء المسلمين على حصن

صفحة

أم دينين — مجيء المدد الذي بعثه عمر إلى مصر — عمرو يعود من الفيوم فيلقى المدد على رأسه الزبير بن العوام بعين شمس — موقعة عين شمس وانتصار المسلمين الحاسم فيها — محاصرة المسلمين حصن بابلون — المفاوضة بين المقوقس والمسلمين ، ورفض هرقل للصلح الذي عقده عمرو والمقوقس — استيلاء المسلمين على حصن بابلون — ابن العاص وقبض مصر — السير إلى الإسكندرية .

الفصل الثم للمسلمين : فتح الإسكندرية ١٢٤

الاضطراب في بلاط القسطنطينية — عودة المقوقس للدفاع عن الإسكندرية — انتصار المسلمين بنقيوس — سيرهم إلى كريون وانتصارهم بها — العرب أمام الإسكندرية الساحرة — مقاومة الإسكندرية وطول محاصرتها — موقف المصريين من محاصرة المسلمين للإسكندرية — عمر بن الخطاب يكتب إلى ابن العاص يستدعى فتح الإسكندرية — كيف تم هذا الفتح بعد كتاب عمر ؟ — دخول المسلمين الإسكندرية وفتنتهم بها — حضارة الإسكندرية وعمارتها وأثرها في نفوس العرب — مصير المقوقس بعد فتح الإسكندرية .

الفصل الحادي والعشرون : مصر في يد المسلمين ١٥٩

المسلمون يشترون في أرحاء مصر — إخضاعهم ما بقي في البلاد من مقاومة — سير ابن العاص إلى برقة وطرابلس — القتال بين المسلمين وأهل النوبة — هل فتحت مصر عنوة أم صلحاً ؟ — شروط الصلح التي فرضت على مصر — الجزية التي كلف المصريون دفعها — سياسة ابن العاص في مصر أساسها حرية العقيدة والتخفيف من الضرائب — بناء مدينة القسطنطية — إقبال المصريين على الإسلام ودخولهم فيه — كيف نظم ابن العاص حكم مصر ؟ — وصل النيل بالبحر الأبيض — وصف عمرو لمصر — أسطورة عروس النيل — أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية — تنفيذ الأسطورتين — مكاتبات عمر وعمرو في أمر الجزية والخراج ودالاتها — قدر عمرو في فتح مصر .

الفصل الثاني والعشرون : حكومة عمر ٢٠٠

نظام الحكم وتطوره في بلاد العرب — عمر يتم وحدة شبه الجزيرة ويقضى على كل الفوارق بين العرب — شخصية عمر والتطور السريع في شبه الجزيرة — المدينة العاصمة ، والشورى نظام الحكم — نظام الشورى في عهد عمر — موقف عمر من بني هاشم ومن رؤوس قريش — بقاء المسجد بالمدينة مكان النظر في الشؤون العامة — قسوة عمر بنفسه وبره بالمسلمين — عدل عمر ، وشدة على ذويه وعماله — تولية عمر للقضاء ورأيه في القضاء — تدوين الديوان وفرض العطاء — تطور الحكم من البداوة العربية إلى ناحية الحضارة .

الفصل الثالث والعشرون : الحياة الاجتماعية في عهد عمر ٢٣٩

الانتقال السريع في الحياة الاجتماعية — نظام الأسرة وهوان المرأة في الجاهلية — حياة القبيلة والصفات التي تنشأ عنها — عبادة الأصنام في الجاهلية — قضاء الإسلام على الشرك

صفحة

والوئنية — احترام الإسلام للمرأة وأثر ذلك في الحياة الاجتماعية — تعدد الزوجات ونظام الميراث في الإسلام — الإسلام والتنظيم الاقتصادي — أثر عمر في التطور الاجتماعي — ما بقي من عادات الجاهلية بعد الإسلام — تعصب العرب لجنسهم وعذرم من ذلك — إقبال العرب على ألوان التناح والسبب فيه — موقف عمر من التناح خلاله وحرامه — النزاع بين النفسية الجاهلية والنفسية الإسلامية — فضل عمر في تطور الحياة العربية .

الفصل الرابع والعشرون : اجتهاد عمر ٢٧٣

نزول الوحي بالأحكام هداية للناس — اجتهاد رسول الله فيما لم ينزل به وحى — اجتهاد المسلمين الأولين — اجتهاد عمر قبل خلافته — عمر يمنع عطاء المؤلفة قلوبهم — ويمضي طلاق الثلاث بكلمة واحدة — وينهى عن رواية الحديث — ويأبى كتابة السنن — ويدبر الحد بسبب الاضطراب — ويساوى بين الناس في القضاء — ويجهد فيما لم يرد فيه نص في كتاب الله — ويأبى سمة الأرض بين المسلمين الذين فتحوها — وهو يعيل إلى الصرامة وإلى التطهر في اجتهاده — فيؤدى هذا الاجتهاد إلى قوة المسلمين وانفساح الإمبراطورية .

الفصل الخامس والعشرون : مقتل عمر ٣٠٣

جهد عمر في خلافته — استعجاله لقاء ربه — أبو لؤلؤة يطعنه بخنجر طاعنات فائتة — اضطراب المسلمين للحادث — الإرهاب بمقتل عمر — المسلمون يطلبون إلى عمر أن يستخلف — قصة الشورى — تفكير عمر في مصير المسلمين من بعده — حرصه على قضاء دينه ، وعلى أن يدفن في قبر الرسول — عاقبته حساب ربه — جزع المسلمين لوفاة — غسله وتكفينه ودفنه — الأدلة على المؤامرة لقتله — عبيد الله بن عمر يقتل المؤتمرين ، فيحبس — الشورى وموقف عبيد الرحمن بن عوف منها — بيعة عثمان وموقف على منها — عثمان يأبى القصاص من عبيد الله بن عمر ويمتثل الدية في ماله — رسم الله عمر ورضى عنه ! .

خاتمة ٣٣٤

تباين الأمم التي ألفت الإمبراطورية — تفكير أهل هذه الأمم في الإسلام — أثر الحروب في توسيع آفاق الفسكر — ماحدث من تفاعل بين خصائص الأمم التي ألفت الإمبراطورية ، وما أدى هذا التفاعل إليه — أثر الدين واللغة في وحدة الإمبراطورية واتساعها — بقاء الخصائص القومية مع قيام الوحدة الإمبراطورية — تفاعل هذه الخصائص يؤدي إلى قيام الحضارة الإسلامية — دورة الزمن ، وبرز الروح القومية وأثره في انقراض نظام الإمبراطورية .

تقدير وشكر ٣٤٩

فهارس الكتاب ٣٥٠

تذكرة

تناولت فصول الجزء الأول من هذا الكتاب ، وعددها أربعة عشر فصلاً ، صوراً من حياة عمر في جاهليته ، وفي العهد الأول من إسلامه ؛ حين صحبته رسول الله ، وحين مقامه إلى جانب أبي بكر إبان خلافته ، وحين آلت إليه إمارة المؤمنين ، بعد أن قضى الصديق على الردة في بلاد العرب ؛ فهد بذلك لوحدها السياسية ، ثم مهد للفتح وللإمبراطورية بغزو العراق والشام . وقد عرض الجزء الأول كذلك كيف تابع عمر هذه السياسة من يوم استخلف ؛ فوثق أواصر الوحدة العربية في شعبة الجزيرة ، وأزال ملك الأكاسرة من العراق وملك القياصرة من الشام ، ومد وحدة العرب من خليج عدن جنوباً إلى أقصى الشمال من بادية السماوة .

أما هذا الجزء فيتناول ما حدث بعد فتح العراق والشام إلى مقتل عمر ، ويعرض الألوان المختلفة لهذا العهد في السياسة والاجتماع والفقہ .

الفصل الخامس عشر

التوسع في فتح فارس

كانت سياسة عمر أن يقف بالفتح في حدود العراق والشام لا يتعداها . وأن يجمع العرب بذلك في وحدة تمتد من جنوب شبه الجزيرة إلى شمال بادية السماوة . لذلك كتب إلى سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن ، حين بعث يستأذنه في مطاردة الفرس وراء جبلهم : « وَدِدْتُ لو أن بين السواد والجبل سداً لا يخلُصون إلينا ولا نخلُص إليهم ! حسبنا من الريف السواد . إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » . وكان عمر مخلصاً في هذه السياسة كل الإخلاص . والواقع أنها كانت خطوة جديدة في سياسة الإسلام ؛ فقد كان رسول الله يحرص كل الحرص على تأمين شبه الجزيرة وتخومها . حتى لا يعتدى الفرس أو الروم عليها ، وكان يرجو أن يَهْدِيَ الله كسرى وقيصر وأمراء مصر والشام والعراق إلى الإسلام بلا قتال . وكانت هذه سياسة أبي بكر حين أنفذ بَعَثَ أسامة لقتال الروم على تخوم الشام كما أمر به رسول الله . فلما دخل المُثَنَّى بن حارثة الشيباني العراق وأمدّه الصديق بخالد بن الوليد فانتصر على الفرس ، ثم لما بدأ الفتح في الشام ، لم يَدْرُ بخاطر أبي بكر ولا بخاطر عمر أن يتخطيا حدود العراق والشام إلى ماوراءها . فقد كان بالعراق والشام من قبائل العرب التي نزحت من شبه الجزيرة وأقامت مملكة الحيرة ومملكة غَسَّان من يمتّون إلى المسلمين بأوثق الصلة ؛ فمن حق المسلمين أن يطعموا في مؤازرتهم وانضمامهم إليهم . فأما ما وراء ذلك من أرض الفرس وأرض الروم فلم يكن للخليفَتين الأولين مطمعٌ في غزوه وفتحه .

عل أن الحوادث كثيراً ما كانت أقوى من الرجال ، وكثيراً ما حملتهم على تعديل اتجاههم وتغيير سياستهم وقد حملت الحوادث عمر على تعديل سياسته بإزاء الفرس وبإزاء الروم على كره منه بادئ الأمر ، ثم ملأته حماسة للسياسة الجديدة بعد أن حالف النجاح هذه السياسة إلى مدى لم يتوقعه الخليفة ولم يتوقعه أحد غيره .

فأنت تذكر أن الهرمزان أحد قواد الفرس بالقادسية قد نجا من الموت وفر بعد الهزيمة فاجأ إلى الأهواز وأقام بها ، وأن يزدجرد عاهل الفرس فر بعد فتح المدائن إلى حُلوان ثم إلى الرمي ، وأن سائر جنود فارس وقوادها فروا أشتاتاً في مُختلف أرجائها ، فلما أمر عمر سعداً ألا يتعقبهم وأن يتولى تنظيم العراق وإصلاحه . حَيَّل إلى الفرس أن العرب أمسكوا عن تعقبهم خوفاً منهم ، فأطعمهم ذلك فيهم وأغرامهم بمناوشتهم . وكان أهل الأهواز أسبق من غيرهم إلى المناوشة ، فسكوا لذلك أول من اصطدم بالمسلمين ، فدارت الدائرة عليهم ، فكانت هزيمتهم طليعة ما تلاها من هزائم الفرس واندحارهم .

والأهواز تقع إلى الجنوب الشرقي من العراق العربي وتتصل به ، ويجرى فيها من فروع دجلة نَهْر دُجَيْل ونهْر كَارُون ، ولا يفصلها عن العراق العربي جبل فارس الرفيع الذرى ، وإن فصلت بينهما في بعض الأماكن مرتفعات يتعذر اجتيازها إلا من مسالك مألوفة لأهل تلك الأرجاء . وكان موقع الأهواز على مقربة من الأُبلة والبصرة ، سبباً في اشتباك أهلها بالعرب قبل غيرهم من أهل فارس . فأكثر الروايات على أن المسلمين فتحوا الأُبلة في عهد أبي بكر أول ما ذهب خالد بن الوليد إلى العراق ، وأن الفرس استردوها بعد ذلك فبقيت في سلطانهم حتى فتحها عُتْبَةُ بن غزوان في عهد عمر بن الخطاب .

وتوفي عُتْبَةُ وولى عمر المغيرة بن شُعْبَةَ على البصرة مكانه^(١) . وكان عُتْبَةُ قد شَخَّص إلى المدينة قُبَيْل وفاته ، فخذت أهل الأهواز أنفسهم بالثورة بسلطان المسلمين في غيابه تفرج المغيرة لقرزوم حتى يؤمن الترخوم بينه وبينهم . ولم يجد مَشَقَّة في التغلب عليهم . لكن ما يعرفه من سياسة عمر جعله لا يتعقبهم داخل بلادهم ، بل يكتفى بهزمهم ومصالحتهم على مال يدفعونه . ثم إنهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى نكثوا عهدهم ، فأحلقوا المسلمين من صلحهم وأباحوا أرضهم .

ذلك أن عمر عزل المغيرة بن شُعْبَةَ عن البصرة وولاه أبا موسى الأشعري ، وأمره أن يُشَخَّص المغيرة إليه ليحاكمه . فقد كانت أم جميل إحدى نساء بني هلال تمشي الأمراء والأشراف ، وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها ، فَنَشِيتِ المغيرة يوماً

(١) راجع ص ٢١٤ ، ج ١ من هذا الكتاب .

فهيبت ربح فتح كوة داره ، فراه أبو بكره وجماعة معه عليها . ثم خرج المغيرة ليؤم الناس للصلاة ، فنفعه أبو بكره وقال له : لا تصل بنا ، وكتب إلى عمر بما حدث . ودعا عمر أبا موسى الأشعري إليه أول ما قرأ الكتاب وقال له : « يا أبا موسى إني مُستعمالك . إني أبعث بك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرّخ فالزّم ماتعرف ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك » . وأجاب أبو موسى : يا أمير المؤمنين أعني بعدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار ، فإني وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملاح لا يصاح الطعام إلا به . قال عمر : « فاستعن بمن أحببت » فاستعان أبو موسى بتسعة وعشرين صحابياً . وبلغ أبو موسى البصرة ومعه كتاب عمر إلى المغيرة ، وإياه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس : « أما بعد ، فإنه بلغني نبأ عظيم ، فبعثت أبا موسى أميراً ، فسلم ما في يدك ، والعجل ! » . وكتب أمير المؤمنين إلى أهل البصرة : « أما بعد ، فإني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم ليأخذ لضعيفكم من قويمكم ، وليقاتل بكم عدوكم ، وليدفع عن ذمتكم ، وليمنضى لكم فيأكم ثم ليقسمه بينكم ، وليتقى لكم طرقكم » .

وارتحل المغيرة ومُتهموه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم ، فشهد ثلاثة شهادة كاملة ، وشهد الرابع بما يؤيد أقوالهم ، ولكنه أجاب بأنه لم يعرف المرأة ولم ير الفعل ، فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا الحد . قال المغيرة موجّهاً القول إلى أمير المؤمنين : « اشفني من الأعبد » ؛ يريد بذلك أن يُردّ إلى البصرة . لكن عمر نظر إليه شزرا وقال : « أسكت ! أسكت ! الله نأمتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرجحتك بأحجارك ! » وكذلك ظل أبو موسى على ولايته البصرة .

رأى أهل الأهواز هذا التغير في ولاء البصرة ، فُخِّل إليهم أنه سيجرّ إلى اضطراب يثير المسلمين بعضهم ببعض ويمكّنهم من الثورة بهم ، ألبسوا قدألفوا مثل ذلك في بلاط كسرى ! ألم يروا صلات أشرافهم وأمرائهم يكتنفها جوٌّ من الدسائس يجعل كل أمير يثور بخصومه ما أمكنته الفرصة لذلك نقضوا عهدهم وأبوا أداء الجزية التي صالحوا المغيرة عليها . وزاد في تشجيعهم على الثورة بالمسلمين أن العلاء بن الحضرمي أمير البحرين اجتاز الخليج الفارسي بالجنح في السفن لغزو المنطقة المقاتلة له ، منطقة فارس ، ونزل بمجنوده فسار قاصداً

إصطخر العاصمة العظيمة بعد ما تغلب على من لقيه من جنود الفُرس . لكنه نسي أن يحصى ظهره ، فقطع الفرس عليه خطاً رجعتة إلى السفن . وكان العلاء قد اندفع إلى هذه المغامرة من غير أن يستأذن أمير المؤمنين ، مع ما يعرفه من كراهية عمر ركوب البحر . وإنما فعل ذلك لأنه نفّس على سعد بن أبي وقاص أن يفتح المدائن ، فأراد هو أن ينافسه فيفتح إصطخر فيكون له مثل نغاره . فلما أخفق وأحيط به استغاث ، فأمر عمر حامياته بالبصرة والكوفة فأنقذوه وأنقذوا من معه . وعزل عمر العلاء عن البحرين وجزاه عن مغامرته بأن جعله مرءوساً لسعد بن أبي وقاص بالعراق .

شجعت هذه العوامل الفرس على الثورة بالمسلمين ، فأبوا أداء الجزية التي كانوا قد ارتضوها . فلم يكن بدّ من مناجزتهم ، حتى لا يغريهم سكوت المسلمين عنهم بالإمعان في الثورة ، والتفكير في المقاومة ، والاسترسال من ذلك إلى اجتياز التخوم واثناك حرمة العراق العربي . لذلك جمع أبو موسى قوّاته ودفعها إلى مدينة الأهواز ، ففتحتها بعد أن كانت قد فتحت منذر ونهر تيرى .

من هم أمراء الجند الذين تولّوا قيادة المسلمين في هذا الغزو ؟ ومن الذين واجههم من قوّاد الفرس وقاتلهم فانهزموا أمامهم ؟ وكيف كانت مسيرة الجيوش ؟ وماذا كانت خُطة القتال ؟ تختلف الروايات على إجمال ذلك وتفصيله اختلافاً كبيراً ، على أنها تنتهي جميعاً إلى أن المسلمين اجتازوا تخوم خوزستان ، وساروا في أرضها وحصروا الأهواز وفتحوها ؛ وأن الفرس طلبوا الصلح بعد فتح الأهواز فأجابهم المسلمون إليه على أن يظل ما فتحوه من أرض خوزستان في حوزتهم وسلطانهم ، وأن يقرّ الفرس في بلادهم ولا يتخطّوها . والروايات على اختلافها تتفق في تأييد المعروف من سياسة عمر وحرصه على أن يقف بالفتح في حدود العراق العربي ، كما أنها تقصّ من التفاصيل ما يكشف عن جانب له قيمته في هذا المعنى . لذلك يحلّ بنا أن نلخص هذه الروايات في إيجاز لا ينجي عليها .

يطيل الطبري الحديث عن فتح منذر ونهر تيرى ، وعن موقف الهرمزان من المسلمين . وخلاصة روايته أن الهرمزان قرّ من القادسية إلى الأهواز ، وجعل يُبغض بأهلها على ميسان ودشت ميسان المجاورتين للعراق العربي متجهاً إليهما من وجهين هما منذر ونهر تيرى .

وقد استمد عتبة بن غزوان سعد بن أبي وقاص لقتاله فأمدّه ، فوجّه سلمى بن القَيْن وحرّملة بن ربيعة فنزلا على حدود ميسان ودست ميسان واستمداً غالباً وكليّناً ، من أبناء عمومته من العرب الذين استوطنوا الأهواز ، ودفعوهم للقاء الهرمزان . واتعد هؤلاء العرب من أبناء العم ، فلقوا الفرس وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا منازل ونهر تيرى ، وبلغوا دُجَيْلاً واجتازوه إلى سوق الأهواز . وعرف الهرمزان ما أصاب قومه ، فطلب إلى المسلمين الصلح فأجيب إليه على ألا يجلو المسلمون عما فتحوا من أرض خوزستان . ثم حدث أن اختلف الهرمزان مع غالب وكليب على تخوم ما بينهما من البلاد ، ولم ينزل على حكم سلمى وحرملة ، بل استعان بالأكراد حتى كثف جنده ، ونقض ما بينه وبين المسلمين من عهد . وأحيط عمر عملاً بما حدث . فأمر حرقوص بن زهير السعديّ الصحابي على الجند الذي نهّد لقتال الهرمزان ، فأجلاه عن الأهواز ، واضطره أن يفر مشرفاً إلى رامهرمز ، ثم أمر حرقوص جزء بن معاوية بمطاردته . فلما رأى الهرمزان أن لا قبل له بقتال المسلمين طلب الصلح كره أخرى ، فأذن عمر بإجابه إليه . وكتب إلى جزء وإلى حرقوص بلزوم ما غلبا عليه ، وأذن لجزء في عمارة البلاد ، فشق الأنهار وعمر الموات .

هذه خلاصة وجيزة لرواية ابن جرير . وقد أخذ ابن الأثير في تاريخه الكامل بهذه الرواية . أما ابن كثير فقد أوجز في تلخيصها ، فلم يزد على القول بأن المسلمين نصروا على الهرمزان وفتحوا منازل الأهواز ونهر تيرى ، وقتلوا من جيشه جمّاً غفيراً ، وسلبوا ما بيده من الأقاليم والبلدان إلى تستر . وابن خلدون أكثر إيجازاً . ولعل ما بين رواية ابن جرير ورواية البلاذريّ من خلاف هو الذي دعاهم إلى هذا الإيجاز .

وخلاصة رواية البلاذريّ أن المغيرة بن شعبه غزا سوق الأهواز بعد أن هزم البيرواز وصاحه على مال . فلما ولى أبو موسى البصرة مكان المغيرة نكث البيرواز ، ففزاء أبو موسى ففتح الأهواز ، وأصاب المسلمون من الفرس سبيّاً كثيراً . لكن عمر كتب إليهم : « إنه لا طاقة لكم بعمارة الأرض ، فخذلوا ما في أيديكم من السبي ، واجعلوا عليهم الخراج » ، فردّوا السبي ولم يملكوهم . وسار أبو موسى من بعد إلى منازل فحاصر أهلها فاشتد قتالهم ، واستشهد المهاجر بن زياد في حربهم ، فحزّوا رأسه ونصبوه بين شرفتين

من شرفات قصرهم . وتولى الربيع أخو المهاجر إمارة المقاتلة ، ففتح منازل عنوةً بعد أن قتل المقاتلة وسبي الذرية . وكتب عمر إلى أبي موسى : « إن منازل كقرية من قرى السواد ، فردّوا عليهم ما أصبتم » .

أنت ترى أن اختلاف الروايات لا يقتصر على أسماء الذين قاموا بهذه الغزوات وكيف قاموا بها ، بل يتجاوز إلى تعاقبها التاريخي . والخلاف على تعيين بدئها ليس بأقل من الخلاف على أمراء الجند فيها ؛ فقد قيل : إنها بدأت في السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، وقيل في السنة السادسة عشرة ، وقيل في السنة السابعة عشرة ، وقيل في السنة التاسعة عشرة ، وقيل في السنة المتممة العشرين . وأكبر الظن أنها بدأت في أواخر السنة الخامسة عشرة ، وأن ما كان ينقضى بين كل صلح ونقضه جعلها تستطيل على الزمان كل هذه السنوات .

على أن الروايات المختلفة تتفق كلها على أن عمر كان حريصاً على سياسته ألا يتخطى الفتح حدود العراق العربي . ولذلك كان يحيز الصلح كلما طلبه الفرس بعد هزيمتهم ، وكان يأمر بردّ السبي إلى حريتهم والاكتفاء منهم بالخراج ، ثم يأمر رجاله بتعمير البلاد وشق الأنهار خلالها وإصلاح الموات من أرضها وإقامة العدل بين أهلها . ولو أن الفرس أذعنوا للأمر الواقع وارتضوا هذه السياسة وأخلصوا في عهدهم من المسلمين ، لبقى ليزدجرد سلطان فارس ولما امتدّ الفتح الإسلامي في عهد عمر إلى ما امتد إليه .

لم يكن قتال الفرس والتغلب عليهم ثم الظفر بهم بالأمر اليسير في هذه الأرجاء ؛ فقد كانوا يقاومون أشدّ المقاومة ، وكانوا يقفون المسلمين مواقف بالغة غاية الدقة ، ويضطرونهم أحياناً إلى الارتداد عن موقع إلى غيره حين يرون هذا الموقع أمتع من أن ينال . ولقد خرج جزء بن معاوية يتعقب الهرمزان في تراجعه إلى رَامَهْرْمُز ، حتى إذا انتهى إلى قرية الشُّعْرُ أعجزه الهرمزان ، فمال إلى قرية لا يطيق أهلها منعها .

عرف يزدجرد مقاومة بنى وطنه ، فطمع في استرداد ما ضاع من ملكه ، فجعل يثير حمية الفرس ويحرك حماسهم بإظهار الألم على ما سلف من هزائمهم وما استولى عليه العرب من بلادهم . قيل : إنه كان يبرو وقتئذ ، وقيل كان ياصطخر ، أو بقم ،

وإنه كتب إلى أهل فارس يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم « أن قد رَضِيتُم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاها والأهواز ، ثم لم يَرْضُوا بذلك حتى تَوَرَدوكم في بلادكم وعقر داركم ؛ فتحرَّ كوا أهل فارس تنتصروا » . وتكاتب أهل فارس وأهل الأهواز وتعاهدوا وتعاهدوا وتوافتوا على النصرة .

بلغت هذه الأنباء حرقوص بن زهير وأسرار المسلمين ، فأبلغوها عمر ، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وعجل ، وسمي جماعة من أبطال المسلمين يسرون معه لينزلوا بإزاء الهرمزان حتى يتبينوا أمره . وكتب إلى أبي موسى أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً عليهم سهيل بن عدي ، وسمي طائفة من الأبطال يسرون على رأس الجند معه .

أفكان ذلك عدولاً من عمر عن سياسته أن يلزم المسلمون العراق العربي ، فهو يريد بهذه البعوث أن يوغل في أرض فارس ؟ أم كان تأديباً للفرس ، فإذا أذلَّتهم الهزيمة لم يعودوا إلى الفدر ؟ الواقع أن عمر كان متردداً بين هذا وذاك ، ثم كان أشد ميلاً إلى الاستمساك بسياسته منه إلى الاستيلاء على أرض فارس . قدَّم عليه وفد من جند البصرة فيهم الأحنف بن قيس ، فتحدث إليهم ثم وجَّه الكلام إلى الأحنف يقول له : « إنك عندي مصدق ؟ وقد رأيتك رجلاً ! فأخبرني : أن ظلمت لدمي ، المظلمة نفروا أم لغير ذلك ؟ » . وأجابه الأحنف . « لا ! بل لغير مظلمة ، والناس على ما تحب » . قال عمر : « فنعم إذاً . انصرفوا إلى رحالكم ! » . فلما بلغته أنباء يزدجرد وتحريضه أهل فارس على المسلمين أراد أن يلتقي على هؤلاء الفدرة العجزة درساً لا ينسونه ، فبعث إليهم النعمان بن مقرن وسهيل بن عدي .

سار النعمان مجتازاً أرض الأهواز ليلقي الهرمزان برامهرمز . وسمع الهرمزان بمسيره فنهَّد يلقاه بأربك^(١) في جيش عظيم من أهل فارس ، وبادره الشدة وهو رجوان بقطعه .

(١) أربك (بفتح الباء وضمة) : من نواحي رامهرمز ويقال فيها « أربك » بالالف . وقد وردت في بعض الكتب أثناء الكلام على هذه الفتوح : « أربل » باللام ، تحريف .

واشتد القتال بين الفريقين ، فلما رأى الهرمزان بأس المسلمين تراجع من أربك إلى رامهرمز ، فإلى تستر مطمئناً إلى أنه يستطيع أن يتحصن بأسوارها وبروجها ، وتقدم النعمان إلى رامهرمز فاستولى عليها .

وكان سهيل بن عدي قد سار من البصرة يريد لقاء الهرمزان ، فلما بلغته أنباء النعمان واستيلائه على رامهرمز وانحياز الهرمزان إلى تستر ، مال من سوق الأهواز ، لجعل وجهته إلى هذه المدينة الحصينة : وبلغها ، فألقى النعمان بن مقرن سبقة إليها ووقف بجنده أمام حصونها . وخرج سلمى وحرملة وحرقوق وجزء فنزلوا جميعاً على أسوارها . وحاصرت كل هذه القوات تلك المدينة المنيعه ، وقد تحصن الهرمزان وجنوده من أهل فارس ومن أهل الأهواز بخنادقها ، ووقفوا قبالة عدوهم مطمئنين إلى منعة حصونها منعة تحول دون اقتحامها وترد كل عاد عليها .

ولم يخطئ الهرمزان في تقديره ؛ فقد حاول المسلمون اقتحام أسوار المدينة فردوا عنها . وزاحفهم الفرس غير مرة ، فارتدوا على أعقابهم أحياناً ، وردوا المسلمين عن مواقعهم أحياناً أخرى . وطال الحرب سجالاً بين الفريقين ، وأيقن المسلمون بأس عدوهم بعد أن اجتمع إلى الهرمزان داخل أسوار المدينة جند عظيم جاء لنصرته من شتى الأرجاء ملبياً نداء كسرى . لا قبل للمسلمين إذاً باقتحام المدينة إلا أن يجيئهم مدد يزيدهم قوة . وكان أبو سبرة على جند الكوفة وجند البصرة جميعاً ، فكتب إلى عمر يصف له منعة تستر وقوة الفرس المتحصنين بها ويستمدّه : وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يسير في جند البصرة جميعاً مدداً لأبي سبرة . وأن يضع نفسه وقواته تحت إمرته . وسار أبو موسى بجنده يمدد أبطالا شهدوا المواقع وأبلوا فيها بلاء كفل انتصارهم بهم جميعاً .

واستمر الحصار واشتد القتال ، وكان الفرس يخرجون من أسوار المدينة يزاحفون المسلمين ثم يرتدون إلى الحصون بعد أن يصاب من الفريقين عدد كبير : وكتب أبو موسى إلى عمر يصف له ما يلقونه ، فكتب الخليفة إلى عمار بن ياسر ، وكان على الكوفة ، أن يسير مدداً إلى أبي سبرة ، وأن يقيم عبد الله بن مسعود على إمارة الكوفة مكانه .

ورأى المسلمون حين أدركهم عَمَّار وجنوده أن لا مَقَامَ لهم حول الأسوار ، فلا بدَّ أن يقتحموا المدينة بعد أن طال حصارهم لها مشهوراً . ورأى الهرمزان من أعلى الحصون تجهز المسلمون للقتال فأمر جنده بالخروج إليهم والشدَّة عليهم ، وكله اليقين أنه ظافرٌ بهم فردُّهم على أعقابهم . وخرج هو بنفسه ، حتى إذا كان على أبواب المدينة يقاتل المسلمين ويقتل منهم ، لقيه البراء بن مالك وعرفه فاندفع إليه يريد قتله . ولم تخدع البراء نفسه ؛ فقد كان البطل الجرب والفراس المَعْلَم ، عرف له المسلمون مواقفه في حروب الردَّة وفي حروب العراق والشام جميعاً ، وشهدوا له بأنه لا يغلَب . ولقد أردى أمام تستر مائة مبارز خرجوا إليه ينازعونه الشجاعة والبأس . لكن الهرمزان لم يكن دونه قوة وبأساً ؛ لذلك انفلت من ضربة سددها إليه خَصْمُهُ ، ورمى البراء بضربة أصمته قتيلاً . وخرج جَزْأَةُ بن ثور يأخذ بثأر البراء فلم يكن أحسن منه حظاً ، فاستشهد كما استشهد غيره من خيرة أبطال المسلمين وشجعانهم . لكن المسلمين كانوا يعلمون أن تَستَر عاصمة خوزستان وأكثر بلادها مَنَعَةً ، وأنها إن تُغْنِمَ تُخَضِّدُ شوكة الفرس وتُضَعِّضُ عَزَمَتَهُمْ . لذلك لم يفلَّ من عزمهم مقتل الصناديد من إخوانهم ، بل زادهم استشهاد هؤلاء حباً للقتال وإقداماً عليه وبلاء فيه وإقبالاً على الموت ابتغاء الظفر . ومالت الشمس آخر النهار وقد تولَّى الفرس الإعياء ، فلم يكن لهم يدٌ من التراجع إلى المدينة والتحصن بقلاعها وأسوارها . وأصبح الصباح فلم يخرج منهم للقتال أحد . ذلك بأنهم رأوا المسلمين استحَبُّوا الموت على الحياة ، وأقسموا لا يبرحون تَستَر أو يفنوا عن آخرهم .

وضاقت المدينة بالفرس وطالت حربهم ، فخرج أحد بنيها على غفلة منهم واستأمن أبا موسى فأمنه على أن يدلّه على مَأْتَى المدينة يكون منه فتحها . وفرض أبو موسى للرجل ولأهله رزقاً إذا أظفر الله المسلمين بعدوِّهم . ودلّهم الرجل على مدخل الماء للمدينة ، فوجّه أبو موسى معه أشرس بن عوف الشيباني ، نفّاض الرجل به دُجَيْلاً ودخل معه المدينة من سَرَبٍ يجري إلى جانب مدخل الماء ^(١) ، ثم ألبسه لباس الخدم وسار به في طرقات

(١) قال حمزة الأصفهاني : وبخوزستان أنهار كثيرة أعظمها نهر تستر بنى عليه سابور الملك شاذوران يباب تستر حتى ارتفع ماؤه إلى المدينة ، لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض . وهذا الشاذوران طوله نحو ميل ، مبنى بالحجارة المحكّمة والصخر وعمدة الحديد ، وبلاطه بالرخام .

تستر ، وأظهره على عوراتها ، وأراه الهرمزان ، ثم رده إلى أبي موسى ، فشهد عنده بصدق ما قاله هذا الفارسي . وندب أبو موسى أربعين رجلاً مع أشرس وأتبعهم مائتين وسار الجميع في أعجاز الليل ، فدخلوا المدينة وقتلوا الحرس وعَلَوْا الأسوار وكتبوا . وراع الهرمزان ما فاجأه من أصواتهم ، ففر إلى قلعته وهو يقول لمن حوله : « ما دلّ العرب على عورتنا إلا بعض من معنا بمن رأى إقبال أمرهم وإدبار أمرنا » . واختلط حابل الفرس بنابلهم حين رأوا أميرهم يفر من بينهم ، ورأوا أبواب المدينة بفتحتها العرب ويدخلونها عليهم . وبلغ من اختلاطهم واضطراب أمرهم أن كان الرجل منهم يقتل أهله وولده ويُلقِيهم في دُجَيْل خوفاً من الغزاة . ألم يكونوا قد سمعوا أن مدينتهم أعز من أن تنال ، وأن أميرهم أعظم شوكة وأشد بأساً من كل محارب ! وهذا الأمير يفر والمدينة تفتح أبوابها والعرب يقتحمونها ! فأى خير بعد هذا في عيش ذلة وضعة وانكسار أومتي يستحب الموت على الحياة إن لم يكن في مثل هذا المقام ! ! .

تحصّن الهرمزان بقلعته ، فأطاف به الذين دخلوا من مخرج الماء ، فأطلّ عليهم وقال لهم : « إن في جمعتي مائة نُشَّابة . والله ما تصلون إليّ مادام معي منها نُشَّابة ، وما يخيب لي سهم ! فما خير إيسارى إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ! » وإما وجه إليهم هذا القول وهو موقن أنه لا محالة مقتول إذا أُسر في قتال ، وأن لا أمل له في حياة إلا على صلح . وقال له القوم : ماذا تريد ؟ فأجابهم : أن أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي ما شاء . وأجابه القوم إلى ما طلب ، فرمى بقوسه وأمكنهم من نفسه ، فشددوه وثاقاً وساروا به إلى أبي موسى وذكروا ما كان بينهم وبينه . فحُمِلَ الهرمزان مع أسيرين مالك والأحنف بن قيس إلى عمر فكان بين الرجلين حديث طويل نقصه في ختام هذا الفصل . كان تسليم الهرمزان نفسه إيذاناً بإذعان تستر ؛ لذلك كف من بقي من أهلها عن المقاومة وألقوا بأيديهم ، فتسلّم المسلمون للمدينة ، واستولوا على ما فيها من الأموال ، فاستأثروا لأنفسهم بأربعة أخماسه ، وجعلوا الخمس للأمير المؤمنين . وقد بلغ نقل الفارس يومئذ ثلاثة آلاف ، ونفل الراحل ألف درهم .

يُحْمَلُ بنا ، قبل أن نتابع جيوش المسلمين في مسيرتها لفتح ما بقي من أرض خوزستان ،

أن نقف هنيئة نلتبس ما ينطوى عليه فتح تستر من عبرة . فتستر عاصمة خوزستان كما رأيت ، وكانت من أشد مدن الفرس مَنَعَةً وأقواها حصوناً . وكان يزدجرد قد وعد الهرمزان أن يطلق يده بالسلطان في خوزستان وفي منطقة فارس الواقعة جنوبها ، فكان ذلك من أقوى الحوافز دفعاً له إلى الاستماتة في المقاومة والوقوف في وجه المسلمين أشهراً . فكيف تُسَوِّل لرجل من أهل تستر بعد ذلك نفسه أن يدلَّ العرب على مدخلها ويكشف لهم عن عورتها ؟ بل إن بعض الروايات لتجري بأن جماعة من أمراء الفرس انضموا رجا لهم إلى المسلمين المحاصرين تُسَتَّرَ وعاونوهم في قتال بني وطنهم منحدرين بذلك إلى هاوية سحيقة من الانحلال النفسى . ثم ما للهرمزان يرضى ، بعد أن أبلى ما أبلى في الدفاع عن المدينة الحصينة ، أن يسلم آخر الأمر نفسه ، وأن ينزل على حكم خليفة المسلمين في حياته وفي موته ؟ .

لا أراى في حاجة إلى أن أكرر هنا ما ذكرته تعليقاً على القادسية من ضعف الشعور القومى و النفس الفارسية لذلك العهد ضعفاً جعل حب الذات والحرص على الحياة أقوى سلطاناً على هذه النفس من كل اعتبار معنوى ، وما أدى ذلك إليه من اضطراب البلاط واثتال الأمراء على السلطان . وإنما أريد أن أرتب على هذه الحال المعنوية الآثار التي انتهت إلى هزيمة تستر وما تلاها من الهزائم .

فحينما أدَّى انحلال الروابط الاجتماعية في أمة من الأمم إلى انحلال روحها المعنوى ، ضعفت مناعة هذه الأمة فقُصُرَتْ عن أن تمتد ببصرها إلى المستقبل ، وأن تقدّر لمصيرها فيه . فالروابط الاجتماعية مِلاك الحياة المعنوية وقوامها في الأمة . ومكان القوة المعنوية من الأمة مكان غريزة الاحتفاظ بالحياة في الفرد . وكما تدعونا هذه الغريزة للاحتفاظ بكل عضو من أعضائنا سليماً ما استطعنا الاحتفاظ به والدفاع عنه ، فإذا أوجب الاحتفاظ بحياتنا بتر عضو من الأعضاء لم نتردد في بتره بدافع من هذه الغريزة نفسها ، كذلك تدعو القوة المعنوية القائمة من الجماعة مقام تلك الغريزة من الفرد لأن تدافع الجماعة عن كل فرد من بنيتها إلى غاية ما تستطيع الدفاع عنه ، فإذا لم يكن بدٌّ من التضحية بطائفة من الأفراد محافظةً على كيان المجموع لم تتردد الجماعة في التضحية بهم ، واستحب هؤلاء

الأفراد هذه التضحية دفاعاً عن الكيان القومي الذي أعزّمهم ، والكفيل وحده بأن يعز أبناءهم وحفّدتهم .

وكما يحدث أن تنحلّ حيوية الجسم ، فإذا كل عضو من أعضائه يؤدّي وظيفته لحسابه لا لحساب مجموع الجسم فتضعف بذلك غريزة الاحتفاظ بالحياة ضعفاً ينتهي إلى الموت ، كذلك يحدث أن تضعف القوة المعنوية في الأمة بالخلل الروابط الاجتماعية بين أبنائها واقتصار كلٍّ منهم على التفكير في نفسه ولنفسه ، غير معتدٍّ بما بينه وبين سائر أفراد الأمة من تضامن هو الحفيظ للكيان الجماعية . عند ذلك تضعف الأمة بعد قوة ، وتذلّ بعد عزّ ، وتنحلّ معنوياتها انحلالاً هو النذير بانقراضها بوصفها جماعة لها كيانها .

الأمة تبلغ الروح المعنوية فيها أوج قوتها لا تعرف اليأس ولا الاستسلام ، وتؤثر الموت على حياة ضعف ومذلة . ومثل هذه الأمة لا يمكن أن تذلّ أو تضعف ، ولا يمكن أن تفنّي ؛ لأن حيويتها المعنوية تغلب على كل ضعف وتحول دون كل انحلال . أفرادها فيما بينهم كتلة واحدة متضامنة على الزمان كتضامنها في المكان ، فإذا فقدت الأمة طائفة منهم قامت طائفة غيرها مكانها وأدّت عملها ، حتى تسترد بالتعويض الطبيعي ما فقدت ، فتعود أكثر مفاعلةً وأشدّ بأساً مما كانت . وهذه الأمة لا يمكن أن يقوم من أبنائها من يدلّ عدوّها على عورتها حرصاً على أمنه في الحياة أو على حياته نفسها . فإذا أحيط برجل من رجالها ما أحيط بالهرمرزان آثر الموت مجاهداً ليكون جهاده ويكون موته مثلاً عالياً لمعاصريه ، ودرساً سامياً لمن يجيء بعده . وإذا قضى القدر أن تغلب هذه الأمة يوماً فلتعود في غدها فتسترد قوتها وتثار لنفسها ، وتحيا بذلك مع سائر الأمم حياة عزة وبأس وسلطان .

أمّا وقد انحلت الروابط الاجتماعية في الأمة الفارسية لأسباب أشرنا إليها في غير موضع من هذا الكتاب فأدى هذا الانحلال إلى تداعي قوتها المعنوية ، فقد كان طبيعياً أن يغلبها الروم وأن يغلبها العزب ؛ إذ كان أبنائها لا يلبثون حين يرون الدائرة تدور عليهم أن يدّلوا عدوّها على عورتها ، وأن يكونوا إلّياً عليها معه ليجتئوا لأنفسهم أمن الحياة وإن جنوا بأنفسهم على أمن الوطن . وقد رأيت على ذلك أكثر من مثل : رأيت

اضطراب البلاط ودسائسه ، ورأيت فرار القواد والجنود ، ثم رأيت فرار يزدرجده نفسه من المدائن وحُلوان . فلا عجب وذلك شأن الحياة المعنوية في أمة أن يغدر بها من أبنائها من ينسى أنه ابنها وأن فضلها عليه عظيم : ثم عجب أن يلتبس كل واحد الحياة لنفسه ، والجحد لنفسه ، والجاه لنفسه ، مادامت الروابط القومية قد عراها التفكك والانحلال .

تقع تُستَر على نهر كارون شمال الأهواز ، على نحو خمسين فرسخاً منها . وتقع سُوس على بضعة فراسخ إلى الغرب من تستر . لذلك كانت المناوشات مستمرة بين أهل سوس والمسلمين أثناء حصارهم تستر ، فلما فرغوا منها كان طبيعياً أن يتجهوا إلى سوس ويحاصروها ويقاتلوا أهلها . وقد فعلوا . ولقي المسلمون جهداً في قتالهم الذي طال حتى قُتد مافي المدينة من طعام . ولم يجد أهلها مفرعاً من الموت إلا إلى الصلح ، فسألوا دِهْمَانَهَا أن يفاوض المسلمين فيه . وطلب الدهقان إلى أبي موسى أن يؤمنه على حياة مائة من أهله ففعل ، وسمى الدهقان المائة ونسى نفسه ، فأمر به أبو موسى أن يقتل ، فنأدى : « رويدك ! أعطك مالا كثيراً » ، وأبى أبو موسى وضرب عنقه . ولو أنه ذكر حكم أبي بكر ، يوم عفا عن الأشعث بن قيس حين نسي نفسه في مثل هذا الموقف ، لما قتل رجلاً أسلمه مفاتيح مدينته .

أورد الطبري في الروايات التي جرت عن فتح السوس أن سياه الأسوارى كان قد خرج من أصهبان بأمر يزدرجده لقتال المسلمين ، فلما رآهم غلبوا على تستر بعد أن احتلوا بلاد الأهواز ، دعا الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه وذكر لهم فعال المسلمين وأنهم يلقون جنداً إلا قلوبهم ، ولا ينزلون حصناً إلا فتحوه ؛ فانظروا لأنفسكم » وأنه اتفق معهم فبعث إلى أبي موسى يقول : « إنا قد رغبنا في دينكم ، فسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب ، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه ، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم ، وتلقونا بأشراف العطاء ، ويمقد لنا الأمير الذي هو فوقك بذلك » .

وأجابهم أبو موسى : بل لغا مالكم وعلينا ما عليكم ، فلم يرضوا ، وكتب أبو موسى إلى عمر بما حدث ، فأجابه : « أعطهم ما سألوكم » . فأسلموا ، وفرض لهم أبو موسى ، وجعل لمائة منهم ألفي ألفين ، ولستة هم زعماءهم ألفين وخمسمائة .

وكتب أبو موسى إلى عمر يذكر له أن بالسوس قبر النبي « دانيال » ، وأن جسده مكشوف يستسقى به الناس ، فأمره عمر أن يكفنه وأن يدفنه . ولا يزال قبر دانيال حتى اليوم بهذه المدينة موضع الإجلال والإحترام ، وقد أقيم حوله في القرن التاسع عشر المسيحي معبد يزار ويتبرك به .

فرغ المسلمون من السوس فخرجوا إلى جُندَى سابر الواقعة على مقربة منها إلى الشمال الشرقي . فأقاموا على حصارها زمناً ، ثم إذا أبوابها تُفتّح لهم فجأة ، كأن الصلح بينهم وبين أهلها قد تم . وبعث المسلمون يسألونهم في ذلك مخافة أن تكون مكيدة ، فذكروا أنهم قبلوا الأمان الذي بعثه المسلمون إليهم ، وأقرّوا لهم بالجزية على أن ينعومهم . وعجب المسلمون ، ثم تبينوا أن عبداً من عبيدهم هو الذي كتب لأهل المدينة بالأمان . وكتبوا إلى عمر بما حدث ، فأمر بإجازة الصلح والوفاء به .

كانت أنباء هذه الفتوح تبلغ عمر في مواقيتها ، فلا يسعه كلما بلغه نبأ منها إلا أن يسجد شكراً لله على توفيقه المسلمين وتسديد خطاهم . وكان يزيد شكره ما يعرفه من أمر هذه المدن التي تُفتّح ، وما يذكره له الرسل من صفة ما لم يره منها . فالأهواز ، وأهرمزشير على لغة الفرس . كانت مدينة عظيمة تضم سبع كُور على طراز المدائن ، وكانت آهلة بالتجارة والسكان ، وكان الفرس يعظمونها في مختلف الأرجاء من مملكتهم . وتستر عاصمة خوزستان ذات الصيت الذائع في عالم يومئذ ، ومقلد الفرس الأيمن في الجنوب الغربي من سهل إيران ، والسوس ، وهي شوشان القديمة التي ظلت عاصمة ميدياً زمناً طويلاً ، كانت فتية الناس جميعاً بجبالها وروعها . وخوزستان كلها ، المملكة الفسيحة الأرجاء ، الممتدة ما بين العراق العربي والعراق العجمي ، كانت درة من أغلى الدرر في تاج الأكاسرة . لقد نصر الله المسلمين وأعزهم في كل مواقفهم بهذه البلاد . أفتيتاع عمر الفتوح فيأمر باقتحام فارس إلى أقصى الشرق ، أم يقف من هذه الفتوح عند ما استولى عليه ، ويدع الفرس فيما وراء ذلك لا يزعمهم ولا يحرك الثارات في نفوسهم ، فيدفعهم إلى مقاومة جيوشه مقاومة لا يعلم إلا الله ما تكون نتائجها ؟ .

بينما يفكر عمر في هذا الأمر ، ويستخير الله فيما يصنع . كان أنس بن مالك

والأحفف بن قيس يسيران من تستر في رجالهما يحملون خمس النىء والهرمزان معه إلى أمير المؤمنين . فلما اقتربوا من المدينة ألبسوا الهرمزان لباسه من الديباج الموشى بالذهب ووضعوا على رأسه تاجه (الآزين) الموضع بالدر والجوهر ، وأمسك بيده صولجاناً من الذهب الخالص المسكل بالياقوت واللالىء . ليرى عمر وأهل العاصمة الإسلامية صورة البهرج العظيم الذى يتزين أمراء الفرس به . وبلغوا المدينة وقصدوا دار عمر ، فعلموا أنه ذهب إلى المسجد يلتقى وقدماً من أهل الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه هناك فلم يروه وبصُرهم غامان من أبناء المدينة عرفوا ما يريدون ، فذكروا لهم أن أمير المؤمنين نائم في ميمنة المسجد متوسد برأسه . وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس له ، فلما خرجوا عنه نزع برنسه ثم توسده فنام . وعاد الأحفف وأنس والهرمزان واتبعهم الغلمان والنظارة الذين أخذوا بمنظر الأمير الفارسى في حُلة إمارته فساروا في أثره يملثون أنظارهم منه ، حتى دخلوا المسجد وأجالوا نظرهم في أرجائه ، ورأوا عمر وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره ، فجلسوا سكوتاً مخافة إزعاجه ، ولم يقطعن الهرمزان إلى قصد القوم من هذه الحركات المتعاقبة ذهاباً وجيئة لأنه لم يفهم شيئاً مما يقولون . فلما رآهم اطمأنوا بالمسجد وليس فيه إلا ذلك الرجل النائم في يده ديرة معلقة خُيِّل إليه أنهم سيُصَلُّون قبل أن يلقوا مليكهم . فلم يدُرْ بخاطره إلا أن يكون عمر الساعة في إيوانه دون حُجَّابة . فهذا الملك القادر الذى قهرت جيوشه فارس والروم لابد أن يكون له إيوان على بابه حُجَّاب . ومهما يكن من حديث الناس عن بساطة عيشه ، فلن تبلغ البساطة معه أن يستغنى هذا الملك الواسع عن دواوين ترعى نظامه ، ولا بد لأُمير المؤمنين من إيوان وحجاب ينتظم بهم وقته وعمله . ورأى الأحفف بن قيس يشير إلى كل هامس يمسك فلا يزعج الخليفة عن نومه ، فسأل بعض مَنْ حوله ممن يعرفون لغته : فأين عمر ؟ قالوا وأشاروا إلى النائم : هو ذا . وأخذ الأمير الفارسى بما رأى مما لم يكن يجرى له بخاطر . فوجم هنيئة ثم سأل : وأين حرسه وأين حُجَّابه ؟ . قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا إيوان . وزاد عجب الهرمزان فقال لمن حوله أو قال في نفسه : « ينبغي أن يكون هذا الرجل نبياً فلا يكن فإنه يعمل عمل الأنبياء ! » وأيقظ الهمس عمر فاستوى جالساً ، فرأى الأمير على مقربة منه عليه حُلتُه وفي يده

صولجانه يشعُ منهما لألاء الجوهر فقال: الهرمزان! قال القوم: نعم. فتأمله وتأمل ما عليه وقال: «أعوذ بالله من النار وأستمين الله! الحمد لله الذي أذلَّ للإسلام هذا وأشياعه! يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تُبطنكم الدنيا فإنها غرارة!». قال الوفد الذين جاءوا من تستر: «هذا ملك الأهواز فكلمه». وأجاب عمر: «لا! حتى لا يبقى عليه من حليته شيء». وكيف يكلم أمير المؤمنين رجلاً قتل من أبطال المسلمين وشجعانهم مَنْ قتل وهو في حلة الملك وزية، وقد ينتهي أمره إلى التنكيل به وقتله! ونزع القوم كل ما على الهرمزان إلا ما يستره، وألبسوه ثوباً صفيقاً. فلما رآه عمر على هذه الحال قال له: «هيه ياهرمزان! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟!». وأجاب الهرمزان: «يا عمر! كنا وإياكم في الجاهلية وقد خلى الله بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا». قال عمر: «إنما غلبتمونا بالجاهلية باجتماعكم وتفرقتنا. والآن فاعذرنا وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟». ورأى الهرمزان الغضب في عين عمر وهو يُلقى عليه هذا السؤال فقال: «أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك!». قال عمر: «لا تخف ذلك! واستسقى الهرمزان ماء فأتى به في قدح غليظ فقال: «لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا! فأتى به في إناء يرضاه، فلما أخذه جعلت يده ترتجف وقال: «إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء!». قال عمر: «لا بأس عليك حتى تشربه» فأكفأ الهرمزان الإناء وأراق ما فيه من ماء، فقال عمر: «أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش». قال الهرمزان: «لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن إليه».

عند ذلك جرى بين الرجلين حوار تدخل فيه الأخنف بن قيس وأنس بن مالك. وكان فيه من جانب عمر عنف وشدة. وقد أورد الطبري وابن كثير هذا الحوار كما يلي:

عمر: إني قاتلك!

الهرمزان: قد آمنتني!

عمر: كذبت!

أنس بن مالك: صدق يا أمير المؤمنين، قد آمنتته!

عمر: ويحك يا أنس! أنا أؤمن قاتل حِجْزَاءَ والبراء! والله لتأتيني بمخرج أولأقابنك! .
أنس: قلت له: لا بأس حتى تخبرني، وقلت له: لا بأس حتى تشربه .
وأقرَّ الأحنف بن قيس ومن حوله كلام أنس، وذكروا جميعاً أن أمير المؤمنين آمن
الهرمزان. فنظر إليه عمر مفضباً وقال: « خدعتني! والله لا انخدع إلا لمسلم! ». وأسلم
الهرمزان، وفرض له عمر ألفين، وأنزله المدينة .

ويروى البلاذري عن أنس بن مالك حديثاً مسنداً إلى مروان بن معاوية عن حميد
عن أنس أنه قال: « حاصرنا تُسْتَرَّ فنزل الهرمزان فكنت الذي أتيت به إلى عمر،
بعث بي أبو موسى، فقال له عمر تكلم، فقال: أ كلام حيٍّ أم كلام ميت، فقال: تكلم
لا بأس. فقال الهرمزان: كنّا معشر المعجم ما حَلَّى الله بيننا وبينكم نقضيكم وتقتلكم،
فلما كان الله معكم لم يكن لنا بكم يدٌ أن . فقال عمر: ماتقول يا أنس؟ قلت: تركت خلفي
شوكة شديدة وعدواً كلبياً؛ فإن قتلته يئس القوم من الحياة فكان أشد لشوكتهم، وإن
استحييته طمع القوم في الحياة. قال عمر: يا أنس، سبحان الله! قاتل البراء بن مالك
وحِجْزَاءَ بن ثور السدوسي! قلت: فليس لك إلى قتله سبيل. قال، ولم؟ أعطاك؟ أصبت
منه؟ قلت: لا! ولكنك قلت له: لا بأس، فقال: متى؟ لتجئني معك بمن شهد
وإلا بدأت بعقوبتك! فخرجت من عنده فإذا الزبير بن العوام قد حفظ الذي حفظت
فشهد لي فخلى سبيل الهرمزان فأسلم ففرض له عمر . »

كان المغيرة بن شعبة يتولى ترجمة كلام الهرمزان إلى عمر وكلام عمر إلى الهرمزان،
وكان لا يحذق الفارسية ما يحذقها زيد بن ثابت. فدعا عمر يزيد فجاء فتولى الترجمة، فلم يجد
عمر في كلام الهرمزان جواباً على نقضه عهد المسلمين مرة بعد مرة. عند ذلك وجه عمر
القول إلى الوفد الذين جاءوا من تستر فسألمهم: لعل المسلمين يُقَضُّون إلى أهل الذمة بأذى
فهذا ينتقضون بكم. قال رجال الوفد: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملة. قال عمر: فما بالهم
ينتقضون؟ وتتابع رجال الوفد يحاول كل منهم أن يجد لهذا الانتفاض علة مع وفاء المسلمين
لهم، فلم يجد عمر في كلام أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصره، عند ذلك قال الأحنف بن قيس
« يا أمير المؤمنين أخبرك. إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاعتصار على
(م ٢ - الفاروق - ج ٢)

ما في أيدينا . وإن مَلَكَ فارس حتى بين أظهرهم ، وإنهم لا يزالون يساجلوننا مادام مَلَكَهم فيهم . فلم يجمع ملكان فاتفقا حتى يُخرج أحدهما صاحبه . وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئا بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم . وملكهم هو الذي يحرّضهم ويبعثهم . ولم يزل هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم ونُخرجه من مملكته وعزّ أُمته . هناك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم » .

استمع عمر إلى الأحنف مليا ، وأطرق إطراقة طويلة ، ثم قال له : « صدّقني والله وشرحت لي الأمر عن حقه » . وعرف الهرمزان حديث الأحنف فأقره ، فازداد عمر ثقة به واطمئننا له . ثم إن الأنباء جاءت باجتماع أهل نهاوند لقتال المسلمين ، فلم يبق لدى أمير المؤمنين في صدق هذا الحديث ريب ، فخرج من ترونده ، ورأى أن الوقوف بالفتح في حدود العراق لم يعد مستطاعا ، وأن الحوادث تحمله طائعا أو كارها على العدول عن هذه السياسة ، وتدفعه للتوسع في بلاد الفرس حتى يُجْلِي يزدجرد عن أرضها جميعا . لذلك أذن أن ينساح المسلمون في بلاد فارس وعبا الألوية لقتال أهلها .

وأقام الهرمزان بالمدينة وحسن إسلامه ، وصار لا يفارق عمر ولا يرضى عليه بالمشورة فلما قتل عمر أتهم الهرمزان بالملاأة عليه وتدير المؤامرة لاغتياله . وقد اقتنع عبید الله ابن عمر بذلك ، فقتله وقتل جُفَيْنَةَ معه . وسنفضّل ذلك من بعد ونتحدّث عن آثاره .

والآن ، فلنعد إلى فارس لنرى ما حدث بها ، وكيف اجتمع أهل نهاوند لمقاومة للمسلمين فيها ، ولننظر كيف نظّم عمر سياسته الجديدة ، وسياسة التوسع في الفتح فاستولى على فارس كلها ، وعلى مصر كلها .

الفصل السادس عشر

غزوة نهاوند

سمع عمر إلى الأحنف بن قيس ثم قال له : « صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه » . فلما جاءته أنباء نهاوند لم يبق للتردد في نفسه موضع .

وكان طبيعياً أن تُزِيل هذه الأنباء كل أثر للتردد من نفسه ؛ فإن أمراء الفرس في شتى الولايات لم يلبثوا ، حين عرفوا ما أصاب الهرمزان وجنوده ، أن ألقى في رؤوسهم أنه مصيبهم ما أصابه إذا ظلوا فيما هم فيه من تخاذل وانحلال ، فكاتبوا وأرسل بعضهم إلى بعض الرسل أن يجتمعوا كلمة واحدة لدفع هؤلاء الغزاة الذين كانوا ، إلى سنوات قلائل ، يدينون بياس فارس وسلطانها ، ولا يستطيع أحدهم أن يرفع رأسه من هيبتها ، فأصبحوا اليوم بغزونها في عُقر دارها ، ويمدّون سلطانهم على ولايات واسعة منها ، ثم لا يفتنون يتقدمون فيها ، وكان ليس لأحد على وجه الأرض بياسهم قبل .

وكان أول ما اتفق هؤلاء الأمراء عليه أن يكتبوا إلى يزجدرد ليسكون على رأس حركتهم ، حتى يجتمع الناس حولها وينضموا إلى لوائها ؛ فهو كسرى عنوان فارس ووارث مجدها وصاحب نظامها ، يدين له الناس بالطاعة في شتى أرجائها ، ولا يختلف عن أمره كبير ولا صغير من أبنائها . وكان يزجدرد قد اضطرب في أرجاء فارس بين مختلف العواصم منذ فر من المدائن ؛ فكانت الحوادث تدفعه من حُلوان إلى الرّى إلى أصفهان إلى أصفخر إلى مَرُو ، ثم تزيده أنباء المسلمين على السفين اضطراباً . فلما جاءته كتب الأمراء ورأى ما فيها من اجتماع كلتهم وشدة حماسهم لدفع عدوه وعدوهم ، عاودته من شبابه نفحة بدلت يأسه أملاً واضطرابه طمأنينة ، فكتب إلى أهل إيران كلها ، سهلها وجبلها ، يحثهم ويحرك حماسهم . كتب إلى الباب وإلى خراسان وحُلوان وسجستان وطبرستان وجرجان ودمآوند والرّى وأصفان وهمدان وسائر الولايات والبلاد في مملكته ، يشجع أهل فارس ويذكر لهم أن غزو العرب ليس إلا عاصفة نائرة لا تلبث أن تمر ، وسحابة

عارضة لا تلبث أن تنفث ، وأن الأمر في انقشاع السحابة ومرور العاصفة إلى تكاتفهم وتضامنهم وثباتهم في وجه عدوهم ، فإذا ثبتوا طردوه من ديارهم وردّوه على أعقابهم خائب الظن كاسف البال يتحدث بفعالهم .

انتشرت أنباء خوزستان والهرمزان في فارس كلها ، فانزعج الناس كباراً وصغاراً لها . فلما جاءهم كتاب كسرى أسرعوا إلى تلبية ندائه ، فبعث كل أمير من جنده إلى نهاوند حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً اجتمعوا بإمرة الفيرزان . فلما اجتمعوا عنده وجلس إليه أمراء هذا الجند المقبل من شتى الأرجاء قال لهم : « إن محمداً الذي جاء العرب بهذا الدين لم يتعرض لبلادنا . وقام أبو بكر من بعده فلم يتعرض لنا في دار ملكنا ، ولم يترك بنا إلا فيا يلي بلاد العرب من السواد . وهذا عمر بن الخطاب لما طال ملكه اتسكح حرمته وأخذ بلادنا ، ولم يكفه ذلك حتى غزانا في عُقر دارنا ، فأخذ بيت الملكة وانتقصكم السواد والأهواز ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، وليس بمنقته حتى تخرجوا من بلادكم من جنده وتقلعوا هذين المصرين ، البصرة والكوفة ، ثم تشغلوه في بلاده وقراره . »

نقل الأمراء هذا الحديث إلى الجند فاشتعلت حماسهم ، فأقاموا ينتظرون اليوم الذي يواجهون فيه عدوهم ويُقسَم كلٌّ منهم أن لن يرجع إلى موطنه حتى يَتِمَّ النصر لكسرى وجنوده . وبلغت هذه الأنباء عمر بن الخطاب نبأ إثر نبأ ، فأيقن أن الأحنف ابن قيس صدقه الرأي ، ولم يبق لديه ريب في أنه إن لم يوجه للفرس الضربة القاضية القاصمة فلن يزالوا يفاوئونونه ، وقد يبسم لهم الخط يوماً فإذا خيولهم تُغير على العراق العربي من جديد ، وإذا هذه الدولة العربية التي اطمأنَّ عمر إلى قيامها تتعرض للاضطراب ، بل للضياع .

وزاد في شغل عمر بأمر العراق ومصيره ما أبدى بعض العرب الذين استقروا به من ميل إلى الخسومة والشغب ، أغراهم به ما استراحوا إليه من رخاء جعلهم يتنافسون وينفَس بعضهم على بعض ، ثم لم يصرفهم عنه تهيم الفرس لحربهم وإعدادهم لقتالهم ، فبينما يرسل سعد بن أبي وقاص أنباء يزدجرد والفيرزان والجند الذين اجتمعوا بنهاوند إلى أمير المؤمنين إذا جماعة من أهل الكوفة ، على رأسهم الجراح بن سنان الأسدي .

يؤلّبون على سعد ويشورون به ويشكونه إلى عمر في كل شيء حتى يقولوا إنه لا يحسن الصلاة . ولقبهم عمر بالمدينة وسمع شكاتهم ، ثم قال لهم : « إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في الأمر وقد استعدّ لقتالكم من استعد . وإيّم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم ا » . وكان عمر قد أقام محمد بن مسلمة على تحقيق ما ينسب من الشكايات إلى عماله ، فأوفده إلى الكوفة ، فجعل يسأل الناس عما يُنسب إلى سعد ، فيقولون : لا نعلم إلا خيراً ولا نشتهي به بدلاً ، لم يخالف عن ذلك إلا الذين اتهموه . وعاد ابن مسامة إلى المدينة ومعه سعد والجراح بن سنان وأصحابه ، فاستمع إليهم عمر فلم يجد ما يؤاخذ به سعداً . لكنه أترمع ذلك ألا يدعه في هذا الموقف الدقيق على عمله ، وبالكوفة من يثيرون الناس به ، فسأله من استخلفت على الكوفة ؟ قال : عبد الله بن عبد الله ابن عتبة . وكان ابن عتبة شيخاً كبيراً من أشرف الصحابة ، فأقر عمر نيابته على الكوفة واستبقى سعداً بالمدينة معزولاً من غير عجز ولا خيانة . ولولا ما كان سعد قد أبلغه إلى عمر عن اجتماع الفرس بنهاويد وما كان قد شافهه به ، بعد قدومه المدينة ، من تهيبهم للقتال وتعاهدهم عليه ، لردّه إلى عمله ولما سمع فيه لشكايات لم يثبت شيء منها عنده .

وأرسل بن عتبة إلى عمر من أنباء الفرس ما أيد أقوال سعد عن تأهبهم ، وما زاد الخليفة إشفافاً من تدبيرهم . وتواترت الأنباء بعد ذلك مروّعة تهزّ القلوب رعباً . فهذه قوات فارس التي اجتمعت بإمرة الفيرزان قد سارت إلى همدان ، وهي الآن قد تابعت مسيرتها تقصد حُلوان ، بل هامي ذى في طريقها إلى الكوفة وعما قريب تبُلُفها . ترى ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟! لقد أدرك بفراسته مافي هذه الأنباء من مبالغة يصورها الفزع ؛ إذ يدفع إلى النفوس من خوف الخطر ومن توقُّعه ما يجعلها تتوهم الأشياء وتجسّمها إلى أضعاف الواقع من حقيقتها . لكن الأمر الذي لا ريب فيه أن الفرس قد جمعوا وأعدّوا ، وأنه ألا يواجههم ويبادروهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة ، وقد تنتهي بهم جرأتهم إلى تهديد ما استولى عليه جنده في خوزستان والعراق العربي . الخطر إذاً جسيم ، والتأهب للملاقات واجب مقدس .

وأراد عمر أن يستشير الناس ، كدأبه في مثل هذه الأمور ، فنادى مناديه فيهم :

الصلاة جامعة . فلما التأم عقوم بالمسجد صعد المنبر وذكر للناس ما أنجاه إليه عمله عن تهيتؤ الفرس واجتماعهم وكثرة عدوهم ، ثم قال : « إن هذا اليوم له ما بعده . ألا وإنني قد هممت بأسر فاسمعوا وأطيعوا وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين فاستغفرهم ثم أكون لهم رذءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب ؟ » . وتكلم القوم ، فأشار بعضهم بأن يسير أمير المؤمنين بالجيش إلى العراق ، وأن يدعو جنده بالشام وباليمن ، ليواجه الفرس ويفزو بلادهم . وأشار آخرون أن يُقيم بالمدينة وأن يبعث كل من قدر عليه من الجند لغزو الفرس . وكان قوم أكثر من هؤلاء ومن أولئك حذراً ، وكان بينهم علي بن أبي طالب إذ قام فكان مما قاله : « يا أمير المؤمنين ! إنك إن أشخصت أهل الشام من شأهم صارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من بينهم سارت الحيشة إلى ذراريهم ، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأطرافها ، حتى يكون ما تدع وراءك أمم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات . وإنما مكانك من العرب مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه ، فإن انحلّ تفرّق ما فيه وذهب ثم لم يجتمع بمخايفه أبداً . وإن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لكّلبهم فتألبوا عليك . أما ما ذكرت من عدد القوم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكننا كنا نقاتل بالنصر . فأقيم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة ؛ فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، فليذهب منهم الثلثان وليقيم الثلث واكتب إلى أهل البصرة يُمدّدونهم » .

اقتنع عمر برأى عليّ وسرّ به فأعلن في الناس أنه مقيم بالمدينة ومرسلُ الجيوش تلو الجيوش أمداداً لقتال الفرس ، ثم قال : « أشيروا عليّ برجل أوله أمر هذه الحرب وليكن عراقياً » . قالوا : أنت أفضل رأياً ، وأحسن مقدرة ، وأبصر بحندك ، وقد وفد عليك أهل العراق وجنده فرأيتهم وخبرتهم . قال : « أما والله لأولينّ أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً ، النعمان بن مقرّن ! » . قال الناس : هو لها ! . وكان النعمان لها حقاً ؛ عرفه المسلمون فارساً مقدماً لا يعرف التردد ولا الفرار ، مكثياً

غير متسرع إلا لفرصة . كان على ميمنة أبي بكر حين خرج يُقاتل الذين منعوا الزكاة فهُزمهم بذي القَصَّة ، وكان في غزوات العراق كلها إلى جانب خالد بن الوليد من يوم ذهب خالد إليه ، وكان النصر يسير في ركابه سيره في ركاب خالد . فلما ولَّى عمر سعد بن أبي وقاص جند العراق كان النعمان معه في الطليعة ؛ برَّز في القادسية وفي فتح العراق العربي ، ثم أبلى في حروب خوزستان أعظم بلاء . رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ عاملاً على كَسْكَر ، فكتب إلى عمر يشكو إليه أن سعد بن أبي وقاص استعمله على جباية الخراج وهو يحب الجهاد . فكتب عمر إلى سعد : « إن النعمان كتب إليّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج ، وأنه قد كره ذلك ورغب في الجهاد ، فابعث به إلى أمِّ وجوهك » . فلما استقر رأى عمر على توليته حرب الفرس الذين اجتمعوا بإمرة الفيرزان كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن . سلام عليك ؛ فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند . فإذا أتاك كتابي هذا فسرّ بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعرّاً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضةً ، فإن رجلاً من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار . فسر في وجهك هذا حتى تأتي مآه ؛ فإنني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم . والسلام عليك » .

وكتب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان وإلى الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان بن مقرن كذا وكذا ، فإنني قد كتبت إليه بالتوجه من الأهواز إلى مآه ، فليوافوه بها وليسر بهم إلى نهاوند . وقد أمرت عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي بهم إلى النعمان . وقد كتبت إلى النعمان : إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة اليمان ، وإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن .

ودفع عمر هذا الكتاب إلى السائب بن الأقرع ليسير به إلى الكوفة ، وجعل السائب أميناً على الفيء وقال له : « إن فتح الله عليكم فاقسم ما آفأ الله عليهم بينهم ، ولا تخدعني ولا ترفع إليّ باطلاً ، وإن نكبت القوم فلا تربني ولا أرينك » .

وكتب في اليوم نفسه إلى أبي موسى الأشعري أن أسر بأهل البصرة إلى ماء والأمير
النعمان بن مقرن. وكتب إلى سلمى بن القين وحرثمة بن ربيعة وأمراء الجند الذين كانوا
بين فارس والأهواز أن اشغلوا فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم،
وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمرى. وإنما أراد عمر بأمره هذا
أن يقطع عن أهل نهاوند أمداد فارس فلا يزيدوا الفيرزان قوة على قوته.

بهذا كله تجهز عمر لمواجهة الخطر الذي تواترت لديه أنباءه، وهياً الجوَّ حوله ليقوم
المسلمون في وجه الفرس غير وانين ولا مترددين. وسارت الجيوش إلى ماء فأنتهت إلى
النعمان بن مقرن، وفيها الفرسان والأبطال أولو البأس والخطر، ومنهم من حضر القادسية
والمدائن وغيرها من الوقائع فأراد أن يضيف إلى فخاره فخاراً جديداً، ومنهم من لم يحضر
القادسية فخف يريد نهاوند لكي لا يفاخره غيره ويستعلى عليه بحسن بلائه.

وبلغوا حلوان، فأراد النعمان أن يتنطس أخبار الفرس ليعرف أبشوا من العيون
والأرصاد على الطريق ما يجب الاحتياط له، فبعث طليحة بن خويلد الأسدي وعمر
ابن معدى كرب الزبيدي وعمر بن أبي سلمى المزني طليعة يرتادون ويتبينون. وسار
ثلاثتهم يوماً إلى الليل، ثم رجع عمرو بن أبي سلمى فأخبره القوم أنه لم ير شيئاً. وسرى
طليحة وعمر بن معدى كرب طول الليل ثم رجع عمرو فسأله الناس: ما رجعكم؟ قال:
سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق. ومضى طليحة ولم يحفل
بصاحبيه حتى انتهى إلى نهاوند، فعلم علم القوم وعرف أنباءهم، ثم عاد فدخل على النعمان
فأخبره أن ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه. عند ذلك نادى النعمان بالرحيل، وسار
في جنوده على تعبئة حتى نزل قريباً من حصون أعدائه. وهناك كبر المسلمون ثلاث
تسكيرات زلزلت الأعاجم وملأت قلوبهم رعباً.

عرف الفيرزان أنباء المسلمين وأنهم جاءوا ثلاثين ألفاً يقاتلونه، فلم يستهن بهم،
ولم يخدعه أنه قبالتهم في خمسين ومائة ألف متعاهدين على القتال إلى الموت، متحصنين
في بروج ذات مَنَعَةٍ؛ فقد حضر القادسية ورأى من بأس هؤلاء العرب ماراعه، ثم انتهت
به الهزيمة كما انتهت بالهرمزان إلى الفرار. لذا بعث إلى عسكر المسلمين أن أرسلوا إلينا

رجلاً نكلمه . وسار إليه المغيرة بن شعبه فاجتاز للميادين المحيطة بنهاوند وتخطى أسوارها وانتهى إلى مقر الفيرزان فيها . وكانت نهاوند مدينة عظيمة تقع في العراق المعجمي بين حلوان وهمدان على ثلاثين فرسخاً إلى الشرق من حلوان وعشرة فراسخ غرب همدان ، وبها أربع فسيحة وأنهار وبساتين تدرّ على أهلها الرخاء ورفاهة العيش ، وفي وسطها حصن متين البناء قوى الجدران يحمي أسوارها الرفيعة المنيعة . وأدخل المغيرة على الفيرزان ، فإذا هو جالس فوق سرير من ذهب وعلى رأسه التاج ومن حوله حراًسه كأنهم الشياطين يكاد النماح حراهم ونيازكم يحفظ البصر . ودار بين الرجلين حديث ما أشبهه بما دار بين يزيدجر ووفد المسلمين بالمدائن ، انتهى منه الفيرزان إلى قوله : « وما معنى أن أمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموا بالنشاب إلا لتنجسوا لجيفكم ، فإن تذهبوا تحلّ عنكم ، وإن نأبوا نركم مصارعكم » . وانتهى منه المغيرة بعد موافقته على الذي كان من شقاء العرب إلى قوله : « والله ما زلنا مذجأنا رسول الله نعرف من ربنا الفتح والنصر حتى أتيناكم . وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما بأيديكم أو نقتل بأرضكم » .

عاد المغيرة بن شعبه إلى المسلمين بعدما أخفقت سفارته ، فاقى النعمان في فسطاط عظيم كان قد ضرب له لم ير فسطاط بالعراق مثله جلالاً وعظمة . فلما عرف النعمان إخفاق سفارته أنشب القتال وحصر المدينة ، فكانت الحرب سجلاً بين العرب والفرس يومين كاملين . وكان الفرس لا يخرجون من حصونهم إلا إذا أرادوا ورأوا في الخروج مغنماً لهم . ذلك أنهم أحاطوا أسوارهم بحسك الحديد ، ولم يتركوا إلا فرجاً يخرجون منها كلما عزموا الخروج ، فلم تكن خيول المسلمين لتقوى على اجتياز هذا الحسك . وقد اشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول وأن تسوء عاقبته ؛ فاجتمع أهل الرأي منهم فذهبوا إلى النعمان فأفوضوا إليه بمخاوفهم . وكان النعمان يروى في الذي رآه فيه ، فلما سمع منهم قال لهم : على رسلكم لا تبرحوا ، وبعث إلى أهل الرأي والتجندات في الحروب ، فلما توافقوا إليه قال لهم : قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون ، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا ، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق من هذا الموقف ، فما الرأي الذي

نستخرجهم به إلى المنابذة وترك التطويل ؟ وتكلم القوم ، فأشار بعض بتضييق الحصار ، فالتحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم . وقال عمر بن معدى كرب : ناهدكم وكاثركم ولا تخفّهم . فردّ الحاضرون جميعاً رأيهم وقالوا : إنما تقاتح بنا الجدران ، والجدران أعوام لهم علينا . وتكلم طليحة بن خويلد فقال : « ... وأما أنا فأرى أن تبعث خيلاً مؤدبة ^(١) فيُحدّقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويُحمّشهم ^(٢) . فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج ، أرزوا ^(٣) إلينا استطراداً ^(٤) ، فإننا لم نستطد لهم في طول ما قابلناهم . وإنّا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكّوا فيها فخرجوا فجادونا وجادونا حتى يقضى الله فينا وفيهم ما أحب » .

استراح الحاضرون جميعاً إلى هذا الرأي واستجادوه ؛ فأمر النعمان القعقاع بن عمرو أن يذهب صباح الغد فيهاجم المدينة بالقوة التي في إمرته : فإذا برز الفرس له أظهر الفرار بين أيديهم . وتقدّم القعقاع في الجند فرمى المدينة بالنبل ، وأظهر العزم على اقتحام الأسوار ، وأبدى من ضروب البأس ما جعل الفرس ينهّدون إليه في حذر يصدّون هجومه . وأعجل المسلمون كل من برز إليهم فأثاروا حماسة عدوّهم ، فخرجوا إليهم فرأوهم قلةً يمكن التغلب عليها ، فاجتازوا الأسوار والحسك إليهم يقاتلونهم . وثبت لهم القعقاع زمناً حتى لا تنكشف حيلته ، ثم ولى بجنده مديراً أمامهم . فلما رأوا فراره خرجوا في أثره يرويدون القضاء عليه . وكان النعمان قد أمر جنده بالتقهقر إلى ما وراء سرعى النيل من حصون المدينة وأسوارها . فتراجعت القوات في بُكرة الصبح إلى حيث استطاع أكثرها الاختفاء عن أعين العدو بمرتفع توارت وراءه . وتابع القعقاع فراره ، وتابع الفرس مطاردته ، ملتزمين أول الأمر من الحذر ما جعلهم يذوقون أمامهم حسك الحديد يجتمعون به من كرة العدو إذا حاول الرجعة لمهاجمتهم . وكان القعقاع قد أيقن ابتعاد جند المسلمين في تراجعهم فأمعن في الفرار ، وأمعن الفرس في تعقبه وقد ثبت عندهم أن هزيمة المسلمين تمتّ فلا حاجة للحذر منهم

(١) مؤدبة : عليها أداتها من السلاح (٢) حمّش الرجل وأحمّشه فاستحمش : أغضبه فعضب .

(٣) أرزوا إلينا . رجعوا إلينا لاجئين . والاستطراد : أن يتظاهر المرء بالهزيمة أمام عدوه

ثم يكر عليه .

والاحتياط لهم . وتركوا حسكر الحديد وراءهم وأسرعوا يطلبون هؤلاء الفارسيين ليستأصلوا شأفتهم . واندفع الجيش كله والفرسان على رأسه يريد أن يطهر أرض فارس من هؤلاء الغزاة الأجلاف ، نخلت نهاندا من مَنَاحِيها ولم يبق بها إلا حراس أبوابها . فلما بعدوا عن المدينة ولم يبق لهم مطعم في حماية حصونها وأسوارها رجعوا ، فقد رأوا المسلمين يقفون ، ورأوا القمعاق ومن معه كأنما يريدون أن يثبتوا لهم . لكن روعهم لم يلبث أن سكن ، وحسبوا مكيده أراد القمعاق بها أن يحصى ظهر الجيش المتقهقر في هزيمته ، حتى لا يفتنيه الفرس ويقضوا بذلك على سلطان المسلمين القضاء الأخير .

وانضم القمعاق بقواته إلى سائر الجند ، وأقام مع الناس ينتظر أمر النعمان بالهجوم . وكان اليوم يوم الجمعة ، وكان النعمان قد أمر الناس ألا يقاتلوا الفرس حتى تزول الشمس ثم يأذن لهم . وأدرك الفرس المسلمين قبيل الزوال ، فرموا بالنشاب فأفشوا فيهم الجراحات . فأشار قوم على النعمان في الحملة فلم يفعل . وقال له الغيرة بن شعبة : لو أن الأمر إلى علمت ما أصنع . وأجابه النعمان في سكون وتؤدة : « رويداً ترَ أمرك . وقد كنت تلى الأمر فتحسن ، فلا يخذلنا الله ولا إياك ! . ونحن نرجو في المسكت مثل الذي ترجو في الحث » . وحن للشمس أن تزول ، فركب النعمان برذوناً له أحوى قريباً من الأرض ، وجعل يمر على الرايات راية راية يشجعهم ويمرحهم بأحسن ما فيهم ، يذكر أن الله أنجز لهم صدور وعده بنصرهم ، فلم تبق إلا أعجازه وأكوارعه ، ويذكرهم ما مضى إذ كانوا أذلة ، وما استقبلوا من هذا الأمر وهم أعزّة ، وأن عدوهم إنما يخاطر بأرضه في حين يخاطرون هم بدين الله ودينهم فلا يكن الفرس على دنياهم أحى من المسلمين على دينهم . « فكل رجل منكم مسلط على ما يليه ، فإذا قضيت أمري فاستعدوا ؛ فإنى مكثت ثلاثاً ، فإذا كبرت الأولى فليتهياً من لم يكن تهيأ ، وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض ، وإذا كبرت الثالثة فإنى حامل إن شاء الله فاحملوا معي . اللهم أعز دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك وانصر عبادك ! » .

جعل النعمان يقول هذه العبارات ومثلها لكل راية مرّ بها . فلما فرغ من حث

الناس وقضى إليهم أمره ، رجع إلى موقفه وأعين الجند مشدودة إليه وهو مُعَلِّم بيباض القَبَاء والقَلْنَسُوة ؛ فكَبَّرَ الأولى والثانية والثالثة والمسلمون عطاش للحرب يريدون أن يطيروا إليها وأن يُفَنِّوا عدوهم فيها ، وليس منهم أحد يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقَتَّلَ أو يَظْفَر . وما لبث النعمان حين أنتمَّ تكبيراته أن اندفع واللواء في يده ، فانقضَّ على الفرس انقضاض العقاب على فريستها ؛ وجعل يطيح بالرؤوس ويجدِّل الفرسان ، فإذا هم حوله صرَّعى يتخبَّطون في دمائهم . وشدَّ المسلمون حوله ، فكان كل منهم النعمان بطشاً وبأساً . ورأى الفرس صدق المسلمين في حملتهم فشدوا كذلك عليهم ، فالتقى الفريقان متصالحين بالسيوف ، فلم يكن يسمع إلا وقع الحديد على الحديد ، وإلا صيحات الأبطال وكلهم الحماسة المتقدة والشجاعة التي لا تعرف من الموت فراراً . وبلغ القتال من الشدة مبلغاً لم يسمع السامعون بمثله في غير هذه الموقعة . وكثر القتل في الفرس لكثرة عددهم ولاستقامة المسلمين في قتالهم حتى تخضبت الأرض بدمائهم . واستحترت الحرب وانهمرت الدماء ، فكان الناس والدواب تراق عليها الكثرة ما تلتطخ به أديم الأرض منها . وتحدرت الشمس إلى ناحية المغرب والنعمان على جواده واللواء في يده يهزه يَمَنَّةً قتهوى بسيوف المسلمين رؤوس الفرس يمينا ، ويهزه يَسْرَةً قتهوى رؤوسهم يساراً . وبينما يشق طريقه في قلب العدو زلق جواده في الدماء فصرعه . وأراد الله أن يستجيب في هذه الساعة لدعائه ، فيستشهد في سبيله ، فأصابه سهم في خاصرته . وراه أخوه نُعَيْمٌ هوى فسجّاه بثوبه ، وأخذ اللواء من يده ودفعه إلى حذيفة بن اليمان ، فأقامه حذيفة مكان أخيه وأمره بإخفاء ما حدث حتى لا يتزعزع الناس ، وسار باللواء إلى حيث كان النعمان فأقامه . وأقبل الليل والوطيس حار والمسلمون يدفعون عدوهم أمامهم ويندفعون في صدره يضمضعون روحه . وانتشر الظلام وقد أصاب الفرس الإعياء فانكشفوا وتراجعوا منهزمين ، فإذا حسك الحديد وراءهم يقف تراجعهم ، فيُيَمِّنُ المسلمون فيهم قتلاً ، فيتردى ألوفهم وكأنهم غنم مُصرَّعة . وأراد الناجون انقاء الحسك فانحرفوا ، فإذا من خلفهم خندق عميق أحماه الخوف عنه وستره الظلام عنهم ، فهووا فيه بخيولهم ، فهلك منهم فيه خلق كثير قدَّره بعض المؤرخين بثمانين ألفاً غير الذين قتلوا في المعركة وكانوا ثلاثين ألفاً . وكذلك قُضي على هذا الجيش

اللَّحِيبَ الَّذِي اجتمع من كل أرجاء فارس يريد أن يُجَلِّيَ المسلمين عنها ، فإذا المسلمون يذيقونه الموت نكالا فلا يُفلت منه إلا الشريد .

١ وكان الفيرزان فيمن فرَّ يطلب النجاة بنفسه ، فاندفع وحيداً شريداً يركض جواده نحو همدان يرجو الاحتماء بها . ورآه نُعَيْمُ بْنُ مُقَرَّرٍ فدفع القعقاع بن عمرو في أثره ، فأدركه القعقاع حين انتهت ثَنِيَّةُ همدان ، إذ كانت دواب من الحمر والبغال تحمل العسل سائرة في الثنية بين الجبال ، فسدت على القائد الهارب طريقه ، فترجل يريد النجاة في الجبل ، فاتبعه النعمان وأدركه وقتله . وعرف المسلمون يومئذ ما حدث فقالوا : « إن لله جنوداً من عسل » ، فصارت مثلاً ، وسميت تلك الثنية من بعد : « ثَنِيَّةُ العسل » . ومضى الفلال من جيش الفرس مشردين حتى بلغوا همدان . ولم يدعهم المسلمون يدخلونها آمدين ، بل طاردوهم إليها وحصروهم فيها ، وأقسموا لا يبرحونها حتى تفتح أبوابها . وعرف أميرها ما أصاب الفيرزان وجنوده ، فبعث إلى المسلمين يستأمنهم ويصالحهم عليها ، وصالحه القعقاع على أن يضمن لهم همدان ودسنتي ، وألا يؤتى المسلمون منهم ، وأن يؤمنهم المسلمون فلا يغير عليهم مغير . بذلك أمن الناس وعاد كل هارب ، وسكنوا إلى طمأنينة الحياة .

رجع القعقاع ومن معه من المسلمين فآلفوا حذيفة دخل سها ونذ بعد المعركة يحيشه واستولى على ما فيها من الأسلاب والغنائم ، ودفعها إلى السائب بن الأقرع الذي عينه عمر على الأقباض : وقد بلغت الأنفال يومئذ مبالغاً فاق كل ما توقعه المسلمون ؛ فقد قسمها حذيفة بن اليمان في الفاتحين ، ونفل ذوى النجدات ، وأعطى من أرصدهم من الجند ليحفظوا ظهر المقاتلين حتى لا يؤثروا من خلفهم ، كما أعطى من كان رداء المسلمين ومنسوباً إليهم مثل الذي أعطى لأهل المعركة . مع ذلك بلغ نفلُ الفارس من هؤلاء جميعاً ستة آلاف ونفل الراجل ألفين .

هذا ، ثم إن كسرى كان قد استودع صاحب المعبد الذي به بيت النار جواهر أعدها لنوائب الزمان ولم يكن المسلمون قد عثروا بها . وإنهم لفي جدلهم بما أفاء الله عليهم إذ أقبل صاحب بيت النار مستأمناً لنفسه ولمن شاء على أن يدلَّ حذيفة على الذخيرة الثمينة .

وأمنه حذيفة ، فأخرج له سَفَطَيْن مملوءين جوهراً ثميناً لا يقوّم . ورآهما المسلمون وكانوا قد أترعوا مما نالهم من الفء ، فَعَقُّوا عنهما ، ورأوا أن يجعلوهما لعمر خاصة . فلما اطمان الناس إلى مُقامهم وإلى فيئهم ، حمل السائب بن الأقرع السفطين وخمس الفء وسار إلى المدينة يبلغ عمر أنباء النصر ويدفع إليه هذه المغنم العظيمة .

بينما يجري كل ذلك بنهاوند كانت عمر بالمدينة يتسقط أنباء المسلمين ، وهو أشد ما يكون إشفاقاً أن يبلغه منها مالا يحب . لذلك لم يكن يذوق النوم إلا غِراً ، ثم يقضى سائر ليله يستنصر الله لجنده . فلما كانت تلك الليلة التي قدّر للقائهم ، جعل يخرج ويتلمس الخبر ، وقد ألقى في رُعه أن الله نصر جنده وأنجز وعده . وكان حذيفة قد بعث طريف ابن سهم ليسرع بالخبر إلى المدينة . فلما بلغها وسأله عمر ذكر له ما أنعم الله به على المسلمين من نصر وفتح وكنتم عنه إلا ما سره . واعتبط عمر والمسلمون بما سمعوا . فرفعوا أكفهم إلى الله بضرعاً وخشية ، وهرعوا إلى المسجد فصلوا شكرياً لله . ثم خرج عمر في جماعة من أصحابه وكله الشوق أن يقف على الجلية من الأمر ، وأمعنوا في الطريق الذي يؤدّي إلى فارس ، فَبَصُرُوا عن بعد راكبٍ توسّم إليه عثمان بن عفان أنه السائب بن الأقرع . فلما دنا منهم وسلم عليهم قال له عمر : ما وراءك ! قال : البشرى والفتح . وسأل عمر : فما فعل النعمان ! قال . زلت فرسه في دماء القوم فصُرع فاستشهد . قال عمر وقد أفرعه النبأ وهزّه : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ولم يتمالك أن بكى حتى نشج كأنما أصيب في بعض ولده أوفى أعز عزيز لديه . فلما سكنت عنه ثورة الحزن سأل السائب عن قُتل من المسلمين فذكر له أعيان الناس وأشرفهم ، ثم قال : وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين قال عمر ، والحزن لا يزال آخذاً بخناقهِ : وما ضرّهم ألا يعرفهم عمر ! لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة ! وما يصنعون بمعرفة عمر !

وانطلق القوم والسائب معهم ، حتى إذا دخلوا المدينة أدخلوا خمس الفء إلى المسجد وأمر عمر نفرأ من أصحابه ، منهم عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم ، بالمبيت فيه ، ليقسمه بين المسلمين متى أصبح .

وقام عمر فدخل منزله ، فاتبعه السائب فأخبره خبر السفطين وما فيهما من جواهر

لاتقوّم ، وذكر له أن أهل الغزاة جعلوها لأُمير المؤمنين خاصة . روى الطبري عن السائب ابن الأقرع أنه قال : « فأخبرته خبر السفطين فقال : أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما والحقّ يجندك . فأدخلتهما بيت المال وخرجت سريعاً إلى الكوفة . وبات عمر تلك الليلة التي خرجتُ فيها ، فلما أصبح بعث في أثرى رسولا ، فوالله ما أدركني حتى دخلت الكوفة وأُخْتُ بعيري وأناخ بعيره على عُرقوبِي بعيري ، فقال : الحقّ بأُمير المؤمنين ، فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك إلا الآن . قلت ؛ وبلك ! ماذا ولماذا ؟ لا أدري والله . فركبت معه حتى قدّمت على عمر ، فلما رأيته قال : مالي ولا بن أمّ السائب ، بل ما لابن أم السائب ومالي ! قلت : وما ذلك يا أُمير المؤمنين ؟ قال : ويحك ! والله ما هو إلا أن نمت في الليلة التي خرجت فيها فباتت ملائكة ربّي تسحبني إلى ذينك السفطين يشعلان ناراً يقولون لَتَكُونِيَنك بهما ، فأقول : إني سأقسمهما بين المسلمين . فُخِذَها عني لا أبالك والحقّ بهما فبعتهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم . فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة ، وغشيتني التجار . فابتاعهما مني عمرو بن حُرَيْث الحِزْويّ بألْف ألف ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف ؛ فما زال أكثر أهل الكوفة مالاّ بعدُ .

وفي رواية أخرى أوردها الطبري كذلك أن السائب اتّبع عمر بذينك السفطين حين دخل منزله وأخبره خبرهما ؛ فقال له عمر : يا بن مُلَيْكَة ! والله مادروا هذا ولا أنت معهم : فالنّجاء النّجاء ، عَوْدُكَ على بدئك حتى تأتي حُدُيفَة فيقسمهما على من أفاءها الله عليهم ! . فانطلق السائب راجعاً حتى انتهى إلى حُدُيفَة فباعهما ، فأصاب أربعة آلاف ألف قَسَمَها بين من أفاءها الله عليهم ، فنال كل فارس منها أربعة آلاف درهم غير ستة الآلاف التي أصابها من قبل .

كان اغتباط أهل المدينة لفتح نهاوند عظيماً . لكنه لم ينتبط أحد بهذا الفتح اغتباط أهل الكوفة ، حتى لقد سمّوه فتح الفتوح . ولعلمهم كذلك فعلوا لأن زهرة المقاتلة في المعركة كانوا من الكوفيين ، ولأن الكوفة كانت أقرب إلى مكان المعركة من المدينة ، فكان أهلها أشدّ إشفاقاً منها وأدقّ تقديراً لتأنيبها ؛ فلما تم النصر فيها دَعَوْها بهذا الاسم

تيمناً وتعبيراً عما بعثته إلى نفوسهم من الطمأنينة على موطنهم . وأياً ما كان السبب فقد كانت نهاوند فتح الفتوح بالفعل ؛ إذ لم نقم للفرس بعدها قائمة ، بل غزاهم المسلمون في عقر دارهم ، وأزالوا سلطانهم عن كل ولاياتهم ، ثم لم يُفَنّ عنهم تجمّعهم لصدّ تيار المسلمين المتدفق في أرضهم ، بل انتهى الأمر إلى إخراج كسرى من فارس شريداً يلتمس العون من غير أهله ، والنجاة في غير بلاده ، ثم يموت بعيداً عن مواطن ملكه ، كأن لم يستقر بها يوماً ولم يكن فيها صاحب السلطان .

وكان عمر أشدّ من أهل الكوفة بنهاوند اغتباطاً ، وأكثر لغزواتها تقديراً وبهم إعجاباً ، حتى لقد زاد عطاء الذين أحسنوا البلاء فيها ، فمنح كل واحد منهم ألف درهم فوق فيثته تشريفاً لهم وإظهاراً لشأنهم . وكيف لا تبلغ منه الغبطة هذا المبلغ وكان يعلم أن جيش الفرس بنهاوند قد جمع كل الأبطال من شتى أرجاء المملكة ، وأن أشرف فارس وأمراءها جميعاً تعاهدوا على إخراج العرب من أرضهم ، وردّهم مهيضى الأجنحة إلى شبه جزيرتهم . وهاهم أولاء الأبطال يفترون منهزمين ، والأشرف والأمراء يلتمسون ملجأ من خزي هزيمتهم فلا يجدونه ، بل لا يجدون أمامهم إلا العرب ينتشر سلطانهم ، وتعاوكتهم ، وبهرز اسمهم الأسماع والقلوب في ولايات كسرى جميعاً ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ومن أقصى الغرب إلى أقصى الشرق .

رأيت همدان وإسراع أهلها إلى طلب الصلح التماساً للأمن حين عرفوا مصير نهاوند والفيروزان . وكان أبو موسى الأشعري أميراً على جند البصرة الذين قاتلوا بنهاوند . فلما سار منصرفاً عنها مرّ بالدَّيْنَوَر ، فأقام عليها خمسة أيام لم يقع قتال إلا في اليوم الأخير منها . ولم يكد هذا اليوم ينتهي حتى طلب أهلها الصلح ، وأقروا بالخارج والجزية ، وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، فصولحوا على ما طلبوا . وصالح أبو موسى أهل السَّيْرَوَان على مثل صلح الدَّيْنَوَر . وصالح عامله أهل الصَّيْمَرَة على حقن الدماء وترك السباء والصنح عن البيضاء والصفراء ، وعلى أداء الجزية وخراج الأرض وفتح جميع الكور بمهرجَان قَدَق . وصالح حديفة بن اليمان دنباراً الفارسي على بلدة ماه ، وأعطى أهلها عهداً « بالأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضهم ، لا يُغيّرون عن ملة ، ولا يحال

بينهم وبين شرائعهم ، ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم من المسلمين ، وعلى كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا جنود المسلمين من مَرَّ بهم فأوى إليهم يوماً وليلة ووفوا ونصحوا . فإن غشوا وبدلوا فذممتنا منهم بريئة .

أما وقد أصاب الفرس كل هذا الفرع بهزيمة نهائياً فازدادوا اضطراباً وازدادت معنوياتهم انحلالاً ، فليس إلا أن يأخذهم عمر وهم فيما هم فيه ، وأن يدفع قواته في سائر ولاياتهم حتى تدعن كلها لسلطانه ولا يبقى فيها لمقاومة أثر ، ولا تحدث أميراً من أمراءها نفسه بمثل ما كانت تحدثه به من قبل . لذلك عقد بنفسه ألوية عهد إلى أصحابها بالانسحاب في أرض فارس جميعاً ، لجعل لواء خراسان إلى الأخنف بن قيس ، ولواء أردشير وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي ، ولواء اصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي ، ولواء درابجرد إلى سارية بن زنييم الكناني ، ولواء كرمان إلى سهيل بن عدى ، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو ، ولواء مكران إلى الحكم بن عمرو التغلبي ، وأمرهم أن يكونوا على أهبة المسير إلى هذه الأمصار والولايات .

وكذلك كانت نهاوند من فتح فارس ما كانت القادسية من فتح العراق العربي . وقد حاول يزدجرد بعدها أن يقاوم بالرئى وبمرو ويأصطخر كما حاول أن يقاوم بالمداين . وقد أمدته أمراء الولايات بأذربيجان وخراسان وفارس ومكران ، وحاولوا الوقوف إلى جانبه لصد تيار المسلمين عنهم والاحتفاظ لوطنهم بعزته وكرامته . وسنرى من محاولاتهم ، ومن اضطراب يزدجرد بين ولاياتهم ، ومن أمر المسلمين معه ما نتجبه في الفصل التالي .

الفصل السابع عشر

القضاء على سلطان الأكامرة

تقع نهاوند وهمدان في صميم العراق العجمي ، وهما لذلك من صاب المملكة الفارسية ؛ فأهلها من الفرس جنساً ولغة وديناً ، لا يمتثلون إلى العراق العربي وأهله بنسب ، ولا يعرفون من لغة العرب كلمة . لذلك كانت نكبة الفرس في نهاوند نكبة في صميم ملك كسرى ، فلم يكن له ولا لبني وطنه بعدها إلا الإذعان والنزول على حكم المسلمين ، أو الحرب الغروس . تنتهي بهم إما إلى نصر يُخرج العرب من بلادهم ، أو هزيمة تزيل الأكامرة عن عرشهم ، وتقضي القضاء الأخير على دولتهم وسلطانهم ! .

وكان الأمر كذلك بخاصة لأن العراق العجمي يتوسط ولايات المملكة كلها : تقع إلى شماله أذربيجان وطبرستان وجيلان ، وإلى شرقه سمان وصحراء إيران ، وإلى جنوبه فارس وكرمان ، وإلى غربه وجنوبه الغربي يقع العراق العربي وتقع خوزستان . وبالعراق العجمي مدنٌ كبيرة تعدّ في حكم العواصم ، منها أصفهان وهمدان والري . فإذا توغل المسلمون فيه واستولوا على هذه المدن ، ففتحت ذلك أمامهم أبواب إيران كلها فانساحوا فيها . وهيئات لقوة بعد ذلك أن تقف في طريقهم ! .

ولكن ! كيف ليزددجرد أن يقف تيار الغزاة الجارف ؟ لقد رأهم منذ نصرهم بالقادسية يدفعون خلال العراق العربي إلى المدائن وجلولاء ، ويقبضون البصرة والكوفة ، ويحطمون مقاومة الهرمزان في خوزستان ، ويواجهون قوات فارس مجتمعة بنهاوند فيقبضون عليها . أيما قضاء . ألا يدل ذلك على أن الأقدار حالقتهم ووقفت في صفهم فلن يستطيع أحد صدّهم ! ومحالفة الأقدار هي التي طوّعت لهم غزو هرقل بالشام وطرده إلى بزنطية والاستيلاء على بيت المقدس مهد النصرانية ومستقر هيكل سليمان . أليس خيراً ليزددجرد أن يصلح غزاة ذلك شأنهم ، فيدع لهم ما فتحوا ويكتفي بما بقي له من ملك أجداده ؟ ! ولعل القدر الذي تجهّم له اليوم يكون أبرّ به غداً ! أم ترى تصده كبرياء الملك الذي تأثّل في فارس

عشرات الأجيال والقرون عن أن يطلب الصلح مقهوراً وتدفعه حماسة الشباب إلى مغامرة جديدة ؟ ! الحق أنه اضطرب بين الأمرين أشد الاضطراب . فمن ذا يكفل له إذا طلب الصلح ألا يرفض خليفة المسلمين مطلبه ، فيكون الرفض مذلة له شر مذلة ؟ ! ومن ذا يكفل له إذا دعا قومه إلى مغامرة جديدة أن يجيب مرآزة فارس وأمرأؤها نداءه ، فإذا لم يجيبوه أقام في مملكته كأنه مخلوع عن عرشه ، لا يُسمع له أمر ، ولا ينضوى أحد إلى لوائه ؟ ! لذا ترك الأمر للقدر يجري به كما يشاء ، من غير أن يكون له في رحمة القدر كبير رجاء .

وأضعف رجاءه انصراف الأمراء والمرآزة كلٌّ إلى شأنه . لقد تعاهدوا على نصرته يوم تولى العرش وجلس بالمدائن في إيوان كسرى ؛ لأن المملكة كان لها يوم يومئذ جيش تعتز به ، ويحمل الناس على طاعته . وقد انضوا إلى لوائه وبعثوا بالجيوش إلى نهاوند لمقاتلة عدوه يوم كان الرجاء في صد الغزاة لا يزال قويًا في نفوسهم . أما وقد تضعضع جيش الدولة ، وضعف الرجاء في جلاء الغزاة ، فقد اضطربوا وانصراف أكثرهم يفكر كل أمير في إمارته وفي مصير ولايته : أيدافع المساهمين عنها ، أم يصالحهم على أن يظل والياً باسمهم عليها . لم تبق صلة هؤلاء الأمراء بيزدجرد صلة ولاء ونظام ، بل صلة مجاملة للمليك أو هن القدر سلطانه ، فجعل يتنقل تنقل الشريد بين بلاد مملكته . فإن يكن القدر قد كتب في لوحه قرب خاتمته فلمهم العذر أمام أنفسهم عما صنعوا ؛ وإن تكن الأخرى فلمهم إلى يزدجرد عودة ، وهو لا ريب يقدر يومئذ حكم الضرورة عليهم .

أنت في حلٍّ من التريب على هؤلاء الأمراء لهذا التفكير ؛ فالدول لا تقوم ولا يرتفع شأنها بمثلها . لكن هذا التفكير كان طبيعياً بحكم الأحداث التي أصابت فارس في العهد الأخير ، وكان طبيعياً لأنه كان وليد التاريخ الفارسي منذ أقدم الحقب . فقد استقرَّ الفُرس في الأرض التي أطلق عليها اسمهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . وكانوا يوم استقرُّوا بها شعباً شديد الحرص على بساطة العيش ، صعب المراس ، صلب القناة في الحرب ، شديد الطموح إلى التوسع والفتح . وقد التقوا هم والميديون في العراق العجمي ، ودارت بين الفريقين حرب طاحنة انتهت إلى صلح أذعن به أهل ميديا لسلطان الفرس وانخرطوا في سلكهم ، واندفعوا وإياهم يقاتلون عدوهم . وتحطى الفرس

بلاد إيران إلى ما بين النهرين ، وساروا منها إلى مصر وإلى بلاد الإغريق ، فكانت بينهم وبين مدن اليونان وقائع ردّهم بها الإغريق عن غزو أوربا . وكانت فارس يومئذ ولايات استقرّ في كل ولاية منها أمير من أمرائها الحاربيين ، فنصب نفسه ملكاً عليها ، واستقل بإدارة شؤونها . ثم اجتمعت هذه الولايات في اتحاد قام كسرى على رأسه ، وتولّى توجيه شؤونه العامة ، واتخذ «الملك الأعظم» لقباً له . وقاتل الفرسُ الدول المجاورة لهم في الشرق والغرب فانفسح سلطانهم ، حتى دهمهم الإسكندر المقدونيّ ، فغلبهم على أمرهم ومدّ سلطانه في أرجاء بلادهم . وكانت سياسة الإسكندر تدع شؤون الحكم الداخلي لأهل البلاد . لذا بقي أمراء فارس ولهم ما كان لهم من سلطان مطلق في الولايات التي أقاموا أنفسهم ملوكاً عليها ، فزاد ذلك في استمساكهم بهذا الملك وحرصهم عليه . واستردّت فارس استقلالها بعد الإسكندر ، وقام بنو ساسان بأمرها فكانوا أكاسيرتها ، وكانت المدائن عاصمتها ، وإن احتفظ أمراؤها ومرازبتها بسلطانهم في مختلف ولاياتها . وغاد بنو ساسان بفارس سيرتها الأولى تقاتل وتمدّد سلطانهم . وتدققت إليها الأموال من مختلف الأرجاء في البلاد المفتوحة تدفقاً نزع بأهلها إلى الترف ، فأخذوا من أسبابه بأعظم حظ وأوفر نصيب . واطمأنّ الفرس إلى هذا الترف عهوداً طوالاً تفتنوا أثناءها في أسبابه ، فتحدّر بهم شيئاً فشيئاً إلى الشهوات الدنيا ، فأورثهم رخاوة أضعفت فيهم صفات البطولة والإقدام التي كانت لأبائهم وأجدادهم ، ثم لم يستعيزوا عن هذه الصفات صدق العزم وقوة الجلّد مما تبعته الحضارة السليمة إلى نفوس الآخذين بها ، فانسكس بذلك سلطانهم شيئاً فشيئاً . وقد حاولوا استعادة هذا السلطان في أوائل القرن السابع المسيحيّ ، فحاربوا الروم وظفروا بهم واستولوا على بيت المقدس وعلى مصر . وانهزم الروم أمامهم بسبب ما فشا فيهم من سوء الحكم وفساد النظام . فلما تولى هرقل أمر الروم ردّ الفرس على أعقابهم ، واسترد الصليب الأعظم منهم . ولم يقف أثر الهزيمة بالفرس عند ارتدادهم إلى تخومهم ، بل ضعفت نفوسهم ، وفشت الفوضى في بلاطهم وترعزعت ثقتهم بأنفسهم . فلما فاجأهم العرب زادتهم هذه العوامل رخاوةً ، فلم يستطيعوا الثبات في وجه غزاتهم ، فجعل كل منهم يلتمس النجاة لنفسه ، وجعل أمراؤهم يلتمسون السلطان الزائف في كنف الفاتح

يستمتعون به ولو إلى حين ، تاركين كسرى رمز وحدتهم وعزتهم ، تجرى الأقدار في أمره بما تشاء .

كان ذلك شأن عاهل الفرس وشأن كثيرين من المرازبة والأمراء في دولته . أما عمر فلم يلبث حين اطمأن إلى انتصار جنده بنهكاً ونُد ومصالحتهم أهل همدان أن ذكر قول الأحنف بن قيس : إن الفرس لن يزالوا يقاومون المسلمين مادام يزدجرد بين أظهرهم ، فلم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يُخرج أحدهما صاحبه . لا مفرّاً إذاً من تعقب الفرس في أرجاء ملكهم حتى يحلوه عنه كسرى فيصير خالصاً للمسلمين ، فأى الخطأ أنجع لبلوغ هذه الغاية؟ لم يكن لعمر أن يُسيّر الألوية التي عقدها لتنساح في أرض فارس قبل أن يفتح العراق العجمي كله ، فيجى بذلك ظهره ، ويأمن خط رجته ، ويسيطر على الطرق التي تسير خلالها الأمداد من العراق العربي ومن شبه الجزيرة لتعزيز جنده . واسكن ! هل تسير القوات في هذا العراق العجمي من همدان إلى الرمي تفتحها ، أم تنحدر من نهاوند إلى أصبهان ، لتُخضع من هذه الولاية المترامية الأطراف أفسح أرضها رقعةً ، وأكثرها بخورستان وبالعراق العربي اتصالاً ؟ .

فقد كان يزدجرد مقيماً بالري حين دخل العرب نهاوند وحمدان . فلما رآهم اقتربوا من مقرّه خف إلى أصبهان يحرض أهلها على المقاومة . وبلغ عمر فأمر بالسير إلى أصبهان وكان رجاؤه أن يتولّى يزدجرد الدفاع عنها فيقع أسيراً ، فتتخبط بأسره مقاومة الفرس كلها . لذلك أمر عبد الله بن عبد الله بن عتبة فصار إليها فيمن كان معه من جند الكوفة ومن تبعه من جند النعمان بن مقرن بنهاوند .

وفي رواية أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان فقال له : وما ترى ؟ أبدأ بفارس أم بأذربيجان أم بأصبهان ؟ وأجابه الهرمزان : إن فارس وأذربيجان الجناحان وأصبهان الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر ، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان . فبدأ بالرأس . واطمأن عمر إلى هذا الرأي فأمر بالسير لفتح أصبهان .

وأصبهان ، أو أصفهان ، مدينة عظيمة كانت عاصمة إقليم من أقاليم العراق العجمي يُطلق عليه اسمها ، وكانت تتألف من مدينتين متجاورتين ، جى واليهودية . وهذه الأخيرة

كانت مستعمرة يهودية الأصل ، أنشأها يزدجرد الأول إجابة لرغبة زوجه اليهودية شوشن دخت . أما جى - فهى القصبه ، وهى من أصح المواضع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء ، ولذلك اختارها الملوك مسكناً لهم . وتقع أصبهان فى نهاية المنطقة الجبلية من جهة الجنوب ، وهى خِصْبَة الأرض واسعة الرقعة . تصل الطرق المعبّدة بينها وبين شتى أرجاء المملكة ؛ فالطريق منها إلى الرى يمر بقاشان ثم بقم .

سار ابن عتبان فى جنده ، فلقمه جيش عظيم من الفرس بظاهر أصبهان ، ولم يمهله أمير^(١) هذا الجيش إلى أنشب القتال معه واشتد القتال وحى وطيسه . وكان على مقدّمه الفرس شيخ كبير هو شهریار بن جاذویه^(٢) ، وكان من أبطال الفرس المدودين ومن المبارزين الذين لا يثبت لهم فى الميدان خصم . وقد رأى المعركة تترجّح ورأى القتلى من الفرس يكثرّون كثرةً خشى أن تدخل الضعف إلى نفوس سائرهم ، فبرز إلى الصف الأول ودعا من جنود المسلمين من يفازله . وبرز له عبد الله بن ورقاء الرياحى فصاولة فقتله .

ورأى الفرس فارسهم المُعَلَّم صريعاً فاضطربوا ، ثم أجلوا عن هذا الرستاق فنزله المسلمون وسمّوه لذلك رُستاق الشيخ . وتراجع الفرس إلى جى ، يحتمون بأسوار أصبهان ، على حين أقام المسلمون فى خطوطهم الجديدة ينظّمون خطّتهم لمهاجمة المدينة العظيمة الحصينة . عرف يزدجرد ما أصاب الفرس برستاق الشيخ ، ففر من أصبهان ناجياً إلى كرمان . وتقدّم عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى جى فحاصر أصبهان فتحصّن جندها ، بقلاعها وجعلوا يراحفون المسلمين ويقاتلونهم ثم يعودون إلى حصونهم . فلما طال ذلك بهم وضاقوا به خرجوا يريدونها موقعةً حاسمة . واصطف الجيشان للقتال وكان موشكاً أن يبدأ غير أن الفاذوستان^(٣) أمير أصبهان بعث إلى عبد الله بن عتبان يقول له : لا تقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك . ولكن ابرز لى . فإن قتلتك رجع أصحابك ، وإن قتلتنى سالمك أصحابى ،

(١) الاستندار هو اسم الأمير على هذه القوات .

(٢) ويذكر هذا الاسم على أنه شهر براز جاذويه .

(٣) ذكر اسمه فى كتب مؤرخى العرب . وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية ما نصه : « سار عبد الله بن عتبان بأمر الخليفة عمر إلى جى ، وكان عليها واحد من الفاذوستان الأربعة وهم حكام الدولة الفارسية . »

وإن كان أصحابي لا تقع لهم نُشابة . وتداول الرجلان زمناً ، ثم قال الفاذوستان لعبد الله : « ما أحب أن أقاتلك . فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن أرجع معك إلى عسكريك فأصلحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله ، وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوةً مجرام ويرجعون . ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه » ، وأقرَّ عبد الله هذا الصلح ، ودخل أهل أصبهان في الذمة إلا ثلاثين رجلاً خالفوا قومهم ولحقوا بكرمان في حاشيتهم .

بينما يقاتل المسلمون ليفتحوا أصبهان كانت بلاد الشمال الواقعة جنوب بحر قزوين تجتمع إلى إسفنديار الرازي أخى رستم الذي هُزم وُقُتل بالقادسية ، تُعدُّ العُدَّة معه لدفع المسلمين عن الرى . وعرف همدان اجتماعهم فتشجعوا ونقضوا الصلح الذي عقده مع المسلمين بعد نهاوند . وبلغت صمر أنباء الانتقاض في همدان . فأمر نعيم بن مقرن أن يسير إليها وأن يدخلها عنوةً عقاباً لأهلها حتى يعودوا لمثل فعلتهم ، ولكي يعتبر غيرهم بهم فلا يجرؤ قوم من بعده على نقض عهدهم مع المسلمين . وسمع أهل همدان اسم نعيم وعرفوا سيره إليهم ، فذكروا نهاوند وذكروا الفيرزان ومصيروه بُثْنِيَّة العسل فسقط في أيديهم وتولاهم العرب ، وأيقنوا أنهم محصورون مقهورون لاحتالة وزاد بهم الجزع حين رأى إليهم استيلاء نعيم على ماحول همدان من البلاد ، ولم يبق لديهم ريب فيما قدر لهم من سوء المصير . فلما انتهى نعيم إليهم وحاصرهم مدينتهم بعثوا إليه يطلبون الصلح وهم في ريب من قبوله ما طلبوا . وكيف يطمئن إليهم وقد نكثوا من قبل عهدهم ؟ وما كان أشد اغتباطهم حين رأوه يقبل منهم الجزية على أن تقيم بهمدان قوة من المسلمين يذكر وجودها أهل المدينة بالعهد ويقبض أميرها منهم الجزية . ترى أقبل نعيم منهم ولم يفتض مدينتهم ضناً بأرواح رجاله أن يصاب منهم أحد ؟ أم ترامت إليه أنباء إسفنديار والذين اجتمعوا إليه فآثر أن يحتفظ بقوته كاملة يواجه بها هذه الجوع المتزيدة تريد مهاجمته طمعاً في أن تدفعه عن الرى ، وأن تجاياه عن همدان ، وأن تسترد ما كسبه هو وما كسبه أخوه النعمان من قبل ؟

أيّاً كان السبب الذي أدى بنعيم إلى مصالحة أهل همدان فإن الجوع التي انضمت

إلى إسفنديار كانت تزداد على الأيام عدداً وقوة . وبلغ نعيماً ، وهو على رأس اثني عشر ألفاً من المسلمين بهمدان ، أن هذه الجموع تتحرك نحوه من جهات مختلفة : تحرك الديلم وعلى رأسهم أميرهم موتا ، وتحرك أهل الري وعليهم الزينبي^(١) أبو الفَرَّخَان ، وتحرك أهل أذربيجان بإمرة إسفنديار ، وجعلوا واج رُودَ وجهتهم وملتقاهم . وكانت دَسَدَبِي أقرب محلة من واج رود . لذلك جعل نعيم عيونهم بها ينتظسون الأخبار ويبعثونها إليه . وسبقت الديلم إلى الملتقى ، فبعث العيون بأنبأهم إلى همدان ، فخرج نعيم منها واستخلف يزيد بن قيس عليها ، وسار في جنده حتى نزل قبالة القوات المتحالفة التي اجتمعت لقتاله . وكانت هذه القوات قد كمل عددها ، فلم تمهل المسلمين أول ما نزلوا الميدان أن شددت عليهم ، وفي ظنهم القدرة على الظفر بهم ، بل على استئصالهم . واشتد القتال بين الفريقين شدة ذكر بها الناس يوم نهاوند . وكان المسلمون قد أَلْفُوا النصر فلم يكن التغلب عليهم يسيراً . أما هذه القوات من الديلم والفرس فلم تعرف لواء يجمعها فهي تدافع عنه وتموت دونه ، لذلك انكشفت منهزمة حين أقبل المساء بعد أن قتل المسلمون منهم عدداً غفيراً .

كان نعيم قد بعث إلى عمر بإخضاع همدان ومصالحته أهلها ، وذكر له ما تراهي إليه من اجتماع الديلم وأهل الري وأذربيجان لقتاله . وفزع عمر لهذا النبأ وجعل يدعو الله أن يؤازر جنده وأن يؤيدهم بنصره ، وأقام بالمدينة ينتظر أنباء هذا الجند وهو أشد ما يكون إشفاقاً عليهم . وإمّنه لكذلك إذ قدم عليه عُرْوَةُ بن زيد الخليل ، وكان قدِم عليه من قبلُ بنبأ غزوة الجسر حيث قُتل أبو عبيد الثقفي وإنهزم المسلمون . فلما رآه عمر قال : بشير ؟ وأجاب الرجل : بل عروة . فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ! عند ذلك فطن عروة فقال : بل أحمد الله فقد نصّرنا وأظهرنا ، وحدثه بما كان . فلما أتم حديثه قال عمر : هلا أقت وأرسلت ؟ وأجاب عروة : قد استخلفت أخى وأحببت أن أتيك بنفسى . ومن يومئذ سمّاها عمر البشير . وأمر عمر فقرأ الكتاب الذي حمّله عروة من نعيم بالفتح والنصر ، فحمد الناس الله وصلّوا شكراً لأنعمه .

وعاد عروة إلى همدان يحمل من عمر إلى نعيم كتاباً فيه : « أما بعد فاستخلف

(١) الاسم الفارسي الزيندى . أو الزيندى . ومؤرخو العرب يطلقون عليه اسم الزينبي .

على همدان وسير حتى تقدّم الري وتلقّى جمعهم ، ثم أقيم بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد . ولم يلبث نعيم حين قرأ هذا الكتاب أن أقرّ يزيد بن قيس على همدان وسار بالناس إلى الري وهو لا يشك في أن الله سيفتحها عليه . وكيف يخامره في ذلك شك أو تخالط نفسه فيه ريبة ، وقد لقي جوع الري مع الديلم وأهل أذربيجان ، فهزمت وقتل منهم موتاً ملك الديلم ! ولعله أفرط في تفاوله ؛ فقد كان الملك بالري يومئذ سيّاوخش بن مهران ابن بهرام جوبين ، وكان قد أيقن بعد واج رُوذ أن المسلمين إن يصبروا حتى يهاجموه ليفضّوا عليه عاصمته . لذلك استبد أهل دُنْبَاوَنَد وطَبَرِستان وقومس وجُرجان وقال لهم : قد علمتم إن هؤلاء حلّوا بالريّ أنه لا مقام لكم ، فأمدّوه بقوّة اجتمعت فكانت أضعاف القوّة التي سار بها نعيم عدداً وعدّة . وتحصّنت هذه القوّة كلها بالري ، وكان سياوخش قد زاد معاقبها مناعة وقوّة ؛ فلما رأى ما اجتمع في هذه المعاقل أيقن أن المسلمين لم يظفروا به ، ولن يستطيعوا أن يفضّوا عليه حصونه .

لم يكن عجيباً أن يجتمع أهل الشّمال للدفاع عن الري ؛ فقد كانت العاصمة الكبيرة لهذه الأرجاء ، والحصن الحصين تلوذ به وتلجأ إليه . وكان بها من المعابد القائمة حول بيوت النار ما جعل نفوس كثيرين تهوى إلى زيارتها في المواسم الدينية ، وترى في الاعتداء عليها اعتداء على قدس يجب الدفاع عنه . ثم إنها كانت ، بموقعها من الأقاليم المحيطة بها ، ملتقى تجارة واسعة تُجلب إليها من الشرق ومن الغرب ، وتجعل أهلها في رخاء ورفه عيش ، وكان أهلها وأهل الأقاليم المحيطة بها مطمئنين لمناعتها ، مطمئنين بذلك إلى مقامهم بها أوفى جوارها . فلما رأوها وتعرّض للغزو تعاهدوا للدفاع عنها وذهبوا بجموعهم إلى واج رُوذ يصدّون غزاتها ، ثم لم تثنهم الهزيمة عن الاجتماع كره أخرى والتحصن بالمدينة والدفاع عنها . ولعل حماسهم في الدفاع عنها كانت تكلف المسلمين الضحايا الكثيرة لفتحها ، لولا أن أرادت الأقدار أن يتم هذا الفتح بأيسر مما قدّر له نعيم وأصحابه ؛ فقد أساء سياوخش ملك الري لقاء الزينبي أمير الفرخان بعد وقعة واج رُوذ ، وعنفه على ارتداده أمام المسلمين عزله عن عمله . وأحفظ الزينبي ما حدث ، فخرج من الري حين عرّف مقدّم نعيم لفتحها ، فلقية بظاهرها فتحدّث إليه مسالماً وحالفه على سياوخش . ونزل المسلمون في سَفْح جبل

الرى ، فلقبهم حُحاتها وأنشبوا معهم قتالاً لم ينته آخر النهار إلى ظفر أى الفريقين . فلما كان الليل قال الزينبي لنعيم : إن القوم كثير وأنت في قلة ، فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهضهم أنت ، فإنهم إذا خرجوا إليك لم يثبتوا لك . واطمان نعيم لقوله ، فبعث معه من الليل خيلاً عليهم ابن أخيه المنذر ابن عمرو ، فأدخلهم المدينة دون أن يشعر بهم أحد . وبات نعيم يشاغل حُحاته الرى يرميهم بالنبل والنشاب فشغلهم عما يدور داخل مدينتهم . فلما كان الفجر برزت خيل المسلمين بالمدينة وعلت أصوات الفرسان بالتكبير ، فأيقن الفرس حين سمعوه أنهم أخذوا على غرة من ولائهم فانهزموا ، فاتبعهم المسلمون يجمعون فيهم قتلاً . ودخل نعيم المدينة ، وانهزم سياوخش فلم يقف له أحد على أثر . واستفاء المسلمون من الرى نجواً من فيه للدائن ، وكتب نعيم إلى عمر بالفتح وبعث إليه بأخماس الفداء .

ما عسى أن يكون مصير الرى بعد أن تم فتحها ؟ أليس من أبنائها من يصلح المسلمين عليها ؟ نعم ! صالح نعيم الزينبي على أهل الرى ونصبه مكان سياوخش مرزباناً عليهم بعد أن هدم قلاعهم وخرّب حصونهم ، وأمر ببناء مدينة جديدة بجوار مدينتهم العتيقة . بذلك سقط آل بهرام ، وآل شرف الملك من قبل المسلمين إلى الزينبي الأمير وأبنائه ، وبقيت الرى مع أصابها مدينة عظيمة وثغراً من ثغور المسلمين في عهد بنى أمية وبنى العباس . على أن نجمها هوى من بعدئ ومنذ بنيت طهران على مقربة منها إلى شمالها الغربي ، وإن بقيت أطلالها إلى اليوم بارزة للعيان تحدث عما كان لها حين عزّها من جلال وعظمة .

وكان نصر المسلمين بالرى حاسماً ؛ لذلك أسرعت المدن والأقاليم القريبة منها تطلب الصالح وتودّي الجزية . فلما سار سويد بن مقرن بأمر عمر إلى قومنس لم يبق له أحد فأخذها سليماً ، وعسكر بها وصالح أهلها . وكان أهل ديباوند قد صالحوا أخاه نعيمًا بعد انهزام الحلفاء عن الرى وعود كل منهم إلى مقره .

وديباوند مدينة قائمة على جبل قريب من الرى ، وكان أهلها قد دخلوا حصون الرى للدفاع عنها ، فلما فتحت المدينة أبوابها ، وجلا حلقاؤها ومنهم أهل ديباوند مرتدين

إلى منازلهم لم يكن أمام أهل دنباوند غير الصلح عقدوه على جزية مائتي ألف درهم يدفعونها كل سنة ، على ألا يُغارَ على أرضهم وألا يُدْخَلَ عليهم بغير إذْنهم ما وفوا بعهدهم . أما قومس فمكورة كبيرة واسعة بها مدن وقرى ومزارع ، تقع إلى الجنوب من جبال طَبْرِسْتان ممتدة بين الرى ونَيْسَابور ، وتفصل طبرستان بينها وبين بحر قزوين .

بفتح الرى وصلح قومس ودنباوند لم يبق بين المسلمين وشواطيء قزوين^(١) من أرض فارس غير جُرْجان وطبرستان وأذربيجان ، فلو أنهم فتحوها وصالحوا أهلها لبلغوا أقصى الشمال في هذه المنطقة من ملك كسرى . وقد عسكر سويد بن مقرن بعد صلح قومس ببسْطام ، وكاتب ملك جرجان يدعوهُ إلى الصلح أو يسير إليه بمجنوده . وبادر الملك الفارسي فصالحه عن دهستان وجرجان على الجزية يؤدِّيها أهلها ولهم الذمة والمنعة والأمان على أنفسهم وأموالهم ومملكتهم وشراعتهم . وأُدمج في هذا الصلح نص لم يُؤَلَف من قبل مثيل له : «ومن استعنا به منكم فله جزاؤه على معونته عوضاً عن جزيته» . ولا أدلّ من هذا النص على أن الجزية إنما كانت تُفَرَض مقابل منع المسلمين من تغلبوا عليهم ، فإذا دفع هؤلاء عن أنفسهم أو أعانوا المسلمين كان لهم جزاؤهم .

تقع جرجان إلى الجنوب الشرقي من شاطيء قزوين . وتقع طَبْرِسْتان إلى الجنوب من هذا الشاطيء مجاورة جرجان . وتقع أذربيجان إلى جنوبه الغربي مجاورة طبرستان . وإذا رأى ملك طبرستان أن المسلمين أحاطوا به من الجنوب باستيلائهم على الرى ومصالحتهم أهل قومس ، ومن الشرق بصلحهم مع أهل جرجان ؛ وأنه لم يبق له منفذ إلى أرض فارس إلا من طريق أذربيجان المهددة بالغزو هي كذلك ، فقد آثر الصلح وراسل سُوَيْداً فيه ، فتوادعا وتصالحا على طبرستان وجبل جيلان بأن يدفع أهلها جزية كل عام ، وهم من بعد ذلك آمنون لا يُغار عليهم ولم يتطرق أحد إلى أرضهم إلا بإذْنهم .

تجاور أذربيجان طبرستان من الغرب ، ويتاخم شمالها بلاد الديلم ، كما يتاخم جنوبها بلاد العراق العربي وبلاد الجزيرة . وكانت أَرْدَبِيل الواقعة على مقربة من مكان تبريز اليوم أجل مدتها . وهي بلاد جبلية ترتفع أرضها فوق سطح البحر نحو خمسمائة وألف متر ،

(١) بحر قزوين هو بحر الخزر

وبها قَمَمٌ يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف من الأمتار . وكلمة أذربيجان بالفارسية معناها أرض النار أو معابد النار . وإنما أطلق على هذا الإقليم هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت قائمة ذلك الحين به . فلما خدت في الفرس عبادة النار ودان أهلها بالإسلام أبدل اسم أذربيجان باسم مازندجران .

بينما كان سويد بن مقرن يسير في جرجان وفي طبرستان ويعقد الصلح مع أهلها ، كان أخوه نعيم مقيا بالرى ينظم شؤونها مستعيناً بالزینبی الذي أقامه واليها عليها . فلما اطمأن إلى أمرها أمد عتبة بن فرقد وبكير بن عبد الله اللذين سارا بأمر عمر لإخضاع أذربيجان بسماك بن خرسة الأنصاري في قوة من غزاة الرى . وإن بكيراً ليتقدم في قواته إذ لقيه إسفنديار بن الفرّخزاد عائداً في جنوده من هزيمة واج روذ ، فالتحم الفريقان في قتال عنيف انتهى بإسفنديار إلى الهزيمة والأسر . ولم يقتله بكير بل أمسكه عنده . ذلك أن إسفنديار قال له : الصلح أحب إليك أم الحرب ؟ وأجابه بكير : بل الصلح ، فاستطرد القائد الفارسي قائلاً : فأمسكني عندك ، فإن أهل أذربيجان إن لم أصلح عليهم أو أجىء إليهم لم يقيموا لك وجلاً إلى الجبال فتحصنوا إلى يوم ما وتحطمت مقاومة أذربيجان حين تقدم عتبة بن فرقد إلى حيث عسكر بهرام أخو إسفنديار فهزمه وأجلاه إلى الفرار . عند ذلك صالح عتبة إسفنديار عليها وأعطاه كتاباً بالأمان لأهل أذربيجان ، سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها ، على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، على أن يؤدّوا الجزية على قدر طاقتهم . كان طبيعياً أن يتابع المسلمون مسيرتهم في شمال فارس حتى لا يبقى به لمقاومة أثر . وكان على بحر قزوين إلى جانب أذربيجان فرصة يقال لها الباب أو باب الأبواب ، وكانت محصنة ، قد وضعت على أفواها سلاسل فلا مخرج لسفينة منها ولا مدخل لسفينة إليها إلا بإذن . وكان أمير الباب يدعى شهر براز . فلما عرف مقدم المسلمين كتب إلى أميرهم عبد الرحمن بن ربيعة واستأمنه ، ثم لقيه وقال : « إني بإزاء عدوٍ كليب وأمم مختلفة . ولست أنا من القبح ولا من الأرمن في شيء . وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى ، فأنا منكم ویدی مع أیدیكم وجزيتی إليکم والنصر لکم والقيام بما تحبون ، فلا تذلّونا بالجزية فتوهنونا

بعدوكم». فبعث به عبد الرحمن إلى سُرَاقَة بن عمرو، وكان الأمير على الجيش، فأعاد عليه شهر براز حديثه. وقبل منه عبد الرحمن فأعفى من يقوم مع المسلمين في حرب العدو، أما من أقام ولم ينهض فعلية الجزاء. وصار ذلك سنةً فيمن يحارب العدو من المشركين. وقد كتب به سُرَاقَة إلى عمر بن الخطاب فأجازه وحسنه.

١. فرغ سُرَاقَة من الباب فوجه قواده إلى الجبال المحيطة بها، فرضى أهل بلادها الجزية دون قتال؛ إلا موقان فإنها تحصّنت من بكير ففضّها على أهلها، ثم تراجعوا على الجزية. وفي هذه الأثناء مات سُرَاقَة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة. وخرج عبد الرحمن يريد غزو الترك، فقال له شهر براز: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب. وأجابه عبد الرحمن: لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى تأتيهم في ديارهم. وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإيعان لبلغت بهم الروم! وسأله الأمير الفارسي عن هؤلاء الأقوام من هم؟ فأجابه: أقوام صحبوا رسول الله ودخلوا في هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية؛ فازداد حياؤهم وتكرّمهم، فلا يزال هذا الأمر لهم دائماً، ولا يزال النصر معهم، حتى يغيّروا من يليهم، وحتى يُلْقَتُوا عن حالهم. على أنه لم يمض في فتح الترك إذ جاءته الأنباء بوفاة عمر، وكان أهل هذه المنطقة قد اعتصموا من المسلمين بالجبال، فعاد عنهم زمناً ثم عاد إلى غزوهم في عهد عثمان.

ها قد رأيت كيف تحطّمت مقاومة الشمال الفارسي كله بعد همدان والري، وكيف كان ملوكه ومرابطته يسارعون فيطلبون الصلح فتقبل طائفة منهم الجزية، وتؤثر طائفة أن يقف القادرون من أبنائها محاربين في صف المسلمين لتُعَفَّى من ذلك هذه الجزية؛ ثم رأيت سائر الولايات الفارسية، فيما وراء العراق العجمي إلى الشرق وإلى الجنوب، لا تمتدّ إلى هذا الشمال يد معونة. أفكان ذلك غدرًا بالشمال وتخلياً عنه؟ أم شُغِلَتْ هذه الولايات بنفسها فلم تفكر فيه؟ من حَقَّك أن تلتبس لهذه الولايات عن قعودها عذراً؛ فقد روّعها المسلمون بانتصارهم في شتّى الأرجاء من مملكتهم، فسلّ الروع تفكيرهم في إمداد غيرهم لمقاومة قوة حالقتها الأقدار فلا تقف قوة وجهها. ثم إن الولايات جميعها كانت تتوقع أن يغير المسلمون عليها، وتفرّغ إذ تتحيلم بحتاحون أرضها،

فكانت منهم في موقف الخائف الوجل يريد أن يدفع عن نفسه خطراً ما أضعف رجاءه في القدرة على دفعه . ولن يطلب أحد إلى مذعور أن يمدّ لغيره يد معونة وهو عاجز عن عون نفسه . بل لم يكن توقعهم غزو المسلمين مجرد وهم يحسّمه خيالهم ؛ فقد كانت الأحوال كلها تؤيده وتجعله حقيقة تراها أعينهم ولا ينقصها إلا الزمن لتدمهم بكل آثارها . وكيف كان لهم أن يتناسوها وقد أصبح المسلمون في خوزستان وفي العراق العجمي يجاورون ولاية فارس من شمالها ، ويجاورون خراسان من غربها ، فإذا تخطّوا إلى فارس وإلى خراسان انفسحت أمامهم كرمان ومكران في الجنوب ، وأصبح ما وراء خراسان إلى أقصى الحدود من أرض الفرس ميداناً لانسيابهم . وقد اعتاد الفرس أن يرواغزاتهم ينجحرون إليهم ويحتاحون أرضهم كأنهم القدر الغازل لا يحيص منه ولا سبيل لانتقامه . بل لقد ذكر أهل ولاية فارس ما أصابهم منذ سنين حين تخطّى العلاء بن الحضرمي خليج فارس على السفن إليهم ، وما كان بينه وبينهم من قتال أعانتهم الأقدار يومئذ فيه . ترى أتعينهم الأقدار اليوم كما أعانتهم بالأمس ؟ أم ينجحرون إليهم من البصرة ويتخطّون إليهم الخليج الفارسي من البحرين ، ثم يحتاحون أرضهم كما اجتاحوا العراق وخوزستان وأصفهان والري وغيرها من أراضي الملك الأعظم ؟ .

لم يكد نعيم بن مقرن يفتتح الري حتى أذن عمر الأمراء الذين عقد لهم الآلوية أن ينساحوا في أرض الفرس كلها ، فاندفعت القوات العسكرية بأصفهان إلى خراسان ، وتدفقت قوات من البصرة ومن البحرين إلى فارس وكرمان ، وسارت الأمداد من بلاد العرب تعزز الجيوش المنتشرة في مختلف الأرجاء من أرض كسرى ، ولا يشك عمر في أن الله سيفتح عليه هذه الأرض جميعاً ويورثها المسلمين . فهو لا يريد أن يدع للفرس منفساً تجتمع أثناءه كلتهم أو تفكر أثناءه ولاية في أمر غيرها . وكذلك أصبحت بلاد كسرى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مسرحاً لحرب عوان كانت جيوش المسلمين في كل غزواتها قلة أبداً ، ثم كانت مع ذلك منتصرة فيها جميعاً . وكان الملك الشريد كسرى يزدرج ويتنّب أخبار هذا القتال حيثما كان من منازل فراره فلا يرى لنفسه ملجأ يأوى إليه ليستقر فيه ، بل يضطر إلى النقلة من ملجأ إلى ملجأ ، والاعتصام بمدينة بعد مدينة ،

فتنفذه الملاحى كلها فلا يجد في مدينة عاصمًا ، فيستأنف الفرار والقفلة حتى يخرج من بلاده كشرًّا ما يخرج ملك طريد يلتمس النصرة من قوم غير قومه ، وناس غير أهله .

اندفع المسلمون من البحرين ومن البصرة لغزو ولاية فارس ، فركب عثمان ابن أبي العاص الثقفي السفن عابراً الخليج الفارسي إلى جزيرة أيزكوان فاستولى عليها ، ثم تحطأها إلى أرض فارس ، فسار بجنوده إلى مدينة توج الحصينة يحاصرها . هناك ألقي نجاشع بن مسعود وقد انحدر من البصرة فاستوقفه الفرس عند توج ، وقاومت المدينة الحصينة هذه القوات المتدفقة إليها من الشمال ومن الغرب ما استطاعت . فلما طال بها الحصار وهنت مقاومتها ، ففتحتها المسلمون وقتلوا من المدافعين عنها مقتلة عظيمة ، واحتلوا ما فيها وفرضوا عليها الجزية ، وكذلك أذعن توج منكس الرأس ولقد طالما فاخرت من قبل بأنها ردت العلاء بن الحضرمي على أعقابها .

وسار نجاشع إلى سابور وأردشير ففتحنهما بعد قتال . أما عثمان بن أبي العاص فسار يريد إصطخر عاصمة هذا الإقليم ومدينته الكبرى . وجمع الهرير كل قواته للدفاع عن العاصمة العتيقة وقد عزم أن يرد غزاتها أو يموت دونها . ذلك أن إصطخر كان لها في نفوس الفرس مكانة سامية بلغت حد القدسية ؛ فقد كانت أول عاصمة للفرس حين نزلوا هذا الإقليم من أرض إيران ، كما كانت موطن الساسانيين أكاسرة الفرس في الزمن الذي نتحدث عنه : فساسان جد الملك أردشير الأول كان قيميًا على بيت نار في إصطخر يقال له بيت نار الإلهة أناهيد . وكانت المدينة بعد قيام الساسانيين تُعَدُّ مركزاً دينيًا للدولة ؟ ثم ظلت عاصمتها زمناً غير قصير ، وبها لذلك مقابر الكثيرين من ملوكها . لا عجب وذلك شأنها أن يجمع الفرس جموعهم لصد غزاتها ، وأن يعقدوا العزم على الاستماتة في الدفاع عنها وتجاوز إصطخر موقع پرسوپوليس القديمة عاصمة هذا الإقليم في عهد الأكمنيين الذين سبقوا بني ساسان . فالصخور التي دُفِن بها بعض الملوك الساسانيين إصطخر تجاور مقابر من قبلهم من ملوك الأكمنيين پرسوپوليس . والراجح أن إصطخر أنشئت عقب اضمحلال پرسوپوليس في أعقاب غزو الإسكندر الأكبر ؛ ولذلك استخدمت أطلالها

في بناء كثير من عمائر المدينة الجديدة . وأسمرت إصطخر بعد بنائها إلى النماء والازدهار إذ أصبحت العاصمة الرسمية لدولة ساسان ، ثم أذى مركزها الديني إلى أن تقام بها أنعم المائر . وصف المقدسي مسجدها الكبير وذكر عمده الكثيرة الهائلة ورءوسها الضخمة المنقوشة على صورة رأس الثور ، وروى أن هذا المسجد كان بيت نار في العهد الفارسي ، استعملت في بنائه مواد أخذت من پرسوپوليس . وقد أشاد المقدسي بعظمة الجسر المقام على النهر في إصطخر كما أشاد بجمال حدائقها الغناء . وكانت الجبال التي تجاورها غنية بالمعادن المختلفة ، فكان ذلك سبباً في زيادة نموها وازدهارها .

جمع الهرز كل قواته للدفاع عن المدينة العتيقة ، وخرج إلى ظاهرها بضاحية جور وهناك لقيه عثمان بن أبي العاص فالتصرو عليه وردة إلى أسوار إصطخر . وتحصنت القوات بالمدينة وقامت المسلمين مقاومة عنيفة . لكن الأمداد كانت تصل تباعاً إلى المسلمين فتزيد الحصار على الفرس ضيقاً . وطال بالهرز وجنوده ما يلاقون من شدة هذا الحصار فوهنت عزائمهم ، وفتحت المدينة أبوابها ، ودخلها المسلمون فقتلوا حمايتها وأصابوا منها ما شاءوا وفرّ من أهلها من فرّ . ثم دعا ابن أبي العاص الناس إلى الجزاء والذمة فعادوا وعاد الهرز ، ونزلوا جميعاً على حكم الغزاة .

وبلغ عثمان أن بعض المسلمين أخذ من المغنم لنفسه قبل قسمة الفء ، فقام في الناس فقال : « إن الله إذا أراد بقوم خيراً كفهم ووفر أماتهم ، فاحفظوها ؛ فإن أول ماتفقدون من دينكم الأمانة ، فإذا فقدتموها جدّد لسكم كل يوم فقدان شيء من أموركم » . وجمع عثمان الفء وكان عظيماً . فخمسّه وبعث إلى الخليفة بخمسه . وأكبر عمر فعال عثمان فأقامه والياً على البحرين .

ترى أذعنّت إصطخر لما أصابها عن رضا ونزلت على حكم القدر ؟ كلا ! بل بقي ماضيها الجيد بصور لها هول ما أصابها ويحرك دخيلتها فلا تفتأ الحين بعد الحين تضطرب بنذر الثورة والانتقاض . وقد انتقضت بعد قليل من صلح الهرز مع ابن أبي العاص ، ثم انتقضت كرة أخرى في عهد عثمان بن عفان ، فكان نصيبها في المرتين أن ردت إلى الطاعة وأكرهت على احترام العهد .

ومما ساعد انتفاضها في المرة الأولى أن شَهْرَكَ ملك فارس كان قريباً من كسرى في مقره بكَرْمَان ، فلما عرف ما أصاب إصطخر بعث يحرِّض أهلها ويبذر بذور الثورة في الإقليم كله ، ويذكِّر الناس بمواقفهم الجيدة قبل سنين قليلة حين جاء العلاء ابن الحضرمي من البحرين يحاول غزوهم . وانتقضت إصطخر ، وانتقض في فارس كل مكان استطاع الانتقاض ، وتابعوا شهرَكَ وانضموا إلى لوائه . وسار الحكم بن أبي العاص أخو عثمان للقاء شهرَكَ ، فنزل في تَوَّج وحصَّنها واتخذها مقر قيادته ، وجعل يُغيّر منها على ماحوله من المدن ثم يعود إليها يسوق أمامه مغنمه . ولم تَسَلْ أقاليم سابور وأردشير وأرتجان وإصطخر من هذه الغارات . وأثارت فعال المسلمين شهرَكَ فسار بقواته يلقي الحكم بتَوَّج ، واستبقى في مؤخرته كتيبة أمر رجالها بقتل كل فارسي يرتدّ عن الميدان والتقى هو والحكم في موقعة حامية ظلت متأججة الوطيس زمناً غير قليل ، ولا يعرف أحد لمن يكون النصر فيها . على أن غُبارها مالبث أن تَكشَّف عن انتصار المسلمين وفرار الفرس ومقتل شهرَكَ وابنه . وكان لهذه المعركة من الأثر أن حطمت مابقي من قوة معدوية في نفوس الناس ؛ حتى لقد انتقل عثمان بن أبي العاص من البحرين لنجدة أخيه فكان يسير من هذا الإقليم الفسيح حيث شاء فلا يلقي مقاومة تذكر .

ويذكر البلاذري أن أبا موسى الأشعري سار بأمر عمر من البصرة . وأنه انضم إلى عثمان بن أبي العاص في هذه المرحلة من قتال فارس ، ففتح معه أرتجان صلحاً على الجزية والخراج ، ثم فتحا شيراز على أن يكون أهلها أهل ذمة يؤدّون الخراج إلا من أحبّ منهم الجلاء : وألا يُقتلوا ولا يُستعبدوا ، كما فتحا سينيزا من إقليم أردشير وتركها أهلها عُماراً للأرض . وأتى عثمان بن أبي العاص درابجُرد ، وكانت منزل علم ودين لأهل فارس ، فصالحه الهريز عنها على مال أعطاه إتياء ، وعلى مساواة أهلها بغيرهم ممن فُتحت بلادهم بفارس ، ثم صالحه مثل هذا الصلح على مدينة فسّا القريبة من درابجُرد .

يخالف الطبري ، ومن أخذ عنه ، رواية البلاذري في فتح فسّا ودرا بجرود . ويذكرون أن سارية بن زُنينم هو الذي قصد إلى هذين البلدين : فلما انتهى إلى عسكر الفرس بهما نزل عليهم وحاصرهم وأطال حصارهم ، فاستمدّوا فاجتمع إليهم أكرادُ فارس وأتاهم الفرس (م ٤ - الفاروق - ج ٢)

من كل جانب ، فلما صاروا في قوة لا قبلَ للمسلمين بها عزموا مهاجمتهم في غدهم . ورأى عمر بن الخطاب تلك الليلة فيما يرى النائم انبلاج الصبح وابتداء المعركة وموقف الفريقين وعددهم ، وأن المسلمين بصحراء إن أقاموا فيما أحيط بهم ، وإن لجئوا منها إلى جبل هناك جعلوه خلفهم لم يؤثروا إلا من وجه واحد فكان ذلك أكفل لنصرهم . فلما أصبح وكان في الساعة التي رأى فيها مارأى أمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام في الناس فقال أيها الناس ! إني رأيت هذين الجمعين وأخبرهم بما رأى ، ثم صاح وهو يخطب : يا سارية ابن زُنيب ! الجبل ، الجبل ، ثم أقبل على الناس وقال : إن لله جنوداً ، ولعل بعضها أن يملغهم ! .

في تلك الساعة أجمع سارية ومن معه على الاستناد إلى الجبل ، ففعلوا وقاتلوا الفرس من وجه واحد فظفروا بهم وقتلوا منهم ، واستولوا في المغائم على سَقَطٍ فيه جواهر استوهبه سارية من الجند وبعث به وبالفتح إلى عمر : وبلغ رسول سارية المدينة ، فألقى عمرُ بطعم الناس فأكل معهم . فلما انصرف عمر تبعه الرجل إلى داره ، فظن عمر أنه لم يشيع فأدخله معه . وجرى بغداد الخليفة ، خبز وزيت وملاح جريش ، فنظر عمر إليه ونادى امرأته : ألا تخرجين يا هذه فتأكلين ؟ فقالت : إني لأسمع حسَّ رجل . فقال عمر : أجل افقالت لو أردت أن أبرز للرجال اشتريت لي غير هذه الكسوة ! . وردَّ عليها عمر : أو ما ترضين أن يقال أم كلثوم بنت عليٍّ وامرأة عمر ؟ وأجابته أم كلثوم من خدرها لإجابة عتب بل سخط : ما أقلَّ غناء ذلك غنى ! فالتفت عمر للرجل فقال : ادنُ فكلْ ، فلو كانت راضية لكان غداؤنا أطيب مما ترى ! .

فرغ عمر من طعامه ، فذكر له الرجل أنباء سارية فسُرِّي عنه ، ثم ذكر له نبأ السفط وأن سارية استوهبه من المسلمين وجعله لأمر المؤمنين ، فتجهم وصاح به : لا ولا كرامة ، حتى تقدَّم على ذلك الجند فتنقسمه بينهم ؛ وفتح الباب يطرد الرجل من بيته واعتذر الرجل وذكر أنه أفضى بعيره ، فأبدله عمر بعيراً من إبل الصدقة ، وجعل بعيره مكانه ، ورجع الرجل مغضوباً عليه محروماً .

هذه رواية الطبري ومن أخذ عنه في فتح فسا ودراجرد ، وهي الرواية المشهورة .

فإن تكن هي الصحيحة فمن حقت أن تسأل أمّ صلة بين صبيحة عمر : ياساريةُ الجبلَ ، وبين استناد سارية وأصحابه إلى الجبل في تلك اللحظة ؟ أم هي مصادفة محنة ؛ فعمر في شغله بشؤون المسلمين الذين يقاتلون في فارس قد رأى في نومه ما رأى ، وسارية في تقدير موقفه الحربى قد استند بجنده إلى الجبل ؟ تجرى رواية بأن أهل المدينة سألوا رسول سارية إذ كان بين أظهرهم : هل سمعوا بفارس شيئاً يوم الواقعة ، فقال : نعم ! سمعنا : « ياسارية الجبلَ » ، وقد كدنا نهلك : فلجأنا إليه ففتح الله علينا . ولا أرانى أجدر تفسيراً علمياً يقنعنى بهذه الرواية . فالوحي قد انتهى بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإذاعة اللاسلكية لم تكن معروفة ، بل لم تكن تجرى في خيال أحد ذلك العهد . ولست أستطيع أن أقطع بأن الأمر جاء من طريق انتقال الأفكار ، وأن نفحة من روح عمر تسلّطت تلك الليلة على نفس سارية ، فكان ينفذ أمر الخليفة كما ينفذ النائم في التثويم المغناطيسى أمر منوّمه . مع ذلك فهذا التأويل الأخير ، على تعذّر تصويره ، أدنى إلى تفسير هذه الرواية إن صحت . وفي هذه الحالة يكون سارية ، إذ أمر أصحابه أن يستندوا إلى الجبل ، قد ذكر لهم أنه سمع هذا الأمر في صوت من السماء .

بينما كانت جنود ابن أبي العاص تسير في إقليم فارس كان سهيل بن عدى يفرّو كرمان ، وكان الحكم بن عمرو التغلبي يفرّو مكران . ولم يثبت أهل كرمان للمسلمين ففتحوا بلادهم وغنموا منهم من الإبل والشاة ما شاء الله أن يغنموا^(١) . أما أهل مكران فتحصنوا بنهر مكران ، ودارت بينهم وبين غزاتهم معركة عظيمة انتهت بظفر المسلمين الذين أمعنوا في عدوّهم قتلاً ثم اتبعوهم يقتلونهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر ، ثم رجعوا فأقاموا بمكران ، وكتب الحكم إلى عمر بالفتح ، وبعث إليه بالأخماس وفيها فيلة مع حُحار العبديّ^(٢) ، فأمر عمر ببيع الفيلة وقسم أمانها على الفاتحين .

(١) في رواية أن الذى فتح كرمان هو عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى .
(٢) يروى أن عمر سأل صحاراً عن مكزان ، وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذى يأتيه منه فقال صحار : « يأمر المؤمنين أرض سهلها جبل ، وماؤها وشل ونمرها دثّل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل . وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، والقليل بها ضائع ، وما وراها شر منها » . قال عمر : أسجاع أنت أم مخبر : فقال صحار بل مخبر .

كان يزجر بدكرمان حين سار المسلمون إليها يفتحونها . فلما رآها لا تقام أكثر مما قاوم غيرها ، فرّ منها إلى خراسان . وأكبر رجائه أن يثبت أهلها وأهل سجستان للمسلمين . وإنما بعث إلى نفسه هذا الرجاء أن خراسان وسجستان كان بينهما وبين البصرة والسكوفة وغيرها من مسالح المسلمين أمدّ غير قليلة ؛ فليس إرسال الجنود لغزوها يسيراً كإرسالها إلى العراق العجى ، أو إلى فارس وكرمان .

تقع سجستان إلى الشمال من مكران . وكان عمر بن الخطاب قد عقد لواءها لعاصم ابن عمرو ، فقصده إليها ، ولحقه عبد الله بن عمر بها . ولقى أهل سجستان غزاتهم على تخوم بلادهم ، فلم يثبتوا لهم بل انسحبوا إلى الداخل وتحصنوا بزرنج عاصمتهم . وحصرهم المسلمون بزرنج ، ثم بثوا كتابهم تغير على ماحول العاصمة وتغتم وتسبي . وأيقن المدافعون عن زرنج أن طول الحصار أضرب بإقليمهم ، فطلبوا الصلح على أن تكون مزارع سجستان لرحى لا يطؤها المسلمون . وقبل المسلمون ما طلبوا ، ثم كانوا إذا ساروا تحاموا الأرض خشية أن يصيبوا منها شيئاً فينقضوا العهد . فتقوم لأهل سجستان الحجة عليهم فلا يدفعوا الخراج ، وبذلك حفظ كل من الفريقين عهده وقام بواجبه .

كيف أسرع سجستان إلى التسليم وهي فيما يقول المؤرخون : «أعظم من خراسان وأبعد فروجاً ، يقاتلون القندهار والترك وأما كثيرة ؟ . أيسر التعليل أنهم رأوا كسرى يسرع إلى الفرار كما رأى جيوش المسلمين مقبلة على مكان يقيم به ، فكان طبيعياً أن يقتدوا به وألا يقاوموا مقاومة تجرّ عليهم النكال . فلم يقاوموا والمملك الأعظم لا يقاوم ! ثم لم يضخّون بأرواحهم ، والمملك الأعظم لا يضجّ براحتة .

ترى أيقاوم المملك الأعظم في مقرّه الأخير بخراسان ؟ لم يكن له إلا أن يفعل ! فلو أنه فرّ من خراسان كما فرّ من خلوان ومن الرّى ومن أصبهان ومن كرمان لما بقي له في أرض فارس ملجأ ، ولما كان بين أن يسلم نفسه لأعدائه وينزل على حكمهم كما فعل الهرمزان ، أو يتخطى تخوم بلاده إلى بلاد التتار أو بلاد الصين ، فيقيم في حماية عاهلها يلتبس منه العون ، فإما أعانه فنصره على عدوه وردّه إلى ملكه ، وإما تباطأ عنه فقضى في مقرّه حياة عار ومذلة لا نجاة له منها إلا أن يموت بائساً حزيباً .

كان يزدرجرد مقبلاً بمرو حين نَحَطَّى الأحنف بن قيس تخوم خراسان على رأس القوَّات التي عقد له عمر بن الخطاب لواءها . وخراسان بلاد واسعة ؛ تتاخم العراق المعجمي من الغرب . وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها ، وتمتد في الشمال إلى أقصى تخوم إيران . ومن أمهات مدنها نيسابور وهراة ومرو وبلخ . وكانت خُراسان في ذلك العهد ذات ثروة زراعية واسعة ، كما كانت تُصنع بها المنسوجات القطنية والحريفة النفيسة . وقد طمع يزدرجرد حين أقام بها يجرّض أهلها ، في أن تصد الغزاة عما بقي له من أرض آبائه وأجداده ، ونسى أو تناسى أنه جمع قوَّات فارس كلها وقذف بها إلى نهاؤند ، فدارت الدائرة عليها ، وحطّمها المسلمون هناك كل محطّم .

والواقع أن المؤرخين المسلمين لم يبالغوا حين سمّوا غزوة نهاوند فتح الفتوح ؛ فلم يكن الفرس يثبتون بعدها للمسلمين في الوقائع الكثيرة التي دارت شمال فارس وفي جنوبها ؛ ولم تكن خُراسان أكثر من غيرها ثباتاً . دخلها الأحنف بن قيس من الطَّبَسَيْن ، فلم يلق مقاومة تذكر حتى بلغ هراة . وهراة مدينة عظيمة قائمة في قلب خُراسان ؛ تحفّ بها الجبال من كل جانب ، وتشعّب المياه في دورها وطرقاتها ، ولها تجارة واسعة جعلتها من أكثر المدن رخاءً وثروةً وأتاحت لها أن تحتفظ داخلها بأقوات تكفيها الشهور الطوال . ثم إنها كانت إلى مناعة موقعها الطبيعي ، محصنة تحصيناً زادها منعةً ، فكان بها حصون كثيرة تحيط بها ، وسور يردّ غائلة المعتدين عليها . مع هذا كله لم يطل وقوف الأحنف بن قيس أمامها ، بل فتحها عنوةً فدانت له وصالحته .

كان سقوط هراة نذيراً بسقوط خُراسان كلها ؛ وقد خلف الأحنف فيها كتيبةً من جنده ، وبعث بقوَّات إلى نيسابور وإلى سَرَخْس ، وسار بنفسه على رأس الجيش يريد مرو الشاهيجان حيث يقيم يزدرجرد : ومرو هذه تقع إلى شمال هراة وتقع نيسابور بينها . وكانت مرو عاصمة خراسان ومدینتها الكبرى . لكن موقعها الطبيعي لم يكن في مناعة موقع هراة ؛ فقد كانت في أرض مستوية بعيدة عن الجبال ، وكانت المياه والأفوات حولها وفيرة ميسورة . لذلك لم يلبث يزدرجرد حين سمع بمسيرة الأحنف إلى مرو أن خرج إلى مرو الروذ ؛ وهي مدينة قريبة منها ، تقوم على نهر عظيم يمكن التحصن به .

لكن الأحنف لم يمهله حتى يتحصن ؛ فقد جاءته أمداد من الكوفة استطاع بها أن يتابع مسيرته، وأن يُرجع كسرى مرة أخرى . فيخرج من مرو الروذ إلى بلخ . ونزل الأحنف مرو الروذ ، وقدم أهل الكوفة فساروا إلى بلخ ثم اتبعهم الأحنف حين حاضروا المدينة القائمة على تخوم فارس وطخريستان . وكان طبيعياً ألا تقاوم بلخ أكثر مما قاومت هراة أو مرو . وكان طبيعياً أن يفرّ يزدجرد منها ؛ فهو قد جعل الفرار أمام المسلمين دأبه وديدنه . ودخل الأحنف بلخ على رأس جند الكوفة ، فلما اطمأن إلى إذعانها أقام ربيعة بن عامر عليها وعلى ماحولها . وعاد هو فنزل مرو الروذ واتخذها عسكراً لجنده ومقرّاً لقيادته ، لم يبقَ ليزدجرد في أرض مملكته موضع يقرّ فيه أو يفرّ إليه . لذلك فرّ هذه المرة مجتازاً النهر الذي يفصل بين فارس وأرض التتار . فنزل بسمركند على خاقان الترك لائداً به لاجئاً إليه : وكان قد كتب إلى خاقان الترك وإلى إمبراطور الصين ، منذ كان بمرو الشاهجان يستمدّهما ويستعديهما على المسلمين ، فأبطأ رسله إليهما ولم يعودوا إليه من عندها بجواب . فلما دفعه المسلمون فليجأ إلى خاقان الترك ، دفعت النخوة هذا الأخير لنبذته . ولعل خاقان الترك رأى في تقدم المسلمين ما يهدّد ملكه ، فأثر أن يصدّم قبل أن يجتازوا إليه أرضه ، واتخذ من لجوء كسرى إليه حجة يحرك بها نخوة قومه . وحشد خاقان جنده وحشد معهم أهل فرغانة والصفد ، وسار بهم ويزدجرد يلقي المسلمين بخراسان .

كان الأحنف بن قيس قد كتب في هذه الأثناء إلى عمر بفتح خراسان وغلبته على المروّين وبلخ . فلما قرأ عمر كتابه تهلل وجهه وصاح : هو الأحنف وهو سيد أهل الشرق ! لكنه ما لبث ، بعد هذا الإعجاب بفائدة الظافر ، أن عاد إلى التفكير فيما يجب أن يعقب هذه الخطوة ، فعاوده حدّره فقال : « لو ددْتُ لو أي لم أكن بعثت إلى خراسان جنداً ، ولو ددْتُ أنه كان بيننا وبيننا بحر من نار ! » : وخشى أن يتقدّم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق ، كما خشى أن تأخذ المسلمين نشوة الظفر فتطفيهم فيعيشوا في الأرض فساداً . فكتب إلى الأحنف يقول له : « أما بعد ، فلا تجوزنّ النهر واقتصر على مادونه . وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به يديكم لسمك النصر . وإياكم أن تغبّروا فتنفضوا ! » .

وقد كان لهذا الحذر من جانب عمر ما يسوّغه ؛ فقد اتّسعت رقعة الفتح في الشرق فتناولت أرض فارس كلها ؛ وقد طالت خطوط المسلمين وتوزّعت قوّاتهم في أرجاء الشام والعراق وفارس ، ولا يأمن الخليفة انتقاض بعض هذه البلاد على نحو ما حدث إذ حَصِرَ أبو عبيدة بمحص . هذا إلى أن التقّشّم فيا وراء فارس قين أن يثير به التثار والمفول دفاعاً عن أنفسهم وعن بلادهم . فن الخير ومن حسن الرأي أن يقف الفتح زمناً حتى يستتب الأمر . ويطمئن أهل البلاد المفتوحة إلى حكم المسلمين . ومن الخير لذلك ألا يتقدم الأحنف أو غير الأحنف من أمراء الجند إلى ما وراء تخوم فارس .

دلت الحوادث من بعد على أن عمر كان حصيف الرأي ، بعيد النظر في حذره ؛ فقد سار خاقان الترك في جنده ويزدجرد إلى جانبه فعبروا النهر إلى بلخ ، واضطّروا جند السكوفة فإن يتراجعوا إلى مرو الروذ ، وأن ينضموا إلى الأحنف وجنده . تعقبهم خاقان في تراجعهم وقد زاد عدد جنده بمن انضم إليهم من الفرس ، وبلغ مرو الروذ في جمع عظيم مزعج . ورأى الأحنف دقة الموقف لكثرة عدوه ، كما رأى أنه إن تمّ له النصر فردّهم إلى بلخ وإلى ما وراء النهر لم يكن له أن يعبره ، فذلك رأى أمير المؤمنين . لهذا رأى أن ينسحب بجنوده إلى موضع يجري نهر مرو الروذ أمامه ، ويقوم جبل خلفه ، حتى يكون النهر خندقاً ، بينه وبين عدوّه ، ويكون الجبل حصناً يكفل له ألا يُؤتى من خلفه . فلما أصبح جمع الناس وقال لهم : « إنكم قليلٌ وإن عدوّكم كثيرٌ فلا يهولكم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ارتحلوا من مكانكم هذا فأسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوّكم وقاتلوهم من وجه واحد » . وانسحب الجند إلى هذا المكان ، وأقبل الترك فوقفوا قبالتهم .

لم يكتف الأحنف بما صنع من ذلك ، بل حرص على أن يعرف الترك وخاقانهم أمر عمر ألا يجتاز المسلمون النهر إلى بلادهم ، فبعث دسيسة أذاعوا هذا التبا فيهم واطمأن خاقان إلى صحة النبا حين رأى المسلمين لا يحاولون اجتياز النهر إليهم ولا يدعونهم لقتالهم فقد أقام الجيشان أياماً والترك يغادون المسلمين ويراحونهم ، فإذا جاء الليل تنصّوا عنهم . ثم لا يخرج المسلمون إليهم وبعث لأحنف عيوناً فدقّوه على مكان القوم بالليل ، ثم خرج

ليلته طليعة لأصحابه حتى كان قريباً من عسكر خاقان . فلما تنقّس الصبح خرج فارس من طليعة الترك كأنما كان يتحدّى المسلمين ، فبارزه الأحنف فقتله ، وخرج فارس ثان من الطليعة فأورده الأحنف حتفه ، وخرج ثالث فكان مصيره مصير صاحبيه .

رجع الأحنف بعد ذلك إلى عسكره وهو على تعبته : وخرج خاقان الترك من قبته فرأى الفرسان الثلاثة الذين قُتلوا ، ورأى النهر بينه وبين المسلمين ، ورأى الأحنف ورجاله لا يدعون لقتال ، وأيقن صحة ما أمى إليه من أمر عمر ، فقال لرجاله : قد طال مقامنا وما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا . وارتدّ بالجيش حتى بلغ بلخ . وقال المسلمون للأحنف : ما ترى في اتباعهم ؟ فأجابهم : أقيموا بمكانكم ودعوهم . بذلك ثبت في نفس خاقان الترك اليقين بأن المسلمين لا يريدون قتاله ، وأنهم لن يجتازوا النهر عند بلخ إلى أرضه ، فازداد حرصاً على ترك فارس إلى عاصمة ملكه ، وترك المسلمين يصنّون يزدجرد معهم حسابه .

وكان يزدجرد حين انسحب جند الكوفة من بلخ وانضموا إلى الأحنف بمرور الروذ قد فصل في قوة فارسية من بلخ إلى مرو والشاهجان ، فحصر حارثة بن النعمان ومن معه من المسلمين بها ، واستخرج خزائنه من موضعها ، وعهد إلى أمثائه في السهر عليها . فلما انسحب خاقان من مرو إلى بلخ وبلغت يزدجرد أنباء من عزيم هذا الحليف على الانسحاب من فارس كلها إلى بلاده ، أراد أن يحمل الخزائن وأن يلحق بحليفه . وكانت هذه الخزائن عظيمة تحوى جواهر كسرى وكل ما جمعه من خزائن فارس في أثناء فراره وكانت من ثمّ ثروة يخطئ تقديرها الإحصاء . وعرف أهل فارس عزم يزدجرد على حملها والفرار بها ، فسألوه : أى شيء تريد أن تصنع ؟ وأجابهم : أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين . فقالوا له : مهلاً ! إن هذا رأى سوء ؛ فإنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع أرضك وقومك . ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصلحهم فإنهم يلون بلادنا . وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدوٍ يلينا في بلادنا . فأبى عليهم وأبوا عليه . قالوا : قدع خزائنا نرُدّها إلى بلادنا ومن يليها ولا نخرجها من بلادنا إلى غيرها نخالفهم يزدجرد وأصرّ على رأيه ، نفرجوا إليه وثاروا به وقتلوه وحاشيته ، واستولوا

على خزائنه ، ففرَّ فيمن معه إلى بلخ ، فإذا خافان سيقه إلى الانسحاب منها ، فتابع فراره حتى بلغ فرغانة عاصمة الترك بسمرقند .

وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاهدوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، ورجعوا إلى بلادهم فاطمأنوا بها . فسار الأحنف بجند الكوفة من مرو الروذ إلى بلخ فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مقر قيادته : وقد كان ما استفاء المسلمون في هذه المواقع عظيماً ، حتى بلغ نفلُ المحارب مثله يوم القادسية .

وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح وبعث إليه بالأخماس ، فأمر عمر بالكتاب فقريء ثم خطب الناس ، فكان مما قاله : « ألا إن الله قد أهلك ملك الجوسية وفرَّق شملهم فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يُضِرَّ بمسلم . ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون . والله بالغ أمره ، ومنجز وعده ، ومتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يوفى لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم ؛ فإنني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم » .

فرَّ يزجرد من أرض فارس إلى أرض الترك ، فتم بقراره القضاء على دولة الأكاسرة من بني ساسان . مع هذا أقام في مقرِّه سنين يداعب الأمل الغرور خياله أن يعود يوماً إلى ملك آبائه وأجداده . لذا كان ي كاتب من يطمن إلى مكاتبهم من أهل خراسان ، طامعاً أن تثور الأرض بالمسلمين يوماً فتتوح له فرصة الثأر منهم . وقد ثارت خراسان في زمن عثمان بن عفان ، فخيَّل إلى يزجرد أن الفرصة تاحت ، فسار من بلاد الترك حتى نزل مرو واجتمع بمن كان يكاتبهم . لكن المساهين مالبثوا أن قضوا على الثورة وأخذوا بيدهم زمام الأمر في الأرض التي كفرت بسطانهم . عند ذلك رأى أصحاب يزجرد أنه لا طاقة لهم بما يريد ، فاختلقوا معه وانقضوا من حوله ، فعاد يحاول الفرار والرجعة من حيث أتى . لكن الفرار لم يكن هذه المرة يسيراً ؛ فقد تحلت عنه الأرض كلها ، وقد بث المسلمون عيونهم من الفرس ليحيطوا به ويقبضوه إليهم أسيراً ، وعرف الملك الشريد مأذُبره ، فأوى إلى طاحونة على شاطئ النهر ، وهناك قَتِلَ شرَّ قَتْلِهِ . قيل إن أهل خراسان أحاطوا به في مَلَجْته ، ثم دخلوا عليه فقتلوه وألقوا بجثته في النهر .

وقيل إن صاحب الطاحونة رأى عليه حُلته فلما نام قتله ، وإن الترك خفوا لنجدته فوجدوه قتل ، فانتقموا له من صاحب الطاحونة وأهله فقتلوه جميعاً ، ثم وضعوا جثته في تابوت وحملها بعضهم إلى إصطخر . وقيل إن صاحب الطاحونة ذهب إلى أمير مرو فأخبره خبره ، فمرفه وقال لجنده : اذهبوا لجيثوني برأسه ، فدخل عليه الطحّان فقتله وحرّ رأسه ودفع بها إلى الجند ورمى بجثته في النهر . وأيضاً ماصح من هذه الروايات فكلها تتفق على أن سليل الأكاسرة العظام قتل وهو في ملجئه عند ذلك الطحّان ، وبمقتله انتهت دولة الأكاسرة من بني ساسان .

ثم فتح فارس وفرار يزدجرد في عهد عمر . فهل ترى أذعن الفرس لحكم المسلمين من أول الأمر عن طوعية ورضا ؟ لا ريب في أنهم رأوا هذا الحكم أكثر إنصافاً ومعدلة وأقلّ إرهاباً لهم من حكم الأكاسرة ؛ فقد تركهم العرب لم يزججهم عن دينهم ولم يتدخلوا في شؤونهم ، ثم جعلوا الأمراء الولايات من الاستقلال أكثر مما كان لهم في عهد يزدجرد وأسلافه ، كما تركوا المناصب العامة للفرس لم يحاولوا استغلالها لأنفسهم ، مكتفين بالجزية يقتضونها وفاقاً للمعاهدات المعقودة بينهم وبين مختلف الولايات . لكن أبناء فارس لم يلبثوا أن شعروا بما في حكم الأجنبي من مذلة لهم وعار عليهم ، وأن أدركوا ما يحتويه نصّ ورد في المعاهدات كلها من جرح لشعورهم وإذلال لكرامتهم ؛ فقد جاء في الفقرة الأخيرة من صلح أصبهان : « ومن سبّ مسلماً بُلِغ منه ، فإن ضربه قتلناه » . وكان صلح الرى يلزم أهلها بأن « يقرّوا المسلمين يوماً وليلة ، وأن يفخّموا المسلم ، فمن سبّ مسلماً أو استخف به نُهِك عقوبةً ، ومن ضربه قتل » . ونص صلح جُرمان على أن « من سب مسلماً بلغ جهده ، ومن ضربه حلّ دمه » . أفيغنى ترك الفرس أحراراً في دينهم ، وعدم التعرض لهم في التمتع بأموالهم عن ، الكرامة المهدورة والدم المباح كلما استخف فارسي بمسلم أو سبه أو ضربه ؟ ! لذلك بدأ الفرس ينتفضون بعد قليل من استقرار المسلمين بينهم ، مما اضطر عثمان إلى إرسال القوات المسلّحة الحينَ بعد الحين لتأديبهم .

ولم يكن تأديبهم وردّهم إلى الطاعة عسيراً ؛ فلم يكن عمر قد فاته أن أمة عريقة في الحضارة والمجد كأمة الفرس لن تذعن من بادىء الأمر لسلطان الأجانب عنها ، فأقام

المساح في شتّى أرجائها ، واحتاط بذلك لكل انتقاض يمكن أن تقوم به طائفة من أبنائها . وقد كان عمر في هذا الأمر كما كان في كثير غيره حصيفاً بعيد النظر . فالشعور بالكرامة أقوى أثراً في النفس من كل شعور ، ولن يستطيع كبجه إلا قوة تضطر الثائر ، لمهانة نزلت به ، أن يختار بين كرامته وحياته ، وتجعل الشعور بالكرامة وغيرة الاحتفاظ بالحياة يقفان وجهاً لوجه . وقد كان لهذه الوقفة أثر بعيد في حياة الشعب الفارسي أدّت به إلى أن يدين بالاسلام ، ثم كان له من الأثر في حياة الإمبراطورية الإسلامية ما لا يدخل تفصيله في نطاق هذا الكتاب .

فقد رأى العقلاء من أبناء فارس سُموّ الإسلام ، ثم رأوا أن لا نجاة لكرامتهم مما نصّت عليه المعاهدات إلا أن يدبّخوا بدين الحاكّمين ، وأن يندمجوا فيهم جهد طاقتهم ، وأن يستردّوا بذلك سلطاناً لم تمكنهم الأسلحة في حمى يزدجرد من الاحتفاظ به . ولم يبلغ تعصبهم لديهم أن يمنعهم من أن ينعموا بمزايا الإسلام ، وأولها أن يصيروا بمجرد إسلامهم أئداداً للحاكّمين يساؤونهم ويصاهرونهم . ثم إنهم حرصوا بعد إسلامهم على أن تسود عقيدتهم القديمة في أمر السلطان ، فبلغوا من ذلك ما أرادوا أو نحواً منه . جاء في كتاب « تاريخ المؤرخ » الذي نشرته « الإنسيكلوبيديا بريتانيكا » في هذا الموضوع ما خلاصته : « دخل الفرس في الإسلام أفواجا عقب الفتح . ولذلك أسباب كثيرة يمكن ردّها جميعاً إلى سببين اثنين : أولهما أن الإسلام كان دين الحاكّمين ، والثاني أن الفرس لم يكونوا يَعمَنُونَ إلا قليلاً بالدين الرسمي للدولة السابقة . هذا إن أن العقيدتين كانتا تلتقيان في مواضع كثيرة ، فلم يكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى ليثير نفوساً تززع إيمانها بعقيدتها الأولى ؛ فقد ضعف إيمان الفرس بتعدد الآلهة ، وأصبح تصورهم أرْمُزَ قريباً من فكرة الألوهية الإسلامية . ثم إن بساطة العقيدة العربية كانت منجاة للفرس من تعقيد الشعائر المزدّية ، وكانت الزكاة المفروضة في القرآن تقابل بل تسمو على ما تدعو إليه « الأفيستا » من الصدقة والإحسان . أما ما جاء في القرآن عن الجنة والنار وعن الآخرة فكان مذكوراً في كتبهم . بذلك لم يغيّر الإسلام في نظر الشعب الفارسي ، شيئاً من عقائده الأساسية إلا أن جاءه باسمين جديدين : الله ومحمد ، وأن أحل الكلمات الثمان التي تعتبر

قواعد الإسلام محل الكلمات الإحدى والعشرين التي تقوم عليها عقيدة الفرس .
 « كان لهذا الانتقال الديني أثره في الناحية السياسية . فالعقيدة الفارسية تجعل
 السلطان للملك على أنه ابن الله ، فله المجد والقدسية بحكم مولده الأسمى . وقد أدت ثورة
 الفرس وانتقاضهم على سلطان المدينة وسلطان دمشق إلى اجتماعهم حول الوارث الشرعي
 لجد : ابن عمه عليّ العربي الذي أقصى عن الخلافة وإلى أن يحيطوه بهالة من الجلال
 والقدسية ألف أسلافهم أن يحيطوا بها ملكهم القومي . وكما ألف أسلافهم أن يلقبوا
 كسرى : « الملك المقدس ابن السماء » ، وأن تصفه كتبهم بأنه « السيد والمرشد » ،
 كذلك فعلوا في عهدهم الإسلامي فدعوه الإمام . وكان هذا اللقب على بساطته جليل المعنى
 إذ جمع صاحبه السلطان الدنيوي والتوجيه العقلي .

« فلما قبض على اجتماع الفرس حول ولديه الحسن والحسين ، ثم اجتمعوا من بعدها
 حول عقبهما . وقد قيل : إن الحسين تزوج بنت آخر الأكاسرة الساسانيين ، فتركت
 الإمامة بذلك في عقبه بازواج الحق المقدس ، ثم بارك دم الحسين بسهولة كربلاء على
 هذه الوحدة التي جمعت بين الإسلام وفارس القديمة .

« وكانت الثورة التي خلعت بنى أمية وأجلست العباسيين ذوى قرابة رسول الله
 على العرش مع صنع الفرس . بذلك حققوا مبدأهم في الإمامة ، وإن لم يتوَّجوا بالسلطان
 من بذلوا كل جهدهم في سبيل تنويجه الخ » .

هذه الحوادث ، التي يذكرها « تاريخ المؤرخ » ، ويذكرها المؤرخون جميعاً ، تنحط
 عهد عمر . وإنما سقناها هنا للفت القارئ إلى أن الفرس لم تطمئن نفوسهم لحكم العرب ،
 بل برموا به وحاولوا الانتفاض عليه جبهة من أول الأمر . فلما غلبوا على أمرهم جعلوا
 كل همهم أن يكون السلطان لهم ، فبلغوا من ذلك الشيء الكثير في ميادين الحياة العامة
 جميعاً . وقد بلغ من برهم بفتح المسلمين بلادهم أن ثارت نفوس طائفة منهم بعمر ،
 حتى قيل إن مقتله بعد قليل من فتح خراسان كان ثمرة لمؤامرة فارسية . وسنفصل ذلك
 من بعد . وحسبنا أن نقول هاهنا إن عمر كان صادقاً كل الصدق حين قال يوم كتب
 إليه الأحنف بن قيس بفتح خراسان : « إن الله قد أهلك ملك المجوسية وأورث الإسلام

أرضهم وديارهم وأبناءهم » وأن هذا الفتح كان النذير الصادق بانتهاء دولة الأكرسة من بنى ساسان^(١) .

أما وقد فرغنا من فتح فارس فلننتقل إلى ميدان آخر كانت أسلحة المسلمين مشهورة فيه حين كانت أسلحتهم مشهورة في أرض كسرى ، وكان لها من مجيد الفعال هناك ما كان لها من مجيد الفعال هنا ، ثم كان قائدهم عمرو بن العاص أوسع قواد المسلمين حيلة وأشدّهم ذكاء .

هذا الميدان الآخر هو مصر .

(١) لعل القارىء قد لاحظ أننا لم نعين تاريخ أكثر الغزوات في فتح فارس . وأتينا أغفلنا في غير موضع ذكر أسماء القواد الذين تولوا إمارة الجند في هذه الغزوات : والواقع أنه تحقيق التواريخ لغزوات فارس غير ميسور ، ولعله غير ممكن . وحسب أن أذكر هنا أن أهم غزاتين فيها ، وهما غزوة القادسية وغزوة نهاوند ، تقع الريب في تاريخ وقوعهما . وليس يقتصر هذا الريب على المؤرخين المسلمين فليس المؤرخون الأجانب دون زملائهم ريباً . فهم تذكرون أن القادسية وقعت إما في سنة ٦٣٦ أو في الشهر الأول من سنة ٦٣٧ ، وأن نهاوند تتراوح بين سنوات ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢ . والطبري يذكر أن القادسية وقعت في السنة الرابعة عشرة ، وهي توافق سنة ٦٣٥ أو أوائل سنة ٦٣٦ ، وأن نهاوند وفتح أصبهان كانا في السنة الحادية والعشرين للهجرة : وفتح خراسان والرى وجرجان وطبرستان وأذربيجان في السنة الثانية والعشرين . ويجعل فتح فارس وكرمان ومكران وسجستان في السنة الثانية والعشرين . وهو مع ذلك يورد من الروايات التي يراها مرجوحة ما يجرى بأن أذربيجان فتحت سنة ثمان عشرة بعد فتح همدان والرى وجرجان وطبرستان . ويذكر ابن كثير أن فتح خراسان حدث بعد فتح فارس وكرمان ومكران ، وهو رأى راجح ، وبذلك نكون قد فتحت سنة ثلاث وعشرين إن صح أن فارس وجاراتها فتحت تلك السنة . أما البلاذري فيخالف تلك الروايات كلها في كثير من الأحيان ، ويذهب إلى أن إيران لم يتم فتحها إلا في عهد عثمان بن عفان ، كما يخالف الطبري ومن ذهب مذهبه في تسمية كثير من الأمراء الذين تولوا إمارة الجند في هذه الغزوات الكثيرة المختلفة . وقد حرصت على تحقيق ما استطعت تحقيقه من ذلك كله جهـد طاقتي ، فقارنت الروايات بعضها ببعض وطبقتها على جغرافية فارس الطبيعية والسياسية لتلك العهد ، وأثبت في هذا الفصل ما اعتقدته أدنى الروايات كلها إلى الصحة . أما ما اضطربت الروايات فيه ولم يكن لإثباته ذا قيمة في التاريخ الامبراطورية الإسلامية لعهد عمر فأغفلته . وأحسبني لم أضع على القارىء بهذا الإغفال ما يفوت عليه شيئاً جوهرياً في الموضوع الذي نحن بصدده . وأكبر رجائي أن أكون قد وفقت لتصوير الفتح الإسلامي لأرض فارس على نحو يحلوه أمام القارىء في صورة واضحة خالية من الاضطراب .

الفصل الثامن عشر

التفكير في فتح مصر

بينما كانت أسلحة المسلمين تنساح في بلاد الفرس، بإمرة الأخنف بن قيس وُنَعم بن مقرن وسويد أخيه وعبد الله بن عبد الله بن عتيبان وغيرهم من أمراء الجند ذوى المسكنة والبأس كان عمرو بن العاص يتقدم بجنوده في مصر؛ بفتح مدنها، ويحلى الروم عنها ويدبل دولتهم فيها. وقد بدأ عمرو مسيرته إلى مصر في شهر ذى الحجة السنة الثامنة عشرة من الهجرة، وتخطى إلى أرضها في مستهل السنة التاسعة عشرة، ثم سار في قتال أهلها وقتال الروم بها حذراً أول الأمر. فلما جاءت له الأمداد من الخليفة طوعت له سرعة السير وكفلت له الغلبة والنصر.

وكانت مسيرة عمرو إلى مصر بإذن من عمر بن الخطاب. لكن عمر لم يأذن بهذا السير إلا بعد تردد طويل. فالتواثر أن ابن العاص خاطب الخليفة في غزو مصر حين فتحت بيت المقدس أبوابها، وبعد أن صالح أمير المؤمنين أهلها في السنة السادسة عشرة من الهجرة. ولعل عمراً قد ذكر في حديثه يومئذ أن قائد الروم الأطربون انسحب بقوات الروم من فلسطين إلى وادى النيل، فمن الخير تعقبه وهو منهزم قبل أن تتاح له فرصة التحصن في بلاد وافرة الخصب عظيمة الثروة؛ يستطيع أن يجد في حصونها المنفعة وفي ميرتها الوفيرة، من وسائل الدفاع وأسباب المقاومة، ما يُنسى هرقل هزيمته وفراره من المدينة المقدسة. ولعل عمراً ذكر كذلك في حديثه ما تعج به مصر من خيرات ينال الروم أكثرها ولا يبقى للمصريين منها إلا القليل الذى يقيم أودهم ليعملوا في أرضها المنعطة ولعله أعاد هذه الأحاديث غير مرة على الخليفة، وعززها بأن علاقات مصر بحكامها من الروم ليست خيراً مما كانت علاقة العراق بحكامها من الفرس؛ وأن النزاع المذهبي قد أثار على ضفاف النيل حفاظ المصريين وأضعف من حاستهم لحكامهم، إن لم يدعهم للتمرد عليهم. وهذه كلها عوامل تكفل للعرب الظفر بأعدائهم في الوادى الخصيب،

فإذا أضيف إليها ما استقرّ في نفوس الناس لذلك العهد من بأس المسلمين ومن أن الله معهم فلا غالب لهم ، لم يبق موضع للتردد في غزو مصر ونشر لواء الإسلام فيها ، ثم كان للمسلمين من ثراء مصر ومن خيراتها الوفيرة ما يضاعف حظهم من نعيم الدنيا ، بقدر ما يضاعف الاستشهاد حين الجهاد حطّم من نعيم الآخرة .

سمع عمر هذه الأحاديث ومثلها غير مرة . وكان ينصّت لها ويطلّب التفكير فيها . فالإغراء بغزو مصر لمن استطاع غزوها قوى شديد . وأين منها العراق والشام ثروة ونصرة ! وهل يحدث تاريخ في بقاع الأرض بمثل ما يحدث تاريخها ، أو تنهض في المشرق قين آثار في جلال آثارها ! لكن عمر كان يتردّد كلما حدث في أمرها ، فلا يأذن لابن العاص في غزوها . فلما انتهى بعد سنتين إلى الإذن بهذا الغزو وجد جماعة من كبار الصحابة بالمدينة راغبة عنه ، خاشية سوء مغيبته ، تحاول حمله على الرجوع عنه ، وردّ ابن العاص عن السير إليه .

وقد تداولت عمر أسباب متلاحقة حملته على هذا التردد . وأول هذه الأسباب أن سياسته في الفتح كانت إلى آخر السنة السابعة عشرة من الهجرة سياسة عربية بحثة ؛ فهو لم يكن يريد أن يتمدّد العراق والشام بعد أن ضمّهما إلى شبه الجزيرة ؛ وكان يرى أن يضمهما إليها لأن القبائل العربية التي نزحت إليها طوّعت للخميين والغسانيين أن يُقيموا بهما ملكاً عربياً خضع لنفوذ كسرى ولنفوذ قيصر ، ومن الحق أن يكون هذا الملك للعرب وحدهم ، يستقلّون به ويكونون أصحاب السلطان فيه ، حتى يجتمع العرب في وحدة تمتد من خليج عدن والمحيط الهندي إلى أقصى الشمال من بادية السماوة . ولذلك أبا على سعد بن أبي وقاص أن يتخطّى سهول العراق إلى جبل فارس ، وودّ لو أن بين السواد والجبل سداً من نار ، فلا يخلص الفرس إليه ولا يخلص هو إليهم . وقد ظل حريصاً على هذه السياسة حتى لم يكن للمسلمين من قتال الهرمزان مغرّاً . فلما جمع الفرس لهم بعد ذلك بنهاوند وأظفر الله المسلمين بهم ، أمر عمر بالانسياح في بلادهم ليُخرج زردجرد منها ، وليقتضى على كل خارج عليه فيها .

وسبب آخر حمل عمر على التردد في فتح مصر . ذلك أن الشام لم تكن خضعت

كلها لسلطان المسلمين إلى آخر السنة السادسة عشرة . وقد بقي شمالها يفاوضهم ولا يستقر لهم فيه أمر حتى قضى أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد على مقاومتهم ، وذلك حين بعث هرقل قوّاته تحملها السفن من الإسكندرية إلى أنطاكية ، وحين خرج أهل الجزيرة يُمدّونه ، ثم انتهى الأمر بهؤلاء وأولئك إلى الفرار . هذا ، ثم إن قيسارية ظلت في موقعها الحصين على شاطئ البحر تقاوم قوّات المسلمين وتهدد مراكرهم بفلسطين إلى أن افتتها معاوية بن أبي سفيان . لم يكن لعمر ، وذلك كان شأن سورية وفلسطين إلى أخريات السنة السابعة عشرة من الهجرة ، أن يغامر بإرسال قوّاته من الشام لمواجهة الروم بمصر . أتراه يُقدّم على هذه المغامرة إذا فتح الله عليه الشام ؟ كان يتردد في هذا ، وكان يجد من عثمان بن عفان ومن غيره من الصحابة المقيمين بالمدينة من يزيد دون الإقدام والمغامرة تردداً .

فلما خضعت الشام كلها طراً سبب جديد أبقاه في تردده ؛ فقد فشلت الجماعة في شبه الجزيرة وهددت أهلها بالفناء ، فشغلت عمر عن التفكير فيما سواها . وكيف يفكر في غزو الروم بمصر والناس في شبه الجزيرة جياح لا يصلحون مدداً لأى جند يواجه الروم أو يواجه الفرس ! . ولم تكد الجماعة تنقضى حتى فشا طاعون عمّواس بفلسطين وامتد منها إلى الشام والبصرة ، فأزعج عمر والمسلمين جميعاً ، حتى لقد ساورتهم الخشية من انتقاض العراق والشام بهم ؛ ورجعة الفرس والروم للقضاء ثمّ على سلطانهم . وكان طبيعياً أن ينسى عمر في أثناء الجماعة والطاعون كل ما حدث به عمرو بن العاص عن مصر ، وأن ينصرف كل الانصراف عن التفكير في غزوها .

ولزم ابن العاص الصمت في أثناء هذه الحوادث فلم يخاطب عمر في غزو مصر . لكن الأمل في إقناع الخليفة عند سnoch الفرصة لهذا الفتح العظيم ظلّ مع ذلك ماثلاً أمامه . ولما عادت شبه الجزيرة إلى مألوف حياتها ، وبرأت الشام من الوباء وجاء الخليفة إليها يصلح شؤونها وينظّم جندها ، لقيه عمرو بالجابية وسار معه في أرجاء البلاد وعاد يحدثه في فتح مصر ويُدلى إليه بمحجج جديدة حسبها تُزيل تردده . فلو أن المسلمين قنعوا ، بعد الذى أصابهم من هول الجماعة والطاعون ، بالاستقرار في البلاد التى فتحوها لظن

أعداؤهم بهم الضعف ، ولأغرام هذا الظن بمهاجمتهم . وهذا الأطربون بمصر قد جمع إليه الجند وأعد للقتال العدة ، فإذا لم يجد من يهاجمه خرج في قواته إلى فلسطين يقاتل المسلمين . أليس الخير أن يفاجئه المسلمون في مأمنه ؛ فالحجج خير وسائل الدفاع ؟ وإذا تقدمت قوات العرب لغزو مصر أيقن الروم أن المسلمين لا يزال بأسهم شديداً كما كان ، فهابوهم ووقفوا منهم موقف المدافع . بذلك تأمن الشام رجعتهم لغزوها . وكيف لم يقل الجند على السفن من مصر إلى أنطاكية أو غير أنطاكية والمسلمون يهاجمونه في مصر نفسها ! فإذا فتح الله مصر يوماً للمسلمين وأورثهم إياها ، وذلك ما يؤمن ابن العاص به ، فذلك الفوز الذي لا فوز بعده ؛ وإن تكافأت القوتان فطلب الروم الصلح ، أمّن المسلمون جانبهم في الشام وفي جزيرة العراق ، وفي سائر الأرجاء التي دانت من قبل بأسلحة أمير المؤمنين . ولا خوف من أن يهزم المسلمون في مصر وأن تؤدّي هزيمهم إلى كارثة تضع ما كسبوا من ملك قيصر ؛ فقد أصبحت الشام كلها حصينة بقوات المسلمين المنتشرة فيها ، وبانضمام العرب من أهلها إلى بني عمومهم في الدفاع عنها ، وباطمئنان غير العرب من أهلها إلى أن المسلمين خير من الروم حكماً ، وأكثر منهم عدلاً وإنصافاً .

سمع عمر إلى هذه الحجج وقلتها في نفسه فالت به إلى مشاركة ابن العاص في رأيه . وزاده ميلاً إلى هذه المشاركة ما رآه من إيمان عمرو بالقدرة على فتح مصر إيماناً مستنداً إلى منطق تتعذر معارضته . هذا إلى أن الإغراء بفتح مصر شديد ؛ فقد كان عمر وكان كثيرون من العرب في عهده يعرفون الشيء الكثير عن مصر وثروتها ، وعن برّ أهلها بسلطان الروم وأساليب حكمهم . لذلك لم يرفض طلب عمرو ، ولكفه استمهله حتى يكتب إليه بعد عودته إلى المدينة . وأقام ابن العاص ينتظر هذا الكتاب ويدبر في أثناء انتظاره خطة السير إلى مصر .

كان عمرو وكان كثيرون من العرب يعرفون الشيء الكثير عن مصر . ولم يكن علمهم بها مقصوراً على ما ينقله عنها من يذهبون في تجارتهم إليها من أمثال عمرو بن العاص ، بل كان أوسع من ذلك مدى وأكثر دقة وإحاطة . فبين مصر وبلاد العرب صلات

ترجع إلى أقدم الحقب . ذلك أن مصر كانت دولة بحرية منذ عهد الفراعنة ، فكانت أساطيلها الحربية والتجارية تشق عُباب البحرين الأبيض والأحمر من أقدم عصور التاريخ . وكانت سفن من هذه الأساطيل تذهب إلى الجنوب من بلاد العرب تحمل إليه التجارة وتجيء منه بمختلف السلع ، وفي مقدمتها العطور والروائح التي توضع في حنوط الموميات . وكانت هذه السفن تسير وترسو من حيث تقع القصير اليوم ، ثم يُنقل ما تجيء به إلى مصر في طريق امتد في عهد الأسر الفرعونية الأولى بين القصير على البحر الأحمر وقِفْط على ضِفة النيل . وقد أثبت الأثريون ما سجلته نقوش السكرنك وطائفة من المعابد المصرية من صور لهذه السفن المصرية وما تحمل من تجارة ، كما أثبتوا ما سجلته نقوش الدير البحري من قيام الملكة الفرعونية (هاناسو) بشق طريق ملاحى يصل النيل بالبحر الأحمر عند خليج السويس ماراً بالبحيرات المرة . وفي هذا الطريق الملاحى كانت السفن تنتقل بين البحرين الأبيض والأحمر ؛ تحمل تجارة مصر والمغرب إلى الشرق ، وتحمل تجارة مصر والشرق إلى الغرب . فكانت مصر يومئذ ، أكثر مما هي اليوم ، مركز التجارة للعالم المعروف كله ، وكان تيسير الانتقال لهذه التجارة بعض ما يؤليه ملوكها أعظم العناية . ولم تكن الأساطيل البحرية وحدها أداة هذه الصالات القديمة المتصلة على القرون بين مصر وبلاد العرب ، بل كان برزخ السويس أداة اتصال بينهما لم تنقطع في عصر من العصور . وكان في شبه جزيرة سيناء طريق عبده المصريون القدماء إلى مناجم النحاس الواقعة بها ، وكان هذا الطريق يجرى في شمال الحجاز حتى يتصل عند تيماء بالطريق المؤدى إلى بابل على شاطئ الفرات وكانت بابل وكان العراق كله تابعاً لمصر في عصور مختلفة ؛ فكان هذا الطريق وسيلة الصلة بين البلدين في التجارة ، كما كان سبباً لنشوب الحرب بينهما في بعض العصور .

وكان هذا الطريق الممتد من سيناء في شمال الحجاز يتصل كذلك بطريق القوافل المنحدر إلى مكة وإلى اليمن ، وفي هذا الطريق كان جانب كبير من تجارة مصر وبلاد البحر الأحمر ينقل إلى اليمن وفارس ، وإلى الهند وبلاد الشرق الأقصى ، كما كان جانب عظيم من تجارة اليمن وفارس والهند والشرق الأقصى ينقل إلى مصر وبلاد البحر الأبيض

في الطريق عينه ، فكان المصريون الذين يصحبون تجارتهم يجتازون بلاد العرب أثناء سير القوافل بها ، وكان العرب الذين ينقلون متاجر الشرق إلى مصر يدخلونها بقوافلهم ويقيمون بهارثا يعودون منها بتجارة جديدة ، وكان ذلك يحدث من أقدم العصور ، ثم ظل متصلا مع إلف الناس البحر ونقلهم التجارة في السفن على مَتنه .

ومؤرخوا العصور القديمة يذكرون أن هذا الاتصال أدى إلى استقرار عدد غير قليل من العرب ببوادي مصر منذ عهد الفراعنة ، وإلى استقرار جالية من المصريين عند واحة على طريق القوافل ، وأن هذه الجالية كانت النواة التي نشأت حولها مدينة يَثْرِب ، مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

لم تكن صلة التجارة وحماية القوافل هي وحدها التي ربطت بين العرب والمصريين في العصور القديمة ، بل ربطت بينهما كذلك صلة رحم إن نسيها أهل اليمن لم ينسها أهل الحجاز ، وما كان لأهل مكة بخاصة أن ينسوها . فإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أبو العرب ، و « هَاجِرٌ » أمُّ إسماعيل مصرية صميمية . فقد ارتحل إبراهيم مع زوجته « سارة » من العراق إلى فلسطين ثم إلى مصر ، فأهدى إليه ملكها هَاجِرَ ، فولدت له إسماعيل . وغضبت سارة حين رأت إبراهيم يسوّى بينهما وبين هاجر ، فأقسمت لاتساكنها ، فذهب إبراهيم بهاجر وابنها إلى بلاد العرب وأنزلها بالوادي الذي تقوم مكة اليوم به . وتزوج إسماعيل فتاة ولوداً من جُرْهُم أعقبت له اثني عشر ولداً هم آباء العرب المُسْتَعْرَبَة . فهؤلاء العرب ينتمون من ناحية خؤولتهم في جُرْهُم إلى العرب أبناء يَعْرُب ابن قحطان ، وينتمى أبوهم إسماعيل من ناحية خؤولته إلى مصر .

نزل إبراهيم مصر وانتقل بهاجر إلى بلاد العرب ، فربط بين الجنسين برابطة النسب لمائة وألف سنة قبل مولد المسيح ، وأضاف بذلك صلة جديدة إلى صلة التجارة القائمة بين الشعبين من أقدم الحقب . وبعد قرنين اثنين من هذا النسب نشأت بين الشعبين صلة سياسية تركت أثراً باقياً على التاريخ ؛ فلوك مصر الرعاة « الهكسوس » عرب نزحوا إلى فلسطين واستقروا بها ، ثم ساروا منها إلى مصر فغزوها وأقاموا بها مُلُكاً دام خمسة قرون متعاقبة ، من أوائل القرن المئتم العشرين إلى أواخر القرن الخامس عشر قبل

الميلاد . وقد ظل ملكهم ممتداً في وادى النيل كل هذه القرون ، ثم أجلاهم المصريون عنه ، فخرجوا من مصر وقد بلغ عددهم قرابة ربع المليون . ويذكر بعض المؤرخين أن هؤلاء المكسوس هم بنو إسرائيل ، وأن قصة يوسف الصديق حدثت في عهدهم . ظلت هذه الصلات في التجارة والسياسة والنسب متصلة بين مصر وبلاد العرب ، تضعف حيناً وتقوى حيناً آخر . وقد أضعفها استيلاء الروم على مصر زمناً ، ثم عادت إلى مثل ما كانت عليه . ذلك أن العرب ظلوا يقومون برحلة الصيف إلى الشام ، ثم كان منهم من ينحدر من طريق القوافل عند أيلة (العقبة) إلى مصر ، وكان أكثرهم يسيرون إلى الشام ، فإذا بلغوها وقضوا وطراً من تجارتهم فيها توجهوا إلى مصر . وذلك ما كان عمرو بن العاص يصنعه في الجاهلية وفي الإسلام .

ولم يكن طريق البحر أقل إدامة للصلة بين مصر وبلاد العرب من طريق القوافل ؛ فقد كانت السفن عليها الملاحون المصريون ترسو بجدة وغيرها من فُرُصات بلاد العرب ، تبادلهما التجارة ويأخذ الملاحون منها ما يحتاجون إليه من أقوات . وأدت هذه الصلات إلى نزول بعض المصريين ببلاد العرب وإقامتهم بها ، كما كان بعض العرب الذين يذهبون في رحلة الصيف ينزلون مصر ويقيمون بواديهما . وكُتِبَ السيرة تذكر أن السيل طغى على بناء الكعبة فهدم أسنوات قبل مبعث النبي العربي ، وأن البحر رمى إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر رومى اسمه « باقوم » فطمها ، فاجتاع أهل مكة أخشابها لإدخالها في بناء الكعبة ، واستعانوا بقبطى يقيم بمكة ويعرف بنجر الخشب وتسويته ، فوافقهم على أن يعمل لهم وأن يعاونه « باقوم » . ولم يكن هذا القبلى المصرى الوحيد المقيم بالبلد الحرام . كان العرب يحكم هذه الصلات يعرفون الشئ الكثير عن مصر . وقد تحدث القرآن عنها في مواضع كثيرة منه ، فزاد المسلمين بها علماً . لقد كانوا يعرفون عن نهريها العظيم ، وأرضها المعطاء ، وزروعها الناضرة ، وخيرات الوفرة ما يذكره لهم أهلهم الذين يتجرون بها . فلما أورد القرآن قصص يوسف وموسى زادهم بحديث أهلهم علماً وتثقيتاً . يقول تعالى في سورة الدخان تعقيماً على ما كان من غرق فرعون وقومه : ﴿ كَمْ تَرَ كُوفًا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَكَفِرُوا ﴾ . ويقول في سورة

الزخرف : (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) . ويقول على لسان بنى إسرائيل : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْثِي الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ) . وبذكر في غير موضع صروح مصر وآثارها ، ويشير إلى تاريخها وعبادات أهلها . وهذه الآيات ومثلها ماورد في وصف مصر إنما ورد حين قص القرآن حديث إبراهيم ويوسف وموسى والأنبياء ، فأثار في نفوس المسلمين صورة مصر الطبيعية ، كما أثار في نفوسهم صورة من تاريخها منذ أقدم العهود إلى عهدهم .

أعاد حديث موسى إلى ذاكرتهم صورة من حياة ابن عمران منذ مولده ، وبعد أن أسر فرعون بقتل كل مولود ذكر في مملكته واستجابة لمن فسروا له أضغاث أحلامه . فقد ألفت أم موسى رضيعها في الليل ، فالتقطه آل فرعون وعُتُوا به ، فلما شب موسى نصر رجلا من قومه بنى إسرائيل على مصرى ، فوكل المصرى قضى عليه ، فقتل نفسا بغير حق ، وفر موسى مخافة المصريين ، ونزل مدين فتزوج ابنة شيخها وآجره عشر حبيج عاد بعدها من طريق الطور يريد مصر ، فناداه ربه من جانب الوادى الأمين وألقى عليه رسالته . وذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون ومثله يدعوانهم إلى الله ، فاستكبر فرعون ونادى في قومه : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » ، وقال لوزيره : « يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا تَعْلَىٰ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا » . وأظهر موسى معجزاته ، فدعا فرعون السحرة ، فلما رأوا عصا موسى تلقف ما صنعوا آمنوا به . واتبع بنو إسرائيل موسى ، فرأى فرعون في بقائهم إثارة للفساد في الأرض ، فأراد القضاء عليهم . وفر موسى وبنو إسرائيل يريدون أرض المَعَاد ، فأنبهم فرعون وجنوده فأغرقه الله في اليم ، فهلك تاركا وراءه جفات وعيونًا وزروعًا ومقامًا كريما ونعمة كان هو وقومه فيها فاكهين .

وذكر العرب بحديث يوسف ما بمصر من نعمة وترف كان لحكامها منها الحظ الأوفى .

فقد ابتاع عزيز مصر يوسف، فأنزله امرأته منزلة السكرامة عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولداً. فلما ترعرع وبدت فتنة جماله جئت به امرأة العزيز غراماً. « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُباً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكاً وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ » . وأصرَّ يوسف على إباته فسُجن ، فلم ير النسوة الاثني قطعن أيديهن ما يدفعن إلى لوم المرأة المفتونة به على ما فعلت . ولبت في السجن بضع سنين ، ثم خرج بعد أن فسر رؤيا الملك : سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، فقال : « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ) . وجعله الملك على خزائن الأرض ، فأحسن تدبيرها حتى عاد إليها النماء وانحصب كأحسن ما كانت ، وحتى عادت جنة ناضرة تنبت أرضها من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ما شاء الله أن تنبت . في هذا الحديث عن يوسف وعن موسى صورة من طبيعة مصر وثروتها ، ومن عبادات أهلها وعقائدهم ، ومن عاداتهم وأخلاقهم ، ومن تاريخهم وصورة الحكم فيهم في العصور الأولى . وإنما أوجزنا فيما تقدم بعض ما ذكره القرآن عن مصر . وطبيعي أن يتتبع المسلمون الأولون كل ما جاء فيه عنها ، وأن يثير تنبئه في نفوسهم كل ما يذكرونه من أمرها . وكان اليهود والنصارى يجادلونهم في أمر موسى وعيسى والأنبياء وما ورد في القرآن عنهم ، فيزيدهم الجدل علماً ، ويزيد علمهم بمصر فسحة وعمقا .

ولم تكن معرفة المسلمين مصر مقصورة على ما كان من أمرها في العصور الأولى ، بل كانوا يعرفون من أمرها في زمانهم أكثر مما يعرفونه من تاريخها . ذلك أن العرب كانوا يتابعون ما يجري بين فارس والروم بعناية بالغة ، حتى لقد انقسموا في ذلك أحزاباً

يتشيع فريق منهم لفارس وفريق للروم . فلما كان العقد الثاني من القرن السابع وانتصر
الفرس على الروم وفتحوا مصر والشام ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث ،
وكان خصومه يتشيّعون للفرس ويدّكرون أن الروم هُزموا لأنهم أهل كتاب كالمسلمين .
وتشيّع المسلمون للروم ، واشتدّ تشييعهم لهم حين نزل قوله تعالى : (غُلِبَتِ الرُّومُ .
فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ) . وأقام الفريقان
يتابعان ما يجري بين الدولتين العظيمتين ، ويعلقان بما يعنّ لهما على ما يبلغهما من أنباء
الوقائع التي تشتبك فيهما .

وقد اتصل القتال بين الدولتين في مصر زمناً غير قليل . ذلك لأنّ الفرس دخلوها
في سنة ٦١٦ لميلاد المسيح ، وأقاموا بها تسع سنوات حتى أجلاهم هِرقل عنها وعن الشام
وفي أثناء هذه السنوات كان المسلمون يمدون أبصارهم إلى تلك الأرجاء ، مؤمنين بأن الروم
سيغلبون الفرس لا محالة ، كما أوحى الله إلى نبيه . فلما تمت كلمة ربك وارتد الفرس
إلى بلادهم كان رسول الله قد هاجر إلى المدينة ، وكانت سراياه تسير منها إلى ماحولها .
فلما استتب له الأمر ، بعث رسله إلى كِسْرَى وإلى قَيْصَرَ وإلى ملوك الحيرة وِغْسَانَ
وإلى أمراء الجنوب من شبه الجزيرة وإلى حاكم مصر يدعوهم جميعاً إلى الإسلام .

وقد يلفت النظر أن المَقَوْسَ حاكم مصر كان أجمل الملوك والأمراء ردّاً على رسالة
النبيّ وأكثّرهم مجاملة له . وقد بعث مع حاطب بن أبي بلتعة رسول النبيّ إليه بكتاب
يشير فيه أنه يعتقد أن نبياً سيظهر ، ولكنه ظنّ أنه سيظهر في الشام ، ويدّكر أنه
استقبل رسوله بما يجب له من إكرام ، وأنه بعث بهدية : جارينين وبغلة بيضاء وحرار
ومقدار من المال وبعض خيرات مصر^(١) . وقد اصطفى محمد مارية القبطية إحدى
الجاريتين لنفسه ، فولدت له إبراهيم ، فرفعها إلى مقام زوجاته ، ثم كانت يقول :
« استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمّةً ورِجاً » .

(١) فصل ابن عبد الحكم في « فتوح مصر وأخبارها » سفارة حاطب إلى المقوقس ، وأورد نص
الكتاب الذي حمله حاطب فيأيلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم
القبط ، سلام على من اتبع الهدى ! أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتاك الله
تأجرك مرتين . (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً »

واختيار النبي حاطب بن بلتعة لأداء رسالته إلى المقوقس ، واختياره عمرو بن العاص في الوقت نفسه رسولا إلى ملكي عُمان ، يشهد بأن حاطباً كان كثير التردد على مصر في التجارة ، ويبحث على الظن بأنه كان يعرف لغة المصريين . ولو أن عمرو بن العاص كان أهدى بهذه البلاد وأكثر علماً بلغة أهلها لآثره النبي على حاطب ولاختاره رسولا إلى المقوقس .

ولا ريب في أن المسلمين قد ازدادوا معرفة بمصر وعلماً بما فيها بعد أن اختار رسول الله الرفيق الأعلى ، وبعد أن فتحوا العراق والشام واستقرّوا بهما واتصلوا بأهلها مدى السنوات التي انقضت قبل أن يفتح عمرو بن العاص أمير المؤمنين في فتح مصر . فقد ظلّ الفرس حُكّاماً لمصر عشر سنوات قبل أن يُجلبهم هِرقل عنها ، فمروا من مواقعها وحصونها وثروتها وحضارتها ما أفضوا به إلى العرب الذين اتصلوا بهم من بعد . وكانت الصلة بين مصر والشام وثيقة ؛ إذ كانتا جميعاً في حكم الروم ، وإذا كان أهل الشام يذهبون إلى مصر يبادلون أهلها التجارة . وقد عرف المسلمون منهم ما يعرفونه هم عن مصر . لذلك كانت صورة مصر واضحة في ذهن عمر ، وفي ذهن بن العاص ، وفي ذهن كثيرين حين بدأ عمرو يفتح الخليفة في فتحها .

وكانت هذه الصورة مغرية أيما إغراء ؛ فقد كان خصب مصر ووفرة إنتاجها مضرب المثل في العالم كله ؛ وكان ما يفيض عن حاجات أهلها من القمح والشعير وغيرهما من أنواع الغلال يغذّي الإمبراطورية الرومية . ثم إنها كان بها غير الغلال أرزاق لا تحصى ، وكانت ثروتها من الأحجار والمعادن فوق الحصر . وقد كانت ، مع خضوعها لسلطان الروم ،

ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون .) وبما رواه ابن عبد الحكم أن المقوقس خلا بحاطب ليلته وسأله عن صفة النبي . فلما ذكرها حاطب له قال : « قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي ، وقد كنت أظن أن يخرج الشام ، وهناك تخرج الأنبياء من قبله ، فأرام قد خرج في العرب أرض جهنم وبؤس ، والقبط لا تطاوعني في أتباعه ، ولا أحب أن يعلم بمجاورتهم لي ، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هنا ، وأنا لا أذكر للقبط من ذلك حرفاً ، فارجع إلى صاحبك » . فلما أصبح دعا كاتباً يكتب بالعربية فكتب : « الحمد لله على ما فعله من المقوقس عظيم القبط سلام . أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبياً قد بقي ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجمارين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة ، وأهديت إليك بقلعة لتركها والسلام » .

وما كان من اجتياح الفرس أرضها في قتالهم قيصر ، أعظم مركز في العالم اجتمع فيه العلم والفن والصناعة والزراعة والتجارة اجتماع نماء وازدهار يأخذ بال نظر ، ويستهوى اللب . وكانت عاصمتها الإسكندرية قد احتفظت بكل ما كان لها يوم أنشأها الإسكندر المقدوني من بهاء وجمال ، وأضافت إليه في أنفء القرون العشرة التي انقضت منذ إنشائها مازادها جلالة وعظمة ، وما جذب الناس من أقطار الأرض للمقام بها . فكان سكانها يزدون على المليون ، وكانوا يمثلون الأجناس والعقائد المختلفة المعروفة لذلك العهد . فلم يكن المصريون أخلص منهم يزدون على نصفهم ، وكان النصف الآخر من الروم واليونان والفينيقيين والعرب وغيرهم ؛ ومن هؤلاء من كانوا يدينون باليهودية ، ومنهم من كانوا يدينون بالمسيحية ، وكلهم يعيشون في جو المدينة الساحر مطمئنين إلى رخائها وجلال عظمتها . وأية عظمة وأي جلال ! كانت مقراتها الكبرى ، منارة فاروس إحدى عجائب الدنيا السبع . وكان بها من المعابد الضخمة وساحات الفن الفسيحة والقصور الفخمة والمسارح والحمامات العامة مالا يقع تحت حصر . وكان ذلك كله يبهز السائح القادم إليها من أعظم المدن رقيًا وحضارة . وكانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره ازدهامًا بالحركة . وكانت بها تجارة عظيمة في القمح والكتان والورق والزجاج ، وغير ذلك من مزروعات مصر ومصنوعاتها ، ثم كانت تحمل إليها مقادير كبيرة من الذهب والعاج مجلوبة من بلاد النوبة وإثيوبيا ، ومن أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها آتية من بحار الهند والصين إلى البحر الأحمر ، متنقلة إلى النيل في القناة التي تصل ما بين البحرين ، جارية بعد ذلك فوق النهر العظيم إلى الإسكندرية .

لم يكن عجبا ، وتجارة الإسكندرية بهذه الضخامة ، أن تكون ميناؤها أكبر موانئ العالم ، وأن تكون صناعة السفن أكبر صناعاتها . كانت ميناؤها تتسع لاثني عشر ألف سفينة من مختلف الأحجام . وكان بناء السفن فيها متصلا لا ينقطع في يوم من أيام العام . وكان الخشب اللازم لبناء السفن يُحمل إليها من الشام ، وكانت مصر تبت نوعا متينا من الكتان اسمه « الدقس » تصنع منه حبال السفن وتنسج قلاعها . وكانت السفن الحربية تصنع بالإسكندرية كما كانت تبني بها السفن التجارية .

وكان يبني بها من السفن الحربية نوبان : أحدها ضخمة تحمل السفينة منه ألف رجل والآخر خفيف تحمل السفينة منه مائة رجل . وكان النوبان يجهزان بالآلات تقذف « النار الإغريقية » المهلكة للؤلؤة من مواد سريعة الاشتعال لا يمكن إطفائها ذات قوة على النفس والتحريق ، تحدث تخريباً كبيراً ، وتُلقى في النفوس الرعب . وكان في بعض السفن الضخمة صروح عالية فوق ظهرها ، فإذا حاذت إحداها أسوار مدينة محصنة كان جند السفينة مع المدافعين عن المدينة علّو سواء ، فأمكنهم أن يَتَيَّسوا من الصروح إلى الأسوار ، أو يقيموا جسراً من الصرح والأسوار يعبرون عليه .

أما السفن التجارية التي كانت تصنع بالإسكندرية فكان بعضها يبلغ من الضخامة أن يحمل أربعة آلاف إردب من القمح : وكان الكثير منها يسير بالتجارة في البحر الأحمر ، ويسو في فُرُضات شبه الجزيرة ، فينقل بما يحمل من التجارة الناتجة في مصر أو المجلوبة إليها صورة من حياة هذا الشعب المصري الدائم الدأب والجِدِّ إلى عرب الحجاز وعرب اليمن حضرم وبدوهم .

لم يكن النشاط التجاري والصناعي كل ما امتازت به الإسكندرية على غيرها من مدن العالم ! فقد كانت ، منذ أنشأها الإسكندر الأكبر واستقرّ بها البطالسة إلى أن فتحها العرب ، مركز النشاط العقلي والعلمي في العالم كله .. صحيح أن هذا النشاط كان يخبو أحياناً ويضطرب أحياناً أخرى ، وأن بعض المدن كانت تشارك فيه الإسكندرية في بعض الحقب ، وبخاصة أيام حكم الرومان مصر . لكن العاصمة المصرية ظلّت دائماً مرجع هذا النشاط ، وظلّ أبناؤها من العلماء والشعراء والكتاب وأرباب الفن يوجهون الحياة العقلية في العالم عشرة قرون كاملة . إليهم يرجع الفضل في نشر الثقافة الإفريقية التي سبقت إنشاء مدينتهم ، وفي إقامة مذاهب جديدة يمتُّ بعضها بأوثق الصلة إلى مذاهب الإغريق ، ويخالف بعضها هذه المذاهب ، ويستقل بعضها بنفسه كل الاستقلال . ولم يكن ذلك عجباً وقد كانت الإسكندرية ملجأ العلماء ورجال الفن والأدب من كل أمة وملة ، وكان بها من المكتبات العامة ومن مناهل العلم ومدارسه ما لم يكن لغيرها .

وقد سمت مدرسة الطب في الإسكندرية إلى مكانة لم تشمُ إليها مدرسة أخرى

في العالم كله ؛ فكان الأطباء الذين يخرجون فيها مشهوداً لهم ، وكانوا موضع الإكبار حينما أنزلوا من بقاع الأرض . كذلك ازدهرت فيها دراسات الفقه والإلهيات ازدهاراً بدا واضحاً في المذاهب الفلسفية التي اختصت بها مدرسة الإسكندرية ، والتي حاولت التوفيق بين المسيحية في أساسها الروحي ومذاهب الإغريق الفلسفية المستندة إلى منطق العقل وحده . وكان ازدهار الفقه لذلك العهد بعض ما قويت به النزعة الدينية التي أقامت مصر وأقعدتها . ووقفتها في وجه الروم وقفة بلغت قبيل الفتح العربي حدة العنف . وكان الفلك والرياضة وتقويم البلدان والهندسة من فروع العلوم التي تُدرّس في معاهدها . وقد وضع علماءها مؤلفات لم يبق منها إلا ما ذكره المؤرخون من بعد عنها . هذا إلى تعلق الكتاب والأدباء بالشعر تعلقاً جعلهم يفتنون فيه . وجعل العلماء أنفسهم ينظمون العلم شعراً . لا عجب ، وذلك شأن العلوم والآداب ، أن تزدهر الفنون وأن يزداد أهلها براعة ، وأن تظهر آثارها في نشاط أهل الإسكندرية وفي حياة مدينتهم . وقد اشتهرت مصر منذ عهد الفراعنة الأولين ببراعة بنائها في هندسة العمارة ، فكان طبيعياً أن تجمع عمارة هذا العهد المسيحي بين جلال المعابد القديمة وزخرف العمارة الإغريقية ، وأن تُجَمَّل مباني الإسكندرية بالرسم المصري البديع ونقوش الفسيفساء ذات الألوان ، والفسيفساء الزجاجية والحق أن تنظيم الإسكندرية وعمارتها كانا من الروعة بما يقف النظر ويبهز الفؤاد : فقد حُطِّطت على صورة رقعة الشطرنج : ثمانية طرق تجرى بين الغرب والشرق ، تقاطعها ثمانية أخرى تجرى من الشمال إلى الجنوب ، والطريقان المتوسطان منها فسيحان تقوم على جانبيهما أنخم مباني المدينة وحصونها وقصورها وكنائسها مشيدة من مرمر ناصع البياض يعشى النظر دونه ، فكان ظاهر أكثرها يغطى نهائراً بنسيج أخضر من صناعة مصر .

هذه صورة من عاصمة مصر لذلك العهد . وهي تشهد بترف أهلها وسمو مكانتهم في الحضارة ، وبأنها اجتمع لها من ألوان الثقافة ومتاع العقل ومالم يجتمع لغيرها من عواصم العالم يومئذ . فقد كانت تتجاوز فيها المذاهب الفلسفية والدينية المتناقضة جوار كفاح كلامي لم يبلغ حد العنف في غير اليهود التي حاول الأباطرة فيها أن يفرضوا مذهبهم

على أهل مصر . أما في غير هذه العهود فكان التراشق الجدلى أقصى ما بلغه النضال بين أصحاب هذه المذاهب . كان الأبيقوريون يدعون إلى المتاع بالحياة والنهل من مواردها السائغ ، لا ينسبهم المتاع أن الحياة سخرية مستطابة ونعيم قتال . وكان الرواقيون يسخرون من الأبيقوريين ويدعون للزهد في المتاع لأنه يتلف العقل ويفسد طهارة النفس وكان المتطهرون من المسيحيين يناون بجنانهم عن مغريات المدينة ، ويلتمسون في عزلة الصحراء القريبة منها سكينة نفوسهم وطمأنينة قلوبهم . أما في عهود الاضطهاد الديني فكان الأمر يختلف ، وكثيراً ما كانت تُصبح الإسكندرية الرافلة في حلل النعيم مسرحاً لاضطرابات تفسد جوها المرح ، وتُشيع فيها القلق والفوضى .

وكان الاضطهاد الديني منتشرًا في مصر وفي عاصمتها حين كان ابن العاص يحاول إقناع الخليفة بفتحها . ذلك أن هرقل لم يلبث ، حين انتصر على الفرس وأعلى الصليب في بيت المقدس ، وحين رأى الأنظار تُشدُّ إليه من أرجاء العالم المسيحي كله لينقذ المسيحية مما ألمَّ بها ، أن فكر في توحيد المذاهب المسيحية وصوغها مذهباً واحداً . وقد تحدّث في هذا الأمر إلى بطارقة الشام وبُزَظية ممن يمثلون شتى المذاهب المسيحية ، ثم دعاهم إلى مجمع « خلقدونية » فأقروا مذهباً مسيحياً موحدًا . عند ذلك جعل بطرقة الدين في الإسكندرية لقيس أسقف فاسيس في بلاد القوقاز ، وطلب إليه أن يحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمي « الموحد » . غير أنه لم يَقْطُنْ إلى أن مذهبه الذي حاول به التوفيق قد تأباه كنيسة مصر ، ولم يعرف أن أهل مصر إذا أبوا ذلك المذهب كان شر الطرق إلى ضمهم للجاعة أن يرغمهم عليه ويقذف به في حلوقهم ، إذ قد كرهوا مرارة مذاقه منذ أقدمه . وعلى أى حال قد كانت هذه خُطَّته في مصر والشام ، وكان من رأى ذلك العصر أن أمور الدين والعقيدة مما ينبغي للدولة أن تقوم عليه ويصدر الناس فيه على أمرها^(١) .

كان نينامين^(٢) كبير أساقفة القبط بمصر إذ ذاك ، وكان حبيباً إلى الناس عزيزاً

(١) فتح العرب لمصر لألفريد بتر ، ترجمة فريد أبوحديد ؛ ص : ١٥٥ .

(٢) وبعض المؤرخين من العرب يسمونه أبوميامين .

عليهم ، وكان رجلاً ذكياً محباً للخير والفضل ، قاسياً على القسوس والشمامسة من أهل العناد والكبر ، شديد التعصب للمذهب المسيحي الذي يؤمن المصريون به ، مذهب اليعاقبة الذي يقول : « إن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا في المسيح فصارتا فيه طبيعة واحدة ؛ فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة » . وهذا المذهب يخالف مذهب الملكانية الذي يقول : « إن الابن مولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره . والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحداً وهو المسيح » . فلما قدم قيرس الإسكندرية في خريف سنة ٦٣١ ، ليحل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمي ، فرّ بنيامين من الاسكندرية ، وسار متخذاً من الأديار المنتشرة بالصحراء ملجأه حتى بلغ قوص ، وهناك أقام بدير صغير قريب منها قائم في الصحراء تحميه الجبال فلا يسهل الوصول إليه .

كان فرار بنيامين نذيراً أزعج القبط وأفزع أهل الدين منهم ، فرأوا في دعوة قيرس إلى المذهب الجديد كفراً لا كفر بعده . ولم يُعْنِ عن قيرس تظاهره أول ما نزل مصر بأنه جاء مسلماً ، وأنه لا يفرض المذهب بالقوة بل يدعو إليه ويحاول الإقناع به ؛ فقد تنكر له القبط اليعاقبة وتفنّكر له الملكانيون على سواء ، ورأوا جميعاً في دعوته بدعة هي الضلالة بعينها . وازداد الناس نفوراً من هذه البدعة حين جاء صُفْرَنْيُوس من بيت المقدس إلى مصر ، وقام على رأس الملكانيين فيها . فلما جمع قيرس مجلساً دينياً بالاسكندرية ودعا أعضائه لبحث ما يدعونه إليه أظهر صُفْرَنْيُوس أنه يحاول أن يشنّ قيرس عن عزمه ، بالحجة تارة وبالتوسل أخرى . ورأى قيرس نفور شعب من دعوته وعداوته لها ، فلجأ إلى البطش والتعذيب يُكره الناس بهما على الدخول فيما يريدنهم عليه .

لجأ قيرس إلى البطش والتعذيب ، ولج في « الاضطهاد الأعظم » عشر سنوات حُسوماً . وكان التعذيب وحشياً لم يعرف عصر من العصور مثله . عُدّب أخو الأسقف الأكبر بنيامين بأن أوفدت له المشاعل وسلّطت على جسمه ، فأخذ يخرق حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض ، فلما لم يتزعزع إيمانه خُلعت أسنانه ووُضِع في كيس مملوء بالرمل وحمل إلى الشاطئ ، ثم عُرِضت عليه الحياة إذا آمن بالمذهب الجديد فأبى . وتكرر

العرض وتكرر الإباء مرات ثلاث ألقى العابد بعدها في البحر فمات غرقاً . وتلقى الأب صمويل في ديرهِ بالصحرَاء كتاباً يحمله إليه أمير فرقة عِدَّتْهَا مائة جندي يدعوهُ إلى المذهب الجديد ، صمويل الكتاب وقال : « ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ، ولعنة الله على ذلك الكتاب الكفَّار الذي جاء من الإمبراطور الروماني ، ولعنة الله على جمع خلقيدونية وكل من آمن بما أقره » . وضرب صمويل حتى ظنَّ أنه مات ، لكنه عاد إلى نفسه وإلى محاربة قيرس . وأمر قيرس فجئ به مكتوف اليدين من خِلاف وفي عنقه طوق من الحديد ، فسار مستبشراً وهو يقول : « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يُسَفِّكَ دمي في سبيل المسيح » . ثم جعل يسب قيرس لا يخشى شيئاً . ودخل قيرس فأمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه ، ثم قال له : « صمويل أيها الزاهد الشقي ، من ذا أقامك رئيساً للدير ، وأمرك أن تعلمَّ الرهبان أن يسبونى ومذهبي ؟ » وأجابه العابد : إن البري طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين لا في طاعتك والدخول في مذهبك الشيطاني ، يا سلالة الطاغوت ! ويا أيها المسيح الدَّجَال ! » . وأمر قيرس جنده بضرب صمويل على فمه وقال له : « لقد غرق يا صمويل أن رهبانك يُجِلُّونك ويُعلون من شأن زهدك ، ولهذا تجرأت وقويت نفسك ولكني سأشعرك أثر سبابك للعظماء إذ سَوَّلت لك نفسك ألا تؤدِّي ما ينبغى عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جُباة المال في أرض مصر » . وأجاب العابد : « لقد كان إبليس من قبلُ كبيراً على اللائكة ، ولكن كبره وكفره فسق به عن أمر ربه . وهكذا أنت أيها الخادع الخلقيدوني ؛ فإن مذهبك مذموم ، وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده » . وضاق قيرس بكلام العابد ذرعاً فأوماً إلى الجند أن يقتلوه ؛ واستنقذه حاكم الفيوم من يديه فأمر به أن يُنْفَى من الأرض .

هاتان الصورتان من تعذيب أخى بنيامين وتعذيب صمويل تصفان بطش قيرس في الاضطهاد الأعظم . كان الذين يأبون الدخول في المذهب الجديد يُجَلَّدون ويعذبون ويُلقَوْنَ في غيابات السجون ويلاقون الموت . وكان أثر هذا الاضطهاد أن ازداد الناس كراهيةً لمرقل ولقيرس ، حتى لقد هاجر كثيرون من مصر إلى بلاد النوبة وإلى إثيوبيا

فراراً إلى الله بدينهم . أما الذين لم يستطيعوا الفرار ولم يُطيقوا العذاب فقتلوا عن دينهم كارهين ، فأظهر كثيرون منهم غير ما يُبطنون . وقد خُذع غير هؤلاء وأولئك بسلطان المال والجاه ، فارتضوا المذهب الجديد ، لاحقاً فيه ولا إيماناً به ، بل حرصاً على ما يُيسره لهم من مطاعم هذه الحياة الدنيا . على أن ما لقيه الشعب في هذه السنوات العشر قد زرع في قلبه لبز نظية ولقيصر ولقيصر كراهية امتزجت بحياته ، وجرت مجرى الدم في شرايينه .

أفكان التعصب الديني هو وحده الذي دفع شعب مصر للنفور من المذهب الجديد كل هذا النفور ، ولحاربه هذا الحرب العوان ؟ قد لا يحظى من يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب ؛ فالتوجه الديني أصيل في الشعب المصري بحكم طبيعته . كذلك كان شأنه في عهود الفراعنة ، وكذلك ظل شأنه على القرون . ولعل بساطة عقيدته ، مع تغير الأدیان التي دان بها ، كانت ذات أثر في تمسكه بمذهبه ؛ فهو موحد من أقدم العصور ، وهو على توحيده يشعر بأن الإله الخالق للنعم جل شأنه أعظم من أن يسمو سواد الناس إلى الاتصال بذاته وإن تطهرت قلوبهم ، فلا بدّ من زُلْفَى تقرّبهم إليه ، وتخلّصهم منه محل الرضا .

لكن هذا التوجه الديني لم يكن وحده هو الذي دفع المصريين ليقاموا في سبيل مذهبهم ما قاوموا سنى الاضطهاد الأعظم ؛ فقد دانوا بالمسيحية بعد وثنيّتهم الفرعونية . ثم كان لهم في فقه مذهبهم القبطي بحوث تبخّر رجال الدين فيها ما تبخّر أسلافهم في اليهود الفرعونية في فقه مذهبهم . ثم دانوا بعد ذلك بالإسلام ، فكان الفقه الإسلامي موضع عنايتهم به وتبخّرهم فيه . ولم يُحمّلوا على المسيحية وعلى الإسلام بالاضطهاد والإكراه ، بل دُعوا إليهما بالحجة فرأوا الخير في قبولها فقبلوها . فالهم نفروا من مذهب هرقل الرسمي لأول ما عرض عليهم بالحسنى ، بل أبوا أن ينظروا فيه ؟ ثم ما لهم قاوموه من بعد هذه المقاومة التي اضطرت قيرس إلى اضطهادهم وفتنتهم على الفحو البشع الذي رأياه ؟ .

لا ريب أنه كان للعامل السياسي في هذا الأمر أثر عظيم . فقد ضاق الشعب المصري بحكم الرومان ضيقاً أثاره برومية ثم بيزنطية ثورات عنيفة غير مرة . وهو لم يكن أقل ضيقاً بهذا الحكم قبل تغلب الفرس على فوكس واستئثارهم بأمر مصر ولا بعد تغلب هرقل

على الفرس وإجلالهم عن مصر . فقد كان حكم فوكاس حكم بطش وإرهاق ثارت مصر به فأزرت هرقل في ثورته على القصر الطاغية . وقد شعر المصريون في السنوات العشر التي استقرت الفرس فيها بينهم بحرية لم يكن لهم بمثلها في عهد فوكاس عهد . ذلك أن الفرس تركوا لهم أمر الحكم على نحو من اللامركزية المألوفة في بلادهم ، وأعفوه من كثير من الأعباء التي كانت تُرهقهم ، وإن أقاموا بينهم سادة متدالين . فلما انتصر هرقل على الفرس واسترد مصر ، فرح المصريون لأنهم مسيحيون مثله ، ولأنهم طمعوا في أن يذكروهم يدهم عند أيام ثورته بفوكاس ، وعظم رجاؤهم ألا يُرهقهم حكمه . لكنهم سرعان ما رأوا الحكم الروماني القديم عاد كما كان ، ورأوه شراً من حكم الفرس بمراحل . لم يكتف صاحب السلطان من قبيل قيصر بأن يأخذ منهم غلاتهم ومصنوعاتهم ليرسلها إلى بزنطية مقابل الضرائب المفروضة عليهم ، بل اعتبرت الأرض ملكاً تُفرض على أصحابها جزية ، وإن شئت فقل تكليفاً ، يدفعونها أجراً للأرض التي يزرعونها . وربما احتل الناس الضريبة والجزية بشيء من الصبر أيام الرخاء . لكن مصر عادت إلى هرقل في سنى شدة وبأساء . فقد انتهى الاضطراب في عهد فوكاس إلى تعطيل القناة التي كانت تصل البحر الأحمر بالنيل فالبحر الأبيض ، ثم لم يُعِدّها الفرس ولم يعدّها عمال هرقل ، فتدهورت التجارة تدهوراً أفلس بسببه كثيرون من اليهود واليونان المشتغلين في أسواق الإسكندرية ، وتدهورت أسعار الحاصلات والمصنوعات في داخل البلاد تدهوراً أدى إلى أزمة انزعج لها الناس أيما انزعاج . وما قيمة صناعة الزجاج أو صناعة المنسوجات أو صناعة الورق من البردي ، أو غيرها من الصناعات المصرية التي كانت زاهرة في مصر السفلى وفي مصر الوسطى ، إذا لم تجد أسواقاً في الخارج لتصريفها ، واقتصراً أمرها على أن تؤخذ جزية لقيصر ! لذا كره الناس حكم الروم ، وودّوا لو استطاعت مصر أن تتخلص منه وأن تستقل بنفسها . لكن الروم كانوا قد حرموا على مصر صناعة الأسلحة واستعمالها ، وكانت الطبقة المستتيرة من المصريين الموظفين في الدولة قد ذلت لوظائفها ، فلم يكن بدّ من التدرّع بوسيلة ينقّس بها الشعب عن نفسه ، وذلك بأن ينزع للنورة . وسرعان ما جاء قبرس بالمذهب المسيحي الجديد يحاول فرضه

على مصر حتى هبَّ رجال الدين في وجهه يلعنونه . بذلك فتحوا للشعب باباً يُروى ظمأه للانقياض ، فكان الاضطهاد الأعظم الذي رأيت ، والذي زاد المصريين كراهية لقيصر ولقيصر ولحكهما ولذهبهما الجديد .

لم يكن علم ذلك كله ليخفى على أمير المؤمنين ولا على المستنيرين حوله من المسلمين . فقد دام الاضطهاد والتعذيب في مصر عشر سنوات ، بدأت قبيل وفاة النبي واستمرت طيلة خلافة الصديق ، وظلت متصلة في عهد عمر إلى أن دخل العرب مصر . وفي هذه السنوات العشر كان المصريون والعرب يتبادلون التجارة كما كانوا يفعلون من قبل ، فكانت أنباء العرب البارزة تبلغ المصريين ، وكانت أنباء المصريين البارزة تبلغ العرب . وزاد العرب علماً بأنباء مصر متآختهم لها بالشام . ولا جرم قد كان عمرو بن العاص من أكثر الناس بها علماً ؛ إذ كان مقيماً بفلسطين ، أدنى الأرض من ميدان الاضطهاد والتعذيب ، ومن ثورة المصريين بقيصر وبعماله . لذلك لم يغب عنه أن شعب مصر المضطهد لن تأخذ منه الحماسة فيعاون الروم إذا قاتلهم العرب في أرض مصر ، وإن أيقن أن هذا الشعب لن يقاتل الروم في صف العرب من خشية أن تدور على العرب الدائرة . ولأنه ليس بينه وبين العرب صلة تثير الحماسة في قلبه ، فهو ليس من جنسهم ، وليست لغته لغتهم ولا عقيدته عقيدتهم .

وزاد ابن العاص اقتناعاً بما ظنّه من فتور المصريين عن نصرته الروم ما كان الناس في مصر وفي غير مصر يعرفونه يومئذ عن سياسة المسلمين ، وأنها كانت تدع الناس أحراراً في دينهم ، لا تحاول صرفهم عنه أو حملهم على تغييره ، فمن أهدى فإنما يهدى لنفسه ؛ ومن استمسك بدينه ورضى الجزية فله ما اختار . أما وقد كان الاضطهاد الديني دعامة الثورة بالروم تتلظى بها نفوس المصريين جميعاً ، فلا عجب أن يلقوا تسامح المسلمين الديني بالغبطة ، وأن يقفوا من قتالهم الروم موقف المتفرج : لا يُقبضون بالروم بمظاهرة المسلمين عليهم ، ولا تدفعهم لقتال المسلمين حماسة لعقيدة مشتركة بينهم وبين حكامهم ، أو طمأنينة إلى عدل يسوّى بينهم وبين هؤلاء الحكام .

لحق ابن العاص أمير المؤمنين حين جاء إلى الشام بعد طاعون عمواس ، وسار معه

من الجالية في أرجاء فلسطين وسورية ، وجعل يعيد على سمعه ما كان قد فاتحه فيه من أمر مصر ، ويذكر له ما سبق إلى ذكره من حجج تؤيد رأيه ، ويدلى إليه بحجج جديدة ، حتى انتهى عمر إلى الاقتناع برأيه ، وإن استمهله في تنفيذه حتى يكتب إليه من المدينة بعد عوده إليها .

وزاد عمر ميلاً إلى الاقتناع بهذا الرأي ما يعرفه من جرأة بن العاص في الحرب ، ودهائه في السياسة ، واقتداره لذلك على أن يسير بإذن الله في هذا الفتح سيراً موفقاً . وقد دلت الحوادث على أن أمير المؤمنين لم يخطئ في تقديره ، وأن شخصية عمرو وما اجتمع فيها من الدهاء والإقدام قد جعلته الرجل المختار في فتح مصر . فلم تكن جرأته في الحرب جرأة مغامرة كجرأة خالد بن الوليد . بل كانت جرأة الداهية الذي يرى النجاح في المكشأ أكثر مما يراه الخش ، ويرى المطاولة والصبر حتى تحين فرصة الإقدام ، وحتى يثق بأن النجاح خليف هذا الإقدام . هذا إلى أن دهاءه كان يتجنبه إثارة غير المحاربين به ، فكان يؤثر ملاينتهم في حزم على البطش بهم إلا أن يضطر إلى البطش اضطراراً فإذا اضطر إليه لم يتردد دونه ، على ألا يتجاوز به قدر الحاجة إليه . ثم إنه كان أكثر أمراء الجند إيماناً بأن الحرب خدعة ، فليس للمعايير المعروفة للفضل والنبل وزن أثناءها . قائد ذلك شأنه جديره بتوفيق الله إذا سار لفتح مصر .

وكان عمرو بن العاص في العقد الخامس من عمره ، أو كان قد تجاوزه ، حين فكر في فتح مصر^(١) . وكان قصير القامة ، عظيم الهامة ، ناثيء الجبهة ، له عينان سوداوان

(١) المتفق عليه أن عمراً توفي يوم الفطر من السنة الثالثة والأربعين للهجرة (٦ يناير سنة ٦٦٤) وإنما اختلف في سنة وفاته ؛ أكانت سبعين أم كانت تسعين سنة . ويرى بئر أنه كان ابن سبعين ، فكان في الخامسة والأربعين حين سار إلى مصر . ويرى الذين يخالفون بئر أن ابن العاص عاش إلى التسعين . ويؤيدون رأيهم بأن سفارته إلى النجاشي لرد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة كانت قبل هجرة الرسول بأربعة أعوام . فلو أنه توفي في السبعين أو الثالثة والسبعين لكانت سنة حين هذه السفارة بين الثالثة والعشرين والسادسة والعشرين ، وهي سن لا يوفد صاحبها سفيراً لملك ، أما بئر فيؤيد رأيه بأن عمراً شهد صفين عام ٦٥٨ وأبلى فيها بلاء عظيماً ، وأظهر فيها الدهش من الرأي والعمل فلو أنه توفي في التسعين لكانت سنة يوم صفين اثنتين وثمانين ، وهي سن تقعد بصاحبها ، في رأى بئر عن مثل ما ينسب إلى ابن العاص في هذه الواقعة .

ثاقبتان تمان عما يتأثر به في حالى سروره وغضبه ، يعلوها حاجبان غزيران . ومن دون ذلك فم واسع ولحية عظيمة ترتسم من حولهما سيا البشر والأنس . وكان عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الكفين والقدمين ؛ لذلك كان كل مظهره ينم عن القوة في غير شدة . وكان فارساً متفوقاً في فنون الفروسية والضرب بالسيف ، قوى البنية مرن الأعضاء مرونة وقوة عودته احتمال المشقات . وكان إلى ذلك راجح العقل ، كثير الأناة واسع الحيلة ، فصيح اللسان مفتناً في أساليب الكلام . لذلك بعث به قريش إلى الحبشة أول ما هاجر المسلمون إليها ليحمل النجاشي بقوة حجته على ردّهم إلى مكة . وقد أبدى من حسن الحيلة في محاولته ما يشهد بمقدرته ، وإن لم يوفق لتحقيق الغاية من سفارته .

وقد هداه رجحان عقله من بعد إلى الإسلام . ذلك أنه رأى رسول الله هاجر إلى المدينة ، ورأى كلمته تلو بين العرب ، فساوره الشك في مقدرة قريش على النيل منه فآثر أن ينصرف إلى تجارتها ينميتها ، وعاد سيرته الأولى يسافر في هذه التجارة إلى الشام واليمن والحبشة ومصر . فلما كانت غزوة الأحزاب واشترك مع أهل مكة فيها فأبت قريش بالهزيمة ، أيقن أن قريشاً لم يبق لها بمحمد قبل . عند ذلك جمع رجالاً من قريش وقال لهم : « والله إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً متكرراً . وإنى قد رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده . فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ؛ وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا . فلن يأتينا منهم إلا خير » . وأقر سامموه رأيه وساروا معه إلى الحبشة وقد قرّ رأيهم على المقام بها حتى ينتهى ما بين قريش ومحمد إلى وضع ثابت . فلما عقد محمد عهد الحديبية مع قريش فتهادنا عشر سببين ، واتفقا على ألا يدخل محمد مكة عام العهد وأن يدخلها للعمرة العام الذى يليه ، أيقن عمرو أن أمر محمد يزداد علواً ، وأن مقامه بالحبشة سيطول . فلما استدار العام ، وعرف أنباء حُمرة القضاء وما كان من دخول المسلمين مكة وطوافهم بالكعبة وسميهم بين الصفا والروة ، أيقن أن محمداً على الحق ، فخرج إلى مكة فلقى خالد بن الوليد متأهباً للسير إلى المدينة ليسلم . فذهب الرجلان ، فأسلم ابن الوليد وبايع . ودنا ابن العاص من محمد فقال : « يا رسول الله ! إنى أباعك على أن يُفقر لى ماتقدم من ذنبى ، ولا أذكر

ما تأخر . « وأجابه محمد : « ياعمرؤ بايع ؛ فإن الإسلام يَجِبُ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجِبُ ما كان قبلها » فبايع عمرو وانصرف .

ترى هل اندفع عمرو إلى الإسلام بعد ما أيقن أن محمداً منتصر على قريش لا محالة ، فآثر أن يسبق قومه إلى صف المنتصر ؛ أم أنه تدبّر رسالة محمد حين طال مُقامه بالحبشة فأمن بها فدعاه إيمانه إلى أن يُسلم ؟ روى أن فتى من قريش ذهب إليه فقال له : يا أبا عبد الله ! إن القوم قد ظنوا بك الميل إلى محمد ؛ فواءعه عمرو ميقات الظل من جبل حراء ، فلما التقيا سأل عمرو الفتى : أنشدك الله ، أنحن أهدي أم فارس والروم ؟ وأجابه الفتى في غير تردد : بل نحن . فاستطرد عمرو : فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن لنا هذه الدنيا وهم فيها أكثر أسراً ! . . . قد وقع في نفسى أن ما يقول محمد من البعث حق لِيُجْزَى المحسن في الأخرى بإحسانه والمسيء بإساءته .

ولئن صحت هذه الرواية لتكونن بالغة في الدلالة على اتجاه عمرو في تفكيره ، وعلى أنه كان يؤمن بنظرية المنفعة إيماناً قوياً . فهو قد أنكر على محمد مع قومه ، فلما ذهبت ريح قريش راجع نفسه ونظر في أمر النبي وفيما يدعو إليه من الإيمان بالله إيماناً بدخل صاحبه الجنة ، وقد يجعل له هذه الدنيا ، فبادر إلى الإسلام عن بينة وإيمان ، لا عن خوف ولا عن إذعان : وذلك قد يفسر ماروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أسلمُ الناس وأمنُ الناس عمرو بن العاص » .

وأُسرع عمرو إلى كسب ثقة النبي ، حتى لقد كان يقول : « ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمنا » . ولا عجب أن تعظم ثقة رسول الله بالرجلين وقد عرفهما بمكة ، وعرف مكانهما من قومهما ، ورأى موافقهما في خصومته حين الغزوات التي كانت بينه وبين قريش وخبر بأسهم أنم إنه عرف من دهاء عمرو وحزمه ما زاده ثقة به . كان عمرو على إمارة المسلمين في غزاة ذات السلاسل في الشمال من أرض الحجاز ، فلما انتصر على القبائل من أعدائه أتى على أصحابه أن يتعقبوهم ، وأمر الجنود ألا يوقدوا ناراً يصطلون عليها ، وتوعّد المخالف أن يلقيه فيما يوقد . وعاد إلى المدينة ، فشكاه أصحابه ، فسأله رسول الله في الأمر ، فكان جوابه : « كرهت أن آذن

لهم أن يُوقدوا ناراً فيرى عدوهم قتلهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون للعدو مدد .
 عظمت ثقة النبي بعمر على حداثة عهده بالإسلام ، فكان فيمن بعثهم رسلاً للملوك
 والأمراء يدعوهم لدين الله . بعثه إلى عُثْمَانَ على الخليج الفارسي يدعو أميرها جيفراً وعباداً
 ابني الحُلَنْدَى للدخول في الإسلام . وكانت عُثْمَانُ في ذلك العهد خاضعة لنفوذ فارس .
 مع ذلك لم يتردد عمرو في الذهاب إليها وأداء الرسالة التي عهد النبي إليه في أدائها . وقد
 تحدث إلى عباد فجعل يقنعه بالحجة تارة ، ويَعِدُّه تارة ، ويتوعده وأخاه تارة ، ويذكر له
 أن رسول الله يقيم جيفراً إذا أسلم أميراً على عُثْمَانَ ، كما أقام باذان من قبله أميراً على اليمن ،
 وعند ذلك يأخذ جيفر الصدقات من أغنياء عمان ليردّها على فقرائها . وأقام الأخوان أياماً
 يتشاوران . ورأى جيفر أمر المسامين بعظم . وخشى ما توعدهم به عمرو أن يوطىء محمد خيله
 أرضهم ، فدخل في الإسلام وبقى أميراً على عمان . وأقام ابن العاص إلى جانبه يبث الدعوة
 لدين الله ويفقه الناس فيه . وظل كذلك حتى قبض رسول الله وتولى أبو بكر خلافة المسلمين .
 فلما فشت الرّدة في العرب عاد عمر إلى المدينة يتلقى أوامر أبي بكر في مقاومة المرتدّين .
 هذه المقدرة التي أبدّاها عمرو في السياسة وفي الحرب جعلته شديد الاعتداد بنفسه ،
 ولوعاً بالإمارة ، حتى لا يرضى أن يتأمر عليه أحد إلا كارهاً . لما أرسله النبي إلى شمال
 الحجاز يقاتل القبائل في ذات السلاسل ، خاف هو أن يدهمه العدو بجند عظيم ، فاستمدّ
 النبي فبعث إليه أبو عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر ، وقال
 لأبي عبيدة حين وجّهه : « لا تختلفا » . وحان وقت الصلاة وأراد أبو عبيدة أن يؤمّ الناس
 فأبى عليه عمرو وقال : إنما جئت مدداً لي . قال أبو عبيدة : لا ! ولكني على ما أنا عليه
 وأنت على ما أنت عليه . وأجابه عمرو : بل أنت مدد لي . فقال أبو عبيدة : يا عمرو !
 إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتني أطعتك : قال
 عمرو : فأني الأمير عليك وأنت مدد لي . قال أبو عبيدة : فدونك ، وصلى عمرو بالناس .
 هذا الحديث بين الرجلين يكشف عن جانب من نفس عمرو ، ويشهد بحبه الإمارة
 حباً ملاًك عليه نفسه . فلا بُدَّ أن عبيدة سابقة في الإسلام ليست لعمر بن العاص ، بل ليست

لعمربن الخطاب . وأبو عبيدة أمين الأمة على لسان رسول الله ، وقد أمره رسول الله في هذا المدد على أبي بكر وعمر . مع ذلك أصرّ عمرو على أنه جاء مددا له ، ويجب لذلك أن يكون مرءوساً له . وكان أبو عبيدة رجلاً لئناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا ، وكان إلى ذلك يؤمن بأمر رسول الله الإيمان كله ؛ فلما رأى تشبث عمرو بالإمارة نزل على إرادته وقاتل مرءوساً له . وكان عمرو أميراً على اللواء الذي بعثه أبو بكر في قتال المرتدين بقُضاعة ، فلما قضى على رِدَّتْهم ، وقُضِيَ على الردة في بلاد العرب كلها ، وعزم الصديق فتح الشام ، وأرسل إليه الجيوش على أحدها أبو عبيدة وعلى آخر عمرو بن العاص ، وجعل لأبي عبيدة القيادة العامة إذا اجتمعت جيوش المسلمين بالشام في غزاة - توجه ابن العاص إلى عمر بن الخطاب وسأله أن يكلم أبا بكر ليُجعله أميراً على المسلمين بالشام ، فقال له عمر : « لا أكذبك ، ما كنت لأكلمه في ذلك أبداً ، وأبو عبيدة أفضل منزلةً عندنا منك » . وألح ابن العاص يقول : « إنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن أُلِيَ عليه » . فكان جواب ابن الخطاب على إلحاحه : « ويحك يا عمرو ! إنك لتحبّ الإمارة ! والله ما تطلب بهذه الرئاسة إلا شرف الدنيا ، فاتق الله يا عمرو ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله . فاخرج إلى هذا الجيش ، فإنك إن لم تكن أميراً هذه المرة فما أسرع ماتكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد » . وخرج ابن العاص مذعناً لإمارة أبي عبيدة لا عن رضا . لكن إذعانه لم ينقص من قدره عند أبي عبيدة ولا عند غيره من أمراء الجند ، بل كانوا جميعاً يعرفون له ذكاه ودهاء ورجحان عقله وبُعْد نظره ، وكانوا لذلك يلتمسون عنده الرأي كلما حزب الأمر ، فيجدون في مشورته خير ما يدفع الخطر ، ويضيء السبيل إلى الظفر .

ولعل حبه الإمارة وحرصه عليها لم يكن مرجعهما إلى اعتداده بنفسه وكفى ، بل كانا يرجعان كذلك إلى حسبه ونسبه ومكانه من قريش ؛ فقد كان من قبيلة بنى سَهْم القرشية صاحبة الرياسة على الأموال الخاصة بألمة قريش ، فكان زعيمهما يتصرف في هذه الأوقاف بما تقضى به سنة القوم لذلك العهد . وكان أبنائها لذلك يحسنون القيام على الأموال إحساناً ظهرت آثاره في مقدرة عمرو بن العاص على جمع المال وتنميته ، سواء في حياته

الخاصة وفيما تولاه من المناصب العامة : وقد كان لبني سهم إلى ذلك منصب الفصل في المنازعات ، وهو منصب أفاد أفرادها منه حسن الرأي والأناة ودقة التقدير . لهذا ولذاك زاد ثراء بني سهم وارتفعت مكاتها ، واجتمعت لها أسباب القوة ، فاستطاعت أن تجير قبيلة بني عدى قوم عمر بن الخطاب حين أجلاها بنو عبد شمس عن منازلها القائمة عند الصفا ، كما استطاع العاص بن وائل السهمي أبوعمر أن يجير عمرو بن الخطاب حين أعلن في الناس إسلامه فأراد بنو سهم قتله . وكان العاص بن وائل وافر الثراء ، حتى كان يلبس الديباج مُزَرَّراً بالذهب . لا عجب ، وذلك نسب عمرو وتلك قبيلته ، أن يزداد اعتزازاً بنفسه وأن يطمح إلى الإمارة ويحرص عليها .

وجعله حبه الرياسة بتوسم سبها في غيره . سمع وهو بالمدينة يوماً خطبة من خطب زياد ، فأعجب ببلاغتها وقال : « الله ذر هذا الغلام ! لو كان من قريش لساق العرب بعصاه » وهذا الطموح إلى الإمارة هو الذي دعاه لمناصرة معاوية على عليّ ؛ فقد رأى المسلمين لذلك العهد مقبلين على الدنيا راغبين عما يدعوا على له من التقشف والزهد ، ورأى معاوية يتألفهم بالثوبة والعطاء ، ويظهر لهم الحبة والود ، فأيقن أن الدنيا مقبلة عليه مدبرة عن عليّ . لكنه ، فيما يروى ، لم يُخف على معاوية رأيه الحق في أمره ، والمطامع التي دفعته إلى مناصرته . سمع معاوية يوماً يُكثّر من الحديث في رغبته عن الدنيا وعن إمارة المؤمنين لولا حرصه على خير المسلمين ، ففصّ عمرو بما سمع من ذلك ، فلما خلا إليه قال له : « يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك ! أترى أننا خالفنا عطياً لفضل منا عليه ؟ لا والله ! إن هي إلا الدنيا تنكأب عليها . وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دينك أو لأنا بذنك ! » .

لم يكن تطلع عمرو للإمارة وحبه المال وإقباله على الدنيا ليصرفه عن التفقه في الدين . والعلم بكلام الله ، فكان من أكثر المسلمين علماً به وفقها فيه ، كما كان من أغزر العرب ثقافة وأكثرهم علماً بمعارف عصره . ثم إنه كان كريم النفس رضى الخلق ، رقيق القلب ، ذوقاً للجمال : يطرب للشعر ، ويُقبل على الغناء ويحبه حباً جماً . وقد ملك بصفاته هذه أئدة الناس ، كما فرض ذكاؤه عليهم احترامه . وكان جَوَّابَ آفاق كبنى قومه . وجَوَّبه بالآفاق في تجارته وفي سفارته هو الذي ذهب به إلى اليمن وإلى الحبشة وإلى الشام ومصر .

ولسنا نشك في أنه تردد على مصر غير مرة ، وإن ذهب بعض المؤرخين إلى أنه لم يذهب إليها إلا مرة واحدة هي التي دفعته في ظنهم إلى التفكير في فتحها .

وقصة ذهابه إلى مصر هذه المرة الواحدة طريفة في روايتهم طرافة تدعونا لذكرها وإن رأيناها أدنى إلى الأساطير : فقد زعموا أن عمرًا قدم بيت المقدس لتجارته في نفر من قريش ، وأن شماسًا روميًا من أهل الإسكندرية جاء بيت المقدس حاجًا وكان نازلاً من الجبال ، فربعوه وهو يرعى إبله وإبل أصحابه . وكان الشماس قد أجهدهم العطش لشدة الحر في ذلك اليوم ، فاستسقى عمرًا فسقاه حتى روي . ثم إن الشماس نام مكانه إلى جانب حفرة خرجت منها حية عظيمة بصُر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها . واستيقظ الشماس ورأى الحية ، وقص عليه عمرو نبأها ، فأقبل الشماس فقبل رأس عمرو وقال له : قد أحيانى الله بك مرتين ؛ مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية ؛ فما أقدمك هذه البلاد ؟ وذكر له عمرو أنه جاء في تجارته ، وأنه يرجو أن يصيب ما يشتري به بغيراً ، وعرف الشماس أن دية الرجل في العرب مائة من الإبل قيمتها ألف دينار ، فقال لعمرو : هل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ؛ فإن الله عز وجل أحيانى بك مرتين . وعرف عمرو أن الشماس من الإسكندرية ، وأنها بلد لم يدخل قط مثلها ، فاستشار أصحابه واستصحب أحدهم يأنس به ، وسار مع الشماس حتى بلغوا الإسكندرية ، فرأى عمرو من عمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها ومابها من الأموال ، فأعجب بها وقال : ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال . ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيداً فيها عظيماً يجتمع له الأمراء والأشراف وأهل المدينة ، فألبس الشماس عمرًا ثوباً من ديباج وذهب به إلى هذا العيد . وكان الملوك والأمراء يترامون في هذا العيد بكرّة لهم من ذهب مكلّلة . فن وقعت الكرة في كفه واستقرت به لم يمت حتى يملكهم . وإنهم ليترامون بالكرة في ذلك اليوم إذ أقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو بن العاص . وعجب الناس لذلك وقالوا : ما كذبنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة . أنرى هذا الأعراي يملكنا ! هذا ما لا يكون أبداً . ثم إن الشماس جمع لعمرو ألفي دينار من أهل الإسكندرية ودفعها له ، وبعث معه دليلاً رده

هو وصاحبه إلى بيت القدس . يقول ابن عبد الحكم : « فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ونخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا » .

أحسب القارىء يوافقنى على أن هذه القصة مع طرافتها أدنى إلى الأساطير ، وأنها لا يمكن بحال أن تكون سبب التفكير في فتح مصر . ولعل رواية الرواة لها هي التي جعلت البلاذرى والمقريزى وابن عبد الحكم وغيرهم من المؤرخين يروون ما قيل من أن عمرو ابن العاص سار إلى فتح مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخسمائة جندي ، وأن عمر غضب لذلك وكتب إليه يوبخه ويعتقه على افتتانه برأيه . وهذا القول لا يزيد عندنا على أنه حديث خرافة . فلو أن عمراً سار إلى غزو مصر من تلقاء نفسه لكان أيسر جزائه عند عمر أن يعزله . وإنما دعا للتفكير في فتح مصر ما سقناه مما أدى بعمر إلى الليل لمشاركة ابن العاص في رأيه . مع ذلك استعمله حتى يكتب إليه بعد عودته إلى المدينة ، فلما نزلها جمع أولى الراى فيها وذكروا لهم حجج عمرو وشاورهم في الأمر فانقسم رأيهم . وإذا كان عمر يرى الفتح ، فقد كتب إلى عمرو يأمره بالشخص إلى مصر ، وبعث بالكتاب مع شريك ابن عبدة ، وفيه يقول : « انذب الناس إلى السير معك إلى مصر ، فمن خف معك فسر به » . وكان عمرو محاصراً قيسارية حين جاءه كتاب أمير المؤمنين ، فاستخلف معاوية بن أبى سفيان على حصارها ، وفصل في قوة صغيرة اختلف : أكانت ثلاثة آلاف وخسمائة أم أربعة آلاف . ثم إنه ردّ شريك بن عبدة رسول الخليفة يطلب المدد حتى لا تضعف مسالح الشام . وسار متمهلاً بساحل البحر ، جاعلاً وجهته إلى العريش ، آملاً أن يلحقه المدد حتى يدخل أرض مصر . وإنه لفي مسيرته وتثله إذ جاءه النبأ بأن الذين يرون في فتح مصر خطراً على المملكة الناشئة ، وفي مقدمتهم عثمان بن عفان ، قد ازداد نشاطهم بالمدينة ، فخشى أن يضطرّ عمر آخر الأمر إلى النزول على رأيهم فلا يبعث إليه بمدد بل يردّه عن مسيرته .

ولم يخطئ عمرو في تقديره ؛ فقد كان عثمان والذين معه يرون تلك الغزاة عظيمة الخطر ولا يفتشون بكررون ذلك على مسامع عمر . بل لقد زاد عثمان فقال : « يا أمير المؤمنين ! إن عمراً لمَجْرًا وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة

فيرض المسلمون للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا . ترى ما ذا يفعل عمر وقد سمع ما سمع ؟ أيرد قائده عن السير بعد أن أمره به ، وبعد أن مال إلى رأيه ؟ وإن هو فعل وكان ابن العاص قد تخطى حدود مصر ، أفلا يكون ارتداده خذلاناً للمسلمين قد يُجرىء عليهم عدوهم ! ؟ لكنه خشي كذلك أن تثور نائرة عثمان والذين معه ، إن أعرض عن رأيهم ولم يظهر الرضا عما يقولونه . ثم إن مخاوفهم قد تبطل إذا هو أمدّ عمرًا بقوات تجعل ظفره بمجيوش الروم في مصر أمراً محققاً ! لذلك كتب إلى عمرو يقول : « إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت قد دخلت فامض لوجهك واعلم أني مُدِّدك » . ودفع بالكتاب إلى رسول يحمله إلى القائد السائر إلى مصر .

أدرك الرسول عمرًا وهو برّفح ، فلم يذكر له شيئاً عن المدد الذي كان ينتظره ، بل حاول أن يدفع إليه كتاب الخليفة . وذكر عمر نشاط عثمان والذين يتهيبون الإقدام على هذا الفتح ، وقدّر أن الكتاب قد ينطوى على أمر بالعدول عنه ، فأخذ يستدرج الرسول وهو يسيره وجعل يسأله عن المدينة وأنبائها ، وظل على ذلك حتى نزلوا قرية بين رفح والعريش . وسأل عمرو عن هذه القرية من أى أرض هي ؟ فقيل إنها من أرض مصر ، فنزلها ونزل الرسول معه ودفع إليه الكتاب . فلما قرأه ابن العاص قال لمن حوله : « إن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرنى إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا على بركة الله وعونه » . كذلك قال ، فكانت كلماته هذه أول الفتح^(١) .

(١) هذه هي الرواية المتواترة عن كتابي أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، يأمره في أولها بالسير إلى مصر ، ويرده في الثاني عن هذا السير إلا أن يكون قد دخل أرض مصر . وثم روايات أخرى أوردتها ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين تختلف بعض الاختلاف عن هذه الرواية المتواترة . منها أن عمر ظل على تردده في أمر الفتح وتخوفه منه . وأصحاب هذه الرواية يوردون كتابه إل عمر بالنص الآتي : « سر وأنا مستخير الله في مسيرك . وسيأتيك كتابي سريراً إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابي أمرتك فيه ألا تصرف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وأن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واسنعن بالله واستنصره » . ولا نظن عمر يأمر بالسير إلى فتح عظيم كفتح مصر قبل أن يقتنع بصوابه والقدرة عليه ، وقبل أن يزول كل ما قد يقوم بنفسه من تردد في أمره . =

وإنما دفع عمرو رجاله للسير في أرض مصر لأنه خشى إن هو أقام بالقرية التي نزلها حتى يجيئه المدد أن يزداد عثمان بن عفان والذين يرون رأيه نشاطاً ، فيحبس الخليفة المدد عنه ثم يرده إلى أرض فلسطين ، فتفوت المسلمين بذلك فرصة يؤمن ابن العاص بقدرته على انتهازها . فقد كان يرى الروم بمصر أشدّ مجزأً عن القتال منهم بالشام . ومصر أكثر الأرض أموالاً ، فإذا فتحت كانت قوة للمسلمين ليس كمثلها قوة .

وسار عمرو في أربعة آلاف الذين معه إلى العريش ، فألقوها خلاء ليس بها للروم قوة . وشد ذلك من عزم عمرو ودفعه لمتابعة سيره . ورجع رسول الخليفة إلى المدينة وذكر له أن عمراً دخل أرض مصر وسار يطلب الروم فيها ! فلن يرتد عنها إلا إذا اضطرتهم الهزيمة إلى الارتداد . عند ذلك لم يبق في وسع الذين رأوا في إقدامه مخاطرة تعرض المسلمين للخطر إلا أن يمسكوا حتى يتبين لهم أمره ، فأما خذل فـكان خذلانه دليلاً على حسن رأيهم وبعد نظرهم ، وإما ظفر فكانوا أول المؤمنين به والمهثئين له ١ .

وقد كتب القدر لعمرو أن يكون الظفر نصيبه ، وأراد الله أن تدخل مصر في حِمى الإسلام ، وأن تصبح الدرّة الغالية في تاج الإمبراطورية الإسلامية .

١= ومن هذه الروايات أن عمراً كان على جنده بقيسارية حين كان عمر بالجابية ، فكتب سراً إلى عمر فاستأذنه إلى مصر وأمر أصحابه فتنحوا ثم سار بهم ليلاً ، فلما عرف أمراء الأجناد صنيعه أنكروه ورفعوا أمره إلى أمير المؤمنين ، فكتب إليه : « إلى العاصي بن العاصي . أما بعد ، فإنك قد غررت بمن معك ، فإن أدركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع ، وإن أدركك وقد دخلت مصر فامض واعلم أني بمدك » . ولو صح هذا لكان تحايلاً من عمر لا يتفق وما عرف من خلقه ومن صراحته في حمل التبعات .

الفصل التاسع عشر

فتح مدينة مصر وحصونها

عاد رسول عمر بطوى الطريق إلى المدينة ، حاملاً إلى أمير المؤمنين النبأ بأن عمرو ابن العاص دخل أرض مصر أشد ما يكون عزماً على فتحها ، وأكثر ما يكون حاجة إلى الدد . وسار ابن العاص إلى العريش فلم يجد بها من يدافع عنها ، فتخطاها منجذراً إلى الجنوب من بحيرة سِرْبُونَة سائراً في الطريق الذي سار فيه الفرس لفتح مصر قبل خمس وعشرين سنة من ذلك التاريخ ، ولم يلق عمرو من يقف سيرة حتى بلغ مدينة الفرما ، وهناك لقيه الروم في قوة وقفت في وجهه وحاولت صدّه عن الغزو .

والطريق من العريش إلى الفرما طويل يبالغ نحو سبعين ميلاً . وهو يمرّ خلال الصحراء ، تتخلله عيون وقرى تهوّن على السائر شقته ؛ لذلك كان الطريق المعبد بين فلسطين ومصر من أقدم الحقب ، حتى لقد شهد «مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقبيل والإسكندر وكليوباترا وأسرة المسيح^(١)» إلى هذه البلاد . وكان هذا الطريق طريق الحاج بين مصر وبيت المقدس ، كما كان طريق التجارة والأسفار بين آسيا وأفريقيا . وقد سار عمرو ابن العاص فيه غير مرة من قبل في تجارته ، كما سار فيه مع ذلك الشماس الذي روينا قصته ، والذي قيل إنه سار بعمرو إلى الإسكندرية ليجزيه عن إحيائه إياه مرتين .

والفرما هي «يرمون» القبطية ، و«بلوز» الفرعونية . وهي تقع على هضبة من الأرض قريبة من البحر الأبيض ومن مصب الفرع «البلوزي» من أفرع النيل السبعة ؛ فقد كان النيل في ذلك العهد والعهود التي سبقتة يتفرع في مصر السفلى (الوجه البحري) سبعة أفرع : اثنان منهما هما المعروفان في وقتنا الحاضر باسم فرع دمياط وفرع رشيد ، وكان أولهما يسمى في ذلك الزمن الفرع الفتنّي والثاني يسمى الفرع البليتي ؛ أما الفرع الثالث فكان مستقلاً عنها يبتدىء جنوبهما بنحو ستة أميال ويتجه إلى الشرق

(١) بتل : فتح مصر ، ص ١٨٥ ؛ ترجمة أبو حديد .

خلال ما نعرفه اليوم باسم مديرية الشرقية حتى يصب في البحر الأبيض على مسافة تزيد عن أربعة وعشرين ميلاً شرق الموقع الذي تقوم فيه بورسعيد . وهذا الفرع الثالث هو الفرع البلوزي . أما الأفرع الأربعة الأخرى فكانت تنشعب من فرعى النيل الباقيين في عهدنا الحاضر . وكان اثنان منها يجريان في مديرتي الشرقية والدقهلية ويصبان في البحر الأبيض خلال بحيرة المنزلة ؛ الشرق منهما هو الفرع الثاني الذي يمر بتانيس ، وهي « صان الحجر » المدينة الأثرية المعروفة في عهدنا الحاضر ، والآخر هو الفرع المندري الذي يخترق مديرية الدقهلية متشعباً من النيل عند نقطة قريبة من موقع ميث غمر ليصب أثناء بحيرة المنزلة في موضع بين بورسعيد ودمياط . وكان الفرع السبتي يخترق مديرتي المنوفية والغربية مبتدئاً من فرع دمياط على مقربة من موقع القناطر الخيرية ليصب في بحيرة البراس . ثم كان الفرع الكائوتي يتشعب من أوسط فرع رشيد ليتجه شمالاً بغرب حتى يصب على مقربة من الإسكندرية إلى شرقيها .

وكانت هذه الشبكة المائية الرئيسية تمتدّ ترعاً كثيرة تُروى هذا المثلث العظيم من أرض مصر الخصب المغطى . وكان هذا المثلث يمتدّ غرباً فيما وراء الإسكندرية حتى يبلغ برقة ، فكانت منطقة مربوط أهلة ألف ناسها الترف ، يقيمون في منازل جميلة تحيط بها حدائق زاهرة غناء . وكانت هذه المنطقة الكثيرة الفاكة تمتدّ إلى تخوم برقة وتنتج من شهي الثمار ما يرسل الكثير منه إلى بلاد الروم . وكانت أعناؤها ذات شهرة واسعة جعلت « فرجيل » و « سترابو » يتحدثان عن جودة خمرها ما تحدث أبو نواس وأصحابه عن خمر هيت وعانات .

كان ابن العاص على رأس الزاوية الشمالية الشرقية من هذا المثلث حين نزل القراما . وكانت أنباء سيره قد سبقت إلى الروم منذ تحطى تخوم مصر . فإذا تراهم يصنعون ؟ لم يدّر بخواطرم أن يواجهوه أثناء سيره في الصحراء بين العريش والقروما ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن العرب أقدر الناس على حرب الصحراء ، ولأن قرب العريش وماجاورها من فلسطين يجعل إمداد عمرو بالجنود من بيت المقدس وماجاورها أمراً يسيراً . لذلك آثر المقوقس حاكم مصر أن يدع عمراً يمضي في طريقه حتى يبعد عنه المدد أو الأمل فيه ،

وأن يتخذ من حصون الفرما القوية أول موضع للقاء المسلمين ، دون أن يخاطر فيذهب إلى هذا الموقع بنفسه ، أو يبعث إليه الأطربون كبير القواد .

وتحصن الروم بالمدينة لمواجهة العرب ، مؤمنين بقدرتهم على الذود عنها ، وردّ العدو على أعقابه دونها ؛ فقد علموا أن العرب الذين جاءوا مع عمرو قلة في العدد ، وأنهم ليس معهم من عُدّة الحصار ما كان مع الفرس حين هاجموا الفرما من قبل ففتحوها دون أن يلقوا كبير مشقة . وعرف عمرو عُدّتهم وقوتهم وأنهم يزيدون على جنده أضعافاً . مع ذلك لم يتردد في النزول وفي إنشأ الحرب ، بعد ما خطب أصحابه وذكّرهم بأن المسلمين كانوا قلة دائماً حيثما واجهوا الروم والفرس ، وأنهم قهروا عدوّهم في المواقع كلها ؛ لأن الله وعدم النصر وكان معهم . ولم يكذب عمرو أصحابه ؛ فقد حاصروا الفرما شهراً ثم اقتحموها واتخذوها معقلاً بعد أن هزموا الروم فيها شرّ هزيمة .

كيف حدث هذا ؟ كيف استطاع أربعة آلاف أن يحاصروا مدينة منيعة قوية الأسوار والحصون ، فيقهرها وجندها ويقتحموا أسوارها ويفتضوا حصونها ؟ يرى بعض المؤرخين الأمر عجيباً ، فيلتمسون له العلة ويضعون أن قبط الفرما أمدوا العرب بالمعونة أثناء الحصار ، فكان ذلك سبب قهرهم عدوّهم . كذلك يقول المقرئى وأبو الحسن . ويذكر ابن عبد الحكم « أنه كان بالإسكندرية أشقفٌ للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقّى عمرو . فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً » . وهذا الذى يذكره ابن عبد الحكم لا يستقيم أكثر مما تستقيم رواية المقرئى ورواية أبى الحسن ؛ فأبو ميامين هذا هو الاسقف بنيامين ، وهو لم يكن بالإسكندرية حين مجيء العرب إلى مصر ، بل كان قد قرّر منها منذ سنوات إلى قوص ، كما ذكرنا فى الفصل السابق .

ولعل ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين المتأخرين إنما أثبتوا هذه القصة لأنهم لم يجدوا تأويلاً لا تنصّر عمرو على الروم إلا أن يكون قد لقي العون من أهل مصر ، فأثبتوا القصة وصدّقوها استناداً إلى ما كان من كراهية القبط لحكم الروم وقيامهم فى وجه الاضطهاد الدينى الذى فرض عليهم . والواقع أن القبط لم يعاونوا المسلمين ولم يعاونوا

الروم ، وأنهم لا أثر لهم في ظفر المسلمين بعدوهم واستيلائهم على مواقعه وحصونه .
 لاشك في أن القبط لم يعاونوا الروم في قتال العرب إلا بالقدر الذي يضطرونهم إليه
 خضوعهم كارهين لسلطان قيصر وعماله . ولكن لاشك كذلك في أنهم لم يعاونوا العرب ،
 إلا أن تكون معاونات فردية يتبرع بها خفية من بلغت ثورة نفوسهم بالروم وحكمهم
 مبلغا جعلهم يفامرون بحريتهم وبحياتهم ، ليدلوا العرب على عورات الروم ، وليكشفوا
 لهم عن أسرارهم . أما فيما وراء ذلك فقد وقف شعب مصر من الفريقين المتحاربين موقف
 المتفرج شديد التطلع . لقد أصابه الروم من ألوان الظلم والاستغلال والاضطهاد بما أزال
 من نفسه كل حماسة لنصرهم . وهو لا يعرف من أمر العرب ما يدعوه إلى كراهيتهم
 ولا إلى الترحيب بهم . هذا إلى أن قوة الروم وبأسهم في مصر جعلاه يشك في الغلب ،
 لمن يكون آخر الأمر . صحيح أن أنباء العرب وانتصارهم في الشام والعراق كانت تبلغه ،
 لكنه لما يكن قد نسي تغلب هرقل على الفرس في مصر وإجلاء إياهم عنها . فلو أن
 هذا الشعب ناصر العرب جبهة فانتصر الروم فالويل ثم الويل له وسيلقى من ألوان
 الاضطهاد أضعاف ما كان يلقي من قبل . وليس طبيعياً أن يناصر الروم وفي نفسه من
 كراهيتهم ما فيها . أما والحرب لا تزال في بدائها ، وليس يعلم أحد مصيرها ، فالحكمة
 تقتضيه أن ينتظر ليرى ، وأن يكتيف موقفه من بعد تكييفاً يحنبه الظلم والضرر ،
 ويحقق له ما يستطيع تحقيقه من منفعة .

وموقف الشعب المصري هذا هو الموقف الطبيعي لكل شعب في مثل حاله يومئذ .
 لقد ودّد أن يخرج الروم من بلاده حتى تخلص له خيراتها فيستأثر بحقه الطبيعي فيها ،
 وحتى تتم له حريته وكرامته وعزته كاملة في كل أرجائها . لكنه غلب على أمره منذ
 عصف الإسكندر المقدوني بحريته واستقلاله ، كما عصف بحرية غيره من الأمم واستقلالها
 فلما مات الإسكندر قال أمر مصر إلى البطالسة الإغريق ، فانفصلوا عن أمتهم وانفصلوا
 عن رومية واستقلوا بمصر وأصبحوا مصريين ، لم يرى الشعب المصري فيهم عنصراً أجنبياً
 يشور به أو ينتقض عليه . فالأمر المالكه كانت يومئذ في مصر وفي غير مصر من أصل
 أجنبي ، ولا يزال ذلك شأنها إلى اليوم . وقد جاءت هذه الأمر إلى البلاد التي استقرت

على عرشها غازية في عهد من العهود ، مستعينة بقوات من الجنود الأجراء الذين اتخذوا الحرب والفتح صناعتهم . فلما سكنت الحرب وضوى الناس إلى السلام اطمأنت هذه الأسر إلى البلاد التي تربعت على عرشها واتخذت منها وطنها ، فرحب بهم أهلها واتخذوهم حصناً يقيهم المنازعات بينهم . وكان ذلك شأن البطالسة ؛ أوّلاً إلى مصر وأصبحوا مصريين ، واستقلّوا بمصر واستقلّت بهم مصر . وظل الأمر على ذلك حتى جاء « يوليوس قيصر » ثم جاء « أنطونيو » فزلا مصر في عهد « كليوباترا » وبنزلها مصر انضمت إلى الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف الممتدة إلى أقصى الغرب وأقصى الشمال من أوروبا ، وإلى بادية السماوة من أرض آسيا .

ولم يمض غير قليل على هذا الانضمام حتى جدّ عنصرٌ نقل العالم من فكرة التوسع في الفتح ابتغاء المجد إلى ميدان أكثر سموّاً في اتجاهه ، وأجدر بالإنسان يوم يتم الثّمنج لضمير الإنسان . ذلك العنصر كان المسيحية . فقد دعت الناس إلى المحبة والإخاء ، وإلى احتقار مُتّع الحياة الدنيا ، والتّنه عن التقاتل بسببها . وما لبثت المسيحية حين انتشرت في رومية وفي مصر ، أن أنست الناس ما بينهم من عداوة وبغضاء ، وأن صوّرت أمامهم فكرة الإمبراطورية المقدّسة يعيشون تحت سماءها إخواناً متحابّين في ظل الله . على أن هذه الصورة سرعان ما غشيتها سحب أضعفت إيمان الناس بها ، وذلك حين بدأت المذاهب المسيحية تتعدد ، فبدأ أصحاب كل مذهب ينظرون إلى أصحاب المذاهب الأخرى نظرة كراهية وحقد . بذلك عاد الناس إلى ما كانوا من قبل فيه ، فعاد المصريون يمتقنون الرومان المتحكمين في بلادهم ، ثم ازدادوا لهم مقتاً بسبب الاضطهاد الأعظم الذي أخضعهم الروم له .

لم يعاون المصريون عمرو بن العاص في الفرما . فكيف استطاع بقوته الصغيرة أن يحاصر مدينة منيعة قوية الأسوار والحصون فيقهر جندها ويقتحم أسوارها ويفتضّ حصونها لقد أقام أمامها شهراً في الرواية المشهورة ، وشهرين في رواية أخرى ، فكان جنودها يخرجون إليه من حين إلى حين يقاتلونهم ثم يرتدون إلى مدينتهم يتحصنون بها . وكان عمرو يغير في هذه الأثناء بكثائب صغيرة على ما حوله من البلاد ، يجيء منها

بالأقوات التي يحتاج إليها جيشه . وكانت حامية المدينة تتوقع ، بعد أن طال حصارها ، أن تبعث الحكومة المركزية إليها مدداً يعاونها على ردّ العرب وإجلأهم عن مصر . لكن المدد لم يجرى ، ولم يبلغ الحامية نبأ يبشّر بقرب قدومه . عند ذلك رأى أميرها أن يغامر فيخرج بها إلى ما وراء الأسوار يلتقى العدو وجهاً لوجه ، طامعاً في التغلب عليه والظفر به . لكنه ما لبث حين اشتد القتال أن ألغى المسلمين ليوثاً ضارية لانهاب الموت ، خأمر أصحابه بالارتداد إلى الحصون والاحتباء بها . ورآهم المسلمون يرتدّون فتعقبوهم ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأفسوا الاضطراب في صفوفهم ، وسبقوهم إلى باب المدينة وملكوه عليهم ، وتجاوزوا الأسوار إلى الحصون فاحتلوها ، فلم يبق للروم إلا التسليم . واستولى عمرو على المدينة ، فهدم أقوى حصونها ، وأحرق السفن الراسية في المرفأ القريب منها ، وخرّب كل كنيسة أو دير يمكن التحصن به فيها ، ثم اتخذها معقلاً يؤمّن الطريق إلى فلسطين وإلى بلاد العرب ، وأقام يفكر في الخطوة التي يجب عليه أن يخطوها بعد أن كسب هذه الموقعة الأولى في الصميم من أرض مصر .

ما السبب في قعود المقوقس عن إمداد حامية القرما ؟ هذا سؤال يردّ بخاطر كل مؤرخ . ويذهب بتار إلى أنه لا يجد ما يفسر به هذا القعود إلا خيانة قيرس لقيصر ، طمعاً منه في فصل بطرقة الإسكندرية وشقها عن القسطنطينية ، بالاتفاق مع العرب وإعطائهم على دولته . وبتار لا يدعّم هذا الرأي بأى سند من الواقع ، بل يستنبطه من الحوادث استنباطاً . وفي رأينا أنه مذهب أملتة عاطفة مسيحية ، ولم تمله حقيقة تاريخية ، إذ لما يكن قيرس قد رأى أحداً من العرب ليتفق معه ، وهو قد ثبت من بعد لقتال عمرو والمسلمين في بابلون وفي الإسكندرية . فالقول بأنه خان دولة الروم لغاية في نفسه استنباط مصدره العاطفة وليس له من منطق التاريخ سند .

ونحن نرى أن القعود عن إمداد حامية القرما يرجع إلى أكثر من سبب . وأول هذه الأسباب شعور الروم في مصر بعداوة الشعب المصري لهم عداوة لايسهل التكهن بما يمكن أن تنفّس عنه . فلو أنهم بعثوا بقواتهم العسكرية في مصر أو في الإسكندرية للقتال في القرما ثم نار المصريون بهم لفتّ ذلك في أعضادهم ، ولما كان إمداد القرما

لينتقمهم من شرّ هذه الثورة في المدن الكبرى . ثم إنهم كانوا يذكرون هزائمهم أمام المسلمين في سورية وفي فلسطين ، وكانوا لذلك لا يريدون المغامرة بمقاومة هؤلاء الجبابرة في ميدان لا يثقون بقدرتهم على المقاومة فيه . لهذا آثروا أن يتحصنوا ببابلليون على مقربة من مصر ومن منف ليكون النيل خندقاً بينهم وبين عدوهم ، وأن يقتصر أمرهم في الفرما وفي غيرها من البلاد الصغيرة الحصينة على وقف العرب أطول زمن حتى تنجح لهم الفرصة لتقوية حصونهم في المراكز الرئيسية . فإذا غامر العرب من بعد وبلغوا مدينة مصر صدّتهم حصونها عن التقدم ، وربما أمكن القضاء عليهم ، فكان ذلك كافياً لصرفهم عن مصر وصدّهم عن التفكير في العودة إليها .

قد يكون هذا التفكير خاطئاً من الناحية الحربية . لكن الحوادث التي وقعت من بعد قدّلت على أنه كان تفكير المقوقس وأصحابه في الفترة الأولى من دخول العرب مصر فقد انضم إلى عمرو بعد فتح الفرما جنود من البدر المقيمين على تخوم الصحراء المصرية طمعوا في مقام القتال . فعوضوا المسلمين عن فقدوا في أول حصار ضربه بمصر . ثم إن عمراً سار متحذراً إلى الجنوب ملازماً هذه التخوم فتخطى مدينة تجدل القديمة إلى موضع « القنطرة » اليوم ، ومن ثمّ اتجه غرباً إلى القصاصين ، وتابع مسيرته جنوباً بنزب حتى بلغ بلبليس . وفي هذا الطريق الطويل الذي قطعه فرسان المسلمين في أرض مصر لم يكن عمرو « يدافع » إلا بالأمر الخفيف على تعبير ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه من مؤرخي العرب . وهؤلاء المؤرخون يروون أن راعياً من البدو المواليين للمسلمين دنا من منازل قرية في طريق عمرو ، فسمع نقرأ من القبط يقول أحدهم : ألا تعجبون من هؤلاء القوم يُقدّمون على جوع الروم وهم في قلة من الناس ! ويجب آخر : إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه . وهذا السير الطويل وهذا الحديث يتناقضه المصريون صريح في الدلالة على أن المقوقس وأصحابه لم يكونوا مطمئنين لولاء المصريين ، وأنهم لذلك آثروا التحصن عند مدينة مصر على مواجهة الغزاة في هذه الأرض المكشوفة المتاخة للصحراء ، فلم يلق المسلمون من يعترض طريقهم أو يدافعهم « إلا بالأمر الخفيف » ، حتى بلغوا بلبليس وصاروا على ثلاثة وثلاثين ميلاً من مدينة مصر وحصونها .

يَتَّفَقُ المؤرخون على أن المسلمين أقاموا ببلبس شهراً قاتلوا أثناءه عدوهم وظفروا به . لكنهم يختلفون : أكان القتال بين الفريقين عنيفاً أم أن المسلمين لم يلقوا فيه من بأس الروم أكثر مما لقوا ماذ غادروا القرما . وتذهب بعض الروايات إلى أن المقوقس بعث إلى عمرو ، أول منازل بلبس ، من يفاضه ليرجع عن مصر ، وأن عمراً تحدث إلى الأساقفة المفاوضين عن بعث الله رسوله بالحق ، وأنه صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالإعذار إلى الناس ، « فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمِثلنا ، ومن لم يجيبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنة . وقد أعلمنا أننا مفتتحوكم ، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم ، وأن لكم إن أجبتُمونا بذلك ذمة إلى ذمة » و فطن الأساقفة إلى أن عمراً يشير بصلة الرحم إلى هاجر أم إسماعيل ، فقالوا : قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء ! ثم أضافوا : آمناً حتى نرجع إليك . فقال عمرو : إن مثلي لا يُخَدَع ، ولكني أؤجلكم ثلاثة أيام لتنظروا وتناظروا قومكم وإلا ناجزكم . فاستزادوه فزادهم يوماً ثم يوماً خامساً . ورجع الملأ إلى المقوقس فحدثوه بحديث عمرو ، فأبى القائد الأطربون إلا مناجزة المسلمين . وقال الأساقفة للمفاوضون للناس وقد رأوا مخاوفهم : « أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم ، وقد بقيت أربعة أيام فلا تصابون فيها بشيء إلا رجونا أن يكون له أمان » .

سار الأطربون عقب هذا الحديث في اثني عشر ألفاً كاملي العدة حتى يأخذ المسلمين ببلبس على غيرة . ولقد فُجِأهم وبيَّتَهم بيئاتاً شديداً . لكن عمراً كان الحذر كل الحذر ، وكان كل جيشه فرساناً في عُدَّة القتال . لذلك حميت المعركة بين الفريقين ، فيما يذكر أصحاب هذه الرواية ، فقتل فيها من العرب عدد ليس بالقليل ، وخسر الروم ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير ، ثم انهزم الأطربون وتمزق جيشه ، ويقال إنه قُتل .

لماذا أقام عمرو شهراً كاملاً ببلبس ؟ وهل أقام هذا الشهر قبل لقائه بجند الروم وظفروه بهم ، فلما تم له النصر سار يريد مدينة مصر ؟ أم أنه أقام هذا الشهر بعد انتصاره يدبر حُطَّته ويفكر في موقفه ، فلما اطمأن إلى تديره تابع مسيرته ؟ ليس في المراجع التي وقفت عليها ما يكشف عن ذلك . وكل ما استطاع بتلر أن يستنبطه من بحوثه في تواريخ الفتح العربي أن جيش عمرو كان بالعريش في عيد الأضحى من السنة الثامنة عشرة

للهجرة ، وهذا التاريخ يوافق ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ ، وأنه فتح الفرما حول ٢٠ يناير سنة ٦٤٠ بعد حصار دام شهراً ، وأنه بلغ هليوبوليس في الأيام الأخيرة من شهر أبريل لتلك السنة . فهو إذاً قد بلغ بلبليس في شهر فبراير ، ثم أقام بها معظم شهر مارس . لكن إيراد هذه التواريخ لا جواب فيه عما نسأل عنه . وأنت تستطيع أن تجيب استنباطاً أن المفاوضين المصريين جاءوا عمراً أول ما نزل بلبليس ، وأن الموقعة بينه وبين الأَطربون كانت في الأيام الأولى من مُقامه بها ، فلما تم له النصر لم يسارع إلى السير ، بل أقام حتى يطمئن إلى ولاء البلاد المحيطة به ، وأنه بقي لذلك شهراً اتّصل فيه بالمصريين وكسب ولائهم . لكنك تستطيع أن تجيب استنباطاً كذلك بأنه أقام ببلبليس هذا الشهر قبل أن يجيئه المفاوضون المصريون . وأنه كان ينتظر أن يجيئه المدد الذي وعده الخليفة به في أثناء هذا الشهر ، فلما سار الأَطربون إليه فقدّر عليه وظفر به ، أراد أن يستفيد مما بعثه النصر إلى نفوس جنده من حماسة ، وإلى نفوس عدوه من اليقين بأن المسلمين لن يغلبهم غالب ، فسار يريد مدينة مصر راجياً أن يفتحها الله عليه ويوطئه أكنافها .

أخلاء المدد الذي كان ينتظره قبل أن يلقى الأَطربون فتغلب عليه وهذا المدد معه ، أم أنه ظفر به وليس معه إلا الجند القليل الذي بقي له بعد الفرما والبدو الذين انضموا له وعوضوه عن قنهم في حصارها ؟ الظاهر من الروايات أن المدد لم يجيء إلا بعد انتصاره ببلبليس ومسيرته منها . يقول ابن عبد الحكم ويتابعه السيوطي وابن تغري بردي : « فتقدّم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف : حتى أتى بلبليس فقاتلوه بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه . ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دُنين ، فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليه الفتح ، فكتب إلى عمر يستمدّه فأمدّه بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف . » وظاهر هذا النص صريح في أن عمراً غادر بلبليس بعد انتصاره على الأَطربون قبل أن يصله المدد ، وأنه هزم الأَطربون وعدّة جيشه اثنا عشر ألفاً بأربعة آلاف من الذين كانوا معه من العرب ومن بدو مصر .

سار عمرو من بلبليس متاخماً الصحراء حتى نزل قريباً من قرية « أم دنين » على النيل عند مأخذ خليج تراجان الذي يصل مدينة مصر بالبحر الأحمر عند السويس . وكانت

أم دينن تقع في موضع حيّ الأزرابية من أحياء القاهرة اليوم ، وكانت حصينة يجاورها مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة ، وكانت تقع إلى الشمال من بابليون حصن مدينة مصر الأعظم ، فكانت مساحتها لذلك طليعة الدفاع عن هذه المنطقة العزيزة على المصريين ، ومقر ملكهم في عهد الفراعنة الأقدمين . وكان حصن بابليون حصناً رومانياً منيعاً يقع موقع مصر القديمة اليوم ، وكان متين البنيان قوى الأسوار ، قاومت متانته أحداث الزمن فلم ينقض بنيانه إلا في العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر المسيحى ، ثم بقيت مع ذلك منه أطلال لا تزال تشهدنا أعيننا . وعلى أميال قليلة إلى الجنوب من هذا الحصن كانت تقوم مدينة منف الخالدة الذكر الباقية الأثر . منف عاصمة مصر حين كان العالم كله يتطلع إلى مصر على أنها مهبط الوحي ومستقر الحضارة فيه . وقد بقى لمنف كل جلالها حتى نافستها الإسكندرية من يومئذ بدأت تطأطأ رأسها وتنكش عظمتها . لكنها ظلت على ذلك تلى الإسكندرية بهاء وجلالا ، وظلت تفخر الإسكندرية بما حولها من تراث ضخيم خلفه زوسر ورمسيس وفراعنة مصر أيام أظلت العالم حضارة مصر ، كما كانت تفخرها بالأهرام والمقابر العظيمة القائمة حولها . وكان اسم مصر يطلق على مدينة منف ، أو على مدينة تقابلها على الجانب الآخر من النيل نما أمرها وزاد سكانها حتى كانت تسمى باسم منف في بعض الأحيان . وفي الصحراء الغربية الداهية بين منف والجيزة كانت تتصل سلسلة من الأهرام ذات العظمة والجلال ، تتلاحق حتى تنتهى إلى هرم خوفو والهرمين المجاورين له وأبى الهول الرابض تحت سفوحها يرقب بعيون ثابتة مطلع كل شمس ، وقد قامت كلها قبالة حصون الروضة وبابليون وأم دينن .

أفتصور المسلمون الذين ساروا مع عمرو هذا المشهد الباهر لا نظير له في العالم كله ؟ وهل حدّثهم عنه أحد من البدو الذين ساروا معهم بعد ما فصلوا من القرما ، وحين ساروا من بليس بعد ظفرهم بجند الروم ؟ وهل كان منهم من أحد شهد فتح المدائن وشهد أبيض كسرى ليرى عجائب الدنيا مجتمعة في هذا المكان الذى أقبلوا عليه من أرض مصر ؟ أم تراهم كانوا في شغل بقلّة عددهم وما يريدهم عليه عمرو من مواجهة الروم في حصون عزيزة المال ؟ لقد نزلوا قريبا من أم دينن ؛ فبهرهم منظر النيل بسعة مجراه وبالحصب المرع

حوله وبأشجار الربيع ونباته يتثنى ريان ضاحك الحضرة ، فوق أرض أخذت زخرفها وازيدت فهي جنة للناظرين . لكنهم سرعان ما شغلوا عن هذا المنظر بالحصون القائمة أمامهم ، وبما عرفوا من أن الروم أعدوا لهم بعد ما أيقنوا أن هذه الحصون ملاذهم ، فإن تفتض عليهم فلا بقاء من بعد ذلك لهم . فقد جاء الروم إلى حصن بابليون بجبل قوتهم ، وأمدوا حصن أم دين بمسلحة قوية ، وتهيئوا لقتال لم يبق لديهم شك في أنه قتال حياة أو موت ، فإما ردوا العرب بعده على أعقابهم ، وإما قالوا في أعقابهم ما قاله هرقل يوم ودع سورية الوداع الأخير : عليك السلام يا مصر سلاماً لا اجتماع بعده ! .

وأدرك عمرو بن العاص دقة الموقف وخطره ؛ فقد جاءته عيون به بآباء عرف منها أنه لن يستطيع أن يفتح حصن بابليون أو يحاصره بمن معه من الجند ، ولن يستطيع أن يفتح مدينة مصر ، وهي في جوار الحصن وفي حمايته . لكنه أدرك كذلك أنه إن يرجع عن مهاجمة الروم بضغيف شوكة رجاله ويذهب عزمهم ، فيقوى عليهم عدوهم فيردهم ناكسين على أعقابهم . وما كان له أن يأتي أصراً ذلك أثره ، وهو هو الذي أصر على فتح مصر ، وهو موقن أن أمير المؤمنين لا ريب بمدد عما قليل . لا بد له إذا من مغامرة يكتب له فيها النصر ، وله من بعدها أن يداور ليكسب من الوقت ما يشاء حتى يجيء المدد . أما وحصن بابليون لا سبيل إليه فليحاصر حصن أم دين ، وليبذل في سبيل فتحه كل ما يستطيع بذله ، فإذا استولى عليه أصبحت السفن الراسية في مرفئه رهن أمره ، وأصبح في مقدوره أن يدبر خطته وأن يحكم مداورته .

وكان الحذر يقتضي عمراً ألا يفرط في رجاله أو يدفعهم إلى هلكة ، وأن يستعجل أمير المؤمنين المدد ليضعف الأمل في قرب مجيئه قوة الجند الذين معه . لذلك بعث رسولا إلى المدينة بكتاب يصف فيه مسيره إلى مصر وموقفه من حصونها وحاجته إلى المدد لافتحامها ، وأذاع في الجند أن المدد موشك أن يجيء . ثم إنه تقدم إلى أم دين لحاصرها ووقف قبالتها يمنع عنها العتاد والميرة . ولم يفكر الروم المقيمون في حصن بابليون أن يخرجوا إليه وقد علمهم مصير الأطربون أنه لا طاقة لهم بالقتال المكشوف . أما مسلحة أم دين فكانت تخرج إلى القتال أحيانا ثم يرتد إلى الحصن أن لم تغفر بالمسلمين . ومضت

أسابيع لم يتغير الموقف فيها ، وإن لم يشعر المسلمون أثناءها بشيء من القلق أن كانت الميرة في متناول أيديهم .

وانهم لسكذلك إذ جاءتهم الأنباء بمقدّم أول مدد لهم . وبأن هذا المدد موشك أن يبلغهم ، فقوى بأسهم ، واشتدّت سطوتهم . وأقبل المدد ، ورآه حُمّاة الحصن من جنود هرقل ، فسقط في أيديهم وقتل خروجهم للمسلمين . فلما رأى عمرو ذلك منهم ، وكان قد عرف مداخل الحصن ومخارجة ، تخيّر وقتاً أمر فيه أصحابه أن يشدّ كلهم على الحصن شدّة رجل واحد ليأخذوه عنوةً ، وسار هو في طليعتهم إلى بابه ، ففتحه الله عليهم فاستولوا عليه بعد مقتلة عظيمة ، وبعد أن أسروا ما بقي فيه حيّاً .

لم يذكر المؤرخون تفصيل ما وقع في اليوم الحاسم لهذه المعركة . ويذهب بتار إلى أن عمراً شقّ على رجاله في ذلك اليوم ، مستنداً إلى قصة رواها مؤرخو العرب أن عمراً رأى جماعة يترددون في القتال فصاح بهم يحثهم عليه ويدفعهم إليه ، فقال له أحدهم : إنا لم نخلق من حديد ، فاتهره عمرو بقوله : أسكت ! إنما أنت كلب ! وأجابه الرجل : فأنت أمير الكلاب ! فأعرض عمرو عنه ونادى بأصحاب رسول الله وقال لهم : تقدّموا فبكم ينصر الله ، فاندفعوا في الوطيس وتبعهم الناس ، ففتح الله على المسلمين . وابن الأثير يذكر هذه القصة حين يذكر وقعة عين شمس . وأياً ما كانت الواقعة التي حدثت القصة فيها فلا ريب في أن إقبال المدد قد كان له أثر كبير في استيلاء المسلمين على أم دين بعد أن أبطأ عليهم فتحها ، وأن عمراً نزلها ثم عبر مع جنده النيل في السفن التي كانت بمرفئها ، وسار على رأسهم يتخطّون الصحراء مجتازين أهرام الجيزة .

أخذ الروم اللاجئون إلى بابلين حين عرفوا مصير أصحابهم بأمّ دين ، وتولّتهم الدهشة حين قيل لهم إن جيش المسلمين تحطّى النيل ضارباً في الصحراء . فما مقصد عمرو من عبور النهر ؟ وما عسى أن تكون وجهته ؟ أتراه أزمع السير على الفرع الكانوبي يريد الإسكندرية محاولاً فتحها بمن معه من الجند ؟ إنه إذا لردود دون غايته ، ولن يبوأ إلا بالهزيمة الفكرة . لكنهم عرفوا من أنبائه أثناء سيره بمصر ، وجربوا من دهائه وبعد نظره ما أورثهم الريبة في مقصده ، وأعمامهم عن غرضه . وهو لم يفكر بالفعل في السير

إلى الإسكندرية . وكيف يسير إليها وهو يعلم أنها مفتوحة لمدد الروم من البحر ! بل كيف يسير إليها تاركاً وراءه حصن بابليون سليماً زائراً بالرجال والعَتَاد ! إنما فكّر في أن يسير إلى الفيوم يُشيع الفزع في نفوس أهلها ، وقيم الدليل المصريين على أن دولة الروم لا محالة زائلة . وليس في طريق الصحراء بين الفيوم وبابليون عقبة واجتياز هذا الطريق هيّئ على أبناء البادية من أهل شبه الجزيرة . وهو بعدُ طريق قريب يقطعته الفارس في ساعات معدودة . فإذا استطاع عمرو إشاعة الفزع في هذا الإقليم بلغ مقصده ، وكسب من الوقت ما يكفي الخليفة لإرسال مدد جديد يستطيع به عمرو أن ينفذ خُطّته في الفتح ، وأن يدخل به مصر في حكم المسلمين .

لكن عمراً لم يلبث حين بلغ تخوم الفيوم أن علم أن الروم أعدّوا للدفاع عن الإقليم ووضعوا الجنود على مداخله ، لذلك لزم الصحراء وجعل يغير بكتائب قليلة على البلاد القريبة منه ، يسوق النعم طعماً لجيشه . وجاء البدو المقيمون بهذه المنطقة بأنباء عرف منها أن كتيبة من الروم بإمرة رجل اسمه حنا تسير مخفية في النخيل والآجام قبالة متنطّسة أخباره فإذا حاول اقتحام البلاد الآهلة دعت الجيش الم رابط في ثغور الفيوم لمواجهة . عند ذلك أغدّ السير حتى بُعد بمحناً وكتيبته عن الجيش ، ثم ارتد إليه وحاصره ومن معه وقتلهم عن آخرهم . أذاعت هذه الفعلة الرعب في قلوب أهل الإقليم جميعاً . وقد حزن قائد الروم بالفيوم لمقتل حنا أشدّ الحزن وأمر بالبحث عن جثته ، فلما انتُشِلَت من النهر حُنِطَتْ ووضعت على سرير وحملت إلى حصن بابليون ، وُبعث بها إلى هرقل في القسطنطينية ، وحزن هرقل لمراها وأقسم ليدافع عن مصر بكل قوته . واندفعت قوة من الفيوم تلتقي جيش المسلمين وتُنشِب القتال معه . لكن عمراً اكتفى بالظفر بمحناً وأصحابه وبما أنزله من الرعب في أهل الإقليم ، وظل متحصناً بالصحراء راغباً عن لقاء عدو يخشى الصحراء ويرى الموت كامناً فيها . ولشدة ما اغتبط الروم حين رأوه ينسحب بقواته ممعناً في الفياق ؛ فقد خيّل إليهم أنه خشي لقاءهم فقر منهم ، فعادوا إلى قومهم وعلى ثغورهم ابتسامة الرضا بأن كفاهم الله شرّ القتال ! .

والواقع أن عمراً لم ينسحب لأنه خافهم ، بل انسحب عائداً إلى أم دينين يُسرِع السير جهد طاقته ؛ لأن رسولاً من المسلمين جاءه فذكر له أن أمير المؤمنين بعث إليه بمدد جديد ، وأن هذا المدد سار من الفرما إلى بلبيس في الطريق الذي سار فيه عمرو وأنه يوشك أن يصل إلى حصون الروم ، فلم يكن لعمرو بدٌّ من أن يرجع للقاء المدد خشية أن يقطعه الروم عنه وأن يردّوه عن عبور النهر إليه . والحقق أنه أبدى في ذلك مهارة فائقة ؛ فقد كانت جيوش الروم مشرفة على الفيل من حصن بابليون ، وكان في مقدورها أن تخرج من الحصن وأن تعبر النهر ، وأن تحول بين قائد المسلمين والمدد المقبل إليه . لكنها لم تفعل واستطاع عمرو أن يعبر إلى الشاطئ الشرقي وجيشه معه ، وأن يتصل بالمدد الذي نزل هليوبوليس على مقربة من الحصن الروماني .

كيف أتمّ القائد البارع هذه المعجزة من معجزات الحرب ؟ أترأه اتخذ الليل لباساً له ولجيشه ثم عبر النهر سحتمياً في ظلمته ؟ وهل بقي الروم في غفلة عنه أثناء سيره وأثناء عبوره فلم يواجهوه ولم يحاولوا رده ؟ أم هم عرفوا بحي المدد وسيره للقائهم فخافوا أن يتخلّوا عن الحصن فيهاجمه المدد ويفتضه على من فيه ؟ لم يذكر المؤرخون ما يلقي شيئاً من النور على هذه المداورة البارعة ، وهذا الانسحاب الدقيق من الفيوم إلى هليوبوليس . وكل ما يذكره بترا استفاداً إلى مراجعته الكثيرة أن عمراً استطاع أن يعبر النهر ، إما عنوة وإما على غرّة من الروم . وأغلب الظن أنه عبر النهر في موضع أسفل من موضع أم دينين إلى الشمال منها . فقد علم بأن أمداد المسلمين سائرة في طائفتين ميمّة شطر « عين شمس » وهي « هليوبوليس » ، وعلم أن مقامه في الجانب الغربي مخطر . والحق أنه فزع خوفاً من أن يفطن الروم إلى الأمر ، فيحولوا بينه وبين الاتصال بالمدد الذي جاء به الزبير ، ولكن « تيودور » (قائد الروم) ضيع الفرصة على عادته ، فلم يضرب الضربة القاضية واستطاع عمرو أن يسير للقاء المدد ويبلغ عسكر المسلمين في هليوبوليس وقد امتلأت قلوب أصحابه عزّة وبشراً بما وفقوا له من الفوز في غزوتهم .

كانت عدّة المدد الذي أقبل ثمانية آلاف ، عليهم الزبير بن العوام ومعه عبادة ابن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلّد . وقد اغتبط عمر بمقدّمهم أيما اغتباط

فلو أنهم أبطنوا عليه أكثر مما أبطنوا لبلغ موقفه من الدقة ما يتعذر معه على أكثر القواد مهارة أن يغالبه ويغلبه . والحق أن المغامرة التي أقدم عمرو عليها ، منذ قدم مصر إلى أن جاءه المدد ، جديرة أن تعقد تاج الفخر على هامة أشد القواد مخاطرة وأعظمهم براعة ؛ فقد ظل يواجه الأخطار ويقتحمها ، ويدفع إلى النفوس اليقين بأن الروم لا حيلة لهم في قوم هزموا كسرى وقهروا قيصر . ألم يواجه جموع الروم في الفرما وفي بلبيس وفي أم دُنَيْن وفي الفيوم ، فلم يظفروا به مرة واحدة على حين ظفر هو بهم مرات ! . وفي هذه الأثناء كانت كُتُبُه إلى عمر باستمجال المدد لا تنقطع . وكان المدد الأول إليه قليلاً فلم يضعضع ذلك من عزمه ، ولم يبعث اليأس إلى نفسه ، بل كان يلتمس وجوه الحيلة للإبقاء على القوة المعنوية سامية بروح جيشه ، واثقاً من مضاعفة أمير المؤمنين المدد له ، ومن إنقاذ خُطته كاملة متى حانت الفرصة لإنقاذها .

وقد يتولانا العجب لإبطاء المدد عن عمرو كل هذا الزمن ؛ فقد كان انتصاره في الفرما وفي بلبيس قميناً أن يُعجِّل أمير المؤمنين بإمداده ، حتى لا يتعرض لمواجهة الروم في حصونهم المنيعه على النيل بجنده القليل . أترأى ظن أن قائده يقيم بالعريش أو بالفرما حتى يأتيه المدد ، وأنه لن يغامر بقتال عدوه وهو فيمن هو فيهم من الجند ، فلما جاءته الأنباء بانتصاره في الفرما وبمسيرته إلى بلبيس ، وبأنه يوشك أن يواجه الروم في عاصمة الفراعنة ، ندب الناس مدداً له ، ثم ضاعف هذا المدد من بعد وجعل على رأسه الزبير ابن العوام حين جاءته أنباء أم دُنَيْن وانتصار عمرو فيها ^(١) ؟

أياً ما يكن الأمر فقد كان الزبير يومئذ قد هم بالغزو وأراد أن يأتى أنطاكية . والزبير ابن عمه النبي وصاحبه ، وكان من أبطال العرب العدودين . فلما عرف عمر ما هم به دعاه

(١) اختلفت الروايات في المدد متى أرسل إلى مصر ، وهل أرسل دفعة واحدة أو دفعتين . وقد أورد بن عبد الحكم هذه الروايات وأخذها عنه أكثر المؤرخين . وإنما اخترنا الرواية التي في النص لأنها أكثر الروايات اتفاقاً مع سياق الوقائع . أما الروايات الأخرى فتجري إحداها بأن « عمر بن الخطاب أشفق على عمرو فأرسل الزبير في أثره في اثني عشر ألفاً فشهد معه الفتح » . ونجري رواية أخرى بأن عمر أمد عمرأ « بأربعة آلاف على كل ألف منهم رجل وكتب إليه : « لاني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم ، رجل مقام ألف : الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة ابن الصامت وخارجة بن حذافة واعلم أن معك اثني عشر ألفاً ، ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » .

وقال له : « يا أبا عبد الله ! هل لك في ولاية مصر ؟ » فأجاب الزبير : « لا حاجة لي فيها ، ولكنني أخرج مجاهداً والمسلمين معاونا ، فإن وجدت عمراً قد فتحتها لم أعرض لعمله ، وقصدت إلى بعض السواحل فإبطت به ، وإن وجدت في جهاد كفت معه » . ودعا له عمر وودّعه ، فسار على رأس الجيش حتى دخل مصر وجعل وجهته عين شمس . وكان اختيار عمر للزبير توفيقاً من أعظم التوفيق ؛ فقد عُرِفَ هذا البطل بشدة المراس وقوة الشكيمة منذ نشأته ، وكان إلى ذلك كريماً في الناس عزيزاً عليهم . أسلم وهو ابن ست عشرة سنة ، وهاجر إلى أرض الحبشة المهجرتين جميعاً . فلما سار إلى المدينة لم يتخلّف عن غزاة غزاها رسول الله . وقد بايع رسول الله على الموت في أحد . وندب النبي الناس يوم الخندق مَنْ يأتيه بخبر الأحزاب وبني قريظة ، فانتدب الزبير ، وندبهم الثانية فانتدب الزبير وندبهم الثالثة فانتدب الزبير ، فقال رسول الله : إن لكل نبي حوّارياً وحواريّ الزبير بن العوام » . وكانت مع الزبير إحدى رايات المهاجرين الثلاث يوم فتح مكة . لهذا كله أذناه النبي ومحضه الحب ، فلما خط الدّور بالمدينة جعل له بقيعاً واسعاً وأقطعه بخلا كانت من أموال بني النضير ، ورخص له في لبس الحرير . وقد أحبه أبو بكر وعمر كما أحبه رسول الله ، فأقطعه الصّدّيق الجُرف ، وأقطعه عمر العقيق أجمع ؛ بل لقد أحبه كل من عرفه ، وكان الجنود الذين يسرون في إمرته أشد الناس حباً له .

تخطى عمرو بن العاص النيل وسار إلى عين شمس ، واتصل بالزبير وبالمدد العظيم الذي جاء معه . وكان الزمن قد جرّ على عين شمس يومئذ ذيل العفاء ، فلم تبق « أون » مدينة الشمس الفرعونية العظيمة التي كانت كعبة العلوم والدراسات ، والتي عرفها أفلاطون وعرفها غيره من فلاسفة اليونان ، وتلقوا فيها المعرفة والحكمة ، ودرسوا بها الفلسفة والفلك ، ورأوا من سعة عمرانها وعظمة عمارتها وجلال معابدها ومسلاتها وتمائيلها ما ذكره « هيرودوتس » ، كما ذكر تبخّر رجال الدين بها في التاريخ المصري كله . فقد جرّت الإسكندرية وفلسفتها على عين شمس ماهوى بها وبمنف من ذروتها الرفيعة . فلما حكم الرومان مصر ثم دان أهلها بالمسيحية ، هجر العلم وهجر الفقه عين شمس إلى غير عودة ، ونقلت منها المسلات والتماثيل إلى طائفة من مدن الدلتا ، بل نقل بعضها عابراً البحر

الأبيض إلى رومية. وكذلك تدهور كل ما في مدينة الشمس بعد أن أضاءها العلم وأضاءتها الحكمة بنورها قرونًا طويلة ، يبقَ بها حين نزلها العرب من مجدها القديم إلا اسمها اليوناني « هليوبوليس » وإلا أسوار مهدمة وتماثيل مطمورة تحت الثرى ، ومسلة لاتزال قائمة ببلدة المطرية إلى يومنا الحاضر ، تدلّ شاهدها على موقع مدينة الشمس القديمة ، ويروى صمتها حديث ذلك العهد المجيد العظيم .

وقد اختار عمرو بن العاص أطلال عين شمس ، فعسكر بها وعسكر معه المدد الذي جاء مع الزبير بن العوام ؛ لأن هذا المسكان كان نهذاً من الأرض يسهل الدفاع عنه ، ولأنه كان فيه ماء كثير ، ومن حوله ميرة وفيرة تصلح لإمداد الجيش بالموثونة . فلما اطمأن إلى منازلها فيها ورأى من حوله خمسة عشر ألفاً وخمسمائة جندي أيقن أن ساعة الفصل بينه وبين الروم اقتربت ، فجمع أصحابه من أولى الرأى في الحرب وتداول معهم في خطة القتال . وكان أكبرهم أن يستخرج الروم من حصن بابليون ليقاتلهم في السهل . وسرعان ما جاءت عبونه بأن الله محقق عما قليل رجاءه ؛ فقد تداول تيودور أمير جند الروم مع أصحابه ، فرأوا أن مقامهم بالحصن يُظهرهم أمام المصريين مظهر الجبن والضعف ، ويفرى الناس بالانضمام إلى المسلمين ومعاونتهم . وقد كانت أعدادهم تفوق أعداد المسلمين ، وكانوا خيراً منهم عدّة . لذلك عزموا الخروج إلى العرب لمناجرتهم ، وأزمعوا السير إلى عين شمس لإجلالهم عنها . فلما عرف عمرو خططهم دبرَ للقائهم والقضاء عليهم ، فأخرج خمسمائة رجل ساروا تحت الليل من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل عند قلعة الجبل ، وأخرج خمسمائة آخرين جعل عليهم خارجة بن حذافة فساروا قبيل الصبح إلى أم دُنين (في حى الأزبكية الحالى) وزود هؤلاء وهؤلاء بأوامره . فلما تنفس الصبح سار هو من عين شمس على رأس قواته كلها حتى بلغ موضع العباسية في وقتنا الحاضر ، وهناك أقام ينتظر جموع الروم القادمة من حصن بابليون عند مصر القديمة .

وخرج الروم من حصنهم في الصباح الباكر ، وساروا بين الأديار والبساتين الحيطّة بالحصن من شماله الشرقى . وإنهم ليتقدمون إلى ناحيه عين شمس إذ بلغهم أن عمرًا انحدر منها في صحبة يريد لقاءهم . وقد استخلفوا الطرب لذلك ، وأيقنوا الظفر به ، وتعاهدوا

فما بينهم على القتال حتى الموت . فلم يكن عندهم من شبهة في أنهم إن يفتهم النصر ذلك اليوم فقد اندك صرحهم ودالت دولتهم في هذه البلاد الغنية المعطاء . والتقى الفريقان ، فأنشبوا القتال وعضّوا على النواجذ والتحموا وعلّاهم غبار المعركة ، ولا يريد أيهم أن يفصلوا حتى تفصل الحرب بينهم . وإنهم كذلك إذ انحدرت الكتيبة المختبئة في مغار بني وائل تهوى من الجبل فقعصف بمؤخرة الروم عصفاً . ولم يكن الروم على علم بهذه المكيدة ؛ لذا تولّاهم الفرع لما أصابهم ، فاضطربت صفوفهم وتقهقروا متياسرين نحو أم دُنين . عند ذلك خرج السكين الآخر إليهم فأمعن فيهم قتلاً ، فخيّل إليهم أن ثلاثة جيوش من العرب تقاتلهم من ثلاث نواح مختلفة ، وأنهم لا أمل لهم في المقاومة ، فأنحلّ نظامهم ولاذ أكثرهم بالحرب يطلبون النجاة من سيوف العرب . وبلغت طائفة من الفارين الحصن فلاذت به ، وساق الفرع طائفة إلى النهر فنزات السفن تلتمس النجاة في حمى الماء حتى تباغ الحصن على ظهره ، وكان عدد الذين هلكوا في الموقعة وفي الطلب أجلّ من أن يُحصَى . ورأى العرب ما أصاب عدوهم من الفرع ، فالوا إلى حصن أم دين فاستولوا عليه ككرة أخرى . وكذلك انتصر المسلمون في هذه الموقعة التي يسميها المؤرخون موقعة عين شمس نصراً حاسماً وطّد أقدامهم على ضفاف النيل ، وأراهم مصر كلها في قبضة أيديهم .

وكيف لا يرونها في قبضة أيديهم وقد علموا أن الذين هربوا إلى حصن بابليون لا نذير به لم يلبثوا حين سمعوا بهلاك من هلك من جيش الروم أن فرّوا من ملجئهم وركبوا السفن ، وساروا في الفرع الغربي للنيل (فرع رشيد) حتى بلغوا حصن نقيوس إلى الشمال من منوف . ولئن بقيت مع ذلك بالحصن مسلحة قوية وُكل إليها الدفاع عنه ، لقد أشاع انتصار المسلمين من الفرع في الناس جميعاً مادفع إلى نفوسهم اليقين بأن النصر كتب لهؤلاء الغزاة لا محالة . وكان تصرف عمرو بعد الموقعة مما زاد الناس بهذا الأمر إيماناً ؛ فقد سار إلى مدينة مصر فاستولى عليها بغير قتال ، ولم يستطع الجيش الذي بالحصن أن يمد لها يد معونة كما كان يفعل من قبل ، ثم نقل عسكره من عين شمس فأنزله في شمال الحصن وشرفه بين البساتين والكنائس ، في المكان الذي أقام فيه القُسطاط من بعد .

وجاءته الأنباء بأن حامية الروم بالفثيوم فرّت إلى « نقيوس » حين علمت بنصر المسلمين فجّهزت كتيبة عبرت النهر وسارت في طريق الصحراء ، فاستولت على إقليم الفيوم كله . ولم يكتف بهذا ، بل أرسل قوة أخرى إلى جنوب الدلتا ، فاستولت في إقليم المنوفية على أثريب ومنوف . لهذا كله آمن الناس بأن النصر قد حالف الغزاة . فخشعت نفوسهم وخضعوا طوعاً أو كرهاً لما فرضه عليهم عمرو من الأموال والميرة ، وبخاصة بعد أن رأوا الحُكام من الروم يؤتى بهم بأسره مجموعة أيديهم في الأصفاد وأرجلهم في القيود . واستولى الروع على كثيرين وأفزعتهم رهبة الغزاة الفاتحين ، ففرّوا إلى الإسكندرية زرافاتٍ يخطئها العدو ، يرجون أن يجدوا في حصونها وأسوارها ملجأ ، ويطمعون في أن يُمدّها قيصر من البحر بقوّات تمكّنها من دفع الغزاة القاهرين .

لم يُبْطِر الظفر عمراً ، ولم يُغْرِه بالسير إلى الإسكندرية ليفتحها قبل أن يفتضّ حصن بابليون على من فيه . فلو أنه فعل لا ضُطرّ إلى توزيع قواته ليذر جانباً منها على حصار الحصن وليسير بسائرهما إلى الشمال على فرع النيل يقاتل حتى يبلغ العاصمة . وفي هذا التوزيع من الخطر ما لم يغب عنه ؛ فقد كثرت القوات اللائذة بالحصن ، وأصبح في مقدورها الذود عنه ، لاسيما أنها كانت مهددة بالغناء إذا فتح العرب أبواب الحصن ودخلوه عليها عنوة ، فلم يكن لها بدّ من أن تقاتل قتال المستميت . ولئن كانت روحها المعنوية قد تضعّعت ، لقد كانت ترجو أن يفتق طول الحصار الحيلة لهرقل أو لقواد الروم بالإسكندرية فيُمدّوا الحصن ويُنقذوا من فيه . ولم تكن هذه القوات في ريب من أن الحصار سيطول ؛ فقد تقدّم الصيف وبدأ فيضان النيل وارتفاع مياهه ، فلم يكن في مقدور المسلمين أن يجتازوه أو يهاجموا الحصن على متنه ، ولم يكن لهم بدّ من انتظار هبوط الفيضان . فليصبرُ حُمَاة الحصن وليصابروا ، فكثيراً ما غيّرت المفاجآت سير الحرب . والظفر في كل حرب لأطول الجند صبراً وأكثرهم احتمالاً .

عزم عمرو محاصرة الحصن ، وعزم اللاجئون إليه الدفاع عنه أو يبيدوا دونه . وقوى عزيمتهم على الاستماتة في الدفاع ما كانت عليه أسوار الحصن وأبراجه من منعة لا تُنال . فهذا الأثر الذي لا تشهد أعيننا منه اليوم في مصر القديمة إلا أطلالا دوارس

لأسوار متهدمة وبقايا محطمة لبرجين بينهما باب قديم ، قد كان حين الفتح العربى قلعة رومانية من أمتع القلاع وأقواها . كانت أسواره ترتفع نحو ستين قدما ، وكان سمك هذه الأسوار ثمانية عشر قدما ، وكانت صروحها تزيد على الأسوار إرتفاعا ، وكان فى كل صرح سلم صاعد إلى أعلى البناء يشرف الناظر منه على جبل المقطم من الشرق ، وعلى الجزيرة والأهرام وصحراء لوبيا من الغرب ، ويرى منه مجرى النيل إلى مسافات بعيدة من الشمال ومن الجنوب . وكان النيل يبلغ باب الحصن الأكبر ، فكانت السفن الرماومانية ترسو عنده إلى جانب درج يهبط منه إليهما . وكان هذا الباب الأكبر مصنوعا من الحديد أو مصفحا به فكان اقتحامه مستحيلا لثباته ولحماية السفن له . هذا إلى أن جزيرة الروضة القائمة وسط النهر كانت بها حصون قوية تزيد حصن بابليون منعة وقوة . وكان فى داخل الحصن آبار يستقى منها سُحاته ، كما كانت المزارع والحدائق الممتدة من حوله تمتد بالميرة الوفيرة . وكان يحيط بالحصن خندق عليه قنطرة متحركة لا يستطيع فتحها أو تحريكها إلا من داخله . لهذا كله أمنت القوات المتحصنة به جانب العدو ، وأطمأنت إلى مقدرتها على الدفاع عنه حتى يأتيها المدد أو تحدث مفاجأة من مفاجآت الحرب تردّ العرب على أعقابهم .

حاصر عمرو الحصن ومن فيه . وكان يعلم أن الحصار قد يطول بسبب ارتفاع النهر وتدفع تياره ، ولناعاة الحصن وقوة أسواره . لكنه كان يعلم كذلك أن الفيضان لن يدوم إلا شهرا أو شهرين فمناجزة القوم فى أثنائهما كفيلا بأن تزيد روحهم ضعفا . ثم إن تدفع التيار بسبب الفيضان يجعل مجىء المدد على النيل من نقيوس أو من الإسكندرية إلى الحصن أمرا عسيرا . فإذا تعاقبت الأيام والأسابيع ويئس سُحاة الحصن من المدد ازدادت روحهم ضعفا فذهبت ريحهم . فإذا ثبتوا مع ذلك حتى ينزل الفيضان أصبح اقتحام الحصن عليهم أمرا مستطاعا .

كان المقوقس بالحصن^(١) منذ ابتداء الحصار . وكان على إمرة جنود الحصن خالد

(١) يطلق المؤرخون على هذا الحصن اسم بابليون وباب إليون وقصر الشمع . يقول ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة : وسار عمرو حتى بلغ بابليون ، ويقول : وكان على القصر (يعنى قصر الشمع الذى بمصر القديمة) رجل من الروم . وابن عبد الحكم يذكر الاسم أكثر الأمر على أنه باب لبون =

رومى يسميه مؤرخو العرب « الأعرج » ، ويحسب بقل أن هذه التسمية تحريف منهم لاسم « جورج » . وكان جند الحصن كلهم من الروم إلا قليلا من القبط لعلهم كانوا في خدمتهم . وكان الروم بالحصن يرمون العرب بالمجانيق ، فيجيبهم العرب بالحجارة والسهم . ودام الحصار على ذلك شهراً والعرب لاتهم لهم عزيمة ولا ينفذ لهم صبر . ورأى المقوقس وأصحابه أن الليل قد بدأ فيضائه ينزل ، إذ كان شهر أكتوبر من سنة ٦٤٠ قد بدأ ، فاجتمعوا في سر من معهم وتشاوروا في الأمر وبسط لهم المقوقس رأيه . وكان يرى أن المدد لن يأتي ليرفع عنهم الحصار قبل أشهر ، وأن العرب سيضيقون عليهم الخناق في هذه الأثناء ويُرهم قنهم بألوان البأساء . وكيف لا يفعلون وقد قضوا من قبل على جيوشهم في الفرما وبليس وأم دُنَيْن والقيوم وعين شمس ! وهام أولاء يحاصرونهم بما لا قبل لهم به . أليس خيراً لهم أن يفتدوا أنفسهم بالمال ليرحل هؤلاء العرب عنهم ولتعود مصر إلى ملك الروم ؟ وما زال المقوقس يسوق الحجج في بيان ساحر حتى انضم الحاضرون جميعاً إلى رأيه . لكنهم رأوا أن من الخير أن تجرى المفاوضة مع العرب سرّاً حتى لا يقف أحد من المدافعين عن الحصن على شيء من أمرها ، وأن يتولوا المقوقس بنفسه وتسلسل المقوقس وجماعة من أصحابه من الحصن تحت جناح الليل ، وركبوا السفن إلى جزيرة الروضة فلما بلغها أرسل إلى عمرو بن العاص برسالة مع أسقف بابليون وجماعة معه يقول فيها :

« إنكم قد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا ، وطال مُقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عُصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العُدّة والسلاح ، وقد أحاط هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما نحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعا الكلام ولا تقدر عليه . ولعلكم أن تندموا إن

== ويقول البلاذري : وكان اسم المدينة البونة فسموها المسلمون فسطاطاً . ويدكر بقل أن اسم الحصن باللغة القبطية كان « بابليون — أن — خيمي » ومعناه بابليون مصر . ويروى أن القيصر تراجان بنى الحصن في جوار حصن قديم كان يطلق عليه اسم بابليون قروناً طويلة قبل أيام تراجان ، وأن السبب في تسميته أن جماعة من أسرى بابل جاء بهم سيزوستريس كانت مقبلة فيه . وثم راويات أخرى في سبب هذه التسمية يطول شرحها .

كان الأمر مخالفاً لطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء . »

وانتظر المقوقس أن يعود إليه رسله في اليوم نفسه بردّ عمرو ، فما كان هذا الرد ليزيد على قبول المفاوضة أو رفضها . فإن رُفِضَتْ : عاد كلٌّ إلى موقفه وعاد القتال كما كان ، وإن قُبِلَتْ اختار كل فريق مفاوضيه ابتغاء الوصول إلى صلح إن أمكن . لكن رسل المقوقس حبسوا عنه يومين كاملين ، تخاف عليهم وقال لأصحابه : أترون القوم يحبسون الرسل أو يقتلونهم ويستحلون ذلك في دينهم ! وإنما أراد عمرو بحبسهم أن يريهم حال المسلمين . ولقد عادوا بعد يومين يحمل رئيسهم رسالة عمرو إلى المقوقس يقول فيها :

« إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا . وإما أبيتُم فأعطيتُم الجزية عن يد وأتم صاغرون . وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو غير الخاكين . »

دهش المقوقس لما سمع ؛ فليس هذا جواب من يريد المفاوضة ، بل هو جواب المنتصر يريد أن يفرض حكمه . أترى بلغ من هؤلاء القوم الغرور أو بلغت منهم الثقة بالنفس فليس إلى إغرائهم بالمال أو بغير المال سبيل ! وسأل رسله كيف رأوهم ؟ فأجابهم رئيسهم : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة . ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . وإما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كأنه واحد منهم ؛ ما يُعرَفُ رفيعهم من وضيعهم ؛ ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلّف عنها منهم أحد ؛ يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم . »

أطرق المقوقس حين سمع هذا الوصف ، ثم رفع رأسه وقال لأصحابه : والذي يُخَلَفُ به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد ! واثن لم نفتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكفتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم : »

أترى هوَى الضعف بنفس المقوقس فأملى عليه هذا الجواب ؟ أم كان يطمع في إغراء

العرب بعرض سخي يستهويهم فيرضونه ويرحلون عن أرض مصر؟ الجواب عن هذا وذاك تنطق به الحوادث من بعد؛ فقد ردّ المقوقس رسله إلى المسلمين يقول لهم: «ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم وتتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم». ولم يرتض عمرو ما طلب إليه، فبعث عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت، وكان أسود اللون ضخماً طويلاً، وأمره أن يكلم القوم، وألا يجيبهم إلى شيء دغوه إليه. إلا إحدى هذه الخصال الثلاث. ودخل القوم على المقوقس وأراد عبادة مخاطبته، فلما رآه قال: «نحوأعنى هذا الأسود وقدّموا غيره يكلمنى». ولعله أراد بهذا أن يوقع بينهم. لكنهم أجابوه جميعاً بأنهم يرجعون إلى قول عبادة ورأيه: وتكلم عبادة وذكر ما أمر الله ورسوله المسلمين به من الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجهاد في الله، وحب الاستشهاد في سبيله. وأعجب المقوقس بكلامه، وأبدى إعجابه لأصحابه، ثم قال لعبادة: «لقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدّة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل. وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم لضعفكم وقتلكم. وقد أقم بين أظهرنا شهراً وأنتم في ضيق وشدّة من معاشكم وحالكم. ونحن نرق عليكم لضعفكم وقتلكم وقلة ما بأيديكم، وتطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نعرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار وتخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قوّة لكم به».

هذا كلام يجمع إلى الوعد الوعيد، وإلى الإغراء التهديد؛ فهذه ثلاثون ألف دينار تعرض على عبادة ثمنًا للانصراف عن الحرب، فإن أباهها كان مهدداً بمدد الروم الذي يتكلم المقوقس عنه. ولكن أوامر عمرو إلى عبادة كانت صريحة، وكان عبادة شجاعاً لا يهاب الموت. لذلك أجاب المقوقس مزدرباً جمع الروم وعددهم، ذاكراً قوله تعالى: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)، وأن كل رجل من المسلمين يدعوه ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة، وأنهم إلى ذلك في أوسع السعة من معاشهم وحالهم. «فانظر الذي تريد فبيننا وبيّنك خصلة قبلها منك أو نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل.

بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبلُ إلينا . » ثم ذكر له أنهم إن أسلموا انصرف العرب عنهم ، وإن أبوا الإسلام وأدّوا الجزية أدخلهم المسلمون في حمايتهم ودافعوا عنهم ، وإن أبوا الإسلام والجزية جميعاً فليس إلا الحرب تفصل بين الفريقين .

حاول المقوقس عبثاً أن يصرف عبادة إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث ، والتفت إلى من معه يستطلع رأيهم فأبوا إجابة المسلمين إلى شيء مما طلبوا ؛ فانصرف عبادة وأصحابه لم يغيروا مما قالوه حرقاً . وعاد المقوقس ينصح أصحابه بمصالحة المسلمين ، فسألوه : أى خصلة نجيبهم إليها ؟ قال : « إذا أخبركم أمّا دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به . وأما قتالهم فأنّا أعلم أنكم لن تقوّوا عليهم ولن تصبروا صبرهم ، ولا بدّ من الثالثة » . قالوا فنكون لهم عبيداً أبداً . قال : « نعم ! تكونون عبيداً مسيطرين في بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذرائعكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم أو تكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا في البلاد مُستعبدين أبداً أتم وأهلكم وذرائعكم » . قالوا : الموت أهون من هذا ! وعادوا إلى الحصن وقطعوا الجسر من الجزيرة ، وعادت الحرب بينهم وبين المسلمين .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ يقول مؤرخو العرب : « فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على مَنْ بالقصر حتى ظفروا بهم وأمكن الله منهم ، فقتل منهم خلق كثير وأسر من أسر منهم ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة » . ويقول بئر . « ويظهر لنا أن كبار الروم طلبوا أن يهادنهم العرب شهراً ليروا رأيهم ، فأجابهم عمرو جواباً قاطعاً أنه لن يمهّلهم أكثر من أيام ثلاثة . غير أن عمل المقوقس لم يلبث أن ذاع في الناس ، فنثار ثائره وأبى جند الإمبراطور إلا القتال ، فما انتهت أيام الهدنة الثلاثة حتى أخذ أهل الحصن يتجهّزون للخروج إلى المحاصرين يناجزونهم ، ولم يبعثوا رداً إلى عمرو . وخرجوا إليه بغتة فوق قناطرهم فأخذوا جنود المسلمين على غرّة . ولم تُذهل تلك البغته العرب ، فأسرعوا إلى سلاحهم وقتلوا الروم قتلاً شديداً ، وقتلهم الروم يومئذ مستبسلين . غير أن العرب تواردوا إليهم منذ نذروا بهم فتكاثروا عليهم ، فما استطاعوا إلا أن يتراجعوا إلى الحصن بعد أن قُتلت منهم مقتلة عظيمة » .

ليس بين الروايتين فيما نرى خلاف . وكلاهما متفق على أن العرب أحرزوا هذا النصر بعد أيام معدودة من مفاوضة عبادة بن الصامت والمقوقس . ولم يُردِّ المقوقس أن يُضيع الفرصة فعاد إلى قومه يحدثهم في ضرورة الإذعان لما طلبه العرب من الجزية ، وأقره القوم كارهين . فبعث إلى عمرو يذكر له أنه لا يزال على رأيه في مصالحته ، « فأعطني أماناً أجتَمِعُ أنا وأنت ، أنا في نفر من أصحابي ، وأنت في نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعاً ، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه » . وأبى أصحاب عمرو ماعرضه المقوقس ، وآثروا الحرب حتى تصير الأرض كلها لهم فيثا وغنيمة . فقال لهم عمرو : قد علمتم ماعهد إلى أمير المؤمنين في عهده ؛ فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إلى فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم ، مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم . وقد كان هذا الرأي من عمرو رأى السياسى الحنك والقائد البارع ؛ فقد أهدق الماء بالمسلمين من كل وجه ، وصاروا لا يقدرّون على أن يتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى فدفعهم إلى القتال خطأ في التقدير ، وانتظارهم هبوط الماء قد يتيح للعدو فرصة وقد يهيء للإسكندرية إمداده . ثم إن الروم في الحصن قد تضعضعت قواهم وخارت عزائمهم ، فمن حسن الرأي مفاوضتهم وهم فيما هم فيه من هذه الحال النفسية ، حتى لا يبعث اليأس إلى نفوسهم قوة التجلّد والاستماتة ، ولهم من مناعة الحصن ملجأ يستطيعون المقام فيه زمناً طويلاً .

وتصالح عمرو والمقوقس على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين على كل نفس شريفهم ووضعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، وعلى أن للمسلمين منهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرّهم وبحرهم ، وألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

عقد هذا الصلح وعلق نفاذه على رضا الإمبراطور به ، وأخذ المقوقس على نفسه أن يبعث به إلى هرقل . واتفق الفريقان على أن تبقى جيوشهما حيث هي حتى يجيء ردّ

قيصر ، وأن يبقى الحصن مع الروم إلى ذلك الحين . وركب المقوقس النهر إلى الإسكندرية ، ومنها بعث بتفصيل ما حدث إلى القسطنطينية . مصحوباً بمذكرة ضافية طلب في ختامها إلى هرقل إقرار الصلح حتى يكفي مصر شر الحرب وويلاتها . ودار هرقل حين اطلع على المذكرة وعلى الوثائق ، فلم يعلم منها أكان الصلح خاصاً بحصن بابليون ، أم كان مداه ترك مصر كلها للعرب ؟ وهل يبقى العرب في البلاد بعد أخذ الجزية أو يرحلون عنها ؟ لذلك استدعى المقوقس إليه يجلو له ما اشتبه عليه . وحاول المقوقس حين لقيه أن يهون الأمر ، فذكر له أن العرب قد يُحْمَلُونَ على الخروج بعدُ من مصر . فلما أخبره الإمبراطور بالسؤال لم يجد خيراً من الحقيقة يصارحه بها ، فقال له : « لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم في القتال لعرفت أنهم قوم لا يُغلبون . فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوةً وتصبح البلاد غنيمة لهم » .

لم يكن هرقل بالذي يجهل قوة العرب وبأسهم ؛ فقد بلا من ذلك في الشام من سنوات عدة ما لم ينسه وما لا يمكن أن ينساه . لكنه لم يتوقع قط أن تدور الدائرة على جيوشه في مصر ، وأن تدور عليهم بهذه السرعة . فالعوامل الجنسية والجغرافية التي أعانت العرب في الشام لأشياء من مثلها في وادي النيل . وهو أعرف الناس بحصن بابليون ، وأنه أمنع من أن يقال منه محاصر ما حسنت قيادة المدافعين عنه . وقد كان له بمصر مائة ألف من الجند يقاتلهم اثنا عشر ألفاً . فكيف يَغْلِب هذا العدد القليل الذي يسير في الصحراء تلك القوات الضخمة المتحصنة في أسوار متينة وقلاع مملوءة عتاداً ! . لا بدّ في الأمر من سرٍّ هو الذي أدّى إلى النكبة النكراء التي أصابته في صميم ملكه . لهذا ناثرتهم ، فاتهم المقوقس بأنه خان الدولة وتخلى للعرب عن مصر ، وحكم عليه بأنه مرتكب تجرم . ووصفه بالجن والكفر ، وأسلمه إلى حاكم المدينة فشهّر وأوقع به المهانة ، ثم نفاه من بلاده طريداً .

لم يكن هرقل غالباً حين ثارت بنفسه الهواجس وتولاه الريب في الأسباب التي أدّت إلى هزيمة جنده . ولسنا نقصد من هذا القول إلى الحسك على المقوقس بأنه تعمّد خيانة الدولة ، وإنما نقصد إلى أن الحصن كان يستطيع أن يقاوم وألا تنزل بمحاته أية هزيمة

لو أن قائده كان قادراً فلم يُعْرَضْ مَنْ فِيهِ لَلْقَاءِ الْعَرَبِ فِي مِيدَانِ مَكشُوفٍ ، وَاكْتَفَى بِأَنْ يَسُدَّ إِلَيْهِمُ الْفِيلَ وَالْجَانِيقَ . وَلَا أُدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا حَدَّثَ بَعْدَ نَفْيِ الْقَوْسِ . فَقَدْ رَفَضَ هِرَقْلُ إِقْرَارَ الصَّلَاحِ مَعَ عَمْرُو ، وَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ بِمَصْرِ هَذَا الرِّفْضِ فِي الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ مِنْ دَيْسَمْبَرِ سَنَةِ ٦٤٠ ، فَانْتَهَتْ الْمُدَّةُ وَعَادَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ . وَكَانَ حِمَاةُ الْحَصَنِ قَدْ قُلَّ عَدَدُهُمْ ، وَلَمْ يَأْتِهِمْ مَدَدٌ مِنْ أَيْةِ نَاحِيَةٍ ، وَكَانَتْ الْأَحْوَالُ كُلُّهَا مُوَائِيَةً لِلْعَرَبِ ؛ فَقَدْ انْتَهَى الْفَيْضَانُ وَهَبَطَ مَاءُ النَّيْلِ ، وَغَاضَ الْمَاءُ مِنَ الْخَنْدَقِ الَّذِي حَوْلَ الْحَصَنِ ، وَأَصْبَحَ فِي مَقْدُورِهِمْ مَهَاجَتُهُ . غَيْرَ أَنَّ الرُّومَ أُلْقُوا فِي الْخَنْدَقِ حُسْكَ الْحَدِيدِ عَوْضًا عَنْ مَائِهِ ، وَجَعَلُوا هَذَا الْحُسْكَ كَثِيفًا عِنْدَ مَدْخَلِ أَبْوَابِهِ ، فَصَدَّ هَذَا الْعَمَلُ الْعَرَبَ عَنِ التَّقَدُّمِ لِمَهَاجَةِ الْحَصَنِ وَأَخَذَهُ عَنُوتُهُ وَأَبْقَاهُمْ خَوْلَهُ شَهْرًا عِدَّةً اقْتَصَرَ الْأَمْرُ أَثْنَاءَهَا عَلَى تَرَامِي الْفَرِيقَيْنِ بِالْجَانِيقِ وَالسَّهَامِ . وَلَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِ حِمَاةِ الْحَصَنِ غَيْرُ هَذَا ؛ وَلِذَا رَدَّاهُمْ الْعَرَبُ إِلَى الْحَصَنِ كُلَّ مَرَّةٍ خَرَجُوا فِيهَا مِنْهُ يَحَاوِلُونَ لِقَاءَهُمْ . وَكَذَلِكَ تَصَرَّعَتْ أَشْهُرُ الشِّتَاءِ وَالْحَصَنِ يَقَاوِمُ . فَلَوْ أَنَّهُ جَاءَ الْمَدَدُ مِنْ نَقْيُوسٍ أَوْ مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَلَوْ أَنَّ هِرَقْلَ بَعَثَ مِنْ لَدُنْهُ بِقَائِدٍ مِنْ مَهْرَةِ قَوَادِهِ عَلَى قُوَّةٍ مِنَ الْجُنْدِ لِلدِّفَاعِ عَنْهُ ، لِتَغْيِيرِ وَجْهِ الْمَوْقِفِ ، وَلَلِقَى الْمُسْلِمُونَ فِي الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى هَذِهِ الْمَنْطَقَةِ الْمُنِيْعَةَ مَشَقَّةً كَبِيرَةً . لَكِنِ الْمَرَضُ فَتَكَ بِأَهْلِ الْحَصَنِ وَلَمْ يَأْتِهِمُ الْمَدَدُ ، وَكَانَتْ عَيُونُهُمْ تَضَعُدُ كُلَّ يَوْمٍ فَوْقَ أَبْرَاجِهِ فَلَا تَرَى إِلَى أَيْمَدِ حُدُودِ الْأَفْقِ لِهَذَا الْمَدَدِ أَتْرَأَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانَتْ تَبْلُغُهُمُ الْأَنْبَاءُ كُلَّ يَوْمٍ بِأَنَّ الْعَرَبَ يَشْتُونُ الْغَارَاتِ عَلَى مَا حَوْلَهُمُ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَقْبَلَ شَهْرُ مَارَسٍ مِنْ سَنَةِ ٦٤١ وَجَفَّ مَاءُ النَّيْلِ أَوْ كَادَ . وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ جَاءَتْ الْأَنْبَاءُ بِمَوْتِ هِرَقْلٍ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ فَبْرَايِرِ سَنَةِ ٦٤١^(١) فَاضْطَرَبَ الرُّومُ لِمَوْتِهِ أَيْ اضْطَرَابَ . مَعَ ذَلِكَ بَقِيَ الْحَصَنِ يَقَاوِمُ ، وَبَقِيَ الْأَمَلُ يَدَاعِبُ نَفُوسَ حِمَاةِهِ بِمُجِيءِ الْمَدَدِ لِإِنْقَاذِهِ .

وَكَانَتْ نَكْبَةُ هِرَقْلٍ فِي مَصْرِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي عَجَّلَتْ مَمِيتَهُ ؛ فَقَدْ حُمِّ بِعَدِّ لِقَاءِهِ

(١) يَذْكُرُ بَتْلَرُ أَنَّ هِرَقْلَ مَاتَ فِي ١١ فَبْرَايِرِ سَنَةِ ٦٤١ ؛ وَفِي تَارِيخِ الْمُؤَرِّخِ أَنَّهُ مَاتَ فِي مَارَسٍ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ . « وَالْاضْطَرَابُ مِثْلُ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَثُولُهُ فِي غَيْرِهِ » عَلَى تَعْبِيرِ بَتْلَرِ نَفْسِهِ . لَكِنِ الْاِخْتِلَافُ لَا يَتَجَاوَزُ شَهْرِيَّ فَبْرَايِرِ وَمَارَسٍ سَنَةِ ٦٤١ عِنْدَ الْمُؤَرِّخِينَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ .

المقوقس وأعجزه الاضطراب عن التفكير في إمداد بابليون أو تنظيم الدفاع عنها . ولم يفكر أحد غيره في هذا الأمر أن كانت الدولة كلها ترزح تحت عبء ثقل من عار هزيمتها منذ استولى العرب على دمشق وعلى بيت المقدس ، وطرّدوا الروم من الشام وساروا ينشرون الفزع في أرجاء مصر . على أن متانة أسوار الحصن وأبراجه طوّعت للذين ظلوا على قيد الحياة من حُماته أن يشتتوا للغزاة إلى آخر شهر مارس والأيام الأولى من شهر أبريل . ولقد ضاق العرب ذرعاً بالشهور السبعة التي انقضت منذ حاصروا الحصن ، فهانت عليهم الحياة وهانت عليهم أنفسهم ، وذكروا فعال خالد بن الوليد بدمشق ، وسعد بن أبي وقاص بالمدائن ، ونعيم بن مقرن بنهاوند ، فلم يروا أن يكونوا دون هؤلاء الأبطال بإقداماً وجراً . وكان الزبير بن العوام أشدهم حماسة وأكثرهم على الموت في سبيل الله إقبالاً ، فقام في الناس فقال : « إني أهب نفسي لله ، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » . ثم أقبل بعد أيام تحت جناح الليل مع كتيبة آزرته فطمّوا الخندق المحيط بالحصن في موضع اختاروه ووضعوا سلماً على السور علاه الزبير بعد أن أمر أصحابه إذا سمعوا تكبيره أن يرقوا إليه وأن يجيبوه جميعاً . واستوى الزبير بأعلى الحصن وانطلق يكبرُ وسيفه يلع في يده ، فتبعه أصحابه وصعدوا السلم وساروا إلى جانبه وكبروا معه ؛ وأجاب المسلمون من خارج الحصن تكبيرهم ، فلم يشك الروم في أن العرب قد اقتحموا الحصن فخرجوا ، وعهد الزبير إلى باب الحصن ففتحه ودخل المسلمون واستولوا على ما فيه .

هذه رواية . وتذهب رواية أخرى بتل عن الطبري إلى أن الزبير علا الحصن مع أصحابه ، وأناموا من كان هناك من حرسه وملكوا رأسه وأرادوا الهبوط إليه فألقوا حُماته بنوا حائطاً تعترض المشى الذي فوق السور من تلك الناحية فأقاموا حيث كانوا . فلما بكر الصبح عرض قائد الجند في الحصن على عمرو أن يسلمه إليه على أمان من فيه من الجند . واعترض الزبير على الصلح وقال لعمرو : لو صبرت قليلاً لنزلت من السور إلى داخل الحصن ، ولسكان الأمر على ما نشتهي ، ولم يقف عمرو عند قوله ، بل كتب عهد الصلح مع قائد الحصن ، على أن يخرج الجند منه في ثلاثة أيام فيركبوا النهر ومعهم قوتهم لبضعة أيام ، تاركين الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب للمسلمين . والطبري لا يورد مثل

هذا التفصيل . على أن المؤرخين المسلمين جميعاً يذكرون أن عمرأ أجاب المقوقس إلى الصلح على الجزية بعد أن اقتحم المسلمون الحصن . فإذا صح أن المقوقس لم يكن بالحصن وكان قد نفى بعد ذهابه إلى هرقل ، فلعل قائد الحامية هو الذى صلح عمرأ على ما جاء فى رواية بئر .

خرج جند الروم من الحصن فى اليوم السادس من شهر أبريل سنة ٦٤١ من ميلاد المسيح ؛ لكنهم أبوا ، فى هذا اليوم الذى انسحبوا فيه يحل هاتهم الخزى والعار ، إلا أن يحملوا منه للمصريين يوم نواح وحسرة ؛ فقد سجبوا القبط الذين سجنوهم داخل الحصن أثناء الحصار ، وقطعوا أيديهم ، ونكّلوا بهم تنكيلا أثار الأسقف المصرى حنّاً . النقيوسى مؤرخ ذلك العهد ، وحمله على أن يسبهم فى ديوانه وأن يسميهم : « أعداء المسيح الذين دسّوا الدين برجس بدعهم ، وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلا عبدة الأوثان ولا الهمج ، وعصّوا المسيح وأذلّوا أتباعه ، فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان » .

خلص الحصن للمسلمين بعد خروج الروم منه ، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من مراحل الفتح العربى لمصر . ولقد كان لهذه المرحلة من الخطر ما تشهد به الحوادث التى وردت فى هذا الفصل . وقد استطاع عمرو بأناته وحكمته وحسن رأيه أن يدور حوله هذا الخطر حيناً ، وأن يقتحمه حيناً آخر ، حتى اجتازه آخر الأمر رافعاً لواء النصر والظفر . فلندعه الآن يجلس بين جنده يحثّون جميعاً ، ثم يدبّر هو لتنظيم ما فتحه من الأقاليم ، ليكتب بعد ذلك إلى عمر يستأذنه فى السير إلى الإسكندرية .

ولم يكن لديه ريب ، يوم بعث يطلب هذا الإذن ، فى أن الله قد مهّد له السبيل . لإدراكه بغيته ؛ فقد رأى من كراهية القبط للروم ، ورأى من تخاذل الروم وضعفهم ، ما ثبت فى نفسه اليقين بأن عاصمة الإسكندر الأكبر ستفتح أبوابها أمامه ، وستتلقاه كما تلقت يُلْيُوس قيصر وأنطونيوس من قبل ، وأنه سيجلس بها على عرش البطالسة . والرومان ، كما جلس سعد بن أبى وقاص بالمدائن فى إيوان الأكَاسرة من بنى ساسان . ولعله كان يستعجل إذن أمير المؤمنين بالسير بعد أن رأى جيشه قد جم ، ورأى الأرض

من حوله دانت له . فقد أمر بعد ما استتب له الأمر ، فأقيم جسر من السفن بين الحصن
وجزيرة الروضة ، وبين الجزيرة والجيزة ، فوصل بذلك بين شاطئ النهر ، وتيسر له
الإشراف على ما يجري فيه من السفن والبضائع . ثم إنه نشر جنوده فيما استولى عليه من
الأقاليم ، فرأى القبط من جنود الحرس الوطنى ينظرون إليهم شزراً ويقولون : ما أرت
العرب وأهون عليهم أنفسهم ! ما رأينا مثلاً دان لهم ؛ نخاف أن يثير هذا الأمر القبط بهم
فأمر بـجُزُرٍ فذُبجت وطبخت بالماء والملح ، ودعا القبط فأجلسهم إلى جانب جنده من
العرب ، فجعل العرب يحتمسون المرق وينهشون اللحم على نحو زاد زراية القبط عليهم ،
وزادهم طمعاً فيهم . فلما كان الغد أمر بطعام من ألوان مصر فصنع ، وأمر جنده أن يجيئوا
في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، ودعا القبط كما دعاهم أمس ، فأكل العرب أكل أهل
مصر ونحوها نحوهم ، فنفترق القبط بعد الطعام وقد راهبهم ما رأوا . ثم أمر عمرو جنوده
بكرة الغداة فتسلحوا للعرض فعرضهم على أعين القبط ، ثم قال لهؤلاء : إلى قد علمت
أنكم قدر أيتم في أنفسكم . أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم ، فخشيت
أن تهلكوا ، فأردت أن أريك حالهم . وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم .
ثم حالهم في الحرب . فنفترق القبط وهم يقولون ؛ لقد رميتكم العرب برجلهم . وفي رواية
أنهم قالوا : إن العرب قوم لا يُغلبون وقد وطئونا تحت أقدامهم . وبلغ عمر ما صنع عمرو
فقال جلسائه : إن عمراً يقاتل بالقول ، وبغيره يقاتل بالسيف ، أو قال : والله إن حربته
للينة ما لها سطوة ولا ثورة كثورات الحروب من غيره .

خشع القبط حين رأوا بأس العرب ودابوا لهم ؛ بل لقد اختار جماعة منهم الإسلام
فدخلوا فيه ، فساوهم ذلك بالمسلمين وأعقامهم من دفع الجزية ، وإن عرّضهم للعنة بنى قومهم
وأخذ هؤلاء القبط الذين أسلموا يساعدون إخوانهم العرب في اقتضاء الجزية واستصفاء
أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم . بذلك كله توطّد سلطان عمرو على
ما تحت يده من الأرض وازداد بسطة ، وأصبح في مقدوره أن يسير إلى الإسكندرية
مطمئناً متى أذن له أمير المؤمنين في السير إليها .

لم يكن جند عمرو دونه رغبة في السير للقتال ؛ فقد سما النصر على حصن بابليون

ومن فيه بقوتهم المعنوية سموًا كبيراً ، وثبتت في نفوسهم ما ثبتت في نفس عمرو من اليقين بأن الله معهم ، وأنهم لا غالب لهم . وبهذا الروح كله العزة والأثفة كانوا يجوسون خلال الديار ، ويتنقلون حيثما شاءوا من الأرض ، ويفشون ماشاءوا أن يفشوه من مدن الفراعنة وآثارهم الباقية في هذه البقعة الناطقة في صمتها بحديث التاريخ كله ، والتي شهدت فجر الحضارة ، ورأت مولد الضمير الإنساني وتفتتح عينيه . فإذا عادوا إلى عسكرهم آخر الهار عادوا وقد ملأ الإعجاب أفئدتهم وملك عليهم حواسهم ، فلم يتناول حديثهم إلا ما شهدت أعينهم من هذه الآثار الخالدة ليس من آثار العالم ما يدانيها عظمة وجلالا . ومن هذه الحياة الزاخرة في مدينة منف وفي ضرتها مصر القائمة قبالتها على النيل تنافسها في عظمة الحياة ثم تقصر دونها حين ينطق التاريخ بما لمنف على الأجيال من مجد وسلطان .

وكان ما أنارت منه بجلال آثارها أعمق أثرًا في نفوسهم من الحضرة الزاهية والنعيم المقيم الذي تراه أعينهم في كل ماحولهم من الأرض الخصبية المعطاء . لقد رأوا مثل هذه الحضرة في العراق والشام ، وقد ملأوا منها أعينهم منذ نزلوا مصر فزادتهم إيمانًا بقدرة الخالق الباري جل شأنه . لكنهم رأوا بمنف ما لم يكن عليه قيام الإسكندر ، وما لم يروا له في غير منف من مدن العالم نظيرًا . رأوا آثاراً تحدث عن حضارة الفراعنة الأقدمين وعبادتهم حديثًا عجبًا . كان فيها مغبد «فتاح» الضخم الفسيح ، تُعبد فيه الشمس كما كانت تعبد بالكرلك في طيبة . وكان بظاهرها معبد السرايوم ، مقام العجل أبيس ، محاطًا بكل مجالى الإجلال والإكبار . وكان أمام هذا المعبد صقان طويلان من آباء الهول يلقيان في رُوع الداخل إليه الهيبة . وكانت قبور العجول المقدسة قائمة وراء المعبد تأخذ عظمتهما بالنظر ثم لا تحول هذه العظمة دون العجب من قوم يُحدث ما تركوا من صور وتمائيل وملاعب وعماثر كلها العظمة عن سمو مكاتهم من الحضارة . ذلك كان شأنهم في تصوير معبوداتهم ، وفي إقامة ما أقاموا لهذه المعبودات ورموزها من تماثيل بارعة يخطئها المد فكيف أنسام رهبانهم وفراعتهم عبادة الله الواحد الأحد تؤمن به القلوب المضيئة بنور الحق ! صدق تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) ولذلك عمت المسيحية هذه الألوان والطقوس من العبادة : وهامو ذا الإسلام

يسير جنده في أرض القراعنة ، وتحقق أعلامه فوق ربوعها ليقرّ فيها دين الحق إلى يوم الدين .

وأين يستقر الحق إن لم يستقر في جنة الله على الأرض !! ومن ذا يُقرّه فيها إلا جنود الله الذين وهبوا أنفسهم لله مخلصين له الدين حنفاء . لذلك لم تجذب منف بجهاها هؤلاء الجنود للبقاء حولها ، بل كان الشوق للسير إلى الإسكندرية يحرك نفوسهم بالقوة التي كان يحرك بها نفس قائدهم ، ويدعوه إلى استعجال الإذن من أمير المؤمنين بهذا السير . ولم يبطئ هذا الإذن ؛ فقد عرف عمر أن النيل يعود بعد ثلاثة أشهر إلى مدّه وفيضانه ، وأن الخير في أن يسير جيش مضر يفتح عاصمتها قبل أوان هذا الفيضان . وما لبث ابن العاص حين تسلّم الإذن بالسير أن خلف في حصن بابليون مسلحة من المسلمين جعل عليها خارجة بن حذافة السهمي ، ثم سار على رأس جيشه يريد المدينة العظيمة ، مستقر الجمال والعلم والفن في العالم كله .

الفصل المتم للمشرين

فتح الإسكندرية

يجمل بنا قبل أن تتابع مسيرة الغزاة العرب إلى مدينة الإسكندر أن نتخّطى مياه بحر الروم إلى البسفور ، لنرى من حوله ما تضطرب به أحشاء الإمبراطورية الرومية ، وما يبدو من أثر هذا الاضطراب في عاصمة قسطنطين .

فقد مات هرقل بالقسطنطينية والاضطراب يسود بلاطه بسبب ما أصاب الإمبراطورية من النكبات في الشام وفي مصر . وازداد البلاط بموته اضطراباً ، وفشت فيه دسائس الطامعين وذوى المآرب من الأشراف ومن رجال القصر . ولقد عظم أمر هذه الدسائس في شؤون الدولة ؛ لأن الأمر لم يؤل بعد هرقل إلى عاهل ذى حزم وقوة ، بل آل إلى ولديه « قسطنطين » و « هرقلينوس » وهما أخوان لأب ، وإلى « مرتينا » زوج هرقل وأم هرقلينوس التي شاركتها في الحكم . وقد حاولت مرتينا أن تستأثر بالأمر كاستئثارها به في العهد الأخير من حياة زوجها ، في حين كان قسطنطين أكبر الأخوين وآثرهما عند الناس ، وكان له بسبب ذلك حزب قوى يؤيده . ونشأ عن ذلك ما كان لابد أن ينشأ عنه : جعل كل شريف وكل عظيم غاية همهم أن يكسب لنفسه الجاه والسلطان بالزنى إلى الإمبراطورة أو إلى قسطنطين ، أو بالاثمار مع مرتينا على ابن زوجها ومع قسطنطين على زوج أبيه . بذلك سادت بلاط بزنطية حال كالتى سادت بلاد فارس قبل أن يعتلى يزجرد عرش الأكاسرة ، فكان ذلك مما أعان المسلمين على الأسدين ، فارس والروم ، ومكّنهم من الظفر بهم .

مع ذلك كان الناس يتطلعون إلى هذا الثالث الذى جلس على عرش هرقل ؛ يرجون في حكمته ما يتخذ الإمبراطورية مما هوت إليه في السنوات الأخيرة من عهد العاهل الشيخ العظيم الذى سما به الحظ في أول حكمه إلى ذروة رفعت اسم هرقل فوق السماء ، ثم قذف

به في آخر أعوامه من هذه الذروة الشاهقة إلى حافة الهزيمة والعار . وكانت مصر وما يجرى فيها وما يمكن عمله لإنقاذها ، أول ما يشغل رجال الدولة وأهل بزنطية جميعاً . فضياع مصر وغلاتها معناه نقص الأقوات في أرجاء الإمبراطورية كلها . لذلك أسرع قسطنطين فبعث إلى قيرس فجاء به من منفاه ، كما دعا أحد قادة الروم في مصر ليشير عليه بما يجب للدفاع عنها . واغتبطت مَرتينا بدعوة قيرس لعلها يميله إليها وثقتها بدهاء البطريق وقوة مكره . وكان قيرس لا يزال على رأيه الذي صرح هرقل به ، لكنه أظهر الاقتناع بمحجج الذين يرون ألا يدخل الروم في صلح مع العرب . ووعد قسطنطين بإرسال الأمداد الكبيرة إلى مصر ، وأمر بتحميز السفن التي تحمل تلك الأمداد . وأبدت الإمبراطورة مرتينا من الحماسة لهذا كله ما ضاعف حماسة الشعب واغتباطه . لكن هذا الشعب لم يلبث أن فوجيء باغتيال قسطنطين ووفاته بعد مائة يوم من وفاة أبيه . لذلك أسرع الناس إلى اتهم مرتينا بأنها دبّت موته ، وعمل جانب من البلاط والنبلاء على ترويح هذا الاتهام وكان كونستاس بن قسطنطين ممن أعلنوا هذه التهمة . وأذاعوها ؛ فأدى ذلك إلى ثورة الناس بمرتينا وانتقاضهم عليها ، وإلى وقوف الأمداد دون السير إلى مصر . وعبثاً حاولت مرتينا أن تكذب ما يُنسب إليها ، وأن تستخلص العرش لابنها هرقلانيوناس . فقد اتخذت محاولتها استخلاص العرش لابنها حجة عليها . فنار الجند كما ثار الشعب بها . وظلّت هذه الثورة وارية الضرام أشهراً ، ثم انتهت إلى مبايعة كونستاس ابن قسطنطين شريكاً لهرقلانيوناس في ولاية الأمر .

رأى قيرس أن الثورة موشكة على نهايتها ، وأن كونستاس سيترث مكان أبيه من العرش ، فأسرع بالسفر إلى مصر ، متفقاً مع مَرتينا وابنها . وسافر معه عدد كبير من القسوس وجيش أعد مدداً لقوات الروم المدافعة عن مصر . ولعله أدخل في روع الإمبراطورة أن هذا الجيش سيكون قوة لها في أرض الفراغة ، وأنها تستطيع أن تلجأ هي وابنها إليه إذا عادت دسائس خصومها في بزنطية فأثارت الشعب بها كرة أخرى . وبلغ الأسطول الذي أقل قيرس ومن معه عاصمة مصر في شهر سبتمبر سنة ٦٤١ ، فاستقبل أهلها البطريق الشيخ استقبال البطل الفاتح الذي جاء من قبل قيصر ينقذ

مدنيتهم ، ويفتقد دينهم ، ويفتقد الإمبراطورية (١) .

(١) يذهب بترل إلى أن القائد الرومى الذى استدعاه قسطنطين من مصر ليثير عليه حين استدعى قيرس من منفاه إنما هو تيودور قائد الجند العام ، ويذكر أن مرتينا أرادت أن تجعل تيودور على رأس الجند الداهب في الأسطول الذى أقل قيرس إلى مصر ، وذلك لما كانت تعرفه من حب الجيش له ، ولأنها خشيت أن ينضم إلى خصومها إذا بقي بالقسطنطينية . وهو يزعم بعد ذلك أن تيودور رأى ما يفمر جو البلاط من دسائس اضطرت مرتينا بسببها أن تغادر عاصمة الإمبراطورية إلى رودس ، ورأى خصوم مرتينا يأتمرون بها ويعملون على التخلص منها ، فأثر الذهاب إلى قرطاجنة إيثاراً للعافية ، أو ترصباً للحوادث أن تتيح له فرصة كالتى أتاحها لهرقل من قبل ، فإذا بدت هذه الفرصة لتيودور ذهب بجيشه إلى القسطنطينية وخلع الثالث الضعيف عن عرشها واستأثر به لنفسه ، متأسياً بهرقل حين أسر فوكاس وخامه وقتله . وأسرت تيودور ذلك في نفسه وأظهر الإذعان لأمر مرتينا ، واستقل الأسطول مع قيرس وجند الروم إلى مصر فلما كان ذات ليلة أسرت إلى ربان السفينة التى هو فيها أن يتجه به غرباً صوب قرطاجنة . وتظاهر الربان بالنزول على أمره ، ثم زعم أن الريح قصد السفينة عن الاتجاه إلى الغرب وألنى تيودور نفسه ينزل الإسكندرية مع قيرس ، وألنى الناس بها يستقبلون الطريق الشيخ استقبال البطل الفاع .

ويستند بترل في رأيه هذا إلى عبارة وردت في كتاب حنا النقيوسى . لكنه يذكر أنه تصرف في هذه العبارة بعض التصرف . فعبارة حنا أن الإمبراطور : أرسل إلى أنستاسيوس ليأتى إليه ويترك تيودور على حراسة الإسكندرية ومدائن الساحل ، وقد أبدل بترل اسم أنستاسيوس باسم تيودور . وهذا هو التصرف الذى يشير إليه . وذلك لأن تيودور كان القائد العام ولأن حنا نفسه ذكر أن أنستاسيوس كان حاكم الإسكندرية قبل عودة قيرس إليها ، كما ذكر أن تيودور كان مع قيرس في رودس وأنه عاد معه من هناك إلى الإسكندرية .

ولا شبهة عندنا في أن بترل قد أخطأ في مخالفة حنا النقيوسى ، وفي القول بأن قسطنطين دعا تيودور ولم يدع أنستاسيوس . والتواريخ التى اعتمدها بترل أقوى شاهد على خطئه . فقد ذكر أن المسلمين ساروا من بابلون يريدون الإسكندرية في شهر مايو سنة ٦٤١ ، وأنهم بلغوها وحاصروها في شهر يونيو بعد أن التجموا بالروم في عدة مواقع مفصلة في صلب هذا الكتاب . وبترل نفسه يسلم بأن تيودور كان قائداً الروم في بعض هذه الحملات ، ويذكر ذلك صراحة ، فإذا كان قسطنطين قد دعا تيودور إلى القسطنطينية ولفقه بها . فلا بد أن ذلك كان قبل شهر مايو ؛ لأن قسطنطين مات في الشهر المذكور . وفي هذا الشهر وفي شهر يونيو كان تيودور يتولى قيادة الجند في قتال العرب بنفسه . ومن المستحيل أن يجتمع هذان الأمران في وقت واحد .

أما استناد بترل إلى أن تيودور عاد مع قيرس إلى الإسكندرية فلا يغير شيئاً مما سبق . فهو وإن صح لا يدل على شيء إلا على أن تيودور ذهب إلى رودس أثناء حصار الإسكندرية ، ثم عاد منها مع قيرس ، وأنه أسند القيادة أثناء غيابه إلى أنستاسيوس الذى أسرع بالعودة إلى مصر بعد موت قسطنطين . ويلاحظ مع هذا أن التواريخ التى اعتمدها بترل بعد تحقيق وبحث جديرة بإعادة النظر فيها . ولا أسوق لإلا دليلاً واحداً من أدلة كثيرة تؤيد ذلك . فقد ذهب بترل إلى أن هرقل مات والعرب لا يزالون يحاصرون بابلون وقبل أن يسيروا إلى الإسكندرية بأشهر ، على حين يكاد يجمع مؤرخو المسلمين على أن هرقل مات بعد خمسة أشهر من حصار الإسكندرية ، ثم يوافق كثيرون من المؤرخين الأوربيين قول المؤرخين المسلمين ويقرونه . فنحننا والمالة هذه أن نأخذ بالحيلة ، وأن ندع مواضع الشبهة في تواريخ ذلك العهد الملى بالتناقض والاضطراب .

أفكان لقيرس خطة مرسومة وسياسة ذاتية جاء بها إلى مصر؟ يذهب بتلر إلى أنه جاء وطيد العزم على مصالحة العرب، وأنه . « من غير شك حمل الإمبراطور — وهو غريز لا رأى له — على الإذعان للعرب والنسليم لهم ، كما حمل على رأيه هذا مجلس الشيوخ المُستضعف ، ورجال البلاط وهم من أهل العجز والخور . . . ومن الجلي فوق ذلك أنه استمال الإمبراطورة مرتينا إلى رأيه الضعيف ، لاسيما وقد كان أنصارها ممن يرون مصالحة العرب . وإن كلّفهم ذلك ما كلّفهم . وكانت هي دائماً ترمى في سياستها إلى التسليم والإذعان وذلك كان رأى قيوس الذي ظل يجاهر به في كل حين » . وبفسر بتلر رأيه هذا بأن قيوس كان « يريد أن يزيد في سلطانه الديني بالإسكندرية ، وأن يُقيمه على أطلال الدولة بعد خرابها . ولسنا نجد رأياً آخرأ أكثر ملاءمة لما بدا منه ، فهو خيرُ رأي نستطيع به أن ندرك ما كان بينه وبين عمرو من صلوات خفية ، وما قارفه من خيانة دولته الرومانية فللصفه بأنه كان خائناً للدولة في سبيل ما توهمه صلاحاً للكنيسة » .

أرأني في حلّ من مخالفة بتلر في مذهبه هذا . ومن القول كرة أخرى بأنه متأثر فيه بنزعه المسيحية أكثر من تأثره بوقائع التاريخ . فقد كان قيوس يعلم تمام العلم أن المسلمين يكفلون حرية العقيدة لأهل البلاد التي يفتحونها ، وينصّون على ذلك نصّاً صريحاً في المعاهدات التي يعقدونها معهم . كذلك فعلوا في الشام وفي العراق في عهد أبي بكر وفي عهد عمر . وما كانوا ليخالفوا سُنتهم هذه في مصر . وهم إذ يفرضون الجزية على أهل البلاد المفتوحة إنما يفرضونها لقاء تأمين دافعها على أنفسهم وذرائعهم وأموالهم وعقائدهم ومعابدهم ، لا يفرّقون في هذا التأمين بين الملكانيين والمينوفيسيين ، ولا بين الروم الحاكمين والقبط المحكومين . ولا نحسب قيوس غرته نفسه فظنّ بها القدرة على أن يلعب بعمرو بن العاص داهية العرب أو أن يخدعه ، فيسترد لنفسه ما كان له من قبل من حرية الاضطهاد والعسف ، فإذا صحّ ما ظنّه بتلر من أن قيوس جاء إلى مصر معتزماً بمصالحة العرب ، فلم يكن ذلك لغرض ديني أو لغرض سياسي ، بل لأنه رأى قتالهم غير مؤدّ إلى نتيجة إلا هزيمة الروم واندحارهم . وبخاصة بعد أن فشت الدسائس في بلاطهم فزادتهم ضعفاً وآذنت دولتهم بالتدهور والانحلال .

وما لنا نسبق الحوادث فتتحدث عن مقاصد قيرس وسياسته ، مع أن الحوادث ستحدد هذه السياسة تحديداً لا يبقى معه مجال للأخذ بالظن . فلندع قيرس بالإسكندرية ولنعد إلى بابليون لتتابع المسلمين في مسيرتهم إلى غايتهم .

فقد فصل عمرو بجنده من بابليون في شهر مايو من تلك السنة ، أي حين كان الاضطراب لمقتل قسطنطين قد بلغ أشده في عاصمة الإمبراطورية الرومية . وقد أثر عمر السير على الضفة اليسرى للنيل حيث مديرية البحيرة اليوم ، حتى لا تقف الترع التي تشق جنوب الدلتا بمديرية المنوفية في طريق جيشه . وقد استطاع أثناء مقامه ببابليون أن يستعين بالقبط الذين دخلوا في سلطانه على إصلاح الطرق وإقامة الجسور ، فكان ذلك مما أعانه على سرعة السير . واستصحب عمرو في مسيرته جماعة من رؤساء القبط اصطفاهم وأحسن معاملتهم ليكونوا أداة اتصال بينه وبين من يلقاهم من أهل البلاد .

كان الاستيلاء على « نقيوس » وحصنها المنيع أول ما فكر عمرو فيه ، وكانت نقيوس تقع على ضفة النهر اليمنى على فراسخ إلى الشمال من منوف ، وكانت منوف سلطان المسلمين كما قدمنا . وقد أثر الروم أن يلقوا عمراً قبل أن يبلغ نقيوس ليصدوه عن عبور النهر إليها ، وأن يلقوه لذلك أثناء مسيرته على الضفة اليسرى ، فرباطوا له عند « طرنوط » أو « الطرانة » كما يسميها بعض المؤرخين ، وهي تقع على النيل قبالة زاوية رزين إلى الجنوب من منوف . ولقيهم عمرو بها وأنشب القتال معهم ، فلم يجد مشقة في التغلب عليهم رغم استبسالهم في القتال .

تابع عمرو مسيرته حتى كان قبالة نقيوس وحصنها المنيع . وكان أكبر ظنه أن يعتصم أهل الحصن به وأن يجعلوا النهر بينهم وبين الغزاة ، لذلك اتجه إلى تدبير الوسيلة التي يعبر بها إليهم ، وشاور الرؤساء القبط الذين ساروا معه في هذا الأمر . ولم يدرك بخلافه أن بذر نقيوس وحصنها وراءه . وأن يتخطاها جميعاً في السير نحو العاصمة ؛ فقد خشي أن تخرج مسلحة الحصن منه وأن تدهم مؤخرته فتفسد عليه خطته . ولم يكن عبور النهر في هذه الأيام من شهر مايو بالأمر العسير ؛ فقد انخفض ماء النيل وركد تياره ، فأصبح اجتيازه في السفن أو فوق جسر منها في متناول الجيش الفاتح .

لكن الروم فكروا في الأمر غير تفكير ابن العاص ؛ فقد ألقى في روعهم أنهم إن يتركوه متابعا طريقه إلى العاصمة دون مقاومة ، وبخاصة بعد أن انهزمت أمامه حامية طرنوط ، فت ذلك في أعضاء الناس فأسرعوا إلى التسليم والإذعان لهؤلاء الذين لا يقاومهم أحد . لذا خرج أمير الحصن في جنده جميعا ، فركبوا سفنا أعدت للدفاع عن المدينة ، وحاولوا صدّ العرب دون غايتهم . ورآهم عمرو في السفن ورأى منهم من حاول الخروج للوقوف في طريقه ، فأمر رجاله فرموهم بالنبل ، فارتد الذين تركوا السفن إليها وحسبوها ملجأ يقيهم الالتحام بعدوهم . ولم يدعهم فرسان المسلمين يفرون ، بل طاردوهم إلى الماء وجعلوا يرمون من فيه بالسهم . وخيل إلى القائد الرومي أن المسلمين سيقطعون النهر إليه . ولعله كان قد سمع بصنيعهم حين عبروا دجلة إلى المدائن على خيولهم ودجلة في فيضه وتدفع تياره ، فأمر ملاح السفينة التي كان بها فانطلقت مسرعة تولى به فرارا إلى الإسكندرية . ورأى جنده صنيعة ، فوضعوا سلاحهم وألقوا بأيديهم وجعلوا النجاة من الموت غاية همهم . ولم يفلحهم العرب بغيتهم ، بل حصروهم وقتلوهم عن آخرهم ، ثم دخلوا المدينة من غير مقاومة بعد أن خلت من المدافعين عنها .

يقول حنا النقيوسي مؤرخ ذلك العصر : إنهم دخلوا المدينة « فقتلوا كل من وجدوه في الطريق من أهلها ، ولم ينج من دخل الكنائس لائذا ، ولم يدعوا رجلا ولا امرأة ولا طفلا ، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد ، فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها . فلما دخلوا مدينة « صوونا » وجدوا بها « اسكوتاوس » وعيلته ، وكان يمت بالقراية للقائد تيودور ، وكان محتبئا في حائط كرم مع أهله ، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم . ولكن يجدر بنا أن نسدل الستار على ما كان ؛ فإنه لا يتيسر لنا أن نسرد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس^(١) . وهذه العبارة التي أوردها بقل من كتاب حنا لا تخلو من مبالغة ؛ ولذا علق عليهم مترجم بقل الأستاذ محمد فريد أبو حديد بقوله : « أغلب الظن أن هذه مبالغة من الكاتب (حنا النقيوسي) دفعته إليها غيرة وحقد على الغالبين من العرب ؛ إذ كان من أوّل أصول العرب في الحرب ألا يقتلوا

(١) فتح العرب لمصر ؛ الترجمة العربية : ص ٢٤٨ .

من استسلم ، وألا يقتلوا امرأة ولا شيخاً ولا طفلاً ، يأمرهم بذلك دينهم يحضهم عليه . أمر خلفائهم الأولين إلى القواد والجنود .

أقام عمرو بنقيوس يستبرئ ما حوله من الأرض ويظهرها من كل أثر للروم . وبعث شريك بن سُمَيَّ على كتيبة لتعقب الروم الذين فروا من نقيوس يريدون الإسكندرية . وأدرك شريك الروم الفارين ، فأرأوه ومن معه قلة لا تستطيع ثباتاً . فارتدوا إليهم وأحاطوا بهم . ورأى شريك كثرتهم ، ورأى نهذاً من الأرض قريباً منه . فاعتصم به وحاربهم من فوقه . لكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أنه مخذول إذا لم يُسعفهُ مددٌ ، فأمر مالك بن ناعمة الصدقي ، وكان صاحب فرس لا يُشق في الجري غباره ، فانحط من ذلك النهدي على الروم فاقتحم صفوفهم ، وطار عدواً إلى عمرو بنقيوس ولم يدركه أحد . وأمد عمرو شريكاً لأول ما بلغه حرجُ موقفه . وعرف الروم مسير المدد فلاذوا بالفرار من قبل أن يلقوه . من ذلك اليوم أطلق على النهدي الذي وقع القتال حوله اسم القائد العربي الذي اعتصم به ، فهو يعرف إلى يومنا باسم « كوم شريك » .

وأدرك عمرو شريكاً والذين معه ، وسار في قوته الكاملة تاركاً فرع رشيد عن يمينه ، متابعاً الفرع الكانوبي المؤدى إلى الإسكندرية . وعلم أن الروم أعدوا للقائه عند سُلَطَيْس على ستة أميال إلى الجنوب من دمنهور ، فقصده إليهم واشتبك معهم ، ودار بين الفريقين قتال شديد انتهى بهزيمة الروم . وما كان لهم ألا ينهزموا وإيس . ثم حصون يمتنعون بها ولقد فروا بعد هزيمتهم فلم يقفوا بدمنهور ، بل لم يقفوا دون حصون كَرَبُون آخر سلسلة من الحصون قبل الإسكندرية ، وهناك انضموا إلى سائر جيش الروم ، وتأهب الجميع للقتال يقودهم تيودور .

وقدّر تيودور قائد الروم الأكبر في مصر أنهم إن نهزموا بكريون تنكشف العاصمة . أمام العرب ، فيغيرهم ذلك بحصارها والتضييق عليها . ولئن كانت حاميتها قوية والدفاع عنها يسيراً ، إن الخير كل الخير في الحيلولة بين الغزاة وبلوغ أسوارها ما كان إلى هذه الحيلولة سبيل . لذلك خرج بنفسه إلى كربون في جند عظيم اطمأن به إلى قدرته على الوقوف عندها وصد الغزاة دونها . وزاد في اطمئنانه أن الروم كانوا قد رموا حصون

كريون وزادوها قوة، وأن ترعة الشعبان أمامها كانت تحمي المدافعين عنها، وأن الطريق بينها وبين الإسكندرية كان معبداً يحمل المدد الكثير إذا أحوج الأمر إلى مدد. وإذا عرف الروم في الواقع المحيطة بكريون أن الموقعة حاسمة، وأن لها لذلك ما بعدها، فقد أقبلوا من كل حَدَبٍ يَنْسِلُونَ يعززون تيودور وجنوده. أقبلوا من خَيْس ومن سَخَا ومن بَلْهَيْب ومن غيرها من البلاد، وانضموا إلى صفوف الإمبراطورية يؤيدونها ويزيدونها بأساً وقوة.

كم كان عدد الجند الذين بلغ بهم عمرو كريون؟ لم يذكر المؤرخون ما يفيد أن أمير المؤمنين بعث إلى مصر غير الاثنى عشر ألفاً الذين سبق أن ذكرناهم. وقد خاض هؤلاء معارك عدة قُتِلَ منهم فيها لا ريب عدد غير قليل، وقد ترك عمرو منهم مَسَالِحَ في البلاد التي فتحها ليحفظوا الأمن والنظام فيها، وليكفلوا السكينة في ربوعها. أترأه استعان بمن والاه من القبط فأدخلهم في جيشه؟ أم ترأه استعان بالبدو الضاربين في صحارى مصر شرقاً وغرباً على نحو ما فعل بعد انتصاره في القَرَمَا؟. يتعذر القول بأيٍّ من هذين الاحتمالين. وأغلب الظن أن أمير المؤمنين أمدَّ عمرًا بمدد جديد بعد ظفركه بحصن بابليون وحين أذن له في السير إلى الإسكندرية. ولم يكن إمداده في ذلك الوقت متعذراً؛ فقد كانت مسالح البصرة والكوفة هي التي تُمدَّ جيوش المسلمين في فارس، وكانت الشام قد سكنت إلى حال من الطمأنينة لم يبق معها خوف من انتقاض أهلها بحكامهم، وكان الروم في شغل بمصر عن محاولة الرجعة إلى الشام أو مهاجمة ثغوره، فضلاً عن اشتغالهم بما فشا من الدسائس في بلاطهم. فإذا ذكرنا مع ذلك كله أن عمر لم يَضَنْ يوماً على أمراء جنده في مختلِف الميادين بمدد، وأنه وعد ابن العاص أن يمدّه إذا دخل مصر، كفا في حلٍّ من القول بأنه أرسل إليه الجند تلو الجند بعد الذي صادفه من نجاح في فتح مصر، وأن عمرًا سار إلى الإسكندرية وفي إمرته ما يزيد على خمسة عشر ألفاً إن لم يزد على عشرين ألفاً.

ولعله قد استعان بالمصريين وبالبدو في تعبيد الطرق وحراستها، وفي الحجى بالميرة إلى جيشه. بل لعله قد استعان بمن اطمأن إليه منهم، وجعله في المسالح التي تشرف على

الأمن وتحفظ النظام . أما الجند المقاتلون الذين كانوا يلقون الروم في المعارك فكانوا جميعاً من العرب المسلمين .

التقى عمرو والروم في كريون ، واشتدَّ القتال بين الفريقين شدَّةً لم تُؤْلَفْ فيما سبقها من المعارك ؛ وظلُّوا كذلك حتى فصلَ بينهم الظلام ولم يظفر أى الفريقين بِخصمه . بل لعل الروم كانوا أرجح في ذلك اليوم كِفَّةً لكثرة عددهم ، ولاستماتتهم في الدفاع عن مواقعهم ، ولأن حصون كريون كانت تحمى ظهورهم وتشدُّ أزرهم . واستحضر القتال منذ الصباح في اليوم التالي ثم انفصل الفريقان في آخره كما انفصلا في اليوم الأول . وظلَّ القتال دائراً على هذا النحو بضعة عشر يوماً ، ترجَّح فيه كِفَّةُ المسلمين تارة ، وترجح كِفَّةُ الروم تارات . وقد أظهر الروم فيه من ضروب البراعة ومن شدَّةِ البأس وصلابة العود ما أدخل الرُّوعَ إلى نفوس المسلمين ، حتى لقد صلى عمرو يوماً صلاة الخوف ركعةً وسجدتين مع كل طائفة من جنده على أن بأس الروم لم يذهب عزم المسلمين ولم يُضعِفْ روحهم ، بل زادهم حماسةً وإقبالاً على الموت . كان وَرْدَان مولى عمرو بن العاص يحمل اللواء في مقدِّمة المسلمين ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقاتل إلى جانبه . وأصاب عبد الله في أحد أيام المعركة جراحات بالغة هاضته وأجهدته ، فالتفت إلى جاره وقال له : « يا وَرْدَان ! لو تأخرت قليلاً نصيب الرُّوح ! » يريد فترة يتنفس فيها وينفِّس بها عن نفسه . فأجابه وردان ، وهو يندفع أمامه واللواء في يده والحماسة آخذةً منه : « الرُّوحُ تريد الرُّوحُ أمامك وليس خلفك ! » واندفع عبد الله لسماع هذا الجواب يقاتل متقدِّماً غير عابئٍ بجراحه . وعرف أبوه ما أصابه ، فبعث رسولا يسأل عن حاله ، فكان جواب عبد الله أن تمثل بقول ابن الإطنابة :

أقولُ لها إذا جَشَأَتْ وجاشتْ مَسْكَانُكَ مُحَمَّدِيْ أو تَسْتَرِيحِيْ

ورجع الرسول إلى عمرو بجواب عبد الله ، فرضى عنه وقال : هو ابني حقاً . وبهذا الصبر ، وبهذه الحماسة ، وبهذا الإقبال على الموت لايهابونه ، فتحرر المسلمون مدينة كريون وحصنها وهزموا الروم عنها .

كيف كان انتصارهم ؟ وماذا كانت فعالهم ؟ وكيف انهزم الروم بعد الذي أبدوه من براعة وأظهروه من بأس وقوة احتمال ؟ ذلك ما لا يذكر المؤرخون عنه شيئاً ،

مع اتفاقهم على أن معركة كريون دامت عشرة أيام أو بضعة عشرة يوماً ، وأن الفريقين كانا يريانها حاسمةً بينهما . وكل ما يذكره ابن عبد الحكم . بعد الذي قدّمنا من صلاة الخوف ومن جراحات عبد الله بن عمرو ، قوله : « تم فتح الله للمسلمين وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة . واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية » وتلك هي بعينها عبارة السيوطي ومن أخذوا عن ابن عبد الحكم . وهذا القول على إيجازه ، وعلى أنه لا يصف فعال المسلمين وكيف كان انتصارهم ، صريح في أن هزيمة الروم كانت تامة منكراً . أما بتل فیشتم من رواية حنا النقيوسي أن تهقر الروم إلى الإسكندرية كان وتبدأ مع أن رواية حنا كما أوردها بتل لا تزيد على أن عمراً أرسل جيشاً عظيماً من المسلمين في الإسكندرية فلكوا كريون . فسار من فيها من قائدهم تيودور إلى الإسكندرية .

وهذا الإيجاز في تصوير معركة حاسمة دامت عشرة أيام أو أكثر ، يوجب الشيء الكثير من الأسف . فمعرفة العوامل والأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين وهزيمة الروم . لها من غير شك قيمتها في الدلالة على الحالة النفسية للفريقين من ناحية ، وعلى الحالة النفسية للشعب المصري بإزاء الفريقين من ناحية أخرى . لقد استأسد الروم في أول الأمر وكانت الإسكندرية تُمدّهم كلما احتاجوا إلى المدد . فما بالهم تقاعسوا في نهايته مع أنهم كانوا أضعاف المسلمين في العدد ، وكانوا في منعةٍ بحصونهم وبالمدد الذي تبعه العاصمة لهم ؟ أفكان ذلك لضعف في قيادتهم ومهارة في قيادة عدوهم ؟ أم كان سببه وصول أنباء إلى الإسكندرية بتفاقم الاضطراب في عاصمة الإمبراطورية ، وأن هذه الأنباء بلغت الجند في كريون فأضعفت معنوياتهم ؟ أم أن العرب وصلتهم أمداد قوّوا بها فاقتموا على عدوهم حصونه ؟ أم شعر المسلمون بحرج موقفهم فتعاهدوا على النصر أو الموت ، كما فعلوا باليامة وباليرموك ، فلم يستطع الروم في حرصهم على الحياة أن يصدّوا هجمة المسلمين ؟ أم كان للشعب المصري أثرٌ في موقف الفريقين بأن عاون العرب على الروم ، فكان لهذه المعاونة أثرها ؟ قد يكون لبعض هذه العوامل ، وقد يكون لها جميعاً أثرٌ في النتيجة التي انتهت المعركة إليها . وقد يكون ثمّ عوامل أخرى ، لا اتصال لها بها ، هي التي أدت إلى هذه النتيجة . نحن لا نستطيع على كل حال أن نثبت أن عاملاً بذاته كان سبب النصر ؛

لأن المؤرخين الذين أسهبوا ما أسهبوا في تصوير القادسيّة ، وفي تصوير اليرموك ، وفي تصوير نهاوند ، لم يذكروا شيئاً فيه غنّاء يمكن الاطمئنان إليه في بيان العوامل والأسباب التي أدّت إلى انتصار المسلمين وهزيمة الروم في كريون .

على أننا مع ذلك نستطيع أن نستنبط من سياق الحوادث أن موقف المصريين لم يكن له أثرٌ يذكر في نتيجة المعركة ؛ فهم كانوا يمتقنون الروم في أعماق قلوبهم أشدّ المقت ، فلم يكونوا يبذلون لهم أى عون إلا مكرهين . وهم كانوا مع ذلك في ريبٍ من مقاصد المسلمين بإزائهم ، وبخاصّة أن هؤلاء المسلمين كانوا ، بحكم الحرب ، يأخذون لأنفسهم من أموال المصريين كل ما يحتاجون إليه ليرتحم وذخيرتهم ، وكانوا يعاملون من لا يدعون لهم من أهل البلاد معاملة بطش وقسوة . هذا إلى أن أهل البلاد كانوا قبل مجيء العرب في ثورة دائمة بالروم ، وكانوا يرجون أن تُتيح لهم هزائم هرقل بالشام فرصة التخلّص من حكمه وحكم عماله . ليستقل المصريون بأمر بلادهم ، فيرتفع الظلم والعسف عنهم وتخلّص لهم خيرات أرضهم . أترى العرب إذا غلبوا الروم على مصر إلا يتحلّون محلهم فيها ، ويستأثرون بالسلطان على أهلها ، ويختصون أنفسهم بما كان الروم يختصون أنفسهم به من خيراتهم ! ألم يفرض هؤلاء المسلمون الجزية عليهم في صلح بابليون ؟ والمسلمون يخالفونهم في الجنس واللغة والعقيدة والعادات ؛ وقد يحاولون غداً أن يحاولوا على تغيير دينهم ، كما حاول الروم أن يحملوهم على تغيير مذهبهم ! لهذا كله كان المصريون يمتقنون حكم الروم ويخافون حكم العرب ، فلم يكونوا يعاونون هؤلاء إلا كارهين ، أو يعاونون أولئك إلا مكرهين . قومٌ ذلك شأنهم لا يخطيء من يستنبط أنهم لم يكن لهم أثرٌ فيما أصاب العرب من نصر ، وما أصاب الروم من هزيمة في موقعة كريون .

لا ينصرف هذا الرأى بطبيعة الحال إلى فئة قليلة من المصريين انضموا إلى الروم بدافع من مصلحتهم أو من حماسهم للمسيحية وخشيتهم أن يحملهم المسلمون على تغييرها وهو لا ينصرف كذلك إلى فئة قليلة انضمت إلى المسلمين ودان بعض أفرادها بالإسلام بدافع من مصلحتهم كذلك ، أو حقداً منهم على الروم بسبب عسفهم بالمصريين واضطهادهم لهم ، فنل هذه الفئات القليلة توجد في كل أمة وعصر . وإنما ينسحب هذا

الرأى على كثرة المصريين فى أدانى البلاد وأقاصيها ؛ فهذه الكثرة التى تصور اتجاه المجموع أصدق تصوير ، كانت حانقة على الروم غير راغبة فى العرب ، وكان أكبرهمها ألا يشارك أبناء مصر مشارك فى حكمها وفيما تنتجهم أذرع بنيتها من ثمرات أرضها .

انتصر العرب على الروم بكريون وردّوهم على أعقابهم . ولم يُقيم عمرٌ بكريون إلا رينما جَمَّ جفده ، ثم سار على رأس هذا الجند الباسل حتى بلغ الإسكندرية دون أن يلتقى فى طريقه ما يصده . فلما اقترب من أسوارها وقف الجند كله أمامها وقد أخذه البهرُّ من كل مكان لمرآها . فأين منها دمشق ! وأين منها بيت المقدس ، بل أين منها أنطاكية ! بل أين منها المدائن وفيها أبيض كسرى ! فتتح هؤلاء العرب أبناء البادية عيونهم واسعة على منظر رائع تسحر روعته العقول والقلوب ، وظلّوا وقوقاً يُجِيلون أعينهم يَمَنَّةً وَيَسْرَةً فلا تقع إلا على ما يزيدهم سحراً وبَهْرًا . فهم يرون من شرق المدينة العظيمة ومن غربها هذا البحر الأبيض يتراعى أمام النظر إلى حدود الأفق ، وقد كست السماء الصفوماء زرقة جعلت الماء فى لون السماء وفى صفائها ورقتها ، والماء مع ذلك دائم الثقلب مع الموج المتدافع يأخذ بعضه برقاب بعض حتى يتفانى عند الشاطئ على رمال ناعمة ملساء . وترتدّ هذه الأعين من البحر إلى المدينة العظيمة ، فما أسرع ما تنسى البحر وموجه فيما ترى من عجبٍ . ودونه كل عجب ! فهذه ضواحي المدينة أمامهم نُثِرَتْ فيها الحدائق نثراً ، وقامت فيها القصور والأديار خلال غابات من أشجار ضخمة ، بعضها مثمر وبعضها لا ثمر له . ومن بعد «الضواحي تقوم أسوار وحصون يصغر أمامها كل ما رآوا من أسوار وحصون ، ولا يزيد حصن بابلين الذى وقفهم أمامه ما وقفهم على أنه واحد من هذه المجموعة الضخمة القائمة حول العاصمة الفاتنة تحدّث عن مناعتها وقوّة دفاعها . وتحشى هذه الأسوار والحصون بدائع من العِمارة لا تشهد الأعين منها إلا أعاليها وقد زُيِّنَتْ بقباب دقيقة النقش ، وعُجِدْ ترتفع فوقها بعض هذه القباب فتزيد الناظر إليها عجباً منها وإعجاباً بها . وبين هذه القباب تندلع فى الجو مسلات أكثر ارتفاعاً مما رآوا فى عين شمس ، ولم يكونوا قد رآوا له فى غير مصر نظيراً . ويقع النظر أثناء ذلك على كنيسة سان مارك « القديس مرقس » القائمة بين هذه المسلات فى حراسة الطلّسمات المنقوشة على جوانبها الأربعة ، فإذا الكنيسة دُرّة

في العماره ، صاغها البناء الصَّنَاع فلم يترك لوّناً من ألوان الجمال إلّا أسبغه عليها . وينتقل النظر في الناحية الأخرى من المدينة ، فإذا معبد السرايوم بسقفه المذهب يأخذ وجهه باللب ، وإذا عمود « دقلديانوس » الفارع يُشرف على القلعة التي تحرس المعبد وما حوله . ويتخطى النظر متجهاً إلى ناحية البحر ، فإذا مفارةً فاروس تنبعث خلال الجو معلنةً للشاهدين أنها من عجائب الدنيا السبع . ويتردّد نظر الجند بين هذه العجائب ، من عمائر وتماثيل ومسلات وكفائس وحصون وأسوار ، فلا يزدادون إلّا سحراً وبَهْراً . ولا عجب ، فقد كانت إسكندرية ذلك العهد أجمل مدائن العالم وأبهّاها . أقيضُ هذا الجيش الباسل ببذل في سبيل اقتحامها وفتحها ؟ كلا ! لقد عوّده الله النصر ، فلم تخذله أسوار ولا حصون . أيّاً كانت قوتها ومناعتها .

ورأى عمر فتنة الجند وحماستهم ، فلم يتردد ، مع ما اشتهر به من حرص وحذر ، فأمرهم أولَ مقدّمهم باقتحام أسوار المدينة وأبراجها . وكان تقديره أن هزيمة الروم بكريون لا بدّ أن تكون قد أدخلت الرّوع إلى نفوس المدافعين عن الإسكندرية ، وأقنعتهم بأن مصيرهم لن يكون خيراً من مصير أصحابهم الذين ولّوا مدبرين إليهم . ولم يخالج المسلمين ريب في أن المدينة البارعة ستفتح أبوابها لقاء هجمتهم ، فاندفعوا ينفذون الأمر مهلّين مكبّرين ، فلم يرُعهم إلّا الحجارة العظيمة تنساقط عليهم مقدوفة من الجانيق المنصوبة فوق أسوار المدينة . ذلك أن الروم أيقنوا حين انسحبوا من كريون أن العرب سيلحقون بهم ، وأن نشوة الظفر ستنتسبهم الخبيطة ، وستدفعهم إلى مهاجمة المدينة . ولذا أدخل تيودور الجيش في حصونها وأمر بإخلاء ضواحيها ، وأقام القاذفين بالجانيق على أسوارها ليرموا الحجارة الضخمة منها في وجه العدو المقبل عليها . وأيقن عمرو حين رأى وابل القذائف أن الروم أعدّوا واستعدّوا ، فعاوده حدّره ، وأمر رجاله بالارتداد إلى ما وراء مرمى الجانيق .. وهناك ضرب عسكره وأقام يدبّر أمره .

عسكر عمرو شرق المدينة فيما بين الحلوة وقصر فاروس . وسرعان ما أدرك أن مهاجمة المدينة ليست بالأمر اليسور . فقد كان البحر يحميها من شمالها ، وكان الروم وخدمهم هم المتسلطون عليه ، فلم يكن للعرب فيه شراع واحد وكانت بحيرة مريوط تحميها

من الجنوب ، وكان اجتيازها عسيراً بل غير مستطاع . وكانت ترعة الثعبان تدور حولها من الغرب . بذلك لم يبق إليها طريق إلا من الشرق ، وهو الطريق الجارى بينها وبين كريون . وكانت المدينة حصينة من هذه الناحية بأسوارها وحصونها ، كما كانت حصينة بهما من سائر نواحيها . وكان تموين الإسكندرية من البحر يسيراً ؛ إذ كانت مدن الساحل المصرى كلها فى يد الروم ، فكان فى مقدورها أن تبعث السفن محملة بالميرة إلى سكان العاصمة وحمايتها . وكان هؤلاء الحماة ، ويبلغ عددهم خمسين ألفاً ، موقنين أنهم إن يهزموا لم يبق للروم فى مصر دولة . بل لقد بلغتهم كلمة قيصر : « لئن ظفر العرب بالإسكندرية لقد هلك الروم وانقطع ملكهم ، فليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية » ، فزادتهم هذه الكلمة حساسة فى الدفاع عن المدينة وفى الاستماتة دونها . لا أمل إذا فى مهاجمة المدينة ما دام حمايتها متحصنين بأسوارها وبروجها ، ولارضاء فى مناجزة هؤلاء الحماة والظفر بهم إلا أن يخرجوا منها للقاء العرب فى ميدان مكشوف ! . أترام يفعلون ؟ فإن لم يفعلوا فماذا عسى أن يصنع القائد الداهية ؟ أفقدّر للإسكندرية وحدها أن تُنقذ مصر كلها من يده ؟ .

لم يياس عمرو مع ذلك من التغلب على عدوه . وكان أول رأيه أن يقف حياؤه بعيداً عن مرمى مجانيقه ، فإذا طال بالروم الحصار شعروا بما فى ذلك من مذلة لهم ، فغامروا بالخروج فتمكن المسلمون منهم . لذلك أقام بعسكره بين الحلوة وقصر فاروس شهرين كاملين ، لم يخرج له الروم أثناءها ولم يحاولوا مناجزته . ونقل عمرو عسكره بعد ذلك إلى المقيس ، فخرجت عليه الجند من ناحية البحيرة مستترة بحصن هناك ، فواقعوه فقتل من المسلمين بكنيسة الذهب اثنا عشر رجلاً ، ثم ارتدت الروم إلى الحصون حين رأوا المسلمين يجتمعون ليلقوهم . ولم يغير ذلك من عزم عمرو على المقام بإزاء المدينة ، وإن دطا لمضاعفة الحذر والحيلة . وكذلك بقى الروم محصورين قلماً يخرجون ، وبقى المسلمون قبالتهم تأتيتهم أرزاقهم من البلاد المجاورة لهم . ولم يدر بخاطر عمرو أن يغامر بهم لمهاجمة حصون يعلم علم اليقين أنها لا تنال .

لكنه رأى بعد قليل من حصار المدينة أن بقاءه أمامها ، يرصد خروج حاميتها من

غير أن يقوم جيشه بعمل خربي يقوّى به عزم جنده قمين أن يدفع إلى نفوس الجند السأم ، وأن يشعرهم بالعجز عن مناجزة عدوّهم ؛ وفي ذلك ما يزعزع من ثقتهم بأنفسهم ، وطمأنينتهم إلى غدهم . وقد هداه تفكيره إلى ما يحقق غرضين في وقت معاً ، فيزيل سأم جنده ويضعف من عزم الروم المحتمين بالعاصمة ؛ فبعث كتائب تجوس خلال بلاد الدلتا تطارد الروم فيها ، ثم أبقى معظم الجند على حصار الإسكندرية .

هل سار عمرو على رأس هذه الكتائب بنفسه ، أم جعل الإمارة عليها لغيره من أمراء جنده ؟ تختلف الروايات في هذا الأمر ، وتذهب طائفة منها إلى أن بعض هذه الكتائب كان يجوس خلال صعيد مصر حين كان بعضها الآخر يجوس خلال الدلتا ، وأن عمراً بدأ ينفذ هذه الخطة مذ كان محاصراً حصن بابليون وقبل أن يسير إلى الإسكندرية . والقارىء يذكر ما قدّمنا من أنه بعث ، وهو على حصار بابليون ، كتائب استولت على أثريب ومنوف ، كما استولت كتائب أخرى على إقليم الفيوم كله . أفضلت هذه الكتائب تتقدّم في الدلتا وفي الصعيد حين كان عمرو يسير بمعظم الجيش إلى كرون وإلى الإسكندرية ؟ أم جمع عمرو كل قواته حين أزمع السير إلى العاصمة الحصينة ، فلم يتخلف منها عن السير معه إلا ما تركه في بابليون وفي البلاد التي تم فتحها لحفظ النظام ، وللقضاء على كل سبب للانتفاض يمكن أن يظهر فيها ؟ .

يذهب بتلر معتمداً على رواية حنا النقيوسى ، إلى أن عمراً سار بنفسه ، بعد ما رأى منعة الإسكندرية ، على رأس كتائب فصلت من الإسكندرية إلى كرون فدمهرو ، ثم اتجه بها إلى الشرق حتى بلغ سخا من إقليم الغربية ، فوقف دونه ما يحيط بها من أسوار وما يكتنفها من مياه ؛ ولم يقدر عليها ، ولذلك تركها وسار جنوباً إلى طوخ الواقعة على نحو ثلاثين ميلاً منها فصدّه أهلها ، فسار إلى دمسيس فعجز عن فتحها . ولم يكسب عمرو من مسيرته هذه ، وقد استغرقت اثني عشر شهراً ، إلا أن أشعر أهل الدلتا بشوكرته ، وأن أوقع بالبلاد غير الحصنة وغنم منها ، ثم عاد إلى بابليون . ويضيف بتلر في موضع آخر من كتابه ، مستنداً دائماً إلى رواية حنا النقيوسى ، أن عمراً ذهب على رأس قوات إلى الصعيد ، وأنه فتحها أو فتح على الأقل بلاد مصر الوسطى ، ثم عاد

بعد ذلك إلى بابليون فأقام بها وهناك جاء إليه المقوقس من الإسكندرية وصالحه .
ويروى البلاذري عن يزيد بن أبي حبيب عن الجديشاني أنه قال : « سمعت جماعة
من شهدوا فتح مصر يُخبرون أن عمرو بن العاص لما فتح القُسطاط وجّه عبد الله بن
حُذافة السَّهَمي إلى عين شمس ، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم القُسطاط
ووجهه خارجة بن حُذافة العَدَوِي إلى القتيوم والأشمونين وإخميم والبشرُودات وقرى
الصعيد ففعل مثل ذلك ، ووجه عُيَير بن وَهَب الجَمَحي إلى تَنْثيس وديمياط وثونة ودميرة
وشَطَا ودَقْنَلَة وبنَا وبوصير ففعل مثل ذلك ، ووجه عقبة بن عامر الجُصَني — ويقال
وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر — إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل
ذلك ، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج .
ونحن نميل إلى الأخذ برواية البلاذري ، وإن لم تذكر بها تواريخ معينة . ونميل
لذلك بخاصة لأن ابن عبد الحكم وغيره ممن أرتخوا لفتح مصر يقررون أن عمرًا بقي
على حصار الإسكندرية مذ سار إليها إلى أن تم له فتحها . وعلى ذلك كانت كتابته تسير
في الدلتا وفي الصعيد حين كان هو على هذا الحصار . وإذا صح أن هذه الكتاب
لم تفتح البلاد الحصنة إلا بعد فتح الإسكندرية فالذي لا شبهة فيه أنها حصرت الروم
في هذه البلاد ، وأنها مدت سلطانها على ما سواها من الأرجاء التي سارت فيها .
ولا شبهة كذلك في أن أهل مصر لم يرحبوا بالعرب ولم يثوروا بهم ولم يقاوموهم ؛ لأنهم
كانوا يخشون أن ينتصر الروم بالإسكندرية ثم يعود الأمر لهم في مصر كلها ، كما كانوا
لا يعرفون ما سيؤول إليه أمرهم إذا عقد النصر لواء للعرب . أنرى هؤلاء العرب
يدعونهم يستقلون ببلادهم ؟ ما أحسبهم خدعوا أنفسهم بمثل هذا الأمل وقد رأوا المسلمين
يستقرون بالشام يأخذون بأيديهم مقاليد حكمه . لذلك أذعنوا للواقع فلم يقاوموا أحداً
ولم يثوروا بأحد ، بل ظلوا على ولائهم الظاهر للروم حينما بقي الأمر للروم ، وأبدوا ولاء
ظاهراً للعرب حينما آل السلطان للعرب ، ووقفوا من المعركة الدائرة في أرضهم موقف
المتفرج ، وقد شُدت أنظارهم إلى العاصمة العظيمة فكلمهم التشوف إلى إنباتها والتطلع
إلى ما ينتهي إليه أمرها .

وكيف لا يكون ذلك شأنهم وقد كان الشهر يمضى يعقبه الشهر والعاصمة الحصينة آمنة مطمئنة لا يجرؤ المسلمون على التفكير في مهاجمتها ، بله اقتحامها ! ذلك لأنها كانت مفتوحة للروم من ناحية البحر فهم يستطيعون أن يمدوها بما يشاءون من جند وعتاد . والظاهر من مختلف الروايات أن القتال عندها كان مقصوراً أغلب الأمر على مناوشات لا تبلغ أن تكون حرباً . روى ابن عبد الحكم أن طرفاً من الروم خرجوا من باب حصن الإسكندرية ، فحملوا على الناس فقتلوا رجلاً من مَهْرَة فاحتزوا رأسه وانطلقوا به ، فغضب المَهْرِيون وقالوا : « لا ندفعه أبداً إلا برأسه » . فقال لهم عمرو ؛ « تَغَضَّبُونَ ! كأنكم تغضبون على مَنْ يبالي بغضبك . احمِلوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلاً ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم » وخرج الروم يوماً فقتل العرب منهم رجلاً فاحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم ، فرمى الروم برأس المَهْرِي إلىهم فدفنوه وطبيعياً ألا تحسب مثل هذه المناوشات حرباً . ولقد ضاق عمرو بها ذرعاً ، ثم لم يستطع أن يدفع جنده لأكثر منها ، حذراً أن يسوقهم إلى هلكة يؤاخذ بها عثمان بن عفان ومن كانوا على رأيه فعاثوا على ابن العاص جرأته في الإقدام على فتح مصر . ولعله كذلك كان يجد من جنده من يتقاعسون إذا دُعوا للإقدام ، وإن كان على ثقة من أن أكثرهم يستحب الموت على الحياة . يدل على ذلك ما روى من قوله يصف طرائف هذا الجند « ثلاث قبائل في مصر : أما مَهْرَة فقوم يُقتلون ولا يُقتلون ، وأما غافق فقوم يُقتلون ولا يُقتلون ، وأما بِلْيَ فأكثرها رجلاً صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضلها فارساً » على أن أمداد الروم إلى الإسكندرية مالبثت أن انقطعت بعد قليل من موت هرقل ؛ فقد شغل أهل بُزَنْطِيَة بما ساد بلاطهم من الاضطراب ، وبما نشأ في عاصمتهم من الانتقاض على مَرْتِينَا وابنها ، فنسوا الإسكندرية ونسوا مصر ، ولم يعد منهم أحد يفكر في الدفاع عنها . وذلك قول المؤرخين المسلمين إذ يذكرون موت هرقل : « إن الله كسر بموته شوكة الروم » . وقت انقطاع المدد عن عاصمة مصر في أعضاء حُجَّاتها ، فأوجسوا خيفة أن يدهمها العرب ، أو أن يتغلبوا على بلاد الساحل فيقطعوا عنها ميرتها وزاد في مخاوفهم ما كان يبلغهم من انتشار هؤلاء العرب في الصعيد وفي مصر السفلى .

وَمِنْ حَصَرِهِمْ حَامِيَاتُ الرُّومِ فِي الْبِلَادِ الْحَصِينَةِ دَاخِلَ أَسْوَارِ هَذِهِ الْبِلَادِ . وَمَا عَسَى أَنْ تَسْتَطِيعَهُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةُ إِذَا حُرِّمَتِ الطَّعَامُ وَفُشَتْ فِيهَا الْحَاجَةُ ! وَمَا بَقَاءُ جُنُودِ الرُّومِ بِعَاصِمَتِهِ هَذَا حَالَهَا فِي حِينَ أَنْ عَاصِمَتُهُمْ عَلَى ضَفَافِ الْبَسْفُورِ مُضْطَرِبَةٌ مَهْدَدَةٌ بِشَرِّ أَلْوَانِ الْفَسَادِ وَالْفَوْضَى ! . هَذِهِ كُلُّهَا عَوَامِلُ تَرْعُزُ الرُّوحَ الْمَعْنَوِيَّةَ فِي نَفْسِ كُلِّ جَيْشٍ مُقَاتِلٍ . وَقَدْ زَعَزَعَتْ رُوحَ الْجِيُوشِ الْمُدَافِعَةِ عَنِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَجَعَلَتْهَا لَا تَرَى فِي مَنَاعَةِ الْحِصُونِ وَالْأَسْوَارِ الْحَيِظَةَ بِهَا مَا يَدْفَعُ عَنْهَا أَوْ يَعْصِمُهَا مِنَ الْهَزِيمَةِ إِذَا غَامَرَ مُحَاصِرُوهَا بِمُهَاجَمَتِهَا .

وَكَيْفَ لَا تَنْجَلَّ رُوحُهُمْ وَكَانَ اشْتِغَالُ الرُّومِ فِي مَدِينَةِ قُسْطَنْطِينٍ بِدَسَائِسِ بِلَاطِهِمْ وَبِاضْطِرَابِ شُؤْنِهِمْ قَدْ صَرَفَهُمْ عَنِ التَّفَكِيرِ فِي مَصْرِ وَالِدِفَاعِ عَنْهَا ! وَكَانَ شَعُورُ الْجُنْدِ الْمُدَافِعِ عَنِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بِهَذِهِ الْحَالِ يَشْتَدُّ يَوْمًا ، فَيَوْمًا ، فَيَزِيدُ رُوحَهُمُ الْمَعْنَوِيَّةَ بِتَوَالِي الْأَيَّامِ انْخِلَالًا . وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَجُنُودُهُ مُقِيمِينَ عَلَى حِصَارِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ لَا يَبْرَحُونَهَا ، مُطْمَئِنِّينَ إِلَى وَفَرَةٍ مِيرَتِهِمْ وَذَخِيرَتِهِمْ ، وَإِلَى مَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَنْبَاءِ إِخْوَانِهِمُ الْمُنْتَشَرِينَ فِي الصَّعِيدِ وَفِي الدَّلْتَا . أَمَّا عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ بِالْمَدِينَةِ فَكَانَ يَنْتَظِرُ أَنْبَاءَ مَصْرِ إِذْ تَرَدُّ إِلَيْهِ الْقَيْئَةُ بَعْدَ الْفَيْئَةِ ، وَهُوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ اسْتِعْجَالًا لِلنَّبَأِ بِسُقُوطِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِي يَدِ الْمُسْلِمِينَ . لَكِنْ هَذَا النَّبَأُ أَبْطَأَ عَنْهُ شَرًّا . وَسَاءَ هَذَا الْإِبْطَاءُ فَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنِ السَّبَبِ فِيهِ . فَهُؤُلَاءِ الْجُنُودُ هُمُ الَّذِينَ فَتَحُوا أَمْنَعَ الْمَدِينِ وَأَقْوَاهَا حِصُونًا . وَهُوَ لَمْ يَقْصُرْ عَنِ إِمدَادِ عَمْرُو بْنِ يَكْفُلَ لَهُ الظَّفَرُ بِمُخْصُومِهِ . فَمَا بِالْهِمَامِ ذَلِكَ يَقِيمُ أَمَامَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ الْمَحْصُورَةِ كَأَنَّمَا طَابَ لَهُ وَلَجُنْدُهُ هَذَا الْمَقَامُ ، وَكَأَنَّهُمْ اكْتَفَوْا بِهِ فَلَمْ يَحَاوِلُوا مَا بَعْدَهُ ؟ ! وَلَمْ تَسْكُنْ أَنْبَاءُ الرُّومِ وَاضْطِرَابَ مَلِكِهِمْ لَتَغْيِيبِ عَنِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ . فُكَيْفَ وَهَذِهِ فُرْصَةٌ نَادِرَةٌ لِلظَّفَرِ بِهِمْ بِضِيْعَتِهَا ابْنُ الْعَاصِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، مَعَ أَنَّهُمْ ظَفَرُوا بِالرُّومِ مِنْ قَبْلِ فِي أَجْنَادِينَ حِينَ كَانَ هَرَقْلُ لَا يَزَالُ حَيًّا . وَحِينَ كَانَ الرُّومُ يَرُونَ أَجْنَادِينَ الْحِصْنِ الْأَوَّلِ فِي خُطِّ الدِّفَاعِ عَنِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، وَيَرُونَ دِفَاعَهُمْ عَنِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ دِفَاعًا عَنِ دِينِهِمْ وَعَنِ قَبْرِ الْمَسِيحِ نَفْسَهُ ؟ ! لَيْسَتْ قُوَّةُ الرُّومِ إِذَا هِيَ الَّتِي وَقَفَتْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَبْوَابِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ . وَلَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَنَّ قَدْ طَرَأَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ مَا أَضْعَفَ إِقْدَامَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ وَحَرَّضَهُمْ عَلَى الشَّهَادَةِ . وَمَاذَا عَسَى أَنْ يَطْرَأَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا أَغْرَتَهُمْ بِهِ خَيْرَاتُ مَصْرِ مِنْ تَعَلُّقٍ بِالدُّنْيَا وَشَرِّهِ إِلَى نَعِيمِهَا ! وَعَمْرُ

أشدّ الدّاس إيماناً بأن حبّ الدنيا يُفسد في النفس نخوتها وإقدامها . لذلك جعل الغضب يأخذ من نفسه كلّاً أبطأ عنه نبأ الفتح . فلما فاض عنه الغضب قال لأصحابه يحدثهم عن مصر : « ما أبطنوا بفتحها إلّا لما أحدثوا » . ثم كتب إلى عمرو بن العاص يقول له : « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر . إنكم تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذلك إلّا لما أحدثتم من الدنيا ما أحبّ عدوكم . وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلّا بصدق نبيّاتهم . وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلنتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلّا أن يكونوا غيّرم ما غيّر غيرهم . فإذا أذاك كتابي هذا فاخطبُ الناس وحُضهم على قتال عدوهم ورغّبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومُرِ الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد . وليسكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة ، وليعيج الناس إلى الله ويسألونه النصر على عدوهم » .

كم كانت الأشهر التي حاصر العرب فيها الإسكندرية ، فأحفظ طولها عُمر ودفعه إلى أن يكتب هذا الكتاب ؟ يقول ابن عبد الحكم : إنها كانت أربعة عشر شهراً خمسة قبل موت هرقل وتسعة بعده . ويروى البلاذري أن عمراً بلغ الإسكندرية فوجد أهلها معدّين لقتاله ، فأرسل إلى المقوقس يهدده ويذكر له ظفر المسلمين بالروم في كل مكان . ونصح المقوقس لقومه بالصلح « فأبوا إلّا الحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وحصروهم ثلاثة أشهر . ثم إن عمراً فتحها بالسيف وغنم مافيها ، واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب ، وجعلهم ذمّة كاهل إلْيونة » . ويذهب بتر ، في الملحق الرابع الذي جعله في ذيل كتابه عن (تواريخ الفتح العربي) ، إلى أن المسلمين بدءوا حصار الإسكندرية في أواخر يونيو سنة ٦٤١ ، وأن المدينة سلمت في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ . وهذا يعني أن الحصار دام أربعة أشهر ونصف شهر . وقد يؤيد هذا القول الذي أورده بتر ماجاء في كتاب عمرو ابن الخطاب إلى عمرو بن العاص : « إنكم تقاتلونهم منذ سنتين » . فما بين وصول عمرو إلى العرش في ديسمبر سنة ٦٣٩ وتسليم الإسكندرية في نوفمبر سنة ٦٤١ يعادل سنتين

هلايتين ؛ وهما لا ريب كافيتان لإثارة عمر ودفعه لأن يبعث إلى قائده على جيوش مصر يتهمهم بأنهم أحدثوا وأن الدنيا غيرتهم .

تلا عمرو كتاب أمير المؤمنين وأخذ يفكر في خطة يفتح بها الإسكندرية . وفي رواية أنه بدأ هذا التفكير ولم يصله كتاب من المدينة . روى ابن عبد الحكم عن أبيه عبد الله ابن عبد الحكم أنه قال : « لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس فقال : إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله — يريد الأنصار — فدعا عبادة بن الصامت ففعله ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذاك » .

أما الذين يثبتون كتاب أمير المؤمنين فيقولون إن عمر أجمع الناس وقرأ عليهم الكتاب ، ثم دعا أولئك النفر الذين ذكروا فيه فقدّمهم ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلّوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر على عدوّهم ، ففعلوا ففتح الله عليهم . وفي رواية أن عمر استشار مسّلمة بن مخلّد في خطة الفتح ، فأشار عليه أن يعقد لعبادة بن الصامت لبيّات القتال ، فدعا عمرو عبادة وتناول منه سينان رحمه وعقد له وولاه قتال الروم ، فقاتلهم ففتح الله عليه الإسكندرية ليومه .

هذه الروايات التي أوردتها ابن عبد الحكم تنتهي كلها إلى ما تنتهي إليه رواية البلاذريّ من أن المسلمين هاجموا المدينة ففتحها الله عليهم ، وأن ذلك كان يوم الجمعة لمستهل الحرام سنة عشرين من الهجرة . وأنت تراها جميعاً خلواً من كل تفصيل . وغاية ما أوردته البلاذريّ من هذا التفصيل أن عمر وجد أهل الإسكندرية مُعِدّين لقتاله إلا القبط ، فإنهم كانوا يحبّون الموادعة « فأرسل المقوقس يسأل عمر الصلح والمهادنة إلى مدة ، فأبى عمرو ذلك ، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههن إلى داخله ، وأقام الرجال في السلاح مُقبِلين بوجوههم إلى المسلمين ليُرهبهم بذلك ؛ فأرسل إليه عمر : « إنا قد رأينا ما صنعت ، وما بالكثرة غلبنا من غلبنا ، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان » . فقال المقوقس لأصحابه : قد صدق

هؤلاء القوم ؛ أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية ، فنحن أولى بالإذعان . فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وحصروهم ثلاثة أشهر . ثم إن عمراً فتحها بالسيف . « وهذا تفصيل طريف قد يصور حيلة المقوقس أول ما حاصر عمرو الإسكندرية ، وما دار بين الرجلين من سفارة إذ ذاك ؛ لكنه لا يصور الموقعة الحاسمة التي انتهت بفتح الإسكندرية عنوةً ، ولا يصف قتال المسلمين حين اقتحموا ما يحيط بالمدينة من أسوار متينة ، وحين اجتاحوا حصونها المنيعة ودخلوها ظافرين منتصرين .

وليس يسعنا إلا أن نبدي من الأسف على هذا الإغفال مثل ما أبدينا حين الكلام عن فتح كريون . فصيحات الأبطال الذين فتحوا الإسكندرية ، والتحامهم بعدوهم ، وكيف قاومهم العدو ، والأسباب التي أدت إلى ظفر الأولين وهزيمة الآخرين ، وكيف استقبل شعب الإسكندرية الفاتحين ، كلها أمور عظيمة الشأن . وشأنها لا يقف عند ما تفتوى عليه من رائع القصص ، بل تتعدى ذلك إلى أنها تجلونا الميول والاتجاهات الإنسانية التي كانت قائمة بنقوس الجاعات في ذلك العصر ، وتهدينا لذلك إلى تبين العوامل التي كيّفت ما حدث بعد ذلك من تطور في أحوال المنتصرين والمهزمين على سواء ، وترسم لنا جانباً من صورة الإنسانية لذلك العصر على نحو يكشف عن اتجاه الضمير الإنساني في عصر بعينه . ومعرفتنا هذا الاتجاه تمسكنا من أن نضع رسماً بياتياً ، على تعبير المهندسين والطبيعيين ، لسير الإنسانية في دأبها المنصل على العصور ابتغاء الكمال .

وليس يخفف من أسفنا ما أورد المؤرخون من مواقف فردية لبعض الأبطال ؛ فهذه المواقف ، إن صحّت الرواية في أمرها ، لا تصور اتجاهها هاماً للتفكير الإنساني في العهد الذي وقعت فيه ، وإن أمكن أن تصوّر ناحية من نواحي الخلق الفردي لأبطال ذلك العهد . ذكروا أن الروم بالإسكندرية قاتلوا المسلمين يوماً من الأيام قتالاً شديداً ، فلما حصى الوطيس بارز رجل من الروم مسلة بن محمد فسرعه وألقاه عن فرسه ، وأهوى عليه ليقتله لولا أن حى مسلة رجل من أصحابه . وكان مسلة على شجاعته بديناً .

فلما رأى عمرو بن العاص ما حدث غضب من مسلمة وقال : « ما بال الرجل الذى يُشبه النساء يتعرّض مداخل الرجال ويتشبه بهم ! » . وغضب مسلمة من قول عمرو ؛ لكنه كظم غضبه وأسرها في نفسه . ثم إن القتال اشتد واقتحم المسلمون حصن الإسكندرية ، ودخله عمرو ومسلمة فيمن دخله ، وكرّ عليهم الروم وأخرجوهم جميعاً من الحصن إلا أربعة نفر لم يستطيعوا الخروج ، فأغلق عليهم الروم باب الحصن وحبسوهم فيه . وكان عمرو ومسلمة بين هؤلاء الأربعة ؛ لكن الروم لم يعرفوها . وتكلّم رومى بالبرية فقال لعمرو وأصحابه : إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم ، فامتنعوا عليهم . فقال لهم الرومى : إن في أيدي أصحابكم رجالاً منا أسروهم ، ونحن نعطيك اليهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم ، فأبوا عليهم . فاستأنف الرومى قائلاً : هل لكم إلى خطة نصف بيننا وبينكم : أن يبرز منكم رجل ومنا رجل ، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرت لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلتنا سبيلكم إلى أصحابكم ؟ فرضى المسلمون الأربعة بذلك . وبرز من الروم رجل وثق أصحابه بنجدته وشدّته . وأراد عمرو أن يبرز بنفسه ، فمنعه مسلمة حتى لا يتعرّض للقتل فيكون قتله بلاء على أصحابه جميعاً ، واستأذنه في أن يبرز . قال عمرو : دونك ، فربما فرّجها الله بك . وبارز مسلمة الرومى فتجاولا ساعة ثم أعان الله مسلمة على الرومى فقتله . وفتح لهم الروم باب الحصن فخرجوا وقد استحيوا عمرو بما كان قاله لمسلمة ، فاستغفروه منه فغفره له . فقال عمرو : « والله ما أخشيت قط إلا ثلاث مرار : مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة ، وما منهن إلا وقد ندمت ، وما استحييت من واحدة منهن أشدّ مما استحييت مما قلت لك ! والله إنى لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت ! » .

هذه الصورة أدنى إلى الأساطير ، وهى مع ذلك تصف لنا جانباً من خلق مسلمة ، وجانباً من خلق عمرو ، وكلا الجانبين مضى يحمل التأسّى به . لكنها لا تزيد على هذا الوصف ، فلا تصوّر اتجاهاً عائداً في حياة الجماعة كان له أثره في هذا اليوم الحاسم الذى قضى على وجود الروم في مصر . ومن عجّب أن تبلغ الروايات التى انتهت إلينا من الإيجاز فلا تذكر أى أبواب المدينة دخل منه المسلمون ، ولا كيف اقتحموه ، ولا كيف دافع

(عمر ج ٢ - ١٠٢)

الروم عنه ، مع أن هذا اليوم الحاسم قد كان لاريب من أهول الأيام في حروب ذلك العهد ؛ فكان أهول من أيام القادسية الثلاثة ، ومن يوم المدائن ويوم نهاوند ! وأعجب من ذلك أن يكتفى المؤرخون المسلمون من وصف هزيمة الروم بمثل هذا القول : « فلهذه هزم الله تبارك وتعالى الروم وفتح الإسكندرية هرب الروم في البر والبحر » ١ .

مهما يكن من أمر هذا الإيجاز ، فالمؤرخون المسلمون جميعاً متفقون على أن الإسكندرية فتحت عنوةً ، وأن الروم هربوا لفتحها يلتمسون من سيوف الغزاة ملجأً حيثما وجدوه . لكن بتلر يصور هذا الفتح صورة تختلف عن ذلك كل الاختلاف : صورة التسليم على صلاح ، لا صورة الإذعان عن هزيمة . فهو يذكر ، كما قدمنا ، أن عمرو بن العاص سار بنفسه على رأس الكتائب التي ذهبت من الإسكندرية تذبح الفزع في بلاد الدلتا ، وأن اللطاف انتهى به إلى بابليون حين فيض النيل . وبينما هو في الحصن واقاه قيرس آتياً من الإسكندرية يحمل رسالة الإذعان والتسليم ، ويقول للأمير العربي : « إن الله قد أعطاكم هذه الأرض ، فلا تدخلوا بعد اليوم في حرب مع الروم » ، ثم ينتهى بعد المفاوضة إلى عقد الصلح معه .

وعاد قيرس إلى الإسكندرية يحمل عهداً عقده مع القائد العربي وأهلها لايملون . ماصنع ، ولم يجد مشقة في حمل أمراء الجند على إقرار هذا الصلح والنزول على أحكامه . وتسامع الناس همساً بما حدث ، فثارت نفوسهم ، ثم زادهم ثورة ما فجأهم من دخول فئة من العرب مدينتهم ؛ يسرون على خيلهم لايلون على شيء ، ولا يعبثون بضجة الناس من حولهم . وبلغت منهم الثورة لصنيع قيرس أن أقبلوا إلى قصره ، وأحاطوا به يريدون أن يقتلوه . ومع إحداق الخطر بحياته استطاع البطريق الشيخ . ببلاغته وقوة حجته وهيبة شيخوخته ، أن يسكن نائرة الناس ، وأن يقنعهم بصدق رأيه ، وأن يحملهم على قبول ماصنع . بل لقد بلغ من تأثير الثائرين بأقواله أن جعلوا « يتلاومون على ما اقترفوا من الوثوب والحنق على ذلك الخبر الطاهر ، في حين كان يسعى جهد طاقته ليحول بينهم وبين الهلاك على يد الغزاة ، وأخذوا يجمعون قسط الجزية التي فرضت عليهم وزادوا عليها مقداراً كبيراً من الذهب ، ووضع ذلك المال في سفينة خرجت من الباب الجنوبي

الذى تدخل منه التربة ، وذهب قيرس بنفسه ليحمله إلى قائد المسلمين . وبذلك تم فتح الإسكندرية^(١) .

هذه رواية بتلر ، وهى تختلف عن تصوير المؤرخين المسلمين لفتح الإسكندرية أشد الاختلاف . وقد أورد بتلر فى روايته هذه طائفة من نصوص المعاهدة التى أشار إلى أن المقوقس عقدها مع عمرو بن العاص خاصة بالإسكندرية . ولو أن هذه الرواية بقيت قائمة ، لكانت جديرة أن تبعث إلى نفس القارئ شيئاً من الإضطراب ، إذ يوازن بينها وبين رواية المؤرخين المسلمين . فقد أبدى هذا المؤرخ العالم من النزاهة ومن الحرص على الدقة العلمية فى بحوثه ما يدعو لاحترام رأيه فى الوقائع التى حققها ، وإن اختلف الإنسان معه فى استنباطاته وفى آرائه وفى طريقة توجيهها . لكن هذه النزاهة نفسها هى التى اقتضت هذا العالم الدقيق أن يعدل عن رأيه ذاك حين ثبت له عدم صحته ، وأن يسلم بأن عمراً والمقوقس لم يعقدا غير معاهدة واحدة هى التى وضعت شروطها حين حصار حصن بابليون ، ثم رفضها هرقل ونفى قيرس من أجلها . بهذا أصبحنا قادرين على أن نطمئن كل الاطمئنان إلى رواية المؤرخين المسلمين على إيجازها ، وأن نسلم بأن الإسكندرية فتحت عنوةً ، وأن ما ربما حدث بعد هذا الفتح بين المقوقس والقائد العربى لم يتجاوز تنظيم الوسيلة لجلاء جند الروم عن العاصمة المصرية وعن بلاد مصر كلها^(٢) .

دخل المسلمون الاسكندرية عنوة فاقترحوا أسوارها وفتحوا بابها ، ففر الروم منهم إلى البر والبحر ، وأذن لهم سكان العاصمة وأسلموهم مقاليدها ، فأخذ هؤلاء البدوم أهل شبه الجزيرة يجوسون خلال مدينة الاسكندر ، فلا يكادون يخطون فيها خطوة بعد خطوة حتى يبلغ منهم البهر حد الذهول . لقد تولتهم الدهشة ، أول مقدمهم لحصارها ، حين رأوا ضواحيها وأسوارها ، وحين تبدت لهم أعاليها من وراء الأسوار محدثة عما فيها من بدائع الفن والعمارة وزخرفها . بل لقد كانت الأسوار وحدها عجباً بمئاتها وبراعة صماعتها وما ينهض فيها من بروج وحصون . أما الآن وقد تخطوا الأسوار إلى داخل المدينة فليس ما يروونه عجباً وكفى ، بل هو بارع باهر يسحر اللب ويلعب بالقلوب . فهذان الطريقان العظيمان ،

(١) بتلر ، الترجمة العربية : ص ٢٨٨ (٢) الملحق السابع فى الترجمة العربية لكتاب بتلر : ص ٩٨

الذنان يشقان المدينة من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب ، فريدان لانظير لهما في كل مارأوا بالشام أو بالعراق ، تكتنفهما على طولهما عمدٌ من مرمر ناصع يأخذ لألاؤه النظر ، ويتقاطعان في ميدان فسيح غرست فيه الحدائق الغناء فجعلته روضة من رياض الجنة ، وقامت من حوله القصور المنيفة تُحيط بها جَنَات من أعناب وزهر وفاكهة وكل زرع نضير . ويبلغ أحد الطريقين البحر فينكشف الرفأ للنظر ، وتتجلى من حوله مجائب يحار المرء عند أيها يقف ، فإذا وقف عند أحدها سحر به فلم تطاوعه نفسه إلى مجاوزته . فهذه قصور البطالسة يحدث مايقى من جلالها وإبداعها عن عظمة في العلم والفن لاتدانيها عظمة . وهذه المقبرة الكبرى التي كانت بها جثة الإسكندر وعليها غشاء من ذهب . وهذا المتحف يتصل به مكتباته العجيبة التي كانت مقر العلوم في العالم أجمع . وهذا إيوان عظيم تحيط به أربعة صفوف من العمُد ، يسميه أهل المدينة (التتريلوس) ، ويذكرون أن الإسكندر الأكبر دفن به النبي أرَميا ، وهم لذلك يحترمونه ويحلوونه . وإلى جانب ذلك المشهد تقوم الكنيسة الكبرى ، كنيسة القديس مرقس ، البدعة البناء ، وعلى مقربة منها تقوم طائفة من الكنائس تعنو لعظمتها ، وهي مع ذلك بدائع في الفن تشهد بما جُبل عليه أهل مصر من حب الإنفاق في بناء المعابد زُلُفَى إلى الآلهة التي يعبدونها .

كانت كنيسة القديس مرقس تحتوى جثمان ذلك الرسول موضوعاً أمام المحراب في تابوت من المرمر ، وكانت لهذا السبب وللفخامة بنائها موضع الإكبار والتقديس من جميع الناس . على أن كنيسة « القيصريون » القائمة في الحى نفسه عند ثنيّه الرفأ الأعظم كانت أعظم منها شأنًا ، وكادت لذلك أن تحل محلها . ولم تكن القيصريون « كنيسة أوّل تشييدها ، بل كانت معبدًا وثنيًا أقامته « كليوباترا » فوق نهْد من الأرض مشرف على البحر ليراه كل قادم إلى الإسكندرية ، فيرى العظمة والجلال والجمال بمجموعة وقد شادت الملكة البارعة ابنة البطالسة الأعظمين هذا المعبد الفخم إعظاماً ليُليُوس قيصر ، ولذلك أطلق عليه اسم « القيصريون » . فلما انتحرت وآل حكم مصر إلى الرومان أتمّ القيصر « أغسطس » بناء المعبد وزاد فيه وجعله من العظمة بما جعل « فيلو » يقول

في وصفه : « ... كان معبد قيصر أثرًا لا مثيل له ، وكان على ميناء فسيحة ، عظيم البناء عجيب الصناعة على السمك يعدّه الناس علماء من أعلام البحر ؛ قد زانته أبدع الصور والتماثيل ؛ تُقدّم إليه جليل الهدايا والقرايين ؛ وكانت تجمله كله حلية من الذهب والفضة ؛ فكان نموذجًا في جمال تنسيقه وإبداع أجزائه المؤلفة من متاحف ومكاتب وقياب وساحات وأبهاء ومماش وخمائل من أشجار ظاهرة . قد وضع كل شيء في موضعه اللائق به ، وأبدعت فيه يد الصناعة فأبرزته في حلة أنيقة من الرونق ، بُذل في سبيلها المال لم يذخر بأذله ثمينًا ولا غاليًا ، وكان إلى ذلك مُتعة لأهل الأسفار وجلاء لأعينهم إذا وقعت عليه في غدواتهم وروحاتهم ^(١) » .

وكان في صدر « القيصريون » مسلتان أثارتا من العرب أشد العجب ؛ فقد كانتا من الجرانيت الأحمر ، وكانتا مربعةتين تقومان على قاعدتين كُسيت إحداهما بغطاء من النحاس على شكل أربعة من الجعلان نُقشت عليها نقوش قديمة . وكانت هذه الجعلان تفصل بين المسلة وبين القاعدة ، ثم كانت القاعدة قطعة واحدة من الجرانيت تحتها ثلاث طبقات مدرّجة من الحجر . أما القاعدة الثانية فكان يفصل بينها وبين المسلة أربعة تماثيل من حجر شفاف خاله العرب زجاجًا . وكان على رأس كل المسلتين غطاء من النحاس أو البرنز يرتكز عليه تمثال من هذا المعدن ، ويمثل أحد التمثالين إلهًا لعله إله النصر ، ويمثل الآخر إلهة لعلها من آلهة البحر . وكانت هذه المسلات بتماثيلها وقواعدها بارعة الجمال في دقة صناعتها ، فكانت متاعًا لعين الناظر إليها من البحر إذ تمر بها السفن داخلة إلى المرفأ أو خارجة منه .

كانت هذه المجموعة البديعة ، من قصور ومعابد وكنائس وتماثيل وعمد ومسلات ، مشرفة على البحر عند نهاية أحد الطريقين الرئيسيين للمدينة ، فكان العرب إذ يبلغونها يقفون عند كل واحد منها مسحورين تولاّم البهر . وماندرى لعل بهرم بها أول دخولهم المدينة قد أتاح للروم الذين فروا في البحر فرصة الابتعاد بالسفن عن الشاطئ .

وفي حَيٍّ آخر على مقربة من الباب الجنوبي للإسكندرية ، كان يقوم عمود

(١) نقله بتلر : ص ٣٢٣ من الترجمة العربية .

« دقلد يونس » الذى سمّاه العرب من بعد « عمود السوارى » . وهذا العمود لا يزال قائماً يشهد فى صمته بما كان عليه معبد السرايوم القائم حوله من جمال وجلال وعظمة . فما من شئ يرسم أمامنا صورة منه إلا أطلال الكرنك ، لولا أن الكرنك مصرى كل عمارته العظمة والجلال ، وأن السرايوم قد جمع بين الفنين المصرى والإغريق ، فجمع إلى الجلال المصرى دقة الفن الإغريق وزينته .

فقد شُيّد هذا المعبد أول ما شُيّد فى عهد البطالسة قدساً للإله « سيرايس » . ويذكرون أن بطليموس الذى شاده جاء بتمثال إله من جزيرة إغريقية ، وأطلق عليه اسماً مشتقاً من الاسمين أوزوريس وأيبس ، ليجمع حوله عبادة أهل الإسكندرية ، من المصريين الأصليين ، ومن اليونان الذين نزحوا إليها واستوطنوها . وشاد بطليموس قدس هذا الإله فوق ربوة يذهب بعضهم إلى أنها ربوة طبيعية كربوة الأكروبوليس بأثينا ، على حين يذهب آخرون إلى أنها من صنع الإنسان . وأياً ما يكن الواقع فقد كان هذا البناء قائماً على نهْد له نواة من الصخر الطبيعى ، وكان مشرفاً بارتفاعه على المدينة ، وكان قاصده يصل لذلك إليه عن أحد طريقين : أولهما سُلّم مائة درجة ، والثانى سفحٌ ممهد تسير عليه العجلات .

والظاهر من روايات المؤرخين أن بناء السرايوم كان مستطيلاً خمسمائة ذراع فى مائتين وخمسين . وكان قدس سيرايس يقوم فى وسطه مُشَيّداً داخله وخارجه من أثمن المرمر ، وقد خلع على بنائه من الروعة غاية ما بلغه فى الممار فى مصر . وفى وسط هذا القدس كان يقوم تمثال عظيم لسيرايس من الخشب الملبس بالذهب والعاج ، له ذراعان ممدودتان ، تكاد كل منهما تلمس الحائط الذى يليها . وكانت تزين القدس نقوس باهرة لا سبيل إلى تقويمها . وقد أحيط القدس بصف من العمد توازى العمد التى كانت تحيط بالبناء كله فى أربعة صفوف متوازية . ولقد هدم المسيحيون هذا القدس الوثنى قبل دخول العرب ، فلم تصدّم عن روعة عمارته ولم تحملهم على الاكتفاء بإخراج التمثال الوثنى منه والإبقاء على بنائه البارع البديع .

ولم يكن بناء السرايوم فيما حول قدس سيرايس دون هذا القدس جلالات . قال

« أميانوس » في وصفه : « إن اللفظ ليمجّز عن تصوير صورة حقيقية له ؛ فقد كانت أبهاؤه ذات العباد ، وتمائيله التي كأنها من الأحياء ، وما كان به غير ذلك من آثار الفن ، كل ذلك كان يميزه ويخلع عليه بهاء يجعله فذاً في العالم ، فلا شيء مما فيه يزيد عليه جمالا اللهم إلا بناء الكابوتل ، ذلك الفخر الخالد الذي تفخر به رومية العظيمة » .

وكان في بناء السرايوم حجرات عظيمة شَعَدَتْ بعضها مكتبة الإسكندرية ، وشغلت بعضها مشاهد لآلهة مصر القديمة . وكان فيه مستلّتان قديمتان وحوض ماء عظيم من المرمر الفائق الجمال . وقد اتخذ المسيحيون بعض مبانيه كنائس بقي بعضها قائماً إلى ما بعد الفتح العربي . وكان يلاصق مدخله بناء له قبة مذهبة عالية قائمة على دائرة مزدوجة من الأعمدة . وقد بقي هذا البناء ، كما بقي كثير من عمد السرايوم قائماً إلى زمن طويل بعد الفتح . وكان بعض المؤرخين يذكرون هذا البناء ، ويطلقون عليه اسم « مدرسة أرسطو » ، و « قبة أرسطو » ، و « بيت الحكمة » .

وعلى مقربة من السرايوم أقيم ميدان لسباق الخيل ، قيل إنه كان يتسع لألف ألف من النظارة ، وإن بناءه كان يتيح هذا العدد العظيم أن يروا ويسمعوا ما يجري فيه من غير مشقة . أما دار التمثيل فكانت في حي آخر استقلت فيه ببناء عظيم تلفت عظمتها النظر ويسحر جماله الفؤاد .

أخذ الفاتحون بهذا العمران الذي تجلّى لهم أول ما دخلوا المدينة وجاسوا خلالها . لكنهم لم يلبثوا أن بلغت منهم الدهشة حين رأوا أسفل هذه المباني الرائعة مباني أخرى تحت أرض المدينة ، ثم رأوا هذه المباني السفلى طبقات بعضها دون بعض ، أربع طبقات أو خمساً ، وفي كل طبقة منها عدد عظيم من العمُد ومن الحجرات التي كانت تستعمل صهاريج لخزن المياه . وقد كانت المياه تجري إليها أثناء فيض النيل في قنوات تصلها بالترعة الحلوة ، فإذا امتلأت شرب الناس منها طول العام .

أخذ العرب وتولّاهم البهر لِمَا رأوا من ذلك كله . على أن ذلك كله لم يثر من دهشتهم ومعجبهم وإعجابهم ما أثارته المنارة الكبرى . كان ذلك البناء العظيم العجيب ، قائماً في الشمال الشرقي من جزيرة فاروس المتصلة بالمدينة بطريق طويل ، قائم على عقود

متينة^(١). وقد أقام بطليموس الثانى هذه المنارة التى كانت عجيبية من عجائب الدنيا السبع هداية السفن ، فشادها من أحجار بيضاء تلمع نهاراً فى ضوء الشمس فإذا جنَّ الليل أضيئت ليراها راكب البحر ؛ فكانت بذلك هادى السفن إلى المدينة اليوم كله .

وقد شاد بطليموس المنارة على صخرة فى البحر ، وبنها من صخور متينة منحوتة. صب بينها الرصاص حتى لا يتسرب ماء البحر إلى أى جزء من أجزائها . وكان ارتفاعها ثلاثمائة ذراع قسمت إلى طبقات أربع ؛ أولاها مما بلى الأرض مربعة والثانية التى تعلوها مشتمة ، والثالثة مستديرة ، والرابعة مكشوفة بها مواضع للنار التى تهدى السفن ، ومرتآة طال حديث الكتاب والمؤرخين عنها . وكان فى كل طبقة طُفٌّ يُشرف على المدينة . ويصل بين الطبقات سلمٌ صاعد خلال المنارة من أسفلها إلى أعلاها ، تضيئه نوافذ فتحت فى مواضع مختلفة من البناء على نحو هندسى دقيق .

وكان بالمنارة غُرفٌ كثيرة متداخلة ، أثار عددها وتداخلها عجب العرب ، حتى لقد قال المقرئى : « ويقال إن كل من دخل هذه المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف . العدة والطبقات والمماشى » . فأما المرأة التى كانت فى أعلاها فكانت أعجوبة الأعاجيب ، ولذلك كثرت الأقاويل فى معدنها وفى الغرض من وضعها وفى مبلغ قوتها . يقول السعوى : « إنها امرأة عظيمة من الحجر الشفاف ، يمكن أن ترى فيها السفن الآتية من بلاد الروم وهى بعيدة عن مدى البصر » . ويقول آخر : « إنها من زجاج محكم الصنعة » . ويقول ثالث : « إنها من الحديد الصينى » . ويقول السيوطى : « إن عرضها كان سبع أذرع ، وإنها كانت تظهر السفن الآتية من بلاد أوربا ، وكانت تستعمل لإحراق سفن العدو ، فكان الموكلون بها يُديرونها نحو الشمس وهى مائلة للغروب فتتمكس عليها الأشعة وتُحرق سفن العدو . والإجماع على أنها تظهر السفن وهى أبعد من مدى البصر » . ويذهب بعضهم إلى أن الإنسان كان يرى فيها كل شئ إلى القسطنطينية .

وكانت المنارة سليمة حين الفتح العربى ، وكذلك كانت المرأة . لكنهما لم تدوما بعد الفتح طويلا . والمؤرخون يختلفون فيما بينهم : هل جاهد العرب بعد هدمها لإعادة

(١) كانوا يطلقون على هذا الطريق اسم الهبتاستاديوم .

بنائها . ولا غناء في تحقيق خلافهم . والذين يذهبون منهم إلى أن المسلمين حاولوا إعادتها متفقون فيما بينهم على أنهم لم ينجحوا في هذه المحاولة^(١) .

لا حاجة بي إلى أن أذكر ما تركته عمارة الإسكندرية ، وما امتازت به من جمال وجلال ، من الأثر العميق في نفوس العرب الذين فتحوها . وحسبك ، لتدرك عمق هذا الأثر ، أن تتلو عبارة عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب في هذا الفتح إذ يقول : « أما بعد ، فإنني فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حتام . وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك » . فهذا الإيجاز ، من رجل اشتهر بالإطناب ودقة التصوير في الوصف حجة على أن عمر رأى كل وصف يقصّر عن تصوير ما رآه بالإسكندرية على حقيقته . بل لقد بحث عمرو بن العاص معاوية بن حُذَيفٍ رسولاً إلى عمر يُنبئُه بالفتح ، فسأله معاوية : « ألا تكتب معي كتاباً ؟ » ، فكان جواب ابن العاص : « وما أصنع بالكتاب ؟ أأست رجلًا عربيًا تُبَاغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ؟ » . وقد كان هذا جوابه وهو يعرف حرص عمر على أن يقف على الدقيق والجليل من كل شيء ، وأن يقف عليه مفصلاً أوفى تفصيل .

كان للإسكندرية أثر عميق في نفوس الذين فتحوها ، ثم كان لها أعمق الأثر في نفوس المؤرخين الذين أثبتوا بعد قرنين حديث أولئك الفاتحين . فأنت ترى في رواياتهم مبالغات عجيبة لا يفسرها إلا دهشة رُواتها دهشة جعلتهم يصدقون كل ما يسمعون . يقول ابن عبد الحكم في رواية مُسندة : « وكان بالإسكندرية فيما أحصى من الحمامات اثنا عشر ديماس ، أصفر ديماس منها يسع ألف مجلس ، كل مجلس منها يسع جماعة نفر » .

(١) يذكر في سبب تخريبها أنها أعانت المسلمين على صد غارات الروم من البحر ، إذ حتمهم من المباغنة ، فتعايل الروم على تخريبها بأن بعثوا رجلاً من خواص ملكهم إلى الوليد بن عبد الملك يحمل الهدايا النفيسة . وقد تظاهر الرجل بأن ملكه حاقده عليه يريد قتله ، وأنه يريد أن يسلم ويبقى بالشام . ورحب به الوليد وأدناه . ثم إن الرجل دل الوليد على دفتان استخرجت من بلاد الشام ، فاغتنب الوليد بها لعظم قيمتها . وزعم الرجل بعد ذلك أن منارة الإسكندرية تحتها كنوز عظيمة من الذهب والجوهر فشرعت نفس الوليد لهذه الكنوز . وبعث جماعة من جنده فهدموا نصف المنارة ، وأزالوا المرأة قبل أن يفتن أحد إلى المكيدة . ولم يجد المنقبون كنوزاً تحت ما هدموا ، فعرفوا أنهم خدعوا فبنوا بناء من الآجر ، ولكنهم لم يستطيعوا الارتفاع به إلى مثل ارتفاع المنارة الأولى . فلما وضعوا المرأة فوقه لم تقدر شيئاً .

ويقول : « لما فتحت الإسكندرية وُجد بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر » .
ويذكر السيوطي أن أهل الإسكندرية جميعاً كانوا يلبسون الثياب السود والحمر
لأن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض ، وكان تألق الرخام سبباً في اتخاذ الرهبان السود
في لباسهم ، وكان من المؤلم أن يسير الإنسان في المدينة بالليل فإن ضوء القمر إذا وقع
فيها على الرخام الأبيض جعلها تضئ ، حتى كان الخائف يستطيع أن يضع الخيط في الإبرة
بغير أن يستضيء بمصباح ؛ وما كان يستطيع أحد أن يدخل المدينة إلا إذا اتخذ غطاء لعينيه
يقيه بريق الطلاء والمرمر . ويقول المسعودي في وصف السرايوم : « وكان في ذلك
القصر مائة عمود ، وفي صدره عمود عظيم لم يُر مثله في الحجم وله قمة كالنجم . . . وكان
ذلك العمود يهتز عند هبوب الريح عليه » . ويقول السيوطي : « إنه قد بنى الجان
لسليمان في الإسكندرية إيواناً للاجتماع ، به ثلاثمائة عمود علو كل منها ثلاثون ذراعاً » ،
وكانت من المرمر المجزّع ، بلغ من صقله أن صار كالمرآة يرى الإنسان فيه من يسير خلفه .
وكان في وسط الإيوان عمود علوه مائة ذراع وإحدى عشرة ذراعاً ، وكان سقفه قطعة
واحدة من المرمر الأخضر نحتت الجن . وكان هؤلاء الجان على صورة الإنسان لهم رؤوس
كالقبايب وعيون تمزق الأسد » . هذه الروايات وما ورد مثلها ، وهو كثير ، تشهد
كلها بأن عاصمة مصر تركت في نفس الفاتحين أثراً لم يحسوا مثله في جميع أنحاء البلاد التي فتحوها
فصاروا لا يذكرون ما شهدوا ويضيفون إليه ما سمعوا عنه من أحاديث صحيحة أو ملققة
لا يثبت الكثير منها للنقد .

وقع هذا الأثر في نفوس الفاتحين لأول ما دخلوا الإسكندرية . ثم إنهم لم يلبثوا
فيها إلا قليلاً حتى رأوا حياة أهلها عجبا زاهداً دهشة وإعجاباً . فهذه الأجناس المختلفة
التي تسكنها ، وهذه الأديان والمذاهب المتباينة التي تتجاوز فيها ، وهذه اللغات واللهجات
العديدة التي يتكلمها أهلها — هذا كله تجتمع فيه صورة مليئة بالحياة لا يماثلها شيء
مما كانوا يتخيلونه عن برج بابل . مع ذلك لم يكن اختلاف الأجناس ، ولا تباين الأديان
والمذاهب ، ولا تعدد اللغات واللهجات ، ليحجن في قليل ولا كثير على طمأنينة أهل العاصمة
العظيمة للعيش وسكينتهم للحياة . فقد غرق سادتها في ألوان من الترف والنعيم أنستهم

كل خلاف بينهم ، وأنستهم كل ما سوى المتاع بهذا الترف بلغ من تعدد فنونه وألوانه ما وقف العرب حيارى لا يكادون يصدقون ما يرون وما يسمعون !! .

فلم تكد المدينة تستعيد طمأنينتها بعد انتهاء حصارها حتى عادت سيرتها الأولى ، تستمتع بصنوف اللهو ، وتستمرى المتاع بشتى ألوانه ؛ فهذه مجالس العلم تُعقدُ يتحدث حضورها في الفلسفة وفي الرياضة وفي الطب وفي الفن وفي غير ذلك من متع العقل وتركه وهم يُعْمَتون في منطقهم وفي نظام حديثهم بالافتتان في هذا الترف ، حتى ليظنهم شاهد مجلسهم كأن الحياة كلها للعقل وما أبدع من علم وفن . وهذه ودور اللهو فيها الرافصات البارعات ، والمغنيات المشجيات ، وفيها من التمثيل والموسيقى وألوان الفن الجميل كله مالم تره من قبل أعينهم ، ولم تسمعه آذانهم ، ولم يخطر على قلوبهم . وهذه دور الصناعة تعج عجيبة شديداً ، ويشمر الصناع فيها عن سواعدهم ؛ فهي تنتج من كل شيء مالا مثيل لإتقانه في غير الإسكندرية . وهذه متاجر المدينة في أحيائها التي لم تصبها الحرب بالكساد يتعامل الناس فيها مغتبطين بما يحىء إلى عاصمة وادى النيل من ثمرات مصر المختلفة في الزراعة والصناعة ، وبما ينتقل إليها من النوبة ومن الشرق الأقصى ومن الشام ومن بلاد أوربا المختلفة . وهؤلاء سعاة الإسكندرية ، في ثيابهم الجميلة بشتى ألوانها ، يذهبون إلى دور اللهو وإلى المتاجر وإلى دور العلم وإلى مسارح التمثيل ، فإذا أوا إلى قصورهم زادهم المتاع فيها حباً للحياة وحرصاً على أنعمها ، أى شيء هذا كله !! ألا إنه إلى الخيال أقرب منه إلى الحقيقة ! وهو مع ذلك حقيقة ملموسة تقع عليها حواس الفاتحين ، فهم منها في عجب بالغ يذرم وليس لهم إلى حديث في غيرها سبيل .

ولم يكن أمراء الجند أقل من الجند عجباً وإعجاباً . وقد رأيت أثر هذا الإعجاب والعجب في كتاب عمرو بن العاص إلى الخليفة ؛ إذ أعجزه الجلال عن وصف ما رأى ، فلم يذكر إلا « أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حاتم ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية . وأربعمائة ملهى للملك » . وهذا العجز هو الذى جعله يبعث معاوية بن حديج إلى المدينة ولا يبعث معه كتاباً ، بل يقول له : « وما أصنع بالكتاب ! ألسنت امرأعريباً تُبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ! » .

ولقد سار معاوية أياماً ثم بلغ المدينة في الظهيرة ؛ فأتناخ راحلته بباب المسجد ودخله وجلس قريباً من بابه . وخرجت جارية من دار عمر بن الخطاب فرأته شاحباً عليه ثياب السفر ، وعرفت منه أنه رسول عمرو بن العاص ، فدخلت مسرعة إلى الدار ثم رجعت إليه مسرعة وقالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك ودخل معاوية الدار يتبعها ، وأجاب عمر حين سأله : ما عندك ؟ فقال : خير يا أمير المؤمنين ، ففتح الله الإسكندرية . فخرج عمر من فوره إلى المسجد ومعه معاوية وأمر المؤذن أن يؤذن في الناس أن الصلاة جامعة . فلما اجتمع الناس قال عمر لمعاوية : قم فأخبر أصحابك . فلما أخبرهم قام عمر فصلى شكراً لله ، ثم دخل منزله واستقبل القبلة ودعا بدعوات ، ثم أمر الجارية فجاءت الرسول الذي حمل النبا بفتح الإسكندرية بطعام خبز وزيت ، وأكل معاوية على حياء . ثم أتته بطبق من تمر ، فأكل على حياء كذلك . فلما فرغ من طعامه سأله عمر : ماذا قلت يامعاوية حين أتيت المسجد ؟ وأجاب معاوية : قلت إن أمير المؤمنين قاتلٌ . فأردف عمر : بلئما ظننت ! لئن نمتُ النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية !؟ .

وبينا كان معاوية في طريقه إلى المدينة كان الروم قد بدءوا يجلسون عن الإسكندرية من طريق البر ومن طريق البحر . وقد سبق أن قلنا : لعله قد تم بين عمرو والمقوقس اتفاق بعد فتح الإسكندرية لم يتجاوز تنظيم الجلاء لجنود الروم عن عاصمة مصر وعن مصر كلها . يقول البلاذري : « ويقال إن المقوقس صالح عمرًا على ثلاثة عشر ألف دينار ، على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج وأن يقيم بها من أحب المقام ، وعلى أن يفرض على كل حالم من القبط دينارين ، فكتب لهم بذلك كتاباً » . وقد استنبط بتلر من رواية حنا النقيوسي أن المقوقس وعمرًا اتفقا بعد فتح الإسكندرية على هدنة أحد عشر شهراً ؛ يبقى العرب أثناءها في أماكنهم ، وترحل مسلحة الإسكندرية من الروم أثناءها في البحر ومع جنودها أموالهم ومتاعهم ، فمن أراد الرحيل منهم في البر دفع جزية كل شهر حتى يبلغ أرض قيصر . وقد أضاف بتلر إلى ما ذكره من ذلك شروطاً تتصل بالصلح الذي كان قد تم بين بابلليون وبين القائد العربي والبطريق الرومي . وجلى أن هذه الشروط

كانت واردة بالمعاهدة التي وضع مشروعا حين كان العرب يحاصرون حصن بابليون ، وهي المعاهدة التي رفض هرقل لإقرارها . أما بعد فتح الإسكندرية عنوة فقد اقتصر الأمر على تنظيم جلاء الروم عن الإسكندرية وعن غيرها من بلاد مصر .
والراجح أن ما ذكره بقلر عن الهدنة صحيح ، وإن كان تحديد مدتها بأحد عشر شهراً موضع خلاف . فبعضهم يرى أنها لم تزد على الزمن الذي قدره عمرو بن العاص كافيًا لرد الخليفة على شروط الهدنة والجلاء ، وهو زمن لا يتجاوز الشهرين . ولعل هذا القول أدنى إلى الصحة ؛ فما كان مجيء السفن إلى الإسكندرية لنقل جند الروم منها ليستغرق أكثر من ذلك .

لم يغادر المقوقس الإسكندرية مع الروم الذين جلاوا عنها ، بل ظل مقبلاً بقصره فيها حتى مات بها ودفن في مقبرها . وهو لم يفكر في مغادرتها لأنه كان يعلم أنه يخاطر بحريته ، بل بحياته ، إذا نزل برز نطية ، وأن مصيره إن فعل سيكون النفي أو الموت لا محالة . فقد بقي هذا البطريق الشيخ في النفي الذي بعث به هرقل إليه حتى دعاه قسطنطين وسرطينا وابنها بعد موت هرقل . ثم إنه جاء إلى الإسكندرية على وفاق مع مرتينا ، وبقي بها حتى فتحها العرب فهادنهم . وفي هذه الأثناء كان الروم قد بلغت ثورتهم بمرتينا وابنها بعد مقتل قسطنطين أن نُحِّيَ الشاب وأمه عن الحكم أو قُتلا ، وانفرد كنستانس ابن قسطنطين بالعرش . وكانت صلة المقوقس بمرتينا غير خافية على أحد من أهل قسطنطينية . فلو أنه ذهب إليها لما كان عجباً أن يصيبه ما أصاب الإمبراطورة حليفته . لذلك آثر البقاء بمصر مقتنعاً بأن الفاتح العربي سيبقى له من النفوذ ما تطمئن إليه شيخوخته المحطمة (١) .

(١) لا يشير المؤرخون المسلمون إلى سفر قيرس إلى القسطنطينية ولا إلى خبر نفيه ، بل يذكر أن هرقل كتب إليه يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ، ويأمره أن يناهض العرب القتال ولا يكون له رأى غير ذلك ، وأنه بعث الجيوش فأغنقوا أبواب الإسكندرية وأذنوا المسلمين بالحرب ، ففرج المقوقس إلى عمرو فقال له : أسألك ثلاثاً . قال عمرو : ما هي ؟ قال : لا تبذل لاروم ما بذلت لي فإنني قد نصحت لهم واستغشوا نصيحتي ؛ ولا تنقض بالقبط فإن النقص لم يأت من قبلهم ؛ وأن تأمر لاذمت فأدفن في كنيسة أبي يحنس . فقال عمرو : هذه أهونهن علينا .
أما غير المسلمين من المؤرخين فقد ذكروا سفر المقوقس ونفيه ثم عودته إلى مصر ، وفصلوا ذلك على نحو لا يدع مجالاً للشك فيه بل يدعو لإثباته والقطع بصحته .

كان كثيرون من المصريين والروم الذين لاذوا بالإسكندرية بعد سقوط حصن بابلين يرجو أن يرجعوا إلى قراهم بعد أن سقطت الإسكندرية ، فطلبوا إلى المقوقس أن يخاطب عمرًا في الأمر . لكن عمرًا أبى عليه ما طلب ؛ لأن بعض البلاد الحصينة كانت لا تزال تقاوم ، فمن الخطر أن ينضم إليها قوم ربما عاونوها على المقاومة . ورأى المقوقس في إباء عمرو نذيرًا بزوال سلطانه ، فاعتراه من الهم ما عجل به إلى الموت . أفات ندما على تسليم الإسكندرية للمسلمين ، كما يقول حنا النقيوسي ؟ أم خشي أن يقتله عمرو فلما بلغ منه الخوف جعل في فمه خاتماً مسموماً فسات من ساعته ، كما يقول ساويرس ؟ أم إنها الشيخوخة انتهت به إلى موت طبيعي ؟ يثبت بقلر أنه أصيب بالدوسنتاريا ، وأنه مات منها موتاً طبيعياً ، فدفن بالإسكندرية في الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ٦٤٣ .

مات قيرس ، وجلا الروم عن عاصمة مصر ، فتولى المسلمون أمرها ، وأخذوا يدبرون شؤونها . بذلك دالت دولة الروم فيها وزال سلطانهم عنها ، وإن بقيت لهم بها حاميات محصورة في بعض الأرجاء . وما عسى أن تغنى هذه الحاميات عن دولة دالت وسلطان تقلص لذلك كان سقوط الإسكندرية في يد عمرو بن العاص إيذاناً من الله بأن مصر كلها آلت إلى المسلمين ، وأنه ألقى عليهم إصلاح ما فسد من شؤونها ، وتعمير ما أصابه الخراب منها . لكنهم لم يكونوا ليفعلوا حتى يطهروا الأرض كلها من الروم ، وحتى يبعثوا إلى نفوس القبط الطمأنينة والأمن ؛ ليستقر الأمر في البلاد كلها ، فلا تحدث الروم أنفسهم بالعود إليها ، فإن فعلوا رُدُّوا على أعقابهم ، وذاقوا وبال أمرهم . وذلك ما حدث . وسيرى القارىء من بعد كيف حدث .

الفصل الحادي والعشرون

مصر في يد المسلمين

كان فتح الإسكندرية إبذاتاً بأن بلاد مصر آلت كلها إلى المسلمين ؛ فقد استولى خارجة بن حذافة على بلاد الصعيد إلى حدود طيبة ، فلم يبق من الروم إلا عدد قليل لم يُغامر بعد فتح العاصمة بقتال ، ولم يغازع الفاتحين السلطان . وما كان هؤلاء الروم ليغامروا ، وهم يعلمون ما يُضمره القبط لهم من كراهية ، بسبب ما أصابهم في أرزاقهم وفي دينهم من اضطهاد . وقد بلغ من أمر هذه الكراهية أن كان القبط إذا رأوا روميًا منفرداً قتلوه ، ثم لا يعرف أحد من قتله . ولم يكن ذلك حبًا من القبط الغزاة أو ترحيبًا بمقدمهم ؛ فقد كان أهل الصعيد بعيدين عن سلطان المسلمين في تلك الأيام الأولى من عهد الفتح ، ولم تكن في نفوسهم حفيظة عليهم ، بل كانت كل حفيظتهم على الروم الذين أذاقوهم النكال قرونًا متطاولة .

وقد استولت الكتائب التي سارت في بلاد الدلتا على أكثر قرأها ، ونشرت سلطانها في أرجائها ؛ فلم تقاوم تلك الكتائب إلا البلاد المحصنة . ثم إن هذه البلاد بقيت محصورة لا تستطيع أن تقهر الغزاة وإن استطاعت أن تدفع نفسها . فلما فتح عمرو الإسكندرية فتح الكثير من هذه البلاد أبوابها ؛ لأنها أيقنت أن العرب سيضيّقون الخناق عليها فلن تطول مقاومتها . أما البلاد القريبة من ساحل البحر الأبيض فظلت على مقاومتها ، ولم تُدعن ولم تدخل فيما دخل الناس فيه من عهد .

وقد يرجع ذلك إلى أن هذه البلاد كانت بها مسالح من الروم ، ظنّ جندها أن مصيرهم إلى الهلاك إن سأموا أو قاوموا ، فدفعتهم فطرة المحافظة على النفس إلى المقاومة . وقد يرجع كذلك إلى أن المصريين من أهل هذه البلاد ترامت إليهم عن قسوة المسلمين أنباء حملتهم على التحصن والمقاومة . فلا شك في أن دعاية الروم كانت تُذيع ، بكل ما عُرِف من وسائل الإذاعة لذلك العهد ، أن المسلمين يسيئون معاملة القبط ويُرهبونهم ويأخذون

أرزاقهم غصباً ، وأنهم يُكرهون الناس على إنكار مسيحياتهم ليتخذوا الإسلام ديناً . وإنك لتجد من هذه الأنبياء ، فيما نقله بئتر عن حنا النقيوسي ، ما لعله يفسر مقاومة بلاد لا أمل لها في نجاح مقاومتها ، ومع ذلك قاومت حين شاع بينها ما أذاعه الروم عن الغزاة المسلمين مما روع أهلها وحملهم على الاستماتة في القتال .

ويذكر المؤرخون أسماء بعض المدن التي قاومت ، ومنها « إخنأ » على مقربة من الإسكندرية ، و « بلمهيب » في جنوب رشيد ، والبرلس وديمياط وتنبس ، ويروون حوادث وقعت بين الغزاة وأصحاب هذه البلاد لبعضها دلالة خاصة . فقد أراد « طلمأ » صاحب إخنأ مصالحة عمرو ، فلم يُعجب عمرأ كلامه ، وأمر رجاله فساروا إلى إخنأ وأخذوا منها أسرى مع أنها سلمت من غير مقاومة ؛ ولذا ردَّ عمرأ أسراها الذين أرسلوا إلى المدينة ، وجعلهم أهل ذمة . وحدث بلمهيب مثلما حدث بإخنأ . ويقال إن عمرأ تسلَّم وهو عند بلمهيب كتاباً من الخليفة يطلب إليه أن يُخَيَّر الأسرى ، فن دخل الإسلام كان للمسلمين أخاً . وسمع الأسرى بذلك ، فأسلم كثيرون ، فجعل المسلمون يكتبون لإسلام كل واحد منهم . وسار العرب من البرلس إلى دمياط فاستولوا عليها ، وأصبحت لهم بذلك شواطئ البحر من العريش إلى الإسكندرية . مع ذلك لم تُسلم تنبس ولم تفتح أبوابها للمسلمين ، بل وقفت في وجوهم وناجزتهم القتال في مواطن كثيرة ؛ وظلَّت كذلك حتى فُتِحت عنوةً وغنم المسلمون أموالها وقسموها . وترجع مقاومتها إلى أنها كانت مدينة صناعية عظيمة كثيرة السكان ، ثم كانت لها إلى ذلك مكانة ذاتية خاصة . وكانت ذات أسوار حصينة فيها تسعة عشر باباً مصفحة بالحديد الثقيل . وكان بها اثنتان وسبعون كنيسة ، وستة وثلاثون حماماً . ويذكر المقرئ أن تنبس ظلَّت على مقاومتها زمناً ، فلما أبطأ فتحها خرج حاكم مدينة قريية من دمياط اسمه شطأ بن الهاموك ، كان قد أسلم ، فجئ جيشاً من البرلس ودميرة وأشنون طناح ، وجَهَّزَه ولحق بالمسلمين وحارب معهم عدوهم ، وأحسن البلاء في ذلك اليوم الذي فُتحت فيه تنبس أبوابها ، الذي قُتل هو فيه . فأطلق اسمه على الموضع الذي خرج منه في شرق دمياط .

وكذلك تحمَّطت مقاومة الروم والمصريين الذين مالوهم ، أو الذين طمعوا في الاستفادة

من هذه الحرب لاستقلال بلادهم ، وأصبح الأمر في مصر خالصاً للمسلمين من شواطئ بحر الروم إلى بلاد النوبة .

وكان لعمر بن الخطاب أن يستريح بعد ذلك ، وألا يتجاوز مصر إلى ما بعدها . لكنه قدر أن للروم قوات ببرقة وطراً بلس قد تغريهم بالتحصن هناك ، والترصد حتى تحين فرصة الثأر والرجعة إلى مصر . لذلك خرج في قواته ، بعد أن اطمأن إلى استقرار الأمر في مصر ، خسر من الإسكندرية إلى برقة . ولم يكن الطريق بينهما صحراوياً مهماً مثلما هو اليوم ، بل كان يجرى في أرض خصبة ، تحيط به من الجانبين زروع وفاكهة وكروم وعمران متصل . لذلك كانت مسيرة الفرسان المسلمين فيه نزهة ممتعة أدت إلى برقة ، فلم يجدوا فيها مقاومة تذكر ، والراجح أنها سلمت صلحاً بعد مقاومة ضعيفة ، ورضيت أداء جزية ثلاثة عشر ألف دينار كل عام .

وبرقة إقليم من طرابلس ، سُمي باسم مدينة كانت تقوم حيث تقوم اليوم بنى غازي . قال ابن دُقاق : إن هذا الإقليم كانت به مدن كثيرة عامرة ذات أنهار وأشجار ، وإنه كان كثير الناس والضياع ، ويزرع به الزعفران . وقد روى أن التجار كانوا يُسكنون التردد على برقة مُشرِّقين ومُغرِّبين ؛ لأنه كان يلج إليها من الشرق ومن الغرب صنوف من التجارة ليس في كثير من بلاد المغرب مثلها . لذلك لم يكن حجةً ألا يدخلها حياة المسلمين بعد صلحها يقتضون جزيتها ؛ إذ كانت تبعث بالجزية إلى عمرو بمصر مع جماعة من أهلها . ومن عجيب ما يروى عن صلحها أن أهلها أبيع لهم أن يبيعوا أبناءهم لأداء الجزية . ولا تفسير لهذه الإباحة إلا أن بيع الأبناء في أداء الدين كان جائزاً عندهم ، فلم يحرمه المسلمون إلا على من أسلم^(١) . وأكبر الظن أن أبناءها كانوا غير راضين عن هذا النظام ، بدليل ما ذكره ياقوت من أن أكثر الناس في برقة أسلموا .

وسار عمرو من برقة إلى طرابلس ، وكانت مرفأً حصيناً به مسلحة من الروم تحميها ،

(١) في رواية أوردها البلاذري أن عمرو بن العاص « صالح أهل أنطابلس ومدينتها برقة ، وهى بين مصر وإفريقية ، بعد أن حاصرهم وقتلهم ، على الجزية على أن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا في جزيتهم . وكتب لهم بذلك كتاباً . ولو كانوا عبيداً ما حل ذلك منهم .

وتجد حوله من الخصب ميرة تخزنها في قلاعه . فلما رأوا مقدّم المسلمين أقفلوا أبوابه وثبتوا
للحصار الذي ضربه العدو عليهم ، وانتظروا مجيء مدد من البحر يُعينهم في موقفهم .
وانقضت أسابيع لم يجيء المدد خلالها ، وعرف العرب أثناءها أن المدينة غير محصنة
من جانب البحر ، فأنسلّ جماعة منهم من تلك الناحية وصاحوا مكبرين ، فلم يسع الروم
إلا الفرار إلى السفن تاركين المدينة يفتح الحراس أبوابها فيدخلها عمرو على رأس جيشه .
وسارت كتائب أذاعت الرعب في قلوب أهل الإقليم ، فلم يسع الناس في كل
أرجائه إلا التسليم . وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين يستأذنه في السير إلى تونس وما وراءها
من شمال إفريقية فلم يأذن له ، فعاد إلى برقة حيث أقبلت إليه أكبر قبائل البربر
فدانت له بالطاعة^(١) . فلما اطمأن إلى زوال ملك الروم من تلك البلاد كلها قفل راجعاً
إلى الإسكندرية بالأسرى والغنائم .

وأراد عمرو أن يؤمّن حدود مصر من الجنوب كما أمّن حدودها من الغرب ، فبعث
عُقبه بن نافع الفهري إلى النوبة ، فلقية أهلها وقتلوا المسلمين قتالاً شديداً ارتدّ عُقبه
على أثره . ولم يعقد صلحاً ولا هدنة . ذلك أن أهل النوبة كانوا يرمون بالنبل فلا يُخطئون ،
وكانوا يتحرّون الأعين فيرمونها فيفقدونها ، فستام العرب رماة الحدق . وظلت كتائب
عمرو بعد ارتداد عُقبه تناوشهم على الحدود . فلما كانت خلافة عثمان بن عفان صالحهم
عبد الله بن سعد بن أبي سرح على هُدنة : ألاّ يقاتل أحد الفريقين الفريق الآخر ،
وأن يتبادل الفريقان الرقيق يعطيه أهل النوبة المسلمين ، والطعام يعطيه المسلمون أهل
النوبة بما يوازي ثمن رقيقهم .

على أن أهل النوبة لم يفكروا في اجتياز التخوم إلى مصر لمناجزة قوات المسلمين ،
بل كفاهم أن ردّوا عدوهم عن ديارهم فأقاموا بها على حدّ منه . لذلك لم يُخش عمرو جانبهم
وأقام مطمئناً إلى سلامة مصر من ناحية الجنوب ، كما اطمأن إلى سلامتها من ناحية

(١) أكبر تلك القبائل لوانة . يقول السيوطي في حسن المحاضرة : « وكان البربر بفلسطين وكان
ملكهم جالوت . فلما قتله داود (ص) خرج البربر متوجهين إلى الغرب حتى انتهوا إلى لوبية ، ففترقوا
هناك ، فتقدمت زفانة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال ، وتقدمت لوانة فسكنوا أرض أنطا بلس وهي
برقة ، وتفرقت في هذا المغرب وانتشرت فيه ، ونزلت هواره مدينة لبدّة » .

الغرب بعد أن هزم الروم في بَرْقَة وطرَّابُلُس . أما وقد تمت له هذه الطمأنينة فقد انصرف بكل تفكيره إلى تدبير الأمر في مصر وتنظيم حكمها . فكيف كانت سياسته في هذا التدبير وهذا التنظيم ؟

يُجملُ بنا ، لتجيب عن هذا السؤال ، أن نُفَصِّل في مسألة طال خوض المؤرخين فيها . فأنت قد رأيت ، مما تقدّم في هذا الفصل وفي الفضلين اللذين سبقاه ، أن عمرًا فتح مصر كلها عنوةً ، فلم يتمّ بينه وبين الروم صلح عليها ، ولم يكن القبط من أهلها ليصالحوه وهم في سلطان هرقل والذين جلسوا على العرش من بعده . وقد وقع المُقَوِّس مشروعاً للصلح مع عمرو أثناء حصار بابليون فرفضه هرقل ، ورفضه عادت الحرب بين الفريقين ، حتى انتهت إلى هزيمة الروم وجلائهم عن البلاد كلها . مع ذلك يُفِيض المؤرخون المسلمون في ذكر روايات يذهب بعضها إلى أن مصر فُتحت صلحاً ، ويذهب بعضها إلى أنها فُتحت عنوة ، ويغلون في هذه الإفاضة ، حتى يكاد الإنسان يحسب أنه لن ينتهى في هذا الأمر إلى رأى يطمنن إليه .

فأما الذين يذكرون أن مصر فُتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، فيستندون إلى روايات تنسبُ لجماعة ممن شهدوا الفتح أنهم قالوا إن مصر فُتحت عنوة ؛ وإلى تأييد ذلك القول بأنه كان لعمر بن الخطّاب تابوت ؛ فيه كل عهد كان بينه وبين أحد من عاهده ، فلم يوجد فيه لمصر عهد . وهم يُضيفون إلى ذلك عن عمرو بن العاص أنه كان يقول : « لقد عمدت مُعَدِّي هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إلا لأهل أنطا بُلُس فإن لم عهداً نوفي لهم به » . ويذكر أحد الرواة أن عمرًا أضاف : فإن شئت قتلت ، وإن شئت خست ، وإن شئت بعث . ويورد أصحاب هذا القول حجة أخرى تؤيد رأيهم أن عمرًا كتب إلى عمر في رهبان يترهبون بمصر فيموت أحدهم وليس له وارث ، فكتب إليه عمر : « إن من كان له عقب فادفع ميراثه إلى عقبه ، ومن لم يكن له عقب فاجعل ماله في بيت مال المسلمين ، فإن ولاءه للمسلمين » .

وأما الذين يذكرون أن مصر فُتحت صلحاً فيستندون إلى روايات يذهب بعضها إلى أن البلاد فتحت صلحاً كلها ، ويستثنى بعضهم الإسكندرية فيذكر أنها فُتحت

عنوة . روى أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر صُوح على جميع من فيها من الرجال من القبط ، ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ ، على دينارين دينارين ، فأحصوا فبلغت عدتهم ثمانية ملايين . وقيل إن عمرو لما فتح الإسكندرية كان أكثر المسلمين يريدون قسَمَ ما عليها ومن فيها ، فقال لهم عمرو : لا أقدر على قسَمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . وكان جواب عمر على كتاب ابن العاص : « لا تقسمها وذَرهم ، يكون خراجهم فيثا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم » . فأقرها عمرو وفرض على أهلها الخراج ، وأحصاهم فسكان عِدَّة من بلغ الخراج بها ستمائة ألف . بذلك فُتحت مصر كلها صلحاً بفريضة دينارين دينارين على كل رجل . وفي رواية أن شيخاً من القدماء من شهدوا فتح مصر قيل له إن ناساً يذكرون أنه لم يكن لأهلها عهد ، فقال : لا يبالي ألا يصلى من قال إنه ليس لهم عهد . وسئل : فهل كان لهم كتاب ؟ فقال : نعم ، كتب ثلاثة : كتاب عند طلحا صاحب إخنخا ، وكتاب عند قزمان صاحب رشيد ، وكتاب عند يُحَنَس صاحب البرلس . وأجاب هذا الشيخ ، حين سئل عن صلحهم ، أنه كان على دينارين على كل إنسان جزية وأرزاق المسلمين ، وأنه شُرح ألا يخرجوا من ديارهم ، وألا تنزع نساؤهم ولا كنوزهم ولا أراضيهم ولا يزداد عليهم .

هذه أهم الروايات التي استند إليها من يقولون إن مصر فتحت صلحاً ، ومن يقولون إنها فتحت عنوة ، ولعلك توافقني على أنها مع ظاهر اختلافها ، تنتهي إلى نتيجة واحدة ، وتؤكد أن مصر فتحت عنوة ، وفتحت في الوقت ذاته صلحاً . فالجرب التي وقعت في أرضها إنما كانت بين المسلمين والروم ، ولم تكن بين المسلمين والقبط من أهل البلاد . وقد كان موقف المصريين من الفريقين موقف حياد إن شئت . وهو بالأحرى موقف المغلوب على أمره ، لا يملك أن ينضم انضماماً ظاهراً إلى أحد الفريقين ويقاتل الجانب الآخر في صفه . لذلك كانوا يُنفذون ما يأمرهم الغالب على منطقة من المناطق بتنفيذه ، وكانوا ينفذونه كرهاً إن لم ينفذوه طوعاً . فحيثما كان الأمر للروم كان القبط يعاونونهم في تعبيد الطرق وإقامة الجسور وما إلى ذلك مما يحتاجون في القتال إليه . وحيثما كان الأمر للعرب كان القبط يبذلون لهم مثل هذه المعاونة . وهم كانوا كما رأيت يمتقنون الروم أشد المقت لما يبلغ

منهم في دينهم وفي أرزاقهم ، وكانوا يخافون العرب أن يحلوا بينهم محل الروم ، وألا يعاملوهم بخير مما كان الروم يعاملونهم به . قومٌ ذلك شأنهم لا يمكن اعتبارهم محاربين ، ولا يمكن أن يقال إنهم قاتلوا العرب أو قاتلوا الروم ؛ إنما كان القتال بين العرب والروم في أرض مصر . وقد انتصر العرب على الروم فأجلوهم عن مصر وأدوا دواتهم فيها . وهم لذلك قد فتحوا مصر عنوة في وجه الروم الذين قاتلوهم وانهزموا أمامهم ، ولم يفتحوها عنوة في وجه المصريين الذين لم يقاتلوهم .

وقد رأيت بمد فتح الإسكندرية كيف سلمت إخنأ وبلهيب والبرأس وديمياط دون مقاومة . وكيف عاون المصريون العرب في قتال تنيس في فتحها . وما كان المصريون ليقاتلوا العرب أو يحاولوا إجلاءهم عن بلادهم ولم ينشئ الروم في البلاد جيشاً من أبنائهم ، ولم يتركوا سلاحاً يذود به أهلها عن أنفسهم . بل جرّدها من كل سلاح حتى لا تثور بهم ولا تحاول الاستقلال عنهم . لذلك كان طبعياً أن تُذعن للعرب أول ما غلبوا الروم في أرضها وأخرجوهم منها أما وقد فعلوا فقد أوجب الإسلام على الفاتحين أن يعرضوا على القبط أن يُسلموا فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، أو يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية لقاء حماية المسلمين لهم . وهذا ما رآه عمرو بن العاص مخالفاً فيه رأى الذين أرادوا قسمة البلاد فيما بين المسلمين . وقد أقرّ عمر بن الخطاب هذا الرأي ، ورضيه المصريون . بذلك كان فتح مصر عنوةً بالنسبة للروم ، وصالحاً بالنسبة للمصريين .

أي صلح أقره عمرو ورضيه المصريون ؟ تكثر الروايات في هذا وتتعدد . لكننا نستطيع أن نقول مطمئنين : إنه يطابق الصلح الذي رفضه هرقل . والذي عُقدت شروطه بين عمرو بن العاص والمقوقس حين كان المسلمون يحاصرون حصن بابليون . وقد أورد الطبري نص هذا العهد فيما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وميلتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرّهم وبحرهم ، لا يُدخل عليهم شيء من ذلك ، ولا يُنتَقَص ، ولا تساكنتهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية

إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم^(١) . فإن أبى أحد منهم أن يُجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا من أبى بريئة . وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم . ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمة المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً ، على ألا يُغزوا ولا يمتنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر .

ذكرنا أن هذا العهد يطابق الصلح الذي عُقدت شروطه بين عمر والمقوقس ولم نقل إنه هو . فهذا النص الذي أثبتته الطبري ليس عقداً بين طرفين ، وإنما هو تصريح من جانب واحد ، على تعبير فقهاء القانون الدولي في عصرنا الحاضر . صحيح أن أهل مصر قبلوا هذا العهد بعد إعلانه ودخلوا فيه ، لكن هذا القبول لا يغير من طبيعته القانونية ؛ فهو عهد أملاء من فتح أرضاً لم يقاومه أهلها ، أريد به بعث الطمانينة إلى نفوس الناس في هذه الأرض بتحديد تبعاتهم لقاء تأمينهم على حياتهم وأموالهم . وقبول مثل هذا العهد إنما هو نزول على حكم الواقع اتقاء ما هو شر منه ، وليس رضا بالمعنى الفقهي ؛ فإنما يقوم هذا الرضا على أساس من حرية صاحبه في أن يرضى أو لا يرضى .

عهد ذلك شأنه يختلف في طبيعته القانونية عن الصلح الذي رفضه هرقل ، بعد أن عقده عمرو والمقوقس أثناء حصار بابلين . أشد الاختلاف ؛ فقد كان صلح المقوقس هذا بين طرفين ، وكان بنظم أموراً ما كان لعهد الأمان الذي أذاعه عمرو بين المصريين أن يتناولها وقد أورد بتل شروط هذا الصلح نقلاً عن كتاب حنا النقيوسي ، وإن لم يوردها على الترتيب الذي أوردها به المؤرخ القبطي . وظاهر من هذه الشروط أنها كانت صلحاً بين المسلمين الظافرين والروم المقهورين على مصر كلها وكان مدى هذا الصلح أن يجلو

(١) لصوت : جمع لصت (يفتح اللام) وهو اللص .

الروم عن البلاد، وألا يعودوا إليها أو يسعوا ردها، وأن يتم هذا الجلاء في أحد عشر شهراً من إقرار هرقل لهذا الصلح، وأن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من الجند وخمسين من غير الجند ضماناً لنفاذ العهد، وأن يبقى العرب في أماكنهم مدة الهدنة لا يسعون للقتال، وأن يباح لليهود الإقامة بالإسكندرية، وأن يكف المسلمون عن أخذ كفائس المسيحيين. ولا يتدخلوا في أمورهم، وألا يفرق في الجزية بين القبط وغير القبط من سكان مصر. شتان ما بين هذا العقد وعهد الأمان الذي أعلن من جانب واحد. فهذا العقد أريد بمشروعه الذي رفض تصفية حالة حرب قائمة؛ وخلصته ترك الروم مصر للعرب، وتعهد العرب للروم بعدم إجلاء اليهود عن العاصمة، واحترام معابد المسيحيين وعقائدهم، وعدم التفريق بين المصريين وغير المصريين في الجزية. أما عهد الأمان فلا شأن للروم به. ولا عهد على المسلمين لهم فيه. لذلك كان من الخطأ أن يقول بتر إن عهد الأمان لا يخالف عقد الصلح، وإن كلا النصين يكمل الآخر.

على أن عهد الأمان لم يورد في أمر الجزية أية تفصيل عن طريقة توزيعها بين ساكني مصر. وقد اتفق المؤرخون على أن الجزية قدرّت بدينارين على كل حالم من الرجال دون سواهم، فلا جزية على الأطفال والنساء والرقيق والشيوخ الفانين والعجزة غير القادرين والصبيان. وجلي أن هذه الجزية كانت على الرؤوس، وأنها كانت غير خراج الأرض يلزم به الرجل على قدر المساحة التي يزرعها. وروى البلاذري عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن عمرأ « وضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً، وألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقاً للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم ». ويتعذر القطع برأى في هذه الفريضة من الحنطة والزيت والعسل والخل: أكانت ملحقة بالجزية على الرؤوس فهي ليست من سخراج الأرض، أم كانت تحسب من هذا السخراج؟ فقد روى البلاذري، بعد أن أورد قول عبد الله بن عمرو، حديثاً نسبته إلى يزيد بن أبي حبيب « أن أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول، مكان الحنطة والزيت والعسل والخل، على دينارين دينارين، فألزم كل رجل أربعة دنانير، قرضوا بذلك وأحبوه ».

وتذهب بعض الروايات إلى أن عمر كتب إلى ابن العاص أن يفرق بين أهل مصر في مقدار الجزية على قدر يسارهم ، فيجعلها أربعة دنانير على الموسر ، ودينارين على أوساط الناس ، وديناراً على من دونهم . وهذا الاجتهاد من عمر أتبع من بعد . يقول أبو يوسف في كتاب الخراج : « الجزية واجبة على جميع أهل الذمة . . . وإنما تجب على الرجال منهم دون النساء والصبيان ، على الموسر ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهماً يؤخذ ذلك منهم في كل سنة » .

أذاع عمرو في مصر عهد الأمان ، فرضيه المصريون ودخلوا فيه . بذلك آن له أن ينتقل من سياسة الحزب إلى سياسة السلام . ولا ريب في أن عمر أجأ أنشاء الحرب إلى ما توجبه الحرب من تدابير في بعضها بطش وقسوة بالروم ومن طعنهم من المضربين . ولا تثريب عليه في ذلك ، والحزب هو الحرب ، وتمهيد الطريق للنصر مع ضمان السلامة للجيش المقاتل هو أول واجب على القائد الذي يعرف واجبه . ولئن كان واجباً عليه ألا يتجاوز في البطش والقسوة ما يحقق هذين الغرضين ، إنَّ عليه لغرضاً أكبر ؛ ذلك ألا يتردد لأي اعتبار دون تحقيقهما . أما وقد تمَّ للمسلمين البصر فانهزم الروم وجئوا عن أرض مصر ، فقد انتهت مهمة القائد وبدأت مهمة السياسي . وقد كان عمرو بن العاص في كل المواقف السياسي الحنك الذي لا يُشَقُّ غباره . وكان عمر بن الخطاب يعرف ذلك منه أكثر مما يعرفه غيره ، لذلك ولاه على مصر ، فكان نجاحه في سياستها وتدبير أمورها أعظم من نجاحه في طرد الروم منها والقضاء على دولتهم فيها . هذا ما رأيت من بلوغه كل أغراضه من الحرب على نحو يكاد يكون معجزةً يثق إدارا كما على الأدهام .

وحسبنا قبل أن نعالج هذه السياسة في تفصيلها أن نُشير إلى جعلتها . فقد رأى عمرو أول ما رأى أن يُزيل ما يشكو المصريون منه ، وما كانوا يثيرون بالروم من جرأته . وقد كان الاضطهاد الذي أول سبب لتذمر الناس وشكواهم . لذا كان أول أمر أذاعه عمرو بن العاص في الناس جميعاً من النوبة إلى الإسكندرية ، أن لا إكراه في الدين . وأن حرية العقيدة أمر مقدس ؛ فلن يضارَّ أحدٌ في حريته أو في ماله بسبب دينه أو مذهبه فمن شاء أن يبقى ملكانياً أو مونوفيسيا فله ما يشاء أن ينتقل من دين

إلى دين أو من مذهب إلى مذهب فلن يضاب ذلك بسوء . ومن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ماعليهم . وقد نفذت هذه السياسية بدقة ليس كمثلها دقة . ذكر ساويرس أن أسقفًا ملكانيًا بقي على مذهبه حتى مات ، لم يمسه أحد بأذى ؛ وأن بنيامين المونوفيسي كان يستميل الناس إلى مذهبه بالحجة والبرهان ، فلا يقف أحد في سبيله ولا يعطل أحد نشاطه . وقد بقيت كنائس الملكانيين وكنائس المونوفيسيين قائمة تؤدّي فيها الشعائر ، ولا يجرؤ أحد أن يدنس حرمتها ، أو يحمل أحدًا من أهل هذا المذهب أو ذاك على أمر لا يرضاه . ومن اليسير عليك أن تقدّر ما كان لهذه السياسة من أثر في نفوس المصريين بعد أن ذاقوا مرارة الاضطهاد الديني ، وبعد الذي كان يصيبهم في سبيل مذاهبهم من عذاب وتشريد ونفي عشرة أعوام تبعًا .

وازداد الناس اطمئنانًا إلى حكم الفاتحين حين رأوهم يزيلون من أسباب تذرهم وشكواهم سببًا آخر لم يكن أقلّ إثارة لفؤوسهم من السبب الأول ؛ فقد خفف عمرو وطأة الضرائب ، وألغى ما قرره الروم من فروق بين الناس في أمرها . ذلك أن الروم كانوا يجبون عن جزية الروم ضرائب كثيرة من أنواع شتى أكثرها غير عادل ؛ وكانوا قد أعفوا بعض الطوائف من الجزية ومن ضرائب معينة ؛ وكان أهل الإسكندرية أكثر الناس استمتاعًا بهذا الإغفاء . فلما ألغى عمرو ما كان غير عادل من الضرائب ، وسوى بين الناس في أدائها ، كانت هذه التسوية ، وكان تخفيف العبء ، مدعاة لرضا الناس عن سياسته وحسن قبولهم لها ، ثم لم يكن تذر ذوي الامتيازات التي ألغيت ليعتبر من هذا الرضا وحسن القبول .

حسبنا في هذه الإشارة المختلة أن نذكر هذين الأمرين ، وأن نصيف إليهما أن عمرًا جعل العدل والإصلاح أساس سياسته في مصر ، لتتوسّم ما قدّر لهذه السياسة من نجاح أسرع بمصر لتكون ذات شأن في حياة المسلمين ، وفي سياسة الأباطورية الإسلامية . أين ترى أن يتخذ عمرو مقرّ حكمه والموضع الذي تصدر عنه سياسته وينبعث منه سلطانه ؟ الطبيعي أن يكون هذا المقرّ مدينة الإسكندرية ؛ فهي عاصمة مصر منذ بنائها بالإسكندر ، وهي المدينة العظيمة لا تضارعها مدينة غيرها في الجلال والعظمة ، وبها القصور

التي كانت مُقاماً للملك البطالسة وحكام الروم . ولذا كتب إلى عمر يستأذنه في المُقام بها ، وإقامة حكومته فيها . وسأل عمرُ الرسولَ : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ فأجابهُ : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . وكان عمر ، كما رأيت من قبل ، حريصاً أشد الحرص على ألا يحول بينه وبين المسلمين في البلاد المفتوحة حائل . لذلك كتب إلى عمرو : « لا أحب أن تُنزل المسلمين مُنزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف » . ولما بلغت هذه الرسالة عمراً لم يجد مكاناً يحقق رغبة أمير المؤمنين خيراً من المكان المجاور لحصن بابلين ؛ فهو على ملتقى فروع النيل المنتشرة في الدلتا مع الجرى الرئيسي للنهر ، وهو إلى ذلك قريب من مدينة منف التي كانت عاصمة مصر في عهد الفراعنة ، وليس يفصل بينه وبين الحجاز ماء ؛ ففي مقدور عمر أن يركب إليه راحلته حتى يبلغه من غير أن يعبر ماء في طريقه .

وكان عمرو بن العاص قد ضرب قبةً إلى جوار حصن بابلين حين حصاره ، وسمى المسلمون الذين معه هذه القبة الفُسطاط^(١) . فلما فتحوا الحصن وأزمع عمرو السير إلى الإسكندرية أمر بنزع هذا الفسطاط ، فإذا فيه يمامٌ قد فُرِّخَ ، فقال : لقد تحرَّم بنا إثم أمر بإبقاء الفسطاط حتى يطير الفراخ ، وأوصى به صاحب القصر . فلما عاد من الإسكندرية أمر جنده أن ينزلوا عند الفسطاط ، وأن يختطوا دورهم حوله . وكذلك اختطت البلدة ، وقُسمت بين أحياء العرب وبنائها لهم القبط وبنى عمرو مكان الفسطاط وما حوله مسجداً بين حدائق وأغراب ، وظل قائماً مع أصحابه حتى حرروا قِبَلته . ثم إنه اتخذ في المسجد منبراً يخطب الناس من فوقه . فلما عرف عمر صنيعه ذلك كتب إليه يقول : « أما بعد ، فإنه قد بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين . أما حَسْبُكَ أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقيبك ! فمزمت عليك إلا ما كسرتَه ا » ، فكسره عمرو وأزاله . وبنى عمرو داراً لعمر بن الخطاب وكتب إليه : إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد

(١) في لسان العرب أن الفسطاط مجتمع أهل الكورة حوالى مسجد جامعهم ، وقد أورد في الفسطاط ست لغات ؛ منها الفسطاط ولا ضرورة لذكر سائرهما . ويذهب بعض العلماء إلى أن كلمة الفسطاط مأخوذة من كلمة Fossatum البيزنطية الأصل ، ومعناها العسكر أو المدينة المحصنة ، وأن العرب سمعوها في الشام وفي مصر فأدخلوها لغتهم .

الجامع . فأجابه عمر : أتني لرجل بالحجاز أن تكون له دار بمصر ! وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين ، فنقذ عمرو أمره .

وإنما تخيّر عمرو هذا الفضاء فأقام به فسطاط مصر حتى لا يخرج المسلمون أهل مصر من ديارهم ليحلّوا محلّهم ، وليتجنب بذلك كل ما يوجب شكوى المصريين أو تذمّرهم . ولعله أراد كذلك أن ينشئ مدينة إسلامية يربط بها جند المسلمين ، وتقيم فيها أسرهم لتسكن بينة يعيشون فيها مألوف عيشهم ، على نحو ما فعل سعد بن أبي وقاص حين مضى إلى الكوفة والبصرة . على أن اتخاذاً ابن العاص ، وهو والى مصر ، هذا البلد مقراً لحكمه . أسرع به إلى العمران ، وأدى بطائفة كبيرة من المصريين إلى الانتقال إليه والبناء فيه . فلما اتسعت رُقعة المدينة أشاء المسلمون بظاهرها ضاحية أطلقوا عليها اسم العسكر ، ونقلوا إليها قاعدة الحكم . بذلك صارت فسطاط مصر عاصمة البلاد كلها ؛ تشد إليها الأنظار من الصعيد ومن مصر السفلى ومن ثغور البحرين الأبيض والأحمر ، مما أدى بها إلى أن تزداد على الأيام سعة وعمراناً . وقد ترتب على ازدياد عمرانها أن انتقلت إليها التجارة ، وأن ازدهرت فيها الحياة ، فبرز إليها كثيرون من أعيان الإسكندرية ومن أعيان منف وكان ذلك مقدّمة للقضاء على منف وأن تصبح قرية أثرية لا تذكر عظمتها إلا إذا قرّنت إلى عظمة الفراعنة الذين اتخذوها مدى آلاف السنين عاصمتهم ، كما جنى على الإسكندرية فلم تبق المدينة العظيمة ذات الجلال الباهر ، والنظر المضيء بجلاله كل ما حوله من أرجاء العالم . أقام عمرو بفسطاط مصر يفكر في تديروسياستها . وقد رأيت أنه جعل حرية العقيدة من أسس هذه السياسة . فلما عرف رُهبان القبط هذا الأمر وتيقنوه ، خرج عدد عظيم منهم من الأديار التي كانوا قد اعتصموا بها من الإضطهاد ، وساروا إلى عمرو يعلنون له الطاعة . وكان عمرو حريصاً على أن يعود البطريق بنيامين إلى رياسته الدينية لما عرفه من محبة القبط له وتعلقهم به ، ومن ازدياد هذه المحبة في نفوسهم بعد فرار بنيامين إلى أقصى الصعيد واعتصامه من الروم بالصخراء . لذا كتب للقبط جميعاً أماناً خص فيه بنيامين بقوله : « فليأت البطريق الشيخ آمناً على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها ، لا يبالهم أذى ولا تخفّر لهم ذمة » وعرف بنيامين عهد الفاتح العربي ،

فخرج من خبثه بالصحرَاء وسار إلى الإسكندرية ، فدخلها دخول الظافر في مظاهر من ابتهاج القبط لا يساورها خوف ولا يشوب صفوها كمدبر .

ولما استقر بنيامين المقام بين أتباعه ، دعاه عمرو إليه وقابله بالترحيب والتكريم . وتحدث بنيامين إليه ، وكان عذب المنطق ، في تودة ورزانة ، فأعجب الفاتح بحديثه ، وجعل له ولاية الدين على القبط يسوسهم في أموره بما يشاء . وخرج البطريرق القبطي من حضرة الفاتح الإسلامي ممتليء النفس غبطةً وابتهاجاً ، وعاد إلى الإسكندرية يلتهج بحمده والثناء عليه ويقول لأتباعه : « عدت إلى بلدي الإسكندرية ، فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء . وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم » . ولم تكن الأيام تزيد الإثناء وحداً ؛ فقد اجتمع القبط من حوله أحراراً في إقامة شعائهم ، فأصلح لهم كنائسهم وذهب إلى أديارهم ، فكانوا يقابلونه في مواكب يحملون فيها بين يديه المباخر وسعف النخيل .

وقد بلغ من ابتهاج القبط بعود الحرية إليهم مبلغاً يعبر عنه ساويرس بقوله « إنهم فرحوا كما تفرح الأسخال إذا حُلَّت قيودها وأطلقت لترشف من لبان أمهاتها » . ومع ما عرف من بغض حنا النقيوسي للمسلمين وتسقطه خطاياهم لقد كتب عن عمرو يقول : « لقد تشدد في جباية الضرائب التي وقع الإتفاق عليها ، لكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب ، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته » ونقل حنا عن المصريين أنهم كانوا يقولون : « ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر ، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيس . لقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر » .

لم يكن الملكانيون ، من المصريين ومن الروم الذين أقاموا بمصر ، أقل تمتعاً بحريتهم الدينية من القبط ، بل أظلمت حمايتهم عمرو كما أظلمت المونوفيسييين . صحيح أن الملكانيين كانوا قلة إلى جانب المونوفيسييين ، وأن عدداً كبيراً من القبط الذين انتقلوا أيام الإرباب إلى المذهب الملكاني لم يلبثوا حين عادت لهم حريتهم الدينية أن رجعوا إلى مذهبهم الأول

والتفقا حول راعيهم القديم ، ونالوا على يده « تاج الإعراف » كتعبير ساويرس . لكن آخرين من القبط الذين انتقلوا إلى المذهب المملكاني أصرّوا عليه فلم يسمح الحكم الإسلامي بحملهم قهراً على تغييره . لذلك بقي بمصر عدد كبير من الممكانيين إلى ما بعد الفتح بخمسين عاماً . وإنما تفاقصوا من بعد لأن المصريين منهم شعروا بأن صلاتهم الاجتماعية تقتضيهم الدخول في مذهب جماعتهم ، ولأن من بقي من الروم بمصر آثروا أن يندسج مع أهلها فدان بدين الكثرة أو بدين الجاكين .

كان من أثر هذه الحرية الدينية أن أقبل كثيرون من عقلاء الروم والمصريين على النظر في المذاهب المختلفة ، ثم انتهى أكثر هؤلاء إلى قبول الإسلام والدخول فيه . فقد رأوا في تنازع المذاهب المسيحية واضطهاد أصحابها بعضهم لبعض مازهدم فيها ، وجعلهم يلتبسون عن طريق الحرية العقلية سبيلاً إلى عقيدة يؤمنون بها مختارين . وكان الإسلام في هذا العهد الأول يدعو إلى النظر في الكون نظراً حراً مطلقاً من كل قيد . فلم تكن قد نشأت فيه المذاهب والشيع ، ولم يكن أهله قد عرفوا التعصب الذي يملأ المذهب على مذهب ، بل كان باب الاجتهاد مفتوحاً لكل ذي عقل وبصيرة ، وكان ماورد في القرآن الكريم من المبادئ البالغة غاية السمو يدعو إلى الإقبال عليه والإطمئنان إليه . وإذا صح مايقال أحياناً من أن المصريين الذين دانوا بالإسلام في ذلك العهد إنما دانوا به ليتساووا بالفاتحين ، فلن يصدق ذلك إلا على الأقلين منهم ؛ أما أكثرهم فقد دانت به عن بيئة وإيمان . ولا عجب في ذلك وفطرة المحافظة على العقيدة الدينية أقوى في النفس من أن يزلزلها مثل هذا الاعتبار . يقول بتلر في هذا الصدد : « ليس من العدل أن يقال إن كل من أسلم من القبط إنما يقصد الدنيا وزينتها . وإذا كان منهم من أسلم طمعا في أن يتساوى بالمسلمين الفاتحين حتى يكون لهم ما لهم وينجو من دفع الجزية ، فإن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقيدتهم غير راسية . أما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها . ومنذ بدأ ذلك لهؤلاء العقلاء لجثوا

إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بداعته وطمأنينته وبساطته^(١) .
 حتى عمرو حرية الاعتقاد ، ورسم سياسته في جباية الضرائب وفي أعمال الإصلاح
 وفي إقامة العدل بين الناس ، وعهد إلى العمال الذين ولّاهم في القيام على تنفيذها . أفكان
 هؤلاء الحكام من العرب ، أم من المصريين ، أم من غير هؤلاء . هؤلاء ؟ تأبى طبيعة
 القتل أن تكون إمارة جند لغير مسلم ، فعهد الأمان يجعل على المسلمين حماية مصر
 ومن فيها ؛ فطبعي أن يتولى المسلمون إمارة القوات التي يعهد إليها في هدم الحماية .
 هذا إلى أن مصر لم يكن لها جيش في عهد الروم ، وإنما كان حرسها الوطني جند نظام
 لاجند قتال ، فليبق هذا الجرس كما كان في ذلك العهد . أما الجيش وإماراته وأسلحته
 فكانت للمسلمين دون سواهم .

وليكون هؤلاء المسلمون على أهبة دائمة للدفاع عن البلاد ، لم يُتَّخَ لهم أول الأمر
 امتلاك أرضها ، بل فُرِضَ لهم أرزاق يقتضونها لنفقتهم ونفقة عيالهم . ويظهر أنهم أقاموا
 على ذلك كل خلافة عمر . فقد روى ابن عبد الحكم أن عمر لم يُقَطِّع أحداً من الناس
 شيئاً من أرض مصر إلا ابن مستور ، وكان عبداً مثل به سيده فأعتقه عليه رسول الله
 وبقي عيالاً على الخليفة غير صالح لقتال . على أن هذا المنع لم يدم إلا ريثما اطمان المسلمون
 إلى قرارهم في مصر . عند ذلك أُبيح لهم أن يمتلكوا الأرض ، فإذا ملكوها دفعوا عنها الخراج
 كسائر الناس ، فلا يزداد خراجها ولا ينقص بسبب تغير مالسكها وكونه مسلماً أو قبطياً .
 ولم تكن الأرزاق التي فُرِضت لجند المسلمين مقصورة على ما ينالونه من الجزية ،
 بل كان لهم على المصريين فريضة الضيافة ثلاثة أيام ، وكان لهم إلى ذلك حقوق على ما يترك
 من الأرض في كل قرية للمنافع العامة . يدل على ذلك خطاب ألقاه ابن العاص على الناس
 جاء فيه : « ... وعلى الراعي حسن النظر لرعيته . فَحَيَّ لَكُمْ على بركة الله إلى ريفكم
 فنالوا من خيرهِ ولَبَنَهُ وخِرَافَهُ وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها
 جُنَّتْكم من عدوكم وسها مغامركم وأنفالك . . . واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض
 الرجال ؛ فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قَدَرَ ذلك . واعلموا أنكم

في رباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية » .

كان هذا إذاً شأن الجيش وإمارته وأسلحته ؛ فأما المناصب المدنية فترك عمرو أكثرها لجماعة من الروم كانوا يتولونها من قبل دولتهم قبل الفتح . ثم آثروا البقاء بمصر على أن يعودوا إلى بلادهم ، ورضى كثير منهم الإسلام ليسكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكذلك أقرّ عمرو ميناس على حكم مصر السفلى حيث كان من عهد هرقل ، وأقرّ غيره من بنى جنسه على حكم بعض الأقاليم ، كما أقرّ الروم الذين كانوا فيما دون ذلك من المناصب ولم يتركوا مصر . وإما شغل القبط المناصب التي خلت لأن أصحابها من الروم تركوا البلاد إباءً منهم أن يكونوا رعية لغير دولتهم .

لم يكن لعمرو أول الفتح أن يسلك غير هذه الخطّة ؛ فهي بعينها الخطّة التي سلكها المسلمون في العراق والشام ، وهي كانت محتومة في مصر أكثر منها في تلك البلاد . فلم يكن العرب يعرفون لغة المصريين ، ولم تكن تربطهم بها آصرة الجنس العربي الذي حكم العراق والشام قرونًا قبل ظهور الإسلام . هذا إلى أن تغيير النظام القائم في أمة من الأمم لا يمكن أن يتم ظفرةً ، فلا بدّ من بقائه حتى يتطوّر على الأيام ليلائم العهد الجديد . أمّا وقد كان جماعة من الروم عمّالا على الأقاليم حين جاء الفتح ، فليبقوا كما كانوا ولينظر الفاتح العربي في أناة ، فيدخل ما يحسن إدخاله على نظام الحكم من تعديل يزيد نصيب أهل البلاد من هذا الحكم ، على شريطة ألا يضطرب النظام فيسبب اضطرابه إلى الحاكمين والمحكومين على سواء .

كان عمرو يكتب إلى الخليفة بما يتم في مصر ويطلعه على كل خطواته فيها . فلما عرف عمر مكانة بنيامين من قومه كتب إلى ابن العاص أن يلتمس الرأي عند البطريق القبطي في خير الوسائل لحكم البلاد وطمانينة أهلها . ولم يَصْنِ بنيامين بالمشورة وقد أعاد إليه عمرو كل نفوذه . وكانت مشورته أن يُجَبِّي الخراج من غلّة الأرض عند فراغ الناس من زروعهم ومن عصر كرومهم ، وأن تُخَفَّر خُلُجان مصر وتُصَاح جسورها وتُسَدّ ترعها كل عام ، وأن يُعطى العمال أرزاقهم بغير انقطاع لثلاثين شهرا ، وألا يباح مطل الناس

حقوقهم بغير حق ، وألا يلى أمور الناس عامل ظالم . وارتاح عمرو إلى هذه المشورة فكتب إلى عماله في أرجاء البلاد ، وأمرهم أن يتبعوا هذا الرأي لا يحيدون عنه ، ثم اتجه بتفكيره إلى أعمال الإصلاح يزيد بها البلاد ثروة ، فيزداد أهلها طمأنينة ويزداد خراجها نماء . ولعل تفكيره في الإصلاح قد سبق مشورة بنيامين . وكان أول عمل خطير مر بخاطرهم أن يُحفر خليج تراجان الذى يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويزيد الاتصال بين مصر وثور شبه الجزيرة تيسيراً . وقد قلبت من قبل إن الفراعنة حفروا هذا الخليج قبل عهد تراجان بألف السنين^(١) ، وإنما أصلح تراجان ما فسد من أسره فأحسن حفره وتطهيره . فلما توالى على مصر غزوات الفرس والروم وفشا فيها الاضطهاد وسوء الحكم أهل هذا الخليج فطمح بجراه ، فرأى عمرو أن يُعيد سيرته الأولى . والظاهر أنه بادر إلى القيام بهذا العمل العظيم أول ما استقر له أمر مصر ، وأنه أنه في وقت قصير لم يبلغ عامًا كاملاً ، مع أن طول التربة يزيد على ستين ميلاً .

وكان هذا الخليج يجرى مبتدئاً من شمال بابلون متجهاً شمالاً بشرق إلى بلبس ، فإذا جاوزها اتجه شرقاً إلى بحيرة التمساح ، ليخرج من جنوب هذه البحيرة فيتابع جريانه خلال البحيرات المرة فيبلغ البحر الأحمر عند السويس . ولا شك أن القيام بهذا العمل العظيم وإتمامه في هذا الزمن الوجيز مما يشهد لعمرو بالمقدرة الإدارية الممتازة ، وبخاصة إذا عرفنا ما قبل من أن الخليج كان في ذلك الوقت قد خفي أثره ، حتى احتاج عمرو إلى دليل من القبط يرشده إليه . وقد أجاز عمرو هذا القبطى برفع الجزية عنه .

ولعل عمراً قد لجأ في تنفيذ هذا العمل إلى السخرة ، فنجند الألوف من العمال المصريين للقيام به . وربما جاز لمؤرخ في هذا العصر أن يؤاخذ به بما صنع من ذلك ، وأن يعتبر هذه السخرة قسوةً بأهل تلك البلاد لم يكن له أن يلجأ إليها . وهذه المؤاخذة تُشتم من كلام بتلر ، ومن استشهاده بكلام حنا النقيوسى إذ يقول عن المسلمين : « وكان نيرهم على أهل مصر أشد وطأة من بنى فرعون على بنى إسرائيل . ولقد انتقم الله منه انتقاماً

(١) وإن العلامة قبل ليدكر أن فرعون مصر (نخاو) قد حفر خليجاً في برزخ السويس ، من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر .

عادلاً بأن أغرقه في البحر الأحمر بعد أن أرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان . ونسأل الله إذا ما حلّ حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل . « . ولا أراني أشارك من يذهب هذا المذهب في التثريب على الفاتح العربي ؛ فقد كانت السخرة في مصر من مألوف ذلك العصر ، ثم ظلت مألوفة بعده أكثر من ألف سنة ، فخلجأت إليها شركة قنال السويس الدولية حين بدأت تشق القناة في القرن التاسع عشر المسيحي . وليست السخرة في الواقع إلا نوعاً من التجنيد الإجباري للقيام بعمل عام ؛ وإنما عيبها ، والسبب الذي وجّهت من أجله المطاعن إليها ، أن القائمين بهذا التجنيد لم يكونوا يرعون فيه عدلاً ولا نظاماً ، وأن المجندين لم يكونوا يتناولون أجراً عن العمل العام الذي يقومون به . ولولا هذا العيب الجدير بأشدّ النقد ، ولو أن التجنيد للتعمير وضع على نظام عادل وفرض للقائمين به أجر معقول ، لما كان للتثريب عليه موضع .

ولعل المؤرخين الذين أخذوا عمراً بهذا التجنيد إنما اشتدوا في مؤاخذته لاعتبارهم أنه فتح خليج تراجان لمصلحة بلاد العرب لا لمصلحة مصر . ولا شبهة في أن بلاد العرب كان لها من فتح هذا الخليج فائدة كبرى ، ولكن لا شبهة في أن مصر كانت أكثر استفادة من هذا العمل ؛ فقد أعاد لها طريقاً أيسر من طريق القوافل للتجارة مع الهند وبلاد الشرق الأقصى ، ويسّر لها بذلك أن تستعيد حظاً من المكانة التجارية العظيمة التي كانت لها أيام سؤدها وعزّها . ومصلحة مصر كانت بعض ما قصد إليه عمرو حين تفكيره . ولا أدلّ على ذلك من أنه كان يريد حفر خليج بين بحيرة التمساح وبحر الروم ، يصل مياه البحرين ، بحر القلزم وبحر الروم ، على نحو ما هو حادث اليوم ، مقتدياً في ذلك بما صنعه بطليموس الثاني ، وبما صنعه الفرعون « نخاو » من قبله ولقد كان معتزماً أن يقوم بها العمل الضخم ، لولا اعتراض الخليفة بأنه يسهل للروم اختراق هذه القناة وتسيير سفنهم إلى بحر القلزم . ولم يكن للعرب إلى يومئذ أسطول تجاري أو أسطول حربي يقف في وجه أسطول الروم أو ينافسه ، فكان العدول عن حفر قناة تصل مياه البحرين بعض ما يقضى به الحذر . وإذا نحن ذكرنا موقف انجلترا في القرن التاسع عشر ومعارضتها في شق قناة السويس خوفاً على مكاتها في الهند ، تجلّى لنا أن خليفة المسلمين

كان له أبلغ العذر عن تخوّفه من شقّ هذه القناة منذ ثلاثمائة وألف سنة خلت .
 لم يكن عمرو أقلّ تفكيراً في خير مصر منه في خير بلاد العرب . ولا يغلو من
 يقول إنه كان يتجه بسياسته إلى بثّ الطمأنينة في ربوع مصر وتخفيف الأعباء عن أهلها
 وإقامة العدل بينهم ، ويرى في هذه السياسة خير توفيق بين مصالح الأمتين العربية
 والمصرية ، وخير توطيد لقواعد الإمبراطورية الإسلامية . ومما يشهد بأن هذه كانت
 خُطّته أنه أخذ بنصيحة بطريق القبط بنيامين في أمر الخراج وجبايته ، وأنه ذهب إلى
 أبعد من ذلك في تخفيف وطأته ؛ فقد كان هذا الخراج يزيد وينقص تبعاً لحال الفيضان
 وغلة الزراعة ، وكان أعيان كل قرية وبلد يجتمعون كلّ عام في لجنة تحديد مقدار ما يُجبى
 منها حسب هذه الأحوال . فإذا زاد المال الذي يجبى من بلد على الخراج المفروض عليها
 أنفق الزائد في إصلاح أحوالها . ولقد جُمِعت في كل بلد قطعة أرض خصّص ريعها
 للنفاع العامة ، كإصلاح الكنائس والحمامات والطرق وما إليها . وكان ما يجبى من
 الخراج أقلّ بكثير مما كان الروم يجبونه من الضرائب الكثيرة الفادحة التي فرضوها
 على المصريين فيما سوى العاصمة من أرجاء البلاد ، فكان هذا التخفيف مدعاة لطمأنينة
 القبط جميعاً إلى الحكم الجديد ولإشادتهم به .

وكان للإسكندرية أن تتذمّر من هذا النظام الذي فرضه عمرو بقدر ما كان للبلاد
 كلها أن تستريح له وتفتبط به ؛ فقد أعفى الإسكندر أهل المدينة التي شادها من الجزية
 من يوم إنشائها ، وجعل لليهود وللروم الذين جاءوا معه واستقرّوا بها امتيازات في
 التقاضي رفعت مكاتبتهم على المصريين الذين ساكنوهم فيها . وجرى البطالسة على سُنّة
 الإسكندر ، ثم توسّع الرومان من بعدُ فامتدّ الإعفاء إلى أبناء رومية الحاكين . ولم
 يقف الإعفاء عند الجزية والتقاضى ، بل أعفى أهل الإسكندرية من السخرة ، وأُعفيت
 الأرض المحيطة بها من الخراج^(١) .

لم يكن إلغاء الإعفاء الذي تتمتع به الإسكندرية ليسدّ النقص الذي أصاب إيراد

(١) راجع كتاب : « الامتيازات والإعفاءات التي يتمتع بها الأجانب في مصر » ؛ وهو بالفرنسية ،
 لبني الدين بركات باشا : ص ٣٥ — ٤٧ .

الدولة بسبب تخفيف الضرائب ؛ فقد هاجر من الإسكندرية أثناء الحصار وبعد الفتح كثيرون ، وترتب على ذلك أن أقفلت متاجر كثيرة . وقد اختلف المؤرخون في تقدير ما كان يُجْبَى من مصر اختلافاً كبيراً ، لكنهم متفقون جميعاً على أنه يقلّ كثيراً عما كان الروم يجبونه . مع ذلك لم يغيّر عمرو من سياسته في هذا الأمر طيلة السنوات التي تولى فيها إمارة مصر ، والتي اعتبرها المصريون خيراً وبركة عليهم .

اختلف المؤرخون في تقدير ما كان يُجْبَى من مصر ؛ فذكر البلاذري أن عمراً كان يجبي من خراجها ألف ألف دينار ، وذكر القريري أنه كان يجبي منها اثني عشر ألف ألف . وقيل في تأويل هذا الاختلاف أن بعض المؤرخين يذكر الخراج وحده ، وبعضهم يذكر الجزية وحدها ، وبعضهم يذكر مجموعهما . وهم مع هذا الاختلاف متفقون على أن متوسط الجزية كان دينارين على كل مكلف بها ، مع تفاوت بين الطبقات في تقديرها . أما من فرضت عليهم الجزية من أهل مصر ، فبلغ عددهم ستة آلاف ألف في رواية ، وثمانية آلاف ألف في رواية أخرى . والاختلاف على تقدير ما كان يجبي من مصر لا يغيّر من أنه كان على كل حال أخف وطأة مما كان الروم يجبونه .

قام العمال الذين ولّاهم عمرو من الروم والقبط بإدارة شؤون الدولة في الحدود التي رسمها ، ثم بقي نظام الإدارة في دواوينها جارياً مجزأً من قبل . واغتبط عمرو بنجاح سياسته ، وكان أشد اغتباطاً بخضب مصر وما فيها من ظل وارف ونعيم مقيم ، وكتابه المشهور إلى عمر بوصف مصر بنمّ عن ذلك وبشهادة عليه . فقد كان عمر ، فيما رأيت ، حريصاً على أن يصف عمّاله البلاد التي يكونون فيها وصفاً يجعله كآه شاهداً . فلما كتب إلى ابن العاص يطلب إليه أن يصف مصر بعث إليه يقول :

« ورد كتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه ! — يسألني عن مصر . اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكفها جبل أغبر ، ورمل أعفر . يخطّ وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الرّوحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان ، كجري الشمس والقمر . له أوان يدّر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمدّه عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اضلختم مجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض

على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صيفار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنها في الخايل ورزق الأصائل . فإذا ما تمكامل في زيادته ، نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته ، وطأ في درته . فعند ذلك يخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب لغيرهم ما سعوا من كدّهم ، فناله منهم بغير جدّهم . فإذا أحرق الزرع وأشرق ، سقاء الندى وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذ هي عبوة سوداء ، فإذا هي زمرّدة خضراء ، فإذا هي ديباجة رتشاء . فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذي يصلح هذه البلاد ويُنمّيها ؛ ويقرّ قاطنيتها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يُستأدى خراج ثمره إلا في أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العتال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفّق في المبدأ والمآل ! » .

يقول المؤرخون المسلمون : فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب قرأه قال : « لله درك يا ابن العاص ! لقد وصفت لي خبراً كأنني أشاهده » .

وبعض النقاد ينفون نسبة هذا الكتاب إلى ابن العاص . ونقاد الأدب أشدّ بهذا الذي تشبّها . فهم يرون أسلوب الكتاب وما فيه من محسنات بدعية لا يتفق وأسلوب العهد الإسلامي الأول ، ولا يتسق وما وصل إلينا من كتب عمرو الأخرى . وتلك لعمري حجة لها قيمتها . ولعل القارئ يشارك أصحابها في رأيهم متى اطلع في بقية هذا الفصل على الكتب التي تُبذلت بين الخليفة وابن العاص خاصة بالجزية والخراج . لكن هذه الحجة إن نفت نسبة ألقاظ الكتاب إلى عمرو ، فهي لا تنفي أنه كتب إلى الخليفة يصف مصر ؛ فخرّصُ عمر على معرفة مصر وصفتها لم يكن أقلّ من حرصه على معرفة القادسية وما يحيط بها ، والعراق وسدوده ومدنه . وأكبر ظننا أن عمرأ كتب هذا الوصف بأسلوبه هو ، وأنه بلغ غاية الدقة فيه ، ثم تناوله أديب متأخر ، فصاغه في هذا الأسلوب الذي أثبتته المؤرخون وأثبتناه هنا ، فإذا صح هذا الظن كان لنا أن نعتقد أن الأديب المزيف قد حافظ جهده على وصف عمرو ؛ ثم صاغه بأسلوب عصره وما فيه

من محسنات بديعية . بذلك نسي الناسُ كتاب عمرو أن لم يُثبت مؤرخ ، وبقي هذا الكتاب الزائف . وصرنا لا نستطيع أن نفرّق من عباراته بين ما يمكن أن ينسب إلى ابن العاص ، وما يجب أن ينسب إلى المزيف الذي عاش من بعده بعدة قرون .

أما ونحن ننفي هذا الزيف عن كتاب عمرو في وصف مصر . فيجمل بنا أن ننفي زيفاً آخر لا شك في أنه ابتدع ابتداءً من أوله إلى آخره ، وأنه لم يكن له أى أصل من الواقع ؛ ذلك ما قيل في أسطورة عروس النيل . فقد زعموا أنه « لما ولي عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة من أشهر القبط فقالوا له : إن لئيلنا عادةً وسنةً لا يجرى إلّا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنه إذا كان في اثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها ، وأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا عليها من الخلي والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل فيجرى . فقال لهم عمرو ابن العاص : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة وأيب ومسرّى لا يجرى النيل قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلء . فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين ، فأجابه عمر : « قد أصبت ؛ إن الإسلام يهدم ما قبله . وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها في داخل النيل إذا أتاك كتابي » . فلما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة إذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك ، فانسأل الله الواحد القهار أن يجريك ! » . فعرفهم عمرو بهذا الكتاب وبالبطاقة ، ثم ألقى البطاقة في النيل قبل يوم عيد الصليب بيوم ؛ وقد تهيأ أهل مصر للجلء والخروج منها لأنه لا يقيم بمصالحهم فيها إلّا النيل . فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله ست عشرة ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر » .

هذه رواية عروس النيل كما أثبتها المؤرخون المسلمون . وقد نقلنا نصّها هذا عن كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى برّدى : ولسنا نتردد لحظةً في نفيها من أولها إلى آخرها . ولو لم يقدّم الدلائل العلمى على هذا النفي لكفانا أن نستند فيه إلى ما بلغه الفراعنة من علم وحضارة ، وإلى أن انتشار المسيحية بين المصريين في عهد الرومان لم يكن ليسوغ قيام بدعة

كهذه البدعة . وقد ذهب بئر هذا المذهب فنفي القصة في العهد المسيحي ، ثم قال : « ويلوح أن هذه القصة أصلاً في التاريخ ؛ فقد كان من عادة أهل السودان حقيفة في أنصى أنحائه الجنوبية أن ترى قبائله المميج في النهر بفتاة عذراء في زينة الزفاف . ولعل عادة كهذه كانت مُتَّبَعَةً في بعض جهات المميج من بلاد النوبة التي فتحتها الإسلام في أول أمره . ولعل عادة التضحية بفتاة عذراء تُرْمَى في النهر كانت متبعة في مصر في أيام الفراعنة . وإنه من المحقق أن الاحتفال بالنيل والدعاء من أجل زيادته وفيضه كانت تقع فيه أعمال خرافية كثيرة تخلفت من العصور القديمة . ولكنها لم يكن بها شيء مثل ذلك الجُرم من التضحية بالعذراء فن أ كذب الكذب أن يُتَّهَمَ المسيحيون بأنهم حافظوا على مثل هذه العادة الشنيعة التي لا ترضى عنها ديانتهم ولا تُقرّها ملتهم » .

ومن عجب أن يدور بخاطر بئر أن مثل هذه العادة الشنيعة ربما كانت متبعة في مصر في عهد الفراعنة ، وأن يثور هذه الثورة العنيفة لاتهم قبط مصر المسيحيين بأنهم حافظوا عليها من بعد . فلو أن الفراعنة اتبعوها في أيامهم لبقيت من بعدهم . ولما كان على المسيحيين ترويب في اتباعها . فما أكثر ما انتقل من عادات الفراعنة إلى العهد المسيحي ، وإلى العهد الإسلامي ، وما لا يزال بعضه باقياً إلى عهدنا الحاضر ^(١) . ولا عذر لبتدر ، عن تسامحه في إتهم الفراعنة وثورته في نفي التهمة عن المسيحيين ، إلا ما ذكرنا من قبل من حساسته لديانته . على أن العلم قد أثبت من بعد أنه لم يحدث قط أن أُلقيت عذراء في النيل حياً على الفيضان ، وإن قيل إن تمثالاً من الخشب لعذراء عليها زيتنها كان يُلقى في النهر قبيل فيضانه ، ثم نفى جماعة من العلماء هذا القول أيضاً . ولو صح أن الفراعنة أو غير الفراعنة كانوا يُلقون في النيل تمثالاً من الخشب ابتهاجاً وابتهاجاً بالفيضان لما طعن ذلك على علمهم وحكمتهم ، ولما زاد على أنه نوع من الخرافة يستريح إليه السواد فلا يعترضه العقلاء والحكماء .

هذا هو ما يستخلص من تاريخ مصر الفرعونية . وقد أردت زيادة تحصيله ، فطلبت إلى العالم الأثري الأستاذ سليم بك حسن أن يمدني بعلمه ورأيه ، فكان مما أثبت أنه ما قيل

(١) أنظر كتاب : Legrain : Louqsor sans les pharaons :

عن الوثيقة التي بعث بها عمر بن الخطاب فألقيت في النيل ليفيض ، لا يزيد ، إن صح ، على أنه كان مجارة من الخليفة المصريين في عادة لهم لا ضرر من مجاراتهم فيها . فقد كان من عادة الكهنة المصريين ، ومن عادة بعض ملوكهم ، أن يقيموا للإله النيل احتفالاً في بدء الانقلاب الصيفي يقربون فيه للإله ثوراً وإوزةً وقرابين أخرى من الخبز وغيره ثم يلقون في النيل وثيقة مختومة من ورق البردي مخطوطاً عليها أمر للنيل أن يجري في فيضان معتدل يكفل للبلاد الخير والرخاء . وكان هذا الاحتفال يقام في اليوم الذي تصل فيه مياه النيل الصيفية قادمة من أسوان إلى بلدة السلسلة ، مبشرة بفيضان عظيم . والظاهر أن المسيحية عفت على القرابين فلم تكن تقدم في عهد الرومان المسيحيين ؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون للنيل إلهاً ، ثم بقيت الوثيقة تلقى في النيل ليجري فيضانه فتمت البلاد خيراته . فلما دخل العرب مصر كانت الوثيقة الإسلامية الأولى هي هذه التي يعزوها المؤرخون إلى عمر بن الخطاب ، والتي يأمر النيل فيها بأن يجري كما كان يأمره الأمير الروماني في العهد المسيحي ، وكما كان يأمره الكهنة وبعض الملوك في عهد الفراعنة .

أما قصة عروس النيل كما رويت تخرافة تستند إلى أسطورة روجها المؤرخ الإغريقي بلوتارك . خلاصتها أن « إاجبتوس » ملك مصر استلهم الوحي ليهديه السبيل لالتقاء كوارث نزلت بالبلاد ، فنصحته أن يضحي بابنته بأن يلقبها في النيل ففعل . ثم إنه ناء بالرزء الذي ألم به ، فألقى بنفسه في النيل فهلك كما هلكت ابنته . وهذه الخرافة التي روجها بعض كتاب الإغريق واللاتين من بعد بلوتارك لم يرد لها ذكر في الكتابات المصرية ، وهي مع ذلك مصدر الأسطورة التي ذاعت في الناس قروناً ، ونسج حولها الخيال من فنون الرواية والقصص ما جعل كثيرين يتوهمونها حقيقة حدثت بالفعل ، وأنها كانت تتكرر في كل عام .

أم ترى نسج الخيال أسطورة عروس النيل حول ما جاء في ورقة هاريس البردية التي ترجع إلى عهد « رمسيس » الثالث فيما بين سنة ١١٩٨ وسنة ١١٦٧ قبل الميلاد ؟ إن صح ذلك فهو الدليل على أن الإنسانية كثيراً ما تؤمن بأساطير لا أصل لها في الحياة ، وإنما زيّفها وزينتها خيال الكتّاب وأرباب الفن . فليس في ورقة هاريس ذكر لعروس

عذراء تزيّن وتلقى في النيل ، وإنما جاء فيها أنه كان على امتداد النيل ما يزيد على مائة مرساة ، بين كل مرساة والتي تليها نحو سبعة أميال ، وفي كل مرساة محراب لحاى إله النيل ، يراه كاهن يتناول من راكبي النيل أطعمة يقدمونها قرايين لحاى . وكان لكل محراب حراس لهم فيه طعامهم ولباسهم . وكان يوضع في كل محراب طاقة من الزهر تجدد في كل يوم ، وستة تماثيل من خشب الجيز لحاى إله النيل ، وستة تماثيل أخرى من الخشب نفسه للإلهة « ريب » زوجة النيل . هذا عدا تماثيل أخرى للإله حانى مصنوعة من الذهب والفضة والقصدير والأحجار المصرية المختلفة الأنواع كالمرمر واللازورد والزمرد والبور الطبيعي وأساور من ذهب وفضة . كانت هذه التماثيل كلها تُلقى في النيل يوم الاحتفال بعيد حانى في بدءا الانقلاب الصيفي ، ويؤتى بدنها بمجديد غيرها بعام في تلك المحاريب ، إلى أن يحل العيد بعد عام فتلقى في النهر قبيل فيضانه ثم يؤتى في المحاريب بتماثيل جديدة في كل عام .

ترى هل استمدّ الخيال قصة عروس النيل من هذه التماثيل التي كانت تُلقى في النهر ، فنفع الحياة في خشب الجيز وفي غيره من المواد التي كانت تصنع التماثيل منها ؟ وهل الإلهة « ريب » زوجة النيل هي التي أمدّت الخيال بفكرة العروس العذراء النابضة بالحياة ؟ أياً ما يكن الأمر فالقصة كما ترى أسطورة من أولها إلى آخرها زينتها الوهم ، ثم خلع القدم على الوهم صورة الحقيقة ، فإذا للنيل عروس من بنات حواء تُلقي فيه في ريعان شبابها وفي ثياب زينتها ، وإذا المؤرخون يتناقلون هذه الأسطورة على أنها حقيقة بقيت على الحياة القرون الطوال . وما أدري أيقضى على هذه الأسطورة بعد أن فنّدها المؤرخون وفنّدها الأستاذ سليم حسن هذا التفنيد العلمى الدقيق ، أم يبقى من الناس من يذكرونها ويتوهم أنها كانت حقيقة في يوم من الأيام ^(١) .

أما وقد فنّدها أسطورة عروس النيل فلننتقل إلى أسطورة أخرى ألقت على عمر

(١) استند الأستاذ سليم بك حسن في تفنيد هذه الأسطورة إلى ورقة هاريس Harris Papyrus

410—37—1 L. W. Erichsen ؛ وإلى مصادر أخرى ، منها كتاب ماسبيرو

ص ٣٩ وما بعدها ، The Dawn of Civilisation

وكتاب شارل بالانك : Le Nil à l'époque Pharaonique ص ٦٩ وما بعدها الخ ..

ابن الخطاب وعلى المسلمين في عهده تهمة شنيعة. ظلّ المؤرخون يتناقضونها قروناً عدّة ، ولا يرى المؤرخون المسلمون في روايتها ما يدعوم إلى تمحيصها ؛ تلك التهمة هي إحراق مكتبة الإسكندرية . ولعل المهارة التي زُيِّفت بها هي التي هوّنت أمرها على المسلمين كل تلك القرون . ويجب أن نعترف أن الفضل في الكشف عن زيفها يرجع إلى المستشرقين الذين محصوها وفنّدوها منذ القرن التاسع عشر ، وأن لبتلر أكبر الفضل في القضاء عليها قضاء حاسماً بما أورد من حجج لا يتردد إنسان قعدها في القطع بزيفها وكذبها من أساسها .

ويزيد في شناعة هذه التهمة الباطلة التي ألصقت بعمر وبالمسلمين في عهده أن مكتبة الإسكندرية كانت أعظم مكتبة في العالم ، وكان فيها من نفائس الكتب في كل العلوم والفنون ما قلّ نظيره في مكاتب العالم الحاضر . فقد أنشأها البطالسة ، وجمعوا فيها سبعمائة ألف مجلد ، وجعلوها في عدّة أبناء من أبنية متحف الإسكندرية المجاور لقصور الملك . وكانت أبنية هذه المكتبة العظيمة تتصل بأبنية مدرسة الطب والتشريح والجراحة ، ومدرسة الرياضيات والفلك ، ومدرسة القانون والفلسفة ، وبيداء المرصد ، ومكان الحديقة التي خصصت لدراسة علم النبات . بذلك كانت المكتبة والجامعة المتصلة بها أعظم مركز لتقافة العالم في ذلك العصر . ولا ريب أن إحراق مكتبة ذلك شأنها جرمٌ فظيع ، وجنايةٌ على الإنسانية لا يزتكبها متعمداً إلا الهميح ومن كانوا في مثل درجتهم من الوحشية .

مع ذلك ألصقت هذه التهمة بعمر بن الخطاب وبالمسلمين في عهده . وظلت لاصقة بهم عدّة قرون كانت خلالها سبباً في تجنّي المنجّنين وطعن الطاعنين عليهم ، ثم ظلت كذلك حتى نفاها العلم فلم يبق من يذكرها إلا لينكرها . ولو أن المتقدمين من المؤرخين كانوا يُعَنِّون بنقد الحوادث ، ويدقّقون في تمحيصها لتيسّر لهم تبين الزيف فيها ، ولما ظلّ التاريخ في ضلال ستة قرون . وأيسر ما كان يهديهم لزيفها أنها لم ترد في كتاب طيلة القرون الخمسة التي تلت فتح المسلمين مصر ، مع أن المؤرخين الذين سبّجوا تاريخ هذه الفترة بينهم مصريون مسيحيون لم يدّعوا منقصةً يمكن أن تنسب للعرب إلا أثبتوها ، ثم لم يذكر أحد منهم شيئاً عن مكتبة الإسكندرية وإحراقها .

ولعل هذه الأسطورة نجمت في بيئات الشيعة ، فذكرها أبو الحسن القفطى في كتابه: (تاريخ الحكماء) ، ونقلها عنه أبو الفرج بن العبري ، وكلاهما عاش في القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد تداولها عنهما من جاء بعدهما من المؤرخين . وقد أحكموا حبكها . وفي وسعك أن تتبين هذا الإحكام من طريقة روايتها . فقد ذكروا أن قسيساً من القبط يدعى حنّا^(١) النحوى عزله مجمع الأساقفة لزيغ في عقيدته ، كان قد اتصل بعد الفتح بعمر بن العاص ، فلقى عنده حظوة لذكائه وصفاء ذهنه وغازاة علمه . فلما اطمأن إلى إقبال عمرو عليه قال له يوماً : « لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف . ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به ، بل شيئاً لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » . وسأله عمرو : ما يعنى بقوله ؛ فأجاب : « أعنى بقولى ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة » . فقال له عمرو : « إن ذلك أمر ليس لى أن أقتطع فيه رأياً دون إذن الخليفة » . ثم إنه بعث إلى عمر يسأله رأيه فى الأمر ، فجاءه الرد من المدينة وفيه ما يأتى : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيها وأحرقها » . فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو أسمر بالسكتب فوزعت على حمامات الإسكندرية لتوقد بها ، فإزالوا يوقدون بها ستة أشهر . هذه خلاصة وجيزة لرواية القفطى ، وقد أردفها بقوله : « فاسمع لما جرى وأعجب ! » .

أنت ترى راعة الحبكة فى هذه القصة . فحوار بين حنّا وعمرو ، وكتاب من عمرو إلى الخليفة ، ورد من الخليفة يأمر بإحراق المكتبة ، وتفصيل دقيق للطريقة التى نفذ بها هذا الأمر . كيف يبقى بعد ذلك كله أى ريب فى صحة هذه الوقائع ؟ وكيف يخالج المؤرخين المسلمين فيها الشك وقد كتبت فى القرن السادس الإسلامى حين جد التفكير والنقد ، وأصبح جهد المؤلفين مقصوراً على نقل الروايات التى ذكرها من سبقهم دون تمحيصها لمعرفة صحتها من باطلها . فلا يثبت المؤرخون المسلمون هذه القصة العجيبة كما هى ، ولينقلوها الخلف عنهم عن السلف ؛ وليذكرها المؤرخون المسيحيون مؤمنين بصحتها . وليعلموا عليها بما يشاءون ، فهم لم يكونوا يتصورون الإسلام والمسلمين إلا اقتراناً فى أذهانهم بالتمصّب المذموم والقسوة الوحشية . ولتبقى هذه الوقائع مقطوعاً بصحتها حتى يلتقى عليها

(١) يسميه المؤرخون المسلمون « يحيى » .

النقد العلمى ضيائه الكشّاف فيظهر بطلانها ، فيزيّفها « جَبُون » ، ويزيّفها « سِدَيَو » ، ويزيّفها « رِيثان » ، ويزيّفها « جُسْتاف لِيْبُون » ، ويزيّفها بَتْلَر ، ويزيّفها غير هؤلاء من المؤرخين ، ثم تزيّفها دوائر المعارف البريطانية والإسلامية وغيرها ، ويزيّفها تاريخ المؤرخ ، ويذكر في تزييفها ونفيها ما قرره علماء المسلمين صراحة من « أن ماينم في الحرب من كتب اليهود والمسيحيين الدينية لا يجوز بحال أن يقدم طعاماً للنار ، وأن مؤلفات العلماء والمؤرخين والشعراء وعلماء الطبيعة والفلاسفة يحقّ الانتفاع بها لخير المؤمنين » . ولا تحسب أن المؤرخين اكتبوا في نفي هذه الأسطورة بالاستناد إلى مثل هذا الاعتبار العام ؛ فقد تناولوها بالتحصيل حتى ثبت لهم أنها لا تثبت له ، ثم نفوا حوادثها واحدةً بواحدةً نفيّاً علميّاً دقيقاً مستنداً إلى أوثق المصادر .

فليس صحيحاً أن حنّا النحوى تحدّث إلى عمرو بن العاص في أمر المكتبة أو في أمر غيرها ؛ لأن حنّا النحوى مات قبل دخول المسلمين مصر . فالثابت أنه كان يكتب قبل سنة ٥٢٧ م ، أى قبل دخول العرب مصر بخمس عشرة ومائة سنة . فإذا فرضنا أنه كان يكتب وهو في العشرين لكانت سنة خمساً وثلاثين ومائة سنة . وهذا غير معقول ، فلم يُعرف أن الناس في مصر يكتبون في مثل هذه السن .

وليس صحيحاً أن مكتبة البطالسة كانت باقية عند فتح العرب مصر ؛ فقد أجمع المؤرخون على أن هذه المكتبة احترقت في سنة ٤٨ للميلاد حين ذهب قيصر إلى الإسكندرية فأحيط به في مرفئها ، فأحرق السفن التي فيه ، فامتدّت النيران منها فأحرقت المكتبة وأفتتها . يتحدّث أميانوس وسيلوس عن « مكاتب الإسكندرية التي كانت لا تُقوّم بشمن ، والتي اتفق الكتّاب الأقدمون على أنها كانت تحوى سبعمائة ألف كتاب يذلل البطالسة في جمعها جهداً كثيراً ، ولقوا في سبيل ذلك عناء كبيراً . وقد أحرقتها النيران في حرب الإسكندرية عند ما غزاها قيصر وخرّبها » . ويقول أورسيوس : « وفي أثناء النضال أمر - قيصر - بإحراق الأسطول المللكى ، وكان عند ذلك راسياً على الشاطئ » ، فامتدّت النيران إلى جزء من المدينة وأحرقت فيها أربعمائة ألف كتاب كانت في بناء قريب من الحريق ، فضاعت خزانة أدبية عجيبة مما خلفه آباؤنا الذين جمعوا هذه المجموعة

الجليلة من مؤلفات النابغين « . ويقول ديوكاسيوس : « وامتدّت النيران إلى ما وراء المراسى بالبناء ففضت على أنبار القمح ومخازن الكتب ، وقيل إن هذه الكتب كانت كثيرة العدد عظيمة القيمة » . وهذه الأقوال وغيرها لا تدع مجالاً للريب في أن مكتبة البطالسة احترقت قبل الفتح العربي بستة قرون .

وليس صحيحاً أن المكتبات التي نُقلت إلى الإسكندرية ، أو أنشئت بها بعد احتراق مكتبة البطالسة ، كانت باقية عند الفتح العربي . فقد أهدى مارك أنطونيوس مكتبة بروجاموس إلى كليوباترا ، عوضاً عن الخسارة التي لحقتها بضياغ مكتبة آبائها ملوك مصر البطالسة . ولعل الإسكندرية كان بها مكتبات أخرى ، أبت ما كان للعاصمة المصرية من مكانة علمية سامية جعلت جامعتها مقصد الطلاب والعلماء من أبناء الإغريق ورومية وكل محب للعلم في عالم ذلك العصر . لكن هذه المكتبات قضى عليها هي أيضاً في الثورات التي اندلع لها بين المسيحيين والوثنيين في النصف الثاني من القرن الرابع المسيحي . يقول تاريخ المؤرخ : « كان بالإسكندرية مكتبتان ، إحداهما مكتبة البروكيون التي أُنلفت في عهد جاليناس سنة ٢٦٣ م ، والثانية مكتبة السرايوم ، وقد أصابها ما أصاب الأولى في ثورة تيوفيلوس سنة ٣٩١ م . وكذلك انعدم كل أثر لهما في المجموعتين قبل خمسين ومائتي سنة من فتح عمرو لمصر . ولم يذكر التاريخ أن أميراً أو بطريقاً أو حاكماً أراد أو قدّر في هذه الفترة على أن يُحِلَّ غيرها محلها » . ويقول بتلر : « رأيت فيما سبق كيف خُرب القيصريون ونهب في سنة ٣٦٦ في أثناء نضال ديني . وأغلب الظن أن المكتبة التي كانت فيه قد ذهبت ضحية في ذلك النضال » ، ثم يقول : « وأهوى المسيحيون إلى المعبد العظيم ، معبد سيرابيس ؛ وعلى رأسهم تيوفيلوس ، وجعلوا يهدمونه ويخربون فيه ، وكان ذلك في عام ٣٩١ م ، ولا يختلف فيه اثنان ، وقد ثبت أن المكتبة كانت في حجرات متصلة بهذا المعبد ، وثبت أن ذلك المعبد كله قد هدم وخُرب . فلا بد أن تكون المكتبة قد لحقها الخراب نفسه ^(١) .

(١) بحث بتلر أسر مكتبة السرايوم بحثاً مفصلاً استغرق تسع صفحات ، فليرجع إليه من شاء : (ص ٣٥٧ — ٣٦٦ : الترجمة العربية) .

أما وقد ثبت أن حنا النحوى لم يكن حيًا حين الفتح ، وأن مكتبة البطالسة احتزقت في عهد قيصر ، وأن المكتبات التي أنشئت بعد احتراقها أُنلفت قبل دخول المسلمين مصر ، فقد انهارت أقوال الرواة فيما اتهموا به عمر بن الخطاب من الأمر بإحراق مكتبة الإسكندرية . على أن ذلك لا يعنى أن الإسكندرية انعدمت كل مكتباتها العامة والخاصة ، وأن مصر لم يبق بأديارها وجامعاتها مكتبات خاصة بها ؛ بل كانت عاصمة مصر عند الفتح العربى لا تزال محتفظة بسمعتها العلمية . وقد زارها قبيل الفتح رجلان من محبى العلم هما صُفْرُ نِيُوس وحنّا مَسْكُوس ، وتَنَقَّلَا في أرجائها وذكرَا ما اطلعا عليه من الكتب في مكتباتها مُعْجَبِينَ به أيما إعجاب ، ثم لم يردفيا كتباً أى شىء عن المكتبة العامة التي زعم رواة الأسطورة أنها أحرقت بأمر خليفة المسلمين . وهذا دليل جديد يضاف إلى ما تقدم من الأدلة على كذب الأسطورة وزيفها . فلما كتب حنا النقيوسى بعد الفتح وفصل أنباء عمرو بن العاص وأعماله ، وأنهى بأشد اللأمة على المسلمين حتى فيما اضطُروا إليه بحكم الحرب ، لم يكتب مع ذلك كلمة عن مكتبة الإسكندرية وإحراقها ، فانتفت هذه التهمة الباطلة انتفاءً باتاً ، وزال كل ما يمكن أن يبقى في نفس أشد الناس للمسلمين عداوة من شبهة في أمرها .

لا حاجة لما بعد هذه الأدلة كلها إلى بيان السخف الذى تنطوى عليه عبارة المؤرخين عن توزيع الكتب على الحمامات لتوقّد فيها ، وأن هذه الحمامات ظلت توقّد منها ستة أشهر . وإذا كان لهذه العبارة دلالة فعلى أن المؤرخين لم يتورّعوا فتنسجوا بأباطيلهم من أوهام خيالهم ليختموا عبارتهم بمثل قول القفطى : « فاسمع لما جرى وأعجب ! » . ولو أن النقد العلمى عُرِف في تلك العصور لما بقيت هذه الأسطورة أسابيع قبل أن يفتّدها الناقدون ، ولَعَدَّ راويها مُهَرِّجاً لا يصح الاعتداد رأيه أو الاستماع إلى قوله .

كيف تسبى لأسطورة تقوم هذه الأدلة الكثيرة على بطلانها أن تبقى قروناً ، ألا يرى بعض المؤرخين المسلمين بأساً بروايتها وبتصديقها ؟ السبب عندى واضح . بين ، وهو الفرق بين عقلية المسلمين في القرن الأول ، وعقلية المسلمين في القرن السابع الهجرى والقرون التي تلتها . .

كان المسلمون في عهد الرسول وفي عهد خلفائه الأولين يرون واجباً عليهم أن ينظروا في الكون، وأن يلتمسوا أسرارَه ليقفوا على سعة الله فيه . ولم يكن لوسائلهم في هذا النظر وفي التماس هذه الأسرار حدٌّ بل كانت حرية التفكير مطلقة لهم وكانت السبب في قوة إيمانهم . كان الاطلاع على تفكير غيرهم والوقوف على ما كتبه الأولون جائزاً عندهم بل واجباً عليهم . لم يكونوا يهابون مواجهة الباطل لأن قلوبهم كانت سليمة وبصائرهم كانت مستنيرة ، ولأن التفاصيل لما تكن قد طفت عليهم فقيدت عقولهم وأفئدتهم وسجنتها في قوالب صُلْبة لا يجدون عنها حولا . لذلك كانوا يجتهدون ، فلا ينقص اختلافهم قَدْرَ أيٍّ منهم ؛ لأنهم كانوا جميعاً متضامين ، يؤمن كل واحد منهم بأن صاحبه يريد باجتهاده خير الإسلام والمسلمين جميعاً . وقد رأيت كيف اختلف عمر أبو عبيدة عام مطاعون ، فلم يغيّر ذلك من احترام المؤمنين لأمين الأمة ، ولا من إكبار أمير الأمة لأمير المؤمنين .

وأدى اجتهادهم إلى سعة في آفاق الفهم ، بلغت بالخلفاء في عهد العباسيين أن يأمرُوا بترجمة كتب اليونان والفرس وغيرهم من الأمم في الطب والرياضة والحكمة والفلسفة ، ثم لم يخشوا أن تُزَيِّج ترجمتها العقائد أو تفسد النفوس . قومٌ ذلك شأنهم لا يمكن أن يُعزَى لأحدهم أن يقول : « أما الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه » . فقد كانوا يعلمون أن كتاب الله لم يفصل علوم الطب والرياضة والهندسة وغيرها من العلوم والفنون الكثيرة ، وأن معرفة ما كتب في هذه العلوم على حقيقته من أقوم السبل لمعرفة سُنَّة الله في الكون .

فلما بدأ المسلمون يتراشقون بالانتهام بزئج العقيدة عند الاختلاف في الرأي ، تدهورت العقلية الإسلامية إلى الهاوية التي تدهورت إليها العقلية المسيحية من قبل ، فجمد الناس على مذاهبهم ، وأصبح الانتهاك بالمرق والزندقة أيسر ما يجري على ألسنتهم ، وصار التعرض بالنقد لأمر مقرر تجديفاً لا يغامر به إلا مجازف بأن يتهم في دينه ، وأن يصيبه من جراء ذلك أعظم الحيف في رزقه وفي حريته وفي حياته . وذلك هو السبب في أنك قلما تعثر في كتب المتأخرين على نقد لرأي سلف ، بل تراهم يكتبون بإثبات ما ذكره الذين من قبلهم وأن اختلفت الروايات فبلغ اختلافهم حد التناقض والتضارب . فإذا لم يُطبق أحدٌ

على تناقضها صبراً لم يفكر في تقويم معوجتها وتصحيح باطلها ، بل اكتفى بعد إيراد الروايات جميعاً بقوله : « والله أعلم . كذلك قيل » .

وقد أصابهم الجود أول الأمر في شؤون العقائد والعبادات وأصول النقد ، لكن هذا الجود سرعان ما امتد إلى سائر العلوم والفنون ، والتاريخ من بينها ، ذلك لأن العقل لا يمكن أن يكون حراً طليقاً في ناحية جامداً مقيداً في ناحية أخرى . وهو متى رضى أن يرسف في القيود فجمد عن البحث في أصول العقائد والتشريع ، أصبح الجود عادة له ونظاماً يجرى عليه في كل شؤون . ولا عجب ! فأنت لا تستطيع أن تقيم حداً فاصلاً بين علم وآخر . أو بين علم من العلوم وفن من الفنون ؛ فالعلوم والفنون تتداخل كلها وتتعاون فإذا كان العقل حراً في ناحية لم يستطع أن ينزل عن حريته في ناحية أخرى ، وإذا جمد في ناحية جمد في سائر النواحي فركد نشاطه وذبلت حيويته . وذلك ما حدث في اليهود الإسلامية المتأخرة فأدى المؤرخين المسلمين إلى تصديق أسطورة باطلة كأسطورة مكتبة الإسكندرية وإحراقها بأمر الخليفة العظيم عمر بن الخطاب .

وهذا أمر يؤسف عليه أشد الأسف ؛ فقد كانت الحرية العقلية جوهر الإسلام ، والأساس المتين للحياة الإسلامية في عهودها الأولى . وهذه الحرية العقلية هي التي طوّعت للمسلمين أن يبلغوا من الرفعة ما بلغوا ، وأن تمتد إمبراطوريتهم في أعوام معدودة إلى المدى العظيم الذي امتدت إليه .

وهذه الحرية العقلية التي أقرها الإسلام هي التي زادت العرب اعتداداً بأنفسهم ، واعتزازاً بكرامتهم وحرصاً على المساواة التي كانت سليقة فيهم من بدء نشأتهم . فقد كان العربي في باديته وفي حضره يجعل حياته ثمن حريته ، يدفع عنها كل من ينتقص منها ، ولا يرضاه إلا كاملة طليقة كالمواء الذي يتنفسه . على أن عقائدهم الوثنية كانت غلاً في أعناقهم أقبلهم وقعد بهم عن التطلع إلى مثل أعلى يتوجهون إليه بقلوبهم ، ويهبون له حياتهم . فلما حطم الإسلام هذا القلّ وأطلق حريتهم العقلية من عقالها انتشروا في الأرض كما رأيت ، ثم زادهم الإيمان الصادق بالمساواة والإخاء بين المؤمنين جميعاً حرصاً على حريتهم وعلى كرامتهم ، فلم يكن أحدهم ينزل عنهما أو يفرط فيهما . ولم يكن يرضى

من أحد ولا من أمير المؤمنين نفسه أن يمسهما . وظلّ ذلك شأنهم في القرون الأولى فزادهم قوة وسلطاناً . فلما آن للزمن أن يدور دورته ، ونزل المسلمون شيئاً فشيئاً عن هذه الحرية ثم رضوا بالجلود العقلي ، دبت فيهم ديبب الانحلال ، وبدءوا يصدّقون أساطير كآسطورة عروس النيل ، وحريق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر .

هذه الحرية العقلية هي التي مكّنت لعمر بن العاص أن يسوس مصر كما رأيت ، وأن يوفق غاية التوفيق في تألّف أهلها مع اختلافهم مع العرب في الجنس واللغة والدين وقد اغتبط عمر بما عرف من ذلك أول الأمر ، ثم لم يلبث أن خالف عمراً فيما اتصل من سياسته بتخفيف الضرائب مخالفةً بلغت مبلغ المؤاخذه . وكتب إليه في ذلك مرات فلم يغير عمرو من رأيه ولا من خطّته ، بل أصرّ على ذلك إصراراً أقام الشبهات في نفس عمر . وهذه الشبهات هي التي جعلت الرجلين يتبادلان من الكتب ما لا يستطيع تصور مثله في العصر الحاضر . وكيف تستطيع أن تتصوره وقد وقف ابن العاص من أمير المؤمنين موقف الند من نده ، مع ما يعرفه من شدة عمر على عماله ، حتى ليسرع إلى عزلهم متى زابت نفسه الطمأنينة إلى عدلهم وأمانتهم ! .

فقد كان عمرو بن العاص حريصاً كل الحرص على أن يتألّف المصريين وألا يرهقهم وأن يقوم من إصلاح شؤونهم بما يرضيه ، فكان ينفق من خراج مصر ومن الجزية المضروبة على أهلها ما يحتاج إلى إنفاقه في حفر خُلاجانها ، وإقامة جسورها ، وبناء قناطرها وقطع جزائرهما ، ثم يبعث ما يبقى بعد ذلك إلى أمير المؤمنين . وقد احتاج تدمير البلاد أول الفتح إلى كثير من النفقة . فقد بدأ عمرو أوّل ما استقرّ به الأمر ، فحفر خليج تراجان — وهو الخليج الذي أطلق عليه من بعد اسم خليج أمير المؤمنين — كما أخذ نفسه بإصلاح ما أفسده الروم من مرافق البلاد . هذا إلى أنه أعنى القرى التي أصابها الخراب من الجباية . وكان عمر في حاجة إلى المال لتنفيذ سياسته في شبه الجزيرة ، وكان لذلك يلح على عمرو ليبعث إليه بالخراج كاملاً ، فلا يجد منه إسرعاً إلى تلبية لما يريد تشبُّهاً منه هو أيضاً بسياسته . وضاق عمر بذلك ذرعاً ، فكانت بين الرجلين تلك الكتب العنيفة بلغ عنفها وبلغت شدتها حدّ الاتهام .

وأول ما يورده المؤرخون من هذه الكتب كتابٌ من عمر إلى عمرو يقول فيه :
« أما بعد ، فإنني فكّرت في أمرك والذي أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة
رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوةً في برٍّ وبحر . وإنما قد عاجلتها الفراعنة
وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عُتُوِّهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك . وأعجب مما عجبت أنها
لا تؤدّ نصف ما كانت تؤدّيه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب . ولقد
أكثر في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج ، وظننت أنه سيأتينا على غير نزر
ورجوت أن تفيق فترفع إليّ ذلك ، فإذا أنت تأتيني بمعارض تبعث بها لا توافق الذي
في نفسي . ولست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست
أدرى مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك . فلئن كنت مُجْزِئاً كافياً صحيحاً
إن البراءة لنافعة ، وإن كنت مضيقاً نطقاً إن الأمر لعلّ غير ما تحدّث به نفسك .
وقد تركت أن أبتغي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تُفيق فترفع إليّ ذلك . وقد علمت
أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمال سوء ، وما توالس عليه وتُلَفّف . اتخذوك
كهفًا ، وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه . فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ
منك الحق وتُعْطاه فإن التَّهَرَّ يُخْرِج الدَّرَّ ، والحقّ أبلغ ، ودعني وما عنه تلجلج ،
فإنه قد برح الخفاء . والسلام . »

هذا كتاب لحُمة اللوم وسداه التهديد ، فهل تراه أزعج عمراً أو دفعه لأن يعدل
عن سياسته ؟ كلا ! بل أجاب أمير المؤمنين بكتاب جمع ، إلى الاعتداد بالنفس والاعتزاز
بالكرامة ، حرصاً أصدق الحرص على هذه السياسة ، ودفعاً للهمة التي وُجّهت إليه بلغة
لا تقلّ شدةً في لهجتها عن لغة أمير المؤمنين . فقد أجاب كتاب عمر يقول : « أما بعد فقد
بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج ، والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة
قبلي وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام . ولعمري قد كان
الخراج يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ؛ لأنهم كانوا على كفرهم وعتوِّهم ، أرغب
في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام ، وذكرت أن النهز يخرج الدّر فخلبها حلباً قطع
ذلك درّها . وأكثر في كتابك وأنبت وعرضت وثرّبت . وعلمت أن ذلك عن شيء

تُخفيه على غير خبير ، فُجئت لعمرى بالمُفْطَعات المُتَعَذِّعات . ولقد كان لك فيه من الصواب
 رصين صارم بليغ صادق . وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده ، فكنّا
 بحمد الله مؤدّين لأمانتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً والعمل
 به شيناً . فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قيلنا ، معاذ الله من تلك الطّعم ، ومن شر الشّبم
 والاجترأ على كل مأثم . فاقبض عملك فإن الله قد نزّهني عن تلك الطعم الدنيّة والرغبة
 فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تُكرم فيه أخاً . والله باين الخطاب لأنّا
 حين يراد ذلك مني أشدّ لنفسى غضباً ولها إنزاهاً وإكراماً . وما عملت من عمل أرى
 علىّ فيه مُتعلّقاً . ولكنني حفظت ما لم تحفظ . ولو كنت من يهود يثرب مازدت . يغفر
 الله لك ولنا ! وسكتُ عن أشياء كنت بها عالماً وكان اللسان بها منّي ذلولاً ، ولكن
 الله عظم من حَقِّك ما لا يُجْهَل والسلام .

لم ينزعج عمر بن الخطاب لهذا الكتاب ، بل رأى أن يأخذ ابن العاص بالشدّة ،
 وألا تلبس قناته له مخافة استرساله ، فكتب إليه يقول : « أما بعد فقد عجبت من
 كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إلى بُنَيّات الطرق . وقد علمت
 أني لست أرضى منك إلا بالحق البين . ولم أقدمك إلى مصر أجعلها طُعمَةً لك
 ولا لقومك ؛ ولكني وجّهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك . فإذا
 أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو في المسلمين . وعندي من قد تعلم قوم محصورون
 والسلام . »

كان جواب عمرو على هذا الخطاب أقلّ عنفاً ، ولكن إصراره فيه على سياسته
 لم يكن أقل وضوحاً وبروزاً . ترى ذلك صريحاً في قوله : « أما بعد ، فقد أتاني كتاب
 أمير المؤمنين يستبطنني في الخراج ، ويزعم أني أعيد عن الحق وأنكب عن الطريق .
 وإني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ! ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك
 غلّتهم ، فنظرت ، فكان الرقي بهم خيراً من أن يُخْرَقَ بهم ، فيصيروا إلى بيع ما لا غنى
 لهم عنه والسلام . »

لعلك توافقني ، وقد قرأت هذه الكتب ، على أنه لا يسهل علينا تصور إمكانها اليوم بين حاكم له سلطان عمر ، وعامله على بلاد فتحها . فهذا ابن العاص يصّر على ألا يرهق المصريين بجباية الخراج قبل أن يدرك الزرع ، وألا يزيد عليهم حتى لا يؤذيهم ويحملهم على بيع ما هم في حاجة إليه لمعائشهم وسعيهم ، ويرى في الفرق بهم ما يزيدهم حرصاً على أداء ما يطلب منهم من غير تدمير أو شكاية . وهذا عمر يرى الخراج الذي يُجْبَى من مصر دون ما كان يجبيه الروم وما كان يجبيه الفراعنة^(١) ، فلا يرى في حجج عمرو إلا تسويقاً ومطلاً وتعللاً غير مقبول . ثم يبلغ الريب منه فيها أن يراها معاذير يشوبها الكذب ، يريد ابن العاص بها أن يستر تقصيره ، بل أن يستمر ما يضره لنفسه ولقومه من ملك مصر الطويل العريض .

ولقد ضاق عمر آخر الأمر ذرعاً بهذه الكتب ، ورأى فيها نذيراً إن لم يتداركه بما عُرِف من شدته تفاقم الأمر بينه وبين عمرو تفاقماً قد ينتهي إلى غير ما يجب . لذلك انتقل إلى الاتهام الصريح ، ثم إلى التحقيق مع عمرو فيما كسب من مال أثناء ولايته مصر . فقد كتب إليه يقول : « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن لك حين وليت مصر » . وأجابه عمر : « إن أرضنا أرض مُزْدَرَج ومتَجَرٍ ، فنحن نُصِيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا » . فكان ردّ الخليفة : « إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك إلىّ كتاب مَنْ قد ألقاه الأخذ بالحق . وقد سُوتُ بك ظنّاً ، ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فأطاعه طاعةً وأخرج إليه ما يطالبك ، وأعفه من الغلظة عليك فإنه برّح الخفاء » .

وذهب ابن مسلمة إلى مصر فقاوم عمر ما له . فقال له عمرو : « إن زماناً عاملنا فيه ابنُ حَنَشَمَة هذه المعاملة لزمان سوء ! لقد كان العاص يلبس الخبز بكفّاف الديباج » . وأجابه

(١) قيل إن الروم كانوا يجبون من مصر عشرين ألف ألف دينار ، وإن الفراعنة كانوا يجبون منها تسعين ألف ألف دينار ، وإن خراجها في عهد يوسف عليه السلام بلغ ثلاثة وسبعين ألف ألف دينار إسلامية . أما ما كان يبعث به عمرو فاختلف فيه : قيل كان اثني عشر ألف ألف ، وقيل كان في السنة الأولى دون ذلك بكثير حتى قدره البلاذري بألني ألف وقدره غيره بأربعة آلاف ألف دينار .

ابن مسلمة : « مه ! لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه أَلْفَيْتَ مُعْتَقِلاً عَزْراً بِفَنَاءِ يَتَيْكَ بِسَرِّكَ غَزْرُهَا وَيَسْوءُكَ بُكُؤُهَا » . قال عمرو : « أُنْشِدْكَ اللهُ أَلَا تَخْبِرُ عَمْرَ بِقَوْلِي ؛ فَإِنِ الْجَالِسُ بِالأَمَانَةِ » . وأجابه ابن مسلمة : « لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حتى ^(١) » . تشهد هذه الكتب التي تبودلت بين عمر وعمرو ، كما يشهد ما دار من قبل بين عمر وخالد بن الوليد ، بما كان عليه هؤلاء المسلمون الأوّلون من حرية ، ومن اعتداد بالنفس واعتزاز بالكرامة في غير كبرياء باطل . لقد كانوا يحترمون النظام ، ولا يتجاهلون ما جعله الله وجعله الإسلام للخليفة من حق . لكن احترامهم النظام وعرفانهم حق الخليفة ، لم يكن لِيُنْسِيَهُمْ كرامتهم وحرّيتهم ومساواتهم للخليفة فيما يجب عليه من احترام حقهم بقدر ما يجب عليهم من احترام حقه . لم يكن النظام عندهم ذلاً ولا عبودية ، ولم تكن حقوق الخليفة لتطغى على حقوقهم ، ولم يكن سلطانه لِيُضْعِفَ من حرّيتهم ومن اعتزازهم بكرامتهم ، بل كانت الحرية والنظام يتوازيان فلا يطنى أحدهما على الآخر ، بل يؤيد كل منهما الآخر ويزيده ثباتاً وقوة . فإذا قامت في نفس الخليفة شبهة من رجل فاتمه ثم تبين له أنه ظلمه ، رأى من الحق لهذا الرجل عليه أن يعتذر من اتّهامه ، وأن يعلن على رؤوس الأشهاد براءته . وإذا اقتضى النظام أو قضت المصلحة العامة بعزل رجل عن عمله لغير ريبة فيه ، أعلن الخليفة سبب عزله ، حتى لا تتور شبهة من الشبهات حوله . وقد كان هذا الاحترام المتبادل ، وهذا التقديس للحرية والنظام جميعاً ، من أسباب القوة التي يسّرت للمسلمين أن ينشروا في العالم حضارة استقرت فيه دهرأ طويلاً .

كان عمر ، على احترامه لهذا النظام أصدق الاحترام ، لا يتردد في عزل كل عامل لا تنفي الشبهات من نفسه في أمره ، بل يرى ذلك واجباً عليه وجوب احترامه للحرية والنظام : وقد رأيت في هذه الكتب التي تبودلت بينه وبين عمرو أنه كان موشكاً أن يعزله . ولعله كان قاعلاً لولا أنه قتل بعد قليل من تبادل هذه الكتب ومن مقاسمة

(١) نقلنا نصوص ماجرى بين عمرو وابن مسلمة عن البلاذري . وقد أثبتنا ، في الفصل الأول من هذا الكتاب ، رواية ابن عبد ربه في العقد الفريد لهذه النصوص ، مع تنقيح بعض الكلمات من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد . والروايتان لا يختلفان جوهرهما وإن اختلفت تفصيلهما ، وهما تدلان على أن الأمر كان قد بلغ بين الخليفة وعامله غاية الدقة .

عمرو ماله ، فبقى أمر عمرو معلقاً . لكن هذا التعليق لم يدم طويلاً في خلافة عثمان بن عفان . ترى لو أن عمر لم يُقتل وعزل عمرأ ، أفكان يتعصب لابن العاص أقواماً كما تعصب لخالد بن الوليد يوم عزله عمر أقوام ؟ وهل كان عمر يُتهم في تصرفه هذا كما اتهم في تصرفه بعزل خالد ؟ أم أن فاتح مصر لم يكن له من الأنصار ما كان لسيف الله ، وأنه كان متهماً عند الناس بما اتهمه الخليفة به ، فما كان عزله ليثير ثائرة أو يُزعج أحداً ؟ ١٩ .

يتعذر الجواب عن هذا السؤال ؛ فقد عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولاهما عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، فلم يذكر المؤرخون المسلمون عما أناره هذا العزل شيئاً يشبه ما ذكروا لعزل خالد بن الوليد . أفيرجع ذلك إلى أن عمرأ كان يفيد من مصر لنفسه ولقومه فلم يفضب أحد منهم لعزله ، بل لم يُعن أحد منهم بأمره ؟ أم أن قوماً تعصبوا لعمرو بالفعل ، وروى الرواة ما حدث من ذلك ، ثم أهمل المؤرخون ذكره لأنهم رأوا في مملأة عمرو للمعاوية في خلافته مع علي بن أبي طالب ما صرفهم عن ذكره ؟ أيّاً ما يكن الأمر فإن الدولة الإسلامية مدينة لعمرو بفتح مصر ، مدينة له بحسن سياستها وتآلف قلوب أهلها ، وذلك دين لم يكن ليجزيه ما قيل إنه أفاده لنفسه إن صحَّ صحيح أن نزاهة الحكم يجب أن تسمو على كل اعتبار ؛ لكننا لم نجد فيما نُسب إلى عمرو ما يدل على أنه خالف النزاهة مخالفة تسوّغ التعمّط من حقه ، أو التهوّن من جليل عمله .

ويزيدنا إكباراً لعمرو وتنوياً بفضلها أن ما حدث من عزله لم يدفعه للنكول من بعد عن أداء واجبه . فقد أقام بمكة في حين كان عبد الله بن سعد بمصر يُرهب أهل الإسكندرية بالضرائب فيدفعهم للتذمّر ، ويدفع الروم منهم أن يكتبوا إلى قيصر بالقسطنطينية أن الفرصة سانحة له ليأخذ بثأره . وقد استجاب قيصر لهذا النداء ؛ فبعث القائد « مانويل » في جند كثيف حمله أسطول مؤلف من ثلاثمائة سفينة سار بهم إلى الإسكندرية وأنزلهم بها ، فاحتلوها وقتلوا جند المسلمين المرابطين فيها ، وأذاعوا الرعب في قلوب أهلها ، ووضعوا أيديهم على كل مرافقها . ولم يستطع عبد الله بن سعد مقاومة هذا الغزو ، فبعث إلى الخليفة يستنجد به . ودعا الخليفة عمرو بن العاص وطلب إليه أن يعود إلى مصر ليقاتل الروم ،

فلم يتردد^(١)، ولم يجعل من حفيظته لعزله أى أثر في نفسه، بل سار حتى بلغ بابلون حين كان مانويل وجنوده يتقدمون في مصر السفلى. ولقيهم عمرو بنقيوس، فهمزهم وردّهم إلى الإسكندرية فتحصّنوا بها. ولما رأى عمرو حصون المدينة تقاومه أسف أن ترك هذه الحصون قائمة، وأقسم: لئن أظفره الله بالمدينة ليهدم أسوارها، حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان! وذكّر المصريون ما كان من رفقه بهم وحسن سياسته فيهم، فأعانوه على عدوه فظفر به، ثم حطم حصون الإسكندرية وأسوارها بعد أن قتل مقاتليها، وأخذ النساء والذرائع فجعلهم فينا.

وأراد عثمان بن عفان مكافأة عمرو بأن يجعله أميراً على جند مصر، مع بقاء عبد الله ابن سعد واليها وصاحب خراجها؛ فرفض عمرو عرض الخليفة وقال: «أنا إذاً كما سك البقرة بقرنيها، وآخر يحملها!». وعاد إلى مكة حتى آل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، فولاه مصر وأطلق يده فيها. وساس ابن العاص مصر بحكمته وحسن رأيه، وظلّ مقيماً بها إلى آخر عمره، ثم مات بها ودُفن فيها. لكن الزمن عفى على قبره، فما من أحد يعرف اليوم مكانه.

لم نفصل أعمال عمرو بمصر بعد عهد عمر، لأنها لا تدخل في نطاق هذا الكتاب. فلنعدّ بذاتنا إلى ما أثبتناه فيه، مذ بدأ عمرو يقسّر في فتح مصر، لنذكر ما كان لهذا الرجل من فضل في نقل مصر من يد الروم إلى يد المسلمين. فهو الذي سار إليها في جند لا يبلغ أربعة الآلاف، وهو الذي فتحها بهذا الجند والبدد القليل الذي أمده الخليفة به. وهو الذي وجّه سياستها، ونظّم حكمها، ودبّر أمورها، وتألف أهلها. وليس يغلو لذلك من يقول: إن مصر الإسلامية مدينة بوجودها لعمرو بن العاص، دينا لا تعرف العراق ولا الشام ولا الفرس دينا مثله لفاتح من المسلمين.

(١) تجرى بعض الروايات بأن عثمان لما يكن قد عزل عمر أعن مصر حين هاجم مانويل الإسكندرية، وأثن عمر أنما قام بواجب الوالى حين قاتل الروم. وتجري روايات أخرى بأن عثمان كان قد عزله؛ لكنه كان لا يزال مقيماً بمصر. فلما دعى لقتال الروم، بعد فشل ابن أبي سرح؛ استجاب للدعوة طمعا في أن يعود إلى ولايته التي عزل منها.

الآن فرغنا مما تم في عهد عمر من فتوح عظيمة هزّت العالم وسهرت المؤرخين .
وقد تركنا شبه الجزيرة ، في أثناء هذه الفتوح ، لنرى كيف أдал الغزاة العرب من دولة
كسرى ومن دولة قيصر ؛ فلنعد كربة أخرى إلى المدينة ، ولنقف إلى جانب عمر ، لنرى
كيف تطورت شبه الجزيرة في عهده ، وكيف واجه أهلها هذه الأطوار الجسيمة التي
حدثت تحت سمعهم وأبصارهم . وسيرى القارئ معنى أن ماتم من ذلك لم يكن أقل
عظمة ولا جلالاً من عظمة الفتوح وجلالها ، وأنه كان أكثر من الفتوح بقاءً على
الزمن ، وأعمق منها أثراً في حياة العالم كله .

الفصل الثاني والعشرون

حكومة عمر

كان عهد عمر كما رأيت عهد غزو وفتح ؛ حالف النصر فيه أعلام المسلمين ، هامت دولتهم حتى جاورت أفغانستان والصين شرقاً ؛ والأناضول وبحر قزوين شمالاً ، وتونس وما وراءها من إفريقية الشمالية غرباً ، وبلاد النوبة جنوباً . هذا مع أن التوسع في الفتح لبلوغ هذه الأرجاء لم يكن مما أراد عمر أو أراد أبو بكر من قبله ؛ وإنما كانت سياسة عمر أن يجمع الجنس العربي في وحدة تمتد من خليج عدن جنوباً إلى أقصى الشمال من بادية السماوة ، وأن يدخل العراق والشام في هذه الوحدة ؛ لأن السلطان فيهما كان للخصميين والغسانيين من العرب . فلما تم له ما أراد من ذلك ودّ لو يقف جنده في هذه الحدود لا يتعدّها ، وتمنى لو أن بينه وبين الفرس جبلاً من نار لا يخلصون إليه ولا يخلص إليه منه ، ولو أن بينه وبين الروم سداً يحول بينهم وبين استرداد ما فتحه من أرضهم . لكن الحوادث كثيرة ما كانت أقوى من الرجال . والحوادث هي التي دفعت المسلمين إلى متابعة الفتح ، والبلوغ به إلى المدى الذي رأيت .

وقد أذهل هذا الفتح عالم يومئذ ، وأدهش المؤرخين الذين فصلوا حوادثه وحاولوا استقصاء أسبابه . وقد أشرت من قبل إلى ما اتصل من هذه الأسباب بنفسية المسلمين . الغزاة ونفسية خصومهم من الفرس والروم . وتم عامل آخر كان له أثر كبير في امتداد الفتح : ذلك نظام الحكم في شبه الجزيرة . فقد تطور هذا النظام ، خلال السنوات العشرين التي تلت هجرة الرسول ، تطوراً مكّن الأمة العربية من مواجهة تلك الأحداث التاريخية الجلية في طمأنينة زادت اعتزازاً بنفسها ، وشعوراً بقوتها ، وإيماناً بأن عليها رسالة يجب أن تؤديها للعالم ، ويجب أن يسمع العالم لها . لذلك لم يقف في سبيلها سلطان ، ولم تصدّها عن أداء رسالتها قوة من القوى .

لم يكن هذا النظام نتيجة تفكير منطقي ، ولا عملاً من أعمال الفقهاء والمشرعين اجتماعاً

له ونظروا فيه واتهوا إلى تدوينه ، ثم أمر رسول الله أو أمر خلفاؤه بتنفيذه . كلا ! فقد كانت هذه الدولة الفاشئة تنمو في سرعة دونها سرعة الناشئ في نمو من الطفولة إلى الصِّبا فإلى الشباب . لذلك لم يكن بدّ لمن وَلِيَ أمرها من أن يلحظ أحوالها تبعاً لأطوار نموها ، وأن يجعل همّه أول كل شيء إلى تنظيم مركز القوة الدافعة لهذا التطور وهذا النمو ، وأن يعمل على توفيق الروابط بين أجزاء الدولة وتوكيد تضامنها . وإنما بدأ انبعاث هذه القوة الدافعة من بلاد العرب قبل أن تلتئم وحدتها ، أو يستقر بها نظام ثابت يصدر عنها ويمتد منها إلى غيرها من الأمم . فقد كان النظام الموحد المستقرّ معروفاً في البلاد المجاورة لها قبل أن تعرفه هي ، ثم كان النظام الفارسي مبسوطاً في العراق ، والنظام البَرْطَليّ مبسوطاً في الشام . ولم يفكر أحد من أهل المدينة في استعارة أيّ من هذين النظامين ، ولم يحاول أحد فيها أن يسطر على الورق نظاماً عربياً كله ، أو إسلامياً كله . يطبّق في بلاد الدولة أدانيها وأقاصيها . ولو أن أحدهم فسّر في مثل هذه المحاولة لقضى السنين يسطّر ويمحو ويثبت حتى تلتئم لهذا النظام وحده تجرّى في مختلف أجزائه . وما كان عهد الفتح الفسيح السريع أخطأ ليتسع لشيء من هذا ولا ليطيعه . فعهد الفتح ، بطبعه ، عهد اجتهد تملّيه أحداث الساعة وتقضى به أطوارها . فإذا أسرع الفتح ما أسرع في عهد أبي بكر وعمر ، وجب أن يستند النظام إلى بديهة وليّ الأمر أكثر من استناده إلى منطق ، وأن يساير وليّ الأمر الفتح في أطواره لا يسبقها ولا يستأخر عنها .

وذلك ما حدث منذ انضوت بلاد العرب كلها إلى لواء الإسلام بعد فتح مكة والطائف . فقد أقبلت الوفود من أرجاء شبه الجزيرة تنزّى إلى المدينة تعلن بين يدي رسول الله إسلامها ، وجعل رسول الله يبعث عمّاله إلى مختلف الأرجاء يفقهون الناس في الدين ، ويحبون منهم الصدقات ، تاركاً للأمراء الذين أسلموا ما كان لهم من سلطان في بلادهم قبل إسلامهم ؛ ينهضون به في حدود النظام المتوارث عندهم ، بعد أن يدخلوا عليه من التعديل ما جاء الإسلام به . فلما اختار الله إليه رسوله وبايع أهل المدينة أبا بكر بالخلافة ، فبعث عمّاله يحبون ما كانوا يحبونه من الصدقات لعهد النبي : برّم العرب بهذا الأمر ولم يرضوا عنه ، وعدّوه انتقاصاً من استقلالهم السياسي ومن حريتهم المدنية ،

وأصرّوا لذلك على دفعه . وكذلك قامت حروب الردّة ، ثم انتهت بظفر أبي بكر واستقرار السلطان بالمدينة . وهذا الظفر هو الذى مهد للوحدة السياسية فى بلاد العرب . فلما تولى عمر بعد أبي بكر جعل همه إلى تنظيم هذه الوحدة تنظيمًا لا يقلو من يقول إنه كان تنويجًا للثورة الروحية الكبرى ، ورفماً للقواعد من سلطانها الثابت فى العالم .

كان ذلك شأن العصر الذى بدأ فيه انتشار الإسلام واستقراره . ولذلك كانت سيرة القائم بالنظام وتعاليمه هى صورة هذا النظام المتصل بشخصه ، المرتبط بتصرفاته وأحكامه فسيرة رسول الله هى النظام الروحى للإسلام ، وبداية التصور المدنى لنظام الجماعة الإسلامية . وقد تطوّر هذا التصوّر على الزمان متأثراً بالأحوال المحيطة به ، مع التزامه النطاق الذى فرضه القرآن للحياة الروحية وللحياة المدنية ولئن ظلّ النظام السياسى فى شبه الجزيرة قائماً فلم يتغير فى عهد الرسول عما كان عليه قبله ، لقد تأثرت الحياة المدنية بأوامر القرآن ونواهيها تأثراً كان له أعمق الأثر فى كل ماتمّ من بعد : وكان أبو بكر خليقاً بعد أن قضى على الردّة واستفتح عهد الوحدة السياسية لبلاد العرب ، أن ينظّم هذه الوحدة وأن يضع أسسها ويرفع قواعدها . لكن التمهيد لافتتح والإمبراطورية فى العراق والشام بدأ ولما تكن حروب الردة قد انتهت ، فلم يكن فى مقدور الخليفة الأول أن ينصرف عن مواجهة الفرس والروم إلى تفصيل النظام الملائم للوضع الجديد ، فى بلاد كانت الثورة لا تزال قائمة فى بعض أرجائها ، ولم تكن أمورها قد اطمأنت إلى وحدة مستقرة مع هذا بدأت الوحدة السياسية تنتظم بلاد العرب من ذلك الحين شيئاً فشيئاً ولا عجب ، فحينما تجرّ فى البلاد المتجاورة أحكام متشابهة تزلّ الفوارق بينها فى الحياة المدنية ، فيدكّ زواها ما بين هذه البلاد من حوائل . وحينما يتمّ التوافق بين المثل الأعلى والغرض المشترك لأمم متجاورة ، يصبح اندماج هذه الأمم أمراً طبيعياً ينصحهم الزمن . ومنذ أسلم العرب تمتّ وحدتهم فى العقائد والعادات والمعاملات .. كان تحريم الربا والنحر والميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به ، وكان الحدّ من تعدد الزوجات وتحريم وأد البنات ؟ وكان تنظيم المعاملات وترتيب الميراث ، مما بعث إلى حيانهم المدنية اتساقاً لم يكن مألوفاً من قبل : ثم زادت وحده العقيدة والعبادة ما بينهم من وحدة الجنس

ووحدة اللغة متانة وقوة . فلما قُضى على الردة واندفع المسلمون إلى العراق والشام ، وتجاوبت أجواء شبه الجزيرة بآبناء انتصارهم وبقوتهم على مواجهة الفرس والروم . زاد الاشتراك في الغزو والنصر وحدة العرب قوة ، وجعلهم يشعرون بحاجتهم إلى التآزر والتضامن ليظل النصر حليفهم فتزاد بين أيديهم ثمراته . لذلك رأيت الذين منعهم أبو بكر من الاشتراك في حرب العراق والشام ، لِمَا كان من رِدَّتِهِمْ ، يودّون على اختلاف قبائلهم ومواطنهم أن يشتركوا في هذه الحرب جهاداً في سبيل الله ، وليكون لهم من مغانمها نصيب كمنصيب الذين أقاموا على إسلامهم واشتركوا فيها منذ بدأت . فإذا أضعفت إلى هذا كله ما هدى الإسلام العرب إليه من مثل أعلى أضاء لهم بنوره ، وأراهم جلال الإيمان وجماله ، وحبب إليهم الاستشهاد في سبيله ، أدركت كيف كانت وحدة شبه الجزيرة تزداد على الأيام اتساقاً وقوة ، وكيف كانت تتجه لتسكون وحدة سياسية كاملة ، وكيف كان الزمن يُنضجها شيئاً فشيئاً .

لا ريب في أن القائم بأمر الإسلام في شبه الجزيرة قد كانوا محور هذه الوحدة بقوة شخصياتهم وبتعاليمهم وأسوتهم . كان النبي العربي ورسائله بالإسلام مصدر هذه الوحدة وأساسها . وكان خليفته الأول هو الذي قضى على العوامل التي حاولت مقاومتها والقضاء عليها . وكذلك آل الأمر إلى عمر حين كانت وحدة شبه الجزيرة تتراعى خلال الحُجُب ، وحين لم يكن لها مفرٌّ من أن تسكل ، ما لم يضعف القائم بأعبائها دون الإضطلاع بالتَّبعيات الملقاة على عاتقه لتثبيتها وتوطيد دعائمها .

وما كان عمر بن الخطاب ليضعف ؛ فقد كان له من قوة الشخصية وبروزها ما رأيت الكثير من مظاهره مجلّواً في هذا الكتاب ، وما كان له أثره البين قبل الإسلام وبعده . وكان هذا الأمر أشدَّ وضوحاً بعد هجرة المسلمين إلى المدينة حيث كان عمر وزير رسول الله كما كان أبو بكر وزيره . كان عمر يخالف رسول الله في أمور أقرَّ القرآن رأيه في بعضها كما كان في أخرى بدر . ثم كان له من صدق إيمانه بالله ورسوله ما يجعله أول المسلمين إذعائاً إذ نزل الوحي بما يخالف رأيه ، وأولى المسلمين تأسيّاً برسول الله إذا جرت سُنَّتُهُ بأمر من الأمور . وكان عمر يخالف أبا بكر أثناء خلافته ، فإذا أصرَّ أبو بكر على رأى

أطاعه عمر لأنه وَلِيُّ الأمر . لكن طاعته لم تمتح في يوم من الأيام شخصيته ، وتأسَّيه بالرسول لم يُنْسِه أن يفرِّق بين الثابت على الزمان من سُنَّته صلى الله عليه وسلم ، وبين ما قضت به أحداث الوقت ، فمن المستطاع مراجعته وإعادة النظر فيه من غير أن يكون ذلك إنكاراً له ، اقتناعاً بأن رسول الله لو امتدَّ به الأجل لراجعته وأعاد النظر فيه .

كانت الوحدة السياسية لبلاد العرب بعض ما شغل به عمر في خلافة الصَّدِّيق وإن لم يصرفه اشتغاله بها عن معاونة أبي بكر في تنفيذ سياسته أصدق المعاونة . فلما استُخْلِفَ كان تثبيت هذه الوحدة وتوطيد دعائمها أول ما اتَّجه إليه همُّه . وقد هداه تفكيره إلى أن هذه الوحدة لن تكون سليمة إلا أن تصفو من كل شائبة ، وذلك بأن يكون الجنس العربي كله متحداً في موطنه وفي أُعقيدته كاتحاده في لغته . واليهودية النصرانية لاتزالان قائمتين في شبه الجزيرة . أنراه يستطيع إجلاءهما عنها من غير أن يخالف كتاب الله وسُنَّة رسوله ؟ .

لقد وادع رسول الله اليهود أول ما نزل بيثرب . فلما نقضوا عهدهم وحاولوا القَدْرَ به ، أجلاهم عن المدينة . ثم إنه أجلاهم عن أكثر مواطنهم من شبه الجزيرة لما ناصبوه العداوة . ألا يدل ذلك على أن بقاء اليهود في مواطنهم لم يكن حقاً لهم يجب احترامه ، وأن موادعتهم كانت سياسة قضت بها مصلحة الدولة أول العهد بيثرب ، فلما رأى الرسول مصلحة الدولة العليا لا تستقيم بها عدل عنها إلى سياسية غيرها ، ومصلحة الدولة العليا توجب في رأى عمر أن توحَّد العقيدة في شبه الجزيرة كلها . لذلك كان من أول ما استفتتح به عهده أن أجلى نصارى نَجْرَانَ عن شبه الجزيرة ، فأمر يَعْلَى بن أُمَيَّة ألا يَفْتَنَهُم عن دينهم ، وأن يُخْرَجَ منهم من أقام على نصرانيته ، وأن يُعْطُوا بالعراق أرضاً كأرضهم بنجران ، وأن تُحَسَّنَ معاملتهم . كذلك فعل بمن بقي من اليهود بَحْيَسَ أو بفَدَك : أجلاهم عن أرضهم إلى الشام ، وعوضهم عنها بمال يعدل قيمتها ، ولم يُسَّ إلى أحد منهم . بذلك خلصت شبه الجزيرة من كل عقيدة إلا الإسلام ، فتوطدت فيها قواعد الوحدة التي قصد إليها أمير المؤمنين .

هذا تصوير واضح للباعث الذي دفع عمر إلى إخراج اليهود والنصارى من شبه الجزيرة .

وهو في ذلك لم يخالف سنة ولم يخرج عليها . فعهد رسول الله مع اليهود والنصارى لم يكن سنة تُثبت حكماً ، بل كان سياسة تغيرت في عهد الرسول ، فلا بأس بأن تتغير بعده . وإنما غيرها عمر لأن أحداث الوقت ، وامتداد الفتوح ، وشدة الحرص على تمكين أواصر الوحدة في شبه الجزيرة قضت بتغييرها . وما كان عمر ليخمد على عهد تنير عليه العهد ، وأصبح مُضرًا بمصلحة الدولة وسياستها العليا . فكيف به وهو موقوف بطبيعته ؛ ينقض بانقضاء مدته ، ولا يتجدد إلا إذا رضى أمير المؤمنين تجديده .

لا يحسب أحد أنى أنسب لعمر ما لم يدُر بخاطره من التفكير في وحدة العرب ؛ فقد أجمع المؤرخون على أنه استند في إجلاء اليهود والنصارى ما روى عن رسول الله أنه قال : « لا يجتمع ببلاد العرب دينان » ، وما ذكره البلاذري وغيره من أن عمر رأى أن أهل نجران كثروا ، يخافهم على الإسلام ، فأجلاهم ، وأمر عماله بالعراق والشام أن يعوضوهم من أرضهم وأن يحسنوا معاملتهم ، ولو أنه أجلاهم لأنهم نقضوا عهدهم لما لطف بهم كل هذا اللطف ، ولما أحسن معاملتهم كل هذا الإحسان .

لا يكفي لتثبيت دعائم الوحدة في بلاد العرب ألا يبقى بها دين غير الإسلام ، إذا بقي من الفوارق بين أهلها ما يجعلهم يشعرون بأن بعضهم أكثر حرية أو أوفر كرامة من بعض ، وإذا لم تقم المساواة الصحيحة بينهم علماء على سلامة تضامنهم . وقد بقيت بعض الفوارق بينهم بسبب الردّة والحروب التي قضت عليها . أمّا وعمر يريد الوحدة صحيحة فلا بدّ من القضاء على هذه الفوارق بإزالة أسبابها . لذا رفع عن أهل الردّة ما كان أبو بكر قد فرضه عليهم ألا يجاربوا في صفوف المسلمين ! كما أمر بردة السبي من العرب إلى عشائهم وردّ حريتهم إليهم ؛ لأنه كره أن يكون السبي سنة في العرب . بذلك استفتح عهداً جديداً سرى معه في نفوس العرب جميعاً روح أشعرهم ، على اختلاف مواطنهم من شبه الجزيرة ، بأنهم أمة واحدة ، لها هدف مشترك وتوجيه سياسة عامة ومصلحة عليا يهيمن عليهما أمير المؤمنين .

وهذه المصلحة العليا ، التي أملت على عمر ما قدّمت تحقيقاً لوحدة العرب في ظل الإسلام ، هي التي أملت عليه أن يجعل هجرة الرسول مبدأً للتاريخ العربي . فقد كان العرب

إلى ذلك العهد يؤرخون بعام الفيل حيناً ، وبعرض أيام العرب الكبرى حيناً آخر . وإذ كانت هذه الأيام كلها جاهلية ، وكان الإسلام يهدم ما كان قبله ، فقد رأى عمر في هجرة النبي إلى يثرب أعظم حادث في تاريخ الإسلام لهذه صلى الله عليه وسلم ، أن كانت هذه الهجرة مبدأ نصر الله رسوله وإعزازه دينه . وقد قويت الوحدة العربية بهذا الاختيار اللائق ، زاده توفيقاً أنه تم في السنة السادسة عشرة للهجرة ، حين كانت أعلام المسلمين تسير مظفورة في بلاد كسرى وبلاد قيصر ؛ تقتجم للدائن وتفتض الإيوان الأعظم ، وتفتح بيت المقدس وتقيم فيه للمسجد الأقصى إلى جانب كنيسة القيامة . وقد واجه عمر بهذا التاريخ المجيد تاريخ الفرس وتاريخ الروم فإذا هو أعظم منها ضياء ، لأنه يمثل أجل حادث في تاريخ العالم .

ولا ريب أن اختيار هذا التاريخ كان إلهاماً موقفاً . وعلى هذا الإلهام الموفق كان عمر يعتمد في سياسته لمواجهة أحوال الدولة المتغيرة في تطورها السريع . ملتصقاً دائماً ما يراه أصلح لها وأدنى إلى تحقيق أغراضها .

وكان طبيعياً أن يعتمد عمر في سياسته على قوة شخصيته وتوثب إلهامه ؛ إذ كانت الدولة في أول نشأتها ، وكانت الحروب في العراق والشام تقتضي أشد الحذر واليقظة . ولو أن ما واجه عمر يومئذ حدث في زماننا أو في أي زمان آخر ، لقصت أحوال الحرب بإسفاف الأمر إلى رجل موثوق به ؛ تجتمع السلطة في يده لتنظيم جهود الحرب ، والاضطلاع بتبعتها . وقد رأى عمر كيف استطاع أن يتم للعرب وحدتهم ، وبكفل لهم حريتهم ، وأن يضطلع في الوقت نفسه بتبعية الحرب ، وأن ينظم ما اقتضته من جهد في بقطة ودقة امتدت إلى السقيق والجليل من أحوال الجند وسيرهم ، ومن كرمهم وفقرهم ، حتى لقد كان يشارك أمراء الجند في وضع خطط القتال ، بل كان هو الذي يضعها في كثير من الأحيان . فإذا تم الفتح رسم السياسة التي تجري في البلاد المفتوحة ، وصور ما يجب القيام به من شئون الإصلاح فيها .

أفكان في مقدور عمر وهذه الأحداث تواجهه أن يبدأ عهده بأن يضع للحكم نظاماً مفصلاً يجري في بلاد العرب كلها ، أو أن يتخذ من النظام الفارسي السائد في العراق ،

أو النظام البُنى السائد فى الشام نظاماً لشبه الجزيرة ؟ ما أحسب شيئاً من هذا دار بخله فشبه الجزيرة تختاف بتكوينها عن العراق والشام اختلافاً جوهرياً . وقد ألف العرب حياة لا تلائمها مركزية الفرس ولا نُظُم الروم . هذا لو أن الحرب لم تكن تشغله وتستنفد كل جهده ، فكيف به وقد كان جنده فى أول عهده يُواجه فى العراق أدق موقف ، وكانت قواته فى الشام تواجه من جيوش الروم ما يزيد عليها فى العدد والأعدة أضعافاً مضاعفة ! حسبه أنه جمع شبه الجزيرة فى وحدة عربية إسلامية حرة تزيد أهلها اعتداداً بأنفسهم ، وتزيدهم بذلك على الفتح قوة ، وليدع التنظيم للزم يُنضجه فى يسر فى حدود كتاب الله وسنة رسوله .

ولو أنه حاول أن يفرض على البلاد المختلفة فى شبه الجزيرة نظاماً موحداً لأذى ذلك إلى نتائج لا يحمدها عمر ولا يحمدها المسلمون . فما كان أهل الحضر ليرضوا نظام البدو . ولا أهل البدو ليرضوا نظام الحضر . لقد اغتبط الناس بما أمر به عمر من رد السبي إلى عشائهم ، ومن رفع الحذر عن أهل الردة ؛ فليدعهم فى اغتباطهم ليزدادوا تضامناً ، وليدفعهم تضامهم إلى تلبية ندائه لمواجهة الموقف الحربى والتغلب على دقته ولا ضير فى أثناء ذلك أن تبقى الأمور جارية مجراها فى اليمن وفى غير اليمن من أرجاء شبه الجزيرة ، وأن يكتفى عمر بأن يبعث إلى كل إمارة منها والياً من قبله يمكن سلطان المدينة فيجيبى من الناس الصدقات ، ويقم بينهم حدود الله ، ويقمهم فى دينهم لينظموا حياتهم بموجب أحكامه ، وأن يبقى لكل أمة وكل قبيلة فيما وراء ذلك من الاستقلال الذاتى ما ألقته منذ أجيال ، وألا تتمدى الروابط المشتركة بين هذه الإمارات شؤون الدولة العامة . أما وقد كان شأنها فنحن حقناً أن نستعير تعبير القانون الدولى فى عهدنا الحاضر ، وأن نسمى هذه الروابط اتحاداً كاتحاد الولايات الأمريكية المتحدة أو الولايات السويسرية .

كانت المدينة عاصمة هذا الاتحاد . ولم يكن ظفرها بالمرتدين هو وحده الذى جعل لها هذا التقدم . فلو أن الردة لم تحدث لكان طبيعياً أن تكون المدينة هي العاصمة الإسلامية الأولى ، وأن يكون لها التقدم على جميع الحواضر والبادى ؛ فهى التى آوت رسول الله وعززته ونصرته ، وقد نزل بها من القرآن أكبر مما نزل بمكة ، وفيها اجتمع المهاجرون

والأنصار الذين استمعوا إلى رسول الله وعرفوا سنته ، والذين أعزوا دين الله ونصروه ؛ فكانت منزل الوحي المحمدي ، ومصدر التشريع الإسلامي ، ومقر السابقين الأولين إلى الدين الذي ضوى العرب كلهم إلى لوائه . ثم إن رسول الله قد اتخذها عاصمته ، ووجه منها رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى دين الله . لا عجب وذلك رشاها أن تكون العاصمة ، وأن تُشدَّ إليها الأنظار من كل صوب وحَدَب . فلما ظفرت بعد ذلك بالمرتدين ، ثَبَّتَ هذا الظفر سلطانها ومدّه على أرجاء شبه الجزيرة كلها . بذلك ظلت مركزَ الحكومة الإسلامية إلى أن انتقل الأمر منها إلى دِمَشْقَ في عهد معاوية بن أبي سفيان . وكان نظام الحكم بالمدينة في عهد عمر قائماً على الأساس الذي قام عليه في عهد رسول الله وفي عهد أبي بكر من بعده . وكان هذا الأساس هو الشورى ، استناداً إلى قوله تعالى : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » ، وإلى قوله تعالى مخاطباً نبيّه : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » وقد كان رسول الله يشاور أصحابه ، وفي مقدّمتهم أبو بكر وعمر ، وكان يقول لهما : « وأيمُ الله لو أنكما متّفقان على أمر واحد ما عصيتُكما في مشورة أبداً » . وكان أبو هريرة يقول : « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فلما استخلف أبو بكر واستفتح عهده بأن وجه أسامة بن زيد لحرب الروم ، استأذنه في بقاء عمر بالمدينة ، ليشير عليه مع غيره من الصحابة . وكذلك فعل عمر فجعل الشورى أساسَ حكمه .

لم تكن الشورى يومئذ نظاماً أريد به الحدُّ من سلطان الخليفة على ما يفهم الناس اليوم في النظام البرلماني ، ولم تكن لأصحاب الرأي الذين يُشِيرُونَ على الخليفة حقوقٌ يفرضون بها رأيهم عليه ؛ بل كان الخليفة مطلق السلطان مع هذه الشورى ، وحسابه على الله ، وعلى نفسه ، وعلى الشعب الذي بايعه . فإذا تجاوز الحقَّ وعصى الله ورسوله ولم يردعه حسابُ ربِّه وحساب نفسه ، وكان على الشعب أن يُقَوِّمَ اعوجاجه بحدِّ السيف ولم يكن الانتخاب بالصورة التي نعرفها اليوم أساس تلك الشورى ، بل كان الخليفة هو الذي يختار من يستشيرهم ، ثم كان يُفاضل بين آرائهم ، فيأخذ منها ما يشاء ويدع ما يشاء . وكان أهل الرأي في عهد رسول الله هم المهاجرين والأنصار المقيمين بالمدينة ،

وكانوا جميعاً حوله ، يستمعون إليه ويشيرون عليه ويسرون معه في غزواته . فلما كان عهد أنى بكر ذهب كثيرون إلى الميادين في العراق والشام ، ثم بقي كبار الصحابة من قريش إلى جانبه . وكذلك كان الشأن في عهد عمر ؛ بقي إلى جانبه أعلام الصحابة من المهاجرين والأنصار ، يمحّص على ضوء آرائهم كل مسألة لا يجد لها حكماً في كتاب الله ولا في سنة رسوله . هؤلاء كانوا خاصة أصحاب المشورة ، وكان في مقدّماتهم العباس ابن عبد المطلب ، وعبد الله بن عباس ، وعلى بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومن إليهم . على أن عمر كان يلجأ في كثير من الأحيان إلى الشورى العامة ؛ فكان يدعو الناس إلى المسجد بالمدينة أو يدعومهم إلى صلاة جامعة حيثما كان ، فيعرض عليهم ما يريد أن يستشيرهم فيه ، ولمن شاء منهم أن يبدل بالرأى الذى يعنّ له . بل لقد كان إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم . فإذا انكشف له وجه الرأى من الشورى العامة فاعزم أمراً أنفذه ، وإذا استبهم عليه الرأى عاد إلى خاصته يستمع إليهم ويناقشهم حتى يطمئن إلى ما يؤمن بأنه الصواب . ولقد رأينا الكثير من مشاورات عمر العامة والخاصة فيما سبق من هذا الكتاب : رأيناه يستشير الناس بعد مقتل أبي عبيد بالعراق يسألهم رأيهم ماذا يصنع . قال العامة : مير وسير بنا معك ، وأجمع الخاصة على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله على رأس الجيش إلى العراق ، ويبقى هو بالمدينة يمدّ هذا الرجل . عند ذلك جمع الناس وقال لهم : « يحقّ للمسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وإنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ؛ فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلاً » . ورأيناه يسير إلى الشام ، فيلقاه أمراء جنده فيذكرون له أن الأرض سقيمة ، وأن فتك الطاعون شديد . فيجمع الناس يستشيرهم : أيتابع طريقه إلى الشام مع الوباء ، أم يعود أدراجه إلى المدينة ؟ فيختلف الناس : يشير قوم بالسير ، ويشير آخرون بالرجوع ، فينتهى إلى رأى الآخرين ويرجع أدراجه بمن كان معه .

وكان يرى الشورى نظاماً أساسياً واجب التطبيق في أرجاء الدولة كلها ، يأمر الولاة وأمراء الجند به ، فيقول لأبى عبيد يوم بعثه إلى العراق : « إسمع من أصحاب

رسول الله وأثّرَ كُهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل الككيث الذي يعرف الفرصة . وكذلك كان يفعل مع الولاة سواء منهم من ولى شؤون الحرب ومن ولى غيرها .

لاحظ قوم أن أولى الرأى من قرابة رسول الله إنما كانوا فيمن يشيرون على عمر ، وأنه لم يجعل أحداً منهم على إمارة الجند ، ولم يولّ منهم أحداً في بلاد العرب ولا في البلاد المفتوحة . ومن أصحاب هذه الملاحظة من يذهب بهم الظن إلى أن عمر بقى في نفسه من بنى هاشم شيء بعد موقفهم من بيعة أبي بكر . ولا أراى أشارك أصحاب هذا الرأى في رأيهم ، وتختلف بنى هاشم عن بيعة الصديق موضع ريبة عندى . ولو أن قصة تخلفهم صحّت لما جاز أن يكون لها في نفس عمر أثرٌ إبان خلافته ؛ فقد بايعوا أبان أبا بكر جميعاً من بعد . ولما أوصى أبو بكر باستخلاف عمر لم يخالفه أحدٌ من بنى هاشم ، بل كانوا أول من بايعه . وقد كان لهم من الخطوة في خلافته ما لم يكن لأحد من المسلمين . وسنرى هذه الخطوة بارزة ، عند الحدث عن تدوين الديوان وفرض العطاء ، بروزاً ترك في حياة المسلمين وفي تقاليدهم أثراً لا يزال باقياً إلى اليوم . وكثيراً ما كان عمر يقدم قرابة النبی تقديمًا يشهد بإكباره لهم وإعظامه إياهم . وقد رأينا استشفاعه إلى الله عام الجماعة بالعباس عم رسول الله ، ورأياء يستخلف على بن أبى طالب على المدينة حين ذهب إلى الشام لصلح بيت المقدس . وما أكثر ما كان يُشيد بفضل ابن عباس وعلمه وأدبه . فلما حضرت عمر الوفاة وأوصى بالشورى جعل الخلافة في ستة أشخاص بينهم على بن أبى طالب . وليس شيء من هذا بشأن رجل في نفسه على بنى هاشم موجدة .

فلم إذا لم يجعلهم على إمارة جند ، ولم يولّ منهم أحداً في بلاد العرب أو في البلاد المفتوحة ؟ لقد تأخذ منك الدهشة إذا قيل لك إنه لم يولّهم إكراماً لقرابتهم من رسول الله . وهذا المعنى يستفاد مع ذلك من قوله يوماً لابن عباس : « إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم . . . والله ما أدري أصرفكم عن العمل ورفعكم عنه وأتم أهل ذلك ، أم خشي أن تعاونوا مكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب . » يذهب بعضهم إلى أن هذا الكلام ، إن صحّت نسبته إلى عمر ، إنما كان اعتذاراً

فيه لطف وتجميل ، وأنه اعتذار يُخفى ما انطوى عليه عمر من حذر من بنى هاشم ومن كبار الصحابة ورءوس قريش . وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أنه استبقى هؤلاء جميعاً بالمدينة ، وجعلهم من أصحاب مشورته ، لأنه خشى إن هم تفرقوا في أرجاء الدولة وتولوا السلطان فيها . أغرام ذلك بالاستئثار بما في أيديهم والانتقاض على سلطان المدينة ، اعتاداً على مؤازرة المناطق التي يُلونها وتأييدها لهم فيما يبتغونه من أغراض . وأصحاب هذا الظن يذكرون أن عمر قد عزل خالد بن الوليد بدافع من هذا الحذر ، وأنه كان شديد الحساب لولاته في مختلف الولايات ، سريعاً إلى عزلهم لجرّد الريبة فيهم ، حتى لا تحدث أحدهم نفسه بأنه أصبح صاحب السلطان في منطقته . ولو أن هذا الظن صح لما عيب به عمر ولا طعن في سياسته ؛ فالحذر بعض ما يجب على من أمر أمة من الأمم ، وبخاصة في مثل الأحوال الدقيقة التي كانت تحيط بالمسلمين في ذلك العهد . على أنى لا أرى لهذا الظن ما يسوغه ؛ فهو لا يتفق وما عُرف عن عمر من صراحة وبأس ، ولا يتفق وما عُرف عن المسلمين في هذا العصر الأول من تضامن زاده إيمانهم الصادق بالله وبرسوله قوة وتبئيتا . هذا إلى أن المخاطر التي كانت محيطة بهم كانت قينة أن تصرفهم عن مثل هذا التفكير . وكيف يظن أحدهم في نفسه القدرة على مواجهة الفرس في العراق أو الروم في الشام إلا أن تكون وراءه قوة الإسلام والمسلمين مجتمعة ! وكيف تحدث أحدهم نفسه بالاستئثار بالسلطان في فارس أو في مصر وهو بحاجة في كل حين إلى مدد يأتيه من شبه الجزيرة ، فإذا أبطأ عليه المدد عجز عن مواجهة الموقف الذي هو فيه ! . وقد ظل الأمر كذلك طيلة عهد عمر ؛ لأن الحرب طيلة عهده كانت سجالاً متغيّرة المصائر . وقد رأينا عاهل الفرس قُبيل مقتله يستعدى الترك والصين لمناجزة المسلمين ، ورأينا الروم لا ينقطع تفكيرهم في الرجعة إلى مصر واستردادها . لا مسوِّغ مع هذا كله للظن بأن عمر استبقى بنى هاشم ورءوس قريش بالمدينة حذراً منه ، كما أنه لا مسوِّغ للظن بأنه بقي في نفسه شيء من بنى هاشم لما قيل من تخلفهم عن بيعة أبي بكر .

والواقع أن عمر لم يُنكر على بنى هاشم أن يكون لهم ما لغيرهم من حق في الخلافة ، وإنما أنكر عليهم أن يستأثروا بها على أنها ميراث لهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك قوله لابن عباس فيما تُثبته بعض الروايات : « إن الناس كرهوا أن يجمعوا الحكم النبوة والخلافة ، وإن قريشاً اختارت لنفسها فأصابته » . ولهذا جعل علي بن أبي طالب في الستة الذين أوصى باستخلاف أحدهم من بعده .

استبقى عمر بالمدينة بنى هاشم وكبار الصحابة وروى قريش ليشيروا عليه بما أوتوا من عقل راجح وحكمة وحُفْكَة ؛ لأن الشورى كانت أساس الحكم . وإذا كان أمير المؤمنين صاحب الرأي الأخير والقول الفصل في كل أمر ، فقد كان عليه لقاء ذلك كل التبعة عن سياسة الدولة . بذلك اجتمعت في يده السلطات كلها ، فكان المشرع في حدود كتاب الله وسنة رسوله ، وكان المنفذ ، والقاضي ، والقائد الأعلى للجيش . وقد نهض عمر بتبقيات ذلك كله ، فخلد التاريخ اسمه وأضفى عليه هالة مضيئة بنور العظمة والجلال .

ونهوض بهذه التبقيات الجسام يُثير في النفس غاية الإعجاب ، ويدعو كثيرين للتساؤل عن السر في قدرته هذه القدرة العجيبة . وهذا السر مع ذلك لا يخفى على من صدق القصد لمعرفة ؛ فهو يرجع إلى إنكار عمر نفسه ، وإلى تجرده للقيام بواجبه شعوراً منه بجسامة هذا الواجب . فهو لم ينظر من الخلافة إلى سلطانها وظاهرها ، وإنما كان كل نظره إلى القيام بأعبائها وتبقيات . لذلك لم يُبطر سلطانها المطلق ، ولم يزد مظهرها البراق . وقد بلغ شعوره بهذا الواجب مبلغاً لا يقص التاريخ في عصر من العصور نظيره . ولا أحسب تعبيراً يصور هذا الشعور خيراً من قوله هو : « كيف بعينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم ؟ ! » . وقد جعله هذا الشعور يضع نفسه موضع الضعيف والفقير ليشعر شعورها ، فيأخذ للضعيف حقاً من القوى ، ويدفع عن الفقير غائلة الفقر . وأنت تذكر من أمثلة ذلك ما كان منه عام الرَّمَادَة حين قسا على نفسه ، فلم يَطْعَمْ طَوَّال ذلك العام سمناً ولا لحماً ، حتى شَحَبَ واسودَّ لونه وخاف الناس على حياته . وقد بلغت منه خشية الزهو مبلغاً يكفي بعض ما ورد من الروايات عنه ليكون عجبا . روى عن أنس أنه قال : « كنت مع عمر ، فدخل حائطاً ، فسمعتُه يقول ، وبينى وبينه جدار الحائط : « عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ! يرحمك الله ! والله لكتّمين الله بُنى الخطاب أو كيعذبك ! » . وقيل إنه

حل يوماً قربة على عاتقه، فقيل له في ذلك، فقال: «إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلماً». ولم يفرّ اتّساع رقعة المملكة في عهده بأن يجلس في إيوان غير المسجد لينظر في شؤون الدولة، شأنه في ذلك شأن رسول الله وأبي بكر. وكان المسجد في السنوات الأولى من عهده باقياً كما كان يوم أقامه رسول الله، جدرانُه اللَّبْنِ وسَقْفُه من سَعَف النخل. وكان في مقدور عمر أن يهدمه وأن يُعيد ببناء فخماً كفخامته في العصور التي تلت عهده، حتى يتفق مظهر مجلسه مع عظمة سلطانه. وما كان أحد ليؤاخذه لو أنه فعل؛ فقد نزل سعد بن أبي وقاص إيوان كسرى بالدائن واتّخذهُ مقرّ سلطانه، فلما تحوّل إلى الكوفة بنى لنفسه داراً سماها الناس: «قصر سعد». لكن عمر لم يمسّ المسجد بتغيير في السنوات الأربع الأولى من خلافته. فلما ازداد أهل المدينة وضاق المسجد بهم، أمر بالزيادة فيه مستنداً إلى ما كان رسول الله يقول: «ينبغي أن نزيد في المسجد». وكان عمر يقول: «لولا أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ينبغي أن نزيد في مسجدنا، ما زدت».

وحَرَصَ عمر حين أمر بالزيادة في المسجد على أن يجعله خالصاً للصلاة ولشؤون الحكم. فقد كان أهل المدينة يتخذون منه دار ندوتهم، ويتحدثون به في شؤون تجارتهم، ويجعلون منه مكان سمرهم وتفاخرهم، حتى كان يعلو فيه اللفظ أحياناً وأمير المؤمنين جالس ينظر في الجسيم من مهام الدولة. لذلك اتّخذ إلى جانب المسجد بعد توسيعه مكاناً سمى البُطَيْحَاء، وقال: «من أراد أن يُلَغِطَ أو يرفع صوتاً أو ينشد شعراً فليخرج إليه». على أن ما أحدثه عمر من الزيادة في عمارة المسجد لم يتجاوز توسعة رُقْعته وزيادة عدد أبوابه. أما سائرُه فبقي كما بناه رسول الله؛ إذ جعل أساس الجُدُر من الحجارة وما فوقه من اللَّبْنِ، والعمد من الخشب، والسقف من الجريد. ومن هذا المسجد البسيط بناؤه كانت تصدر أوامر عمر إلى إمارات الجند؛ فإذا كسرى يُقْتَضُّ عليه إيوانه، وإذا قيصر يقرّ هارباً من الشام إلى القسطنطينية، وإذا الإسكندرية العظيمة عاصمة الحضارة العالمية لذلك العهد تسلم مفتاحها للمسلمين!

لم تغيّر سعة الفتح شيئاً كذلك مما أخذ عمر به نفسه من بساطة العيش ، وما دعاه إليه إيمانه من ازدياء الدنيا . فقد جعل المسلمون له في أول خلافته مثلاً جعلوا لأبي بكر من حق في بيت المال يُقيم ويقيم عياله . فلما تدفق النّبي على المدينة لم ينلّ عمر منه أكثر مما كان يناله رجلٌ من المسلمين ؛ ذلك أنه لم يكن يرى أن له بسبب الخلافة حقاً يزيد عن حق غيره . وقد سئل يوماً عما يحلّ له من مال الله ، فقال : « أنا أخبركم بما أستحلّ منه ؛ يحلّ لي حُلَّتَان : حُلَّةٌ في الشتاء وحُلَّةٌ في القيظ ، وما أحجّ عليه وأعتمر من الظَّهر ، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغنام ولا بأفقرهم . ثم أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين يصيبني ما أصابهم » . وكان يقول : « إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عَفَفْتُ عنه ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » . وكان تعفّف عما في بيت المال يبلغ به في بعض الأحيان حدّ الحرج . اشتكى يوماً ، فوصف له العسل ، وفي بيت المال عُسْكَةٌ معه ، فلما كان على المنبر قال : « إن أذتم لي فيها وإلا فإنها على حرام » . فأذنوا له . ورأى المسلمون مارأوا من شدته على نفسه ، فذهبوا إلى ابنته حَفْصَةَ أم المؤمنين ، فقالوا لها : « أبي عمر إلّا شدة على نفسه وحصرأ ، وقد بسط الله في الرزق فليبسط في هذا النّبي فيما شاء منه ، وهو في حلٍّ من جماعة المسلمين » . وكأنما قاربته حفصة في هوام ، فلما دخل عليها عمر أخبرته بالذي قالوا ، فكان جوابه : « يا حفصة بنت عمر ، نصحت قومك وغششت أباك . إنما حق أهلي في نفسي ومالي ، فأما في ديني وأمانتي فلا » .

وقد روى الفخري عن عمر قصة تشهد بشدة حرصه على مساواة نفسه بسائر المسلمين أصدق الشهادة ، قال : « جاءت عمر بن الخطاب بُرُودٌ من اليمن فقرّعها بين المسلمين ، فخرج في نصيب كل رجل بُرْدٌ واحد ونصيب عمر كنصيب واحد منهم . قيل : واعتلى عمر المنبر وعليه البرد وقد فصله قيصاً ، فندب الناس للجهاد ، فقال له رجل : لا سمعاً ولا طاعة . فقال عمر : ولم ذلك ؟ قال الرجل : لأنك استأثرت علينا ؛ لقد خرج في نصيبك من الأبراد اليمنية بردٌ واحد ، وهو لا يكفيك ثوباً ، فكيف فصلته قيصاً وأنت رجل طويل ؟ فالتفت عمر إلى ابنه قائلاً : أجِبه يا عبد الله . فقال عبد الله :

لقد ناولته من بُردى فأتى قميصه منه . قال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة . .
لم يبتغ عمر من الخلافة شيئاً إذاً لنفسه ، بل كان يعدُّ نفسه الحارس الأمين على مال
المسلمين ، كما كان الحارس الأمين على وحدتهم وحرّيتهم . وقد قرّبه ذلك إلى الناس
وحبّبه إليهم . وزادهم محبة له أنه كان يرى الخلافة أبوةً تُلتقى على الخليفة واجبات للمسلمين
هى واجبات الأب نحو أبنائه . والحنانُ والبرُّ أقدس عواطف الأبوة وأسماها . وكان عمر
أشدّ الناس حناناً على المحتاجين إلى الحنان وأشدّهم برّاً بهم ؛ فقد كان يرى الحنان والبر
بعض واجبات الحكم كإقامة العدل والمحافظة على الأمن سواء .

خرج ليلةً إلى ظاهر المدينة ومعه مولاه أسلم ، فلاح لهما بيت شعرٍ فقصداه ، فإذا فيه
امرأة تبكي وقد جاءها المخاض ، فسألها عمر عن حالها فقالت : أنا امرأة عربية وليس
عندى شيء . فعاد عمر يهرول إلى بيته وقال لامرأته أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب :
هل لك في أجرٍ ساقه الله إليك ؟ وأخبرها الخبر ، قالت : نعم ! وحمل عمر على ظهره دقيقاً
وشحماً ، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة . ودخلت أم كلثوم على المرأة وجلس عمر
يتحدث إلى زوجها وهو لا يعرفه . ووضعت المرأة غلاماً ، فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين
بشّر صاحبك بغلام . فلما سمع الرجل قولها استعظم صنيع عمر وأخذ يعتذر إليه ، فقال
له عمر : لا بأس عليك ! ثم أعطاهم ما يصلحهم وانصرف .

وسمع عمر ليلةً بكاء صبيٍّ فتوجه نحوه ، فقال لأمه : اتقى الله تعالى ، وأحسنى
إلى صبيّك ! فلما كان بعد قليل سمع عمر بكاء الطفل كرّةً أخرى ، فعاد إلى أمه يقول
لها مثل قوله الأول . فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبيّ ، فأتى إلى أمه فقال لها :
وَيْحَكَ أُمِّ سَوْء ! ما أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة من البكاء ؟ ! قالت الأم : يا عبد الله
إني أسكتة عن الطعام فيأنى ذلك . قال عمر : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم .
قال : وكم عمر ابنك هذا ؟ قالت : كذا وكذا شهراً . فقال : وَيْحَكَ ! لا تُعْجِلِيه عن الطعام !
فلما صلى الصبح انفتل إلى الناس وقال لهم والدمع يملأ عينيه : بؤساً لعمر ! كم قتل من أولاد
المسلمين ! ثم أمر مناديه فنادى : لا تُعْجِلُوا صبيانكم عن الطعام ، فإننا نفرض لكل مولود
فى الإسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

وليس يجهل أحد قصة عمر إذ مرّ في أحجاز الليل بامرأة يتضاغى صبيانها حول قِدر منصوبة على النار ، فسألها : لم يتألون ؟ فقالت : من الجوع . قال : وأى شيء على النار ؟ قالت : ماء أعلمهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر ؟ فهرول عمر راجعاً إلى دار الدقيق فأخذ منها جراب شعير وعِدلاً من الدقيق وعاد بهما يحملهما على ظهره ووضع من الدقيق في القدر وألقى عليه الشعير ، وجعل ينفخ النار تحت القدر ، حتى إذا طاب الطعام ناوله الأطفال فأكلوا وشبعوا وناموا ، وانصرف من عند المرأة وهي لا تعرفه وهو يقول : الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم ! .

حبّ هذا الخنان وهذا البر حكم عمر إلى الناس ، وجعلهم يرون الخليفة أباً لكل ضعيف وكل يتيم وكل محروم . ثم حبب الفاروق إليهم عدلاً كان سليقة فيه ، وحبب للنخبة وللساواة أيسره أنه كان يساوي نفسه بالضعفاء والفقراء . كان من أول ما خطب به الناس قوله : « والله ما فيكم أحدٌ أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ له الحق » ، ولا أضعفُ عندي من القوي حتى آخذ الحق منه . وخطبهم يوماً فقال : « إني لم أستعمل عليكم عملاً ليضربوا أباركهم وليشتمو أعراسكم ويأخذوا أموالكم ، ولكي استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم . فن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على ليرفعها إلى حتى أقضه منه » . وكتب إلى أمراء الأجناد : « لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحرموهم فتكفروهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تنزلوهم الفياض فتضيعوهم » .

وهو إنما كتب بذلك إلى أمراء الأجناد فيما لم يكن يستطيع أن يلبّيه بنفسه ؛ فأما ما قدر على مباشرته فلم يكن يسكله إلى أحد غيره . وأنت تذكر كلمته أول خلافته : « والله لا يحضرني شيء من أمركم فيليّ أحدٌ من دولي » . وقد بلغ من صدقه في ذلك أنه كان بلى الكبير والصغير من الشؤون . فكما كان ينظم شؤون الجند ويولّي العمال ويدبر سياسة الدولة ويقضى بين الناس بالعدل ، كان لا يذر صغيرة يستطيعها إلا قام بها . رآه علي بن أبي طالب يعدو إلى ظاهر المدينة ، فقال له : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ قال : قد نذ بعير من إبل الصدقة فأنا أطلبه . قال علي : قد أتعبت الخلفاء من بعدك ! وجاء عمر إلى عبد الرحمن بن عوف ، وهو يصلى ليلاً ، فقال له عبد الرحمن : ما جاء بك في هذه

الساعة ؟ قال : رُقُقَةٌ نَزَلَتْ فِي نَاحِيَةِ مِنَ السُّوقِ خَشِيتَ عَلَيْهِمْ سُرَّاقَ الْمَدِينَةِ . فَانْطَلَقُوا فَلَنَحْرَسَهُمْ ، فَأَتَيَا السُّوقَ فَقَعَدَا عَلَى كَنْشَرٍ مِنَ الْأَرْضِ يَتَحَدَّثَانِ . وَبَصُرَا بِصَبَاحٍ فَقَالَ عُمَرُ : أَلَمْ أَتَهُ عَنِ الْمَصَابِيحِ بَعْدَ النَّوْمِ ! وَانْطَلَقَا فَإِذَا قَوْمٌ عَلَى شَرَابٍ لَمْ يَعْرِفْ عُمَرُ أَحَدَهُمْ . فَلَمَّا أَصْبَحَ دَعَاهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : كُنْتُ وَأَحْبَابُكَ الْبَارِحَةَ عَلَى شَرَابٍ . قَالَ : وَمَا أَعْلَمُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ عُمَرُ : شَيْءٌ شَهِدْتَهُ . وَأَجَابَهُ الرَّجُلُ : أَوْلَمْ يَنْهَكَ اللَّهُ عَنْ التَّجَسُّسِ ؟ فَتَجَاوَزَ عُمَرُ عَنْهُ .

وَبَلَغَ مِنْ حِرْصِهِ فِي آخِرِ عَهْدِهِ عَلَى أَنْ يَنْظُرَ فِي أُمُورِ النَّاسِ بِنَفْسِهِ أَنْ وَدَّ أَنْ يَنْتَقِلَ فِي أَرْجَاءِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ يَتَفَقَّدُ شُؤْنَهَا وَيَرَى تَصَرُّفَ عَمَلِهِ فِيهَا . رَوَى عَنْهُ بَعْدَ فَتْحِ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ : « لَئِنْ عَشِيتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِأَسِيرِنَّ فِي الرِّعْيَةِ حَوْلًا كَامِلًا . فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ لِلنَّاسِ حَوَائِجَ تُقَطَّعُ دُونِي ؛ أَمَّا عَمَلُهُمْ فَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَيَّ ، فَأَمَّا هُمْ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيَّ . فَأَسِيرُ إِلَى الشَّامِ فَأَقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ ، ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى الْجَزِيرَةِ فَأَقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ ، ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى مِصْرَ فَأَقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ ، ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ فَأَقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ ، ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى السَّكُوفَةِ فَأَقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ ثُمَّ أَسِيرُ إِلَى الْبُصْرَةِ فَأَقِيمُ بِهَا شَهْرَيْنِ . وَاللَّهِ لَنِعْمَ الْحَوْلُ هَذَا ! » لَكِنْ الْأَجَلَ لَمْ يَظَلَّ بِهِ لُيُتِمَّ مَا أَرَادَهُ .

كَانَ عَدْلُ عُمَرَ وَلَا يَزَالُ مُضْرَبُ الْمَثَلِ . ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ أَشَدَّ عِبَادَ اللَّهِ خَشِيَّةً لِلَّهِ وَوَجَلًا مِنْ حِسَابِهِ . وَكَانَ يَدْرِكُ مَا يَقْتَضِيهِ الْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ أَنَاةٍ وَدَقَّةٍ وَمَحَاسَبَةِ نَفْسٍ فَإِذَا أَتَاهُ الْخَصْمَانِ بَرَكَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمَا ؛ فَإِنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرِيدُنِي عَنْ دِينِي » وَلَمْ يَكُنْ بِهِ عَلَى أَهْلِهِ فِي إِقَامَةِ الْعَدْلِ رَافَةٌ ، بَلْ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ تَقَدَّمَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ : « لَا أَعْلَمَنَّ أَحَدًا وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِمَّا سَهَمْتَ عَنْهُ إِلَّا أَضَعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ » . كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُهُ بِمِصْرَ ، فَشَرِبَ هُوَ وَأَبُو سَرَّوَعَةَ فَسَكَرَا ، فَذَهَبَا إِلَى عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ لِيَقِيمَ الْحَدَّ عَلَيْهِمَا . قَالَ عُمَرُ : قَرَجَرْتُهُمَا وَطَرَدْتُهُمَا . فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : إِنْ لَمْ تَفْعَلْ أَخْبَرْتُ أَبِي إِذَا قَدِمْتَ عَلَيْهِ . فَعَمِلْتُ أُنِي لَمْ أَقِمَّ عَلَيْهِمَا الْحَدَّ . غَضِبَ عَلَى عُمَرَ وَعَزَلَنِي . فَأَخْرَجَتْهُمَا إِلَى سَجْنِ الدَّارِ وَضَرَبَتْهُمَا الْحَدَّ ، وَدَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عُمَرَ إِلَى نَاحِيَةِ الدَّارِ فَخَلَقَ رَأْسَهُ . وَاللَّهِ مَا كَتَبْتُ لِعُمَرَ بِحَرْفٍ بِمَا كَانَ حَتَّى جَاءَنِي .

كتاباه فإذا فيه : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي . عجبت لك يا بن العاص وجرأتك علىّ وخلافك عهدي ، فما أراى إلا عازلك . تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك ، وقد عرفت أن هذا يُخالفنى ، إنما عبد الرحمن رجل من رعييتك تصنع به ما تصنعه بغيره من المسلمين ! ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين ! وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب عليه . فإذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عباءة على قَتَبٍ حتى يعرف سوء ما صنع . » فبعثت به كما قال أبوه ، وكتبته إلى عمر كتاباً أعتذر فيه أنى ضربته فى صحن دارى ، وبالله الذى لا يُخلفُ بأعظم منه إنى لأقيم الحدود فى صحن دارى على الدثئى والمسلم . وبعثت الكتاب مع عبد الله بن عمر فقدم بعبد الرحمن على أبيه . فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشى من سوء مَرَكَبه ، فقال : يا عبد الرحمن فعلتَ وفعلتَ ! فكلّمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد ، فلم يلتفت إليه وجعل عبد الرحمن بن عمر يصيح : إننى مريض وأنت قاتلى ! » وتجري الرواية بأنه مع ذلك أقام عليه الحد ثانية ، فضربه وحبسه فمضى ثم مات .

وكان لا يفرّق فى عدله بين أمير وسوقة ، ولا بين والٍ ورعيّة ، سقنا من قبل قصة الأمير الفسّانى جبلة بن الأيهم ، وكيف أراد عمر أن يقتص منه للأعرانى الذى ضرب به . وضرب محمد بن عمرو بن العاص مصرياً بالسوط وهو يقول له . خذها وأنا ابن الأكرمين وحبس ابن العاص المصرى مخافة أن يشكو ابنه إلى الخليفة . فلما أفلت الرجل من حبسه ذهب إلى المدينة وشكا لعمر ما أصابه ، فاستبقاه عنده واستقدم عمر ابنه من مصر ، ودعاها إلى مجلس القصاص ؛ فلما مثلاً فيه نادى عمر : أين المصرى ؟ دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين ! وضرب المصرى محمداً حتى أنخفه وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! . فلما فرغ الرجل وأراد أن يردّ الدرّة إلى أمير المؤمنين قال له « أجلبها على صلّة عمرو ، فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانة ! » قال عمرو : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واستشفيت . وقال المصرى : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربنى : فقال عمر : « إنك والله لو ضربته ما حللنا بينك وبينه حتى تكون أنت

الذي تدعه . والتفت إلى عمرو مغضباً وقال : « أيا عمرو ! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! » .

ليس من غرضي أن أفصل ها هنا قضاء عمر ، فليس هذا الفصل موضع تفصيله ؛ وإنما أردت بما قدّمت أن اشير إلى شدّته في العدل ودقّته في إقامته ، ومساواته بين الناس فيه مساواة عبّر هو عنها بقوله : « لا أبالي إذا اختصم إلى رجلان لأيهما كان الحق . وترجع شدّته على ذويه وعلى عمّاله وذويهم إلى اقتناعه بأنه لا سبيل إلى كفالة الحرية والعزة والكرامة للأمة إلا أن يسوّى العدل بين الحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والأمير والسوقة . والولاء أجسم من المحكومين تبعاً ؛ لأن الحكم يُغريهم بالبطش إذا لم يجدوا من يرّدّعهم عنه . وذلك قوله : « إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهُدّاتهم » . وقوله : الرعية مُؤدّية إلى الأمام ما أدّى الإمام إلى الله ، فإذا ارتع الإمام رتعوا » . وهو لذلك كان يرى مكان عمّاله منه مكان الرعية من عمّاله ؛ هو مسئول عنهم كما أن العامل مسئول عن تولى عليهم ، فإذا ظلم العمال الرعية وجب أن يقتص منهم كما يقتص من أى فرد في المدينة ظلم غيره . وقد عبّر عن شعوره بهذه التبعة بقوله : « أى عامل ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته » .

كملت لعمر صفات الزهد والرأفة والعدل والبر بالفقير والمحروم ، فحبّبت إلى الناس حكمه ، وهوّنت عليهم ما كان فيه من شدّة وغلظة ، وما كان له من هيبة تصدّع عنه كثيرين ، فلولاها لرفعوا إليه حوائجهم فقضاها لهم . وشدّته هي التي جعلته يحمل الدّرة يؤدّب بها من يخرجون عن المألوف من أدب الجماعة ، لا يفرّق فيمن يُصيبه بها من هؤلاء بين كبير وصغير . وزاد حمله الدّرة في هيبة الناس له وخوفهم منه مع إيمانهم ببرّه وعدله ورحمته . اجتمع على عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وكان عبد الرحمن أجراً على عمر ، فقال له إخوانه : يا عبد الرحمن ! لو كلّمت أمير المؤمنين للناس ، فإنه يأتي الرجل طالبا الحاجة فتمنعه هيبتة أن يكلمه حتى يرجع ولم يقض حاجته . ودخل عبد الرحمن على عمر فقال له : « يا أمير المؤمنين ! لنّ للناس ؛ فإنه يقدّم القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجته حتى يرجع ولم يكلمك » . قال عمر : « يا عبد الرحمن

أَشَدُّكَ اللَّهُ ، أَعْلَى عُثْمَانَ وَطَلْحَةَ وَالزَّيْدِ وَسَعْدَ أَمْرُوكَ بِهَذَا ؟ » . قال ابن عوف : اللهم نعم ! فأردف عمر : يا عبد الرحمن ، لقد لنتُ للناس حتى خشيت الله في الدين ، ثم اشتدَّت عليهم حتى خشيت الله في الشدة . فأين المخرج ؟ » . فخرج عبد الرحمن يبكي ويقول : أف لهم من بعدك ! أف لهم من بعدك !

هذه أمثلة تصوِّر لك كيف نهض عمر بقبَّعات الحكم ، وتكشف لك عن السر في قدرته المتنازة على الاضطلاع بأعبائه الجسام على نحو لا يزال مثاراً لعجب الناس وإعجابهم ، كما تبين لك كيف كان نظام الحكم في عهد عمر من الأسباب التي هيأت لامتداد الفتح ودفعت المسلمين إليه ورغبتهم فيه . لقد كانوا يرون أمير المؤمنين خير كفيل بحقوقهم وعن يخلِّفون وراءهم من عيالهم ، وكانوا يرونه يؤثر على نفسه وأهله ، ويؤدى لكل ذي حق حقه . فلا جرم إنهم ليندفعون إلى ميادين القتال وكلهم الطمأنينة إلى غدومهم وإلى مصير أبنائهم وذويهم . وما ضرَّ أحدهم أن يُقتل في سبيل الله وفي سبيل الإمبراطورية الإسلامية ، وهو على يقين من أن بنيهِ سيُجزَّونَ إذا استشهد بخير مما يجزون إذا ظل حياً ، وأنه ستفتح له أبواب الجنة بما وهب الله نفسه مجاهداً في سبيله ! .

يُنْبَت المؤرخون الغربيون لعمر هذه الصفات ويُسَيِّدون بها ، ثم يذهب بعضهم إلى أنها إن صورت نظاماً للحكم فهو النظام العربي المعروف في ذلك العهد ، والذي يشبه كل الشبه نظام القبائل ؛ إذ يتولى أمرها أكثر رجالها قدرةً على التسلط عليها بقوته في الذود عن حماها ، أو بحزمه في إدارة شؤونها ، أو بدهائه وحسن رأيه في توطيد صلاتها بغيرها من القبائل . فقد كان هذا الشيخ يجمع في يديه السلطات كلها على نحو ما كان يجمعها عمر في يديه ، وكان يتخذ من العُرف المألوف شرعاً ، يقضى على أساسه بالقصاص أو بالدية بين رجال قبيلته ، ويقضى بأبيهما إذا رفع له الأمر بحجتيَّ عليهما أو ولي دم من قبيلة أخرى يطلب الحق ممن اعتدى عليه أو على من كان هو ولي دم ، من قبيلة هذا الشيخ . وهؤلاء المؤرخون يذكرون أن القرآن نظم هذا العُرف المألوف عند العرب وهذَّبه ، ولكنهم لم يخرجوا العرب على نظامهم الذي جروا عليه من قبل . فحكومة عمر وحكومة أبي بكر من قبله إنما قامت على أساس من هذا النظام العربي . لم تعتمدْا قواعد ، فكانتا أدنى إلى

نظام البداوة منهما إلى نظام الحضرة الذى عرفه الفرس والروم فى ذلك الزمان .
ولاريب أن حكومة أبى بكر كانت عربية صرفة ، لم تتأثر فى قليل ولا كثير بنظم
الروم ولا بنظم الفرس ، وكانت لذلك بسيطة بساطة النظام البدوى المعروف يومئذ فى
كثير من أرجاء شبه الجزيرة . لكها مع هذه البساطة كانت الحلقة القوية التى ربطت
بين عهد الرسالة وعهد الإمبراطورية ، وكانت الطور الطبيعى لنظام بدأ يتغير فى عهد
الرسول . فقد كانت يثرب يوم نزلها رسول الله تتألف كغيرها من بلاد العرب من قبائل
لا تعترف أيتها بسلطان لغيرها عليها . وكانت الحرب لذلك تقوم بين الأوس والخزرج
تارة ، وبين العرب واليهود من أهل يثرب تارة أخرى ، ثم لا تجتمع كلمة هؤلاء وأولئك
إلا إذا دهمهم خطر من الخارج . فلما استقر رسول الله بالمدينة وآخى فيها بين المهاجرين
والأنصار ، ثم أجلى اليهود عنها ، زال ما كان بين قبائلها وبطونها من فوارق ، فاجتمعت
كلتها وأصبحت وحدة مدنية شريعتها القرآن وولئ أمرها رسول الله . وقد كان هذا
تطوراً فى نظام الحكم لم يألفه أهل الحجاز . لكنه لم يلبث بعد فتح مكة أن انتقل من
المدينة إلى أم القرى ثم انتقل منها إلى الطائف بعد غزاة حنين .

ولما أرسلت المدن والقبائل وفودها إلى المدينة قبل عام من وفاة رسول الله صلى الله
عليه وسلم تعلن إسلامها بين يديه ، فبعث إليها رجالاً من أصحابه يفقهون الناس فى دينهم
ويقبضون منهم الصدقات ، كان هؤلاء الرجال طليعة الانتقال الذى تطورت إليه العرب
زويداً رويداً : فلما كانت الردة أبلى هؤلاء الرجال كما أبلى غيرهم فى القضاء عليهم أحسن
البلاء ، فجعلوا المدينة بذلك من حق الفتح مالم يستطع أحد من العرب إنكاره . وزاد
ذلك فى سلطان المال والولاية الذين عينهم أبو بكر ، فلم يبق هذا السلطان مقصوراً على
تفقيه الناس فى دينهم وتسلم الصدقات منهم ، بل صار لهم فى البلاد التى تولوا أمرها
مال الشيخ القبيلة أو أمير المدينة من حق ؛ فاجتمع فى أيديهم سلطان التنفيذ والقضاء
وإمارات الجند ، مع مسئوليتهم الكاملة أمام الخليفة عن تصرفاتهم فى ذلك كله ^(١) .

(١) كان عمال أبى بكر : عتاب بن أسيد على مكة ، وعثمان بن أبى العاص على الطائف ، والمهاجرين
أبى أمية على صنعاء ، وزيد بن لبيد على حضرموت ؛ ويلى بن أمية على خولان ؛ وأبى موسى على زيد .

آل الأمر إلى عمر بعد أن صدقت عودة العرب كلهم إلى إسلامهم ؛ فلم يبق مسوِّغ للحدز منهم والخوف من انتقاضهم . وكيف يخشاهم عمال الخليفة وقد ساراً بظالمهم من كل القبائل إلى ميادين الجهاد في سبيل الله يقاتلون ويقتلون ! . لذا رأى عمر أن يزيد وحدتهم متانة ، فأمر عماله عليهم أن يكونوا على مثاله حزمًا وعدلاً وبرًا ورحمة ، وأن يسووا بين العرب في المعاملة على اختلاف منازلهم من شبه الجزيرة .

ولهذا الغرض أصدر وصاياه لعماله بما قدمنا . فهو لم يكن يبعثهم إلى العرب ليذِّقوهم ، بل ليعلموا بينهم حدود الله بالعدل والقسط . وذلك قوله لهم : « اجعلوا الناس عندكم سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم . إياكم والرُّشَا والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب ا فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار » . ولقد كان يرى نفسه مسئولاً أمام ضميره وأمام الله عن إقامة هذا العدل في كل مكان ، فإذا ظلم عامله في أقصى الأرض رجلاً فكأنما هو الذي ظلمه . قال يوماً لمن حوله : « أرايتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت الذي عليّ ؟ » قالوا : نعم ! قال : « لا ! حتى أنظر في عمله ، أعمل بما أمرته به أم لا » . وكان لذلك شديد الحساب لهؤلاء العمال شدة رأينا مظاهرها في عزل خالد بن الوليد ، ومقاسمة عمرو بن العاص . والروايات تثبت من هذه الشدة في المحاسبة قصصاً لا يكاد الإنسان يصدقها . قيل : إن أبا عبيدة كان يوسّع بالشام على عياله ، فلما بلغ عمر ذلك نقصه من إعطائه حتى شحّب لونه وتغيرت ثيابه وساء حاله . فلما عرف عمر ما صار إليه أمره قال : « يرحم الله أبا عبيدة ! ما أعفّ وأصبر ! » ، وردّ عليه ما كان حبسه عنه . وبلغ من شدة عمر في محاسبة عماله أن كان يعزل أحدهم أحياناً لشبهة لا يقطع بها دليل ، وقد يعزل لريبة لا تبلغ حد الشبهة . ولقد سئل في ذلك يوماً فقال : « هان شيء أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير » .

وقد رأينا غير مرة عزل عمالا عن عملهم لغير ريبة فيهم ، بل التماساً لمصلحة يراها في عزلهم . من ذلك أنه عزل سعد بن أبي وقاص عن إمارة الكوفة لغير شيء إلا أن طائفة من أهل هذه المدينة ثاروا به وقالوا لعمر : إنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في الرعية ، ولا يغزو في السرية . وقد بعث عمر محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، فرأى الناس

جميعاً راضين عن سعد . مع ذلك عزله خوف الفتنة ؛ لأن جيوش الفرس كانت تتجمع للغزو والنار .

وكان عمر يجمع عماله بمكة في موسم الحج من كل عام ، يسألهم عن أعمالهم ، ويسأل الناس عنهم ، ليرى مبلغ دقتهم في الاضطلاع بواجبهم ونزاهتهم حين أدائه عن الإفادة لأنفسهم أو لذويهم ؛ فقد كانت النزاهة مقدّمة عنده على كل شيء . ولذلك كان يحصى أموال الولاة قبل ولايتهم ، فإذا زادت بعدها زيادةً تضع نزاهتهم موضع الشبهة ، قاسمهم مالم ، وقد يستولى على كل زيادة فيه ، ثم يقول لهم : نحن إنما بعثناكم ولاد ولم نبعثكم تجاراً . على أن هذه الشدة في محاسبة الولاة لم يكن يقصد منها إلا إضعاف سُلْطَنهم أو تهوين هيبتهم ؛ فقد كانت أيديهم مطلقة ، وأحكامهم نافذة ، وسلطانهم مساوياً لسلطان عمر ما عزموا العدل ولزموه . فإذا اعتدى عليهم مع ذلك معتد ، أو استهان بأمرهم مستهين عوقب أشد العقاب . حسب أهل العراق إمامهم استهانةً بأمره ، وكانوا قد حصبوا إماماً قبله ؛ فغضب عمر وقال لأهل الشام : « تجهّزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ » . ثم إنه كان يسمع لحجة عاملة ، فإذا أقنعتهم لم يُخَفِّق اقتناعه بها وثنائه على عامله بعدها . قدم الشام راكباً حماراً ، فتلقاه معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم ؛ ونزل معاوية وسلم على عمر بالخلافة ، فمضى في سبيله ولم يردّ عليه سلامه . فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ! فالتفت عمر إلى معاوية وسأله : إنك لصاحب الموكب الذي أرى ؟ قال معاوية : نعم ! قال عمر : مع شدة احتجاجك ووقوفك ذوى الحاجات ببابك ؟ قال معاوية : نعم قال : ولم ! ويحك ! وأجابه معاوية : « لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ؛ فإن لم تتخذ العُدَّة والعدد استخف بنا وهم علينا . وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة جرأة الرعية . وأنا بعدُ عاملك ، فإن استنقصتني نقصت وإن استزددتني زدت ، وإن استوقفتني وقفت » . قال عمر بعد أن سكنت هنيهة : « ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه ! إن كنت صادقاً فإنه رأى لييب ، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب . لا آمرك ولا أنهاك ! » .

وكان عمر يشتد اغتباطه حين يرى عماله يتجردون لخير الرعية ، ويثنى عليهم لذلك أعظم الثناء وتلى عمر بن سعد على حصص ثم كتب إليه : « أقبل بما جيت من في المسلمين » . فلما أقبل سأله عما صنع فقال : « بعثتني حتى أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم . حتى إذا جمعوهم وضعتهم مواضعه ، ولو نالك منه شيء لأتيتك به » . قال عمر : « فما جئتنا بشيء » ؛ فلما أكد له أنه أنفق كل شيء على أهل حصص قال : « جدوا لعمر عهداً » .

وعمر هذا هو الذي قال وهو على منبر حصص : « لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان . وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف أو ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل » . ليس عجيباً وهذه الكلمة الحكيمة سننته أن يقول عمر فيه : « وددت لو أن لي رجلاً مثل عمر بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين » .

كان هؤلاء العمال يلون في أول عهد عمر ما يليه هو بالمدينة ؛ فيجمعون بين سلطان القضاء والتنفيذ وإمارة الجند . على أن عمر ألقي نفسه بعد قليل من ولايته قد شغلته شؤون الدولة العامة وسياساتها العليا عما كان قد عول يوم بويج على أن يضطلع هو به . كانت أنباء جنده بالعراق والشام تستغرق الكثير من وقته وانتباهه . وكانت تصرفات عماله في أرجاء الدولة المختلفة موضع عنايته وتفكيره . ثم إن مصالح الناس بالمدينة كانت تزداد تشابكاً وتعقداً بازدياد عدد ساكنيها ، وكثرة المال الذي يرد عليها . وكان تقدم الفتح ، وما يقتضيه من تنظيم لشؤون البلاد التي تم الاستيلاء عليها ، يدعو أن يكتب إلى أمراء جنده بما يمن له من آراء في هذا التنظيم . لذلك لم يكن بد من أن يولي أعواناً له يقضون مصالح الأفراد فيما لا تتأثر به مصلحة الدولة .

وكان أول ما صنعه من ذلك أن فصل قضاء المدينة عن سلطته ، وأقام أبا الدرداء عليه ، وجعل له اسم القاضي ، وناط به الحكم بين الناس فيما يرفعونه إليه من خصوماتهم . فلما تم تمصير الكوفة والبصرة وأقام العرب فيهما وكثرت المنازعات بين أفرادها ، جعل قضاء الكوفة لشريح ، وقضاء البصرة لأبي موسى الأشعري . ولما فتحت مصر جعل القضاء بين المسلمين فيها إلى قيس بن أبي العاص السهمي . وكان هؤلاء القضاة يحكمون مستقلين

برأيهم في حدود كتاب الله وسنة رسوله ، فكانت توليتهم أول خطوة في تنظيم السلطات . وفصل بعضها عن بعض . على أنها كانت خطوة أدت إليها الحاجة وقضت بها ضرورات التطور في أحوال الدولة . وقيمت كذلك فلم تصبح مبدأ مقررًا يطبق في أرجاء المملكة كلها إلا بعد زمن طويل من عهد الفاروق .

وكان اختيار عمر لقضائه موفقًا كاختياره عماله ، بل لعله كان أكثر توفيقًا . ذلك لأنه كان عالمًا بالفقه والتشريع ضليعًا فيهما ، لا يكاد يُعَدُّله أحدٌ في ذلك ، حتى لقد قال عنه ابن مسعود : « لو وُضِعَ علم عمر في كفة وعلم أحياء العرب في كفة لرجح علم عمر » . ولم يكن ذلك عجيبًا وقد كان عمر يتولى قبل إسلامه مهمة السفارة بين قريش وغيرها من القبائل ، فلما أسلم لزم رسول الله وجعل يتأقّق عنه كل ما يوحيه الله إليه ، ويقف على سنته وعلى قضائه . هذا إلى ما كان له من فراسة صادقة في الرجال ومقدرة على زنة أقدارهم . ببعض ما يراه من تصرفاتهم . وقصة تولية شريحًا قضاء الكوفة خيرُ شهيد على ذلك . فقد ساوم عمر رجلاً على فرس ثم ركبهُ ليجرّ به فِعْطَبَ ، فأراد أن يردّه إلى صاحبه فأبى فقال له : اجعل بيني وبينك حَكَمًا ، قال الرجل : شريحُ العراقيّ . فتجاكأ إليه ، فقال شريح بعد أن سمع حجة كل منهما : يا أمير المؤمنين ، خذ ما ابتعت ، أو رُدّ كما أخذت ! قال عمر ! وهل القضاء إلا هكذا ! وأقام شريحًا على قضاء الكوفة ، فبقي عليه ستين سنة . ولا تزال كتب عمر وأقواله تشهد بسعة علمه في القضاء وأصوله وأحكامه . وكتابه إلى أبي موسى الأشعري قطعةً من أدب القضاء خالدة على الزمان . فهو يقول فيه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ! أما بعد ، فإن القضاء فريضة مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فافهم إذا أَدَلِيَّ إِلَيْكَ ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع تَكَلُّمٌ بحق لا نفاذ له . وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك . حتى لا يطمع شريفٌ في حَيْفِكَ ، ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك . التَّيِّنَةُ على من ادّعى ، واليَمِينُ على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً . ولا يَمْنَعَنَّكَ قضاء قضيتته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهُدَيْتَ فيه إلى (عمر ج ٢ - ١٥٢)

رشدك . أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خيرٌ من التماهى في الباطل .
 الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال .
 وقس الأمور عند ذلك بنظائرها ؛ واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن
 ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهته
 القضاء عليه ؛ فإنه أنفى للشك وأجلى للعلم . المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض ، إلا مجلداً
 في حدٍّ ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظليماً في ولاء أو نسب ؛ فإن الله سبحانه تولى
 منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . وإياكم والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتسكر
 عند الخصومات . فإن الحق في مواطن الحق يُعظم الله به الأجر ويُحسن به الذكر . فمن
 صحّت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه
 ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ! والسلام .
 أرايت إلى المبادئ التي قررها عمر في هذا الكتاب ! أليست هي المبادئ التي
 يجرى القضاء عليها اليوم في أكثر الأمم حضارة ؟ بل أليست هي المبادئ الثابتة التي
 لم تتغير بتغير الأزمان والتي تتناولها كتب الفقه والتشريع بالتعليق والشرح في عشرات
 الصحف ومئاتها ! أوليس ما ذكره عمر ، عن أدب القاضى وما يجب عليه أن يلزمه في
 معاملة الخصوم ، بالغاً غاية السمو ! ولا عجب أن يصدر ذلك عن عمر وقد كان أبو بكر
 يعهد إليه في بعض شؤون القضاء ، وقد تولى هو القضاء بنفسه في العهد الأول من خلافته
 ثم لا عجب وقد كان فقيهاً رصيناً في العلم في الفقه ؛ يأخذ في قضائه بخير ما يعرف في المسألة
 المعروضة عليه ، فإذا استبهم عليه أمر استشار واجتهد رأيه ، فكان اجتهاده موقفاً بل
 كان حجة يأخذ بها من بعده مطمئناً إليها واثقاً بها .

وهل غير القاضى النزيه العادل يقول ما قاله في بعض وصاياه لمن يلون القضاء :
 « إذا تقدّم إليك الخصمان فليك بالبيئة العادلة أو باليمين القاطعة وأذن الضعيف حتى
 يشتد قلبه وينبسط لسانه . وتعهّد الغريب فإنك إن لم تتعهّده ترك حقه ورجع إلى أهله
 وإنما ضيع حقه من لم يرفق به ! » .

كانت إقامة القضاة خطوة أدت إليها الحاجة وقضت بها ضرورات التطور في أحوال الدولة ، ولم تكن تنفيذياً عاماً أريد به تطبيق مبدأ لذاته ؛ فقد بقي الفصل في الخصومات متروكاً أمره للولاة الذين لم ترهقهم أعباء الولاية ولم تمنعهم من القيام به . وهؤلاء لم يعيّن عمر قضاء إلى جانبهم ، بل ترك السلطات كلها مجموعة في أيديهم . لكن هذه الخطوة الأولى لم تلبث بعد سنوات أن أصبحت نظاماً من نُظَم الدولة ، فانفصل القضاء عن السلطة التنفيذية ، وصارت للقضاة مكاتهم الخاصة ، وأحيط مركز القاضي بكل ما يجب له من التجلة والاحترام .

عيّن عمر القضاة حين شغلته شؤون الدولة العامة عن الفصل في خصومات الأفراد ، فكان تعيينهم خطوة جديدة في تنظيم الحكم . وثمّ سبب آخر أدى إلى هذه الخطوة ؛ فقد كثّر الذين ينزلون المدينة ويتخذونها سكناً بعد أن أصبحت عاصمة الدولة ، وبعد أن عظم رخاؤها لكثرة ما كان يُرسل إليها ويقسم بين أهلها من الفء . وأنت تذكر فيء المدائن وجلولاء وغيرها من مدائن العراق ، وفيء دمشق وحمص وغيرها من مدن الشام . والرخاء وكثرة السكان يُغريان الناس بالخصومة ويزيدان في أعباء القاضي . فلم يكن بدّ ، وقد استغنى الناس وكثروا ، من أن يفرغ لخصوماتهم من يفصل فيها فلا تشغل أمير المؤمنين عما هو أجسم منها خطراً وأجل مكاناً . وكان الأمر كذلك بخاصة أن كانت الأموال التي تُجسّبي إلى المدينة مطردة الزيادة باطراد الفتح وسعة رقعته . بل لقد بدأت هذه الأموال تشغل أمير المؤمنين نفسه ، وتقضيه أن يضع لها نظاماً خاصاً بها ، فيكون وضعه طوراً جديداً من أطوار الحكم ، ومن أطوار الحياة الاجتماعية في بلاد العرب .

شغل عمر بكثرة الأموال التي كان عمّاله يبيعون بها ، ورأى أن لا بدّ من وضع نظام لإحصائها وتوزيعها . ولم تكن هذه الأموال ما يؤدّيه المسلمون في شبه الجزيرة من الزكاة والصدقات ، فتلك كانت توزع على الذين نزل فيهم قوله تعالى : (إِمَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ..) إلى آخر الآية . وكان الكثير من هذه الصدقات لا يرسل إلى المدينة ، بل يوزع على الفقراء والمساكين من أهل القبائل والأمم

التي تؤدّيها . فأما ما كان يُرسل منها إلى المدينة ، ومعظمه من الإبل والماشية ، ثم يفيض بعد التوزيع عن حاجة من ورد ذكرهم في آية الصدقات ، فكان يومئذ يسم بيسم خاص ويوضع على مقربة من المدينة بمكان أطلق عليه اسم الحصى . فإذا غزا المسلمون أعانوا بهذه الإبل والأموال من لا يجد دابة تحمله أو سلاحاً يقاتل به ، وعالوا فقراء المسلمين بما بقي منها . فأما ما كان المسلمون يغنمون في غزوات رسول الله من الفء ، فكان هو يوزّعه بعد المعركة ولا يُبقى منها شيئاً . وقد سار أبو بكر سيرته وصنع صنيعه ؛ فكان ما يرد من فء العراق يوزع بين أهل المدينة ، ولا يبقى منه شيء . وجرى الأمر على ذلك في العهد الأول من خلافة عمر . لكن اتساع رقعة الفتح زاد في أموال الفء ، كما فتح مورداً آخر أغزر مادّة وأبقى ؛ ذلك مورد الخراج والجزية . فقد صالح المسلمون أهل البلاد التي استولوا عليها ، في العراق وفارس وفي الشام ومصر ، على أن يدفعوا جزية كان متوسطها على كل رأس دينارين ، وذلك فضلاً عن الخراج الذي كان الزّراع يدفعونه عن أرضهم ؛ فينفق جانب منه على مراقبتهم وعلى تنظيم الحكم فيهم ، ويرسل ما بقي منه بعد ذلك إلى المدينة : وقد بلغت غزارة هذا المورد ، قبل أن يتم فتح فارس وقبل أن يبدأ غزو مصر مبلّغاً حمل الخليفة على التفكير في إقامة نظام مالى للدولة الناشئة .

أورد المؤرخون روايات عدّة في السبب الذي أدّى بعمر إلى هذا التفكير . قيل إن أبا هريرة قدّم من البحرين ، فسأله عمر عن الناس ثم قال . ماذا جئت به ؟ قال أبو هريرة : جئت بخمسمائة ألف درهم . فدهش عمر وقال : هل تدري ماذا تقول ؟ فأعاد أبو هريرة أنه جاء بخمسمائة ألف درهم . وظن عمر أن الرجل يبالي فكرر عليه السؤال ، فلما سمع الجواب الأول قال له : إنك ناعس ، فارجع إلى أهلك فتمّ ، فإذا أصبحت فأتني فلما غدا عليه أبو هريرة وأكّده أنه جاء بخمسمائة ألف درهم ، قال عمر للناس : إنه قدّم علينا مال كثير ، فإن شئتم أن نعدّه لكم عدّاً ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدوّنون ديواناً يُعطون الناس عليه ، قدوّن عمر الديوان .

وقيل إن عمر استشار الناس في تدوين الديوان ، فقال له عليّ ابن أبي طالب :

« تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ، ولا تبق منه شيئاً » . وقال عثمان بن عفان : « أرى مالا كثيراً يسع الناس ؛ وإن لم يُخصَّوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ ، خشيت أن ينتشر الأمر » . فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : « يا أمير المؤمنين ! قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوتوا ديواناً وجنّدوا جنوداً ، فدوّن ديواناً وجنّد جنوداً » . فأخذ بقوله ، فدعا عَقِيل بن أبي طالب ونَحْرَمَة بن نوفل وجُبَيْر بن مُطْعِم ، وكانوا من نُسَاب قريش ، فقال لهم : « اكتبوا الناس على منازلهم » .

وفي رواية أن عمر استشار المهاجرين والأنصار في تدوين الديوان وفرض العطاء ، فأشاروا عليه به ، ثم استشار مُسْلِمَة الفتح فوافقوا عليه إلا حَكِيم بن حزام ، وكان من أشرف مكة وذوى الرأى فيها ، فقد قال : « يا أمير المؤمنين ، إن قريشاً أهل تجارة ومتى فرضت لهم عطاء تركوا تجارتهم ، فيأني بعدك من يحبس عنهم العطاء فتكون التجارة قد خرجت من أيديهم » . وكأنما كان حَكِيم قد تفتّحت له حُجُب الغيب وهو يُلقى بهذا القول ! فقد أغرى العطاء العرب بالكسل وأغناهم عن السعى للرزق . فلما تبدلت الأحوال ووقف اندفاع الفتح واشترك غير العرب فيه ، وذلك بعد أن انتقلت العاصمة من المدينة إلى دمشق ثم إلى بغداد ، انقبض العطاء الذي كان مفروضاً لأهل شبه الجزيرة فلم يطق الجيل الذي نشأ في البطالة أن يعود إلى التجارة والسعى للرزق ، فأحبل الحجاز وظل محملاً إلى وقتنا الحاضر .

كيف غابت هذه النتيجة عن عمر فلم يحسب لها حسابها ولم يتخذ الحيطة لاتقائها ، وبخاصة أنه نُبّه لها ولُقّت إلى آثارها ؟ هذا اعتراض يبدو ظاهر الوجهة بعد الذي احدثت إليه شبه الجزيرة من فقر وإحمال ، وكأنما كان عمر يتوسمه ويتوقعه ، فهو كثيراً ما كان ينبّه الناس إلى وجوب الدأب في السعى والاستكثار من الرزق ، كما أنه كان شديد البرم بأولئك الذين يُظهرون الإعراض عن الدنيا تعبّداً وزهادة . رأى رجلاً يوماً يُظهر النسك والتماوت ، فنفقه بالدرة وقال له : « لا تُمِت علينا ديننا ، أمانك الله ! » . وكان يقول للناس : « من كان له مال فليصلحه . ومن كانت له أرض فليعمرها ، وإنه يوشك أن يحيى من لا يُعطى إلا مَنْ أحب » . وكان يؤمن بأن على المرء أن يعمل لدنياه

كانه يعيش أبداً ، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً .

وإنما دَوَّنَ عمر الديوان وفرض العطاء ليفرغ العرب للجهاد في سبيل الله كيما يُصبح مَيِّدان الدعوة إلى دين الله حراً طليقاً ، لا يتحكم فيه الفرس والروم ولا غير الفرس والروم ولهذا الفرض حرّم في عهده قسمة الأرض في البلاد المفتوحة على الجند ، حتى لا يُشغَلوا بالزراعة عن الجهاد ، وحتى لا تجذبهم الأرض إليها فتُنسيهم الرسالة الكبرى التي ألقى القدر على العرب أن ينهضوا بها ، فينشروا نور الله وحكمته في أقطار العالم جميعاً . وقد أعان تدوين الديوان وفرض العطاء أولئك العرب الأولين على أداء الرسالة التي أَلَقَت الأقدار عليهم أداءها كما رأيت . وأداؤهم لها هو الذي خلد على التاريخ أسماءهم ، ودَوَّنَ في صحفهم فعالهم .

وهذا الحرص من عمر على أن ينهض العرب لينشروا لواء الإسلام ، هو الذي صرفه عن توجيه أموال الخراج والجزية لإصلاح الأرض في شبه الجزيرة ، بإقامة سدود كسد مأرب تخيل باديتها المحلة مزارع ممرعة الخصب . فلو أنه فعل لقعد العرب عن الجهاد إلى ما هو أيسر مشقة وأقلّ تعريضاً للخطر ، ولما أدّوا رسالة الإسلام على النحو الذي أدّوها به . هذا إلى أن العرب لم يكونوا أهل زراعة وصناعة مثلما كانوا أهل حرب وتجارة . ولذلك كان فرض العطاء قيناً أن يدفعهم إلى تنميته في الناحية التي توجههم طبيعتهم إليها . ولعلمهم فعلوا أو كانوا يفعلون لولا أن قامت الثورات في بلاد العرب من بعد عمر ، فصرفت الناس إلى المنازعات على السياسة والملك . وقد أدّت هذه المنازعات إلى انتقال العاصمة إلى الشام ثم إلى العراق ، كما أدّت ببلاد العرب إلى الفقر والإحمال الذي تعانیه من ذلك العهد .

ونعود الآن إلى تدوين الديوان وفرض العطاء . والديوان كلمة فارسية معربة ، معناها مجتمع الصحف . يُكتب فيها رجال الجيش ومن فرض لهم العطاء . وقد تطوّر مدلول هذه الكلمة من بعد . فصارت تطلق على الموضع الذي تحفظ فيه سجلات الدولة ، ثم صارت تطلق على الأمانة التي يجلس فيها القائمون على هذه السجلات ، كما تطلق على السجلات نفسها وبديهي أنها لم تتعدّ في عهد عمر معناها الأول ، فكان الديوان سجلاً أحصى فيه من

فَرَضَ لَهُمُ الْعَطَاءُ مِنْ رِجَالِ الْجَيْشِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ . وَذُكِرَ فِيهِ أَمَامَ كُلِّ اسْمٍ عَطَاءُ صَاحِبِهِ .
عَزَمَ عُمَرُ عَلَى تَدْوِينِ الدِّيَّانِ ، فَدَعَا عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَمُخْرَمَةَ بْنَ نُوْفَلٍ وَجُبَيْرَ
ابْنَ مَطْعَمٍ ، وَقَالَ لَهُمْ : « أَكْتُبُوا النَّاسَ عَلَى مَنَازِلِهِمْ » ، فَكَتَبُوهُمْ مُبْتَدِئِينَ بِنَبِيِّ هَاشِمٍ ، ثُمَّ
بَنِي تَيْمِ قَبِيلَةِ أَبِي بَكْرٍ ، فَبَنَى عَدِيَّ قَبِيلَةَ عُمَرَ . فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا صَنَعُوا قَالَ : وَدِدْتُ وَاللَّهِ
لَوْ أَنَّهُ هَكَذَا ، وَلَكِنْ اأَبْدُوا بِقِرَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَقْرَبَ فَلِأَقْرَبٍ حَتَّى تَضَعُوا
عُمَرَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ « رَوَى أَنَّ بَنِي عَدِيٍّ عَرَفُوا مَا صَنَعُوا فَجَاءُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ : أَنْتَ خَلِيفَةُ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١) ؛ فَلَوْ جَعَلْتَ نَفْسَكَ حَيْثُ جَعَلْتَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَنْ يَنْظُرَ
إِلَيْهِمْ شَرًّا وَأَجَابَهُمْ : بَخَّ بَخَّ بَنِي عَدِيٍّ ! أَرَدْتُمْ الْأَكْلَ عَلَى ظَهْرِي وَأَنْ أَذْهَبَ حَسَنَاتِي
لَكُمْ ! لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَأْتِيَكُمْ الدَّعْوَةُ ، وَإِنْ أَطْبِقَ عَلَيْكُمْ الدَّفْتَرُ (يَعْنِي أَنْ تَكْتُبُوا آخِرَ
النَّاسِ) . إِنْ لِيَ صَاحِبِينَ سَلَكَ طَرِيقًا ، فَإِنْ خَالَفَتْهُمَا خُولَفَ بِي ، وَاللَّهِ مَا أَدْرَكُنَا الْفَضْلَ
فِي الدُّنْيَا وَلَا نَرْجُو مَا نَرْجُو فِي الْآخِرَةِ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ عَلَى مَا عَمِلْنَا إِلَّا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ؛ فَهُوَ شَرَفُنَا وَقَوْمُهُ أَشْرَفُ الْعَرَبِ ، ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَلِأَقْرَبٍ » .

هَذِهِ نَزْعَةٌ جَدِيدَةٌ أُريدُ بِهَا تَقْسِيمُ النَّاسِ طَوَائِفَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، وَهِيَ
نَزْعَةٌ لَمْ يَنْزِعْهَا أَبُو بَكْرٍ ، وَلَمْ يَنْزِعْهَا عُمَرُ نَفْسَهُ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ . فَالْقُرْآنُ لَمْ يَفْضَلْ طَبَقَةً مِنَ
الْمُسْلِمِينَ عَلَى طَبَقَةٍ ، وَلَمْ يَزِدْ جَمَاعَةً فِي الرِّزْقِ لِنَسَبِهِمْ عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَ عُمَرُ فِي الدِّيَّانِ ، وَلَمْ
يَجْعَلِ النَّاسَ طَبَقَاتٍ يَمْتَازُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالنَّسَبِ ، وَيَكْرَهُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى بَعْضٍ
بِغَيْرِ التَّقْوَى . وَذَلِكَ قَوْلُ عُمَرَ نَفْسَهُ : « وَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَتْ الْأَعْجَامُ بِالْأَعْمَالِ وَجِئْنَا بِغَيْرِ
عَمَلٍ فَهُمْ أَوْلَى بِمُحَمَّدٍ مِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَلَا يَنْظُرُ رَجُلٌ إِلَى الْقِرَابَةِ وَلِيَعْمَلَ لِمَا عِنْدَ اللَّهِ .
فَمَنْ قَصَرَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » . عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَنْزِعَ الْجَدِيدَ الَّذِي نَزَعَهُ عُمَرُ ، لَمْ يَقِفْ
عِنْدَ تَرْتِيبِ الْأَسْمَاءِ فِي السَّجْلِ وَالْبَدْءِ بِالْأَقْرَبِ فَلِأَقْرَبٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، بَلْ تَعَدَّى ذَلِكَ
إِلَى فَرَضِ الْعَطَاءِ ؛ فَانْشَأَ طَوَائِفَ مَا كَانَ لِأَيِّهَا أَنْ تَبْقَى . وَقَدْ تَرَكَ هَذَا الْمَنْزِعَ فِي الْحَيَاةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ أَثَرًا لَا يَزَالُ بَاقِيًا إِلَى الْيَوْمِ .

فَضَّلَ عُمَرُ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَعْضٍ فِي الْعَطَاءِ ، نَخَالَفَ فِي ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ ؛ إِذْ كَانَ

(١) فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : خَلِيفَةُ أَبِي بَكْرٍ ، وَأَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ

يسوّى بينهم في القسمة . وقد قيل للصدّيق يوماً : ألا تفضلّ السابقين إلى الإسلام ؟ فكان جوابه : « إنما أسلموا لله وعليه أجروهم ، يوفيههم ذلك يوم القيامة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ » . وذكر صنيع الصدّيق لعمر حين أراد تفضيل السابقين فقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » . ولذا فضل أهل بدرٍ على غيرهم ، ثم جعل من بعدهم درجات . على أنه فضل الأذنين من قرابة رسول الله ، لم ينظر في ذلك إلى جهاد ولا إلى سابقة في الإسلام ؛ ففرض للعبّاس بن عبد المطلب عم النبي اثني عشر ألف درهم ، ولصفيّة ابنة عبد المطلب أخته ستة آلاف درهم ، وفرض لكل واحدة من نساء النبي عشرة آلاف درهم إلا من جرى عليها الملك ؛ لكنهن قلن : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضّلنا عليهن في القسمة ، فسوّى بيننا ، ففعل . مع هذا فضل عائشة بألفين لحجة رسول الله إياها ، ففرض لها اثني عشر ألفاً ، فلم تأخذ ما فضلها به على غيرها من أمهات المؤمنين^(١) .

ثم إنه فرض لكل رجل شهد بدرًا خمسة آلاف درهم في كل سنة . وفرض لكل من كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحدًا أربعة آلاف درهم في سنة . وفرض لأبناء البدرين ألفين ألفين إلا حسناً وحُسِيناً فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم . وفرض لكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولكل رجل من مُسلمة الفتح ألفين ، وللعلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مُسلمة الفتح . وفرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم . ثم جعل من بقى من الناس باباً واحداً ، ففرض لمن جاء من المسلمين إلى المدينة وأقام بها خمسة وعشرين ديناراً ، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ، ولم ينقص أحدًا عن ثلاثمائة ، وقال : « لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم ؛ ألف لسفره ، وألف لسلاحه ، وألف يخلفها لأهله ، وألف لفروسه وبغله » .

(١) هذه رواية الطبري . وفي رواية لابن سعد أنه فرض لكل واحدة من أزواج النبي اثني عشر ألفاً وجوزية بنت الحارث وصفيّة بنت حنّ فيهن . ويردّف ابن سعد هذه الرواية بقوله : « هذا الجهم عليه » .

وكان عمر يفرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم، فإذا بلغ زاده وكان إذا أتى بلقيط فرض له مائة درهم وفرض لوليه كل شهر رزقا يصلحه، وجعل رضاعه ونفقته من بيت المال، ثم يزيد عطاءه بعد ذلك من سنة إلى سنة، كما كان يصنع بغيره من الأطفال.

والقاعدة التي وضعها عمر وجعلها أساساً لتوزيع العطاء تبدو واضحة في قوله: « مامن الناس أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه. ومامن أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك. وما أنا فيه إلا كأحدكم، ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وعناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته. والله لئن بقيت لياثين الراعي يجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه ». وكذلك فرض عمر للناس جميعاً لم يترك منهم أحداً. وأورد ابن سعد في الطبقات رواية عن سالم أبي عبد الله أنه قال: « فرض عمر بن الخطاب للناس حتى لم يدع أحداً من الناس إلا فرض له، حتى بقيت بقية لا عشار لهم ولا موال ففرض لهم ما بين المائتين وخمسين إلى ثلاثمائة.

غير أن عمر خرج عن القاعدة التي وضعها لتنظيم العطاء في أمر رجال ونساء زاد في عطائهم على عطاء أمثالهم ممن في طبقتهم. فرض لعمر بن أبي سلفة أربعة آلاف درهم. وعمر هذا هو ابن أم سلمة أم المؤمنين. وقد اعترض محمد بن عبد الله بن جحش وقال لأمير المؤمنين: لِمَ تفضل عمر علينا؟ فقد هاجر آباؤنا وشهدوا ». وأجابه ابن الخطاب بقوله: أفضله لمكانه من النبي صلى الله عليه وسلم. فليأتنى الذي يستعصب بأم مثل أم سلمة أعتبه! » وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم. فقال عبد الله بن عمر: « فرضت لي ثلاثة آلاف وفرضت لأسامة أربعة آلاف وقد شهدت مالم يشهد أسامة! ». وأجابه عمر: « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، وكان أبوه أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ». وفرض لأسماء بنت عيسى زوج أبي بكر ألف درهم، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم، فزادهن على أمثالهن الخاصة إذ كن أزواجاً وأمهات لرجال لم على غيرهم منزلة وفضل

وكان عمر حريصاً على أن يبلغ كل ذى حظ في العطاء حظه ، حتى لكان يحشم نفسه في ذلك المتاعب . روى عن حزام بن هشام الكعبي عن أبيه أنه قال : رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قَدْ يَدًا ، فلا يغيب عنه امرأة بكرٌ ولا ثِيْبٌ فيعطيهن في أيديهن ، ثم يروح فينزل عُسْفَان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفى . وكتب عمر إلى حذيفة أن أعطِ الناس أعطيتهم وأرزاقهم ، فكتب إليه : « إنا قد فعلنا وبقي شيء كثير » فكتب إليه عمر : « إنه فيؤمهم الذى أفاء الله عليهم ، فليس هو لعمر ولا لآل عمر : أقسمه بينهم » .

وإنما كتب عمر هذا الكتاب إلى حذيفة لأن الدواوين ، وهى سجلات العطاء ، لم تكن كلها بالمدينة ، بل كان كل ديوان على حدة عند والى البلد أو القبيلة التى فرض فيها لأهل العطاء . فكان ديوان حير على حدة عند والى اليمن ، وديوان البصرة عند واليها ، وديوان كل إمارة عند أميرها . بهذا أصبح كل رجل من المسلمين يقبض عطاءه من البلد الذى هو فيه ، وأصبح كل وال مسئولاً عن إيصال العطاء إلى أصحابه فى ولايته ، كما كان عمر يوصل العطاء لأصحابه فى المدينة وفيما حولها من الأرجاء الداخلة فى نطاقها .

متى دون عمر الديوان وفرض العطاء ؟ ذلك أمر اختلف فيه . يقول الطبرى : إنه كان فى السنة الخامسة عشرة للهجرة ، ويقول ابن سعد : إنه كان فى محرم سنة عشرين . وقد يتعذر القطع أى التاريخين أصح ؛ فلما يكن الفتح فى السنة الخامسة عشرة قد بلغ اللدائن ، لكن سواد العراق كان مع ذلك قد صار فى يد المسلمين ؛ ولما تكن بيت المقدس قد فتحت أبوابها لعمر ، لكن المسلمين كانوا قد استولوا على دمشق وطهرّوا الأرْدُنَّ وتقدّموا إلى حمص وقلنسرين . أترى عمر رأى فيما يجبى إلى المدينة من سوادالعراق ومن بلاد الشام ما أدى به إلى تدوين الديوان ؟ ذلك مايقوله الطبرى . أم هو لم يدون الديوان حتى تم فتح العراق والشام ، وجبى منهما الجزية والخراج ، وكثر بذلك مايرد إليه من المال ، حتى لقد حار أبعده عدداً أم يكيله كيلا إلى أن أشهر عليه بتدوين الديوان ، فكان ذلك سنة عشرين على ما يقول ابن سعد ؟ أراى أميل إلى هذا الراى الأخير وإن كنت لا أستطيع القطع به . وإنما يميل إلى أنه أن تدوين الديوان لا يمكن أن يعتمد على

النفى الذى يرد من الغزو . فالنفى مورد غير ثابت ، وعطاء الديوان مصرف سنوى ثابت . لا بد إذاً أنه اعتمد على الجزية والخراج . ولم تبلغ الجزية ولم يبلغ الخراج المبلغ الذى يسع عطاء العرب جميعاً فى التاريخ الذى يذكر الطبرى أنه دون فيه .

لم يكن العرب فى شبه الجزيرة وفى البلاد المفتوحة أقل حرصاً على قبض أعطياتهم من عمر على إيصالها إليهم . ولم لا يفعلون ، وكان هو يحضهم على ذلك ويحرضهم عليه ، ويدعوهم لحسن استغلال ما يقبضونه . فيقول : « لو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العرب ابتاع منه غنماً فجعلها بسوادهم ، ثم إذا خرج العطاء ثانية ابتاع الرأس فجعله منها إفاًنى أخاف عليكم أن يليكم بعدى ولالة لا يعد العطاء فى زمانهم مالا ، فإن بقى أحد منهم أو أحد من ولوه كان لهم شيء قد اعتمدوه فيتكثرون عليه » . وكان أكثرهم يعملون بنصيحة عمر .

على أن طائفة من ميزم عمر فى العطاء كانوا يتصدقون به . روى أن أم المؤمنين زينب بنت جحش قالت حين دخل عليها العطاء : غفر الله لعمر أغيرى من أخواتى كان أقوى على قسم هذا منى . قيل : هذا كله لك . قالت : سبحان الله ! واستترت منه بثوب ، وقالت : ضبوه واطرحوا عليه ثوباً ، ثم قالت لبرزة بنت رافع : أدخلى يدك فأقبضى منه قبضة فاذهبى بها إلى بنى فلان وبنى فلان ، من أهل رحمة وأيتامها ؛ حتى بقيت بقية تحت الثوب . فقالت لها برزة . غفر الله لك يا أم المؤمنين ! والله لقد كان لنا فى هذا حق ! قالت : فكم ما تحت الثوب . فلما كشفوا الثوب لم يجدوا تحته إلا خمسة وثمانين درهماً . ثم رفعت زينب يدها إلى السماء فقالت : اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بعد عاى هذا ! واستجاب لها ربها ، فقبضها إليه .

كان ذلك شأن أم المؤمنين زينب ، وشأن أفراد قليلين غيرها . فأما الأكثرون فكانوا يقبضون عطاءهم ويثمنونه فى التجارة . لذلك أسرع ثروة أصحاب العطاء الذين يعدون بالألوف إلى الزيادة أضعافاً مضاعفة ، فظهرت بين الطبقات فوارق تأثر بها النظام الاجتماعى تأثراً واضحاً ، لفت عمر ودعاه للتفكير فى الأمر والتماس الوسيلة لإعادة النظر فيه . وقد انتهى به الرأى إلى تفضيل ما جرى الصديق عليه من تسوية بين المسلمين فى قسمة النفى ،

وود لو صنع صنيعه في أمر العطاء ؛ لذلك قال : « والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلاً واحداً ! » ، وقال : « لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلام ! » . وهو قد كان مع ذلك يدرك أن التسوية ، بنقص العطاء الذي فرضه لمن ميزهم ، ربما جرّت إلى امتعاض لا تحسن مغبته ، فكان أكبرهم أن يرفع عطاء ذوى العطاء القليل ليساويهم بمن زاد عطاؤهم . وذلك قوله : « لئن عشت حتى يكثر المال لأجعلن عطاء الرجل المسلم ثلاثة آلاف : ألف لكرّاعه وسلاحه ، وألف نفقة له ، وألف نفقة لأهله » . لكنه لم يبق إلى الحول ، بل قُتل قبل هذا العام المقبل ، فبقيت الطبقات ، ثم كان لبقائها من الأثر في حياة الأمة الإسلامية من بعد ما لا يدخل تفصيله في نطاق هذا الكتاب .

لم ينشئ عمر ديوان العطاء وحسب ؛ فقد قيل إن أول ديوان وضع في الإسلام هو ديوان الإنشاء ، وإن دواوين الشام كانت تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ، ودواوين مصر بالقبطية ، يتولاها الفرس والروم والقبط دون المسلمين . وقد كان إنشاء هذا الديوان ، كما كان إنشاء ديوان الخراج وتشيد مصنع السكة لضرب النقود وإقامة بيوت المال في مختلف الأمصار ، مما قضى به التطور السريع الذي أدى إليه الفتح وانتشار المسلمين في أقطار الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . أما قبل ذلك فلم يكن للدولة الإسلامية شيء من هذه الدواوين . فقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتبون له الكتب والرسائل . وكانت هذه الكتب تحفظ صورها وتحفظ الردود عليها في داره بالمدينة . ولم يكن له بيت مال لأنه كان يوزع النفي ، ويوزع الصدقات أول ما يقبضها وصنع الصديق صنيعه ؛ فكان يحفظ في داره كتبه ورسائله إلى أحد أمراء جنده ، وإلى المرتدين الذين بعث هؤلاء الأمراء لقتالهم ، وإلى من نذبهم من القواد والجند للسير إلى العراق والشام . وصنع أمراء الجند صنيعه ، فكانوا يحفظون في مضاربهم رسائلهم إلى الخليفة ، وأوامرهم إلى الجند ، وكتبهم إلى العدو ، وعقود الصلح التي تبرم بينهم وبين البلاد التي يظفرون بها ويصالحون أهلها . وكان الصديق يوزع ما يجيئه من النفي لا يبقى منه شيئاً . فلما اتسعت في أيام عمر رقعة المملكة ، وتضاعفت بذلك أعمال الدولة ، وعيّنت لجندها

مسلح فيما وراء حدودها ، وزاد المال الذي يرد إليها ، لم يكن بدُّ من مواجهة هذا الطور الجديد بوسائل تكفل دقة ضبط ذلك كله ضبطاً تقسّني معه الهيمنة على مصالح الدولة ، وإقامة العدل بين الناس ، ونسّاس به الأفطار المفتوحة سياسة حكيمة تُرضى أهلها عن الحكم الذي قام فيهم مقام حكم الأكاسرة وحكم القياصرة . وقد رأيت في هذا الفصل وفيما سبقه كيف تم ذلك كله في أناة وحزم وحكمة ورواية ، وكيف كان عمر يعالجه مسيراً أطوار الفتوح ، لا يسبقها ولا يستأخر عنها .

والحق أن المجهود الضخم الذي نظم الحكم الإسلامي ، في الفترة التي انقضت بين هجرة رسول الله وقيام الإمبراطورية العمرية ، جدير بكل إجلال وإكبار . فأين من هاته الإمبراطورية العظيمة ونظمها الجديد ما كان من تولى رسول الله أمور المدينة بعد هجرته إليها ومؤاخاته بين المسلمين فيها ! ! . نعم ! من هذه الحكومة المدينة التي تشرف على بلاد فارس والعراق والشام ومصر وشبه الجزيرة العربية كلها ، تلك الحكومة البدوية التي لم تعدد حدود المدينة قبل السفة السادسة للهجرة ، حين عقد رسول الله عهد الحديبية مع أهل مكة ! وهذا العهد هو الذي نزل فيه قوله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) .

وقد بدأ المسلمون بعد هذا العهد حياة جديدة تطوّر معها نظام الحكم شيئاً فشيئاً . ففي السنة السابعة بعث رسول الله إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى الإسلام ، فكان رد كسرى ثم وفاته مؤذنين بإسلام عامله الفارسي على اليمن ، وانضوائه إلى لواء النبي العربي ، وتولية الأمر في اليمن باسمه . وفي السنة الثامنة فتحت مكة تم فتحت الطائف وأسلم أهلها ، فبعث رسول الله عاملاً من لدنه إلى كل منها . وفي السنة التاسعة أقيمت وفود شبه الجزيرة إلى المدينة تعلن إسلامها وإسلام القبائل التي تنتمي إليها ، فبعث إليها رسول الله في السنة العاشرة عماله يفتّحون الناس في الدين ويحبون منهم الصدقات . وفي السنة الحادية عشرة قبض رسول الله ، وبويع أبو بكر ، فكان قضاؤه على الردة إيداناً بقيام نظام جديد في شبه الجزيرة . وفي السنة الثانية عشرة بدأ الصديق التمهيد للفتح وللإمبراطورية بغزو العراق

وغزو الشام . وفي السنة الثالثة عشرة قُبِضَ الصَّدِيقُ ، وبويع عمر ، فتم في عهده فتح العراق وفارس والشام ومصر وبرقة ، وأصبحت الإمبراطورية الإسلامية بذلك حقيقة واقعة . هذه أحداث ضخمة تمت في أقل من خمس عشرة سنة ، فغيّرت وجه التاريخ ووجه الحضارة الإنسانية وجهة جديدة ؛ وكان المجهود الذي أنماه جديراً بكل إجلال وإكبار . وفي هذه السنوات المكدودة كان نظام الحكم يتطور شيئاً فشيئاً من البداءة العريضة إلى الصورة المدنية التي رسمناها . على أن هذه الصورة ظلت في جوهرها عربية إسلامية ، أقامت النظام الجديد على أساس من الشورى ، ثم دفعته خطوات تقدّم بها أحدث المبادئ التي كانت معروفة في ذلك العصر . فقد كان عاهل الفرس وعاهل الروم يزعمان أنهما يستمدّان سلطانهما من الله . أما أمير المؤمنين فكان يستمد سلطانه ممن بايعوه . ولم يكن لسلطان العاهلين حدٌّ يحول بينهما وبين التصرفات المطلقة في حرية العباد وفي رقابهم بما يريان . أما أمير المؤمنين فكان مقيداً بما جاء في كتاب الله ، وبما جرت به سنة رسوله . ثم إن مشورة أولى الرأي كان لها وزن أى وزن . وكان أصحاب هذه المشورة يُبدونها أحراراً في حدود إيمانهم الصادق بالله ورسوله ، وبالرسالة التي أُلقي على العرب تبليغها للناس في أقطار الأرض كافة . وكانت حربتهم ، وحرية غيرهم من المسلمين ، تقوم على أساس من المساواة الصحيحة بينهم جميعاً أمام الله وما أمر به ونهى عنه ؛ فلا فضل لأمر على رجل من سواد الناس ، ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح . وإيمانهم بهذه المساواة وبهذه الحرية هو الذي سما بإخائهم إلى حيث يحب كل واحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه .

هذه هي المبادئ السامية التي تطور الحكم الإسلامي في ظلها فأعزّت المسلمين . واحترام عمر لهذه المبادئ ، وحرصه البالغ على دقة تطبيقها ، هما موضع مجده ونفخه . وحيثما كانت المبادئ التي يتعامل الناس على أساسها ويتطور نظام الحكم في ظلها سليمة محترمة بين الجميع ، وكان الحكم عادلاً نزيهاً ، كانا من أقوى العوامل لعظمة الأمة وجلال مجدها . ولذا بلغ المسلمون ما بلغوا في عهد عمر ، فقامت الإمبراطورية الإسلامية في عهده ثم قامت من بعده ، متينة الأساس شاحخة البناء .

البِفَصَلُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ

الحياة الاجتماعية في عهد عمر

ما أعظم التطور الذي تمَّ في بلاد العرب خلال السنوات الخمس عشرة التي تلت فتح مكة ! وعظمته تجعلك غير مبالي إذا لم تُسمَّ تطوراً ! إنما هي طفرة لم يعرف تاريخ العالم لها نظيراً ، ففي هذا الزمن الوجيز انتقل العرب من وثليتهم إلى الإسلام ، ومن تفرقهم قبائل وأمم متنافرة إلى وحدة متضامنة لها سياسة طامة وغرض مشترك ، ومن انكماشهم في حدود شبه الجزيرة إلى تسلطهم على الإمبراطورية الفسيحة التي جمعت لهم سلطان الفرس وسلطان الروم ، ومن شطَف البداوة الذي يسود أكثر مواطنهم إلى رخاء لم يألفوه من قبل . لا عجب وذلك شأنهم أن تتأثر حياتهم الاجتماعية بهذه الانتقالات السريعة وأن تتغير نظرتهم للحياة ومطالبهم فيها .

وذلك ما حدث بالفعل . فقد كان لكل من العوامل التي أدت إلى هذه الطفرة أثره في حياتهم أفراداً وجماعات . كان للعامل الديني أثره ، وللعامل السياسي أثره ، وللعامل الاقتصادي أثره . وكانت هذه الآثار متناقضة في بعض الأحيان ، لكنها تفاعلت واندجت بعضها في بعض ، فأدت إلى انتقال في الحياة الاجتماعية يُلَفِّتُ النظر ويدعو للتفكير فيما ترتب عليه من بعد في حياة الإسلام والمسلمين .

يجمل بنا لفقد مدى هذا التطور أن نرجع البصر إلى ما كان العرب عليه في حياتهم الاجتماعية قبل الإسلام . لقد كان أكثرهم أهل بادية ، وكان الأقلون أهل المدن والأمصار . ذلك لأن شبه الجزيرة لم تكن بها أسهار منتظمة الجريان ، ولم تكن أمطارها تهتن في فصول معينة من السنة هتناً مقارب القدر ، بل كانت الأمطار تنهمر سيولاً مخربة أحياناً ، وتكف فصولاً متعاقبة أحياناً أخرى ، فلم يكن تنظيم الزراعة ميسوراً إلا في بعض الأرجاء . من ثمَّ كانت المدن والأمصار إنما تقوم حيث تغزر مياه الينابيع ، ثم يظل ما وراء ذلك بادية يقبث بها المرعى حين ينزل الغيث ويجف حين يمسك . ولهذا كانت

بادية اليمن ، كغديرها من البوادي ، تشمل القسم الأكبر من أهل اليمن ، وإن كانت نسبة حضر اليمن إلى باديته تزيد على نسبة حضر نجد والحجاز وسائر بلاد العرب إلى بواديها . وأساس الاجتماع في البادية القبيلة . والقبيلة تتألف من أحياء يربط النسب وتربط القرابة بين الذين يتألف الحى منهم . وكل أهل في الحى يقيم في بيت من الشعر يسئل حملة كلما أرادت القبيلة الظعن تنتجع المرعى لإبلها والرزق لبنيها . وكان أكثر تنقل القبائل في الربيع والصيف ، حين يكثر العشب والكلأ حول يقاييع المياه الصغيرة في البادية . فإذا أقبل الشتاء وجفت للمرعى ، تحمّلوا إلى الحضر فأقاموا على مقربة منه ، يلتمسون عند أهله ، بالتعامل معهم أو الغارة عليهم ما يعيشون به عيش كفاف يرضيهم ؛ لأنه يكفل لهم الحرية التي كانت أعزّ عليهم من طيب الطعام ولبس الشفوف .

وكان لكل قبيلة شيخها ولكل حىّ زعيمه ، ولكل بيت ربه . ورب البيت هو الأب ، فله على كل من فيه سلطة مطلقة . وكان أعظم سلطانه على زوجه ؛ فقد كان مكان المرأة من زوجها مكان الخادم من سيده ، لا رأى لها معه ، ولا تستطع أن تردّ له كلمة أو تعصى له أمراً ؛ وإنما عملها أن تقوم بخدمة البيت ، وأن تزيد في نسل ربه . ولهذا كان النقم أهم أسباب الطلاق . وكان تعدد الزوجات لا حدّ له حتى يبلغ النسل غاية مداه . ذلك لأن العرب كانوا حريصين أشدّ الحرص على كثرة البنين ليقووا بهم على حماية القبيلة وحماية الأهل . وأنت تذكر قصة عبد المطلب بن هاشم جدّ النبي حين نذر إن وُلِدَ له عشر بنين ثم بلغوا معه حتى يذبحوه لِيَذْجَرْنَ أحدهم لله عند الكعبة ، وتذكر أذى نذرّه ، فافتدى عبد الله بمائة من الإبل .

وكان العرب يؤثرون الزواج من غير قبيلتهم ، لاعتقادهم أن النسل من مثل هذا الزواج أقوى وأزكى ، ولأن الزواج من بنات القبيلة كثيراً ما كان يؤدي إلى النزاع والشحناء . واعتقادهم هذا هو الذي كان يحملهم على إمساك سبيات الحرب ليذلن لهم ، كما كان أول ما يطلبونه دية قتيل فتاتين من بنات الحى الذي منه القاتل ، لا يزولون عنهما وإن نزلوا عن غيرهما من الإبل والشاء والأموال . مع هذا كان لابن العم أولوية

على غيره إذا خطب ابنة عمه ، فلا يستطيع أبوها أن يمسكها عنه مادفع المهر المتعارف في القبيلة ، وإن أغلى غيره مهرها أضعافاً مضاعفة .

كانت خطبة الشاب الفتاة إلى أهلها ، والتزوج منها بعد مهرها ، ونقلها معه إلى حيه بقبيلته ، هي الصورة المألوفة عند العرب . على أنهم كانوا بألفون صوراً غيرها من الزواج ؛ بقي بعضها بعد الإسلام ، وعقّ الإسلام على سائرها . من ذلك أن يتزوج رجل من امرأة فيذرهما في قومها ، فإذا سر بهن في تجارته أو رحلاته نزل عندها . وكان بعض النسوة يؤثرون البقاء في أهلن إذ كن ذوات مال وحسب ، فكن لا يرصن مفارقة ما لهن ومن يقومون على الاتجار فيه وتنميره . وكان الأبناء يبقون مع أولئك الأمهات حتى يشبون ، ولذلك كانوا ينسبون إليهن وإلى قبيلتهن . وذلك كان شأن سلمى بنت عمرو أحد بنى النجار من الخزرج أهل يثرب ؛ فقد كانت امرأة ذات شرف ومال يتجر لها فيه قومها . ومروهاشم بن عبد مناف يوماً ييثر طائداً من الشام ، فراها تطل على قومها ، فأعجبته فخطبها إلى نفسها فرضيته زوجاً ، على أن تكون عصمتها بيدها . وولدت له شيبه ، فأقام معها بين أخواله بنى النجار حتى مات أبوه ، ثم عاد به عمه المطلب إلى مكة مردفاً إياه على بعيره . فلما رأته قريش ظنوه عبداً اشتراه فقالوا : « عبد المطلب » ، فغلب عليه هذا الاسم ، ولم يدعه أحد من بعد باسمه « شيبه » .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا الزواج أصل الزواج المتعة الذي أبيح في صدر الإسلام إلى أن حرّمه عمر . ولا يزال زواج المتعة حلالاً عند الشيعة إلى اليوم .

وكان الزواج المؤقت صورة أخرى وكان للمرأة في هذا الزواج أن تفصم عروته إذا شاءت ، وحسبها لذلك أن تغير موقع الباب من خباثتها ليعلم صاحبها أنها لم تبق له زوجاً . ويذكر ابن بطوطه في رحلته أن مثل هذا الزواج كان باقياً في أحياء زبيد حين كان هو في بلاد اليمن .

ومما يذكره مؤرخو اليمن كذلك أن الملك كان مشاعاً بين أفراد الأسرة في عهد من العهود ، وأن المرأة كانت بعض هذا الملك للشاع ، فكانت زوجاً أو خلية لأفراد (عمر ج ٢ - ١٦٢)

الأسرة جميعاً . فإذا دخل أحدهم خباءها لوطئ ركز عصاه عند الباب ، فلا يفتحه عليه أحد ؛ ولكن مبيتها كان مع رب الأسرة دائماً . مع ذلك كان زنا هذه المرأة مع أجنبي جريمة عقابها الموت . وما يروى في ذلك أن ابنة أحد الأمراء كانت في أسرة متاعاً لأهلها ، وأنها أحبّت شاباً من غير أبناء هذه الأسرة ، فكانت كلما جاءها ركزت عصا عند الباب حتى لا يفجأها أحد متلبسة بجريمتها . واجتمع رجال الأسرة كلهم يوماً ، فرأوا العصا المركوزة عند الباب ، فعرفوا ما أنت الفاجرة فجزّوها به .

وقد يبدو هذا النوع من الزواج عجيباً ؛ وأعجب منه نكاح الاستبضاع ، ذلك حين كان الزوج يدع زوجته لغيره ، حتى إذا حملت ردّها ونسب حملها إليه . ولعلمهم لم يكونوا يلجئون لهذا المنكر إلا لثقم الرجل وحرصه على الولد . على أنه قد كان له في التبنّي مندوحة عن مثل هذا الأمر ؛ فقد كان العرب يميزون تبنّي البنين دون البنات ، وكانوا يجعلون للتبنّي مقام الابن في الانتساب إلى من تبنّاه وإلى قبيلته ، ويبلغون به أحياناً أن يجعلوا له حق الاشتراك في الميراث على سواء مع أبناء الرجل من صلبه . ومهما يكن من إنكارنا لهذا النكاح ، وإنكار الإسلام له وللتبنّي جميعاً ، فالثورخون يذكرونه على أنه بعض عادات العرب في الجاهلية .

ذكرنا هذه الصور من الزواج لما فيها من دلالة على امتهان المرأة عند العرب . والحق أن مكاتها كانت أدنى إلى مكانة الرقيق . وحسبك شاهداً على ذلك أن وارث رب البيت ، أباً كان أو أخاً أو ابناً ، كان من حقه أن يذهب إلى الأرملة فيلقى عليها رداءه ويمهرها فتصبح له زوجاً ، كما كان له أن يزوّجها من غيره إذا شاء ويقبض مهرها . ولم يكن للمرأة مفرّ من هذا المصير إلا إذا رجعت إلى أهلها قبله ؛ عند ذلك يرجع الأمر في زواجها إليها أو إلى وليها .

ولم يكن للمرأة رأى في قسم عروة الزواج إلا في زواج المتعة وهو الزواج المؤقت ، أما غيره فكانت عروة الزواج تنقسم بالخلع أو بالطلاق . وكان الخلع يتم باتفاق بين الزوج ووليّ الزوجة . ولم يكن الطلاق يقع إلا إذا ذكره الزوج ثلاث مرات توكيداً لمنيته فيه .

وكانت المرأة لاثرت ، أمّا كانت أو زوجاً أو بنتاً أو أختاً أو ذات رحم . ذلك لأن العرب كانوا يقولون : إنما يرث من طاعن بالرمح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة . أما البنون فكانوا يرثون حصصاً متساوية ، وكل ما للأكبر منهم من امتياز على إخوته أنه كان يدعى لاختيار النصيب الأول .

كان سلطان الرجل على زوجه مارأيت ، وكان سلطانه على بنيه عظيماً ، وعلى بناته أعظم . فقد كان الرجل في بعض القبائل يثد ابنته خوف العار أو المتربة ، فإذا وأدها لم يسأله أحد حساباً ولم يكن للبنت ولا لأُمها رأى في زواجها ، بل كان الرأى للأب وحده وكان عليه لذلك أن يحميها بعد أن تنقل إلى بيت زوجها ، في قبيلتها كان هذا البيت أو في قبيلة غيرها . فإذا أساء زوجها إليها أو طلقها ، رجعت إلى بيت أبيها وعاشت في كنفه ورعايته . أما الإبن فكان يختار من يخطبها ، ثم يحرص على أن ينال رضا أبيه عن خطبته . فإذا استقلَّ بعد زواجه ببيت كفّل لامرأته فيه معيشتها ، ضَعَفَ سلطانُ أبيه عليه ؛ وإذا بقي معها في بيت أبيه ، فلأبيه عليه سلطان مطلق .

هذه صورة موجزة من نظام الأسرة والأهل في البادية . وقد كانت في جملتها صورة لنظام الأسرة والأهل في المدن والأمصار العربية ؛ فقد كان أهل هذه المدن والأمصار قبائل كأهل البادية سواء ، وكان أكثرهم يمتون بأصلهم إلى البادية ، ثم هوت نفوسهم إلى حياة الحضر فركنوا إليه واستقروا به . ولملك وقد ألمت بها تجدد من آثارها ما لا يزال باقياً إلى اليوم في حياة البدو حيث كانوا ، وإن كان الإسلام قد عفى على الكثير منها . بل إنك لتجد بعض هذه الآثار في حياة من ينتسبون إلى العرب من أهل الحضر في مصر وفي غير مصر من البلاد التي تتكلم العربية . فكثيرون يحرمون بناتهم من الميراث ، وينظرون إليهن نظرة تجعل ما للرجال عليهن من درجة فسيح المدى يكاد يبلغ ما كان مألوفاً في البادية قبل الإسلام . وكثيرون لا يقيمون لرأى البنت ولا لرأى أمها وزناً في زواجها . ولا تزال البنت تأوى إلى بيت أبيها إذا مات عنها زوجها أو طُلِّقت أو أُسيئت معاملتها . وسلطة الأب على أبنائه الذين يقيمون معه لا تزال عظيمة ما كانوا غير قادرين على الكسب .

كان العرب من أهل البادية ومن أهل الحضر يتشابه عندهم نظام الأسرة والأهل لكنهم كانوا يختلفون اختلافاً كبيراً في أسباب العيش وما نسميه اليوم النظام الاقتصادي فأهل الحضر كانوا يعتمدون في عيشهم على التجارة على ما يزرعه لهم الفلاحون في الحدائق والكروم والمزارع المحيطة بهم والملوكة ملكاً خاصاً لهم ، وكان ربحهم من تجارتهم ومن زراعتهم غير قليل . وكان كثيرون منهم يُقرضون أموالهم لمن يريد أن يتجر فيها أو أن يثمرها لقاء فوائد فاحشة تضاعف ما أقرضوا في زمن قصير . هؤلاء جميعاً كانوا يعرفون من متّع الحياة وأنعمها ما لا يعرفه أهل البادية . كانوا يعرفون مجالس الشراب والغناء والميسر ويتوفرون عليها . وكانوا يجدون في إشباع شهواتهم ما يرضيهم عن الحياة ويزيدهم اطمئناناً لها . لكن ابن خلدون يبالغ إذ يقول عنهم إنهم : « قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من فنون الملاذ وعادات الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم ؛ فكان الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم ، لا يصدّم عن ذلك وازع الحشمة لما أخذتهم به عادات السوء من التظاهر بالقواحش قولاً وعملاً . وعلى الجملة فهم أهل غدر وخديعة ونقص عهد » . ولقد كانت لهم من غير شك فضائل ومزايا ، ولولا ذلك لبارت تجارتهم ، ولما استطاعوا مقاومة الطبيعة القاسية المحيطة بهم . لكنهم كانوا تجاراً أولاً حيلة ، وكانت الحيلة تدفعهم إلى بعض ما يروى عن ابن خلدون من نقائصهم ؛ فقد كانت أرباحهم من التجارة ومن الربا تيسر لهم الانغماس في الملذات ، والاستهانة بكثير من فضائل الخلق الكريم .

أما عيش البادية فكان قوامه انتجاع المرعى ، والانتفاع بلحوم الإبل وألبانها ، ولم يكن البدوي يملك لنفسه غير بيت الشعر الذي يُقيم فيه ، وما قد يفرس حوله من غلال وفاكهة . فقد كانت القاعدة أن الزرع لمن زرعه . على أن هذا الملك كان قليل الشأن ، فقد كان البدوي يعافون الزراعة ، ويرون الفلاحة دون ما يليق بهم . فأما ما كان يُحيط بمنزل القبيلة من المرعى فكان ملكاً مشتركاً للقبيلة ، وكذلك كان الكلاء الذي تُنبته

الصحراء في حى تلك المنازل . وكان للقبائل المتجاورة حق تبادل المرعى في مقابل . وكانت منازل القبائل محدودة بالعرف والاتفاق . فإذا أجذبت قبيلة فانتجعت المرعى بعيداً عن منازلها ، لم يَجْزُ لغيرها من القبائل أن يحل محلها فيها أو يتعرض لقتال أهلها وأصحابها . ونحن لذلك نستطيع أن نتعرف منازل أهل هذه القبائل إلى وقتنا الحاضر على الخرائط الجغرافية . على أن مثل هذا العدوان وما يجرّ إليه من قتال بين القبائل لم يكن نادراً ، بل كان مألوفاً في حياة الجاهلية . لذلك كان البدويّ محارباً بنشأته ، وكانت حياة القبائل في كثير من الأحيان حياة غزو وانتهاب ، فكانت الغارات وانتهاب الأسلاب والفرار بها إلى المضارب من مألوف أهل البادية . فإذا رجعت القبيلة من غزوها أقامت في مضاربها على حذرٍ تنتظر أن يُغير عليها غيرها ليثار لنفسه منها أو يسلب مالها مثلما سلبت هي غيرها ماله . وذلك قول بن خلدون في أهل البادية إنهم « أهل انتهاب وعبث يتهبون ما قدروا عليه من غير مناسبة وركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالفقر . ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبية التي بها المدافعة . فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختلّ عليه شأن عصبية فيكون فيها هلاكاً وهلاكهم » .

وطبيعيّ أن يزيد الخوف من النار والغارات تضامن القبيلة ، وأن يدفع رجالها لتعزيزه بذكريات الماضي وما كانت لأسلافهم فيه من بطولة وإقدام . وذلك هو السر في حرصهم على معرفة أنسابهم ؛ يفاخرون بها غيرهم ، ويقوون تضامنهم ، ويرتفعون إلى أسلاف اشتهروا بالشجاعة والكرم وحماية الجار وما إليها من صفات غرستها هذه الحياة فيهم ، وجعلتها بعض شمائلهم وسجاياهم . وكان حتماً على أبنائهم أن يقتدوا بهم في هذه الصفات فهي وحدها التي تجعل عيش البادية مستطاعاً فابن البادية معرض لغارة غيره عليه وعيش البادية عيش شظف يبلغ الفاقة أحياناً . فإذا لم يكن أهلها كراماً يؤون الضيف ، ويمحون الجار ، تمرّض كثيرون للملاك . وحياة البادية حياة مغالبة للطبيعة ومقاومة للمعتدين ؛ فإذا لم يكن أهلها شجعاناً ذوي حيلة وجَلَد ناءوا بعبء الحياة ، وإذا لم يكن لهم من الدعاية ما يجعل غيرهم يخشاهم تعرضوا للشر . ولذا كان أكثر شعرهم ونثرهم في الفخر والحجاسة وذكر الكرم ، والتحدث عن شتى الفضائل التي توجبها هذه الحياة وتدفع أهلها للحديث عنها .

لم يكن العرب يثأرون من المعتدين على مفازلهم فحسب ، بل كان الثأر للنفس والمال وللعرض وللإهانة ولكل ما يوجب الثأر نظاماً قائماً بينهم . وكانت القبيلة ترى واجباً عليها أن تثأر لكل واحد من بنينا . فإذا قُتل رجل منهم حمل أبناؤها كلهم السلاح حين تدوى بينهم صيحة أهل المقتول : « يا ثارات العرب ! » وكان الأمر كذلك بخاصة إذا كان القاتل من قبيلة أخرى . فإذا كان منزل القاتل قريباً أحرق ، وقتلت إبله وأغنامه ، وأبيحت كل حرماته ثلاثة أيام كاملة . وفي هذه الحال لم يكن لقبيلة القاتل أن تؤاخذ أولياء الدم وقبيلتهم بما صنعوا . على أن القاتل كثيراً ما كان يلجأ بعد ارتكاب جريمته إلى من يُبهره ويستطيع منعه ؛ فإذا استجار وأجير وجبت عليه الدية . وقد جرت العادة في الدية بأن يطلب أصحاب الثأر من أهل القاتل بنات وإبلًا وأموالاً ، وأن يبدأ أهل القاتل بالقبول ، ثم تجرى مساومات ينزل صاحب الثأر على أثرها عن الكثير مما طلبه . لكنه لم يكن ينزل أبداً عن أن تكون في الدية فتاتان من حى القاتل ؛ يأخذها لنفسه ، أو يهبها لمن يشاء .

فأما الثأر للعرض وللإهانة فكان يؤدُّ أغلب الأمر إلى قتال بين القبائل يطول أمده سنين متعاقبة . فإذا كانت القبيلة الطالبة للثأر أضعف من أن تثأر لنفسها ، عرضت على أحياء العرب مالحمها من هضم حقوقها وعدوان على كرامتها ، واستغذت غيرها من القبائل المجاورة أو المخالفة لها لتنهض معها في ثأرها . والمخالفات لهذا الغرض كانت مألوفة . ولملك تذكر حلف الفضول الذي اشترك فيه محمد قبل بعثته ؛ إذ تعاهدت قبائل مكة وتعاهدت ليكوئن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه . وكانت غزوة الأحزاب للمدينة بعد هجرة الرسول إليها نتيجة التحالف بين يهود المدينة وقبائل مكة وغيرها من قبائل العرب . ومثل هذه المخالفات كانت كثيرة في الجاهلية . وأخبارها لذلك مستفيضة في كتب التاريخ وكتب الأدب .

من شأن حياة الثأر والغزو والغامرة أن تدعو إلى التفاؤل وإلى التطيُّر يتفاءل الظافر إذا أدى إلى ظفره أمر لم يكن في حسبان ، ويتطيَّر المقهور لمثل هذا السبب . والعرب كانوا من أكثر الأمم تفاؤلاً وتطيُّراً . ولم يكن ذلك شأنهم في أمر القتال وحده ،

بل كان كذلك في كل شؤون الحياة ، وإن بعض المؤرخين لينسبون تسمية العرب بأبناءهم بأسماء الحيوان إلى تطهيرهم وتقاؤلهم . فيذكرون أن أحدهم كان إذا أنجب أبناء فأتوا ثم ولد له ولد ، أطلق عليه اسم حيوان كثعلب أو ثور أو كلب أو ذئب أو فهد أو أسد ويذكر هؤلاء المؤرخون أن نسبة كثير من القبائل إلى أسماء الحيوان ترجع إلى أن جدّها الأعلى أطلق عليه اسم هذا الحيوان تحرزاً من الموت . فإذا صح هذا التعليل وجب إطلاقه على غير العرب أيضاً ؛ فتسمية الناس بأسماء الحيوان أمر حادث في الأمم كلها . ونسبة الأسر إلى الثعلب أو الذئب أو غيرها من الحيوان بعض ما نجده عند الإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم . وقد يكون مرجعه إلى تطهيرهم وتقاؤلهم كمرجع مثله عند العرب .

كانت عبادة الأصنام والاستقسام عندها بالقداح مما زاد في تطهير العرب وتقاؤلهم . فقد كان أحدهم إذا أراد أمراً جاء بأزلام الاستخارة ، وهي قطع من خشب أو حجر كتّبت على أحدها « أمر » ، وعلى الثاني « ناه » وترك الثالث غفلاً ، ثم خلطها في حصى صنم كهتل ، وأخرج منها واحداً ، فإذا خرج الأمر أقدم على ما عزم وإذا خرج الناهى أحجم ، وإذا خرج العقل استأنف الخلط والاستقسام . وكان اعتقادهم أن الصنم الذي يعبدونه ويستقسمون عنده هو الذي يخرج الأزلام على النحو الذي تخرج به ، ولذلك كانوا يطعمونها على أنها آية آلهتهم وأمرها .

وكان لكل قبيلة ، بل لأهل كل دار ، صنم يعبدونه . فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع أن يتمسح به ، وإذا قديم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل داره أن يتمسح به أيضاً . ويذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام أن عبادة الأوثان والحجارة ترجع إلى « أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصيانة بمكة . فحينما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ... ثم سأل ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحَبوا : فعبدوا الأوثان » . وكذلك اتخذت القبائل الأصنام فأتخذت هذيل بن مدركة سَوَاعَا بَارِضَ يَنْبُع ، واتخذت كَلْبٌ وَدَّاءَ بدوومة الجندل ، واتخذت همدان ومن والها من أرض اليمن يعوق وكان بقرية يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين بسير الإبل مما يلي مكة . واتخذت خيبر نِسْرًا فعبدوه بَارِضَ يقال لها بلنخ ،

واتخذت مذبح وأهل جُرَش يَفُوث . . وهذه الأصنام هي التي نزل فيها قوله تعالى :
(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ
أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ^(١)) .

وكانت مَنَافَءُ من أقدم أصنام العرب . وكانت منصوبة بقَدِيد بين مكة والمدينة ،
وكانت العرب جميعاً تعظمها وتذبح حولها . وكانت اللات صنم الطائف ، وكانت صخره
مربعة بنى عليها سدنتها من ثَقِيف بناء زاد في إعظامها . أما العُزَّى فكانت في بيت
براد من مخلة ، ويقال إنهم كانوا يسمعون فيه الصوت ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ،
وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح . وكانت قريش تقول عن هذه
الأصنام الثلاثة : إنهن بنات الله تعالى وإنهن يشفعن إليه . وذلك قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ
اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذَا قَسَمَ
ضِيْبَى . إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ^(٢)) .
وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة ، وكان أعظمها عندهم هُبَل . وكان
من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ؛ ولذلك جعلت له قريش يداً
من ذهب . وكان إساف وناثلة صنمين عند الصفا والمروة . هذا إلى أوئان أخرى ذكر
ابن الكلبي أكثرها في كتاب الأصنام ، وذكر سائرهما في تاج العروس وفي مروج
الذهب وفي غيرهما من كتب المؤرخين .

ولم يكن العرب يُسكرون وجود الله حين يعبدون الأصنام ، بل كانوا يُشركونها معه
جل شأنه ويتخذونها إليه زُلْفَى ؛ ولهذا كانوا يذكرون الله في تلبيتهم حين حجهم الكعبة
ويذكرون الأصنام على أنها شركاؤه . فكانت بعض القبائل تقول : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ »
لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هولاك ، تملكه وما ملك . وكانت قريش تطوف بالكعبة
وتقول : « واللَّات والعُزَّى ، ومَنَاةُ الثَّالِثَةُ الْأُخْرَى ، فإِنَّهُنَّ الْغَرَانِيقُ الْعُلَا ، وَإِنْ شَفَاعَتُهُنَّ
لَتَرْجَى ! » . وفي ذلك يقول الله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .
هذه صورة مجملة من عقائد العرب وعاداتهم في حياتهم الاجتماعية قبل الإسلام .

(١) آية ٢٣ وما بعدها ، سورة نوح .

(٢) آية ١٩ وما بعدها ، سورة النجم .

ومن اليسير أن تدرك ما قضى عليه الإسلام منها . والشرك هو بطبيعة الحال أول ما تحطّم في النفس العربية أثره . فقد سمع العرب من آيات الوحي فيه ما جعلهم بعد إسلامهم يذكرونه أشدّ إنكار . سمعوا قوله تعالى : (وَجَعَلُوا اللَّهَ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ^(١)) . وقوله : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ^(٢)) . وقوله : (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ^(٣)) . وقوله : (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ^(٤)) . وقوله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ، بَلْ إِنْ يَدْعُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ^(٥)) . وقوله : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ^(٦)) . وقوله : (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُواهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٧)) . سمع العرب هذه الآيات وسمعوا غيرها عشرات من مثلها ، فحجت كل أثر للشرك في نفوسهم . ولذلك رأينا الذين ارتدوا والذين تنبَّهوا حين وفاة النبي ، لا يُشرك أحد منهم بالله ، وإنما يزعم كل متنبئ أنه نبي لقومه ، وأن محمداً كان نبياً لقومه . فلما قضى على الرّدّة آمن العرب كلهم بأنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

كان لهذا القضاء على الشرك أثر عميق في النفس العربية ، وفي الحياة الاجتماعية العربية . لم يبق لمسلم وليٌّ من دون الله ، بل أصبح ولاؤهم جميعاً له جلّ شأنه ولم يبق لمسلم أن يستقسم بالأزلام أو أن يستخير الأصنام ، وإنما يستخير الله وحده . عليه يعتمد ،

(١) س ٣٠٢ . ١٤ (٢) س ٢٢٢ . ٧٣٢ (٣) س ٧ . ١٩٧٢ و ١٩٨ (٤) س ١٨ . ١٠٢٢

(٥) س ٣٥ . ٤٠٢ (٦) س ٩ . ١١٣٠ (٧) س ٩ . ٥٢٠

وإياه يستعين ، وإليه يركن ، وهو الذي يهديه سبيله . بذلك تحرر العقل العربي وتحرر الضمير العربي من رق الوثنية ، وأصبح هذا العقل وهذا الضمير هما اللذان توجهان صاحبهما فيما يعزم القيام به أو الإحجام عنه ، وبذلك أصبحت دون سواهما وساطة المرء إلى ربه ، ولذلك لم يبق للتفاؤل ولا للتطير موضع ، ولم يبق لسوانح الطير ولا لبوارحها أثر في إرادة الإنسان ، ولم يبق لأحد أن يقرأ في النجوم مصائر الأفراد والأمم ؛ وإنما يجري كل شيء في الكون وفق سُنَّة الله . ولن تجد لسنة الله تحويلا ولا تبديلا .

تحرر العقل العربي من رق الوثنية ، وآمن بالله خالق كل شيء ، وتحرر بذلك من رق الوهم والعبودية لكثير من الشعائر التي فرضتها عليه الجاهلية ، فافتتح للنظر فيما جاء من عند الله وتبها للأخذ به . وكان لهذا التحرر أثره العظيم في الحياة الاجتماعية ، كما كان له أثره العظيم في الحياة الدينية .

وكان أعظم أثره في الحياة الاجتماعية أن تغيرت نظرة الرجل للمرأة ؛ فقد سوى الوحي بين الجنسين ووجه القول للمؤمنين والمؤمنات ، وللشركيين والمشركات ، وتحدث عن النساء في رفق وإكرام ، وجعل لهن مثل الذي عليهن بالمعروف . قال تعالى : (أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ^(١)) . وقال : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ^(٢)) . وقال : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٣)) . وقال : (وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ^(٤)) . وقال : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ أَرْحَمَةٍ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ^(٥)) . كانت هذه الآيات والكثير من مثلها نعمة جديدة على السمع الجاهل . المرأة والرجل متساويان أمام الله ، تُجْزَى

(١) آية ١٩٥ سورة آل عمران (٢) آية ١٢٤ سورة النساء (٣) آية ٩٧ سورة النحل (٤) آية ٦ سورة الفتح (٥) آية ٢٣ وما بعدها سورة الإسراء .

كما يُحْزَى ، وتثاب كما يثاب . هذا أمر لم يسمع به العرب فيما بينهم ، ولم يسمعو بشيء من مثله عند جيرانهم من الفرس والروم . لكنه مع ذلك أمر هذا الدين الجديد الذي أوحى إلى النبي العربي ، وقد أوجب على كل مسلم أن يؤمن به أو يتبعه .

وكان لهذا الأمر أثره في صلات ما بين الزوج وزوجه ، والأب وابنه ، والأخ وأخيه . لم تبق الزوج مقام الخادم أو الرقيق ، بل أصبحت شريكة زوجها في الحياة ، لها على زوجها ما للشريك من حق على شريكه . فإله تعالى يقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً^(١)) . ولم يبق لرجل أن يُكره فئاته ، أى أمته ، على أن تتجر في ذات نفسها ليكسب المال ، وهو جل شأنه يقول : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا لِنَبَاتِكُمْ أَعْرَضَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا^(٢)) . ولم يبق لرجل أن يضيق ذرعاً بابنته أو أن يشدها خوف العار أو التربة . والقرآن ينكر ذلك في قوله تعالى : (وَلَا تَقْبَلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ^(٣)) ، وفي قوله تبارك وتعالى : (أَمْ اتَّخَذْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ^(٤)) . ويقسم بالمودة فيقول : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ^(٥)) . هذه الثورة على العادات الموروثة جديدة بأن تؤدي إلى انقلاب اجتماعي في أساس الحياة العربية ينتظم البادية والحضر جميعاً . وهى ثورة نزل بها الوحي على رسول الله ، فهى أمر الله لا مرد له ، ولا مفر من النزول على حكمه .

ولا ريب أن هذه الثورة كانت أعنف فعلاً في نفوس العرب من الثورة العقلية التي انتهت إلى تحطيم الأصنام ، ونفى الشرك ، وتوحيد الله . فقلوبنا وعقولنا تسرع إلى الحرية تستضيء بنورها ، متى حطمت من حولها الأغلال التي تقيدها . والأمر كذلك ما كان مقصوداً على تفكيرنا وعلى عقائدنا الذاتية ؛ فأما إذا امتد الأمر إلى سلطاننا في الحياة وصلاتنا بغيرنا فلشد ما نتردد في الإذعان له والتسليم به . وإذا سلمت عقولنا حاولنا مع

(١) س ٣٠ آ ٢١ (٢) س ٢٤ آ ٣٣ (٣) آية ١٥١ سورة الأنعام (٤) آية ١٦ وما بعدها سورة الزخرف (٥) آية ٨ وما بعدها سورة التكاوير .

ذلك أن نستبقى سلطاننا أو نسترد ما ضاع أو نقص منه ؛ لأن شهواتنا تمحلنا على ذلك نحملها وتدفعنا إليه دفعاً . ومهما يَسْمُ العقل على الشهوة ، ومهما يستطع التحرر لإدراك المعاني العليا ، فللغريزة التي تستند إليها الشهوة حكمها . ولا أدل على ذلك فيما نحن بصدد من حديث لعمر بن الخطاب نفسه . روى مسلم بإسناده أن عمر قال : « والله إن كنا في الجاهلية لا نَعُدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا في أمر آتمة إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ فقلت لها : ومالك أنت ولما هاهنا ، وما تسكُفك في أمر أريده ؟ فقالت لي : محبباً لك يا ابن الخطاب ! ما تريد أن تُراجِعَ أنت ، وإن ابتكت لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظَلَّ يومه غضبان ! قال عمر : فأخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يا بُنَيَّة ، إنك لتُراجِمين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظَلَّ يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لتراجعها ! فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بُنَيَّة لا يفرئك هذه التي قد أعجبها حسنُها وحُبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ! ثم خرجت حتى أدخلت على أم سلمة لقرايتي منها فكلمتها ، فقالت لي أم سلمة : محبباً لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال عمر : فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها » .

جرى هذا الحديث بين عمر وحفصة وأم سلمة في السنة التاسعة من الهجرة ، بعد أن أنزل الله تعالى في النساء ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فإذا كان ذلك شأن عمر ، وهو من هو قريباً من رسول الله وامتنالاً لتعاليمه ، فما بالك بغيره من العرب المفتشرين في شتى الأرجاء من شبه الجزيرة ! لاشك أنه كان بينهم وبين أزواجهم وبناتهم وذوي قراباتهم مثل الذي كان بين عمر وابنته وأم سلمة أو أعنف منه . ولا شك أن النساء قد أصررن على ما فرض الله لهن من حق لم يكن للرجال أن ينكروه عليهن أو يناقشوهن فيه وقد آمنوا بالله وكتابه ورسوله .

إذا كان هذا أثر الانقلاب الذي أحدثته مساواة المرأة بالرجل في المركز الإنساني ، فأحر بالأمم أن يكون أشدَّ عنفاً حين قرر الإسلام للمرأة حق الإرث الذي أنكرته

عليها الجاهلية ، وحين حدّ الإسلام ما كان مطلقاً من تعدد الزوجات فقصره على أربع ، ثم آثر الزوجة الواحدة إذا خيف عدم العدل . فالساواة في المرتبة الإنسانية وفي مشوبة المرأة وجزائها في الآخرة أدنى إلى الاعتبار المعنوية . ولاضير على الرجل أن تكون بينه وبين زوجه مودة ورحمة ، مودة من جانبها ، ورحمة من جانبه . ولاضير عليه أن يرضى الله الإنسان بالديه : (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ إِلَى التَّصْيِيرِ^(١)) . فأما أن ترث المرأة فتشارك الرجل فيما ترك المورث ، والرجل هو الذي يطاعن بالرمح ويحمي الحوزة ويحوز الغنيمة ، فذلك يمس ما يسميه بفضهم اليوم « الحقوق المكتسبة » مساساً مباشراً ، ويمس المنافع المادية في صميمها . والأكثر من الناس أشدّ تعلقاً بالمنافع المادية وحرصاً عليها منهم على كل ما سواها .

ومثل هذا كان الشأن في قصر تعدد الزوجات على أربع ، وإيثار الزوجة الواحدة في قوله تعالى : (فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْمَلُوا^(٢)) . فإقراره هذه الآية يتفق مع المركز الإنساني الذي جعله القرآن للمرأة . لكنه مع ذلك حدّ بما كان مباحاً للعرب في الجاهلية . وقد قرره الإسلام فلم يكن مفرئ لمن أسلم من اتّباعه . وإنما هوّن على العرب أن يذعنوا لما نزل من هذه الأحكام في شأن المرأة حين رأوه تعالى يقول : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ^(٣)) ، ويقول : (وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ يَمْنُنَ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى^(٤)) ، وحين جعل للذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث ، فهذه الآيات تفتح باباً لمن استعزّ بآرائه القديمة ، وإن لم تفتح هذا الباب إلا قليلاً ، ولم تفتحها إلا لأنها ألقت على الرجل أعباء الإنفاق على أسرته والدفاع عن دينه ووطنه جهاداً في سبيل الله . كان ما نزل في النساء من هذه الآيات وأمثالها جديراً بأن يؤدي إلى انقلاب

(١) آية ١٤ سورة لقان (٢) س ٣٤٤ (٣) ٣٤٤ (٤) س ٢٨٢

اجتماعى خطير في الحياة العربية . فالمرأة أساس الأسرة ، والأسرة أساس القبيلة والأمة والاجتماع كله . واحترام الرجل للمرأة واشتراكما معا فيما تؤهله لها طبيعتها من شؤون الحياة ، يدفع إلى الحياة روحاً وقوة لا سبيل إليهما إذا هي عوملت معاملة الرقيق وأُقصيت عن كل شركة في شؤون الحياة . هذا إلى أن إكرام المرأة يسمو بالفن الجميل إلى ذرى يقصر دونها إذا هي حُبست في حدود أنها متاع الرجل وخادم بيته . ولعلك تلاحظ ذلك في الشعر الجاهلي ؛ فأكثر ما فيه عن المرأة يضعها موضع المتاع . ولا يجعل لها مكاناً من قلب الرجل أو من تقديره إلا في حدود هذا المتاع . والمعلقات السبع تشهد بهذا وتؤيده . وأنت تذكر أن نساء قريش خرجن مع مقاتليها للثأر من هزيمة بدر ، فلما التقوا هم والمسلمون في أحدٍ ، كنَّ يحرضن الرجال فيقلن :

إِنْ تَقْبِلُوا نُمَاتِيقَ وَنَفَرِشَ الْمَمَارِقِ
أَوْ تَذْبِرُوا نَفَارِقَ فِرَاقٍ غَيْرِ وَامِقِ

فلم يكن الظفر بالعدو ، إعزازاً للوطن وثأراً للكرامة ، جزاءً كافياً لأبطال قريش في نظر نساها ، بل كان عناقتهن الرجال وفرشهن الممارق لهم جزاء أوفى لمن أقبل ، وكان فراقهن الرجال عقاباً أنكى لمن أدبر ونكص على عقبيه . ولو أن علاقة الرجل والمرأة لم تُقصر على المتاع كشأنها في الجاهلية ، بل قامت على المودة والرحمة على ما جاء في القرآن ، لكان لنسوة قريش غير هذا الرأي في مثوبة أبطالها وفي عقابهم .

لم يكن الانقلاب الاقتصادي الذي جاء به القرآن دون الانقلاب الاجتماعي أثراً . فقد كان للأغنياء من التجّار والمرايين ومن إليهم مكان في الجاهلية يتطلع إليه الفقراء والعمال بعين الإكبار ، وإن لم يحملهم الإكبار على النزول عن حريتهم وأنفتهم . وكان الأغنياء لذلك إذا أعطوا فقيراً أعطوه مُشفقين ، ثم مثوا بإشفاقهم منهم بعطائهم ، واتخذوا العطاء وسيلة ترتفع بها مكانتهم بين الناس فوق رفعتها .

قاوم الإسلام هذه النزعة الأنانية لأول ما نزل الوحي . قاومها بتقرير مبدأ الإخاء والمساواة بين الناس ، وبالتثريب على الأغنياء الذين يتبعون صدقاتهم بالتمنّ والأذى ، وبتقرير الزكاة فريضة على الأغنياء للفقراء . قال تعالى : (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ

مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ^(١)) وقال: (إِنْ تُبْذِرُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْوِيهَا لِلْفُقَرَاءِ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ ^(٢)) . وليست الصدقة فضلا للغنى على الفقير ، بل هي حق في مال الغنى للفقير . وذلك قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَفَّقِينَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ^(٣)) . وهي حق للفقير يساوي حق الأبوين في مال ابنهما إذا احتاجا . وذلك قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَفَقَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ^(٤)) هذا توجيه جديد من اليسير عليك أن تقيم على أساسه مذهبا كاملا للاشتراكية الإسلامية . وهو توجيه لم يكن مألوفا بين العرب بمثل هذه القوة . فالناس في كل العصور يتحدثون عن الإحسان وعن العطاء على أنهما فضل ممن أعطى ، وليس أحقا لمن أخذ . أما القرآن فيعتبرهما حقاً هو وحده الذي يطهر مال الغنى مما يخالطه من الإثم . لذا كان لهذه النعمة أثرها القوي في انتشار الإسلام أول نزوله ، وكان لها أثرها من بعد في تطور الجماعة الإسلامية هذا التطور السريع الذي رأيت .

أما الربا فقد حاربه الإسلام حرباً عواناً . وَحَسْبُكَ لِقَعْدَرُ ذَلِكَ أَنْ تَذَكَرَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ^(٥)) . وقوله : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْأَسْرِ ^(٦)) . بل لقد اعتبر القرآن الربا أكلاً لأموال الناس بالباطل في قوله تعالى : (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ^(٧)) . أما وقد كان الربا مشاعاً في الجاهلية فخرمه الله ، فقد وجب ألا يأخذ أحد ما تعاقده عليه منهم . وذلك قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَالَوْنَ أَنْتُمْ وَأَخَذْتُمْ مِنْهُ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ

(١) س ٢٦٣ آ ٢ ، ٢٦٤ ، (٢) س ٢٧١ آ ٢ ، (٣) س ٦٠ آ ٩ ، (٤) س ٢١٥ آ ٢

(٥) س ٢٧٦ آ ٢ ، (٦) س ٢٧٥ آ ٢ ، (٧) س ١٦١ آ ٤ .

وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتِغُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ^(١) .
 كان لهذا التنظيم الاقتصادي أثره في الحياة الاجتماعية . وكان هذا الأثر قوياً عميقاً .
 زاده عمقاً وقوة أنه لقي التأييد الحار من جانب الكتلة الكبرى من المسلمين . ولذا ظل
 المسلمون ينكرون الربا بكل ما أوتوا من قوة إلى هذا العصر الأخير .

اقترن الانقلاب الديني والانقلاب الاجتماعي في بلاد العرب بالانقلاب السياسي
 الذي أدى إلى وحدتها بعد شتات ، وبالتوسع في الفتح توسعاً رأينا أية مدى بلغ في عهد
 عمر . وقد تضافرت هذه العوامل فنقلت العرب ، في حياتهم العمرانية وفي حياتهم الاقتصادية ،
 نقلة لم تدّر لهم ولا لأبائهم بخاطر . فقد انتقل الألوف وعشرات الألوف من أهل البادية
 إلى حضر العراق وحضر الشام ، وأقام الكثيرون منهم بين الرياض والغياض في دمشق
 وحِصص وقنسرين والمدائن والكوفة والبصرة وفي غير هذه من المدن الزاهرة العامرة .
 وقد رأوا في الإسكندرية وفي منف وطيبة وفي غيرها من بلاد مصر عمارة وصناعة وريفاً
 خصباً وظلاً وارقاً . وقد اجتمع لهم من النى والعطاء رزق حسن يجنبهم شظف العيش
 بل يعوّد لهم لينه ويسر لهم مُتّعته . ثم إنهم رأوا في بنات الأصفر من الروم والشام وفي
 عذارى مصر وطلاب العراق جمالاً غير الذى ألفوا في بدوهم وحضرهم ، جمال الحياة الناعمة
 اللينة ، كما وجد بعضهم في نبذ هذه البلاد المفتوحة طعماً سائغاً وفعلاً رقيقاً . وإلى جانب
 هذا كله كانت تقوم آثار الفن بارعة رائعة في معابد الروم ومقابرهم وما فيها من تماثيل
 وفنون أبدع صناعها في تصويرها أى أبداع ، وفي كنائس المسيحيين وأديارهم وما فيها
 من صور تكاد تنطق بما أراد مصوروها أن تنطق به . هذا إلى ما كانت مدرسة
 الإسكندرية تُذيعه في الناس من مبادئ وآراء ، ومن علوم وفنون ، وما كان يذيعه
 الروم والفرس في دمشق والمدائن من تعاليم وآداب أثمرتها حضارات نصبت على
 القرون ثم آن للعقاء أن يجرّ عليها ذيله .

ترى أى أثر أدّى إليه اجتماع هذه العوامل الكثيرة في حياة العرب الاجتماعية

لذلك العهد ؟ .

تقتضينا الإجابة على هذا السؤال أن نضم إلى هذه العوامل عاملاً وجَّهها جميعاً ، هذا العامل هو عمر نفسه ؛ فقد كان لاجتهاده في الفقه والسياسة والاقتصاد والاجتماع أثره أعظم الأثر في الجماعة الإسلامية كلها وفي العرب جميعاً ، سواء من أقام منهم في شبه الجزيرة ومن استوطن البلاد المفتوحة . وسنفصل شيئاً من هذا الاجتهاد في الفصل التالي . وهذا الاجتهاد هو الذي عصم الحياة الاجتماعية في عهده من التدهور ، وهو الذي حفظ للروح الإسلامي سؤدده على نفوس المسلمين حينما كانوا . وهذا فضل لعمر عظيم يضاف إلى سيرته العادلة في الحكم ، وإلى اضطلاع به بأعبائه في قوة وبراعة .

فقد أدرك بإلمامه أن النفس الإنسانية ، حين تندفع إلى السمو الروحي ، معرضة دائماً لجواذب الأهواء تميل بها إلى المستوى الذي يلائم طباعها وسلائقها ؛ كطائرة ترتفع محلقة في الجو ، وهي معرضة أبدأ للانحدار ، بحكم جاذبية الأرض ، إذا ضمنت القوة التي رفعتها في أجواز الأثير ، فإذا لم يصرف أمير المؤمنين عنايته لمقاومة أسباب الضعف في نفسه أولاً ليكون الأسوة لغيره ، ولمقاومة أسباب الضعف في نفوس الناس جميعاً ، خيف أن تنحرف المبادئ التي أدت إلى السمو والقوة عن وجهتها ، وأن تغلب عليها السلائق والأهواء الدنيا ، وأن يعود الناس سيرتهم الأولى مصورة في ظاهر جديد يظن الناظر إليه أنه يتفق مع مبادئ الإسلام وتعاليمه . وقد رأيت كيف بلغ عمر من القسوة بنفسه ، كما يحس إحساس أفقر المسلمين وأضعفهم ، حتى أشفق أصحابه في حين من الأحيان على حياته . وقد جعلته قسوته بنفسه في حلٍّ من أن يقسو بكل من يراه مخالفاً لموجب العدل والتقوى ، أو منحرفاً عن سبيل النزاهة وأخلق القويم . بذلك استطاع أن يحاسب عماله الحساب العسير ، وأن يعزل منهم من رأى فيه اعوجاجاً ، مع المحافظة على هيبة المحسنين . منهم وتقوية سلطانهم ، وأن يجتهد في بعض الحدود والأحكام اجتهاداً لم يعرفه الناس في عهد أبي بكر ولا في حياة الرسول ، وأن يستن في الاقتصاد والاجتماع سنناً صارمة رآها تكفل لمبادئ الدين القيم أن تظل في صفائها ونقاها .

أدَّى مثل عمر ، وأدَّت سياسته في الاقتصاد والاجتماع ، إلى بقاء ماركب في النفس العربية من خلال الإقدام والفرز سليماً قوياً ؛ فهو لم يسمح للعرب المحاربين باستغلال

الأرض في العراق والشام ومصر ، بل أبقاهم في مساحاتهم جنود جهاد وفتح ، فكانت الإمبراطورية المترامية الأطراف نتيجة محتومة لهذه السياسة . وأدى اجتهد عمر إلى يقظة النشاط العقلي عند العرب في ميادين لم يكونوا يألفون الخوض فيها . فقد أغرى تدفق المال الناس بالإقبال على الثروة والحرص على جمعها وتثميرها ، فحبذ بعضهم هذا الاتجاه ورآه خيراً لرخاء المسلمين ، وعابه بعضهم ورآه مخالفاً لمبادئ الدعوة الإسلامية ، مستندين إلى قوله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيِّفٍ . أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى . إِنَّ إِلَى رَبِّكَ أُلُجُوعٌ ^(١)) . ورأى المسلمون في البلاد المفتوحة آثاراً من الفن بعضها تماثيل تُشبه الأصنام التي كانت عند الكعبة في الجاهلية فلم يحطموها ، بل لم ير سعد بن أبي وقاص بأساً بأن يتخذ إيوان كسرى بالمدائن مصلى ، وأن يترك ما به من تماثيل قائماً على أنه بعض الزخرف الذي اذنان به القصر وازدانت به أبهاؤه . وهو إنما أبقاها لأنه لم يكن أحد يعبدها . وكان معظم هذا النشاط متجهاً إلى ما لم ينزل فيه قرآن ولم تجرب به سنة من رسول الله ، فكان اجتهد الرأي فيه مما عني العرب به . على أن هذه العناية لم تتعدّ المنافع العاجلة ، فلم تخرج بالعرب عن طبيعتهم ، ولم تبلغ بهم إلى إقامة مذاهب في الفلسفة أو الاقتصاد أو الاجتماع ، قوامها المنطق الذي يتعمق الأشياء كما فعل اليونان ، ولا إلى إقامة مذاهب في الأدب على اختلاف صوره ، يتطور معها الشعر إلى الملحمة ، والنثر إلى القصة الطويلة كما فعل الفرس .

ومن الشطط أن يطلب إنسان إلى أمة العرب لذلك العهد أن تنتقل في فلسفة التوحيد إلى ما فصله الفزالي والغاربي وابن رشد وغيرهم من بعد . وحسبها أنها آمنت بالعقائد والقواعد التي جاء بها الرسول من عند الله . وأنها اتخذت هذه العقائد والقواعد أساساً لعباداتها ونظم حياتها ومعاملاتها . ثم حسبها بعد ذلك نفاقاً أن أقامت القواعد من الإمبراطورية الإسلامية ، فساد أبناء هذه الإمبراطورية رويداً رويداً مبادئ الحضارة التي وجهت الإنسانية قروناً طويلة من بعد . فإذا ذكرت أن هذا الانتقال لم يكن بالأمر الهين ، وذكرت جهاد رسول الله وأصحابه في سبيله ، وقدّرت حال العرب في ذلك الطور

من حياة الإنسانية ، وجب عليك أن تنظر في كثير من التسامح إلى ما بقى بين العرب من عاداتهم القديمة التي لم يجرمها الإسلام ، وإلى ما اندفعوا إليه بحكم التطور الذي أقام الإمبراطورية ، بعد أن أفاء عليهم من الأموال والنعيم ما لم يكن لهم من قبل به عهد .

والواقع أن العرب لم يكونوا في ذلك طرازاً وحدهم ، ولم يخرجوا فيه على مألوف الجماعة الإنسانية في كل العصور . فما أكثر ما في التاريخ من شواهد على أن الثورات لا تنير من ميول البشر وعاداتهم ، بقدر ما تنير من مساح تفكيرهم ونظم جماعتهم ! فهم ينتهون إلى التسليم برأى من الآراء أو بمبدأ من المبادئ ، وإلى الإيمان به ، ومع ذلك تراه لا يلبثون أن يكيّفوا ما تفرضه عليهم سليقتهم من ميول وأهواء ليسلكوها في نطاق هذا المبدأ ، وفي نطاق النظام الذي يقوم على أساسه . ذلك بأن الكثرة الكبرى من الناس تتأثر بدوافع الغريزة ومغرياتها أضعاف ما تتأثر بالمثل العليا التي تُرسم لها وتراءى أمامها .

وهذه الكثرة شديدة الرجاء دائماً في التخلص من الجزاء الذي يترتب على اندفاعها مع أهواء الغرائز ودوافعها . وهي تلتمس هذا الرجاء في الاستتار عن أعين الناس حيناً ، وفي شبهة القاضى يدرأ بها الحد حيناً آخر ، وفي مغفرة الله دائماً . أليس عفوه وغفرانه قد وسعاً كل شيء ؟ أولاً تجزى الحسنه عنده بعشر أمثالها ، ولا تجزى السيئة إلا بمثلها ؟ وياؤس الإنسان إذا لم يكن له في عفو الله مطمع أو ما أكثر ما يجد الإنسان في خلق الله من متاع فمن استحلّ منه ما أحل الله . وحرّم على نفسه ما حرم ، وعمل صالحاً ، فله أجره عند ربه . ومن زلفت به القدم وأغرته النفس الأثارة بالسوء ثم تاب وأناب ، فإن الله يقبل التوبة من عباده .

ماذا بقى من عادات الجاهلية في حياة العرب الاجتماعية بعد إسلامهم ؟ وماذا طرأ عليهم في هذه الحياه حين انفسحت إمبراطوريتهم ، واستقر الألوف ، منهم خارج شبه الجزيرة ؟

كان العرب في الجاهلية يتعصب كل منهم لقبيلته ، ويتعصبون جميعاً لجنس العربي وطبيعة الدعوة الإسلامية تُنكر هذه العصبية الجاهلية ؛ فهي تسوّى بين الناس جميعاً ، وإنما يتفاضلون بأعمالهم وتقوam ، لا فرق في ذلك بين عربي وغير عربي . والقرآن صريح في ذلك إذ يقول تعالى : (إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ^(١)) ، ويقول :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ^(١)) . وإسلام قد نزل للناس كافة ، أحرم وأسودهم ، عربهم وأعجمهم . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ونغرها بالآباء . كلكم لآدم وآدم من تراب . ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » . مع ذلك بقيت العصبية للقبيلة متأصلة في نفوس أكثر العرب ، وبقي التعصب للجنس العربي قوياً فيهم جميعاً ؛ بل لقد تضاعف هذا التعصب للجنس بانتشار العرب في ملك فارس والروم وحكمهم أهلها ، وأيقن العرب أن ما ألقاه القدر عليهم من رسالة وقف عليهم لا يشاركون فيه أحد .

والأمثلة على بقاء التعصب للقبيلة كثيرة في التاريخ . وقد حدث من ذلك في حياة النبي أن تفاخر الأوس والخزرج وذكروا يوم بُعث وقال أحدهم : « إن شتم والله لمعيدنها جذعة » . ولولا أن تدخل النبي بينهم وأعاد إليهم إخوانهم لسكان بين الفريقين شرّاً . وقد سكن التعصب للقبيلة في العهد الأول من حكم الخلفاء ؛ لأن اشتغال المسلمين بالفتح أمات ما بينهم من منازعات . فلما اختلف على معاوية عادت العصبية للقبيلة سيرتها الأولى ، وعاد ما كان بين بني هاشم وبني أمية إلى مثل ما كان في الجاهلية . ولا تزال هذه العصبية للقبيلة قوية في العرب أهل البادية إلى وقتنا الحاضر ، سواء في ذلك من أقام منهم في شبه الجزيرة ومن أقام خارجها .

أما تعصب العرب لجنسهم فقد زاده الفتح أضعافاً مضاعفة . كيف لا وهم يرون الإمبراطوريتين العظيمتين ، فارس والروم ، تنهار أركانها أمام قوتهم ويدول سلطانها لدولتهم . ولعلمهم لم يجدوا بهذا التعصب بأساً والله تعالى يقول فيهم : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ^(٢)) ، ويقول : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً^(٣)) . فذكروا هذه الآيات ونسوا تثریب الله عليهم ولومه لهم في كثير غيرها ، كما نسوا مبادئ الإخاء والمساواة التي دعا الإسلام إليها وجعلها أساس الإيمان . وليس لنا أن نؤاخذ العرب بتعصبهم لجنسهم ؛ فالتعصب للجنس كان ولا يزال

(١) س ١٠٤٩ (٢) س ١١٠ (٣) س ١٤٣

سُنَّة في الأمم تأخذ بها وتعمل على تقويتها . ألا يزعم الجنس الأبيض اليوم أن القدر اختاره ليرقى بالأجناس الملونة ، على تعبيرهم ، في مدارج الحضارة ! أو لا يزعم الجنس الآري أنه أفضل من الجنس السامي ومن سائر الأجناس ، وأنه أحدها ذكاء ، وأدقها منطقاً ، وأكثرها في العلم والفن ابتكاراً وإنتاجاً ! والجنس السكسوني والجنس الآسائي يدعى كل منهما لنفسه مثل هذه الدعوى التي يتشدد بها كل من بسم له لحظ ، فجعل له سلطان البطش بالشعوب الأخرى في طور بذاته من أطوار التاريخ الإنساني . وهؤلاء جميعاً يتشددون بهذه الدعوى وهم يعرفون ما يُثبتته التاريخ من أن السلطان دولاً ، فهو يتنقل بين الأجناس والألوان والأمم في أطوار تتصل بالحياة المعنوية حيناً ، وبالحياة الاقتصادية حيناً آخر ، ولا علاقة له ألبتة بجنس بذاته ولا بلون بذاته . فإذا كان العرب قد بالغوا في التعصب لجنسهم ، يوم كانوا الغالبين وكانت مقاليد الحضارة في أيديهم ، فلم من العذر أنهم جروا على السُنَّة التي تجرى عليها الأجناس كلها والشعوب جميعاً ؛ فتعصبوا العربيتهم ، وإن خالف هذا التعصب مبادئ الإسلام ، ودعوته الصريحة القوية إلى الإخاء والمساواة .

وقد أدى بهم هذا التعصب إلى التشبث بعادات جاهلية لا تقرّها تعاليم الإسلام . من ذلك حرصهم على الثأر وتشبثهم بعاداتهم القديمة فيه . فالتعاليم الإسلامية لا تدبج من الثأر ما كان مباحاً في الجاهلية ، وما كان يُثير بين القبائل قتالاً يتصل أعواماً . قاله تعالى يقول : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ^(١)) . ويقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ^(٢)) . والقصاص حدٌّ من الحدود يقيمه ولي الأمر ، ولا يتولاه ولي الدم بنفسه . هذا ، ثم إن القرآن يأمر بالعفو وينصح به في كثير من الآيات . مع ذلك تشبث العرب بالثأر ، فبقي عادة متصلة فيهم متقلة على الأجيال بينهم . وذلك شأن البدو منهم إلى يومنا هذا . بل إن من الحضرة الذين يمثون إلى البدو بصلة القرابي من لا تزال فكرة الثأر متصلة في نفوسهم بكرامتهم وبحياتهم ؛ فهم

لا ينزلون عنها ، ولا يجردون في القانون وقصاصه ما يرضى عاطفتهم ويعدل بهم عن جاهليتهم . سكنت العصبية للقبيلة ، وسكنت الثارات في عهد عمر ؛ لأن المسلمين شغلوا بالجهاد والفتح . على أن ما أفاءه الفتح عليهم من مغنم ، وما بدّله من حياة مَنْ سكن الحضر في العراق والشام ومصر من أهل البادية ، أثار في كثير من النفوس نزعتها الأولى للمتاع المادى بالحياة .

فقد كان للعرب في جاهليتهم غرام بالنبيذ والخمر ، وولع بالنساء والغناء ، وافتتان في إشباع الشهوات بالقدر الذى يبشر لهم حظهم من الرخاء أو من شطّاف العيش . فلما كان الفتح وعظم حظهم من الرخاء فصارت أسباب المتاع في متناول أيديهم ، هرع الكثيرون منهم إلى إرضاء ما أحبت نفوسهم من قبل . وما أسرع ما هياهم المنطق وسيلة الاقتناع بأنهم لا يخالفون في ذلك ما أمر الله به وما نهى عنه وما أقام حدوده ! بذلك عاد منهم إلى الشراب من عاد ، وهو يزعم أن لا إثم عليه فيما يتناوله منه ؛ فلم يفرض الله حداً لشارب ، ولم يُنزل رسول الله ولم ينزل أبو بكر بشارب عقاباً . أما النساء فقد أَرْضَى وَلَعَ الكثيرين بهن ما ملكت أيمانهم منهن ؛ فقد كانت سبائا الفرس والروم ، ومنهن فائنات الجبال والدلال ، يُقسَمْنَ بين الجند كما تُقسم أموال الفِء ، ويُعرضْنَ في الأسواق رقيقاً يبتاع منهن من شاء أن يرضى بهن هواه .

وإن كتب الأدب وكتب التاريخ لنقص من ألوان هذا المتاع بالخمر والميسر والنساء الشيء الكثير . سقنا من قبل حديث أوائك النفر من المسلمين الذين شربوا الخمر بالشام فسأهم أبو عبيدة ، فلم يفكروا ولكنهم تأوّلوا وقالوا : « خيرنا فاخترنا ؛ قال : هل أنتم مشتهون ، ولم يعزم علينا » . وقصصنا كذلك حديث عبد الرحمن بن عمر حين شرب الخمر بمصر ، وذهب إلى عمرو بن العاص ليقيم عليه الحَدَّ . وذكرنا نبأ أولئك الذين رآهم عمر ليلة يشربون بظاهر المدينة ، فلما سأل أحدهم الغداة عما كانوا يفعلون أجابه : ألم ينهك ربك عن التجشّس ! وهذه أمثال سقناها في مناسباتها ، وهى مع ذلك تدلّ على أن الشراب كان فاشياً في بعض طبقات المسلمين لذلك العهد ، مع ما كان من شدة عمر في تحريمه وإقامة الحدّ عليه .

وما يروى عن حديث النساء أكثر استفاضة ، وبعضه ينسب إلى أشخاص لهم مكاتهم . وقد رأينا كيف كان اصطفاه ذوات الجلال من السبايا أسراً جاريًا مجرى العادة ، لا يُسكره أحد ، ولا يلام من أجله أحد . وقد اصطفى على بن أبي طالب وخالد ابن الوليد وغيرهما من كبار الصحابة سبيات من الفرس والروم أنجب بعضهم ولم يُنجب بعضهم الآخر . ويروى صاحب الأغاني أن عبد الرحمن بن أبي بكر استهم بليلى بنت الجودى الفسّانى ، وكان قد رآها ليلة في بيت المقدس في جوارٍ ونساء يتهادين ، فإذا عثرت إحداهن قالت : يا ابنة الجودى ، وإذا حلفت إحداهن حلفت بابنة الجودى . وكانت ايلي تقيم بدمشق ؛ فلما فتحتها المسلمون سبواها وغنموها لعبد الرحمن ، فسار بها إلى المدينة وأقام معها مفتونًا بها فتنة جنون . وتحدث الناس بغرامه وما يصنع ، حتى كلمته شقيقته عائشة أم المؤمنين وذكرت له حديث الناس ، فلم يزد على أن قال : « يا أخية دعيني ، فوالله لساكنى أرشف من ثناياها حب الرمان ! » .

وبادلتها ليلى أول الأمر حُبًا بحب وغرامًا بغرام ، وسرها أنها كانت في بيته الملكة المتفردة بالأمر على كل ما فيه ومن فيه . لكن مرّ الأيام دسّ إلى قلبها حنينا لأهلها ، ولما كانت تستمتع به من مكان الملك بينهم . ولا عجب ، فأين حياتها بالمدينة من حياتها في قصر الإمارة بدمشق بين الفياض والرياض من جناته الفيحاء ! وأين عيشها مع عبد الرحمن ممّا كان لها في قصر أبيها من أسباب الخفض والتّعمة ! كان لها في هذا القصر بساط يُمدّ لها إذا ذهبت إلى حاجتها ، وكان يُرعى بين يديها برمانتين من ذهب تتلهى بهما في طريقها ؛ وكان لها بدمشق جوارٍ يخطّهن القدّ ، وهى بالمدينة جارية وإن نالت عند سيدها من الخطوة ما نالت . وزاد بها الحنين ، فكان عبد الرحمن إذا خرج من عندها ثم رجع إليها رأى في عينيها البكاء ، فإذا سأها : ما يبكيك ؟ لم تُحرّ جوابًا . وقال لها يوما : اختارى خصالا أيها شئت فهى لك : إن شئت أعتقتك وتزوّجتك ، وإن شئت رُدّدت على قومك ، وإن أحببت رددتك على المسلمين . وأبت كل ما عرضه ، فألح عليها يسألها عن سبب بكائها فقالت : « أبكى الملك من يوم البؤس ! » . وحزّت هذه الكلمة في نفس عبد الرحمن ، ورأى فيها من التّنكر له وإنكار جميله ماغيّر قلبه على ليلى ، فأعرض

عنها . وزادها إعراضه المأ ، فرضت فشحب لونها وانطفأ نورها وذهب جمالها ، فلما عبد الرحمن ، وهانت عليه وأساء معاملتها . وبلغ من بؤس الأميرة الأسيرة أن تحرك قلب عائشة أم المؤمنين رفقاً بها وشفقة عليها ، فقالت لأخيها : « يا عبد الرحمن ، لقد أحبيت ليلي فأفرطت ، وأبغضتها فأفرطت ، فإما أن تُنصفها ، وإما أن تجهّزها إلى أهلها ! » . وجهّزها عبد الرحمن فرجعت إلى أهلها كاسفة البال كسيرة الطرف ، وقضت بينهم بقية حياة حُرمت خير أنعم الحياة .

ليست قصة عبد الرحمن بن أبي بكر فريدة في نوعها . وإذا كان لهذا النوع من القصص المنشورة في كتب الأدب والتاريخ دلالة ، فهي أن العرب طُبعوا على حبهم المرأة وغزلم بالنساء بعد الإسلام ، وأنهم وجدوا في سببا الفتح ما زادهم في التعلق بالنساء افتتاناً . كانت قصة عبد الرحمن وأشباهها مما يقع بالمدينة ؛ ما بالك بما كان يقع بالكوفة والبصرة وبدمشق وحمص والفسطاط والإسكندرية ! وأنت تذكر قصة أم جميل إحدى نساء بني هلال ، وأنها كانت تغشى الأمراء والأشراف . فغشيت المغيرة بن شعبة وهو على ولاية البصرة ، فاتهمه فيها قوم عند عمر فعزله عن ولايته . والطبري يسوق قصة أم جميل هذه وأنها كانت تغشى الأمراء والأشراف ويقول : « وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها » ، أى في عهد عمر .

ربما فسر لنا بعض الذى كان من إقبال كثيرين على الشراب وعلى النساء وعلى غير هذين من مُتَع كان العرب يحبونها قبل إسلامهم ، أنهم كانوا في حرب دأمة وقاتل متصل ، فإذا رجعوا من الميادين كانوا على أهبة دأمة للعود إليها . فقد كانت البصرة والكوفة وبلاد كثيرة غيرها في العراق والشام مَسَاح تضمّ الجند العائدين من القتال والمتأهبين له . ونحن نشهد اليوم والتاريخ يحدثنا في أنباء ما سَلَف من العصور أن الحرب تثير في كثير من النفوس شهواتها وتدفعها لإمتاع هذه الشهوات وإشباعها . والسري في ذلك أن الجند لا يجدون ، إذا فرغوا من القتال ، ما يملئون به فراغهم إلا أن يذكروا فعالم يفاخرون بها ، وفعال زملائهم الذين خروا صرعى في حومة الوغى يتحدثون عنها . ولم تكن المعارك في ذلك العهد تستنفذ من الوقت ما تستنفذه معارك هذا العصر ، وقد رأينا القادسية

لا تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، ورأينا معركة نهاوند تنتهي في مثل هذا الوقت أو في أقل منه . ولم يكن القتال ليطول إلا أن يحاصر المسلمون مدينة منيعة كدمشق أو قيسارية أو بابلين أو الإسكندرية . وكان الجند كلما انتصروا عادوا بالفنائم والأسلاب ، ومن بينها السبايا من نساء البلد المفتوح وبناته . وكثيراً ما يحدث في الحروب أن يستباح البلد المفتوح أياماً عقب الفتح يُرّخى للجند فيها العنان ، يأكلون ويشربون ، ويستمتعون بكل ما طلب لهم أن يستمتعوا به . وكان الذين يعودون من الفتح بالسبايا في حلٍّ من الاستمتاع بما ملكت أيماهم منهن . فأما من لم يكن له منهن حظ يرضيه ، ثم هوت نفسه إلى المتاع ، فقد كان يلتبس بعد أوبته وسيلة متاعه . ذلك شأن الجند في كل عصر ، وهو شأنهم اليوم ، وهو يفستر لنا بعض ما ترويه كتب الأدب والتاريخ لما حدث من مثله في عهد الفتح الإسلامي .

على أن هذا التفسير لا يكشف لنا عن السر في حرص العرب على هذا المتاع ، بعد أن انقضى عهد الفتح والغزو ؛ فقد ظل كثيرون يتوقرون على الشراب ويولعون بالنساء في عهد الأمويين ، وفي عهد العباسيين ، وفي عهود الانحلال التي تلت هذين العهدين . ولم يكن الرأي العام شديد الإنكار على أصحاب هذا المتاع ، بل كان الناس يحسنون الاستماع لما يروى عنهم وما يوصف به متاعهم . ولا أحسبني أعرف شعراً بلغ من الافتتان في الخمريات وفي الغزل ما بلغه الشعر العربي . والشعر الإسلامي يستمد الوحي في هذين البابين من الشعر الجاهلي أكثر مما يستمدّه منه في غيرها . فإذا كان في طبيعة القتال أن يثير الشهوات وأن يدعو إلى الإمعان في إرضائها ، فهو إنما يثير الشهوات الأصلية في النفس ولا يخلق غيرها . لذا لم يزد الفتح العربي على أن أثار في بعض النفوس شهوات جاهلية وقف منها عمر موقفاً حازماً نتحدث عنه بعد حين .

لكن عمر لم يقف مثل هذا الموقف مما أحله الإسلام من ألوان المتاع السائغ عند بني جنسه . من ذلك أن العرب كانوا من أكثر الشعوب حباً للفناء وولعاً بسماعه ، بل كان الفناء من حاجات حياتهم وضرورات عيشهم ؛ فجدّوا في الإبل كان ينسبهم وينسب إليهم وعناء السفر ويهون عليهم مشقته . فإذا نزلوا منزلاً يستريحون فيه بعد طول الشرى

كان الغناء بعض سلوتهم ، وبخاصة إذا كان بينهم مطرب رخم الصوت حسن الإيقاع تحي أنغامه مافي نفوسهم من حنين للأهل ، أو حرص على الثأر ، أو تطلع للمجد . وقد شاع ذلك في باديتهم وفي حضرهم ؛ فكانت مجالس الغناء تعقد بمكة والمدينة وغيرها من بلاد شبه الجزيرة ، كما كانت تعقد في أرجاء البادية من أقصى جنوبها إلى أقصى الشمال . وكان عمر نفسه ، على ما عُرِف من شدته وغلظته ، يطرب للغناء ويردده أحيانا . خرج رهط من الشبان في ركب فيه عمرو وعثمان وابن عباس ، وفيه رباح الفهرى الذى كان يُجيد الخداء والغناء . فلما أمسوا سأل الشبان رباحا أن يحدوهم فأبى وقال : مع عمر ؟ قالوا : أخذ ، فإن نهاك فأنته . فحدا فلم يعترض عمر ، بل طرب لسماعه . فلما كانت ساعة السحر قال له : كفت ! هذه ساعة ذكر . وسأل الشبان رباحا في الليلة الثانية أن ينصب لهم نصب العرب ، وقالوا له حين أبى خوفا من عمر : انصب فإن نهاك فأنته . وسمع له عمر حتى ساعة السحر ثم قال له : كفت ! فإن هذه ساعة ذكر . وسأل الشبان رباحا في الليلة الثالثة أن يغنيهم غناء القيان ، فلم يكذب يدا حتى صاح به عمر : كفت فإن هذا ينفر القلوب ! .

وخرج عمر مرة للحج ، فاقترح من معه على خوات بن جبير أن يغنيهم من شعر خِرَار . قال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بُنَيَّات فؤاده . وغنى خوات وطرب عمر ، حتى إذا كان السحر قال له : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا .

وتغنى عمر يوما وهو في ركب :

وما حلت من ناقةٍ فوق رحلها أبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمد
فاجتمع الركب يسمعون إليه . فلما رأهم اجتمعوا قرأ القرآن فتفرقوا . وتكرر ذلك منهم ومنه ، فصاح بهم : يا بنى اللقطاء ! إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم ، وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم !

ونهي رباحا عن غناء القيان بعد استماعه له وهو يحدو وهو ينصب ، وغضبه من الذين تفرقوا حين قرأ القرآن بعد اجتماعهم لسماعه يتغنى بالشعر ، يشهدان بأنه كان يحب السماع ويحب الغناء . ولقد كان يحب الغناء يُحسن صاحبه التعبير عن المعاني التي ترضاها

النفس الكريمة ، ولا ينزل به إلى حيث يستهوى في النفس نوازع ضعفها ونزع شهواتها وكان ، على حبه الغناء والاستماع له ، يؤثر عليه سماع القرآن وتلاوته . ولا عجب وقد كان عمر إذا سمع القرآن وهو مغضب سكت عنه غضبه ، وكثيراً ما كان يستدّر مآقيه دموعاً تعبّر عن عمق إيمانه وصدق إسلامه . ولا عجب وقد كان ضعف النفس لأمرها بالسوء شرّ ما يعاب به الرجل عند عمر .

ولمّا نهى عمر عما يحرّك في النفس نوازع الضعف ونزع الشهوة لِمَا رأى من سوء أثره في حياة الجماعة . وحياة الجماعة وقوة هذه الحياة ونشاطها وتوثبها إلى الأغراض السامية واجباتٌ يضطلع بها الحاكم ، كاضطلاعهم بحفظ النظام في الدولة والحفاظة على سلامتها ؛ لأن هذه القوة وهذا النشاط وهذا التوثب كلها أدوات للنظام والسلامة . وليست الأقوال دون الأفعال أثراً في هذه الحياة . كان المديح وكان الهجاء من أغراض الشعر العربي في الجاهلية ، ثم ظلاً من أغراضه في الإسلام ، ولا يزالان من أغراضه إلى اليوم . وكان بعض الشعراء يفلون في مدائحهم وأهاجيهم غلوً يحرّك الحفائظ ويثير المنازعات ؛ فكان عمر يؤاخذ هؤلاء الشعراء ، ويأخذهم بالشدة التي تردّهم وتردهم عن الاسترسال في غيهم .

والرواية عنه في ذلك مستفيضة . روى أنه حبس الحطيئة لأنه كان يقول الهجر ويمدح الناس ويذمهم بما ليس فيهم . فلما أعطاه الحطيئة موثقاً ألا يعود إلى ما حبس فيه أطلقه . فلما ولي ناداه فرجع فقال له : كأني بك يا حطيئة عند فتى من قريش قد بسط لك تمرقة^(١) وكسر لك أخرى ثم قال : غننا يا حطيئة ، فطفقت تغنيه بأعراض الناس ! فأقسم الحطيئة أن لن يفعل . قال زيد بن أسلم : ثم رأيت الحطيئة يوماً عند عبيد الله ابن عمر قد بسط له تمرقة وكسر أخرى ، ثم قال : تغنيننا يا حطيئة ، وهو يغنيه ؛ فقلت : يا حطيئة ! أما تذكر قول عمر ؟ ففزع وقال : رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حيّاً ما فعلنا هذا . ولما حبس عمر الحطيئة لهجائه الزّبرقان بن بدر في أبياته التي يقول فيها :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبَغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

(١) التمرقة : الوسادة .

وكان عمر مشعوقاً بالشعر ، يرويه ويتمثل به ويبحث على روايته . فلما شكا الزبرقان إليه الخطيئة أراد أن يدرأ التعزير بالشبهة ، فقال حين سمع هذا البيت : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة . ثم إنه سأل حسان بن ثابت وهو الخبير في الشعر ، فلما شهد بإخاش هذا البيت في الهجاء ، جلس الخطيئة ثم أنذره ألا يعود إلى مثل ما فعل . ولم يعد الخطيئة إلى الهجاء إلا في خلافة عثمان .

وحبس عمر الذي هجا بني العجلان بأبياته التي يقول فيها :
أولئك أولاد المهجين وأسرة ١١ لمئيم ورهط العاجز المتذلل
حبسه وضربه ، وأنذره إن عاد لمثلها ضاعف عقوبته .

وإنما عاقب عمر الشعراء المهجائين فحبسهم وضربهم وعزرم وأنذرهم ، مع شغفه بالشعر وروايته ، لما يعلمه من أن القول أعمق في حياة الجماعة الإنسانية أثراً من كل ما سواه . فالناس ، من طفولتهم إلى ختام حياتهم ، يتأثرون به ويندفعون إلى أعمالهم بما يلقنونه منه : عقائدنا وعاداتنا وعلومنا وتفكيرنا وعواطفنا وميولنا تتكيف كلها بما نسمعه منذ طفولتنا من أهلنا وأساتذتنا وأصحابنا ، وما نقرؤه في كتب من سبقنا . والمديح والهجاء كانا سائغين في الجاهلية ، بل كانا من المقومات الأساسية للحياة الاجتماعية فيها ، ثم كانا صيحة الحرب والدعاية حين تندفع قبيلة لتتأثر من قبيلة . وإذا كان القتال من مألوف الحياة إذ ذاك ، فقد كان الشعراء يُشيدون بحاسن إحدى القبيلتين وينشرون مثالب الأخرى . أما وقد أصبح العرب أمة واحدة تقف في وجه عدوها صفاً واحداً ، فقد وجب أن تزول هذه العادة الجاهلية من حياة الأمة الاجتماعية ، وقد وجب على أمير المؤمنين أن يعمل لذلك جهده . وزوالها أوجب في عهد النضال والفتح ، لما يقتضيه من تألف القلوب وتضافر القوى واتجاه الأمة بأسرها في وحدة لا انفصام لها لمواجهة العدو والقضاء على كل مطامعه .

وقد كانت سياسة عمر في القضاء على هذه النعرة القبليّة موفقة ، بل كانت كلها السداد والحكمة وبعد النظر . أقرّر هذا وأنا أشد الناس إيماناً بحرية الرأي وحرية التعبير عنه بالقول وبالكتابة . وبكل ما عرفت الإنسانية وما ستعرف من وسائل التعبير . ذلك

بأن الرأي شيء ، والهجاء والقذف شيء آخر . الرأي فكرة أو مجموعة من الأفكار تصدر عن النطق أو عن الوجدان ، وغاية صاحبه منه أن يكون الناس أقل شقاء أو أسعد حالاً مما هم فيه . قد يخطئ صاحب الرأي وقد يصيب . وأنت في حِلٍّ من أن تحارب الرأي إذا عقدته خاطئاً . لكنك لا تملك أن تحارب صاحب الرأي إلا أن تقيم الدليل على سوء نيته في إبدائه ، وعلى أنه لم يقصد به إلى خير عام ومصلحة يشترك فيها الناس جميعاً . فإذا استطعت إقامة هذا الدليل لم يسُغ لك مع ذلك أن تتناول من حياة صاحب الرأي الخاصة ما لا يتصل بالرأي الذي أبداه ، أو بالعمل الذي يريد أن يرتبه على هذا الرأي ، أو بما أقمت عليه الدليل من سوء قصده . في هذه الحدود وحدها أنت في حِلٍّ من أن تحاربه وأن تبلغ في حربه ما شئت من شدة وعنف . أما أن تتعرض إلى ما وراء ذلك من حياته فذلك هو القذف ، وهو الهجاء والإفذاء فيه ، وهو ما لا يجوز لقانون أو الحاكم أن يُبيحه ، بل يجب أن يعاقب مرتكبه عقاباً رادعاً في بدنه وفي ماله ، وأن يبلغ هذا العقاب من الشدة بحيث يصون لأصحاب الرأي وللعاملين للخير العام حريتهم في رأيهم وفي عملهم ، بقدر ما يصدّهم النقد النزيه عن تجاوز الحق في الرأي والخير العام في العمل .

أدت سياسة ابن الخطاب في محاربه الهجاء والهجائين إلى استئمان الحفائظ وسكون كل ما يثيرها . ولا أدلّ على ذلك مما تلوته من قول الخطيئة حين تغنى بعد عمر بأهاجيه : « رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حياً ما فعلنا هذا » . لكن الهجاء لم يلبث أن عاد بعد عمر ، وأصبح من مألوف الحياة الاجتماعية في الجماعة الإسلامية . على أنه لم يعد كما كان أداة دعاية للقبائل في منازعاتها بقدر ما أصبح أداة تكسُّب وارتزاق ، أو أداة لإرضاء للأهواء وإشباع للشهوات . وكذلك كان الشأن في غير الهجاء من مألوف الحياة الاجتماعية قبل الإسلام . ولا عجب ! فقد بقيت في نفوس أكثر العرب الذين أسلموا نزعات جاهلية لم يستطيعوا التغلب عليها ، بل لعلهم لم يحاولوا هذا التغلب . وقد عبّر الأستاذ أحمد أمين بك خير تعبير عن هذا المعنى في كتابه : « فجر الإسلام » بقوله :

— الحق أن النزاع بين النفسية الإسلامية والنزعات الإسلامية ، والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية ، كان شديداً وكان عهده طويلاً ، وأن الإسلام لم يصبغ العرب صبغةً

واحدة على السواء . بل إن خير من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أولئك دخل الدين إلى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له وأنفذوا أوامره . فأما من أسلموا يوم الفتح أو بعده ، وظلوا على كفرهم وعنادهم حتى رأوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينتصرون فلم يسمهم إلا الإسلام ، فهؤلاء كان دين كثير منهم رقيقاً . (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ، أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ^(١)) . وبحق قسم المؤرخون الصحابة إلى طبقات حسب مراتبهم ، أوصلها بعضهم إلى اثنتي عشرة طبقة آخرها من أسلم يوم الفتح .

كان عمر من خير المسلمين إدراكاً لأصول الدين وقواعده ، ومن أحسنهم تقديراً لما يؤدّي إلى إقرار هذه الأصول واستقرار هذه القواعد . لذلك حرص على أن ينبذ عن الجمعية الإسلامية ما لا يقرّه الإسلام مما ألف العرب في جاهليتهم ، أن يصبغها بصبغة الدين الجديد في مظاهر حياتها جميعاً . والإسلام إمبراطورية في جوهره ، وإمبراطوريته روحية أولاً وقبل كل شيء . وهو لذلك يؤلّف بين القلوب بروابط الإخاء والمساواة ، « فلا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . لا مفرّ للأمين على مبادئ هذا الدين إذاً من أن يزود عن مبادئه كل ما يخالف أغراضه أو يعطل تحقيقها .

وقد كان عمر حازماً في ذلك كل الحزم ، صارماً فيه كل الصرامة ، لا يعرف تردداً ولا هواده . كان يقيم حدود الله ، ويضع من الحدود ، بعد مشورة أولى الرأي ، ما يتفق وأغراض الإسلام . وقد رأيت من فعله بمن شربوا الخمر في الشام وفي غير الشام . روى أنه استشار في الخمر يشربها الرجل ، فقال عليّ بن أبي طالب : « أرى أن تضربه ثمانين حدة القذف ؛ فإنه إذا شربها سكر ، وإذا سكر هذى ، وإن هذى افترى » . فجلد عمر في الخمر ثمانين ، واعتبر عمله هذا حداً لشارب الخمر بإجماع المسلمين في عهده ، ومن بعده ^(٢) . وسنرى عند الكلام في الفصل التالي عن (اجتهد عمر) ، ما كان من شدة

(١) آية ١٠ سورة الحديد

(٢) في بعض الروايات أن رسول الله حد شارب الخمر . ذكر المرحوم محمد بك الحضري في كتابه : (تاريخ التشريع الإسلامي) ما ورد في القرآن من حدود : هي القصاص وحد الزنا وحد القذف وحد السرقة وحد قاطع الطريق ثم قال « وليس في القرآن من الأجرية غير ما ذكرنا . وقد بينت السنة حداً سادساً هو حد شارب الخمر ؛ فقد حده رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

حرصه على أن تستقر الحياة الإسلامية على أساس صحيح من المبادئ التي نزل بها الوحي ،
والتي قررتها سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أنت ترى ، من كل ما سقناه في هذا الفصل ، أن الحياة الاجتماعية تطوّرت في عهد
عمر متأثرة بعوامل كثيرة متباينة ، لم يكن الكثير منها قائماً في عهد النبي ، ولم يكن قد
أُتيح لبعضها أن يظهر أثره في عهد أبي بكر . فمن تقاليد الجاهلية ما اندثر ، منذ أعلن
العرب إسلامهم قبيل وفاة رسول الله ؛ ومن هذه التقاليد ما اختفى بحكم الأحوال ، ثم جعل
يبرز بين حين وحين بروزاً يدلّ على بقاء جذورة حياة متأصلة ، متأهبة لتنمو وتتفرع من
جديد . هذا إلى ما أنشأه الإسلام في نفوس من أخذوا به من عقائد وتقاليد جديدة لم يكن
لهم عهد بها من قبل ، وإلى ما لقيه المسلمون في البلاد التي فتحوها من حضارة لم تكن
مظاهرها مألوفة لهم ، فلما خالطوا أهلها واتصلوا بهم أصبحت سائفة عندهم محبة إليهم .
ولم يكن العامل الاقتصادي أقل أثراً من سائر العوامل في هذا التطور ؛ فقد أضاء
الفتح على كثيرين رخاء جعل المتاع يلين الحياة في متناول أيديهم ، فأقبلوا عليه ينهلون
منه . وكان الذين ذهبوا إلى العراق والشام ومصر أشد على المتاع إقبالاً ؛ لأن الحضر
والخصب يسّران من ألوان هذا المتاع ما لا تيسره البادية أما الذين أقاموا في شبه الجزيرة
فوجدوا في العطاء الذي فرضه عمر لهم ما جعلهم يفتنّون ، فيما عرفوا من ألوان المتاع
في الجاهلية افتناناً رأيت صوراً منه فيما قصصنا من قبل .

وقد أدّى هذا التطور إلى نشاط في الحياة العقلية ، اقتصر مداه عند العرب في ذلك
العهد على اجتهاد الرأي فيما لم ينزل به وحي ، ولم تجر به سُنَّة من رسول الله . ولعلك
تذكر قول أبي بكر في مرض موته : « وَدِدْتُ لو أنني سألت رسول الله عن ميراث
ابنة الأخ والعمة ؛ فإن في نفسي منها شيئاً » وقد اطرّد اجتهاد الرأي في عهد عمر وفي
العهود التي تلت ، فكان الفقه الإسلامي ثمرته .

ثم أدّى هذا التطور كذلك إلى اتجاه جديد في حياة الأمم التي فتحتها المسلمون ؛
وكان لهذا الاتجاه أثر عميق في حياة العرب أنفسهم . وقد بدا هذا الاتجاه الجديد في العراق

والشام وفارس بنوع خاص ، وإن اختلف في هذه الأمم باختلاف الأجناس التي تتكون منها . ذلك أن العراق والشام كان بهما من قبائل العرب من أقبلوا على الإسلام وتأثروا بتعاليمه ، ومن احتفظوا بدينهم وتأثروا مع ذلك بما فرضه الفتح الإسلامي من نظم في السياسة والاقتصاد . أما فارس فاختلف اتجاهها عن العراق والشام . وسنرى أثر هذا الاختلاف عند الكلام عن مقتل عمر .

وقد تحدثت من قبل عن الأثر الذي تركه الفتح الإسلامي أول عهده في مصر . وإنما اختلف هذا الأثر عن مثله في العراق والشام وفارس ، لأن سياسة ابن العاص في مصر لم تكن كسياسة خالد بن الوليد في العراق لعهد أبي بكر ، ولا كسياسة الولاة الذين قاموا بالأمر في الشام بعد فتحه ، ولم تكن مصر كفارس في وضعها الساسي ؛ إذ كانت فارس مستقلة ومصر ولاية رومانية ، لكنها كانت تشبه فارس من حيث اختلاف أهلها عن العرب في الجنس واللغة والدين . مع ذلك لم تكن سياسة ابن العاص ضعيفة الأثر في تحويل المصريين ليكونوا أمة إسلامية لغتها العربية ، وليكونوا من بعد ذلك قلب العالم الإسلامي ومركز الحضارة فيه .

كان لعمر أثر كبير في توجيه ما تم من تطور في الحياة الاجتماعية لبلاد العرب . ولا أخالني أغلو إذا قلت إن فضله في هذه الناحية لا يقل عن فضله في الناحية السياسية . وأثره في توجيه هذا التطور لم يقف عند ما أشرنا إليه في هذا الفصل وفيما سبقه من فصول الكتاب ، بل كان لاجتهاده رأيه أكبر الأثر في هذا الأمر ، كما كان له أكبر الأثر في غيره من أمور المسلمين .

وهذا ما سنبيّنه في الفصل التالي عند الكلام عن اجتهاد عمر .

الفصل الرابع والعشرون

اجتهاد عمر

رُوى أن عمر بن الخطاب سأل سلمان : أملك أنا أم خليفة ؟ فأجابه سلمان :
 إن أنت جيتت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه
 فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ورُوى أنه قال يوماً : والله ما أدري : أخليفة أنا
 أم ملك ، فإن كنت ملكاً فهذا أمرٌ عظيم ! قال قائل : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً .
 قال عمر : ما هو ؟ وأجابه صاحبه : الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق ،
 فأنت بحمد الله كذلك . والملك يعسف الناس ، فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر .
 وتعريف الخلافة على هذا النحو وحسبها في هذه الحدود لا يتفق وما فهمه المسلمون
 الأوّلون عنها ؛ فقد نُعت الخلفاء الأوّلون بأنهم الخلفاء الراشدون ، وقُصدَ بهذا الـ
 أنهم خلفاء رسول الله على المسلمين ؛ ساروا سيرته ، وأنَّبَعُوا سُنَّتَهُ ، ونَهَجُوا نَهْجَهُ في أمور
 الدين والدنيا . وذلك قول عمر : إن لي صاحبين سلكاً طريقاً ، فإن خالفتهما خُوفَ بي .
 أما الذين جاءوا بعد الخلفاء الراشدين فقد ساروا في الناس سيرة الملوك ؛ ولذلك كانوا
 أمراء للمؤمنين ، ولم يكونوا خلفاء لرسول الله ولا لخلفائه .

فرسول الله لم يكن قطّ ملكاً ، وما تولاه من شؤون المسلمين بالمدينة لا يشبه
 ما تولاه ملوك الفرس والروم لعهده ، وما يتولاه الملوك في مختلف الأمم والعصور . إنما كان
 رسول الله هادياً للناس ومرشداً لهم ، وكان بشيراً ونذيراً يبلغ الناس رسالات ربه ،
 ويدعوهم إلى دينه القيم بالحكمة والموعظة الحسنة . ولقد أوى المسلمون إلى ظله ليزدادوا
 هدى بما يسمعون من آي الوحي وبما يعلمهم من سُنَّتِهِ : وخلفاؤه الراشدون هم الذين
 قاموا في الناس مقامه . لم يكن لهؤلاء الخلفاء رسلاً يُوحى إليهم ، لكنهم كانوا أصحاب
 رسول الله ، امتثلوا تعاليمه وأشربوا مبادئه . فلما استخلفوا من بعده نشروا هذه التعاليم
 والمبادئ بين الناس توجيهاً لهم إلى الهدى ، ليأخذ كل منهم بالحق ولا يضعه إلا في حق

وعلى هذا المعنى كان عمر خليفة ، كما كان أبو بكر خليفة . ولذا حرص على أن يترسم طريق الصدِّيق في بساطة العيش ، وفي التسوية بين نفسه وبين الناس . وفي تحريه الحق ودعوة الناس إليه والقضاء بينهم به .

كان رسول الله يدعو الناس لاتباع ما يوحى إليه من ربه فلما كثُر أصحابه جعلوا يسألونه عن أمور تعرض لهم لم ينزل فيها وحى ، والأخذ فيها بمعروف الجاهلية يخالف ما كان النبي يذمعه بينهم من تعاليمه . وكثيراً ما كان ينزل الوحي جواباً على ما يسألون عنه ، فيقول تعالى في سورة البقرة^(١) : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَفْقَرْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرَّةُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ آلِيتَانِي قُلْ إِصْلَاحُ لَمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمُ فَاِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لَلْفَسَادِ مِنَ الْمَصْلَحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو

إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَبَيَّنُّ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . ويسألونك عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) .

هذه الآيات المتتابعة من سورة البقرة نزلت في أوقات متفرقة . وقد نزلت كلها جواباً على مسائل كان المسلمون يوجهونها لرسول الله ، فأوحى الله إليه هذه الآيات لمدايتهم وهداية البشر وإرشادهم ، ولبيان الأحكام فيما يسألون عنه . وهذه الآيات نزلت في حوادث رواها المفسرون ، وأسماها: « أسباب النزول » . يقول المرحوم محمد بك الخضرى في كتابه (تاريخ التشريع الإسلامى) : « أمّا الأحكام التي نزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة . وقلما نرى حكماً لم يذكر المفسرون حادثاً أنزل الحكم مرتباً عليه » .

روى أن رسول الله أرسل مرثداً الغنوى إلى مكة ليخرج منها قوماً مُسْتَضْعَفِينَ ، فعرضت امرأة مشركة عليه نفسها تريد زواجه ، وكانت ذات جمال ومال ، فقبل ما عرضت ووقف التنفيذ على إذن رسول الله . فلما رجع إلى المدينة وعرض الأمر على النبي لإجازة النكاح نزل قوله تعالى : (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ) . . إلى آخر الآية . وأنت تذكر أن اليهود والمنافين بالمدينة كثيراً ما كانوا ينتهزون أوقات الشراب ليثيروا بين الأوس والخزرج منازعاتهم القديمة ، وأن عمر سأل رسول الله لذلك عن الخمر ولم يكن قد نزل فيها قرآن وقال : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِيهَا ، فنزلت الآية : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَا فِعْلُ النَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) .

وكان المسلمون يسألون أحياناً عن أشياء ، فلا ينزل الوحي بالجواب عليها لأول ما يسألون النبي عنها . عند ذلك كان يقضى فيها برأيه ؛ وذلك قوله : إنما أقضى بينكم بالراى فيما لم ينزل فيه وحي . فإذا نزل القرآن بعد ذلك بغير ما كان قضى به ترك ما قضى به على حاله ، واستقبل ما نزل به القرآن^(١) . وقد نزل الوحي غير مرة مخالفاً لما قضى به . من ذلك ما سبق أن ذكرناه في أسرى بدر ؛ فقد طمع هؤلاء الأسرى في الفداء

(١) الجزء الرابع من كتاب الإحكام للآمدى : ص ٤٢ و ٤٣ على أن بعض الأصوليين والفقهاء لا يسمون بأن الحكم من النبي بغير القرآن لا يكون إلا اجتهداً ، وينهجون إلى أن من السنن ما كان وحياً لا اجتهداً .

وأغلوه ، فاستشار رسول الله أصحابه فيهم ، فقال أبو بكر : « قومك وأهلك استأن بهم لعل الله يتوب عليهم ، وخُذْ مِنْهُمْ فِدْيَةً تَقْوِي بِهَا عَلَى الْكُفَّارِ » وقال عمر : « كَذَّبُوكَ وَأَخْرَجُوكَ ، قَدْ مَهَّمْ فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ؛ فَإِنْ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَإِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَغْنَاكَ عَنِ الْفِدَاءِ » . وسمع محمد ، بعد وزيريه ، لكبراء المسلمين ، ثم قبل الفداء وأطلق الأسرى . من بعد ذلك نزل قوله تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدِّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١)) . فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله : « لو نزل بنا عذابٌ مانجا لآلِ عمر » . وخالف الوحي رسول الله كذلك في أمر الخوالم الذين دُعُوا للخروج إلى غزوة تبوك لقتال الروم ، فاعتذروا إلى النبي بشتى المعاذير واستأذنوه في التخلف بالمدينة فأذن لهم ، فنزل في ذلك قوله تعالى : (لَوْ كَانَ عَرَصًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَمَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا نَخْرُجَنَّامَكُمْ مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ^(٢)) . فلو أن هذه الآية نزلت قبل أن يأذن رسول الله للخوالم لما أذن لهم . على أن ما خالف الوحي فيه اجتهاد رسول الله قليل . ولذلك كانت سنته صلى الله عليه وسلم حجة مُتَّبَعَةٌ فيما لم يخالفه الوحي فيه ، كما كانت طريقته في الاجتهاد حجة مُتَّبَعَةٌ كذلك . وقد كان يلجأ إلى القياس . سأله جارية خثعمية فقالت : يا رسول الله إن أبا أدركته فريضة الحج شيخاً زَمِنًا لا يستطيع أن يحجَّ ، إن حججت عنه أينفعه ذلك ؟ فقال لها : « أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دِينَ فَقَضَيْتَهُ أَمَا كَانَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ ؟ » ، قالت : نعم . قال : فدين الله أحقَّ بالقضاء . وإلحاق دين الله بدين الآدمي في وجوب القضاء ونفعه هو عين القياس .

وكان رسول الله يقضى بين المسلمين ويقول لهم : « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على محوماً أسمع منه . فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً

(١) آية ٦٧ وما بعدها ، سورة الأنفال . (٢) آية ٤٢ وما بعدها ، سورة التوبة .

فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار . يقول الآمدى : « وذلك يدل على أنه قد يقضى بما لا يكون حقاً في نفس الأمر » . ولا عجب في قول الآمدى هذا ؛ فإنما كان رسول الله يقضى بما كان يرفعه إليه الخصوم من حجة . ولم يكن قضاؤه وحياً من عند الله ، بل وزناً للبيّنات التي تقدّم إليه . وقد يعجز صاحب الحق عن إقامة الحجة على حقه ، أو يعجز عن دفع حجة خصمه . والقاضى العادل لا يقضى بعلمه ، وإنما يقضى بما يطمئن ضميره إلى قيام الحجة عليه .

على أن القضاء شيء والشئ شيء آخر ، وإن صح أن ينطوى القضاء على السنة إذا رتب الحكم مبدأ يطبّق عمومته على الحوادث المتشابهة . أما السنة لذاتها فما بيّن به رسول الله ما أوجبه القرآن من المبادئ والأحكام ، بالقول أو بالفعل أو بهما معاً . وذلك قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(١)) . والسنة بالفعل كالصلاة والحج ؛ فقد كان رسول الله يصلى بالمسلمين الصلوات الخمس ويقول لهم : « صلّوا كما رأيتموني أصلى » . ولما حج رسول الله قال للذين معه : « خذوا عني مناسككم » أما السنة بالقول فهي الحديث . ومن الحديث ما اتصل بالوحي مفصلاً مفسراً له ، ومنه ما اتصل بالحياة مما وقع في عهد النبي ورفّع إليه فأبدى فيه رأيه . وكان النبي يبدي رأيه في هذه الأمور بعد مشاورة أصحابه عملاً بقوله تعالى : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) .

وقد شاور النبي أصحابه في الدعوة للصلاة ، فقال بعضهم : نار . وقال بعضهم : بوق ، وقال بعضهم : ناقوس ، ثم اتهموا إلى الأذان على ما قدّمنا . وكان يشاور أصحابه فيما يصنع إذا خرج للقتال . شاورهم في غزوة أُحُد أيتحصن بالمدينة أم يلقي العدو بظاهرها ؛ وشاورهم يوم الحديبية ، وشاورهم في غير هذين من غزواته . وكان أبو هريرة يقول : « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم » .

وكان رسول الله يدعو أصحابه إلى الاجتهاد . روى عن عمرو بن العاص أنه قال : « جاء خصمان يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا عمرو ! اقض بينهما ؛

قلت : أنت أولى بذلك مني يا نبي الله . قال : وإن كان . قلت : على ماذا أقضي ؟ قال :
إن أصبت القضاء بينهما فلك عشر حسنات ، وإن اجتهدت فأخطأت فلك حسنة .
وحكم رسول الله سعد بن معاذ في بني قريظة فحكم بقتلهم وسبي ذراريهم ،
وأقر النبي رأيه .

وقتل أبو قتادة رجلاً من المشركين ، فأخذ سلبه غيره ؛ فقال أبو بكر : لا نقصد
إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ففعلت سلبه ؛ أردد عليه سلب قتيله .
فقال رسول الله : « صدق ، أردد عليه سلبه » .

ولما بعث النبي معاذ بن جبل إلى اليمن ليفقه الناس في دينهم سأله . بم تحكم ؟
وأجاب معاذ : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال فبسنن رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟
قال : اجتهد رأيي . وأقره النبي على ذلك وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يحببه
الله ورسوله » . وهذا يتفق وما روى عنه عليه السلام أنه قال لعبد الله بن مسعود :
« اقض بالكتاب والسنة إذا وجدتهما ، فإذا لم تجد الحكم فيهما اجتهد رأيك » .

على أن اجتهاد الرأي لم يقصد به ، في زمن النبي ولا في العصور الأولى ، إلى إقامة
مذاهب في الفقه تستوعب ما يجري في المخاطر أو تؤدي إليه الفروض ، بل كان مقتصرأ
على ما يحدث بالفعل من شؤون الحياة مما يحتاج إلى الرأي لحسمه . روى عن ابن عباس
أنه قال : « مارأيت قوماً قط كانوا خيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ماسألوه عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهم في القرآن . . . وما كانوا يسألونه
إلا عما يفهمهم . وكان عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن » . وعن عمر بن
إسحاق أنه قال : « لمن أدركت من أصحاب رسول الله أكثر مما سبقني منهم ، فما
رأيت قوماً أبسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم » .

لذلك لم يكن للخلاف الذي ينشأ عن اجتهاد الرأي ، لإقامة مذهب كامل ، أثر ظاهر
في التشريع لذلك العهد . بل كان رسول الله ينهى أصحابه عن التفرق والتنازع في الدين ،
امتثال لما جاء في القرآن من مثل قوله تعالى : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ^(١)) ،

وقوله : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ^(١)) وغيرها من الآيات الكثيرة التي في معناها . وقد نهى أصحابه حين رآهم يتكلمون في القدر وقال لهم : « إنما هلك من قبلكم بخوضهم في هذا » : لذلك لم يُنقل عن أحد من الصحابة الخوض والنظر في المسائل الكلامية مطلقاً . ولو أن ذلك حدث لُنقل إلينا كما نقل عنهم اجتهادهم الرأي في المسائل المتصلة بالواقع من أمور الحياة .

وقد كان المسلمون الأولون أشد احتياجاً لاجتهاد الرأي ، بعد أن اختار الله رسوله إليه . ذلك أنهم كانوا في عهده يستفتونه فيفتيهم ، وترفع إليه القضايا فيقضى فيها ، ويرى الناس يفعلون معروفًا فيمده ، أو منكراً فيُنكره . وكان أصحابه يقولون بآرائهم فيبلغه ذلك ، فيصوب المصيب ويخطئ الخطيئ . فلما قُبض لم يكن لهم بدٌّ من الأخذ بالقياس في الوقائع التي لانصت فيها . وقد فعلوا ولم يُنكر أحدٌ منهم على من فعل لكنهم لم يُفتوا برأيهم على سبيل الإلزام ولا على أنه حق ، بل على أنه ظنٌ يستغفرون الله منه ، أو على سبيل صلح بين الخصمين . يقول ابن حزم في كتاب (الإحكام في أصول الأحكام) : « وأما القول بالرأي والإستحسان والاختيار فكثير عنهم . رضى الله عنهم ، جداً . ولكنه لا سبيل إلى أن يوجَّه إلى أحد منهم أنه جعل رأيه ديناً أوجب حكماً ، وإنما قالوا إخباراً منهم بأن هذا الذي يسبق إلى قلوبهم ، وهكذا يظنون ، وعلى سبيل الصلح بين المتخصمين ، ونحو هذا ^(٢) » . وما كان لهم ألا يجتهدوا والأفضية الجديدة ترفع إليهم ، وأحوال الحياة في القبائل والأمم التي انصل أصحاب رسول الله بها تختلف عن أحوال الحياة عندهم ، وهذه الأحوال وهذه الأفضية تحتاج كلها إلى رأى لا سبيل إلى طمأنينة الناس للعيش من دونه .

وكان أولُ اجتهادهم استخلافهم أبا بكر إثر وفاة النبي . وأنت تذكر ماحدث في سقيفة بني ساعدة من محاوراة ومن جدل اشتدَّ وعُف حتى كاد يؤدِّي إلى الفتنة ، ثم انتهى إلى بيعه أبي بكر ، فلما تولى أبو بكر أمر المسلمين اختلفوا في بعث أسامة لقتال الروم ، وذلك حين رأوا انتقاض العرب بسطان المدينة . قال قوم من المهاجرين والأنصار

(١) آية ١٥٩ سورة الأنعام ، (٢) الجزء السابع : ص ١١٨ ، ١١٩ .

للصديق : « إن هؤلاء (يقصدون جيش أسامة) جلُّ المسلمين . والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ؛ فليس ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . وطلب أسامة نفسه إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى الصديق يستأذنه أن يعود بالجيش ، ليكون قوته على المشركين فلا يتخطفون المسلمين . وكان جواب الصديق على ذلك كله : « والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تحطّفتني لأنفذت بنت أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته » .

ولما امتنعت القبائل القريبة من المدينة عن إيتاء الزكاة وعزم أبو بكر قتالهم ، جمع الصحابة يستشيرهم ، فخالفه قوم ، بينهم عمر بن الخطاب ، ورأوا ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم . قال عمر : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فن قلنا عصى مني ماله ودمه إلا بحقها ؟ » وأجابه أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق للمال . وقد قال : إلا بحقها » . قال عمر « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

ولما وقعت غزوة اليمامة واستشهد فيها من استشهد من حفاظ القرآن ، ذهب عمر ابن الخطاب إلى أبي بكر وهو بمجلسه من المسجد وقال له : « إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس . وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن . إلا أن تجمعوه . وإني لأرى أن تجمع القرآن » . قال أبو بكر وقد تولته الدهشة لما سمع « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » . ودار بين الرجلين حوار طويل انتنع الصديق على أثره برأى عمر ، فدعا زيد بن ثابت وذكر له اقتراح عمر بجمع القرآن وقال : « فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هو والله خير : فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدرى . ورأيت الذي رأى عمر » . ثم استطرد موجهاً الحديث لزيد فقال : « إياك رجل شاب عاقل ولا تهملك . كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه » قال زيد : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو بكر : هو والله خير

وأنتم زيد هذا الحديث فقال : فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر . فقام من مجلسه هذا فجعل يقتتب القرآن من الرقاع والأكتاف والعُسب وصدور الرجال حتى جمعه .

فلما انتهت حروب الردّة وبدأ غزو العراق وبعث خالد بن الوليد بأخماس الفء إلى المدينة ، أمر أبو بكر بالتسوية بين الناس في العطاء ، فقال له عمر : كيف تجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ؟ أو قال له : كيف تجعل من ترك داره وأمواله وهاجر إلى رسول الله كمن دخل في الإسلام كرهاً ؟ فقال له أبو بكر : إنما أسلموا لله وأجورهم على الله . وإنما الدنيا بلاغ . وقد رأيت أن عمر فرق بينهم في العطاء وجعلهم طوائف لما استخلف .

هذه أمثلة من اجتهاد أبى بكر في شؤون الدولة العامة ؛ وهى كما ترى ، شؤون كلها جليلة الخطر . وأما اجتهاده في الفقه فله : أنه ورث أم الأم دون أم الأب ، فقال له بعض الأنصار . لقد ورثت امرأة من مَيِّت لو كانت هى الميِّتة لم يرثها ، وتركت امرأة لو كانت هى الميِّتة ورث جميع ما تركت ، فرجع إلى التشريك بينهما .

وسئل أبو بكر عن الكَلَالَةِ فقال : أقول في الكَلَالَةِ برأى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فتنى ومن الشيطان ؛ الكَلَالَةُ ما عدا الوالد والولد .

أنت ترى مما سبق في هذا الفصل ، ومما سقناه في الفصلين الثالث والرابع حين تحدثنا عن عمر في صحبته النبى وفي عهد أبى بكر ، ما كان للفاروق من نصيب عظيم في اجتهاد الرأى ، أيّد بعضه القرآن ، وأقر بعضه رسول الله وأعجب به حتى كان يقول : « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » . وقد رأيت أن عمر استفتح عهده فأمر برد السبايا من أهل الردّة إلى عشائرم . على خلاف ما رأى أبو بكر من قبيله . وقال : إني كرهت أن يصير السبي سُنَّة في العرب ؛ وأنه لم يولّ على البعث الأول إلى العراق رجلاً من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كما كان يفعل أبو بكر ، بل ولّى عليهم أبا عُبَيْد الثقفى لأنه كان أول الناس انتداباً لهذا البعث بعد أن تقاعس الناس ثلاثة أيام ؛ وأنه عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجند بالشام ، مع أنه سيف الله بحديث رسول الله ، وأن أبا بكر

قال فيه : ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين ؛ وأنه أجلى اليهود والنصارى عن مواطنهم من شبه الجزيرة : وكان رسول الله ثم أبو بكر من بعده قد عقدا مع نصارى نَجْرَان عهداً على الجزية يدفعونها لقاء احترام المسلمين عقيدتهم ودفاعهم عنها . وهذا كله اجتهاد رأي من جانب عمر أبناً حكمته في مواضعه .

ثم إنك رأيت اجتهاد عمر رأيه بعد ذلك في مواطن كثيرة ، حسبنا أن نشير منها إلى اجتهاده في حدّ الخمر ، وفي اعتزال البلد الموبوء وعزله عن غيره من البلاد ، وفي التفريق في العطاء بين المسلمين حسب سببهم إلى الإسلام أو قرابتهم من رسول الله ، وفي أمور كثيرة غير هذه قضى بها تطور الأحوال في شبه الجزيرة وفي البلاد المفتوحة ، وسيقتضينا هذا الفصل أن نعود إلى الحديث في بعض هذه الأحوال ، وأن نتناول من اجتهاد عمر ما كان جليل الأثر في عهده ؟ وما كان لموافقته أو لخالفته من أثر بعد ذلك في حياة الإسلام والمسلمين .

ويحمل بنا ، قبل أن نفصل ما نرى تناوله من اجتهاد عمر . أن نذكر أن الفاروق كان يؤمن بأن الإسلام روح وعقيدة ، وأن الإنسان لا يكمل إيمانه حتى يدرك الروح الذي أوحى الله به دين الحق إلى رسوله . لذلك كان يطبق أحكام القرآن بالروح التي نزلت بها ، فإذا ثبتت عنده سؤة عن رسول الله من قول أو فعل ، عرف مناسبة هذه السؤة ليكون دقيقاً في الأخذ بها . من ثم كان يسترشد بالروح لا بالحرف عند الفصل فيما يُعرض عليه . وكان ، لعظيم إيمانه ولشدة امتثاله تعاليم رسول الله ، جريئاً في الاجتهاد ، وإن خالف ظاهر النص . . فإذا ورد نص لم يبقَ في أحوال الجماعة ما يقتضى تطبيقه لم يطبقه ، وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص أوله ، حريصاً في هذا وفي ذاك على ملائمة الحكم لأحوال المجتمع مع اتفاده في الوقت نفسه مع روح اللبديء والتعاليم الحمّدية السليمة .

أظهر جماعة من العرب الإسلام ، وكانوا سادة في قومهم ، فجعل الله لهم سهماً في الصدقات ، وأمر النبي أن يعطيهم سهمهم تألفاً لقلوبهم وتثبيتاً لإيمانهم ؛ هؤلاء هم المؤلفة قلوبهم وقد نص القرآن على عطائهم في قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ

لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ قُلُوبُهُمْ) . وكان رسول الله يعطيهم من النية ومن الزكاة . أعطى أبا سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعباس بن مرداس ، وصفوان ابن أمية ، وعُيَيْنَةَ بن حِصْن . وكان يعطي الواحد منهم مائة من الإبل . فلما ولي أبو بكر الخلافة أعطاهم كما كان يعطيهم رسول الله ، ثم جاءه عُيَيْنَةُ بن حصن والأقرع بن حابس يطلبان أرضاً فكتب لهما بها . فلما استخلف عمر ذهباً إليه يستوفيان مافي كتاب أبي بكر . لكن عمر مرق الكتاب وقال : إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم ، فإن تبتم إليه وإلا فيبيننا وبينكم السيف . ثم منع هذه الطائفة كلها ما كان لها من نصيب في الزكاة ، وجعلها كنزها من المسلمين .

هذا اجتهاد من عمر في تطبيق نص من نصوص كتاب الله . وهو لا ريب اجتهاد موفق . فإنما فرض الكتاب لهذه الطائفة من العرب حين كان الإسلام في حاجة إلى تأليفهم . فلما عز الإسلام زالت الحاجة فلم يبق للعطاء مسوغ . ولو أن عمر وجد في الفرس أو في الروم من يحتاج الإسلام إلى تأليفهم لفرض لهم . وهو قد فرض للهرمان بالفعل حين جاء المدينة ثم أسلم . من ثم كان هذا الفرض معلقاً على الحاجة إلى من فرض له ، فإذا زالت الحاجة سقط الفرض . هذه روح النص ، ويجب لذلك تطبيقها كما طبقها عمر . واجتهد عمر في نص من كتاب الله اجتهاداً يخالفه اليوم فيه ؛ فقد قال تعالى : (الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) ، ثم قال : (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ) . وجلي أن المقصود من هذا النص أن يقطع الطلاق بالفعل مرة فرة ، وللزوج بعد كل من المرتين أن يراجع زوجته ، فإذا طلقها الثالثة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره . وحكمة هذا النص واضحة ؛ فالطلاق فسمٌ لحياة الزوجية تترتب عليه نتائج خطيرة لكل من الزوجين ، وتعمدها لأبناهما ، وكثيراً ما يسوء أثرها في هؤلاء الأبناء طيلة حياتهم . لذلك أباح الكتاب مراجعة الزوج زوجته بعد الطلقة الأولى ، وبعد الطلقة الثانية ، وأشار إلى أن الطلاق يجب أن يسبقه سعى للتوفيق بين الزوجين في قوله تعالى : (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) . فإذا تعذر التوفيق وقعت الفرقة

بالطلاق جازت المراجعة مع ذلك مرتين . ولكيلا يستخف أئى الزوجين بعد ذلك بفهم عروة الزواج ، فرض الكتاب ألا يحل للزوج مراجعة زوجته بعد الطلاق الثالث حتى تنكح زوجاً غيره . فإذا قال الرجل لزوجته : أنت طالق ثلاثاً ، لم تكن إلا طلاق واحدة ؛ لأن الطلاق فعل يقع لا قولاً يلفظ . وكان ذلك الشأن فى عهد النبي وفى عهد أبى بكر . جاء فى صحيح مسلم عن ابن عباس أنه قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا فى أمر قد كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيتم عليهم ! فأمضاه عليهم .

كيف رأى عمر هذا رأى وأمضاه على الناس مع مخالفته ظاهر النص وظاهر الحكمة ؟ يجب لندرك ذلك أن نرجع إلى السبب فى نزول الآية : (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِنْ سَكَتَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ) . روى ابن جرير فى تفسيره ما ذكره بعضهم من : « أن هذه الآية أنزلت لأن أهل الجاهلية وأهل الإسلام قبل نزولها لم يكن لطلاقهم نهاية تبين بالانتهاء إليها امرأته منه ما راجعها فى عدتها منه . فجعل الله تعالى ذكره لذلك حداً حرّم بانتهاء الطلاق إليه على الرجل امرأته المطلقة إلا بعد زوج وجعلها حينئذ أملاً بنفسها منه » . وروى أن رجلاً قال لامرأته على عهد النبي صلى الله عليه وسلم : لا آويك ولا أدعك تحلين ! فقالت له : كيف تصنع ؟ قال : أطلقك فإذا دنا مضى عدتك راجعتك ، فتحنين ! ؟ — أى لغيره — فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِنْ سَكَتَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ) ، فاستقبله الناس جديداً ، من كان طلق ومن لم يكن طلق وعن قتادة أنه قال : « كان أهل الجاهلية كان الرجل يطلق الثلاث والعشر وأكثر من ذلك ثم يراجع ما كانت فى العدة ، فجعل الله حدّ الطلاق ثلاث تطليقات » .

يتضح من هذا السبب فى نزول الآية أن تحديد حق الرجل فى مراجعة زوجته ، مادامت لم تبين باقضاء عدتها ، وجعل المراجعة مرتين لا أكثر ، إنما أريد به ألا يضار الرجل المرأة وألا يذرهما كالمعلقة حياتها . وهذا رفق بالمرأة يتفق وروح الإسلام . فقد ذهب القرآن فى هذا الرفق بالنساء كل مذهب ، فأمر أن تبقى المطلقات للمرتين

الأوليين في بيت الزوجية طول عِدَّتِهِنَّ ، وأن تحسن معاملتهن ، فقال : (لَا تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ^(١)) وقال : (والمطلقات مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) وقال : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ^(٢)) . وقال : (وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ^(٣)) . وقال : (وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ^(٤)) هذه الآيات وغيرها تحرّم على الزوج أن يضار زوجته ، وترى المضارة إنما عظيماً . وقد فرض الله المراجعة للإصلاح . فإذا تبين أن الإصلاح غير ممكن ، وتبين أن مراجعة الزوج زوجته لا يقصد بها إلا المضارة ، لم تبق حكمة المراجعة قائمة .

وأكبر الظن أن الذين كانوا يطلقون نساءهم في عهد عمر لم يكونوا رجماء بهن بعد طلاقهن . ذلك أن سبايا العراق والشام كثُرُنَ وافتُتِنَ بهن أهل المدينة وأهل شبه الجزيرة ، فكانوا يسارعون إلى طلاق نساءهم مبالغة في إرضاء من شَغِفَتْ قلوبهم بهن ، وكانوا يذكرون الطلاق الثلاث في كلمة واحدة حتى تطمئن ذات الدل على أنها أصبحت المنفردة بقلبه .

ولعل أسباباً أخرى دفعت جماعة من المسلمين في هذا العهد الأول إلى العبث بالطلاق الثلاث استهتاراً وضرراً . من ذلك أن يتزوج الرجل أخرى عربية أو أعجمية من غير السبايا ، فقتل شرط عليه أن يطلق زوجته الأولى ثلاثاً فلا تحمل له من بعد حتى تنسكح زوجاً غيره . فإذا راجعها مع ذلك أثارت مراجعته لها في البيت نزاعاً لا تستقر معه على حال ولا تطمئن به حياة .

مثل هذه الأسباب هي التي دعت عمر إلى فتواه ، وإمضائه طلاق الثلاث بكلمة واحدة كأنه ثلاث طلاقات متفرقات . فقد رأى أن الرجل إذا بلغت به الاستهانة بَعْدَ الزواج ، فجمع الطلاق الثلاث في واحدة كان رجلاً مستهتراً يجب أن يحمل وزر استهتاره ؛ وذلك قوله : « إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيها عليهم » .

(١) آية ١ سورة الطلاق . (٢) آية ٢ سورة الطلاق . (٣) آية ٢٢٨ سورة البقرة .

(٤) آية ٢٣٢ سورة البقرة .

هذا اجتهاد رأي خالف عمرَ فيه من بعد غير واحد من الفقهاء ، وخالفه أهل عصرنا الحاضر في طائفة من البلاد الإسلامية . ولا ضير على عمر من ذلك ، ولا ضير منه على مخالفيه ؛ فعمرو وغيره من الصحابة لم يكونوا يُفتنون برأيهم على سبيل الإلزام ولا على أنه وحده الحق ، بل على أنه رأى إن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمن صاحبه ، فهو يستغفر الله منه . لقي عمر رجلاً له قضية فسأله : ما صنعت ؟ قال : قضى علىّ وزيدٌ بكذا . قال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا ! قال الرجل : فما يمنعك والأمر إليك ؟ وأجابه عمر : لو كنت أردّك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لفعلت . لكنني أردّك إلى رأيي ، والرأي مشترك . ولهذا لم ينقض ما قضى به عليّ وزيد وأبدي عمر يومًا رأياً ، فقال قائل : هذا ما رأى الله ورأى عمر ، فاتهره عمر بقوله : بئسما قلت ! هذا ما رأى عمر ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر . وأمسك هنيئة ثم قال : السنة ما سنّه الله ورسوله . لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة .

أما وقد ذكرت اجتهاد عمر في الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ومخالفته فيه ظاهر النص وظاهر الحكمة للأسباب التي قدّمت . فيجمل بي أن أشير إلى أنه اجتهد في غير هذه ، من مسائل الزواج والطلاق وحقوق الزوجية والأمومة ، اجتهداً كان له أثر في التشريع الإسلامي من بعد . فقد نهى عن نكاح المّثمة ، فجرى المسلمون من أهل السنة على رأيه من يومئذ . ومنع بيع أمهات الأولاد وكن يُبعن في حياة الرسول وفي عهد الصديق . وقد أراد عليّ بن أبي طالب أن يرجع في خلافته إلى بيعهن ، وقال إن عدم البيع كان رأياً اتفق عليه هو وعمر ؛ فقال قاضيه عبدة السلماني : رأيك ورأى عمر في الجماعة أحب إلينا من رأيك وحدك . وأجابه عليّ ؛ اقضوا كما كنتم تقضون ؛ وذلك لأنه كره الخلاف ، وأفتى عمر في المطلقة وزوجها من غير زوجها الأول في العدة ، وميراثها قبل انقضائها ، وما يتصل بذلك بفتاوى لا يزال أكثرها معمولاً به إلى اليوم .

لا أراني بحاجة إلى أن أعود إلى القول فيما قرره عمر حدّاً لشارب الخمر ، وقد سبقت فذكرت ذلك من قبل . وحسبي أن أذكر هنا أن عمر اجتهد في تقرير هذا الحد بالقياس إلى حد القذف الوارد في القرآن . والرأي والاجتهاد والقياس واحد . وهذا

الاجتهاد حق لولي الأمر الذي يملك أن يشرع في حدود الكتاب والسنة .
ولعمر موقف من سنة رسول الله جدير بالوقوف عنده ؛ فقد كان عمر من أثبت
المسلمين إيماناً بالله ورسوله ، ومن أشدهم حرصاً على اتباع ما جاء به الرسول من عند الله ،
وعلى التأسي به صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله . لكنه كان شديد الحرص كذلك على
ألا يشوب كتاب الله بشيء ، وعلى أن يحول دون ما قد يصرف المسلمين عن الكتاب
الكريم . وهو في ذلك قد كان متبعاً سنة رسول الله وسنة أبي بكر من بعده . روى عن
رسول الله أنه قال : « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ، ومن كتب شيئاً غير القرآن
فليمحه » . وقال : « إنكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب
الله فما وافقه فني وما خالفه فليس عني ^(١) » .

وكان هذا الحرص رأى عمر في حياة النبي إلى حين وفاته . روى عن ابن عباس أنه
قال : لما حضر النبي صلى الله عليه وسلم قال — وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب —
« هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ^(٢) » . فقال عمر : إن النبي صلى الله عليه وسلم
غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ؛ فحسبنا كتاب الله . واختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من
يقول : قرّبوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لن تضلوا بعده : ومنهم من

(١) طعن بعضهم في نسبة هذا الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال الشافعي : ما رواه أحد
عن يثبت حديثه في شيء صغير ولا كبير . وذهب بعضهم إلى أنه من وضع الزنادقة . مع هذا أثبت
الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حديثاً يشبهه تمام الشبه في معناه وإن اختلف عنه في لفظه . ذلك أن
أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جاءكم عني من خير قلته أو لم أقله فأنا أقوله ،
وما أتاكم عني من شر فأنا لا أقول الشر . وإنما طعن الذين طعنوا في حديث : ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب
الله إلخ ، لما رأوه من معارضة لما رواه المقدم بن معد يكرب الكندي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « ألا إنّي أوتيت القرآن ومثله معه . ليوشك الرجل متسكئاً على أريكته يحدث بمحدثي فيقول
بيننا وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من حلال استحللناه ؛ وما وجدنا فيه من حرام حرمناه .
ألا وإن ما حرم رسول الله فهو مثل ما حرم الله » . ولست أرى معارضة بين هذا الحديث وبين القول
بأن ما ينسب إلى رسول الله لا يمكن أن يخالف ما في كتاب الله . فالطبعي ألا يخالف حديث رسول الله
ما أوحاه الله إلى رسوله ، كما أن الطبيعي أن ما نسب إلى رسول الله من خير فرسول الله يقول ؛ لأنه يقول
الحق ولا يقول الشر .

(٢) وفي بعض الروايات أنه قال : لمتوني بقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، أو قال :
لمتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً .

يقول ما قال عمر . فلما كثّر اللفظ والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قوموا عني » ، وكان ابن عباس يقول : « إن الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولنظهم » فكان ذلك — والله أعلم — وحياً أو حاه الله أنه إن كتب لهم ذلك الكتاب لم يضلوا بعده ألبتة ، فتخرج الأمة من مقتضى قوله : (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) بدخولها تحت قوله : (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّكَ) . فأبى الله إلا ما سبق في علمه من اختلافهم كما اختلف غيرهم .

هذا رأى ابن عباس . أما عمر فظل على الرأى الذى قال به : « حسبنا كتاب الله » وقد اتبع المسلمون هذا الرأى في خلافة أبى بكر وفي خلافته إلا ما نثت لهم بطريق القطع اليقين أن رسول الله قاله .

روى عن أبى بكر أنه جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال : « إنكم تحدّثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها . والناس بعدكم أشدّ اختلافاً فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه » فلما استخلف عمر سار على سنة أبى بكر هذه ، وأمر الناس ألا يحدّثوا عن رسول الله حتى لا يختلفوا . وقد بلغ من شدته في تنفيذ هذا الأمر أن حبس ثلاثة من كبار الصحابة هم ابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو مسعود الأنصارى ، لأهمّ أكثروا الحديث عن رسول الله هذا مع شدة احتياطهم في روايتهم : وقد كان من أثر ما أمر به عمر أن قلت رواية الحديث حتى قال أبو عمر والشيبانى : كنت أجلس إلى ابن مسعود حولاً لا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلته الرعدة وقال : هكذا أو نحو ذا أو قريب من ذا . وكان أبو هريرة ممن يكثرون الحديث عن رسول الله بعد عهد عمر ، فسأله . أبو سلمة يوماً : أكنت تحدّث في زمان عمر هكذا ؟ فقال : لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفّقه .

وسير عمر قرظة بن كعب وجماعة معه إلى العراق ومشى معهم ، فلما فصلوا عن المدينة سألهم : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم ، مكرمة لنا . قال : ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دو بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوم بالأحاديث فتشغلهم . جوّدوا القرآن وأقلا

الرواية عن رسول الله وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قال له أهل العراق : حدثنا عن رسول الله ، فقال : نهانا عمر .

نهى عمر عن رواية الحديث ، واشتد في تنفيذ أمره بذلك ؛ مع هذا روى الناس الأحاديث في مناسبات لم يكن لعمر قبل بمنعهم عن الرواية فيها . والقضايا أهم هذه المناسبات ؛ فما قضى به رسول الله حجة ويقاس عليه . لم يجد أبو بكر في كتاب الله ميراثاً للجدة يقضى به لامرأة جاءته تطلب ميراثها ، فقال المغيرة بن شعبه : سمعت رسول الله يعطيها السدس ، وشهد محمد بن مسleme بمثل ذلك ، فقضى به أبو بكر . وسلم رجل على عمر ابن الخطاب من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له فرجع ، فأرسل عمر في أثره وسأله : لم رجعت ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سلم أحدكم ثلاث مرات فلم يُجب فليرجع » ، فطلب منه عمر البيعة على هذا الحديث فجاءها . وكان قضاء عمر يقضون بكتاب الله وسنة رسوله ، فإذا جاءهم خصمٌ بمحدث أو سنة عن رسول الله تبيّنوا ما جاء به ، فإذا ثبت قضوا به . وما كان عمر ليستطيع أن يمنع الاستشهاد بالحديث أو بالسنة في القضاء كما منع رواية الحديث . وقد خشي أن تكثر الرواية لهذا السبب ، وأن تدفع المصلحة بعضهم لاختلاق الأحاديث والتحايل على إثبات صحتها ، فيكثر الحديث الكذب . لذلك فكر في كتابة السنن حتى لا يزيد أحد عليها ، كما أشار على أبي بكر من قبلُ بجمع القرآن . لكنه لم يلبث حين عاود التفكير في الأمر أن تردد فيه ؛ فدعا أصحاب رسول الله فاستشارهم ، فوافقه أكثرهم وأشاروا عليه بكتابة السنن . وقضى شهراً يفكر في الأمر ويستخير الله فيه : أيقدم عليه أم يُحجم عنه . ثم إنه أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال للناس : إني كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا أنا من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً ! . وعدل عن كتابتها وكتب في الأمصار عنها : « من كان عنده شيء فليمحه » .

أكان عمر على حق حين عدل عن كتابة السنن وأمر بحرق ما كان مكتوباً منها ، أم كان مخطئاً فكان لخطئه نتائج من بعد ؟

تستطيع أن تقول إنه أخطأ ، وإن مرَّ الزمن دل على خطئه ؛ فقد بدأت الأحاديث من بعده تتوالد وتتداول إلى غير حد . فمذ عادت الحصومة بين بنى أمية وبنى هاشم إلى الظهور في أعقاب مقتل عثمان ، ثم لما قامت الحرب الأهلية بين عليٍّ ومعاوية فخاضت عائشة عليًّا وأيدَّ عليًّا من أيده ، كثرت الأحاديث الموضوعة لعليٍّ وعليه كثرة أنكرها عليٌّ في حياته فقال : « ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا ما في القرآن ، وما في هذه الصحيفة أخذتها من رسول الله وفيها فرائض الصدقة » . ولم يَقِفْ هذا القول واضع الحديث عن وضعه لهوى يدعو الناس إليه ، أو لفضائل يحسبون أن الناس أحرص على اتباعها حين ينسب إلى رسول الله حديثها . وكثرت الأحاديث الموضوعة لأغراض سياسية أو غير سياسية كثيرة راعت المسلمين لمنافاة الكثير منها لما في كتاب الله . ولم تنجح المحاولات التي بُذلت لوقفها في زمن الأمويين ، بل جعلت تزداد وتتضاعف كل يوم عما قبله . فلما كانت الدولة العباسية وجاء المأمون بعد قرابة قرنين من وفاة النبي ، كان قد أذيع من هذه الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف ومئاتها ، وبينها من التضارب وفيها من التهافت ما لا يخطر بالبال . وَحَسْبُكَ لتقدَّر ذلك أن تذكر أن البخاري ألغى الأحاديث المتداولة تُرى على ستمائة ألف حديث ، لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف حديث ، وأن أبا داود جمع خمسمائة ألف حديث لم يصح لديه منها غير أربعة آلاف وثمانمائة ؛ وكثير من هذه الأحاديث التي صحَّت عند جامعي الحديث نقدها غيرهم من العلماء والفقهاء . فلو أن عمر جمع ما صح لعهد من الأحاديث والسنن لوقف توالدها من بعده ، ولما أصبح الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، على تعبير الدَّارَقُطَنِيِّ ، ولأمكن أن يتحقق ما روى عن معاوية أنه قال : « خذوا من الحديث بما كان في عهد عمر فإنه قد أخاف الناس في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أما ولم يفعل ، فكثرت رواية الحديث ، ولم يعد الناس يعرفون ما كان في عهد عمر وما وضع من بعده ، وترتب على ذلك من ابتداع الأحاديث ما رأيت ، فذلك الدليل على أن عمر أخطأ حين عدل عن جميع السنن ، وأمر بمحو ما كان مكتوباً منها . تستطيع أن تقول هذا ، وأن تكون لك شبهة فيه ، بعد أن بلغ عدد الأحاديث في عهد

المأمون ستائة ألف حديث ، لم يصح منها إلا أربعة آلاف تعرض الكثير منها للتفنيد والطمع من بعد . لكنك تكون غير منصف في هذا الحكم وإن قامت لك الشبهة فيه ؛ فقد كان عمر يحسب أن الذين يخلفونه من أمراء المؤمنين سيديرون سيرته في النهي عن رواية الحديث ، وسيحبسون مثله من يُكثرون الحديث عن رسول الله . فإذا لم يفعل هؤلاء الخلفاء ، بل تفاضوا متعمدين عن الأحاديث توضع لأسباب سياسية وغير سياسية ، وشجع بعضهم على وضعها ، فالذنب في ذلك ليس ذنب عمر ، بل ذنب أولئك الخلفاء . والذين شجعوا منهم على وضع الأحاديث أعظم وزراً وأكبر جريرة . أفيكون من العدل ، والأمر كذلك ، أن ينسب الخطأ إلى عمر ؟ .

وهبَّ عمر أمر بكتابة السنن ، ثم حدثت الفتنة من بعده وقامت الحرب الأهلية بين عليٍّ ومعاوية ؛ وبين الأمويين وبنى هاشم ، واتخذت رواية الحديث عن رسول الله أداة دعابة في هذه الحرب وهذه الفتنة ، أترى أن الناس كانوا يصدّون عن كتابة هذا الحديث الموضوع وروايته ؟ أم ترى كان الدعاة السياسيون يشجعون عليه ويجمعون منه مثل الذي جمع عمر ، ثم يُضفي أصحاب المصاحبة فيه من سلطانهم الرسمي عليه مالم يُضف مثله أحد على ما جمعه البخاري وسائر الأئمة الحديث من بعد ، ولا يكون عجباً بعد ذلك أن يصبح لهذه المدونات الرسمية من القيمة الدينية ما خشيهِ عمر حين قال : « والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً » . وحين قال : « ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله » ؟ وكانت عبارة عمر هذه يزداد مدلولها تحقّقالو أنه كتب السنن ثم لم تحدث الفتنة ولم يوضع الحديث الكذب ، ولم تبلغ كثرته حتى يصبح الحديث الصحيح فيه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود . فما كان كتاب عمر ليحتوى السند الذي يرفع به الحديث إلى النبي ، بل كان زيد بن ثابت أو غيره من كبار الصحابة يتولّى تحقيق ما يذكر له من الأحاديث في نصّها ونسبها ، ويثبتها على أنها من كلام رسول الله لا ريب فيها . عند ذلك كان الناس يحدون أمامهم كتابين : أحدهما أوحاه الله إلى رسوله ليبلغه للناس ، والآخر حدث رسول الله به الناس ، ويكون الكتابان مقترنين في زمن التدوين . وقد يؤدي ذلك إلى ما خشيهِ عمر من إقبال الناس على كتاب الحديث وتركهم كتاب الله . لهذا

الأمر احتاط عمر ، فجعجج في احتياطه كل النجاح . فكتاب الله لا يزال ولن يزال بين أيدي الناس أوحاه إلى رسوله هدى للناس ورحمة ونوراً . فأما ما جمعه الجامعون المحققون من بعد من حديث رسول الله مسنداً إلى رواته ، فلا يشوب كتاب الله به أحد ، ولا يُقبل عليه ويدع كتاب الله من أجله أحد ، بل ينظر الناس إليه نظرة الإكبار والإجلال تقديرًا لمن أسند إليه ، ثم لا يحول ذلك بينهم وبين تمحيصه بعرضه على كتاب الله ، ونقده من جهة السند والمتن .

أحسبك ترى بعد الذي سبق أن اجتهاد عمر في تدوين الحديث ، وانهاءه إلى العدول عنه ، اجتهاد له ما يسوغه ، وافقته أنت على رأيه أو خالفته فيه .

أما واجتهاد عمر ما رأيت ، فأحر به أن تطمئن له نفوس المسلمين . وذلك ما كان . وأنت لذلك تستطيع أن تسمى عمر إمام المجتهدين ، فلا يهتمك أحد بنقل أو مبالغة على أن عمر لم يقصد قط إلى الاجتهاد النظري ولم يرض عنه ، علماً منه بأن هذا الاجتهاد يؤدى إلى الاختلاف ، وهو أشد الناس كراهية له . سمع يوماً عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب يختلفان في صلاة الرجل في الثوب الواحد أو الثوبين ، فصعد المنبر وقال : « رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفا ، فعن أى فتياكم يصدر المسلمون ، لا أسمع اثنين يختلفان بعد مقامى هذا إلا فعلت وصنعت » . وكان يقول : « لا تختلفوا ؛ فإنكم إن اختلفتم كان من بعدكم أشد اختلافًا . وكانت الدعوة إلى عدم الاختلاف بعض رأيه منذ أسلم . وكان لذلك يلعب من سأل رسول الله عما لم يكن . فلما استُخلف دفعته شدة الحرص على اتفاق كلمة المسلمين ألا يُصدر رأى قبل أن يستشير كبار الصحابة ويناقشهم فيه ، حتى يطمئن كل الاطمئنان إلى رأى الذى يصدره . قال الدهلوى في كتابه (حجة الله البالغة) : « كان من سيرة عمر رضى الله عنه أنه كان يشارو الصحابة وينظرهم حتى تنكشف الغمة ويأتيه الثلج ، فصار غالب قضاياه وفتاواه متبعة في مشارق الأرض ومغاربها^(١) » . ولذلك كان ابن مسعود

(١) ج ١ ص ١٠٥ . والمراد بقوله « يأتيه الثلج » أى تستريح نفسه كل الراحة ، ويطمئن ضميره كل الاطمئنان .

يقول : « كان عمر إذا سلك طريقاً وجدناه سهلاً » .

والفقه الإسلامى مدين لاجتهاد عمر بما لا يقلّ عن دين السياسة الإسلامية لحسن رأيه ؛ وصدق إيمانه وعزمه ، فى إقامة الإمبراطورية . فقد قرر مبادئ وآراء فى الفقه أخذ بها الذين جاءوا من بعده ، وعدّوا صدورها عنه حجة على صحتها . والكثير من هذه المبادئ خطير الأثر جليله ؛ وهو لذلك باق إلى اليوم يطبّق ، فى الفقه الإسلامى وفى غير الفقه الإسلامى من الشرائع ، على أنه من المبادئ العالمية التى لا تقبل نقضاً .

من هذه المبادئ مبدأ الضرورة ؛ فقد قرر الكتاب ، للقتل والسرقة والزنا وللقذف ولقطع الطريق ، حدوداً هى حدود الله . وقال : (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ^(١)) . مع ذلك رأى عمر أن يدرأ الحد بالضرورة استناداً إلى قوله تعالى : (فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بِأَيْغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٢)) .

جاءوه يوماً بامرأة زنت وأقرت فأمر برجمها . فقال على بن أبى طالب : لعل بها عذراً ! ثم قال لها : ما حلك على ما فعلت ؟ قالت : كان لى خليط ، وفى إبله ماء ولبن ، ولم يكن فى إبلى ماء ولا لبن ، فظممت فاستسقيته فأبى أن يسقيني حتى أعطيه نفسى ، فأبيت عليه ثلاثاً . فلما ظممت وظفنت أن نفسى ستخرج أعطيته الذى أراد ، فسقانى . قال على : الله أكبر ! (فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بِأَيْغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وفى السنن لا يهتق عن أبى عبد الرحمن السلى أن عمر أتى بامرأة جهدتها العطش ، فمرت على راع فاستسقت فأبى أن يسقيها إلا أن تمسكته من نفسها ففعلت ، فشاور الناس فى رجمها فقال على : هذه مضطرة أرى أن تُخلى سبيلها ، ففعل .

وروى أن غلاماً للحاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزيّنة . فأتى بهم عمر فأقرّوا ، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم . فلما ولى رده ثم قال : أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجميعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرّم الله عليه حلّ له ، لقطعت أيديهم . ثم وجّه القول إلى عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة فقال : وأيمنُ الله إذ لم أفعل ذلك لأعزمتك غرامة تُوجعك ! ثم قال : يأمُرنيّ ، بكم أريدت منك ناقتك ؟

(١) آية ٤٧ سورة المائدة . (٢) آية ١٧٣ سورة البقرة .

قال : بأريائة . قال عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة ، وأعفى الغلمان السارقين من الحد ؛ لأن حاطباً اضطرهم إلى السرقة لجوعهم وحاجتهم إلى سد رمقهم .

ومن البادىء التي قررها عمر ، وهى جارية اليوم فى أكثر الأمم حضارة ، مبدأ المساواة أمام القضاء . كتب بذلك إلى أبى موسى الأشعرى وإلى غيره من قضائه كما رأينا ونفذه هو فى قضائه بدقة بالغة . وقد ذكرنا من قبل امتثالاً على ما فعله من ذلك . وقصة جبلة بن الأيهم الغسانى من الأمثلة البارزة فى هذا الصدد . ويمجى مجرى هذه الفصحة ما حدث حين خاصم يهودى على بن أبى طالب إلى عمر ومكانة على من رسول الله ومن المسلمين جميعاً لا تخفى . مع ذلك قال له عمر : قم يا أبا الحسن واجلس أمام خصمك ، أو قال له : ساوِ خصمك يا أبا الحسن . فساوى على خصمه وجلس أمامه وقد بدا التأثير على وجهه . فلما انتهت الخصومة قال عمر : أكرهت يا على أن تجلس أمام خصمك ؟ والرواية نجري بعد ذلك بأن علياً أجابه : كلا ! ولكنى كرهت أنك لم تسو بيننا حين قلت يا أبا الحسن . يريد أن الكنية تشير إلى التعظيم وعبارة على هذه لا تنفى أن عمر كان شديد الحرص على المساواة بين الناس أمام القضاء ، وأنه كان يرى هذه المساواة من أول مقتضيات العدل ، بغض النظر عما فى نفس القاضى من تقدير خاص ومن محبة أو كراهية لأحد الخصوم .

وأثر هذه المساواة وإدخالها الطمأنينة إلى نفوس المتقاضين يبدو فى حوار طريف ، ساقه ابن طباطبا فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » ، حين قال عمر لرجل : إني أحبك . فسأله الرجل : فتنقصنى من حق شيئاً ؟ قال عمر : لا . قال الرجل : فما يفرح بالحب بعد هذا إلا النساء .

قد تحسب أن مبدأ المساواة أمام القضاء ليس اجتهداً فى الفقه ، وأن ذكره عند الكلام عن اجتهد عمر تجاوز لا يجوز . والحق أنه اجتهد أى اجتهد ؛ فكثيرون لا يزالون يجاهدون إلى اليوم فى بعض الأمم لتقرير هذا المبدأ ، وهو لم يتقرر فى أم أخرى إلا من زمن قريب . وحسبى أن أذكر ما كان قائماً من امتيازات للأجانب فى التشريع والقضاء فى الإمبراطورية العثمانية إلى زمن قريب ، وما لا يزال باقياً من ذلك فى مصر إلى

أن تزول بقيته الباقية ، لترى أن ما قرره عمر كان فقها كل الفقه ، واجتهاداً كل الاجتهاد . فإذا ذكرت إلى جانب ذلك أن الثورات التي قامت في أوروبا ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للمسيحيين ، إنما كان مرماها الأول تحقيق هذه المساواة أمام القانون وأمام القضاء ، وأن مبدأ المساواة كان في مقدمة المبادئ التي قررتها الثورة الفرنسية وأثبتتها وثيقة حقوق الإنسان ، لم يبق لديك ريب في أن هذا الرأي الذي اجتهد به عمر من صميم الفقه ، وأن عمر واجه به تطور العرب من حال البداوة القَبَلِيَّة التي لا تعرف الولاية العامة والقضاء العام ، إلى حال الحضارة ونظامها الإسلامي القائم على أساس من المساواة أمام الشرع وأمام من ينفذون الشرع .

ومن صميم الفقه الذي واجه به عمر التطور الجديد في الحياة العربية اجتهاده في تفصيل ما لم يرد عنه نص صريح في كتاب الله فقد وضع القرآن نظاماً للتوريث لم يكن معروفاً قبل الإسلام ، وفرض لسكل ذى حق من الورثة حقه . على أن من التفاصيل ما لم يكن عليه نص في هذا النظام . وقد رأيت ما كان من أذى بكر في توريث أم الأم . وقد رفعت لعمر مسائل أخرى لم يكن عليها نص في كتاب ولا سنة ، فلم يكن بدَّ لحلها من اجتهاد الرأي . من ذلك المسألة المعروفة بالمسألة العُمريَّة ، أو المسألة الحجريَّة ؛ فقد تَسمت تركة فأصاب أخو المورث لأمه فرضه ، ولم يبق لأخى المورث الشقيق ما يرثه . فلما رُفِع الأمر إلى عمر أفتى بأن الأخ الشقيق أخ لأم وأخ لأب معاً ؛ فليس من الإنصاف أن يحرم لأنه شقيق ، ولذلك قال : هَبُوا أباه كان حجراً ، وفي رواية كان حماراً ، وورثته من التركة على أنه أخ لأم يشترك مع غيره من الإخوة لأم .

وقد واجه عمر الشيء الكثير من مشاكل الميراث بعد طاعون عَمَواس بالشام ؛ فقد هلك ألوف بهذا الطاعون ، وتداخلت مواريتهم تداخلاً كان يشمل دور القضاء في أية أمة من الأمم الأعوام الطوال . فلما برئت الأرض ذهب عمر إلى الشام بنفسه ، فنظم مصالحه وودَّع أموره ، وكان مما صنعه أن قسم للمواريث فورث بعض الورثة من بعض وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم . وتستطيع أن تتصور الدقة في هذا الأمر ، وما يمكن أن يثور بسببه من نزاع . وليس من غرضي أن أفصّل شيئاً من ذلك ، وإنما أشير إليه

تفويضاً باجتهاد عمر في مشكلة عويصة حلها في أسابيع حلاً رضيهِ المسلمون جميعاً مع تعلقه بمنافعهم الخاصة ، وهذا دليل بالغ وحجة قاطعة على أن الناس يطعنون إلى اجتهاد الرأي ما قام على أساس عادل نزيه .

أنتقل الآن إلى مسألة كان اجتهاد عمر فيها متأثراً بسياسيته العامة لأُمور الإمبراطورية الفاشئة ، وبجرسه على مواجهة أطوارها الجديدة ، وكان له أثره في ازدياد رقعتها فسحة وسعة ؛ ذلك اجتهاده في شأن الأرض التي فُتحت عنوة بالعراق والشام .

وقد رأيت المسلمين في العراق والشام انتصروا بالقادسية ؛ وفتحوا المدائن وجولاء وحصص وحلب وغيرها من المدن وغنموا منها ، فكان ماغنموه يُفَرَزُ خمسة ويرسل إلى أمير المؤمنين ، وتقسم أربعة أخماسه بين الجند المنتصرين ؛ وذلك عملاً بقوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَنْبِئِ السَّبِيلَ^(١)) فلما فتحوا أرض السواد بالعراق أراد قسمتها على هذا النحو ؛ يكون خمسها لبيت المال ، ويقسم سائرهما بين الجند الذين اشتركوا في فتحها . وخالفهم عمر عن رأيهم في قسمة الأرض وقال : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلاجها قد قُسمت ووُريت عن الآباء وحيزت ! ما هذا برأى قال عبد الرحمن بن عوف : ما الأرض والعلاج إلا ما أفاء الله عليهم ! أي على الفاتحين . ورد عليه عمر : ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ؛ والله ما يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نَيْل ، بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين . فإذا قُسمت أرض العراق بعلاجها ، وأرض الشام بعلاجها فماذا تُسدُّ به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ! لم يسترح الفاتحون إلى قول عمر ، فأكثرُوا عليه وقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ! أما عمر فأصر على رأيه ، ولم يزد على أن قال : هذا رأي فلما رأوا إصراره عليه قالوا : فاستشِرْ . فجمع المهاجرين الأولين فاختلفوا : بقي عبد الرحمن بن عوف على رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعليٌ وطلحة رأى عمر . وأرسل عمر إلى عشرة من كبراء الأنصار وأشرفهم ، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج

وقال لهم : « إني لم أزعجكم إلا لتشاركوا في أمانتي فيما حُمِلت من أموركم ؛ فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرّون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ؛ فلكم من الله كتاب ينطق بالحق . فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق ! » . قالوا : « قل نسمع يا أمير المؤمنين ! » قال عمر « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا ! لئن كنت ظلمتهم شيئًا هو لهم وأعطيتهم غيرهم لقد شقيتُ . لكنني رأيت أنه لم يبق شيء يُفْتَحُ بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعالجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجتُ الخمس فوجّهته على وجهه ، وأنا في توجيهه . وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلاجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فينا للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم . رأيتم هذه الثغور ، لا بدّ لها من رجال يلزمونها ! رأيتم هذه المدن العظام ، لا بدّ لها من أن تشحن بالجيوش ، ولا بد من إدراج العطاء عليهم ! فن أين يُعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلاج ؟ » .

أرأيت إلى هذا الخطاب وإلى ما فيه من الحجج ؛ فهو يشهد بأن الجدل بين عمر وبين الذين يزعمون لأنفسهم حقًا في أرض العراق قد كان عنيفًا ؛ بلغ من عنفه أن اتهم أمير المؤمنين بالظلم ، وأن أصر أمير المؤمنين مع ذلك على رأيه ، غير معتمد في هذا الرأي على نص في الكتاب أو سنة سبقت من رسول الله ، بل على المنفعة العامة للدولة وسياستها هو إذا رأى اجتهد عمر ، وساق من الحجج في تأييده ما أقنع عثمان وعليا وطلحة ، وما أقنع هؤلاء الأنصار العشرة الذين سمعوا له ، فقالوا جميعًا : « الرأي رأيك . فنعم ما قلت وما رأيت ! إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدّتهم » .

اطمأن عمر إلى رأيه ولم يبق للخالفية ما ينقضونه به ، فقال : قد بان لي الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العالج ما يحتملون ؟ واجتمع رأي القوم على عثمان بن حنيف وقالوا : تبعته إلى أهم ذلك ، فإن له بصيرًا وعقلا وتجربة . وولاه عمر أرض السواد ، فكان من حسن تصرفه أن أدّت جباية الكوفة وحدها قبل عام

من مقتل عمر مائة ألف ألف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن النقال .
خير ما يصور الرأي الذى انتهى إليه عمر فى قسمة مغانم الحرب كتابه الذى بعث به
إلى سعد بن أبى وقاص ، بعد أن شاور أصحابه وبأن له الأمر ؛ فقد كتب إليه يقول :
« بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوكم أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم
فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال فاقسمه
بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات
المسلمين ؛ فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء » .

وقد حدث مثل هذا الحوار بين عمر وأصحابه على أثر فتح الشام ؛ وجعل أصحابه
يحتاجونه يومين أو ثلاثة أو دون ذلك ؛ فقد أراد جماعة المسلمين أن يقسم عمر بينهم أرض
الشام كما قسم رسول الله خير ، وكان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال
ابن رباح . لكن عمر أجابهم كما أجاب الذين حاوروه فى أرض العراق : إذا أترك
من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم . ولم يقسم الأرض بل تركها لعمالها ليكون خراجها
فى أعطيات المسلمين .

كان هذا اجتهاد رأي من عمر فى أمر الأرض التى غنمها المسلمون فى القتال . وقد
كان هذا الاجتهاد ، على تعبير أبى يوسف فى كتاب الخراج : « توفيقاً من الله كان له فيما
صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ؛ وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين
عموم النفع لجماعتهم ؛ لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق
لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد . ولما أمن رجوع أهل الكفر
إلى مدينتهم إذ خلت من المقاتلة والمرزقة . والله أعلم بالخير حيث كان » .

هذه أمثلة من اجتهاد عمر فى الشؤون الكبرى ، وفى شؤون الدولة العامة على وجه
أخص . واجتهاده فيما وراء ذلك من أمور التشريع والفقه كثير تفيض به كتب الفتاوى
ويعتمد عليه الأئمة الأربعة وغيرهم من فقهاء السنة الإسلامية كل الاعتماد . وليس من
غرضى أن أتقصي هذه الفتاوى أو أثبت كل هذه الآراء ؛ فهذا التفصيل لا يدخل

في نطاق بحث عن الإمبراطورية الإسلامية ونهوضها . إنما أردت أن أبرز في هذا الفصل ما كان لعمر من أثر عميق في تطور الحياة العامة لبلاد العرب : ولبلاد التي فتحتها العرب في الناحية السياسية كان هذا الأثر أو في الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

وأنت لا ريب قد لاحظت أن عمر كان أشد ميلاً في اجتهاده إلى الصرامة والحزم مع ما عُرف عنه من لين مع الضعفاء ورفق بهم . كان الحزم وكانت الصرامة شأنه مع المؤلفة قلوبهم : ومع الذين يطلّون ثلاثاً بكلمة واحدة ، ومع شاربى الخمر ، ومع الذين يكثرُونَ من رواية الحديث ، ومع الغزاة المسلمين فيما غنموا من أرض العراق والشام . وكان العدل الصارم ديدنه في قضاؤه ، وفي تسويته بين الخصوم الذين يقفون أمامه وإن تفاوتت أقدارهم في نظر الناس : وكان حملُه الدرّة بعض مظاهر هذه الصرامة الحازمة التي لم تفته حتى في أمور لا يحمل أصحابها شيئاً من تبعتها .

كان عمرُ يَعُسُّ ليلةً ، فسمع امرأة تقول .

ألا سبيلٌ إلى خمرٍ فأشربها أم هل سبيلٌ إلى نصرٍ بن حجاج

فلما أصبح سأل عن نصر هذا وأرسل في طلبه . فلما جاء به ألقاه من أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً . فأمره أن يطمّ شعره ففعل ، فظهرت جبهته فازداد حسناً ، فأمره عمر أن يَغْتَمِّمَ ، ففعل فازداد حسناً . فقال عمر : لا ! والذي نفسي بيده لا تكون بأرض أنا بها ، وأمر له بما يُصلحه وسيّره إلى البصرة . ولا ذنب لنصر في جماله حتى يُنْفَى من الأرض ، وإنما أراد عمر أن يقضى في مدينة الرسول على فتنة النساء به .

وسمع عمر نسوة في المدينة يقلن ذات ليلة وهو يعسّ : أيّ أهل المدينة أصبح ؟ قالت امرأة منهن : أبو ذئب . فلما جاء به فرآه من أجمل الناس قال له : أنت والله ذئبن ! وكررها مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : والذي نفسي بيده لا تكون بأرض أنا بها ! قال أبو ذئب : فإن كنت لا بدّ مسيرى فسيرني حيث سيّرت ابن عمي ، يريد نصر بن حجاج فأمر له عمر بما يُصلحه وسيّره إلى البصرة .

وإنما أراد عمر بهذه الصرامة الحازمة أن يحارب في نفوس العرب كل ضعف يجعل للهوى سلطاناً عليها . ذلك بأن القوة روح الإسلام وجوهره . فالقوة هي التي يتسلط بها

المرء على نوازع النفس ونزغ الهوى ، وهى التى تنزع من الأمة كل نقائص الضعف ، وتدفع عنها كل معتد عليها يريد فتنها عن عقيدتها . وهذه الروح هى التى فرضت على المسلمين الرفق بالضعفاء وجعلت المنّ بهذا الرفق إنمّا عظيما . فإنما أريد بالرفق معالجة ضعفهم لكيلا ينحدر بهم الفقر أو الجهل أو المرض إلى ما يزيدهم ضعفاً ، وإلى ما يؤدي إليه الضعف من الذلة والخضوع لغير الله . فإذا زال ضعفهم سحوا وأصبحوا أعزّة في أنفسهم وقوة للجماعة التى ينتمون إليها .

وكان عمر من أقوى الناس إدراكاً لروح الإسلام هذه ، كما كان من أحسنهم علماً بما فى الحياة من عوامل تُضعف هذه الروح ، وكان لذلك شديد الحرص على مقاومة هذه العوامل . والواقع أن النفس الإنسانية تضطرب ، فى تطلمعها للسمو وفى تهيتها للانحدار بين عوامل لا قبل لها أكثر الأمر بها . والانحدار أيسر لها ، وهى له أكثر انجذاباً أما السمو فيقتضيها جهاداً نفسها حتى لا تقع فى الشباك الكثيرة التى نصبها طبيعة الحياة لها ، وجعلتها من ضرورات بقائها ، ثم زينتها بما يغرى هوى النفس ويستهوى شهوتها والإنسان يفتنّ فى تزوين هذه الشباك فيزيدها فتنة واستهواء .

وكثيراً ما يرى الناس فى زينة هذه الشباك رفاةً وحضارة . وهم فى ذلك يختلفون عن الحيوان . فالإنسان والحيوان جميعاً فى حاجة إلى الطعام والشراب حفظاً للحياة ، وإلى النسل حفظاً للنوع . والحيوان ينال من الطعام والشراب ما يُبقى على حياته ، ولا تزيد صلة الذكر منه بالأثني عما يقتضيه النسل ، أما الإنسان فيرى فى الطعام والشراب والحب متاعاً يفتنّ فيه ، ويهرع إليه ، وينال منه جهد طاقته ، وهو يلتمس لهذا المتاع من الأسباب والوسائل ما لا تعرفه غريزة مخلوق غيره .

والناس يزادون فى هذا المتاع افتتاناً وعلى النهل منه حرصاً كلما أوفت جماعاتهم على الانحدار والانحلال . أما الجماعة الفتية فتندفع إلى التطهر من رجس هذا الافتتان ، وتتخذ من هذا التطهر وسيلة إلى القوة وإلى السمو وهذا التطهر هو مادعا الإسلام إليه فكان رسول الله أسوة المسلمين فيه ، ثم عمل أبوبكر وعمر على تثبيت غرسه فى قلوب المسلمين ليحتلّ من سويدائها مكان الإيمان . لهذا انبعثوا ، بدافع مما فى هذا التطهر

من قوة معنوية زادها الإيمان بالله أضعافاً مضاعفة ، فاقترحوا حدود الفرس والروم ، واكتسحوا سلطانهم ، وفضوا على دولتهم قضاء لم تقم لها بعده قائمة .

وكان هذا التطهر غرض عمر من اجتهاده . قد رأيت بلغ منه في أمر نفسه غاية المدى . كذلك بلغ المسلمون في مجموعهم خطأً عظيماً بفضل ما أبدى عمر من حزم في محاسبة الولاة ومن قسوة المستهترين لسكن مايقع من حوادث الحياة بجانب في كثير من الأحيان غرض المصلحين ، ويشوب سعيهم لتحقيق هذا الغرض بشق الشوائب . وقد يدعوه ذلك لتجاوز القصد في اجتهادهم . ذلك بأن التداول بين السمو والانحدار في طبيعة الإنسان ، وعواملهما تتجاوز في نفس الفرد وفي نفس الجماعة جوار تجاذب وتنافس . وكثيراً ما يخذع الناس فيها فيأخذون بأسباب الضعف بحسبونها أسباب القوة وبعوامل الانحدار يظفونها عوامل السمو . بل إن هذه الأسباب والبواعث للتداخل وتتفاعل ، ويبلغ من تداخلها وتفاعلها أن يضل الرأي ويضطرب الاجتهاد بينها . وقد رأيت أبا بكر أمر بالتسوية في قسمة الفئ بين المسامين ، فلما استخلف عمر وانهاالت عليه مفاسد فارس والروم دَوَّن الديوان وفرق بين الناس في العطاء ، ثم رأى أثر ما فعل فعاد إلى النظر في الأمر ، وأيقن بأن ما فعله أبو بكر كان خيراً فعزم أن يرجع إليه ، ولكن مديته عاجلته قبل أن يفعل .

ولعمر عذره ؛ إذ كان تدفق المال من فارس والروم على جزيرة العرب قد غشى في نفوس كثيرين على ما أراحه لهم من تطهر ؛ فقلَّ من الناس من يستطيع أن يصفى بواعث السمو في نفسه من شوائب النقص ، وقلَّ منهم من يرفع التطهر إلى مراتب العصمة من الخطأ والخطيئة . فالخطأ والخطيئة من طبيعة الإنسان ، تدفع إليهما أهواء هي بعينها الغرائز التي رُكِّبت فينا لحفظ الحياة ولحفظ النوع . والتطهر يرسم لنا الحدود بين الإثم والنفع ، وبين الخير والشر ، ويحملنا على أن نقف عندما ينفعا ، ولا نتعداه إلى ما يضرنا . والإثم والنفع والخير والشر والفائدة والضرر ، تتمزج أكثر الأحيان بعضها ببعض ، امتزاج الذهب وغيره من المعادن النفيسة بالصخر والمعادن الخسيسة . فإذا أريد استخلاص المعدن النفيس خالياً ، وجب أن يُصَهَّرَ هذا المزيج صهراً قد يجنى على خير

مافيه إذا كان قليل الكم بالقياس إلى ما يخالطه . وقد يكون الصهر لذاته سبب فساد إذا لم يُعالَج بالحكمة واليقظة .

وعمر كان لاريب حكيما يقطاً في اجتهاده وفي دعوته إلى التطهر . ويرجع الفضل في حكمته إلى أنه امتثل روح الإسلام كما أوحاه الله إلى رسوله أدق الامتثال ، وأدرك هذا الروح أدق إدراك . ولذلك سما اجتهاده بالمسلمين إلى حيث يسر لهم أن يأتوا بالمعجزة في تشييد الإمبراطورية الإسلامية .

من الماثور على نابليون أنه كان أكثر افتخاراً بالقانون المدني الذي وضع في عهده وشارك هو في وضعه ، منه بالمعارك العظيمة التي انتصر فيها ففتحت أمامه أبواب أوروبا وأوصلته إلى موسكو . أفنتطيع أن نقول مثل هذا القول عن عمر ، وأنه كان يستطيع أن يفاخر باجتهاده أكثر من مفاخرته بالفقوح التي تمت في عهده ؟ يجب ، قبل أن تجيب على هذا السؤال ، أن تفرّق بين ما آلت إليه إمبراطورية نابليون ، وما آلت إليه إمبراطورية عمر . لقد تحطمت الأولى ونابليون حيّ ، وبقيت الثانية يتوارثها المسلمون قرونًا عدة جيلا بعد جيل وأسرّة بعد أسرّة . مع ذلك لو أن عمر كان ممن يفاخرون لكان أكثر فخرًا باجتهاده ؛ فهذا الاجتهاد هو الذي أقام الإمبراطورية الإسلامية ، وهو الذي ألقاها على مرّ الزمان .

على أن الاجتهاد والإمبراطورية كليهما قد هاضا عمر وأجهداه . ولئن كان قد نهض بمبئهما صُلْبًا قوياً لقد انتهياه إلى حيث دعا ربه أن يضمه إليه ، وقد أحفظا عليه كثيرين من أهل الأمم التي فتحها المسلمون ، ثم كان مقتله بعد أثرهما .

هذه نتيجة قد تثير في نفسك الدهشة ، لكنها الواقع من الأمر . وسترى هذا الواقع مجلّواً في الفصل الآتي ، آخر فصول هذا الكتاب .

الفصل الخامس والعشرون

مقتل عمر

عشر سنوات وأشهر قضاها عمر أميراً للمؤمنين ، متجرداً لله ولدين الله ، مفكراً نفسه وأهله ، متوجّها بكل عقله وقلبه وجوارحه لينهض بالعبء العظيم الذى ألقاه القدر على عاتقه ؛ فكان القائد الأعلى للجيش ؛ والفقير الأكبر بين فقهاء المسلمين ؛ والمجتهد الذى يرجع الكل إلى رأيه ، ويقر الكل اجتهاده ؛ والقاضى الذى يفاضل العادل الذى يفصل فى الخصومات ، ويأخذ للضعيف حقه من القوى ؛ والأب البار الرحيم بالمسلمين جميعاً ، صغيرهم قبل كبيرهم ، وضعيفهم قبل قويهم ، وفقيرهم قبل غنيهم ؛ والمؤمن الصادق الإيمان بالله ورسوله صدقاً زاده اعتداداً بنفسه ، واعتزازاً برأيه ؛ والسياسى المحنك الذى يعرف ما يريد ، ولا يريد إلا ما يقدر عليه ، فإذا ازدادت قدرته ، انفسحت إرادته ؛ والإدارى الحكيم يسّرت له حكمته أن يسوس الأمم المتباينة فى الجنس واللغة والدين ، ويدبّر أمورها تدبيراً ألانها له ، وزادها تعلقاً به . لا عجب ذلك شأنه أن اندفع المسلمون فى عهده يحرّ كههم صدق إيمانهم ، وعظيم حرصهم على الاستشهاد فى سبيل الله ، ففتحوا فارس والعراق والشام ومصر وما وراءها . ولا عجب ذلك شأنه أن أصبح العرب محط أنظار العالم من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وكانوا قبل إسلامهم أمة بادية تعيش لنفسها وتخضع لنفوذ غيرها

ما أعظم الجهد الذى بذله عمر لينهض خلال هذه السنوات العشر بهذا العبء العظيم ! وقد رأيت صوراً من هذا الجهد مجلوة فى هذا الكتاب ، وهذه الصور لم تصف مع ذلك جهد عمر كله . وهل يستطيع كاتب أن يحيط بكل دقيق وجليل حين يصوّر حياة الرجل العظيم ! إنما ينظر الكاتب إلى هذه الحياة من أحد جوانبها ، وحسبه أن يلقي على هذا الجانب من الضياء ما يبرزه فى وضوح وجلاء . وأنا لم أقصد من هذا الكتاب إلا ما قصدت إليه من كتاب أى بكر : أن أؤرخ للامبراطورية الإسلامية . لذلك

لم أقف من حياة كلا الرجلين إلا عندما يتصل بقيام الإمبراطورية وانفساح رقعتها .
 كم كانت سنّ عمر بعد هذه السنوات العشر التي قضاها أمير المؤمنين ؟ أشرت من
 قبل إلى اختلاف المؤرخين في هذا الأمر . يقول ابن الأثير : « كان مولده قبل الفجر
 بأربع سنين ، وكان عمره خمساً وخمسين سنة . وقيل ستين سنة ، وقيل ثلاثاً وستين سنة
 وأشهر ، وهو الصحيح ، وقيل إحدى وستين سنة » . وفي رواية أنه كان خمساً وستين .
 ومن هذه الروايات كلها يظهر أنه كان بين الخامسة والخمسين والخامسة والستين . وأكبر
 الظن أنه كان قد تجاوز الستين . أمّا وقد شقّ على نفسه وآثر الشظف في حياته طيلة
 خلافته حتى خاف قومه عليه الموت عام الجماعة ، فطبعي أن تُثقله هذه السن أكثر
 مما تُثقل من عرف الرفق والدعة . وكانت جسامة تبعاته تزيدها ثقلًا عليه ، وتجمعه أكثر
 شعوراً بوطأة عبئها على كاهله ، ثم لا يدعوه ذلك إلى الترفيه عن نفسه أو التخفيف من
 أعبائه في الإضطلاع بكل ماجلٍ ودقٍّ من شؤون الإمبراطورية في عهده .

كان عمر كما قدمنا يحدّد كل عام ويدعو ولاته وعماله فيوافونه أيام الحج بمسكة
 كي يحاسبهم على أعمالهم ، ويشاركهم في تدبير شؤون ولايتهم . وقد حج كعادته في هذه
 السنة الثالثة والعشرين للهجرة ؛ وحج معه أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما قضى
 مناسكه وأفاض من منى ، أناخ بالأبطح فكوّم كومة من بطحاء ألقى عليها طرف ثوبه ،
 ثم استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم كبرتُ سني ورقّ عظمي وضعفت
 قوتي وانتشرت رعيتي ، فأقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم ا » . وهذا دعاء لا يقوله
 رجل قبل الستين ، وبخاصة إذا كان سليم البنية قويّها ما كان عمر .

ولعله قد شعر بدبيب الوهن في جسمه فكان يستعجل لقاء ربه ، قد كان طويل
 التفكير في هذا المصير . روى ابن سعد في الطبقات أنه لم يلبث حين نزل المدينة عائداً من
 حجه أن خطب الناس يوم الجمعة ، فذكر نبيّ الله وذكر أبا بكر ، ثم قال : « أيها الناس ا
 إني أُريت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلى . رأيت ديكا أحمر نقرني نقرتين » ،
 وقال : « أيها الناس قد فرّضت لكم الفرائض وسنّنت لكم السنن وتركتكم على الواضحة

إلا أن تَضَلُّوا بالناس يمينًا وشمالًا^(١) . فهذه العبارة الأخيرة أشبه بوصية الشاعر بدنوَّ الأجل منها بعظة من يحضّ على الخير . وأشبه بالوصية كذلك ، في تلك الخطبة قوله : « إني لم أدع شيئًا هو أهمُّ إليَّ من السكَّالةِ ، وما راجعت رسولَ الله في شيء ما راجعته في السكَّالةِ ، وما أغلظ عليَّ في شيء منذ صاحبته ما أغلظ لي في السكَّالةِ ، حتى طعن بإصبعه في بطني فقال لي : (يا عمر تكفيك الآية التي في آخر النساء) : وإن أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن » . ثم قال : « اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار ! فإنني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسُنَّة نبيهم ، ويعملوا عليهم ، ويقسموا فيهم بينهم ، ويرفعوا إليَّ ما أشكل عليهم من أمرهم » . قال جويرية ابن قدامة من بني تميم : « حججتُ عام توفي عمر ، فأتي المدينة فخطب فقال : رأيت كأن ديكًا نقرني ، فما عاش إلا تلك الحِجَّة حتى طُعن » .

وشعور عمر بدنوَّ أجله وليس به مرض ، وليس به إلا شعور بضعف قوته ووهن جسمه ، يدعو إلى شيء غير قليل من التفكير : فقلَّ من الناس من تحدّثه نفسه وهو في صحته بمثل ما حدثت عمر نفسه ، وإن شعر بعضهم في أوّل مرضه الأخير بدنوَّ ساعته . أفكان عمر في هذه تحدّثًا ألهم ماسيكون قبل أن يكون ؟ أم أن كِبَر سِنِّه وضعف قوّته وانتشار رعيّته جملة يفكر في دنوَّ أجله ، ويدعو الله أن يضمّه إليه ؟ أنت في حلٍّ من أن تختار لنفسك الجواب . أمّا المؤرخون المسلمون فساقوا في هذا الأمر روايات نقضها عليك بعد أن نُفَصِّل مقتل أمير المؤمنين .

خرج عمر من منزله قبل مطلع الشمس من يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، يؤمُّ الناس لصلاة الفجر . وكان يوكل رجالاً في المسجد بالصفوف يسوّونها قبيل كل صلاة ، فإذا استوت جاء هو فنظر إلى الصفِّ الأول فإذا

(١) أورد ابن سعد خطباً متفرقة نسب إلى عمر أنه قالها يوم الجمعة بعد عودته من هذا الحج الأخير وتقع آخر جمعة من ذى الحجة لذلك العام في اليوم التاسع والمشرين منه ، ولم يخطب فيها عمر كما سترى من بعد . وهو قد أفاض من متى في الثاني عشر من ذى الحجة فلو أنه لم يقم بمكة وعاد نوا إلى المدينة لباخها بعد الخامس عشر من ذى الحجة ، ولما بقى يوم جمعة في ذلك الشهر إلا اليوم الثاني والعشرون وهو اليوم الذي يمكن أن يكون عمر قد خطب فيه .

رأى فيه متقدماً أو متأخراً علاه بالدرة ، حتى إذا انتظم الجمع في أماكنهم كبر للصلاة ودخل في تلك الساعة من ذلك اليوم ولما يكذب تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فلما بدأ ينوي للصلاة ليكبر إذا رجل ظهر فجأة قبالة ، فطعنه بخنجره ثلاث طعنات أو ست طعنات ، إحداها تحت سُرته . وأحس عمر حرّ السلاح ، فالتفت إلى المصلين باسطاً يديه يقول : « أدركوا الكلب فقد قتلني ! » . وكان الكلب أبالؤلؤة النصراني فيروز غلام المفيرة ، وكان فارسياً . أُسِرَ في نهاوند ثم وقع في ملك المفيرة ابن شعبة . وقد جاء إلى المسجد متعمداً قُتلَ عمر في هذه الساعة المبكرة من الغلس ينجي تحت رداءه خنجراً قُبِضَتْهُ في وسطه وله نَصْلانِ حادّان . واختبأ في أحد أركان المسجد حتى إذا بدأت الصلاة ارتكب فعلته ، ثم اندفع يريد الفرار نجاة بنفسه . وماج الناس مضطربين لما سمعوا ، وأقبل كثيرون منهم على الكلب يريدون القبض عليه والتسكيل به . ولم يدعهم فيروز يأخذون بتلاييه . بل جعل يطعمهم يَمْنَةً ويسرة حق طعن اثني عشر ، مات منهم ستة على قول وتسعة على قول آخر . ثم إن رجلاً أتاه من ورائه فألقى عليه رداءه وطرحه أرضاً ، وأيقن فيروز أنه مقتول لا محالة مكانه ، فانتحر بالخنجر الذي ضرب به أمير المؤمنين .

كانت الطعنة التي أصابت عمر تحت سُرته قد قطعت الصفاق والأمعاء ، وكانت لذلك قاتلة ، قيل إن عمر لم يستطع الوقوف من حرها ، بل سقط طريحاً ، فاستخلف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة بالناس ، فصلّى بهم ، بأقصر سورتين في القرآن : العصر والكوثر . وقيل بل ماج الناس بعضهم في بعض لمصاب عمر ومصاب الذين طعنوا من حوله ، واشتد اضطرابهم حين رأوا عمر محمولا إلى داره في جوار المسجد ، وظلوا في مرجهم واضطرابهم حتى قال قائل : الصلاة عباد الله ! قد طلعت الشمس ! فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلّى بأقصر سورتين .

وهي الرواية الثانية هي الراجحة لا ريب ؛ فما كان الناس لتستوى صفوفهم للصلاة من جديد وهم في مرجهم واضطرابهم ، وأمير المؤمنين طريح يدفق جرحه دماً أمامهم ، ودماء المطعونين تسيل من حولهم ، والقاتل صريع بينهم أولوا أننا استطعنا أن نتصور عمر

يفكر ، مع ما أصابه من طعنات ، في استخلاف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة — وهو تصوّر بعيد عن مألوف العقل — لما استطعنا أن نتصور الناس في هذه الساعة تلتئم صفوفهم وهم فيما هم فيه من روع وفزع . لا بد إذاً أن يكون عمر قد حُمل إلى داره في جوار المسجد واعياً أو فاقد الوعي من هول طعناته ، وقد أحاط الناس به حين أدخل إلى أهله ، وقد أسعف الذين أصيبوا وأخرجوا من المسجد أو نقلوا إلى بعض جوانبه . وأُخرجت جثة فيروز إلى البطيحاء ، ثم عاد الناس إلى المسجد يتحدثون فيما وقع حتى نبههم إلى الصلاة من نبههم ، فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم .

فرغ الناس من الصلاة وتفرقوا في جوانب المسجد وفي بُطَيِّحائه ، ولا حديث لهم إلا هذا الحادث المروّع الذي وقع بأعينهم . وانتشر الخبر في المدينة انتشار البرق ، فاستيقظ من أهلها من لم يكن قد استيقظ ، وأسرعوا جميعاً ، رجالاً ونساءً وصبياناً ، يريدون أن يقفوا على جليّة الخبر في هذا الأمر الجلل . ونقل المصابون الآخرون إلى منازلهم ، ومنهم من أسلم الروح أو كاد ، ومنهم من يتنزّى المأمن من جراحه . ودخل كبار أهل الرأي على عمر مستفسرين . قال عبد الله بن عباس : « فلم أزل عند عمر ولم يزل في غشية واحدة حتى أسفر الصبح ؛ فلما أسفر أفاق فنظر في وجوهنا فقال : أصبى الناس ؟ قلت : نعم ، فقال : لا إسلام لمن ترك الصلاة » . ثم إن ابن عباس خرج إجابة لرغبة عمر ، فنادى في الناس : أيها الناس ! إن أمير المؤمنين يقول . أعن ملاً منكم هذا ؟ وفزع الناس لسماع هذه الكلمات موجّهة إليهم ، فصاحوا كلهم بلسان واحد : معاذ الله ما علمنا ولا أطلعنا ! وكيف يكون ذلك وإنهم لو علموا لافتدوا عمر بأبنائهم وأرواحهم ! وسألهم ابن عباس : فمن طعن أمير المؤمنين ؟ قالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة .

كان عمر ممدّداً على فراشه ينتظر رجوع ابن عباس بالجواب عمّا سأل عنه ، وينتظر طبيباً طلب إلى أهله أن يدعوّه إليه . فلما رجع ابن عباس وحديثه بحديث الناس ، وذكر له أن أبا لؤلؤة هو الذي طعنه وطعن معه رهطاً ثم قتل نفسه ، قال : « الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط ! ما كانت العرب لتقتلني ! » . وجاء طبيب من العرب فسقى عمر نبيذ ، فأشبه النبيذ الدم حين خرج من الطعنة التي

تحت الشَّرة ؛ فدعا عبد الله بن عمر طيباً من الأنصار ، ثم آخر من بنى معاوية فسقى|عمر
لبناً فخرج اللبن من الطعنة أبيض لم يتغير لونه ، فقال : يأمر المؤمنين : اعْهَدْ . يريد أنه
ميت لا محالة : قال عمر : صدَّقني أخو بنى معاوية ، ولو قلت غير ذلك لسكذبتك . وتولى
الحاضرين الجزعُ لقول الطيب فبكوا ، فقال عمر : « لا تبكوا علينا ! مَنْ كان باكياً
فليخرج . ألم تسمِعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعذَّب الميت ببكاء أهله عليه ! »
بينما كان عمر يسمع ما نقله ابن عباس عن الناس ، ثم يستشير الطيب ويصنئ لنديره
كان المسلمون بالمسجد وما حوله يتحدثون جماعاتٍ ، يسأل بعضهم بعضاً عما دفع أبا لؤلؤة
لارتكاب فعلته الشنعاء . وقد أورد المؤرخون في ذلك روايات لعلها بعض ما جرت به
أحاديث هذه الجماعات ، ولعل بعضهم كان يناقش هذه الروايات ، فيقبل بعضها ، وينفي
بعضها ، ويرى بعضها حديث خرافة . وسأبسط هذه الروايات جميعاً أمام نظر القارىء
ليكون له فيها رأى ، وإن رأيت واجباً علىَّ قبل روايتها أن أعلن اقتناعي بأن مقتل عمر
أدَّت إليه مؤامرة استغرق تديرها زمناً قبل الحادث ، ولم يتيسَّر للحاضرين بالمسجد على
أنه أن يقطعوا بها أو يتبينوا دليلها ، ثم قام هذا الدليل من بعد ، فكان لقيامه من
الأثر ما نَقَصُ نبأه بعد حين .

روى ابن سعد في الطبقات حديثاً أسنده إلى جُبَيْر بن مُطْعِمٍ أنَّ عمر كان واقعاً
في حَبَّتِهِ الأخيرة على جبال عرفة إذ سمع رجلاً يصرخ فيقول : يا خليفة ، يا خليفة ! فسمعه
رجل آخر وهم يمتافون : فقال : مالك ؟ فكَّ الله لهوانك ! فصخب جُبَيْر على هذا الرجل
قائلاً لا تسبه . فلما كان الغد وقف عمر على العقبة يرميها وجُبَيْر معه إذ أصابت رأس عمر
حصاة عائرة ففصدت ، وسمع جبير رجلاً من الجبل يقول : « أَشْعِرْتُ ورب الكعبة
لا يقف عمر هذا الموقف بعد العام أبداً ! » . وكان هذا الرجل هو الذي صرخ بالأمس :
« يا خليفة يا خليفة » وروى ابن سعد كذلك عن أم كلثوم بنت أبي بكر عن أختها عائشة
أم المؤمنين أنها قالت : لما كانت آخر حِجَّة حجَّها عمر بأهات المؤمنين وصدرنا عن عرفة
مررت بالمحصَّب ، فسمعت رجلاً على راحلته يقول : أين كان عمر أمير المؤمنين ؟ فسمعت
رجلاً آخر يقول : ها هنا كان أمير المؤمنين ؛ فأناخ راحلته ثم رفع عقيرته فقال :

عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْأَدِيمِ الْمَمْرُوقِ
قَمَنْ يَسْنَعْ أَوْ يَرْكَبْ جَنَاحِي نَعَامَةً لِيُذْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّقُ
قَضِيَّتْ أُمُوراً نَحْمُ غَادِرَتْ بَعْدَهَا بَوَائِقَ فِي أَكْلَمِهَا لَمْ تُفْتَقِ
فَلَمْ يَحْزُكْ ذَلِكَ الرَّاكَبُ وَلَمْ يُذَرَ مِنْهُ هُوَ ، فَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ مِنَ الْجَنِّ ؛ فَقَدِمَ عُمَرُ
مِنْ تِلْكَ الْحِجَّةِ فَطَعَنَ فَمَاتَ .

لَا أَرَانِي بِحَاجَةٍ إِلَى التَّعْلِيقِ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَاتِ . وَيَتَعَذَّرُ الظَّنُّ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي قِيلَ
لِإِنِّهِ مِنَ الْجَنِّ ، وَذَلِكَ الَّذِي قَالَ : لَا يَقِفُ عُمَرُ هَذَا الْمَوْقِفَ بَعْدَ الْعَامِ أَبَدًا ، وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ
عَائِقًا ، قَدْ كَانَ إِيَّاهُمَا عَلَى عِلْمٍ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ يَدُورُ بِخَاطِرِ فَيُرُوزُ أَوْ كَانَ يَذَرُّ مَعَهُ . لَكِنْ
مَا رُويَ مِنَ الْأَنْبَاءِ ، عَمَّا حَدَثَ بَعْدَ رَجُوعِ عُمَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ قَبِيلَ مَقْتَلِهِ ، جَدِيرٌ بِقَدْرِ
مِنَ التَّمْهِيصِ ؛ لَعَلَّهُ يَدُلُّنَا عَلَى حَقِيقَةٍ لَمْ يَقْطَعْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ الْأَوَّلِينَ .

رَوَى الطَّبْرِيُّ وَابْنُ الْأَثِيرِ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ عُمَرَ خَرَجَ يَوْمًا بَعْدَ عَوْدِهِ مِنْ حَجِّهِ يَطُوفُ
بِالسُّوقِ ، فَلَقِيَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ فَقَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعِدَّنِي عَلَى الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ فَإِنَّ عَلَى خَرَجِكَ
كَثِيرًا . قَالَ عُمَرُ : وَكَمْ خَرَجُكَ ؟ قَالَ : دَرَاهِمَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ . قَالَ عُمَرُ : وَمَا صَنَاعَتُكَ ؟
قَالَ : نِجَارٌ ، نَقَاشٌ ، حَدَادٌ . قَالَ عُمَرُ : فَمَا أَرَى خَرَجُكَ بِكَثِيرٍ عَلَى مَا تَصْنَعُ مِنَ الْأَعْمَالِ
قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ : لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَعْمَلَ رَحَى تَطْحَنُ بِالرَّيْحِ فَعَلْتُ ! قَالَ : نَعَمْ . قَالَ
عُمَرُ : فَاَعْمَلْ لِي رَحَى . قَالَ : لَنْ سَلِمْتُ لِأَعْمَلَنَّ لَكَ رَحَى يَتَحَدَّثُ بِهَا مَنْ بِالْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ ! ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ . قَالَ عُمَرُ : لَقَدْ تَوَعَّدَنِي الْعَبْدَ آتِفًا ! .

وَدَخَلَ عُمَرُ مَنْزِلَهُ . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جَاءَهُ كَعْبُ الْأَحْبَارِ فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اعْهَدْ
فَإِنَّكَ مَيِّتٌ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . وَكَانَ كَعْبٌ هَذَا مِنْ كِبَارِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ مَظْهَرًا لِلْمِيلِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، مَرَجًُّا إِعْلَانِ إِسْلَامِهِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ
مِنْ كُلِّ الْأُمَرَاءِ الَّتِي يَجِدُهَا فِي كُتُبِ قَوْمِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ وَأَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا انْتَهَى أَمْرُ
الْخِلَافَةِ إِلَى عُثْمَانَ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ . وَعَجِبَ عُمَرُ لِنَذِيرِ كَعْبٍ ، فَسَأَلَهُ . وَمَا يُذِيرُكَ ؟ قَالَ :
أُجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : التَّوْرَةِ . وَدَهِشَ عُمَرُ لِهَذَا الْكَلَامِ فَقَالَ : اللَّهُ ! إِنَّكَ
لَتَجِدُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي التَّوْرَةِ ! قَالَ كَعْبٌ : لَا ، وَلَسَكُنِي أَجْدُ صِفَتِكَ وَحَلِيقَتِكَ وَأَنَّهُ

قد فنى أجلك . وإذ كان عمر لا يحسُّ وجعاً ولا ألماً فقد زادت دهشته لهذا الحديث ،
نم لم يُعِرْهُ عناية خاصة .

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ، ذهب يوم وبقى يومان .
وفي الغداة من ذلك اليوم قال له : ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها .
وفي فجر الغداة طعن أبو لؤلؤة عمر طعناته المميتة . فلما دخل الناس على أمير المؤمنين
ودخل كعب معهم ورآه عمر قال :

تَوَعَّدَنِي كَعْبٌ ثَلَاثًا أَعَدَّهَا وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقَوْلَ مَا قَال لِي كَعْبٌ

وَمَا بِي حِذَارُ الْمَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ وَلَكِنْ حِذَارُ الذَّنْبِ يَتَّبِعُهُ الذَّنْبُ

ساق سير وليم ميور قصة كعب هذه في كتابه (الخلافة الأولى) وأودفها بقوله :
« يتعذر علينا أن نعرف كيف نشأت هذه القصة العجيبة . وربما أنذر كعب عمر حين
رأى ما بدا على أبي لؤلؤة من مظهر التجدد والوعيد » . والذي نستطيع نحن أن نستخلصه
من حديث أبي لؤلؤة مع عمر ، ومن قصة كعب ، أن الفارسي توعّد أمير المؤمنين ، وأن
اليهودي عيّن الموعد الذي تم فيه القتل قبل حدوثه بثلاثة أيام . وما إخال أحداً يظن
أن الكعب السماوية تعيّن الأحداث التي تقع لأفراد الناس بمثل هذه الدقة ؛ فهذه الكتب
كلها تَرْجِعُ علم الغيب إلى الله وحده . لا بدّ إذاً أن يكون كعب عرف سرّ ما كان
يجرى ، فوجّه النذير إلى عمر . وأغفل عمر أمر هذا النذير بعد أن توعّده أبو لؤلؤة
بما توعده به فحدث ما حدث . ونذير كعب وطعنات أبي لؤلؤة تدلّ على أن في الأمر سرّاً
لم يظهر ساعة ارتكاب الجريمة ، ولكنه ظهر من بعد ، وسنبيّنه في موضعه .

كان الناس في المسجد يتساملون عما دفع أبا لؤلؤة لارتكاب جريمته ، وكان عمر
في داره ممدّداً على فراشه ، يشير الطيب عليه بأن يمهّد ، ويتحدّث إليه كبار المسلمين
في هذا الذي أصابه وأصاب المسلمين فيه ، وفيما يتوقعونه إذا قضى الله في الخليقة العظيم
بقضائه . وكان التفكير فيمن يخلف عمر أ كبر ما يشغل بالهم وبال عمر . أتراه يصنع
صنيع أبي بكر فيختار خليفته ، أم يدعمهم يصنعون ما صنعوا في اجتماعهم بسقيفة
بنى ساعدة حين اختار الله إليه رسوله ؟ روى أن ابن عمر قال لعمر بن الخطاب :

لو استخلفت؟ قال: مَنْ؟ قال: تجتهد فإنك لست لهم برب! أرايت لو أنك بعتت إلى قِيم أرضك، ألم تكن تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض؟ قال بلى. قال: أرايت لو بعتت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلا حتى يرجع؟ قال عمر: «إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني» وروى أن سعد بن زيد بن عمرو قال لعمر: إنك لو أشرت برجل من المسلمين أتمنك الناس. فقال عمر: إني قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً. ثم قال: لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح. وفي رواية أن عمر قال: مَنْ استخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح! فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عبد الله بن عمر؟ وأجابه عمر: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا! استخلف رجلا ليس يحسن أن يطلق امرأته! ويروى كذلك أن عمر دعا إليه عبد الرحمن بن عوف بعد أن سئل إلى داره إثر طعنته، فقال له: إني أريد أن أعهد إليك، قال عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين، إن أشرت علي قبلت منك. قال عمر وما تريد؟ وسأله ابن عوف: أنشدك الله! أنشير علي بذلك؟ قال عمر: اللهم لا! وكانت كلمة عبد الرحمن بعد هذه المشورة أن قال: والله لا أدخل فيه أبداً! تدل هذه الروايات على أن اختيار الخليفة لم يكن له نظام مقرر في الإسلام، وتدلل كذلك على أن المسلمين كانوا قد بدءوا، لأول ما انفسحت الإمبراطورية أمامهم، بنافس بعضهم بعضاً ويتنافس بعضهم على بعض. وذلك قول عمر: «إني قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً». وهذا الحرص السيئ هو الذي جعله يتردد في استخلاف أحدهم مكانه على نحو ما صنع أبو بكر حين استخلفه. فأما قوله إنه كان يستخلف سالم مولى أبي حذيفة أو أبا عبيدة بن الجراح لو أن أحدهما كان حياً، فإنما قصد به — أكبر الظن — إلى التخلي عن موقف دق حتى على عمر الذي عرف طيلة حياته بالصراحة والحزم وعزم الأمور.

لكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يدع الأمر مرسلًا يضطرب بين عامة الناس وخاصتهم، بعد أن رأى ما حدث بالسقيفة إثر وفاة الرسول. والحال اليوم أكثر مما كانت

لذلك العهد دقة ؛ فقد اشترك العرب جميعاً في محاربة الفرس والروم ، وأصبح لكل قبيلة بذلك أن تزعم لنفسها من حق الاشتراك في اختيار الخليفة ما للمهاجرين والأنصار . هذا إن لم تذهب بعض القبائل إلى إدعاء الحق في ترشيح زعيمها لمقام الخلافة . وفي هذا الأمر من الخطر على العرب وعلى الإمبراطورية الناشئة ما يُدركه عمر أكثر مما يدركه غيره . لذلك لم يلبث ، بعد قليل من إعمال الرأي ، أن جعل الخلافة من بعده شورى في ستة ؛ هم عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص . ومن المأثور عنه في استخلافهم قوله : « لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين تَوَقَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ؛ فأيتهم استُخْلِفَ فهو الخليفة من بعدي » . وبعد أن سُمِّي هؤلاء الستة أردف : « فإن أصابت سعداً فذاك ، وإلا فأيتهم استُخْلِفَ فليستعن به ؛ فإنني لم أعزله عن عجز ولا خيانة ^(١) » .

عرف الناس ما صنع عمر فسكنوا إليه . ودعا عمر هؤلاء النفر الذين جعل الخلافة شورى بينهم فقال : « أَسْئِدُكُ اللهُ يَا عَلِيَّ بْنَ وَلِيَّتٍ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئاً أَنْ تَحْمِلَ

(١) أجل الطبري وابن الأثير قصة الشورى وكيف استخلفهم عمر فيما يلي : « قيل لعمر ، لما طعن : يأمر المؤمنين لو استخلفت ؟ فقال . لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألتني : سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألتني : سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله تعالى . قال رجل : أدلك على عبد الله بن عمر . فقال : فأتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا ! ويحك كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته . إنه لا أرب لنا في أموركم ، فاحمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي . إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فقد صرف عنا بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمة محمد ! أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر فإنني لسعيد ! أنظر ، فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ولت يضيع الله دينه . وخرج القوم من عنده ثم راحوا فقالوا . يأمر المؤمنين لو عهدت عهداً ! فقال : كنت أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولي رجلاً منكم ؛ لكنني ما أردت أن أحلها حياً وميتاً . فإليك هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم من أهل الجنة . وذكر الستة .

وذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أن عمر قال : « لو أدركت معاذ بن جبل استخلفته . ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته » ، وروى في شأنهما أحاديث عن النبي يعتذر بها إلى ربه إن سأله وأنا في شك من هذه الرواية وبخاصة في أمر خالد ؛ فإكان عمر يستخلفه على إمارة المؤمنين ، وهو هو الذي عزله عن إمارة قنسرين .

بنى هاشم على رِقَابِ الناس ! أنشدك الله يا عثمان إن وَلَّيتَ من أمور الناس شيئاً أن تحمل
بنى أبي مُعَيْطٍ على رِقَابِ الناس ! أنشدك الله يا سعد إن وَلَّيتَ من أمور الناس شيئاً
أن تحمل أقاربك على رِقَابِ الناس ! وناشد الآخرين مثل هذه المناشدة ، ثم قال :
قوموا فتشاوروا ثم اقضوا أمركم ، وليصلَّ بالناس صُهَيْب .

كان عمر يود لو يتم القوم التشاور ، ويختاروا خليفته قبل أن يُقْبَضَ ، ليموت مطمئناً
إلى مصير الإسلام ومصير الإمبراطورية من بعده . لذا جعل ابنه عبد الله معهم يشاورونه
وليس له من الأمر شيء ليكون الصلة بينهم وبينه . قال عبد الله بن عمر : فقاموا
يتشاورون ، فدعاني عثمان مرة أو مرتين ليدخلني في الأمر ، ولا والله ما أحب أني كنت
فيه ، علماً أنه سيكون في أمرهم ما قال أبي . والله لقلماً رأيته يحرك شفتيه بشيء قط
إلا كان حقاً . فلما أكثر عثمان عليّ قلت له : ألا تعقلون ! أتؤمّرون وأمير المؤمنين
حتى ! ! فوالله لكانى أيقظت عمر من مرّقه ، فقال : « أمهلوا ، فإن حدث بي حدث
فليصلَّ بكم صُهَيْب ثلاث ليال ، ثم أجمعوا أمركم ، فن تأمر معكم على غير مشورة
من المسلمين فاضربوا عنقه » .

وكان طلحة بن عبيد الله غائباً من المدينة يوم طُعن عمر . لذلك قال بعد أن استمهل
القوم : « انتظروا أخاكم طلحة ثلاثة أيام ، فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم » .

وكأنما خشي عمر أن يختلف القوم بينهم بعد موته ، فيؤدي اختلافهم إلى الثورة ؛
ينصر بنو هاشم عليّاً ، وينصر بنو أبي مُعَيْطٍ عثمان ، وينتصر من الجند من ينتصر للزبير
أو لطلحة أو لسعد ، وكلهم من كبار القوّاد . لذلك دعا إليه الأنصار وقال لهم : « أدخلوهم
بيتاً ثلاثة أيام ، فإن استقاموا وإلا فادخلوا واصرّوا أعناقهم » . ودعا أبا طلحة الأنصاري
وكان من الشجعان الممدودين فقال له : « قم على بابهم فلا تدع أحداً يدخل إليهم » .
وفي رواية أنه قال : « يا أبا طلحة ! كن في خمسين من قومك الأنصار مع هؤلاء نفر
أصحاب الشورى ، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم ، فقم على ذلك الباب
بأصحابك ، فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضون اليوم الثالث حتى يؤمّروا
أحدهم . اللهم أنت خليفتي عليهم ! » .

ترى لو أن عمر استخلف واحداً بذاته من هؤلاء الففر الستة . أكان المسلمون يُقرّون اختياره كما أقروا اختيار أبي بكر وعمر ؟ لو أن عمر اطمأن إلى هذا الأمر لما تردد دونه ^(١) ؛ لكن البوادر أمامه لم تكن تبعث على هذه الطمأنينة . لذلك قال للناس : « من تأمّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه » . وقد رضى الناس خلافة عثمان بعد عمر سنوات عدّة ، فلما طال به الأمد ضاقوا به ذرعاً فثاروا به وقتلوه . ومن بعد مقتله قامت الحرب الأهلية بين المسلمين واتصلت على السنين . وقيامها يشهد بأن عمر لم يكن مغالياً حين خشى مغبة الاختلاف بين القوم ، وبأنه كان مدركاً أدق الإدراك ما تنطوى عليه قلوبهم ، مقدراً أن العصبية القبليّة التي سكنت ، منذ أظّل الرسول بلوائه جزيرة العرب ، تؤذّن بالظهور من جديد ، وقد تجددت في فسحة الإمبراطورية ما ينشرها ويؤجج ضرامها . ولذا عالج الأمر بأن جعل الخلافة شورى في هؤلاء الستة : وكان هذا العلاج خير ما يواجه به الموقف لوقته . وقد نجح هذا العلاج طيلة عشر سنوات بعده . لكن البواعث التي تخوّفها عمر كانت دائبة أثناء ذلك على تحريك الأهواء الأصيلة في النفوس . وكثيراً ما طفت الأهواء على حكم العقل وحكمتها ، فأدّت إلى مثل ما أدّت إليه في حياة المسلمين ، بعد خمس وعشرين سنة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

لم يَكفِ عمر أن يجعل الشورى في الستة الذين توفّي رسول الله وهو عنهم راض ، بل حرص على أن يعهد للخليفة من بعده بما يراه أقوم سياسة تطمئن بها أمور الدولة ويزداد بها عز الإسلام . وكان مما قاله في ذلك : « أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وبالمهاجرين الأوّلين أن يحفظ لهم حقهم وأن يعرف لهم حرمتهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردة الإسلام وغيظ العدو وجباة المال ألا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم . وأوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم . وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يؤخذ

(١) تجرّى رواية بأن عمر قال : ليدخل هؤلاء القوم في بيت ، فإذا اجتمعوا على رجل فن خالفهم فاضربوا عنقه . فلما خرجوا من عنده قال : لو ولوها هذا الأجلح — يريد على بن أبي طالب — لسلكت بهم الطريق . فقال له ابنه : فما يمنعك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أكره أن أحمّلها حياً وميتاً . وبعضهم ينفي هذه الرواية ويرى أنها وضعت من بعد لأغراض سياسية .

من حواشي أموالهم فَيُزَادَ على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يُوفَى لهم بهدمهم
وَالْأَيُّ يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ ، وَأَنْ يِقَاتِلَ مَنْ وَرَاءَهُمْ » . ويضيف بعض المؤرخين إلى هذه
الوصية أنه قال : « اللهم هل بلغت ! لقد تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة » .
كان عمر يفكر منذ طعن في مصير المسلمين ، وكان حريصاً على ألا يذر بعده
من بادر الرأى في اجتهداه ما لم يكن قد اطمأن إليه ووثق بصحته . سُقْنَا من قبل
حديثه عن الكَلَالَةِ وما دار بينه وبين رسول الله فيها وقول رسول الله له : « تكفيك
الآية التي في آخر النساء » . وهذه الآية هي قوله تعالى : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِي الْكَلَالَةِ ، إِنْ أُمِرُوا هَلَكَ أَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا
إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ، يُسَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ،
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ^(١) وقد أثبتنا قول عمر في خطبته الأخيرة : « وإن أعش أقض
في الكَلَالَةِ بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن » وكان قد كتب رأيه
الذي اجتهد فيه في فريضة الجَدَّة على عَظْمِ كَتَفِ عَشِيَةِ الْيَوْمِ الَّذِي طُعِنَ فِيهِ . فلما عرف
أن طعنته قاتلة قال لابنه عبد الله : « اثْنِي بِالْكَتِفِ الَّتِي كَتَبْتُ فِيهَا شَأْنَ الْجَدِّ بِالْأَمْسِ » ،
يريد أن يحوم ما كتب حتى لا يحتاج به أحد من بعده . قال عبد الله : نحن نكفيك
هذا الأمر يا أمير المؤمنين . ولم يكن أيسر من أن يقوم عبد الله بالحو وأن يدع أباه في شغله
بجراحه . لكن عمر أبى وقال : لا ! ولم يطمئن حتى جىء بالكُتِفِ فمحا الكتابة بيده .
وأنت تذكر أن عمر قد استفتح عهده أول خلافته فأمر الناس أن يردوا سبائهم أهل
الرَدَّة إلى عشايرهم ، وقال لهم : « إني كرهت أن يصير السبي سُنَّةً في العرب » . وقد كان
لهذا الأمر أثر أعظم الأثر في امتداد الفتح . وأهل الرَدَّة جميعاً كانوا في شبه الجزيرة .
وكان من بطون العرب وقبائلها من نزح إلى الشام وإلى العراق ، ومن وقع أسيراً في يد
المسلمين أثناء الغزوات المتلاحقة التي تمت فيها . فلما رأى عمر أنه مُوفٍ على أجله أراد
أن يزيد وحدة العرب قوة ، ويزيد العرب بأنفسهم اعتزازاً . لذلك قال وهو على فراشه :

« من أدرك وفاتي من سبي العرب فهو حرٌّ من مال الله ». ولم يكن هذا القول اجتهداً منه خالف به سابق رأيه ، إنما هو تطبيق دقيق لقوله : « إني كرهت أن يصير السبي سُنَّة في العرب ». ولعله خشي ألا يطبَّق خليفته هذا الرأي الذي اجتهد به يوم استخلف ، فلم يُرِدْ أن يترك الدنيا قبل أن يتم ما بدأه ، وقبل أن يذر العرب جميعاً أحراراً .

فكر عمر إذاً في مصير المسلمين من بعده ، وفكر فيما كان من اجتهد به ، ثم فكر كذلك فيما عليه من دينٍ لم يُرِدْ أن يذر الدنيا قبل أن يكفل أداءه . ذلك أنه كان استسلف من بيت المال ستة وثمانين ألف درهم ، فدعا إليه ابنه عبد الله فذكرها له ثم قال : « بئس فيها أموال عمر ، فإن وفيت وإلا فسل بني عديّ ، فإن وفيت وإلا فسل قريشاً ولا تعدّهم » . وكان عبد الرحمن بن عوف يعلم ، كما كان يعلم غيره من المسلمين ، أن عمر لم يقتض هذه الأموال إلا لاشتغاله بأمر المسلمين ؛ لذلك قال له : ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤدّيها ؟ . وأجابه عمر : « معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدى : أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر ، فتعزّوني بذلك فتتبعني تبعته وأقع في أمر لا ينجيني إلا الخروج منه ! » ثم قال لعبد الله بن عمر : اضمنها ، فضمنها . فلم يدفن عمر حتى أشهد بها ابنه علي نفسه أهل الشورى وعدّة من الأنصار ، وما مضت جمعة حتى حمل عبد الله ابن عمر المال إلى عثمان بن عفان وأحضر الشهود على البراءة بدفعه .

وفي رواية أنه أوصى بربع ماله لأهل المؤمنين حفصة ابنته ، فإذا ماتت فإلى الأكبر من آل عمر . فرغ عمر من حساب الدنيا ، فاتجه بتفكيره إلى ما يرجوه بعد موته . وكان أكبر همه أن يُدفن في جوار صاحبيه رسول الله وأبي بكر في بيت عائشة . وكان قد استأذنها من قبل في ذلك فأذنت له . فلما حضرته الوفاة قال : إذا مت فاستأذِنوها ، فإن أذنت وإلا فدعوها فإني أخشى أن تكون أذنت لي لسلطاني . وفي رواية أن عمر لما طعن فأوصى قال لانيه : « اذهب يا عبد الله إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإني لست لهم اليوم بأمرير ، يقول : تأذنين له أن يدفن مع صاحبيه ؟ » . فأثابها ابن عمر فوجدها قاعدة تبكي ، فسلم عليها ثم قال : يستأذن عمر ابن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ؟ قالت : « قد والله كنت أريده لنفسى ، ولأثرته

به اليوم على نفسي ! » فلما رجع عبد الله وذكر لعمر أن عائشة أذنت له قال : « ما كان شيء أهم إلي من ذلك المصجع . يا عبد الله بن عمر انظر ، إذا أنا مت فاحملني على سريري ثم قف بي على الباب فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لي فأدخلني وإن لم تأذن فادفني في مقابر المسلمين . »

جعل عمر بعد ذلك يحاسب نفسه عما قدّمت يده ، فهو مقبل عما قليل على موقف هو أعسر المواقف وأشدّها ، ذلك موقفه بين يدي ربه يسأله عما قدّم وأخر ، عما نوى وعما عمل ، عما أضر وأظهر . ترى ماذا أعدّ له ربه من مصير ؟ أتذهب حسناته سيئاته ، أم تغلب السيئة الحسنة فيجزيه الله الجزاء الأوفى ؟ لقد كان في وجلي من ذلك أيّ وجل . قال له أحد عواده : والله إني لأرجو ألا تمسّ النار جلدك أبداً ! فنظر إليه ، وقد ملأت العبرة عينيه حتى رثى له من كان حوله ، ثم قال له : « إنّ علمك بذلك يا فلان لقليل . لو أن لي مافي الأرض لافتديت به من هول المطلع ! » . وفي رواية أنه قال هذه العبارة الأخيرة وابن عباس عنده ، فقال له ابن عباس : « والله إني لأرجو ألا تراها إلا مقدار ما قال الله : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) ، إن كنت ماعلمنا لأمير المؤمنين وأمين المؤمنين وسيد المؤمنين ، تقضى بكتاب الله وتقسم بالسوية » . فأعجب هذا الكلام عمر فاستوى جالسا وقال : « أشهد لي بهذا يا ابن عباس ! » ، فسكت ابن عباس ، فضرب عمر على كتفه وقال : « اشهد لي بهذا يا ابن عباس » . قال ابن عباس : « نعم ، أنا أشهد » . والحق أن ما روى عن خوف عمر من هول الحساب يشهد له بثبات إيمانه وقوة يقينه وخافته الله مخافة هي العدة لمن صدق قصده وجه الله في كل عمله ، جاء الناس حين طعن يُذنون عليه ويودّعون ويدعون أمير المؤمنين ، فقال : « أبالإمارة تزودوني ! لقد صحبت رسول الله فقَبَضَ الله رسوله وهو عني راض ، ثم صحبت أبا بكر فسمعت وأطعت فتُوفى أبو بكر وأنا سامع مطيع ، وما أصبحت أخاف على نفسي إلا إمارتكم هذه » . وكان يهلم من جراحه فجعل جلساؤه ينسونه أله بالثناء عليه ، فقال : « إن من غرة عمره لمغرور . والله لو دِدْتُ أيّ أخرج منها كما دخلت فيها ، لا علي ولا لي » . وروى عن ابن عباس أنه قال : أنا أول من أتى عمر بن الخطاب حين طعن فقلت له : أبشّر بالجلفة ! صاحبت

رسول الله فأطلت صحبته ، ووليت أمير المؤمنين فقوَّيت وأدَّيت الأمانة ، فقال : « أمَّا تبشيرك إياي بالجنة فوالله الذي لا إله إلا هو لو أن لي الدنيا وما فيها لافتديت به من هول ما أمامي قبل أن أعلم الخبر . وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك » . وقد كان يشتد خوفه كلما ازداد ثناء الناس عليه . روى أنه مد يده فأخذ تبنه كانت على الأرض إلى جنب فراشه فرفعهما أمام عينيه وقال : ليتني كنت هذه التبنة ! ليتني لم أخلق ! ليت أمي لم تلدني ! ليتني لم أك شيئاً ! ليتني كنت نسياً منسياً ! » .

هذه حال تشهد بصدق الإيمان ، وتدلُّ على شعور هذا الرجل العظيم بجلال ما حمل من تبعه في إمارته المؤمنين ؛ فهو لم يفتِّر بما تمَّ في عهده من نصر وفتح ، ولم يُبطِّره ظفِّه بالفرس والروم ، ولم يزده حديث الناس عنه وثناؤهم عليه ، بل خشى أن يكون قد ظلم يوماً ضعيفاً ، فارتفعت أنات هذا الضعيف إلى السماء ، فوزَّنت عند ذي العرش حسنات عمر جميعاً .

وهذه الخشية هي التي جعلته ينظر إلى ابنته حفصة أم المؤمنين ، وقد دخلت عليه باكية تذذبه بقولها : يا صاحب رسول الله ، وباصهر رسول الله ، وبأمر المؤمنين ! فيقول لها : إني أحرَّج عليك بما لي عليك من الحق أن تنديني بعد مجلسك هذا ، فأما عينك فلن أملكها . إنه ليس من ميت يُذدَّبُ بما ليس فيه إلا الملائكة تمقته . ونهى عمر أهله أن يبكوا عليه . وكان عمر في النهي عن النذب وعن البكاء شديداً صارماً . سمع صهيباً يقول ، وقد رأى اللبن يخرج من جراحه ، : وأعمراه وأخاه ، من لنا بعدك ! فقال له : مَهْ يا أخى ، أما شعرت أنه من يُبكَ عليه يُعذَّبُ ؟ ! .

وخشى عمر أن يبالغ أهله بعد موته في تكفينه ودفنه ، فأوصى ألا يغسلوه بمسك أو يقرَّبوا منه مسكاً ، على ما كان يصنع العرب بذوى المكانة منهم ، وقال لابنه : « اقصدوا في كفي فإنه إن يكن لي عند الله خير أبدلني خيراً منه ، وإن كنتُ على غير ذلك سلبني فأسرع سلبى . واقصدوا في حفرتي ، ولا تخرجن معي امرأة ، ولا تزكوني بما ليس فيَّ فإن الله هو أعلم بي . وإذا خرجتم بي فأسرعوا في المشي ؛ فإنه إن يكن لي عند الله خير قدَّمتموني إلى ما هو خير لي ، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتُم عن رقابكم شرّاً تحملونه » .

كان عبد الله بن عمر يسمع هذه الوصية وقد جلس إلى فراش أبيه ووضع رأسه على فخذه . فلما أحس عمر أنه موفٍ على لقاء ربه قال لابنه : ضع خدي بالأرض . فقال له عبد الله : هل نخذي والأرض إلاّ سواء ! قال عمر : ضع خدي بالأرض لا أم لك ! فلما وضع ابنه خده بالأرض شبك بين رجليه وجعل يقول : وبلى وبلى أى إن لم يغفر الله لى ؟ وظل يكررها حتى فاضت نفسه^(١) .

فاضت نفسه وهو بين يدي ربه أكبرُهم أن يترك الدنيا كغافاً لا عليه ولا له . وكان الناس إذ ذاك بالسجد يحدث بعضهم بعضاً في مقتله . وفيما يخشون أن يصيبهم ويصيب الدولة الناشئة من بعده . وكان لهم العذر أن تثور مخاوفهم . فمن ذا يستطيع أن يضطلع من بعده بالعبء العظيم الذى خلفه بمثل ما اضطلع هو به ! ومن ذا يستطيع أن ينسى نفسه وأهله ، وأن يتجرد لله وخدمته المسلمين والعدل بينهم تجرده ! لقد استفتحت عهده وشبه الجزيرة وحدها في سلطانه ، ومات والإمبراطورية الإسلامية تشمل فارس والعراق والشام ومصر ؛ مع ذلك لم يغير من تقشفه وبساطة عيشه ومن قسوته بنفسه ، ولم يفرّه السلطان بالخروج عن مألوف حياته ، وعما عرف الناس من تسويقه بين نفسه وبين سائر المسلمين لذلك اشتد حزن الناس لموته وجزعهم عليه ، روى عن أبي طلحة أنه قال : ما من أهل بيت من العرب حاضٍ ولا بادٍ إلا وقد دخل عليهم بقتل عمر نقص في دينهم وفي دنياهم وروى عن الحسن أنه قال : « أىّ أهل بيت لم يجدوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء » . وقال حذيفة يوم قتل عمر : « اليوم ترك الناس خافة الإسلام ؛ وأيم الله لقد جار هؤلاء القوم عن القصد حتى لقد حال دونه وعورته ما يبصرون فهم لا يهتدون » ، وبكى سعيد ابن زيد ذلك اليوم فقيل له : وما يبكيك ؟ قال : على الإسلام أبكى ! إن موت عمر ثلم الإسلام ثلثة لا تُرتقُ إلى يوم القيامة ، ولا عجب ، وذلك شعور الحكماء وأولى الرأى ،

(١) بين الروايات عن اليوم الذى طعن فيه عمر واليوم الذى دفن فيه خلاف ، فإحداها تجرى بأنه طعن يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس لثلاث ليالٍ بقی من ذى الحجة . وتجرى أخرى بأنه طعن يوم الأربعاء ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرون . وتجرى رواية ثالثة بأنه توفى لأربع ليالٍ بقی من ذى الحجة . ونم روايات أخرى أنه توفى فى الثامن أو العاشر من المحرم سنة أربع وعشرين .

أن يكون الضمءاء والبؤساء أقوى شعوراً بوقع الكارثة التي نزلت بهم ؛ فقد كان عمر لهم أبا وأخا ، وكان لهم حصناً حصيناً وملجأ أميناً .
 قد يدهشك ، والأمر ما ترى ، ألا يورد المؤرخون من رثاء أصحاب الرأي يومئذ لعمر مثل ما أوردوا من رثائهم لأبي بكر يوم قبض . فكل ما ينسب إلى عليّ بن أبي طالب أنه دخل على عمر إثر وفاته ، فألفاه مسجى بثوب في ناحية من غرفته ، فرفع الثوب عن وجهه وقال . « يرحمك الله أبا حفص ! ما أحبُّ أحبَّ إليَّ بعد النبي صلى الله عليه وسلم أن ألقى الله بصحيفته منك » . والأكثر تواتراً أن علياً وقف على عمر معد أن يغسل وكفن وحمل على سريره فأثبى عليه وقال : « والله ما على الأرض رجل أحبَّ إليَّ من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب ! » . فلما صلي على عمر جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء عليه ، ثم وقف عند سريره وقال : نعم أخو الإسلام كنت يا عمر ، جواداً بالحق . بخيلاً بالباطل ، ترضى حين الرضا وتغضب حين الغضب ، عفيف الطرف ، طيب الظرف ، لم تكن مدّاحاً ولا مغتاباً ثم جلس :

وإنما يذهب بعض الشيء من دهشتك أن تعلم أن أهل الرأي كانوا في شغل بأمر الشورى فيمن يخلف عمر عن التفكير في شيء سواه . وكان أصحاب الشورى الذين استخلفهم عمر أشدَّ من غيرهم اشتغالا بهذا الأمر ، وتوقا لمعرفة مآله لما حان دفن عمر ، فحمل إلى المسجد ووضع بين قبر رسول الله ومثبره ليصلي عليه ، أقبل عثمان ابن عفان وعليّ بن أبي طالب ، وكل منهما يريد أن يتقدّم صاحبه لهذه الصلاة . فلما رآهما عبد الرحمن بن عوف على هذه الحال قال : إن هذا لهو الحرص على الإمارة ، لقد علمتما ما هذا إليكما ، ولقد أمر به غيركما . تقدّم يا صهيب فصلي عليه . كذلك روى ابن سعد في الطبقات . وفي رواية الطبري أن عبد الرحمن بن عوف قال ! ما أحرصكما على الإمارة ! أما علمتما أن أمير المؤمنين قال : « ليصل صهيب بالناس ! فتقدّم صهيب فصلي عليه وكبر أربعاً .

وفي رواية أوردتها الطبري عن المغيرة بن شعبه أنه قال : لما مات عمر رضى الله عنه

بكتته ابنة أبي حنمة فقالت : « واعمره ! أقام الأود ، وأبرأ العمَدَ ؛ أَمَاتَ الفِتَنَ ، وأَحْيَا الشَّنَنَ . خرج نَفْيُ الثوب ، بريئاً من العيب » فلما دفن عمر أتيتُ عليّاً أريد أن أسمع منه في عمر شيئاً ، فخرج ينفذ رأسه ولحيته وقد اغتسل وهو ملتحف بثوب لا يشك أن الأمر يصير إليه ، فقال : « يرحم الله ابن الخطاب ! لقد صدقت ابنة أبي حنمة . لقد ذهب بخيرها ونجا من شرها . أم والله ما قالت ولكن قُولتِ ! » .

ربما أذهب اشتغال أهل الشورى بالخلافة بعض الشيء من دهشتك لقلة ما أورده المؤرخون عما رُئي به عمر يوم وفاته . وسترى مبلغ هذا الاشتغال بعد حين فلا يبقى من دهشتك شيء ، ثم ترى إعظام الناس عمر وإكبارهم لحقه فتطيب نفسك بأن الحق باق أبداً ، وإن أخفته الأهواء حيناً .

غُسلَ عمر وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب ، وحُملَ إلى المسجد فصلى عليه صُهيَّبٌ ، ثم حمل القوم جثمانه فوقوا به على باب عائشة ، وقال عبد الله بن عمر : يستأذن عمر ابن الخطاب أن يُدْفَنَ مع صاحبيه ؟ وأجابت عائشة : أدخل بسلام .

ودخل القوم إلى حجرة رسول الله ، فأنزلوا الجثمان إلى مشواه الأخير . وكان رأس أبي بكر قد جُعل عند كتفي النبي ، فوُضع رأس عمر عند كتفي أبي بكر . وتولى عبد الله بن عمر تسوية الجثمان في مكانه ، وكان قد نزل معه أصحاب الشورى الخمسة : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام^(١) . أما طلحة بن عبيد الله فكان لا يزال غائباً عن المدينة ، فلم يحضر وفاة عمر ولم يحضر دفنه .

وسوى القوم التراب على الجثمان وأقفلوا القبر ، والناس على مقربة منهم مجتمعون في المسجد وقد هوى الحزن بأفئدتهم إلى أعماق قرار ، وذهب الأسى بألبابهم لموت رجل عزّ في الرجال نظيره ، وأمير المؤمنين تولى أمرهم وهم من شدته وغلظته في خوف ووجل ،

(١) هذه رواية الطبري وابن الأثير ، أما ابن سعد فيروي عن أبي الحويرث عن جابر أنه قال : « نزل في قبر عمر عثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وصهيب بن سنان ، وعبد الله بن عمر » .

ثم قضى بينهم عشر سنوات وستة أشهر كان من خلالها أبرد أمير وأعدله وأتقاه ، وكانوا لذلك يزدادون كل يوم له حبا .

وكيف لا يفعلون وقد كانوا أول عهده في عيلة فأغناهم الله من فضله ، وكان الخوف من الفرس والروم يساورهم فأصبحوا بفضل الله سادة الفرس والروم ! بذلك استقر سلطان الإسلام وتوطد عرشه ، فحق لعمر أن يدفن مع صاحبيه ، لينعم بجوارحه ، وتطمئن روحه إلى أنه سار على سُنَّتِهما ، وأنه أتم على الأرض ما قضى الله أن يتم حين أوحى إلى نبيه رسالة السماء .

وقد أتم عمر هذه الرسالة ؛ لأنه نسي نفسه ، وجعل وحدة المسلمين وعظمة الإسلام غرضه ، فلم يفكر حين خلافته في مال أو جاه يكون لذويه وأهله ، بل رأى ما وليه من أمر المسلمين عبثا ألغاه القدر على كاهله ، فكان كل همه ألا تعلق به فيما ولي من ذلك ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدّى في ولايته لكل ذي حق حقه . وقد فعل ، فأعز الله الإسلام ، وأورث الأرض عباده الصالحين .

تفرق الناس بعد أن فرغ من دفن عمر ، وساروا تعلم السكابة ويساورهم الحزن ، وجعل كثيرون يذكرون يوم طعن ، ويسأل بعضهم بعضا عن باعث أبي لؤلؤة إلى ارتكاب فعلته الشنعاء ، فلو أن الخراج لم يكن يبتغظه ، بالقياس إلى كسب عمله لما أقدم على جريمة عاقبتها القضاء على حياته ، لكن ، أو يكفي أن يقول له عمر إن ما فرض عليه من خراج ليس بالكثير ليدفعه ذلك إلى قتله ؟ ! إن صح هذا كان عجبا ؛ فقد كان في مقدوره أن يعود فيعرض عليه جلية أمره على الخليفة ، ليخفف العبء عنه ، أم أن في الأمر سرا كان أقوى أثرا في نفسه ، وكانت الشكوى من الخراج خدعة أريد بها ستر الحقيقة عن الأعين ؟ ! الحقيقة أن الفرس واليهود والنصارى قد كانت في نفوسهم حفيظة أى حفيظة على العرب عامة وعلى عمر خاصة ، بعد أن غلب المسلمون الفرس والنصارى على أسرهم ، وتولوا حكم بلادهم ، واضطروا عاهل الفرس إلى فراز انتهى به إلى شر مصير . وذكر الناس في أحاديثهم هذه الحفيظة ، وذكروا قول عمر حين عرف أن الذى طعنه هو أبو لؤلؤة الفارسي : « قد كنت نهيتكم عن أن تجلبوا علينا من علوهم أحدا فمصيبتموني ! » . وبالبدنية من

هؤلاء الملوح جماعة إن يكونوا قليلين فهذه الحفيظة تجمع قلوبهم وتوعد صدورهم . ومن يدري ! لعلمهم انتمروا فكانت فعلة فيروز ثمرة مؤامرة أرادوا بها شفاء مافي نفوسهم من غلي ، وحسبوا أنهم قادرون بها على أن يشتتوا شمل العرب ويفتتوا في أعضاد المسلمين . كان أبناء عمر أشد الناس حرصاً على معرفة الحقيقة ؛ وقد كانوا يستطيعون كشفها والوقوف على جلية أمرها لو أن فيروز لم ينتحر . لكنه انتحر ، فذهب بسرّه إلى القبر معه . أفقضى الأمر ، ولم يبق إلى معرفة السر سبيل ؟

كلا ! بل أرادت الأقدار أن يقف على السر من سادة العرب من يدل عليه . رأى عبد الرحمن بن عوف السكين التي قُتل بها عمر فقال : رأيت هذه أمس مع الهرمزان وجفينة فقلت : ما تصنعان بهذه السكين ؟ فقالا : نقطع بها اللحم ، فإننا لانمس اللحم . وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمرو معه جفينة والهرمزان وهم نجى ، فلما بغتهم ثاروا ، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصاب في وسطه ، فانظروا ما الخنجر الذي قُتل به عمر ، فوجدوه الخنجر الذي نعت عبد الرحمن بن أبي بكر ، لم يبق إذاً في الأمر ريبة . هذان شاهدا عدل ، بل هما من أعدل شهود المسلمين ، يشهدان بأن الهرمزان وجفينة كان معهما السكين الذي قتل به عمر ، ويشهد أحدهما أنه رأى أبا لؤلؤة القاتل يأتمر قبل القتل معهما ، ويقرران أن ذلك كله كان عشية طعن عمر . أفيستطيع أحد بعد ذلك أن يشك في أن أمير المؤمنين ذهب ضحية مؤامرة كان هؤلاء الثلاثة أبطالها ، ولعل غيرهم من أبناء فارس أو من الأمم التي غلبها المسلمون كان معهم فيها ؟ سمع عبد الله بن عمر قول عبد الرحمن بن عوف وشهادة عبد الرحمن بن أبي بكر فاصطبغ الوجود كله دماً أمام عينيه ، ودخل في روعه أن كل أجنبي بالمدينة شريك في المؤامرة ، وأن أيديهم جميعاً تقطر من دم الجريمة . لذلك لم يتردد أن تقلد سيفه ، ثم بدأ بالهرمزان وجفينة فقتلها . روى أنه دعا الهرمزان ، فلما خرج إليه قال له : انطلق معي حتى ننظر إلى فرس لي . وتأخر عنه ، حتى إذا مضى بين يديه علاء بالسيف ، فلما وجد الفارسي حرّه قال : لا إله إلا الله ! وخرّ صريعاً . وروى أن عبيد الله بن عمر قال : «ودعوت جفينة ، وكان نصرانياً من نصارى الحيرة ، وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص أقدمه

المدينة للملح الذي كان بينه وبينه ، وكان يُعَلِّمُ الكتاب بالمدينة ، فلما علوته بالسيف صلب بين عينيه .

لم يكتف عبيد الله بقتل الهرمزان وجفينة ، بل انطلق فقتل ابنة لأبي لؤلؤة صغيرة تدعى الإسلام ، وأراد ألا يترك سبياً بالمدينة إلا قتله . وسمع الناس في المدينة بما يصنع فأمرعوا إليه ، واجتمعوا المهاجرون الأولون عليه فنهوه وتوعده ؛ لكنه كان في حال من الهياج حتى لقد قال : والله لأقتلنهم وغيرهم ! وعرض ببعض المهاجرين . وعرض له عمرو بن العاص وجعل يحدثه بالشدة تارة وباللين أخرى ، ولم يزل به حتى دفع إليه بالسيف .

وأقبل سعد بن أبي وقاص ، وقد عرف مقتل جفينة ، فأخذ بناصرية عبيد الله وأخذ عبيد الله بناصريته ، واشتد بينهما الأمر لولا أن حجز بينهما الناس . ثم أقبل عثمان بن عفان ، ولما يكن قد بويع ، فأمسك بتلابيب عبيد الله وأمسك عبيد الله بتلابيبه ، وتناصيا وأظلمت الأرض من حولهما ، ثم تدخل الناس فحجزوا بينهما وعثمان يقول : قاتلك الله ! قتلت رجلا يعلى وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله ! ما في الحق ترزك ! لكن عبيد الله لم يكن يرى أمانة غير الدم المراق ، دم أبيه الكريم ، فكان كهيفة السبع يعترض المعجم بالسيف حتى حُبس (١) .

ولم يكن إخوة عبيد الله دونه ثورة لمقتل أبيهم . وكانت حفصة أم المؤمنين من أشدهم ثورة . روى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « يرحم الله حفصة ! فإنها من شجع عبيد الله على قتلهم » .

وفعلة عبيد الله من حمية الجاهلية لاريب ؛ فإكان لرجل أن يثار لنفسه ، أو يأخذ حقه بيده بعد أن أصبح القضاء لرسول الله وخلفائه من بعده ؛ يحكون بين الناس بالعدل ، ويتولون القصاص ممن أجرم . لذلك كان حقاً على عبيد الله إذ عرف المؤامرة التي أودت

(١) يذكر ابن كثير في (البداية والنهاية) قتل عبيد الله الهرمزان وجفينة ويقول : « وقد كان عمر قد أمر بحبسه ليحكم فيه الخليفة من بعده » . ومؤدى هذا القول أن عبيد الله قتل من قتل وعمر حتى فأمر بحبسه . وأكثر الروايات وأرجحها عندى أن عبيد الله فعل ما فعل بعد وفاة عمرو قبل بيعة عثمان .

بحياة أبيه ، أن يحتكم إلى أمير المؤمنين ؛ فإن ثبتت المؤامرة عنده أجرى فيها حكم القصاص ، وإن لم تثبت أو قامت الشبهة في نفسه منها درأ الحلد بالشبهة ، أو قضى بأن أبا لؤلؤة وحده هو الآثم .

أياماً يكن الحكم فقد آن للشورى أن يجتمعوا ، وأن يختاروا أحدهم أميراً للمؤمنين . وقصة الشورى حدثت بعد وفاة عمر ، فلم تكن من ثم تدخل في نطاق هذا الكتاب ، لولا أن عبيد الله بن عمر بقي محبوباً إلى تمامها ، وإلى أن استُخلف عثمان بن عفان ، ثم كان لأمر المؤمنين معه شأن يجب أن يؤرخ لعمر ألا يغفله .

ثم إن قصة الشورى تصوّر الحال النفسية للمسلمين حين وفاة عمر تصويراً يشهد بأن هذا العهد ، وما تم فيه من اتساع رقعة الفتح وانفساح مدى السلطان ، قد انطوى إلى جانب عظمتهم وجلاله على بذرة ثورة بقيت مستكنة في خلافة عمر ومعظم خلافة عثمان وهذه البذرة هي التي أدت من بعد إلى مقتل عثمان ، إلى الحرب الداخلية بين عليٍّ ومعاوية ، وإلى ما تلا ذلك من نزاع بين الأمويين والعباسيين . وقد كان لذلك كله أثر واضح في غظمة الإمبراطورية الإسلامية ، كما كان له أثر واضح في انحلالها بعد بضعة قرون . فحق علينا ، ونحن نؤرخ لعمر ، أن نبز هذه الحال النفسية التي ظهرت إثر وفاة عمر على نحو لم تظهر به في حياته .

وفي رواية المؤرخين لقصة الشورى بعض الاختلاف . ويرجع اختلافها إلى ما بيده بعض المؤرخين من إثبات لعليٍّ ولبنى هاشم وحقهم في إمارة المؤمنين ، وما بيده بعضهم الآخر من الحرص على رواية الوقائع كما بلغت دون التأثير عميل خاص . على أن هذه الروايات في جملتها وتفصيلها تشهد بأن بني هاشم وجدوا فرصة الشورى ساحة لاسترداد حقهم في إمارة المؤمنين ، لأنهم ورثة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وبأن الكثرة من قريش كانوا يترددون في إجابة بني هاشم إلى هذا الطلب ، بل كانوا يؤثرون ألا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد .

رؤى أن عمر لما استخلف الشورى قال العباس بن عبد المطلب لعليٍّ : لا تدخل معهم ! قال عليٌّ : إني أكره الخلاف ؛ وكان جواب العباس : إذن ترى ما تكره . وقد كان

عمر قال للشورى: «إن رضى ثلاثة رجالاً وثلاثة رجلاً فحسبوا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا حكم عبد الله فتكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف». فلما خرجوا من عند عمر قال على لقوم معه من بنى هاشم: إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً. وقال لعنه العباس: عدلت عتاً، وذكر له قول عمر: «كونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف»؛ ثم قال: «فسعد لا يخالف ابن عمه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان فيولئها أحدهما الآخر. فإن كان الآخران معي لم يفعاني». فقال له العباس: «لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأجراً بما أكره: أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر فأيت. وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأيت. وأشرت عليك حين سمّاك عمر في الشورى ألا تدخل معهم فأيت. احفظ عني واحدة: كلما عرض عليك القوم فقل: لا، إلا أن يوتوك. واحذر هؤلاء الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا. وأيم الله لا نناله إلا بشر لا ينفع معه خيراً». لا أرب لي في ترجيح هذه الرواية ولا في تنفيذها: وهى تشهد على كل حال بأن بنى هاشم كانوا يرون أنفسهم أحق بخلافة النبي وتوَلَّى أمر المسلمين، وأنهم كانوا يرشحون على بن أبى طالب لأنه كان من أول المسلمين، إذ أسلم ولما يبلغ الحلم، ولأنه صهر رسول الله وابن عمه. ولكن علياً لم يكن يحرص على الخلافة إثر وفاة الرسول حرص من يقيم الثورة إذ لم يبلغ أربه. فلما استخلف أبو بكر عمر لم يثر على ولم يثر أحد من بنى هاشم. ولما طعن عمر وجعل الشورى في ستة بينهم على تحريك بنو هاشم من جديد لتحقيق غرضهم، لكن علياً بقى مع ذلك أشد حرصاً على وحدة المسلمين منه على الاستئثار بالأمر لنفسه، مع اقتناعه بأنه أحق المسلمين بهذا الأمر.

وذلك ما تشهد به قصة الشورى في وضوح وجلاء؛ فقد اجتمع أهل الشورى بعد الفراغ من دفن عمر. قيل اجتمعوا في بيت المسور بن مخرمة، وقيل في بيت المال، وقيل في حجرة عائشة بإذنها، وقيل في بيت أحدهم. واجتمع معهم عبد الله بن عمر يشير عليهم وليس له من الأمر شيء. وأمروا أبا طلحة الأنصاري أن يجلبهم، ولم يرضوا أن يجلس عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة بالباب، بل حضبهما سعد بن

أبي وقاص وأقامهما ، وقال لهما : تريدان أن تقولاً حضرننا وكنا في أهل الشورى ! .
وبدأ القوم يتشاورون ، فاشتد بينهم الجدل وارتفعت منهم الأصوات ارتفاعاً دلياً
أباً طلحة الأنصاري على شدة اختلافهم ، فدخل عليهم وقال لهم : « أنا كنت لأن
تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها . والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة
التي أمرتم ، ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون ! » .

تجربى رواية بأن هذا الخلاف ظل متصل الحدة يومين كاملين ، تداركه عبد الرحمن
ابن عوف بعدها باقتراح سكتن من حديثه ، وانتهى إلى الغاية المنشودة . وتجربى رواية
أخرى بأن عبد الرحمن تدارك الخلاف منذ اليوم الأول ، وأنه استطاع بحكمته أن يتغلب
عليه . وأما الروایتين صحت فقد قال عبد الرحمن للمجتمعين : أيكم يخرج منها نفسه
ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ ونظر إليه القوم في دهش ولم يخرج أحد منهم جواباً .
وكيف يجيبونه والإمارة متنازعة بين بني هاشم وغيرهم من قريش ! قال عبد الرحمن : فأنا
أنخلع منها . قال عثمان : فأنا أول من رضى . وقال سعد والزبير : رضينا . أما علي بن
أبي طالب فبقي ساكناً . فسأله عبد الرحمن : ما تقول يا أبا الحسن ؟ وأجابه علي : أعطني
موثقاً ، لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألوا الأمة نصحاً . ذلك
أن عبد الرحمن كان صهراً لعثمان بن عفان وابن عم لسعد بن أبي وقاص ؛ ولهذا خشى علي
أن يؤثر عليه عثمان . لكن عبد الرحمن لم يلبث حين سمع كلام علي أن قال : أعطوني
موثقتكم على أن تكونوا معي على من بدّل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم ، وعليّ
ميثاق الله ألا أخصّ ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين نصحاً ؛ وبذلك أخذ منهم ميثاقاً
وأعطاهم مثله .

خلع عبد الرحمن نفسه من ترشيح عمر له ، وجعل كل همهم إلى توحيد كلمة المسلمين
على من يختاره لإمارتهم . لهذا بدأ يعمل لتضييق دائرة المرشحين . وإذا كان يعلم أن علياً
وعثمان هما المتنافسان اللذان يخشى اختلافهما فقد بدأ يسعى ليحصر الترشيح فيهما . وأول
ما صنع من ذلك أن خلا بعلي وقال له : تقول إنك أحق من حضر بهذا الأمر لقربابتك
وسابقتك وحسن أترك في الدين ، ولم تبعد . ولكن ، رأيت لو صرف هذا الأمر عنك

فلم تحضره ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ؟ وأجابه عليّ : عثمان . ثم إنه خلا بعثمان وقال له : تقول شيخ من بنى عبد مناف ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، ولي سابقة وفضل ، فأين يُصرفُ هذا الأمر عني ! ولكن لو لم تحضر ، أياً هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ وأجابه عثمان : عليّ . وكان قد تحدّث إلى الشورى جميعاً قبل ذلك ، وطلب إليهم أن يفوض ثلاثة منهم ما لهم من الحق في ولاية الأمر إلى ثلاثة . وإذا كان سعد والزبير يعلمان أن مالهما من أمل في ولاية الأمر ضعيف ، فقد قوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى عليّ وقوض سعد ماله فيها من حق إلى عبد الرحمن ، وترك حق طلحة لعثمان . أما وقد خلع عبد الرحمن نفسه فقد انحصر الترشيع في عليّ وعثمان ، وقد أصبح الأمر في اختيار أحدهما معلقاً في عنق عبد الرحمن .

قدّر ابن عوف جلال التّبعة الملقاة على عاتقه ، وما يحب عليه لله ولدين الله وللمسلمين . أن يبلغ بها غايةً تجتمع عليها الكلمة وينحسم بها كل خلاف . لذلك جعل يلتقي أصحاب رسول الله ومن وافى المدينة بعد الحج ، من أمراء الأجناد ورؤوس الناس ، يسألهم جميعاً مَشْنَى وفُرَادَى ، مجتمعين ومتفرقين ، سرّاً وعلانية ، حتى يجتهد في أفضل الرجلين فيؤليه ورأى الكثرة الواضحة أشد ميلاً لعثمان . مع ذلك لم يُرد أن يعلن للناس رأياً يتهمة أنصار عليّ فيه ، بل ذهب إلى دار ابن أخيه المسور بن مخرّمة فأيقظه ، وقد مضى أكثر الليل من تلك الليلة الأخيرة التي فرضها عمر لاختيار أمير المؤمنين ، وطلب إليه أن يدعوله عليّاً وعثمان . فلما أقبل قال لهما : إني قد سألت الناس فلم أجدهم يعدلون بكما أحدًا . ثم أخذ العهد على كلٍّ منهما : لئن ولّاه ليمدّين ، ولئن ولّى عليه ليستمعن وليطيعن .

وخرج بهما إلى المسجد في الصباح بعد أن نودي في الناس إن الصلاة جامعة . وغصّ المسجد بالناس ، فصعد عبد الرحمن المنبر فدعا دعاء طويلاً ثم قال : أيها الناس ، إن الناس قد أخذوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلاً . قال عبد الرحمن : أشيروا عليّ بغير هذا . وأشار عمار بن ياسر والمقداد بن عمرو بعلّ ، وأشار عبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن أبي ربيعة بعثمان . وأدّى اختلاف الفريقين إلى تشاتم بين عمار وابن أبي سرح ؛ فصاح سعد بن أبي وقاص : يا عبد الرحمن ! افرغ

قبل أن يُفَتَّنَ الناس . قال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت ، فلا تجمعان أيها الرهط على أنفسكم سبيلا .

ثم إنه دعا عليًا فأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعي لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفةين من بعده ؟ قال علي : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي . فأرسل يده ، ودعا عثمان وأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعي لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفةين من بعده ؟ قال عثمان : اللهم نعم . فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال ثلاثًا : اللهم اسمع واشهد ! ثم قال : اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك ، وجعلته في رقبة عثمان ! وبإيعه . فازدحم من بالمسجد يبائعون عثمان .

أى موقف وقفه على من اختيار عثمان بن عفان وبيعته ؟ ذلك أمر اختلفت الروايات فيه . روى ابن سعد بإسناد أن أول من بايع عثمان عبد الرحمن بن عوف ، ثم علي بن أبي طالب . وروى بإسناد آخر أن عليًا بايع عثمان أول الناس ، ثم تتابع الناس فبايعوه . وروى ابن كثير أن عبد الرحمن بن عوف قعد على المنبر مقعد النبي ، وأجلس عثمان بعد أن بايعه على الدرجة الثانية . « وجاء إليه الناس يبائعونه ، وبإيعه علي بن أبي طالب أولاً ، ويقال آخرًا » . أما الطبري فيسوق روايتين تقرب إحداها من هذه الروايات ، وتختلف الثانية عنها كل الاختلاف ، وتدلان كليهما على أن اختيار عثمان ترك في نفس علي أثرًا عميقًا . أما الأولى فتذهب إلى أنه لما أقبل الناس يبائعون عثمان ، بعد أن بايعه عبد الرحمن ، تلكأ علي فقال عبد الرحمن : (فَمَنْ نَكَّثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِنُهُ أَجْرًا عَظِيمًا) . فرجع علي يشق الناس حتى بايع وهو يقول : خَدَعَهُ وَأَيَّمَا خَدَعَةٍ (١) . وأما الرواية الثانية فتذهب إلى أنه لما بايع عبد الرحمن عثمان قال له علي : « حَبَوْتُهُ حَبْوَ دَهْرٍ ! لَيْسَ هَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ تَظَاهَرْتُ فِيهِ عَلَيْنَا ، فَصَبِرْ بِجَهْلٍ

(١) يفسر الطبري قول علي « خَدَعَهُ » بأن عمرو بن العاص لقي عليًا في ليل الشورى فقال له : إن عبد الرحمن رجل مجتهد وأنه متى أعطيت العزيمة كان أزهده فيك ، ولكن الجهد والطاقة فإنه أرغب له منك ، ثم لقي عثمان فقال له : إن عبد الرحمن رجل مجتهد وليس والله يبائعك إلا بالعزيمة فأقبل لذلك قال علي خدعة . وهذه رواية ضعيفة نسجت بعد الذي كان بين علي وعمرو بن العاص حين الخلاف مع معاوية . فلما اختار عبد الرحمن عثمان بعد أن استشار الناس من أهل المدينة وغيرهم .

والله المستعان على ما تصفون ! والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ! والله كل يوم هو في شأن » فقال عبد الرحمن : « يا علي لا تجعل على نفسك سييلا ؛ فإنى قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان » . فخرج علي وهو يقول : سيبلى الكتاب أجله » .

ينفى ابن كثير روايتى الطبرى هاتين فيقول : « وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره من رجال لا يعرفون ، أن علياً قال لعبد الرحمن : خدعتنى ، وأنتك إنما وليته صهرك وليشارك كل يوم في شأنه ، وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن : فمن نسكت فإنما ينكث على نفسه إلى آخر الآية ، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحيح فهي مردودة على قائلها وفاعلها والله أعلم » .

أنت ترى ما بين هذه الروايات من اختلاف ؛ لكنها جميعاً تشهد بأن قريشاً كانت تؤثر ألا تجتمع النبوة والخلافة في بنى هاشم . وقد نسب إلى علي أنه قال بعدبيعة عثمان : « إن الناس تنظر إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً ، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم » . وهذا القول ، صحت نسبته إلى علي أو لم تصح ، يتفق وما حدث لذلك العهد . فقد كان علي من أعلم الناس وأقصام بالحق والعدل ؛ فالعدول مع ذلك عنه يفسر هذا الحرص من قريش على أن تكون إمارة المؤمنين مداولة بينهم ، لا يتوارثها أهل بيت توارث الملوك عروش آبائهم . وربما تمت البيعة لعلي لولا هذا الشعور وتأصله في قريش .

جلس عثمان بعد البيعة في جانب المسجد ، ثم دعا عبيد الله بن عمر من محبسه ، ليحاكمه في قتله الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة بعد الذي اعتقده من ائثارهم بحياة أبيه . فلما مثل عبيد الله بين يدي عثمان وجه أمير المؤمنين القول لجماعة من المهاجرين والأنصار يسألهم : أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق ؟ قال علي بن أبي طالب : ما من العدل تركه ، وأرى أن تقتله . ورأى بعض المهاجرين في هذا الرأي من الفسوة مالا تطيقه النفس فقالوا : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! ووجم الحاضرون لهذا الاعتراض ، وأمسك علي عن القول ، وأجال عثمان في الحاضرين بصره يلتمس الرأي . فلو أنه استجاب لرأى علي

وقتل عبيد الله لنفسكأ من آل عمر جزاحات لئلا تندمل ، ولأثار بذلك ثائرات لا يعلم إلا الله عفتها ، ولكن مثل في القسوة لا يقاس به أشد الناس غلظة وبطشا . وفي طبع عثمان لين يتجافى به عن مثل هذا البطش . لذلك ودّ لو يجد له أحد الحاضرين مخرجاً من موقف ما أحرصه على الخروج منه . وكان عمرو بن العاص حاضراً هذا المجلس ، فقال : « إن الله قد أعفأك من هذا الحدث ، وقد كان وليس لك على المسلمين سلطان . تلك قضية لم تكن في أيامك ، فدعها عنك » ورأى عثمان في قول ابن العاص سفسطة فلم يقتنع برأيه ، وإنما وجد فيه ما يسوِّغ الدية ، لذلك قال : أنا ولِيتهم — يريد ولي الذين قتلوا — وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي .

والحق أن الفتوى بقتل عبيد الله كانت قاسية ، وكانت الشبهة في عدلها قائمة . فحب عبيد الله خطأ في اعتقاده أن الهرمزان وجفينة ائتمرا مع أبي لؤلؤة بأبيه ، لقد كان له مع ذلك من العذر ما ينهض شبهة تدرأ عنه الحد وتخفف العقاب . ولعل عثمان لو أجرى التحقيق الدقيق لا نكشفت المؤامرة أمامه ، ولثبتت ثبوتاً تنفي معه كل ريبة فيها . فشهادة عبد الرحمن بن أبي بكر وشهادة عبد الرحمن بن عوف كافتيتان لتدفعاً عبيد الله إلى ما فعل ، إن لم تنهض دليلاً على الهرمزان وجفينة . وأيد هاتين الشهادتين أن النصل الذي قتل به عمر كان في أيدي المؤتمرين وهم نجى .

ولعل عثمان رأى ألا يقوم في هذا الأمر بتحقيق قد يثير ناثراً للفرس ، ويزيد الحفاظ بينهم وبين العرب ؛ ولهذا ودى القتلى من ماله ، وأمر في الوقت نفسه زياد بن أبيد البياض أن يكف عن التعريض بعبيد الله بن عمر . وبذلك نامت فتنة لم يكن من الخير أن تستيقظ ، وانصرف المسلمون في أرجاء الإمبراطورية إلى مألوف حياتهم قبل وفاة عمر .

* * *

باتتجار أبي لؤلؤة ، وقتل الهرمزان وجفينة ، ودية عثمان إياهما من ماله ومنعه الخوض فيما كان من عبيد الله ، أسدل على السبر في مقتل عمر ستار لا يزال إلى اليوم مسدلاً ، ولا يزال المؤرخون يتحاشون إزاحته . ولعمر الحق ما أرى لذلك سبباً ، وشهادة عبد الرحمن ابن عوف وعبد الرحمن بن أبي بكر تسوِّغ ما اعتقده عبيد الله بن عمر ، واعتقده أخته

حفصة أم المؤمنين ، من ائثار هؤلاء الأعاجم بأبيهما ! وقد كان لفيروز وللهرمزان من العذر عن هذه المؤامرة أن المسلمين فتحوا بلادهم ، واضطروا ملكهم للفرار لينتهي إلى أشنع مصير وأرذله فإذا تحرك نفوسهم لما أصاب وطنهم فذبّروا واثتمروا ، فذهب عمر ضخمة مؤامرتهم لم يكن ذلك عجيباً وإنما العجيب أن يظل الناس يعتقدون أن فيروز قتل عمر لأنه لم يُنصفه بتخفيف الخراج عنه ، مع أن عوده للشكوى من ثقل الخراج لم يكن أيسر منه . وإذا كانت اعتبارات الوقت قد ألقت على عثمان أن يسدل على المؤامرة حجاباً فليس للمؤرخين مثل عذره . فقد أسلم الفرس فاعتزوا بالإسلام وأعزوه ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الأمم التي دانت به ، فحق على كل مؤرخ أن يبدي رأيه في أمر أصبح ملك التاريخ فأصبح واجباً جلاؤه . لهذا أبديت رأيي فيه ، موقفاً أن هذا الرأي يفسر الكثير مما حدث ، من بعد ، بين العرب والفرس ^(١) .

والأمر أجدر بالمصارحة لأنه يتعلق بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ هذا الرجل الذي ظل اسمه ، وسيظل أبد الدهر ، علماً في التاريخ على العدل والنزاهة والحزم وحسن الرأي . وصدق الإرادة ، والتجرد لله ولدين الله تجرداً أعز الله به الإسلام ومدّ لواءه في الخلفين . كان عبد الله بن مسعود إذا ذكر مقتل عمر بكى وقال : « إن عمر كان حصناً حصيفاً للإسلام ، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه . فلما مات عمر انطمأ الحزن فالتناس يخرجون من الإسلام » . وعن حذيفة أنه قال : « إنما كان مثل الإسلام أيام عمر مثل امرئ مقبل لم يزل في إقبال ، فلما قتل أدبر فلم يزل في إدبار » وروى أن عبيدة ابن الجراح قال ، وهو لا يزال في عنفوان نشاطه وقوته : « إذا مات عمر رقت الإسلام . ما أحب أن لي ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وأن أبقى بعده . وسترون ما أقول إذا بقيتم فإن وليّ والٍ بعد عمر فأخدم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس ولم يحتملوه ، وإن ضعف عنهم قتلوه » .

(١) يرى الأستاذ عباس محمود العقاد هذا الرأي في كتابه عبقرية عمر فيقول : فمير إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لاشك فيها . وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذي يتوارى به التآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة الفصاح الذي يحيق بهم إذا جهروا بما دبّروا أو جهروا بالعلّة التي من أجلها تربصوا بذلك التدبير . وفي رأي الأستاذ العقاد أن كعب الأخبار كان شريكاً في المؤامرة . وأنا مقتنع بأنه كان على علم بها ، لكنني لا أستطيع القطع باشتراكه فيها .

وإعسا قال ابن مسعود وحذيفة وأبو عبيدة ما قالوا لاجتماع ما اجتمع من الصفات في عمر . واجتماع هذه الصفات هو الذي جعل المسلمين يحتملون منه ما لا يحتملونه من غيره ، وهو الذي أحزنهم أشد الحزن لوفاته حتى كأنهم لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ . وكيف لا يحزنون وقد كانوا ، أول ما استخلف ، فقراء فأغناهم الله ؛ وكانوا يخشون الفرس والروم ، فأصبحوا سادة الفرس والروم ؛ وكانوا في زاوية من الأرض لا يكاد يذكرها العالم ، فأصبحوا بفضل الله ملء السمع والبصر من حياة العالم . كل ذلك وعمر هو هو ، لم يتغير مظهره ولم تتغير حياته ؛ فلم يفكر في نفسه ولا في أهله ، بل رأى فيما يليه من أمر المسلمين عبثاً ألقاه القدر على عاتقه ، فكان كل هم ألا تعلق بولايته ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدي لكل ذي حق حقه . بذلك أعز الله الإسلام ، وأورث الأرض عباده الصالحين .

رحم الله عمر ، ورضى عنه ! إنه كان من عباده المؤمنين .

خاتمة

مهد أبو بكر لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، فامتدت في عهد عمر من حدود الصين شرقاً إلى ماوراء برقة غرباً ، ومن بحر قزوين في الشمال إلى النوبة في الجنوب ، واشتملت فارس والعراق والشام ومصر ، وضممتها كلها إلى بلاد العرب ؛ فكان لتفاعل العوامل ، التي اختصت بها كل واحدة من هذه الأمم ، أثر بالغ في توجيه حضارة العالم من بعد ، وكان تفاعل هذه العوامل طبيعياً ؛ فلم يكن لأُمير المؤمنين ولا لنبيه من السلطان ما يمجو أثره ، أو يغير النتائج التي ترتبت عليه .

وقد كانت هذه الأمم ، حين انضمت إلى لواء الإمبراطورية الإسلامية ، متباينة أشد التباين في كل مقوماتها ؛ إذ كانت كل واحدة منها تختلف عن سائرهما في اللغة ، والحس ، والعقيدة ، والحضارة ، والبيئة الاجتماعية ، والبيئة الاقتصادية . صحيح أن قبائل من العرب كانت تقيم ببادية السماوة ، على تخوم العراق والشام ؛ وأن هذه القبائل أقامت ملك الحيرة ، وملك بنى غسان . لكن أهل الشام الأصليين وأهل العراق الأصليين كانوا من جنس غير عربي ، وكانوا يتكلمون لغة غير العربية . أما فارس ومصر فكانتا لا تتمتان للعرب في الجنس ولا في اللغة بصفة . كانت عقائد الفرس تخالف عقائد أهل الشام وأهل مصر ، وكان أهل العراق مقسمين بين نصرانية الروم ومجوسية الفرس ، وكانت الحياة ولون الحضارة في كل وحدة من هذه الأمم يختلفان عنهما في الأمم الأخرى اختلافاً كبيراً . وقد تم اجتماع هذه الأمم كلها ، وبينها هذا التفاوت والتباين ، في وحدة الإمبراطورية في زمن لم يزد عن عشر سنين . لكن القوة التي تستطيع أن تخضع الأمم ، وأن تجمعها في سلطان سياسي واحد ، لا تستطيع أن تربل ما بينها من تفاوت في مقوماتها الأساسية . والتطور وحده هو الذي يُحوّل الأمم إلى غير حالها ، بعد أن تكون قد ثبتت على هذه الحال الأجيال والقرون . فكيف كان هذا التحول ، وإلى أي مدى بلغ في عهد عمر ، وماذا كان اتجاهه من بعده ؟ .

عد بالذاكرة إلى ما سجله المؤرخون من محاورات قيل إنها حدثت بين سفراء المسلمين وكسرى يزدرج وقائده رستم ، وبين خالد بن الوليد وجرجة القائد الرومي في غزوة اليرموك ، وإلى ما كان قبل ذلك من مثل هذه المحاورات بين نجاشي الحبشة والمسلمين الذين هاجروا إليها . لقد كان محور هذه المحاورات ومداها أن العرب كانوا ضعافاً لانحلال الروابط بين شتى أممهم ، أذلةً يتحكم غيرهم من الأمم في مصيرهم ، فقراء يقتلهم الجهد في سبيل العيش ، فلما أرسل الله رسوله إليهم بالإسلام اجتمعت كلمتهم ، وشبعوا من جوع ، وعزّوا بعد ذلة . ولا ريب أنه قد حدثت محاورات من هذا القبيل ، إلا تسكن على الوجه الذي فصله المؤرخون فعلى وجه آخر لا يختلف في جوهره عنه . فالرسالة الجديدة للإسلام كانت إذاً موضع التفكير في كل مكان ذهب إليه المسلمون ، وانتصار العرب الذين آمنوا بهذه الرسالة كان حجة صلاحها نظاماً للحياة الروحية وللحياة الاجتماعية . وحيثما انتشرت فكرة بين الناس ، واستحوذت على الشعور العام ، خلفت أثراً يقوى أو يضعف بحكم الأحوال التي تنتشر الفكرة فيها . وعلى قدر قوته أو ضعفه ترسخ الفكرة في النفوس حتى تبلغ منها مكان الإيمان ، أو تتبخّر شيئاً فشيئاً حتى يجر النسيان عليها ذيل العفاء .

كانت الأحوال التي أحاطت بالفكرة الإسلامية ، في البلاد التي غزاها المسلمون ، كفيلة بأن تجعل هذه الفكرة على كل لسان وفي كل مجتمع . ذلك بأن الأساس الروحي الذي قامت الفكرة عليه كان بسيطاً كل البساطة ، خالياً من كل تعقيد ؛ وأن النظام الخلق الذي تفرّع عن هذا الأساس كان سامياً غاية السمو ، يأخذ بهاؤه بالأبصار ؛ وأن النظام الاجتماعي في الإسلام لم يكن دون النظام الخلق والأساس الروحي بساطة وسموها . وكانت الفكرة الإسلامية في أساسها ونظمها لا تزال يومئذ في صفاء جوهرها ؛ لم يكن عليها الجدل المذهبي ، ولم تحجب تفاصيل الجدل ضياء الجوهر عن الأنظار . فلما تنقل المسلمون في أحشاء العراق والشام ، وانتشروا في فارس ومصر ، تسير أعلامهم أمامهم مظفرة قاهرة ، لم يكن لأهل البلاد التي انتشروا فيها بدّ من التفكير في سر هذا الظفر وفي مرده إلى الفكرة الإسلامية .

هذا ، ثم إن الخلاف على المذاهب المسيحية وعلى المذاهب المجوسية كان قد بلغ أعظم مبلغ ، وكان الناس في بعض البلاد يسامون بسبب هذا الخلاف ألوأا من البطش تزعزع عقيدة فريق وتفتنه عنها ، تزيد فريقاً تعصباً لهذه العقيدة وتضحية في سبيلها ؛ فكان ذلك داعياً آخر للتفكير في الدين الجديد وما ينطوى عليه .

يضاف إلى ما تقدم أن المسلمين لم يُكزروا أحداً من أصحاب المذاهب المختلفة المسيحية أو المجوسية على الإسلام ، بل جعلوا حرية العقيدة أساس دعوتهم ؛ فكان لذلك من بالغ الأثر في نفوس المتعصبين لمذهبهم والمستضعفين الذين فُتِنوا عنه ما جعل الكثيرين ينظرون إلى هذا الدين الجديد وأهله نظرة خالية من الحقد والكرهية . ولا حاجة بي إلى العود للحديث في ذلك وهو مجلّوث في هذا الكتاب . وأنت قد رأيت كيف نصّت جميع المعاهدات التي عقدها المسلمون ، مع أهل الشام والعراق وفارس ومصر ، على احترام كل ملة فلا يُفتن أصحابها عنها ، واحترام كل معبد فلا يمس بسوء . ثم رأيت ، فيما رويناه مما حدث بمصر ، إلى مدى بلغ المسلمون في حمل أهل المذاهب المختلفة على احترام كل مذهب ، وعدم التعرض لأهله بأذى . طبعيٌّ وهذه هي الحال أن ينظر أهل البلاد المفتوحة إلى الدين الجديد وأهله نظرة تقدير ، وأن يُكبروا هؤلاء الفاتحين الذين أقاموا العدل بين الناس بالقسط .

وزاد أهل البلاد المفتوحة تفكيراً في الدين الجديد وما ينطوى عليه أن المعاهدات التي نصّت على حرية العقيدة فرقت بين من أسلم ومن لم يسلم من أهل هذه البلاد . فعلى الذين استمسكوا بدينهم ومذهبهم أن يؤدوا للفاتحين الجزية لقاء منعمهم لهم وحمايتهم حرية عقيدتهم . أما من أسلم من أهل هذه البلاد فقد سقطت عنه الجزية ، وساوى المسلمين الفاتحين ، فصار له ما لهم ، وعليه ما عليهم ؛ يصلّي في جماعتهم ، وينضم إلى صفوفهم في القتال ، ويرتبط معهم بأصرة النسب ، ويشاركهم في المغامرات أحسن البلاء في المعارك . أما ومبادئ هذا الدين سليمة سامية ، وللذين يدخلون فيه كل هذه المزايا ، فلا جرم قد انضم إليه في عهد عمر عدد إلا يكن عظيماً في البلاد التي لا تتكلم العربية فلم يقدّوق أهلها كل جماله وسموّه ، فقد كان لإسلام هذا العدد ومساواتهم للفاتحين أثر حل غيرهم

على التفكير في أمر الدين الجديد ، وهوى بنفوس الكثيرين ، ممن فهموا قواعده ونظامه ، إلى الدخول فيه والإيمان به .

ثم إن اتصال العرب الفاتحين بأهل العراق وأهل الشام والفرس والروم والمصريين ، قد كان له من الأثر ما لكل الحروب ؛ إذ تخرج الألوف وعشرات الألوف من أهل الأمم المختلفة عن مواطنهم ، وتربهم ألواناً من العيش لم يكونوا يعرفون ، وتفتح بذلك أمامهم آفاقاً من التفكير والنظر كانت محجوبة عنهم لبعدها عن مواطن إقامتهم . ولا يزال المؤرخون يتحدثون عما كان للحروب الصليبية من أثر في علاقات الشرق والغرب ، وما حدث بعد غزو الترك أوروبا واستيلائهم على القسطنطينية ، من اتجاه الحضارة الغربية كلها وجهة جديدة أدى إليها بعث العلوم والفنون الإغريقية وانتشارها في أنحاء أوروبا المختلفة . وقد كان للفتح الإسلامي مثل هذا الأثر من أول عهده . فكما أدى اختلاط العرب بالأمم التي فتحوها إلى تفكير هذه الأمم في الدين الجديد ، كذلك أدى إلى إعجاب العرب بحضارة الفرس والروم والمصريين ، وإلى انفساح الأفق الفكري أمام هؤلاء وأولئك ، وامتناله عناصر جديدة نقلت التفكير العربي في الحياة المدنية ، وتفكير أهل البلاد المفتوحة في الحياة الروحية والمعنوية ، خطوات فسيحة قربت بين عقلية الجميع ، وإن لم تمنح الفوارق الطبيعية التي صاغت البيئات فيها هذه العقليات المختلفة .

وقد رأيت أثر ذلك في إسلام من أسلم من الفرس والروم ، وفي إقبال العرب على النهل من أنعم الحياة بعد أن يسرت لهم مغامرات الحرب هذا النهل . صحيح أن الأمم المفتوحة ، وإيران خاصة ، قد بقيت في نفوس أهلها حفاظ على الفاتحين كانت تأثيرهم بهم الحين بعد الحين . لكن هذه الحفاظ لم تكن لتقف التفاعل الطبيعي وما أدى إليه من تطور في عقلية الغالبين والمغلبيين على سواء ، وتحوّل نظرهم إلى الحياة عما كانت عليه ، ولم تقف ما أدى هذا التطور إليه من تقارب في هذه النظرة لم يكن أثره بادياً للعيان في عهد عمر ، ولكنه مع ذلك كان يعمل دائماً ، فيؤدي عمله إلى ظهور هذا الأثر بعد سنوات معدودة ؛ إذ يتخذ علي بن أبي طالب من الكوفة عاصمته ؛ ثم يتخذ معاوية ابن أبي سفيان من دمشق عاصمته ، ثم تدخل مذاهب التفكير التي أقامتها الفلسفة

الإغريقية في العقلية العربية ، ثم يدخل الفن الفارسي ونظام الحكم الفارسي في الحياة الإسلامية ، وينتهي بأن يجعل من بغداد عاصمة العالم .

كان هذا التطور يسير حثيثاً في عهد عمر ، وإن لم يبدُ أثره ظاهراً للعيان . وكان سيره هذا يمهد الحضارة الجديدة تجمع في كنفها دين المسلمين ، وفلسفة الإغريق والفرس والمصريين ، وعلومهم وفنونهم وآدابهم ؛ ويمهد بذلك لنظام جديد في الحياة يشمل مناحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية ، ويصوغها في حياة الجماعة العامة وفي حياة الأفراد الخاصة .

لم يظهر أثر هذا التطور واضحاً للعيان في عهد عمر ؛ لأن العرب كانوا في شغل عن التفكير في أمره بما هم فيه من لقاء عدوهم وقهره ، ولأن الأمم المغلوبة على أمرها نسيت التفكير في أى شيء إلا فيما نكبت به من هزائمها . وأنت لذلك قلما تجد في كتب المؤرخين الأولين وقفات تصوّر هذا التطور في النفس الإنسانية ؛ فإذا عثرت بشيء من ذلك وجدته دفيناً لا يكاد يظهر ؛ لأن سرد الحوادث طغى عليه فأغرقه في لجته . على أن سرد الحوادث لا يدع عندنا مجالاً للريب في قيام هذا التفاعل من عهد الفتح الأول .

فقد أحصى المؤرخون مغامم المسلمين في المعارك التي حدثت في عهد عمر ، وذكروا ألوانها وكثرتها وبهر العرب لمرآها وفتنتهم بها ، كما ذكروا مخاوف عمر أن يبلغ المسلمون من الاقتتان بهذه المغامم مبلغاً ينسيهم المبادئ التي أظفرتهم بعدوهم ، فتتغير نفوسهم ، فيغير الله ما بهم ، كذلك رووا ما كان من تنافس البصرة والكوفة ، ومن اختلاف القبائل العربية التي أقامت في كلتا المدينتين . وهذا كله ، وما حدث من اختلاط العرب والعجم ، يثبت عندنا اليقين بأن ما قام من بعد من نضال بين الخلافة والملك ، وما شاع في الجماعة الإسلامية من ألوان الترف الفنى والفكرى ، وما نشأ عن هذا التطور منذ العهد الأول مما جعل البلاد التي فُتحت في عهد عمر منازل الإسلام ومدارس الفقه فيه ، كل ذلك قد كان له أثره في قيام الحضارة الإسلامية ، وكان له أثره في عظمة الإمبراطورية في القرون الأولى ، كما كان عظيم الأثر حين بدأت عوامل الانحلال تدب في كيان الإمبراطورية .

كيف يؤدي تفاعل عوامل بذاتها إلى آثار متناقضة ، فيكون سبباً في قيام الإمبراطورية وعظمتها ، ثم يكون سبباً في تدهورها وانحلالها ؟

الجواب عن هذا السؤال يصدق الإمبراطورية الإسلامية ، وعلى غيرها من الإمبراطوريات . فكم هذه العوامل ومبلغ تفاعلها يختلفان في زمن عنهما في زمن آخر . وهذا الاختلاف يؤدي إلى تباين النتائج . ذلك أمر طبيعي نشهده في الظواهر الاجتماعية ، كما نشهده في الظواهر الطبيعية . فكما يؤدي اختلاف الأنواع والمقادير في العناصر الكيميائية إلى اختلاف تفاعلها وما يترتب على هذا التفاعل من نتائج ، كذلك يؤدي اختلاف الكم والنوع في العناصر الاجتماعية إلى مثل هذه النتيجة . فإذا زادت القوى المعنوية في الجماعة سواء أكانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقلية ، أدى تفاعلها مع القوى المادية إلى سمو الجماعة وعظمتها . ذلك بأن القوى المعنوية هي التي تدفعنا إلى طلب الكمال الإنساني وإلى الدأب في سبيله . والجماعة مع ذلك لاغنى لها عن قواها المادية ومضاعفة نشاطها . وهذه القوى تزداد نشاطاً وإنتاجاً بدافع من القوى المعنوية . فإذا ضعفت معنوياتنا ضعف نشاطنا المادي ، وتضاءل إنتاجنا .

وقد أشرنا غير مرة في هذا الكتاب إلى سمو القوى المعنوية عند العرب ، بعد أن حطم الإسلام في نفوسهم قيود الوثنية ، وبعد أن جمع كلمتهم حول عقيدة واحدة ولواء واحد . وكان لتغلب المسلمين على الأسدين ، فارس والروم ، أثر صالح كذلك في البلاد التي فتحوها . ذلك أن دسائس البلاط كانت السبب الجوهرى في اضطراب أمور الفرس وفي سوء حكمهم ، وأن الاضطهاد الديني كان السبب الجوهرى في سوء حكم الروم للشام ومصر . فلما تغلب المسلمون على العراق وعلى فارس ، لم يبق للبلاط وجود ، فلم يبق لدسائس البلاط موضع ؛ ولذا شغل كل أمير بإمارته ، وحرص على أن يحسن سياستها حتى لا يتعرض لغضب ولاية المسلمين وغضب أمير المؤمنين . وشعر أهل العراق والفرس بتفوق المسلمين عليهم لعدولهم في حكمهم ، وأدركوا بالسليقة أنهم إن لم يظهروا للمسلمين خير صفاتهم لم يقف هوانهم ولم تقف مذلتهم عندما نزلت الهزيمة بهم إليه ، بل تدلوا في أعين الفاتحين إلى شر من ذلك مكاناً ، وباءوا بازدرائهم وتحقيرهم . لهذا بدءوا يُبرزون خيراً ما عندهم

من تراث قومهم ، وخير ماورثوا من صفات آبائهم في تجويد الفنون والعلوم والصناعات ، وكل ما كانت لهم فيه اليد الطولى مما لم يكن العرب يستطيعون مجاراتهم فيه . وكذلك فعل أهل الشام وأهل مصر ، فقد زال الاضطهاد الديني بعد فتح العرب بلادهم ، وزالت بذلك أسباب امتعاضهم وثورتهم ، وما كان ينشأ عن هذا وذلك من سوء الحكم واضطراب الأمور بينهم . عند ذلك بدءوا يظهرن خير الصفات التي ورثوها عن آبائهم في التجارة والزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، فبرزت القوى السليمة التي وهبتها لهم الطبيعة وجعلت تنشط وتنتج خير ثمراتها .

أدّى هذا كله إلى نوع من الاستباق إلى المكرمات وإلى المجد وإلى اعتماد كل جماعة على أفضل مواهبها ، لتبلغ خير ما تستطيع من احترام الأمم للكونة للإمبراطورية معها . وطبيعى أن يؤدي الاستباق في هذا المضمار إلى عظمة المجموع ، أى إلى عظمة الإمبراطورية وجلال مكانها في العالم .

كان أسراء المؤمنين يباركون على هذا النشاط الجهم في أرجاء الإمبراطورية المختلفة ، وينظرون إليه بعين الرضاء ، ويرجون منه المزيد . وكانت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة التي سنّها الإسلام تقرّب بين العاملين الدائبين في هذا النشاط ، مع ما كان من اختلاف أصولهم ولغاتهم وعقائدهم . وزاد دخول الكثيرين ، من أبناء الأمم التي راف عليها لواء الإمبراطورية الناشئة في الدين الجديد في هذا التقريب ، حتى كاد يدمج هذه الأمم في وحدة منسجمة تسمى كل أطرافها إلى غاية مشتركة ؛ هي عظمة الكل ، وعظمة كل جزء من أجزائه .

أدّى هذا النشاط الجهم إلى تنافس الأمم التي تكونت منها الإمبراطورية تنافساً زاد الإمبراطورية اندفاعاً إلى التوسع والعظمة . وكيف لا تندفع في هذه السبيل وعوامل الوحدة والانسجام تزداد بين هذه الأمم قوة على مر الأيام والسنين ! فلم يحلّ ماقررت مبادئ الإسلام من حرية العقيدة ، وأنه لا إكراه في الدين ، دون إقبال الأكثرين من أهل مصر والشام والعراق وفارس على النظر في الدين الجديد ، ودخولهم فيه أفواجا عن رضا وبيئة .

وكان لدخولهم في الإسلام أثر بالغ في تعزيز وحدتهم ؛ لأن الإسلام لا يتناول العقيدة

وكفى ! بل هو يتجاوز الميدان الروحي إلى الميدان الخلقى والميدان الاجتماعى ، ويفرض على الآخذين به نظماً في الأخلاق وفي التشريع تختلف في جوهرها عن النظم المسيحية والجوسية ، كما تختلف عن النظم الجاهلية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة قبل مبعث النبي العربي .

واتفاق القيم الأخلاقية في جماعة ما من شأنه أن يجمع أطرافها في وحدة تزيد أهلها تعارفاً وتآلفاً . فاتفق الجميع على المعروف والمنكر ، وعلى الخير والشر ، وعلى الحرام والحلال ، يبعث في كيان المجموع من الانسجام ما يزيد في قوته المعنوية ، ويزيد تبعاً لذلك في نشاطه المادى . فإذا صدر هذا الاتفاق عن أصل واحد هو العقيدة ، فآمن الجميع بأنهم مسئولون أمام الله خالق كل شيء ، يحزيهم عن أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كان ذلك سبباً في اتساق الانسجام ، وازدياد الوحدة قوة بقدر هذا الاتساق . ولا ريب أنه قد حدث هذا الانسجام ، وآتق في أرجاء الإمبراطورية كلها بعد أن سكن أهل الأمم للفتوحة إلى عالم الجديدة ، ونظّموا حياتهم في ظلها .

وزاد الانسجام اتساقاً والوحدة قوة أن تجاوز الإسلام ميدان العقيدة وميدان الأخلاق إلى ميدان التشريع ، وأن أذعن المسلمون في مختلف الأرجاء من إمبراطوريتهم النفسية إلى ما جاء في كتاب الله عن نظام الأسرة ، وعن الميراث ، وعن التنظيم الاجتماعى والاقتصادى لكثير من شؤون الحياة . صحيح أن ما نصّ عليه في القرآن من هذه الشؤون لم يزد على المبادئ العامة ، لكن هذه المبادئ العامة في التشريع كانت ذات أثر بالغ في توجيه تفاعيله ؛ كما أن تطبيق العرب لها ، عن طريق القضاء في أرجاء الإمبراطورية ، قد زاد في هذا الأثر ، وأدى إلى وحدة في التشريع أطردت في الأجيال الأولى من حياة الإمبراطورية . وزاد في أطرافها أن التشريع الإسلامى ، وقواعد الخلق الإسلامية ، وقواعد الإسلام في العقيدة ، كانت تعتبر في ذلك العهد وحدة لا انفصام لها ، فزاد ذلك في اتساق الانسجام ، وفي قوة الوحدة التي انتظمت أجزاء الإمبراطورية كلها .

وكان طبيعياً ، والقرآن كتاب الله وأساس هذا الدين ، أن يتعلم الناس في البلاد المفتوحة لغة القرآن ، ليزدادوا فقهاً في دينهم ، وليعرفوا لغة حكمهم . والعقيدة واللغة

قوتان بالغتا الأثر في توحيد من يشتركون فيهما ، وفي تعاونهم وتألفهم . ولا أراني بحاجة إلى إقامة الدليل على هذا الأمر ونحن نرى في عصرنا الحاضر وحدة الأمم اللاتينية ، وجماعة الأمم التي تتكلم الإنجليزية ، وتضامن الأمم المسيحية ، وهلم جرا . هذا مع أننا في عصر تقرر فيه مبادئ الحرية بأوسع مما كانت في القرن السابع المسيحي ، وهدى العلم فيه إلى أسباب الوحدة ، إذ ضيق نطاق العالم على نحو لم يكن يدور بخلد أحد في ذلك الزمان .

أدرك كثيرون ممن أرخوا لذلك العهد الأول من عهود الإمبراطورية الإسلامية ، ما كان لا انتشار الإسلام وانتشار العربية من أثر بالغ في قيام هذه الإمبراطورية وفي قوتها ؛ ولهذا تساءل بعضهم : لِمَ لم يفرض الفاتحون دينهم ولغتهم على البلاد المفتوحة ؟ وظنوا أنهم لو كانوا قد فعلوا لما دبت من بعد عناصر الانحلال في هذه الإمبراطورية . وأحسبني في غنى عن تفنيد هذا الظن وإدحاضه . وليس يرجع ذلك إلى أن من إضاعة الوقت مناقشة فرض لم يحدث ؛ فناقشة أمثال هذا الفرض جليلة الفائدة في هداية الإنسانية طريقها خلال المستقبل ؛ وإنما يرجع إلى أن هذا الظن فاسد الأساس . فلو أن العرب أكرهوا الأمم التي فتحوها على دينهم وعلى لغتهم لما قامت الإمبراطورية إلا لتنهار . ذلك بأن كل اجتماع لا يُقبل الناس عليه أحراراً مختارين سرعان ما ينقض ، وكل نظام يستند إلى القسر يؤدي إلى بَرَم الناس به وانتفاضهم عليه . فلو أن المسلمين أكرهوا الأمم المفتوحة على الإسلام لما أغنى ذلك عنهم ، ولكفرت الأرض بهم وانتقض الناس عليهم ، ولما استطاعوا أن يقيموا حكمهم في هذه البلاد ، على أساس غير البطش . والحكم القائم على البطش حكم سريع الزوال . وقد رأينا ، ورأى المسلمون الأولون ، ما أصاب هرقل حين أراد أن يفرض مذهباً مسيحياً موحداً على أهل المذاهب المسيحية المختلفة . ثار الناس به وبعماله ثورة انتهت بفراره من الشام أمام قوات المسلمين ، وفتوح المسلمين مصر وضياعها من إمبراطوريته .

فأما إذا أقبل الناس على عقيدة من العقائد ، فدخلوا فيها أحراراً مختارين ، فإن هذه العقيدة تصبح بعض حياتهم ، ويصير لها في قلوبهم من القداسة ما يحملهم على الدفاع

عنها ، والتضححية بالروح في سبيلها . فهذا الذي صنعه المسلمون الأولون تنفيذاً لمبادئ دينهم : من حرية العقيدة وعدم الإكراه في الدين ، كان الحكمة كل الحكمة ، وهو الذي دفع الإمبراطورية الإسلامية إلى التوسع والعظمة .

والأمر في اللغة كالأمر في الدين ؛ إن لم يُقبل الناس عليها راغبين مختارين ، مقدرين ما في تعلمها من فائدة جليلة ، أخفقت كل محاولة لحملهم على تعلمها ، بله التكلم بها . كانت الحرية التي كفلها المسلمون لأهل البلاد المفتوحة في أمر العقيدة بعض مادعا الفرس والروم وغيرهم للإقبال على الإسلام ، وعلى اللغة العربية . وزاد في إقبالهم ما فرضه الإسلام من المساواة بين المؤمنين به على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم ، وما قرره من أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ؛ ومن أن المؤمنين إخوة ؛ فلا يكمل إيمان أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . فهذا الإخاء وهذه الحرية والمساواة أدت كلها إلى انتشار جو ضاعف من قوة الوحدة في الإمبراطورية ، وتضاعف في ظله نشاط كل جزء من أجزائها .

وأنت مع ذلك تستطيع أن تميز ، في عصور الإسلام الأولى أو في العصور التي تلتها ، نصيب كل جزء من هذه الأجزاء فيما أثمر نشاطها جميعاً من آثار عظيمة في الفقه ، والأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والصناعة ، والزراعة ، وكل مظاهر الحياة المعنوية والمادية : ذلك بأن لكل أمة طابعاً أنشأته البيئة ، وثبتت على الزمان بحكم الوراثة . وهذا الطابع يبدو واضحاً في الفنون والآداب وألوان التفكير المختلفة ؛ وهو لا يخفى في الصناعة والزراعة وغيرهما من آثار الحياة المادية . وتاريخ الأدب العربي يحدثنا عما أدخله الفرس والروم ، في مذاهب الكتابة والتفكير ، من صور وألوان لم تكن مألوفة عند العرب من أهل شبه الجزيرة ، وذلك مع أن الفرس والروم تعلموا العربية عن أهل شبه الجزيرة . ولا عجب ، فاللغة كائن حي يسير الوسط الذي يعيش فيه . وهي ، بحكم أنها الأداة لإبراز التفكير والتصور الإنساني ، تتأثر في أساليبها وفي قوالبها بما تؤد به من متباين ألوان التفكير والتصور . لذلك كان طبيعياً أن تتأثر اللغة العربية بالصور والألوان التي ألفها الفرس والروم في ثقافتهم وفي تفكيرهم ، وأن يدخل على أساليبها في الشعر والنثر ما يؤدي هذه الأغراض .

كان للألوان الجديدة ، التي أدخلها الفرس والروم في الفن العربي والأدب العربي ، أثر واضح في العرب أنفسهم . وأنت ترى هذا الأثر ملموساً في اختلاف مذاهب البصريين والكوفيين في اللغة ، اختلافاً لا يزال مؤرخو اللغة والأدب يذكرونه إلى وقتنا الحاضر . وإنما نشأ هذا الخلاف لأن البصرة والكوفة في العراق ، فهما تجاوران فارس ؛ وطبيعى أن يتأثر أهلها بهذا الجوار ، وبما يجلبه إليهم من ألوان الثقافة الفارسية . ولا عجب في أن تكون إحدى المدينتين أكثر محافظة على عربيتها ، وأن تكون الثانية أكثر حرية في امتثال الثقافة الفارسية .

لم يكن الطابع القومى واضحاً في الحياة المعنوية وحدها ، وفي مظاهر هذه الحياة من فن وعلم وأدب ، بل إنك لتقرأ الكثير عن آثار هذا الطابع في الحياة المادية ؛ فبرود الين ، وحرائر دمشق ، وقباطى مصر ، هذه وأمثالها ، من الألوان المتميزة في الصناعة والاقتصاد يتميز البيشة ، تشهد ببقاء هذا الطابع ، وبأن ما حدث من وحدة الإمبراطورية لم يكن ليحوه أو ليزيل آثاره .

على أن وضوح الطابع القومى في مظاهر الحياة المعنوية والمادية المختلفة ، لم يكن في قليل ولا كثير على وحدة الإمبراطورية في عصورها الأولى ؛ فقد اتسقت قوى الإمبراطورية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ؛ ونشأ عن هذا الانساق تزواج بينها أنتج من الثمرات ما ربط بين أجزاء الإمبراطورية كلها بأوثق رباط . تزوجت الفلسفة الإغريقية والثقافة الفارسية في ظل التوحيد الإسلامى فأنتج هذا التزواج الفلسفة الإسلامية . وتزواج الخيال الفارسى والفن البزنطى باللغة العربية ، فأنشأ في الشعر العربى والنثر العربى ألوان الأدب الإسلامى . وتزواج فن الزخرفة الفارسى والحارة البزنطية ، فكانت الحارة العربية ثمرة هذا التزواج . وامتد التزواج إلى مرافق الحياة في أرجاء الإمبراطورية كلها ، فأنشأ خلقاً جديداً كان يزاد على الأيام والسنين قوة وازدهاراً ، وكان يتقدم الفتح العربى ثم يسايره ، وكان يسطع على أرجاء العالم القريبة والبعيدة سلطانه ، وكان أبقى من الفتح العربى أثراً وأقوى أصولاً وأغزر فروعاً ؛ هذا الخلق الجديد هو الحضارة الإسلامية .

وفي ظل هذه الحضارة ترعرعت الإمبراطورية في القرون الأولى على نحو بهر العالم، وشدَّ إليها الأنظار من كل جانب . وكان من أثر ذلك أن نسي الناس في أرجائها الواسعة فوارق القومية؛ ولم يذكروا إلا أنهم مسلمون ، وأنهم إخوان تربط بينهم مبادئ الحرية والإخاء والمساواة المقررة في الإسلام ، ويقوم الحكم بينهم على أساس من العدل والتقوى ولهذا كانوا يُصْهِر بعضهم إلى بعض ؛ يتزوج العربي من بنات فارس أو العراق أو الشام أو مصر ، ويتزوج المسلمون من أهل هذه البلاد العربيات . وكذلك أقامت لحمة الدم والنسب صلات المودة بين المسلمين جميعاً ، ومحت من نفوسهم معاني التعصب القوي والجنسي ، وثبتت في وحدة الإمبراطورية روحاً زادت قوة وتثبيتاً ، وزادت أبنائها إقبالا على الإنتاج المعنوي والمادي ، ورفعت بذلك من صرح الحضارة الإسلامية .

ظلت هذه الحال أجيالا متعاقبة . وكان لتفاعل العوامل التي اختصت بها كل واحدة من أمم الإمبراطورية أبلغ الأثر في توجيه حضارة العالم في الشرق والغرب . وإذا كانت القوى الدافعة لتفاعل هذه العوامل والموجهة لها بالغة السلطان ، فقد استجنت عوامل الفرقة والضعف خلال هذه الأجيال وتقاّص أثرها ، فإذا بدا من هذا الأثر شيء أسرع القوى الدافعة للقضاء عليه . وقد رأينا صورة من ذلك في مقتل عمر على أن استجنان هذه العوامل لم يقض عليها قضاء ينتهي إلى قنائها ، بل بقيت كلها في مكانها بقاء جرائم المرض في الجسم الصحيح ؛ إذا حاولت النشاط أو البروز غلبتها أسباب الصحة ، فردتها إلى أوكارها وخلاياها ، فلم يشعر أحد ولم يشعر صاحبها نفسه بوجودها ولا بقدرتها على أن تنشط إذا ضعفت أسباب الصحة . وفي ظل هذه القوى الدافعة كان أبناء الشام أعوانا للعرب المسلمين في عهد بني أمية ، وكان الفرس أعوانا أقوياء للعباسيين من قرابة رسول الله ، وكان المصريون يظهرون على مسرح السياسة الإسلامية في أدق المواقف ، ثم كان لظهور هؤلاء ومعاونة أولئك أثر بالغ في إسراع الإمبراطورية إلى النماء والقوة . وإلى بقائها متماسكة الأجزاء ، حتى آن للزمن أن يدور دورته ويفعل فعله .

وإنما بدأت دورة الزمن حين ضعفت القوى الدافعة لتفاعل العوامل ، التي اختصت

بها كل واحدة من أمم الإمبراطورية ، تفاعلا يزيد في نماء الإمبراطورية وفي سلطانها ومع أن عوامل الفرقة والضعف كانت تبرز من أوكارها وخلاياها منذ العهد الأول حيناً بعد حين ، فقد كانت ترتدّ ناكسة على أعقابها ، متراجعة أمام أسباب الصحة الجارية في كيان الإمبراطورية . على أنها كانت كلما ظهرت تركت وراءها أثراً يتحدث الناس عنه حيناً ، ثم لا يلبث جلال الحوادث المحيطة بهم أن ينسيهم إياه .

وكان مقتل عمر أول أثر ظاهر لبروز عوامل الفرقة من مكانها . فلما تولى عثمان ، وقضى على الفتنة التي كادت تنجم حين قتل عبيد الله بن عمر من اقتنع بأنهم اثتمروا بحياة أبيه ، انصرف الناس إلى حياة الغزو والفتح وإلى تثبيت قواعد الإمبراطورية .

وبعد ست سنوات من خلافة عثمان بن عفان ، عاد الخلاف القديم بين بني هاشم وبني أمية ، فظهر بعد استتاره وبرز من مكانه . ذلك أن عثمان آثر ذوى قرابته بمناصب السلطان ، فألب خصومته المسلمين في أرجاء الإمبراطورية المختلفة عليه ، واتخذوا من تصرفاته في هذا الأمر وسيلة للتشنيع عليه . وانتهى التأليب إلى الفتنة ، وكان للمسلمين المقيمين بمصر أثر أى أثر فيما أدت هذه الفتنة إليه من قتل عثمان فلما قضى الخليفة الشيخ نحبه ، وبويسع على من أبى طالب بالخلافة مكانه ، طالب بنو أمية بدم عثمان ، ثم أثاروها عياءاً للثأر . وانقسم المسلمون في أرجاء الامبراطورية : ينصر فريقٌ بني هاشم ، وفريقٌ بني أمية .

انتهت هذه الفتنة بمقتل عليّ وابنه الحسين ، فتولى بني أمية أمر المسلمين ولم تصدع هذه الفتنة بقاء الإمبراطورية ، وإن هزته هزاً عنيفاً ؛ لأن هذا البناء كان متيناً قوى الأركان ، ولأن عوامل الفرقة كانت لا تزال ضعيفة . إذ كانت البلاد المفتوحة لا تزال تنوء بعار هزيمتها ، وبأسباب العف التي ورثتها عن حكامها السابقين . لذلك لم يلبث بنو أمية حين استقر لهم الأمر ، أن عادوا يتابعون سياسة الفتح التي بدأها الخلفاء من قبلهم ، فعادت عوامل الفرقة إلى مكانها ، واستمرت أمم الإمبراطورية تتعاون في تشييد الصرح العظيم ، صرح الحضارة الإسلامية .

على أن هذه الفتنة طوّعت للأمم المفتوحة أن تسترد حيوياتها ، وأن تكيف اتجاهها

في ظل الحضارة الجديدة تكييفاً يكفل لأصحابها السلطان . وكان الفرس أبرع هذه الأمم وأسرعها إلى بلوغ هذه الغاية ؛ فقد رأوا بنى هاشم حريصين على النار لعلّ وللحسين ولن نكهم فيه بنو أمية ؛ فصوروا الفرس مبدأ الإمامة والإمام تصويراً استهوى أبواب أهل فارس والعراق ، فتشيعوا لعلّ وأنصاره ، وظاهروا أبا مسلم الخراساني مظهرة انتهت بانتصار العباسيين على بنى أمية ، وبنقل العاصمة من دمشق إلى بغداد .

استقر الأمر للعباسيين فاتخذوا من الفرس وزراءهم والمشيرين عليهم ، فكان لهم في الحياة الإسلامية أثر بالغ . وحسبك لتقدر هذا الأثر أن تذكر ما حدث في هذا العهد : ففيه جمعت الأحاديث الروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ونقلت الفلسفة الإغريقية إلى العربية . وبرز من الفرس في النثر والشعر من نقلوا إلى لغة القرآن ألواناً من الثقافة الفارسية ، وازدهرت العلوم والفنون والآداب ازدهاراً لفت أنظار العالم كله ، ولقّحت هذه العلوم والفنون بما أنتجته عبقرية كل واحدة من أمم الإمبراطورية . بذلك عظم مقام الحضارة الإسلامية ، فوجهت العالم أجيالاً وقرونًا .

وكان من نتائج هذا الازدهار أن تعددت مذاهب التفكير وألوانه في علوم الكلام والفقه ، وفي الأدب واللغة ، وفي أساليب السياسة والحكم ، وفي كل مظهر من مظاهر الفكر وأثر من آثاره . ونشأ عن ذلك أن استطاعت كل أمة أن تصبغ تفكيرها الإسلامي بطابعها القومي ، وأن تذيع هذا التفكير في أرجاء الإمبراطورية ، وأن تجدد من يسمي هذا التفكير لأنه اصطبغ باللون الإسلامي وكتب باللغة العربية . بهذا استردت كل أمة شخصيتها مصبوبة في قالب عربي من قوالب الحضارة الإسلامية ، وأن لكل أمة أن تصبو إلى مكان السلطان من الإمبراطورية ، فإن لم تستطع صَبَّتْ إلى الاستقلال القومي تتمتع به في ظل هذه الحضارة .

وكذلك انقرط نظام الإمبراطورية ، فلم تبق لها سياسة موحدة ، غرضها إذاعة رسالة الإسلام في الناس . وكذلك سادت الفكرة القومية في السلطان والحكم ، وظلت سائدة بعد أن تغلب الترك على أجزاء الإمبراطورية كلها ، وجمعوها من جديد بحكم الفتح ، وجعلوا منها الإمبراطورية العثمانية . فقد كانت هذه الإمبراطورية

تركية قومية ، ولم تكن عربية إسلامية ؛ وكانت لذلك لا تجعل إذاعة الرسالة الإسلامية غرضها ، بل تتخذ من الإسلام وسيلتها للحفاظ على مكانتها وعلى سلطانها .

* * *

هذه لمحة سريعة أردت بها أن أظهر تفاعل العوامل ، التي اختصت بها كل واحدة من أم الإمبراطورية الإسلامية ، بعضها مع بعض في العصور المختلفة : وأن أبين كيف كانت سبباً في بناء الإمبراطورية وقوتها ، وفي قيام الحضارة الإسلامية ورفعتها ، ثم كانت سبباً في ديبس الانحلال إلى هذه الإمبراطورية . وأحسبك ترى معنى أن تفصيل هذه العوامل وتحليلها ، وإبراز مآثرها وما خفي من صور تفاعلها . وما حدث خلال العصر من اتصالها بغيرها من الأمم والحضارات ، هذا كله ينشر في أرجاء التاريخ ضوءاً جديداً ما أشد حاجة العالم الإسلامي ، بل ما أشد حاجة العالم كله إليه .

وقد كان للكتاب العرب والمسلمين ، كما كان للمستشرقين ، فضل عظيم في تناول الكثير من جوانب هذا التاريخ بالبحث والتحليل . وإنني لحريص على أن أتابع الجهد لشاركتهم في هذا المضمار ، على الطريقة التي اتبعتها منذ كتاب « حياة محمد » وفي نيتي أن أجعل وجهتي . في الحلقة الرابعة من هذا البحث ، إلى تحليل ما حدث بين خلافة عثمان وملك بني أمية ، مع تقديري لدقة هذه الفترة من حياة الإمبراطورية وجلال خطرهما .

والله أرجو أن يوفقني في هذا الجهد ، كما وفقني من قبل ؛ فنه جل شأنه الهدي وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله ! .

تقدير وشكر

حق علىّ ، وأنا أطلع الناس بهذه الطبعة الأولى للجزأين الأول والثاني من كتاب (الفاروق عمر) ، أن أقدر جهد الذين عاونوني في إظهاره وأن أشكرهم لهم . وفي مقدمة هؤلاء صديقي مصطفى عبد الرازق باشا ؛ إذ أعارني أصول محاضراته بجامعة فؤاد الأول في الفلسفة الإسلامية ، فيسر لي طريق البحث في الفصل الذي وضعته عن اجتهد عمر . وقد جمع لي الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ما في كتب السنة من أحاديث رسول الله عن عمر بن الخطاب ، فأعانتني في تدوين ما اتصل من حياة عمر بالرسول الكريم . وللدكتور سيد نوفل جهد في المعاونة على إظهار هذا الكتاب حقيق بأعظم الشكر . فقد بدأت كتابته في شهر مارس سنة ١٩٤٣ ، و فرغت منه في يونيو سنة ١٩٤٤ . وفي هذه الأثناء كنت أدفع ما أراجعه من فصول الكتاب إلى الدكتور نوفل ، فيمليه على لبيد أفندي فكرى إبراهيم لكتابته على الآلة الكاتبة ، ثم يراجع ويبدى لي ما يعنّ له من ملاحظات . فلما بدأت طبع الكتاب شارك في تصحيح تجاربه في كل أدوارها أدق المشاركة . وهذا الجهد في الإملاء والملاحظة والتصحيح والمراجعة ، جسم جدير بأجزل الثناء . وللأستاذ عبد الرحيم محمود من الفضل في تحقيق ما في الكتاب من نصوص ، وضبط ما فيه من أعلام ، والتدقيق في مراجعة تجارب الطبع وتصحيحها ، ما لا يكفي الثناء جزاء عليه .

وقد وضع الشيخ أحمد عبد العليم البردوني والشيخ محمد البرهامي فهارس الكتاب على النحو المحكم الذي يراه القارىء ؛ فلهما أجزل الشكر . ولطبعة مصر ومصححيها شكر يقدره القراء ؛ إذ يرون في طبع الكتاب من الذوق الفني وجماله ، مالا حاجة بي أن أدلم عليه . والفضل الأول والأخير لله جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ؟

محمد حسن هلال

فهارس الكتاب :

فهرس الأعلام

١٠٧، ١٢٧، ٢٠٠ — ٢٠٥،

٣٠٨ — ٢١١، ٢١٣، ٢١٤،

٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣١،

٢٣٣ — ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٥٧،

٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦،

٢٧٨ — ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٩،

٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤،

٣١٠، ٣١١، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧،

٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٣٤،

أبو بكر (مولى الرسول صلى الله عليه وسلم) : ٣

أبو الحسن القفطى (على بن يوسف) : ١٨٦،

١٨٩

أبو الحويرث (عبد الرحمن بن معاوية) : ٣٢١

أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني) : ٢٩٠

أبو الدرداء : ٢٢٤، ٢٨٨

أبو ذئب (من بنى سليم) : ٢٩٩

أبو سبرة (بن أبي رهم) : ٨

أبو سروعة (بن الحارث بن عامر) : ٢١٧

أبو سفیان (بن حرب) : ٢٨٣

أبو طلحة الأنصاري (زيد بن سهل) : ٣١٣،

٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٧

أبو عبد الرحمن السلمي : ٢٩٣

أبو عبيد الثقفي : ٤٠، ٢٠٩، ٢٨١

أبو عبيدة بن الجراح : ٥٥، ٦٤، ٨٥،

٨٦، ١٩٠، ٢٢٢، ٢٦٢، ٣١١،

٣١٢، ٣٣٢، ٣٣٣

أبو عمرو الشيباني : ٢٨٨

أبو الفرج العبري : ١٨٦

أبو قتادة (الأنصاري) : ٢٧٨

أبو لؤلؤة فيروز الأنصاري : ٣٠٦ — ٣١٠،

٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٣٢،

أبو مسعود الأنصاري : ٢٨٨

أبو مسلم الخراساني : ٣٤٧

أبو موسى الأشعري : ٢ — ١٠، ١٣،

١٤، ١٧، ٢٤، ٣٢، ٤٩، ٢٢١،

٢٢٤، ٢٢٥، ٢٩٤

أبو يمامين = بنيامين الأسقف

أبو نواس (الحسن بن هاني) : ٩٣

(١)

آدم — عليه السلام : ٢٦٠

الأمدي (أبو الحسن على بن علي) : ٢٧٧، ٢٧٥،

إبراهيم — عليه السلام : ٦٧، ٦٩، ٧١، ٩٢،

أبن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد بن

هبة الله) : ١٩٦

أبن الأثير (أبو الحسين على بن محمد) : ٥،

١٠٣، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٢١،

أبن الإطابة (عمرو) : ١٣٢

أبن بطوطه (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : ٢٤١

أبن تفرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : ٩٤،

١٠٠، ١١١، ١٨١

أبن حزم (أبو محمد علي) : ٢٧٩

أبن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي) : ٥،

٢٤٤، ٢٤٥

أبن دقاق (إبراهيم بن محمد) : ١٦١

أبن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد) : ٢٥٨

أبن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد) : ٢٣٢،

٢٣٤، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣٣٥،

٣٢٩، ٣٢١

أبن طباطبا (محمد بن علي) : ٢٩٤

أبن عباس = عبد الله بن عباس

أبن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : ٧١،

٧٢، ٨٩، ٩٤، ٩٨، ١٠٠، ١٠٦،

١١١، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢،

١٤٣، ١٥٣، ١٧٤

أبن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) : ١٩٦

أبن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : ٣١٢

أبن كثير (أبو الفداء إسماعيل) : ٥، ١٦،

٦١، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٠

أبن الكلي (أبو المنذر هشام بن محمد) : ٢٤٧،

٢٤٨

أبن مستور : ١٧٤

أبنة أبي حشمة : ٣٢١

أبنة أبي لؤلؤة : ٣٢٤، ٣٣٠

أبو بكر الصديق — رضى الله عنه : ١، ٢،

١٣، ٢٠، ٢٣، ٨١، ٨٥، ٨٦،

- أفلونيز = مارك أنطو
أورسيوس : ١٨٧
أوزوريس : ١٥٠
- (ب)
- بازان — أمير النين : ٨٥
باقوم — الروى : ٦٨
بتلر : ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٦ — ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨
- البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) : ٢٩٠ ، ٢٩١
- البراء بن مالك : ٩ ، ١٧
برزة بنت رافع : ٢٣٥
بطليموس : ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٧٧
بكبر بن عبد الله : ٤٤ ، ٤٥
البلاذرى (أحمد بن يحيى) : ٥٠ ، ١٧ ، ٤٩ ، ٤٦١ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٥
- بلال بن رباح : ٢٩٨
بلوتارك — المؤرخ : ١٨٣
بنيامين — الأسقف الأكبر : ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨
- بهرام بن الفرخزاد : ٤٤
بهي الدين بركات باشا : ٢٧٨
البيرواز : ٥
البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين) : ٢٩٣
- (ت)
- تراجان — القيصر : ١١٢ ، ١٧٦
تيودور — القائد الروى : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٦
تيوفيلوس : ١٨٨
- (ج)
- جابر (بن عبد الله) : ٣٢١
جالوت : ١٦٢
جاليناس : ١٨٨
جبله بن الأيهم النساني : ٢١٨ ، ٢٩٤
جبوت : ١٨٧
- أبو هريرة (الذوسى) : ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧
أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) : ١٦٨ ، ٢٩٨
أبي بن كعب : ٢٩٢
أبليس : ١٥٠
أجيتوس — ملك مصر : ١٨٣
أحمد أمين بك : ٢٦٩
أحمد بن حنبل : ٢٨٧
أحمد عبد العليم البردوني : ٣٤٩
الأخنف بن قيس : ٧ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٨ — ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٠
- أرمزد : ٥٩
إساف (صم) : ٢٤٨
أسامة بن زيد : ١ ، ٢٠٨ ، ٢٣٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
الاستندار : ٣٨
إسفنديار بن الفرخزاد : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٤
إسكندر القدوني : ٣٦ ، ٤٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٩ ، ١٧٨
إسكوتائوس : ١٢٩
أسلم — مولى عمر : ٢١٥
أسماء بنت عميس : ٢٣٣
إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام : ٦٧
أشرس بن عوف الشيباني : ٩٠ ، ٩٩
الأشعث بن قيس : ١٣
الأطربون : ٦٢ ، ٦٥ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢
- الأعرج = جورج
أغسطس : ١٤٨
أفلاطون : ١٠٧
الأفرع بن حابس : ٢٨٣
أم جيل (بنت الأفقم) من بني هلال : ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٤ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩٢ ، ٦٩٤ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٤ ، ٧٠٦ ، ٧٠٨ ، ٧١٠ ، ٧١٢ ، ٧١٤ ، ٧١٦ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٢٤ ، ٧٢٦ ، ٧٢٨ ، ٧٣٠ ، ٧٣٢ ، ٧٣٤ ، ٧٣٦ ، ٧٣٨ ، ٧٤٠ ، ٧٤٢ ، ٧٤٤ ، ٧٤٦ ، ٧٤٨ ، ٧٥٠ ، ٧٥٢ ، ٧٥٤ ، ٧٥٦ ، ٧٥٨ ، ٧٦٠ ، ٧٦٢ ، ٧٦٤ ، ٧٦٦ ، ٧٦٨ ، ٧٧٠ ، ٧٧٢ ، ٧٧٤ ، ٧٧٦ ، ٧٧٨ ، ٧٨٠ ، ٧٨٢ ، ٧٨٤ ، ٧٨٦ ، ٧٨٨ ، ٧٩٠ ، ٧٩٢ ، ٧٩٤ ، ٧٩٦ ، ٧٩٨ ، ٨٠٠ ، ٨٠٢ ، ٨٠٤ ، ٨٠٦ ، ٨٠٨ ، ٨١٠ ، ٨١٢ ، ٨١٤ ، ٨١٦ ، ٨١٨ ، ٨٢٠ ، ٨٢٢ ، ٨٢٤ ، ٨٢٦ ، ٨٢٨ ، ٨٣٠ ، ٨٣٢ ، ٨٣٤ ، ٨٣٦ ، ٨٣٨ ، ٨٤٠ ، ٨٤٢ ، ٨٤٤ ، ٨٤٦ ، ٨٤٨ ، ٨٥٠ ، ٨٥٢ ، ٨٥٤ ، ٨٥٦ ، ٨٥٨ ، ٨٦٠ ، ٨٦٢ ، ٨٦٤ ، ٨٦٦ ، ٨٦٨ ، ٨٧٠ ، ٨٧٢ ، ٨٧٤ ، ٨٧٦ ، ٨٧٨ ، ٨٨٠ ، ٨٨٢ ، ٨٨٤ ، ٨٨٦ ، ٨٨٨ ، ٨٩٠ ، ٨٩٢ ، ٨٩٤ ، ٨٩٦ ، ٨٩٨ ، ٩٠٠ ، ٩٠٢ ، ٩٠٤ ، ٩٠٦ ، ٩٠٨ ، ٩١٠ ، ٩١٢ ، ٩١٤ ، ٩١٦ ، ٩١٨ ، ٩٢٠ ، ٩٢٢ ، ٩٢٤ ، ٩٢٦ ، ٩٢٨ ، ٩٣٠ ، ٩٣٢ ، ٩٣٤ ، ٩٣٦ ، ٩٣٨ ، ٩٤٠ ، ٩٤٢ ، ٩٤٤ ، ٩٤٦ ، ٩٤٨ ، ٩٥٠ ، ٩٥٢ ، ٩٥٤ ، ٩٥٦ ، ٩٥٨ ، ٩٦٠ ، ٩٦٢ ، ٩٦٤ ، ٩٦٦ ، ٩٦٨ ، ٩٧٠ ، ٩٧٢ ، ٩٧٤ ، ٩٧٦ ، ٩٧٨ ، ٩٨٠ ، ٩٨٢ ، ٩٨٤ ، ٩٨٦ ، ٩٨٨ ، ٩٩٠ ، ٩٩٢ ، ٩٩٤ ، ٩٩٦ ، ٩٩٨ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٨ ، ١٠١٠ ، ١٠١٢ ، ١٠١٤ ، ١٠١٦ ، ١٠١٨ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٨ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٨ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٨ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٨ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٨ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٨ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٨ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٨ ، ١١٠٠ ، ١١٠٢ ، ١١٠٤ ، ١١٠٦ ، ١١٠٨ ، ١١١٠ ، ١١١٢ ، ١١١٤ ، ١١١٦ ، ١١١٨ ، ١١٢٠ ، ١١٢٢ ، ١١٢٤ ، ١١٢٦ ، ١١٢٨ ، ١١٣٠ ، ١١٣٢ ، ١١٣٤ ، ١١٣٦ ، ١١٣٨ ، ١١٤٠ ، ١١٤٢ ، ١١٤٤ ، ١١٤٦ ، ١١٤٨ ، ١١٥٠ ، ١١٥٢ ، ١١٥٤ ، ١١٥٦ ، ١١٥٨ ، ١١٦٠ ، ١١٦٢ ، ١١٦٤ ، ١١٦٦ ، ١١٦٨ ، ١١٧٠ ، ١١٧٢ ، ١١٧٤ ، ١١٧٦ ، ١١٧٨ ، ١١٨٠ ، ١١٨٢ ، ١١٨٤ ، ١١٨٦ ، ١١٨٨ ، ١١٩٠ ، ١١٩٢ ، ١١٩٤ ، ١١٩٦ ، ١١٩٨ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٨ ، ١٢١٠ ، ١٢١٢ ، ١٢١٤ ، ١٢١٦ ، ١٢١٨ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٨ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٨ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٨ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٨ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٨ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٨ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٨ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٨ ، ١٣١٠ ، ١٣١٢ ، ١٣١٤ ، ١٣١٦ ، ١٣١٨ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٨ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٨ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٨ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٨ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٨ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٨ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٨ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٨ ، ١٤١٠ ، ١٤١٢ ، ١٤١٤ ، ١٤١٦ ، ١٤١٨ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٨ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٨ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٨ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٨ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٨ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٤ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٨ ، ١٤٨٠ ، ١٤٨٢ ، ١٤٨٤ ، ١٤٨٦ ، ١٤٨٨ ، ١٤٩٠ ، ١٤٩٢ ، ١٤٩٤ ، ١٤٩٦ ، ١٤٩٨ ، ١٥٠٠ ، ١٥٠٢ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٦ ، ١٥٠٨ ، ١٥١٠ ، ١٥١٢ ، ١٥١٤ ، ١٥١٦ ، ١٥١٨ ، ١٥٢٠ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٤ ، ١٥٢٦ ، ١٥٢٨ ، ١٥٣٠ ، ١٥٣٢ ، ١٥٣٤ ، ١٥٣٦ ، ١٥٣٨ ، ١٥٤٠ ، ١٥٤٢ ، ١٥٤٤ ، ١٥٤٦ ، ١٥٤٨ ، ١٥٥٠ ، ١٥٥٢ ، ١٥٥٤ ، ١٥٥٦ ، ١٥٥٨ ، ١٥٦٠ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٤ ، ١٥٦٦ ، ١٥٦٨ ، ١٥٧٠ ، ١٥٧٢ ، ١٥٧٤ ، ١٥٧٦ ، ١٥٧٨ ، ١٥٨٠ ، ١٥٨٢ ، ١٥٨٤ ، ١٥٨٦ ، ١٥٨٨ ، ١٥٩٠ ، ١٥٩٢ ، ١٥٩٤ ، ١٥٩٦ ، ١٥٩٨ ، ١٦٠٠ ، ١٦٠٢ ، ١٦٠٤ ، ١٦٠٦ ، ١٦٠٨ ، ١٦١٠ ، ١٦١٢ ، ١٦١٤ ، ١٦١٦ ، ١٦١٨ ، ١٦٢٠ ، ١٦٢٢ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٦ ، ١٦٢٨ ، ١٦٣٠ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٤ ، ١٦٣٦ ، ١٦٣٨ ، ١٦٤٠ ، ١٦٤٢ ، ١٦٤٤ ، ١٦٤٦ ، ١٦٤٨ ، ١٦٥٠ ، ١٦٥٢ ، ١٦٥٤ ، ١٦٥٦ ، ١٦٥٨ ، ١٦٦٠ ، ١٦٦٢ ، ١٦٦٤ ، ١٦٦٦ ، ١٦٦٨ ، ١٦٧٠ ، ١٦٧٢ ، ١٦٧٤ ، ١٦٧٦ ، ١٦٧٨ ، ١٦٨٠ ، ١٦٨٢ ، ١٦٨٤ ، ١٦٨٦ ، ١٦٨٨ ، ١٦٩٠ ، ١٦٩٢ ، ١٦٩٤ ، ١٦٩٦ ، ١٦٩٨ ، ١٧٠٠ ، ١٧٠٢ ، ١٧٠٤ ، ١٧٠٦ ، ١٧٠٨ ، ١٧١٠ ، ١٧١٢ ، ١٧١٤ ، ١٧١٦ ، ١٧١٨ ، ١٧٢٠ ، ١٧٢٢ ، ١٧٢٤ ، ١٧٢٦ ، ١٧٢٨ ، ١٧٣٠ ، ١٧٣٢ ، ١٧٣٤ ، ١٧٣٦ ، ١٧٣٨ ، ١٧٤٠ ، ١٧٤٢ ، ١٧٤٤ ، ١٧٤٦ ، ١٧٤٨ ، ١٧٥٠ ، ١٧٥٢ ، ١٧٥٤ ، ١٧٥٦ ، ١٧٥٨ ، ١٧٦٠ ، ١٧٦٢ ، ١٧٦٤ ، ١٧٦٦ ، ١٧٦٨ ، ١٧٧٠ ، ١٧٧٢ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٨ ، ١٧٨٠ ، ١٧٨٢ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٦ ، ١٧٨٨ ، ١٧٩٠ ، ١٧٩٢ ، ١٧٩٤ ، ١٧٩٦ ، ١٧٩٨ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠٢ ، ١٨٠٤ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٨ ، ١٨١٠ ، ١٨١٢ ، ١٨١٤ ، ١٨١٦ ، ١٨١٨ ، ١٨٢٠ ، ١٨٢٢ ، ١٨٢٤ ، ١٨٢٦ ، ١٨٢٨ ، ١٨٣٠ ، ١٨٣٢ ، ١٨٣٤ ، ١٨٣٦ ، ١٨٣٨ ، ١٨٤٠ ، ١٨٤٢ ، ١٨٤٤ ، ١٨٤٦ ، ١٨٤٨ ، ١٨٥٠ ، ١٨٥٢ ، ١٨٥٤ ، ١٨٥٦ ، ١٨٥٨ ، ١٨٦٠ ، ١٨٦٢ ، ١٨٦٤ ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٨ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧٢ ، ١٨٧٤ ، ١٨٧٦ ، ١٨٧٨ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨٢ ، ١٨٨٤ ، ١٨٨٦ ، ١٨٨٨ ، ١٨٩٠ ، ١٨٩٢ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٦ ، ١٨٩٨ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٦ ، ١٩٠٨ ، ١٩١٠ ، ١٩١٢ ، ١٩١٤ ، ١٩١٦ ، ١٩١٨ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٢ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٤ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٤ ، ١٩٩٦ ، ١٩٩٨ ، ٢٠٠٠ ، ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٦ ، ٢٠٠٨ ، ٢٠١٠ ، ٢٠١٢ ، ٢٠١٤ ، ٢٠١٦ ، ٢٠١٨ ، ٢٠٢٠ ، ٢٠٢٢ ، ٢٠٢٤ ، ٢٠٢٦ ، ٢٠٢٨ ، ٢٠٣٠ ، ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٤ ، ٢٠٣٦ ، ٢٠٣٨ ، ٢٠٤٠ ، ٢٠٤٢ ، ٢٠٤٤ ، ٢٠٤٦ ، ٢٠٤٨ ، ٢٠٥٠ ، ٢٠٥٢ ، ٢٠٥٤ ، ٢٠٥٦ ، ٢٠٥٨ ، ٢٠٦٠ ، ٢٠٦٢ ، ٢٠٦٤ ، ٢٠٦٦ ، ٢٠٦٨ ، ٢٠٧٠ ، ٢٠٧٢ ، ٢٠٧٤ ، ٢٠٧٦ ، ٢٠٧٨ ، ٢٠٨٠ ، ٢٠٨٢ ، ٢٠٨٤ ، ٢٠٨٦ ، ٢٠٨٨ ، ٢٠٩٠ ، ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٤ ، ٢٠٩٦ ، ٢٠٩٨ ، ٢١٠٠ ، ٢١٠٢ ، ٢١٠٤ ، ٢١٠٦ ، ٢١٠٨ ، ٢١١٠ ، ٢١١٢ ، ٢١١٤ ، ٢١١٦ ، ٢١١٨ ، ٢١٢٠ ، ٢١٢٢ ، ٢١٢٤ ، ٢١٢٦ ، ٢١٢٨ ، ٢١٣٠ ، ٢١٣٢ ، ٢١٣٤ ، ٢١٣٦ ، ٢١٣٨ ، ٢١٤٠ ، ٢١٤٢ ، ٢١٤٤ ، ٢١٤٦ ، ٢١٤٨ ، ٢١٥٠ ، ٢١٥٢ ، ٢١٥٤ ، ٢١٥٦ ، ٢١٥٨ ، ٢١٦٠ ، ٢١٦٢ ، ٢١٦٤ ، ٢١٦٦ ، ٢١٦٨ ، ٢١٧٠ ، ٢١٧٢ ، ٢١٧٤ ، ٢١٧٦ ، ٢١٧٨ ، ٢١٨٠ ، ٢١٨٢ ، ٢١٨٤ ، ٢١٨٦ ، ٢١٨٨ ، ٢١٩٠ ، ٢١٩٢ ، ٢١٩٤ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٨ ، ٢٢٠٠ ، ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٤ ، ٢٢٠٦ ، ٢٢٠٨ ، ٢٢١٠ ، ٢٢١٢ ، ٢٢١٤ ، ٢٢١٦ ، ٢٢١٨ ، ٢٢٢٠ ، ٢٢٢٢ ، ٢٢٢٤ ، ٢٢٢٦ ، ٢٢٢٨ ، ٢٢٣٠ ، ٢٢٣٢ ، ٢٢٣٤ ، ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٨ ، ٢٢٤٠ ، ٢٢٤٢ ، ٢٢٤٤ ، ٢٢٤٦ ، ٢٢٤٨ ، ٢٢٥٠ ، ٢٢٥٢ ، ٢٢٥٤ ، ٢٢٥٦ ، ٢٢٥٨ ، ٢٢٦٠ ، ٢٢٦٢ ، ٢٢٦٤ ، ٢٢٦٦ ، ٢٢٦٨ ، ٢٢٧٠ ، ٢٢٧٢ ، ٢٢٧٤ ، ٢٢٧٦ ، ٢٢٧٨ ، ٢٢٨٠ ، ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٤ ، ٢٢٨٦ ، ٢٢٨٨ ، ٢٢٩٠ ، ٢٢٩٢ ، ٢٢٩٤ ، ٢٢٩٦ ، ٢٢٩٨ ، ٢٣٠٠ ، ٢٣٠٢ ، ٢٣٠٤ ، ٢٣٠٦ ، ٢٣٠٨ ، ٢٣١٠ ، ٢٣١٢ ، ٢٣١٤ ، ٢٣١٦ ، ٢٣١٨ ، ٢٣٢٠ ، ٢٣٢٢ ، ٢٣٢٤ ، ٢٣٢٦ ، ٢٣٢٨ ، ٢٣٣٠ ، ٢٣٣٢ ، ٢٣٣٤ ، ٢٣٣٦ ، ٢٣٣٨ ، ٢٣٤٠ ، ٢٣٤٢ ، ٢٣٤٤ ، ٢٣٤٦ ، ٢٣٤٨ ، ٢٣٥٠ ، ٢٣٥٢ ، ٢٣٥٤ ، ٢٣٥٦ ، ٢٣٥٨ ، ٢٣٦٠ ، ٢٣٦٢ ، ٢٣٦٤ ، ٢٣٦٦ ، ٢٣٦٨ ، ٢٣٧٠ ، ٢٣٧٢ ، ٢٣٧٤ ، ٢٣٧٦ ، ٢٣٧٨ ، ٢٣٨٠ ، ٢٣٨٢ ، ٢٣٨٤ ، ٢٣٨٦ ، ٢٣٨٨ ، ٢٣٩٠ ، ٢٣٩٢ ، ٢٣٩٤ ، ٢٣٩٦ ، ٢٣٩٨ ، ٢٤٠٠ ، ٢٤٠٢ ، ٢٤٠٤ ، ٢٤٠٦ ، ٢٤٠٨ ، ٢٤١٠ ، ٢٤١٢ ، ٢٤١٤ ، ٢٤١٦ ، ٢٤١٨ ، ٢٤٢٠ ، ٢٤٢٢ ، ٢٤٢٤ ، ٢٤٢٦ ، ٢٤٢٨ ، ٢٤٣٠ ، ٢٤٣٢ ، ٢٤٣٤ ، ٢٤٣٦ ، ٢٤٣٨ ، ٢٤٤٠ ، ٢٤٤٢ ، ٢٤٤٤ ، ٢٤٤٦ ، ٢٤٤٨ ، ٢٤٥٠ ، ٢٤٥٢ ، ٢٤٥٤ ، ٢٤٥٦ ، ٢٤٥٨ ، ٢٤٦٠ ، ٢٤٦٢ ، ٢٤٦٤ ، ٢٤٦٦ ، ٢٤٦٨ ، ٢٤٧٠ ، ٢٤٧٢ ، ٢٤٧٤ ، ٢٤

٥٥٩، ١٢٩، ١٢٣
خاقان الترك : ٥٤ — ٥٧
خالد بن الوليد : ١، ٢، ٢٣، ٢٤، ٦٤، ٨٢
— ٨٤، ١١٩، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٨١، ٢٨٣
٢١٣، ٢٣٥

خوات بن جبير : ٢٦٦

(د)

الدار قطنى (أبو الحسن على بن عمر) : ٢٩٠
داود عليه السلام : ١٦٢
دنبار الفارسي : ٣٢
الدهلوى (أحمد بن عبد الرحيم) : ٢٩٢
ديوكاسيوس : ١٨٨

(هـ)

ربيع القهرى : ٣٦٦
ربيع بن عامر : ٥٤
رييت — إلهة النيل : ٣٨٤
الريبع بن زياد : ٦
رستم (بن الفرخزاد) : ٣٩، ٣٣٥
رمسيس : ١٠١، ١٨٣
رينان : ١٨٧

(ز)

الزبرقان بن بدر : ٢٦٧، ٢٦٨
الزبير بن العوام : ١٧، ١٠٥ — ١٠٨
١١٩، ١٦٦، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٩٨
٣١٢، ٣١٣، ٣٢١، ٣٢٧، ٣٢٨
زوسر : ١٠١
زياد (بن أبيه) : ٨٧
زياد بن ليلى : ٢٢١، ٣٣١
زيد بن أسلم : ٢٦٧
زيد بن ثابت : ١٧، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٦
٢٩١

زينب بنت جحش — أم المؤمنين : ٢٣٥
الزبني أبو الفرخان (٢) : ٤٠ — ٤٢، ٤٤

(س)

سابور : ٩٠
سارة — زوجة إبراهيم عليه السلام : ٦٧
سارية بن زعيم الكنانى : ٣٣، ٤٩، ٥٠، ٥١
ساسان — جد الملك أردشير الأول : ٤٧

(٢) ذكر أنه « أنفِر الفرخان » وهو تحريف

جبير بن مطعم : ٢٢٩، ٢٣١، ٣٠٨
الجراح بن سنان الأسدى : ٢٠، ٢١
جرجة — القائد : ٣٣٥
جزء بن معاوية : ٨٤، ٦٥
بجينة : ١٨، ٣٢٣، ٣٢٤، ٢٣٠، ٣٣١
جورج — قائد الروم : ١١٢
جوستاف ليون : ١٨٧
جويرية بنت الحارث : ٢٣٢
جويرية بن قدامة : ٣٠٥
الجيشاقى (أبو وهب ديلم) : ١٣٩
جيفر بن الجندى : ٨٥

(ح)

حناني — إله النيل : ١٨٤
حارثة بن النعمان : ٥٦
حاطب بن أبى بلنعة : ٧١، ٧٢، ٢٩٣
حديفة بن النعمان : ٢٣، ٢٨ — ٣٢، ٣٤، ٣٥
٣١٩، ٣٣٢، ٣٣٣
حرقوس بن زهير السعدى : ٥٥، ٨٧
حرمة بن ربيعة : ٥٥، ٨٤، ٢٤
حزام بن هشام الكعبى (١) : ٢٣٤
حسان بن ثابت : ٢٦٨
الحسن (البصرى) : ٣١٩
الحسن (بن علي بن أبي طالب) : ٦٠، ٢٣٢
الحسين (بن علي بن أبي طالب) : ٦٠، ٢٣٢
٣٤٦، ٣٤٧

الحطيئة (جروول بن أوس) : ٢٦٧ — ٢٦٩
حفصة — أم المؤمنين : ٢١٤، ٢٥٢، ٣١٦
٣١٨، ٣٢٤، ٣٣١

الحكم بن أبى العاص : ٤٩
الحكم بن عمرو التتلي : ٣٣، ٥١
حكيم بن حزام : ٢٢٩
حمزة الأصفهاني : ٠٩
حميد (بن أبى حميد الطويل) : ١٧
حنا (أمير كتيبة من الروم) : ١٠٤
حنا مسكوس : ١٨٩

حنا النحوى : ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩
حنا النقيوسى — الأسقف : ١٢٠، ١٢٦، ١٢٩
١٣٣، ١٣٨، ١٥٨، ١٥٦
١٦٦، ١٦٧، ١٧٢، ١٨٩

(خ)

خارجة بن حذافة العدوى : ١٠٨، ١٠٩، ١١٠

(١) ذكر أنه « الكلبى » وهو تحريف

شهریار — شهرراز — بن جاذویه : ٤٨
شوشن دخت : ٣٨
شعبة بن هاشم — عبد المطلب بن هاشم
(ص)
صحارى العبدى : ٥١
صفريوس : ٢٨٩، ٢٧٧
صفوان بن أمية : ٢٨٣
صفية بنت حيي : ٢٣٢
صفية بنت عبد المطلب : ٢٣٢
صمويل — الأب : ٧٨
صهيب (بن سنان) : ٣١٣، ٣١٨
٣٢٠، ٣٢١
(ض)
ضرار (الشاعر) : ٢٦٦
(ط)
الطبرى (محمد بن جرير) : ٤٤، ٤٥، ١٣٤
١٦٤، ٣١٤، ٤٩، ٤٠، ٦١، ١١٩
١٦٥، ١٦٦، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥
٢٦٤، ٢٨٤، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٢٠
٣٢١، ٣٢٩، ٣٣٠
طريف بن سهم : ٣٠
طلحة بن عبيد الله : ٢١٩، ٢٢٠، ٢٩٦
٢٩٧، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢١، ٣٢٨
طلما — صاحب إكنا : ١٦٠، ١٦٤
طلحة بن خويلد الأسدي : ٢٤، ٣٦
(ع)
العامر بن وائل السهمي : ٨٧، ١٩٥
عاصم بن عمرو : ٣٣، ٥٢
عائشة — أم المؤمنين : ٢٣٢، ٢٦٣، ٢٦٤
٢٩٠، ٣٠٨، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢١
عباد بن الجندى : ٨٥
عبادة بن الصامت : ١٠٥، ١٠٦، ١١٤
١١٦، ١٤٣
العباس بن عبد المطلب : ٢٠٩، ٢١٠
٢٣٢، ٣٢٥، ٣٢٦
عباس محمود العقاد : ٢٣٢
عباس بن مهزاس : ٢٨٣
عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٦٣، ٢٦٤
٣٢٣، ٣٣١
عبد الرحمن بن حاطب بن أبي عيسى : ٢٩٤
عبد الرحمن بن ربيعة : ٤٤، ٤٥
٢٣ م — ٢ ج

سالم أبو عبد الله : ٢٣٣
سالم مولى أبي حذيفة : ٣١١، ٣٢٢
ساويرس : ١٥٨، ١٦٩، ١٧٢، ٢٧٣
السائب بن الأقرع : ٢٣، ٢٩، ٣١
سترايو : ٩٣
سديو : ١٨٧
سرافة بن عمرو : ٤٥
سعد بن أبي وقاص : ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧
٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧
١٢٠، ١٧١، ٢١٣، ٢١٩، ٢٢٠
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٥٨، ٢٩٨، ٣١٢
٣١٣، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦
٣٢٨
سعد بن معاذ : ٢٧٨
سعيد بن زيد بن عمرو : ٣١١، ٣١٩، ٣٢١
٢٢٨
سلمان الفارسي : ٢٧٣
سلمى بنت عمرو : ٢٤١
سلمى بن القين : ٢٤٥، ٢٤٨
سلم بن حسن : ١٨٤، ١٨٢
سلميان — عليه السلام : ١٥٤
سماك بن خرشة الأنصاري : ٤٤
سميل بن عدي : ٧، ٨، ٣٣، ٥١
سواخ (صم) : ٢٤٧، ٢٤٨
سويد بن مقرن : ٤٢ — ٤٤، ٦٥
رعياء الأسواري : ١٣
رمياوخش بن مهران بن بهرام جوين : ٤١، ٤٢
رميد نوفل : ٣٤٩
سيرايس : ١٥٠
سيزوستريس : ١١٢
سيلوس : ١٨٧
اللسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : ١٤٠، ١٤٢، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٢
(ش)
شيارل بالانك : ١٨٤
الشافعي (الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس) : ٢٨٧
شريع (بن الحارث النافعي) : ٢٢٤، ٢٢٥
شريك بن سمي : ١٣٠
شريك بن عبدة : ٨٩
شطاب بن الماموك : ١٦٠
شهرراز — أمير الباب : ٤٤، ٤٥
شهرك — مالك فارس : ٤٩

عبد الرحمن بن عمر : ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٦٢
عبد الرحمن بن عوف : ٣٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ،
٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،
٣٢٣ ، ٣٢٦ — ٣٣١ .
عبد الرحيم محمود : ٣٤٩
عبد الله بن أبي ربيعة : ٣٢٨
عبد الله بن أرقم : ٣٠
عبد الله بن بديل بن ورقاء : ٥١
عبد الله بن حذافة السهمي : ١٣٩
عبد الله بن الزبير : ١٦٦
عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ١٦٦ ، ١٩٧ ،
١٩٨ ، ٣٢٨
عبد الله بن سلام : ٣٢٠
عبد الله بن عباس : ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،
٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٧
عبد الله بن عبد الحكم : ١٤٣
عبد الله بن عبد الله بن عتيان : ٢١ ، ٢٣ ،
٣٧ — ٣٩ ، ٦٢
عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم : ٢٤٠
عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٢١٤ ، ٢١٨ ،
٢٣٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ — ٣١٣ ،
٣١٥ — ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ،
٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٦
عبد الله بن عمرو بن العاص : ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٦٧
عبد الله بن عمر : ٥٢
عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعري
عبد الله بن مسعود : ٨ ، ٢٢٥ ، ٢٧٨ ،
٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣
عبد الله بن ورقاء الرياحي : ٣٨
عبد المطلب بن هاشم : ٢٤٠ ، ٢٤١
عبيد الله بن عمر : ١٨ ، ٢٦٧ ، ٣٢٣ —
٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١
عبيدة السلماني : ٢٨٦
عتاب بن أسيد : ٢٢١
عتبة بن غزوان : ٢ ، ٥
عتبة بن فرقد : ٤٤
عثمان بن أبي العاص الثقفي : ٣٣ ، ٤٧ ، ٤٩ —
٢٢١
عثمان بن حنيف : ٢٩٧
عثمان بن عفان رضي الله عنه : ٣ ، ٤٥ ،
٤٨ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٨٩ —

(م)

- مارك أنطونيوس : ٩٦ ، ١٢٠ ، ١٨٨
 مارية القبطية : ٧١
 ماسيرو : ١٨٤
 مالك بن ناعمة الصنفى : ١٣٠
 المأمون (عبد الله بن هارون الرشيد) :
 ٢٩٠ ، ٢٩١
 مانويل سم القائد : ١٩٧ ، ١٩٨
 المنى بن حارثة الشيباني : ١
 مجاشع بن مسعود السلمي : ٣٣ ، ٤٧
 مجزأة بن ثور : ٩ ، ١٧
 محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : ١ ، ٣ ، ٤
 ٢٠ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨١ — ٨٦
 ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٤ ،
 ١١٥ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ،
 ٢٠٠ — ٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣١ — ٢٣٦ ، ٢٣٣ — ٢٣٨ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٦ — ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ — ٢٨٤ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ،
 ٣١٤ — ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧
 محمد البرهاني منصور : ٣٤٩
 محمد بك الحضري : ٢٧٠ ، ٢٧٥
 محمد بن الزبير : ١٦٦
 محمد بن عبد الله بن جعش : ٢٣٣
 محمد بن عمرو بن العاص : ٢١٨
 محمد بن مسلمة : ٢١ ، ٢١٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٢ ،
 ٢٨٩
 مخزومة بن نوفل : ٢٢٩ ، ٢٣١
 مريتينا — زوج هرقل : ١٢٤ ، ١٢٧ —
 ١٤٠ ، ١٥٧
 مرشد القنوي : ٢٧٥
 مروان بن معاوية : ١٧
 مريم (بنت عمران) : ٧٧
 المسعودي (أبو الحنفية علي بن الحسين) : ١٥٣ ،
 ١٥٤
 مسيل (بن الحجاج القشيري) : ٢٥٢ ، ٢٨٤
 مسلمة بن مخلد : ١٠٥ ، ١٤٣ — ١٤٥
 المتور بن مخزومة : ٣٢٦ ، ٣٢٨

(ف)

- الفاذوستان — أمير أسبها : ٣٨ ، ٣٩
 الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد) : ٢٥٨
 فرجيل : ٩٣
 فرعون : ٦٨ ، ٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧
 فريد أبو حديد : ٧٦ ، ٩٢ ، ١٢٩
 فؤاد عبد الباقي : ٣٤٩
 فوكاس : ٧٩ ، ٨٠ ، ١٢٦
 الفيزان : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ — ٢٥٠ ، ٢٧ ،
 ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٩
 فيلو : ١٤٨ ، ١٧٦

(ق)

- قنادة (بن دعامة الدوسي) : ٢٨٤
 قرظلة بن كعب : ٢٨٨ ، ٢٨٩
 قزمان — صاحب رشيد : ١٦٤
 قسطنطين — الأكبر : ١٢٤ ، ١٤١
 قسطنطين بن هرقل : ١٢٤ ، ١٢٦ — ١٢٨ ،
 ١٥٧
 القمقياس بن عمرو : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩
 قنبر : ٩٢
 قيس — الأسقف : ٧٦ — ٨١ ، ٩٧ ،
 ١٢٥ — ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٢
 قيس بن أبي العاص السهمي : ٢٢٤
 قيصر : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٩ —
 ٨١ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،
 ١١٧ ، ١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٨٧ ،
 ١٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢١٣

(ك)

- كثير بن الصلت : ٢٩٣
 كسرى : ١ ، ٣ ، ٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ ،
 ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٦ —
 ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ ، ١٠٦ ، ١٩٩ ،
 ٢١٣ ، ٢٣٧ ، ٢٩٧ ، ٣٣٥
 كعب الأحبار : ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٣٢
 كليب (بن وائل) : ٥
 كليوباترا : ٩٢ ، ٩٦ ، ١٤٨ ، ١٨٨
 كونستانس بن قسطنطين : ١٢٥ ، ١٥٧

(ل)

- اللات (صنم) : ٢٤٨
 ليلي بنت الجودي النساني : ٢٦٣ ، ٢٦٤

هاريس : ١٨٣ ، ١٨٤
 هاشم بن عبد مناف : ٢٤١
 هامان — وزير فرعون : ٦٩
 هاناسو : ٦٦
 هبل (صم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨
 هرقل : ٣٤ ، ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٨ — ٨٠ ، ٩٥ ،
 ١٠٢ — ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٦ —
 ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ،
 ١٤٠ — ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ،
 ١٦٣ ، ١٦٥ — ١٦٧ ، ١٧١ ،
 ١٧٥ ، ٣٤٢
 هرقلوناس بن هرقل : ١٢٤ ، ١٢٥
 الهرمزان : ٢ ، ٤ ، ١٢ — ١٥ ، ٢٠ ،
 ٣٤ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣ ،
 ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١
 هيرودوتس : ١٠٧

(و)

ود (صم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨
 وردان مولى عمرو بن العاص : ١٣٤ ، ١٣٩ ،
 ١٦٦
 الوليد بن عبد الملك : ١٥٣
 الوليد بن هشام بن المفيرة : ٢٢٩
 وليم ميور : ٣١٠

(ي)

ياقوت (بن عبدالله) : ١٦١
 يحنس صاحب البرلس : ١٦٤
 يزدجرد : ٢ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٣ ، ١٨ ،
 ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٣ — ٣٥ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٥٢ — ٥٩ ، ٦٣ ، ١٢٤
 يزدجرد الأول : ٣٨
 يزيد بن أبي حبيب : ١٣٩ ، ١٦٧
 يزيد بن قيس : ٤٠ ، ٤١ ،
 يعقوب عليه السلام : ٩٢
 يعلى بن أمية : ٢٠٤ ، ٢٢١
 يعوق (صم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨
 يعوث (صم) : ٢٤٨
 يوسف عليه السلام : ٦٨ — ٧٠ ، ٩٤ ، ١٩٥ ،
 يوليوس قيصر : ٩٦ ، ١٢٠ ، ١٤٨

مصطفى باشا عبد الرازق : ٣٤٩
 المطلب بن عبد مناف : ٢٤١
 معاذ بن جبل : ٢٧٨ ، ٣١٢
 معاوية بن أبي سفيان : ٦٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٢٣ ، ٢٦٠ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧ ،
 معاوية بن حديج : ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦
 المفيرة بن شعبة : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ١٧ ، ٢٥ ،
 ٢٧ ، ٢٦٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
 ٣٢٠ ، ٣٢٦
 المقداد بن الأسود : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٣٢٨
 المقدم بن معدى كرب : ٢٨٧
 المقدسي (محمد بن طاهر بن علي) : ٤٨
 المقرئ (أحمد بن علي) : ٨٩ ، ٩٤ ، ١٥٢ ،
 ١٦٠ ، ١٧٩
 المقوقس : ٧١ ، ٧٢ ، ٩٣ ، ٩٧ — ٩٩ ،
 ١١١ — ١٢٠ ، ١٣٩ ، ١٤٢ —
 ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٦ — ١٥٨ ،
 ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦
 مناة (صم) : ٢٤٨
 المنذر بن عمرو : ٤٢
 المهاجر بن أبي أمية : ٢٢١
 المهاجر بن زياد : ٥ ، ٦
 موتا — ملك الديلم : ٤٠ ، ٤١ ،
 مومى عليه السلام : ٦٨ — ٧٠
 مينا : ١٧٥

(ن)

نابليون : ٣٠٢
 نائلة (صم) : ٢٤٨
 النجاشي — ملك الحبشة : ٨٢ ، ٨٣ ، ٣٣٥
 نسر (صم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨
 نصر بن حجاج : ٢٩٩
 النعمان بن مقرن : ٧ ، ٨ ، ٢٢ — ٢٨ ،
 ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٩
 نعيم بن مقرن : ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ — ٤٢ ،
 ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١١٩

(هـ)

هاجر — أم اسماعيل : ٦٧ ، ٩٩
 هارون بن عمران عليه السلام : ٦٩

فهرس الأماكن

اليونة : ١١٢
أم دنين : ١٠٠ — ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧
الأناضول : ٢٠٠
إنجلترا : ١٧٧
أنطاكليس : ١٦٢
أنطاكية : ١٣٥ ، ١٠٦ ، ٦٥ ، ٦٤
الأهرام : ١١١ ، ١٠٣ ، ١٠١
الأهواز : ١٤٢ ، ١٣٤ ، ٨٤ ، ٧٤ ، ٥٤ ، ٤٤ ، ٤٢
أوربا : ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٠ ، ١٦
أوربا : ٢٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٢ ، ٩٦ ، ٣٦
أون — عين شمس : ١٠٧
إيران : ٣٣٧ ، ٥٣ ، ٤٧ ، ٣٦ ، ٣٤ ، ١٤
أيلة — العقبة : ٦٨
إيوان سليمان بالإسكندرية : ١٥٤
إيوان كسرى : ٢١٣ ، ٢٠٦ ، ١٢٠ ، ٣٥
٢٥٨

(ب)

الباب : ٤٥ ، ٤٤ ، ١٩
باب إليون = بابليون
بابل : ٦٦
بابليون : ١٠٨ ، ١٠٥ — ١٠١ ، ٩٨ ، ٩٧
١٢٣ ، ١٢١ — ١١٩ ، ١١٧ ، ١١٢
١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٣١ ، ١٢٨ ، ١٢٦
١٥٦ ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٣٩ ، ١٣٨
١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٣ ، ١٥٨ —
٢٦٥ ، ١٩٨ ، ١٧٦ ، ١٧٠
بادية السماوة : ٣٣٤ ، ٢٠٠ ، ٩٦ ، ٦٣ ، ١
البحر الأبيض : ١٠٧ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٨٠ ، ٦٦
١٤٨ ، ١٣٧ — ١٣٥ ، ١٣٤
١٧١ ، ١٦٢ — ١٥٩ ، ١٥٦ ، ١٤٩
١٧٧ ، ١٧٦
البحر الأحمر : ١٠٠ ، ٨٠ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٦٦
١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧١
بحر الحزر = بحر قزوين
بحر الروم = البحر الأبيض
بحر قزوين : ٢٣٤ ، ٢٠٠ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٩
بحر القلزم = البحر الأحمر

(١)

آسيا : ٩٦ ، ٩٢
الأطلس : ٣٠٤
الأبلة : ٢
أبيض كسرى : ١٣٥ ، ١٠١
أثريب : ١٣٨ ، ١١٠
أثينا : ١٥٠
إثيوبيا : ٧٨ ، ٧٣
أجنادين : ١٤١
أحد : ٢٥٤ ، ٢٣٢ ، ١٠٧
أخميم : ١٣٩
إخسا : ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٠
أذربيجان : ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٠ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ٣٣
أربك — أربق : ٨٤ ، ٧
أرجان : ٤٩
أردبيل : ٤٣
أردشير (١) : ٤٩ ، ٣٣ ، ٢٩
الأردن : ٢٣٤
الأزبكية : ١٠٨ ، ١٠١
إسكندرية : ٨٨ ، ٨٠ ، ٧٧ — ٧٣ ، ٦٤ ، ٩٢
١٠٣ ، ١٠١ ، ٩٧ ، ٩٤
١١٦ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٧ ، ١٠٤
١٢٦ ، ١٢٣ — ١٢٠ ، ١١٨ —
١٤٤ — ١٣٥ ، ١٣٣ ، ١٣١ —
١٦٥ — ١٥٣ ، ١٤٩ — ١٤٦
١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٧٢ — ١٦٧
١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٨٩ — ١٨٦
٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٥٦ ، ٢١٣
أسوان : ١٨٣
أشمون طناح : ١٦٠
الأشموين : ١٣٩
أصبهان : ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ١٩ ، ١٣
٥٨ ، ٥٢ ، ٤٦
إصطخر : ٤٨ ، ٤٧ ، ٣٣ ، ١٩ ، ٦ ، ٤ ، ٤٩
٥٨ ، ٤٩
أفريقيا : ٢٠٠ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ٩٢
أفغانستان : ٢٠٠ ، ٥٣
الأكروبولوس : ١٥٠
(١) صوابها : أردشير خره

بلهيب : ١٦٥ ، ١٦٠ ، ١٣٩ :
 يلوذ — القوما : ٩٢
 اليلوزى — فرع النيل : ٩٣ ، ٩٢
 بنا : ١٣٩
 بنى غازى : ١٦١
 بورسعيد : ٩٣
 بوصير : ١٣٩
 بيت الحكمة = مدرسة أرسطو
 بيت عائشة : ٣٢٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٦
 بيت القدس : ٣٤ ، ٣٦ ، ٦٢ ، ٥٨٦
 ٧٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٩ ،
 ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٣٤ ،
 ٢٦٣
 بيت نار الإلهة أماهيم : ٤٧
 بين التهرين : ٣٦
 (ت)
 الثانيتى — فرع النيل : ٩٣
 تائيس — صان الحجر : ٩٣
 تبيريز : ٤٣
 التتراييلوس (مدفن النبي أرميا) : ١٤٨
 ترعة الثعبان : ١٣١ ، ١٣٧
 الترعة الحلوة : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥١
 تستر : ٥ ، ٨ ، ١١ ، ١٣ — ١٧
 تيس : ١٦٥ ، ١٦٠ ، ١٣٩
 توج : ٤٧ ، ٤٩
 تولس : ١٦٢ ، ٢٠٠
 تونة : ١٣٩
 تيماء : ٦٦
 (ث)
 ثنية السبل : ٢٩ ، ٣٩
 ثنية للرفأ : ١٤٨
 ثنية هندان = ثنية السبل
 (ج)
 الجابية : ٦٤ ، ٨٢ ، ١
 الجبل : ١
 جبل جيلان : ٤٣
 جبل حراء : ٨٤
 جبل صنعاء : ٢٣٣
 جبل القطم : ١١١
 جنة : ٦٨٠
 جرجان : ١٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨
 الجرف : ١٠٧
 الجزيرة : ٤٣ ، ٥١٧

البحرين : ٤٦ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٨
 البحيرات المرة : ١٧٦ ، ٦٦
 بحيرة الإسكندرية : ١٣٧
 بحيرة البرلس : ٩٣
 بحيرة التمساح : ١٧٦ ، ١٧٧
 بحيرة سربونة : ٩٢
 بحيرة صهوط : ١٣٦
 بحيرة النزالة : ٩٣
 برج بابل : ١٥٤
 برزخ السويس : ١٧٦ ، ٦٦
 برسوبوليس : ٤٧ ، ٤٨
 برقة : ٩٣ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٤
 البرلس : ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٠
 برمون — القوما : ٩٢
 بزطية = القسطنطينية
 البسفور : ١٢٤ ، ١٤١
 بسطام : ٤٣
 البصرودات : ١٣٩
 البصرة : ٢ — ٤٧ ، ٤٨ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٦٤ ،
 ١٣١ ، ١٧١ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ،
 ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ ، ٣٤٤
 (الطيطياء : ٢١٣ ، ٣٠٧
 بغداد : ٢٢٩ ، ٣٤٧
 بلاد التار : ٥٢ ، ٤
 بلاد الترك : ٥٧
 بلاد الخليم : ٤٣
 بلاد الروم = الروم
 بلاد العرب : ١ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٦ ،
 ٦٣ — ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ٩٧ ،
 ١٦٦ — ١٧٨ ، ١٩٢ ، ١٩٩ —
 ٢٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ،
 ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٣
 بلاد المغرب = المغرب
 بلاد النوبة = النوبة
 البليقي — فرع رشيد : ٩٢
 بلبيس : ٩٨ — ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 ١١٢ ، ١٧٦
 بلخ : ٥٣ — ٥٧
 بلنخ : ٢٤٧

جزيرة أيزكوان : ٤٧
جزيرة الروضة : ١١٢، ١١١، ١٠١
١٢١، ١١٥
جزيرة العراق : ٦٥
جزيرة فاروس : ١٥١
حريرة بقبوس : ١٢٩
حلولا : ٣٤، ٢٢٧، ٢٩٦
هندي سابور : ١٤٠
جور : ٤٨
جبي : ٣٨، ٣٧
الجيرة : ١٠١، ١١١، ١٢١
حيلان : ٣٤

(د)

خيس : ١٣١
خيوان : ٢٤٧
دار التمثيل بالإسكندرية : ١٥١
دار عمر بن الخطاب : ١٥٦، ١٥٦، ٣٠٧
دارا بحد : ٣٣، ٤٩، ٥٠
دجلة : ٢، ١٢٩
دجيل = نهر دجيل
دست ميسان : ٤، ٤
دستي : ٢٩، ٤٠
دقهلة : ١٣٩
الدلتا : ١٠٧، ١١، ١٢٨، ١٣٨
١٣٩، ١٤١، ١٤٦، ١٤٩، ١٧٠
دماوند : ١٩
دمسيس : ١٣٨
دمشق : ٦٠، ١١٩، ١٣٥، ٢٠٨
٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٥٦، ٢٦٣
— ٢٦٥، ٣٣٧، ٣٤٤، ٣٤٧
دمهور : ١٣، ١٣٨
دمياط : ٩٣، ١٣٩، ١٦، ١٦٥
دميرة : ١٣٩، ١٦٠
دنباوند : ٤٢، ٤٣
دهستان : ٤٣
دومة الجندل : ٧٤٧
دير الأب صمويل : ٧٨
الدير البحري : ٦٦
الديثور : ٣٢

(ذ)

ذو القصة : ٢٣

(ر)

رامهرم : ٥ — ٨
رستاق الشيخ : ٣٨
رشيد : ١٦٠، ١٦٤
رفع : ٩٠
رودس : ١٢٦
الروم : ٩٣، ١٥٢، ٢٠٦، ٢٦٠، ٢٠١
٣٣٩
رومية : ٧٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٨، ١٥٩
١٧٨، ١٨٨
الري : ٢، ١٩، ٢٣، ٣٤، ٣٧ — ٣٩
٤١ — ٤٦، ٥٢، ٥٨

جزيرة أيزكوان : ٤٧
جزيرة الروضة : ١١٢، ١١١، ١٠١
١٢١، ١١٥
جزيرة العراق : ٦٥
جزيرة فاروس : ١٥١
حريرة بقبوس : ١٢٩
حلولا : ٣٤، ٢٢٧، ٢٩٦
هندي سابور : ١٤٠
جور : ٤٨
جبي : ٣٨، ٣٧
الجيرة : ١٠١، ١١١، ١٢١
حيلان : ٣٤

(ح)

الحبشة : ٢٢، ٨٢، ٨٧، ١٠٧، ٢٣٢
٢٣٥
الحجاز : ٦٦، ٨٤، ٨٥، ١٧١، ٢٢٩
٢٤٠
حدقة الإسكندرية : ١٨٥
حصن الإسكندرية : ١٤٠، ١٤٥، ١٩٨
حصن بابليون = بابليون
حصن كليون = كليون
حصن نقبوس = نقبوس
حضرموت : ٢٢١
حلب : ٢٩٦
حلوان : ٢، ١٣، ١٦، ٢١، ٢٤، ٢٥
٥٢
حس : ٥٥، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٥٦
٢٦٤، ٢٩٦
الحلي : ٢٢٨
حنين : ٢٢١
الحيرة : ١، ٧١، ٣٣٤

(خ)

خراسان : ١٩، ٣٣، ٤٦، ٥٢ — ٥٤
٦٠، ٥٧
خلفدونية : ٧٦
خليج تراجان : ١٠٠، ١٧٦، ١٧٧، ١٩٢
خليج السويس : ٦٦
خليج عدن : ٦٣، ٢٠٠
الخليج الفارسي : ٣، ٤٦، ٤٧، ٨٥
خوزستان : ٤، ٥، ٩، ١٠، ١٤، ٢٠
٢١، ٢٣، ٣٤، ٣٧، ٤٦
خولان : ٢٢١
خير : ٢٠٤، ٢٨٨

(ز)

زاوية ززين : ١٢٨
زبيد : ٢٢١
زرج : ٥٢

(س)

سابور : ٤٩٠٤٧٠٤٣٣
السبتى — فرع النيل : ٩٧
سجستان : ٥٣٠٤٥٢٠٤٣٣
سندا : ١٣٨٠٤١٣١
سد مأرب : ٢٣٠
السرانيوم : ١٢٢٠٤١٣٦٠٤١٥١٠٤١٥١
١٥٤
سرخس : ٥٣
سقية بنى ساعة : ٣١١٠٤٣١٠٤٢٧٩
سلطيس : ١٣٠
السلسلة : ١٨٣
سمات : ٣٤
سمرقند : ٥٧٠٤٥٤
السواد : ٢٩٦٠٤٢٣٤٠٤٢٠٤٧٠٤٦٠٤٦٠٤٢٩٦
٢٩٧
سورية : ١٠٢٠٤٩٨٠٤٨٢٠٤٦٤
نسوس : ١٤٠٤١٣
سوق وردان : ١٣٩
السويس : ١٧٦٠٤١٠٠
سينين : ٤٩

(ش)

الشام : ١٠٠٤٦٣٠٤٥٥٠٤٣٤٠٤٢٢٠٤٩٠٤٦٥
٦٨٠٤٧١٠٤٧٣٠٤٧٦٠٤٨١
٨٣٠٤٨٦٠٤٨٧٠٤٨٩٠٤٨٩٠٤٩٥٠٤٩٥
١١٧٠٤١١٩٠٤١٢٢٠٤١٢٤٠٤١٢٧
١٣١٠٤١٣٤٠٤١٣٩٠٤١٥٣٠٤١٥٣
١٥٥٠٤١٧٠٤١٧٥٠٤١٩٨٠٤٢٠٠
٢٠٧٠٤٢٠٩٠٤٢١١٠٤٢١٣٠٤٢١٣
٢١٧٠٤٢٢٢٠٤٢٢٤٠٤٢٢٧٠٤٢٣٠
٢٣٢٠٤٢٣٤٠٤٢٣٦٠٤٢٣٨
٢٤١٠٤٢٥٦٠٤٢٥٨٠٤٢٦٤٠٤٢٦٤
٢٧٠٤٢٧٢٠٤٢٨١٠٤٢٨٥
٢٩٥٠٤٢٩٦٠٤٢٩٨٠٤٢٩٩٠٤٣٠٣
٣١٥٠٤٣١٩٠٤٣٣٤٠٤٣٣٩٠٤٣٣٩
٣٤٢٠٤٣٤٤
شبه الجزيرة = بلاد العرب
الشرق الأقصى : ١٧٧٠٤١٥٥

شطا : ١٣٩
الشعر : ٦
شوشان = السوس
شيراز : ٤٩

(ص)

صان الحجر : ٩٣
صحراء لوبيا : ١٦٢٠٤١١١
الصعيد : ١١٦٠٤١٣٨٠٤١٤١٠٤١٥٩
١٧١
الصفاء : ٨٣٠٤٨٧٠٤٢٤٨
صفين : ٨٢
صنعاء : ٢٤٧٠٤٢٢١
صوونا : ١٢٩
الصين : ٥٢٠٤٥٤٠٤٥٦٠٤٥٧٣٠٤٢٠٠
٢١١٠٤٣٣٤

(ط)

الطائف : ٢٠١٠٤٢٢١٠٤٢٣٧٠٤٢٤٨
طبرستان : ١٩٠٤٣٤٠٤٤٣٠٤٤٤
الطبيين : ٥٣
طخريستان : ٥٤
طرابلس : ١٦١٠٤١٦٣
طرنوط — الطرانة : ١٢٨٠٤١٢٩
طهرات : ٤٢
طوخ : ١٣٨
الطور : ٦٩
طيبة : ١٢٢٠٤١٥٩٠٤٢٥٦

(ع)

عانات : ٩٣
العابية : ١٠٨
العراق : ١٠٠٤٢٠٤١٨٠٤٢٠٤٢٢
٢٣٠٤٢٦٠٤٢٦٤ — ٢٢٠٤٥٥٠٤٤٦٠٤٢٣
٦٧٠٤٧٢٠٤٩٥٠٤١٢٢٠٤١٢٧
١٤٨٠٤١٧٥٠٤١٨٠٤١٩٨٠٤٢٠٠
٢٠٧٠٤٢٠٩٠٤٢١١٠٤٢٢٧٠٤٢٢٧
٢٢٨٠٤٢٣٠٤٢٣٢٠٤٢٣٤٠٤٢٣٦
٢٣٨٠٤٢٣٨ — ٢٣٦٠٤٢٣٤
٢٤١٠٤٢٥٦٠٤٢٥٨٠٤٢٦٤٠٤٢٦٤
٢٨٨٠٤٢٩٦ — ٢٩٩٠٤٣٠٣
٣١٥٠٤٣١٩٠٤٣٣٤٠٤٣٣٩
٣٤٤٠٤٣٤٤
العراق العجى : ١٤٠٤٢٥٠٤٣٤٠٤٣٧٠٤٣٧
٤٤٥٠٤٤٦٠٤٥٢٠٤٥٣
العراق العربى : ٢٠٠٤٢٠٤٤٠٤٦٠٤٧٠٤١٤٠٤٢٠

فاشان : ٣٨ -	٢٣ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٢٣ ، ٢١
القاهرة : ١٠١	عرفة : ٣٠٨
قبر المسيح : ١٤١ -	النريش : ٨٩ ، ٩٠ - ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٦ ،
قبر النبي دانيال : ١٤	١٦٠ ، ١٤٢
قبة أرسطو = مدرسة أرسطو	عسفان : ٢٣٤
قديد : ٢٤٨ ، ٢٣٤	العسكر : ١٧١
قرطاجنة : ١٢٦	المقبة : ٣٠٨
قسطنطينية : ١٠٤ ، ٩٧ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٦ ، ٣٤ ،	العقيق : ١٠٧
١٢٤ ، ١١٧ - ١٢٦ ، ١٤٤ ،	عمان : ٨٥ ، ٧٢
١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٩٧ ، ٢١٣ ، ٣٣٧ ،	عمواس : ٨١ ، ٦٤
القصاصين : ٩٨	عمود دقلديانوس = عمود السواري
قصر سعد - بالكوفة : ٢١٣	عمود السواري : ١٥٠ ، ١٣٦ ،
قصر الشمع = بابليون	عين شمس : ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ - ١٠٩ ،
قصر فاروس : ١٣٦ ، ١٣٧	١٣٩ ، ١٣٥ ، ١١٢
الفصير : ٦٦	(ف)
قفط : ٦٦	فارس : ٣ ، ١١ ، ١٤ ، ١٨ - ٢٤ ، ٣١ ،
قم : ٣٨ ، ٦	٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ - ٣٧ ، ٤٣ ،
القناطر الخيرية : ٩٣	٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ - ٥٨ ،
قنال السويس : ١٧٧	٦١ - ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ١١١ ، ٢٠٦ ،
الفندهار : ٥٢	٢٢٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٢ ،
قنسرين : ٢٣٤ ، ٢٥٦ ، ٣١٢	٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٣٤ ،
الفطرة : ٩٨	٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
قوس : ٧٧ ، ٩٤	فدك : ٢٠٤
القوقاز : ٧٦	فاسيس : ٧٦
قومن : ٤٢ ، ٤٣	القتلي - فرع دمياط : ٩٢
قيساوية : ٦٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٢٦٥	القرات : ٦٦
القيصريون : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٨٨	فرع دمياط : ٩٢ ، ٩٣
(ك)	فرع رشيد : ٩٢ ، ١٠٩ ، ١٣٠
الكاتبول : ١٥١	فرغانة : ٥٧
الكانوبي - فرع النيل : ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ،	الفرما : ٩٢ - ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ،
كربلاء : ٦٠	١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٣١ ،
سكرمان : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٦ ،	فسا : ٤٩ ، ٥٠
٤٩ ، ٥١ - ٥٣	القساط : ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٣٩ ، ١٧٠ ،
الكرنك : ٦٦ ، ١٢٢ ، ١٥٠	١٧١ ، ٢٦٤
كربون : ١٣٠ - ١٣٨ ، ١٤٤	فلسطين : ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ،
ككر : ٢٣	٨١ ، ٨٢ ، ٩١ - ٩٣ ، ٩٧ ،
الكعبة : ٦٨ ، ٨٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،	٩٨ ، ١٦٢
٢٥٨ ، ٣٠٨	الفيوم : ٧٨ - ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،
كنيسة أبي يحس : ١٥٧	١١٢ ، ١٣٨ ، ١٣٩
كنيسة الذهب : ١٣٧	(ق)
كنيسة سان مارك = كنيسة القديس مرقس	القادسية : ٢ ، ٤ ، ١١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ،
كنيسة القديس مرقس : ١٣٥ ، ١٤٨ ،	٣٤ ، ٣٩ ، ٥٧ ، ١٣٤ ، ١٨٠ ،
كنيسة القيامة : ٢٠٦	٢٩٦ ، ٢٦٥ ،

٤٣٠٩، ٣٠٧، ٣٠٥، ٣٠٤، ٢٩٩
٣٢٨، ٤٢٤ — ٣٢١، ٣١٣
نمارة الإسكندرية : ١٥٢
مرو الإسخندرية : ١٨٥
مرو الروذ : ٥٣ — ٥٧
مرو الشاهجان : ١٩، ١٦، ٣٣، ٥٤، ٥٤، ٥٦
المروة : ٨٣، ٢٤٨
مربوط : ٩٣
المسجد (مسجد المذنية) : ١٥، ٢٢، ٣٠
٢٠٥، ٢٨٠، ٢١٣، ٢٠٩، ١٥٦
— ٣١٩، ٣١٠، ٣٠٨ —
٣٣٠ — ٣٢٨
مسجد إصطخر : ٤٨
المسجد الأقصى : ٢٠٦
مسجد عمرو : ١٧٠
مسجد السكوفة : ٣١
مسلة الإسكندرية : ١٣٥، ١٢٩، ١٥١
— ٨٧، ٨٣ — ٦١، ٣٦، ١٨، ١
١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٢،
١١٤، ١١٦ — ١٢٧، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١،
١٣٥، ١٣٧، ١٣٩ — ١٤٣، ١٤٥،
١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٤ — ١٥٩،
١٦١ — ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧ —
١٨٩، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧،
١٩٨، ٢١١، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٤،
٢٢٨، ٢٣٦ — ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٥٦،
٢٥٨، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٩٤،
٣٠٣، ٣١٩، ٣٣٤ — ٣٣٦، ٣٣٩،
٣٤٢ — ٣٤٤، ٣٤٦
مصر السفلى . ٨٠، ٩٢، ٩٤، ١٧١،
١٧٥، ١٩٨
مصر القديمة : ٩٠٩، ٩٠٨، ٩١٠،
٩١١، ٩١٤
مصر الوسطى . ٨٠، ١٣٨ —
٣٤٩، مطبعة مصر .
المطرية : ١٠٨
معبد السرايوم = السرايوم
معبد سيرايس : ١٨٨
معبد فتاح : ١٢٢
معبد قصر = القصر يون
مفار بنى وائل : ١٠٨، ١٠٩
المغرب : ١٦٢، ١٦٢
مقبرة الإسكندرية : ١٤٨
المقلى : ١٣٧

[illegible]

نهر مكران : ٥١
التوبة : ٧٣، ٧٨، ١٥٥، ١٦١، ١٦٢، ١٦٨، ٣٣٤، ٢٠٠، ١٨٢، ١٦٨
نيسابور : ٤٣، ٥٣
النيل : ٦٦، ٧٣، ٨٠، ٩٢، ٩٣، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥ —
١٠٧، ١٠٩ — ١١٣، ١١٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٤٦، ١٥١ —
١٧٠، ١٧٦، ١٧٩، ١٨١ — ١٩٢، ١٨٤

(هـ)

هراة : ٥٣، ٥٤
هرمزشير = الأهواز
هليوبوليس : ١٠٠، ١٠٥، ١٠٨
همنان : ١٩، ٢١، ٢٥، ٢٩، ٣٢، ٣٤
٣٧، ٣٩ — ٤١، ٤٥
الهند : ٥٣، ٦٦، ٧٣، ١٧٧
هيت : ٩٣
الهيئة ستاد يوم : ١٥٢
هيكل سليمان : ٣٤

(و)

واج روذ : ٤٠، ٤١، ٤٤
وادي النيل : ٦٢، ٦٨، ١١٧
الولايات الأمريكية : ٢٠٧
الولايات السويسرية : ٢٠٧

(ي)

يثرب = المدينة
اليومك : ١٣٣، ١٣٤
اليماة : ١٣٣، ٢٨٠
الين : ٢٢، ٦٦، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٢٣٤
٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٧٨، ٣٤٤
ينبع : ٢٤٧
اليهودية : ٣٧

مكتبة الإسكندرية : ١٥١، ١٨٥ — ١٨٧، ١٩٢، ١٩١، ١٨٩
مكتبة برجاموس : ١٨٨
مكتبة البروكيون : ١٨٨
مكتبة البطالسة : ١٨٥، ١٨٧ — ١٨٩
مكتبة السرايوم : ١٨٨
مكرات : ٤٦، ٥١، ٣٣
مكة : ٦٦ — ٦٨، ٨٤، ٨٣، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٩ —
٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٦ — ٢٤٨، ٢٦٦، ٢٧٥، ٣٠٤، ٣٠٥

مناذر : ٤ — ٦

منارة الإسكندرية : ٧٣، ١٣٦، ١٥١ — ١٥٣
المنديزي — فرع النيل : ٩٣
منف : ٩٨، ١٠١، ١٠٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٧٠، ١٧١، ٢٥٦
منوف : ١٠٩، ١١٠، ١٢٨، ١٣٨
مني : ٣٠٤، ٣٠٨
مهرجان قذف : ٣٢
موسكو : ٣٠٢
مولان : ٤٥
ميت غمر : ٩٣
ميسديا : ١٤
ميسات : ٤، ٥، ٥

(ن)

نجد : ٢٤٠
نجران : ٢٠٤
نخلة : ٢٤٨
نقيوس : ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٨، ١٣٨ — ١٩٨، ١٣٠
نهاوند : ١٩ — ٢١، ٢٣، ٢٥ — ٢٧، ٢٩، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٥٣
١١٩، ١٣٤، ٢٦٥، ٣٠٦
نهر تستر : ٩
نهر تيرى : ٤، ٥
نهر دجيل : ٢، ٥، ٩، ١٠
نهر كارون : ٢، ١٣

فهرس الأمم والقبائل

بنو عبد شمس : ٨٧
بنو عبد مناف : ٣٢٨
بنو العجلان : ٢٦٨
بنو عدى : ٣١٦ ، ٢٣١ ، ٨٧
بنو غسان : ٣٣٤ ، ٢٠٠ ، ٧١ ، ٦٣ ، ١
بنو قريظة : ٢٧٨ ، ١٠٧
بنو معاوية : ٣٠٨
بنو النجار : ٢٤١
بنو النضير : ١٠٧
بنو هاشم : ٢١٠ — ٢١٢ ، ٢٣١ ، ٢٦٠
٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣١٢ ، ٣٢٥
٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
بنو هلال : ٢٦٤ ، ٢

(ت)

التار : ٥٥
الترك : ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٥ — ٢١١ ، ٥٨
٣٤٧ ، ٣٣٧

(ث)

ثقيف : ٢٤٨

(ج)

جرهم : ٦٧

(ح)

حجير : ٢٣٤ ، ٢٤٧

(خ)

خزاعة : ٢٣٤

الخزرج : ٢٢١ ، ٢٤١ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥ ، ٢٩٦

(د)

الديلم : ٤١ ، ٤٠

(ر)

الروافيون : ٧٦

الروم : ١ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٠ — ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٩٠ — ٩٥ ، ٩٧ — ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ — ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢٤ — ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ — ١٧٩

(١)

آل بهرام : ٤٢

آل عمر : ٢٣٤ ، ٣١٦ ، ٣٣١

آل فرعون : ١٧٦ ، ٦٩

الأيثوريون : ٧٦

الأحزاب : ١٠٧

الأرمن : ٤٤

الإغريق : ٣٦ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٣٣٨

الأكاسرة : ١٤ ، ٣٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٢٣٧

الأكراد : ٥

أكراد فارس : ٤٩

الأكمينيون : ٤٧

الألمان : ٢٤٧

الإنجليز : ٢٤٧

الألصار : ٣ ، ١٤٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩

٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢

٣٣٠ ، ٣١٦ ، ٣١٤ —

الأنوبيسيون : ١٢٧

(ب)

الباليون : ١١٢

البربر : ١٦٢

البطالسة : ٧٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٢٠ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨

بلى : ١٤٠

بنو أبي ميط : ٣١٣

بنو إسرائيل = اليهود

بنو أمية : ٤٢ ، ٦٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ —

بنو تميم : ٣٠٥

بنو تميم : ٢٣١

بنو ساسان : ٣٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ١٢٠

بنو ساسم : ٨٦ ، ٨٧

بنو العباس : ٤٢ ، ٦٠ ، ١٩٠ ، ٢٦٥ ، ٣٢٥ ، ٣٤٧

١٦٢١، ١٢٠، ١١٦، ١١٢، ٩٨
١٥٦، ١٤٣، ١٣١، ١٢٨، ١٢٧
١٦٧، ١٦٥ — ١٦٣، ١٥٩ —
١٧٦، ١٧٥، ١٧٣ — ١٧٠
١٨٦، ١٨٢، ١٨١، ١٧٩، ١٧٨
٢٣٦

فط القوما : ٩٤

قربش : ٨٦، ٨٤، ٨٣، ٢٠٩، ٨٨ —
٢٢٩، ٢٢٥، ٢١٤، ٢١٢، ٢١١
٢١٦، ١٧٠، ٢٥٤، ٢٤٨، ٢٤١
٣٣٠، ٣٢٧، ٣٢٥

قضاة : ٨٦

القياصرة : ٢٣٧

قيس : ٢٣٢

(ك)

كلب : ٢٤٧

السكنة المصريون : ١٨٣

(ل)

اللاتين : ١٨٣

لحم : ٦٣، ٢٠٠

لوانة : ٥٦٢

(م)

مدحج : ٢٤٨

مزينة : ٢٩٣

المستشرقون : ١٨٥

المسيحيون : ١٧٦، ١٥١، ١٥٠، ١٧٦، ٧٠

١٨٢، ١٨٦ — ١٨٨، ٢٠٤

٢٠٥، ٢٠٦، ٢٨٨، ٢٨٢

المصريون : ٦٢، ٦٦، ٦٩، ٧٢، ٧٣

٧٦، ٧٧، ٧٩ — ٩٤، ٨١

١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٠٨، ١٢٠

١٢١، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٤، ١٣١

١٤٨، ١٥٠، ١٥٨ — ١٦٠، ١٦٦

١٦٤، ١٧٠، ١٧١ — ١٧٦

١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٣، ١٩٢

١٩٥، ٢٧٢، ٢٣٤، ٢٣٣

٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤٥

المنول : ٥٥

مفلة : ١٦٢

المسكانيون : ٧٧، ١٢٧، ١٦٩، ١٧٢

١٧٣

المنوفسيون : ١٦٩، ١٧٢

المهاجرون : ٣، ٨٥، ٢٠٧ — ٢٠٩، ٢٢١

١٨٦، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨

٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦ —

٢٠٨، ٢١١، ٢٢١، ٢٣٠، ٢٣٦

٢٣٨، ٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦٠

٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٩

٢٨٣، ٣٠١، ٣١٢، ٣١٨، ٣٢٢

٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٣

٣٤٤

الرومان : ٧٤، ٧٩، ٩٦، ١٠٧، ١٢٠

١٤٨، ١٧٨، ١٨١، ١٨٣

(ز)

زبيد : ٢٤١

زنانة : ١٦٢

(ش)

الشيعة : ١٨٦، ٢٤١

(ع)

العجم = الفرس

(غ)

غافق : ١٤٠

(ف)

القرعنة : ٧٥، ٧٩، ١٠١، ١٠٦، ١٢٢

١٢٣، ١٢٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦

١٨١، ١٨٣، ١٩٣، ١٩٥

الفرس : ١، ٢، ٤، ١١، ١٣ — ١٥

١٧، ٢٩، ٣٢، ٣٨، ٤٠، ٤٢

٤٤، ٤٦، ٥٠، ٥٣، ٥٥

٥٧، ٦٠، ٦٢ — ٦٤، ٧٠

٧٣، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٨٥

٩٢، ٩٤، ٩٥، ١٢٢، ١٧٦

١٩٠، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣

٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢٢١، ٢٢٣

٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٨

٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٢

٢٦٣، ٢٧٣، ٢٨٣، ٣٠١، ٣١٢

٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٣١ —

٣٣٤، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤٣ —

٣٤٥، ٣٤٧

الفرنسيون : ٢٤٧

القيبيون : ٧٣

(ق)

القيج : ٤٤

القرط : ٧١، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٩٤، ٩٥

فهرس الأسم والقبايل

٣٦٦

(و)	٢٨١، ٢٧٩، ٢٧٠، ٢٣٢، ٢٢٩
الوثيون : ١٨٨	٣٣٠، ٣٢٤، ٣١٤، ٣١٢، ٢٩٦
(ى)	(ن)
العاقة : ٧٧	مهرة : ١٤٠
يعرب بن قحطان : ٦٧	النصارى = المسيحيون
اليهود : ٦٨ — ٧٠، ٨٠، ١٦٧، ١٧٦، ٢٢١، ٢٠٥، ٢٠٤، ١٨٧، ١٧٨	نصارى الحيرة : ٣٢٣
٣٢٢، ٣٠٩، ٢٨٢، ٢٧٥	نصارى نجران : ٢٠٤، ٢٨٢
يهود المدينة : ١٩٤، ٢٤٦	(هـ)
اليونان : ٣٦، ٧٣، ٨٠، ١٠٧، ١٥٠	هذيل بن مدركة : ٢٤٧
٢٥٨، ١٩٠	المجسوس : ٦٧، ٦٨
	همدان : ٢٤٧
	عواراة : ١٦٢

فهرس الأيام والغزوات والوقائع

غزوة اليمامة : ٢٨٠	(ح)
(ف)	حلف الفضول : ٢٤٦
فتح أذربيجان : ٦١	(ع)
فتح الإسكندرية : ١٢٤	عام الرمادة : ٢١٠، ٢١٢، ٣٠٤
فتح أسبهان : ٦١	عام الطاعون : ٨١، ١٩٠، ٢٩٥
فتح إيران : ٦١	عام الفجار : ٣٠٤
فتح جرجان : ٦١	عام القيل : ٢٠٦
فتح خراسان : ٦١	عمرة القضاء : ٨٣
فتح الري : ٦١	عهد الحديبية : ٨٣، ٢٣٧، ٢٧٧
فتح سجستان : ٦١	(غ)
فتح طبرستان : ٦١	غزوة أحد : ٢٧٧
فتح قارس : ١، ٦١	غزوة الأحزاب (الحنق) : ٨٣، ١٠٧، ٢٤٦
فتح كرمان : ٦١	غزوة بدر : ٢٣٢، ٢٥٤
فتح المدائن : ١٤٦	غزوة تبوك : ٢٧٦
فتح مصر : ٦٢، ٩٢	غزوة الجسر : ٤٠
فتح مكران : ٦١	غزوة ذات السلاسل : ٨٤، ٨٥
فتح مكة : ١٠٧	غزوة القادسية : ٦١، ١٤٦
فتح همدان : ٦١	غزوة نهاوند : ١٩٠، ٦١، ١٤٦
(ى)	غزوة اليرموك : ٣٣٥
يوم بعاث : ٢٦٠	

سجل المراجع

المراجع العربية

- صحيح البخارى : لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخارى الجعفى
تفصيل آيات القرآن الكريم : للأستاذ محمد فوزاد عبد الباقي ؛ على نظام المستشرق جول لا يوم .
سيرة سيدنا محمد رسول الله : لأبى محمد عبد الملك بن هشام .
- جامع البيان فى تفسير القرآن : { لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .
تاريخ الرسل والملوك : { لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .
- الكامل فى التاريخ : لعز الدين أبى الحسين على بن أبى الكرم محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير .
البداية والنهاية فى التاريخ : لعاد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى .
- تاريخ ابن خلدون : { لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون .
مقدمة ابن خلدون : { لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون .
- فتوح البلدان : لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى .
تاريخ يعقوبى : لأحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسى .
مروج الذهب ومعادن الجواهر : لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى .
- الإمامة والسياسة : { لأبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى .
عيون الأخبار : { لأبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى .
كتاب المعارف : { لأبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى .
- الطبقات الكبير : لمحمد بن سعد كاتب الواقيدى .
وفيات الأعيان : لابن خلكان ، شمس الدين أبى العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى .
تاريخ دمشق : لابن عساكر ، أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله .
الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية : للسيد أحمد بن السيد زنبى دحلان .
فتوح الشام : لأبى عبد الله محمد بن عمر المعروف بالواقيدى .
فتوح الشام : لأبى إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصرى .
فتوح مصر وأخبارها : لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى .
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى .
النجوم الزاهرة . فى ملوك مصر والقاهرة ، لأبى المحاسن يوسف بن تترى بردى .
فتح العرب لمصر : لألفرد بتلر ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد .
نجر الإسلام : للأستاذ أحمد أمين بك .
أشهر مشاهير الإسلام : للسيد رفيق العظم بك .
الإدارة الإسلامية فى عز العرب : لمحمد كرد على .
عمرو بن العاص : { للأستاذ عباس محمود العقاد .
عيسرية عمر : { للأستاذ عباس محمود العقاد .



- خلفاء محمد : للأستاذ عمر أبي النصر .
 تاريخ التشريع الإسلامي : للشيخ محمد الحصري .
 كتاب الخراج : لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ، صاحب أبي حنيفة .
 القضاء في الإسلام : للأستاذ عطية مصطفى مشرفة .
 من تاريخ الحركات العسكرية في الإسلام : لبندلي جوزي .
 الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين القرشي الأموي .
 الفخرى جبر الآداب السلطانية : لابن طباطبا محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي .
 العقد الفردي : لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه .
 قاموس الأمانة والبقاع التي يردد ذكرها في كتب الفتوح : لعلي بك بهجت .
 دائرة معارف القرن العشرين .

Annals of the Early Caliphate,
 The Early Caliphate

by Sir William Muir.
 by Maulana Mohammad
 Ali.

Th Early Development of Mohammedanism.
 History of the Arabians,
 Arabia Before Mohammad,
 History of the Decline and Fall of the
 Roman Empire ,
 Le Berceau de L' Islam,
 Le Monde Musulman et Byzantin,
 Essai sur l'Histoire des Arabes.
 l'Historire des Arabes,
 Privilèges et Immunttés des Etrangers en
 Egypte,

by D. S. Margoliouth.
 by Abbè de Merigny.
 by O'Leary.
 by Edward Gibbon.
 par Lammens.
 par Gaudfroy-Demombynes.
 par Caussin de Perceval.
 par Huart.
 par M. B. Barakat.

Historian's History of the World.
 The March of Man.
 Encyclopaedia Britannica.
 Dictionnaire Larousse.

القاهرة
 مطبعة السنة المحمدية
 ١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين
 ت ٩٠٦٠١٧
 ١٩٦٤

